



DS

223

H34+

u. 4

CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY



Interlibrary Loan
DATE DUE

MAY 25 1982 E

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY



3 1924 091 771 588

VAR-2520.

(vol. 4)

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

للمجلد الرابع

العصر العباسي الثاني

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس

٤٤٧ - ٦٥٦ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط سابقاً ، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعة
بنسلفينيا وكاليفورنيا والرباط سابقاً
وأستاذ التاريخ الإسلامي بمعهد الدراسات الإسلامية العليا
جامعة بغداد

الطبعة الأولى ١٩٦٨

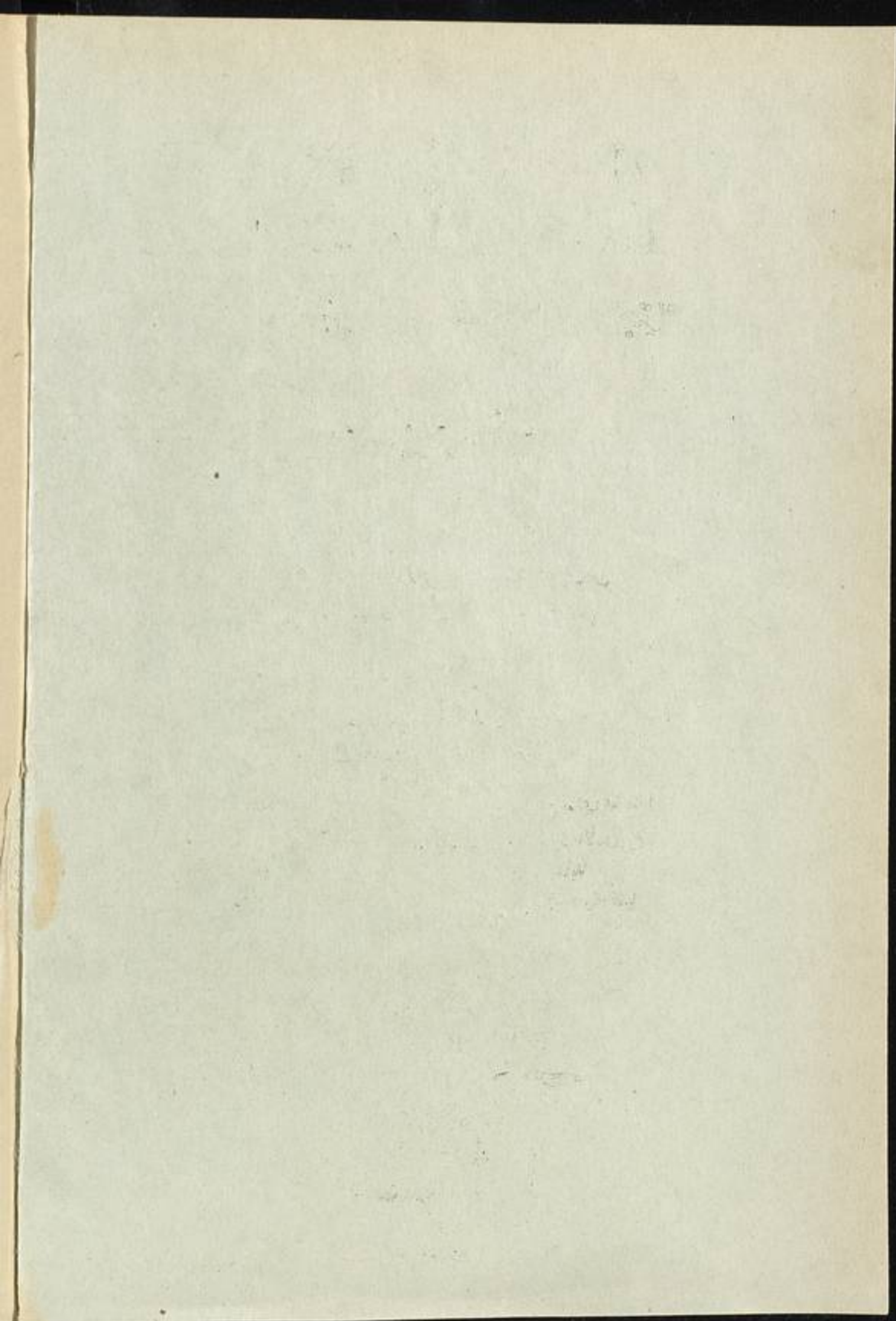


ملتزم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة



تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الرابع

العصر العباسي الثاني

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس

٤٤٧ - ٦٥٦ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨

تأليف

الدكتور حسن إبراهيم حسن

مدير جامعة أسيوط ، وأستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة
وأستاذ الدراسات الإسلامية وتاريخ الشرق الأدنى بجامعة
بوسلفينيا وكاليفورنيا والرباط سابقا
وأستاذ التاريخ الإسلامي بمعهد الدراسات الإسلامية العليا
جامعة بغداد

الطبعة الأولى ١٩٦٧



مقدم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأنصارها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

13879776

55

5

V P/C

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير - عابدين
٩٠٦٠١٧ ©

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

يسرني أن أقدم إلى قراء العربية الطبعة الأولى من الجزء الرابع من كتابي «تاريخ الإسلام: السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» الذي طالما انتظروه القراء الكرام عقب ظهور الطبعة الأولى من الجزء الثالث من هذا الكتاب سنة ١٩٤٥ .

ويتناول هذا الجزء تاريخ الإسلام في مدة قرنين وتسع سنين (٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) ، ويبدأ من السنة التي قبض فيها السلاجقة على أزمة الحكم في الدولة العباسية إلى أن زالت الخلافة العباسية من بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وكان لهذا العصر ، على الرغم من ضعف الخلافة العباسية ميزاته ومظاهر حضارته . فقد ظهرت فيه دول كثيرة كان لها أثر كبير في تقدم الحضارة الإسلامية . ذلك أن بغداد ، بعد أن كانت مركزاً لهذه الحضارة ، ظهرت إلى جانبها مراكز أخرى مثل القاهرة وبخارى وغزنة ومراكش ، ازدهرت فيها الحضارة والعلوم والآداب ، وذلك بفضل تشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء رجال العلم والآداب ، وبفضل اتساع أفق الفكر الإسلامي وذوب العنصرين ورقي المجتمع الإسلامي .

وقد قسمت هذا الجزء إلى اثني عشر باباً ، يبحث في الباب الأول منها الدولة السلجوقية من ظهور طغرل بك إلى وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ . وتسلط في الباب الثاني على عصر سنجر السلجوقي وإخوته (٤٨٥ — ٥٥٢ هـ) ، فيبين مميزات هذا العصر ، ولا سيما في عهد سلطنة بركياروق ومسعود وسنجر الذي انتهى بموته سنة ٥٥٢ هـ عصر السلاجقة العظام . وعالج في الباب الثالث الدول المستقلة التابعة للخلافة العباسية كدول الأتابكة في دمشق والموصل وحلب والجزيرة وديار بكر وكرمان والموصل وغيرها . كما تسلمت على دولة خوارزم والدولة المرابطية في المغرب والأندلس والدولة الأيوبية في مصر .

ويبحث في الباب الرابع غزوات المغول وسقوط بغداد على أيديهم في سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وزوال الخلافة العباسية التي عاش العالم الإسلامي في ظلها زهاء خمسة قرون . ويبحث في الباب الخامس الدول الإسلامية المستقلة غير التابعة لحكم العباسيين ، كال دولة الغورية ، والدولة الفاطمية في عصرها الأخير ، والدولة الصليحية في اليمن ، والدولة الموحدية في المغرب والأندلس .

وبحث في الباب السادس العلاقات الداخلية ، كعلاقة العباسيين والفاطميين بالبيزنطيين ، وعلاقة العباسيين بالفاطميين ، وعلاقة الفاطميين بالمغرب وصقلية ، وعلاقة الفاطميين والعباسيين باليمن ، وأخيراً بحثت علاقة المسلمين بالصليبيين ، فبينت العوامل التي أدت إلى قيام الحروب الصليبية ، ودعوة المسيحيين إلى هذه الحروب ، وما تبع ذلك من تنظيم الحملات الصليبية على البلاد الإسلامية ، وأخيراً بحثت العوامل التي أدت إلى انتهاء الحروب الصليبية من المشرق وانتصار المسلمين عليهم ، وما كان لهذه الحروب من أثر في الكنيسة وفي كرسى البابوية ، وما كان من تأثيرها في الحياة الداخلية والاقتصادية عند ملوك أوروبا ، وفي العلاقات الخارجية بين الدول المختلفة ، وفي علاقات القارة الآسيوية بأوروبا ، وما تبع ذلك من اكتشاف الأراضي الجديدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر .

وقد بحثت في الباب السابع الحركات السياسية والدينية واتجاهاتها المختلفة ، وما كان لها من أثر في السياسة والدين والآداب والاجتماع وغير ذلك ، فتناولت الكلام على طائفتي القرامطة والدرزية ، ثم على طائفة النصيرية ، ثم على طائفتي النزارية في فارس والشام ، والطيبية في اليمن ، ثم على الدعوة المراتبية ، وأخيراً على الدعوة الموحدية .

وقد عرضت في الباب الثامن لنظم الحكم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية ، فتسكمت على الخلافة عند الفقهاء والفلاسفة والأخلاقين ثم على كل من هذه النظم . ثم عرضت في الباب التاسع للحالة الاقتصادية ، مبيناً ما بلغه المسلمون من تقدم في مضمار الزراعة والصناعة وما كان من اهتمام الخلفاء والسلاطين بتيسير الطرق البرية والبحرية التي كان لها أثر بعيد في تقدم فن الملاحة ، وأصبح كثير من المدن الإسلامية مراكز تجارية هامة بين الشرق والغرب وزخرت أسواقها بمختلف السلع .

وفي الباب العاشر ألممت بحالة الثقافة ، فتناولت مراكز الثقافة ومعاهدها كالمسجد والزاوية والكتاب والمدرسة والمارستان وبيت الحكمة والمسكنة وديوان الإنشاء والرباط ، ثم بحثت أنواع العلوم كعلوم التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام وعلم اللغة والآداب من نظم ونثر ، فتسكمت على أمراء الشعر في العصر العباسي الأخير وفي مصر واليمن والمغرب والأندلس ، كالطغرائي وعمارة النيني والبهاء زهير وابن زيدون وابن عمار ، كما تسكمت على الشعر الفني كالزجل والموشحات ، ثم تناولت أمراء النثر كأبي القاسم الحريري صاحب المقامات المشهورة ، والقاضي الفاضل والفتح بن خاقان . ثم بحثت أنواع العلوم العقلية وما كان من اهتمام الخلفاء والسلاطين والأمراء بالطب والفلك وعلم النجوم والرياضيات والفلسفة والتاريخ والجغرافيا .

وفي الباب الحادى عشر تكلمت على الفن فى المشرق ومصر والمغرب والأندلس من تخطيط المدن كراكش والرباط وقرطبة والقاهرة ، والمنشآت المعمارية من قصور وحمامات ومدارس ، والمنشآت الحربية كالأسوار ، والمنشآت الدينية التى تتمثل فى المساجد كجامع الأزهر فى القاهرة ، وجامع القرويين بفاس ، ومسجد الكتبية بمراكش ، ومسجد ومنارة حسان بالرباط .

وأخيراً تناولت فى الباب الثانى عشر الحياة الاجتماعية فى العالم الإسلامى فى هذه الحقبة ، فبحثت فى طبقات المجتمع ، ومجالس الغناء والطرب ، وقصور الخلفاء والأمراء ودور العامة ، والملابس والطعام واللباس ، والأعياد والمواسم والمواكب والحفلات ، وأوقات الفراغ ، وبينت ما كان للبراءة من أثر فى المجتمع الإسلامى .

وقد سرت فى هذا الجزء على النهج الذى سرت عليه فى الأجزاء الثلاثة السابقة من هذا الكتاب ، فبحثت هذا العصر من نواحيه المختلفة : سياسية ودينية وثقافية واجتماعية ، ليسهل على القارئ الإلمام بتاريخ هذا العصر الحافل بالأحداث الهامة ومظاهر الحضارة الإسلامية .

ويجد القارئ فى الهوامش وفى آخر الكتاب تنبيهاً على المصادر لمن أراد التوسع فى بحث مسألة من المسائل التاريخية التى لم يسمح المجال بالتوسع فيها . كما ذيلت الكتاب بثبت ذكرت فيه المصادر التى اعتمدت عليها مرتبة بحسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، عربية وإفريقية ، وذيلته بفهرس شامل لأسماء الأعلام من الرجال والنساء والأماكن والحوادث التاريخية الهامة .

وأرجو أن أكون بهذا قد حققت ما ينفشه القارئ من معلومات فى الموضوعات التى تناولتها بالبحث فى هذا الجزء .

وأخيراً أعتذر للقارئ عن وقوع بعض أخطاء مطبعية نتجت عن طبع هذا الجزء أثناء وجودى ببغداد مما استدعى إعادة طبع بعض الملازم . ويرى القارئ قائمة بالتصويبات التى لا يخفى معظمها على فطنة القارئ رجاء الرجوع إليها .

محتويات الكتاب

صفحة

ج	مقدمة الكتاب
و	محتويات الكتاب

الباب الأول

العصر السلاجوقي الأول

من ظهور طغرل بك إلى وفاة ملكشاه

٤٢٩ — ٤٨٥ / ١٠٣٨ — ١٠٩٢

١	(١) ظهور السلاجقة
٣	نسب سلاطين السلاجقة في العراق
٤	(٢) طغرل بك
٦	البيت العباسي
٨	تسلسل نسب الخلفاء العباسيين
١١	ثورة البساسيري
١٩	أخلاق طغرل بك وصفاته
٢٠	(٣) ألب أرسلان
٢٣	وفاة ألب أرسلان — صفاته
٢٥	(٤) ملكشاه
٣٠	(٥) الوزير نظام الملك

الباب الثاني

عصر سنجر وإخوته

٤٨٥ — ٥٥٢ / ١٠٩٢ — ١١٥٧

٣٤	(١) مميزات هذا العصر
٣٦	(٢) محمود بن ملكشاه

صفحة

٣٨	(٣) بركياروق بن ملكشاه
٤٣	(٤) محمد بن ملكشاه
٤٥	صفات محمد بن ملكشاه وأخلاقه — وفاته
٤٦	(٥) محمود بن محمد بن ملكشاه
٥٠	صفات محمود وأخلاقه — صفاته
٥٢	(٦) مسعود بن محمد بن ملكشاه
٥٨	(٧) نهاية عصر السلاجقة العظام

الباب الثالث

الدول المستقلة التابعة للخلافة العباسية

أولا — دول الأتابكة :

٦٠	من هم الأتابكة ؟
٦٢	(١) أتابكية دمشق
٦٥	بيت زنكي
٦٦	(٢) أتابكية الموصل
٦٧	(١) آقسنقر
٦٨	(ب) عماد الدين زنكي
٧٠	(ح) علاقة عماد الدين زنكي بالخلافة والسلطنة
٧٦	(٣) أتابكية حلب
٧٧	(٤) أتابكية سنجار
٧٩	(٥) أتابكية الجزيرة
٧٩	(٦) أتابكية إربل
٨٠	(٧) أتابكية ديار بكر
٨٢	(٨) بيت أرتق في كيفا
٨٤	(٩) شاهات أرمينية
٨٦	(١٠) أتابكية أذربيجان
٨٧	(١١) سلاجقة كرمان

صفحة

١٢	(١٢) سلاجقة سورية	٨٨
١٣	(١٣) سلاجقة العراق وكرديستان	٨٨
١٤	(١٤) سلاجقة الروم	٨٩
١٥	(١٥) السلاجقة الدانشمندية	٩٠
١٦	(١٦) أتابكية كرمات	٩١
١٧	(١٧) أتابكية فارس	٩٣
١٨	(١٨) أتابكية لورستان	٩٤
٩٤	ثانياً — دولة خوارزم ٤٧٠ — ٦٢٨ / ١١٧٧ — ١٢٣١	٩٤
٩٨	خوارزمشاه علاء الدين محمد ٥٩٦ — ٦١٧ هـ	٩٨
١٠٢	جلال الدين منكبرتي	١٠٢
١٢٥٠ — ١١٧١ / ٦٤٨ — ٥٦٧	ثالثاً — الدولة الأيوبية	
١٠٤	صلاح الدين الأيوبي (تسلسل نسب الأيوبيين ١٠٦)	١٠٤
١١٣	خلفاء صلاح الدين	١١٣
١١٤٧ — ١٠٥٦ / ٥٤١ — ٤٤٨	رابعاً — الدولة المرابطية	
١١٥	(١) قيام الدولة المرابطية (تسلسل نسب المرابطين ١١٧)	١١٥
١١٨	(٢) يوسف بن تاشفين	١١٨
١١٩	(٣) موقعة الزلاقة	١١٩
١٢٢	(٤) بعد موقعة الزلاقة	١٢٢
١٢٥	(٥) علي بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ — ٥٣٧ هـ	١٢٥
١٢٩	(٦) نهاية الدولة المرابطية	١٢٩

الباب الرابع

غزوات المغول — سقوط بغداد

١٣٠	(١) معنى تتر ومغول	١٣٠
١٣٢	(٢) حالة المغول قبل ظهور چنكيزخان	١٣٢
١٣٤	(٣) حالة البلاد الإسلامية في أوائل القرن السابع الهجري	١٣٤
	(٤) چنكيزخان	

صفحة

١٣٦	(١) البساق
	(ب) غزوات چنكيزخان
١٣٩	(١) رأى المؤرخين فى غزوات چنكيزخان
١٤١	(٢) غزو التتار بلاد خوارزم
١٤٧	(٥) وفاة چنكيزخان
١٤٩ — ١٤٨	تسلسل نسب المغول
	امبراطورية المغول بعد چنكيزخان
١٥٠	(٦) أجتاى : فتوحه فى آسيا وأوربا
١٥٢	(٧) كيوك
١٥٣	(٨) مانجو خان
١٥٤	(٩) كوبيلاى خان
١٥٤	(١٠) سقوط بغداد

الباب الخامس

الدول الإسلامية المستقلة

غير التابعة لحكم العباسيين

أولا — الغوريون والغزنويون

١٦٣	(١) ظهور الغوريين (نسب الغوريين ١٦٥)
١٦٦	(٢) علاء الدين حسين الغورى
١٦٧	(٣) غياث الدين محمد — زوال الدولة الغزنوية
١٦٩	وفاة غياث الدين محمد — صفاته
١٦٩	(٤) شهاب الدين محمد — حروبه مع الخوارزميين والخطا
١٧٢	وفاة شهاب الدين محمد — صفاته
١٧٣	(٥) غياث الدين محمود — نهاية الدولة الغورية
	ثانياً — الدولة الفاطمية
١٧٧	(١) المستنصر والمستمل
١٨١	(٢) الأمر والحافظ

صفحة

١٨٤	(٣) سقوط الدولة الفاطمية
١٨٩	(٤) حملات شيركوه على مصر
١٩٣	(٥) صلاح الدين وسقوط الدولة الفاطمية
١٩٧	ثالثاً — الدولة الصليحية في اليمن
٢١٠	رابعاً — اليمن قبل عهد الأيوبيين
٢١٠	(١) بنو نجاح في زيد
٢١٢	(ب) بنو مهدي
٢١٤	خامساً — اليمن في عهد الأيوبيين
	سادساً — بنو رسول وبنو الرسي في اليمن
٢١٥	(١) بنو رسول
٢١٦	(ب) بنو الرسي
٢١٧	جدول بني الرسي
٢١٩	سابعاً — الدولة الموحدية في المغرب والاندلس
	(١) عبد المؤمن بن علي
٢١٩	(١) مولده ونشأته
٢١٩	(ب) بيعته
٢٢٠	(ح) غزواته
٢٢١	(د) أخلافه — وفاته
٢٢٢	(٢) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
٢٢٤	(٣) يعقوب المنصور
٢٢٥	(١) معركة الأرك
٢٢٨	(ب) بين يعقوب المنصور وصلاح الدين
٢٢٩	(ح) إصلاحات يعقوب المنصور — أخلاقه — وفاته
٢٣٠	(٤) الناصر لدين الله
٢٣١	(١) معركة العقاب
٢٣٢	(ب) سقوط الدولة الموحدية

الباب السادس العلاقات الخارجية

صفحة

٢٣٤	(١) علاقة العباسيين والفاطميين بالبزنطيين
٢٣٥	(٢) علاقة العباسيين بالفاطميين
٢٣٧	(٣) علاقة الفاطميين بالحجاز
٢٣٨	(٤) علاقة الفاطميين بالمغرب وصقلية
٢٤١	(٥) علاقة الفاطميين والعباسيين باليمن
	(٦) علاقة المسلمين بالصليبيين
٢٤٣	(١) أسباب الحروب الصليبية
٢٤٥	(ب) الدعوة إلى الحروب الصليبية
٢٤٥	(ج) الحرب الصليبية الأولى
٢٤٨	(د) الحرب الصليبية الثانية
٢٥٠	(هـ) الحرب الصليبية الثالثة
٢٥١	(و) الحرب الصليبية الرابعة
٢٥٢	(ز) لماذا انتهت الحروب الصليبية؟ نتائجها

الباب السابع الحركات السياسية والدينية

٢٥٤	(١) القرامطة
٢٥٨	نهاية القرامطة
	(٢) الدروز
٢٥٩	(١) دعاة الدروز
٢٦١	(ب) أهم مميزات الدرزية
٢٦٥	(٣) النصيرية
٢٦٨	(٤) الدعوة النزارية في فارس والشام
٢٧٩	(٥) الدعوة الطيبية في اليمن
٢٨٢	(٦) الدعوة المرابطة

صفحة

(٧) الدعوة الموحدية	٢٩٢
(١) مولد ابن تومرت ونشأته	٢٩٤
(ب) دعوة ابن تومرت	٢٩٦
(ح) ابن تومرت وعلى بن يوسف المرابطي	٢٩٨
(د) هرب ابن تومرت	٢٩٩
(هـ) بيعة ابن تومرت	٣٠٠
(و) الحكومة الموحدية	٣٠١
(ز) غزوات ابن تومرت	

الباب الثامن

نظم الحكم

(١) النظام السياسي	٣٠٣
(١) الخلافة	٣٠٦
١ — الخلافة عند الفقهاء والفلاسفة والأخلاقين	٣٠٧
٢ — الخلافة العباسية في عهد سلاطين السلاجقة	٣٠٨
٣ — عود النفوذ إلى الخلفاء العباسيين - المقتدى والمسترشد	٣٠٩
٤ — احتفاظ الخلفاء العباسيين بسلطتهم الدينية	٣١٠
٥ — زوال الخلافة العباسية في بغداد	٣١٠
٦ — تعدد الخلافة في المغرب والاندلس وغيرها	٣١٠
٧ — المرابطون والخلافة العباسية	
(١) موقف المغرب من الخلافة العباسية قبل المرابطين	٣١٠
(ب) المرابطون والخلافة العباسية	٣١٣
٨ — الخلافة الموحدية	٣١٦
٩ — الحفصيون والمرينيون	٣١٧
١٠ — الخلافة الفاطمية	٣٢٠
١١ — علاقة الأيوبيين بالخلافة العباسية	٣٢٢

(ب) الوزارة

٣٢٤	١ - الوزارة في عهد السلاجقة
٣٢٩	٢ - الوزارة في مصر
٣٣٠	٣ - الوزارة في المغرب
٣٣١	٤ - الوزارة في الأندلس
٣٣٢	(ح) الكتابة
٣٣٥	(د) الحجابة
	٢ - النظام الإداري
	(١) الإمارة على البلدان
٣٣٦	١ - علاقة المسجد بإدارة شئون الدولة
٣٣٧	٢ - نظرية الإمارة على البلدان
٣٣٩	(ب) الدواوين
٣٤١	دور الضرب
٣٤٢	(ح) البريد
٣٤٥	(د) الشرطة
	٣ - النظام المالي
	(١) موارد بيت المال
٣٤٦	١ - الخراج
٣٤٧	٢ - نظام الالتزام
٣٤٩	٣ - الجزية
٣٥٠	٤ - الزكاة
٣٥٠	٥ - الفيء والغنيمه
٣٥٤	٦ - العشور
٣٥٤	٧ - الضرائب في العصر العباسي الثاني وفي مصر
٣٥٩	٨ - النظام المالي في الأندلس
	٤ - النظام الحربي
٣٦٠	(١) الجيش في العصر السلجوقي
٣٦٣	(ب) أسلحة الجيش

صفحة

٣٦٤	(ح) إمرة الجيش
٣٦٦	(د) إمرة الجيش
٣٦٨	(هـ) الجيش في المغرب
٣٧٢	(و) إمرة الأسطول
٣٧٣	(ز) البحرية في مصر
٣٧٥	(ح) البحرية في المغرب

٥ — النظام القضائي :

٣٧٧	(١) القضاء في العصر العباسي الثاني
٣٧٨	(ب) القضاء في عهد الفاطميين والأيوبيين
٣٧٩	قانون الوراثة في عهد الفاطميين
٣٨٢	(ح) القضاء في الأندلس
٣٨٣	(د) المظالم
٣٨٤	(هـ) الحسبة

الباب التاسع

الحالة الاقتصادية

٣٨٧	١ — الزراعة
-----	-------------

٢ — الصناعة

٣٩١	(١) النسيج
٣٩٣	الزخرفة في العصر الفاطمي
٣٩٤	(ب) بناء السفن
٣٩٤	(ح) صناعة المعادن
٣٩٥	(د) قصب السكر والزيت
٣٩٦	(هـ) صناعة الصابون والشمع
٣٩٦	(و) صناعة الزجاج والبلور والخزف
٣٩٨	(ح) صناعة الجلود

صفحة

٤٠٠	٣ — التجارة
٤٠٤	(أ) طرق التجارة
٤٠٦	(ب) مراكز التجارة
٤١٢	(ج) الأسواق

الباب العاشر

الثقافة

٤٢٠	١ — مراكز الثقافة
	٢ — معاهد الثقافة :
٤٢١	(أ) المسجد
٤٢٣	(ب) الزاوية
٤٢٤	(ج) الكتاب والمدرسة
٤٢٦	(د) المارستان
٤٢٧	(هـ) بيت الحكمة
٤٢٧	(و) قاضى القضاة وداعى الدعاة
٤٣٠	(ز) المكتبات
٤٣٤	(ح) ديوان الإنشاء
٤٣٦	(ط) الرباط

(١) العلوم النقلية

٤٣٩	تقسيم العلوم :
٤٤٠	١ — علم القراءات
٤٤٢	٢ — التفسير
٤٤٦	٣ — الحديث
	٤ — الفقه :
٤٥٠	(أ) فقه الشيعة
٤٥٤	(ب) الفقه فى اليمن
٤٥٥	(ج) الفقه فى المغرب والأندلس

٥ — علم الكلام :

٤٥٨	(١) التوحيد في الإسلام
٤٦٧	(ب) علم الكلام في المغرب والاندلس
٤٧٠	٦ — النحو
٤٧٤	٧ — علم اللغة
	٨ — الأدب

(١) الشعر :

٤٧٧	١ — تهيد
٤٨٠	٢ — الطغرائي
٤٨١	٣ — شعراء اليمن
٤٨٣	٤ — الشعر في العصر الفاطمي الأخير
٤٨٥	الشعراء بين سنتي ٥٤٩ و ٥٦٧ هـ
٤٨٦	٥ — عمارة البيت
٤٨٩	البهاء زهير
	٦ — الشعر في الاندلس

٤٩١	(١) ابن زيدون
-----	---------------

٤٩٢	(ب) ابن عمار
-----	--------------

٤٩٤	(ج) الشعر الفني : الزجل والموشحات
-----	-----------------------------------

(ب) النثر :

٥٠١	١ — أبو القاسم الحريري
-----	------------------------

٥٠٨	٢ — القاضي الفاضل
-----	-------------------

	٣ — النثر في المغرب والاندلس
--	------------------------------

٥١٠	(١) ابن عطية
-----	--------------

٥١١	(ب) ابن أبي الخصال
-----	--------------------

٥١٣	(ج) الفتح بن خاقان
-----	--------------------

(ب) العلوم العقلية

١ — الطب :

٥١٥	(١) الطب في العصر العباسي الثاني
-----	----------------------------------

صفحة

- (ب) الطب في العصر الفاطمي ٥٢٠ (ح) الطب في المغرب والاندلس ٥٢١
 (د) المدارس الطبية ٥٢٢
 ٢ — الفلك والنجوم :
 (١) الفلك والنجوم في العصر العباسي الثاني ٥٢٤
 (ب) الفلك والنجوم في مصر والمغرب ٥٢٨
 ٣ — الرياضيات ٥٣٠
 ٤ — الفلسفة :
 (١) أبو حامد الغزالي ٥٣١ (ب) ابن باجة ٥٣٧ (ح) ابن طفيل ٥٣٥
 قصة حي بن يقظان ٥٤٠
 (د) ابن رشد ٥٤٢
 ابن رشد وأرسطو ٥٤٣
 (هـ) محيي الدين بن عربي ٥٤٧
 ٥ — التاريخ :
 (١) مؤرخو المشرق الإسلامي ٥٥٠
 كتاب التراجم ٥٦٢
 التواريخ المحلية ٥٦٤
 (ب) مصادر العصر المغولي الأول ٥٦٦
 (ح) مصادر تاريخ الفاطميين والايوبيين ٥٧١
 (د) مصادر المغرب والاندلس ٥٨٠
 ٦ — الجغرافيا ٥٨٣

الباب الحادي عشر

الفن

- ١ — تخطيط المدن :
 (١) تقسيم المدن ٥٨٩ (ب) مدينة قرطبة ٥٩١ (ج) مدينة القاهرة ٥٩٢
 (د) مدينة مراکش ٥٩٥ (هـ) مدينة الرباط ٦٠٠
 ٢ — المذشآت المعمارية :
 (١) القصور ٦٠٢ (ب) الحمامات ٦٠٣ (ج) المدارس ٦٠٦

٣ — المنشئات الحربية :

(١) أسوار القاهرة ومناظرها ٦٠٩ (ب) قلعة الجبل ٦١١ (ج) جسر الجيزة ٦١٥

٤ — المنشئات الدينية — المساجد

(١) الجامع الأزهر ٦١٦ (ب) مساجد العصر الفاطمي الأخير ٦١٩

(ج) جامع القرويين بفاس ٦٢٠ (د) مسجد الكتبية بمراكش ٦٢١

(هـ) مسجد ومئذنة حسان ٦٢٣

الباب الثاني عشر

الحالة الاجتماعية

١ — طبقات المجتمع :

(١) في عهد العباسيين ٦٢٥ (ب) في عهد الفاطميين والأيوبيين ٦٢٧

(ج) في المغرب ٦٢٨ (د) في الأندلس ٦٢٩

٢ — مجالس الغناء والطرب ٦٣١

٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ودور العامة ٦٣٤

٤ — الطعام ٦٣٦

٥ — الملابس ٦٤٠

٦ — المرأة ٦٤١

٧ — الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات

(١) الأعياد والمواسم والمواكب ٦٤٣

(ب) الخطبة في الأزهر ٦٥٥

(ج) الحج ٦٤٩

(د) حفلات الزواج ٦٥١

٨ — أوقات الفراغ ٦٥٣

المصادر ٦٥٧

الفهرست ٦٧٠

خطأ وصواب

الباب الأول

العصر السلجوقي الأول

من ظهور طغرل بك إلى وفاة ملكشاه

٤٢٩ - ٤٨٥ / ١٠٣٨ - ١٠٩٢

١ - ظهور السلجقة :

ينتسب السلجقة إلى سلجوق (بفتح السين) بن تغلق (بضم التاء) أحد رؤساء الأتراك . وكانوا يسكنون بلاد ما وراء النهر في مكان يبعد عن بخارى بعشرين فرسخاً^(١) . وكان عدد السلجقة ، كما يقول ابن خلصكان ، يحل عن الحصر والإحصاء ، لا يدينون بالطاعة لسلطان ، وكانوا إذا قصدهم جمع ورأوا أنه لا طاقة لهم به ، دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرمال فلا يصل إليهم أحد^(٢) . والسلجقة نوع من الأتراك الغز ويتصل نسبهم بالجد الأكبر بسلاطين الأتراك العثمانيين الذين أسسوا إمبراطوريتهم في آسيا الصغرى ، ثم في سورية ومصر والبحر الأبيض المتوسط وأوروبا وشمالي إفريقيا عن طريق سلجقة الروم . وقد اتسع سلطان السلجقة حتى فاق سلطان البيت الغزنوي . وكان عصرهم أكثر ازدهاراً وملكهم أعظم رقعة وقوتهم أعز سلطاناً ومنعة . وقد أخذوا في سنة ٤٢٠/١٠٢٩ يحتاحون الجزء الشمالي والشرقي من بلاد الفرس حتى أقلقوا بال السلطان محمود الغزنوي . وإلى السلجقة يرجع الفضل في تجديد قوة الإسلام وإعادة تكوين وحدته السياسية . ولهم أهمية خاصة في التاريخ ، لقيام الحروب الصليبية في أيامهم ، وظهورهم على مسرح هذه الحروب ، وكذلك ظهور التتار الذين قضوا على الدولة الخوارزمية^(٣) أولاً ثم على الدولة العباسية .

(١) والفرسخ أربعة أميال .

(٢) ابن خلصكان : وفیات الأعيان ج ٤ ص ١٥٥ .

(٣) بضم الحاء وفتحها وفتح الباء وكسرهما وسكون الزاي .

كان تقاق^(١) أبو سلجوق كما وصفه ابن الأثير^(٢) شهما ذا رأى وتديير . وكان زعيم الأتراك الغز ، يرجعون إليه في أمورهم ولا يخالفون له قولاً ولا يعصون له أمراً ، وقد اتفق أن جمع ملك الترك عسكره وأراد المسير إلى البلاد الإسلامية . فهاهم تقاق واحتدم النقاش بينهما فأغلظ له الملك القول ، فلطمه تقاق فشج رأسه . وأحاط بتقاق خدم الملك وأرادوا أخذه ، وحال أصحاب تقاق دون ذلك . ثم تمّ الصلح بينهما . وقد انجبت تقاق ابنة سلجوق . ولما شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال ظهرت عليه أمارات النجابة ونخيل الذكاء ، وعرف بعلو الهمة وسعة العقل والكرم حتى استمال قلوب رجال الدولة إليه ، فقربه ملك الترك إليه ولقبه بلقب « سبانشى » ومعناه قائد الجيش ، ولكن زوجة الملك أوجست خيفة من سلجوق لما رأت من طاعة الناس له وانقيادهم إليه ، وحملت الملك على قتله .

ولما نعى هذا الخبر إلى سلجوق خشى على حياته ، فسار على رأس جماعته إلى دار الإسلام ونحول إلى الدين الحنيف وصح إيمانه وأقام هو وعشيرته بنواحي جَند^(٣) ، وأخذ يغير على بلاد الأتراك الذين كانوا لا يزالون على الكفر . وكان ملكهم يأخذ الخراج من المسلمين الذين يعيشون في بلاده . وقد طرد سلجوق عمال هذا الملك وضم بلاده إلى البلاد الإسلامية . وقد استنجد السامانيون بسلجوق لمساعدتهم على رد ما أخذه الترك من بلادهم ، فأرسل إليهم ابنه أرسلان على رأس جيش استرد هذه البلاد . وكان لسلجوق من الأولاد : أرسلان وميكائيل وموسى .

توفي سلجوق بجند بعد أن بلغ من العمر مائة وسبع سنين ، ثم قتل ابنه ميكائيل وهو يغزو بلاد الأتراك الكفار ، وترك من الأولاد ييغو ، وطفربك ، وشغرى بك داود ، فدانت لهم عشائهم بالطاعة ، ثم يعموا شطر بخارى ، فخشى أميرها خطرهم ، فأساء جوارهم وأراد الإيقاع بهم ، فالتجسوا إلى « بُغراخان » ملك تركستان واحتموا به ، واستقر الأمر كما يقول ابن الأثير^(٤) بين طفربك وأخيه داود على ألا يجتمعا عند بُغراخان حتى لا يحيق مكره السبي بهم .

(١) بضم التاء ومعناه القوس الجديد .

(٢) السكامل في التاريخ ج ٩ ص ١٧٦ .

(٣) بفتح الجيم وسكون النون .

(٤) السكامل ج ٩ ص ١٧٦ .

نسب مملوكين السلالة في العراق

(١١٥٧ - ١٠٥٥ / ٥٥٢ - ٤٤٧)

تفادق

ساجون

موسى

إسرائيل

ميكائيل

أرسلان بيغو

أبراهيم ينال
(أخو طغرل بك لأمه)

شغرى بك داود (ت ٤٥٠)
(يبلغ)

(١) طغرل بك

أرسلان بيغو

أرسلان خانون خديجة
(تزوجت الخليفة القائم)

فلوت (جد سلاجقة كرمان)

ألب أرسلان (٢)

عنان سليمان
(الرى)

سليمان
موسى

سلطان شاه
(خلف أباه في حكم كرمان)

نقش أميرانشاه

أرسلان (٣) ملكشاه
أرغون

نكش
(طغارستان)

خانون سفريه
(تزوجت الخليفة المنقذى)

داود

رضوان

دقاق

بركياروق (٥)
٤٩٨ - ٤٨٥

محمد (٧) ٥١١ هـ

سنجر (٨)

أحمد

(جلال الدولة)

محمد (٦) ملكشاه الثاني

مسعود (٨) ٥٤٧ هـ
(بدء عهد الإنايسكا) ٥٧٥

داود

سليمان شاه

ساجون

ملكشاه

(٩) محمد

أرسلان ٥٥٤ هـ

طغرل الثاني

وقد برهنت الأيام على بعد نظر السلاجقة ، فقد حال بغراخان دون اجتماع هذين
الآخرين عنده ، فلم يوفق ، فاحتال على أسر طغرل بك وتم له ما أراد ، فثارت ثائرة داود
وقصد بغراخان في عشائره ليخلص أخاه وأحل الهزيمة بجنده . وأطلق أخاه وعاد إلى جند
وبقوا هنالك حتى زالت الدولة السامانية . ولما ملك «إيلك خان» بخارى عظم نفوذ أرسلان
ابن سلجوق (عم داود وطغرل بك) الذي سار إلى أذربيجان ، ولكنه لم يلبث أن أسر
وحبس . وقد دارت بين السلاجقة والغزنويين في عهد مسعود (بن عيين الدولة محمود
الغزنوى) معارك طاحنة في عهد مسعود ، انتهت بإقطاع دهستان لداود ونسا (بفتح النون)
لطرل بك ، وفراوة (بفتح الفاء) لبيغو ، ولقب كل منهم بلقب دهقان ، وبعث إليهم بالخلع .
ولكن هؤلاء الإخوة من عشيرة السلاجقة لم يطمئنون إلى دعوة السلطان مسعود وأخذوا
يخادعون به بإظهار الطاعة له ، وطلبوا إليه أن يطلق عنهم أرسلان (بن سلجوق) . ولكن
هذا الصلح لم يتم وانشغل مسعود ببلاد الهند .

(٢) طغرل بك

وفي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) استولى طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق على مرو
حاضرة خراسان وذكر اسمه في خطبة الجمعة بلقب ملك الملوك . وفي شهر شعبان من
هذه السنة التقى جيش طغرل بك بجيش الغزنويين عند باب مدينة سرخس وانتصر عليهم
انتصاراً حاسماً وشدت شملهم وطاردهم في كل مكان وغنم أموالهم ، فكانت هذه الموقعة
كما يقول ابن الأثير « هي التي ملك السلجوقيون بعدها خراسان ودخلوا فصبات البلاد » .
وفي هذا الشهر استولى طغرل بك على نيسابور وأقيمت له الخطبة على منابرها وذكر اسمه
مقروناً بلقب السلطان الأعظم^(١) . واستقر بدار الإمارة وجلس للنظام يومين في الأسبوع
على ما جرت به العادة في هذه البلاد .

وقد ذكر ابن الأثير بصدد كلامه على فتح نيسابور أن السلاجقة رأوا الكافور
فظنوه ملحاً . ويذكر ابن الأثير أن طغرل بك أقام نوابه على الأقاليم المختلفة . ويرجع
انتصار السلاجقة في موقعة سرخس الحاسمة إلى أنهم قسموا جيشهم إلى ثلاث فرق كلما
تبع الجيش الغزنوى إحداها طوقته الفرقتان الأخريان . وقد صمم السلطان مسعود

(١) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٩ .

الغزنوى على ملاقة السلاجقة بنفسه لجمع جيشاً جراراً ، ثم رحل عن غزته حاضرة سلطنته ميمما شطر خراسان . وقد ذكر ابن الأثير (٩ / ١٧٩) أن هذا الجيش بلغ مائة ألف سوى الخدم والأتباع .

استمرت الحروب بين السلاجقة والغزنويين ثلاث سنين ، ثم وقع الخلاف بين جند مسعود الغزنوى على الماء وازدحموا عليه ، وأصبح بعضهم يقاتل بعضاً . وكثر القتل بينهم واشتد النهب ، وتخلى بعضهم عن السلطان وفارقوه وأتاحوا بذلك الفرصة لجند داود السلجوقي ، فغنموا غنائم لا تحصى ، وسار طغرل بك إلى نيسابور فاستولى عليها فى أوائل سنة ٤٣٢ هـ . ولم يلبث أن قتل السلطان مسعود خلفه أخوه محمد الذى لم يبق فى الحكم طويلاً وقبض عليه أخوه داود بن مسعود وقتله هو وأولاده إلا عبد الرحيم^(١) . وفى سنة ٤٣٣ هـ استولى طغرل بك على جرجان وطبرستان وأقيمت له الخطبة فى هذه البلاد وفى السنة التالية استولى على خوارزم وكانت من أملاك الغزنويين وقصد إبراهيم بنال (أخا طغرل بك لأمه) همدان^(٢) واستولى عليها .

وفى سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ - ١٠٤٢ م) استولى السلاجقة بقيادة طغرل بك على بلاد الديلم وكرمان^(٣) ، وانتقل السلاجقة فى فتوحهم من نصر إلى نصر حتى جاءت سنة ٤٣٨ هـ التى حاصر فيها طغرل بك مدينة أصفهان وصالحه صاحبها على مال يؤديه إليه وعلى أن يقيم له الخطبة بأصفهان وأعمالها^(٤) . وفى السنة التالية عقد الصلح بين أبى كاليجار البويهى والسلطان طغرل بك السلجوقي الذى تزوج بابنة أبى كاليجار ، وتزوج أبو منصور ابن أبى كاليجار بابنة الملك داود أخى طغرل بك^(٥) .

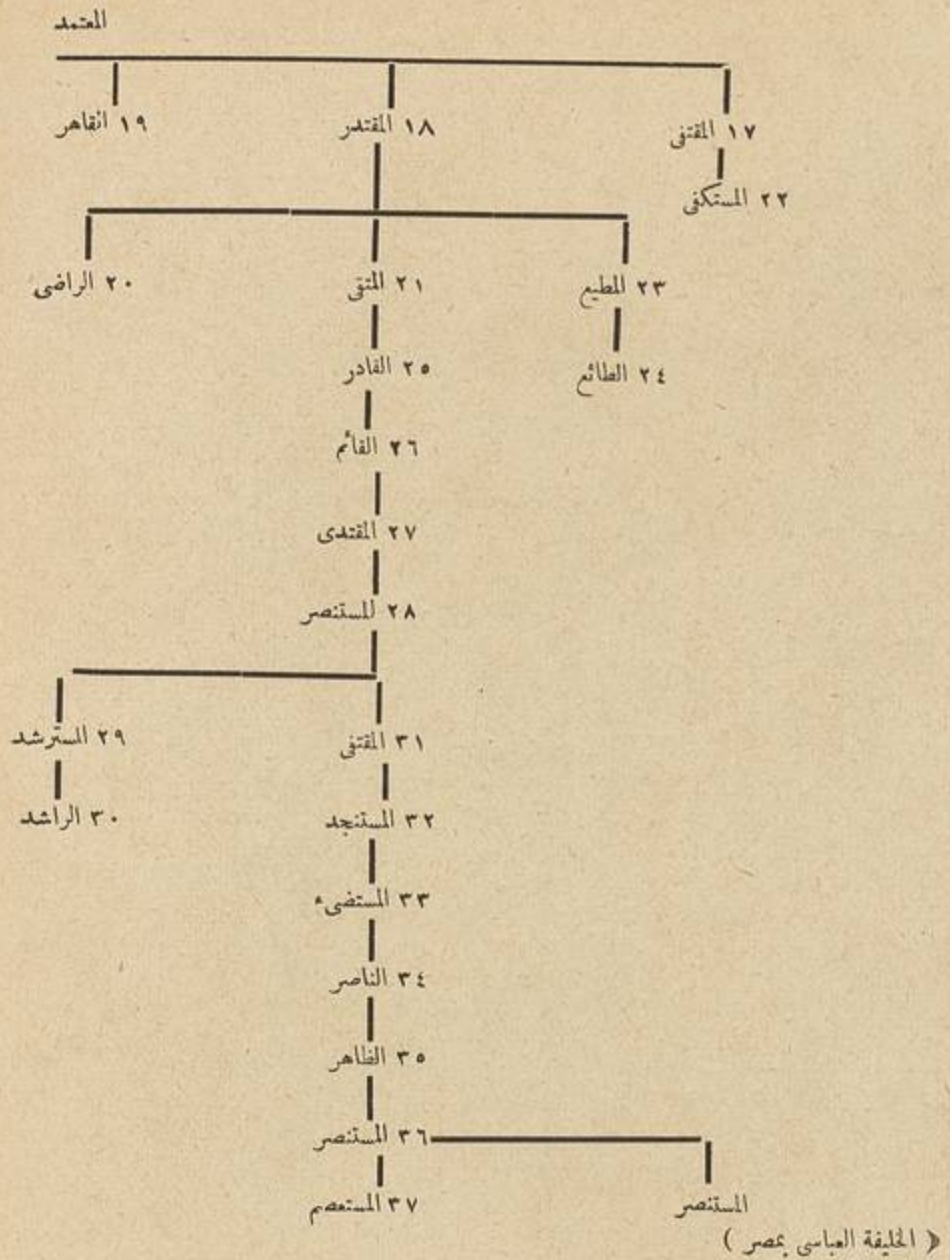
(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٨٠ .

(٢) ذكر ابن الأثير ج ٩ ص ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٦) فى حوادث سنة ٤٣٥ هـ أن أبى كاليجار البويهى أعاد همدان إلى أملاكه وبني سور مدينة شيراز الذى بلغ طوله اثني عشر ألف ذراع وعرضه ثمانية أذرع وله أحد عشر باباً . وقد فرغ من بناء هذا السور سنة ٤٤٠ هـ .

(٣) ابن الأثير : السكامل ج ٩ ص ١٩٠ .

(٤) ابن الأثير : السكامل ج ٩ ص ١٩٦ ، ١٩٩ . وقد ذكر ابن الأثير (ج ٩ ص ٢٠٧) أن طغرل بك لما ظفر بأخيه إبراهيم بنال أكرمه وأحسن إليه ورد إليه كثيراً مما أخذ منه ولكنه اختار المقام معه .

(٥) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٠٧ .



تسلسل نسب الخلفاء العباسيين

١٣٢ — ٦٥٦ / ٧٥٠ — ١٢٥٨

٧٥٠ م	السفاح	٥١٣٢	١
٧٥٤	المنصور	١٣٦	٢
٧٧٥	المهدي	١٥٨	٣
٧٨٥	الهادي	١٦٩	٤
٧٨٦	الرشيدي	١٧٠	٥
٨٠٩	الأمين	١٩٣	٦
٨١٣	المأمون	١٩٨	٧
٨٣٣	المعتصم	٢١٨	٨
٨٤٢	الواثق	٢٢٧	٩
٨٤٧	المتوكل	٢٣٢	١٠
٨٦١	المقتدر	٢٤٧	١١
٨٦٢	المستعين	٢٤٨	١٢
٨٦٦	المعز	٢٥٢	١٣
٨٦٩	المهتدي	٢٥٥	١٤
٨٧٠	المعتد	٢٥٦	١٥
٨٩٢	المعتضد	٢٧٩	١٦
٩٠٢	المكتفي	٢٨٩	١٧
٩٠٨	المقتدر	٢٩٥	١٨
٩٣٢	القاهر	٣٢٠	١٩

٢٠	٥٣٢٢	الراضى	٩٣٤ م
٢١	٣٢٩	المتقى	٩٤٠
٢٢	٣٣٣	المستكفى	٩٤٤
٢٣	٣٣٤	المطيع	٩٤٦
٢٤	٣٦٣	الطائع	٩٧٤
٢٥	٣٨١	القادر	٩٩١
٢٦	٤٢٢	القائم	١٠٣١
٢٧	٤٦٧	المقتدى	١٠٧٥
٢٨	٤٨٧	المستظهر	١٠٩٤
٢٩	٥١٢	المسترشد	١١١٨
٣٠	٥٢٩	الراشد	١١٣٥
٣١	٥٣٠	المقتفى	١١٣٦
٣٢	٥٥٥	المستجد	١١٦٠
٣٣	٥٦٦	المستضى	١١٧٠
٣٤	٥٧٥	القاصر	١١٨٠
٣٥	٦٢٢	الظاهر	١٢٢٥
٣٦	٦٢٣	المستفصر	١٢٢٦
٣٧	٦٤٠ — ٦٥٦	المستعصم	١٢٤٢ — ١٢٥٨

على أن الخلاف قد دب بين أفراد البيت الساجوقى . فقد طلب طغرل بك من أخيه إبراهيم بنال أن يسلم إليه مدينة همدان وما بيده من القلاع التى ببلاد الديلم . فامتنع إبراهيم عن إجابة أخيه إلى ما طلب . ويذكر ابن الأثير أن طغرل بك أمر بأخيه فضرب بين يديه وسملت إحدى عينيه وقطعت شفتاه ، ثم دارت الحرب بينهما وملك طغرل بك ما كان بيده من القلاع ، وتحصن إبراهيم بقلعة حصينة فصار إليه طغرل بك على رأس

جيش كثيف يتألف من مائة ألف مقاتل وأوقع الهزيمة بإبراهيم ، وأقيمت الخطبة له في سائر ديار بكر ، كما أبرمت الهدنة بين طغرل بك وإمبراطور الروم وتبوءت بينهما الهدايا ، وعمر مسجد القسطنطينية وأقيمت فيه الصلاة وذكر اسم طغرل بك في الخطبة « ودان الناس كلهم له وعظم شأنه وتمكن ملكه وثبت » .

هزم السلاجقة مودود بن مسعود الغزنوي في خراسان ، ثم رد طغرل بك على كتاب الخليفة العباسي القائم ، وضمنه ما حل بالبيت السلجوقي من حيف وظلم على يد البيت الغزنوي ، وعبر عن شكره على ما أفاضه عليه الخليفة من خلع وما منحه إياه من ألقاب ، وأرسل طغرل بك إلى الخليفة « عشرة آلاف دينار عينا وأغلافاً نفيسة من الجواهر والثياب والطيب وغير ذلك . وأرسل خمسة آلاف دينار للحاشية وألفي دينار لرئيس الرؤساء ^(١) » . « وأرسل طغرل بك إلى الخليفة رسولاً يبلغ في إظهار الطاعة والعبودية ، وإلى الأتراك البغداديين يعدم الجبل والإحسان . . . فأنكر الأتراك ذلك . . . فغولطوا في الجواب . وكان رئيس الرؤساء يؤثر بحيمه ويختار انقراض الدولة الديلية » ^(٢) .

ثم أخذ السلاجقة في تقسيم البلاد الشاسعة التي دخلت تحت حوزتهم : فأصبحت بُسْت (بضم الباء وسكون السين) وهرارة (بفتح الهاء) وسستان (بكسر السين الأولى وسكون السين الثانية) في يد موسى بن قطلش بن أرسلان بيغو (بكسر الباء وسكون الياء) ابن سلجوق ، وغدت مرو والعراق في يد أبناء أخيه شغرى (بفتح الشين وسكون الغين) بك داود وطغرل على التوالي . أما أبناء شغرى فقد أصبحت في يد قاوورت (بضم الواو وسكون الراء) وكرمان وتون وطَبَسْ (بفتح الطاء والباء) وياقوتى أذربيجان وأهر (بفتح الالف مع الهمزة والهاء وسكون الباء) وزنجان (بفتح الزاي وسكون النون) ، على حين انتخب الابن الثالث وهو ألب أرسلان ليكون مع عمه طغرل الذي اتخذ الرى حاضرة لدولته . وأعطيت همدان لإبراهيم بنال ^(٣) بن ميكائيل بن سلجوق ، على حين تسلم موسى بن قطلش (بضم القاف وفتح الطاء وسكون اللام وكسر الميم) جرجان (بضم الجيم) ودافغان . ولما تسلم الخليفة القائم كتاب طغرل بك أرسل إليه كتاباً رقيقاً . وبعد قليل أمر الخليفة بذكر اسم طغرل بك في الخطبة ونقشه على السكة قبل اسم السلطان البويهى الملك

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢١٦ ، ٢٢٨ .

(٢) Browne, Lit. Hist. of Persia, Vol. II. p. 172.

(٣) وقد قتل طغرل بعد قليل (٤٤٩ / ١٠٥٧ - ١٠٥٨) لاتهامه بتدبير مؤامرة للغدر به .

الرحيم ، فخطب له يوم الجمعة لثمان بقين من شهر رمضان سنة ٤٤٧ هـ . ثم أرسل طغربك رسولاً من قبله يستأذن الخليفة في دخول بغداد ، فأذن له ودخل بغداد خمس بقين من هذا الشهر (ديسمبر ١٠٥٥ م) بصحبة الوزير رئيس الرؤساء في موكب نفخ نفخ يضم القضاة والأشراف والنقباء وأعيان الدولة وأمرأه أجناد السلطان البويهى الملك الرحيم^(١) .

وفي الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة قدم لطغربك فرس فركبها حتى وصل إلى دهليز « قصر السلام » . ثم نزل ومشى والأمرأه بين يديه حتى وصل إلى إيوان الخليفة . فأسدلت الستارة . ولما ظهر وجه الخليفة القائم ، وعلى كتفه بردة الرسول وبيده القضيب النبوى ، قبل طغربك الأرض ، فأمره الخليفة بالصعود ومعه محمد بن المنصور الكندرى (بضم الكاف والذال وسكون النون) مفسراً ومترجماً . ثم وضع لطغربك كرسي مجلس عليه ، وفُسر له تفويض الخليفة إليه . ثم تَوَجَّ وطُوقَ وسُورَ وأُقيضت عليه سبع خلع سود من طراز واحد تمثل مملكة الأقاليم السبعة ، وعُمم بعمامة مذهبة ، وجمع بين تاجى العرب والعجم ، وقُدِّد سيفاً محلى بالذهب ، ثم عاد وجلس على الكرسي وسأل مصاحفة الخليفة : « فدّ إليه يده مرتين فقبلها ووضعها على عينيه . ثم قلده الخليفة سيفاً آخر كان بين يديه ، فتم له بذلك تقليد السيفين ، بمعنى أنه تقلد ولاية الدولتين ، فخطبه الخليفة « بملك المشرق والمغرب » . ثم أحضر عهده وقال الخليفة : هذا عهدنا يقرؤه عليك محمد بن منصور بن محمد^(٢) صاحبنا ووديعتنا عندك . فاحفظه واحرسه فإنه الثقة المأمون ، وانفض في دعة الله محفوظاً وبعين الكلالة^(٣) ملحوظاً^(٤) ، وذلك في الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة سنة ٤٥١ هـ .

ثورة البساسيري

وبعد دخول طغربك بغداد بقليل واجه كثيراً من الاضطرابات التي أثارها الجنود الأتراك في دار الخلافة ، والفلاقل التي سادت الموصل وديار بكر وسنجار (بكسر السين) وغيرها ، ولم يكن بد من أن يقضى طغربك عليها بنفسه . وبعد قليل عاد طغربك إلى بغداد

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٢٨

(٢) لقب عميد الملك وجمع بين السيف والقلم ثم لقب سيّد الوزراء . البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٦ .

(٣) يقال كلاًه الله بعين العناية أى حرسه .

(٤) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٣ - ١٤ .

لمواجهة الثورة التي قام بها الأتراك بزعامة أبي الحارث البساسيري الذي أقام الدعوة للخليفة الفاطمي المستنصر على منابر بغداد وغيرها نحواً من سنة .

وقد تبدلت سياسة البويهيين نحو الفاطميين منذ عهد أبي كاليبجار (٤٣٥ — ٤٤٠ هـ) الذي اتخذ من تقربه إلى الفاطميين وسيلة لإرهاب العباسيين ، كما حال دون تقرب العباسيين من السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه . حتى إن أبا كاليبجار تقرب من المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الفاطميين في فارس ، الذي تقلد فيما بعد منصب داعي الدعوة في مصر ، واتهم باعتناق عقائد الإسماعيلية مذهب الفاطميين . وقد دأب الخليفة المستنصر الفاطمي على مناوأة الخلفاء العباسيين . لذلك نراه يؤيد أبا الحارث البساسيري في ثورته على الخليفة العباسي القائم ، ويعدّه بالمسال والرجال ، ويبعث داعيته الجري . هبة الله الشيرازي لإثارة حماسة جند البساسيري ، وحثهم على إذكاء الثورة في وجه الخليفة العباسي ، ولم يدخر الخليفة الفاطمي وسعاً في إمداد البساسيري بالأموال الضخمة والجند من بلاد الشام (١) .

ولم يكنف الخليفة الفاطمي بذلك ، بل عمل على توحيد كلمة الأتراك بزعامة البساسيري والعرب بزعامة دبس بن علي بن مزّيد أمير عرب الفرات ، ولقبه بألقاب منها الأمير ، وسلطان ملوك العرب ، وسيف الخلافة ، وصفي أمير المؤمنين ، ومنحه ولاية مايفتح من البلاد شرقي نهر الفرات (٢) . وكان من أثر تدخل الخليفة الفاطمي أن انتصر البساسيري وأنصاره على جيوش الخليفة العباسي في موقعة سنجار سنة ٤٤٩ هـ (٣) .

ولم يقف نشاط الفاطميين في مناوأة العباسيين عند هذا الحد ، فقد قام المؤيد في الدين بدور هام في نشر الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي في بلاد العراق ، واعتمد في ذلك على تأييد السلطان أبي كاليبجار البويهى الذي عرف بميله إلى الفاطميين . أما الخليفة العباسي القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ / ١٠٣١ — ١٠٧٥) فقد وجد في المؤيد في الدين خطراً يهدد دولته ومذهبه السني في فارس ، فعمل على القضاء على جهوده ، وبعث إلى أبي كاليبجار يطلب إليه تسليم داعي الفاطميين ، ويهدد بدعوة السلاجقة إلى دخول بغداد .

(١) السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين ، مخطوط بمكتبة القاهرة ، ورقة ١٨٤

(٢) انظر عهد المستنصر إلى ابن مزيد في كتاب السيرة المؤيدية للمؤيد في الدين ، ص ١٩١ — ١٩٣

(٣) ابن منجب الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٤٤ .

وقد بين المؤيد في الدين في سيرته ما بذله من جهود في سبيل نشر الدعوة الفاطمية وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي في شيراز ، وإحلال اسمه محل اسم الخليفة العباسي ، وكيف أثار هذا العمل غضب الخليفة العباسي الذي طلب من أبي كاليبجار تسليم هذا الداعي إليه ، فلم يحفل السلطان البويهي بذلك . بل إنه ذكر اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة بدل اسم الخليفة العباسي ^(١) .

ومن هذا ندرك مدى علاقة المودة التي قامت بين أبي كاليبجار البويهي وبين الفاطميين وكيف اتخذ من هذه العلاقة سلاحاً بشهره في وجه العباسيين ، حتى يحول بينهم وبين التقرب إلى السلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه في ذلك الحين ^(٢) .
وكان من أثر ذلك أن أصبح أبو كاليبجار يسمع محاضرات المؤيد في الدين ويدرّس كتب الإسماعيلية ^(٣) .

وقد نقل هارولد براون ^(٤) عن كتاب Fārs-nāme أن الدعوة لطائفة الإسماعيلية أو السَّبعية ، الذين كانوا يعرفون بالباطنية في ذلك الوقت ، قد وجدت طريقها إلى قلوب الديلمية في فارس على يد ذلك الداعي القدير ، الذي نجح في تحويل أبي كاليبجار إلى عقائد هذا المذهب . وفي الحق أن الديلم قد أصبحوا — كما يقول المؤيد في الدين ^(٥) — « إلى صاحب مصر داعين وباسمه مبايعين » ، وأصبحوا « يتخذون المؤيد أباً لهم وأخاً وصاحباً » ، واتخذوه الكل سرّاً ومفزعاً في كل شيء ^(٦) ، وأخذ أكثر ندماء أبي كاليبجار البويهي يدينون بعقائد المذهب الإسماعيلي ^(٧) .

وكان من أثر ذلك أن نار إبراهيم ينال على أخيه طغرل بك ، وانتهز البساسيري فرصة نشوب الحرب بينهما ، واستولى على بغداد في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ ، وقتل الوزير

(١) السيرة المؤيدية مخطوط ص ٩٥ — ٩٦

(٢) المصدر نفسه ، مخطوط ص ٩٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١٥ .

(٤) Harold Brown, The Last Buwayhids, J. R.A.S. (1929), p.234.

(٥) السيرة المؤيدية ص ٤ .

(٦) السيرة المؤيدية ص ١٣ .

(٧) المصدر نفسه ص ١٩ .

ابن مسلمة ، لكن الخليفة « استذم بدمام^(١) قريش خثاه من القتل » . ودخل البساسيري بغداد ، كما يقول أبو المحاسن بالرابات المستنصرية ، قال إليه أهل الكرخ وأغلبهم من الشيعة ، وزيد في الأذان حيّ على خير العمل ، وأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمي على منابر بغداد ، ثم قبض البساسيري على الخليفة العباسي وحبسه^(٢) .

كان أبو الحارث البساسيري من قواد بني بويه الأتراك ، وقد زاد نفوذه وتفاقم خطره في عهد الملك الرحيم ، حتى أصبح الخليفة العباسي والسلطان البويهي معه مسلوب السلطة ضعيف الجانب . وسرعان ما استولى البساسيري على البلاد ، وانتشر ذكره وطار صيته ، وتهيبته أمراء العرب والعجم ، ودعى له على كثير من منابر العراق والاهواز ونواحيها ، وجي الأموال ، وغدا الخليفة القائم لا يقطع أمراً قبل الرجوع إلى رأيه^(٣) . وقد عزأ ابن الأثير^(٤) تبدل العلاقة بين الخليفة القائم والبساسيري إلى تقريب الخليفة أبا الفتح وأبا سعد صاحب قريش بن بدران العقيلي اللذين وصلاً سرّاً إلى بغداد ونسب ذلك إلى رئيس الرؤساء (وزير القائم) ، وربما بأنه خرب البلاد وأطمع الغز (وهم فرع من السلاجقة) .

وكان ابن مسلمة الذي يعرف برئيس الرؤساء قد وذر للخليفة القائم ، وكان يكره بني بويه لتشيعهم . ويسعى جهده في إحلال السلاجقة السنيين محلهم في حكم بغداد ، وبذلك يستطيع العباسيون القضاء على الفاطميين . يؤيد ذلك هذه الرسالة الممتعة التي بعث بها المؤيد في الدين الشيرازي ، وكان سفيراً للفاطميين إذ ذاك في العراق ، إلى وزير طغرل بك ، ليوقع الخلاف بين السلاجقة والعباسيين من جهة ، ويقرب بين الفاطميين والسلاجقة من جهة أخرى . وهاك بعض ما جاء في هذه الرسالة : « يعلم سيدي الأجل عميد الملك (أبو نصر محمد بن منصور الكندري) أنني كنت خاطبت حضرة وهو يومئذ مقيم بالري ، خاطباً لمودته وطالباً لانتشاج الحال^(٥) بيني وبينه ، لما كان يبلغني من محاسن أوصافه وجميل خلالته وخصاله ، ولأن يكون التعارف بيننا

(١) الهمام : الحرمة يريد أنه تمنع منه بدمه قريش خثاه من القتل . في الأصل واستزعم بدمام قريش وهو تحريف . والمعنى هنا استعاض بشرف قريش من شر القتل .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦ ، ١٢ .

(٣) الخطيب البغدادي : كتاب تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٤) ج ٩ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٥) الانتشاج : الاشتباك أي الائتلاف أو الصداقة .

سلباً إلى التعارف بين سلاطيننا ، خلد الله ملكهم ، وتأن كد سبب المودة بينهم ، انتهاء منا إلى ما قال الله سبحانه وتعالى (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) (سورة النساء ٤ : ١١٤) وانفق من الأمر سبق ابن مسلمة إلى باطله ، حتى عمل سحره ونفذ كيده ، وحصل الركاب العالي (السلطان طغرل بك) ببغداد . وانبثت الكتب يميناً وشمالاً بكون قصده لقضاء حق الخليفة (القائم) والسلام عليه والتبلغ بعده إلى مصر ^(١) .

أما الخطيب البغدادي ف يرى أن الخليفة القائم قد صح عنه سوء عقيدة البساسيري . وشهد عنده جماعة من الأتراك أنه عرفهم وهو إذ ذاك بواسط ، عزمه على هب دار الخلافة والقبض على الخليفة ، فكاتب الخليفة طغرل بك يستنضه على المسير إلى العراق . وقد ذكر الذهبي ^(٢) أن الخليفة القائم نعى إليه أن البساسيري كان يكاتب الفاطميين في مصر ، وطلب إلى الملك الرحيم أن يبعد البساسيري . وكان ذلك من أهم العوامل التي أدت إلى استيلاء طغرل بك على العراق .

وفي الحق أن العداء الذي قام بين الخليفة العباسي والبساسيري كان عداء بين العباسيين والبوهميين ، وبعبارة أخرى بين السنيين والشيعة . وقد كشف الخليفة القائم عن حقيقة تقرب بني بويه من الفاطميين على يد المؤيد في الدين الشيرازي ، وأدرك الخطر الذي يهدد الخلافة العباسية السنية من ناحية الخلافة الفاطمية الشيعية . وليس من شك في أنه كان بين جند بني بويه من الدبلم والأتراك عدد غير قليل ، على رأسهم البساسيري ، يرى وجوب تحويل الخلافة إلى الفاطميين . فعمل الخليفة العباسي القائم على الحد من نفوذ البساسيري وأنصاره ، وعزم على إبعادهم عن بغداد ، وتمهيد السبيل لدخول السلاجقة إليها . ولم يكن استنجد الخليفة العباسي بالسلاجقة إليها أمراً مستبعداً ؛ فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة ، فاستعانوا بالفرس على العرب في تأسيس دولهم ثم استعانوا بالأتراك على الفرس منذ عهد المعتصم ، وراسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرل بك السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيري وأنصاره حينما أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين في مصر ، بل إنه أوفد الرسل إلى خوارزم شاه ليقبضهم شر السلاجقة . وكانت العوامل التي دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستنجد ببني بويه والسلاجقة وخوارزم شاه هي نفس العوامل التي دفعتهم إلى الاستنجد بالتتار .

(١) الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد ج ٩ ص ٤٠٠ .

(٢) تاريخ الإسلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، مخطوط مصور رقم ٣٩٦ تاريخ ج ٣ ورقة ٢٢ .

ومها يكن من شيء فقد أرسل الخليفة العباسي إلى طغرل بك رسولا يدعوهُ إلى دخول بغداد^(١). ويقول ابن الأثير^(٢) في حوادث سنة ٤٤٧ هـ إن طغرل بك « أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة ، والمسير إلى الشام ومصر ، وإزالة المستنصر العلوي صاحبها » .

وقد أعد طغرل بك لذلك الأمر الخطير عدنه . ولما وصل إلى حلوان هاجت بغداد وماجت ، وانتثر عقد نظامها ، وأجفل الناس إلى غربها ، وعسكر الأتراك بظاهرها ، وسمع الملك الرحيم بقرب طغرل بك من بغداد ، فأصعد من واسط إليها وفارقه البساسيري في الطريق لمراسلة وردت من القائم في معناه إلى الملك الرحيم ، أن البساسيري خلع الطاعة وكانب الأعداء ، يعني المصريين ، وأن الخليفة له على الملك (الرحيم) عهد ، وله (أي الملك الرحيم) على الخليفة مثلها . فإن أثره (يعني طغرل بك السلجوقي) فقد قطع ما بينهما ، وإن أبعد وأصعد إلى بغداد ، تولى الديوان تدبير أمره . فقال الملك الرحيم ومن معه : نحن لأوامر الديوان متبعون وعنه (يعني البساسيري) منفصلون^(٣) .

على أن الأتراك الذين رضوا بإبعاد البساسيري أدركوا أن الخليفة إنما قصد إقصاءه ليفسح الطريق لدخول طغرل بك . ثم وصل الملك الرحيم إلى بغداد في منتصف شهر رمضان ، وأظهر إخلاصه للخليفة ، وقبل وساطته بينه وبين طغرل بك . فكان الملك الرحيم في ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأن الخليفة قد عقد النية ووطد العزم على الاستعانة بالسلاجقة وإزالة سلطان بني بويه . وقد أشار الخليفة على الملك الرحيم وأنصاره بأن يدينوا بالطاعة لطغرل بك الذي دخل بغداد دون كبير عناء^(٤) .

على أن زعزعة الحالة المالية في مصر ، وعودة المؤيد في الدين إليها ، وقيام المنافسة بين العنصرين العربي والتركي في جيش البساسيري ، وعودة طغرل بك إلى بغداد بعد أن قضى على فتنة أخيه إبراهيم بنال — كل ذلك قد ساعد على القضاء على ثورة البساسيري وقتله بعد أن أقام الخطبة للفاطميين على منابر بغداد نحواً من سنة .

(١) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨ — ٩ .

(٢) الكامل : ج ٩ ص ٢٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ٩ ص ٢٢٨ . انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية

ص ٤١١ — ٤١٣ .

وسرعان ما ردّ طغربك الخليفة إلى قصره معزراً مكرماً (٤٥١ هـ) وحارب البساسيري وانتصر عليه وقتله وحمل رأسه إلى بغداد^(١). ولما رجع الخليفة إلى قصره لم ينم بعدها إلا على فراش مصلاه ، ولزم الصيام والقيام ، ولم يضع رأسه بعدها على مخدة .

وقد ذكر المؤرخون أن البساسيري لما سجن الخليفة العباسي أخذ الخليفة يكتب قصته وأنفذها إلى مكة فعلق في الكعبة ، وفيها يشكو إلى الله فعل البساسيري ويطلب إليه أن يجازيه على بغيه وعدوانه . وإليك نص هذا الكتاب عن السيوطي^(٢) : « اللهم إنك العالم بالسرائر المطلع على الضمائر . اللهم إنك غنيّ بعلمك وإطلاعك على خلقك عن إعلامي . هذا عبد قد كفر نعمك وما شكرها وألغى العواقب وما ذكرها . أطفأه حملك حتى تعدى علينا بغيا وأساء إلينا عتوا وعدوا^(٣) . اللهم قلّ الناصر واعتزّ الظالم . وأنت المطلع العالم المنصف الحاكم ، بك نعتزّ عليه وإليك نهرب من يديه . فقد تعزّز علينا بالخلقين ، ونحن نعتزّ بك . وقد حاكناه إليك ، وتوكلنا في إنصافنا منه إليك ، ورفعنا ظلامتنا هذه إلى حرمك ووثقنا في كشفها بكرمك ، فاحكم بيننا بالحق وأنت أحكم الحاكمين » .

كان أمراء بني بويه يقيمون في بغداد ويجمعون كل السلطة في أيديهم . ثم جاء السلاجقة العسكريون يحكمون العراق ويستأثرون بالسلطة . وكان الخلفاء العباسيون يعيشون في أيام السلاجقة من إقطاعات مقررة يديرها عمال على رأسهم الوزير وكاتب الإنشاء كما كانت الحال في أيام بني بويه^(٤) . ولم يكن لهؤلاء الخلفاء شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة ، كما كانوا يقضون أوقانهم في بناء القصور وترميمها^(٥) .

على أننا إذا دققنا النظر وتبعنا الحوادث التاريخية فإننا نستطيع أن نهتدي إلى هذه النتيجة وهي أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت بصفة عامة أحسن بكثير من معاملة بني بويه لهم . ولعل ذلك كان راجعاً إلى هذه الحقيقة وهي أن السلاجقة

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٤٢ — ٢٤٤ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٣) يعني اعتداء .

(٤) البنداري : زبدة الفكرة ص ١٩٤ .

(٥) Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphate. p. 327 .

(م ٢ — تاريخ الإسلام — ج ٤)

كانوا يدينون بعقائد المذهب السني مذهب العباسيين . فقد أصبح السلاجقة كغيرهم من الشعوب التركية يتمسكون بعقائد المذهب السني بمجرد تحولهم إلى الإسلام . وقد عرفوا بشدة تحمسهم لهذا المذهب وتمسكوا كغيرهم من الأتراك بعقائد المذهب الحنفي .

وقد وصف ابن الأثير^(١) الاجتماع الذي عقد بين السلطان طغرل بك عند ما عاد إلى بغداد سنة ٤٤٩ هـ على أثر إخضاعه الموصل وقضائه على مناوأة دُبَيْس (بضم الدال وفتح الباء وسكون الياء) بن مزيد وقریش بن بدران وبين الخليفة القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ / ١٠٣١ - ١٠٧٥) فقال :

« وجلس الخليفة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة جلوساً عاماً ، وحضر وجوه عسكر السلطان وأعيان بغداد ، وحضر السلطان في المساء وأصحابه حوله في السميريات^(٢) . فلما خرج من السميرية أركب فرساً من مراكب الخليفة ، فحضر عند الخليفة ، والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع ، وعليه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويده القضيب الخيزران ؛ فقبل السلطان الأرض وقبل يده وأجلس على كرسي ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك ، وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده وردّ عليك مراعاة عبادته . فائق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك في ذلك واجتهد في نشر العدل وكفّ الظلم وإصلاح الرعية . وأمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه ؛ فقام إلى موضع لبسها فيه ، وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه ، وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب ، وأعطى العهد وخرج . وأرسل إلى الخليفة خدمة (هدايا) كثيرة ، منها خمسون ألف دينار وخمسون مملوكاً أنراكاً من أجود ما يكون ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من السلاح وغيرها . كما تظهر هذه العلاقات الحسنة في ارتباط البيتین السلجوقي والعباسي برباط المصاهرة في كثير من المناسبات .

(١) الكامل ج ٩ ص ٢٣٧ .

(٢) بضم السين مع التشديد وفتح الميم وسكون الباء ضرب من السفن .

تقدمت السن بالسلطان طغرلبك إذ بلغ السبعين ، وكان عقيماً لم ينجب ولداً . ولكن أطاعه لم تقف عند حد ، فللك هذه الدولة الشاسعة الأرجاء ، بل إنه بعد وفاة زوجته في سنة ٤٥٤ (١٠٦١ - ١٠٦٢ م) خطب ابنة الخليفة القائم (وقيل أخته) . ثم غادر طغرلبك بغداد إلى بلاد الجبل ، فوصل إلى الرى ومعه ابنة أخيه أرسلان خاتون زوجة الخليفة . فرض في الطريق ومات في شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) بعد أن حكم الدولة العباسية سبع سنين وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوماً . وكان وزيره الكندري على بعد سبعين فرسخاً من الرى ، فطوى هذه المسافة في يومين ، ولم يكن طغرلبك قد دفن بعد ، فتولى الوزير الكندري دفنه ، ووزع جميع ما كان يملكه على الجنود ، وأجلس سليمان ابن داود أخا طغرلبك على العرش ، وكان عمه ألب أرسلان قد أوصى بأن يخلفه من بعده .

أخلاق طغرلبك وصفاته — وفاته

كان طغرلبك ، على ما وصفه ابن الأثير ، عاقلاً حليماً من أشد الناس احتمالاً وأكثرهم كتباً لسره ، وكان يحافظ على الصلاة ويصوم يومى الاثنين والخميس ، وكان يلبس الثياب البيض ، وكان كريماً ، فقد روى المؤرخون أن أخاه إبراهيم ينال أسر بعض ملوك الروم فاقتدى نفسه بأربعمئة ألف دينار ، فأبى إبراهيم وحمله إلى السلطان طغرلبك . فأرسل إمبراطور الروم إلى الأمير نصر الدولة بن مروان يطلب وساطته عند طغرلبك فى إطلاق سراحه . فأرسل السلطان ذلك الرومى بصحبة أحد رجاله دون أن يأخذ منه فداء . وقد قدر الإمبراطور هذا الصنيع وعبر عن إعجابه به وتقديره إياه ، فرد مع رسوله إلى طغرلبك « ما لم يحمل فى الزمان المتقدم ، وهو ألف ثوب ديباج ، وخمسمائة ثوب أصناف (١) ، وخمسمائة رأس من السكر ، إلى غير ذلك ، وأنفذ مائتى ألف دينار ، ومائة لينة فضة ، وثلثمائة شهرى (٢) (بكسر الشين) . وثلثمائة حمار مصرية ، وألف عنز بيض الشعور سود العيون والقرون . وأنفذ إلى ابن مروان عشرة أمماء مسكاً (٣) ، وعمر ملك الروم الجامع الذى بناه مسلمة بن عبد الملك بالقسطنطينية وعمر منارته وعلق فيه القناديل ، فى محرابه قوساً ونشابة ، وأشاع المهادنة » (٤)

(١) يعنى من التحف المتنوعة

(٢) جاء فى القاموس فى مادة شهر : الشهرية (بالكسر) ضرب من البراذين وهو يناسب المعنى هنا

(٣) لعله يقصد الأوعية المحسنة التى يؤمن على ما فيها

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠

وقد ذكر البندارى^(١) أن أبا الحسن على الماوردى أقضى القضاة وصاحب كتاب الأحكام السلطانية الذى يعد أول كتاب وضع فى النظم الإسلامية بوجه عام والمتوفى سنة ٤٥٠ هـ لما حل رسالة الخليفة القائم إلى طغرلىك سنة ٤٣٣ هـ ، كتب إلى الخليفة كتاباً ضمنه الطعن فى طغرلىك والقدح فيه وذكر مساوئه . ولكن هذا الكتاب وقع من غلام الماوردى وحل إلى طغرلىك ووقف على ما تضمنه ، ولكنه ختمه وكنم ما فيه ، واستمر فى إكرام الماوردى واحترامه . وكان طغرلىك يدارى هفوات الناس بحلمه ، كما كان كثير الصدقات حريصاً على بناء المساجد كثير التعبد والتهجد ، وكان يقول : إني أستحي من الله أن أبني داراً ولا أبني إلى جانبها مسجداً .

وكذلك روى البندارى^(٢) عن عميد الملك الوزير الكندرى أن طغرلىك لما مرض مرض الموت قال : إنما مثلى فى مرضى مثل شاة تسد قوائمها لجز الصوف ، فتظن أنها تذبج فتضطرب . حتى إذا أطلقت تفرح ، ثم تشد قوائمها للذبج ، فتظن أنها لجز الصوف وتسكن فتذبج . وهذا المرض شد القوائم للذبج . وتوفى وله من العمر سبعون سنة على ما تقدم .

(٣) ألب أرسلان ٤٥٥ — ٤٦٥ / ١٦٠٣ — ١٠٧٢ .

خلف طغرلىك ألب أرسلان ابن أخيه داود صاحب خراسان ومعه وزيره نظام الملك برغم نص طغرلىك على تولية سليمان بن داود لأن أمه كانت عنده ، فحقق رغبتها فى ابنها . وقد جلس على عرش السلطنة بمساعدة الوزير الكندرى (بضم الكاف والدال وسكون النون) المعروف بعميد الملك ، كما أن أخاه ألب أرسلان وعمه قطلش ثارا عليه وحلت به الهزيمة ، وجلس ألب أرسلان على عرش السلطنة^(٣) بمساعدة وزيره نظام الملك . وقد أدت هذه المحاولة إلى قتل الوزير الكندرى الذى قبض عليه وأرسل إلى مرو حيث اعتقل نحواً من سنة ، ثم قتل بيد غلامين أرسلهما إليه السلطان الجديد بعد أن وزر للسلطان طغرلىك ثمانى سنين وشهوراً ، وكان عمره إذ ذاك نيفاً وأربعين سنة^(٤) .

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦ — ٢٧ .

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦ .

(٣) ابن خلصان : وفیات الأعيان ج ٤ ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٤) البندارى ص ٢٧ — ٢٨ .

وكان الوزير الكندري فصيحاً بالعربية شاعراً ، ولما شعر بدنو أجله قال لمن شهر السيف عليه : فل لنظام الملك : « بشما عودت الاتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان ، ومن حفر قليباً (بئراً) وقع فيه » ودعا الله أن يُحل لعنته به وبالسُلطان وأن يلقى كل منهما نفس المصير ^(١) .

وقد استجاب الله لدعاء الوزير الكندري ، فقد حلت لعنته بالوزير نظام الملك وقتل على أيدي الباطنية ، وقتل السلطان ألب أرسلان ببلاد ما وراء النهر كما سيأتي . وهكذا ظهر هذا الوزير الذي لا يضارعه وزير شرقي آخر ، كما يقول « براون » ^(٢) ، بهذا العمل الذي ينم عن القسوة وسفك الدماء ، وحلت به لعنة سلفه ، وختمت حياته بنفس الطريقة التي ختمت بها حياة سلفه . وفي العصر السلجوقي الذي يشتمل على خمس وخمسين سنة (٤٣٠ — ٤٨٥ هـ) أسندت مقاليد الدولة إلى أحد مشهورى الوزراء الذين أنجبهم بلاد الفرس ، وهو نظام الملك الذى اشتهر بحكمته وحزمه .

اختلف المؤرخون فى السنة التى ولد فيها ألب أرسلان ؛ فذكر بعضهم أنه ولد سنة ٤٢٠ هـ ^(٣) (وقيل سنة ٤٢٤ هـ أو سنة ٤٣١ هـ) . وكان عهده رغم قصره (٤٥٥ — ٤٦٣ هـ) حافلاً بجلائل الأعمال . فى السنة الأولى من حكمه أخضع ختلان بفتح الخاء وسكون التاء) وهراة (بفتح الهاء) وصيفانيان (بكسر الصاد والتون) فى الشمال الشرقى ، وكان أصحابها قد شقوا عليه عصا الطاعة ، وردّ البيزنطيين فى آسيا الصغرى على أعقابهم بعد أن فتح كثيراً من قلاعهم وغنم غنائم لا تحصى وأسلم كثير من أهالى هذه البلاد . وقد اشترك ملكشاه بن ألب أرسلان والوزير نظام الملك فى هذه الحروب سنة ٤٥٦ هـ ^(٤) . وبعد قليل أخضع ألب أرسلان جند حيث دفن جده الأكبر سلجوق مما جعل لها أهمية خاصة فى نظره ، وقع الثورة التى قامت فى فارس وكرمان . وفى سنة ٤٥٧ هـ أخذ فى بناء المدرسة النظامية ببغداد ، وفى السنة التالية ولى عهده ابنه ملكشاه ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٢ .

Lit. Hist. of Persia, vol, II p. 175.

(٢)

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٣ — ١٥ . وقد ذكر ابن خلكان (ج ٤ ص ١٦٢) أن ألب

أرسلان ولد سنة ٤٢٤ هـ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٧ .

قبايحه أمراء دولته ، وذكر اسمه في الخطبة في جميع البلاد التي دانت لسلطانه ، وأقطع بلاده أفراد البيت السلجوقي^(١) .

كذلك أقطع ألب أرسلان من بلاد خصومه الفاطميين حلب ومكة والمدينة ، وأقيمت الخطبة بحلب للخليفة العباسي القائم وللسلطان ألب أرسلان^(٢) ، ولعل من أهم الأحداث التي وقعت في عهد السلطان ألب أرسلان ذلك الانتصار الحاسم الذي أحرزه على جيش البيزنطيين في ملازجرد^(٣) سنة ٤٦٣ هـ ، وكان هذا الجيش يتكون من مائتي ألف مقاتل^(٤) في أقل تقدير (من الروم والروس والغز من جميع العشائر والأكراج والخزر والفرنجية والأرمن) ، على حين لم يزد جيش السلاجقة على ١٥,٠٠٠ ، وما تبع هذا الانتصار من أسر لإمبراطور الروم .

وقد ذكر جبهة المؤرخين (كابن الأثير والبنداري وصاحب كتاب راحة الصدور) ما كان من أسر إمبراطور الروم ديوجينيس رومانوس (Diogenes Romanus) ، ذلك أن أحد غلمسان سعد الدين جوهر — آئين (ويسميه ابن الأثير كوهرايين) هو الذي أسر الإمبراطور ، فأراد قتله ، فقال له خادم مع الملك : لا تقتله فإنه الملك . وكان هذا الغلام قد عرضه جواهر — آئين أحد أمراء ألب أرسلان على الوزير نظام الملك فرده استحقاراً له . فأثنى عليه جواهر — آئين ، فقال نظام الملك مازحاً : عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً . ومن أعجب المصادفات أن هذا الغلام هو الذي أسر الإمبراطور . فلما أسره

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٠ ص ١٩) أنه أقطع مازنفران الأمير لبتاغ بيغو وبلغ أخاه سليمان بن داود ، وخوارزم أخاه أرسلان أرغون . ومرو ابنه الآخر أرسلان شاه ، وصغانيان وطغارستان أخاه إلياس ، وولاية بقتور ونواجها مسعود بن أرتاش (أحد أقارب السلطان) ، وولاية اسفرار مودود بن أرتاش .

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٢ ، ٢٣ — ٢٤ .

(٣) بكسر الجيم (ويسميه ابن الأثير ملاز كرد على مقربة من أخلط غرب آسيا الصغرى .

(٤) نقل براون (ج ٢ ص ١٧٧ هامش (١) عن مخطوط راحة الصدور التي صنفها الراوندي سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) أن عدد جند الروم بلغ ٦٠٠.٠٠٠ . وذكر البنداري ٣٠٠.٠٠٠ وابن الأثير : ٢٠٠.٠٠٠ . ويتناول كتاب راحة الصدور تاريخ السلاجقة . وكانت نسخته المخططة الفريدة في حوزة (شيفر) وهي الآن بالمكتبة الأهلية بباريس في الملحق الفارسي . وقد نشر براون (Vol. II, p. 297) وصفا لهذه المخطوطة في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية (بانجلترا ١٩٠٢) ص ٥٦٧ — ٦١٠ ، ٨٤٩ — ٨٨٧) . وقد طبع محمد إقبال هذه المخطوطة سنة ١٩٢١ في ليدن ضمن سلسلة جب التذكارية . انظر براون : تاريخ الأدب في إيران ترجمه الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ١٣٥ هامش ٢ ، ص ٢٠٩ هامش رقم ٢ .

أحضره عند جواهر - آتين ، فقصده السلطان ألب أرسلان وأخبره بنبأ أسر الإمبراطور ، فأمر بإحضاره . فلما أحضر ضربه السلطان ثلاثة مقارع بيده وقال له : ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت ؟ فقال : دعني من التوبيخ وافعل ما تريد . فقال السلطان : ما عزمتم أن تفعل بي إن أسرتي ؟ قال : أفعلُ القبيح ، قال السلطان : ما تظن أنني أفعل بك ؟ قال : إما أن تقتلني وإما أن تشهرني في بلاد الإسلام ، والآخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائباً عنك . قال : ما عزمتم على غير هذا . ففداه السلطان بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها ، وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم ، وقد استقر الأمر على ذلك وأنزله في خيمة وأرسل إليه خمسة عشر ألف دينار^(١) يتجهز بها ، وأطلق سراح جماعة من أمراته وقواده ، وخلق عليه وسيّر معه عسكرياً أوصلوه إلى مأمنه وشيعه السلطان فرسخاً^(٢) .

وفي هذه السنة فتح لانسز أحد أمراء ملكشاه بن ألب أرسلان مدينة الرملة وحاصر بيت المقدس ، وكانت بأيدي الفاطميين ، ففتحها واستولى على ما جاورها من البلاد عدا عسقلان^(٣) .

وفاة ألب أرسلان — صفاته

وفي أوائل سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) سار ألب أرسلان إلى بلاد ما وراء النهر على رأس مائتي ألف مقاتل استدعى قتلهم أن يعقد على نهر جيحون جسراً وعبر عليه في أكثر من عشرين يوماً . وقد أنه أصحابه بمستحفظ قلعة يسمى يوسف الترمزي (بفتح النون . مع التشديد وسكون الراء وفتح الزاي)^(٤) . وقد وقفت هذه القلعة في وجه ألب أرسلان

(١) ذكر ابن الأثير عشرة آلاف ونقل براون عن كتابه راحة الصدور أنه خمسة عشر ألف .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٤ - ٢٥ . البنداري : تاريخ آل سلاجوق ص ٣٧ - ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٥ .

(٤) أو البرزمي أو الخوارزمي (بضم الخاء وفتح الواو وسكون الزاي) . وقد ذكر صاحب كتاب راحة الصدور الاسم الأول وذكر الاسم الثاني صاحب كتاب سلاجقة كرمان (ص ١٢) وذكر الاسم الثالث ابن الأثير والبنداري (ص ٣٧)

Browne, vol. II, p. 179

وحمل هذا المستحفظ غلامان حتى قرب من السلطان فأمر بأن تضرب أربعة أوتاد لتشد أطرافه الأربعة إليها ، ويعذبه ثم يقتله ، فقال له المستحفظ : أمثلي يقتل هذه القنلة ؟ فغضب ألب أرسلان وأخذ قوسه وجعل فيها سهماً وأمر بحمل قيده ، ورماه بسهم فأخطأه . وكان مدلاً برميته ، فنزل عن سريره فعثر ووقع على وجهه ، فبادره يوسف بسكين كانت معه ، وجرح سعد الدولة آئين ، وانتقل السلطان إلى خيمة أخرى ، وضرب خادم أرمي يوسف بمرزبة على رأسه فقتله . وحضر الوزير نظام الملك وأوصاه ألب أرسلان بأن يكون ابنه ملكشاه ولي عهده ^(١) . وبما يؤثر عن ألب أرسلان أنه قال حين أيقن بدنو أجله : مامن وجه قصصته وعدو أردته إلا استعنت بالله عليه . ولما كان أمس ، صعدت على تل عال فارتجت الأرض تحتي من عظم الجيش وكثرة العسكر ، فقلت في نفسي أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد عليّ ، فعجزني (فأعجزني على الأصح) الله تعالى بأضعف خلقه . وإلى أستغفر الله تعالى وأستقبله ^(٢) من ذلك الخاطر ^(٣) .

وكان ألب أرسلان يطمع في السير بهذا الجيش الجرار إلى أقصى بلاد الصين ، فقال : فرأيت عسكري في أجمل حال فقلت : أين من له قدر مصارعتي وقدرة معارضتي بهذا العسكر إلى أقصى الصين « فخرجت عليّ مني من السكين » ^(٤)

وتوفي ألب أرسلان في اليوم العاشر من سنة ٤٦٥ هـ ، خمل جثمانه إلى مرو ودفن بجوار أبيه وله من العمر أربعون سنة وشهوراً . وكانت مدة سلطنته تسع سنين وستة أشهر وأياماً . وقد ترك من الأولاد ملكشاه الذي خلفه في السلطنة وإياز ونكش وأرسلان أرغون وبوري برس (برش ؟) وتُنش وثلاثاً من البنات منهن سارة وعائشة ^(٥)

كان ألب أرسلان ، كما وصفه ابن الأثير ^(٦) ، كريماً عادلاً عاقلاً ، وكان رحيم القلب مقرأً بأنعم الله عليه . وكان يتصدق على الفقراء ، ولا سيما في شهر رمضان الذي كان يتصدق فيه بخمسة عشر ألف دينار . وقد اشتمل ديوانه على أسماء كثير من الناس في جميع البلاد

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٢ .

(٢) أي أطلب منه أن يقبلني ويعفني من الذنب الذي ارتكبته باغتراري بقوتي .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٧ - ٢٨ .

(٤) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٥ .

(٥) ابن الأثير : ج ١٠ ص ٢٨ . البنداري ص ٤٥ .

(٦) ج ١٠ ص ٢٨ .

التي دانت له كانوا ينعمون بصلاته وعطاياه. ولم يعرف عن عهده وقوع جنائية أو مصادرة، بل كان يكتفي بجمع الخراج مرتين تيسيراً للزارعين، وكان ألب أرسلان يكره السعائيات؛ فقد كتب إليه بعض السعاة ظلاماً تركت على مصلاة. وهي خاصة بوزيره نظام الملك ذكر فيها فداحة الرسوم والأموال التي كان يستأثر بها لشخصه. ولما قرأ ألب أرسلان هذه الرسالة سلبها إلى وزيره وقال له: خذ هذا الكتاب فإن صدقوا فيما كتبوه فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك، وإن كذبوا فاغفر لهم زلتهم وأشغلهم بمهم يشتغلون به عن السعاية بالناس. وقد عرف ألب أرسلان بحسن السمعة والمحافظة على العمود، حتى أذعن له الناس بالطاعة وداؤوا له بالولاء وقصدوه من كافة أرجاء بلاده الشاسعة الأطراف التي امتدت من أقاصى بلاد ما وراء النهر إلى أقاصى بلاد الشام. ولا عجب فقد « عظمت مملكته » (كما يقول ابن خلكان) ^(١) ورُهِبت سطوته، وفتح من البلاد ما لم يكن لعمه طغرل بك مع سعة ملك عمه. وكان ألب أرسلان حريصاً على ردع جنده وكفهم عن أخذ أموال الرعية. وقد بلغه أن بعض خواص عماليكه سلب إزاراً، فأمر بالمملوك فصلب. وكان ذلك رادعاً للناس عن التعرض لمال غيرهم.

٤ — ملكشاه —

(٤٦٥ - ٤٨٥ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢)

أسس طغرل بك وإخوته ملكاً عظيماً، وجاء بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود، فانتصر على الروم وأسر إمبراطورهم مقابل فدية كبيرة، وهادته خمسين سنة. ولما قتل ألب أرسلان سنة ٤٦٥ هـ، خلفه ابنه ملكشاه الذي اتسع ملكه اتساعاً عظيماً ودعى له على منابر البلاد الممتدة من حدود الصين شرقاً إلى أقاصى بلاد الشام غرباً ومن البلاد الإسلامية في الشمال إلى جنوبي بلاد اليمن، وأدى له أباطرة الروم الجزية.

ولد ملكشاه سنة ٤٤٧ هـ، وكان في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره حين آلت إليه مقاليد هذه السلطنة الشاسعة الأرجاء. وكان مليح الوجه. وأسند الوزارة إلى نظام الملك وزاد أعطيات الجند. وكان ألب أرسلان قد أوصى ابنه ملكشاه أن يعطى عمه قاوورت بن داود (وكان بكرمان) أعمال فارس وكرمان وبعض المال

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦١.

الذى عينه ، وأن يعطى أخاه أياز بن ألب أرسلان . ما كان لداود وهو خمسمائة ألف دينار^(١) .

وقد بدأ عهد ملكشاه بقيام الاضطرابات في أطراف البلاد التي كانت خاضعة لحكم السلاجقة . فقد استولى التتكين (بفتح الألف مع الهمزة وسكون اللام وكسر التاء والسكاف) صاحب سمرقند على ترمذ وشقت جيوش أياز أخى ملكشاه ، وأسر إبراهيم الغزنوى عمه عثمان ونقله مع خزانته إلى غزنه ، ولكن جموشتكين (بضم الجيم وسكون الشين وكسر التاء) (وكان من أكبر أمراء الدولة السلجوقية) ومعه أنوشتكين^(٢) جد ملوك الدولة الخوارزمية التي سيأتى الكلام عليها ، تتبع آثارهم ونهب بعض بلادهم . ولعل أشد هذه الاضطرابات خطراً تلك التي أثارها قاووت عم السلطان ملكشاه وأول ملوك السلاجقة بكرمان الذى سار إلى الرى مطالباً بالسلطنة . وقد التقى الجيشان على مقربة من همدان ودارت بين ملكشاه ومعه وزيره نظام الملك وبين قاووت معركة حامية الوطيس دامت ثلاثة أيام وثلاث ليال انتهت بهزيمة قاووت وتشيت شمل جنده الذين ولوا الأدبار وأسره وقتله وسمل عيون ابنه أميرانشاه وسلطان شاه . أما سلطان شاه فلم يتم سمل عينيه للدرجة التي تحول دون قدرته على أن يخلف أباه فى حكم كرمان . وتقديراً للخدمات الجليلة التي أداها الوزير نظام الملك فى هذه الأزمة الخطيرة وما ظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته ، منحه السلطان ملكشاه لقب أتاكبك وقال له : « قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك ، فأنت الوالد ، وحلف له ، وأقطعه إقطاعات من جملتها طوس مدينة نظام الملك ، ثم لقبه بلقب « أتاكبك » ومعناه « الأمير الوالد » (أو مربى الأمير)^(٣) .

وفى السنة التالية (٤٦٧ هـ) مات الخليفة القائم (وكان فى السابعة والسبعين من عمره

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٨ - ٢٩

(٢) بفتح الألف مع الهمزة وكسر التاء .

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٩ - ٣٠

بعد أن ولى الخلافة أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياماً^(١). وفي عهده (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) مات ابن سينا الذي يسمونه شيخ الفلاسفة، ومهيار الديلمي الشاعر، وأبو الحسين البصري شيخ المعنزة، وأبو الحسن الماوردي قاضي انقضاة وصاحب كتاب الأحكام السلطانية، وابن حزم الظاهري صاحب كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل. والخطيب البغدادي صاحب كتاب تاريخ بغداد، وابن رشيق صاحب كتاب العمدة، وابن عبدربه الذي خلف لنا كتابه العقد الفريد المشهور في عالم الأدب والتاريخ.

وعلى الرغم من أن السلطان ملكشاه السلجوقي وجه همهته إلى الأعمال الحربية مثل أبيه، شجع العلم ونشر الحضارة، وحفر الترع وأقام الجسور وحسن المدن، كما ولع بالفلك وشجع دراسة العلوم الدينية والعقلية بمعونة وزيره المشهور نظام الملك الذي أسس المدرستين العظيمتين اللتين تعرفان باسمه في بغداد ونيسابور، وتعرف كل منهما باسم المدرسة النظامية، كما أسس المدرسة الحنفية ببغداد.

وفي سنة ٤٦٧ هـ أسس ملكشاه للمرصد وعين فيه جماعة من أعيان المنجمين، نخص بالذكر منهم عمر الخيام (عمر بن إبراهيم الخيامي) وأبا المظفر الأسفزاری وميمون ابن النجيب الواسطي وغيرهم. وقد بطل هذا المرصد بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ. ويذكر ابن الأثير أن ملكشاه ووزيره نظام الملك جمعا جماعة من المنجمين وجعلوا النيروز أول نقطة من الحل.

خلف الخليفة القائم ابنه المقتدى (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ). وبعد سنة استرد الخليفة المستنصر الفاطمي نفوذه، في مكة. على أن ذلك النفوذ لم يدم أكثر من سنة وفقد هذا الخليفة الفاطمي دمشق. وبعد سنتين (٤٧٤ هـ) تزوج الخليفة المقتدى ابنة السلطان ملكشاه الذي مات ابنه داود في السنة نفسها، فجزع عليه جزعا شديداً وحزن حزناً عميقاً وحال دون غسله. ولما دفن لم يطق السلطان المقام وخرج للصيد وأمر بالنياحه عليه عدة أيام^(٢). وبعد ثلاث سنين ولد له ابن آخر هو سَنَجَر^(٣) (بفتح السين والجيم وسكون النون)، تخفف السرور بالمولود الجديد حزنه على ابنه المفقود. وفي سنة ٤٨١ هـ ولد لملكشاه ابن آخر هو بركيا روق.

(١) كانت أمه أم ولد تسمى قطر الندى (وقيل علم) وكانت أرمنية (وقيل رومية) (ابن الأثير

ج ١٠ ص ٣٥)

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٣٦ - ٤٥.

(٣) إشارة إلى سنجار (بكرالسين) القريبة من الموصل.

وفي ذلك الوقت استجاب الله لدعوة الوزير الكندري . فقد وردت الأنباء إلى بغداد بوفاة جمال الملك ابن الوزير نظام الملك ، وكان يتولى بلخ ، وأعمالها . وقد قيل في سبب قتله إن جَعْفَرُكَ أحد مضحكي السلطان ملكشاه كان يسخر من الوزير نظام الملك في خلواته مع السلطان . ولما بلغ ذلك جمال الملك ، طوى المراحل إلى والده وإلى السلطان وهما بأصبهان ، فاستقبله أخواه نحر الملك ومؤيد الملك ، فأغلظ لها القول ، لإغضائهما عما بلغه من سخرية جَعْفَرُكَ بأبيهم . ولما مثل جمال الملك بين يدي السلطان رأى هذا المضحك يساره ، فانتهره فلما خرج جعفر كُ أمر جمال الملك بإخراج لسانه من فقاؤه وقطعه فمات ، ثم سار مع السلطان وأبيه إلى خراسان ، وأقاموا بنيسابور مدة ، ثم أرادوا العودة إلى أصفهان وتقدمهم الوزير نظام الملك ، وقد أوعز السلطان إلى أحد خدم جمال الملك بقتله ، ففس له السم في إناؤه مملوء بالفقاع ، فشربه فمات ، ثم لحق السلطان بوزيره وهواه في ابنه (١) .

زار السلطان ملكشاه بغداد مرتين في عهده . فكانت الزيارة الأولى في سنة ٤٧٩ هـ (مارس ١٠٨٧ م) بعد أن فتح حلب وحمص وغيرها من البلاد التي تمتد من الرها إلى بلاد الشام . وكان الوزير نظام الملك بصحبة السلطان . وفي الغد خرج السلطان ملكشاه إلى الحلبة ولعب بالجوكان والكرة (البولو) ، وزار مشهد موسى الكاظم الإمام السابع عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية وأضرحة معروف السكرخي المتصوف ، وأحمد بن حنبل ، وأبي حنيفة وغيرها من المشاهد المعروفة ، كما زار مشهد علي بن أبي طالب ، ومشهد ابنه الحسين . وهذا يدل على بعد نظر السلطان ونظر وزيره وعدم تحيزهما لمذهب خاص .

وقد أرسل السلطان ملكشاه إلى الخليفة المقتدى كثيراً من الهدايا النفيسة . ثم مثل بين يدي الخليفة فخلع عليه ، ثم خرج ، وظل الوزير نظام الملك يقدم الامراء ، كل أمير باسمه وإقطاعه وعدة عساكره ، « وفوض الخليفة إلى السلطان أمر البلاد والعباد » ، وخلع الخليفة الخلع على الوزير نظام الملك . كما زار الوزير المدرسة النظامية ببغداد وخزانتها ، وألقى على الطلاب درساً في الحديث وأملى عليهم جزءاً آخر . وأقام السلطان

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٥ .

يبغداد إلى شهر صفر سنة ٤٨٠ هـ ، ثم رحل إلى أصبهان^(١) .

وفي ذلك الوقت زوج السلطان ملكشاه أخته زليخة خاتون من محمود بن شرف الدولة (وأقطعه الرحبة وحران وسروج والركة والخابور) ، كما زوج ابنته من الخليفة العباسي المقتدى ، على حين ولدت زوجته ترکان خاتون ابناً أسماه محموداً قدر له أن يلعب دوراً قصيراً في الاضطرابات التي سادت البلاد بعد موت أبيه ، لأن ابنه الآخر أحمد الذي عزم السلطان على أن يخلفه من بعده مات بمرض وهو في الحادية عشرة من عمره بعد مولد أخيه محمود بسنة . وفي الوقت نفسه عقد السلطان ملكشاه مع البيت الغزنوي مخالفة كان من أثرها أن تزوجت ابنة السلطان ملكشاه من السلطان مسعود الثاني الغزنوي وكان في مقتبل العمر .

وأما زيارة السلطان ملكشاه الثانية لبغداد فقد كانت في سنة ٤٨٤ هـ (أكتوبر ١٠٩١ م) . أي قبل وفاته بسنة . وفي المدة التي تخللت هاتين الزيارتين فتح السلطان ملكشاه بخارى وسمرقند وغيرهما من مدن بلاد ما وراء النهر ، وتسلم وهو في كاشغر الجزية من إمبراطور الروم . ولم تكن أحوال الدولة السلجوقية في يوم من الأيام أعظم ازدهاراً منها في ذلك الوقت . فقد ذكر « براون » نقلاً عن كتاب راحة الصدور أن الملاحين الذين نقلوا ملكشاه وجيوشه على سفنهم عبر نهر جيحون قد تسلبوا من الوزير نظام الملك حوالات وتسلبوا قيمتها النقدية من العامل السلجوقي بأنطاكية ليدركوا مدى اتساع أملاك السلطان . وفي اللاذقية التي تعد ميناء سورية اليوم ركب السلطان ملكشاه جواده على ساحل البحر الأبيض المتوسط وشكر الله سبحانه على ما حباه من سعة الملك ، كما منح رجال حاشيته إقطاعات في سورية وآسيا الصغرى ، على حين أتجه جيشه النظامي الذي بلغ ٤٦.٠٠٠ مقاتل (دونت أسماؤهم في ديوان الجيش) نحو حدود الصين^(٢) . كما ملك ملكشاه بلاد اليمن واستولى على عدن^(٣) .

وكان ملكشاه كما وصفه ابن خلكان « أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢) Browne, Vol. II, pp. 183, 184.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٥ .

العاذل»^(١) ، وكان يجلس للمظالم بنفسه ويقضى بين الناس بالقسطاس المستقيم ، كما كان بابه مفتوحاً لكل قاصد بحيث يستطيع أى شخص من أفراد شعبه أن يتصل به فى سهولة ويسر لرفع ظلامته أو التعبير عما لحقه من اضطهاد . وكانت السبل فى أيامه آمنة ، والقوافل تسير من بلاد ما وراء النهر إلى أقصى بلاد الشام فى أمن وطمأنينة^(٢) ، كما حفر ملكشاه الآبار فى طريق مكة وبنى منارة القرون بالسيعى فى طريق مكة ، وبنى منارة أخرى ببلاد ما وراء النهر ، وأسقط المكوس عن حاج بيت الله ، وقد سارت مهارته فى الصيد على كل لسان^(٣) .

الوزير نظام الملك

وفى السنين التى تميزت بازدهار العهد السلجوقى كان نظام الملك ساعد ملكشاه الأيمن ومدبر مملكته ومستشاره الأمين ، « فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد » على حد تعبير ابن خلكان^(٤) . وكان نظام الملك هو وأولاده الإثنى عشر يقبضون على زمام الأمور ، وقد ذهبوا كما ذهب البرامكة فى العصر العباسى الأول من قبلهم ضحية الدسائس والمؤامرات التى دبرها لهم حسادهم المنافسون .

وكان نظام الملك أبو الحسن على بن إسحاق من أبناء الدهاقين بطوس ، وقد توفيت أمه وهو رضيع ، فكان أبوه يطوف به على المرضعات فيرضعنه حسبة^(٥) ، حتى شب وتعلم العربية وعرف بعلو الهمة واشتغل بالعلم فتفوق فيه ، وسمع الحديث . وقد أسندت إليه بعض أعمال الدولة ، ثم أخذ يترقى فى سلكها ، وكان يطوف بلاد خراسان ووصل إلى غزنة فى حجة بعض الحكام ، ثم اتصل بخدمة أبي على بن شاذان متولى الأمور ببلخ ، من قبل داود أبي السلطان ألب أرسلان ، فظهرت كفاية نظام الملك وأمانته ، وتقرب إليه وتحسنت أحواله لديه . فلما حضرت أبا على بن شاذان الوفاة أوصى به ألب أرسلان ، وزكاه عنده ، فأسند إليه أعماله . ثم أصبح وزيراً له ومشيراً حتى ولى

(١) وفيات الأعيان ج ٤ س ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ٤ س ٣٧٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ س ٧٩ .

(٤) وفيات الأعيان ج ٤ س ٣٩٦ .

(٥) دون مقابل أى ابتغاء مرضاة الله .

السلطنة بعد عمه طغرل بك ، فأسند إليه الوزارة ، وعهد إليه بنفشته ابنه ملكشاه وقال له : هذا حسن الطوسى (يعنى نظام الملك) فتسلمه واتخذ ولدأ لا تخالفه .

وكان نظام الملك عالماً ديناً جواداً عادلاً حليماً كثير العفو طويل الصمت . وكان مجلسه حافلاً بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح ، وقد اشتهر ببناء المدارس في البلاد وخصص لها النفقات العظيمة وأملى الحديث ببغداد ونيسابور وغيرهما من مدن خراسان .

وكان نظام الملك منقطعاً للعبادة يؤدى الصلوات في أوقاتها ، إذ كان يأمر مؤذنه بالصلاة إذا حان وقتها ، وينبهه إذا حان وقت الأذان ، كما أسقط المسكوس والضرائب وأزال على المنابر لعن الأشعرية ^(١) الذى كان من آثار عهد البويهيين الشيعة . وكان الوزير عماد الملك السكندرى قد حسن للسلطان طغرل بك لعن الرافضة ، فوافق على ذلك ، فأضاف إليهم الأشعرية . وكان يحل أهل العلم ويجلسهم في المسكن اللائق بهم . وما يؤثر عن نظام الملك أنه تمنى لو كانت له قرية ومسجد ينفرد فيه للعبادة . ثم تمنى بعد ذلك أن تكون له قطعة أرض يتقوت من ريعها ومسجد يعبد الله فيه . وقد تمنى في أواخر أيامه أن يمنحه الله رغيفاً يقبل به ومسجداً يعبد الله فيه . ومن هنا ندرك ميل نظام الملك نحو الزهد والتقشف في نهاية حياته وصدوفه عن الدنيا وزخرفها .

وكان من عادة نظام الملك أن يشرك الفقراء معه في الطعام ويقربهم إليه . وقد أثر عنه أنه كان ليلة يتناول الطعام مع عميد خراسان ، وجلس إلى جانب العميد شخص فقير قد قطعت يده . ولاحظ نظام الملك أن العميد يتأفف من الأكل مع هذا الفقير ، فأمر العميد أن ينتقل إلى الجانب الآخر من السباط ، وقرب هذا الفقير إليه فأكل معه .

مات نظام الملك في العاشر من شهر رمضان سنة ٤٨٥ هـ بعد أن تقلد الوزارة لآل أرسلان وملكشاه نحواً من ثلاثين سنة . وقد تضاربت أقوال المؤرخين في أسباب قتله : (١) قيل إنه كان على مقربة من نهاوند ، وكان صائماً ، وبعد أن غربت الشمس

(١) كان الأشعرية سنيين مؤولين يلتقون مع الشيعة في كثير من الآراء : ويبدو من هذا أن السلاجقة كانوا يسرون على السنة السلفية ، أى على نهج السلف الصالح . وقد اتخذ الأشعرية مذهباً وسطاً بين المعتزلة وبين السلف الصالح . ولذلك أطلق عليهم أهل السنة والجماعة .

تناول طعام الإفطار ثم خرج إلى خيمة لزيارة أهله ، فاعترضه صبي ديلبي من الباطنية يحمل في يده ظلامه ، وسأله أين يتناولها ، فدنا نظام الملك يده ليأخذها ، فطعنه الصبي بسكين في قلبه ، فسقط الوزير مفضياً عليه وحمل إلى مضربه فمات ، وهرب القاتل فأدركه رجال الوزير وقتلوه (١) .

(٢) وقيل إن السلطان ملكشاه دس إليه من قتله ، لأنه سئم طول حياته واستكثر ما بيده من الإقطاعات وما بيد أولاده وأحفاده من السكور .

(٣) وقيل إن « تَرْكَان خاتون » زوجة السلطان ملكشاه المفضلة كانت تطمع في تولية ابنها الصغير محمود العهد بعد أبيه ، وكان يعصدها في ذلك وزيرها ناج الملك ، على حين كان الوزير نظام الملك يميل إلى تولية ابنه الأكبر بركياروق ، وكان إذ ذاك في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره .

(٤) ولعل السبب المباشر الذي أدى إلى هذه التسمية قد جاء عن طريق ذلك المسلك الذي ينم عن الصلف والغطرسة من أحد أحفاد الوزير نظام الملك ، وهو عثمان بن جمال الدين والي مرو (وكان السلطان قد أمر بدس السم لأبيه قبل ذلك بعشر سنين) بسبب قتله مضحك السلطان . وقد قصد أحد عماليك السلطان (وكان يعد من أعظم أمرائه) دار الخلافة مستغيثاً شاكياً اضطهاد عثمان له وتنكيله به ، الأمر الذي أثار استياء السلطان حتى إنه أرسل إلى وزيره نظام الملك مع بعض أرباب دولته رسالة يقول فيها : إن كنت شريكاً في الملك ويدك مع يدي في السلطنة فلذلك حكم ، وإن كنت نائباً وبحكمي فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة . وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة وولى ولاية كبيرة ، ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة وطمعوا إلى أن فعلوا كذا وكذا . وأطال القول وأرسل معهم الأمير « يلبرد » ، وكان من خواصه وثقاته ، وقاله له : تعرّفني ما يقول ، فربما كنتم هؤلاء شيئاً .

وقد غضب الوزير الشيخ لكلمات التفرع التي تضمنها هذا الكتاب وأجاب في شيء من عدم الروية قائلاً : « إن ثبات تلك القلنسوة منوط بهذه الدواة ، وإن انفاقهما (٢) رباط كل رغبة وسبب كل غنيمة . ومتى قُطعت هذه زالت تلك (٣) . فإن عزم على

(١) ابن خلسكان : ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢) يعني أن عظمة الملك ترجع إلى تضامن نظام الملك مع السلطان .

(٣) يعني أن السلطان إذا جحد وفك هذا التضامن زالت قوة الملك .

تغييرى فليتزود للاحتياط قبل وقوعه وليأخذ الحذر من الحوادث أمام ظروفه .
ولكن هؤلاء الرسل رأوا أن يكتبوا ما سمعوه من الوزير رعاية لحق السلطان ، وكان
الأمير يلبرد قد أنمى إلى السلطان كل ما فاء به الوزير ، فعزل عن منصبه ، وخلفه أبو الغنائم
تاج الملك الذى تمتع بحماية ترکان خانون ، وأجريت تغييرات كثيرة فى مناصب الدولة
الكبرى . لذلك قتل السلطان وزيره نظام الملك خشية أن يقوم بتنفيذ ما هدده به ولا سيما
أن أغلب الولايات كانت فى يد أبنائه وأحفاده وأن له أنصاراً كثيرين .
مات السلطان ملكشاه بعد ذلك بخمسة وثلاثين يوماً . وقد رثى نظام الملك كثير من
الشعراء ، فقال شبل الدولة مقاتل بن عطية :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤةً بقيمة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيرة منه على الصدف
وبموت السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) انتهى العصر السلجوقى الأول
الذى يمكن أن يسمى العصر الذهبى للدولة السلجوقية أو عصر نظام الملك ، « وانحلت الدولة
ووقع السيف » (١) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٥ — ٧٦ . Browne, Vol. II, p. 185.
(٣ م — تاريخ الإسلام — ج ٤)

الباب الثاني

عصر سنجر^(١) وإخوته

٤٨٥ — ٥٥٢ / ١٠٩٢ — ١١٥٧

(١) مميزات هذا العصر:

يبتدىء هذا العصر الذى يشغل نحو خمس وستين سنة ميلادية من موت السلطان ملكشاه وينتهى بموت ابنه سنجر . ومع أن سنجر قبض على زمام الحكم فى الدولة السلجوقية مدة إحدى وأربعين سنة فقط (٥١١ — ٥٥٢ / ١١١٧ — ١١٥٧) حكم فيها خراسان ، فإنه كان فى الواقع الشخص المسيطر على البيت السلجوقي من سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) . فقد حكم خراسان وبلاد ماوراء النهر قبل توليته السلطنة حكما يتميز بالحكمة والحزم ، ووقفت بلاده إلى حد كبير بمنأى عن هذه الحروب الدموية التى دارت بين إخوته وعكرت صفو الدولة السلجوقية . على أنه قبل نهاية حكم سنجر قاست الدولة السلجوقية كثيرا من ألوان التخريب والدمار على أيدي الأتراك الغز ، ولكن هذا التخريب وذاك الدمار الخفيف قد قدر له أن يزول نهائيا عن طريق الفتح المغولى بنحو سبعين سنة ، لذلك يمكن أن نطلق على هذا العصر « عصر سنجر » الذى يعتبر موته نهاية لعهد « السلاجقة العظام » فى إيران .

وثمة أوجه للشبه بين سنجر وغيره من سلاطين السلاجقة من حيث طول حياته وأعماله المجيدة ، بل إنه يفوق — على ما ورد فى كتاب « راحة الصدور » — سائر سلاطين السلاجقة .

(١) ولد سنجر بسنجر ببلاد الجزيرة . ولذلك سمي باسم هذه المدينة . وقد ذكر براون (Vol. II, p. 303, note 4 . وترجمة ص ٣٧٩ هامش رقم ٢) أنه سمي سنجر (بفتح السين) . وسنجر بالتركية من فصيلة الصقر وطائر من طيور الصيد : وكانت تسمية أولاد السلاجقة بأسماء الحيوانات شائعة بينهم وبين غيرهم من الأتراك . من ذلك أرسلان ومعناه الأسد وطغرل ومعناه الصقر أو الباز . (٢) يتناول كتاب راحة الصدور تاريخ السلاجقة . وقد كتب الراوندى هذا الكتاب فى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) كما تقدم فى الباب الأول .

ومنذ قلده بركياروق ولاية خراسان (٤٩٠ هـ) قام سنجر بتسع عشرة غزوة من الغزوات المظفرة في مدى أربعين سنة ، فقد استطاع أن يستولى على غزته وأن ينصب عليها هرامشاه على أن يؤدي له إتاوة مقدارها ألف دينار في اليوم . كذلك أسر سنجر أحمد خان ملك سمرقند الذي ثار على أثر وفاة بركياروق سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) ^(١) . كما أخضع سنجر ولايتي سجستان وخوارزم . أما من الناحية السياسية فلم يعد لآل سلجوق ما كان لهم من القوة والنفوذ أيام حكم ألب أرسلان وملكشاه . ولأننا لو صرفنا النظر عن الحروب الدموية التي وقعت بين أبناء ملكشاه في بداية هذه الفترة ، والغارات المستمرة التي قام بها الأمراء الثائرون ، فإننا نجد أنه كانت هناك بيوت ملكية أخرى تنازع « السلاجقة العظام » السيطرة وتعمل على إضعاف نفوذهم . وكان من أشد هذه البيوت خطراً ملوك جبال الغور في الشمال الشرقي من إيران الذين استطاعوا بفضل قوتهم النامية أن يوجهوا الضربة القاضية للبيت الغزنوي . كذلك أصبح ملوك خوارزم أو حكام « خيوه » أكبر خصم للسلاجقة على أثر تولية « أنسز » الخوارزمي الحكم في سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) . وكذلك نرى سلاجقة كرمان يحكمون الولايات الجنوبية الغربية من إيران ، كما نجد الإسماعيلية أو « ملاحدة الموت » ينشرون الرعب والفرع في إيران ويرتكبون ألواناً من العنف والقسوة ليس في فارس وحدها بل في بلاد الشام أيضاً .

٤٢٩ — ٥٥٢	السلاجقة العظام	١٠٣٧ — ١١٥٧ م
٤٢٩	طغرل بك : ركن الدين أبو طالب	١٠٣٧
٤٥٥	ألب أرسلان : عضد الدين أبوشجاع	١٠٦٣
٤٦٥	ملكشاه : جلال الدين أبو الفتح	١٠٧٣
٤٨٥	عمود : ناصر الدين	١٠٩٢
٤٨٧	بركياروق : ركن الدين أبو المظفر	١٠٩٤
٤٩٨	ملكشاه الثاني	١١٠٤
٤٩٨	محمد : غياث الدين أبو شجاع	١١٠٤
٥١١ — ٥٥٢	سنجر معز الدين أبو الحارث	١١١٧ — ١١٥٧

(١) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٢) محمود بن ملكشاه (٤٨٥ — ٤٨٧ هـ)

وقد ظهر في عهد سنجر كثير من مشهورى العلماء والأدباء . وقد ألف كثير من هؤلاء باللغة العربية أو بالفارسية أو بالفارسية والعربية معاً . ومن ألف بالعربية الفرا بغوى والزخشرى فى التفسير واللغة وأصول الدين والإمام أبو حامد الغزالى فى علم الكلام ، والقشبرى فى التصوف . وألف فى اللغة الزوزنى والتبريزى والجوالقى والميدانى مؤلف الأمثال . ومن الشعراء الأبيوردى والطغرائى صاحب لامية العرب . ومن اشتهر بالنثر الحريرى صاحب المقامات . ومن المؤرخين ابن مَنْدَةَ مؤرخ أصبهان ، كما ظهر فى هذا العصر من الجغرافيين أبو زيد البلخى ، وكذلك اشتهر عصر سنجر بظهور كثير من كتاب الفرس الذين اشتهروا بالشعر والنثر ، كما ظهر فى ذلك العصر كثير من المؤلفات الهامة التى وضعت بالعربية فى فارس . ومن مشهورى الشعراء فى ذلك العصر الشيخ فريد الدين العطار (ت ٥١٤/١١٢٠) ونظامى الجُنَيجى (ت ١١٤٠) وعمر الحيام (ت ٥١٥/١١٢١ — ١١٢٢) والأزرقى (٥٢٦/١١٣٠) ومسعود بن سعد (٥٢٦/١١٣١) وأديب صابر (٥٧٨/١١٤٣ — ١١٤٤) ومُعِزَّى (٥٤٢/١١٤٧ — ١١٤٨) وعمق (بفتح حرفى العين وسكون القاف) البخارى (٥٤٣/١١٤٨ — ١١٤٩) ، كما ظهر الصنعاقي ، ونظامى عروضى السمرقندى ، والأنورى ، ورشيد الدين وطواط ، والشوزنى شاعر الفكاهة وطائفة أخرى أقل أهمية من المغنين .

أما عن كتب النثر التى ظهرت فى هذا العصر فنذكر من بينها على سبيل المثال هذه الموسوعة الطيبة « ذخيرت — خوارزمشاهى » (٥٠٤/١١١٠) وترجمة كلية ودمنة التى وضعها نصر الله بن عبد الحميد (٥٣٨/١١٤٣ — ١١٤٤) ومقامات القاضى حميد الدين أبو بكر البلخى (٥٥٧/١١٦٠) وجهار مقاله لنظامى عروضى السمرقندى (حول هذا الوقت تقريباً) وتعد من أهم ما كتب فى هذا العصر .

وقد ترك ملكشاه عند وفاته عدة أولاد اشتهر منهم أربعة هم : بركياروق وكان فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ، ومحمد وكان أصغر من بركياروق بستة أشهر ، وسنجر وكان فى الثامنة من عمره ، ومحمود وكان طفلاً لم يناهز الرابعة من العمر ، وكان بركياروق بن زبيدة التى تنتمى إلى البيت السلجوقى بأصبهان^(١) .

(١) Browne II, pp. 298—299.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٩ — ٨٠ .

أما محمود فقد كانت أمه « ترکان خاتون » التي اشتهرت بذكائها ودهائها ونفوذها تقيم مع ابنها للصغير في بغداد . وقد اتخذت من مواهبها وكثرة أعوانها ووجودها إلى جانب الخليفة العباسي في بغداد سيلاً إلى تولية ابنها محمود السلطنة ، إذ كتبت خبر وفاة زوجها ملكشاه وأرسلت إلى أمراء الدولة سرّاً تطلب إليهم البيعة لابنها الصغير ورغبتهم بالمال ، فبايعوه . كما أرسلت إلى الخليفة المقتدى تطلب إليه لإقرار ابنها في السلطنة ، فامتنع أول الأمر لصغر سنه ، ولكنه عاد فلبى طلب ترکان خاتون وأقر محموداً في السلطنة ولقبه « ناصر الدنيا والدين » . وقد استعانت ترکان خاتون في تحقيق رغبتها بابن الخليفة (جعفر بن ماه — مالك أخت ملكشاه) وتدير وزيرها تاج الملك الذي قام بنوع من الوصاية على ابنها الصغير ، لأن الشرع لا يجيز ولايته في هذه السن ، كما أفتى بذلك الإمام الغزالي . وقد ذكر اسم السلطان الجديد في الخطبة على منابر بغداد في يوم الجمعة ٢٢ شوال سنة ٤٨٥ هـ كما خطب له في الحرمين الشريفين^(١) .

وقد خشيت ترکان خاتون أن يتنازع بركياروق أكبر أبناء ملكشاه أخاه الصغير محمود في السلطنة ، فأرسلت الأمير بُغا إلى أصبهان ، فوصل إليها بعد أسبوع من مغادرته بغداد وقبض على بركياروق وأثار بذلك مخاوف أمه زبيدة . ولكن أحد أولاد نظام الملك أخرجه من السجن في جنح الظلام وحمله إلى ساوة (بفتح الواو) وآبا والرى ونصبه ملكاً على هذه البلاد . وكان بركياروق دون الثالثة عشرة من عمره حتى إنه لم يكن من السهل أن تحمل رأسه الصغيرة تاجه المثقل بالجواهر .

ويذكرنا هذا بتلك الاسطورة التي أخذها عن ابن هشام براون^(٢) في صدد كلامه على عظمة آل ساسان الملكية واعتلائهم العرش حيث يقول : « وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذي به تاجه ، وكان تاجه من القنقل^(٣) العظيم فيما يزعمون ، يضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة ، معلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك . وكانت عنقه لا تحمل تاجه ، إنما يُستر عليه بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك .

(١) كانت زبيدة ابنة ياقوت بن داود وابنة عم السلطان ملكشاه :

(٢) Vol. I, p. 128 نقلًا عن ابن هشام (طبعة وستفالد) ج ١ ص ٤٢ ، انظر تاريخ

الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٦٣١ — ٦٣٢ .

(٣) بضم القافين وسكون النون : الخوذة العظيمة .

ثم يدخل رأسه في تاجه ، فإذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا سجد هيبته له .

وقد دارت الحروب بين جند السلطان محمود تؤيدهم أمه تركمان خاتون والوزير تاج الملك وجند بركياروق تؤيدهم أمه زبيدة وأبناء الوزير نظام الملك وبعض الأمراء الذين انحازوا إلى جيش بركياروق ، وخاصة يلبرد وكهشتكين ، وحلت الهزيمة بجند محمود فعادوا إلى أصهان ، وسار جند بركياروق في إثرهم وحاصروهم فيها ، ثم عدل بركياروق عن الحصار مقابل خمسمائة ألف دينار وعاد إلى همدان . وقد انتهز أنصار الوزير نظام الملك هذه الفرصة فأخذوا بثأره إذ قتلوا الوزير تاج الملك في المحرم سنة ٤٨٦ هـ ، لما لاته على قتل نظام الملك طمعاً في الوزارة ، فقتل بركياروق عز الدولة بن نظام الملك الوزارة وفوض إليه أمور دولته (١) .

(٣) بركياروق بن ملكشاه (٤٨٧ - ٤٩٨ / ١٠٩٤ - ١١٠٤)

على أن تركان خاتون (أم محمود) عادت تدبر الدسائس ضد بركياروق ، ولكي تصل إلى غايتها أوعزت إلى الملك إسماعيل بمهاجمة ابن أخته بركياروق ووعدته بالزواج منه إذا هو قام بهذا العمل (٤٨٦ - ١٠٩٣) . ولكن الهزيمة حلت بإسماعيل . وفي ٣ فبراير سنة ١٠٩٤ (١٤ المحرم سنة ٤٨٧ هـ) نودي ببركياروق سلطاناً ببغداد . وفي اليوم التالي لتولية بركياروق السلطنة توفي الخليفة المقتدى فجأة وخلفه ابنه المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) . وقد أطرى ابن الأثير (٢) والسيوطي (٣) المقتدى فذكر أن من محاسنه أنه أمر بنفي المغنيات والبنات اللاهيات من بغداد ، وأمر الناس ألا يدخلوا الحمام إلا بمئزر ، وخرّب أبراج الحمام ومنع اللعب بها منعاً للقامرة . كما منع جريان ماء الحمامات إلى نهر دجلة محافظة على نقاء ماء هذا النهر وصحة الناس . كما ألزم أصحاب الحمامات بحفر آبار خاصة للياه المستعملة ومنع الملاحين من أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين . وكان المقتدى أحسن خلفاء بني العباس قوة نفس وعلو هممة (٤) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٨٥ - ٨٦ :

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٠

(٤) ذكر ابن خلكان (ج ٤ ص ٣٧٥) أن السلطان ملكشاه أوجس خيفة من تدخل الخليفة =

ولكن سرعان ما قام « تَنْش » بثورة أشد خطراً مما تقدمها من الثورات وهزم ابن أخيه بركياروق وحمله إلى أصبهان حيث سجن . ومع أن السلطان محمود استقبل أخاه الأكبر بركياروق بمظاهر العطف والرعاية ، فقد حبس الأمير « أنرو بُلْكا » بركياروق وصمم على أن يجعله غير صالح للحكم بسمل عينيه .

وكان من حسن حظ بركياروق أن مرض أخوه محمود بالجدرى ومات في خلال أسبوع قبل أن يقوم الأمير « أنرو — بُلْكا » بتنفيذ خطته القاسية فأجلس بركياروق على كرسي السلطنة من جديد ، وانتهت دسائس تركان خاتون أم محمود التي قتلت في خريف سنة ١٠٩٤ م (٤٨٧ هـ) . وقد ساعد موتها على تهدئة الأحوال . ثم مرض بركياروق بالجدرى بعد أخيه ولكنه برى منه . وقد استمال مؤيد الملك وزير بركياروق أمراء السلاجقة في العراق وخراسان إليه فعظم شأن بركياروق وكثر جنده^(١) . وفي السنة الثالثة هزم بركياروق عمه تنش وقتله ، كما قتل عمه الآخر أرسلان أرغون الذي ثار عليه بخراسان فقتل على يد أحد غلبانه في مرو (٤٩٠ هـ) ، ونجا بركياروق نفسه من الموت بأعجوبة إذ أصابه رجل من الباطنية بطعنة كادت أن تؤدي بحياته ، ثم استولى بركياروق وبصحبته أخوه سنجر على خراسان بعد موت عمه أرسلان أرغون ونصب أخاه سنجر ملكاً عليها سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) ، وأسند وزارته إلى أبي الفتح علي بن الحسين الطغرثي الشاعر المشهور . وبينما كان بركياروق بخراسان خرج عليه محمد ابن سليمان ويعرف بأمير أميران (وهو ابن عم ملكشاه) ، وقد توجه إلى بلخ ، ولكن سنجر أخا بركياروق أحل به الهزيمة وأسره وحمله إلى خراسان وسمل عينيه . وفي هذه السنة قامت الدولة الخوارزمية على يد قطب الدين محمد بن أنو شتكين^(٢) .

== المقتدى في شئون الحكم ، فعمل على إبعاده عن حاضرة الدولة وأمره بالرحيل إلى البصرة ، بل إنه لقب نفسه بلقب أمير المؤمنين . ذلك اللقب الذي لم يطلق إلا على الخلفاء أنفسهم ، بل إنه حمل الخليفة على أن يخلع أكبر أبنائه وهو المستظهر وأن يعهد لابنته الأصغر جعفر بن بنت السلطان ألب أرسلان ويسلم إليه البلاد ويخرج هو إلى البصرة . على أن السلطان مرض في تلك الأيام ومات ، وكفى الخليفة شر هذا السلطان .

(١) ابن الأنبر : الكامل ج ١٠ ص ٨٧ . ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ٩١ ، ٩٧ .

وبعد أن جعل بركياروق أخاه سنجر ملكاً على خراسان عاد إلى العراق (١) .
ولكن في سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٩ م) هدد نفوذ أخوه محمد الذي قام في وجهه مطالباً
بالسلطنة بتأييد مؤيد الملك بن نظام الملك (٢) .

وكان مؤيد الملك من أكفأ أبناء نظام الملك . وقد أصبح للسلطان بركياروق
عدواً لا تلين قنانه بعد عزله إياه من الوزارة . وتأثير مؤيد الملك قلد الخليفة المستظهر
(٤٨٧ — ٥١٢ هـ) محمداً بن ملكشاه السلطنة بدل أخيه بركياروق ولقبه « غياث
الدنيا والدين » وخطب له على منابر بغداد (١٤ رجب سنة ٤٩٣ هـ) . وقد طال
الحروب بين محمد وأخيه بركياروق نحواً من خمس سنين (٤٩٢ — ٤٩٧ هـ) ، ودارت
بينهما خمس معارك طاحنة انتهت بانتصار بركياروق على أخيه محمد ، وأرسل إليه
الخليفة ، على ما جرت به العادة في ذلك العصر ، خلع السلطنة وأقيمت له الخطبة في بغداد
(٤٩٧ هـ) (٣) .

وفي هذه الفترة بدأ الصليبيون حملاتهم على البلاد الإسلامية . وقد دخل بركيارون
بغداد ، ومد هو وأصحابه أيديهم إلى أموال الناس ، فخرج عن طاعته صدقة بن مزيد صاحب
الحلة وقطع الخطبة له في بلاده وخطب لأخيه محمد . وقيل إن وزير السلطان بركياروق
أرسل إلى صدقة يطالبه بأداء مليون دينار كانت مستحقة لبيت المال عدا الإتاوة التي
لم تؤد عن السنين السابقة وهدده بأخذ بلاده فلم يأبه صدقة به ، فأرسل إليه بركياروق
جنداً طرده من بلاده . وفي هذه السنة أمر بركياروق بقتل الباطنية في فارس (٤) .

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٩٨ — ٩٩ .

وفي هذه السنة دارت الحرب بين رضوان وأخيه دقاق صاحب دمشق ابني تنش بن ألب أرسلان ثم تم
بينهما الاتفاق على أن يخطب لرضوان بدمشق قبل دقاق وكذلك بأطاكبة .

(٢) كان بركياروق (٤٨٧ — ٤٩٨ هـ) قد عزل مؤيد الملك بن الوزير نظام الملك عن
الوزارة وأسندها إلى عز الملك (أخي الوزير المخلوع) . وكان بين هذين الأخوين خلاف على ثروة
أبيهما وتنافس على الوزارة .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٤) انظر ما ذكره ابن الأثير (ج ١٠ ص ١١٦ — ١٢٠ ، ١٢٤) عن الإسماعيلية

أو الباطنية في فارس .

اجتمع محمد بأخيه سنجر (وهما لأم واحدة) في جرجان ، والتقى به إيلغازي بن أرتق وأحسن خدمته . ثم سار محمد إلى بغداد واستقر بدار السلطنة ، فاستبشر الناس بقدمه وخرجوا للقاءه ، وعبر الخليفة عن سروره لإسامة بركياروق وجنده إلى أهل بغداد^(١) .

على أن الهدوء لم يسد بغداد برحيل بركياروق عنها ودخول أخيه محمد إليها . فقد رحل السلطان محمد وأخوه سنجر عن بغداد مرة أخرى عائدين إلى بلادهما : فقصد الأول همدان ويمم الثاني شطر خراسان . وقد سمع الخليفة أن بركياروق قد تناوله بما يسيئه فاستقدم أخاه محمداً ، وكان في واسط ، إلى بغداد فلحق أخاه بركياروق ودارت الحرب بينهما ، وعانى كل من الجندين كثيراً من شدة البرد وهطول الأمطار وقطع الجسور وهدم القناطر وانتشار الفساد ونهب الأموال وسفك الدماء وتخريب البلاد ، واستولى الممل على النفوس ونطرق الوهن إلى القلوب وتعرضت السلطنة للغزو الخارجي . وقد تدخل العقلاء بين الأخوين وأخذت عليهما العهود والمواثيق بأن يجنحا إلى السلم ويكفيا عن الحرب . وبذلك تم الصلح بينهما على أن يكون بركياروق السلطان ومحمد الملك ، وأن يضرب لمحمد البوق ثلاث مرات في اليوم وأن يكون له حكم « جَزْء » وأعمالها وأذربيجان وديار بكر والجزيرة الموصل ، وأن يمدد السلطان بركياروق بالجند ليفتح ما يستعصى عليه من البلاد ، وتعهد كل منهما باحترام هذه المواثيق ، وبذلك انصرف بركياروق قاصداً « ساوة » وانصرف محمد قاصداً « أسد أباد » ، وقصد كل أمير إقطاعه ، وأرسل الخليفة العباسي خلع السلطنة إلى بركياروق وأقيمت له الخطبة ببغداد . على أن الحرب لم تلبث أن عادت سيرتها الأولى بين بركياروق ومحمد (٤٩٥ هـ / ١١٠١ - ١١٠٢ م)^(٢) .

طالت الحروب بين بركياروق وأخيه محمداً أكثر من خمس سنين دارت بينهما فيها معارك طاحنة قبل أن يتم الصلح بينهما قبل وفاة بركياروق بنحو سنتين ، ثم عقد الصلح بينهما من جديد ، لأن « الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد ، فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعاً فيها بحكوما عليها ، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين . وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١١٣ - ١١٥ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٢٢ - ١٢٣ .

ليدوم تحكّمهم وانبساطهم وإدلالهم . وكان السلطان بركياروق حينئذ بالرى والخطبة له بها وبالجل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين . وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيه وبلاد أراية وأرمينية وأصهان والعراق كلها ماعدا نكرت ، وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وبعضها لمحمد . وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعاً . وأما خراسان فإن السلطان كان يخطب له في جميعها ، وهي من حدود جرجان إلى بلاد ماراه النهر ولاخيه السلطان محمد .

وقد اضطر السلطان بركياروق إلى الصلح مع أخيه ، ولانعدام المال بخزائنه وازدياد طمع جنده فيه ، فأرسل الرسل إلى أخيه محمد فأجابته إلى ذلك وتم الصلح بينهما على :

- (١) ألا يعترض بركياروق على ضرب الطبول على دار محمد .
 - (٢) ألا يذكر اسم بركياروق بجانب اسم محمد في الخطبة في البلاد التي يحكمها .
 - (٣) أن يكون الاتصال بينهما عن طريق الوزراء .
 - (٤) ألا يتعرض أحد العسكرين لعسكر الآخر في داخل حدود كل منهما .
 - (٥) أن يكون من نصيب محمد البلاد المعتدة بآسيندروذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام والبلاد التي كانت تحت حكم سيف الدولة بالعراق (١) .
- ولما وصلت رسل السلطان بركياروق إلى بغداد تحمل إلى الخليفة المستظهر شروط الصلح بين الأخوين ، أقيمت الخطبة لبركياروق ببغداد في ١٩ جمادى الأولى سنة ٤٩٧ هـ (٢) .

ولم يكده الحظ يديم لبركياروق حتى اشتد به المرض . ولما أحس بدنو أجله بايع ابنه ملكشاه الثاني ومات في شهر ربيع الثاني سنة ٤٩٨ هـ (١٠٩٤ م) وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، بعد أن ظل في السلطنة اثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر .

(١) يعني تحت حكم صدقة بن مزيد وكان يملك الحلة ويلقب سيف الدولة . وقد دخل تحت نفوذه الحلة والبصرة وواسط وكان يلقب أيضاً ملك العرب ، لأن العرب وغيرهم كانوا يستجيرون به من السلطان أو الخليفة أو غيرهما . وكان صدقه نفسه يقول أنا ملك العرب (ابن الأثير ج ١٠ ص ١٦٥ ، ١٦٦) انظر ابن الأثير ج ١٠ ص ١٣٧ ،

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٣٨ — ١٣٩ .

ولاريب أن الحروب التي طالت بين الأخوين واختلاف الأحوال من الرخاء إلى الشدة ومن السلطنة إلى الملك قد أثرت في صحة بركياروق وأنهكت قواه مع حداثة سنه . ولم يغنه استقرار الأحوال بعد إبرام الصلح الأخير مع أخيه محمد وانقياد المخالفين إليه ، عن ملاقاته الأجل المحتوم ؛ فأدركته منيته في بروجرد (بضم الباء وكسر الجيم) . وكان بركياروق ، كما وصفه ابن خلكان^(١) ، « مسعوداً على الهمة لم يكن فيه عيب سوى ملازمته للشراب والإدمان عليه » .

(٤) محمد بن ملكشاه ٤٩٨ — ٥١١ / ١١٠٤ — ١١١٧

أقيمت الخطبة لملكشاه الثاني بن بركياروق عقب موت أبيه ، ولم يكن قد بلغ الخامسة من عمره ، وخطب له على المنابر ، ولقبه الخليفة جلال الدولة ، وهو لقب جده ملكشاه ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٧ هـ . ولم يكد هذا الطفل يستقر على عرش السلطنة أسابيع أو أشهراً قليلة حتى عزل وسمحت عيناه على ما جرت به العادة في ذلك العصر^(٢) . وبذلك صفا الجو لمحمد بن ملكشاه ، فقلده الخليفة المستظهر (٤٨٧ — ٥١٢ / ١٠٩٤ — ١١١٨) من جديد ، ولقبه غياث الدين ، وعظمت هيئته وكثرت جيوشه وأمواله ، ولم يبق له منازع ، وأصبح الحاكم الفعلي للولايات الفارسية زهاء ثلاث عشرة سنة (٤٩٨ — ٥١١ / ١١٠٥ — ١١١٨) بذل خلالها جهداً كبيراً في القضاء على قوة الباطنية المتزايدة إذ قتل عبد الملك بن عطاش صاحب قلعة أصفهان^(٣) ، وفيما عدا ذلك لم يقع في عهد السلطان محمد ما يستحق الذكر سوى مناوأة ابن أخيه إياز الذي حاول خلعهم ونقل السلطنة مكانه . وعلى الرغم من إبرام الصلح بينهما ، لم يفتر إياز عن مناوأة السلطان محمد ودبر مؤامرة لقتله ، ولكن أمر هذه المؤامرة قد كشف واغتيل إياز عند دخوله قصر السلطنة^(٤) . أضف إلى ذلك هذه الحملة التي شنها السلطان محمد على الأمير صدقة بن مزيد (بفتح الميم والياء وسكون الزاي) صاحب الحلة والبصرة وواسط الذي انضم إلى الأمير إياز واستولى على البصرة (٤٩٩ هـ) ثم على قلعة تكريت^(٥) وزادت

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٦١ — ١٦٣ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٤٤ — ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٠ — ١٥١ ، ١٥٤ .

الدهشة بين صدقة والسلطان محمد وخشى كل منهما الآخر وامتنع صدقة عن الاجتماع بالسلطان وتوسط الخليفة المستظهر في إصلاح ذات البين بينهما ، وسار صدقة بن مزيد من الحلة إلى بغداد على رأس خمسين ألف عربي ، فأرسل الخليفة الرسل والكتب إلى أصحابان مستجداً بالسلطان محمد بن ملكشاه الذي استشار المنجمين ، فأشار عليه أحدهم بحرب صدقة^(١) ، ونشبت الحرب بين جند صدقه بن مزيد وجند السلطان محمد وحلت الهزيمة بالسلاجقة وأسرى كثير من جندهم ووقع الاضطراب في صفوفهم ، ولم تغن محاولات الخليفة في إقرار الصلح بينهما ، ثم عاد السلاجقة لجمعوا صفوفهم وحلوا على جند صدقة وهزمهم هزيمة منكرة . وقد ضرب أحد جند الأتراك صدقة على وجهه فشوهه وأصابه آخر بسهم في ظهره وتعلق به غلام فجذبه عن فرسه ، فسقط إلى الأرض فضربه الغلام بالسيف فقتله ، وحمل رأسه إلى السلطان ودفن وهو في التاسعة والخمسين من عمره بعد أن ظل في الإمارة إحدى وعشرين سنة ، وقتل من أحببته أكثر من ثلاثة آلاف فارس بينهم جماعة من أهل بيته وأسرى ابنه ديبس بن صدقة ، وهرب ابنه الآخر بدران ابن صدقة إلى الحلة وأخذ ما لا يحصى من الأموال ، كما استولى على آلاف الكتب ، وذلك سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م)^(٢) .

ويقترن هذا النصر بهذه القصة العجيبة الخاصة بمعرفة الطالع على أيدي المنجمين على ما ورد في كتاب «جهاز مقالة»^(٣) (المقالات الأربع) تأليف النظامي العروضي السمرقندي الذي ترجمه الأستاذ إدوارد براون إلى الإنجليزية وتكلم عنه في الجمعية الآسيوية الملكية بإنجلترا سنة ١٩٠٢ (ص ٦٠٥)^(٤) .

(١) النظامي العروضي السمرقندي : جهاز مقالة ، ترجمه عزام والحشاب (القاهرة ١٣٦٨ / ١٩٤٩)

ص ٧١ — ٧٢ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٦٥ ١٦٩ .

(٣) Browne, II, p. 302 (1). Anecdote XXIX (pp. 102 — 104) .

(٤) وقد ذكر السمرقندي (ترجمة ص ٧١ — ٧٢) أن هذا المنجم لم يكن واسع العلم وأن الحمر قد لعبت بلبه فيما بعد فقال لأحد ندماء السلطان : « إني علمت أن الأمر لا يعدو واحدا من اثنين إما أن يهزم هذا الجيش أو ذاك ، فإن هزم ذلك الجيش لقيت التشريف ، وإن حلت بهذا الجيش الهزيمة فن ذا يبالي بي ؟ ولما علم السلطان بذلك أمر بطرد هذا المنجم الغزنوي .

كان صدقة بن مزبد ، على ما وصفه ابن الأثير^(١) ، « جواداً حليماً صدوقاً ، كثير البر والإحسان ، ما برح ملجأ لكل ملهوف ، يلقي من يقصده بالبر والتفضل ، ويبسط قاصديه ويزورهم . وكان عادلاً ، والزعايا معه في أمن ودعة . وكان عفيفاً لم يتزوج على امرأته ولا تسرى عليها ، فما ظنك بغير هذا . ولم يصادر أحداً من نوابه ولا أخذهم بإساءة قديمة . وكان أصحابه يودعون أموالهم في خزائنه ، ويدئون عليه لإدلال الولد على الوالد . ولم يسمع برعية أحبت أميرها كحب رعيته له . وكان متواضعاً . . . يحفظ الأشعار ويبادر إلى النادرة رحمه الله ، لقد كان من محاسن الدنيا^(٢) » .

عاد السلطان محمد إلى بغداد سنة ٥٠١ هـ ورفع الضرائب والمكوس وغيرها بعد أن شكوا منها أهل بغداد^(٣) . وبعد خمسة أشهر عزم على الخروج من بغداد والعودة إلى أصهان . وفي سنة ٥٠٢ هـ استولى السلاجقة بقيادة مودود على مدينة الموصل وكان الجاولي قد استولى عليها قبل ذلك بسنتين . واستمرت الحروب بين السلاجقة بقيادة مودود صاحب الموصل وطفنكيين صاحب دمشق وإياز بن إيلغازي وغيرهم وبين بلدوين ملك بيت المقدس . وأسر بلدوين في طبرية بعد معركة طاحنة ، ثم سار الأمير آقسنقر البرسقي (والد عماد الدين زنكي) وكان السلطان محمد قد ولاه الموصل بعد قتل مودود^(٤) ، ومعه مسعود بن محمد فعبرا الفرات ودارت بينهما وبين الفرنجة عدة معارك انتهت بانتصار الفرنجة . كما دارت الحروب بين أمراء السلاجقة أنفسهم .

صفات محمد بن ملكشاه — وأخلاقه — وفاته

كان السلطان محمد عادلاً حسن السيرة شجاعاً ، وبما يدل على عدله أن خازن بيت ماله قتل على أيدي الباطنية ، فأمر السلطان بعرض مافي خزائنه من مال وجواهر . وكان بهذه الخزانة درج به كثير من نفيس الجواهر ، فأقر السلطان بأن الخازن عرض عليه هذا المدرج قبل موته بأيام وأعلمه أن أصحابه كانوا تجاراً غرباء قد حفظوه عنده ، فأمر السلطان

(١) ج ١٠ ص ١٦٩ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ .

(٣) قتل مودود سنة ٥٠٧ هـ على يد أحد الباطنية بعد أن أدى صلاة الجمعة بالجامع الأموي بدمشق ، وقيل إن طغنكيين صاحب دمشق هو الذي دبر مؤامرة لقتل مودود . ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٧ .

أحد غلامانه بأن يحتفظ بهذه الجواهر ويسأل عن أصحابها وقد أيقنوا من ضياعها ويثسوا من الحصول عليها . ولما أحضرهم الخادم سلم السلطان محمد إليهم الجواهر (١) .

كان السلطان محمد بن ملكشاه ، على ما وصفه ابن خلكان (٢) ، « رجل الملوك السلجوقية وخلقهم ، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة ، والبر للفقراء والأيام والحرب للطائفة المملوكة (يعنى الباطنية) ، والنظر في أمور الرعية » .

وقد أورد ابن خلكان (٣) أن الإمام أبا حامد الغزالي نصح للسلطان محمد بن ملكشاه بأن يتحلى بحميد الصفات ومكارم الأخلاق وأن يعلم أنه بقدر عناية الإنسان بهذه الحياة الدنيا ، ينبغي أن يعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة وأنه يجب أن يفكر في الوقت نفسه في هذه الحياة الآخرة ، لأن الإنسان مهما امتد به الأجل لابد صائر إلى هذا المصير المحتوم ، فيقول : « اعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتان : طائفة غفلاء (غافلون) نظروا إلى شاهد حال الدنيا وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ولم يتذكروا في اليقين الأخير ، وطائفة عقلاء جعلوا اليقين الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم ، وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم ، وما الذي ينزل من الدنيا في قبورهم ، وما الذي يتركون لأعدائهم من بعدهم ويوق عليهم وباله ونسكاه » .

مرض السلطان محمد بن ملكشاه . ولما اشتد به المرض وشعر بدنو أجله أحضر ابنه محموداً وقبله وبكى كل منهما وأمره أن يجلس على عرش السلطنة وينظر في أمور الناس . وكان إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره ، وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ٥١١ هـ مات السلطان محمد بمدينة أصفهان ، وكان في السابعة والثلاثين من عمره (٤) . وخطب لابنه محمود بالسلطنة في اليوم التالي .

(٥) محمود بن محمد بن ملكشاه ٥١١ — ٥٢٥ — ١١١٧/ — ١١٣١

كان محمود في الرابعة عشرة من عمره حين جلس على عرش السلطنة كما تقدم ، وخطب له بأصفهان في ٢٥ ذى الحجة سنة ٥١١ هـ ويغداد في ١٣ المحرم سنة ٥١٢ هـ . وفي شهر

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٩٨ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٦٤ .

(٤) خطب للسلطان محمد بالسلطنة بيغداد أول مرة في شهر ذى الحجة سنة ٤٩٢ هـ وقطعت خطبته

مرات عدة .

ربيع الثاني من هذه السنة توفي الخليفة المستظهر بعد أن ولى الخلافة أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً . وكانت أيام هذا الخليفة ، كما يقول ابن الأثير ، أيام سرور للرعية ، فسكانها من حسناتها أعياد . وكان غزير العلم حسن الخط ، يحب الخير ولا يميل إلى أذى الناس^(١) ، وقد خلف المستظهر ابنه المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ ١١١٨ - ١١٣٥) .

وفي عهد السلطان محمود شق أخوه طغرل صاحب ساوة وآوة وزنجان عصا الطاعة عليه سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م) وزادت الوحشة بينهما . وفي هذه السنة دخل محمود في حرب دامية مع عمه سنجر لأنه خشي أن يغلب على دولته . وكان سنجر كما وصفه البنداري^(٢) « السلطان الأعظم عماد آل سلجق ، وسلطنته ببلاد خراسان إلى العراق إلى ما وراء الهر إلى غزنة وخوارزم والترك ، قد عمت ونمت ، ودولته قد علت وسمت ، وهو شيخ البيت وعظيمه وحافظ عزه ومديده » .

ويظهر أن محموداً هو الذى بدأ بالعدوان ، فقد أرسل إلى والى سمرقند كتاباً يقول فيه إنه عزم على المسير بجيوشه ميمما شطر بلاد عمه سنجر ويطلب إلى هذا والى أن يفاجئ عمه سنجر وهو بجيوشه من خلفه ، وبذلك تقع جيوش عمه بين طرفي السكاشة . كما طلب مساعدة ملك العرب ديبس بن صدقة وغيره من الأمراء ، ولما علم سنجر بما دبره له ابن أخيه عزم على قصد بلاد الجبل والعراق والاستيلاء على ما بيد محمود ، لصغر سنه واستئثار وزيره وحاجبه بالحكم . وقد وصل جيش السلطان محمود إلى الرى وأصبحت مقدمة جيش سنجر على مقربة منها . وبعث الأمير على بن عمر إلى سنجر يذكره بوصية أبيه السلطان محمد لابنه محمود بتعظيم عمه سنجر والرجوع إلى رأيه وتنفيذ أمره على أن يحافظ سنجر على السلطنة لولده^(٣) .

على أن جهود الأمراء الذين تدخلوا في الصلح لم تحل دون احتدام القتال بين الفريقين ، واستهان محمود بعسكر عمه واطمأن إلى كثرة خيله وشجاعة عسكره ، وحلت الهزيمة بيمينه سنجر وميسرته واضطرب أمر جيشه وارتدوا على أعقابهم . واسكن سنجر صمد على القتال وأطلق مامعه من الفيلة نحو جيش محمود ، فتراجعت خيله بأصحابها ، وأشفق سنجر على

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣ .

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١١٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١١ .

السلطان الصغير وقال لأصحابه: «لانفرعوا الصبي بحملات الفيلة فكفوها عنهم». وحلت الهزيمة بالسلطان محمود وقطعت الخطبة له وأقيمت للسلطان سنجر في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٥١٣ هـ.

سار محمود بعد أن حلت به الهزيمة إلى أصبهان ، وبعم سنجر شطر همدان ، ورأى قلة عسكره ، فراسل ابن أخيه في الصلح . ولم تسكن هذه الهزيمة سيئة الأثر بالنسبة إلى السلطان الصغير ، لأن سنجر استمع إلى شفاعة أمه ، وكانت جدة السلطان محمود ، فأشارت عليه بالصلح ^(١) . فلقى سنجر ابن أخيه بالقبول وعفا عن كبوته وجعله ولي عهده وقلده ولاية العراق التي حكمها نحواً من أربع عشرة سنة ، وزوجه من ابنته « ماه - ملك خاتون » التي ماتت بعد ذلك بقليل (٥٢٣ هـ) ، وحزن أبوها على وفاتها حزناً عميقاً حتى إنه بعث في طلب الشاعر البخاري عممق (بفتح العين الأولى والثانية وسكون الميم) ، وكان قد تقدمت به السن ، لينظم قصيدة في رثائها ^(٢) .

وفي سنة ٥١٤ هـ خرج مسعود صاحب الموصل وأذربيجان على أخيه السلطان محمود . وقد عزا المؤرخون ذلك إلى أن بعض الأفراد وعلى رأسهم ديبس بن صدقة دعوا مسعوداً لطلب السلطنة وحملوه على مناجزة أخيه محمود ، وساعدوه على ذلك تفرق جند محمود بعد انهزامه أمام جيوش عمه سنجر ، بل إنهم دعوا لمسعود بالسلطنة بأذربيجان والموصل والجزيرة ثمانية وعشرين يوماً ، وضربوا له الطبول التي تضرب للسلطين خمس مرات في اليوم . ولكن محموداً انتصر بمساعدة آقسنقر البرسقي على أخيه مسعود الذي هرب وتفرق أصحابه واختفى عن الأنظار . ولكن محموداً رقى لحال أخيه وأرسل آقسنقر للبحث عنه . ولما عثر عليه أخبره بهفو أخيه عنه وأعادته إلى عسكره . وأمر السلطان بحسن استقباله والحفاوة به وأمنه وأحسن إليه ^(٣) . وقد كوفى الأمير آقسنقر بولاية مدينة الموصل وأعمالها وما ينضاف إليها كالجزيرة وسنجار وغيرها لاختلاصه للسلطان وحسن تدبيره وما أبلاه في حروبه مع أخيه مسعود والفرنجية وما أظهره من حسن السياسة في استئالة مسعود ^(٤) ، ثم زوجه أم مسعود وقلده ولاية

(١) ماتت خاتون جدة السلطان محمود بمرو سنة ٥١٥ هـ واحتفل بمجنازتها وعزائها احتفالاً لم يشهد له مثيل .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ . Browne, Vol. II, p. 303.

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

بغداد وعهد إليه بقتال ديبس بن صدقة بن مزيد صاحب الحلة إذا تعرض للبلاد . وقد دارت بين جند السلطان وجند ديبس بن صدقة حروب كثيرة ، كما خرج الخليفة المسترشد لحربه بعد أن تسلم منه رسالة يهدده فيها بتخريب بغداد . وعبر الخليفة نهر دجلة وعليه قباة أسود وعمامة سوداء وطرحه ، وعلى كتفه البردة وفي يده القضيب وفي وسطه منطقه . وحلت الهزيمة بديبس بن صدقة ، ولكنه عاد فاستولى على البصرة ثم غادرها والتحق بالفرنجية واشترك معهم في حصار حلب وأطمعهم في أخذها فلم يظفروا بها ، ثم فارقهم والتحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وحسن له الاستيلاء على العراق سنة ٥١٩ هـ (١) .

ويظهر أن خروج الخليفة المسترشد إلى حرب ديبس بن صدقة وقيادته للجيش بنفسه وما أحرزه من نصر وظفر عليه بسبب التفاف الجند حوله قد أثار مخاوف السلطان محمود حول ازدياد قوة الخليفة ، وأشار عليه بعض خاصته بالتوجه إلى بغداد ووضع حد لهذه المخاوف . ولما علم الخليفة بعزم السلطان محمود نصيح له بأن يرجئ الذهاب إلى بغداد حتى تهدأ الأحوال بعد ما تعرضت له من ضعف بسبب حرب ديبس ، وما أصاب الأهلين من وهن لاشتداد وطأة الغلاء ونذرة الأقوات ، فحمل ذلك السلطان محموداً على الظن بأن نصيحة الخليفة إنما صدرت عن سوء نية ، فقوى عزمه على دخول بغداد ، وأبى الخليفة إلا أن يرحل عنها مع أولاده وأهل بيته ، وبكى الناس لخروجه وأرسل السلطان يستعطفه ويسأله العودة إلى داره . واتسبب الخليفة برأيه وأثار بذلك غضب السلطان ، ونشب القتال بين السلطان والخليفة فدارت الدائرة على جند الخليفة ودخل السلطان محمود بغداد في المحرم سنة ٥٢١ هـ ونهب عسكره دار الخلافة ودور بعض الأمراء . عند ذلك عبر الخليفة إلى الجانب الشرقى من بغداد على رأس ثلاثين ألف مقاتل وبدأ القتال . على أن خروج أبي الهيجاء مع عسكره من جيش الخليفة وانضمامه إلى جيش السلطان محمود ، ووصول عماد الدين زنكي صاحب واسط على رأس جيش كثيف وأسطول قوى لنصرة السلطان - كل ذلك قد أدخل اليأس إلى قلب الخليفة ففجع إلى السلم ، واعتذر له السلطان عما حدث وعفا عن أهل بغداد وأبى أن يحرقها كما أشار عليه بذلك أحد رجاله ، وأقام إلى ١٠ ربيع الثاني سنة ٥٢١ هـ وعاد إلى همدان ، ثم عاد إلى بغداد سنة ٥٢٣ هـ ، بعد

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

أن التقي بعمه سنجر ، ومعه ديبس بن صدقة لإصلاح ذات البين بين ديبس بن صدقة والخليفة . ثم عاد السلطان محمود إلى همدان ، ولكن « ديبس » عاد فخرج عن طاعة الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي بعث إليه جيشاً يتألف من عشرة آلاف فارس ، فغادر البصرة واختفى^(١) .

وفي سنة ٥٢٤ هـ دعا بعض الأمراء مسعوداً من جرجان وحملوه على مناجزة أخيه السلطان محمود^(٢) . وقد أثارت هذه الأنباء مخاوف السلطان فسار من بغداد إلى همدان . ولما وصل إلى كرمانشاه لقيه أخوه مسعود وتبددت بذلك الأراجيف بخروجه عليه ، فندبه السلطان للقيام ببعض المهام في أرومية ، وقيل إنه أقطعة مدينة كنجة وأعمالها وسيرها إليها ، فبقي بها حتى مات السلطان محمود^(٣) .

صفات محمود وأخلاقه - وفاته

لا ريب أن عهد السلطان محمود يتسم ببعض الأخطاء التي غلا البنداري فسيهاها مفاسد وهي تلخص فيما يلي .

(١) إنه أثار في مستهل خلافته هذه الحرب ضد عمه سنجر مع اتساع نفوذه وبسطة سلطانه ووصية أبيه له بطاعته والعمل بمشورته .

(٢) إنه شجع ملك العرب ديبس بن صدقة من مزيد وقربه إليه برغم حروبه المستمرة وتخريبه البلاد وطعمه الذي لا يحد ومناوآته الخليفة واستمالة الأمراء إليه عن طريق الرشوة مما ساعد على نشر الفساد في البلاد .

(٣) إنه أساء معاملة عامله بفارس وطالب الأهل بالأموال ، مما أدى إلى قيام الوحشة بينهما وامتناع هذا العامل في إرسال المال وكان قد أعد لإرساله ، مما أدى إلى عصيانه على السلطان ، فاختل نظام هذه البلاد .

(٤) إنه أساء معاملة جماعة من أمراء مازندران وغيرهم كانوا بخدمة السلطان ، وكانوا

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٤٢ - ٢٤٥ ، ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) وقد قيل إن مسعوداً كان عند عمه سنجر بخراسان وإنه حمله على ذلك .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٥٤ .

ينتسبون إلى الأكراد . وكان أبوه السلطان محمد قد تألفهم بإحسانه ، وأثار بذلك سخطهم فعادوا إلى بلادهم المنيعه وشنوا عصا الطاعة وجأهروا بالعصيان .

(٥) استيلاء أمراء السلاجقة على الأموال من الذهب والفضة والحلى والجواهر والآثاث والتحف وغيرها التي خلفها السلطان محمد ، حتى أصبحت بيوت الأموال خاوية على عروشها .

(٦) تشتت شمل ممالك السلطان وإضعاف شأنهم حتى لا يثاروا حكمه أو يفكروا في الخروج عليه .

(٧) تشتت وزيره أبي القاسم الأنساباذى الدركزى الجنود التي كانت على حصار قلعة الموت بعد أن أشرف هؤلاء الجنود على فتح هذه القلعة وتبع أهلها جند السلطان وقتلهم عدداً كبيراً منهم .

(٨) تولية الأمير سلجق أخى السلطان بلاد فارس بدل الأمير قيصر الذى هرب إلى خراسان وبث شكواه إلى الأمير سنجر .

(٩) أخذ رجال الحاشية ممالك السلطان الصغار وإخراجهم المغنيات من الجوارى والإماء من دار الحرم إلى دورهم ، وانقطاعهم إلى سماع غنائهم .

(١٠) تسلط الحاشية على السلطان واجترأوا عليه واتخاذهم من صفر سنه وقلة تجاربه سيلاً للتأثير عليه (١) .

على أنه برغم هذه العيوب التي عددها البندارى كان السلطان محمود ، على ما وصفه ابن الأثير ، حليماً كريماً يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه ، مع القدرة ، قليل الطمع في أموال الرعايا عفيفاً عنها كافئاً لأصحابه عن التطرق إلى شيء منها (٢) . وذكر ابن خلكان (٣) أن محموداً كان متوقفاً الذكاء ملماً بالعربية ، حافظاً للأشعار والأمثال ، عارفاً بالتواريخ والسير ، شديد الميل إلى أهل العلم والخير . وكانت السلطنة في أواخر أيامه قد ضعفت وقلت أموالها ، حتى لمهم عجزوا عن إقامة وظيفة صاحب الشراب ، فدفعوا له يوماً بعض صناديق خزائنه المال الفارغة ، فباعها وأنفق ثمنها .

(١) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق س ١١٠ - ١١٤ .

(٢) الكامل ج ١٠ س ٢٥٥ .

(٣) وفیات الأعيان ج ٤ س ٢٦٩ - ٢٧٠ .

أما ميل السلطان محمود إلى العفو فيتجلى من موقفه من أخيه طغرل الذي خرج عليه وإرساله الهدايا إليه ووعدته بزيادة إقطاعاته برغم عصيانه له وتشبثه برأيه . كذلك نرى محموداً برغم انتصاره على أخيه مسعود يرق لحاله وبطيّب له قلباً ويؤمنه ، كما يتجلى من موقفه من الخليفة المسترشد الذي عبر عن سخطه حين علم بعزم محمود على دخول بغداد وما كان من نشوب القتال بينهما وإلحاق الهزيمة بجند الخليفة — على الرغم من هذا نرى محموداً يستعطف الخليفة ويعتذر إليه ويعفو عن أهل بغداد الذين ناووه العداء وقتلوه ولا يستمع إلى بعض خاصته الذين أشاروا بحرق بغداد حاضرة العباسيين ثم يعود إلى همدان بعد قليل ، ثم يعمل على إصلاح ذات البين بين ملك العرب صدقة ابن ديبس وبين الخليفة ، ثم يعفو للمرة الثانية عن أخيه مسعود الذي حمله بعض الأمراء على مناجزته طمعاً في السلطنة ثم يتدبّر للقيام ببعض المهام ويبريد من إقطاعه . ولعل من أبرز محاسن السلطان محمود هذه الحروب التي شنها على الصليبيين وعلى الباطنية وفتح قلعة ألموت في فارس وقلعه بانياس في الشام ، وكاتنا من أمنع معاقل هذه الطائفة التي تفاقم خطرهما وتطايّر شررها في ذلك العصر .

وفي رأينا أن هذه العيوب التي أخذها بعض المؤرخين على محمود إنما ترجع إلى حداثة سنه وقلة تجاربه مما أدى إلى طمع أمراء دولته في أموال الدولة واشتغالهم في جمع الضرائب الفادحة التي أثقلت كاهل الناس فكروا بالحكم السلجوقي وتبرموا به . هذا إلى قيام المنافسة بين هؤلاء الأمراء وتفرق كلمتهم واستبدادهم بالامر . ولو مدّ الأجل بالسلطان وحكته التجارب لكان له شأن آخر بين سلاطين السلاجقة .

وفي شهر شوال سنة ٥٢٥ هـ (١١٣١ م) مات السلطان محمود بهمدان ، وخلف ابنه داود وخطب له في بلاد الجبل وأذربيجان . وكان محمود في السابعة والعشرين ومات بعد أن ولى السلطنة اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً .

(٦) مسعود بن محمد بن ملكشاه^(١) ٥٢٧ — ٥٤٧ / ١١٣٢ — ١١٥٢ .

ولد مسعود بن محمد بن ملكشاه من حظية تسمى « نيسيت » . وبعد وفاة السلطان محمد زوجها خلفه وابنه السلطان محمود من الأمير « منكوبرس » وإلى السلطان محمد بالعراق

(١) يفهم من هذا أن محمداً ومسعوداً لم يكونا من أم واحدة .

وعهد بتثنية ابنه مسعود إلى الأمير « مودود » صاحب الموصل . وقد اشتبك مودود هذا في عدة معارك انتصر فيها على الصليبيين . وفي شهر ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ ، خرج مودود إلى المسجد الأموي ويده في يد طغتكين صاحب دمشق ، وبعد صلاة الجمعة ضرب رجل مودوداً ضربة قاتلة ، لحمل إلى دار طغتكين الذي قيل إنه هو الذي دبر هذه المؤامرة لأنه خشي أن ينتزع مودود دمشق منه . ولما اتصل نبأ مقتل مودود بمسمع السلطان محمد عهد بتثنية ابنه مسعود إلى أتابكة آق سُنُقُر وأقطعه الموصل والجزيرة^(١) .

وبعد وفاة السلطان محمود سنة ٥٢٥ هـ خطب لابنه داود بأذربيجان وبلاد الجبل . وقد دخل داود في حرب مع عمه مسعود الذي استولى على تبريز وتم الصلح بينهما في المحرم سنة ٥٢٦ هـ . ثم رحل مسعود إلى بغداد وأوفد وهو في طريقه إليها رسلاً إلى الخليفة العباسي المسترشد يطلب إليه إقامة الخطبة له . ولكن الخليفة رأى أن يرجع في هذا الأمر إلى سنجر ، وكان عميد البيت السلجوقي ، وأشار عليه بأن تكون الخطبة له وحده^(٢) .

وقد ظل أنصار سنجر أكثر من خمسة أشهر حتى وصل إلى الري (ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـ) ووصل بعده طغرل بن محمد بن ملكشاه ليلاً ، وقابل عمه سنجر في صبيحة اليوم التالي . وكان الخبر قد وصل بأن مسعود بن محمد قد استعد للجلوس على عرش السلطنة ، فزهد أخوه طغرل فيها وعزم على الرحيل . ولما أحس سنجر بهذا العزم أرسل إلى طغرل وزيره وحاجبه يحملان إليه رسالته بتوليته سلطنة العراق وولاية العهد من بعده .

بعد ذلك سار سنجر إلى نهاوند ، والتقى جيشه ، وعلى ميمنته طغرل وعلى ميسرته خوارزم شاه ، بجيش مسعود الذي حلت به الهزيمة وأسر هو ووزيره وبعض أمرائه . ثم خلع سنجر على ابن أخيه طغرل وزوده بنصائحه وودعه وانصرف إلى الري^(٣) . بعد ذلك قفل سنجر راجعاً إلى خراسان لأنه بلغه أن نائبه فيها قد عصاه (جمادى الآخرة سنة ٥٢٦ هـ) . أما طغرل فقد انصرف إلى الري وحكم في الحقيقة باسم سنجر ، ولكنه

(١) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٥٧ .

(٣) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٢ — ١٤٥ .

لم يحسن علاقته بالسلطان والخليفة معاً^(١) ، وقد سحب طغرل وزيره الدرگزيني (بفتح الدال مع التشديد والكاف وسكون الراء) .

وأما داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه الذي ولاه أبوه عهده فقد سار إلى همدان وناصره أنابكه ومريه آقسنقر الأحديلي ، ولكن بعض أمرائه الأتراك انضموا إلى عمه طغرل ، ثم التقى الجمعان وحلت الهزيمة بـداود وأنابكه آقسنقر^(٢) .

وقد ذكر البنداري^(٣) أن الدرگزيني وزير طغرل انفرد بأمور الدولة وطفى وبغى وبالغ في إيذاء الناس واشتط في مصادرة الأموال . وقد بلغ من صجر طغرل بسوء تصرفات وزيره أن أرسل إليه يقول : « إنك أسأت سمعتي وأسمنت مسامتي وفضحت أمري وأمرت بفضيحتي . ألم يكفك سلخ جلود العظاء حتى شرعت في استفراغ دماء الضعفاء واستنزاف دماء الفقراء » .

ثم سمع السلطان طغرل بتحريك جيوش أخيه مسعود وخروجه مع الأمير آقسنقر في جموع كثيرة ، فميم طغرل شطر أذربيجان ودخل تبريز وأقام في قلعتها حتى يذهب فصل الشتاء وتفتح الطرق . وقصد مسعود بغداد ومر في طريقه على أصهبان ثم اتجه غرباً وأحل الهزيمة بجند أخيه طغرل ، ثم عاد إلى همدان^(٤) ، واستولى على البلاد التي مر بها ،^(٥) والنف حول الجند من كل حذب وصوب ، وأحلت جيوش مسعود الهزيمة بجيوش داود بن محمود^(٦) .

دخل داود بغداد . ولما علم بقرب وصول مسعود إليها خرج إليه واقية ودخلا معاً بغداد . ونزل مسعود بدار السلطنة (صفر ٥٢٧ هـ) وأقيمت الخطبة له ولداود من من بعده ، وخلع الخليفة عليهما ، واستولى مسعود على بلاد طغرل الذي لم يلبث أن مرض ومات بهمدان ودفن بها في أوائل سنة ٥٢٨ هـ بعد أن ولي السلطنة سنتين وشهراً أو شهرين . وكان داود ، كما يقول البنداري^(٧) ، « جامعاً للخلال التي تفتقر إليها السلطنة من الحزم

(١) المصدر نفسه ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٦٠ .

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٥) البنداري ص ١٤٩ — ١٥١ ، ١٥٤ — ١٥٥ .

(٦) المصدر نفسه ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٧) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٥٧ .

والتحفظ والعزم والتيقظ». وقد قامت الوحشة بين الخليفة المسترشد وبين مسعود ودارت الحرب بينهما، وأسر الخليفة وحبس بقلعة قريبة من همدان. ولما بلغ ذلك أهل بغداد حَسَّوا التراب على رؤوسهم وبكوا، وخرج النساء حاسرات يندبن الخليفة ومنعوا الخطبة والصلاة. قال ابن الجوزي: وتعرضت حاضرة العباسيين عشرين يوماً كانت تقع الزلازل خمساً أو ست مرات في اليوم وأخذ الهلع من قلوب الناس كل مأخذ، حتى إن سنجر عميد البيت السلجوقي بعث إلى ابن أخيه مسعود يقول: «ساعة وقوف الولد غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين ويقبل الأرض بين يديه ويسأله العفو والصفح، ويتصل غاية التنصل، فقد ظهر عندنا من الآيات السايه والأرضية مالا طاقة لنا بسماع مثلها، فضلاعن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل... وتشويش العساكر وانقلاب البلدان. ولقد خفت على نفسي من جانب الله وظهور آياته وامتناع الناس من الصلاة في الجوامع ومنع الخطباء مالا طاقة لي بحمله. فآله الله! تتلافى أمرك وتعيد أمير المؤمنين إلى مقر عزه، وتحمل الفاشية^(١) بين يديه كما جرت عادتنا وعادة آبائنا، فنفض مسعود ما أمر به وقبل الأرض بين يدي الخليفة ووقف يسأله العفو. ثم أرسل سنجر رسولا آخر ومعه عسكر يستحث مسعوداً على إعادة الخليفة إلى «مقر عزه». وقد ذكر السيوطي أن جند السلطان سنجر ضم سبعة عشر من الباطنية، قيل إن مسعوداً هو الذي دسهم، وأنهم هجموا على الخليفة وهو في خيمته وقتلوه وقتلوا جماعة من أصحابه، ولم يشمر بهم حرس الخليفة إلا بعد أن ارتكبوا جريمتهم، فقبضوا عليهم وقتلوه. على أن السلطان مسعوداً ظهر بمظهر الحزن، جلس للعزاء، واشتد بكاء الناس، ونمى هذا النبأ إلى أهل بغداد، فخرجوا حفاة ممزق الثياب، وخرجت النساء ناشرات الشعور يلطمن ويرثين الخليفة الذي كان محبباً إليهم لما عرف عنه من الورع والتقوى والشجاعة وبعد الهمة والعدل والرفق بالناس. ويمزوا المؤرخون انهزام الخليفة إلى نخلي جند الأتراك الذين انضوا تحت لواء السلطان مسعود، على الرغم من تفوق جيش الخليفة الذي ضم كثيراً من الفقهاء والصوفية والشعراء والأطباء، وقد وصف السيوطي^(٢) الخليفة المسترشد فقال إنه كان خطيباً مفوهاً وأديباً لامعاً وشاعراً مجيداً، كما كان محدثاً متفقهاً في الدين، خطب المسترشد يوم عيد اضحى فقال:

(١) لعل سنجر يقصد أن مسعوداً يجب أن يقف خاشعاً متضرعاً أمام الخليفة سائلاً لإياه العفو والصفح عما بدر منه، ذاكراً أقوال يوم القيامة على ماورد في سورة الفاشية والفاشية هي يوم القيامة الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا سلطان ولا جاء إلا من أتى الله بقلب سليم

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٦.

«الله أكبر ما سبحت الانواء وأشرق الضياء وطلعت ذكاه (الشمس) ، وعلت على الأرض السماء . الله أكبر ما همى سحاب ولمع سراب وأنجح طلاب وسرّ قادم إياب ، إلى آخر ما ذكره في خطبته البليغة . ثم جلس ثم قام فخطب وقال : اللهم أصلحني في ذريتي وأعني على ما وليتني وأوزعني شكر نعمتك ووقفني ، وانصرني » .

كان المسترشد كما يقول السيوطي ذا مهمة عالية وإقدام ورأى وهيبة ، « ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب ، وأحيا رسم الخلافة ونشر عظامها ، وشيد أركان الشريعة وطرز أكامها وباشر الحروب بنفسه » .

قتل المسترشد بمدينة مراغة في الخامس عشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ (١) .

مات الخليفة المستظهر سنة ٤٨٧/١١١٨ ، وأغتيل كل من المسترشد وابنه الراشد على أيدي الباطنية : الأول (بتجريض سنجر على ما قيل) والثاني بمراغة حيث كان أسيراً في يد السلطان مسعود في ٢٩ أغسطس سنة ١١٣٥ (٥٢٩ هـ) ، واغتيل الثالث في أصبهان بعد أن عزله السلطان نفسه بسنتين (يونيو ١١٣٨ / ٥٣٣) . وفي الحق أن خلفاء عصر سنجر لم يكونوا أكثر من الأعيب في أيدي السلاجقة .

وقد ذكر النظامي العروضي السمرقندي أن الخليفة المسترشد خرج من بغداد على رأس جيش كثيف كامل العدة قاصداً بلاد سنجر في محاولة يائسة كلفته حياته لوضع حد لقوة السلاجقة ، وأنه خطب في طريقه خطبة الجمعة التي امتازت بالبلاغة . وقد عبر فيها عن ضيق صدره وخيبة أمله من السلاجقة وبث شكواه منهم في هذه الكلمات فقال :

« فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق فبنوا علينا (فطال عليهم الأمد فقسمت قلوبهم وكثير منهم فاسقون) » (٢) .

ولى الخلافة بعد المسترشد ابنه الراشد (٥٢٩ — ٥٣٠ / ١١٣٥ — ١١٣٦) ، فسار على سياسة أبيه . وقد حزن لوفاة أبيه ، ودفعه حب الأثر له على إهانة رسول السلطان مسعود وإثارة العامة عليه وتحريضهم على تخريب داره . وكانت خاتمة الخليفة الراشد كخاتمة أبيه . فقد سار مسعود إلى بغداد وحاصرها وأرغم الخليفة على الهرب إلى الموصل

(١) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٦١ — ١٦٢ .

(٢) جهمار مقاله ترجمة ص ٣٠ — ٣١ . Browne, Vol. II, 304—305 .

والاحتماء بزنىكى. بل إننا نرى السلطان مسعوداً يجمع القضاة والشهود ويحملهم على الكتابة بذي الخليفة، فكتبوا محضراً بخلفه (١).

وقد ذكر صاحب الفخرى (ص ٢٧١) أن السلطان مسعوداً استشار الوزير الزينبي (٢) فيمن يوليه الخلافة فقال له: يا مولانا! هناك رجل يصلح لها، فسأله عن اسمه فقال له: يا مولانا إن سميت أخاف أن يقتل، ولكن إذا دخلنا بغداد سميت لك. فلما احتاجوا إلى إجلال خليفة، سمى الزينبي له أبا عبد الله محمد المقتنى عم الراشد، فبايع له وأجلسه على سرير الخلافة (٣). وقد قتل الراشد وهو على باب أصهبان سنة ٥٣٢ هـ، وقيل إنه قتل على يد الباطنية كأبيه من قبل (٤).

ولما آلت الخلافة إلى المقتنى (٥٣٠ - ١٣٦/٥٥٥ - ١١٦٠) عول على ترسم خطى آبائه ونجح كثيراً في هذه السبيل، ولم تكن جهوده موجهة ضد السلطان مسعود مباشرة، وإنما كانت موجهة ضد بعض أمراء البيت السلجوقي، فإن بعض هؤلاء الأمراء تسلطوا على محمد (بن محمود أخى مسعود) وحرصوه على الخروج على السلطان وأشاروا عليه بالسير معهم إلى بغداد (٥٤٣ هـ). وقد استمع إليهم محمد هو وأخوه ملكشاه وحاصروا بغداد وقتلوا أكثر من خمسمائة من أهلها وأبوا رفع الحصار إلا بعد أن يدفع إليهم الخليفة ثلاثين ألف دينار. وهنا ظهرت شجاعة الخليفة الذى رجع إلى رأى يحيى بن محمد بن هبيرة، وكان يتولى زمام قصره، فأشار عليه بأن يستخدم هذا المال فى جمع الجند لرد خطر العدو. ويقول البندارى (٥): إن هذا العمل أَرْضَى السلطان مسعوداً وساعده على جمع جيش قوى استعان به الخليفة فى حروبه المقبلة.

أصيب السلطان مسعود بالحمى ومات بهمدان فى أول شهر رجب سنة ٥٤٧ هـ، وكان كما وصفه ابن الأثير (٦)، «حسن الأخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس... وكان

(١) الفخرى ص ٢٧٣.

(٢) هو أبو القاسم على ويرجع نسبه من جهة أمه إلى زينب بنت سليمان بن عبد الله بن العباس.

(٣) الفخرى ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ١١ - ٢٨.

(٥) زبدة النصرة ونجدة العصرة ص ١٨١. ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٦٠، ٦٦.

(٦) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٥.

كرباً عفيفاً عن الأموال التي للرعايا ، حسن السيرة فيهم . (وكان) من أحسن السلاطين سيرة وألينهم عريكة ، سهل الأخلاق لطيفاً . وقد مات مع مسعود سعادة البيت السلجوقي فلم تقم بعدها راية يعتمد عليها ولا يلتفت إليها » .

ولى السلطنة بعد مسعود ابن أخيه ملكشاه (بن محمود بن محمد) الذي قضى وقته في اللهو واللعب وترك شؤون الدولة إلى خاضبك بن بلنكرى ، فلم ير فيه الرجل الذي يستطيع النهوض بأعباء السلطنة ، فاستدعى أخاه محمد بن محمود وولاه السلطنة^(١) . وهنا دخل النزاع بين الخليفة العباسي والسلطان في طور جديد .

(٧) نهاية عصر السلاجقة العظام .

على أن عصر السلاجقة العظام لم ينته في الحقيقة بوفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ ، بل امتد حتى وفاة سنجر سنة ٥٥٢ هـ . فقد بدأت المتاعب التي عكرت صفو السلاجقة بهذه الثورة التي قامت على يد أنسر خوارزم شاه الذي أعلن استقلاله سنة ٥٣٥ هـ . (١١٤٠ — ١١٤١ م) . وفي السنة التالية هزم كفار الأتراك سنجر وأسروا زوجته وهزموا مائة ألف من جنده ، كما ضاعت مرو وسرخس (بفتح السين والراء وسكون الخاء) ونيسابور وبهق (بفتح الباء والهاء وسكون الباء) .

وفي سنة ٥٤٧ هـ قوى أمر الغور بزعامة علاء الدين الذي حاصر هراة ونهبها ثم ملك بلخ ، فقصده سنجر وأحل الهزيمة بالغور وهزم علاء الدين . ولما مثل بين يدي سنجر قال له : يا حسين ! لو ظفرت بي ما كنت تفعل ؟ فأخرج له قيداً من الفضة وقال له : كنت أريدك بهذا وأحملك إلى فيروزكوه (حاضرة الغور) . « ولكن سنجر استأله إليه ، فخلع عليه وردّه إلى حاضرة ملكه .

وفي سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) هزم سنجر هزيمة منكرة على أيدي الغز الأتراك الذين ملكوا طوس ونيسابور وقتلوا كثيراً من الأهلالي من بينهم طائفة من العلماء عرفوا بزهدهم وورعهم ، كما أمر سنجر نفسه . وكان من الناحية العملية سجيناً بأيدي الغز ولو أنه عومل بشيء من الاحترام ظاهراً ، ولم يستطع أن يتنقل حيث شاء أو يحمي رعاياه البؤساء حتى خريف ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) حين نجح بعض أنصاره وخدمه في إطلاقة عن طريق

(١) المصدر نفسه ج ١١ ص ٧٢ — ٧٣ .

إرشاد بعض حراسه وحملوه إلى مرو حاضرة خراسان التي اتخذها حاضرة لدولته^(١). وهنا أخذ سنجر يجمع الجند ، ولكن الحزن الذي ملك عليه نفسه لما وصلت إليه بلاده من التخريب والإفقار وتقدم سنة أدى إلى وفاته بعد ذلك بأشهر قليلة (١٤ ربيع الأول سنة ٥٥٢ / ١١٥٦ — ١١٥٧) ودفن كجده ألب أرسلان في مرو في البناء المعروف بدولت — خانة الذي بناء هناك . وقد ذكر ابن الأثير^(٢) أنه دفن في قبة بناها لنفسه وسماها قبة الآخرة . « وكاد يعود إليه ملكه فأدركه أجله » كما يقول ابن خلكان^(٣) ، ومات سنجر وقد بلغ الثانية والسبعين بعد أن حكم ، على ما ذكره البنداري^(٤) ، إحدى وستين سنة حكم فيها خراسان وبلاد ما وراء النهر إحدى وأربعين سنة . وقد تلقب بلقب ملك عشرين سنة ، وأقيمت له الخطبة على أكثر منابر الدولة السلجوقية المترامية الأطراف نحو أربعين سنة ، « وخطب له بالعراقيين والشسام وديار بكر وديار ربيعة والحرمين ، وقد ضربت الدنانير باسمه في الخاقين ، وتلقب بالسلطان الأعظم معز الدنيا والدين » .

-
- (١) يقول ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص ٨٥) إن سنجر أسر في أيدي الغز من ٦ جمادى الأولى سنة ٥٤٨ إلى شهر رمضان سنة ٥٥١ هـ .
 (٢) الكامل ج ١١ ص ٩٠ .
 (٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٤٨ .
 (٤) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ .

الباب الثالث

الدول المستقلة التابعة للخلافة العباسية

أولاً — دول الأتابكة

من هم الأتابكة ؟

كان الجيش في عهد السلاجقة يقوده ممالك من الأتراك الذين عرفوا بطول أجسامهم وجمال خلقتهم . وكان هؤلاء الممالك يشتركون بالمال ويعتقون الإسلام وينشئون نشأة إسلامية خالصة في بلاط الخليفة أو السلطان حيث يتصلون اتصالاً وثيقاً بأمراء السلاجقة . وكان هؤلاء الأمراء يجلبون بصفة عامة من بلاد القفجاق^(١) شمالى البحر الأسود . وتسند إلى هؤلاء الممالك بعض الوظائف كرياسة الخدم وتنظيم القصور ، ومنهم من يلحق بحرس الخليفة أو السلطان . وإذا ما أدى هؤلاء الممالك خدمات هامة للدولة أو أظهروا كفاءة خاصة أو صفة حرية ممتازة وبرهنوا على إخلاصهم وولائهم وصلوا إلى أعلى المناصب في الجيش والبلاط أو أسند إليهم حكم إقليم من أقاليم الدولة السلجوقية المترامية الأطراف .

على أن هذا النظام كانت له نتائج خطيرة . وكان هؤلاء الأرقاء الذين عرفوا بالشجاعة والإقدام إذا ما بلغوا سن الرجال وظهرت مواهبهم الممتازة وأسند إليهم حكم إحدى الولايات يتمردون على سادانهم ويحلون محلهم في حكم الولايات . وهكذا أخذ الضعف يدب في جسم الدولة السلجوقية ، فتفككت هذه الإمبراطورية وانقسمت إلى دويلات ، وانتقل النفوذ والسلطان إلى هؤلاء الممالك الذين خاضوا المعارك باسم السلاطين وأصبحوا أوصياء أو « أتابكة » على أبناء هؤلاء السلاطين .

وبموت السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) أقل نجم البيت السلجوقي في العراق ، وتقاسم ملك السلاجقة دول كثيرة تعرف بدول الأتابكة (ويعبر عنها بأتابك العسكر) .

روى الفلقشندي^(١) عن السلطان عماد الدين في تاريخه أن أتابك أصله أطابك ومعناه الوالد الأمير . وأول من لقب بهذا اللقب نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ ولقب بألقاب منها « أتابك » ومعناها الأمير المسن ، وقيل إن أتابك معناه الاب الأمير ، ومعناه الأمير الكبير سنًا ، وهو عادة يكون أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب السكافل . وأتابك كلمة تركية معناها مربى الأمير ، لأن « أنا » معناها مربى و « بك » معناها الأمير .

وكان السلاجقة يعهدون بقرية أبنائهم إلى المقربين إليهم من الأتراك الذين ترعرعوا في كنفهم . وإذا عين السلطان أحد أبنائه على مدينة من المدن أو ولاية من الولايات أرسل معه هذا التركي (المربي) ليعاونه في الحكم ويسدى إليه ما يراه من النصائح . ويتمنع هذا الشرف لكبار رجال الدولة وقواد الجيش . وسرعان ما أصبح هؤلاء الأتراك أصحاب النفوذ الفعلي في الولايات التي عهد إليهم بالحكم فيها ، فيعملون لحسابهم الخاص ويتخذون لأنفسهم الألقاب التي تروق لهم^(٢) . وقد ساعد على ضعف الدولة السلجوقية بعد موت ملكشاه نشوب الحروب بين أبنائه وأحفاده ، واتخذ الأتابكة من ذلك فرصة لفرض سيطرتهم على البلاد التي تحت حكمهم وتسايقوا إلى توسيع رقعة بلادهم كل على حساب الآخر . وبذلك نشأ الصراع بين أفراد البيت السلجوقي كما نشأ بين الأتابكة ، وعمل بعض الخلفاء بعد موت السلطان مسعود على استرداد نفوذهم في العراق^(٣) .

وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكة إلى درجة الملك وأورثوه أولادهم من بعدهم . ومن ثم أطلق على هذه الأسرات أو الدول فيما بعد اسم دول الأتابكة . وإلى جانب هذه الدول دول أخرى ولاها بعض السلاجقة قوادهم فأورثوها أبناءهم ، ويلقبون بلقب شاهات . ومن هؤلاء الشاهات شاهات خوارزم وشاهات أرمينية . ومن دول الأتابكة أتابكية كيفا وماردين ، وأتابكية دمشق^(٤) ، وأتابكية دانتشمند^(٥) ، ثم أتابكيات الموصل والجزيرة وسورية وأذربيجان وفارس . وعلى هذا النحو نرى .

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٢) ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٠٣ .

(٤) وتسمى الدولة البورية التي أسسها طغتكين الذي عينه تنش على دمشق .

(٥) وقد أسسها محمد بن جشتكين في كبادوكيا وشملت سيواس وقيصرية ومطية .

(١) طغتكين مملوك تُنْش (بضم التاني) السلاجوقي يعين ابنه ووريثه الصغير دُقاق « أتابك » ، ثم يستأثر هذا الأتابك بالملك في دمشق بعد وفاة ابن السلطان فتقوم أتابكية دمشق .

(٢) وكان عماد الدين زنكى مؤسس أتابكية الموصل والجزيرة وحلب وغيرها ابن آقسنقر ابن أحد مماليك ملكشاه ثالث سلاطين السلاجقة .

(٣) ويرجع أصل أتابكية أذربيجان إلى رجل من بلاد القفجاق كان مملوكا للسلطان مسعود السلاجوقي في العراق .

(٤) وكان أنوشتكين جد شاهات خوارزم يشغل وظيفة الساقى (حامل الكأس) في بلاط السلطان ملكشاه .

(٥) وكان أرتق (بضم الألف مع الهمزة والتاء وسكون الراء) وسلفر (بفتح السين والغين وسكون اللام) مؤسسا للأسر في ديار بكر وفارس من قواد السلاجقة .

(٦) وكان خانات البجتجينين (Begtigimids) والهازاراسيديين Hazarâspids والقُطْلغينيين Kutlughs قواداً للمماليك السلاجقة .

(٧) وفي القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) كانت أراضي الإمبراطورية السلجوقية عدا بلاد الأناضول في أيدي قواد السلاجقة الذين أدخلوهم في خدمتهم .

هكذا انقسمت الدولة السلجوقية العظيمة إلى دويلات الأتابكة المتعادية المتنافرة مما مهد السبيل لاسترداد بعض الخلفاء العباسيين بعض ما كان لهم من سلطان ، وأتاح الفرصة للصليبيين لشن حروبهم على البلاد الإسلامية ، كما مهد ذلك السبيل للبغول لاحتياج أقاليم بلاد ماوراء النهر وفارس والعراق . ولنتكلم في شيء من الإيجاز عن أهم دول الأتابكة .

١١٠٣ — ١١٥٤ م

٤٥٧ — ٥٤٩ هـ

(١) أتابكية دمشق

البوريون أو أسرة بورى

١١٠٣

سيف الإسلام ظهير الدين طُغْتَكِين

٤٩٧

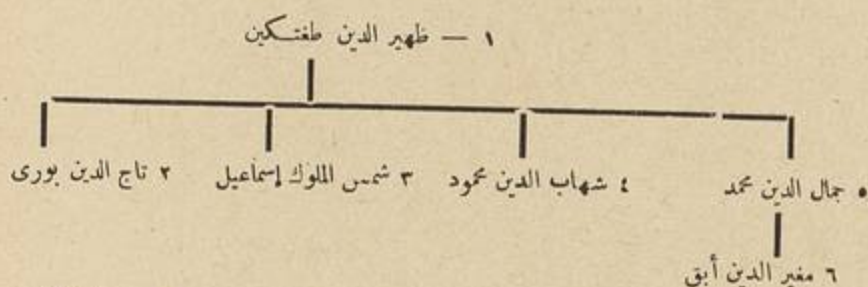
١١٢٨

تاج الملك بورى

٥٢٢

١١٣٢	شمس الملوك إسماعيل	٥٢٦
١١٣٤	شهاب الدين محمود	٥٢٩
١١٣٨	جمال الدين محمد	٥٣٣
١١٣٩ —	مغير الدين أبق (أو أنز، ت ٥٦٤ هـ)	٥٣٤ —
١١٥٤		٥٤٩

[آل زنكي]



تنسب هذه الدولة إلى طغتكين أحد قواد الجيش السلجوقي ، وكان مملوكاً لتتاش ابن ألب أرسلان ، وكان والياً على دمشق عند وفاة أخيه ماسكشاه^(١) . وكان يطمع في السلطنة بعد وفاته واستطاع أن يمد نفوذه على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان ومهمذان ويقيم الخطبة لنفسه في بغداد^(٢) . وقد قتل تتاش سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) في أثناء صراعه مع السلطان بركياروق ، وانفرد ابنه دقاق (بضم الدال) بحكمها ، فاتخذ طغتكين « أنابك » له ، حكم البلاد باسمه^(٣) .

وقد استمرت أنابكية دمشق تحت نفوذ أسرة طغتكين حتى آل حكمها إلى أسرة زنكي سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) باستيلاء نور الدين محمود بن زنكي عليها لتقوية جيوشه للوقوف في وجه الصليبيين^(٤) ، ثم انتقل هذا النفوذ إلى الأيوبيين في عهد صلاح الدين

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٩٠ .

(١) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٠٣ .

Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 161.

(٤) ابن الأثير : الباهر ص ١٨٨ — ١٩١ .

الأيوبي الذي قلد أمورها إلى الأفضل ، ثم انتقل هذا الحكم إلى العادل بعد وفاة أخيه صلاح الدين (١) .

(٢) بيت زنكي

١٢٣٤ — ١١٢٧	(١) أتابكة الموصل	٥٢١ — ٦٣١ هـ
١١٢٧	عماد الدين زنكي (مع حلب)	٥٢١
١١٤٦	سيف الدين غازي الأول	٥٤١
١١٤٩	قطب الدين مودود	٥٤٤
١١٦٩	سيف الدين غازي الثاني	٥٦٥
١١٨٠	عز الدين مسعود الأول	٥٧٦
١١٩٣	نور الدين أرسلان شاه الأول	٥٨٩
١٢١٠	عز الدين مسعود الثاني	٦٠٧
١٢١٨	نور الدين أرسلان شاه الثاني	٦١٥
١٢١٩	ناصر الدين محمود	٦١٦
١٢٣٣	بدر الدين لؤلؤ	٦٣١
— ١٢٥٩	إسماعيل بن لؤلؤ	٦٥٧ —
١٢٦٢		٦٦٠

[المغول]

١١٨١ — ١١٤٦ م	(ب) أتابكة سورية	٥٤١ — ٥٧٧ هـ
١١٤٦	نور الدين محمود بن زنكي	٥٤١
— ١١٧٣	الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود	٥٦٩ —
١١٨١		٥٧٧
[أتابكة الموصل وسنجار ، ٥٧٧ هـ ؛ ثم الأيوبيون ٥٧٩ هـ]		
١١٢٢٠ — ١١٧٠ م	(ج) أتابكة سنجار	٦١٧ — ٥٦٦ هـ
١١٧٠	عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود	٥٦٦

١١٩٧	قطب الدين محمد	٥٩٤
١٢١٩	عماد الدين شاهنشاه	٦١٦
— ١٢١٩	محمود	— ٦١٦
١٢٢٠		٦١٧

[الأيوبيون]

١٢٥٠ — ١١٨٠	(د) أنابكة الجزيرة	٥٧٦ — ٦٤٨
١١٨٠	معز الدين سنجر شاه	٥٧٦
١٢٠٨	معز الدين محمود بن سنجر	٦٠٥
— ١٢٤١	مسعود	— ٦٣٩
١٢٥٠		٦٤٨

[الأيوبيون]

(٢) أنابكة الموصل^(١) ٥١٦ — ٦٦٠ / ١١٢٢ — ١٢٦٢ .

كانت الدولة السلجوقية في عهد سلاطينها الثلاثة الأول قوية الجانب مهيبة السلطان . فلم يجرؤ أحد من الأمراء أو القواد على الاستقلال بولايته . وهذا يرجع إلى اتحاد أفراد البيت السلجوقي وعدم تطلعهم إلى الملك إذ كان جل مهمهم المحافظة على استقلال دولتهم . ولكن الخلاف أخذ يدب إلى جسم الدولة بعد وفاة السلطان ملكشاه (٤٨٥ هـ) إذ قام الصراع بين أفراد البيت المالك رغبة في الاستيلاء على السلطنة مما أنهك قواهم العسكرية وبدد مواردهم المالية وأطعم فيهم القواد ، فاستطاع بعضهم أن يؤسسوا إمارات محلية تتمتع بالاستقلال . وكان بعض هؤلاء القواد ينتمون إلى البيت السلجوقي والبعض الآخر من مماليك سلاطين هذا البيت وقواده .

وقد تركز معظم هذه الإمارات في الجهات الشمالية من الدولة السلجوقية أي في أواسط

(١) وتسمى هذه الأنابكة أيضاً « دولة بني زنكي » ، وقد ذكر لينبول (162 — 163 pp) أن حكم هذه الأسرة بدأ في سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) لأن عماد الدين زنكي تقلد في هذه السنة حكم بعض البلاد ومنها الموصل والجزيرة ونصيبين . واعتبر زامباور (ص ٢٢٦) سنة ٥١٦ هـ بداية حكم هذه الأسرة حتى تولى عماد الدين زنكي حكم مدينة واسط .

وجنوبي آسيا الصغرى والجزيرة والشام وأذربيجان وغيرها . وهى مناطق وعرة المسالك تمتاز بغاباتها الكثيفة ويسكنها التركان الشجعان . كما تمتاز هذه المناطق بحصونها المنيعة ، إذ كان بعضها محاطا بسورين كمدينة آمد .

(١) آقسنقر :

كان آقسنقر (يسكون القاف الأولى وضم السين والقاف الثانية) الحاجب مملوكا تركيا من ممالك السلطان ملكشاه الساجوقى . وقد ترى معه منذ صغره ، حتى قيل إنه « لصيقه » ورافقه فى طفولته وصباه . فلما تولى ملكشاه السلطنة سنة ٤٦٥ هـ بلغ آقسنقر منزلة رفيعة عنده وأصبح من كبار أمرائه وأخلص أصدقائه حتى إنه كان يعتمد عليه فى كثير من أمور دولته ، وعلت منزلته فلقبه قسيم الدولة ^(١) و « الحاجب » ^(٢) .

ويظهر أن إثثار السلطان ملكشاه آقسنقر قد أثار حنق الوزير نظام الملك ، فعمل على إبعاده .

وفى سنة ٤٧٧ هـ أمر ملكشاه آقسنقر بالمسير مع عميد الدولة بن نخر الدولة إلى الموصل والاستيلاء عليها من العقيليين ^(٣) . وفى سنة ٤٧٩ هـ اشترك آقسنقر مع السلطان ملكشاه فى الاستيلاء على حلب من نواب العقيليين فيها ، ثم قلده السلطان ولايتها ^(٤) .

ولا يبعد أن تكون تولية آقسنقر حلب استجابة لوزير نظام الملك الذى أراد إبعاد آقسنقر عن بلاط السلطان ، فتسلم « قسيم الدولة » حلب وأعمالها كجهاد ومفتيح والاذقية وكفر طاب وقرض طاعته على صاحب شيزر (٤٨١ هـ) ^(٥) ، كما وسع نطاق ولايته فضم إليها حمص (٤٨٣ هـ) وحصن أقامية (٤٨٤ هـ) ، واشترك مع السلطان ملكشاه فى مهاجمة العقيليين وانتصر عليهم على مقربة من الموصل ^(٦) . وبعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ضم آقسنقر مدينة تكريت إلى أملاكه ^(٧) .

(١) ابن الأثير : الباهر ص ٤ .

(٢) ابن خلكان . وفیات الأعيان ج ١ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

(٣) ابن الأثير : الباهر ص ٥ .

(٤) ابن الأثير : السكامل ج ١٠ ص ٥٥ .

(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٦) المصدر نفسه ص ١٢١ .

(٧) ابن الأثير : الباهر ص ١١ — ١٨ .

وفي سنة ٤٧٨ هـ أصبح آقسنقر نائباً لتتش (أخي السلطان ملكشاه) الذي طمع في السلطنة بعد وفاة أخيه (٤٨٥ هـ) وحاول استخلاصها لنفسه من بركياروق ابن ملكشاه واستولى على معظم بلاد الجزيرة ثم على الموصل. ثم اتجه تتش إلى أذربيجان لمحاربة السلطان بركياروق، فلما تقارب الجيشان اتفق آقسنقر مع بعض الأمراء على الانضمام إلى السلطان بروكياروق^(١)، وضعفت بذلك قوة تتش فعاد إلى الشام. وقد عزا المؤرخون موقف آقسنقر إلى عدم تولية تتش إياه بعض البلاد التي استولى عليها وتقريبه بعض الأمراء عليه^(٢).

أمر السلطان بركياروق آقسنقر بالمسير إلى حلب لوضع حد لمطامع عمه تتش، والتقى الجيشان على مقربة من هذه المدينة، فانتصرت قوات تتش وأسر آقسنقر ثم قتل سنة ٤٨٧ هـ.

وفي سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) حارب تتش السلطان بركياروق على مقربة من الرى، ولكن الهزيمة حلت به وقتله أحد ممالك آقسنقر واستتب الأمر لبركياروق^(٣).

(ب) عماد الدين زنكى

كان عماد الدين زنكى عند وفاة أبيه في العاشرة من عمره، وكان يقيم بمدينة حلب، فحاطه السلطان بركياروق برعايته واهتم بتربيته؛ وأقطع ممالك أبيه الإقطاعات الواسعة في الموصل وعهد إليهم بتربيته^(٤).

ولما بلغ عماد الدين زنكى مبلغ الرجال ظهرت مواهبه وشجاعته، واشترك مع ولاية الموصل في جميع المعارك التي نشبت مع الصليبيين في الجزيرة والشام وتل باشر ومعرة النعمان وطبرية وفي الرها وسميساط، وأظهر في هذه المعارك شجاعة نادرة أكسبته شهرة عظيمة بين المسلمين^(٥)، ولما توفي السلطان محمد بن ملكشاه (٥١١ هـ) خلفه ابنه محمود في السلطنة. وكان السلطان محمد قد عهد إلى «جيوش بك» بتربية ابنه مسعود وجعله «آتابك» له على الموصل، فلما مات السلطان محمد دفع جيوش بك مسعوداً إلى التوجه

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٨٢ — ٨٣

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب ج ٢ ص ١٠٩.

(٣) ابن الأثير: الباهر ص ٣٠ — ٣٧

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٤٦.

(٥) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٨٣ — ١٨٩. الباهر ص ١٧ — ٢٠.

إلى بغداد للجلوس على عرش السلطنة فيها ، وانضم إليهما عماد الدين زنكي ، ولكن هذه المحاولة انتهت بالإخفاق واستتب الأمر للسلطان محمود بن ملكشاه^(١) .

وفي سنة ٥١٤ هـ شق جيوش بك عصا الطاعة ثانية على السلطان محمود . ولكن عماد الدين زنكي أبي الانضمام إلى « جيوش بك » الذي حلت به الهزيمة^(٢) ، وقد قدر السلطان محمود لعماد الدين زنكي موقفه ، فولى آقسنقر البرسقي^(٣) ولاية الموصل (٥١٥ هـ) وأمره بتقديم عماد الدين زنكي على سائر الأمراء والرجوع إلى رأيه ومشورته^(٤) .

وقد استطاع عماد الدين زنكي أن يكتسب رضا سلاطين السلاجقة وأن يتنقل في حكم البلاد بفضل ما أوتي من حزم وشجاعة . ففي سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) تقلد ولاية مدينة البصرة^(٥) ، فعمل على حمايتها من هجمات العرب ، ولا سيما دُبَيْس بن صدقة أمير بني مزيد بالحلة ، وقضى على الفوضى التي انتشرت في ربوعها ، واستطاع كل من عماد الدين زنكي والبرسقي الذي كان يشغل منصب شحنة بغداد^(٦) أن يصددا هجمات دبيس بن صدقة وبشتتا جنده وبأسراه ، وعاد الخليفة إلى بغداد^(٧) .

وفي سنة ٥١٧ هـ عزل البرسقي من شحنة العراق وأعيد إلى الموصل للجهاد الصليبيين ، فاستدعى عماد الدين زنكي ، وكان بالبصرة . لموافاته بالموصل ، ولكنه آثر البقاء بأصبهان مع السلطان محمود الذي قربه إليه وزوجه من أرملة أحد كبار أمراءه

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣ — ٢٠٥ .

(٢) ابن الأثير : الباهر ص ٢٢ — ٢٣ .

(٣) ويلقب أيضا قسيم الدولة سيف الدين . انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٨ — ٢٢٠ .

(٤) ابن الأثير : الباهر ص ٢٤ .

(٥) ابن الأثير : الباهر ص ٤٥ .

(٦) الشحنة (بكسر الشين مع التشديد وسكون الحاء وفتح النون) في اللغة الجماعة من المحاربين يقيمون في البلد لحمايتها والدفاع عنها من هجوم العدو . وأطلق هذا اللفظ على من يقوم برياسة هؤلاء المحاربين . والشحنة معناها محافظ للمدينة أو الإقليم .

(٧) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣١ — ٢٣٢ . الباهر ص ٢٥ — ٢٧ . ابن

الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

في احتفال نغم شهده السلطان (١). وفي السنة التالية أقطع هذا السلطان عماد الدين زنكي البصرة ، ففضى على الفوضى التي سادتها ، ثم ولاه واسط للدفاع عنها إذا ما فكر الخليفة في إرسال جيش للاستيلاء عليها (٢) ، وقد قدر السلطان كفاية زنكي فولاه شحنة شحنة العراق (٣).

وفي سنة ٥١٩ هـ سادت العلاقة بين الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي سار إلى العراق لقرض سيطرته عليه ، وأرسل الخليفة جيشاً إلى واسط للاستيلاء عليها ، ولكن الهزيمة حلت بهذا الجيش ، ثم وصل السلطان إلى بغداد ولحق به زنكي على رأس قواته البرية والنهرية ، واضطر الخليفة إلى طلب الصلح ، فتم له ما أراد (٤). ولم يطل مقام السلطان محمود ببغداد لاعتلال صحته ، فعاد إلى أصبهان حاضرة سلطنته ، وقبل رحيله ولى عماد الدين زنكي شحنة بغداد والعراق بالإضافة إلى الولايات التي كان يحكمها . وقد ظل زنكي في هذا المنصب نحواً من أربعة أشهر ، ثم صدر مرسوم السلطان بإقطاعه الموصل والجزيرة والشام (٥) ، وسلمه ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالحقاجي وجعله أنابك لها ، ومنذ ذلك الحين أطلق على زنكي لقب « أنابك » (٦).

وفي سنة ٥٢٢ هـ استولى عماد الدين زنكي على حلب التي كان الصليبيون يهددونها من حين إلى حين .

(ح) عماد الدين زنكي بالخمرقة والسلطنة

تقلبت أحوال عماد الدين زنكي من حيث علاقته بالسلطان والخليفة . على أن هذه التقلبات لم ترزعزعه مركزه في ولاية الموصل والجزيرة والشام ، فقد سار السلطان محمود إلى عمه سنجر شيخ السلاجقة وصاحب الكلمة العليا في السلطنة لتصفية الخلافات القديمة بينهما . وكان دُبَيْس بن صدقة أمير الحلة عند سنجر ، فطلب من السلطان محمود العمل على

(١) ابن الأثير : الباهر ص ٢٧ — ٢٨ . الكامل ج ١٠ ص ٢٣٧ .

(٢) الباهر ص ٢٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٤٤ .

(٤) ابن الأثير : الباهر ص ٢٨ — ٣١ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٤ — ١٩٦ .

(٥) ابن الأثير : الباهر ص ٣٥ . الكامل ج ١٠ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ .

(٦) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٧ ، انظر مادة عماد الدين زنكي في ابن

خلكان ج ٢ ص ٧٩ — ٨٠ .

تحسين علاقته بالخليفة وتوليته الموصل والجزيرة والشام بدلامن عماد الدين زنكى . ولما وصل السلطان محمود إلى بغداد (المحرم سنة ٥٢٣ هـ) عرض على الخليفة طلب سنجر ، وكان عماد الدين زنكى قد علم بما دبر له ، فأسرع السير إلى بغداد وبذل الأموال الضخمة الشكل من الخليفة والسلطان لإقراره في منصبه من جديد .

وقد مال الخليفة والسلطان إلى تحقيق رغبة عماد الدين زنكى لعوامل كثيرة ترجع إلى ما كان يضمه الخليفة من الكراهية والبغضاء لديس بن صدقة ، لتحديه إياه وموقفه العدائى منه وشبه الغارات على بغداد ومساعدته الصليبيين على المسلمين . أما السلطان محمود فقد خشى أن يتخذ سنجر من تولية دُبَيْس على الموصل ذريعة لزعزعة نفوذه وتقويض سلطانه في العراق (١) .

وفي سنة ٥٢٥ هـ سادت العلاقة بين عماد الدين زنكى والخليفة المسترشد ، فقد طلب الخليفة تسليم ديبس بن صدقة ، وكان معتقلا في دمشق ، على أن عماد الدين زنكى أطلق ديبساً وأحسن إليه وأعطاه الأموال ، ولعل زنكى أراد بذلك أن يراقب ديبساً ويحد من نشاطه إذا سولت له نفسه مناوآته . أما الخليفة فإنه كان يرمى من وراء تسليم ديبس أن يضع حداً لمناوآته إياه (٢) .

وفي سنة ٥٢٥ هـ سمع عماد الدين زنكى وهو في طريقه إلى حمص نبأ وفاة السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه ، فطلب إلى الخليفة المسترشد أن يقيم الخطبة لألب أرسلان (وكان هو وأخوه الخفاجى تحت إشراف زنكى) . وكان عماد الدين زنكى يرمى إلى الاستثار بالنفوذ باسم هذا الأمير الصغير إذا آلت إليه السلطنة . لكن الخليفة اعتذر عن إجابة زنكى إلى طلبه بحجة أن ألب أرسلان لا يزال طفلاً غير صالح للحكم ، وأن السلطان محمود كان قد عهد بالسلطنة وهو بأصبهان لابنه داود في الوقت الذى أقام عمال الأقاليم الخطبة لهذا السلطان الجديد ، وأضاف إلى ما تقدم أنه فى انتظار رأى سنجر كبير البيت السلجوقى وسلطان خراسان وما وراء النهر (٣) .

وفي سنة ٥٢٦ هـ استمال مسعود (بن محمد بن ملكشاه) حاكم أذربيجان عماد الدين زنكى وطلب مساعدته فى المطالبة بعرش السلاجقة مقابل تقليده مدينة إربل التى كانت

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٩ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٦ .

تابعة له ، وتم الاتفاق بينهما على المسير إلى بغداد لمطالبة الخليفة بإقامة الخطبة لمسعود والاعتراف به ساططاً على العراق ^(١) . على أن سلجوق شاه سبق أخاه مسعوداً وسار إلى بغداد على رأس جيش كبير . ولكنه توجه (وهو في طريقه إلى بغداد) إلى تكريت لإيقاف تقدم زنكي ^(٢) وعلى مقربة من هذه المدينة دارت بين الفريقين موقعة انتهت بانهزام عماد الدين زنكي ، فمهم شطر تكريت حيث أكرم نجم الدين أيوب وفادته وسهل له سبيل عودته إلى الموصل . ومن هنا نشأت العلاقة بين بيت زنكي والبيت الأيوبي ، تلك العلاقة التي كان لها أثر بعيد في الأحداث التاريخية التي ظهر فيها نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي بطل الحروب الصليبية في عصره ^(٣) .

وقد أدرك مسعود وسلجوق شاه أن الصراع بينهما يتيح الفرصة لتدخل عههما سنجر على إحباط هذه الخطة ، فاستمال إليه عماد الدين زنكي وديس بن صدقة ، وطلب إليهما التوجه نحو بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة له فيها ثم لطغرل بن محمد بن محمود ابن ملكشاه من بعده ، وتعهد سنجر بإضافة منصب شهنشاهية بغداد إلى عماد الدين زنكي ^(٤) ، وبأن يقطع « ديس » إمارة الحلة ^(٥) ولكن سنجر انتصر على جيوش مسعود وسلجوق شاه وأجلس طغرل بن محمد على عرش سلطنة العراق . ثم حلت الهزيمة بزنكي وديس ، واستطاع مسعود أن يجلس على عرش سلطنة العراق وإيران بواقفة عهه سنجر .

وكان من أثر هذه المعارك أن ساءت العلاقة بين عماد الدين زنكي والسلطان مسعود من ناحية وبين الخليفة المسترشد من ناحية أخرى . وفي شهر رمضان سنة ٥٢٧ هـ سار الخليفة إلى الموصل على رأس جيش قيل إنه بلغ ثلاثين ألف مقاتل وحاصرها ثمانية يوماً ، واتخذ مسعود من حصار الخليفة الموصل فرصة للاستيلاء على بغداد بمساعدة

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٧

(٢) ابن الأثير : السكامل ج ١٠ ص ٢٥٧ ، ج ١١ ص ١٣٨

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢٣٢ - ٢٣٤ ، ج ٦ ص ١٤٣ - ١٤٤

(٤) الشهنشاهية أو الشحنة معناها منصب محافظ المدينة أو الإقليم كما تقدم .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ ص ٢٦ . ابن الأثير السكامل ج ١٠ ص ٢٥٧ - ٢٥٨

كتاب الباهر ص ٤٤ .

دييس بن صدقة . ولذلك اضطر الخليفة إلى العودة إلى بغداد ، وعقد الصلح مع زنكى (٥٢٨ هـ) وتبذلت الهدايا بينهما ، وأرسل ابنه سيف الدين غازى يؤكد طاعته للخليفة وولاه له (١) .

ثم طلب الخليفة المسترشد من عماد الدين زنكى رفع الحصار عن دمشق والتوجه إلى بغداد ليشترك فى النزاع الذى قام بينه وبين مسعود (٥٢٩ هـ) ، ودارت الحرب بين الخليفة والسلطان قبل وصول جيش زنكى ، وأسر الخليفة ثم قتل على أيدي الباطنية ، وأخذت البيعة للراشد (ذو القعدة سنة ٥٢٩ هـ) (٢) . وكان من أثر انضمام جيش الخليفة المسترشد وزنكى أن ضاعت الفرصة فى تولية ألب أرسلان عرش السلطنة ، الأمر الذى قد يؤدى إلى سيطرة كل من الخليفة وزنكى على شئون العراق باسم السلطان الصغير . كما كان من أثر هذه الهزيمة أن زاد التوتر بين عماد الدين زنكى والسلطان مسعود الذى حاول اغتيال زنكى ليتخلص من نفوذه ، فاستدعاه للتوجه إلى أصهبان . ولكن ديبس بن صدقة أخبر زنكى بنوايا السلطان وحذره من غدره . ولما علم السلطان مسعود بما فعله ديبس أمر به بقتل ، وعلم زنكى بذلك فأسف على مقتل ديبس وقال : « فديناه بالمال وفدانا بالروح » .

أراد الخليفة الراشد أن يتأرقل أبيه ، فألب الأمراء على السلطان مسعود الذى رماه بتدبير هذه المؤامرة التى انتهت بقتل أبيه واستعان بعماد الدين زنكى ، وأقيمت الخطبة لداود بن محمود (بن محمد بن ملكشاه) فى بغداد . ثم قام النزاع بين الخليفة الراشد والأمراء الذين حثهم على قتال مسعود الذى توجه إلى بغداد . واستطاع عماد الدين زنكى أن يصد قواته أول الأمر ، ثم اضطر إلى الخروج من بغداد بصحبة الخليفة متجهاً إلى الموصل . ودخل مسعود بغداد ، وخلع الخليفة الراشد وولى المقتنى الخلافة (فى ١٨ ذى الحجة سنة ٥٢٩ هـ) (٣) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٦٠ ، ٦١ ؛ وكتاب الباهر ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٠ - ١١ ؛ وكتاب الباهر ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٥ ، ١٧ . ابن واصل : مفرج الكروب ج ١

وقد اقتضت إقامة الخطبة للخليفة الجديد (المقتفى على بعض أنحاء العراق ، على حين استمرت للخليفة الراشد الذي كان يقيم في الموصل ويتمتع بحماية زنكي . واستطاع أعوان المقتفى أن يقنعوا عماد الدين زنكي بأخذ البيعة للخليفة الجديد ، فسكافأ بإقطاعه بعض أملاكه الخاصة وزاد في ألقابه (٥٣٠ هـ)^(١) ، وأخذ كل من الخليفة الجديد وعماد الدين زنكي العهد والمواثيق كل على الآخر ، وأرسل محضر بخلع الراشد وتولية المقتفى ، فقرأ على منابر مساجد الموصل وأقر قاضي القضاة والوزير وزنكي . عند ذلك اتجه الراشد إلى مراغة (في أذربيجان) ثم سار إلى أصهان حيث قتل على أيدي الباطنية كما قتل أبوه من قبل^(٢) . وقد عزا ابن الجوزي^(٣) موقف زنكي إلى ضعف قواته العسكرية خلال صراعه ضد السلطان مسعود ونعرض لإمارته لهجوم جيوشه وخوفه من بطش السلطان سنجر . وكان زنكي يرمى إلى تحقيق سياسته وهي توحيد الموصل والجزيرة والشام لتكوين جبهة إسلامية موحدة تقف في وجه الصليبيين .

وقد أدى موقف عماد الدين زنكي من السلطان مسعود إلى تحسن العلاقة بينهما . وفي شهر ربيع الأول سنة ٥٣٢ هـ بعث السلطان مسعود رسوله إلى الموصل يحمل الخلع إلى زنكي .

وقد أدرك عماد الدين زنكي خطورة الأحوال في شمالي الشام وتهديد الصليبيين مدينة حلب ، فأرسل قاضيه إلى السلطان مسعود يطلب منه العودة لدرء هذا الخطر ، على أن القاضي خشى أن تستخدم قوات السلطان في تهديد إمارة زنكي نفسها فقال : « إني أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة فيرسل قواته ، فإذا وصلوا لإمارتنا استولوا عليها » . على أن عماد الدين زنكي آثر المصلحة الدينية على المصلحة الشخصية ، فرد على قاضيه ردا تتمثل فيه هذه الروح الإسلامية العالية فقال : « إن الصليبيين قد طمعوا في البلاد ، وإن هم استولوا على حلب لم يبق في الشام إسلام . وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار »^(٤) . وفي شهر رمضان سنة ٥٣٢ هـ وصل رسول السلطان مسعود إلى عماد الدين زنكي وهو على أبواب مدينة حمص يهته على ما أحرزه من نصر على الصليبيين

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٨ - ١٩ ؛ الباهر ص ٥٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب : ج ١ ص ٧٠ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم : ج ١٠ ص ٦٧ .

ويخلع عليه الخلع التي أرسلها إليه السلطان ومنحه^(١) كثيراً من الألقاب مثل : الأمير الكبير العادل المؤيد المظفر المنصور الأوحده عماد الدين ... زنكي بن أقي سنقر نصير أمير المؤمنين^(٢).

أما علاقة عماد الدين زنكي بالسلطان مسعود فقد سامت في سنة ٥٣٨ هـ حين حاول هذا السلطان الاستيلاء على إمارة زنكي بسبب اتساع رقعة إمارته وضخامة ثروة بلاده وعظم قوته الحربية^(٣). وكان زنكي يرمى من وراء سياسته إلى تأليف أصحاب الأطراف على السلطان مسعود السلجوقي ليشغله عن الالتفات إليه ، وبذلك يستطيع أن يوطد نفوذه في بلاد الموصل من جهة ، ويوسع رقعة بلاده على حساب البلاد الإسلامية المجاورة من جهة أخرى^(٤) ، ويحارب الصليبيين من جهة ثالثة . وهذه السياسة استطاع عماد الدين زنكي أن يستولى على الرها من أيدي الصليبيين (١١٤٤/٥٣٩) الذين عدوا ضياعها نذيراً لزوال نفوذهم في بلاد الشام وفتح الطريق أمامهم إلى العراق . لذلك كانت سياسة السلطان مسعود إزاء عماد الدين زنكي تقوم على المداراة والمهادنة بسبب الدور الخطير الذي كان يقوم به في دفع الخطر الصليبي ، إذ أن إمارته كانت في الواقع تقف سداً منيعاً في وجه ذلك الخطر الذي لا يبعد أن يمتد إلى بلاد السلطان مسعود نفسه .

وقد حاول عماد الدين زنكي أكثر من مرة أن يفرض نفوذه على مدينة دمشق ، ولكنه لم يستطع تحقيق سياسته لمساعدة الصليبيين أتباعه هذه المدينة . إذ كانوا يدركون أن استيلاء زنكي على هذه المدينة يهدد بقايتهم في بلاد الشام ، لأهمية موقع دمشق الحربي ، ووقوعها على الطريق التجاري بين البلاد الواقعة على نهر الفرات ومصر . وقد استرعت دمشق أنظار كل من عماد الدين زنكي وأبنائه من بعده ، كما شغلت بال حكام

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٣ - ٢٤ ؛ الباهر ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) ابن القلائسي ص ٢٨٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٨ .

(٤) أقام بعض الأمراء إمارات محلية تتمتع بالاستقلال الفعلي . ومن أهم هذه الإمارات من حيث علاقتها بحكم عماد الدين زنكي : إمارة أرتق ، وإمارة ديار بكر ، وإمارة أرمينية . وهناك أتابكيات أخرى نذكر منها أتابكية كيفا ، وشاهات أرمينية ، وأتابكية فارس ، وأتابكية كرمان . وهناك مدن متفرقة يحكمها أمراء شبه مستقل مثل جزيرة ابن عمر (وكانت تابعة للموصل) ، وسنجار ، وحران ، والرقبة ، وشهر زور ، والحديثة ، وعانة .

بيت المقدس ، حتى تمكن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى من الاستيلاء عليها سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، ومهد بذلك السبيل لاستيلائه على مصر .

(٣) أنابكية حلب

قتل عماد الدين زنكى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) كما ذكرنا ، وانقسمت أملاكه بين أبنائه ، فتولى نور الدين محمود مدينة حلب وسار على سياسة أبيه في جهاد الصليبيين ، وتولى سيف الدين غازى الموصل وبلاد الجزيرة^(١) . وبعد فترة من الزمن زال الفرع السورى وحل محله فرع آخر استقر في سنجار ، ثم قامت فيما بعد دولة أخرى في الجزيرة ، وبذلك أدخل فرع سنجار السبيل للأيوبيين سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) . أما الفروع الأخرى فقد دخلت تحت حكم لؤلؤ مملوك ووزير بيت زنكى في الموصل ، وظلت الحال على ذلك حتى دخلت هذه الدويلات جميعاً تحت حكم المغول .

وقد عمل محمود على توحيد البلاد الشامية تحت سلطانه ليستطيع محاربة الصليبيين ، واتخذ الصليبيون من موت عماد الدين زنكى فرصة لاسترداد مدينة الرها ، ولكن ابنه نور الدين محمود لم يتمكنهم من الاستيلاء عليها^(٢) . وبلغ من أهمية الرها في نظر الصليبيين بعد استيلاء عماد الدين زنكى عليها وبقائها في أيدي المسلمين أن فكر الصليبيون في إرسال الحملة الصليبية الثانية على بلاد الشام لاسترداد الرها من أيدي المسلمين . وقد وصلت هذه الحملة في عهد نور الدين محمود ، غير أن زعماءها انحرفوا عن هدفهم الأصلي واتجهوا صوب دمشق ، وبذلك أخطأ الصليبيون باتجاههم إلى هذه المدينة التي كانت الحليف الوحيد للصليبيين ضد نور الدين محمود^(٣) . وكان ذلك من أهم الأسباب التي أدت إلى إخفاق الحملة الصليبية الثانية .

وقد فكر نور الدين محمود في الاستيلاء على دمشق ليتحصن بها ضد الصليبيين وتم له ما أراد سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، كما استطاع أن يستولى على بعض القلاع الصليبية الأخرى^(٤) ، وأن يمد نفوذه إلى مصر بمساعدة أسد الدين شيركوه وابن أخيه

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأنابكية ص ١٥٧ — ١٥٩ .

(٢) ابن الأثير : السكامل ج ١١ ص ٥١ — ٥٢ .

(٣) Barker. The Crusades, p. 54.

(٤) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأنابكية ص ١٨٨ — ١٩١ .

صلاح الدين الأيوبي الذي أصبح أكبر زعيم في الشرق بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م). فقد توجه صلاح الدين إلى حلب بحجة إنقاذ الصالح إسماعيل ابن نور الدين محمود الذي لم يزد عمره على إحدى عشرة سنة من أيدي أفراد حاشيته الذين تحالفوا مع « ريمند » صاحب طرابلس ، ولكن صلاح الدين رفع الحصار عن هذه المدينة حين سارع « ريمند » إلى مساعدة أمير حلب .

وفي سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) سار سيف الدين غازي الثاني (بن قطب الدين مودود) أنابك الموصل لمساعدة ابن عمه صاحب حلب ، والتقت القوتان المتحالفتان بصلاح الدين عند الموضع المسمى « قرون حماء » حيث انتصر صلاح الدين ، كما انتصر على سيف الدين غازي في السنة التالية . وبذلك خضعت بلاد الجزيرة لسلطان صلاح الدين . فاعترف له أمير حلب بالسيادة على كافة البلاد الممتدة من مصر إلى نهر الفرات (١) .

وفي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) توفي الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود ، وكان قد أوصى قبل وفاته بولاية حلب لابن عز الدين مسعود أمير الموصل . ولتباعد هاتين الولايتين بعضها عن بعض عرض عماد الدين صاحب سنجار على عز الدين مسعود أن يأخذ عماد الدين « حلب » ويأخذ عز الدين « سنجار » ، وبذلك تصبح أملاك عز الدين متقاربة بعضها من بعض . وكانت سياسة عماد الدين ترمى إلى محاربة صلاح الدين والحد من سلطانه . لهذا لم ير صلاح الدين بدا من السير إلى مدينة حلب (٥٧٩ / ١١٨٣) واضطر عماد الدين إلى تسليمها إليه مقابل إعادته إلى ولايته الأصلية سنجار (٢) . وبذلك آلت ولاية حلب إلى صلاح الدين ثم إلى ابنه الظاهر من بعده (٣) واستمرت في أيدي الأيوبيين حتى استولى عليها هولاكو التتاري وفر الناصر صاحب حلب إلى الكرك (بفتح الكاف والراء) حيث تحصن ضد المغول (٤) .

(٤) أنابكية سنجار ٥٦٦ - ٦١٧ / ١١٧٠ - ١٢٢٠

أسس هذه الأنابكية عماد الدين زنكي (الثالث) بن قطب الدين مودود صاحب الموصل الذي كان قد أوصى بالملك لابنه الأكبر عماد الدين زنكي الثاني ، ثم عدل عن وصيته

(١) Lane - Poole, Hist, of Egypt in the Middle Ages, pp. 199—200.

(٢) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأنابكية ص ٢٣١ — ٢٣٤ . الكامل ج ١١ ص ٢٢٤ .

(٣) لينبول A Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 213

(٤) Raschdi - El din, Histoire des Mongols de la Perse, p. 341

لابنه الأصغر سيف الدين غازي الأول بإيعاز أحد خواصه^(١) ويدعى غفر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين لمسايرته عمه نور الدين محمود صاحب حلب . كما كان يضمر له العداء ، فلما توفي قطب الدين سنة ٥٦٥ هـ ، وعلم نور الدين ومحمود باستبداد غفر الدين عبد المسيح بابن أخيه سيف الدين وسوء سياسته قال : « أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملئهم » . ثم سار نور الدين محمود إلى الموصل واستولى (وهو في طريقه إليها) على مدينة سنجار ، ولما حاصر نور الدين الموصل أسرع غفر الدين عبد المسيح إلى تسليمها إليه ، فولاهما ابن أخيه سيف الدين غازي^(٢) ، كما ولي سنجار وأعمالها عماد الدين زنكي الثاني (٥٦٦ / ١١٧٠) ^(٣) .

وقد أدى هذا التقسيم إلى قيام الخلاف بين الأخوين لنولي عماد الدين زنكي مدينة الموصل وأعمالها على حين تولى أخوه الأكبر إمارة سنجار التي تقل عنها أهمية^(٤) .

وقد تجلّى هذا الخلاف بين هذين الأخوين حين استنجد الصالح إسماعيل (بن نور الدين محمود) أمير حلب بسيف الدين غازي صاحب الموصل (٥٧٥ هـ) لمساعدته ضد صلاح الدين . فقد طلب سيف الدين من أخيه عماد الدين أن يمدّه بالجند ليسير بهم إلى بلاد الشام ، فرفض أن يجيبه إلى طلبه ، وكان ذلك بإيعاز من صلاح الدين الذي أطمعه في الملك بحجة أنه أكبر من أخيه سيف الدين غازي . وقد انتهى هذا الخلاف بحصار سيف الدين غازي مدينة سنجار ، ولكنه عاد فرفع هذا الحصار خوفاً من أن يسرع صلاح الدين بعد انتصاره في بلاد الشام إلى نجدة خليفة عماد الدين^(٥) .

وصفوة القول أن أسرة زنكي حكمت إمارة سنجار إلى أن استولى عليها الأيوبيون في عهد الملك الأشرف سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) ثم خرب المغول معظم بلاد هذه الإمارة وما جاورها سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) ^(٦) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٥٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٦٣ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٦) المصدر نفسه ج ١١ ص ٢٣٢ .

(٥) أتابكية الجزيرة ٥٧٦ - ٦٤٨ / ١١٨٠ - ١٢٥٠

ذكرنا من قبل أنه بعد وفاة عماد الدين زنكى سنة ٥٤١ هـ انقسمت أملاكه بين ولديه نور الدين محمود الذى قبض على زمام الحكم فى سورية ، وسيف الدين غازى الذى حكم الموصل والجزيرة ، ثم استقر فرع آخر فى سنجار ، ثم قامت دويلة أخرى فى الجزيرة .

ذلك أنه لما حضرت سيف الدين غازى صاحب الموصل الوفاة سنة ٥٧٦ (١١٨٠ م) أراد أن يوصى بأن يخلفه ابنه معز الدين سنجر شاه ، وكان فى الثانية عشرة من عمره . على أن أمراء دولته ذكروا له ما كان من تفاقم خطر صلاح الدين الأيوبي فى بلاد الشام ، وأشاروا عليه بتولية أخيه عز الدين مسعود لما عرف به من الشجاعة ورجاحة العقل ، فنزل سيف الدين غازى على رأيهم وولى أخاه حكم الموصل من بعده ، وولى ابنه سنجر شاه مدينة الجزيرة وقلاعها^(١) . ولذلك قامت هناك أتابكية صغيرة مستقلة .

على أن سنجر شاه كان سىء السيرة مدمنا الشراب ، محباً لمجالس النساء مولعاً بالطرب . وقد اتصف عهده بالعسف والظلم واستحلال دماء الأبرياء والأشرار على السواء . وبلغ من تعسفه أنه كان يعاقب بقطع اللسان والآذان والأنوف ، وامتد شره إلى أبنائه فأقصاهم عن قصره . وقد روى المؤرخون أن ابنه معز الدين محمود قتله سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) وقد لعبت الخربلة وهو فى أحد مجالس النساء ، وتولى حكم بلاد الجزيرة من بعده ابنه وقاله معز الدين محمود .

وقد خضع أمراء الجزيرة لصلاح الدين الأيوبي الذى استطاع أن يوحد أمراء شمالى العراق وهى الموصل وسنجار والجزيرة ولاربيل وغيرها ، وأن يوجهها لحرب الصليبيين^(٢) . وكانت هذه البلاد من نصيب العادل وأولاده من بعده حتى غزاها المغول .

(٦) أتابكية اربل ٥٣٩ - ٦٣٠ / ١١٤٤ - ١٢٣٢

فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) عين عماد الدين زنكى أحد قواده الأتراك ، وهو

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٢) Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 207.

زين الدين علي بن بكتسين نائباً عنه في الموصل . وفي سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) ضم زين الدين سنجار وتكريت وإربل^(١) وغيرها تحت نفوذه . وعند وفاة زين الدين علي في إربل (١١٦٧/٥٣٦) هرب ابنه الأكبر مظفر الدين كوكبرى إلى حران ، وانتقل حكم إربل إلى ابنه الآخر زين الدين يوسف تحت وصاية الأمير مجاهد الدين قياز . وعند وفاة يوسف سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) عين صلاح الدين الأيوبي صاحب النفوذ في سورية وبلاد الجزيرة ، مظفر الدين كوكبرى خلفاً لأخيه في إربل وشهرزاد ، وأعطى البلاد التي كان يحكمها من قبل ، وهي حران والرها وسنساط إلى ابن أخيه تقي الدين عمر . وقد مات كوكبرى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) . ولما لم يكن له أولاد ذكور أوصى بأن يكون حكم إربل إلى الخليفة العباسي ، فظلت تحت حكمه حتى استولى عليها المغول أثناء غزوهم البلاد الإسلامية^(٢) .

بيت بكتسين أتابكة إربل وغيرها

١١٤٤	زين الدين علي كوجك بن بكتسين	٥٣٩
١١٦٧	زين الدين يوسف بن علي (في إربل) ت ٥٨٦ هـ	٥٦٣
١١٦٧	مظفر الدين كوكبرى بن علي (في حران)	٥٦٣
١١٩٠ - ١٢٣٢	٦٣٠ - مظفر الدين كوكبرى بن علي (في إربل)	٥٨٦
[العباسيون — المغول]		

(٧) أتابكية ديار بكر^(٣)

كان أرتق (بن أكسب) مؤسس هذه الأسرة قائداً تركياً من قواد الدولة السلجوقية . وقد تقلد ولاية بيت المقدس بعد أن فتحها تثنش السلجوقي صاحب دمشق ، وقد تولى سكرمان وإيلغازي (ابنا أرتق) اللذان اشتهرا في حروبهما مع الصليبيين بفلسطين حكم ديار بكر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) إلى أن ضم الفاطميون هذه المدينة

(١) وهي قلعة حصينة من أعمال الموصل وأهلها أكراد استعربوا

op. cit., p. 165.

(٢)

(٣) تعرف هذه الأتابكية بالدولة الأرتقية نسبة إلى مؤسسها أرتق بن أكسب ، وقد شملت

هذه الأتابكية ماردن وميافارقين وبعض الحصون المجاورة كحصن كيفا .

سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) ، ثم عادا إلى الرها والعراق على التوالي . وفي سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) عين السلطان محمد السلجوقي ، إيلغازي والياً على بغداد ، وفي السنة نفسها قلد أخاه سُكَّانَ حصن كَيْفَا بديار بكر ، فضم إليها ماردين . ولكن حكمها انتقل في سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٨ م) إلى أخيه إيلغازي ، ومن ثم أصبح هناك فرعان من بيت أرتق يتوليان الحكم في كَيْفَا وماردين .

وبعد هذه الأعمال الحربية التي قام بها آل أرتق في كَيْفَا على يد سُكَّانَ الذي حارب « بولدوين » وجوكلين Jocelin من الفرنجة عاش هذا الفرع في اطمئنان ، يدين حكمه بالطاعة لصالح الدين الايوبي الذي كافأهم بضم آمد إلى بلادهم (١١٨٣/٥٧٩) ، وظل هذا الفرع حتى انقرض على يد السلطان الكامل الايوبي (١٢٣١/٦٢٩) . وقد حكم فرع صغير من بيت أرتق في كَيْفَا الذين كانوا يحكمون خَرْ تَبَرْت بديار بكر من سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) إلى سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) . أما بنو أرتق بماردين فقد كوفئوا بإيلغازي « مؤسس بني أرتق بماردين الذي يعد من أبطال المسلمين في جهاد الصليبيين » بولاية حلب سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م) ، ثم قلده السلطان محمود السلجوقي ولاية ميفارقين (بديار بكر) ، واستمر أبنائه يحكمون ماردين وميفارقين حتى سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) .

على أن موقع هذه الدولة كان من العوامل التي أضعفت وحدة المسلمين بسبب المنازعات التي قامت بينهم ، ثم غزا المغول معظم مدن هذه الانابكية سنة ٦٢٨ هـ وعاثوا فيها فساداً في أثناء مطاردتهم لجلال الدين المنكبرتي آخر شاهات الدولة الخوارزمية ، وقد استسلمت الدولة الاررقية لتيغورلنك ودخلت في دولة قراقيونلي Karâ-Kuyunli المغولية سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) . على أن أهمية أمراء ماردين قد زالت بعد أن استقر نفوذ الايوبيين في سورية وبلاد الجزيرة ، ولكن حلب قد سقطت سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) على يد بَلَك بن إبراهيم أحد زعماء بيت أرتق الذي استولى على « عانة » (٤٩٧ هـ) وخر تَبَرْت (٥١٥ هـ) . وكان بَلَك بن إبراهيم من القواد الذين اشتهروا بحروبهم مع الصليبيين .

(١) زامباور : الأسرات الإسلامية من ٢٢٨ — ٢٢٩ . لينبول :

The Muhammadan Dynasties, pp. 166—169

(م ٦ — تاريخ الإسلام — ج ٤)

(٨) بيت أرتق في كيفيا

١١٠١	معين الدولة سُكَّمان الاول	٤٩٥
١١٠٤	إبراهيم	٤٩٨
١١٠٨	ركن الدولة داود	٥٠٢
١١٤٨	نظر الدين قرا — أرسلان	٥٤٣
١١٧٤	نور الدين محمد	٥٧٠
١١٨٥	قطب الدين سُكَّمان الثاني	٥٨١
١٢٠٠	ناصر الدين محمود	٥٩٧
— ١٢٢٢	ركن الدين مودود	— ٦١٩
١٢٣١		٦٢٩

[الأيوبيون]

١١٠٨ — ١٤٠٨ م	بيت أرتق في ماردين (ب)	٥٠٢ — ٨٠١
١١٠٨	نجم الدين إيلغازي	٥٠٢
١١٢٢	حسام الدين تُمُرُتاش	٥١٦
١١٥٢	نجم الدين أَلبي	٥٤٧
١١٧٦	قطب الدين ايلغازي	٥٧٢
١١٨٤	حسام الدين يُولُوق — أرسلان	٥٨٠
١٢٠٠	ناصر الدين أرتق — أرسلان المنصور	٥٩٧
١٢٣٩	نجم الدين غازي الاول السعيد	٦٣٧
١٢٦٠	قرا — أرسلان المظفر	٦٥٨
١٢٩٢	شمس الدين داود	٦٩١
١٢٩٤	نجم الدين غازي الثاني المنصور	٦٩٣
١٣١٢	عماد الدين علي أَلبي العادل	٧١٢
١٣١٢	شمس الدين صالح	٧١٢
١٣٦٣	أحمد المنصور	٧٦٥

أرتق

(أ) في كيفا

١ - سكان الأول

٢ - إبراهيم الثاني

٣ - داود الثالث

٤ - قرا أرسلان

٥ - محمد

٦ - مان الثاني

٧ - محمود

٨ - مودود

(ب) في ماردن

١ - ايلغازي الأول

٢ - تيمور تاش سليمان
(مبارزين ١٦٠١-١١٨٥هـ)

٣ - ألي

٤ - ايلغازي الثاني

٥ - يولي أرسلان

٦ - أرتق أرسلان

٧ - غازي الأول

٨ - قرا أرسلان

٩ - داود

١٠ - غازي

١١ - علي

١٢ - صالح

١٣ - أحمد

١٤ - محمود

عبد الجبار

بهرام

سليمان

محمود

أرتق أرسلان

غازي الأول

قرا أرسلان

داود

غازي

علي

صالح

أحمد

محمود

عيسى

صالح

عانه و حلب و حران ٥١٧ - ٥١٨ هـ

١١٧٥ - ١١٨٥ هـ

١١٨٥ - ١١٩٧ هـ

١١٩٧ - ١٢٠١ هـ

١٢٠١ - ١٢٠٥ هـ

١٢٠٥ - ١٢٠٩ هـ

١٢٠٩ - ١٢١٣ هـ

١٢١٣ - ١٢١٧ هـ

١٢١٧ - ١٢٢٠ هـ

١٢٢٠ - ١٢٢٤ هـ

١٢٢٤ - ١٢٢٨ هـ

١٢٢٨ - ١٢٣٢ هـ

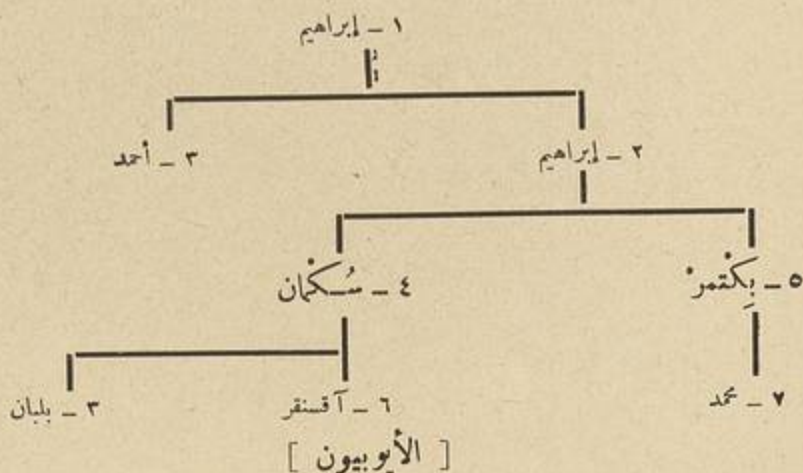
١٢٣٢ - ١٢٣٦ هـ

١٣٦٧	محمود الصالح	٧٦٩
١٣٦٧	داود المظفر	٧٦٩
١٣٧٦	مجد الدين عيسى الطاهر	٧٧٨
— ١٤٠٦	صالح	— ٨٠٩
١٤٠٨		٨١١

[قَرَأَ قِيُونُي]

(٩) شاهات أرمينية

١١٠٠	سُكَّان القطبي	٤٩٣
١١١٢	ظاهر الدين إبراهيم شاه أرماني	٥٠٦
١١٢٧	أحمد	٥٢١
١١٢٨	ناصر الدين سُكَّان الثاني	٥٢٢
١١٨٣	سيف الدين بكتمر	٥٧٩
١١٩٣	بدر الدين آقسنقر	٥٨٩
١١٩٨	المنصور محمد	٥٩٤
— ١٢٠٦	عز الدين بلبلان	— ٦٠٣
١٢٠٧		٦٠٤



(*) الأسطر المنقوطة تدل على علاقة السيد بمملوكه .

تطلعت أنظار العرب منذ أيام عثمان بن عفان إلى حكم أرمينية ^(١) وكانت يتنازعها البيزنطيون والعرب . ولما ولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة سنة ٤١ هـ (٦٦١ م) دعا أهل أرمينية إلى الطاعة مع دفع الجزية لجنح أهلها إلى الطاعة وظلت خاضعة للحكم العربي . وعلى الرغم من الحروب المريرة التي قامت بين العرب الأوائل والأرمن نهضت البلاد في عهدهم . ثم حكمها العباسيون . ولكن ظهور القومية الأرمينية أطاح بالحكم العربي واستولى عليها البيزنطيون وظلت على ذلك حتى استردها قواد السلاجقة الذين أخذوا يشنون الغارات عليها من سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) .

على أن السلاجقة نهضوا في عهد ألب أرسلان الذي وجه حملاته إلى أرمينية من الرى ، فأخضع أران والكرج وغيرها من البلاد الواقعة شرقي أرمينية . وسار الإمبراطور رومانوس الرابع (٤٦٣ / ١٠٧١ م) على رأس جيش جرار بلغ مائة ألف مقاتل لصد التقدم السلجوقي ، واسترد حصن « ملاذ جرد » أمنع القلاع الواقعة على الحدود . غير أن السلاجقة أرغوا الجيش البيزنطي على الارتداد إلى بلاد « بين النهرين » وأسر ألب أرسلان الإمبراطور البيزنطي . وكانت هذه الهزيمة إيذانا بانتهاء حكم الدولة البيزنطية ، واقترنت بسقوط بلاد الأناضول العربية وأرمينية وكبادوكيا وهجرة جماعات كبيرة من الأرمن نحو الغرب فراراً من الغزاة ، وأسسوا في كيليكيا دولة أرمينية مستقلة استمرت حتى زالت على أيدي المغول في آسيا الصغرى في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي .

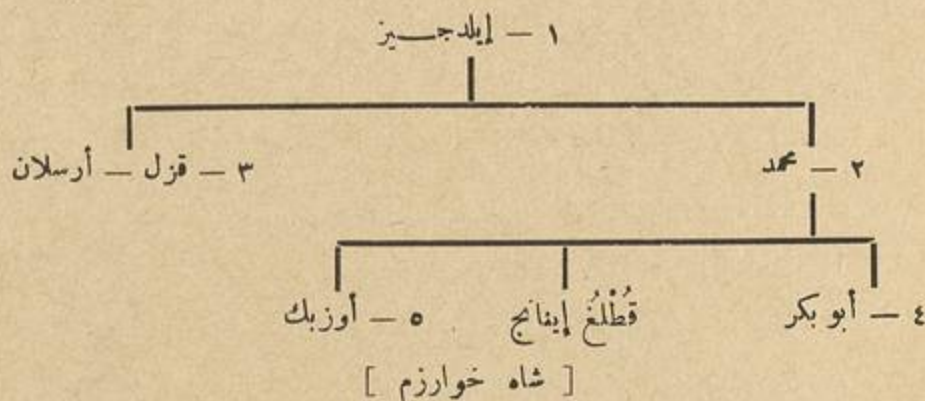
وقد انقسمت أرمينية في عهد الحكم السلجوقي إلى مناطق إدارية تختلف مساحتها ، ويحكم كلا منها أمير يتمتع بقسط كبير من الاستقلال . وكانت دولة أخلاط الواقعة في الجنوب الغربي والتي أسسها سقمان القطبي سنة ٤٩٣ هـ (١١٠٠ م) ^(٢) أقوى الدويلات إذا قورنت بالدويلات السلجوقية التي قامت في أرمينية ، على الرغم من أن هذه الإمارة التي كان أغلب سكانها من الأرمن لا تمثل إلا خمس بلاد أرمينية ، ولما انقضت أسرة بني سقمان (٥٨١ / ١١٨٥) انتقل الحكم إلى « ملوك بك تيمور » (١١٨٥ - ١١٩٧ م) . ثم استولى الأيوبيون على هذه البلاد (٦٠٤ / ١٢٠٧) ، وأقام السلطان الملك العادل (الذي

(١) بفتح وكسر المعزة .

أعاد توحيد دولة أخيه صلاح الدين) ابنه الأواحد أميراً على خلاط ، ثم خلفه أخوه الأشرف^(١) . ولما مات العادل استقل الأشرف بحكم هذه البلاد ووسع رقعة بلاده حتى بلغت بلاد الأكراد^(٢) . وفي سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) سقطت مملكة خلاط التي كان يحكمها المظفر غازي آخر ملوك الأيوبيين ، باستيلاء هولاكو التتاري عليها ، كما فتح أرمينية^(٣) وكرديستان والعراق وبلاد ما بين النهرين .

(١٠) أتابكبة أذربيجان^(٤)

١١٣٦	شمس الدين إبلدجيز	٥٣١
١١٧٢	محمد البهلوان چاهان	٥٦٨
١١٨٥	قزل - أرسلان عثمان	٥٨١
١١٩١	أبو بكر	٥٨٧
١٢١٠ -	مظفر الدين أوزبك	٦٠٧ -
١١٢٥		٦٢٢



(١) وكانا يحكمان تحت إشراف أبيهما العادل .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٢٢٦ .

انظر مادة أرمينية في ترجمة دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) ليفيول : الأسرات الإسلامية ص ١٧١ .

أسس هذه الدولة إبلدجز وهو مملوك تركى كان من المقربين فى بلاط السلطان مسعود السلجوقى فى بلاد العراق . وقد اشتراه من بلاد القفجاق^(١) . فاشتغل فى أول أمره فى مطبخ السلطان مسعود ، ثم أخذ يترقى فى سلك البلاط فى العراق ، وأخيراً تقلد لإقليم اران فى شمالى أذربيجان . وقد تزوج من أخت زوجة السلطان وكانت أرملة . وقد أخذ إبلدجز يوسع نفوذه فاستولى على معظم بلاد أذربيجان وبلاد الجبل وهمدان وأصبهان والرى وامتد نفوذه من قفليس إلى مكران^(٢) . وكان ابنه محمد الحاكم الفعلى للعراق بالإضافة إلى ولاية أذربيجان . وقد خلف أباه بعد وفاته سنة ١١٧٢/٥٦٨ . على أن هذه البلاد الشاسعة الأطراف انكمشت إلى أذربيجان فى عهد الأتابك أبى بكر محمد الذى اتخذ مدينة تبريز حاضرة له . وظلت هذه البلاد تحت حكم هذه الأسرة حتى استولى جلال الدين المنكبرى آخر شاهات خوارزم عليها من أوزبك البهلوان آخر أمراة سنة ١٢٢٧/٦٢٢ وتزوج من أرملة وهى ابنة طغرل بك آخر سلاطين السلاجقة فى العراق^(٣) . ثم استولى المغول على هذه البلاد سنة ١٢٣١/٦٢٨ .

وقد روى المؤرخون أن هولاءكو اتخذ من أذربيجان مكاناً لحفظ الأسلاب والغنائم التى استولى عليها فى حروبه لبعدها ومناعتها . وبذلك أصبحت أذربيجان ذات أهمية خاصة فى العصر المغولى .

(١١) سلاجقة كرمان

١٠٤١	٤٣٣	قاورد بك : عماد الدين قرا أرسلان
١٠٧٢	٤٦٥	كرمان شاه
١٠٧٤	٤٦٧	حسين
١٠٧٤	٤٦٧	سلطان شاه : ركن الدين
١٠٨٤	٤٧٧	توران شاه

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٧٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٩٨ — ٢٠١ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٢٣٤ .

١٠٩٧	٤٩٠	إميران شاه
١١٠٠	٤٩٤	أرسلان شاه
١١٤١	٥٣٦	محمد الأول (*) : مغيث الدين
١١٥٦	٥٥١	طغرل شاه : محيي الدين
١١٦٧	منافسون	{ بهرام شاه أرسلان شاه الثاني تركان شاه }
١١٨٧	٥٨٣	محمد الثاني +

[التركات الغز]

* كان محمد في حروب متصلة قبل وفاة بركياوق بسنوات كثيرة
+ كان سنجر والياً على خراسان عشرين سنة قبل أن يجلس على عرش السلطنة .

(١٢) سلطنة سورية

١٠٩٤	٤٨٧	تنش بن ألب أرسلان
١٠٩٥	٤٨٨	رضوان بن تنش (في حلب)
		(دقاق بن تنش في دمشق ٤٨٨ — ٤٩٧)
١١١٣	٥٠٧	ألب أرسلان الأخرس بن رضوان
١١١٤ — ١١١٧	٥٠٨ — ٥١١	سلطان شاه بن رضوان

[الأرتقيون ، البوريون]

(١٣) سلطنة العراق وكرديستانه

١١١٧	٥١١	محمود : مغيث الدين
١١٣١	٥٢٥	داود : غياث الدين
١١٣٢	٥٢٦	طغرل الأول
١١٣٣	٥٢٧	مسعود : غياث الدين
١١٥٢	٥٤٧	ملكشاه : معين الدين

١١٥٣	محمد	٥٤٨
١١٥٩	سليمان شاه	٥٥٤
١١٦١	أرسلان شاه	٥٥٦
— ١١٧٧	طغرل الثاني	٥٧٣
١١٩٤		٥٩٠

[شاهات خوارزم]

(١٤) سلطنة الروم

(آسيا الصغرى)

١٠٧٧	سليمان الأول بن قطلمش	٤٧٠
١٠٨٦	فترة	٤٧٩
١٠٩٢	قليج أرسلان داود	٤٨٥
١١٠٦	ملك شاه الأول	٥٠٠
١١١٦	مسعود الأول	٥١٠
١١٥٦	عز الدين قليج أرسلان الأول	٥٥١ ^(١)
١١٨٨	قطب الدين ملك شاه الثاني	٥٨٤
١١٩٢	غياث الدين كيخسرو الأول	٥٨٨
١٢٠٠	ركن الدين سليمان الثاني	٥٩٧
١٢٠٣	قليج أرسلان الثاني	٦٠٠
١٢٠٤	كيخسرو الأول أعيد إلى الحكم	٦٠١
١٢١٠	عز الدين كيكاوس الأول	٦٠٧
١٢١٩	علاء الدين كيقيباد الأول	٦١٦
١٢٣٦	غياث الدين كيخسرو الثاني	٦٣٤

(١) عاش قليج أرسلان إلى سنة ٥٨٨ هـ لكنه قسم بلاده بين أولاده قبل وفاته بضع سنين

١٢٤٥	عز الدين كيقاوس الثاني	٦٤٣ ^(١)
١٢٥٧	ركن الدين قليج أرسلان الرابع	٦٥٥
١٢٦٧	غياث الدين كيخسرو الثالث	٦٦٦
١٢٨٣	غياث الدين مسعود الثاني	٦٨٢ ^(٢)
١٢٩٦ -	علاء الدين كيقيباد الثاني	٦٩٦ -

١٣٠٠

٧٠٠

[المغول ؛ الأتراك العثمانيون الخ]

(١٥) السلاجقة الدانشمندية

في سيواس وقيصرية ومَلَطِيَّة

محمد الأول بن جُشْتِكِين بن تِلُو دَانِشْمَنْد

١١٠٥	غازي بن جشتكين	٤٩٩
١١٣٤	محمد الثاني بن غازي	٥٢٩
١١٤٢	ذو النون بن محمد الثاني	٥٣٧
	يفنى (أو يعقوب) أرسلان بن غازي	
١١٦٥	إبراهيم بن محمد الثاني	٥٦٠

[سلاجقة الروم]

بينما كان السلاجقة يوسعون رقعة إمبراطوريتهم في آسيا الصغرى ، وطد رئيس تركي آخر هو جشتكين بن دانشمند قوته في كبادوكيا في مدن سيواس وقيصرية ومَلَطِيَّة . وفي المدينة الأخيرة هُزم الفرنجة ، وقد قام خلفاء جشتكين بدور رائع في الحروب الصليبية ، على أن هذه الأسرة سرعان ما اندمجت في جارتها الساجوقية العظيمة وهي سلاجقة الروم .

(١) حكم بالاشتراك مع أخيه قليج أرسلان الثالث وكيقباد .

(٢) سمح أباقاخان المغولي لمسعود بحكم سيواس وأرزنجان وأرضروم بعد وفاة أبيه كيقاوس سنة ٦٧٧ هـ خلال حكم ابن عمه كيخسرو الثالث الإسمي الذي خلفه سنة ٦٨٢ هـ ، ويظهر أن « مسعود » أعيد إلى مملكته على إثر عزل ابن أخيه كيقباد في سنة ٧٠٠ هـ وأنه حكم أربع سنين . ولكن الأربعة السلاجقة الآخرين لم يحكموا إلا تحت سيطرة إبلخانات المغول في فارس .

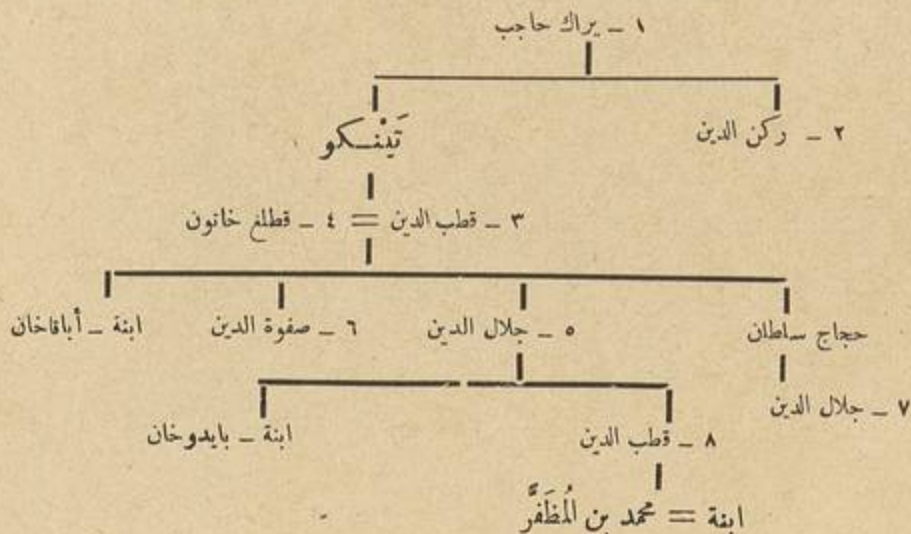
(١٦) أتابكية كرمانه

٦١٩ — ٧٠٣ هـ	(خانات قُطْلُغ)	١٢٢٢ — ١٣٠٣ م
٦١٩	بُرَاك حَاجِب قُطْلُغ خان	١٢٢٢
٦٣٢	رُكْن الدِّين خُوجَة الحَق	١٢٣٤
٦٥٠	قُطْب الدِّين مُحَمَّد	١٢٥٢
٦٥٥	قُطْلُغ خانُون (أرملة قُطْب الدِّين مُحَمَّد ، كان	١٢٥٧
	ابنُها حَاجِب الحَاكِم الرِّسْمِي بَيْن سَنَتَي ٦٥٥ و ٦٦٠ هـ)	
٦٨١		١٢٨٢
٦٩٣		١٢٩٣
٦٩٤		١٢٩٤
٧٠١ —		١٣٠١ —

١٣٠٣

٧٠٣

[ولاة من المغول حتى سنة ٧٤١ هـ ثم المظفريون]



نجم براك حاجب ، وهو أحد القواد في دولة الخطا الذين دخلوا في خدمة خوارزم شاه محمد^(١) في كرمان سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢ م) . على أن هذه البلاد ظلت خاضعة اسمياً للخوارزميين في عهد جلال الدين منكبرتي الذي كان بران حاجب نائباً له . وقد أراد بران أن يستقل بهذه البلاد عن الخوارزميين سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م) ، فأرسل إلى المغول يحثهم على محاربته ، فلما علم جلال الدين خوارزمشاه بذلك سارع على رأس جيش كبير لحرب براق الذي تحصن في إحدى قلاع وأبي أن يقابله وأرسل إليه رسالة يقول فيها : « إني أنا العبد المملوك ، ولما سمعت بمسيرك إلى هذه البلاد ، أخليت لك ، ولو علمت أنك تبقى على الحضرت بابك ، ولكنني أخاف هذا جميعه^(٢) » .

وقد أدرك جلال الدين منكبرتي أن الدخول في حرب مع براق حاجب يصرفه عن الاستمرار في حرب المغول ، فرأى أن يهادنه ، وأرسل إليه الخلع وأقره على هذه البلاد . وقد بقيت هذه الأسرة في حكم كرمان ثم خضعت للمغول حيث أقر « أغطاي » براك حاجب على حكم بلاده ، ومنحه لقب « قُطْلُغ خان » ، واستمرت هذه الأسرة في حكم كرمان مع ولائها لایلخانات المغول في فارس ، وقد تزوج اثنان من هؤلاء المغول من بنات هؤلاء الحكام^(٣) .

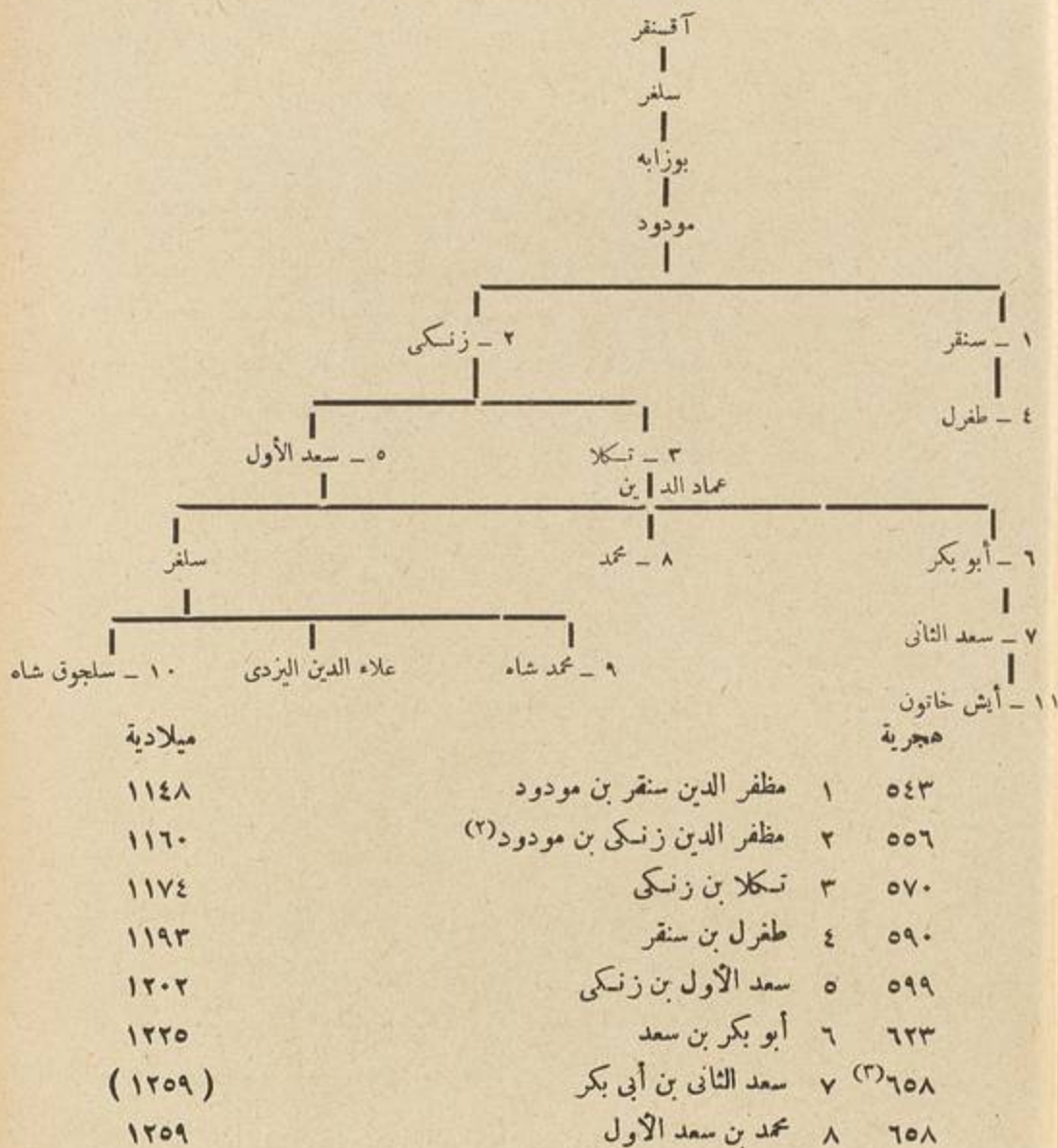
(١) راجع ما كتبه حافظ أحمد محمود عن دولة الخطا في كتابه « الدولة الخوارزمية والمغول » ص ٤٦ — ٦٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٢٠٩ .

The Muhammadan Dynasties, pp. 179—180.

(٣) لينبول

(١٧) أنابكية فارس ٥٤٣ - ٦٨٦ / ١١٤٨ - ١٢٨٧



- (١) وتعرف هذه الأنابكية أيضاً بالدولة السلفرية
(٢) كان نائباً لأرسلان بن طغرل السلطان السلجوقي .
(٣) توفي بعد اثني عشر يوماً من وفاة أبيه .

هجريه	ميلاديه
٦٦٠ ٩ محمد شاه بن سلفرشاه	١٢٦٢
٦٦١ ١٠ سلجوق شاه بن سلفرشاه	١٢٦٢
٦٦٣ — ١١ أيش خاتون بذت سعد الثاني	— ١٢٦٤
٦٨٦	١٢٨٧

[حكم المغول]

تنسب هذه الأتابكية إلى سلفر قائد إحدى قبائل التركان التي هاجمت خراسان وانضمت إلى السلطان طغرليك السلجوقي الذي عينه في بلاطه . وقد استولى أحد خلفائه وهو سنقر بن مودود على إقليم فارس سنة ٥٤٣ / ١١٤٨ حيث أسس دولة حكمت قرناً ونصف قرن . وقد مد سنقر نفوذه على كرمان ، واتخذ شيراز حاضرة للملكة . واستولى سعد بن زنكي (٥٩٩ — ٦٢٣ هـ) على أصبهان ثم مد نفوذه على العراق العجمي (٦١٤ هـ) ، والتقى بجيوش خوارز شاه علاء الدين محمد في مدينة الري ، ولكن الهزيمة حلت به . ومع ذلك أكرمه خوارز شاه وأعادته إلى بلاده وأخذ جزءاً منها واكتفى بإقامة الخطبة له على المنابر (١) .

ولما توفي سعد بن زنكي سنة ٦٢٣ / ١٢٢٥ م تولى بعده ابنه أبو بكر (٦٢٥ — ٦٥٨ هـ) الذي استطاع أن يوسع رقعة بلاده إلى بلاد البحرين ، وأن يخضع جميع جزر الخليج العربي ولما أغار جنكيز خان على البلاد الإسلامية رأى من الحكمة أن لا يقف في سبيله ، فأرسل إليه الهدايا الثمينة ، فلما دخل چنكيز خان بلاده لم يتعرض بسوء . ثم خضعت هذه البلاد لهولاءكو (٢) .

(٢٢) أتابكية لورستان ٥٤٣ — ١١٤٨ / ٨٢٧ — ١٤٢٣

أسس هذه الأتابكية أبو طاهر بن محمد أحد قواد أتابكية فارس . وقد قامت هذه الدولة في إقليم جبلي حصين تسكنه قبائل بربرية منذ زمن بعيد وخضع حكامها لحكم دولة إيلخانات المغول في فارس ، وظلت في حكم لورستان حتى سقطت على يد إبراهيم بن شاه رُخ .

ثانياً : دولة خوارزم ٤٧٠ — ١١٧٧ / ٦٢٨ — ١٢٣١

انقسمت الدولة الإسلامية في ذلك العصر إلى دويلات متعادية متنافرة من بينها دولة

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٤٦

(٢) Raschid—Eldin, Histoire des Mongols de la Perse, p. 323.

خوارزم^(١) . وقد جرت عادة السلاجقة أن يكافئوا أتباعهم من السقاة والحجاب وحراس الملابس الخاصة ، بإقطاعات من الأرض . وقد بدأ أنوشتكين^(٢) ملكه سنة ١٠٧٧/٤٧٠ ، ثم استطاع خلفاؤه بعد ذلك التخلص من كل صلة لهم بالسلاجقة ، وظلوا يحكمون هذه الدولة حتى زالت في عهد آخر ملوكهم جلال الدين منكبرتي الذي كانت له مواقف رائعة من البطولة أمام المغول من سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) إلى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) .

كان أنوشتكين يشغل وظيفة « الساقى » في بلاط ملكشاه السلجوقي . وكانت هذه الوظيفة من أهم وظائف البلاط : فهو الذى يشرف على الاسمطة التى تقام فى الاعياد والمواسم وعند استقبال سفراء الملوك ، كما يشرف على تقطيع اللحوم وتقديم الماء والمشروبات أثناء الطعام وبعده^(٣) . وثمة وظيفة أخرى هى وظيفة « الجاشنكير » الذى يقوم بذوق أصناف الطعام والشراب المختلفة قبل تقديمها إلى السلطان^(٤) .

خلف أنوشتكين ابنه قطب الدين محمد ، وقد نشأ نشأة عالية ، وعرف بالآداب ونوفر عليه وانصرف إلى العلم . وكان على الهمة ، فعينه السلطان بركياروق بن ملكشاه السلجوقي حاكما على بلاد خوارزم ، ولقبه خوارزم شاه أى ملك خوارزم . ولما ملك السلطان سنجر خراسان سنة ٥١٢ هـ ، أقر قطب الدين محمد خوارزم شاه على خوارزم وأعمالها ، فظل يحيا إلى السلطان إلى أن مات سنة ٥٢١ هـ ، خلفه ابنه أتسر ، فسار سيرة أبيه واكتسب محبة السلطان . وكان أتسر أول من طمع فى الاستقلال من أفراد هذا البيت . ولكن سنجر آخر سلاطين السلاجقة الأقوياء فى فارس عزله لإثر ثورته عليه

(١) أو خورازميا وهى كيفا الحالية . وكان يطلق على كل من الحى والحاضرة اسم خوارزم ، ويطلق على حكمائها لقب خوارزمشاه أو ملك خيوه . وهم من أتراك بلاد ما وراء النهر الذين جاءوا من خيوه ونشروا سلطانهم بين نهري الكنج ودجلة ، وإن كان هذا السلطان لم يتوغل تماما بين سكان فارس والهند .

(٢) يسميه النسوى فى كتابه « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي » (ص ٣٤) « أنوشتكين » . وهذا المؤرخ يعد حجة فى تاريخ فترة من فترات حكم الدولة الخوارزمية فوق أنه انخرط فى سلك الوظائف فى دولتهم فى عهد جلال الدين منكبرتي بوجه خاص ، وكان من أبرز رجال هذه الدولة .

(٣) انظر القلقشندي : صبيح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ٤٦٠ .

سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م). ثم عاد آتسز إلى ولايته بعد قليل وتمنع هو ومن خلفه من شاهات خوارزم بما يتمتع به الملوك المستقلون ، وبلغ نفوذه جند (بفتح الجيم وسكون النون) على نهر سيحون .

وفي سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) سار آتسز إلى مدينة مرو ، فهزمه سنجر هزيمة منكرة ، وقتل ابنه في هذه الموقعة . وكان من أثر انتصار سنجر في هذه الموقعة أن استولى على خوارزم وأقطعها ابن أخيه غياث الدين سليمان شاه . ولما عاد سنجر إلى مرو استرد آتسز حاضرة ملكه ، ثم فكر في الثأر لمقتل ابنه ، غرض الكفار من الخطأ الأتراك فهاجموا بلاد سنجر وهزموه هزيمة منكرة في صيف سنة ٥٣٦ هـ وقتلوا مائة ألف من جنده وأسروا زوجته واطروه إلى الحرب إلى ترمذ وبلغ^(١) .

وفي هذه الأثناء أعلن آتسز استقلاله ، ثم تقدم إلى مرو فاحتلها . ويذكر ابن الأثير^(٢) في حوادث سنة ٥٣٦ هـ أن آتسز لم يكن ينوي التعرض لمدينة مرو كما فعل بمدينة سرخس ، ولكنه اضطر إلى مهاجمتها حين علم بقتل جماعة من أتباعه^(٣) . وكانت هذه الموقعة أول موقعة خسرها سنجر ، كما كانت فاتحة لسلسلة أخرى من الهزائم التي حلت به فيما بعد . ثم فتح آتسز مدينة نيسابور وأمر بحذف اسم سنجر من الخطبة^(٤) . وفي السنة التالية حاول سنجر محاصرة خوارزم ، ولكنه عجز عن ذلك ، فقبل الصلح مع آتسز الذي مات في ٩ جمادى الآخرة سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) قبل موت سنجر في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ بقليل .

وهكذا تربع آتسز على عرش إمبراطورية شاسعة الأرجاء تنافس إمبراطورية السلاجقة في أبهى أيامها ، وتمتد من جبال أورال إلى الخليج العربي ومن جبال السند إلى حدود الفرات وتضم جميع ولايات إيران عدا ولايتي فارس وخوزستان . وقد استطاعت الدولة الخوارزمية أن تمد رقعتها وتثبت أقدامها أكثر من قرن ، ولم تسقط إلا بسبب كارثة عامة لم تكن في الحسبان ، غيرت من وجه التاريخ وأنزلت المصائب والويلات بالجنس البشري ، ونعني بهذه الكارثة غزوات المغول .

(١) الكامل ج ١١ ص ٣٣ - ٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٣٨٢ هامش رقم (٣)

١٠٧٧ — ١٢٣١ م

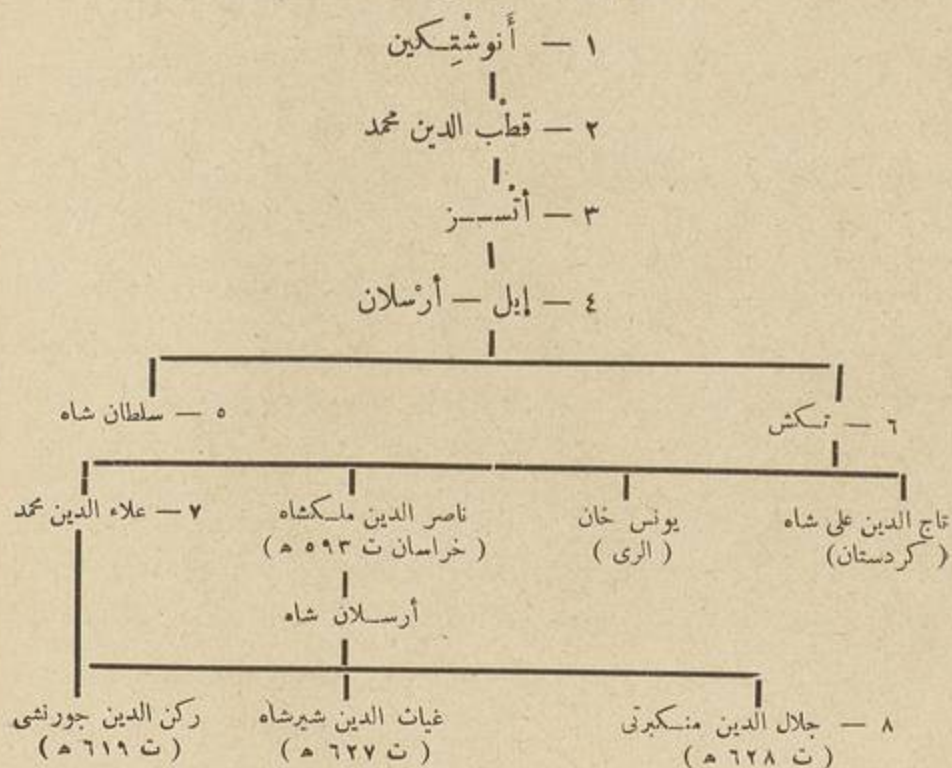
شاهات خوارزم^(١)

٤٧٠ — ٦٢٨ هـ

١٠٧٧
١٠٩٧
١١٢٧
١١٥٦
١١٧٢
١١٧٢
١١٩٩
— ١٢٢٠
١٢٣١

٤٧٠ أنوشتكين
٤٩٠ قطب الدين محمد
٥٢١ أنسز
٥٥١ إيل أرسلان
٥٦٨ سلطان شاه محمود ت ٥٨٩ هـ
٥٦٨ توكش
٥٩٦ علاء الدين محمد
٦١٧ — جلال الدين منكبرتي
٦٢٨

[المفعول]



Lane-Poole, Muhammadan Dynasties, pp. 176—177 (١)

(م ٧ — تاريخ الإسلام ج ٤)

وفي عهد الخليفة المستنصر العباسي (٥٦٦ - ٥٧٥ / ١١٧٠ - ١١٨٠) توفي خوارزم شاه إيل أرسلان بن أنسر (٥٦٨ هـ) ، فلك بعده ابنه الأصغر سلطان شاه محمد تحت وصاية أمه . وقد خرج عليه أخوه الأكبر علاء الدين تكش (بضم التاء والكاف) (٥٦٨ - ٥٩٦ / ١١٧٢ - ١١٩٩) الذي استولى على بلاد خوارزم واستقل بها وقضى على ملك السلاجقة في العراق (٥٩٠ هـ) بقتل طغرل بن ألب أرسلان السلجوقي . وقد اتسع ملك علاء الدين في الشرق على حساب دولة الخطا ، وبذلك امتد نفوذه من بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى بلاد الري التي استولى عليها وقضى على السلاجقة . ولكن ملكه في الري لم يكن ثابتاً ؛ فقد عول الخليفة العباسي الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ / ١١٨٠ - ١٢٢٥) على أن تكون له سيادة الري بعد رحيل خوارزم شاه تكش عنها ، فأرسل إليها جيشاً استردها من عامله ، فعاد إلى الري واستردها من جند الخليفة .

خوارزمشاه علاء الدين محمد ٥٩٦ - ٦١٧ / ١١٩٩ - ١٢٢٠

بقي علاء الدين تكش في الحكم حتى توفي سنة ٥٩٦ هـ ، خلفه ابنه علاء الدين محمد (٥٩٦ - ٦١٧ / ١١٩٩ - ١٢٢٠) الذي امتدت الدولة الخوارزمية في عهده من حدود العراق غرباً إلى حدود الهند شرقاً ، ومن شمالي بحر قزوين وبحر آرال شمالاً إلى الخليج العربي والمحيط الهندي جنوباً .

وفي سنة ٦٠٤ هـ وطلب سلطان سمرقند مساعدة خوارزمشاه علاء الدين محمد مساعدته على قتال الخطا الذين اشتدت وطأتهم وعم شرهم في تركستان وبلاد ما وراء النهر ، فولى خوارزمشاه أخاه علي شاه طبرستان بالإضافة إلى جرجان وقلد نواباً عنه في حكم أقاليم خراسان وأبرم الصلح مع غياث الدين محمود الغوري واعترف بما كان تحت يده من بلاد الغور . ثم عبر خوارزمشاه نهر جيحون ودارت المعارك بين جيوشه وجيوش سلطان سمرقند وبين ملك الخطا . وقد دارت الدائرة على جيش المسلمين وقتل الخطا كثيراً منهم وأسروا خوارزمشاه علاء الدين محمد وأميراً كبيراً من أمراء دولته يقال له شهاب الدين مسعود ، وعادت القالة إلى خوارزم . وقد احتال هذا الأمير في إطلاق سراح مولاه ، فمرض عليه أن يتظاهر بخدمته على يتمكن من خلاصه . فقام خوارزمشاه بخدمة شهاب الدين مسعود ، وكان يعظمه ويقدم له الطعام ويخلعه ثيابه وخُفه . فقال الخطائي الذي أسره لابن مسعود : أرى هذا الرجل يعظمك فن أنت ؟ فقال : أنا فلان وهذا

غلامى ، فقام إليه (الخطائى) وأكرمه وقال : لولا أن القوم عرفوا بمكانك عندى لأطلقتك ، ثم تركه أياماً ، فقال له ابن مسعود : إني أخاف أن يرجع المنزومون فلا يرانى أهلى معهم فيظنون أنى قُتلت فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك ثم يقتسمون مالى فأهلك . وأحب أن تقرّر على شيئاً من المال حتى أحله إليك ، فقرّر عليه مالا وقال له : أريد أن تأمر رجلاً عاقلاً يذهب بكتانى إلى أهلى ويخبرهم بعافيتى ويحضر معى من يحمل المال ثم قال : إن أصحابكم لا يعرفون أهلنا ، ولكن هذا غلامى أثق به وبصدقه أهلى ، فأذن له الخطائى بانفاذه ، فسيره وأرسل معى الخطائى فرساً وعدة من الفرسان يحمونه ، فساروا حتى قاربوا خوارزم ، وعاد الفرسان عن خوارزمشاه ، ووصل خوارزمشاه ، فاستبشر به الناس وضربت البشائر وزينوا البلد وأتته الأخبار بما صنع كذلك بنيسابور وبما صنع أخوه على شاه بطبرستان ^(١) .

ولما علم على شاه صاحب طبرستان وجرجان بفقد أخيه خوارزمشاه علاء الدين محمد بايع لنفسه ^(٢) . ثم عاد خوارزمشاه إلى بلاده واحتال فى القبض على ابن خرميل صاحب هراة . وقد ذكر ابن الأثير ^(٣) أن قائد خوارزمشاه لما قرب من هراة خرج ابن خرميل مع كبار رجال إمارته للقائه ، فأمر هذا القائد أصحابه فقبضوا عليه ، ولكنهم لم يتمكنوا من أخذ هراة ^(٤) . وأبى الوزير ابن خرميل تسليم المدينة ، فأمر القائد الخوارزمى بقتل ابن خرميل وطلب النجدة من خوارزمشاه ، فبعث إليه عشرة آلاف فارس حاصروا هذه المدينة ومنعوا وصول المؤن إليها ثم استولوا عليها (سنة ٦٠٥ هـ) . ثم أمر خوارزمشاه علاء الدين محمد خاله « أمير ملك » وكان قد أنابه عنه فى حكم هراة بالمسير إلى « فيروزكوه » قسبة بلاد الغور والاستيلاء عليها ، فسلم إليه غياث الدين محمود الغورى وطلب منه الأمان . وقد أرسل أمير ملك بهذا النبأ إلى خوارزمشاه واستطلع رأيه فى شأن غياث الدين محمود فأمر بقتله (٦٠٥ هـ) ^(٥) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٠٨ - ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١١١ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٠٩ .

(٤) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٢ ص ١٠٩) قد حصنها وعمل لها أربعة أسوار محكمة البناء وحفر حولها خندقاً .

(٥) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١١٠ - ١١١ .

وبذلك استقرت أقدام خوارزمشاه علاء الدين محمد في خراسان ، ثم سار إلى بلاد ما وراء النهر فللكها وهزم الخطا هزيمة منكرة ، ثم عاد إلى خوارزم . وهنا زوج ابنته من سلطان سمرقند وأعادته إلى بلده فللكها من جديد . على أن هذا السلطان قابل هذا بالإساءة ، ففقد بالخوارزميين في بلاده وهم بقتل زوجته ابنة خوارزمشاه علاء الدين محمد . وهنا ثارت ثائرة خوارزمشاه وسار إلى سمرقند واستباحها بجنده ثلاثة أيام أمصنوا فيها في قتل الأهليين حتى قيل انهم قتلوا نحو مائتي ألف . ثم سلم إليه صاحب سمرقند وطلب الأمان ، فأمر به خوارزمشاه فقتل (١) .

وفي سنة ٦١١ هـ استولى خوارزمشاه علاء الدين محمد على كرمان ومكران والسند (٢) وفي السنة التالية عظمت قوة خوارزمشاه علاء الدين محمد باستيلائه على كافة أقاليم خراسان ، وملك « باميان » واشتدت قوته وعظم سلطانه وهابه الملوك والأمراء . وأصبح بحيث يستطيع الاستيلاء على غزنة . فأرسل إلى صاحبها تاج الدين الذي يطلب إليه أن يقيم الخطبة له ويضرب السكة باسمه . فأشار عليه كبار أمراء دولته بإجابة خوارزمشاه إلى طلبه درأ لخطره وتلافياً لشره ، فزل على رأيهم . وأسرع علاء الدين خوارزمشاه السير إلى غزنة ودخلها واستولى على قلعتها وقتل من بها من الجند الغوريين ولا سيما الأتراك .

(١) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ١٢ ص ١١٢ — ١١٣) أن طائفة عظيمة ببلاد الصين بينهم وبين الخطا عداوة قديمة وحروب طويلة . فلما سمعوا بما حل بالخطا من الهزيمة على يد خوارزمشاه علاء الدين محمد خرجوا من بلادهم وقصدوا بلاد الخطا عند ذلك أرسل ملك الخطا إلى خوارزمشاه يطلب إليه أن يتناسى كل منهما ما كان بينهما من حروب ويطلب مساعدته ضد التتر ويخوفه من الأخطار التي تهدق ببلاده إذا ما انتصروا عليه وأرسل التتر في الوقت نفسه إلى خوارزمشاه علاء الدين محمد يخوفونه من الخطا ويطلبون منه العون ويعيدونه بعدم التعرض لبلاده إذا تم لها النصر على عدوهم المشترك . وقد أجاب خوارزمشاه كلا من الخطا والتتر بالمساعدة وسار بجنده حتى أصبح على مقربة من المكان الذي عسكر فيه الفريقان المتنازعان ، وتظاهر بأنه مع كل فريق . ثم نشب القتال بين الخطا والتتر وانهمز الخطا هزيمة منكرة . وهنا سنحت الفرصة لخوارزمشاه علاء الدين محمد فجعل يقتل الخطا ويأسرهم ويطاردهم . ونجا منهم فئة قليلة ساروا مع ملكهم حتى بلغوا مكاناً جبلياً تحصنوا فيه . وبذلك طمع كل من التتر وخوارزمشاه في بلاد الخطا ، وأخذ خوارزمشاه يشن الغارات على البلاد الإسلامية القريبة من بلاد التتر ويتخربها خوفاً من امتلاكهم لها . ثم انشغل ملك التتر بحرب عسكر جنكيزخان وخلفائه الذين قضاوا على هؤلاء التتر وعلى الدولة الخوارزمية جميعاً .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٢٥ .

ثم ترك خوارزمشاه غزنة وخلف عليها ابنه جلال الدين منكبرتي . ولما علم « الذر » بهذا النبأ ، وكان غائباً عن غزنة^(١) ، هرب هو ومن معه من الجند إلى لاهور : فلحقته جيوش أتباع شهاب الدين محمود الغوري وأحلت به الهزيمة وقتلته^(٢) .

وبين سنتي ٦٠٧ و ٦١٤ هـ بسط خوارزمشاه علاء الدين محمد نفوذه على بلاد ما وراء النهر وأحل الهزيمة بالخطا وملك إيران بعد حروب طاحنة مع الغوري في خراسان . واستولى على بلاد الجبل وفارس ، وتمسك من السيطرة على الأقاليم المطلة على المحيط الهندي جنوباً بما في ذلك كرمان ومكران ، وأخيراً استطاع الاستيلاء على البلاد الواقعة غربي نهر السند بعد استيلائه على غزنة حاضرة الغوري (٦١٢/١٢١٥) .

وبما يلاحظ في حياة خوارزمشاه علاء الدين محمد أنه انتحل عقائد المذهب الشيعي (٦١٤ هـ) ومهد السبيل للقضاء على الخلافة العباسية في بغداد . وقد حاول الاستيلاء على مدينة بغداد ليستأثر بالسلطة التي كان يتمتع بها بنو بويه والسلاجقة من بعدهم فطلب من الخليفة العباسي الناصر (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ) أن يأمر بذكر اسمه في الخطبة بدل السلاجقة فأبى الخليفة واشتدت العداوة والبغضاء بينهما حتى حذف خوارزمشاه علاء الدين محمد اسم الخليفة العباسي من الخطبة على منابر بلاده ونصب أحد الأشراف من سلالة علي بن أبي طالب خليفة . ولعل عدم إجابة الخليفة خوارزمشاه علاء الدين محمد إلى ذكر اسمه في الخطبة بدل السلاجقة راجع إلى تحوله إلى عقائد المذهب الشيعي .

وهكذا ترى خوارزمشاه علاء الدين محمد بدلاً من أن يجمع قوته لصد الكارثة التي تهدد بلاده من الناحية الشمالية الشرقية ، يزج بنفسه في خصومة حامية مع الخليفة العباسي ثم يزداد الأمر سوءاً بوقوع كارثة أخرى كان سببها اشتداد البرد وقسوة الشتاء في هذه الديار بصورة لم تعهدها البلاد من قبل^(٣) وكان من المحتمل أن يؤجل وقوع الكارثة إلى حين لو أن علاء الدين محمد لم يقم بهذه الفعلة الطائشة بتحريض عامل مدينة « أونزار » على قتل التجار الذين أرسلهم جنكيزخان بعد ما ألقى في روعه أنهم ليسوا تجاراً في الحقيقة وإنما هم جواسيس للغول ، حتى لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن هذه الكارثة

(١) كان الذر يقيم بغزنة أربعة أشهر الصيف .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٨ .

(٣) براون : تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة ج ٢ ص ٥٥٦ — ٥٥٧ .

كانت السبب المباشر في غزوات المغول بل إن علاء الدين محمد تيمادى في سياسته التي تدل على قصر النظر بقتله رسول جنكيزخان التركي وإعادة الرسلين المغوليين الآخرين إلى مولاها بعد أن أمر بخلق لحامها .

لذلك ثار چكيزخان لقتل تجاره وإهانة رسله ، فعمد جمعية عامة من المغول « فوريلتاى » وقرر مهاجمة « خوارزم » . ولم يقو علاء الدين محمد على صد تيار المغول وأخذ يتقهقر أمام جماعاتهم التي دخلت خراسان وانطلقت تتبعه وتطارده من بلد إلى بلد ، فأسرع إلى ناحية الغرب صوب بحر قزوين ، وتركه أتباعه ثم مرض بالبرص واشتدت عليه علته ومات شريداً طريداً بعد أن استبد به اليأس وانتابه المرض في جزيرة من جزر بحر قزوين ، تاركاً ملكه لابنه الشجاع جلال الدين منكبرى ، ووقعت أمه « توكان خاتون » مع زوجاته وأولاده وجواهره في أيدي المغول ، وهياً بذلك الفرصة لسقوط دولة خوارزم العظيمة (١) .

وقد وصف ابن الأثير (٢) مصير علاء الدين محمد في هذه العبارة فقال : « ومن أعظم الأمور أن سلطانهم خوارزم شاه محمداً قد عدم لا تعرف حقيقة خبره : فتارة يقال مات عند همذان وأخفى موته ، وتارة دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفى موته لئلا يقصدها التتر في إثره ، وتارة يقال عاد إلى طبرستان وركب البحر فتوفي في جزيرة هناك . وبالجملة فقد عدم ثم صبح موته ببحر طبرستان (أى بحر قزوين أو بحر الخزر) .

جلال الدين منكبرى

وقد هام أولاد علاء الدين محمد خوارزم شاه الثلاثة على وجوههم في الولايات الفارسية ، بل إن آخرهم ، وهو جلال الدين منكبرى (بفتح الميم والكاف والباء وسكون النون) قد هرب إلى الهند حيث عضده سلطان دلهى الذى تزوج ابنته ، وبعد سنتين عاد جلال الدين إلى بلاده التي ورثها عن أبيه . يقول بروان (٣) : « وفي هذه الأيام الحالكه التي وقعت فيها غزوة المغول ... نجد أن جلال الدين خوارزم شاه بما حباه الله من شخصية لامعة استطاع حظه كالشهاب الثاقب والبرق الحاطف ، ثم تحمد ناره وينطق بأواره دون أن

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٥٥٨ — ٥٥٩

(٢) السكامل ج ١٢ ص ٢٤٦

(٣) تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة الدكتور إبراهيم أمين ج ٢ ص ٥٦٩ .

ينتج أثرًا أو يحدى نفعا . ولربما خلت صفحات التاريخ من ذكر أمير مثله امتاز بجرأته وإقدامه ... في هذه الأحوال المضطربة نجد أن جلال الدين يستجمع قوته ويتمنطق بسيفه ، ثم يمضى أمام الصاعقة على عجل فيحتدى بالحدود الهندية . فإنه عند ما بلغ جيشه الصغير نهر السند وجد نفسه وقد أحاطت به جموع كبيرة من المغول ، فقاومها وأبدى من ضروب الشجاعة والجلد الشيء الكثير ، ولكنه أدرك في النهاية أنه قد خسر الموقعة ، فهجم على أعدائه هجوم اليأس ، ثم يم بوجهه شطر النهر وألقى بدرعه عن جسده ، ثم امتطى صهوة جواده وعبر النهر ، وتبعه قوم من أتباعه ، ففعلوا مثل ما فعل . ولكن أكثرهم غرقوا أو أغرقتهم سهام المغول الذين كانوا يحدون في أثرهم ، وغرقت أم جلال الدين وبعض نساء حرمه^(١) .

وقد سجل شهاب الدين النسوي^(٢) كاتب جلال الدين منكبرتي أن جلال الدين حارب في عدة ميادين : حارب المغول الذين كانوا يتعقبونه وحارب أخاه غياث الدين الذي خانته ، وحارب حاكم كرمان ، كما حارب الخليفة في بغداد ، وحارب التركان والحشاشين ، وفتح ولاية چورجيا .

وفي سنة ١٢٢٧/١٢٢٩ أخذ جلال الدين منكبرتي يدعو أمراء المسلمين للتحالف معه على محاربة المغول ، وكاد أن ينجح في تأسيس هذا الحلف ، ولكن جيشاً من المغول قوامه ثلاثون ألف مقاتل حمل عليه فجأة واضطره إلى الهرب شمالاً حيث استطاع أن يستولى على مدينة كنج^(٣) . وانقلب حظ جلال الدين وخمد نشاطه وأدمن الشراب وبدأت عليه الهوم فأصبح كسير القلب سريع البكاء ، وما زال يهرب أمام جحافل المغول من بلد إلى بلد حتى انتهى به المسكان إلى قرية كردية ، فقتله أحد الفلاحين (١٥ أغسطس سنة ١٢٣١ / ٦٢٩ هـ)^(٤) ، قبل أن يعرف شيئاً عن وصول المغول ،

(١) وقد قيل لأنهن سألن جلال الدين أن يأمر بإغراقهن خشية أن يقعن في أيدي المغول ، ورأى جلال استحالة العبور بهن فأمر بإغراقهن .

D' Hossou, Histoire des Mongols, tome I, pp. 258, 306 et seq.

(٢) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، وقد كتبها النسوي بالعربية وترجمها « هوداس » إلى الفرنسية ، ونشرت دار الفكر العربي بالقاهرة سيرة السلطان جلال الدين سنة ١٩٥٣ ، أنظر براون .

(٣) وهي المعروفة الآن باسم إليزابتبول Elizavetpol

(٤) براون : تاريخ الأدب في إيران ترجمة ص ٥٧٢ .

وبذلك حقق المغول الغرض الأول من غزواتهم وهو القضاء على الدولة الخوارزمية . وقد أحاط كثير من الشك نهاية جلال الدين منكبرتي ، وحامت الإشاعات حول مصيره ، فظن بعض أنه ما زال حياً ، وأنه قد خرج ثانية من مجبأه .

يقول براون : ونهاية جلال الدين هذه وما أحاطها من شك في مصيره تمثل لنا حال أى بطل تتعلق به الآمال في ساعات اليأس العسية . . . حيث نجد الأوهام الشعبية تنتهي بالبطل إلى حياة الزهد والتشف ثم الموت في سن الشيخوخة مئة الأولياء والصالحين^(٢) .

ثالثاً — الدولة الأيوبية

(٥٦٧ — ٦٤٨ / ١١٧١ — ١٢٥٠)

صالح الدين الأيوبي

ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٦ م) بقلعة تكريت (بفتح التاء) ، وهي بلدة مشهورة بين بغداد والموصل . وكان أبوه نجم الدين أيوب والياً عليها . ثم انتقل صلاح الدين مع أسرته إلى الموصل ، فأقطعه صاحبها عماد الدين زنكي كثيراً من الأراضى ، وكان نجم الدين من أتباعه المخلصين .

ولما فتح عماد الدين زنكي بعلبك ولى نجم الدين أيوب قلعتها ، فبقى والياً عليها حتى توفي عماد الدين . فلما حاصر مجد الدين أرتق صاحب دمشق قلعة بعلبك ، أرسل نجم الدين أيوب إلى سيف الدين غازى بن زنكي يطلب منه النجدة . فلم يلب طلبه لانشغاله بإصلاح أمور الموصل ، حتى إذا ما ضاق الأمير نجم الدين ذرعاً نزل عن قلعة بعلبك لصاحب دمشق ، ثم سار مع أخيه أسد الدين شيركوه إلى دمشق ، ورافقه في سفره ابنه صلاح الدين يوسف ، وكان إذ ذاك في مقتبل الشباب .

وقد اتصل أسد شيركوه عم صلاح الدين بنور الدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب حلب وأصبح من أكابر أمراء دولته ، فأقطعه حمص والرحبة وأسند إليه قيادة

(١) الكامل ج ٢١ ص ٢٤٦ .

(٢) براون : تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة ص ٥٧٢ .

(٣) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٣ — ١٤٥

جنده . ولما عزم نور الدين على ضم دمشق إلى حوزته طلب من أسد الدين شيركوه أن يكتب إلى أخيه نجم الدين أيوب (أبي صلاح الدين) ليعاونه على فتحها ، فلبى نجم الدين طلب أخيه أسد الدين ، وبذلك تمكن نور الدين من الاستيلاء على دمشق . وأصبح أسد الدين ونجم الدين من كبار أمراء جيش نور الدين محمود^(١) . ولما لجأ شاور وزير العاضد الفاطمي إلى نور الدين طالباً منه العون على العودة إلى الوزارة ، أرسل معه حملة بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الذي ظهر على مسرح السياسة منذ ذلك الحين^(٢) .

وقد خلف شيركوه شاور في الوزارة (١٧ ربيع الثاني سنة ٥٦٤/١٨ يناير سنة ١١٦٩) ، وخلع عليه الخليفة^(٣) . على أن شيركوه لم يتمتع طويلاً بهذا المنصب ؛ إذ وافته منيته بعد ثلاثة أشهر ، فتقلد الوزارة من بعده ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي . وقد رأى صلاح الدين أن مركزه قد أصبح شديد الحرج بعد أن آلت الوزارة إليه ، لأنه أصبح وزيراً للخليفة الفاطمي الشيعي ونائباً عن نور الدين محمود صاحب دمشق السني . فاضطر إلى الدعاء لها في الخطبة ، ثم أخذ يقوى مركزه في مصر ويعمل على اكتساب محبة أهلها ليشتد بهم أزره ويستقل بهذه البلاد .

وكان النصر الذي أحرزه صلاح الدين على الفرنجة في دمياط بدء طور جديد في تاريخ النزاع بين مصر والصليبيين . فبعد أن كانوا يوالون الغارات على مصر في عهد الفاطميين ، قصروا جهودهم على الدفاع عن إمارة بيت المقدس .

ولما خرج صلاح الدين لاستقبال أبيه نجم الدين أيوب قال له : « هذا أمر لك (يعني الوزارة) وهي السلطنة الآن وتدبير ملك مصر ، ونحن بين يديك » ، فقال له أبوه : « يا بني ! ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت أهل له » ، وأبى قبول الوزارة ، فأسند إليه ابنه صلاح الدين إدارة بيت المال ، وأقطع أقاربه بعض الإقطاعات .

وعلى الرغم من أن صلاح الدين أصبح صاحب النفوذ المطلق في مصر بعد وفاة الخليفة العاضد الفاطمي ، ظل يخشى منافسة نور الدين له . فأمر بذكر اسمه في الخطبة

(١) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٤٥ .

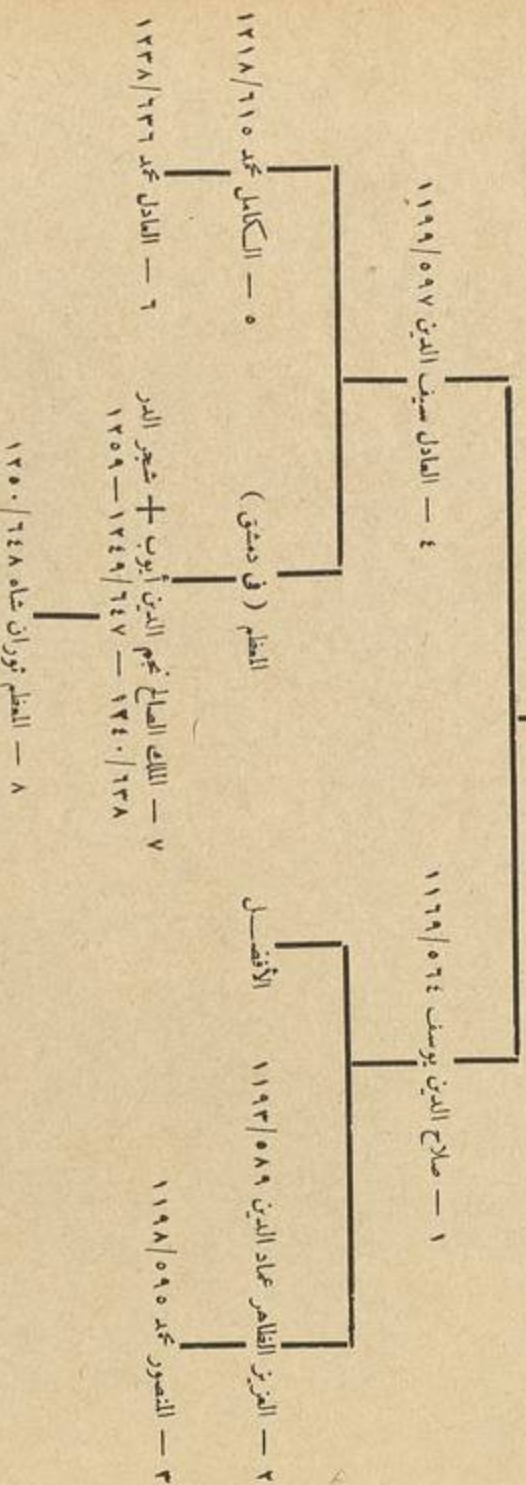
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٢١ . ابن خلكان ج ٦ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٣٦ — ١٣٧ . ابن شداد : النوادر السلطانية

والمحاسن اليوسفية ص ٤٧ — ٤٨ .

تسلسل نسب الأيوبيين

نجم الدين أيوب



بعد ذكر اسم الخليفة العباسي ، وضرب النقود باسمه ، وأرسل إليه الهدايا حتى لا يرتاب في ولائه . كذلك حرص على الاحتفاظ بمكان يأوي إليه إذا غضب عليه نور الدين ، فوجه أخاه شمس الدولة قدرا ن شاه بن نجم الدين أيوب إلى السودان ليقف على أحوال هذه البلاد التي قد يلجأ إليها صلاح الدين إذا مادعت الضرورة ، ثم عهد إلى أخيه بغزو بلاد اليمن ، فاستولى عليها وأقام الخطبة للخليفة العباسي .

ويمكن تقسيم عهد صلاح الدين الأيوبي منذ تولى زمام مصر إلى ثلاثة أدوار : الأول في مصر ، والثاني في الشام ، والثالث في فلسطين . فالأول هو طور الدفاع ، والثاني طور إعداد العدة والتأهب ، والثالث طور الهجوم . وفي هذه الأدوار الثلاثة كان صلاح الدين يوجه كل جهوده للدفاع عن رغبته الصادقة في إخراج الصليبيين من بلاد الشام وإنشاء إمبراطورية إسلامية متحدة تستطيع أن تقذف بالفرنجية إلى ساحل البحر بل إلى أبعد من ذلك .

ففي الدور المصري (١١٦٩ — ١١٧٤ م) وقف صلاح الدين موقف الدفاع أمام الصليبيين وأنصار الفاطميين وأمام نور الدين صاحب دمشق الذي حكم صلاح الدين هذه البلاد باسمه ، ومن ثم كانت سياسته في هذا الدور تنطوي على صد الاعتداء في الداخل والخارج وتقوية سلطانه من الناحيتين السياسية والحربية .

أما في الدور الثاني أو الدور الشامي (١١٧٤ — ١١٨٦ م) الذي يبتدى بوفاة نور الدين ، فقد ظهر صلاح الدين بمظهر أ كبر حاكم إسلامي في الشرق الأدنى ونشر نفوذه في الشام والجزيرة ، وأعد العدة لجمع القوات الإسلامية للصراع النهائي مع الصليبيين .

وفي الدور الثالث أو الدور الفلسطيني (١١٨٦ — ١١٩٣ م) وجه صلاح الدين كل جهوده إلى الحرب المقدسة مع الصليبيين ، تلك الحرب التي انتهت بصلح الرملة الذي أعقبه بعد شهور موت بطل الإسلام ^(١) .

ذلك أنه لما توطدت قدم صلاح الدين في مصر ، خشى السلطان نور الدين صاحب دمشق لإزدياد نفوذه وفكر في خلع . بيد أن الحظ بسم لصلاح الدين بوفاة نور الدين

(١) Lane-Poole, Hist of Egypt in the Middle Ages, p. 203.

سنة ٥٩٦ هـ (١١٧٤ م) وعلى الرغم من أن الفرصة قد سنحت لصالح الدين بأن يبسط سلطانه على البلاد الإسلامية في الشرق ظل يرقب الحوادث خشية أن يعرقل أهل الشام أعماله ، فأظهر احترامه للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، وظل يضرب النقود باسمه ويخطب له على المنابر . غير أن هذا الملك لم يلبث أن وقع تحت نفوذ وزرائه وبطانته ، وقام الخلاف بينه وبين صلاح الدين الذي بعث إلى هؤلاء الوزراء كتابا شديد اللهجة يهددهم فيه بالمسير إلى دمشق ولإزالة العقاب بهم على سوء تصرفهم . وبعد قليل استدعى أحد أمراء دمشق صلاح الدين لاحتلال المدينة ، فأسرع صلاح الدين بالمسير إليها دون أن يكثر بوجود الصليبيين في طريقه ، وتمكن من الاستيلاء على دمشق (١١٧٥/٥٧٠) ثم أرسل إلى أنابك الشام كتابا يؤكد له فيه أنه إنما جاء إلى هذه البلاد ليقدم فروض الطاعة للملك الصالح إسماعيل الذي رد عليه رداً شديداً اتهمه فيه بالتردد ونكران الجميل وأثار بذلك استياء صلاح الدين الذي زحف إلى حلب وأوقع بأهلها ، ثم فك الحصار واتجه إلى حصص لمحاربة الصليبيين (١) .

ثم حاول صلاح الدين التفاهم مع الملك الصالح ، فأرسل إليه كتابا يعرض فيه استعداداه للتخلي عن حماه وحمص وبعليك على أن يقره على ولاية دمشق ومصر . وقد أبى الملك الصالح إجابة هذا الطلب ، فلم ير صلاح الدين بداً من محاربته ، فاشتبك مع جيش إسماعيل في معركة بالقرب من حماه وانتصر عليهم ثم حاصرهم في حلب وأرغمهم على طلب الصلح . ولكي يستردوا عطف صلاح الدين أرسلوا إليه ابنة نور الدين ، وكانت لا تزال في دور الطفولة ، فلقاها بالخفاوة وأحسن وفادتها وقدم إليها الهدايا . ثم سألها عما تطلبه لقومها ، فقالت إنهم يريدون بلدة « إعران » ، فوهبها هذه البلدة . ونزل لآخيها الملك الصالح إسماعيل عن جميع المدن التي استولى عليها من إمارة حلب ، وأصبح صلاح الدين بهذا الصلح صاحب الأمر في دمشق وحمص وحماه .

ولما عاد صلاح الدين إلى مصر بعد سنتين أخذ ينظم أمورها ووجه همه إلى تحصينها ليأمن شر غارات الأعداء ، فعهد إلى وزيره بهاء الدين قراقوش في بناء قلعة منيعة على قمة جبل المقطم غربا لتكون مركزاً لحكومته ومعقلاً لجندده وليتق بها خطر الفاطميين وأشياهم في الداخل إذا حدثتهم أنفسهم بإذكاء نار الثورة والخروج على سلطانه .

ثم أخذ صلاح الدين في بناء سور عظيم يضم القسطنطين والعسكر وأطلال القطنع والقاهرة (٥٥٧٢ هـ) (١).

وقد ظل صلاح الدين يعمل على توحيد كلمة المسلمين حتى توفي الملك الصالح إسماعيل (٥٥٧٧ هـ)، فبسط سلطانه على حلب (٥٥٧٩ هـ) والموصل، وأصبح بذلك الحاكم المسيطر على غربي آسيا، وأصبح الصليبيون محصورين بين قوات صلاح الدين المتحدة في الشمال والجنوب والشرق (٢).

وكان صلاح الدين منذ تولي زمام الحكم في مصر يبذل قصارى جهده لإخراج الصليبيين من المشرق: فلما اتصل به نبأ إغارة «رينولد» صاحب حصن الكرنك (بفتح الكاف والراء) على سواحل بلاد الحجاز وقطعه طريق الحج وأخذه بعض قوافل المسلمين وهم في طريقهم إلى بيت الله، أغار صلاح الدين على الولايات الصليبية وهزم الصليبيين هزيمة منكرة في موقعة حطين (بكسر الحاء والطاء مع التشديد) القريبة من طبرية سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٧ م)، ثم أخذ بطاردتهم حتى استولى على حصن طبرية بعد قليل، ويصف العباد الأصفهاني ما أحرزه صلاح الدين من نصر في قصيدة ننقل منها هذا البيت:

حَطَّطَتْ عَلَى حَطينَ قَدَّرَ ملوكهم ولم تبقَ من أجناس كفرهم حِنْسًا
ونظم ابن الساعاتي قصيدة أخرى في هذا الفتح استلها بهذا البيت:

جَلَّتْ عِزَمَاتُكَ الفتح المبينَا فقد قَرَّتْ عِيونُ المؤمنينَا

ولما فرغ صلاح الدين من طبرية واصل زحفه حتى بلغ عكا فحاصرها واستولى عليها، ثم وقعت في يده نابلس والرملة وقيسارية وأرسوف ويافا وبيروت، كما سقطت في يده صور في طرابلس وعسقلان، وبذلك أخذ صلاح الدين يعد العدة لاسترداد بيت المقدس، فسار إليها على رأس جيش كبير، ولما اقترب منها بعث في طلب أشرفها وخاطبهم بقوله إنه يحترم مدينة القدس ولا يرغب في انتهاك حرمتها بإراقة الدماء،

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ١٣٩ — ١٤٠، ابن شداد: النوادر السلطانية

ص ٥٢ ابن خلكان ج ٦ ص ١٦٨.

(٢) ابن خلكان ج ٦ ص ١٦٩ — ١٧٠ — ١٧١.

ولذلك ينصح لهم بترك استحكاماتهم وتسليم مدينتهم من غير حرب على أن يعوِّضهم عن أملاكهم بالأموال والأراضي ، لكن الصليبيين رفضوا لإجابة هذا الطلب ، فلم ير صلاح الدين بداً من محاصرة بيت المقدس .

ولما رأى الصليبيون أنهم أصبحوا عاجزين عن المقاومة وأشرفوا على الهلاك ، طلبوا الصلح وتعهدوا أن يسلموا بيت المقدس إلى صلاح الدين وأن يخرجوا منها بأموالهم وأولادهم مقابل فدية يدفعها كل منهم . فكان يؤخذ من الرجل عشرون ديناراً ومن المرأة خمسة دنانير ومن الطفل ديناران^(٢) ، وضمن لهم صلاح الدين سلامة الرحيل إلى صور أو إلى طرابلس .

ثم دخل صلاح الدين بيت المقدس في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكان جميع الفرنجة قد غادروها ، ثم أمر صلاح الدين بترميم ما دمرته الحروب من مبانيها وإعادة تشييد المساجد والمدارس التي هدمها الصليبيون ، كما وضع نظاماً خاصاً لإدارتها .

ولما وصل إلى أهل أوروبا نبأ سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين أخذ رجال الدين يدعون الشعوب المسيحية وملوك أوروبا لإعداد حرب صليبية أخرى ، ولم تلبث أن تدفقت النجدات على صور ، واشترك في هذه الحرب ثلاثة من أعظم ملوك أوروبا شأناً وهم : فريدريك برابوروسا إمبراطور ألمانيا . وكان على رأس مائة ألف جندي ، وفيليب الثاني ملك فرنسا . وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وبينما كان الألمان يزحفون على أنطاكية غرق ملكهم في الطريق ولم يصل من جنده إلى بلاد الشام إلا القليل ، أما جيوش ريتشارد وفيليب فقد وصلت إلى عكا . واستولت عليها .

على أن هذه الحملة الصليبية قد قضى عليها لوقوع النزاع بين فيليب وريتشارد ، فعاد فيليب إلى بلاده وانفرد ريتشارد بمحاربة المسلمين ، وأظهر من الشجاعة والفروسية ما أثار إعجاب أعدائه فلقبوه « قلب الأسد » . وقد انتصر ريتشارد أولاً على جيش صلاح الدين في أرسوف ثم تابع زحفه على عسقلان ، غير أنه لما شاهد بنفسه خرائب قلعتها أدرك أنه أمام خصم عنيد ، فشرع في بدء المفاوضات معه وانتهت بإبرام صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ . (١١٩٢ م) . ومن أهم شروطه : وقف الحرب بين الفريقين ثلاث

(١) ابن خلكان ج ٦ ص ١٢٤ وما يليها .

(٢) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٨٧ .

سنيين ، وأن يترك بيت المقدس تحت حكم المسلمين على أن يسمح للمسلمين بالزيارة وأداء مناسك الحج ، وأن يقوم الصليبيون بحماية ساحل الشام من صور إلى يافا . وأن يرد المسلمون المخلفات الدينية إلى المسيحيين^(١) .

ولم تمض سنة واحدة على إبرام هذا الصلح حتى حقق صلاح الدين أهم أغراضه في الحياة ، وهو إخراج الصليبيين من بيت المقدس وإعادة وحدة المسلمين ، وقد أنهكت هذه الحروب الطويلة قواه وأضعفت صحته ، وأصيب بالحمى وتوفي بدمشق في شهر مارس سنة ١١٩٣ م ، ودفن بها وقد حزن المسلمون بوفاته هذا الزعيم العظيم الذي أعاد إلى الإسلام قوته ، وصددت نيار الصليبيين الذي كاد يحتاج بلادهم . فقد رثاه الشعراء بمراثيات خالدة تعرفها كتب الأدب . فمن ذلك قول بعضهم :

أين الذي كانت له طاعاتنا مبذولةً ولربه طاعاته
أين الذي شرف الزمان بفضله وسمت على الفضلاء تشريفاته
ملك على الإسلام كان محامياً أبداً لماذا أسلمته حُجَّاته
ياراعياً للدين حين تمكنت منه الذئاب وأسلته رعاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً رضوانُ ربِّ العرش بل وصلواته^(٢)

لم يكن للمسلمين قبل انتصارهم الحاسم في موقعة حطين شبر واحد في أرض فلسطين غربي نهر الأردن ، لكن هذه الأرض قد أصبحت بعد صلح الرملة أرضاً إسلامية ، اللهم إلا إذا استثنينا هذا الجزء الضيق الذي يقع بحذاء الساحل ويمتد من صور إلى يافا ، وقد خرج صلاح الدين من هذه الحروب بقوة لا تقهر ، وانتشر أتباعه في كافة البلاد الواقعة بين جبال كردستان وصحراء ليبيا ، وسارعوا إلى تلبية دعوته إذا ما دعاهم للجهاد ، وعمل على محاربة ملك جورجيا وملك أرمينية وسلطان قونية وإمبراطور القسطنطينية^(٣) .

وكان صلاح الدين مثلاً للآداب العالية والصفات الحميدة ، وكان كما وصفه ابن

(١) Lane-poole, Hist. of Egypt in the Middle Ages, p. 211.

(٢) أبو الخاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٠ .

(٣) Ibid, p. 211.

خلصكان^(١) ، كثير التواضع واللفظ ، قريباً من الناس ، رحيم القلب ، كثير الاحتمال والادارة ، يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم ، ويستحسن الاشعار الجيدة ويردها في مجالسه .

ولما استولى صلاح الدين على بيت المقدس وقع في يده كثير من الاسرى ، فوفد عليه رهط من النساء وناشدته أن يفك سراح أزواجهن وأولادهن ، وقلن له إنهن إذا رحلن عن هذه البلاد فقدن أزواجهن ، ولو ردهن إليهن لأزال بؤسهن وعشن سعيدات بفيض كرمه وواسع رحمته ، فتأثر صلاح بتوسلاتهن وأمر برد الاسرى إلى أقاربهم ، ووزع الصدقات على اليتامى والأرامل . وعمل على إسعاف الجرحى ومعالجة المرضى بحجاج المسيحيين .

وهناك كثير من القصص الذى تدل على حسن السياسة التى سار عليها صلاح الدين مع أهالى المدن المفتوحة . وهى سياسة تنطوى على كثير من حسن المعاملة والعطف والرعاية وإغداق الهبات وتحقيق الرغبات ، مما تفيض به الكتب التى عنى مؤلفوها بتدوين سيرة صلاح الدين الحافلة بضروب الشجاعة والفروسية .

وكان صلاح الدين محباً لمجالس العلم ميالاً لمناقشة رجال الفقه وأصول الدين^(٢) ، وقد وصفه عبد اللطيف البغدادي طيب بغداد فى هذه العبارة فقال : وجدته أميراً جليلاً مهيب الطلعة جديراً بالاحترام والتقدير ، ودبياً متواضعاً ذكياً سمح النفس واسع الإدراك ، ثم قال : وجدته فى ندوة من العلماء يتذاكرون العلوم ، ورأيت أنه وهو يحسن الإنصات ثم يشترك فى الحديث ، وكان صلاح الدين — « مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة — كثير التواضع واللفظ قريباً من الناس ، رحيم القلب كثير الاحتمال والادارة ، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم . . . وكان يستحسن الاشعار الجيدة ويردها فى مجالسه »^(٣) ويقول ليفيول^(٤) ، وبكى صلاح الدين نحرأ أنه أدخل نظام المساجد المدرسية فى القاهرة . . . وكان تطبيقه فى القاهرة مما جعلها فى مصاف مراكز العلم الإسلامية الشهيرة .

(١) انظر ترجمة يوسف بن أيوب الملقب الملك الناصر صلاح الدين فى ابن خلسكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٩ — ٢١٨ .

(٢) ليفيول . Saladin, p. 20 .

(٣) ابن خلسكان ج ٦ ص ٢٠٦ .

(٤) ترجمة ص ١٧٢ . Hist, of Egypt in the Middle Ages

خلفاء صلاح الدين

وقد ترسم خلفاء صلاح الدين خطاه ، ففي عهد أخيه العادل جمع جان دي بريين (Jean de Brienne) جيشاً من الجرمان واستولى على دمياط سنة ١٢١٨ م . ويقال إن العادل مات في شهر أغسطس من هذه السنة حزناً على ضياع دمياط ، وأوصى قبل وفاته ابنه الكامل بإخراج الصليبيين منها : فبنى الاستحكامات جنوب دمياط وفي المنصورة ، وحسم النزاع الذي قام بينه وبين أقاربه ، وجاءته الإمدادات من حلب وحمص وحماة وغيرها . ثم التقي بالصليبيين عند المنصورة ، وأغرق السفن لخرقت ماء النيل وحال بذلك دون تقدمهم ، وحلت الخسائر بالصليبيين بسبب فيضان النيل وإحاطة المسلمين بهم من كل ناحية ونفشي الحى في جندهم ، واضطر الصليبيون إلى طلب الصلح (١٢٢١ م) ، فرأى السلطان الكامل من حسن السياسة وبعد النظر أن يجيبهم إليه ، حتى لا تقوم حرب صليبية أخرى للأخذ بثأرهم ، وسمح للصليبيين بالجلء عن دمياط ، وعقدت بين الفريقين هدنة أمدها ثمانى سنين . ورحل الصليبيون عن مصر بعد أن أقاموا فيها أربعين شهراً (١) .

على أن هذا الصلح الذى عقد بين السلطان الكامل والصليبيين لم يحل دون وقوع حرب صليبية أخرى ، فقد خرج الإمبراطور فردريك الثانى بحملته إلى فلسطين ، وتزوج من ابنة الملك جان بريين واثمة عرش أورشليم . واضطر الملك الكامل — بسبب قيام النزاع بينه وبين أخيه الملك المعظم صاحب دمشق — إلى عقد صلح مع فردريك سنة ١٢٢٩ م على أن ينزل السلطان الكامل عن بيت المقدس ، وأن يظل مسجد عمر وماحوله فى حوزة المسلمين ، وأن يطلق سراح جميع أسرى المسيحيين ؛ وتعهد الإمبراطور بأن يدافع عن السلطان الكامل أمام أعدائه حتى المسيحيين منهم . وبما ساعد على عقد هذا الصلح ما عرف به فردريك من حرية الرأى ، وميله إلى المسلمين . وقد حامت الشكوك فى صدق إخلاصه للمسيحية ، حتى إن البابا قال إنه تابع من أتباع محمد لاجندى من جند المسيح .

عاش السلطان الكامل بعد إبرام هذا الصلح تسع سنين . وتقدمت مصر فى عهده تقدماً عظيماً ، فقد عمل على تحسين الرى ، وأتم تحصين قلعة القاهرة ، وأسس كثيراً من

معاهد العلم . وكان الكامل — كما وصفه ابن خلسكان ^(١) — « سلطاناً عظيم القدر جليل الذكر محباً للعلماء ، متمسكاً بالسيرة النبوية ، حسن الاعتقاد ، معاشراً لأرباب الفضائل ، حازماً في أموره ، لا يضيع الشيء إلا في موضعه في غير إسراف ولا إقتار » ^(٢) .

ولما توفي الكامل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) ، ولي أمراء مصر الأمير أبا بكر ، ولقبوه بالملك العادل ، فساء ذلك الصالح أيوب بن الكامل ، وكان أبوه قد أبعدته عن حصن كيفا (الضفة الغربية لنهر دجلة) ، وهم بمغادرة الشام ليستولى على مصر ، فاعتقله الناصر صاحب السرك ، ولكنه ما لبث أن أطلق سراحه ، وتحالف معه على أن تكون مصر له ، وبلاد الشام للناصر ، وتآمر ممالك الكامل على خلع العادل ، واستدعوا الصالح أيوب ، وولوه السلطنة سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) ^(٣) .

وفي عهد الملك الصالح أيوب (١٢٤٠ — ١٢٤٩ م) جرد لويس التاسع ملك فرنسا حملة على مصر ، واستولى على دمياط ، ثم عسكر بالقرب من البحر الصغير بالمنصورة ، وانتصر أول الأمر ، وكاد يقتحم قصر السلطان ، لولا أن رده المماليك بقيادة بيبرس ، الذي انقضَّ بجيشه على الصليبيين وقلب نصرهم هزيمة ^(٤) . ولما أخذ الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة ، توفي الملك الصالح (نوفمبر ١٢٤٩ م) ، وكان ابنه وولي عهده الملك المعظم « توران شاه » بحصن كيفا ، وقد أخفت زوجته شجر الدر موته ، حتى لا يتطرق الوهن إلى نفوس المسلمين . ثم قدم توران شاه بن الملك الصالح أيوب مصر ، ونزل بقصر السلطنة بالمنصورة ، ونقل أسطولا من المراكب على ظهور الجبال إلى مكان بعيد عن مرسى الأسطول الفرنسي ، حيث ركبت أجزاء السفن ، واستولى على اثنتين وثلاثين سفينة فرنسية ، ومنع وصول المؤن والذخائر إلى جيش لويس في المنصورة ، ودارت الدائرة على الفرنسيين ^(٥) ، واضطر لويس إلى التقهقر نحو دمياط ، فطارده المسلمون

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦٦ .

(٢) هكذا ورد في الأصل ولعله يريد من غير إسراف ولا تفتير .

(٣) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٢٦٧ و ٢٩٤ — ٢٩٦ .

(٤) Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France, pp. 38—39.

(٥) Ibid., p. 46.

حتى فارسكو ، وقضوا على جيشه سنة ١٢٥٠ م . ومرض لويس بالحمى ، وأسر هو وكثير من رجاله ؛ ولم يملك أسره إلا بعد أن تعهد الفرنسيون بإخلاء دمياط^(١) . وهكذا أخفق الصليبيون في كل حملاتهم على مصر .

بعد ذلك انتشرت سطوة المماليك الذين كانوا يكونون الجزء الأعظم من جيش الملك الصالح أيوب . واشتد أزهرهم بهذا النصر الذي أحرزه بيبرس المملوكي في موقعة فارسكور ، وأضمرروا السوء لتوران شاه ، الذي أثار غضبهم لسوء معاملته إياهم فقتلوه وولوا شجر الدر زوجة الملك الصالح أيوب سلطانة عليهم . وبقتل توران شاه زالت الدولة الأيوبية في مصر وقامت دولة المماليك البحرية ، التي حكمت هذه البلاد من سنة ١٢٥٠ إلى سنة ١٣٨٢ م .

رابعاً — الدولة المرابطية

(٤٤٨ — ٥٤١ / ١٠٥٦ — ١١٤٧)

(١) قباصم الدولة المرابطية

أجمع المؤرخون على أن المرابطين^(٢) أو المثلثين^(٣) من قبيلة لمتونة (بفتح اللام

Ibid., pp. 51—57. (١)

(٢) سما المرابطين لأنهم تتلمذوا على عبد الله بن ياسين في الرباط الذي أنشأه للدرس والعبادة في صحراء المغرب حيث قبيلة لمتونة .

(٣) سما المثلثين لأنهم كانوا يضعون على وجوههم لثاماً يقيهم هاجرة الصحراء ويردها كما يفعل العرب ، وقيل في سبب هذه التسمية إن طائفة من قبيلة لمتونة أغارت على عدو لهم ، فسار العدو إلى بيوتهم ، ولم يكن فيها إلا الشيوخ والنساء والصبيان ، فأمر الشيوخ النساء أن يلجسن ثياب الرجال ويتلثمنن ويضيقن ثيابهن حتى لا يميزهن العدو ، ويحملن السلاح ، وسار الشيوخ والصبيان أمام النساء اللاتي طوقن البيوت ، فلما أشرف العدو هاله هذا الجمع العظيم وظنه رجالاً يقاتلون قتال المستعصية دفاعاً عن حرمهم . فاحتال العدو على استدراجهم للخروج من بيوتهم ، حتى إذا تبعمهم قاتلوهم خارج بيوتهم ، فبينما العدو منشغل بجمع الأنعام من المراعى ، أقبل رجال لمتونة ، وأصبح العدو بينهم وبين النساء ، فقتل عدد كبير من العدو . ومن ثم جعل اللمتونيون اللثام سنة وغدوا لا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً حتى لا يعرف الشيخ من الشاب (ابن الأثير : السكامل ج ٩ ص ٢٢٣) .

قال ابن خلدون (العبر ج ٦ ص ١٨٢) : « كان هؤلاء المثلثون في صحراهم . . . وكانوا على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة . . . وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه (أى على الدين) فدانوا له واستوتق لهم (أى للمثلثين) الملك ، ثم افترقوا ، وكانت رئاسة كل بيت منهم في بيت مخصوص » . انظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ١٨ (٣) .

وسكون الميم) البربرية الصنهاجية ، ويكادون يتفقون على أن صنهاجة من القبائل العربية الحيرية ، وأنهم ساروا من اليمن إلى الشام ومنها إلى الساحل الأفريقي حيث اتجهوا نحو المحيط الأطلس واستوطنوا صحراء المغرب لمشابهتها لصحراء العرب . وكانوا بقيادة عقبة ابن نافع ، ثم كثر عددهم في عهد موسى بن نصير^(١) . وعلى الرغم من أن ابن خلدون لا يطمئن إلى عروبة جمهرة القبائل البربرية المغربية بصفة عامة ، يقرر عروبة صنهاجة وكتامة من بين تلك القبائل البربرية^(٢) ، ويغلب الرأي القائل بيمينية صنهاجة لاباضييتها^(٣)

٤٤٨ — ٥٤١ هـ المرابطون ١٠٥٦ — ١١٤٧
[المغرب الأقصى وجزء من الجزائر والاندلس]

هجري		ميلادي
٤٤٨	أبو بكر	١٠٥٦
٤٨٠	يوسف	١٠٨٧
٥٠٠	علي	١١٠٦
٥٣٧	تاشفين	١١٤٣
٥٤١	إبراهيم	١١٤٦
٥٤١	إسحاق	١١٤٧

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣٢ .

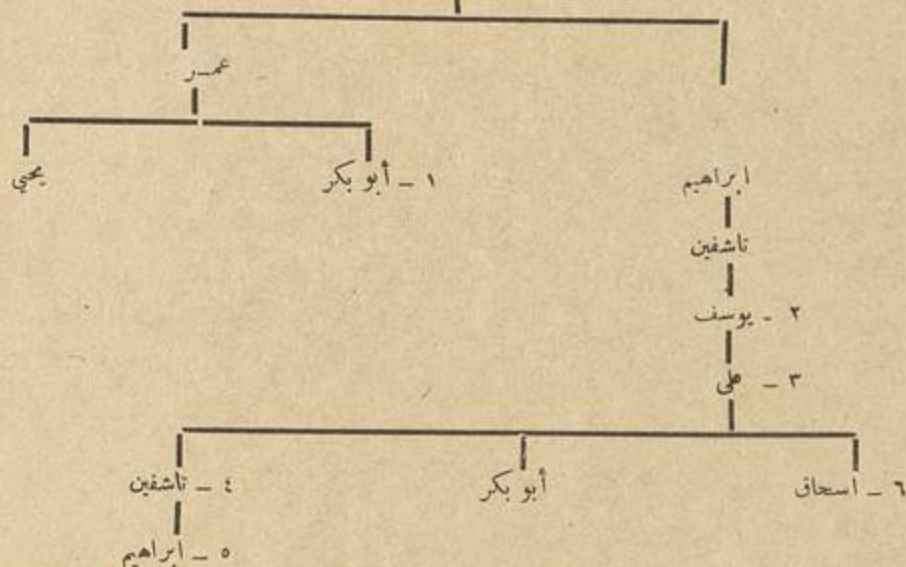
(٢) العبر ج ٦ ص ١٦٥ .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس (طبعة الرباط ١٩٢٦) ج ٢ ص ٥ .

تسلسل نسب المراتبين

وَرْتَلَتَكَ

وركوت



ويذهب بعض المؤرخين إلى أن صنهجة (بفتح الصاد والجيم وسكون النون) نخذ من هواره (بفتح الهاء والراء والواو مع التشديد) وهذا لا يعارض رأى القائل بأن صنهجة حميرية الأصل، لأن هواره نخذ من حمير^(١).

وكانت قبيلة لمتونة التي أنجبت تلك الدولة العظيمة تقيم بصحراء المغرب التي تمتد جنوباً حتى بلاد السودان^(٢)، وتتجول أحياناً في تلك القفار الشاسعة، شأنها في ذلك شأن العرب الرحّل، وكانت تدين بالإسلام الذي لم تكن تعرف أحكامه إلا لماسماً، ولم تكن القبائل الصنهاجية التي تقيم في ربوع الصحراء، مثل جداله (بضم الجيم) ومسوفة (بكسر الميم وضم السين مع التشديد) ولطة (بفتح اللام والطاء وسكون الميم ومسراته) (بكسر الميم وسكون السين وفتح التاء) وتسكلاته (بكسر التاء الأولى وفتح التاء الثانية) ومنداسة (بفتح الميم وسكون النون) وبني وارث وبني مسفير (بفتح الميم وسكون السين)

(١) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٢) ابن خلدون: العبر (طبعة بولاق) ج ٦ ص ١٨٢.

وبني ذخير بفتح الذال وسكون الراء) وبني زياد وبني موسى وغيرها^(١) خيراً من لمثونة من الناحية الدينية ، غير أن اللمتونيين كانوا متعصبين للإسلام متحمسين له عاملين على نشره في بلاد السودان بقيادة أميرهم أبي عبد الله بن يتفاوت اللمتوني^(٢) .

(٢) يوسف بن تاشفين

ولما توفي الأمير يحيى بن إبراهيم اللمتوني ولي عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر ابن إبراهيم ، وقلده أمر الحرب والجهاد ، ثم ندب المرابطين لغزو بلاد السوس والمصامدة ، فزحف إليها في جيش عظيم ، وجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني ، ثم سار أبو بكر بن عمر إلى بلاد السوس ، فغزا قبيلة جزولة ، وفتح مدينة ماسة وتارودانت عنوة ، وكانت قاعدة بلاد السوس وكان بها قوم من الشيعة البجلية الذين ينتمون إلى عبد الله البجلي الذي سار إلى بلاد السوس في أيام عبيد الله المهدي ، ونشر فيها المذهب الشيعي ، فقاتلهم عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر وانتصرا عليهم ، فعادوا إلى مذهب السنة والجماعة^(٣) .

وفي سنة ٤٥٣ هـ عاد أبو بكر بن عمر من مهمته في الصحراء التي استغرقت نحو سنتين ، وقد هاله ما رأى من ضخامة جيوش يوسف بن تاشفين ، وأدرك أنه لا قبل له بمناوئته ؛ فنزل له عن السلطة وسلم إليه أمر المغرب أمام شيوخ لمثونة وأعيان الدولة المرابطية وأمرأه المصامدة والكتاب والشهود^(٤) ، وقد جرت عادة المرابطين أن تعقد البيعة للأمير حسب هذا الترتيب ، أفراد الأسرة المالكة ، فالأمرأه ، فرؤساء القبائل ، وعمال الدولة ، ثم يرسل إلى عمال الدولة في المغرب والأندلس مذشور يتضمن هذه البيعة ويقرأ في المساجد ، فيتقدم الناس لبيعة الأمير الجديد ، كما جرت عادة المرابطين بتبادل السكتب مع الخليفة العباسي الذي يقر هذه البيعة ويباركها^(٥) ، وكان يوسف بن تاشفين ،

(١) المصدر نفسه الجزء والصفحة .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٦ .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٢ .

(٤) الحلل الموشية (المؤلف مجهول) ص ١٦ .

(٥) راجع كتاب الخليفة المستظهر العباسي إلى يوسف بن تاشفين بإقراره على ما بيده في كتاب

الحلل الموشية ص ٧١ . ابن أبي زرع . روض القرطاس ج ٢ ص ٨٠ .

كما وصفه ابن الأثير : « رجلاً ديناً خيراً حازماً داهية مجرباً » ، وأنه أحسن السيرة في الرعية ولم يأخذ منهم سوى الزكاة « وكان أمير المسلمين وطائفته على نهج السنة واتباع الشريعة ، فاستغاث به أهل المغرب ، فسار إليها وافتتحها حصناً وحصناً وبلداً وبلداً بأيسر سعي ، فأحبه الرعايا وصلحت أحوالهم . . . وملك البلاد المتصلة بالحجاز ، مثل سبته وطنجة وسلا وغيرها » (١) ،

قامت الدولة المرابطية على أساس ديني ، ومع ذلك فإن تلك الفترة التي بدأت بحكم يوسف بن تاشفين يمكن أن تعتبر فترة سياسية أكثر منها دينية ، إذ كانت السيادة فيها لقبيلة صنهاجة الصحراوية على قبيلة زناتة صاحبة الأمر في المغرب قبل قيام الدولة المرابطية ، ولكي يضمن يوسف بن تاشفين بقاء السيادة لقبيلته ، نراه يصانع قبائل المصامدة الجبلية ، فيبدأ بها عبد الله بن ياسين في توزيع خمس الغنائم التي استولى عليها في حرب درعة وسجلاسة على فقهاء المصامدة (٢) ، ويعد يوسف بن تاشفين أول ملك بربري حكم المغرب وكون جيشاً قوياً تتمثل فيه جميع القبائل المغربية بصفة عامة .

(٣) موقعة الزلاقة :

ولا يقف طموح يوسف بن تاشفين عند بسط سلطانه على المغرب الأقصى ، بل إنه كون أعظم دولة مغربية للرة الأولى في التاريخ المغربي وهي الدولة المرابطية ، إذ امتد سلطانه من السودان جنوباً إلى جبال البرانس شمالاً ، ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى حدود تونس شرقاً ، بل لقد اعتبر بعض المؤرخين يوسف بن تاشفين أعظم حكام المسلمين في عصره ، إذ كانت الدولة العباسية في المشرق قد تطرق إليها الضعف والانحلال ، وأخذت الدولة الفاطمية في الأفول ، واتخذ الصليبيون من هذا الضعف فرصة للاستيلاء على المدن المقدسة بفلسطين وغيرها من البلاد التي امتد إليها ظل الإسلام ، وشدد نصارى الأندلس بصفة خاصة الخناق على ملوك الطوائف ، وكاد حكم هذه البلاد يخرج من أيدي المسلمين ، لولا أن قيَّض الله لهم يوسف بن تاشفين الذي لم ينداء ملوك الطوائف ورد جيوش الفونس السادس على أعقابهم .

(١) الكامل ج ٩ ص ٢٣٢ .

(٢) ابن أبي زرع روض الترطاس ج ٢ ص ٨٥ .

ويذكر عبد الواحد المراكشي^(١) أن أبا عمرو عبّاد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ولى أمور إشبيلية وأعمالها سنة ٤٣٩ هـ، وتلقب «المعتضد بالله». وقد قيل إن هشاماً المؤيد الأموى كان يقيم بقصر المعتضد العبادى وأنه ولاء الحجابة. وفى سنة ٤٥٥ هـ أعلن المعتضد موت هشام المؤيد وأظهر أنه ولاء عهده ليكون أميراً على بلاد الأندلس من بعده.

وفى سنة ٤٦٣ هـ نزلت قبيلتنا لمتونة ومُسَوِّفَة من البربر رحبة مراكش واتخذوها داراً للملكهم لوقوعها فى مكان متوسط من بلاد المغرب الأقصى. وقد ولى المعتضد على الله حكم إشبيلية، ويشبهه المؤرخون بالخليفة الواثق العباسى فى سعة اطلاعه وغزارة أدبه، وكان شعره — كما وصفه المراكشي^(٢) «كأنه الحلال المنشرة»، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس.

تغلب المعتضد على قرطبة سنة ٤٧١ هـ من بنى جهور (بفتح الجيم والواو وسكون الهاء). وكان المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة قد استولى عليها، فاستنجد عبد الملك ابن جهور بالمعتضد بن عباد الذى استولى على قرطبة فأصبحت تابعة لإشبيلية، ولكن أهلها ثاروا على الظاهر بن المعتضد وقتلوه لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم لبني أمية، غير أن المعتضد بن عباد قضى على هذه الفتنة وولى ابنه الآخر المأمون أمور قرطبة، فظل بها إلى أن قتله المرابطون.

وقد وجد المعتضد بن عباد أمير إشبيلية فى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين فى المغرب الرجل الذى يستطيع أن يعتمد عليه فى الصمود أمام أعدائه المسيحيين، وفى سنة ٤٧٩ هـ عبر المعتضد البحر قاصداً مدينة مراكش حاضرة الدولة المرابطية مستنجداً بأمر المسلمين يوسف بن تاشفين^(٣)، وكان إذ ذاك بمدينة سبتة، وطلب إليه الحضور لنجدة المسلمين والجهاد ضد المسيحيين فى الأندلس، فلبى ابن تاشفين نداء المعتضد وقال له: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد

(١) المعجب ص ٩٥.

(٢) المعجب ص ١٠١ — ١٠٢، ١٠٣.

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٠.

إلا أنا بنفسى» وأقبل من بقي من جند ابن تاشفين في مدينة مراکش حتى تكامل عددهم ، ثم عبر البحر من سبتة في أسطول يتألف من مائة سفينة تحمل سبعة آلاف فارس وهدداً كبيراً من الرجال ميمها شطر مدينة الجزيرة الخضراء ، وتلقاه المعتمد بن عباد في وجوه أهل دولته ، وقدم إليه الهدايا والتحف .

ثم اتجه ابن تاشفين نحو شرق الأندلس وطلب إليه المعتمد أن يدخل لإشبيلية حاضرة ملكه ليستريح فيها أياماً من وعثاء السفر ومشقة الطريق قبل أن يلتقي بعدوه ، فأبى ابن تاشفين وقال : « إنما جئت ناوياً جهاد العدو ، فحيثما كان العدو توجهت وجهه . . . هلم (إلى) ما جئنا له من الجهاد . وقصد حصن ألفونس السادس ملك قشتالة^(١) ، وقد بلغ جيش يوسف بن تاشفين زهاء عشرين ألفاً ، عدا المتطوعين من المسلمين الذين جاءوا من سائر بلاد الأندلس ، وجمع ألفونس من أقاصي مملكته جيشاً جراراً كامل العدة والسلاح والخيول^(٢) ، وفي سهل الزلافة على مقربة من بطليوس وقف جيش المعتمد في المقدمة وعسكر جيش ابن تاشفين خلف أكمة عالية من الجبل .

ويصف لنا عبد الواحد المراكشي ما ابتكره ألفونس السادس من ضروب الحيل والخداع لمنازلة المسلمين وإلحاق الهزيمة بهم ، واختلقت الرسل بين الفريقين المتحاربين في تحديد يوم القتال ، وبعث قائد المسيحيين يقول للمسلمين : « الجمعة لكم والسبت لليهود وهم وزرأونا ، وكتابنا وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم ، والأحد لنا ، فإذا كان ما نريده من الزحف » . ثم جاء يوم الجمعة وخرج يوسف بن تاشفين للصلاة ، وأوجس المعتمد بن عباد خيفة من ناحية المسيحيين وظل في جنده شاكي السلاح ، وحمل المسيحيون على المسلمين ، ففاجأهم جند المعتمد وحمل المرابطون السلاح واستولوا على ظهور خيامهم ، واختلط الفريقان ، وأظهر المرابطون من ضروب البسالة ما كفل لهم النصر ، وأخذ المسلمون يطاردون أعداءهم ويقتلونهم في كل مكان ، حتى قيل أنهم أفنواهم عن آخرهم ، وذلك في منتصف شهر رجب (وقيل في أوائل رمضان) سنة ٤٧٩ هـ ، واستولى المسلمون على ما كان معهم من مال وسلاح ودواب وغيرها ، وقد أثر بها يوسف بن تاشفين ملوك الأندلس ، فأجبهوه .

(١) المراكشي : المعجب ص ١٣٠ — ١٣٢ .

(٢) ذكر ابن الأثير : (الكامل ج ١٠ ص ٥٧) أن جيش ألفونس كان يتألف من خمسين

ألف مقاتل .

وهكذا لبي يوسف بن تاشفين نداء الجهاد وأحرز هذا النصر المؤزر في موقعة الزلاقة التي تعد من المواقع الحاسمة في التاريخ ، ضمن الإسلام قوته وعزته في بلاد الأندلس أربعة قرون أخرى .

كان انتصار المسلمين في الزلاقة فائحة يمن وبركة ، ولا غرو فقد أثار هذا النصر إعجاب المسلمين بيوسف بن تاشفين ولهجت الألسنة بإطرانه والثناء عليه ودعوا له على منابرهم ، وقد عبّر يوسف عن رغبته في زيارة الأندلس ومشاهدة معالمها ، وكان في خلال زيارته يظهر إعجابه بمواهب المعتمد العبادي ويشيد بكرم ضيافته ، وكان يظهر الحنين إلى مرا كس حاضرة ملكه ويصغر من شأن الأندلس ، وهو — كما يقول المراكشي (١) — يُسرّ حسواً في ارتقاء (٢) .

وقد علق أشباح (٣) على هذه الموقعة فقال : إن يوسف بن تاشفين لو استطاع أن يستغل نتائج انتصاره في موقعة الزلاقة ، لسكنت أوروبا الآن تدين بالإسلام ، ولرأينا القرآن يدرس في جامعات موسكو وبرلين ولندن وباريس .

(٤) بعد موقعة الزلاقة

لقد أثارت هزيمة ألفونس السادس في موقعة الزلاقة التي جرح فيها وقتل معظم جنده عوامل الحقد والضعف على المعتمد بن عباد ، لأنه هو الذي دعا يوسف بن تاشفين إلى قتال نصارى الأندلس ، لذلك عول ألفونس على أخذ النار من المعتمد ، فأخذ يجمع النار الجند ويستعد لمهاجمة لشبيلية ، وركز غاراته على مملكة ابن عباد ، وأخذ يوجه ضرباته إلى حصن « لبيط » . فضايق ابن عباد بذلك ذراعاً وحاز البحر إلى بر المغرب والنقى بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين واستغاث به ، وقد عاد ابن عباد إلى بلاده وحاز

(١) المعجب ص ١٣٥ .

(٢) مثل يضرب لمن يريد أن يعينك وإنما يقصد النعم لنفسه : كمن يؤتي بوعاء من اللبن ويظهر أنه يريد الرغبة خاصة لا يريد غيرها ، وهو في أثناء ارتفائه يحسو اللبن جرعة جرعة .

(٣) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ١١٧ . أنظر أيضاً عبد الله كنون : المدخل ص ٤٨ . المراكشي : المعجب ص ١٧٨ . ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٦٣ السلاوي الاستقصا ج ٢ ص ٤١ .

ابن تاشفين البحر إلى الجزيرة الخضراء حيث تلقاه ابن عباد ، وقد رأى ابن تاشفين أن يوحد جهود المسلمين في جهاد النصارى ، فكتب إلى ملوك الأندلس يدعوهم إلى منازلة النصارى ، وطلب أن يكون اجتماع الجيوش المشتركة في حصن لبيط^(١) .

ولما وصلت جيوش يوسف بن تاشفين إلى هذا الحصن ساء عدم استجابة أمراء الأندلس إلى دعوته ، إذ لم يستجب لها سوى ابن عبد العزيز صاحب مرسية والمعتمد ابن عباد ، ولكن ذلك لم يثبط من عزيمة أمير المسلمين ، إذ ضيق على هذا الحصن وأخذ يشن الغارات على بلاد النصارى ، على أن قيام النزاع بين المعتمد بن عباد وابن عبد العزيز الذي قبض عليه بأمر يوسف بن تاشفين ، قد أضعف جند المسلمين ، واضطر أمير المسلمين أن يولى وجهه شطر ليورفه فغر المرية ، حيث جاز منه البحر إلى عدوة المغرب ، « وقد تغير (ابن تاشفين) على أمراء الأندلس لكونه لم يأتهم أحد إلى نزول حصن « لبيط » . وبذلك خلا الجو لآلفونس السادس ، فنزل على الحصن وأطلق من بقي به من النصارى ، ثم يم شطر طليطلة ، واسترد المعتمد بن عباد هذا الحصن .

وقد أقام يوسف بن تاشفين ببلاد المغرب إلى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، حيث جاز البحر إلى الأندلس للمرة الثالثة للجهاد في سبيل الله والاستيلاء على الأندلس من أمراء المسلمين . وقد سار يوسف حتى بلغ طليطلة وحاصر ألفونس بها وقطع ثمارها وضرب أحوازها (أحياءها) وقتل وسبي كثيراً من أهلها ، ولم يأت لمساعدة يوسف أحد من أمراء الأندلس الأمر الذي أثار حنقه عليهم ، فلما رجع من غزو طليطلة سار نحو غرناطة ، فنزل صاحبها عبد الله بن بلسكين بن باديس لأنه صالح ألفونس السادس وظاهره عليه . فلما اشتد الحصار على غرناطة لم يجد صاحبها بداً من طلب الأمان ، فأمنه يوسف بن تاشفين على أن يسلم إليه بلاده ، ثم حمل عبد الله بن بلسكين وأخوه تميم صاحب مالقة إلى مراكش^(٢) .

جاز يوسف بن تاشفين البحر إلى المغرب في شهر رمضان سنة ٤٨٣ هـ ، وأتاب عنه الأمير سيرى بن أبي بكر اللمتوني في حكم هذه البلاد ، وأمره أن يتبع آثار ألفونس السادس صاحب طليطلة ، وأن يخضع الإمارات الإسلامية لحكم المرابطين ويلحق

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٦٦ — ٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٧ — ٦٩ .

أمرها بالمغرب ، كما أمره أن يقاتل من يخالف هذه الرغبة ، وألا يتعرض للمعتمد ابن عباد حتى يستولى على سائر الإمارات ويولى عليها أمراء جنده .

وقد استولى سيري على جَيَّان في أوائل سنة ٤٨٤ هـ ، ثم سار نحو قرطبة ، فاستولى عليها من صاحبها المأمون بن المعتمد (صفر سنة ٤٨٤ هـ) ، ثم يم شطر قرمونة فدخلها عنوة (ربيع الأول سنة ٤٨٤ هـ) ، فلم يجد المعتمد بن عباد بدأ من الاستنجد باللفونس السادس الذي أمده بعشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل ، فوجه الأمير سيري إليه جيشاً ، والتقى الجمعان على مقربة من حصن المدور وانتصر عليه . ولم يزل الأمير سيري يضيق الخناق على المعتمد حتى سقطت إشبيلية (٢٢ رجب سنة ٤٨٤ هـ) ، وأرغم على طلب الأمان في نفسه وولده وأهله ، فبعث بهم سيري إلى أمير المؤمنين ، فأزلمهم أغصان القرية من مراکش . وفي شهر شوال من هذه السنة دخل المرابطون بقيادة يوسف بن داود بن عائشة مدينة مرسية وأعمالها . ثم دخل المرية فهرب صاحبها معز الدولة بن ضُمَاح بَحراً إلى إفريقية بأمواله وعياله . وفي سنة ٤٨٥ هـ أمر يوسف بن تاشفين قائده ابن عائشة بالمسير إلى دانية فاستولى عليها ، كما استولى على شاطبة من صاحبها ابن منقذ ، ثم سار ابن عائشة إلى بلنسية فاستولى عليها من القادر ابن ذى النون ، وكان يخضع لالْفونس السادس ويدفع إليه الجزية ، « فلك يوسف مملكة خمسة أمراء في سنة ونصف . وهم : ابن عباد ، وابن حبوس (غرناطة) وابن الاحوص ، وابن عبد العزيز ، وعبد الله بن بكر (جَيَّان) »^(١) .

كان يوسف بن تاشفين حسن السيرة خيراً عادلاً يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم ويصدر عن رأيهم ، ويسند إليهم مناصب الدولة ، وقد قيل إن حجة الإسلام الغزالي لما سمع ما انصف به يوسف بن تاشفين من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه ، فوصل إلى الإسكندرية وأخذ في الاستعداد للرحيل ، ولكنه علم بنبأ وفاته فعدل عن رأيه ، وكان يوسف بن تاشفين معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين ، وكان يحب العفو ويصفح عن الذنوب ، ويستمع إلى المواعظة في خشوع ، وقد حكم الدولة المرابطية حتى مات لثلاث بقين من شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٦٩ — ٧٧ . المقرئ : نفع الطبيب ج ٦ ص ١٠٤ — ١١٠ .

وقد بلغ يوسف التسعين سنة ملك منها المغرب والاندلس مدة خمسين سنة ، وقد أجمع المؤرخون على أن عهد يوسف بن تاشفين كان عصر المرابطين الذهبي ، فقد أخذت الدولة المرابطية في الضعف بعد موته ، وخلفه أمراء كانوا أقل منه حنكة وأضف قوة ، وصادفتهم ظروف سيئة في الداخل والخارج عجلت بسقوط دولتهم ولا سيما بعد ظهور الدعوة الموحدية على يد المهدي محمد بن تومرت .

(٥) على بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ — ٥٣٧ / ١١٠٦ — ١١٤٣ .

عرفت الملكية في المغرب لأول مرة في الاسلام بعد قيام دولة الادارسة الذين أخذوا نظرية الإمامة عن أسلافهم العلويين الذين اقتبسوا نظرية الحق الملكي التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد الساسانيين ، أضف إلى ذلك اعتقادهم بأحقيتهم بالخلافة بعد الرسول . وقد رحبت قبيلة أوربة (بفتح الألف والراء والباء وسكون الواو) بإدريس الأول وسلمت إليه مقاليد الحكم وساعدته على ضم جزء كبير من المغرب ، في الوقت الذي استولى بنو مدرار على زمام الحكم في سجلماسة ، واحتل البرغواطيون سهول المحيط الأطلسي ، واحتل بوصالح مدينة نكور (بفتح النون) في الشمال . وقد ساعد البربر الادارسة على إقامة حكم وراثي في المغرب لأنهم من بيت الرسول الكريم ، ولما كان من اضطهاد العباسيين لهم ، ثم أشددة تمسكهم بالإسلام ، واستمرت الحال على ذلك حتى انقضى عهد الادارسة سنة ٣٧٥ هـ .

وكان المرابطون أول من أسس ملكية وراثية من أبناء المغرب أنفسهم ، وكانت دولتهم أول دولة وحدت المغربين الأقصى والأوسط ، وقامت بدور خطير في نشر الإسلام في المغرب والسنغال . وقد جمعوا بين الجهاد والثقافة الإسلامية معاً ، وقضوا على بدع البرغواطيين ، وفلوا شوكة الزناتيين المتنازعين المتسافرين ، وأنقذوا بلاد الاندلس من الضياع .

وقد أدرك يوسف بن تاشفين كل هذه الأمور حين فكر في أخذ البيعة لابنه علي ، إذ كان يخشى أن يعود الأمر فوضى من بعده ، وأن تنقسم عرى هذه الوحدة وتنتهي هذه الرسالة التي عمل جاهداً على تبليغها زهاء نصف قرن ، لذلك رأى يوسف بن تاشفين أن يستخلف من ينوب عنه في مباشرة هذه التبعات الخطيرة . ولو أنه ترك الأمر شورى للمرابطين ليختاروا من بعده من أحبوا ، لأصبح من العسير أن يجتمع الناس على شخص معين ، لأنه لم يكن ثمة نظام مستقر للاختيار في وقت أصبحت بلاد الاندلس مهددة

بغارات نصارى الشمال ، لذلك فكر يوسف فى البيعة لابنه ، إذ أنه رأى أن هذا الأمر يدخل فى نطاق سلطته ، كما يتبين ذلك من عهده له الذى جاء فيه .

» فلأنه (يعنى يوسف بن تاشفين) بما لزمه من هذه الوظيفة وخصه الله بها من النظر فى هذه الأمور الدينية الشريفة ، فقد أعز الله رماحه ، وأخذ سلاحه ، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالى واهتزازاً وأكرمها سعيه وأنفسها اعتزازاً^(١) .

وقد تمت هذه البيعة بمدينة قرطبة سنة ٤٩٦ هـ ، فبايعه جميع أمراء لمتونة وفقهاؤها وأشياخها . وكان على بسطة التى ولد فيها^(٢) . ولم يكن على بن يوسف أكبر إخوته . وكان يوسف بن تاشفين يخشى معارضة المصامدة حين أوصى ابنه علياً قبل وفاته بوصايا ثلاث تملخص فيما يلى :

(١) ألا ينال سكان الأطلس ومن وراءه من المصامدة بسوء .

(٢) أن يهادن بنى هود أمراء سرقسطة من ملوك الطوائف التى أسسها سليمان بن محمد ابن هود بن الجذامى أحد قادة الثغر الأعلى^(٣) .

(٣) أن يحسن إلى أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئتهم . وقد اشتهروا بثوراتهم على الدول التى تعاقبت على حكم الأندلس ، لأن عدداً كبيراً من أهلها كانوا من المولدين والفقهاء الذين تزعموا هذه الثورات^(٤) .

(١) الحلال الموشية ص ٦٤ .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٧٧ .

(٣) استولى سليمان بن هود على لاردة سنة ٤٣١ هـ . ولقب نفسه المستعين ، وضم سرقسطة التى بقيت فى أيدي أولاده إلى أن سقطت فى يد أحد أبناء رودمير سنة ٥١٢ هـ . وتقرّب عبد الملك بن هود إلى النصارى سنة ٥٠٣ هـ . وقد خرج عبد الله بن فاطمة قائد المرابطين فى الأندلس على على بن يوسف ابن تاشفين وحاول الاستيلاء على سرقسطة . ولكن الهزيمة حلت بجيشه أمام جيش ابن رودمير الذى استنجد به عبد الملك بن هود .

(٤) وقد أدت هذه الفتن إلى طرد الثوار ، فليجأ بعض إلى طليطلة وقصد آخر المغرب والإسكندرية . ثم ثارت قرطبة على المرابطين بزعماء القاضى ابن حدين سنة ٥٣٩ هـ ، وطرده أهلها واستنجدوا ببجي ابن غانية آخر ولاة المرابطين . وقد قيل إن يوسف بن تاشفين أوصى ابنه علياً بأن يحسن إلى أهل قرطبة لأنها كانت مركزاً علمياً .

ولد أبو الحسن علي بن يوسف بن ناشفين بمدينة سبته سنة ٤٧٧ هـ وأنشأ في بيت أبيه كما ينشأ أبناء الأشراف . وكان أبو الطاهر تميم أول من بايع أخاه علياً على الرغم من أنه أكبر منه سناً ونادى في المرابطين : « قوموا فبايعوا أمير المسلمين »^(١) ، فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة والفقهاء وشيوخ القبائل . ولم يتخلف عن بيعة علي إلا ابن أخيه يحيى بن أخيه الأكبر أبي بكر . وكان يلي مدينة فاس . وله مواقف مشهورة في أيام جده يوسف بن ناشفين ، كما كان أبو بكر نائباً عن أبيه يوسف قبل انتصاره في موقعة الزلاقة المشهورة في الأندلس . لذلك تطلع يحيى بن أبي بكر إلى الحكم بعد جده يوسف لأنه ابن الأخ الأكبر من أبناء يوسف ، وامتنع عن مبايعة عمه علي الذي سار إلى مدينة فاس لتأديب ابن أخيه وإدخاله في طاعته . ولكن يحيى قد فر أمام جيوش عمه الذي استولى على فاس ، وتمت له بذلك البيعة في جميع أنحاء الدولة المرابطية التي امتد نفوذها على المغرب والجزائر والأندلس ، وتلقب بلقب أمير المسلمين . كما كان أبوه من قبل . وسار على نهج أبيه في الجهاد في سبيل الله وحماية البلاد من خطر النصارى . وكان علي بن يوسف يكره الظلم ويعمل إلى حياة الزهد والتقشف ويعظم الفقهاء ويعزهم إليه ولا يقطع أمراً دون الرجوع إلى رأيهم^(٢) .

وقد وضع علي بن يوسف نصب عينيه القضاء على مقاومة النصارى بزعامة ألفونس السادس صاحب طليطلة الذي اشتد طمعه وأخذ يشن الغارات على أطراف الولايات الإسلامية في الأندلس بعد موت يوسف بن ناشفين بطل الزلاقة . كذلك عمل علي بن يوسف على القضاء على الدعوة الموحدية التي قام بها المهدي بن تومرت في مستهل سنة ٥١٥ هـ ، وأخذ يهدد الدولة المرابطية ويعمل على زوالها . لذلك لم يكن بد من أن يعمل علي بن يوسف على القضاء على هذين الخطرين في وقت واحد .

فأما نصارى الأندلس فقد ولي علي بن يوسف أخاه « تميم بن يوسف » غرناطة ، وأسند إليه قيادة الجيش المرابطي في الأندلس . وقد استطاع تميم أن يحل الهزيمة بالنصارى في موقعة « إقليش » التي تعد من أكبر المعارك التي دارت بعد موقعة الزلاقة بين المرابطين والنصارى . ففي سنة ٥٠٢ هـ حاصر تميم حصن إقليش ، فاستجدت حاميته بألفونس السادس وكان مريضاً ، فأشارت عليه زوجته بأن يرسل ابنه علي رأس جيش كبير يفوق جيش

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٧١ .

المسلمين عدداً وعدة . وانتهت هذه المعركة بهزيمة النصارى هزيمة منكرة وقتل ابن ألفونس السادس ومعظم من كان معه من الأمراء ونحو عشرة آلاف من زهرة جنده^(١) . ولما انصل نبأ هذا الانتصار بعلى بن يوسف امتلاً حماساً وقرر أن يجتاز البحر إلى الأندلس لاستئصال شأفة النصارى فيها .

وفي السنة التالية (٥٠٣ / ١١٠٨) جاز على بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للجهاد في مائة ألف جندي . وبعد أن قضى شهراً بقرطبة خرج إلى مدينة « طلايوت » ففتحها عنوة ، كما فتح سبعة وعشرين حصناً من أعمال طليطلة ، من بينها حصن مجريط (وهي مدريد الحالية) ووادي الحجارة ، ثم يم شطر طليطلة حاضرة أسبانيا النصرانية إذ ذاك ، وحاصرها شهراً ، ثم سار نحو قرطبة .

وفي سنة ٥٠٤ هـ فتح المرابطون شريش وبطليوس والبرتغال ويابرة وأشبونة (لشبونة) . وقد ذكر ابن الأثير أن علياً بن يوسف هزم الفرنجة هزيمة منكرة وأسر عدداً كبيراً منهم وغنم غنائم لا تحصى^(٢) . ولكن النصارى استطاعوا في سنة ٥١٣ هـ أن يستولوا على مدينة سرقسطة ، كما استولوا على قلعة أيوب شرقي بلاد الأندلس ، وكانت تعد من أمنع قلاع الأندلس . وكانت هذه الهزائم من بوادر ضعف الحكم المرابطي في هذه البلاد .

وفي سنة ٥١٣ هـ (وقيل سنة ٥١٤ هـ) قامت فتنة عظيمة بين أهل قرطبة وجند المرابطين . ويرجع ذلك إلى تعدى أحد عبيد الوالي المرابطي على امرأة ، فاستغاثت بالمسلمين وقامت الحرب بين العبيد وأهل قرطبة . ويذكر ابن الأثير أن الفقهاء طلبوا من الوالي أن يأمر بقتل أحد العبيد الذين أثاروا هذه الفتنة ليسكون ذلك رادعاً لمن تحدته نفسه بأن يعث بالتقاليد الإسلامية . ولكن الوالي لم يستمع إلى طلبهم ، وقامت الحرب بين أهل قرطبة وجند المرابطين ، وحاصر الأهالي دار الوالي ونهبوه وأحرقوا دور المرابطين ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من بلدهم ، واضطر الوالي إلى الهرب . ولما انصل ذلك بمسامع أمير المسلمين على بن يوسف أنكر ذلك وجمع الجند من صنهاجة وزناتة وسائر البربر وغيرهم ، وعبر البحر إلى الأندلس سنة ٥١٥ هـ ، وحاصر قرطبة ، فقاتله أهلها لحماية حرمهم وأموالهم وتدخل الوسطاء في الصلح فعدل على عن قتالهم^(٣) .

(١) الحلال الموشية ص ٦٤ .

(٢) السكامل ١٠ ص ١٨٥ .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢١١ .

(٦) نهاية الدولة المرابطية :

وفي سنة ٥١٦ هـ بدأ ابن تومرت يناوئ سلطان المرابطين الأمر الذي أضعف قوتهم في الأندلس ، ووقعت بين الفريقين معركة البحيرة . وكان جيش الموحدين بقيادة محمد البشير الونشريشي الذي قتل في هذه المعركة . وفقد ابن تومرت أكثر أصحابه العشرة وآلافاً من زهرة جنده ، واشتد به المرض فمات في سنة ٥٢٤ هـ^(١) .

خلف ابن تومرت عبد المؤمن بن علي ، وكان سياسياً محنكاً وقائداً ماهراً . استطاع أن يعيد إلى الموحدين قوتهم ويرد إليهم هيبتهم ، فاستولى على كثير من بلاد السوس في حياة علي بن يوسف بن تاشفين . ولما مات علي بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، ولي من بعده ابنه تاشفين . وقد استخلف علي مراكش ابنه إبراهيم ؛ وأخذ يحارب عبد المؤمن ويتعقبه في كل مكان يحل به رغبة في القضاء على قوة الموحدين التي أخذت تنمو وتشتد . وقد سار تاشفين إلى مدينة تلمسان فدخلها ؛ ثم أتى عبد المؤمن بن علي ؛ فخرج تاشفين إلى قتاله ، واتخذ الجيش المرابطي مواقعه في السهل وربض الجيش الموحدى في الجبال المحاذية له . وكان تاشفين قد فر إلى مدينة وهران (في الجزائر الآن) ليتخذها حاضرة لدولته فخاصره الموحدون .

ولما اشتد الحصار على تاشفين وتكاثر عليه الخيل والرجال ، صعد تاشفين إلى ربوة تشرف على البحر في ظاهر مدينة وهران ، وفي أعلاها رباط يأوى إليه المتعبدون ، وعلم أبو حفص بن عمر بن يحيى صاحب المهدي بن تومرت بانفراد تاشفين في ذلك الرباط ، فقصده الموحدون وأحاطوا به وأحرقوا باب الرباط ، فخرج تاشفين راكباً فرسه فأسرع الفرس لينتجو من النار طالباً النجاة ، فصادفته صخرة هوى تاشفين من فوقها بفرسه ، فقتل وقتل من كان معه من خاصته ، واحتز الموحدون رأسه وحملوها إلى تينمل (مركز الدعوة الموحدية) . وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ — ١١٤٥ م)^(٢) ، فولى المرابطون بعده أخاه إسحاق بن علي بن يوسف .

(١) الحلل الموشية .

(٢) القرى : نفح الطيب ج ٦ ص ١١١ .

الباب الرابع

غزوات المغول — سقوط بغداد

(١) معنى تتر ومغول :

تختلف كلمة تتر بالمعنى العام باختلاف المصور . فقد أطلق هذا اللفظ على جماعتين من قبائل التتر ورد ذكرهما في نقوش الأرخون (بضم الألف مع الهمزة وضم الخاء) التركية التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، كما أطلق هذا الاسم على المغول عامة أو على فريق منهم خاصة .

وفي جميع الفتوحات المغولية التي وقعت في القرن السابع الهجري كان الفاتحون يسمون التتر في كل مكان نزولوا فيه ، سواء أكان في الصين أم في البلاد الإسلامية أم في بلاد روسيا وغربي أوروبا . ويسمى ابن الأثير أسلاف جنكيزخان باسم التتر ، وهم التتر الأوائل ، وكانوا يعرفون عند قدماء اليونان باسم سكيثيا Scythia أو سكوتيا .

ولم يظهر اسم المغول على صفحات التاريخ حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . ومن المرجح أنه أطلق على تلك العشائر التي انضوت تحت لواء زعيم قبائلهم كان يحمل ذلك الاسم . ثم بسط ذلك الزعيم سلطانه على سائر العشائر المتحالفة ؛ ومن ثم أطلق عليهم اسم المغول من باب إطلاق اسم البعض على الكل (١) .

وقد نزحت طائفة حربية من هؤلاء المغول إلى بعض بلاد آسيا الصغرى ؛ وكان أعقابهم (الذين صاروا أنراكا بلاشك) يسمون بالتتر السود (قَرَاتَر) . وقد طاشوا عيشة بدوية وقت حملات تيمورلنك على البلاد الريفية الواقعة بين أماسيا وقيصرية ، وكانوا نحو ثلاثين أو أربعين ألف أسرة . وقد نفاهم تيمورلنك إلى أواسط آسيا ، فأنزلهم بآيزيد الثاني العثماني بعض الأماكن في بلاد كاشغر وخوارزم ، ثم عاد هؤلاء التتر السود بعد

وفاة تيمورلنك إلى آسيا الصغرى واستقروا بها من جديد . كذلك نرى في روسيا وشرقي أوروبا اسم تتر يطلق غالباً على جميع الشعوب التركية ماعدا العثمانيين .

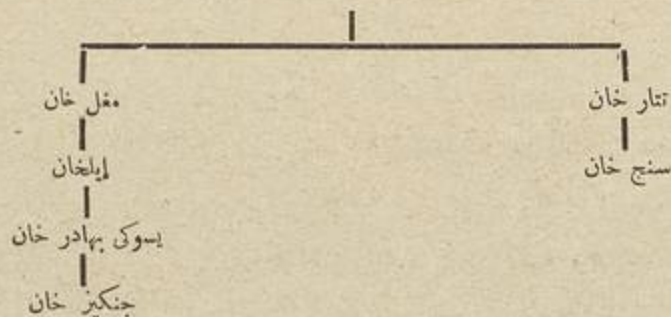
ويرى بعض مؤرخي المسلمين أن التتر شعب كبير من الامة التركية ، ومنه تفرعت معظم بطونها وأنحازها ، وهو مرادف للترك عند الفرنجة ، حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تترأ ، ومنهم العثمانيون والتركمان . وقد أطلق لفظ تتر من باب التوسع فشمّل جميع المغول ، وبخاصة المنكوس Manchus كما كانت الحال في بلاد الصين .

وأما كلمة تتر بالمعنى الخاص فإنها لا تطلق إلا على شعب بعينه وهم سكان حوض نهر الفلجا الذين يعيشون في تلك البقعة من الأرض التي تمتد من بلاد قازان إلى أستراخان ، وكذلك على سكان شبه جزيرة القرم ، وجزء من سيبيريا ، ويتكلمون اللغة التركية القديمة . وقد استبدلت كلمة تتر بعد جنكيزخان في بلاد منغوليا وأواسط آسيا بكلمة مغل (بضم الميم والغين) ، ولا يزال هذا اللقب مستعملاً إلى اليوم في بلاد الأفغان بين أعقاب المغول الذين لا يزالون يحتفظون بلغتهم حتى الآن .

وقد أدخل جنكيزخان تلك التسمية رسمياً في بلاده ، على أن كلمة Mongol لم تسد قط في معظم البقاع الغربية .

ويقول مؤرخو الترك ونسابوهم إن النجاخان (بفتح الالف مع الهمة واللام وسكون النون) أحد ملوك التتر في الأزمنة الغابرة ولد له نوأمان هما « تئارخان » و « مُغل خان » كما هو الحال في ربيعة ومضر عند العرب . وقد استمر أبناء تئارخان على صفاء إلى أن وقع النزاع بينهما في عهد « إيلخان » ملك المغل و « سُنج خان » ملك التتار ، وأدى هذا النزاع إلى حروب انتهت بانتصار التتار وقتل إيلخان ملك المغل . ومن ثم أصبحت السيادة للتتار ، فاستذلوا المغول مدة طويلة حتى جمع هؤلاء جموعهم واتحدوا وحاربوا التتار وفلوا شوكتهم واستردوا ماضع من حريتهم ؛ فعادت بذلك سيادتهم ، وأصبح الملك متوارثاً فيهم إلى زمن « يسوكي بهادرخان » والد جنكيزخان .

النجبا خان



وسواء أصح التفسير الأول أم التفسير الثاني فإن هناك قرابة ملحوظة بين المغول والتتار الذين اندمج بعضهم في بعض على مر العصور ، حتى إنه ليبدو عدم استطاعة المؤرخين والجغرافيين التمييز بين هذين الشعبين .

(٢) مآلة المغول قبل ظهور جنكيزخان

ظهر المغول في عالم التاريخ حول نهاية القرن الثاني عشر الميلادي من وراء ذلك الغموض الذي كان يكتنف تاريخهم قبل ذلك الوقت . . ويبدأ تاريخهم بالفتاح العظيم چنگيزخان الذي نقل لنا مؤرخو حياته أقوالاً مختلفة عن أسلافه . وإن سلسلة نسبه مسألة يحوطها الشك كما هي الحال عند غيره من الملوك والأمراء الذين ظهرت عظمهم مرة واحدة . وليست هناك مصادر تاريخية نستطيع أن نقف منها على أصل المغول ، اللهم إلا ذلك القصة الذي هو بالأساطير أشبه . وكل ما نستطيع أن نذكره عن تاريخ المغول الأول أنهم ظهوروا في الجهات الشمالية من بلاد الصين في الأراضي التي نبتت فيها أصول قبائل الهون والترك الذين كانت صلة النسب بينهم واضحة جليلة .

وكانوا قبائل من البدو الرحل تطوف في ذلك الصقع الواقع شمالي صحراء جوبي كما تقدم . وكان المغول في القرن الثاني عشر الميلادي إحدى القبائل الخاضعة لسلطان « كين » الذي فتح الشمال الشرقي من بلاد الصين . وهم من قبائل الفرسان الرحالة الذين يعيشون في الخيام ، غذاؤهم الرئيسي لحوم الخيل ومنتجات ألبانها ، كما كانوا يحترفون رعى الأغنام والصيد في وقت السلم ، وحمل السلاح في زمن الحرب ، كما هو الشأن في حياة الأمم البادية . وكانوا ينزحون إلى الجهات الشمالية ابتغاء مراعى الصيف إذا ما ذابت الثلوج ، وينزحون إلى الجنوب سعيًا وراء مراعى الشتاء كما هي عادة الرحل من

سكان السهول الفسيحة ، وكانوا يسمون وراء الرّيح من تبادل الجلود والدواب مع أقربائهم الخطا Khitāns أو مع الترك والصينيين .

وقد احتفظ المغول بديانتهم وعاداتهم الأولى التي هي من أهم مميزاتهم البارزة ؛ فقد كانت حياتهم رعوية ونظامهم قبلياً ، مع طاعة لرؤسائهم وحب للحرب والسلب والنهب ، وكانت ديانتهم عبادة الكواكب يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئاً ، فكانوا يأكلون جميع الدواب حتى السكّلاب والخنزير ، وكانوا إباحيين لا يعرف الولد منهم أباه وكانت الشامانية Shamanism الديانة القديمة للمغول الذين كانوا ، برغم اعترافهم بأله عظيم قادر لا يؤدون له الصلاة ، ولا يلقون إليه بالمودة ، يعبدون عدداً من الآلهة المنحطة ، وبخاصة تلك الحيوانات الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم ، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم وكان المغول يلجئون إلى القسيسين ، وهم الشامان والسحرة ، أو إلى رجال الحكمة الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على أرواح الموتى إذا ما أرادوا الفوز في الدنيا والآخرة ، على حد اعتقاد قدماء المصريين في كهنة المعابد . ولم تكن ديانة المغول معدودة ضمن تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم جهود الأديان الكثيرة الاتباع والانصار ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل وذات الهيئات المنظمة للمعتنقين الدينيين^(١) ، تلك التي كانت تحيط بالمغول من اليهودية والمسيحية والإسلام ، ولنتناول الآن الكلام في إيجاز عن حالة بلاد الصين موطن المغول والبلاد الإسلامية قبل ظهور جنكيز خان في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بلغت أسرة تانج (بسكون النون) العظيمة أقصى غايات الانحلال والضعف وانقسمت بلاد الصين إلى عشر دويلات متفرقة متعادية ، ثم قامت أسرة جديدة حكمت هذه البلاد هي أسرة سونغ (بضم السين وسكون النون والجيم) التي وحدت هذه الولايات نوعاً ما تحت سلطانتها ، واستمرت في الحكم من سنة ٩٦٠ إلى سنة ١١٢٧ م برغم ما كان يكتنف عهدها من كفافح مستمر مع أمم الهون الشمالية التي كانت تغير على الساحل الشرقي لتلك البلاد .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٢٣٥ .

وفي ذلك الوقت ظهر أحد أهل بلاد الخطا الذي آلت إليه السيادة رداً من الزمن ، ثم انتهى الأمر بإخضاعهم ، وتحولت السلطة في الشمال إلى إمبراطورية أخرى من الهون هي إمبراطورية « كين » التي اتخذت « بكين » حاضرة لها ؛ ومن ثم انكمشت أسرة سنج نحو الجنوب وعرفت بين سنتي ١١٢٧ و ١٢٩٥ م باسم مملكة سنج الجنوبية . وفي الشرق أيضاً كان جل الطوائف الآسيوية تحت إمرة حكام مختلفي الجنسيات والأهواء ، وأصبحت تلك الطوائف تتطلع إلى فاتح جديد يلم شملها ويوحد كلمتها .

وفي مستهل القرن السابع الهجري كانت أرجاء الهند الشمالية التي كانت في بادئ الأمر جزءاً من إمبراطورية خوارزم من البلاد التي امتدت إليها تلك الغارات . فقد فتحها في سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) شخص يدعى قطب الدين ، آلت إليه الولاية على بلاد الهند بعد أن كان عبداً رقيقاً ، وأقام ولاية إسلامية منفصلة في دلهي . وقضت البرهمية على الديانة البوذية في بلاد الهند منذ زمن بعيد ، ولم يكن المسلمون في ذلك الوقت إلا أقلية في هذه البلاد .

٣ — مآل البلاد الإسلامية في أوائل القرن السابع الهجري :

هكذا كانت الحال في شرقي آسيا في البلاد التي نبئت فيها أصول المغول .

أما في البلاد الإسلامية ، ففي أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) كانت الدولة العباسية التي لا تزال قائمة في بغداد تشمل جزءاً من بلاد العراق يمتد من تكريت إلى الفاو ومن حلوان إلى عانة ، واقتصرت سلطة الخليفة في خارج رقعة بلاده الضيقة على المظهر الديني .

وكان العالم الإسلامي منقسماً إلى دويلات كثيرة انشغل حكامها بالتوسع كل على حساب الآخر ، ولم يدرك هؤلاء الحكام خطر الغزو المغولي إلا بعد أن أغارت جيوش المغول الجرارة على الدولة الخوارزمية . ثم لم تلبث هذه الغارات أن امتدت إلى بلاد الصين وتركستان وجزء من الهند وإيران وآسيا الصغرى وأوروبا الشرقية . ولم يفكر حكام المسلمين المتنازعون في إقامة حلف إسلامي يصد التيار المغولي الجارف قبل أن يستفحل خطره .

وفي بغداد نفسها قام النزاع بين القواد الذين طالبوا بزيادة أرزاقهم ، وتفاقت العداوة

والبغضاء بين الشيعة والسنة ، واشتد خطر فيضان نهر دجلة ، فاختل الأمن وتدهورت الحالة الاقتصادية ، حتى إن نصف أراضي العراق قد أصبح خراباً كما يقول رشيد الدين ^(١) اضف إلى ذلك إهمال نظام الري منذ بداية العصر العباسي الثاني (٨٢٣٢) حتى تحولت أجزاء كثيرة من جنوبي العراق إلى مستنقعات بعد أن كانت أراضيها عماد ثروة الدولة العباسية وازدهار حضارتها . كما قامت في الشرق إمبراطورية خوارزم العظيمة التي كانت في أول الأمر تحمي الخلافة العباسية من الشرق والشمال الشرقي بقوة جيوشها وضمخامة أموالها . على أن علاء الدين محمد خوارزم شاه طمع في الاستيلاء على بغداد وانتزع السلطة من الخليفة العباسي كما فعل بنو بويه والسلاجقة من قبله . ولكنه اضطر إلى التراجع بسبب هبوب عاصفة ثلجية عارمة . وبسبب تقدم المغول نحو بلاده وإحلالهم الهزيمة بجيوشه حتى إنه اضطر إلى الهرب إلى جهات بحر قزوين حيث مات في إحدى جزره (٦٢٠ هـ) . وبعد هذه الحرب الخاطفة أو الاستطلاعية بعبارة أدق عاد المغول إلى بلادهم . على أن جلال الدين منكبرتي الذي عاد من الهند (٦٢٢ هـ) بعد أن فر إليها أمام جيوش جنكركان ، بدلا من توجيه اهتمامه وأخذ الخطة لدرء خطر المغول ، نراه يجمع قلوب جيش أبيه علاء الدين خوارزم شاه محمد ، ويعيد سيطرته على العراقيين العرب والعجمي ويحارب أمراءهما ويخرب أرضهما وينهب أموالهما ^(٢) . بل يهدد بغداد نفسها ، حتى اضطر أمراء المسلمين إلى محاربته في السنة نفسها ، فزى الملك الأشرف بن الملك العادل الأيوبي يتفق مع كيفان بن كيخسرو صاحب سلطنة الروم على محاربة جلال الدين منكبرتي ويحلان به الهزيمة ، وفي سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠/١٢٣٣ م) أغار المغول على جلال الدين منكبرتي وهزموه هزيمة منكرة ، وفر إلى الجبال حيث قتل على يد أحد الأكراد كما تقدم ^(٣) هذا في المشرق الإسلامي . أما في الولايات الإسلامية الأخرى فقد كانت الجزيرة ومصر ومعظم بلاد الشام تحت سلطان خلفاء صلاح الدين الأيوبي . ولكن انقسام الدولة الأيوبية بعد وفاة الملك العادل أخى صلاح الدين سنة ٦١٥ هـ بين أولاده الذين انشغلوا بالمنازعات والحروب ، وتهديد الدويلات الصليبية التي كانت لا تزال قائمة في سوريا وفلسطين لسوريا ومصر ، كل ذلك حال دون إقامة حلف إسلامي يستطيع الوقوف في

(١) رشيد الدين : جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) أبو الفداء المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٤٣ وما يليها .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٥٣ .

وجه المغول . لذلك لم يكن سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) حدثاً مفاجئاً ، وإنما كان نتيجة حتمية لضعف العالم الإسلامى وإتاحة الفرصة للمغول لشن غاراتهم وغزو البلاد الإسلامية الذى بدأ فى سنة ٦١٧ هـ

٤ — جنسكيز خان :

(١) اليساق

لما مات يسوجاى سنة ١١٧٥ م آلت السلطة إلى ولده الصغير « تيموجين » (Tīmūjīn) ولم يكن قد ناهز الثالثة عشرة من عمره كما لم يكن قد تلقب بعد بذلك اللقب الرفيع وهو « جنسكيزخان » . ولقد صرف تيموجين السنين الأولى من عهده فى ترقية آلائه الحربية وضم المغول والقبائل المتصلة بهم فى جيش واحد منظم . قضى تيموجين ثلاثين سنة فى نزاع متصل مع أعدائه فى الداخل ، استطاع فيها أن يفرض سلطانه على قبيلته وعلى القبائل المجاورة لها ، ثم وجد الطريق ميسراً والظروف مواتية لىكى يحقق مطامعه فى توسيع رقعة امبراطوريته على حساب البلاد الإسلامية .

وفى سنة ١٢٠٦ م أقام تيموجين وليمة لرؤساء القبائل ، وأعلن الشامان أو القسيس الأعظم فى هذا الحفل العظيم الذى جمع أمراء البلاد ونبلها « أن السماء قد خلعت على تيموجين لقباً أرفع من اللقب الذى كان يلقب به أسلافه وأن اسمه قد أصبح من الآن « جنسكيزخان » أى الملك صاحب القدرة والبطش . وبذلك بدأ جنسكيزخان فى سن الثالثة والأربعين يحكم البلاد دون منازع^(١) .

ولما أمن جنسكيزخان شر أعدائه فكر فى ترقية حالة بلاده الاجتماعية والخلفية بوضع قانون يكون أشبه بكتاب دىي يسيرون على هديه فى معاملاتهم وأحكامهم ، فوضع لهم « اليساق » أو « الياسة » . وقد روى المقرئى^(٢) خلاصة هذا اليساق نقلاً عن أحمد ابن البرهان الذى اطلع على نسخة منه بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد . وكذلك ذكر القلقشندى^(٣) « أن السياسة كلفة مغولية أصلها « ياسة » ، خرفها أهل مصر وزادوا بأولها شيئاً فقالوا سياسة ، وأدخلوا عليها الألف واللام ؛ فظن من لا علم عنده أنها كلفة عربية وما الأمر فيها إلا ما قلت لك ، واسمع إذن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر

(١) Lane-Poole : Muh. Dynsties, pp. 203, 206.

(٢) خطط ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٣) صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١٠ .

والشام ، وذلك أن جنكيزخان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق لما غلب « أوتك خان » وصارت له دولة ، قرر قواعد وعقوبات أثبتتها في كتاب سماه « ياسة »^(١) ، ومن الناس من يسميه « يسق » ، والأصل في اسمه ياسة . وياسة كلمة تركية قديمة معناها القانون الاجتماعي^(٢) .

ومما شرعه جنكيزخان في هذا اليساق : « قتل الزاني ، ومن تعمد الكذب أو السحر أو تجسس على أحد ، أو دخل بين شخصين يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر . ومن بال في الماء أو على الرماد قتل ، ومن أعطى بضاعة تخسر فيها قتل بعد المرة الثالثة ، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذن قومه قتل . ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل » .

ومما شرعه جنكيزخان أيضاً أن تسكنف قوائم الحيوان ويمرس (أى يدلك قلبه) إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه « ومن ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح ، ومن وقع نوبه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حالة القتال وكان وراءه أحد وجب عليه أن ينزل ويناول صاحبه ماسقط منه فإن لم ينزل ولم يناوله إياه كان جزاءه القتل ، ومن أحكام اليساق الأساسية تعظيم الممل من غير تعصب لملة ما ، كما شرط ألا يكون على أحد من ولد على بن أبي طالب مؤنة ولا كلفه ، وألا يكون على أحد من الفقراء ولا الفقهاء والأطباء ومن عداهم من أرباب العلوم وأهل التقشف والزهد والتعبد والمؤذنين ومغسلي الاموات شيء من ذلك . وألزم الناس ألا يأكل أحد من طعام غيره حتى يأكل منه أولاً ولو كان أميراً ومن يناوله أسيراً ، وألا يفرد أحد بأكل شيء وغيره براه بل يجب أن يشركه في طعامه ، وألا يتميز أحد بالشبع على أصحابه ، وإن مر أحد بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منهم أن يمنعه الطعام ، وألزمهم ألا يدخل أحد يده في الماء بل يتناولوه بشيء ، ومنعهم من غسل ثيابهم حتى تبلى ، كما منعهم من أن يفرقوا بين الطاهر

(١) وقد قيل إنه لما تم وضع هذا الكتاب أمر جنكيزخان بكتابته نقشاً في صفائح الفولاذ وجعله شريعة لقومه فالترموه بعده .

(٢) ومن ألفاظ ياسة : سهياسة ومعناها القوانين الثلاثة (سه بالفارسية معناها ثلاثة ، وياسة بالتركية معناها القانون الاجتماعي ، وسهياق كلمة واحدة لمعنى واحد . وأوج (معناها ثلاثة) وياسة (معناها قانون) أى الثلاثة قوانين . ومما يؤكد أن كلمة سياسة ليست عربية الأصل عدم ذكرها في القرآن الكريم ولا في اللغة المنقولة عن الأعراب .

والنجس . وحرم تفخيم الألقاب ومنح الألقاب ، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه باسمه المجرد . كما ألزم جنكيز خان قواده بعرض العساكر والأسلحة إذا أرادوا الخروج للقتال ، وأن يعرض كل واحد مامعه حتى الإبرة والخيط ، فن وجد أنه قصر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه عوقب . وألزم نساء العسكر بالقيام بما على الرجال من الواجبات عند غيبتهم كلفة يقومون بها للسلطان . وألزمهم عند رأس كل سنة أن يعرضوا بناتهم الأبنكار على السلطان ليختار منهن من يشاء لنفسه أو لأولاده . واتخذ أمراء العسكر وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات .

ومما شرعه جنكيز خان في اليساق أنه إذا أذنب أحد الأمراء ولو كان كبيراً وبعث إليه رسولا لينزل به عقابه ، وجب عليه أن يسرع إلى تنفيذ طلب الرسول وهو خاضع ذليل حتى ينفذ فيه العقوبة التي أمر بها الملك ، ولو كانت العقوبة تقضى بإزهاق روحه . كما ألزم الأمراء ألا يترددوا على غير الملك ، ومن تردد منهم على غيره قتل . وأقام جنكيز خان البريد حتى يقف على أخبار بلاده أولا فأولا ، وعهد إلى ابنه جغتاي بالإشراف على تنفيذ ماجاء في اليساق ، ويقول المقرئ (١) في ذلك : « فلما مات جنكيز خان التزم من بعده من أولاده وأتباعهم حكم السياسة كالنظام أول المسلمين حكم القرآن وجعلوا ذلك ديناً لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه » .

ولا شك أن هذه الشريعة التي وضعها جنكيز خان قد ساعدت على تقدم المغول من النواحي العسكرية والاجتماعية ، كما حرمت التعرض للأديان والممل وحالت بذلك دون قيام الاختلافات الدينية أو المذهبية التي جرت على المسلمين كثيراً من المصائب والويلات . هذا إلى أن هذه الشريعة قد ساعدت على وجود جند قوى مزود بكامل العدد والعدة ، وقواد لا يعرفون غير طاعة السلطان وحب الوطن . وجعلت من النساء عنصراً يعتمد عليه في وقت الحاجة ، كما جعلت من المغول شعباً بصيراً بعواقب الأمور يربأ بنفسه عن عيوب المجتمع وشرويه ، نشأ على المبادئ الديمقراطية السليمة التي لا تنفى بالألقاب ولا تميز بين الناس مهما اختلفت طبقاتهم وتباينت صفاتهم .

أما عن تحريم اليساق التمييز بين النجاسة والطهارة ، فلعل من نتائجه عدم غسل الثياب إلى أن تبلى ، ولعله يرمى من وراء ذلك إلى تعويد شعبه التنظيف في المعيشة وتركه الترف الذي يجر إلى الضعف فيفسد الروح العسكرية ، وأما رفع المؤمن عن أولاد علي بن أبي طالب وتعظيمه لأهل الدين من المسلمين ، فلعل جنكيز خان كان متأثراً بالشيعيين الذين كانت بلاده

نحيط بهم في كثير من جهات إمبراطوريته ، ثم إنه أراد بذلك آخر الأمر أن يتوحد إلى المسلمين بتعظيم آل نبيهم ورجال الدين عندهم ، في الوقت الذي كان يعمل على الاستيلاء على بلادهم ، مؤملاً أن يلقى تأييد رجال الدين الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير في ذلك العصر .

وعلى الرغم مما نأخذه على « السياق » في بعض النواحي ، فلا شك أنه يعتبر أساساً صالحاً لبناء النظم الإدارية والاجتماعية عند المغول ، كما أنه يعد خطوة تطويرية في ديانتهم ، ويعتبر كذلك متأثراً في بعض النواحي بالديانات السماوية ، كتحريم الزنا والقتل والغدر والكذب ونحو ذلك إذا عرفنا أن ديانهم القديمة كانت لا تحرم شيئاً . لذلك استطاع جنكيزخان بأحكام السياق أن يذشر نفوذه في البلاد الصينية والإسلامية .

(ب) غزوات جنكيزخان

(١) رأى المؤرخين في غزوات جنكيزخان

كانت الغارات التي شنها المغول آخر الغارات التي شنتها القبائل الرحالة على مدن الشرق والغرب ، تلك المدن التي كانت تختنق تحت أدران الترف والعبودية ، على حين كانت الشعوب الرحالة تتقدم من حيث التفكير وتعبئة الجيوش واستعمال آلات الحرب ، وتغصب من بلادها كالسيل يغمر تلك المدينة البالية ويسير بالعالم نحو عهد جديد .

وبينما كان جنكيزخان مشغولاً بمحاربة إمبراطورية كين بلاد الصين قتل خوارزم سفراءه فحول إمبراطور المغول وجهه شطر بلاد خوارزم الإسلامية ، وانسابت فرسانه فيها مزودين بأحسن أنواع السلاح ، كما كان لديهم البنادق والبارود وآلات الحصار التي أخذوها عن الصينيين ، ومن ثم نزلت بالمسلمين وأمم الغرب الطامة الكبرى والمصيبة العظمى .

وقد وصف سير توماس أرنولد^(١) ما قام به المغول من ضروب الوحشية في غزواتهم

(١) The Preaching of Islam, pp. 218—219. ترجمة المؤلف الطبعة الثانية ،

للبلاد الإسلامية في هذه السكبات « لا يَعْرِفُ الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولا من غزوات المغول ؛ فلقد انساب جيوش چنكيزخان انسياب الثلوج من قُنن الجبال ، واكتسحت في طريقها الحواضر الإسلامية وأنت على ما كان لها من مدنية وثقافة ، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى خرائب وأطلال بالية ، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور الفخمة المحاطة بالحدائق الغناء والمروج الخضراء ، فبعد أن تحوّل جيش المغول عن مدينة هَرَاة خرج أربعون من أهلها من مخبئهم ، فراراً من الموت ، وكان هؤلاء التمساء هم البقية الباقية من سكانها الذين كان يربو عددهم على المائة ألف ، ووقفوا مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رءوسهم ليكون أطلال مدينتهم ، وقد أخذ الفزع والهلح من نفوسهم كل مأخذ . وفي مدينة بخارى التي اشتهرت برجال العلم والورع اتخذ المغول إصطبلًا لحيولهم ومزقوا المصاحف واتخذوا منها وطاءً لدوابهم ، كما سبوا من نجا من الأهلين من القتل وجعلوا مدينتهم أثراً بعد عين . وهكذا كان مصير مدينتي سمرقند وبلخ وغيرهما من أمهات مدن آسيا الوسطى التي كانت من قبل ثغر الحضارة الإسلامية وموطن الأولياء وكعبة العلوم ، كما كان ذلك أيضاً مصير بغداد التي ظلت قروناً عدة حاضرة الخلافة .

يقول « دوسون »^(١) : إن تاريخ المغول يمتاز بطابع الفوضى ووحشيتهم لا تترك إلا صورةً بغيضة . وأن حكمهم كان انتصاراً للفساد والفوضى . ويختلف رأى سير هنرى هاوارت عن رأى دوسون ، فيقول : إن المغول جنس من الأجناس التي درجت تحت ظلال الفقر وشظف العيش ، يجرى في دماغهم مزيج قوى من الحديد — ينبعث في فترات منظمة ليقضى على الترف والثراء اللذين سادا في ذلك العصر ، ويحطم الفن والثقافة التي لا تترعرع إلا في ظل الرخاء وبسطة العيش والامن ، ويحوّل هذه الجنان التي جهد الإنسان في غرسها وتعهدها إلى صحرا جرداء مقفرة ، فهم أشبه بالوباء والقحط ، وأشبه بآلة تدمير وتخريب أنت على شعوب كانت غارقة في بحار الترف والنعم ، ثم ذهبت ضحية غارات المغول ، كما قال « دوسون » إن الفتوحات المغولية أدت إلى اتصال أمم

Dr. Hosson, Histoire des Mongols Amsterdam, 1834. (١)
rome I, pp. 7—8.

الشرق والغرب . وإن الطباعة والبوصلة البحرية والأسلحة النارية وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية قد انتقلت إلى أوروبا بتأثير هذه الغارات .

كما يرى « دوسون » أن قصة المغول وإن كانت تثير الأسى والحزن ، فهي مع ذلك ضرورية لفهم مدى التقدم البشري .

ويعجب « ليون كاهون »^(١) بنظام المغول الإدارى الدقيق وانعدام روح التعصب الدينى فيهم ، ويطرى صفاتهم الحربية التى هى من صفات كل الشعوب التركية .

ومن العقبات التى قامت فى سبيل نشر سيادة المغول فى كافة أرجاء العالم ، تلك المملكة التى كانت تسمى قديماً قره خطاي أى بلاد الخطا السوداء ، وكانت تمتد إلى حدود بلاد تركستان الشرقية الحديثة تقريباً ، وكان يحكمها جماعة من الأمراء يسمون خانات الغور . وقد فرضت هذه المملكة احترامها على فارس وبلاد ماوراء النهر . على أن چنكيزخان وجنده سرطان ما انقضوا على بلادهم وأصبحت لهم السيادة على أهل كاشغر وبقية إقليم غورخان^(٢) .

٣ — غزو التتار ببلاد خوارزم :

وكان من أثر تفاقم العداوة بين الخليفة العباسى وعلاء الدين خوارزم شاه محمد ، أن اعتقد بعض المؤرخين أن الخليفة العباسى الناصر استدعى التتار ليشغل بهم خوارزم شاه حتى يأمن شره ويحول بذلك دون ما يحدق ببلادهم من خطر هجوم جيوش خوارزم شاه . ولا يبعد أن يكون لذلك ظل من الحقيقة . فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة من قبل ، فراسلوا بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرل بك الساجوق ليخلصهم من تحكم البساسيري حين أراد تحويل الدعوة إلى الفاطميين فى مصر ، بل لقد أوفد أحدهم الرسل إلى خوارزم شاه ليقبضهم شر السلاجقة . وكانت العوامل التى دفعت الخلفاء العباسيين إلى الاستعانة ببنى بويه والسلاجقة وخوارزم شاه هى نفس العوامل التى دفعتهم إلى الاستعانة بالتتار ، اللهم إلا إذا استثنينا هذا الفارق بين هؤلاء وأولئك : فقد كان هؤلاء مسلمين على حين كان التتار وثنيين ، بيد أن هذا العامل الدينى لا يصف من

Introduction à l' Histoire d' Asie Turks et Mongols, (١)
des origines à 1405, pp. 79, 111—118.

Lane-Poole, Muhmammadan Dynasties, pp. 203—204. (٢)

صححة هذه الرواية ، إذا لاحظنا أن الخليفة لم يبال بما فعل لتخليص مملكته ، وأنه كان يرمى من وراء عمله إلى شغل خوارزم شاه بالتتار ليسكنفى شره ، ولم يكن يتوقع أن هؤلاء التتار يستطيعون الوصول إلى بلاده ، لبعده الشقة ووقوف جند خوارزم شاه القوى في سبيلهم . ولكن ابن الأثير^(١) يذكر أن غزو التتار بلاد خوارزم وتوجيه أنظارهم للبلاد الإسلامية يرجع إلى سوء التفاهم الذى وقع بسبب قتل تجار المغول الذين ترددوا على بلاد خوارزم .

وقد توجه جند خوارزم شاه خيفة من تهديد التتار فأرسل رسوله إلى بلاد چنكيزخان لينفذوا جيشه ويقفوا على مدى قوته ، فعادوا بعد مدة وأخبروه بكثرة جند التتار ، ووصفوا له شدة صبرهم على القتال ، وعملهم بأيديهم ما يحتاجون إليه من السلاح . فندم خوارزم شاه على ما فعل ، وزاد قلقه من ناحية التتار . ثم جاءته الأخبار بأن التتار قد ساروا لقتاله ، فاستشار أحد فقهاء دولته — وكان يثق به ويرجع إليه في مهام أموره — فأشار عليه بأن يعسكر بجيشه على ضفة نهر سيحون الذى كان يفصل بين المملكة الخوارزمية وبلاد الترك — وبذلك يستطيع أن يقضى على قوات چنكيزخان بعد أن يكون التعب قد أنهك قواهم لبعده الشقة ووعورة الطريق . ثم عقد خوارزم شاه مجلساً ضم أمراءه وذوى الرأى فى دولته ، فأشاروا عليه بأن يترك التتار حتى يعبروا نهر سيحون ويسلكوا ما وراءه من الجبال والوهاد والمفاوز ؛ وبذلك يستطيع القضاء على قواتهم .

وكان من أثر لإرسال چنكيزخان رسوله إلى خوارزم شاه يتهده بالحرب ، أن قتل خوارزم شاه هذا الرسول وحلق لحا من كان معه من التتار ، وجمع عساكره وقصد تخوم تركستان ، وانقض على بلاد التتار بعد مسيرة أربعة أشهر ، فلم يلق إلا جموعاً قليلة تخلفت مع النساء والصبيان والأطفال لاشتغال الجند بمحاربة أحد ملوك التتار ، فأوقع بهم وغنم ما معهم . ولما علم التتار بما فعل خوارزم شاه أدركته طائفة منهم تحت قيادة أحد أولاد چنكيزخان قبل أن يخرج من بلادهم ، واقتتل الفريقان ثلاثة أيام كاملة ، « واشتد بهم الأمر حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاقل قرنه راجلاً ، ويتضاربون بالسكاكين ، وجرى الدم على الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرتها^(٢) » . على أن هذه الحرب لم تنجل عن انتصار أحد الفريقين ، فعاد التتار إلى

(١) الكامل ج ١٢ ص ٢٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٢٣٨ .

بلادهم ، وعاد المسلمون إلى بخارى ، وأخذ خوارزم شاه يعد العدة لقتال التتار ، وعسكر بالقرب من مدينة بلخ .

أما التتار فقد هموا شطر بلاد ما وراء النهر حتى وصلوا إلى مدينة بخارى بعد وصول خوارزم شاه بخمسة أشهر ، وكان بها عشرون ألفاً من جند خوارزم شاه ، ففارقوا المدينة ، فدخلها جنكيزخان في ٤ ذى الحجة سنة ٦١٦ هـ وقتل الجند الذين اعتصموا بالقلعة عن آخرهم وأخرج الأهالي لا يملكون سوى ثيابهم التي عليهم . ثم نهب جنده المدينة وأسروا من بقى بها من الأهالي واقسموهم ، وقد آثر كثير منهم القتل حتى لا يرى ما نزل بإخوانه من كرب وبلاء . ثم ألقي التتار المنابر والمصاحف في الخندق ، وأشعلوا النار في المدارس والمساجد وغيرها من المباني حتى أصبحت بخارى كأن لم تكن بالأمس (١) .

رحل التتار بعد ذلك نحو سمرقند قسبة بلاد ما وراء النهر وكعبة العلماء والأدباء ومعين الثروة والرخاء ، واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى مشاة على أقبح صورة ، وقتلوا منهم من أعياء المشى . وكان بسمرقند خمسون ألفاً من جند خوارزم شاه ، ارتجفت قلوبهم وخارت قواهم لما علموه من فظائع التتار الذين قدموا فرسانهم ، ومن بينهم الرجال والأسرى والأثقال ، ومع كل عشرة من الأسرى علم ، فزاد هذا في مخاوف أهل المدينة ، وكانوا في عدد كبير ذكر ابن الأثير أنه بلغ سبعين ألفاً ، واشتبكوا مع رجال التتار ، فارتد هؤلاء ، فتبعهم أهل المدينة ، ولم يدروا أن الأعداء قد وضعوا لهم كميناً ، حتى إذا ما جاوزوه خرج عليهم هذا السكين من مخبأه ، خال بينهم وبين المدينة ، ورجع الباقون الذين قاتلوهم أولاً ، وحاصروهم التتار من كل ناحية وقتلهم عن آخرهم .

وقد تفاقمت مخاوف الجند الخوارزميين لهذا الانكسار الذي حل بأهل سمرقند ، وطلبوا الأمان من التتار ظناً منهم أنهم يقولون عليهم لأنهم كانوا أتركا مثلهم . ومن ثم خرجوا في أهلهم وأموالهم . فطلب منهم التتار أن يسلبوا سلاحهم وأموالهم ثمناً لآمانهم . ثم وضع التتار السيف فيهم وقتلهم عن آخرهم ، ونهبوا المدينة وعاثوا فيها فساداً . فأحرقوا الجامع ، واستولوا على الأموال وسبوا الأهالي ، وقتلوا الشيوخ والعجزة ، وكان ذلك في المحرم سنة ٦١٧ هـ .

وقد بلغ من خوف جند الخوارزميين من التتار أن أصبحوا بحيث لا يستطيعون

مواجهتهم ، ويحدثنا ابن الأثير أن خوارزمشاه علاء الدين محمد أرسل مرة عشرة آلاف من الجند ومرة عشرين ألفاً فلم يجرؤوا على مواجهة التتار وعادوا أذراجهم .

ولما تم للتتار فتح بخارى وسمرقند عولوا على القبض على خوارزم شاه ، فبعث جنكيزخان عشرين ألفاً من خيرة جنده وقال لهم : « اطلبوه ولو تعلق بالسما حتى تدرکوه وتأخذوه » ، فسار هؤلاء الجند ميممين غربى خراسان . ومن ثم أطلق عليهم اسم التتار المغرّبة تمييزاً لهم عن سائر طوائف التتار ، فوصلوا إلى مدينة قنّج آب (أى الخمس مياه) ، فلم يجدوا هناك سفناً يعبرون عليها ، فعملوا صناديق كبيرة من الخشب ألبسوها جلود البقر حتى لا ينفذ إليها الماء ووضعوا فيها الأسلحة والامتعة ، ثم سيروا الخيل فى الماء وأمسكوا بأذيانها وشدوا تلك الصناديق لهم ؛ فكانت الخيل تجذب الرجل والرجل يجذب هذه الصناديق ، وبذلك أمكنهم العبور دفعة واحدة .

نيسابور ومازندران :

ولما علم المسلمون بذلك تفرقوا أمام التتار ، وهرب خوارزم شاه فى بعض خاصته إلى نيسابور ، فقصده التتار ولم يتعرضوا بشئ لاهالى البلاد التى مروا بها ، إذ كان مهمم اللحاق به . فلما أحس خوارزم شاه بقرّبهم هرب إلى مازندران ، اقتفى التتار أثره من غير أن يرجوا على نيسابور . وهكذا أصبح خوارزم شاه ينتقل من بلد إلى بلد والتتار المُغرّبون فى أثره ، حتى وصل أخيراً إلى الرى ثم إلى همدان ثم إلى حدود العراق . فلما جاء التتار ملكوها بسهولة لم تسكن منتظرة وأعملوا السيف فى رقاب أهلها وسلبوا أموالهم^(١) .

ولما تم للتتار فتح مازندران استأنفوا سيرهم قاصدين بلاد الرى فى طلب خوارزم شاه وقد فر إليها من مازندران ، وقبضوا على أمه ، وكانت فى طريقها إلى بلاد الجبل هرباً من التتار ومعها من الأموال والجواهر والامتعة ما لا يدخل تحت حصر وأرسلوها إلى جنكيزخان فى قره قورم حاضرة ملكه (٦٢٠ / ١٢٢٣) .

ثم دخل التتار بلاد الرى على حين غفلة من أهلها فأذاقوهم كل صنوف العذاب وسبوا الحرّيم واسترقوا الأطفال ، ثم مضوا قدماً فى طلب خوارزم شاه فقبضوا ما صادفوه فى طريقهم من القرى والمدن ومثلوا بأهلها .

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٤٣ .

ثم وصل التتار إلى همدان ، وكان خوارزم شاه قد وصل إليها ، فغادرها وخرج إلى المدينة إلى التتار ، فقدم إليهم الأموال والثياب والدواب وطلب منهم الأمان فأجابوه إلى طلبه . ثم ساروا إلى زنجان ثم إلى قزوین فدخلوها عنوة وتقاتلوا مع الأهالي بالسكاكين وقتلوا منهم زهاء أربعين ألفاً .

وقد قصد التتار بعد ذلك أذربيجان فصالحهم صاحبها على مال ودواب ، وكان منصرفاً إلى اللهو وإدمان الشراب ليلاً ونهاراً . وكانت أذربيجان في عهد العباسيين من الأقاليم القليلة الأهمية ، ولم تقم لها قائمة سياسية إلا عندما هبت ربيع المغول . ذهب التتار إلى أذربيجان فراراً من البرد والثلوج والأمطار ، فوصلوا إلى تبريز وبها صاحب أذربيجان فصالحهم ، ثم يعموا ناحية البحر لقضاء الشتاء لقلة البرد وكثرة المراعى ، فوصلوا وهم في طريقهم إلى بلاد السكرج وأوقعوا بأهلها وقتلوا أكثر جندها ، فأرسل السكرج إلى صاحب أذربيجان في طلب الصلح والاتفاق على قتال التتار ، كما تعاهدوا مع صاحب بلاد الجزيرة ويدعى الملك الأشرف بن الملك العادل وأعدوا العدة لقتال العدو المشترك إذا ما انصرم الشتاء وحل الربيع . ولكن التتار لم يابشوا أن تحركوا من مشتاتهم قبل حلول الربيع قاصدين بلاد السكرج ، وانضم إليهم كثير من التركان والأكراد لمشاركتهم إياهم في الجنس ، وتقدم التتار نحو بلاد السكرج فنهبوا أهلها وقتلهم ، ثم واصلوا السير نحو تفليس (حيث أدركهم التتار) ، فهزموا أهل هذه البلاد هزيمة منكرة وقتلوا منهم عدداً لا يحصى (ذو القعدة سنة ٦١٧ هـ) . وفي ذلك يقول ابن الأثير^(١) :

« ولقد جرى لهؤلاء التتار ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه . طائفة تخرج من حدود بلاد الصين لاتنقض عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همدان ، وتالله لا أشك أن من يحجى بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ، ينكرها ويستبعد ما والحق بيده ، فني استبعد ذلك ، فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في زماننا في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها . . . يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحورطهم . . . ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثلاً دفعوا إليه الآن . وتعدت هذه الطائفة منهم النهر إلى خراسان فلكوها وفعلوا

(١) السكامل ج ١٢ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

(م ١٠ — تاريخ الإسلام — ج ٤)

مثل ذلك . هذا العدو الكافر التترقد وطئوا بلاد ماوراء النهر وملكوها وخرَّبوها ثم إلى الرى وبلد الجبل وأذربيجان [كذا] . وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم ، والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ، ووصلوا مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ، ولم يقدر المسلمون على إزاجهم عنها ولا إخراجهم منها . وباقى ديار مصر على خطر ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

كان ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ) معاصراً لغارة المغول ، وكان صديقاً لابن الأثير ، وقد استطاع أن ينجز بنفسه من غارتهم ، وأن يخلف لنا صورة واضحة لما كانوا يلقونه في النفوس من رعب وفزع ، كما يتضح ذلك من إشارات المتفرقة في كتابه « معجم البلدان » وفي خطاب أورده ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان ، وقد وجهه ياقوت (١) إلى القاضي الأكرم جمال الدين أبى الحسن على الشيبانى القفطى وزير صاحب حلب في كتابه الذى أرسله إليه من الموصل في سنة ٦١٧ هـ على أثر وصوله إليها من خوارزم هارباً من التتار يصف فيها ما حل بخراسان من التخريب والتدمير ولأهلها من الخطوب والويلات وما تعرض له من الأخطار حتى وصل إلى الموصل ، كما عبر ياقوت عن أسفه العميق وحزنه الدفين لتركه مدينة مرو الزاهرة العامرة بمكتباتها ، وقال إن ما اشتملت عليه من الكتب النادرة قد أنساه الأهل والأحباب والوطن والأصحاب . ثم وصف الرخاء والعمران اللذين كانت تنعم بهما خراسان حتى أصبحت شبيهة بجنة المأوى ورياض الخلد . وما قاله ياقوت :

« فإننا لله وإنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر وتهدم العمر ، وتفت في العضد . . وتشيب الوليد وتخب لب الجليلد ، وتسود القلب وتذهل اللب ، تخيفئذ تقهقر المملوك (٢) على عقبه ناكساً ومن الآوبة إلى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آيساً . . فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار وابتلاء واصطبار . الخ » (٣) .

(١) دون القفطى صورة هذا الخطاب في كتابه الذى سماه « لبناء الرواة على أنباء النجاة » ونقله ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٨١ — ١٨٨ في ترجمة ياقوت الحموى .

(٢) يتكلم ياقوت عن نفسه ويصف حاله وما صادفه من أخطار .

(٣) . راوون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٥٢ — ٥٥٣ .

(٥) وفاة جنسكيزخان :

وفي سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٣ م) مات جنسكيزخان وكان في الستين من عمره بعد حياة حافلة بالنصر والظفر . وكان ، كما يقول ليذبول : قد أسس في مدى عشرين عاما أوسع إمبراطورية شاهدها العالم وأقامها مقتنياً في ذلك السياسة التي رسمها له أبوه من قبل^(١) . وكانت إمبراطورية المغول إمبراطورية حربية إدارية كما هو الشأن في جميع الدول التي أسسها أقوام من الرُّحَّل . وكانت كافة السلطات تتركز في شخص الملك ، كما كانت علاقة الدولة برعاياها تقوم على أساس فرض الضرائب للإنفاق على الجيش . ويكفي أن نقول إنه بعد الثلاثين سنة التي قضاها « جنسكيزخان » في ذلك الصراع العنيف ضد أعدائه في الداخل ، والتي استطاع خلالها أن يثبت دعائم سلطانه على عشائره وعلى العشائر المجاورة على الرغم مما قام في سبيله من الصعاب ومادبر له من المؤامرات — على الرغم من هذا كله وجد جنسكيزخان نفسه قادراً على تكريس العشرين سنة الباقية من حياته في سبيل تحقيق أغراضه الواسعة وأطماعه الكبيرة^(٢) .

وقد استعان جنسكيزخان في إدارة إمبراطوريته الواسعة برجل من إمبراطورية كين ذي كفاءة نادرة وهو Yeliu Chutsai . وكان ملداً بالتقاليد والعلوم الصينية جديراً بالاضطلاع بمهام دولة المغول بعد وفاة جنسكيزخان ، كما كان بلا ريب أحد أبطال السياسة الذين عرفهم التاريخ . وكان ليليوشتسي أكبر الأثر في تحسين العلاقة بين خانات المغول وبين رعاياهم ، كما أنقذ كثيراً من المدن والأثار الفنية من الدمار ، وجمع السجلات والنقوش مما ينهض دليلاً على ولعه بالعلوم والفنون ، حتى إن منافسيه حين اتهموه بالرشوة لم يجدوا عنده إلا بعض الآلات الموسيقية والوثائق التاريخية الهامة .

وإلى ليليوشتسي وإلى جنسكيزخان يرجع الفضل في ترقية الآلات الحربية وبلوغها حد السكال . هذا إلى ما امتاز به عهد جنسكيزخان من ذلك التسامح الديني الذي ساد كل أرجاء آسيا .

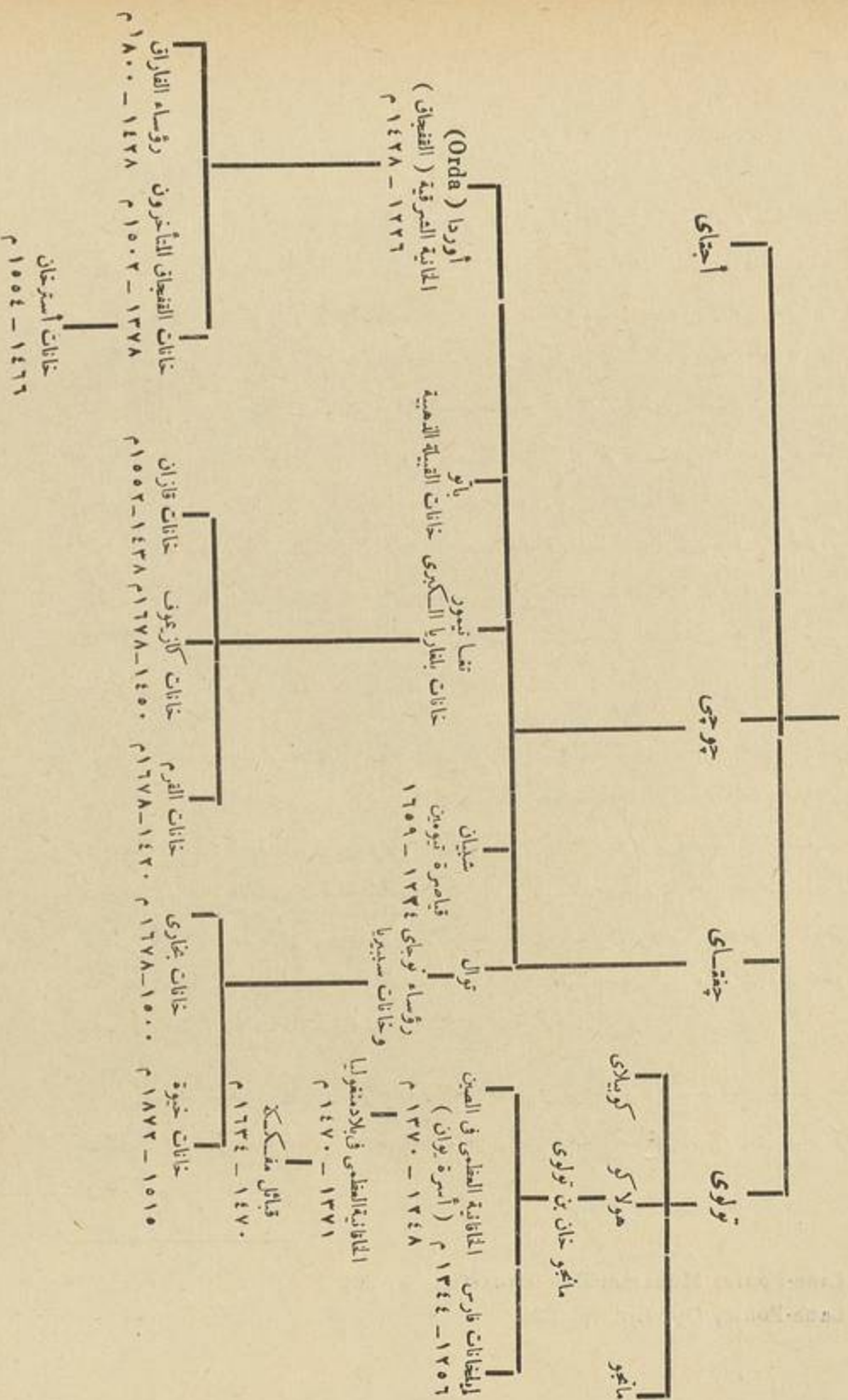
Lane-Poole, Muhammadan Dynasties, p. 202

(١)

Lane-Poole, Op. Cit., p. 206.

(٢)

القبائل الممنولة وبطونها
جنه - كيزخان



خاقانات المغول

١٢٠٦ / ٦٠٣	جنگيز خان
١٢٢٧ / ٦٢٤	أجتاي
١٢٤١ / ٦٣٩	تورا كينا (فترة بين موت أجتاي ، وكيوك)
١٢٤٦ / ٦٤٤	كيوك
١٢٤٨ / ٦٤٦	مانجو

أسرة بن Yuen

١٢٥٧ / ٦٥٥	كويلاي
١٢٩٤ / ٦٩٣	أولجاينو
١٣٠٧ / ٧٠٦	كوبوك
١٣١١ / ٧١١	يياتو
١٣٣٢ - ١٣٢٠ / ٧٣٢ - ٧٢٠	جيجن إلى توغان تيمور

الإمبراطورية المنحلة

١٣٧٠ / ٧٧١	بليكتو Biliktu
١٤٧٠ - ١٣٧٨ / ٨٧٥ - ٧٨٠	أسوخال إلى ديان

قبائل منقسمة

١٥٤٤ / ٩٥١	بودي
(١) ١٦٣٤ - ١٥٤٨ / ١٠٤٣ - ٩٥٥	كودانج إلى لنجدان

إمبراطورية المغول بعد جنسكيزخان

٦ — أُجْتَاي : فنوم في آسيا وأوروبا .

ظلت حاضرة المغول بعد وفاة جنسكيزخان في مدينة « قره قورم » في منغوليا ، حيث خلفه ثالث أولاده أُجْتَاي (٦٢٤ — ٦٣٩ / ١٢٢٧ — ١٢٤١) فأصبح خاقان إمبراطورية المغول . وقد استاء أتباع جغتاي من تعيين أُجْتَاي خليفة لجنسكيزخان ، لمخالفة ذلك لتقاليد المغول التي تقضى بأن يعين أكبر الأبناء سناً . وعند جلوس أُجْتَاي على العرش وزّع الهدايا على كبار رجاله ، وذبح أربعين فتاة وكثيراً من الخيل على روح أبيه - وفقاً للتقاليد والعادات المرعية عند المغول .

وكان أول ما قام به المغول في عهد إمبراطورهم الجديد أن تعقبوا البقية الباقية من إمبراطورية كين (أو الأسرة الذهبية) حتى دانت كلها لسلطانهم في سنة ١٢٣٤ ، بعد أن حكمت البلاد الشمالية من بلاد الصين أكثر من قرن . وقد ساعدت المغول في تلك الحروب أسرة سُنْج التي كانت على عرش الإمبراطورية في الجنوب ، وبذلك سعت تلك الأسرة إلى حلفها بظلفها بانضمامها إلى المغول ضد إمبراطورية كين إذ وهنت قوتها أمام ذلك العدو الغاشم . ولم ينس أُجْتَاي أن فتوحات أبيه في غربي آسيا تضره للاحتفاظ بسيادته على مملكة خوارزم ، برغم عنايته أول الأمر بتوسيع إمبراطوريته في أخصب بقاع الصين وأغناها ، وأصبح يشعر بهذا الواجب ويجعله نصب عيفيه منذ رجوع جلال الدين منكبرتي من الهند واسترداده البلاد التي ورثها عن أبيه وتقدمه غرباً حتى وصل إلى تفليس وكيلات .

حينئذ أرسل أُجْتَاي إلى جلال الدين قوة مكونة من ثلثمائة ألف مقاتل، وتعقب هذا الجيش المغولي عدوه في سرعة عجيبة ؛ ولكن جلال الدين كان قد هرب إلى جبال الأكراد حيث قتله أحد الفلاحين . وبذلك حقق المغول الغرض الأول من غزواتهم . وقد جعل المغول هذا الفتح خطوة لغيره من الفتوح ، فاندفعوا نحو الغرب وأغزوا السير ، فاحتلوا ديار بكر وإربل وكيلات ، ثم تقدموا إلى أذربيجان ، وفي العام التالي (١٢٣٦ م) غزوا جورجيا وأرمينية الكبرى مرتكبين أقصى الفظائع وأشدّها هولاً . ومن المدن التي فتحوها تفليس .

وكان أجتأى قد وجه في سنة ١٢٣٥ م ثلاثة جيوش في فواح مختلفة : أحدها إلى كوربا ، وثانيها ضد أسرة سونج وكانت تحكم مايلي نهر يانج تسي كيانشج ، وأرسل ثالثها غرباً نحو شرق أوربا ، وعلى رأس هذا الجيش الأخير القائد « باتو بن جوجي » أكبر إخوة أجتأى ، وقد اتخذ سابوتاي Sabutai المشهور مستشاراً له ، فسقطت بلغاريا أمام القوة التي على رأسها سابوتاي ، على حين تقدم باتو نحو نهر الفلجسا . واخترق جند المغول الغابات التي في طريقهم حتى ظهروا أمام ريزان Ryazan أو المدينة الجميلة ، وصوبوا سهامهم إليها ، وهددوا أسوارها وخربوا حصونها ، ثم استولوا عليها في ٢١ ديسمبر سنة ١٢٣٧ م . « وانتقم المغول لمن مات من جندهم في هذه المعارك ، فذبحوا الأمير وأمه وزوجه وأولاده وحاشيته وجميع سكان المدينة دون أى اعتبار للجنس أو السن ، فمات البعض بالخرازيق والبعض الآخر قتل بالسهم لجرد التسليحة ، وسلخ الآخرون أو وضعت تحت أظافرهم المسامير أو شظايا الخشب ، وحرق القسيسون في النار أحياء ، واختطففت الفتيات العذارى والراهبات من الكنيسة أمام أقربائهن » حتى لم يبق عين لتبكي على الأموات .

ثم سقطت موسكو في يد الغزاة ، وانتقم المغول من أهالي إحدى المدن أخذاً بثأر قوة من جيوشهم أحل بها أهلها الهزيمة ، فأحل بهم أتباع « باتو » كل أنواع التعذيب ، وأنوا من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان ، حتى عرفت هذه المدينة باسم فاتحها Mobalig كما عرفت أيضاً باسم مدينة الويل والثبور .

وعلى أثر هذا الانتصار تقدم المغول نحو كييف Kiev أم المدائن الروسية واستولوا عليها عنوة وسحقوا المدينة حتى أصبحت أثراً بعد عين .

ولقد دمر المغول في تلك الحروب الجزء الأعظم من بلاد روسيا ، وانقسم جيشهم إلى فريقين : فريق أغار على بلاد المجر بقيادة « باتو » وأغار فريق آخر على بولندية بقيادة « بيدار » Baidar وكيدو Kaidu . وقد تقدم باتو نحو بست Pest ببلاد المجر دون أن يلقى أية مقاومة في طريقه ، فاحتشدت هناك جميع القوى المجرية لمقاومته في تلك المروج الواسعة ، فانقض عليهم « باتو » بجيشه وهم في سباتهم وأوقع بهم ، وأنى عليهم جميعاً ذبحاً وقتلاً حتى امتلأ الطريق بأشلاء القتلى على مسيرة

يومين ، ولم يُنقِذ الملك بيلا الرابع (Bela) من الموت إلا خفة حصانه وسرعة عدوه ، فاتبه نفر من المغول واقتفوا أثره حتى ساحل الأدرياتيك مخربين مدمرين كل ما وجدوه في طريقهم . ومن ثم استولى بانو على بست وعبر نهر الطونة على الثلج في عيد الميلاد من سنة ١٢٤١ م .

وبينما كان بانو ينعم بانتصاره كانت القوة التي تحت قيادة بيدار وكيدو تشعل النار في بولنדה ، وقد اتصل بهم نبأ موت أجتاي ، واستدعاه بانو للرجوع إلى بلاد المغول في الوقت الذي كان يعمل فيه قواده وجنوده السيف في كل الجهات .

وكان أجتاي مسرفاً في شرب الخمر كما هي عادة الكثيرين من المغول حتى مات بسبب ذلك في ١١ ديسمبر سنة ١٢٤١ م .

٧ — كيوك :

ثم خلف أجتاي ابنه كيوك (٦٤٤ — ٦٤٦ / ١٢٤٦ - ١٢٤٨) . ولا يحفظ لنا التاريخ إلا القليل عن أخباره وأخلاقه ، فقد ألقى بزمام الدولة إلى وزيرين من المسيحيين ، كما امتلا بلاطه بالرهبان والعلماء من المسيحيين أيضاً ، وشيد كنيسة أمام خيمته .

أما عن معاملة كيوك لفقهاء المسلمين في بلاطه فقد روى الجوزجاني عن بعض الثقات أن البوذيين طالما أوغروا صدره ضد المسلمين وحملوه على اضطهادهم . وكان في هذه البلاد أحد الأئمة الذين اشتهروا بالعلم والورع بين المسلمين ، وهو نور الدين الخوارزمي . وقد التمس من كيوك بعض القسس من المسيحيين وفريق من قسيسي عبّاد الآوثان من البوذيين أن يستدعى ذلك الإمام ليناظروه ويحاجوه طالبين منه إقامة الحجّة على فوّق الدين الإسلامي وإثبات رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) وإلا كان مصيره القتل إن هو أعيته الحجّة . وقد أجابهم الخان الأعظم إلى طلبهم وأرسل في طلب الإمام ، وطرحته على بساط المناقشة مسألة صحة دعوة محمد للنبوة وسلوكه في حياته ، مع موازنته بسلوك غيره من الرسل . ولما كانت أدلة هؤلاء ضعيفة وخالية من كل وسائل الإقناع ، رفضوا أيديهم من تلك المساجلة بالبراهين والحجج ولجئوا إلى طرق العسف . وسألوا كيوك أن يسأل هذا الإمام أن يسجد سجدتين وفق الأحكام الإسلامية والتعاليم المحمدية حتى تبين أمامهم

وأمام الخان حركات عبادتهم غير المستملحة (في نظرهم) . فأمر كيوك ذلك الإمام ومن معه بالصلاة ، ونحروا على الأرض سجداً ، فقام بعض الكفار الذين دعاهم كيوك وأهانوهم وأخذوا يضربون الأرض برءوسهم ، كما اقترفوا معهم بعض الأعمال المخزية . على أن الإمام ومن معه لم يأبهوا لكل هذا واستمروا في صلاتهم من غير أن يقطعوها . ولما انتهى الإمام من صلاته وسلم ، رفع رأسه نحو السماء قائلاً : (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية) (سورة الاعراف ٧ : ٢٠٥) .

ثم طلب كيوك أن يؤذن له بالانصراف وعاد إلى داره هو ومن معه^(١) .

يقول سير توماس أرنولد^(٢) ، « ولكن على الرغم من هذه المصاعب ، أذن المغول^(٣) والقبائل المتبربرة التي دانت بدين هذه الشعوب الإسلامية التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطن أقدامهم . ولا بد أن يكون هناك كثيرون من أنصار النبي قد انتشروا في طول إمبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين في طي الخلفاء لجذب هؤلاء الكفار إلى حظيرة الإسلام » .

٨ — مانجوخان :

وكان من حسن حظ أوروبا أن قامت الاضطرابات والفتن في بلاط قره قورم سنين عدة ، ومن ثم ظهرت على تلك الإمبراطورية مظاهر التفكك وعوامل الانحلال . ففي سنة ١٢٥١ م أصبح مانجوخان بن تولوي (٦٤٦ - ٦٥٥ / ١٢٤٨ - ١١٥٧) خاقانا على بلاد المغول .

وبعد سنتين من توليته على العرش زار بلاطه وليام روبرك (William of Rubruk) وغيره من الرهبان المسيحيين ، حيث استقبلوا بمظاهر الإكرام والخفاوة . وقد وصف روبرك هذا قصر مانجوخان في «قره قورم» . ومن هذا الوصف نقف على البون الشاسع بين حياة القصور وبين الحياة الرعوية التي كان يعيشها أسلافه . فكان قصره « محاطا بأسوار مبنية بالآجر ، وبطرفه الجنوبي ثلاثة أبواب ، والقاعة الوسطى تماثل الكنيسة » .

(١) Raverty, p. 1160 et seq.

(٢) The Preaching of Islam, pp. 226—227.

(٣) كانت ثلاثة أرباع الجيوش المغولية أتراكا في القرن الثالث عشر الميلادي .

ويحتوى هذا القصر على ما يشبه صحن الكنيسة ، ويفصل جناحى القصر ردهة فسيحة ، تتوسطها عمدة مرفوعة كان يجلس فيها رجال البلاط . وأمام العرش شجرة من الفضة على حافتها السفلى أربعة أسود يخرج من أفواهها الخمر والنبذ ، فتنصب فى أربعة أحواض من الفضة ، وفى أعلى الشجرة تمثال من الفضة يضرب البوق لملء خزانات تلك الينابيع الأربعة إذا ما نضب خرها .

وقد عين مانجو خان أخاه كوبيلاى خان حاكما عاما على بلاد الصين . وفى عهده أخضعت كافة بلاد إمبراطورية سنج (بضم السين وسكون النون) ، وبإخضاعها غدا المغول فى البلاد الشرقية صينيين من حيث ثقافتهم ونظمهم ، كذلك غزا مانجو خان بلاد التبت وخرها ، كما ولى أخاه هولاكو قيادة حملة لغزو بلاد فارس وسورية .

٩ — كوبيلاى خان :

خلف مانجو خان أخوه كوبيلاى (٦٥٥ — ١٢٥٧/٦٩٣ — ١٢٩٤) بعد سنة من وفاته قضاها زعماء المغول فى العودة من أطراف تلك الإمبراطورية الثانية : من بلاد المجر وسورية والصين إلى حاضرة الإمبراطورية ، حيث انعقدت جمعية الأعيان لانتخاب خلف لمانجو خان ، وأصبح كوبيلاى خان الخان الأعظم . وكان قبل اعتلائه العرش شديد الاهتمام بشئون بلاد الصين ، فاتخذ بكين حاضرة للملكة بدلا من قره قورم ، واستقل هولاكو ببلاد الفرس وسورية وآسيا الصغرى ، على حين توزعت جيوش المغول فى بلاد الروسيا وما يليها من بلاد آسيا ، وكذا بعض الكتائب الصغيرة فى بلاد تركستان . وفى عهد كوبيلاى سقطت مدينة بغداد على يد هولاكو .

١٠ — سقوط بغداد :

وبعد أن أتم هولاكو إعداد حملته ، سار ميمما نحو الغرب . ولم يكد يصل إلى بلاد تركستان وما وراء النهر حتى قدّم إليه أمراؤها فروض الطاعة والولاء ، ثم وجه همه إلى القضاء على طائفة الباطنية فى فارس ، فأرسل إلى ملوك إيران كتباً يدعوهم فيها إلى مساعدته . ومما جاء فى هذه الكتب : « جئنا بأمر الخان الأعظم لتخريب حصون الإسماعيلية وقتل هذه الفئة ومحوها من الوجود ، فإذا أتيتم إلينا ووافقتم على مشروعنا بتقديم المساعدة . ن الرجال والذخائر وآلات الحرب ، فإنى أعدكم بالبقاء فى بلادكم آمنين ،

تمتعون بقصوركم وجيوشكم ، أما إذا أظهرتم العكس سرت إليكم بعد إتمام مشروعى بعون الله وخربت بلادكم دون الالتفات إلى ما تقدمونه من الأعذار »^(١) .

وعلى أثر وصول هذه الكتب إلى الملوك خرجوا لمقابلة هولاكو بمخيلين بالهدايا ، وأنت إليه الرسل من العراق وخراسان وأذربيجان وجورجيا ، فرحب بقدمهم . ثم عبر هولاكو نهر جيحون ونزل بمحاذق طوس ، ومنها سار إلى قلاع طائفة الإسماعيلية . وهناك دارت بينه وبينهم معركة انتهت بهزيمتهم وأسر زعيمهم ركن الدين خورشاه وقتله . انتصر هولاكو على الإسماعيلية ووصل إلى مدينة همدان التي اتخذها مركزاً لقيادته ، ثم أرسل إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله كتاباً يعاتبه فيه على عدم إمداده بالجند في أثناء محاربه طائفة الإسماعيلية ، وطلب إليه .

(١) أن يهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه .

(٢) أن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه والدويدار يحملان رسالته إليه .

وختم هولاكو كتابه بقوله إنه إذا استمع الخليفة لهذا النصح تجنب حقه عليه ، وإلا عرض جيوشه للهزيمة أمام جيوش المغول التي قهرت جيوش خوارزم وإيران^(٢) .

وقد أوفد الخليفة المستعصم شرف الدين بن الجوزى يحمل كتابه إلى هولاكو بدعوه فيه إلى الإقلاع عن غروره والعودة إلى بلاده . وبما جاء في هذا الكتاب : « لقد جعلت نفسك فوق العالم أجمع ، وظننت أن أوامرك هي أوامر القضاء ، كيف تطلب منى طلباً لا تستطيع تنفيذه ؟ أيخيل إليك أنك بذكائك وقوة جيشك وشجاعتك ستأسر نجماً من النجوم ؟ » ثم أخذ الخليفة يذكره بمجد الخلافة فقال : « إن ملايين من الفرسان والرجال على استعداد للقتال ، وهم رهن إشارتي ، حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر »^(٣) . ثم ختم الخليفة كتابه بقوله : فإياك بخنادق ريعي وحصونهم ؟ فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان . وإن كنت تريد الحرب فلا تتوان لحظة ولا تعتذر إذا عزمت ، إن لي ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجال على أتم استعداد لخوض غمار الحرب^(٤) .

D'Ohsson, Histoire des Mongols, Tome iii, pp.137—138. (١)

رشيد الدين : جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١ ص ٢٦٨ .

Quatremère, Histoire des Mongols, p. 335 (٢)

جامع التواريخ : المجلد الثاني ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

وقد حمل شرف الدين بن الجوزى ومن معه من الرسل مع هذه الرسالة بعض التحف والهدايا ، فلم يهتم بها هولاء ، وأبدى امتعاضه من العبارات التى تضمنها كتاب الخليفة إليه وقال : « لقد ألقى الله فى روع هؤلاء القوم مثل هذه الاوهام »^(١) ، ورد على الخليفة برسالة يهدده فيها ويتوعده ، وبما جاء فيها : « إنك تركت نهج آباءك ، فاستعد للحرب وانتظر جيشاً قوياً ، ولو أن الشيطان وضع عراقيبه أمام خططى لانتصرت عليه بعون الله »^(٢) .

ولما عاد رسل الخليفة وأدرك ما ينطوى عليه رد هولاء من تهديد ووعيد ، استطلع رأى وزيره ابن العلقمى ، فأشار عليه بأن يتألفه ببذل الاموال والنفائس وقال . « ينبغي أن تدفعه ببذل المال ، لأن الخزائن والدفائن تجمع لوقاية عزة العرض وسلامة النفس ، فيجب لإعداد ألف حمل من النفائس وألفاً من نجائب الإبل وألفاً من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدات ، وينبغي لإرسال التحف والهدايا فى صحبة الرسل السكفاة الدهاة مع تقديم الاعتذار إلى هولاء كو وجعل الخطبة والسكة باسمه »^(٣) .

وقد مال الخليفة إلى قبول هذا رأى أول الأمر ، ولكن مجاهد الدين أيبك ، وكان يلعب الدويدار الصغير ، الذى كان يضمر العداوة والبغضاء للوزير ابن العلقمى ، استمال بعض الأمراء إليه ، وبعثوا إلى الخليفة برسالة يقولون فيها إن الوزير إنما رأى هذا رأى مدفوعاً فى ذلك بمصلحته الخاصة ، ولأنه يعرضهم بذلك إلى البلاء على أيدي المغول ، وتهدوا للخليفة بأخذ الخيطة لدرء خطر هولاء كو والقبض على رسله وأخذ مامعهم من الاموال وتعذيبهم بكل ألوان العذاب^(٤) .

وهكذا لم يكن لتبادل المراسلات بين هولاء كو والخليفة المستعصم من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لا بد منها . وقد رأى هولاء كو الاستيلاء على البلاد التى فى طريقه إلى بغداد . ولما تأكد أنه قد أصبح فى استطاعته السير إلى هذه المدينة دون تعرضه للمصاعب استطلع رأى الفلكيين ، على ماجرت به عادة المغول إذا أقدموا على غزو بلد

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٦٥ . جامع التواريخ المجلد الثانى ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) كنز مير ص ٣٣٩ .

(٣) جامع التواريخ ، المجلد الثانى ج ٢ ص ٢٧١ .

(٤) المصدر نفسه المجلد الثانى ج ٢ ص ٢٧٢ .

من البلاد . وقد حاول حسام الدين الفلكي ، وكان سنياً يعطف على الخليفة ، أن يثنى هولاءكو عن عزمه . وقال له : « إن كل ملك تجاسر حتى هذه اللحظة على معاداة أبناء العباس والتعرض لمدينة بغداد ، زال عرشه وانتهت حياته . وإذا أبي الأمير أن يستمع لنصائحي وتمسك برأيه ، كان ذلك سبباً في حلول ست مصائب وهي : موت الخيل ، وإصابة الجند بأمراض مختلفة ، وعدم طلوع الشمس ، وانعدام سقوط المطر ، وحدث هزات أرضية يعانى منها العالم ، وإفقار الأرض ^(١) » .

أما نصير الدين الطوسي الذى اشتهر بمؤلفاته في الدين والأخلاق ونظم الحكم والفلك ، فقد انضم إلى جانب أمراء المغول الذين تمسكوا بضرورة غزو بغداد ، كما استبعد وقوع الكوارث بمحاصرة الخلافة على أثر سقوطها . ومما قاله هولاءكو : « إن كثيرين من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ماتوا دفاعاً عن الدين ، ومع ذلك لم تقع كارثة من الكوارث ، وإن كثيرين من الناس خرجوا على بنى العباس ولم يلحقهم أذى ، وضرب لذلك مثلاً بطاهر بن الحسين الذى قتل الخليفة الأمين ^(٢) » .

ولما أيقن هولاءكو أن فى استطاعة قواته الاستيلاء على بغداد ، أخذ فى تنفيذ خططه الحربية التى وضعها فى أثناء إقامته بهمدان ، وتنهصر فى حصار هذه المدينة بجيوشه من جميع النواحي ، فأنفذ حملة بقيادة أحد قواده ، « باجو » لمهاجمة بغداد من ناحية الغرب ، وسار هو على رأس فريق من الجيش لمحاصرتها من ناحية الشرق (٦٥٥ / ١٢٥٧) وبصحبه كثير من أمراء المسلمين من أمثال أبى بكر سعد زنى أنابك Atabeck شيراز ، ونصير السعدى السكائب والشاعر الفارسى المشهور ، وبدر الدين لؤلؤ أنابك الموصل ، وسكرتيره الخاص عطا ملك الجوينى صاحب التاريخ المشهور بتاريخ جهان جشا Jahân-Gushâ ونصير الدين الطوسي والفلكي والحكيم المشهور ^(٣) .

ولم يكدهولاءكو يبلغ مدينة « دينور » على بعد عشرين فرسخاً من همدان حتى اقبله شرف الدين بن الجوزى رسول الخليفة العباسى ومعه رسالة يهدده فيها ويوعده بدفع جزية سنوية إذا عاد إلى بلاده . غير أن هولاءكو لم يعبأ بما جاء فى كتاب الخليفة وقال لسفيره ساخراً :

D'Ohsson, Tome III, pp. 224—225.

(١)

Ibid., Vol, III. p. 226.

(٢)

(٣) براون ، ترجمة ج ٢ ص ٢٨٣ .

« لقد قطعنا طريقا طويلا ، فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة ؟ إننا بعد أن نتشرف بالمشول بين يديه وبعد أن نتحدث معه ، سندسمع أوامره ونعود مباشرة » . ثم تابع هولاكو المسير ، وأمر « باجو » بأن يسرع إلى عبور نهر دجلة ومهاجمة بغداد من ناحية الغرب . ولما تمكنت قوات باجو من عبور هذا النهر دارت الحرب بين الفريقين ، وحلت الهزيمة بالجيش العباسي في العاشر من المحرم سنة ٦٥٦ هـ . واستولى باجو وجنوده على الجانب الغربي من بغداد ونزلوا في أحياء المدينة على شاطئ نهر دجلة وسيطروا على جميع أجزائها . وكان من أثر انشغال الجيش العباسي بمقاومة المغول الذين هاجروا بغداد من ناحية الغرب أن خلا الجو لهولاكو ، فترك معسكره في « خانقين » وتابع سيره إلى بغداد وعسكر من جهة بغداد الشرقية بحند لا يحصى عدده حتى وصفه بعض المؤرخين بأنه كالجراد المنتشر . وقال ابن كثير ^(١) إن هذا الجيش المغولي بلغ مائتي ألف مقاتل . وقد تدفق على بغداد الشرقية كثير من أهالي بغداد الغربية خشية أن ينسلك بهم المغول بقيادة باجو . يقول ابن طباطبا ^(٢) .

« وسار الناس من دُجَيْل والإسحاقى ونهر ملك (بفتح الميم) ونهر عيسى ودخلوا المدينة بنسائهم وأولادهم ، حتى كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه في الماء . وكان الملاح إذا عبر أحداً في سفينة من جانب إلى جانب يأخذ أجرته سواراً من ذهب أو طرازاً من زركش أو عدة من الدنانير . فلما وصل العسكر السلطاني (أى جند هولاكو) إلى دُجَيْل وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس ، خرج إليه عسكر الخليفة محبة مقدم الجيش مجاهد الدين أيك الدويدار ، وكان عسكراً في غاية القلة ، فالتقوا بالجانب الغربي من بغداد قريبا من البلد ، فسكانت القلبة في أول الامر لعسكر الخليفة ، ثم كانت الكرة للعسكر السلطاني فأبادوهم قتلا وأسرا ، وأعانهم على ذلك نهر فتحوه في طول الليل . فكثرت الوحول في طريق المنهزمين ، فلم ينج منهم إلا من رمى بنفسه في الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه إلى الشام ، ونجا الدويدار في جمعية من عسكره ووصل إلى بغداد ، وسار « باجو » حتى دخل البلد من جانبه الغربي ، ووقف بعساكره محاذي التاج ، وجاست عساكره خلال الديار ، وأقام محاذي التاج أياما . وأما حال العسكر السلطاني فإنه في يوم

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٠ .

(٢) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٩٦ — ٢٩٨ .

الخنيس رابع المحرم من سنة ٦٥٦ هـ ثارت غيرة عظيمة شرق بغداد على درب يعقوباً بحيث عمت البلد . فانزعج الناس من ذلك وصعدوا إلى أعلى السطوح وللمنابر يتشوفون ، فانكشفت الغيرة عن عساكر السلطان وخيوله وافيفه وكراعه ، وقد طبق وجه الأرض وأحاط ببغداد من جميع جهاتها . ثم شرعوا في استعمال أسباب الحصار ، وشرع العسكر الخلفي في المدافعة والمقاومة إلى اليوم التاسع عشر من شهر المحرم سنة ٦٥٦ هـ ، فلم يشعر الناس إلا ورايات المغول ظاهرة على سور بغداد من برج يسمى « برج العجمي » من ناحية باب من أبواب بغداد يقال له « باب كواذى » (بفتح الكاف والذال وسكون اللام) . وكان هذا البرج أقصر أبراج السور ، وتقع (اقتحم على الأصح) العسكر السلطاني هجومًا ودخولاً : جري من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ما يعظم سماعه جملة فما الظن بتفاصيله ؟ .

وكان ما كان مما لست أذكره فظن ظناً ولا تسأل عن الخبر
هذا ما ذكره « صاحب الفخرى » بعد أربع وأربعين سنة من وقوع هذه الكارثة (أى قبل أن ينتهى من وضع كتابه سنة ١٢٠١/٧٠١) . ولم يكن الفخرى - كما يقول براون^(١) - يكتب ما يشاء ويسجل ما يريد ، ولكنه كان يكتب ما يكتب وهو يعلم أنه يعيش تحت حكم مغولى أيام غازان حفيد هولاكو .

ولما رأى الخليفة المستعصم أنه لا مفر من دخول المغول مدينة بغداد حول على التسليم ، فأرسل رسوله شرف الدين بن الجوزى ثانية إلى هولاكو يحمل إليه كثيراً من الهدايا الثمينة معلناً رضاه بالتسليم ووقف القتال . ولم تنص على ذلك بضعة أيام حتى خدعه المغول بالوعد الكاذبة . وقد ذكر ابن كثير^(٢) أن الوزير ابن العلقمى كان قد اجتمع بهولاكو مع أهله وأصحابه وحشمه ، ثم أشار على الخليفة بالخروج إلى هولاكو والمثول بين يديه لتفح المصالحة على أن يكون نصف الخراج لهولاكو والنصف الآخر للخليفة .

وفى يوم الأحد ٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م) خرج الخليفة للملاقاة هولاكو ، وكان بصحبته أولاده الثلاثة وهم : ولده الأكبر أبو العباس أحمد ، وولده الأوسط أبو الفضائل عبد الرحمن ، وولده الأصغر أبو المناقب مبارك ، وثلاثة آلاف

(١) تاريخ الأدب في إيران . ترجمة الدكتور إبراهيم أ. بن ج ٢ ص ٥٨٧ .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

من القضاة والفقهاء والصوفية والامراء وأعيان المدينة . ولما اقترب هذا الركب من دار هولاكو حجبوا عن الخليفة ولم يبق معه إلا سبعة عشر شخصاً منهم . ولما أحضر الخليفة بين يدي هولاكو كان الاضطراب يبدو عليه ، فقال له هولاكو : « أنت المضيف ونحن الضيوف فأحضر ما يليق بنا » . وقد بلغ من اضطراب الخليفة أنه لم يعد يعرف المسكان الذي أودع فيه مفاتيح خزائنه ، فأمر بكسر عدة أقفال ، وأحضر لهولاكو ألفي ثوب وعشرة آلاف دينار وكثيراً من الجواهر والنفائس ؛ فلم يلتفت هولاكو إليها ومنحها كلها للامراء ، ثم قال للخليفة : إن الأموال التي تملكها على وجه الأرض ظاهرة ، وهي ملك عبيدنا ، ولكن أذكر ما تملكه من الدقائق . وما هي ؟ وأين توجد ؟ فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر . خفروا الأرض ، فكان الحوض مليئاً بالذهب الأحمر ، وكان كله من سبائك زن الواحدة مائة مثقال . وقد أحصى نساء القصر فكن سبعائة بين زوجة وسرية وخادمة (١) .

ثم طلب هولاكو من الخليفة أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بحجة عمل تعداد لهم . فأنفذ الخليفة رسولا من قبله ينادي الناس في طرقات المدينة بأن يلقوا السلاح ويخرجوا من الاسوار . غير أنهم لم يكادوا يلون طلبه ، حتى أمر هولاكو جنده فانقضوا عليهم وقتلوه شر قتله . ولما استقر هولاكو بقصر المأمونية شرقي بغداد سمح لجنده بدخول المدينة فعاثوا فيها أسبوعاً كاملاً ، وهدموا مساجدها ليحصلوا على ذهب قبائها ، وجردوا القصور بما بها من التحف النادرة ، وأنفقوا عدداً كثيراً من السكك القيمة في مكتباتها ، وأهلكوا كثيراً من رجال العلم فيها (٢) .

وقد أعمل جند المغول السيف في رقاب أهل بغداد أربعين يوماً سلبوا فيها أموالهم وأهلكوا كثيرين من رجال العلم ، وقتلوا أئمة المساجد وحملوا القرآن ، وتمطلت المساجد والمدارس والربط ، وأصبحت المدينة قاعاً صفصفاً ليس بها إلا فئة قليلة مشردة الأذهان . وكان القتلى في الطرقات كأها التلال . ولما نودي بالآمان خرج من تحت الأرض من اختفوا في المطامير والمقابر ومن لجأ إلى الآبار والحشائش كأنهم الموتى قد نبشت

(١) جامع التواريخ : المجلد الثاني ج ٢ ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

(٢) أنظر Brown, Lit. Hist. of Persia, Vol. II, p. 463, seq. ، الترجمة ص ٥٨٦ .

قبورهم ، وقد أنكر بعضهم البعض ، فلم يعرف الأب ابنه ولا الأخ أخاه ، ثم انتشر الوباء فحصدتهم بمنجمله حصداً ذريعاً ، وفسد الهواء وعم الوباء (١) .

وقد انتهت هذه الحوادث المحزنة بقتل الخليفة المستعصم وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم . وقد اختلف المؤرخون في عدد الأنفس التي أزهقتها المغول على أثر دخولهم بغداد ، فذهب بعضهم إلى أنها بلغت ثمانمائة ألف ، وقدرها السبكي (٢) بتسعمائة ألف ، وذهب ابن كثير (٣) إلى أنها بلغت مليوناً وثمانمائة ألف ، عدا من غرق أو هرب . على أنه بما لا شك فيه أن هذه المدينة فقدت معظم سكانها في هذه الكارثة وضاعت الثروة الأدبية والفنية التي عنى الخلفاء العباسيون بجمعها منذ بنى أبو جعفر المنصور ببغداد واتخذها حاضرة لدولته .

وبسقوط بغداد زالت الدولة العباسية وزالت الخلافة التي عاش في ظلها العالم الإسلامي زهاء خمسة قرون . ولم تعد بغداد مركز الإسلام ومعين الثروة والرخاء وكعبة العلماء ، ولم يحدثنا التاريخ أن حضارة زاهرة كالحضارة الإسلامية في بغداد قد اختفت في مثل هذه السرعة ، وأصبحت حاضرة العباسيين طعمة تلتهم النيران المستعرة وتغرقها الدماء المهرقة .

وقد أمر هولاكو قبل رحيله بتجديد بناء مسجد الخليفة وضريح موسى الكاظم (٤) . وقد أسهب في وصف هذا التخريب عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩ / ١٣٣٨) في كتابه « مرصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع لياقوت الحموي » (ت ٦٢٩ / ١٢٢٩) . وقد جمع عبد المؤمن هذا الكتاب حول سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) وزاد عليه وأخرجه في أربعة أجزاء (لندن ١٨٥٣ م) ، فأشار في الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ١٦٣) إلى التخريب الذي قامت به الجيوش الفارسية والتركية والمغولية التي كان يخرب كل منها ما بناه من سبقه من السلاطين .

وقد اختلفت أقوال المؤرخين في الدور الذي قام به مؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفة المستعصم في تسليم بغداد ، فبعضهم يرى أن هذا الوزير أثار مخاوف الخليفة من خطر المغول ونصح له بالاستعداد للحربهم وأخذ الحيلة لدرء خطرهم ، وكان هذا الوزير ،

(١) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة في أعيان المائة السابعة ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ص ١١٥ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠٢ .

(٤) انظر Le Strang, Baghdad During the Abbasid Caliphate, p. 343.

كما وصفه صاحب الفخرى ، « من أعيان الناس وعقلاء الرجال » . إلا أن بعض خاصة الخليفة قللوا من شأن المغول وأدخلوا في روع الخليفة أن وزيره يبالغ في تصوير هذا الخطر ليفيد من الأموال التي تخصص لتجنيد الجند وتزويدهم بالسلاح . وبهم الجوزجاني في كتابه طبقات ناصري هذا الوزير بأنه قتل من عدد الجند الذين أسندت إليهم مهمة حماية المدينة وزين للخليفة التسليم لإرضاء لأطباعه وانتقاماً للاضطهادات التي تعرض لها الشيوعيون على يد ابن الخليفة الأكبر . ولذلك اتفق ابن العلقمي مع نصير الدين الطوسي الذي اتخذه هولاء وزيراً له والذي كان يدين بعقائد المذهب الشيعي كابن العلقمي على تسليم بغداد للمغول ، بل لقد ذهب ابن كثير إلى القول بأن الوزير ابن العلقمي وبني جلدته من الشيعة قد أشاروا على هولاء بالادخار في صلح مع الخليفة بحجة أن مثل هذا الصلح لن يدوم ، بل إنهم حسنوا له قتل الخليفة . كما ذهب هذا المؤرخ^(١) إلى القول بأن ذلك كان راجعاً إلى العداء المستحكم بين السنيين وبين الشيعة الذين نهبت دورهم قبل فتح بغداد على أيدي المغول ، فاشتد جنى الوزير ابن العلقمي ، كما ذكر السيوطي^(٢) ، فراسل التتار وأطعمهم بالمسير إلى العراق وفتح بغداد وإزالة الدولة العباسية وإقامة خلافة علوية على أنقاض الخلافة العباسية^(٣) .

على أن هذه الآراء لا تتفق مع هذه الحقيقة التاريخية وهي أن فتح المغول بغداد كان جزءاً من مشروع سياسي يهدف إلى اتساع رقعة إمبراطورية المغول بعد أن تم لهم فتح إمبراطورية الصين الشمالية وأواسط آسيا وإيران وجورجيا والقوقاز والروسيا وبولندة وغيرها ، أضف إلى ذلك أن قتل المغول أهل بغداد قد شمل السنيين كما شمل الشيعة الذين نهبت دورهم في الكرخ وهي محلة الشيعة ببغداد . وإذا كان المغول قد قربوا إليهم ابن العلقمي فإنهم مع ذلك قد تخلصوا منه ، إذ أن حياته لم تمتد بعد مقتل الخليفة المستعصم أكثر من ثلاثة أشهر . وبما هو جدير بالملاحظة أن الجوزجاني يغلو في سفيته أكثر مما يغلو ابن طباطبا في تشيعه . هذا إلى ما عرف به الوزير ابن العلقمي من شغفه بالكتب وتقريب العلماء والأدباء ، حتى لقد اشتملت مكتبته على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب ، وأهداه كثير من الشعراء دواوينهم^(٤) . وكان كما يقول ابن طباطبا^(٥) « عفيفاً عن أموال الديوان وأموال الرعية متزهاً مرفعاً » .

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ وما يليها .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٠ .

(٤) براون : تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة ج ٢ ص ٥٨٩ .

(٥) انظر كتاب الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

الباب الخامس

الدول الإسلامية المستقلة

غير التابعة لحكم العباسيين

أولاً — الغوريون والغزنويون :

١ — ظهور الغوريين :

آذن نجم البيت الغزنوي بالأفول وشهد عصر سنجر زوال هذه الأسرة النهائي على أيدي ملوك الغور الجبليين وهم أفغانيو « فيروز كوه » الأشداء ، وكان ظهور الدولة لإبراهيم (٤٥١ — ٤٩٢ / ١٠٥٩ — ١٠٩٩) جلس على عرش السلطنة حين بدأ الغوريون في الظهور . وقد اتصف هذا السلطان بقوة الشكيمة : فقد حدث نقص شديد في الخبز في غزنه ، وأغلق الخبازون حوانيتهم وشعر الفقراء بالعسر والضيق واستغاثوا بالسلطان الذي بعث في طلب الخبازين وسألهم عن سبب ندرة القمح ، فأجابوا بأن صاحب الخبز السلطاني احتكر الدقيق لرفع سعره ، فأمر السلطان بوضعه تحت حوافر القميل حتى يموت ، وبعد موت صاحب الخبز أمر السلطان بأن يعاقب جسمه بين أنياب القميل ويطاف به في طرقات المدينة . وصدر منشور يعلن للناس أن ذلك هو مصير كل خباز يغلق حانوته . وقد زاد نظام الملك (١) أنه لم يأت مساء ذلك اليوم حتى وضع عند باب كل حانوت من حوانيت بائعي الخبز خمسون مقطفاً (والمقطف يحتوي على مائة رطل من الخبز) ، وبلغ الخبز من الوفرة بحيث زهد الناس في شراء أكثره .

مات السلطان ظاهر الدين إبراهيم الغزنوي سنة ٤٩٢ هـ ، وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٢ — ٥٠٨ / ١٠٩٩ — ١١١٤) . ثم خلفه أبنائه الثلاثة شيرزاد (٥٠٩ / ١١١٥) وأرسلان (٥١٢ / ١١١٨) وبهرام شاه الذي خنق أخاه وجلس على العرش من بعده (٥١٢ / ١١١٨) وحكم الدولة الغزنوية المتداعية حتى نهاية سنة ٥٤٧ / ١١٥٢ . وقد

(١) سياسة نامه (نشرة شيفير) ص ٤٢ نقلًا عن Browne, II, p 305.

انتهى حكم بهرام شاه بنسكية حلت به . ذلك أنه في شهر ذى القعدة سنة ٥٢٩ هـ ارتاب سنجر في ولايته وعدم إخلاصه في الوفاء بوعوده ، كما نعى إليه أنه ظلم الناس واغتصب أموالهم . فسار سنجر إلى غزنة (١) . وقد أدركه الشتاء واشتد البرد به وبجنده وكثر هطول الأمطار وتعذر وصول القوات للجند والعلوفة للباشية . وما زال سنجر كذلك حتى قرب من غزنة وأرسل إليه بهرام شاه يستعطفه ويسأله الصفع عما بدر منه ، فأرسل إليه سنجر يعده بالعفو عنه إذا حضر عنده وعاد إلى طاعته : فأذعن بهرام شاه لأمر سنجر ، ولكنه لما قرب من معسكره تملكه الخوف وولى هارباً ولم يعرج على غزنة ، فسار سنجر إليها ودخلها وجبى أموالها ، وكتب إلى بهرام شاه يلومه ويحلف له أنه ما أراد شراً ولا يبلده مطمعاً ، وإنما قصده لإصلاحه وردّه إلى طاعته ، « فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنقل ويقول إن الخوف منه من الحضور ولا لوم على من خاف من السلطان وتضرع إلى السلطان أن يعفو عنه وأن يسيع عليه عطفه ، فأجاب سنجر إلى إعادة بلده إليه ، وترك غزنة وقفل راجعاً إلى بلده : فوصل إلى بلخ في شهر شوال سنة ٥٣٠ هـ وعاد بهرام شاه إلى غزنة (٢) وبعد اثنتي عشرة سنة دبر بهرام شاه مؤامرة لقتل صهره قطب الدين محمد الغوري . وقد ثار أخواه سيف الدين سوري وعلاء الدين حسين لمقتل أخيهما هذا في سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) بطرد بهرام شاه من غزنة وهربه إلى الهند ، وتقلد سيف الدين سوري ولايتها نيابة عن أخيه علاء الدين . على أنه قد دبرت مؤامرة ضد سيف الدين في الشتاء التالي . ولما امتلأت الطرق بالثلوج دعى بهرام شاه للعودة إلى بلاده ، فقبض على سيف الدين سوري على حين غفلة وشهر به في المدينة وقد جلل وجهه بالسواد وهو ممتط بقرة ، ثم شق أو صلب (٣) . وقد ذكر ابن الأثير (٤) أن علاء الدين حسين الغوري (٥٤٤ - ٥٥١ هـ)

(١) ذكر ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٠ - ١٩١ أن غزنة كانت قد دخلت في حكم سنجر سنة ٥١٠ هـ : وكان بهرام شاه بن ألب أرسلان الغزنوي قد استنجد به وطلب منه الحضور إلى غزنة . وقد تغلب جيش سنجر على جيش أرسلان شاه وجلس بهرام شاه على سرير جده محمود الغزنوي صاحب الفتوحات الإسلامية في الهند .

(٢) ابن الأثير : الكامل المصدر نفسه ج ١١ ص ١٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٦ - ٦٧ .

عاد إلى غزنة وخرّبها ، وتعد هذه السنة (٥٤٣ هـ) ابتداء الدولة الغورية حيث عظمت قوة الغور وعلا شأنهم وتركوا بلادهم الجبلية .

٢ — علاء الدين حسين الغورى .

وقد قابل علاء الدين حسين الغورى لِسَاءة بهرام شاه بإتزال العقاب الصارم بأهل غزنة (٥٥٠ / ١١٥٥) ، وذلك بعد موت بهرام شاه بثلاث سنين واستخلاف ابنه خسرو شاه . وإن لقب « السلطان المعظم » ^(١) أو ملك الدنيا والدين (جهان سوز) الذى تلقب به ، ونهب مدينة غزنة وتخرّيب عمارات محمود ومسعود وإبراهيم الغزنويين ليدل دلالة وانحطة على مدى الولايات التى حلت بهذه المدينة العتيقة فى خلال الأيام الثلاثة التى تعرضت فيها لنقمة الغور . وعلى الرغم من هذه المآسى التى حلت بغزنة على أيدي الغور لم يصب الأدب بسوء ، بل على العكس من ذلك كان محل تقديرهم . فقد ذكر نظامى عروضى السمرقندى ^(٢) أن علاء الدين الغورى حين أمر بنهب غزنة وتخرّيب عماراتها « اشترى مدائح محمود ومسعود وإبراهيم (الغزنويين) بالذهب وخبأها فى خزانة كُتِبَ به » ، ولم يجرؤ أحد فى عسكر علاء الدين فى هذه المدينة أن يسمى أحد ملوك الغور سلطاناً ، على حين كان الملك نفسه يقرأ فى الشاهنامه ماقاله مؤلفها الفردوسى .

« أول ما ينطق به الطفل الرضيع فى مهده « محمود » (الغزنوى) تتمثل فى جسمه صولة الغيل ، وفى روحه علم جبريل ، وفى كفه مطر الربيع ، وفى قلبه نهر النيل » ^(٣) .

ملك العالم محمود ، ذو العزة القعساء الذى جمع بين الذئب والحمل ^(٤) على مورد الماء .

ولما قوى أمر علاء الدين الغورى واتسع سلطانه نصّب العمال على بلاد الغور الواسعة . ومن هؤلاء العمال ابنا أخيه بهاء الدين سام وهما : غياث الدين محمد وشهاب الدين محمد . وقد استمالا إليهما الأهلين بالعدل وحسن السيرة ، فأحبهما الناس وانتشر ذكرهما فى

(١) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٧ .

(٢) Browne, II, p. 306 نظامى عروضى : جهاز مقاله (ترجمه إلى الإنجليزية براون)

ترجمة عربية ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) كثيراً ما كان يطلق على أنهار وبحار الشرق الأوسط كلمة « النيل » تشبيهاً بنيل مصر . كما يطلق المغاربة على نهري السنغال والنيجر كلمة النيل على سبيل التشبيه .

(٤) أى أنه لقوته وضرارته أذل الأشرار حتى أصبح الضعاف لا يخشون بأسهم . وقد شبه هذا بقوله إن السلطان استطاع أن يسير الحمل بجانب الذئب .

الآفاق ، فأضمر لهما بعض أمراء الدولة الحسد وأوغروا عليهما صدر عمهما علاء الدين حسين ورموهما بتدبير قتله والاستيلاء على ملكه . ولما بعث علاء الدين في طلب ابن أخيه امتنع عن الحضور . إذ نعى إليهما الخبر بما دبره لهما عمال السوء ، فسير إليهما عمهما علاء الدين جيشاً حلت به الهزيمة . وأظهر غياث الدين وشهاب الدين العصيان لعمهما . وقطعا الخطبة له على منابر البلاد . ولم يجد علاء الدين بداً من المسير إليهما بنفسه . ولكن الهزيمة حلت به وأسر . على أن ابني أخيه أحسنوا معاملته وأجلساه على العرش ووقفوا في خدمته واستدرا بذلك عطفه ، حتى إنه بادر إلى زواج غياث الدين من إحدى بناته واتخذته ولياً لعهده .

(٣) غياث الدين محمد — زوال المرونة الغزنوية

توفي علاء الدين حسين سنة ٥٥٦ هـ . وكان كما وصفه ابن الأثير^(١) ، من أحسن الملوك سيرة في رعيته ، ثم خلفه ابنه سيف الدين محمد (٥٥٦ — ٥٥٨ هـ) . وفي عهده نشط دعاة الإسماعيلية وكثر أتباعهم ، فطردهم هذا السلطان من بلاده . وقد تبادل المراسلات والهدايا مع الملوك والأمراء . ولم يعمر سيف الدين محمد في سلطنة الغور ، وذلك أنه سار من جبال الغور على رأس جيش لحرب الغز ببلخ . وقد اتفق أن خرج سيف الدين محمد من معسكره في جماعة من خاصته ، وسمع بذلك أمراء الغز ، فألحوا في طلبه وأوقعوا به ، فقاتلهم ، فقتل مع بعض خاصته ، وذلك في شهر رجب سنة ٥٥٨ هـ . وأسر بعض آخر وهرب الباقون ، ولحق عسكره ببلادهم . وكان سيف الدين محمد في العشرين من عمره^(٢) .

ولما قتل سيف الدين محمد جلس غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام على العرش وخطب له على منابر الغور . ولما قوى أمره جمع جيشاً جراراً سار بقيادة أخيه شهاب الدين . فاستولى على غزنة من الغز ، وكانوا قد حكموها خمس عشرة سنة أذاقوا فيها الأهالي ألوان التعذيب وعاملوهم معاملة قوامها الظلم والجور . ثم سار شهاب الدين الذي عرف بحسن سيرته وعدله إلى كرمان وعبر نهر السند واستولى على بعض بلادها الجبلية ، ثم عاد الغز فملكها غزته من جديد^(٣) .

(١) السكامل ج ١١ ص ١٠٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١١٨ — ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٢٤ .

وفي سنة ٥٥٩ هـ ، سار شهاب الدين على رأس جيش كثيف من الخراسانيين والغور ،
فعبّر نهر السند وحاصر لاهور واستولى عليها من يد صاحبها الغزنوي خسرو شاه
(٥٥٥ — ٥٨٢ / ١١٦٠ — ١١٨٦) وأحسن معاملته ، ثم طلب أخوه غياث الدين
محمد إرسال خسرو شاه إليه ، فأمر به فقتل في إحدى القلاع . وبذلك زالت الدولة
الغزنوية على يد شهاب الدين الغوري سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) ، وتداعى سلطان الغزنويين
في الهند ، وانقسمت دولتهم إلى دويلات إسلامية مستقلة^(١) . وكان سلاطين الغزنويين
كما ذكر ابن الأثير^(٢) « من أحسن الملوك سيرة ، ولا سيما جدهم محمود (الغزنوي) ،
فإن آثاره في الجهاد معروفة وأعماله الأخيرة مشهورة » .

استقر سلطان غياث الدين الغوري وقوى أمره واتسعت رقعة مملكته وكثر عدد
جنده ، وأصبح بحيث يستطيع أن يعلن نفسه سلطاناً على البلاد . لذلك نراه يبعث إلى
أخيه شهاب الدين بأمره بإقامة الخطبة له بالسلطنة على منابر الهند حيث استقر سلطان
الغور في لاهور ، وبعد أن كان لقب غياث الدين محمد « شمس الدين » ، أصبح الآن
يلقب بألقاب « غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير اللومنين » ، كما تلقب أخوه
شهاب الدين بلقب عز الدين^(٣) .

وفي سنة ٥٩٧ هـ عول غياث الدين على استرداد خراسان من خوارزم شاه محمد ،
فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يطلب إليه المسير إلى هذه البلاد وفتح حاضرتها مرو .
ثم استولى على سرخس وطوس وهراة ، ثم لحق به أخوه شهاب الدين وساعده على
فتح نيسابور وحاصر بعض قلاع الإسماعيلية وطهر البلاد منهم ونشر الإسلام في ربوعها .
ثم قامت الجفوة بين غياث الدين وأخيه شهاب الدين . وقد عز ابن الأثير^(٤) ذلك إلى أن
صاحب قهستان شكاً إلى غياث الدين أخاه وقال إنه حاصر بلده وخرج على العهد الذي
أبرم بينهما . وبينما كان شهاب الدين مشغولاً بحصار حصن الإسماعيلية أنهاه رسول

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ٦٩ . حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ١٠٢ .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٦٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٦٨ — ٦٩ .

(٥) الكامل ج ١٢ ص ٧٠ .

أخيه يطلب إليه الرحيل من قهستان ، فأبى ، فأنفذ الرسول أمر أخيه ، فسل سيفه وقطع أطباء سراق (حبال) شهاب الدين ، فرحل مع عسكره غاضباً وأبى المقام بغزنة ورحل إلى بلاد الهند^(١). وقد ذكر ابن الأثير^(٢) في حوادث سنة ٥٩٥ هـ أن خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش استرد ما أخذه الغور من خراسان .

وفاة غياث الدين محمد — صفاته

توفي غياث الدين الغورى سنة ٥٩٩ هـ . وقد اتسع ملكه . وكان كما وصفه ابن الأثير^(٣) ، مظفراً منصوراً فى حروبه ، لم تنهزم له راية قط . وكان جواداً حسن الاعتقاد كثير الصدقات ، وقد شيد الخانقاهات فى الطرق ، وأسقط المكوس ، ولم يتعرض إلى مال أحد من الناس . ومن مات ببلده أودع ماله ليوزعه القضاة على مستحقه طبقاً لقواعد الشريعة الإسلامية . وإذا وصل إلى بلد من البلاد عم إحسانه الفقهاء وأهل الورع والدين وخلع عليهم وفرض لهم العطايا فى كل سنة من خزانته ، كما وزع الأموال على الفقراء . وكان يشمل بعطفه ورعايته كل من وصل إلى حضرته من العلويين والشعراء وغيرهم . وقد أولع بالأدب والبلاغة وعرف بحسن الخط حتى كان ينسخ المصاحف بخطه ويقفها على المدارس التى بناها . وعلى الرغم من ميل غياث الدين محمد إلى عقائد المذهب الشافعى وبثائه المساجد لأصحاب هذا المذهب ، لم يؤثر أصحاب مذهب على مذهب ، بل كان يسوى بينهم وبين غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى ، كما أثر عنه أنه تحول إلى هذا المذهب على يد محمد بن محمود المروروزي ، وكان من فقهاء الشافعية . وكان غياث الدين يقول :
التعصب فى المذاهب من الملك قبيح^(٤) .

شهاب الدين محمد — هروبه مع الخوارزميين والخطا

ولما مات غياث الدين (٥٩٩ — ٦٠٢ هـ) حال أخوه شهاب الدين دون تولية ابنه محمود ، وجلس على العرش ، ولكنه ولى محموداً بست . وكان لغياث الدين مغنية كلف بها

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٧٥ — ٧٦ .

فتزوجها . فلما مات لم ينس شهاب الدين ما لحق به من إساءة أخيه حين حاصر إحدى قرى قهستان وطهر الإسماعيلية منها ، فقبض على زوجة أخيه وضربها هي وابنها ضرباً مبرحاً واستولى على ما كان لها ولاهلها من مال وممتلكات وسيرهم إلى بلاد الهند في أقبح صورة ونبس قبور موتاهم .

وفي شهر رجب سنة ٦٠٠ هـ استرد خوارزم شاه محمد مدينة هراة من ابن أخت شهاب الدين الغورى . وفي هذه السنة ترك شهاب الدين الغورى غزنة حاضرة ملكه قاصداً لاهور لغزو بلاد الهند . ولما علم خوارزم شاه محمد بذلك حاصر مدينة هراة ؛ فلم ير شهاب الدين بداً من العودة إلى خراسان . ثم أغز السير حتى بلغ ظاهر مدينة مرو حاضرة خراسان ، ودار القتال بين جند شهاب الدين وجند خوارزم شاه الذى استجد بالخطا من أتراك بلاد ماوراء النهر ، فساروا إلى بلاد الغور . ولما علم شهاب الدين الغورى بذلك عدل عن الاستمرار فى القتال مع خوارزم شاه محمد وعاد إلى بلاده والتقى بمقدمة جيش الخطا (صفر سنة ٦٠١ هـ) وأحل بهم الهزيمة . ثم دهمه جيش كشف من الخطا أحل الهزيمة بشهاب الدين وأسره وكثرت الأراجيف بقتله . ثم صالحه الخطا وأطلقوا سراحه بعد أن قتل أكثر جنده ونهب جميع خزائنه ، ثم سار شهاب الدين إلى غزنة ولحق به أحد عماليكه إلى الهند ودخل المولتان وقتل نائبه فيها ، واستولى على البلاد وأساء السيرة فى الرعية وظلمهم وأخذ أموالهم وأدعى السلطنة لنفسه . ولما نعى خبره إلى شهاب الدين سار إلى الهند وقبض عليه وقتله (جمادى الآخرة سنة ٦٠١ هـ)^(١) .

ولم ينس شهاب الدين هزيمته على أيدي الخطا الأتراك وعول على أخذ الثأر منهم وغزو بلادهم . وقد ذكر المؤرخون أنه سار على رأس جيش يتألف من عشرين ألف مقاتل قاصداً الخطا . ولما وصل إلى بلادهم فرق عسكره فى مفازة قليلة الماء ، وكان الخطا قد نزلوا بطرفها ، وكلما خرجت طائفة من الغور فاجأهم الخطا وقتلوا بهم قتلاً وأسرأ ، ومن سلم منهم قفل هارباً إلى بلاده . وقد وصل شهاب الدين وقد أعياها التعب والارهاق هو وجنده دون أن يعلم بما حل بجنده الذين تعرضوا للهلاك ، فقاتل الغور الذين بلغ عددهم أضعاف عدد جنده وحصروه فى « أندخوه » وكادت الهزيمة تحل بجيشه . وهنا فكر شهاب الدين فى خدعة حربية تسلك بالانجاح . فقد أمر طائفة من جنده بأن تسير ليلاً وتعود إليه فى الصباح ، وظل الخطا أن المدد قد أتى من بلاد الغور وأخذ الخوف يذب

إلى قلوبهم . وكان صاحب سمرقند يدين بالطاعة للخطا ، وقد خشى أن يظفروا بالمسلمين . لذلك نراه يثير مخاوف الخطا من تدفق الامداد على شهاب الدين ، وأشار عليهم بأن ينجحوا للسلم ويطلبوا الصلح ، فوافقوا على رأيه ، وأرسل صاحب سمرقند إلى شهاب الدين سرّاً يشير عليه بأن يتظاهر بالامتناع عن إجابة الغور إلى الصلح أولاً ثم يجيبهم إليه قبل فوات الفرصة . فلما أنت رسل الخطا تظاهر شهاب الدين بقوته وأبى قبول الصلح ، ثم عاد فأجابهم إليه ، وأبرم الصلح بين الفريقين على ألا يغير أحدهما على الآخر . وبذلك عاد شهاب الدين محمد بن سام الغورى إلى بلاده وتخلص من هزيمة محقة على أيدى الخطا (١) .

ولما ذاع نبأ مقتل شهاب الدين محمد على أيدى الخطا وأن أصحابه لم يقفوا له على أثر ، تنافس أمراء دولته على الحكم وقامت الثورات فى أطراف بلاده . ومن هؤلاء الثائرين « دانيال » صاحب جبل الجودى (٢) ، وكان قد أسلم . فلما بلغه مقتل شهاب الدين إرتد عن الإسلام . كما ثار « بنو كوكر » وأدخلوا صاحب جبل الجودى فى طاعتهم وقطعوا الطريق بين لاهور وغزنة .

وقد أرسل شهاب الدين مملوكه قطب الدين أيلىك قائمه فى الهند والمولتان يأمره بأن يدعو بنى كوكر إلى الطاعة ويتهدهم بالحرب إذا لم ينجحوا للسلم . فلم يثق زعيمهم بقوله وهدد بتخريب البلاد وكثرت جموعه وقويت شوكته وجبى الاموال باسمه . ولما نرى ذلك إلى شهاب الدين أمر مملوكه قطب الدين بالعودة إلى بلاده وقتال بنى كوكر ، فعاد إلى دهلى واستعد للحرب . وأقام شهاب الدين فى « فرشابور » مهد الغور إلى منتصف شهر شعبان سنة ٦٠١ هـ ، ثم عاد إلى غزنة واستعد للحرب الخطا . وفى شهر ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ سار على رأس جيش كبير ، وانقطعت أخباره من غزنة وفرشابور وانتشرت

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٧٨ .

(٢) لعل هذا الجبل هو المذكور فى القرآن فى سورة هود (١١ : ٤٤) التى تنص على أن سفينة نوح عليه السلام قد رست على جبل الجودى حين أمر الله سبحانه وتعالى الماء بأن يكف فائلا (وقيل يا أرض ابلعى ماءك وباسماء أقملى وغبض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) وكان دانيال وأصحابه يقطنون البلاد الجبلية المنيعة بين لاهور والمولتان .

الاراجيف بهزيمة ، ولكنه كان قد أغز السير إلى بني كوكر ، فدهمهم ونشب بينهما القتال وأقبل قائده قطب الدين في عسكره ونادوا بشعار الإسلام وأحلوا الهزيمة ببني كوكر وطاردوهم في كل مكان حتى بلغوا أكمة احتفى بها الكوكرية ، فأضرم جند شهاب الدين النار فيها وغنم المسلمون « ما لم يسمع بمثله حتى إن الممالك كانوا يباعون كل خمسة بدينار . وهرب زعيم الكوكرية بعد أن قتل لإخوته وأهله » . أما ابن دانيال فقد استجار بقطب الدين أبيك ، فأجاره وشفع فيه إلى شهاب الدين فأجابه إلى طلبه واستولى على قلعه وعاد إلى لاهور ، وأخذ يستعد لحرب الخطا ، ثم عاد إلى غزنة ، وأرسل إلى بهاء الدين سام صاحب « باميان » يأمره بالاستعداد للسير إلى سمرقند (١) .

كذلك خرج على شهاب الدين الغوري « النبراهية » ، وكانوا يسكنون البلاد الجبلية المحيطة بولاية « فرشابور » . وكانوا على الوثنية ، إذا ولد لهم بنت وقف أبوها على باب داره ونادى : من يتزوج هذه ؟ من يقبلها ؟ فإن أجابه أحد تركها وإلا قتلها . وكان للبراة عدة أزواج . وطالما أغاروا على حدود بلاد الغور وأوقعوا بالمسلمين . وإذا وقع في أيديهم أسير من المسلمين أمعنوا في تعذيبه .

وقد قيل إنهم أسروا رجلا من فرشابور فأمعنوا في تعذيبه أياما . وقد سأل زعيم النبراهية هذا الأسير عن حالة البلاد الإسلامية وقال له : لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطيني ؟ فقال له : « يعطيك الأموال والإقطاع ويرد إليك حكم هذه البلاد التي لكم » . فأعاد هذا الزعيم الأسير إلى شهاب الدين يعرض عليه قبوله الإسلام ، فعاد ومعه رسول « بالخلع والمنشور بالإقطاع » . وسار هذا الزعيم مع جماعة من أهله إلى شهاب الدين فأسلموا على يديه ، ثم عادوا إلى بلادهم واستراح الناس من شرهم (٢) .

وفاة شهاب الدين محمد — صفاته :

امتد ملك شهاب الدين محمد الغوري على غزنة وبعض بلاد خراسان ، وقتل وهو يصلي

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٣ ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٨٧ - ٨٨ .

العشاء على أيدي بعض الكوكرية من الهنود أخذاً بالثأر لما ألحقه بأهلهم من قتل وتشريد
وكان شهاب الدين قد عاد من لاهور يحمل مالا يحصى من الأموال التي اشتملت على
ألف ومائتي حمل . وكان شهاب الدين قد أمر جنده في الهند باللحاق به كما أمر جنده
بخراسان بالاستعداد والتأهب حتى يصل إليهم ليغزو بلاد الخطا الجبلية .

ولما قتل شهاب الدين اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الدين وطلبوا منه الاحتفاظ
بالأموال والملك إلى أن يتفقوا على من يخلفه في الحكم من البيت الغوري ، ثم أخفوا
جراحه وأظهروه بظهر الحى ووضعوه على المحفة . وسار الوزير والأمراء والمماليك أمامه
حتى وصلوا إلى غزنه حيث دفن شهاب الدين في ٢٨ من شعبان سنة ٦٠٢ هـ .

وكان شهاب الدين كثير الغزو في بلاد الهند . وكان حسن السيرة ، عادلاً يحكم بين
الناس بما يوجهه الشرع ، فيحضر القاضى إلى قصره في أيام السبت والأحد والاثنين
والثلاثاء فإذا أصدر القاضى أحكامه أخذ كبار رجال الدولة في تنفيذها لا فرق بين صغير
وكبير وشريف ووضيع . وكان شهاب الدين يدين بعقائد المذهب الشافعى (وقيل بعقائد
المذهب الحنفى) ، ولكنه كان لا يفرق بين مذهب ومذهب ، وكان العلماء يجتمعون بحضرته
فيتناولون المسائل الفقهية وغيرها . ومن هؤلاء الفقهاء نثر الدين الرازى الذى كان يقوم
بالوعظ في قصر الأمير ، وقد أثر عنه أنه وعظ يوماً فتم وعظه بقوله مخاطباً شهاب الدين
يا سلطان ! لا سلطان يبق . . . وإن مردنا إلى الله ، فبكى شهاب الدين وأكثر من البكاء .

وكان شهاب الدين رفيق القلب لين الطبع ، لفيه صبى علوى وهو راكب فدعا له
وقال إنه ما أكل شيئاً منذ خمسة أيام ، فعاد شهاب الدين لساعته ومعه الصبي وأمر فقدم له
أشهى الطعام أمامه ، ثم بعث في طلب أبيه وسلمه إليه . ووزع كثيراً من المال على
العلويين (١) .

غياث الدين محمود :

لم ينبج شهاب الدين محمد ولداً ذكرأ يخلفه في الحكم ، ومال وزيره مؤيد الملك ومعه
الأتراك إلى تولية غياث الدين محمود (ابن أخيه غياث الدين محمد) صاحب بست
وأسفرين ، ومال العلويين إلى تولية بهاء الدين سام صاحب باميان وابن أخت

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٨٩ — ٩٠ .

شهاب الدين^(١)، وسار بعض أمراء الغور إلى بهاء الدين سام ونقلوا إليه نبأ مقتل خاله وحشوه على المسير إلى غزنه ليجلس على عرش السلطنة . فكتب بهاء الدين إلى أمراء الغور بغزنه يعلمهم بمسيره إليهم ، كما كتب إلى أحد الأمراء وهو علاء الدين محمد (بن شجاع الدين أبي علي) صاحب « فيروزكوه » يستدعيه إليه ويعدّه الجليل ، وإلى غياث الدين محمود ابن غياث الدين محمد ، وإلى ابن خزميل وإلى هراة يأمرهما بإقامة الخطبة له ، ولم يكن يظن أن أحداً منهما يخالفه .

سار بهاء الدين سام إلى غزنه في عسكره ومعه ابنه علاء الدين محمود وجلال الدين ، ولم يكذب يسير مرحلتين حتى شعر بصداخ أخذ يتزايد وأيقن بالموت ، فعهد إلى ابنه علاء الدين بالملك من بعده وأمره بأن يسير مع أخيه إلى غزنه وأن يرفقا بالرعية ويبدلا الأموال لكسب محبة الناس ، وأن يصلحا غياث الدين محمود على أن تكون له خراسان وبلاد الغور ، وأن يحتفظا بغزنه والهند . ثم توفي بهاء الدين سام وبلغ ابنه علاء الدين وجلال الدين غزنه ونزلا بدار السلطنة في مستهل شهر رمضان سنة ٦٠٢ هـ ، وتلقاهما أمراء الغور وأهل البلاد ، كما تلقاهما الأتراك على كره منهم .

أما غياث الدين محمود فقد كان مشغولاً بحرب علاء الدين محمد بن شجاع الدين أبي علي صاحب « فيروزكوه » . وكان غياث الدين يشعر بقوة منافسه بهاء الدين . لهذا رأى التريث حتى تنكشف الأمور ، فلما انتشر خبر وفاة بهاء الدين بايع الأمراء غياث الدين وجلس على العرش ، وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين محمد ، وأقيمت الخطبة له بسلطنة الغور (١٠ رمضان سنة ٦٠٢) . وقد أمر غياث الدين محمود الأمير تاج الدين الدز (بضم الدال مع التشديد مع تشديد الزاي) بأن يخرج ابني بهاء الدين سام منها ، وقد لبى الدز طلب غياث الدين ، وكان في الواقع يريد أن يتخذ من ذلك وسيلة

(١) ذكر ابن الأثير (السكامل ج ١٢ ص ٩٠) أن غياث الدين محمد أخا شهاب الدين محمد لما أدخل في حوزته باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود . وزوجه أخته ، فولدت له ولداً سماه سام . فلما مات شمس الدين خلفه ابنه الأكبر عباس ، وكان من أم تركية . فغضب غياث الدين محمد وأخوه ونصبا ابن أختهما « سام » عليها ولقباه بهاء الدين . وقد عظم شأن سام وأخذ يجمع الأموال . وتطلع إلى الجلوس على عرش الغور . وذكر ابن الأثير (المصدر نفسه ج ١٢ ص ٩٣) أن غياث الدين محمود (بن غياث الدين محمد) وبهاء الدين سام كانا قد تعاهدا في عهد شهاب الدين محمد أن تكون خراسان لغياث الدين وغزنه والهند لبهاء الدين .

لامتلاك غزنة ، وأرغم علاء الدين محمود على الخروج من غزنة ، ونهب الأتراك ما كان معه وألقوه عن فرسه وأخذوا ثيابه ولم يتركوا له غير سراويله ، ولما علم الدز بذلك اعتذر إلى علاء الدين وبعث إليه بدواب وثياب ومال ، فأخذ ما لبسه منها وترك الباقي . فلما وصل إلى « باميان » ركب حماراً ولبس السواد وقال : أريد أن يرى الناس ما صنع بي أهل غزنة حتى إذا ما عدت إليها وخربتها ونهبتها فإنه لا يلومني أحد . ثم دخل دار الإمارة وأخذ يجمع الجند . أما الدز فقد عمل على استخلاص الملك لنفسه ، فعرض الوزارة على مؤيد الملك وزير شهاب الدين محمد ، فأجابه على كره منه ، كما طلب الدز من غياث الدين محمود أن يخاطبه بالملك ويعتقه من الرق ويزوج ابنه من ابنته (أى من ابنة الدز) فلم يجبه غياث الدين إلى طلبه لوجود الفارق الاجتماعي في الكفاية الزوجية^(١) .

وأما علاء الدين محمد بن شجاع الدين أبي علي ، فقد ولاه السلطان شهاب الدين بلاد الغور وما يليها . ولما بلغه قتل شهاب الدين سار إلى « فيروزكوه » خوفاً من أن يسبقه إليها غياث الدين محمود فيملكها ويستولى على خزائنها ، كما حاول « الدز » استمالة كبار الأمراء إليه ودعاهم إلى مساعدته على حرب خوارزم شاه علاء الدين محمد وبهاء الدين صاحب باميان ، ولم يهتم بشأن غياث الدين محمود استحقاقاً به واستهتاراً لشأنه ، فبايعوه وبايعوا ابنه من بعده . ولما بلغ غياث الدين محمود خبر موت بهاء الدين سام كما تقدم أمر بإقامة الخطبة له بالسلطنة^(٢) .

وقد استتب الأمر لغياث الدين محمود فدخل في طاعته « ابن خرميل » وإلى هراة ، وكان قد عزم على الدخول في طاعة خوارزم شاه . ثم عاد وإلى هراة فخلع طاعة غياث الدين محمود وانضم إلى خوارزم شاه حين علم بأن علاء الدين محمود وأخاه جلال الدين قد سارا نحو غزنة لاستردادها من يد الدز (٦٠٣ هـ) . وانتهز خوارزم شاه هذه الفرصة فاسترد بلخ وكانت تابعة لغياث الدين . أما الدز الذي خان عهد مولاه غياث الدين واستولى على غزنة وطرد علاء الدين وأخاه جلال الدين صاحبي باميان منها ، فقد دهمته جيوش علاء الدين الغوري ، فخرج لقتالهما فطاردها إلى كرمان ، فاستولى عليها ، ثم عاد إلى غزنة واستردها من جديد ، واختلف مع أخيه جلال الدين في اقتسام

(١) ابن الأثير : السكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٩٢ .

(٢) ابن الأثير : السكامل ج ١٢ ص ٩٣ - ٩٤ .

الغنائم ، وظهر بخلهما فكرهما أهل غزنة ومالا إلى حكم غياث الدين محمود لكرمه وإحسانه . ثم افترق الاخوان ، فأقام علاء الدين بغزنة ، وذهب جلال الدين إلى باميان ، مما أطمع « الدز » في السير إلى غزنة ولإعادتها إلى حوزته من جديد ، ولما تحقق أمره في الاستيلاء على غزنة طمع في استرداد كرماني التي استولى عليها وأحسن إلى أهلها . ولم تقف المتاعب التي أثارها الدز في وجه الغور عند هذا الحد ، فقد قتل علاء الدين محمود صاحب باميان ، ثم يم شطر باميان فأسر أخاه جلال الدين وعاد به إلى غزنة ، وفي سنة ٦٠٣ هـ عاد عباس (عم علاء الدين وجلال الدين) إلى ملك باميان (١) .

ولنعد إلى الكلام على علاقة غياث الدين محمود بالدز ، فقد طلب من الدز أن يقيم الخطبة له ، ولكنه استمر في تمردده حيث أمر الخطيب بأن يخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب الدين وتلقبه بتاج الدين الدز ، الأمر الذي أثار حقن أهل غزنة ، إذ كانوا يبايعونونه ظناً منهم أنه يحتفظ بولائه لغياث الدين محمود ويعترف بسلطنته . فلما أرسل غياث الدين محمود يعاتب الدز على تمردده أصر هذا على طلب عتقه ، فلم يجد غياث الدين بداً من إجابته إلى طلبه وبعث إليه بالهدايا والخلع ، وبذلك صفا الجو بين الدز وغياث الدين محمود ولكن هذا الصفاء لم يدم طويلاً ، إذ طلب « ابن خرميل » صاحب هراة الدخول في طاعة غياث الدين وأبدى استعداداً لإخراجه « الدز » من غزنة بالقوة ، فإذا تم له ذلك قسم مال غزنة ثلاثة أقسام : قسم للسلطان غياث الدين محمود ، وقسم لخوارزم شاه ، وقسم للعسكر ، وكان خوارزم قد أرسل إلى غياث الدين يعرب عن رغبته في مصاهرته . وقد وافق غياث الدين على طلب خرميل ، ولما اتصل هذا النبأ بمسامع الدز عاد إلى تمردده وقطعه الخطبة لغياث الدين (٢) ، واستولى على بست وغيرها ، كما أمر صاحب سجستان بقطع الخطبة لخوارزم شاه علاء الدين محمد ، وهدد ابن خرميل بالإغارة على بلاده ، وأطلق علاء الدين صاحب باميان من أسره وسير معه خمسة آلاف فارس لإعادته إلى ملكه وزوجه ابنته . ثم استولى قائد خوارزم شاه على مدينة هراة من ابن خرميل وقتله (٦٠٥ هـ) (٣) ، ثم أمد خوارزمشاه علاء الدين محمد خاله « أمير ملك » بالمسير إلى فيروزكوه قصبة بلاد الغور ، فاستولى عليها وقتل غياث الدين الغوري (٦٠٥ هـ) .

(١) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٠٢

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ١١٠ — ١١٢ .

ولم يلبث علاء الدين محمد أن استولى على كافة أرجاء خراسان وملك باميان ، وأصبح بحيث يستطيع الاستيلاء على غزنة وقتل من بها من الجند الغوريين ولا سيما الأتراك . وهرب الدز (وكان غائباً عن باميان) إلى لاهور ، فلحققت به جيوش أتباع شهاب الدين محمود وأحلت به الهزيمة وقتلته . وبذلك زالت الدولة الغورية على أيدي الخوارزميين بعد أن أنهكت قواها فيما شفته من حروب على الخطا والخوارزميين وعلى بلاد ما وراء النهر والهند وخراسان وغيرها .

ثانياً — الدولة الفاطمية

١ — المستنصر والمستعلي .

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب أن الخليفة الظاهر الفاطمي (٤١١ — ٤٢٧ هـ) لم ندم خلافته طويلاً وأن ابنه المستنصر بويع في شهر شعبان سنة ٤٢٧ هـ ، وهو في السابعة من عمره ، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر . غير أن مصر لم تتمتع في هذه المدة بالرخاء والطمأنينة سوى فترة قصيرة ، ثم حدثت بها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية كان من أثرها أن تزعزع مركز الخلافة الفاطمية وتطرق إليها الضعف والوهن .

وفي الشطر الأول من عهد المستنصر امتد سلطان الفاطميين على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال أفريقيا . وكان اسمه يذاع في الخطبة على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ، وفي صقلية واليمن والحجاز والموصل ، بل وفي بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحواً من سنة . ولكن بعض هذه البلاد لم يلبث أن خرج عن سلطان الفاطميين ، كما رفض أهل شمال أفريقيا عقائد المذهب الفاطمي نهائياً (٤٧٥ هـ) وزال سلطانهم من بلاد المغرب الأقصى الذي استولى عليه الفاطميون وانتزعوه من الإدارة سنة ٤٧٣ هـ ، وأبطلت الخطبة للفاطميين في اليمن على يد نواب صلاح الدين الأيوبي في هذه البلاد .

جدول الخلفاء الفاطميين

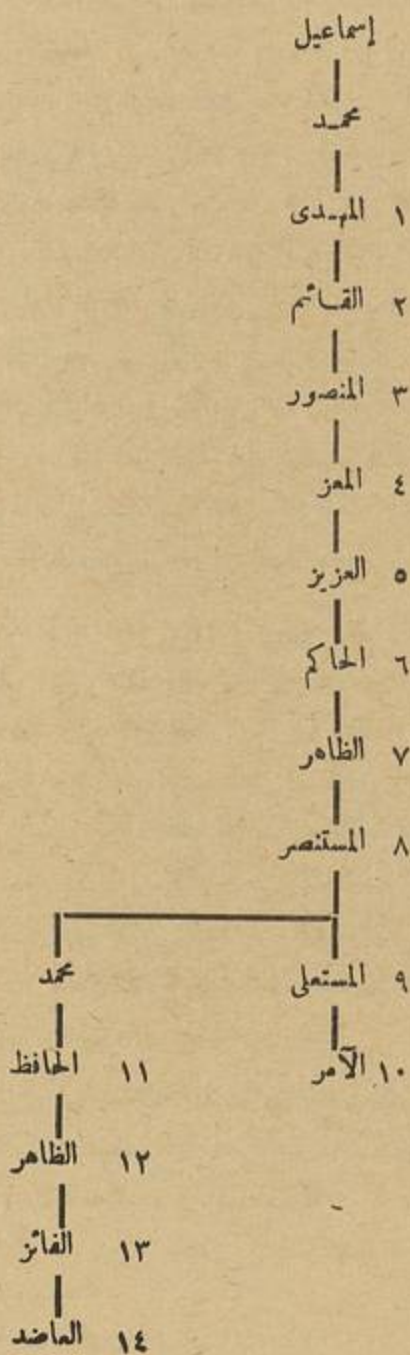
هجري	ميلادي	
٢٩٧	٩٠٩	١ المهدي أبو محمد عبيد الله
٣٢٢	٩٣٤	٢ القائم أبو القاسم محمد
٣٣٤	٩٤٥	٣ المنصور أبو طاهر إسماعيل
٣٤١	٩٥٢	٤ المعز أبو تميم محمد
٣٦٥	٩٧٥	٥ العزيز أبو منصور نزار
٣٨٦	٩٩٦	٦ الحاكم أبو علي المنصور
٤١١	١٠٢٠	٧ الظاهر أبو الحسن علي
٤٢٧	١٠٣٥	٨ المستنصر أبو تميم محمد
٤٨٧	١٠٩٤	٩ المستعلي أبو القاسم أحمد
٤٩٥	١١٠١	١٠ الأمر أبو علي المنصور
٥٢٤	١١٣٠	١١ الحافظ أبو الميمون عبد المجيد
٥٤٤	١١٤٩	١٢ الظافر أبو المنصور إسماعيل
٥٤٩	١١٥٤	١٣ الفائز أبو القاسم عيسى
٥٥٥	١١٦٠	١٤ العاضد أبو محمد عبد الله
٥٦٧	١١٧١	

واستولى روجر الزنمدي على صقلية التي كانت تابعة للفاطميين منذ أواخر القرن الثالث الهجري وخلع أمير مكة والمدينة طاعتهم سنة ٤٦٢ هـ .

وعلى الرغم من النزاع الذي قام في أوائل عهد المستنصر بين التستري والفلاحى ، وتدخل أم الخليفة في إدارة شئون الدولة ، تمتعت مصر بشيء من الطمأنينة والرخاء . فقد أمدنا ناصر خسرو عند زيارته لمصر سنة ٤٣٩ هـ بوصف ضاف لثروة البلاط الفاطمى وأبهته ، وما كانت تتمتع به القاهرة في ذلك الوقت من يسر ورخاء (١) .

Nasiri Khusraw : Safar Namah Ced. Charles Schefer, Paris, (١)
1881) p. 127 et seq.

تسلسل نسب الخلفاء الفاطميين



غير أن هذا الرخاء الذى كانت تتمتع به مصر فى ذلك الحين لم يدم طويلا ، فقد حلت بالقاهرة الأيام السيئة ، وعاودتها المصائب التى لم تشه بها قبل قرن من تأسيسها . فقد عم الوباء والقحط مصر فى سنة ٤٤٦ هـ ، وانقطع ماء النيل ، فأهملت الزراعة ، وانتشرت المجاعة ، وعم الوباء الذى يعتبر أطول وباء عرفته مصر فى العصور الوسطى ، وامتد ثمانى سنين (٤٤٦ — ٤٥٤ هـ) ، ونسكت به جميع الأمم الإسلامية من مصر إلى سمرقند ، ودونت عنه قصص مروعة ، حتى قيل إنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس . وهدمت الأقوات حتى أكل الناس السكلاب والقطط ، ثم أكل بعضهم بعضاً . وليس أدل على الفوضى التى سادت مصر فى ذلك العهد من تقلد أربعين وزيراً فى تسع سنوات بعد قتل الوزير اليازورى فى سنة ٤٥٠ هـ . ثم عاد القحط والغلاء وما أعقبه من الوباء والموت فى سنة ٤٥٩ هـ ، وظلت الحال كذلك حتى سنة ٤٦٤ هـ . واقتربت هذه الشدة إلى اصطلاح المؤرخون على تسميتها « الشدة العظمى » بقيام الفتن والحروب الأهلية ، حتى تدارك مصر بدر الجمالى وإلى عكا ، الذى استدعاه الخليفة المستنصر فى سنة ٤٦٦ هـ . فأعاد النظام ووجه همه إلى إصلاح حال البلاد وقضى على المفسدين (١) .

ولما مات المستنصر سنة ٤٨٧ هـ ، بويع ابنه المستعلى دون أخيه الأكبر نزار الذى ولاه أبوه عهده ، وشرع فى أخذ البيعة له أثناء مرضه ، غير أن الوزير الأفاضل بن بدر الجمالى أخذ يماطل الخليفة حتى توفى . ويرجع ذلك على ما ترويه بعض المراجع العربية إلى أن الأفاضل دخل مرة أحد أبواب قصر المستنصر راكباً بغلة ، فلما رآه نزار ، قال له : إنزل يا أرمنى يا نجس . فخذ عليه الأفاضل ، وانتهاز فرصة وفاة المستنصر وحال بينه وبين الخلافة ؛ فاجتمع بالأمراء وكبار رجال الدولة ، وأثار مخاوفهم من نزار ، وأشار عليهم بتولية أخيه الصغير أبى القاسم أحمد ، ثم بايعه ولقبه المستعلى بالله ، وأخذ قاضى القضاة البيعة له من كبار رجال الدولة وأعيانها ، ودعا الأفاضل لإسماعيل وعبد الله ابنى المستنصر لمبايعة أبى القاسم ، فبايعاه .

ولما رأى نزار أن الخلافة أفلتت من يده ، سار إلى الإسكندرية مع أخيه عبد الله ، وابن مصال اللسكى ، فتقبله واليها ناصر الدين أفتكين التركى قبولاً حسناً ، وبايعه هو وأهل الإسكندرية بالخلافة ولقبوه « المصطفى لدين الله » . فلما علم الوزير الأفاضل بذلك ، خرج لقتال نزار على رأس جيش كثيف ، فدارت الدائرة على الأفاضل أولاً وعاد

إلى القاهرة ، وأخذ يعد العدة لقتال نزار ، واستمال بعض أتباع من العربان ، ثم خرج إليه على رأس جيش كبير حاصره حصاراً شديداً . ولما رأى ابن مصال أن الدائرة ستدور عليهم ، جمع ماله وفر إلى بلاد المغرب ، ثم اضطر نزار وأفتسكين إلى طلب الأمان ، فأمنهما الأفضل ، ثم انتقم من نزار بأن وضعه بين حائطين وبني عليه ، فات ، كما قتل أفتسكين نائب الإسكندرية .

وفي عهد المستعلي^(١) بدأ الصليبيون يغرون على سواحل بلاد الشام ، فاستولوا على نيقيا ، ودخلت أنطاكية في حوزتهم ، ووصلوا إلى بيت المقدس . فلما علم الوزير الأفضل بذلك خرج إليهم في عشرين ألف مصري واشتبك معهم في معركة قتل فيها كثير من أتباعه ، واضطر إلى الاتجاه إلى عسقلان ، ثم عاد إلى مصر في سنة ٤٩٣ هـ ، وأعد جيشاً كبيراً تحت قيادة سعد الدولة التوأمي ، الذي التقى بالفرنجية في عسقلان ، ودارت بين الفريقين معركة حامية قتل فيها سعد الدولة ، وواصل الفرنجية فتوحاتهم حتى استولوا على المدن الساحلية ببلاد الشام وفلسطين^(٢) .

٢ — الأمر والحفاظ :

وبعد وفاة المستعلي ١٠ صفر سنة ٤٩٥ هـ ، ولي ابنه الأمر الخلافة ، وقبض الأفضل على زمام الأمور في البلاد .

وقد عنى الفاطميون عناية عظيمة بحفظ رسومهم الدينية حتى في أيام انحلال دولتهم حين كان لوزرائهم السلاطة المطلقة . وإن مقتل الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي لاظهر مثال لتلك العناية ؛ لأن الأفضل يميل ميل السنيين ، فألقى الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد فاطمة وعلى رضى الله عنهما ، ومولد الخليفة القائم بالامر . وقد كان ذلك كافياً لتقويض دعائم حكم الفاطميين الذين كانوا يعملون دائماً على تأييد دعوائهم التي تقوم على أنهم من سلالة على كرم الله وجهه .

وقد شرح لنا ابن القلانسي^(٣) (ت ٥٥٥ هـ) الأحوال التي أحاطت بمقتل الأفضل شرحاً وافياً . وابن القلانسي هذا توفي بعد الأفضل بثحو أربعين سنة ، وقد اعتمد فيما ذكره

(١) وكان ابن أخت الأفضل بن بدر الجمالي .

(٢) أبو المحاسن ج ٥ ص ١٤٦ — ١٤٨ .

(٣) ذيل تاريخ دمشق من ٢٠٣ — ٢٠٤ .

على الاعتقاد بأن مقتل الوزير كان بتدبير الخليفة الفاطمي وأنصاره لبواعث سياسية وحزبية . وقد نسب ابن ميسر مقتل الأفضل إلى عدااء جماعة الباطنية^(١).

أما عن أخلاق الوزير الأفضل ، فيقول ابن ميسر^(٢) : « كان من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة ، يجاوز ما سمع به قديماً وشوهد أخيراً . ولم يعرف أحد صوره في زمانه . ولما حضر الإسكندرية ، كان بها يهودى يبالغ في سب الأفضل وشتمه ولعنه . فلما دخل الأفضل قبض عليه وأراد قتله . . . فقال : إن معى خمسة آلاف دينار ، خذها منى واعتقنى واعف عني . فقال لليهودى : الله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك ، وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئاً . ومحاسن الأفضل كثيرة : وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع أخذ شيء من التركات على العادة القديمة ، وأمر بحفظها لأربابها ، فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقها أطلقها في الحال . »

وقد أعاد الخليفة الأمر دار العلم بعد أن أغلقها الأفضل ، عند ما نعى إليه أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبدعية التي يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة : وهى الشافعى والحنفى والمالكى ، يترددان على هذا المكان ، وأن كثيرين من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا هذا المذهب .

ولى المحافظ الخلافة بعد مقتل ابن عمه الأمر على يد فريق من الباطنية . وقد قويت شوكة الوزير أبى على بن الأفضل ، وتلقب الأكل ، فقبض على الخليفة وحبسه واستولى على ما فى القصر من الذخائر والأموال وادعى أن ذلك كله كان لأبيه . وكان هذا الوزير إمامياً ، فدعا للإمام الثانى عشر ودعا لنفسه على المنابر بهذه الألقاب : ناصر لإمام الحق هادى العصاة إلى اتباع الحق مولى الأمم ومالك فضيلتى السيف والقلم ، كما أزال عبارة « حى على خير العمل ، ومحمد وعلى خير البشر » من الأذان ، وأسقط ذكر إسماعيل ابن جعفر الصادق من الخطبة^(٣).

(١) وفى الحق أن الخلف بين روايتى هذين المؤرخين يسير . فإن الفاطميين أنفسهم كانوا باطنيين ، وكانوا فى أعمالهم يصدر عن العقائد الباطنية التي كان قوامها ادعائهم علم الباطن وأن لهم قوى غير قوى البشر .

(٢) تاريخ مصر ص ٥٨ .

(٣) ابن ميسر تاريخ مصر ص ٧٥ .

وكان من أثر السياسة التي اتبعها أبو علي بن الأفضل أن كرهه الشيعة والمصريون وصمموا على قتله ، فسكن له جماعة منهم وقتلوه وأخرجوا الحافظ من سجنه .

ثم قدم بهرام الأرمني وإلى الغربية إلى القاهرة (جمادى الثانية سنة ٥٢٩ هـ) وحاصرها ، فلم ير الخليفة الحافظ بدأ من توليته الوزارة على الرغم من أنه نصراني ، وعلى الرغم من أنه كان يتحتم على الوزير بحكم منصبه أن يصعد المنبر مع الخليفة في الأعياد ليزرر عليه المزرة (الستارة) التي تحجبه عن الناس ، ولأن القضاة كانوا ينوبون عن الوزراء منذ أيام بدر الجلال . وكانت هذه النيابة تذكر في الوثائق الرسمية وتدون في وثائق الزواج . وقد تقلد بهرام الوزارة على الرغم مما أظهره الناس من سخط عليه ، وسرعان ما تزايد نفوذه وأحضر إخوته وأهله من تل باشا وأرمينية ، وسمح لبني جلده من الأرمن بالإقامة في مصر ، حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً .

وقد صادر هؤلاء الأرمن أموال المسلمين وبنوا الكنائس والاديرة لدرجة أقلقت بال المسلمين ، فرفعوا شكاياتهم إلى الخليفة ، وبعث الأمراء إلى رضوان بن الوحشى وإلى الغربية يطلبون منه المسير إليهم ؛ فلبى رضوان طلبهم ، وجمع ثلاثين ألف رجل سار بهم إلى القاهرة ، وانضم تحت لوائه عسكر المسلمين في جيش بهرام ، الذى اضطر إلى الرحيل والذهاب إلى أخيه الباساك وإلى قوص .

وهكذا خلا الجو لرضوان فتقلد الوزارة (جمادى الأولى سنة ٥٣١ هـ) وتلقب بالأفضل ، واستولى على ممتلكات أعوان بهرام وقتل كثيراً منهم ، على أن ذلك لم يرض الخليفة الحافظ بل أغضبه ، فأحضر بهرام وأسكنه في قصره واضطر رضوان إلى الخروج إلى والى صرخد^(١) ، حيث جهز جيشاً كبيراً عاد به إلى القاهرة وحارب جند الخليفة بقرب باب الفتوح . غير أنه أرغم على المسير إلى الصعيد حيث طارده الأمير أبو الفضل ابن مصال وانتهى الأمر بحبسه في القصر . ولم يفته النزاع إلا بعد وفاة بهرام سنة ٥٣٥ هـ . ولما تولى أبو علي الأفضل (الملقب بالأكمل) وزارة الحافظ ، عزله وشل يده عن التصرف في أمور الدولة (٥٢٤ هـ) ومنع الناس من زيارته إلا بإذن منه ؛ ثم استولى على ما في القصر ، ومنع ذكر اسم الخليفة من الخطبة^(٢) ودخلت مصر في طور السقوط .

(١) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق .

(٢) ابن ميسر ص ٧٥ .

٣ — سقوط الدولة الفاطمية :

لقد أدى انتشار حكومة الأشراف (الحكومة البيروقراطية) إلى تدبير مؤامرات سرية وأحزاب سياسية ، ومهد السبيل لسقوط الدولة الفاطمية التي مزقتها الانقسام ف وقعت في أيدي المغيرين عليها .

وكان النزاع المتصل بين الوزراء المتنافسين والحزبية في الجيش سبباً في وقوع القلاقل في أيام الوزير بهرام الأرمي المسيحي (١) .

وقد خلف بهرام في الوزارة رضوان بن الوحشى ، وكان شاعراً فذاً وجندياً مقداماً ، تلقب لأول مرة في العهد الفاطمي بلقب « ملك » ، وصار ذلك من ألقاب الوزراء الفاطميين الذين أتوا بعده . غير أن رضوان لم يلبث أن عزل من الوزارة ، ففر إلى الشام . وهناك طلب إلى زى أنابك الموصل مساعدته . على أن أسامة بن منقذ الذى أوفده الخليفة الحافظ إليه استرضاه بالمال وأمنه على حياته . ولكن الخليفة لم يف بمعهده ، فقد حبسه عشر سنوات تمكن في آخرها من الفرار ، ثم جمع أنصاراً واستقر في الجامع الأقر أمام القصر ، غير أن جنود الخليفة السودانيين هزموا أنصاره وشتتوا شملهم وقتلوه (٢) .

وبعد يومين من مقتل رضوان توفي الخليفة الحافظ ، فنشب النزاع بين الجند السودانيين والجنود الأتراك . وولى ابنه الظاهر — وسنه ست عشرة سنة — الخلافة وعادت المنازعات بين الوزراء المتنافسين سيرتها الأولى .

وقد ابتدأ هذا الخليفة الشاب حكمه بطرد الوزير ابن السلار ، وكان يلقب بالملك العادل ، وقتل الوزارة نجم الدين بن مصال ، وكان مكروهاً من الأهالي . وسرعان ما جمع ابن السلار فرقة من أعوانه وسار بهم إلى الجيزة (١٤ رمضان سنة ٥٤٤ هـ / ١١٥٠ م) . وفي اليوم التالي حل محل منافسه في الوزارة . وكان ذلك أمراً مألوفاً في ذلك الحين . وقد فر ابن مصال حين رأى تقدم ابن السلار ، ولم يكن قد مضى عليه في الوزارة أكثر من خمسين يوماً . (٣)

(١) أبو صالح ص ٨٤ . أسامة بن منقذ ص ٢٢ و ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤ .

(٣) ذكر ذلك أسامة بن منقذ (ص ٦) . أما الذهبي (مكتبة بودليان بأكسفورد) ، مخطوطات

Laud. القسم الشرقى رقم ٣٠٤ ، ورقة (١٠٥) وأبو الفدا (ج ٣ ص ٢٣) فقد

ذكرا أنه لم يمكث في الوزارة إلا أربعين يوماً .

وقد التجأ ابن مصال بعد هزيمته إلى كورة الخوف حيث تمكن بما جمعه من أموال الخليفة من حشد قوة كبيرة ، ثم استقر في الصعيد فاتبه ، العباس وبيب ابن السلار . وفي مدينة دلاص جنوبى الواسطى التقى الجندان ، فدارت الدائرة على ابن مصال ، وقتل وحمل رأسه إلى القاهرة . وبهذا استراح ابن السلار من منافسه ، وقلده الخليفة الوزارة ، لكنه أخذ يكيد له وعمل على طرده من الوزارة^(١) .

وقد طلب ابن السلار العون من نور الدين في غزو مدينة طبرية ، ليمنع غزو الصليبيين لمصر على أن يسير هو بنفسه إلى غزة وعسقلان^(٢) . وقد أدرك نور الدين من هذا الرجاء أن مصر لم تعد قادرة على أن تقف وحدها في وجه الصليبيين مما أناح له الفرصة في الامارة عليها . ومن هنا طمع نور الدين في غزو مصر ، كما أصبح الصليبيون على علم تام بحال هذه البلاد .

وقد أبى نور الدين امتشاق الحسام لمحاربة الصليبيين . ورأى أنه يغرق بنفسه إذا دخل في حرب معهم أو مع أهل دمشق ، إذ كان هؤلاء وأولئك أعداءه على السواء .

لهذا كله وقف المتنافسان (نور الدين والصليبيون) بعضهما لبعض بالمرصاد ، وأخذ كل فريق يراقب حركات الفريق الآخر .

أما عن أحوال مصر الداخلية إذ ذاك ، فقد كان ابن السلار الذى تلقب بالملك العادل سيف الدين (ذلك الاقب الذى يدل على انضوائه تحت لواء المذهب الفاطمى) سنياً مغالياً . وربما كان ذلك سبباً في تدبير الخليفة المسكند له حتى يخلص من شره . غير أن أنصار ابن السلار الكثيرين قد حالوا دون استقرار سلطة الفاطميين الدينية . أضف إلى ذلك النزاع الذى قام بين ابن السلار السنى وبين ابن مصال المغربى الاصل ، ذلك النزاع الذى كان في الحقيقة نزاعاً بين السنين والشييعين . وكان ابن السلار يطمع في مساعدة نور الدين ، لنشر المذهب السنى في مصر وإحلاله محل المذهب الشيعى .

وكان ابن السلار — كما يقول ابن خلكان — من أصل كردى ، ومن قبيلة

(١) أسامة بن منقذ ص ٦٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٧ - ١٣ .

الزورى^(١)، نشأ في قصر القاهرة وشغل مناصب مختلفة في الصعيد، وتدرج في هذه المناصب حتى تقلد الوزارة في عهد الخليفة الظافر في رجب سنة ٥٤٣ هـ (نوفمبر ١١٤٨ م). وقد أظهر ابن السلار أخيراً اعتناقه للمذهب السني، وصار شافعي المذهب (وهو المذهب الذي كان يقبعه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين). ولما ولي الإسكندرية بعد وصول الحافظ السلفي الفقيه الشافعي في ذي العقدة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١١٨ م)، عامله بكل تجلّة وإكرام، وأنشأ في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) مدرسة للشافعية أسند إليه إرادتها^(٢). وبهذا هياً ابن السلار السبيل إلى رجوع المذهب السني إلى مصر. وقد اعتمد الخليفة الظاهر في السكيد لابن السلار واغتياله على يد نصر بن عباس، وهو شاب في سن الخليفة ومن أخص خواصه. وكان من أمره أخيراً أن قتل الخليفة الظافر والوزير ابن السلار معاً.

وقد دخل عباس القاهرة غداة مقتل الوزير وتقلد الوزارة وخلع عليه الخليفة^(٣). ولقد صدق ليذبول في قوله «إن مقتل ابن السلار بيد حميد زوجته نصر، وما تبعه من مقتل الخليفة بنفس هذه اليد الأثيمة يعتبر من أخفى حوادث التاريخ في مصر». ويقص علينا ذلك أسامة بن منقذ، ذلك الرجل العظيم الذي اعتاد الصيد مع رجال بلاط الخليفة وكان صديقاً حميماً وضيئفاً لابن السلار، كما كان مع هذا من الذين دبروا أمر اغتياله. وقد وضع الخليفة الذي تملكه الفرح لمقتل ابن السلار، رأس القتيل في بيت المسال، ونفح قائله بعشرين صحيفة فيها ٢٠.٠٠٠ دينار، وحرّضه على قتل أبيه بعد ذلك. لكن عباساً استشعر الخطر، فأعد العدة ليسم ابنه. وكان لتدخل أسامة بين نصر وأبيه أثر في إصلاح ذات بينهما، إذ وعد نصر بأن يقتل الخليفة إذا زاره في داره.

وفي اليوم التالي، بينما كان أسامة جالساً في الدهليز، إذ سمع صليل السيوف. وقد أثار قتل الخليفة أهالي القاهرة؛ فنشبت المعارك في طرقات المدينة وأخذ الذسوة والأطفال يرجون أنباغ الوزير عباس بالحجارة من نوافذ دورهم. ولم يلبث هؤلاء الأعوان أن اعتزلوه. ولم يكن لعباس طاقة بمقاومة سخط الأهالي وثورة انتقامهم، ففر

(١) يفتح الزاي الأولى مع التشديد وفتح الزاء الثانية وسكون الزاء الأولى، قبيلة قريبة من بركة. انظر Quatremère, Notices Sur les Curdes in « Notices et Extraits » Vol. XIII, p. 315.

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧، ٤٦٧، ٤٦٨.

(٣) تاريخ أسامة بن منقذ ص ١٣ — ١٤.

هو وابنه نصر إلى سورية^(١). غير أنه لقي حتفه على يد جماعة من الفرنجة أرسلتهم أخت الخليفة الظافر في إثره (ربيع الأول سنة ٥٤٩ / ١١٥٤). أما ابنه نصر فقد أرسل إلى القاهرة (ربيع الأول سنة ٥٥٠)، فعذبته نساء البلاط وطيف به في المدينة، وصاحب حياً على باب زويلة، وترك معلقاً هناك شهوراً كثيرة^(٢)؛ ثم أحرقت جثته (١٠ المحرم سنة ٥٥١ / ١١٥٦ م)^(٣).

وقد ترك الخليفة المقتول طفلاً في الرابعة من عمره؛ فدعى له بالخلافة وتلقب بالفائز سنة ٥٤٩ هـ. وقد قص نساء القصر شعورهن لما راعهن من قتل الخليفة حداداً عليه، ثم أرسلوا هذه الشعور إلى الأمير طلائع بن رزيك وإلى الأشمونيين، ونضروا إليه أن يجيء لتخليصهم^(٤). ثم سار ابن رزيك إلى القاهرة واستولى على دار المأمون (قصر عباس)^(٥).

وقد أخذ ابن رزيك في إعادة الأمن إلى نصابه وأعاد عصر سيادة القانون^(٦). وكان ابن رزيك — الذي تلقب بالملك الصالح — الرجل الذي تحتاج إليه مصر في ذلك الحين. أما تلك المأساة فقد أفقدت الفاطميين عسقلان آخر معاقلهم في فلسطين، وقد استولى عليها الصليبيون^(٧).

أما الصليبيون فإنهم لم يستمروا في سيرهم إلى مصر، إذ فت في عضدهم وزعزع قوتهم في بيت المقدس. نما قوى البلاد المتاخمة لها، وإخفاق الحملة الصليبية الثانية تحت قيادة كونراد Conrad ولويس السابع، واستخلاف نور الدين على عرش الشام واستقرار أمره

(١) أسامة بن منقذ ص ١٩ وما يليها.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩ و ٢٠.

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٥٠٠.

(٤) Lane-Poole, History of Egypt in The Middle Ages, p. 173.

(٥) هذا القصر بناه الوزير المأمون البطائحي، وتحول فيها بعد على يد صلاح الدين إلى مدرسة للأخفاف، تعرف بالمدرسة السيوفية.

(٦) ابن ميسر ص ٩٤. ابن خلكان ج ١ ص ٢٩٨ وما يتبعها.

(٧) ابن ميسر ص ٨٦.

في حلب شمالاً ودمشق شرقاً ، وقد تلقب ببطل الإسلام وقوى أمره بضم دمشق إليه سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٤ م) ، وكان في حلف دفاعي مع الصليبيين ^(١) .

وقد قتل الوزير طلائع بن رزيك (رمضان سنة ٥٥٦ / ١١٦١) بدسيسة صهره (زوج ابنته) الخليفة العاضد ، الذي زالت الخلافة الفاطمية في أيامه ، وانتقص هذا الوزير سلطته . ويحمل هنا أن تأتي بما أمدنا به عمارة النيني ، وكان شاهد عيان لما حدث في مصر في عهد الخليفين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين .

لقد نصح ابن رزيك وهو على فراش الموت ابنه أبا شجاع العادل أن يحذر شاور ويتجنب خلعه من منصبه . وكان شاور عربي الأصل ، اتصل بابن رزيك ونال حظوة لديه ، فولاه الصعيد ، وغدا مركزه من الخطر بحيث لم يجرؤ ابن رزيك على عزله من منصبه . فلما توفي ابن رزيك خلفه ابنه العادل في الوزارة ؛ غير أنه لم يلبث أن خلع وحل محله شاور في الوزارة ، ثم قتل طلي بن شاور ابن رزيك في ٢٢ المحرم سنة ٥٥٨ هـ (يناير ١١٦٣ م) .

وقد أثار شاور بذلك سخط الاهلين ، وأجمع أنصار العادل بن رزيك على خلع شاور من الوزارة ^(٢) . ولما علم ضرغام أمين الباب وأمير البرقية بهذا الحادث ، أشعل نار الثورة وهزم جند شاور الذي فر إلى سورية ، وقتل أبنيه طلي وضرغام وحل محل شاور في الوزارة (رمضان ٥٥٨ / ١١٦٢) ^(٣) .

وقد تدخل نور الدين والفرنجية تدخلاً جديداً في شئون مصر منذ ذلك الحين . وكان من أثر إغارة هاتين القوتين على مصر وسياسة شاور المزعزعة ، وإسراف ضرغام في قتل قواد مصر — كان من أثر هذه العوامل مجتمعة ما عجل بسقوط الدولة الفاطمية ^(٤) .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٦ .

(٢) عمارة النيني : النكت المصرية ص ٨٨ .

(٣) أبو شامة : مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ج ٤ ص ١٦٥ .

Receuil des Histoires des Croisades, Historiens orientaux, tome IV, p. 165.

النكت المصرية ص ٦٧ و ٧٨ : ابن الأثير ج ١١ ص ١١٧ .

(٤) عمارة : النكت ص ٨٨ . ابن الأثير ج ١١ ص ١١٧ .

طلب شاور النجدة من نور الدين بدمشق، وأظهر له أنه على استعداد لأن يقوم بنفقات الحملة وأن ينزل له إذا سمح له الأمر عن ثلث خراج مصر جزية سنوية^(١). وكان نور الدين يعلم ما لمصر من المركز السياسي الخاص، بمعنى أن من يملكها يمكنه أن يسيطر على غيرها من البلاد، كما كان يعلم أنها معين خصب للخراج. ويمكن تلخيص الأسباب التي من أجلها عزم نور الدين على إرسال حملة إلى مصر فيما يلي:

أولاً — رغبته في إجابة شاور الذي تضرع إليه وطلب الاستعانة به.
ثانياً — شغفه بالاطلاع على حقيقة الحال في مصر، وقد اتصل به أن قوتها الحربية كانت ضعيفة جداً، وأنها كانت في حالة اضطراب شديد.

(٤) سمحات شيركوه على مصر:

هكذا سجلت الحوادث تدخل نور الدين. ذلك أن ضرغام اختلف مع عموري ملك بيت المقدس الجديد في الجزية السنوية التي كان يدفعها إليه؛ فسار عموري إلى مصر سنة ١١٦٣/٥٥٩ ليفرض عليها الجزية كرهاً، وحلت الهزيمة بضرغام في بلبس^(٢)، فأراد أن يتجنب الهزيمة النهائية. فأوحى له قصر نظره فتح سدود النيل — وكان في لبنان فيضانه — فأغرق البلاد، وتم له ما أراد من رجوع عموري إلى فلسطين.

وعلم ضرغام بالمفاوضات التي دارت بين شاور ونور الدين؛ فسارع إلى عقد حلف مع عموري، وزاد مقدار الجزية. وسرعان ما ظهر نور الدين على مسرح القتال. وقبل أن يتمكن عموري من المسير إلى مصر (جمادى الثانية ٥٥٩ / إبريل سنة ١٠٦٤ م)، سار شاور إليها مع جند قوى من التركمان من دمشق يقوده أسد الدين شيركوه، وعلى مقدمته صلاح الدين الأيوبي. والتقى الفريقان في بلبس؛ فانهزم المصريون، غير أنهم لموا شعهم واجتمعوا تحت أسوار القاهرة^(٣).

واستمرت الحرب سجالات بين الفريقين عدة أيام، تمكن شاور في أثنائها من الاستيلاء على القسطنطينية، بينما كان ضرغام يحتل القصر في القاهرة. وأراد ضرغام

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٢١.

(٢) عمارة، النكت (ص ٦٨ وما يتبعها). ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢٠ و ١٢١).

Lane-Poole, History of Egypt in the Middle Ages, p. 117.

أن يجمع الاموال ؟ فوضع يده على أموال الاوقاف ، فأخذ الناس ينفذون من حوله ، وامتنع الخليفة والجيش عن مؤازرته ، وسار في طرقات القاهرة يدعو الناس للثورة ، فلم يلق منهم إلا صياح الاستهزاء حتى جعل حصانه من صياح الناس ، فألقاه على الأرض وقطع رأسه وطيف به في الطرقات^(١).

وقد أدرك شاور غرضه ؛ فتقلد الوزارة وتوطدت أقدامه . ولوثوقه بقوته ، خان عهده مع أسد الدين شيركوه ، وأبى أن يدفع الجزية المتفق عليها بينهما ، ومد له الفرنجة يد المساعدة ، فحاصروا شيركوه في بلبس وحملوه على العودة بجنده إلى الشام (ذو الحجة سنة ٥٥٩ / ١١٦٤) . وانتهر نور الدين مسير عمورى إلى مصر فهزم قواته في فلسطين ، فاضطر إلى العودة لحماية بلاده^(٢).

ولكن شيركوه لم يخفق تماماً في حملته على مصر ، إذ عرف ما كان يسود هذه البلاد من الفوضى ، فأطمعه ذلك في امتلاكها . لذلك بقى في الشام مدة بعد العدة في تجهيز حملة ثانية أملا في تأسيس إمبراطورية لنفسه ، واستمر حتى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) يدبر الحطط بالاشتراك مع نور الدين^(٣).

أفقد ظهرت أهواء شاور المضطربة وسياسته الخرقاء واضحة جلية في وزارته الثانية ، ولم يلبث أن ظهر قلقه واضطرابه بعد أن استرد قوته واستقر في مركزه . وفي اليوم التالى من وصوله إلى القاهرة ، سار شيركوه إلى بلبس وهزم الجيوش المصرية .

على أن نجم شاور أخذ في الأفوال ، فخرج أخوه جرحاً بليغاً وحاصر الفرنجة بلبس ، وأرغموا نور الدين على العودة من فلسطين إلى الشام ، ولم يلبثوا أن عادواهم أيضاً إلى فلسطين .

ولم تكن حالة مصر الداخلية بأقل اضطراباً من حالتها الخارجية ، فلم يجد شاور بدأ من قمع ثورة يحيى بن الخياط أحد أنصار ابن رزيك^(٤) (عمارة ص ٦٧) ، الذى طلب الوزارة لنفسه ؛ وتلا ذلك الاضطرابات التى أثارها بنو لواتة . وأدهى من هذا كله ما بلغه من إعداد نور الدين العدة لغزو مصر مرة أخرى^(٥) .

(١) النكت المصرية ص ٧٣ .

(٢) ابن شداد ص ٤٣ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) قتله شجاع بن شاور . حياة عمارة ص ٣٤٨ .

(٥) عمارة ص ٦٧ و ٧٥ - ٧٨ .

لذلك طلب شاور مساعدة الفرنجة ثانية ووعدهم موطناً ثابتاً في مصر ؛ فأرسل نور الدين إلى هذه البلاد جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه ، ورأى أن اتفاق شاور مع الفرنجة يكسبهم قوة في مصر ويهدد مركزه في الشام . وغادر جيش شيركوه الشام في ربيع الأول سنة ٥٦٢ هـ (ديسمبر - يناير ١١٦٦ - ١١٦٧ م) ، ووافق وصولهم إلى مصر وصول الفرنجة (١) .

وقد سار الجيشان بجذاء شاطئ النيل حتى وصلا إلى القاهرة . فحضرهم عموري سرادقه قريباً من القسطنطينية . والتقى الفريقان ثانياً في موقعة البابين ، على بعد عشرة أميال جنوبي مدينة المنيا ؛ فأحرز شيركوه ببقوته القليلة نصراً مبيناً . وبذلك توطلدت أقدامه في الصعيد . غير أنه لم يكن من القوة بحيث يمكنه أن يتابع انتصاراته ويسير إلى القاهرة ؛ فاخترأهون الأميرين ، وسار في الصحراء شمالاً حتى وصل إلى الإسكندرية فدخلها من غير مقاومة .

أقام أسد الدين شيركوه صلاح الدين والياً على الإسكندرية ، وجعل معه نصف الجيش وعاد النصف الآخر إلى الجنوب ، وأخذ يجبي الأموال في الصعيد . أما قوى الفرنجة والمصريين المتحدة فقد حاصرت الإسكندرية براً ، على حين كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحراً . ولم يكن مع صلاح الدين إلا ألف من أنصاره ؛ فأغز شيركوه السير إليه ، واصطلم الفريقان على أن يترك شيركوه مصر في مقابل خمسين ألف دينار ، ثم عاد شيركوه إلى الشام ، لأن جيشه قد ضعف كثيراً في حربه مع الفرنجة والمصريين . هذا إلى ما انتابه من البؤس وما حاق به من الأخطار (٢) . إلا أنه قد أصبح ملماً بأحوال مصر الداخلية ، وعقد العزم على امتلاكها قبل أن تقع فريسة في أيدي الفرنجة .

هكذا انتهت حملة الفرنجة والغز على مصر . وقد ارتد الأولون إلى فلسطين والآخرون إلى الشام ؛ وبذلك زالت مخاوف شاور ، ولكن إلى حين . فقد ابتدأت حملة شيركوه الثالثة على مصر وانتهت بانتصاره على الفرنجة والمصريين واحتلاله البلاد (٣) .

(١) أبو شامة : Receuil, tome IV, p. 168

(٢) ابن شداد ص ٤٤ و ٤٥ .

(٣) النكت المصرية ص ٨١ .

وترجع حملة شيركوه الثالثة على مصر إلى زحف الفرنجة عليها من جديد . وكانت هذه الحملة بقيادة شيركوه يصحبه أخواه ، وابن أخيه صلاح الدين وغيرهم من ذوى قرباه وجيوشه (١) .

وهنا تجلت سياسة شاور المتقلبة ثانياً ، فقد أرسل إلى شيركوه كتاباً يطلب فيه المساعدة . وصادف هذا الرجاء قبولاً من نفس شيركوه ، لأن اتحاده مع شاور معناه هزيمة الفرنجة من جهة وتخلصه من شاور من جهة أخرى .

وقد سار الفرنجة نحو مصر ، ووصلوا إلى بلبيس (صفر ٥٦٤ نوفمبر ١١٦٨) . ولم يبقوا — كما يقول المؤرخ اللاتيني ولیم الصوري William of Tyre على أحد من الناس على اختلاف فهم شباناً وشيخاً ، ذكوراً وإناثاً (٢) . وقد أسخط عمورى بعمله جميع المصريين فانحازوا إلى شيركوه ، وأمر شاور بإحراق مدينة القسطنطين ليحول دون استيلاء الفرنجة عليها . وقد استمرت النيران بها أربعة وخمسين يوماً ، ولا تزال آثار هذا الحريق بادية بأطلال القسطنطين حتى اليوم في التلال الرملية التي تغطي القمامة المدفونة في الفضاء الممتد عدة أميال جنوبى القاهرة . وأسرع الناس بعد هذا لا ئذين بالقاهرة التي ساد أهلها الخماس استعداداً لصدم هجوم الصليبيين (٣) .

غير أن الفرنجة لم يهاجموا القاهرة ، فقد دخل شاور معهم في مفاوضات تعهد فيها بدفع مقدار من المال لعمورى . لكن سياسة شيركوه لم يكن يسودها الإخلاص ، فقد كتب إلى نور الدين في دمشق يطلب منه المعونة ، على حين كتب الخليفة العاضد نفسه بذلك إلى نور الدين ، ووضع في رسالته خصلاً من شعور الفسء إمعاناً في الضراعة ، حتى لا يرد توسله بعد ذلك (٤) . وقد بلغ من تأثر نور الدين أنه بعث أسد الدين شيركوه إلى مصر في جيش بلغ سبعين ألفاً (٥) .

(١) ابن شداد ص ٤٥ و ٤٦ .

(٢) ذكر أبو شامة (ص ١٣٧) أن عمورى قتل عدداً كبيراً من الأهلى وأتلف معظم المدينة وأحرق أكثر مبانيها وجعل الناس فيها فريقين ، قتل أحدهما بحمد السيف ، واستبقى الآخرين شكراً لله على ما أتاه من نصر .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٦ . أبو شامة ص ١١٥ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤) ص ١٩٣ — ١٩٤

وكان نور الدين قد صمم على غزو مصر ، إذ كان يود أن يذهب بنفسه ، لولا أنه كان مشغول البال بحالة بلاد الجزيرة المزعزعة ، فأرسل في الحال قوة من ألفين اختارهم من حرسه الخاص وستة آلاف من التركمان بقيادة شيركوه . يعينهم عدد كبير من الأمراء ومن أقاربه ، وكذا صلاح الدين ، وكان يدعاه اليميني (١) .

وصل شيركوه إلى القاهرة في السابع من شهر جمادى الثانية ، وكان عمورى لا يزال أمام أسوارها وحال دون تقدمه . ورأى عمورى الذى خدعه شاور تفوق شيركوه عليه في الحرب ، فعاد إلى فلسطين من غير حرب . ودخل شيركوه القاهرة ، فقابله الناس بالترحاب ، واستقبله الخليفة الذى قدر ضيعه وخلع عليه (٢) .

وكان شيركوه يعتقد أن الفرصة لن تتاح له بامتلاك مصر ما بقي شاور فيها . لذلك قرر أن يقبض عليه في إحدى زياراته له ، واضطلع صلاح الدين بتنفيذ هذه المكيدة . وقتل شاور بأمر الخليفة الذى ولى شيركوه الوزارة في ١٧ ربيع الثانى سنة ٥٦٤ الموافق ١٨ يناير ١١٦٩) وخلع عليه ، فظل فيها حتى مات في ٢٢ جمادى الثانية من السنة نفسها (٢٣ مارس سنة ١١٦٩) (٣) .

(٥) صلاح الدين وسقوط الدولة الفاطمية :

لقد مهدت الأحوال والحوادث الماضية الطريق لسقوط الفاطميين قبل أن يلى صلاح الدين الوزارة خلفاً لعمه أسد الدين شيركوه . وقد أصبحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى على صد الغزوات الأجنبية ، لما مُنيت به من التهاون الحزبي ومنافسات الوزراء المصريين .

وقد بدأت مواهب صلاح الدين تظهر بعد تقلده الوزارة بعد عمه فوطد العزم على

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٦ .

(٢) شرحه ص ١٣٦ و ١٣٧ .

(٣) ابن شداد ص ٤٧ و ٤٨ . ابن خلكان ج ٢ ص ٥٠١ و ٥٠٢ .

ذكر أبو شامة (ص ١٤٥) أن صلاح الدين نفسه هو الذى قتل شاور . وذكر الذهبي (مكتبة بوديان بأكسفورد ، مخطوطات Land ، القسم الشرقى رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٥) أن شيركوه ولى الوزارة قبل مقتل شاور .

(م ١٣ - تاريخ الإسلام - ج ٤)

تأسيس دولة واسعة الأرجاء . ولكي يصل إلى غرضه ، خصص كل جهوده لطرده الصليبيين من البلاد^(١) .

وقد عمل صلاح الدين على تقوية مركزه في مصر تدريجياً ، لكي لا يفقد ثقة المصريين ولا يثير حسد نور الدين . فبدأ يعمل على إضعاف نفوذ الخليفة فكسب ثقة الأهلين واستمال قلوبهم بكرمه ، وأخذ الناس يسارعون إلى طاعته^(٢) وأسند مهام الدولة إلى رجال من أنصاره .

وكان الخليفة المعاضد ورجال القصر من جند وأتباع لا يخفون عداوتهم لصلاح الدين . لذلك قامت المكاتبة بزعامه «نجاح» كبير الخصيان السود للقضاء على صلاح الدين ، فعملوا على إصلاحيات ذات الين بينهم وبين الصليبيين لغزو مصر ، فإذا ما خرج لهم صلاح الدين ، هاجمه المتآمرون من مؤخرته ، ووقع بين نارين ، وقضوا عليه وعلى جنده من التركان .

ولما علم صلاح الدين بما دبره له أعداؤه قبض على كبير الخصيان ، وقطعت رأسه (ذو القعدة ٥٦٤ يوليو ١١٦٩) وقتل كثير من بني جلدته . فأنار ذلك حنق جند الخليفة ، وكان أكثرهم من السودانيين ، فثار منهم خمسون ألفاً للأخذ بثأر نجاح . واشتبكوا مع جند صلاح الدين في معركة عنيفة في المكان المعروف بين القصرين ، أحرقت فيها كثيرة من الدور والخوانيت . ودارت الدائرة أخيراً على السودانيين ، وأحرق حيمهم المعروف بالمنصورية ، وطوردت فلولهم إلى الجيزة عن طريق النيل ، ومنها إلى الصعيد حيث استمروا في ثورتهم عدة سنين ، إلى أن قضى عليهم نهائياً سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م)^(٣) .

ولما توطدت أقدام صلاح الدين في مصر ، أخذ في إرسال الحملات ضد الصليبيين ، فغزوا ولايتي الكرك والشوبك بذهاب سلطانهم في فلسطين .

وكان من أثر ذلك أن اتحد الصليبيون مع البيزنطيين وساروا بحراً إلى مصر ؛ فغزلوا أولاً على مقربة من دمياط ، واستولى جماعة منهم على قصر عكا . (ربيع الثاني ٥٦٥ هـ

(١) ابن شداد ص ٤٨ و ٤٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٩ .

(٣) ابن شداد (ص ٥٢) ، وابن لأثير (ج ١١ ص ١٣٩ و ١٤٠) .

١١٦٩ - ١١٧٠) . ولما علم نور الدين بمسير الفرنجة إلى دمياط ، بادر إلى نجدة صلاح الدين فحاصر الكرك (شعبان ٥٦٥ / ١١٧٠)^(١) .

وقد أعد صلاح الدين الذي آلت إليه السلطة المطلقة جيوشه وملاً دمياط بالذخائر والجنود ، ووعد بإرسال المدد إلى المدينة ، ووزع عليهم الهدايا والهبات .

وقد نجح نور الدين في احتلال جزء من مملكة النصارى بفلسطين ، وأرسل الامداد إلى صلاح الدين الذي كان يعصده الخليفة العاضد طوال مدة الحصار الذي استمر خمسين يوماً ، وأمدّه بنحو مليون دينار . وقد جعلت هذه الأمور إغارات الفرنجة عديمة الجدوى ؛ فاضطروا لرفع الحصار^(٢) بعد أن أحرقت مراكزهم ، واستولى المصريون على آلائهم الحربية وقتلوا عدداً عظيماً من جندهم^(٣) .

وبعد انتصار صلاح الدين على الفرنجة ، طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه فوصلت أسرته (جمادى الثانية ٥٦٥ / ١١٧٠) ، فقلد أباه بيت المال ، وأخلص له إخوته^(٤) .

وقد شجع إخفاق الفرنجة في غزوهم دمياط — ذلك الإخفاق الذي يتمثل فيه ابن الأثير بالمثل المشهور عن النعامة وهو : « خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين » — صلاح الدين على أن يبدأ حياة الفتح بغزو الصليبيين في بلاد الشام ؛ وبذلك بدأت سلسلة الإغارات التي لم تنته إلا بمعاهدة الصلح مع ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا بعد اثنتين وعشرين سنة .

وقد اعتبر المصريون الشيعة والزرکان السنيون صلاح الدين حامياً لهم ، فاتفقوا معه على محاربة الصليبيين أعدائهم جميعاً : وشجعهم على ذلك ما شاهدوه في القاهرة من

(١) ابن شداد ص ٥٠ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٢ .

(٣) ابن شداد ص ٥٢ .

(٤) ابن شداد ص ٥٢ .

الأسلاب التي غنمها صلاح الدين من الفرنجة^(١)، ولما استقرت قدم صلاح الدين في مصر أسند المناصب الدينية إلى الفقهاء المتصلعين في عقائد المذهب السني، وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة، وسقطت إلى الحضيض سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وأزال صلاح الدين من الجيش بعض العناصر التي كان يشك في إخلاصها. ولما أيقن نور الدين محمود أن صلاح الدين استأثر بالنفوذ دون الخليفة الفاطمي في مصر. لأن رجالات الدولة قد انضوا تحت لوائه، أرسل إليه كتاباً يطلب إليه فيه أن يحمل اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي.

غير أن صلاح الدين تردد في تنفيذ هذه الرغبة، إذ كان يخشى أن يثير هذا العمل أهالي مصر، الذين كانوا لا يزالون متعلقين بالفاطميين إلى ذلك الحين. بيد أن هذا العذر لم يرض نور الدين، ولم يكن بد من أن يقوم صلاح الدين بتنفيذ أمره.

وكان الخليفة الفاطمي العاضد مريضاً في ذلك الوقت. فعقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة بدل اسم الخليفة الفاطمي، فوافقهم بعضهم وأخذوا على عاتقهم تعضيدته، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح.

وكان في هذا المجلس رجل فارسي يعرف بالأمير، حل بمصر أخيراً. ولما رأى ترددهم عرص أن يتولى تنفيذ رغبة صلاح الدين. فصعد المنبر قبل الخطيب في أول جمعة من المحرم ودعا المستضيء العباسي. وفي الجمعة التالية أمر صلاح الدين الخطباء أن يقيموا الخطبة للخليفة العباسي. وهكذا تم ذلك التغيير من غير أن يلقى أية مقاومة. ولم ينتطح فيها عزازان ولم يختلف فيها اثنان^(٢).

ولم يخبر العاضد أحداً من أسرته بذلك الحدث وقالوا «إن عوفي فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن نفيجه بمثل هذه الحادثة قبل موته»: وتوفي هذا الخليفة في العاشر من المحرم ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) من غير أن يعلم بهذا الحدث التاريخي العظيم: مجلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على القصر.

وكان صلاح الدين قد أقام قبل وفاة العاضد الفاطمي للطواشي بهاء الدين قراقوش على

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٤٨ — ١٤٩.

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٩.

القصر ، وأسكن أولاد العاضد وأعمامه وسائر أسرته في جناح منه ، وأخرج الموالي من الذكور والإناث ، وأعتق بعضهم .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد ، بعد أن حكمت مصر عسراً طويلاً كان عصر يسر ورخاء وتسامح ديني وثقافة . وإن زوال الدولة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السنيين وإعادة الخطبة إلى الخليفة العباسي ، بعد أن قطعت في مصر كسائر الولايات الفاطمية الأخرى مدة قرنين وثمانين سنين — كان في الواقع انتصاراً للشنة على الشيعة^(١) .

ثالثاً : الدولة الصليبية في اليمن :

قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب بفضل جهود دعاة اليمن من أمثال ابن حوشب وابن فضل وغيرهما من اليمنيين الذين كان لهم أثر بعيد في نشر الدعوة الإسماعيلية في اليمن والبحرين واليمامة وفي السند والهند ومصر والمغرب .

وقد تعرضت الإسماعيلية في اليمن لخطر جسيم ، بسبب قيام النزاع بين ابن حوشب (منصور اليمن) وعلى بن فضل الذي خرج على الدعوة الإسماعيلية ولم يعبا بنفوذ عبيد الله المهدي الذي أسس الدولة الفاطمية في أواخر سنة ٢٩٦ هـ . بل لقد خلع طاعة المهدي وحارب ابن حوشب ، واستولى على عدن لاعة وحاصره بجبل مسور نحواً من ثمانية أشهر .

وكانت هذه الحرب من العوامل التي كان لها أثر بعيد في إضعاف الدعوة الإسماعيلية في بلاد اليمن . فقد مات ابن فضل مسموماً في سنة ٣٠٣ هـ ، وخلفه ابنه ، وكان ضعيفاً ، فتمكن السنيون من القضاء عليه دون أن يحرك أنصار ابن حوشب ساكناً ويقدموا إليه أية مساعدة . وكذلك كان لموت منصور اليمن في سنة ٣٠٢ هـ أثر كبير في إضعاف هذه الدعوة الإسماعيلية ببلاد اليمن . فقد كان خلفاء منصور اليمن يأملون في بقاء رئاسة الدعوة في أيديهم ، ولكن عبيد الله المهدي قضى على هذه الآمال بتوليته عبد الله بن عباس

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٨١ وما يليها .

الشامى بعد منصور بنى ، مما أثار حنق أبنائه ، حتى إن أحدهم خلع طاعة المهدي ، وقتل الشامى الذى آلت إليه رئاسة الدعوة ، ولم يهغ إلى نصيحة أخيه جعفر بن منصور بنى الداعى صاحب المؤلفات الإسماعيلية الكثيرة ، فتحول إلى المذهب السنى .

وقد اتخذ السفينون من هذا الخلاف الذى تفاقم بين الإسماعيلية فى البين فرصة للقضاء على هذا المذهب وأنصاره ، مما حمل البقية الباقية من أنصار الفاطميين على التسفر وأشر دعوتهم فى الخفاء ، حتى لا يتمكن السفينون من استئصاله ، وظلوا على ذلك منذ أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، حتى ظهرت قوتهم من جديد على يد على بن محمد الصليحي حول منتصف القرن الخامس الهجرى فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى .

وقد راجت الدعوة الإسماعيلية فى البين على يد على بن محمد الصليحي . وكان أبوه القاضى محمد بن على من القضاء السفينين فى هذه البلاد . ولما انتقلت الدعوة الإسماعيلية فى البين إلى عامر بن عبد الله الزواحى (نسبة إلى زواحى وهى قرية من أعمال حراز) داعى دعة الإسماعيلية فى البين ، تقرب إلى القاضى محمد بن على الصليحي الذى توسم فيه مخايل الذكاء والنجابة والعلم والتفقه فى الدين . وقد قيل إنه كان عند عامر الزواحى كتاب حلية الصليحي من كتاب الضوء ، وهو من ذخائر الأئمة العلويين ، فأوصى إليه بكتبه قبل وفاته .

وقد تحول على بن محمد الصليحي إلى المذهب الإسماعيلى وهو فى حداثة سنه ، وتفقه فى أصول هذا المذهب . ثم حل محل عامر بن عبد الله الزواحى بعد وفاته ، وأحيا الدعوة الإسماعيلية القديمة ، وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم . ولما استقرت قدم على بن الصليحي فى معظم أرجاء بلاد البين ، كتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمى فى مصر يستأذنه فى إظهار الدعوة الإسماعيلية له فى هذه البلاد ، فأذن له الخليفة بذلك بعد أن تبادل كل منهما الهدايا ، ووجه إليه المستنصر «برايات وألقاب وعقد له الولاية» (١) وقد شمر على الصليحي عن ساعد الجد وأخذ يتنقل فى البلاد داعياً إلى الإمام الفاطمى . ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد ذاعت فى كافة أرجاء البين . ولم يبق من البين كما يقول عمارة البنى ، سهل ولا وعر ولا بر ولا بحر إلا فتحه على الذى اتخذ صنعاء حاضرة لدولته . ويقص علينا عمارة البنى (٢) أن على بن محمد الصليحي شيد

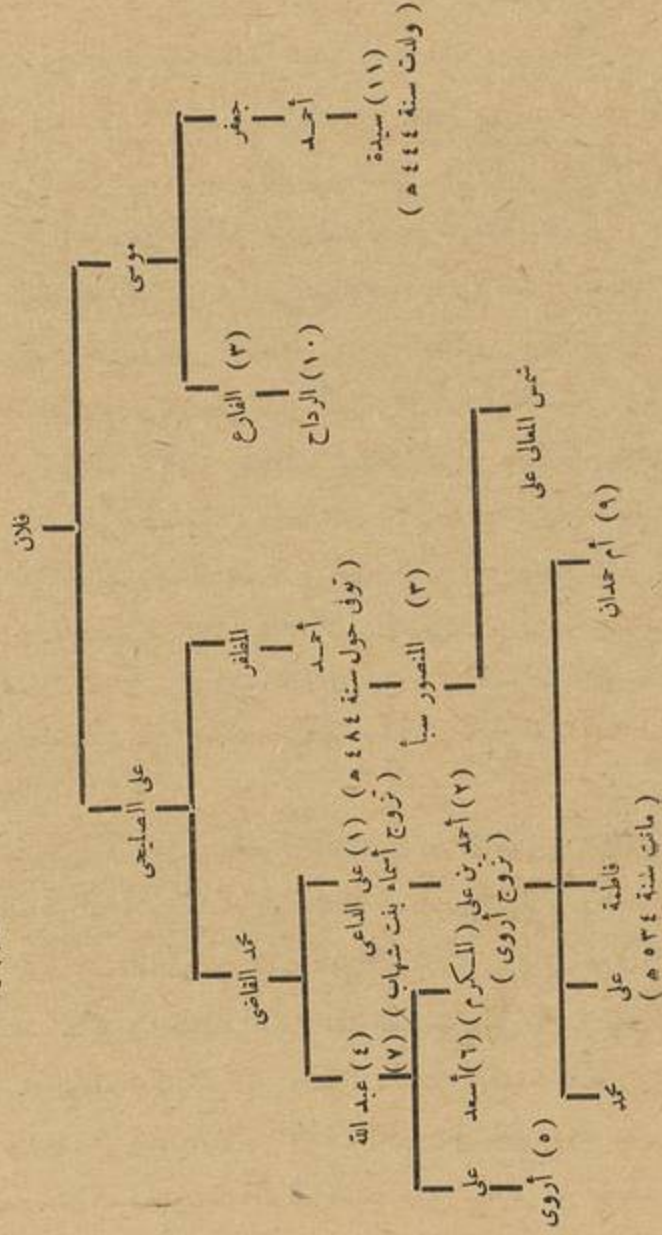
(١) الحمادى البنانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٣ .

(٢) تاريخ البين ص ٢ وما يليها .

الصليحيون باليمن

- اسم الوالي
 ١ - أبو كامل علي بن محمد الداعي (استولى على مكة ٤٥٥ هـ)
 ٢ - المكرم أحمد بن علي
 ٣ - النصور أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر بن علي

سنة الولاية
 ٤٢٩ هـ
 ٤٥٩ -
 ٤٨٤ أو ٤٨٧
 ٤٩٢ -



في اليمن القصور والدور وغيرها من المساكن الفخمة التي أصبحت بعد انقراض الدولة الصليحية مصدراً لمواد البناء من طوب وحجارة وأخشاب لكل من أراد بناء دار له . وهكذا أقيمت الخطبة للخليفة المستنصر على منابر اليمن وذكر اسم علي الصليحي وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب ، وزالت الدعوة للخليفة العباسي في هذه البلاد .

ولى علي بن محمد الصليحي صهره أسعد بن شهاب على زبيد ، مع أنه كان قد أقسم ألا يوليها إلا لمن يعطى له مائة ألف دينار . فلما ولي أسعد حكم زبيد تقدم إلى علي الصليحي بأموال كثيرة فقال له : من أين لك هذا واستولى على خزائنه وقال : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . وكان علي الصليحي ، برغم اعتناقه المذهب الإسماعيلي متسامحاً مع السنين : فقد سمح لهم بإظهار المذهب السني الذي كانوا يدينون بهقائده . وقد ولي أبا علي محمد القم الوزارة وديوان الإنشاء . وكان القم شاعراً أديباً . على أن علياً الصليحي لم يترك لوزيره شيئاً من النفوذ . وفي سنة ٤٦٠ هـ بلغ علياً الصليحي أن ابن طرف خرج عليه بمؤازرة زعماء الحبشة والسودان ، فسار إليهم وأحل بهم الهزيمة عند سفوح الجبال . وبعد أن استتب الأمر لعلي الصليحي ونشر نفوذه في جميع أرجاء اليمن ، عاد إلى صنعاء وأقام بها اثنتي عشرة سنة وولى حصون اليمن وقلاعها ومدنها الهامة من يثق في إخلاصهم وولائهم ، وانضوى تحت لوائه الأمراء وكبار رجالات اليمن . ثم عزم على التوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج بصحبة زوجته أسماء بنت شهاب أم الملك المسكرم الذي ولاه صنعاء في أثناء غيبته ببلاد الحجاز .

ولما كان ملوك الصليحيين في اليمن قد قاموا بخدمات جليلة للفاطميين ، فقد وجد الخلفاء أن منح الألقاب لملوكها وأمرائها خير وسيلة لاكتساب ولائهم . وكانت هذه القبائل تطلق على أبناء هذا البيت ألقاباً كالتي كانت تمنح للأمراء والوزراء في مصر .

وكان الخليفة المستنصر يذكر في مكاتباته ألقاب الملك الصليحي في كل مناسبة . ولا غرو فقد كان علي الصليحي في الواقع يحكم بلاد اليمن باعتباره نائباً عن الخليفة الفاطمي ، كما حرص هو وخلفاؤه من بعده على إظهار ولائهم للأئمة الفاطميين في مصر . وبما يدل على هذه التبعية التي كان يدين بها الصليحيون للخلفاء الفاطميين هذه الرسائل التي تبودلت بين علي بن محمد الصليحي والخليفة المستنصر الفاطمي . فقد بعث المستنصر إلى علي في عيد

الفطر من سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) برسالة يقره فيها على ولاية اليمن ويذكر له أثره في نشر الدعوة الإسماعيلية في بلاده^(١).

ونستطيع أن نخلص مما تقدم بأن الخلفاء الفاطميين كانوا ينظرون إلى الصليحيين نظرهم إلى كبار رجال دولتهم ، فيمنحونهم هذه الألقاب الضخمة تشجيعاً لهم على الاستمرار في بث الدعوة لهم واستمرار ولائهم لهم . كما كانت هذه الألقاب تقابل من ناحية الصليحيين بالارتياح والشكر للإمام الفاطمي على هذه العناية ، كما كانت هذه الألقاب من جهة أخرى تظهرهم أمام رعاياهم بمظهر القوة وتمكن من نفوذهم على أنه امتداد لنفوذ الإمام الفاطمي .

وبلغ من ثقة الخليفة المستنصر بعلي الصليحي وأطمئنانه إلى ولائه أن منحه لقب « الأمير الأجل مشرف المعالي تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين » ، كما لقبه أيضاً « منتخب الدولة وصفوتها ذا المجدين ، منجب الدولة وغرسها ذا السيفين ، نجيب الدولة وصنيعتها ذا الفضلين »^(٢) . كما عهد إليه المستنصر بإقرار الأمور في مكة والمدينة وإعادتها إلى حظيرة الدعوة الفاطمية . واستطاع علي الصليحي ، بما أوتيته من الذكاء أن ينجح نهجاً جديداً في بث عقائد المذهب الإسماعيلي ، فاتخذ من موسم الحج فرصة للنشر تعاليم المذهب . وكان يولى العامة ، وهم السواد الأعظم في كل مجتمع ، ومنهم الجنود ، وعن طريقهم تجبي الأموال ، اهتماماً خاصاً . وكان يجذبهم إليه بتدينه وتفقهه في عقائد المذهب السني . على أنه لم يظهر حقيقة مذهبه إلا لمن يثق به . وبذلك استطاع علي الصليحي أن يوطد أقدام الفاطميين في بلاد الحجاز ، وأن يعيد الخطبة إلى الخليفة الفاطمي على منابرهما . وقد أشاد الخليفة المستنصر بفضل علي الصليحي وخلع عليه لقب « عمدة الخلافة »^(٣) .

وكان موسم الحج من سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) فاتحة عهد جديد في نجاح الدعوة الإسماعيلية على يد علي الصليحي ، فقد قيل إنه بايعه ستون رجلاً من قبيلة همدان على نصره الدعوة أو الموت دونها . وكان هذا من غير شك نصراً ، ولا سيما إذا عرفنا أن هؤلاء الذين بايعوه على نصره الدعوة الإسماعيلية كانوا في عزة ومنعة من قومهم . وهكذا اعتقد علي الصليحي في نشر دعوته على الخاصة والعامة على السواء .

(١) سجلات وتوقيعات وكتب مولانا الإمام المستنصر بالله مخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن — نشرها الدكتور عبد المنعم ماجد (القاهرة ١٩٥٤) .

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر رقم ٣ ص ٣٤ .

(٣) المصدر نفسه . رسالة رقم ٢ ص ٣٢ .

وقد استطاع على الصليحي أن يجمع الين تحت لواء واحد . وهذا — كما يقول عمارة الينى^(١) — أمر لم يعهد في جاهلية ولا إسلام ، « ولم يقع لأحد فيمن ملك الين ما وقع لعلي بن محمد الصليحي ، فإنه استولى على الين سهله وجبله وشماله وجنوبه وشرقه في مدة يسيرة بعد أن قهر ملوكه » . وهو لذلك لا يقل عن بعض القواد الفاتحين الذين ظهر اسمهم على صفات التاريخ ، وذلك بفضل ما أحرزه من انتصارات وما قام به من أعمال مجيدة في خلال هذه المدة القصيرة من حكمه .

وكان على الصليحي إدارياً ممتازاً ، أمر ولاية الأقاليم بأن يسيروا وفق السياسة التي رسمها لتكون أساساً ومنهجاً ومرجعاً له في كل ما يشكل عليه . وكانوا يرجعون إليه في كل شئون الدولة . كما كان يدعوهم إلى « مسار » حاضرة ملكه ويجتمع بهم من حين إلى حين للنظر في مهام أمور الدولة ، ويذكرهم بواجباتهم والمسؤوليات الخطيرة الملقاة على عاتقهم . وكانت أمور الدولة والدعوة مركزة في شخصه ، إلا أنه كان مقيداً بالسياسة التي رسمها لنفسه من إقامة الحق وبسط العدل . ومن هذا يتضح كيف حكم على الصليحي بلاد الين حكماً مستقراً^(٢) .

وقد أدخل على الصليحي كثيراً من وجوه الإصلاح في بلاد الحجاز ، فخصص أموالاً وفيرة للبيت العتيق وتشجيع موسم الحج ، وأحسن معاملة الناس ، ونشر العدل بينهم ، واستألم إليه ، وردع القبائل التي كانت تعترض طريق الحج ، وتحمل ديات القتلى من ماله الخاص ، فكسب بحسن سياسته رضا الخليفة وثقة كثير من أهالي البلاد الإسلامية بتسهيل سبل الحج وإشاعة الطمأنينة ونشر الأمن .

كما كسا على الصليحي السكبة بالديباج الأبيض ، وجلب الآلات إلى الحجاز ، مما ألجج نفوس أهليه بالثناء عليه والدعاء له . وقد أقام سياسته على أساس العدل والحق ، كما تقدم ، وأثر عنه أنه قال : « أنصف المظلوم وأقم الظالم » . وهذا يذكرنا بقول أبي بكر الصديق في خطبته التي ألقاها في اليوم الذي بايعه فيه المسلمون : « والضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه »^(٣) .

(١) تاريخ الين (طبعة كبي Kay س ١٨) .

(٢) عمارة الينى س ٣٠٨ .

(٣) المصدر نفسه .

وكان الخليفة المستنصر الفاطمي يبعث إلى علي الصليحي بأنباء الأحداث الهامة في مصر ليذيعها على الناس ويعلمها من فوق منابر بلاده . فلما أغار عرب بني هلال على إفريقية وهزموا المعز بن باديس في معركة حيدران (بفتح الحاء وسكون الياء وضم الدال) في المغرب ، بعث الخليفة الفاطمي إلى علي الصليحي بنبأ هذا النصر^(١) . وقد بلغ من تعاقب علي الصليحي بالخليفة الفاطمي أن كتب إليه يستأذنه في السفر إلى مصر ليحظى بلقائه ، وبعث إليه بكتابه مع الداعي ملك بن مالك ، فأرسل إليه الخليفة كتاباً يأذن له بالحضور إلى مصر . ولكن علي الصليحي ذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، واستخلف ابنه المكرم بصنعاء ، واغتيل علي الصليحي على يد سعيد الاحول بن نجاح وهو في طريقه إلى مكة^(٢) .

ولم تفتقر علاقة الفاطميين بالصليحيين بوفاء علي الصليحي ، بل توثقت في عهد ابنه أحمد المكرم . ذلك أن الخليفة المستنصر ما كاد يسمع بنبأ مصرع علي الصليحي ، حتى كتب إلى ابنه المكرم يعزبه في وفاة أبيه ويقره على ملكه ويعهد إليه بثبوت الدعوة الفاطمية في اليمن وينصح له بأن يسير سيرة أبيه في بسط العدل وحسن السيرة^(٣) .

ولم يفت الخليفة المستنصر أن يقدق على المكرم الألقاب والنعوت التي تقر به من الخليفة وتحميه فيه وتشجعه على السير وفق سياسة أبيه ، فلحقه بهذه الألقاب الضخمة التي كانت مألوفة في ذلك العصر : من هذه الألقاب : « أمير الأمراء شرف المعالي عز الملك منتخب الدولة وغرسها ذو السيفين أبو الحسن بن الأجل الأوحد أمير الأمراء عمدة الخلافة شرف المعالي تاج الدولة الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين^(٤) » .

وكان أحمد بن علي الصليحي ضخيم الجسم فارح الطول فارساً مقداماً ، انصف بالشجاعة والكرم : وكان الخليفة المستنصر الفاطمي قد لقبه المكرم سنة ٤٥٦ هـ ، وذلك في حياة أبيه ، وأصبح ولياً للعهد بعد وفاة أخيه الأكبر محمد الأعز ، وأخذ يتدرب على إدارة شؤون البلاد حتى تسلم عرش الدولة الصليحية .

وكانت الصعاب تحيط بالمكرم في أول عهده . فقد قتل أبوه وهو في طريقه لأداء

(١) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٥٥ ص ٤٥ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢١٥ .

(٣) الهمداني وحسن سليمان ص ٢١٦ .

(٤) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٧ .

فريضة الحج كما تقدم ، وأسرت أمه المملكة السيدة الحرة الصليحية أسماء بذت شهاب وغيرها من حرائر بني الصليحي ، وقضى على خيرة رجال دولته . وتفاقم خطر بني نجاح كما سيأتي الكلام عليهم بعد قليل ، وكاد يقضى على الدولة الصليحية لأن أعداءها تربصوا بها الدوائر ، وأخذ بعض الولاة ينقضون عهدهم حتى كاد نفوذ الصليحيين يتلاشى من كافة أرجاء بلاد اليمن ، ولم يبق في أيديهم إلا التعسكر ، وكان العبيد قد حاصروه ، وتأمرت القبائل من كهلان وعفس ، وزيد ويحصب على الصليحيين ، وامتد الترد إلى صنعاء نفسها حيث كان المكرم يقيم فيها مع جماعة من المواليين من أتباعه .

ولعل السبب فيما أحاط بالمكرم من صعاب وما انتشر في دولته من روح الترد في أوائل عهده ، يرجع إلى أن أهل اليمن في ذلك العهد لم يألفوا الخضوع لسلطان حكومة مثل تلك الحكومة المركزية التي أقامها على الصليحي ، الذي لم يستطع برغم ما بذله من جهد أن يحمل اليمنيين على الخضوع لسلطة حكومة مركزية . كما أن خضوع اليمن كلها لسلطان على الصليحي لم يكن عن رغبة من أهلها ، بل كان نتيجة للحرب التي شنها على ولاياتهم المختلفة ، وما استعان به من دهاء وسياسة في سبيل توحيد دولته . لذلك لا عجب إذا وجد الحكماء في موت علي بن محمد الصليحي فرصة سانحة للعودة إلى ما كانوا عليه من دويلات وإمارات وولايات مستقلة .

على أن المكرم قد صمم على قتال الخارجين عليه . واستطاع بفضل ما أوتيته من الشجاعة وصدق العزيمة أن يذلل هذه الصعاب وأن يتخذ من ذلك اليأس الذي ولدته هذه الحالة التي يكتشفها الاضطراب مصدراً للشجاعة والإقدام ، واستطاع هو وأعرانه أن يرفعوا الحصار عن صنعاء ، وتبعوا الأعداء وانتصروا عليهم . وكان أهم المواقع التي انتصر فيها جند المكرم موقعة الملو ، وموقعة ذي أشرق ، وموقعة زيد .

ولعل تخليص المملكة السيدة الحرة أسماء أم الملك المكرم يعد من أهم الأحداث التي وقعت في عهد هذا الملك الصليحي . وقد ذكر عمارة النبي أن السيدة الحرة دبرت مؤامرة لقتل سعيد الاخول بن نجاح . وكان من أثر ذلك أن قتل أبوه وأسرت أمه . فلما آل الملك إلى المكرم عمل على تخليص أمه من الأسر . وقد روى المؤرخون أن المكرم وقف تحت طاقة أمه المملكة أسماء بذت شهاب فقال لها ، وكانت لا تعرفه : أدام الله عزك يا مولانا ، فقالت : مرحباً بأوجه العرب . ثم سأله من هو ، فقال لها : أنا أحمد بن علي بن محمد ، فقالت : إن أحمد بن علي في العرب كثير ، فاحسر لي عن وجهك حتى أعرفه ، فرفع اللثام عن وجهه ، فقالت : مرحباً بمولانا المكرم ، من كان

بجيشه كجيتك فإأخطأ ولا أبطأ ثم دخل رؤساء العرب فسلوا عليها وقد كشفت عن وجهها ، وكانت هذه عادتها في أيام زوجها لسمو قدرها عنم يحتجب عنه النساء . فنزل المكرم عن ظهر جواده وسجد لله شكراً على ما أحرزه من نصر وعفر خده في التراب ، وأحرقت الدار التي اعتصم بها العبيد (١) .

اختط المكرم أحمد الصليحي في مدينة ذي جبلة كثيراً من القصور والدور ، كدار العز التي كانت تطل على النهرين . كما شيد المساجد ، وبني قبرا لأمه السيدة الحرة أسماء ، واستخلف عمران بن الفضل دلي صنعاء . وقد عرف المكرم — كما عرف أبوه من قبل — بحسن السيرة في الرعية . وأثر أن يعامل الناس بالحسنى حتى يجذب إليه قلوبهم ، كما نال تقدير الرعية بما أحرزه من نصر وظفر . وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٤٦٠ هـ خرج سعيد الاحول من بني نجاح من تهامة على رأس جيش كبير وقصد صنعاء ، فتصدى المكرم الصليحي لقتاله وانتصر عليه وأرغمه على الحرب . وأقبل الناس على المكرم يطلبون منه الأمان ، فأجابهم إلى ذلك . وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر رجب سنة ٤٦١ هـ توجه المكرم إلى صنعاء فدخلها ، وحمد الله وأثنى على الإمام المستنصر الفاطمي وعزا إليه ما أحرزه من نصر وما تم له من فتح (٢) .

وكان الخليفة المستنصر يهتم بما يجري في اليمن ويتابع ما يصيبه الصليحيون من نصر . فلما علم أن المكرم انتصر على سعيد الاحول بن نجاح ، كتب إليه يعلن سروره ويعرب عن اغتباطه بهذا النصر (٣) .

وقد ساد الأمن في أنحاء دولة المكرم بعد أن قضى على الفتن والثورات حتى عاد إلى صنعاء في شهر شعبان سنة ٤٦١ هـ ، وهنا عول على الأخذ بالتأثر من سعيد بن الاحول وبني جلدته ليستريح من شرهم ، وكان يرى فيهم عدوه التقليدي ، فقام المكرم من صنعاء وقصد سعيداً الاحول في زبيد ، ثم جاءته الاخبار بأن سعيداً تحرك إلى المخلاف أو إلى عدن ، فاتجه المكرم بمن معه من ممدان وأهل حراز نحو جبل الشعر حيث عسكر سعيد ومن معه من الاحباش الذين استولى الرعب على قلوبهم ، وحمل المكرم عليهم وهزمهم هزيمة منكرة ، وقتل سعيداً الاحول وحمل رأسه إلى المكرم الصليحي ، كما قتل من بني نجاح

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : اليمن البلاد السعيدة ص ٨٩ — ٨٠ .

(٢) عمارة اليمني : تاريخ اليمن ص ٣٠ .

(٣) مسجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٦٠ ص ١٩٨ .

بلال بن نجاح وأخوه مالك . وعاد المكرم إلى زيد ، وصلى بالناس وخطب فيهم خطبة أفاض فيها بالدعاء لأبيه وحمد الله على ما أولاه من نعمة النصر عليهم والاختصاص به . ثم ترك المكرم زيد بعد أن ولي عليها السلطان أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر الصليحي ، وعزم على متابعة فلول جند جيش بن نجاح ، ولكنه علم أنه هرب إلى بلاد الهند . (١)

وقد تابعت كتب المستنصر الفاطمي إلى المكرم الصليحي الذي ظل على ولائه للفاطميين ، حتى لقد ولاه الخليفة ولاية عمان سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، كما أمره بالعمل على تثبيت السيادة الفاطمية في بلاد الحجاز وأن يؤيد الأمير عبد الله بن علي العلوي أمير الأحساء . وفي ٢٩ ذى الحجة سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) بعث الخليفة المستنصر يثبته بتقليد أمير الجيوش بدر الجمالي وإلى عكا . منصب الوزارة ، وما بذله من جهود في سبيل إقرار الأمن والسكينة في ربوع البلاد .

توفي المكرم في سنة ٤٨٤ هـ بعد أن أصيب بالفالج ، وكان قد أوصى بأن يخلفه ابن عمه أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر . ولكن زوجته السيدة أروى الحرة لم ترض بهذا الاختيار ، لأنها كانت تريد أن تولى ابنها عبد المستنصر ، وكان لا يزال طفلاً ، وكتبت إلى الخليفة المستنصر ترجوه أن يقر ابنها على بلاد اليمن ، وقد أجابها الخليفة الفاطمي إلى طلبها ، وأخذ يرسل الرسائل باسم عبد المستنصر . ولكن أمراء اليمن لم يعترفوا بهذا الغلام ، واحتدم النزاع بين الداعي أبي حمير سبأ بن أحمد الصليحي وأبي ربيع سليمان ابن الأمير الزواحي أخى الملكة أروى الصليحية . وهدد النزاع الذي قام بين الصليحيين والزواحيين النفوذ الفاطمي في بلاد اليمن فأرسل الخليفة المستنصر الفاطمي إلى طرفي النزاع ينههم عن هذا الخلاف ، ويأمرهم بطاعة السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر . ويشيد بالخدمات التي أداها على الصليحي وولده أحمد المكرم وزوجته السيدة الحرة (٢) .

ويظهر أن النفوذ الفاطمي في اليمن كان لا يزال على قوته وأن الأحداث لم تكن لتستطيع أن تضعف من شأنه بدليل استجابة الفريقين المتنازعين لنداء الخليفة الفاطمي وتأييدهم السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر . وكتبت السيدة الحرة إلى الخليفة الفاطمي تزف إليه هذا النبأ ، فرد عليها برسالة يبدى فيها سروره واغتنابه (٣) .

(١) الحمداني وحسن سليمان : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن س ١٢٧ - ١٢٢ .

(٢) سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٣٨ س ١٣١ .

(٣) المصدر نفسه ، رسالة رقم ٣٦ س ١٢١ .

على أن عبد المستنصر لم يعمر طويلاً ، فقد وافته منيته ، واحتدم النزاع بين الداعي سبأ بن أحمد وبين السيدة الحرة ، لأنه كان يريد أن يتول إليه حكم بلاد اليمن وأن يتزوج منها . ولكن السيدة الحرة أبت عليه ذلك . فسار سبأ إليها على رأس جيش عظيم ، ونشب القتال بين الفريقين ، وطلب سبأ من الخليفة الفاطمي أن يتدخل في أمر هذا الزواج ، فكتب الخليفة إلى السيدة الحرة يأمرها بإجابة سبأ إلى طلبه حسبما للزواج ودرأ للفتن ، فتزوجته نزولاً على أمر الإمام الفاطمي ، مما يدلنا على مبلغ نفوذ الفاطميين في نفوس اليمنيين .

وفد أنفذ الخليفة المستنصر رسولا إلى السيدة أروى فقال لها : « وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحده المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر على ما حضر من المال ، وهو مائة ألف دينار عيناً وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف وألطف » . ولم يسع السيدة الحرة إلا أن تلي نداء الإمام الفاطمي ، ورضيت أن تتزوج بمن تكرهه . وإن دل هذا على شيء ، فإنه يدل على ما كان للخلفاء الفاطميين من نفوذ وروح في بلاد اليمن ، لأن السيدة أروى اعتبرت الخروج على أمر الخليفة خروجاً على الدين (١) .

وقد ظلت السيدة الحرة على ولائها للخليفة المستنصر الفاطمي ، ترأسه وتراسل أمه وأخته ، حتى وتق بها هذا الخليفة كل الثقة ، وعهد إليها أن تنظم الدعوة الإسماعيلية في الهند وفي عمان ، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة في هذه البلاد (٢) . كما ظلت العلاقة بين الصليحيين قوية وثيقة بعد وفاة المستنصر في سنة ٤٨٧ هـ . فبادرت السيدة الحرة إلى الاعتراف بالخليفة المستعلي برغم أنه لم يغز ياجماع أنصار الفاطميين في مصر . فقد عمد الأفضل بن بدر الجمالي إلى إقصاء نزار بن المستنصر عن العرش ، وباع أخاه أبا القاسم أحمد ، ولقبه المستعلي بعد أن هدد الأمراء وحملهم على تأييده . وكتب الخليفة الجديد إلى السيدة الحرة رسالة يرجع تاريخها إلى ١٨ صفر سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ — ١٠٩٦) يصف فيها ثورة أخيه نزار وتغلب وزيره الأفضل عليه ، وما كان من اعتقال نزار والقضاء على ثورته .

(١) عمارة النيني : تاريخ اليمن ص ٣٣ .

(٢) Hamdani, Letters of al-Mustansir (B.S.OS.) (1939), vol. (٢)
III, part II, p. 324.

وفي سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ - ١١٠٢ م) آل حكم التمكن إلى الملك المفضل ، وكانت التمكن — التي اتخذ ملوك اليمن إحدى مدنها وهي ذو جبله حاضرة لهم — تحت حكم السلطان عبد الله بن محمد الصليحي أخى على بن محمد مؤسس الدولة الصليحية في اليمن . وقد صحب المفضل وعبد الله علياً الصليحي في الحج وقائلاً معه وهما في طريقهما إلى الحج . فلما جلس المسكرم على عرش الدولة الصليحية ولي أسعد بن عبد الله الصليحي على التمكن ، ولكنه كان سعى السيرة ، فصرفه الملك المسكرم عنها . وقد عظم شأن الملك المفضل الصليحي وامتد نفوذه على كثير من أرجاء اليمن . وكان سمحاً عادلاً كريماً يسهر على تدبير شئون بلاده (١) .

وفي سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م) قدم إلى اليمن ابن نجيب الدولة ، وكان أميناً على خزانة الكتب الأفضلية ، متفقاً في الدين ، غزير العلم واسع الدماء ، إلى حد أنه تقرب إلى الملك واصبح موضع ثقة ، فقلده الوزارة ووكّل إليه النظر في شئون دولته والعمل على قمع الفتن والثورات (٢) .

ولما مات الملك المفضل سنة ٥١٥ هـ ، وخلفه المأمون البطائي ، قوى شأن ابن نجيب الدولة ونفاقت سلطته حتى آل إليه الأمر ، وكتب السيدة الحرة إلى الخليفة الأمر الفاطمي في مصر ، وأرسلت إليه هدية من الجواهر النفيسة بلغت قيمتها أربعين ألف دينار ، وأعربت عن ولائها له ، وأكدت له رضا الشعب اليمني على ابن نجيب الدولة (٣) .

كان عهد ابن نجيب الدولة عهد استقرار وأمن في ربوع اليمن ودعم لعلاقتها مع مصر الفاطمية حتى مات ، فكان ذلك إيذاناً بقيام الفتن والثورات بين أمراء اليمن وحكامها من ذوى المطامع حتى استتب الأمر إلى الداعي محمد بن سبأ ، وهو من سلالة على الصليحي مؤسس الدولة الصليحية ومن أشرف بلاد اليمن حتى مات سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) وآل الملك من بعده إلى عمران بن محمد بن سبأ .

ولم يتأثر دعاة الإسماعيلية في اليمن بما أصاب الفاطميين من نزاع وفرقة إثر وفاة الخليفة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، فظلت السيدة الحرة تقيم الدعوة للخليفة المستعلى وتدين له بالولاء ، برغم نفشى النزارية وتأيد الخولانيين لهم ، مما هدد بلاد

(١) عمارة اليمن : تاريخ اليمن ص ٣٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣ و ٤٧ .

البن يمثل ما أصاب مصر من فرقة ونزاع . ولما علم الخليفة الأمر (٤٩٥ — ٥٢٤) بذلك ، أرسل الداعي على بن إبراهيم بن نجيب الدولة إلى بلاد البن في سنة ٥١٣ هـ ليقيم إلى جانب السيدة الحرة ويعينها في صراعها مع أعدائها . وظل ابن نجيب الدولة يعين الملكة الحرة في تدبير شئون البلاد واستقرار الأمور فيها . كما أرسل المأمون البطاحي وزير الأمر إلى ابن نجيب الدولة قوة من الفرسان ، تشد أزره في نضاله مع أمراء البن . ولكن هذا الداعي الفاطمي خرج على الفاطميين وانحاز إلى الزارية ؛ فأرسل الخليفة الأمر يطلب منها تسليم الداعي ، فقبض عليه وأرسل إلى القاهرة حيث قتل^(١) .

وقد حفظ الخليفة الفاطمي الأمر للسيدة الحرة لإجابته إلى طلبه وتنفيذ أمره ، فأرسل إليها في شهر ربيع الأول من سنة ٥٢٤ هـ يبشرها بمولد ولي عهده أبي القاسم الطيب ، ويطلب إليها أن تذب هذا النبا في بلاد البن . ولما قتل الأمر في سنة ٥٢٤ هـ كتم الأمير عبد المجيد بن محمد (الحافظ) ابن المستنصر أمر هذا الطفل^(٢) . وبذلك صرفت الخلافة عن الإمام الطيب بن الأمر ، وساء ذلك التصرف السيدة الحرة ، فاعتبرت لإمامة الحافظ باطلة ، برغم ما بذل من جهود في سبيل استئلائه إليها ، وظلت السيدة الحرة تدعو للطيب على منابر بلادها ، بل عملت على إقامة الدعوة له في بلاد الحجاز . ولم يجد الحافظ بداً من أن يرسل إلى آل زريع في البن يطلب إليهم أن يدعوه له ، وقلد على بن سبأ بن زريع حكم هذه البلاد ولقبه « الداعي المعظم المتوج المسكن بسيف أمير المؤمنين » .

وبذلك انقسمت الإسماعيلية ببلاد البن إلى فريقين : فريق يؤيد الطيب ، وفريق يؤيد الحافظ . وكان من أثر هذا الانقسام أن ساءت أحوال بلاد البن ، ولاسيما بعد وفاة السيدة الحرة في سنة ٥٣٢ هـ . في الوقت الذي آذنت الخلافة الفاطمية بالزوال ، وما لبث الاتابك نور الدين محمود بن زنكي أن تدخل في شئون مصر ، وتقلد صلاح الدين الأيوبي الوزارة ، وقضى على الخلافة الفاطمية في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وتطلع إلى بلاد البن ، فأرسل حملة بقيادة أخيه الأمير توران شاه ، الذي استولى على هذه البلاد ، وقضى على نفوذ الفاطميين فيها ، كما قضى على النفوذ الفاطمي في مصر نفسها .

هكذا استمرت هذه الوحدة في العقيدة الإسماعيلية بين مصر والمغرب والشام والبن بضعه قرون ، كانت وحدة في النواحي السياسية والثقافية والحضارية . وكانت مدارس

(١) عمارة اليمن ص ٤٣ — ٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٢ .

صنعاء والقاهرة والقيروان ودمشق تبادل الدعاة والعلماء والطلاب ، وتربط في وحدة فكرية عميقة الجذور . وإن انقسام العالم الإسلامي إلى كتلتين مذهبتين متنازعتين : الكتلة السنية في العراق ، ثم الكتلة الشيعية في مصر واليمن والشام قد انتهى إلى اتحاد عام شامل تحت راية الجهاد لطرد الصليبيين من بلاد الشام وإنقاذ العالم الإسلامي مما حاق به من هذا العدوان الاثم^(١) .

رابعا — اليمن قبل الأيوبيين :

(بنو نجاح في زبيد (٤١٢ — ٥٥٤ / ١٠٢١ — ١١٥٩))

كان نجاح مؤسس دولة بني نجاح من أرقاء الحبشة وآخر نظار السراى في الدول الزيدية وقد حكم زبيد إلى أن توفي سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) . واستولى الصليحيون إذ ذاك على المدينة المنورة التي أصبحت جزءاً من ممتلكاتهم إلى سنة ٤٧٧ هـ . وقد بعث علي بن محمد الصليحي جيشاً يتكون من خمسة آلاف رجل لقتال بني نجاح وأنزلوا بهم المزيمة .

وبذلك استقر الملك للصليحيين وازدهرت الحضارة في عهدهم ، وظهر العلماء والفقهاء مثل جياش بن نجاح . وعما يدل على استتباب الامر للصليحيين ما كان من وفود مائة وسبعين سلطاناً من أمراء اليمن على الصليحي يعلنون ولائهم له ويلتمسون حمايته ، فرد عليهم بهذه العبارة : « إنا أدركنا ثأرنا واسترجعنا ملكنا ، وقد أحسنا إليكم وحملنا إليكم الصيانة والعفو » . فرد عليه أحدهم بقوله : « والله يامولانا لئن فعلت ذلك لئنازعتك قحطان في ملك تهامة ، ولئن كرهته بذلك ليهيجن حفاظها ، ولنطلبن دخولها » . فأجاب بقوله :

لَا نَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتَرْسُلَهَا إِنْ كُنْتُ شَهْمًا فَأَتْبِعْ رَأْسَهَا الذَّنْبَا

ثم دارت الايام دورتها على الصليحيين واسترد بنو نجاح سلطانهم على بلاد اليمن وقتلوا من الصليحيين خلقاً كثيراً . ويقص علينا عمارة اليمنى — وكان شاهد عيان لما كان يجري في اليمن من أحداث بني نجاح — فيقول : فرأيت شيخاً منهم (يعنى من الصليحيين) اتقى الحربة بولده ، فنفذت منهما جميعاً ، فعوذ بالله من جهد البلاء . قال جياش : لا أنسى رأس الصليحي في عود المظلة وقراءة المقرئ : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل

(١) أنظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٩ — ٢٤٨ واليمن : البلاد السعيدة

شيء قدیر^(١) ، ولا أنسى قول الشاعر العثماني من قصيدة أنشدها مرتجلاً في هذا المقام
بصف المظلة :

ما كان أقبح وجهه في ظلها ما كان أحسن رأسه في عودها !
فانظر إلى تفاني الشعراء في إرضاء بني نجاح بقتل عدوهم الصليحي وتقبيح وجهه في
حياته مع تجميله في وفاته . وهذا يدل على الشهامة حتى عند وفاة العدو . ولا شك أن قصر
عهد أسرة الصليحيين إنما ترجع إلى ما انصفوا به من البعد عن التسامح والعفو عند المقدرة
الذي يجذب القلوب ويشيع الطمأنينة في النفوس .

وكان من أثر هزيمة الصليحيين على أيدي بني نجاح أن هاجر هؤلاء إلى الهند فراراً
من حنق أعدائهم . وعاد الأمر في اليمن إلى بني نجاح ، وامتلات صدور الناس هبة من
أول ملوكهم وهو سعيد بن نجاح بعد مقتل علي الصليحي ، وتغلب الولاة على ما كان في
أيديهم من القلاع ، واستقر الأمر في تهامة لسعيد الاحول بن نجاح في سنة ٤٧٣ هـ
(١٠٨٠ م)^(٢) .

وقد تقلبت زبيد أكثر من مرة في خلال حياة سعيد الاحول بين أسرتين . وبعد
سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) استمرت زبيد بصفة مستديمة تحت حكم بني نجاح حتى أفسحت
دولتهم (التي وقعت تحت حكم سلطان الوزراء) الطريق إلى المهديين في سنة ٥٥٤ هـ
(١٠٥٩ م) .

ولم يكن لأولاد فانك بن جياش من الأمر إلا الظاهر فقط ، كإقامة خطبة الجمعة
بذكر اسمهم بعد اسم الخلفاء العباسيين ونقشه على السكة ، وركوبهم بالمظلة في أيام المواسم .
أما السلطة الفعلية فقد كانت في أيدي الوزراء من الأحباش . وكانت السلطة في عهد
المتصور بن فانك بن جياش (٥٠٣ — ٥١٧ / ١١٠٩ — ١١٢٣) في أيدي الوزراء
كما كانت في عهد أبيه . ومن هؤلاء الوزراء أنيس الفانكي ، وهو من الأحباش أيضاً . وقد
امتناز بالشجاعة ولو أنه انصف بالشدة . وقد أثرى هذا الوزير ثراء كبيراً من الأموال
التي استولى عليها من بني نجاح ، حتى إنه بنى قصراً عظيماً اتخذ داراً لإقامته ، بلغ عرض
كل قاعة من قاعاته ثلاثين ذراعاً ، وعرض كل مجلس من مجالسه أربعين ذراعاً ، وسك

(١) سورة آل عمران ٣ : ١٢٦ .

(٢) عمار اليمني : تاريخ اليمن ص ٦٠ — ٦٤ .

النقود بإسمه ، وأراد أن يفتك بالمنصور بن فانك ، ولكن المنصور دبر له كميناً وقضى عليه ، واستولى على أمواله ، وجواريه ، ومن بينهن جارية مغنية تدعى « علم » تزوجها المنصور فولدت له ابنة فانك الثاني ابن المنصور الذي آل إليه الحكم في سنة ٥٠٣ هـ (١) .

وقد خلف أنيس الفاتكي الوزير وزراء امتاز عهدهم بالمنافسة على الوزارة ، وقامت الفتن في البلاد . ومن هؤلاء الوزراء أبو منصور مفلح الفاتكي ، وكان حبشياً كذلك ؛ امتاز بالآداب والشجاعة والكرم .

ولما مات فانك الثاني انتقل حكم اليمن إلى فانك الثالث ابن منصور (٥٣١ — ٥٥٣ / ١١٣٦ — ١١٥٨) . وفي عهده ظهرت في بلاد اليمن طبقة من العبيد ، منهم ربحان الأكبر ، وإقبال ، ومسروق ، الذين علا نفوذهم على نفوذ الوزير . وكان من أثر تأمرهم على الوزير مفلح أن أبعد بحجة محاربة ثوار عدن ، فظل مقصياً حتى مات سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) . وتقلد الوزارة من بعده طائفة من العبيد حتى زالت دولة بني نجاح وقضى عليها علي بن مهدي سنة ٥٥٤ هـ (١١٧٣ م) . وقد اضطربت البلاد بعد وفاته ، ولم يستقر الحكم بعد أن استولى عليها بنو مهدي ، وكانوا من الخوارج .

(ب) بنو مهدي (٥٥٤ — ٥٦٩ / ١١٥٩ — ١١٧٣)

خلف المهديون أو بنو مهدي بن نجاح في زيد . وكان علي بن مهدي والياً ونبياً في تهامة . جذب إليه أشياء أطلق عليهم الأنصار والمهاجرون . وفي سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) بدأ علي بن مهدي يحتل الحصون ويخضع البلاد ، واستطاع أخيراً أن يهاجم زبيد ويفزوها (١١٥٩ / ٥٥٤) .

وقد استقر على بن مهدي في يوم الجمعة ١٤ رجب سنة ٥٥٤ هـ (١١٥٩) ، ولكن عهده لم يدم أكثر من شهرين ، ومات في شهر شوال من تلك السنة ، وخلفه ابنه المهدي (٥٥٤ — ٥٥٨ / ١١٥٩ — ١١٦٢) ، ثم ابنه الثاني عبد النبي الذي خلع وخلفه أخوه عبد الله ، ولكن الحكم مالبت أن عاد إلى عبد النبي من جديد . وقد بسط نفوذه على جميع بلاد اليمن ، وعلى تهامة وبعض المراكز والمدن المجاورة ، إلا عدن التي ظلت تدفع له الجزية الخمس (٢) .

(١) المصدر نفسه ص ٧٠ — ٧١ .

(٢) عمارة النبي : تاريخ اليمن ص ٩٦ — ٩٧ .

وقد ذكر المؤرخون أن عدد الإمارات البينية التي خضعت لسلطان عبد النبي بلغ خمسة وعشرين ، وأن ثروته قد زادت زيادة تتجلى فيما تركه من المجوهرات والقصور العظيمة والملابس الثينة .

وكان بنو مهدي لا يثقون في أتباعهم إلا إذا ذبحوا أحد أبنائهم ، ولو كانوا من عشيرته . وكان هؤلاء الأتباع يتفانون في تحقيق هذه الرغبة ، وذلك بتضحية أبنائهم ، ولو كانوا من عشيرته . وكان هؤلاء الأتباع يتفانون في تحقيق هذه الرغبة ، وذلك بتضحية أبنائهم ، اعتقاداً منهم بنبوة حكام هذا البيت وأنهم ينتسبون إلى علي بن أبي طالب . وقد استقر الحكم في بني نجاح حتى فتح الأيوبيون بلادهم في سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ^(١)

(ج) بنو زريع ^(٢) في عدن

٤٧٦ — ٥٦٩ / ١٠٨٣ — ١١٧٣

نصب المسكرم الصليحي عباساً ومسعوداً ابني المسكرم حاكمين على عدن سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) . وقد استمر حكمهما المشترك أجيالاً عدة . وقد انتهك أبو السعود وأبو الغارات استقلال ملك صنعاء ، ولكنهما لم يستطيعا الاستمرار بصفة دائمة . وكانت هذه الدولة أهم دول اليمن بعد الصليحيين . وقد دامت حتى فتحها الأيوبيون سنة ٥٦٩ هـ . وقد لقي ملوك بني زريع صعاباً كثيرة حتى توطد ملكهم في آخر الأمر في عدن . وكانت هذه الولاية من أمنع ولايات اليمن ، وبعد سبأ ابن أبي السعود بن زريع أول ملوك هذه الأسرة وكان تقليد أمراء هذه الولاية الحكم يصدر من الخليفة الفاطمي في مصر منذ عهد الحافظ . ومن الشعراء الذين مدحوا بني زريع شاعر مصري من الإسكندرية يدعى ابن قلاقس . ومن قصائده في مدح ياسر بن بلال وزير محمد بن سبأ :

سافر إذا حاولت قدراً سار الهلال فصار بدرأ

وفي أواخر عهد دولة بني زريع ضعف نفوذ حكامها حتى صار الأمر إلى وزيرهم ياسر بن بلال الذي قبض على زمام الحكم في عهد محمد عمران بن محمد بن سبأ ، فكان آخر ملوك بني زريع ، ثم دخل الأيوبيون بلاد اليمن في سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ^(٣) .

(١) المصدر نفسه ص ٩٩ .

(٢) بضم الزاي وفتح الراء وسكون الياء

(٣) عمارة اليمن ص ١١٧ — ١١٨ .

فامسا — اليمن في عهد الأيوبيين :

وكما شاركت اليمن في الجهاد بعد ظهور الإسلام ، كذلك شاركت في الجهاد ضد الصليبيين والتتار . ذلك أنه لما قامت الدولة الأيوبية في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي قامت المنازعات بين حكام اليمن : فكانت عدن ومخلاف الجند (بفتح الجيم والنون) في يد بني زريع ، وكانت صنعاء وبعض مخاليفها في يد بني حاتم ، وكانت صعدة (بفتح الصاد وسكون العين والجوف في يد الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان الزيدى . وكان المخلاف السليمانى في يد الشريف غانم ابن يحيى بن حمزة ، وزبيد وما حولها في يد عبد الله مهدي الحميرى . وقد قامت بين حاكم المخلاف السليمانى وحاكم زبيد منازعات انتهت بقتل غانم بن يحيى واستنجد أخيه بالخليفة العباسى في بغداد ، فكتب إلى السلطان صلاح الدين في مصر ، فأرسل أخاه توران شاه إلى اليمن سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) .

ويعتبر الفتح الأيوبي لبلاد اليمن أعظم حدث في تاريخ بلاد العرب الوسيط ، فقد وحد أمراء بيت صلاح الدين بين اليمن ومصر وسورية وبلاد الجزيرة ، وفتح توران شاه زبيد وصنعاء ثم استولى على عدن ، وأتاب عنه حطان بن كامل بن منقذ السكتاني في حكم زبيد وعاد إلى سورية (٥٧١ / ١١٧٥) ، فأضاف إليه أخوه صلاح الدين ولاية الإسكندرية ، وبقي نوابه في اليمن إلى أن توفي سنة ٥٧٦ هـ ، فولى صلاح الدين عليها أميراً من قبله . ثم ولى أخاه طغتكين بن أيوب بلاد اليمن فبقي بها حتى مات سنة ٥٩٣ هـ ، وخلفه ابنه العزيز إسماعيل ، ولكنه أساء السيرة فقتله أمراؤه وخلفه أخوه الناصر . وهكذا توالى ولاية الأيوبيين على بلاد اليمن قرابة نصف قرن (٥٦٩ — ٦٢٥ / ١١٧٣ — ١٢٢٨) .

ولذلك سلسلة نسب الأيوبيين في بلاد العرب من حيث صلتها بالفرع الذى كان على حكم مصر ، نذكره هنا لأهميته لتاريخ بلاد اليمن .

هجري	ميلادي
٥٦٩	١١٧٣
٥٧٧	١١٨١
٥٩٣	١١٩٦
٥٩٨	١٢٠١
٦١١	١٢١٤

الملك المعظم شمس الدين توران شاه (الأول) بن أيوب

الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب (وصل إلى اليمن ٥٧٨ هـ)

معز الدين إسماعيل بن طغتكين

الملك الناصر أيوب بن طغتكين

الملك المظفر سليمان بن سعد الدين شاهنشاه (الثانى)

(توفي سنة ٦٤٩ هـ)

٦١٢ - ٦٢٥ هـ الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن السكّال ١٢٥١ - ١٢٢٨ م

سادسا - بنو رسول وبنو الرّسّى في اليمن

(١) بنو رسول (٦٢٦ - ٨٥٨ / ١٢٢٩ - ١٤٥٤)

خلف بنو رسول الأيوبيين في حكم اليمن سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م). وقد جاءوا إلى هذه البلاد مع الأيوبيين، وامتد نفوذهم من حضرموت إلى مكة، وظل حكمهم سائداً أكثر من قرنين. وهم ينسبون إلى أول ملوكهم وهو علي بن رسول الذي ينتهي نسبه إلى الفساسة الذين هاجروا من اليمن إلى الشام بعد انكسار سد مأرب.

وكان علي بن رسول قد ولي مكة سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م)، ثم استخلفه الملك المسعود الأيوبي على اليمن فبقى بها نائباً عن الأيوبيين الذين كانوا يحكمون مصر والشام، ثم استقل على بملك اليمن وأسس الدولة الرسولية، في تعز، وتلقب بالملك المنصور، وأعلن أنه يحكم اليمن نيابة عن الخليفة العباسي. ثم قتل على سنة ٦٤٨ هـ، خلفه ابنه الملك المظفر يوسف صاحب جامع المظفرية في تعز. وقد طال عهده باليمن حتى مات بقلعة تعز سنة ٦٩٤ هـ. وقد أرسل المظفر يوسف إلى قلاوون سلطان المماليك في مصر هدايا نفيسة وخطب وده واتحدت مصر مع بلاد اليمن في ذلك العصر.

خلف المظفر يوسف ابنه الأشرف عمر - وهو صاحب جامع المظفرية في اليمن - ولكن عهده لم يطل، وتوفي سنة ٦٩٦ هـ، ثم خلفه أخوه الملك داود. وفي عهده توطدت الوحدة بين اليمن ومصر، وتبودلت الهدايا والتحف بين حكام البلدين، واعتنق ملك اليمن عقائد المذهب الشافعي، واشتغل بالعلم، وعنى بجمع الكتب، حتى إن خزانة كتبه حوت مائة ألف مجلد. وقد قرب إليه العلماء وأجزل لهم العطاء حتى توفي سنة ٧٢١ هـ، خلفه ابنه المجاهد علي الذي عاصر كلا من محمد بن قلاوون المملوكي وابنه الناصر حسن. وقد أساء المجاهد السيرة فقتله أنصار المجاهد الذي أعيد إلى ملكه وعزل مرتين، ثم خلفه ابنه الأفضل عباس، ثم تابع بنو رسول على حكم اليمن حتى زالت دولتهم سنة ٨٥٨ هـ (١٤٥٤ م).

لم يزد جند اليمن في عهد بنى رسول على ألفى فارس ، وكان هناك فوق ذلك نحو هذا العدد من الجند الغرباء . وكان زى الملك وعامة الجند يتكئون من القباء الضيق الأكام ويتمنطقون بالمناطق المشدودة ، وعلى رموسهم تخافيف ، وكانون ينزعلون الخف المصنوع من الحرير ، وشعار الملك عبارة عن قماش أبيض يتخلله كثير من الورود .

وكان من أهم موظفي الدولة النائب والوزير والحاجب وكاتب السر وكاتب الجيش ومقدم ديوان المال ، وكان ملوك اليمن يحاكون سلاطين الممالك في مصر في زيهم وفي أكثر مظاهر السلطان ، حتى إن التوقيع على الرسائل كان على مثال توقيع سلاطين الممالك في مصر ، وقد تضمن هذا التوقيع عبارة : « الشاكر لله على نعمائه » .

وكان للتجار مركز في الدولة اليمنية ، لأن التجارة كانت أهم موارد الدولة في عهد بنى رسول . وكانت بلاد الهند تمد اليمن بالسلع والسفن ، وتعتمد اليمن على أرباب الصناعات في مصر والشام . وكان أمراؤها يحجزون لهم الرواتب ويحسنون معاملتهم ويقربون إليهم مهرة الصناعات ، وبذلك يخففون من غربتهم ، ويمنحونهم ما يعوضهم عن ترك أوطانهم بما يوفره لهم من أسباب الرفاهية ورغد العيش . وكان اليمنيون يهتمون براحة الغرباء الوافدين على بلادهم ويكرمون وفادتهم ويفيدون من مواهبهم وكفائاتهم .

(ب) بنو الرسى - الأئمة الزيديون (بصعدة وصنعاء)

(٢٨٠ — ٧٠٠ / ٨٩٣ — ١٣٠٠)

ويرجع تاريخ بنى الرسى إلى أيام الخليفة المأمون العباسي ، فقد خرج في عهده محمد بن إبراهيم ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ودعا إلى نفسه إلى أن مات ، خلفه أخوه القاسم الذي بث دعائه - وهو على حال استتاره زهاء عشرين سنة - فبايعه أهل مكة والمدينة والكوفة وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم ، وكاتبه أهل البصرة والاهواز وحشو على الظهور . وقد بعث الخليفة المأمون إلى بلاد اليمن جنودا يطلبونه . فاختفى في حى من البدو . ولما ولى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ شدد في طلب القاسم ، فانتفض عليه أمره (سنة ٢٢٠ هـ) وهرب إلى الهند وأقام بها حتى مات سنة ٢٤٥ هـ ، وعاد ابنه الحسين بن القاسم الرسى إلى اليمن ، وإليه ينسب بنو الرسى .

وكان أنصار بني الرسي من الزيدية وغيرهم يقولون بأحقية بالخلافة ، وكان أول من خرج منهم باليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي ودعا إلى نفسه ، وتلقب الهادي وبويع بالإمامة سنة ٢٨٨ هـ . وقد جمع حوله جمعا من الشيعة وحارب إبراهيم بن يعفر (وقيل أسد بن يعفر من أعقاب التباينة بصنعاء وكتلان) ، وملك صنعاء وضرب السكة باسمه ، والتف الناس حوله وقوى نفوذه بينهم . ثم عاد إلى صنعاء حيث توفي سنة ٢٩٨ هـ .

وخلف يحيى بن الحسين ابنه محمد المرتضى ، ثم تتابع على ملك اليمن ملوك من بني الرسي حتى دب الخلاف بينهم وأناحوا بذلك الفرصة لتغلب السليمانيين أمراء مكة في القرن السادس الهجري . فدعا المنصور عبد الله إلى الخليفة الناصر العباسي ، وخطب له على منابر الديلم والجليل ، وظلت الحال على ذلك حتى جاء المتوكل أحمد السليمانى ، فبايع الزيدية أحمد ابن الموطىء بن الحسين المنتجب بن القاسم الرسي . وكان أحمد بن الموطىء فقيهاً أديباً عالماً نقياً قواماً صواماً . وقد سار إلى صنعاء واستولى عليها من يد أحمد المتوكل زعيم السليمانيين الذى بايعه سنة ٦٤٩ هـ . واستمر حكم الزيدية بصعدة فى عقب أحمد بن الموطىء .

جدول بني الرسي

٢٨٠ — ٧٠٠ هـ

(١) العهد الأول

أبو محمد القاسم الرسي ترجمان الدين بن إبراهيم طباطبا (توفي ٢٤٦ هـ) .

هجريه	
٢٤٦	الحسين بن القاسم
٢٨٠	الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم (توفي ٢٩٨ هـ)
٢٩٨	المرتضى أبو القاسم محمد بن يحيى (اعتزل الحكم سنة ٣٠١ وتوفي سنة ٣١٠ هـ)
٣٠١	الناصر أحمد بن يحيى (توفي سنة ٣٢٥ هـ)
—	المنتجب الحسين بن أحمد (توفي سنة ٣٢٤ هـ)
٣٢٤	المختار أبو محمد القاسم بن أحمد
—	المنصور يوسف الداعي بن يحيى
—	القاسم المنصور بن علي الإلياني (توفي سنة ٣٩٣ هـ)
٣٩٣	المهدي الحسين بن القاسم المنصور

هجريه

—	جعفر بن القاسم المنصور
٤٢٦	أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن
٤٣٠	الناصر أبو الفتح الديلمي بن الحسين بن محمد
٤٥٤	استولى الصليحيون على صنعاء
٤٨٠	عمران بن الفضل (حاكم صليحي)
—	سبأ بن أحمد (حاكم صليحي)
٤٩٢	حاتم بن الغشم الهمداني
٥٠٢	عبد الله بن حاتم
٥٠٤	معن بن حاتم
٥٣٢	حميد الدولة حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل
٥٣٢	المتوكل أحمد بن سليمان بن محمد (توفي سنة ٥٦٦) (عاد الرسيون للحكم مؤقتاً)
٥٥٦	علي الوحيد بن حاتم (هزمه توران شاه (الاول) (الأيوبي سنة ٥٦٩)

(٢) العهد الثاني

هجريه

٥٩٣	المنصور عبد الله بن حمزة (ولد سنة ٥٦١ هـ وتوفي في المحرم سنة ٦١٤)
٥٩٤	استرد صنعاء
٤١٦	الناصر عز الدين محمد بن عبد الله (بصعدة حتى سنة ٦٢٣ هـ) المحرم
٦١٤	الهادي نجم الدين يحيى بن حمزة
٦٢٣	المهدي أحمد بن الحسين بن أحمد بن القاسم (توفي سنة ٦٥٦ هـ)
٦٥٦	المتوكل شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة
٦٨٠	المنتصر داود
	(فرع من قرابة بعيدة نسبهم مشكوك فيه)
٦٤٦	أحمد الإمام
—	أبو محمد الحسن
—	يحيى بن محمد
—	حسن بن فلان

هجريّة

٦٧٠

إبراهيم بن أحمد

٦٧٤

المطهر بن يحيى (ضد المنتصر داود ، توفي سنة ٦٩٧)

٦٩٧

محمد بن المطهر

—

المطهر بن محمد

—

صلاح الدين بن المطهر

الدولة الموحديّة في المغرب

(١) عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ — ٥٥٨ / ١١٣٠ — ١١٦٣

(١) مولده وتأمّنه :

يرجع نسب أبي محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلى ^(١) إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ^(٢) . وقد أجمع المؤرخون على أن عبد المؤمن ينتمي إلى قبيلة جومية الزناتية . وقد ولد في سنة ٤٨٧ هـ بضيفة من أعمال تلمسان (ببلاد الجزائر الآن) تعرف بتاجراً ^(٣) . وكان أبوه على فقيراً يشتغل بعمل الأواني الفخارية . وقد طلب عبد المؤمن العلم بالمساجد من صغره ، فتعلّم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، واقتبس بعض علوم اللغة والدين ، ثم التقى بأستاذه محمد بن تومرت ، فأتم دراسته عليه . وقد عرف عبد المؤمن بشدة ذكائه ونال قسطاً وافراً من علوم الدين واللغة مع ما امتاز به من قوة الشخصية التي بوّأت له مكانة عالية بين الموحدين ^(٤) .

(ب) بيعة :

تابع أصحاب المهدي محمد بن تومرت العشرة عبد المؤمن بن علي في شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ . وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة البيعة الخاصة ، لأن موت المهدي ظل في طي

(١) ويقول المراكشي : (المعجب ص ١٧٦) هو عبد المؤمن بن علي بن علوي الجوي .

(٢) ابن أبي زرع روض القرطاس ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٣) ضبطه بن خالكان (وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٤٢ — ١٤٨) تاجرة (بناء مربوطة في

آخر الكلمة) بدلاً من الألف المقصورة .

(٤) وقد وصف (المراكشي المعجب ص ١٩٧) عبد المؤمن فقال : « وكان معتدل القامة وضيء

الوجه جهورى الصوت فصيح الألفاظ جزل المنطق . وكان يحيا إلى النفوس لا يراه أحد إلا أحبه .

الخفاء أكثر من سنتين ، ثم بايع الموحدون عبد المؤمن البيعة العامة في ٢٠ ربيع الأول سنة ٥٢٦ هـ (١) . وذلك بجامع يذمل (٢) . وقد اختار الموحدون عبد المؤمن لإعامتهم لما عرفوه من اختصاص المهدي له وتقريبه إليه وإطرائه لصفاته وتقديمه إياه في الصلاة ، إلى ما لمسوه من فضله وعلمه ودينه وقوة عزيمته وحب سياسته ورجاحة عقله وشجاعته (٣) . وقد قاتل جيوش ناشقين بن علي بن يوسف بتلمسان ثم ووهران حيث لقي حتفه (٤) . ثم استولى عبد المؤمن على مدينة فاس ثم على مدينة مراکش حاضرة المرابطين بعد حروب دامية . ثم قبض على إسحاق بن علي بن يوسف ناشقين آخر أمراء المرابطين وقتله ، وأنته القبائل من كل حذب وصوب ودخلت في طاعته ، واستوثق له أمر المغرب ولم يبق له منازع . ثم فتح عبد المؤمن بلاد إفريقية ، ومد نفوذه إلى برقة ، وفتح بلاد الأندلس ، وخطب له على جميع المنابر في هذه البلاد (٥) .

ولما أخضع عبد المؤمن جميع قبائل المغرب فكر في فتح بلاد الأندلس وإعادة مجد المسلمين إلى ما كان عليه في عهد الأمويين وقد مني نفسه باسترداد طليطلة حاضرة النصارى وطردهم نهائيا من هذه البلاد . وتاقت نفسه للجهاد ، فعزم على غزو الفرنجة برأ وبجراً ، فأمر بإنشاء الأساطيل فبنى أربعمائة سفينة .

وقد قيل إن المهدي ابن تومرت لما توفي تطلعت نفوس العشرة للخلافة ، وكادت الفتنة تقع بين القبائل وتختلف كلبة الموحدين ، فاجتمعوا على عبد المؤمن بن علي لأنه لم تكن له بالمغرب قبيلة تنافس القبائل التي ينتمى إليها أصحابه العشرة . ولما أخذت البيعة لعبد المؤمن كان العشرة أول المبايعين له ، ثم تبعهم الخمسون من الأشياخ ثم كافة الموحدين .

(ج) غزواته :

كانت حروب عبد المؤمن بعد أن بويع بالخلافة تهدف إلى غرضين هما : إخضاع القبائل المغربية للدعوة الموحدية ، والقضاء على الدولة المرابطية . ولم يكد عبد المؤمن

(١) ذهب ابن صاحب الصلاة (المن بالإمامة) إلى أن الموحدين أخفوا وفاة ابن تومرت ثلاث سنين وعلى ذلك تكون البيعة العامة قد تمت سنة ٥٢٧ هـ . وقد أجمع المؤرخون على أن وفاة المهدي كانت سنة ٥٢٤ هـ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٣٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٧ .

(٤) المراكشي : المعجب ص ٢٠٢ .

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٣٢ .

بلى أمور الموحدين حتى وجه همته إلى جهاد أعدائه « وقتال أهل الزيغ والعناد عن طاعته »
فغزا نادلا (بسكون الدال مع اللام المقصورة) في سنة ٥٢٦ هـ وانتصر عليها . ثم غزا
بلاد « درعة » وفتحها ، كما غزا قبائل تيفر (بفتح التاء وسكون الياء) وفازار وغياثة
(بكسر العين) .

وفي شهر صفر سنة ٥٣٤ هـ تفرغ عبد المؤمن لحرب المرابطين حتى سقطت دولتهم
سنة ٥٤١ هـ . فقد حاصر مراسيها على جميع سواحل بلاده ^(١) . ثم جمع الجند وأخذ في
صنع الأسلحة على اختلافها ، حتى كان يضرب من السهام وحدها عشرة قناطير في
اليوم . ثم خرج عبد المؤمن في سنة ٥٥٨ هـ من مراکش حاضرة ملكة للجهاد ببلاد
الأندلس ، ولما وصل إلى رباط سلا كتب إلى جميع أهالي المغرب وإفريقية والسوس
يدعوهم للجهاد . فأجابه عدد كبير من الموحدين وقبائل العرب والبربر ، قيل إن عددهم
بلغ ثلثمائة ألف مجاهد وثمانين ألف متطوع من الفرسان ومائة ألف راجل ^(٢) .

(د) انهزمه — وفاته :

كان عبد المؤمن بن علي يؤثر أهل العلم ويجل العلماء ويعظمهم ويقربهم إليه ويحسن
إليهم . كما كان يبعث في طلبهم من مختلف البلاد ويوفر لهم أسباب الراحة ويسكنهم بجوار
قصره ويساعدهم على طلب العلم بتوفير المأكل والمشرب لهم في غير إسراف ولا تقصير . كما
كان ينوّه بذكر المتفوقين . وقد قسم عبد المؤمن الطلبة إلى طائفتين : طلبة الموحدين ، وطلبة
الحضر . وكان يقصد من ذلك تمييز طلبة المصامدة عن غيرهم ^(٣) ويحثهم على التعمق في دراسة
عقائد المهدى بن تومرت . وكان عبد المؤمن نفسه من رجال العلم المعدودين . فقد كان
كما وصفه ابن أبي زرع ^(٤) فصيح اللسان عالما بالجدل ، متفقا في علم الأصول ، حافظا
للحديث صحيح الرواية متبحرا في العلوم الدينية والعقلية ، إماما في النحو واللغة والقراءات
ملما بالتاريخ والسير ، أدبيا شاعرا . وقد اختار عبد المؤمن كتابه من أدباء عصره . كأبي
جعفر بن عطية ، وأخيه عطية بن عطية . وأبي الحسن بن عياش وغيرهم .

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٢٨ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٣) المراكشي : المعجب ص ٢٠٢ .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧٢ .

كما اتخذ عبد المؤمن وزراءه من العلماء النابهن ، كعبد السلام بن محمد الجومى ، وأبى جعفر بن عبد المؤمن ، واتخذ قضائه من الفقهاء النابهن أيضا ، كأبى عمران موسى بن سهل من أهل تينمل ، وأبى يوسف حجاج بن يوسف ، وأبى بكر بن ميمون القرطبي .
وكان المرضى أقوى من عزم عبد المؤمن ودأبه على الجهاد ، فقد وافته منيته في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ .

(٢) أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن : ٥٥٨ — ٥٨٠ / ١١٦٣ — ١١٨٤

ولد أبى يعقوب يوسف في ٣ رجب سنة ٥٣٣ هـ (١) . وقد عهد عبد المؤمن إلى ابنه الأكبر محمد بالخلافة من بعده ، فبايعه الناس ، وقد اضطرب أمر محمد بعد وفاة أبيه وكاد الحكم يخرج من أسرة عبد المؤمن ، وقد اتفق الموحدون بزعامه أخويه يوسف وعمر على خلعه لأنه لم يكن يصلح للحكم (٢) وبايعوا أخاه يوسف ، ولم يتخلف عن بيعته سوى أخويه السيد أبى محمد صاحب بجاية وأبى عبد الله صاحب قرطبة ، وظلا على ذلك حتى سنة ٥٥٩ هـ حيث قدم عليه كل منهما وداناه بالطاعة وبايعاه (٣) .

كان أبى يعقوب يوسف حسن السياسة والتدبير محبا للجهاد . فلما ولي الخلافة سار على سياسة أبيه . فجمع الأموال الضخمة وأنفق أكثرها في شراء السلاح وتدريب الجنود . وقد قضى على ثورة « مرز دغ » (بفتح الميم والزاي وسكون الراء والذال) الغمارى (بضم الفين) الصنهاجى الذى تبعه خلق كثير من غمارة وصنهاجة وأوربة (بفتح الالف مع الهمزة والراء والباء وسكون الواو) .

ودخل يوسف مدينة نازا (٤) وأحل به الهزيمة وقتله وحمل رأسه إلى مدينة مراکش حاضرة الموحدين . وكان ذلك سنة ٥٥٩ هـ .

وفي سنة ٥٦٥ هـ أمر يوسف بن عبد المؤمن أخاه أبا حفص بحرب نصارى الأندلس فسار على رأس جيش يتألف من عشرين ألف جندي سوى المتطوعين ، وغزا الموحدون طليطلة

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٧٢ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٣٦ .

(٣) ابن أبى زرع ج ٢ ص ١٨٣ .

(٤) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٨٤ .

وأحوازاها وسبوا النساء وغنموا الأموال . ثم عاد جيشهم ظافراً منتصراً . وفي سنة ٥٨٠ هـ عزم يوسف على حرب نصارى الأندلس^(١) بجيش جرار يضم قبائل عرب إفريقيا وزناتة ومصمودة وغمارة وصنهاجة وأوربة ، وقد جاز هذا الجيش إلى بلاد الأندلس فنزل بمصرى جبل الفتح (جبل طارق) ثم سار إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى إشبيلية ، واستولى على مدينة شنترين (بفتح الشين والتاء وسكون النون) غربى الأندلس في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ . ثم غزا هذا الجيش الموحدى مدينة أشبونة (إشبونة حاضرة البرتغال الآن) ، على أن النصارى استطاعوا أن يستميلوا إليهم فريقاً من الجيش الموحدى . فقد أعلنوا ليلاً أن يوسف بن عبد المؤمن قد ارتحل عائداً إلى المغرب وأوقعوا بذلك الاضطراب في صفوف الجيش الموحدى ، وأخذ الجند يفرون من المعركة . ولما تأكد النصارى المحاصرون أن جند الموحدى قد انفضوا من حول يوسف بن عبد المؤمن فكروا الحصار ووصلوا إلى خيمة يوسف فزقوها واقتحموا هذه الأخبية ، فقاتلهم يوسف بسيفه ، ولكنه طعن عدة طعنات وقتل مئة من حرسه وثلاث من جواريه حاولن تلقى الضربات عنه حتى وقع على الأرض . ولما شعر الجيش الموحدى أن النصارى قد دبوا هذه الخدعة للتخلص من يوسف بن عبد المؤمن عادوا إلى القتال ، ونشبت بين الفريقين معركة انتهت بانتصار المسلمين . غير أن يوسف بن عبد المؤمن لم يلبث أن مات متأثراً بجراحه وهو في طريقه إلى الجزيرة الخضراء ، وذلك في ١٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ وحمل جثمانه إلى تينمل ودفن بجوار أبيه^(٢) .

كان يوسف بن عبد المؤمن من أعظم خلفاء الموحدى حبا للعلم وأهله ، وتقديراً لرجاله لأنه عاش في الأندلس في حياة أبيه الذى ولاه إشبيلية . وقد ذكر المراكشى أن يوسف بن عبد المؤمن كان ملأاً بكلام العرب حافظاً لآيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام ، وأنه لقي وهو في إشبيلية كثيراً من اللغويين والنحاة والمفسرين ، كأبى إسحاق إبراهيم بن عبد الملك (ويعرف بابن ملسكون) ، وكان من أحسن الناس

(١) بلغ يوسف بن عبد المؤمن أن ألفونس أغار على قرطبة وغرناطة ورندة (بفتح الراء والدال وسكون النون) ومالقه وغيرها . السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) ابن أبى زرع ج ٢ ص ١٩٣ .

قراءة للقرآن وحفظاً للغة وتبحراً في النحو . كما عكف يوسف على دراسة الفلسفة والفلك والطب . وقد أولع بجمع الكتب من أنحاء الأندلس والمغرب . وكان يبعث في طلب العلماء^(١) . ومن أشهر علماء عصره الفيلسوف أبو بكر بن طفيل ، فقد كان عالماً بجميع فروع الفلسفة . وقد تلمذ على أبي بكر الصائغ المعروف بابن باجة . ولابن طفيل مصنفات هامة في الطبيعيات والإلهيات وغيرها . كما خلف لنا رسالة « حى بن يقظان » المعروفة . ومن الفلاسفة الذين عاشوا في عصر يوسف بن عبد المؤمن الفيلسوف العظيم أبو الوليد ابن رشد ، والوزير الطبيب أبو بكر بن زهر (بضم الزاى وسكون الهاء) ، وكان ملماً بالطب حافظاً للغة والآداب ، مشاركاً في الفقه والحديث والتفسير ، ومنهم الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجرد . وكانت مدينة مراکش في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في العلوم والآداب والفنون^(٢) . كما كانت تتطلع إليها أنظار المسلمين للدفاع عن حوزة الإسلام ضد مطامع النصارى في بلاد الأندلس .

(٣) يعقوب المنصور : ٥٨٠ — ١١٨٤/٥٩٥ — ١١٩٩

ولد أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن من أم ولد رومية تسمى « ساحر » . وقد ذكر المراكشي أن البيعة أخذت له في حياة أبيه^(٣) . وخالفه في ذلك جمهور المؤرخين ، فقد ذكر ابن أبي زرع أن الموحدين بايعوه عقب وفاة أبيه^(٤) ، وقد استوزر يعقوب المنصور ابن أبي حفص الهنتاني وقلد أخاه يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن قيادة الجيش الموحدى في الأندلس .

وقد صادف يعقوب المنصور في أوائل عهده مشكلتين كبيرتين : الأولى قيام ابن غانية في وجهه ، والثانية تمرد نصارى الأندلس وعملهم على إضعاف العرب والاستيلاء على أملاكهم في هذه البلاد .

(١) المراكشي ص ٢٣٧ — ٢٤٠ .

(٢) السلاوى . الاستقصا ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) المعجب ص ٢٦١ .

(٤) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٤٢ .

فقد وجه على بن يوسف بن ناشفين إلى الأندلس رجلين من قبيلة مسوفة هما : يحيى ومحمد ، ويعرفان بابن غانية (نسبة إلى أمهما) . فأما يحيى فكان فارساً شجاعاً ، كما كان فقيهاً ورعاً ، وقد ولاء على بن يوسف مدينة بلنسية ، ثم ولاء قرطبة فظل على ولايتها حتى مات . وأما محمد فقد تقلد بعض أعمال قرطبة من قبل أخيه يحيى ، فلما اضطرب أمر الأندلس بعد موت على بن يوسف وقوى نفوذ الموحدين ، خشى محمد بن غانية على نفسه فغبر جزيرة « ميورقة » مع أهل بيته وحشمه فملكها ، كما استولى على جزيرتي منورقة ؛ وبابسة ، وعاش في هذه الجزر ودعا للخلفاء العباسيين فيها ، وكان لمحمد من الأولاد : عبد الله وإسحاق والزبير وطلحة . وقد آل الحكم إلى ابنه إسحاق ثم إلى حفيده على بن إسحاق الذى حارب يعقوب المنصور الموحدى ببلاد المغرب ورأى الفرصة قد سنحت له بعد موت يوسف بن عبد المؤمن لانشغال الموحدين بحرب نصارى الأندلس . فاستولى على بن إسحاق بن غانية على بجاية ثم على قلعة بنى حماد وما حولها من البلاد . وقد خرج يعقوب المنصور من مراکش حاضرة مملكة لارب ابن غانية الذى لم يقو على حربه على الرغم من مساعدة بهاء الدين قراقوش قائد صلاح الدين الأيوبي له وانتصر يعقوب المنصور على ابن غانية وحلفائه من العرب والمصريين وعاد إلى بلاده سنة ٥٨٤ هـ (١) .

(١) موقعة الأرك (٢) :

أما المشكلة الثانية التى واجهت يعقوب المنصور فهى تمرد نصارى الأندلس وطمعهم فى أملاك المسلمين فى هذه البلاد . فقد عبر يعقوب المنصور إلى الجزيرة الخضراء (٣ ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ) ، وسار حتى نزل شنترين ، وأغار على مدينة أشبونة وما جاورها وقطع ما صادفه من الثمار وحرق المزروعات وقتل وسبى كثيراً من الأهالى ، ثم عاد إلى المغرب بعد أن أسر ثلاثة عشر ألفاً من النصارى . ويعتبر هذا الجواز الأول إلى الأندلس (٣) .

وكان من أثر جواز يعقوب المنصور إلى الأندلس للمرة الأولى وما أحرزه على المسيحيين من نصر أن طلب الفونس الهدنة خمس سنين . فأجابه يعقوب إلى طلبه . ولكن ألفونس

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٦٧ — ٢٦٩ .

(٢) بفتح الألف مع الهزة وفتح الزاء .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٢ .

لم يكده يسترد قوته وبعد العدة لحرب الموحدين حتى نقض الهدنة وكتب إلى يعقوب المنصور كتاباً يطلب إليه فيه أن ينزل له عن بعض الحصون والمدن . وبما جاء في هذا الكتاب :

« اللهم باسمك فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح . أما بعد ، فإنه لا يخفى على ذى ذهن ثاقب ولا ذى عقل لازب ، أنك أمير الملة الخنيفية ، كما أنى أمير الملة النصرانية . وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال أمر الرعية وإخلادهم إلى الراحة . وأنا أسوهم بحكم القهر وأخلاء الديار وأسبى الذرارى وأمثل بالرجال . ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم . إذا أمكنتك يد القدرة » (١) .

ولما تسلم يعقوب المنصور هذا الكتاب مزقه وكتب على ظهر قطعة منه قوله تعالى :
(ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) (٢) . ثم ذيل هذه الآية القرآنية بهذه الكلمات : « ماترى لا ماتسمع » (٣) .

وقد دعا يعقوب المنصور الجند من الأمصار وضرب السراقات بظاهر مدينة مراکش . ولما تجمع الجند جاز بهم إلى بلاد الأندلس . وكان جيشه يضم قبائل العرب وزناتة ومصمودة وغمارة والمتطوعين من القبائل المغربية والأغراز والرملة والموحدين والعبيد . وقد سار الخليفة الموحدى فى إثرهم فى موكب عظيم يضم أشباخ الموحدين والفقهاء والزهاد . ثم سار هذا الجيش لملاقاة العدو حتى أصبح على بعد مرحلتين من حصن الأرك ، وذلك فى ٣ شعبان سنة ٥٩١ هـ . وعقد يعقوب المنصور اللواء لآبى يحيى بن أبى حفص الهنتاقى وبقي هو على رأس الجيش الموحدى . ولقى جيش أبى يحيى الهنتاقى ظناً منه أنه جيش الخليفة يعقوب المنصور . وحى القتال بين الفريقين ، واستشهد أبو يحيى ، وأيقن العدو أن يعقوب المنصور قد قتل ، وأنه قد أحرز النصر على جيش الموحدين ، ثم أقبل يعقوب المنصور بجيشه وطوق جيش العدو الذى أصبح بين جيش يعقوب المنصور وجيوش زناتة والمصامدة وغمارة والعرب التى كان يقودها أبو يحيى الهنتاقى : فولى النصارى الأدبار وأعمل فيهم

(١) السلاوى : الاستقصاص ج ٢ ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٢) سورة النمل ٢٧ : ٣٤ — ٣٧ .

(٣) السلاوى ج ٢ ص ١٦٧ .

المسلمون السيف وأسرُوا عدداً كبيراً منهم ، ودخل الموحدون حصن « الأرك » ، ونجا ألفونس ونحو ثلاثين فارساً من حرسه الخاص (٣ شعبان ٥٩١ هـ) (١) .

ويذكر ابن أبي زرع أن أسرى الأرك كانوا أربعة وعشرين ألفاً (٢) وأن يعقوب المنصور أطلق سراحهم . وقد ذكر ابن الأثير أن يعقوب المنصور نادى في عسكره : من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح .

ولما حلت الهزيمة بألفونس ، حلق رأسه ونكس صليبه وركب حماراً وأقسم ألا يركب فرساً ولا بغلاً ولا ينأى عن فراش حتى تنتصر النصرانية (٣) . ثم جمع جموعاً عظيمة ، فطلب يعقوب المنصور المدد من بلاد المغرب ودعا الناس للجهاد ، والتقى مع العدو في شهر ربيع الأول سنة ٥٩٢ هـ وهزم النصراني هزيمة منكرة ، وغنم مائتهم من أموال وسلاح ودواب . ثم سار إلى طليطلة فحاصرها وأغار على ما يجاورها من البلاد وفتح عدداً من الحصون ، ثم عاد إلى إشبيلية فأقام بها حتى سنة ٥٩٣ هـ . ثم سار إلى بلاد النصراني الذين طلبوا الصلح ، فعدل يعقوب المنصور عن متابعة الجهاد وأجابهم إلى الصلح وعقد معهم هدنة أمدها خمس سنين ، إذ نعى إليه خبر إغارة علي بن إسحاق وعاد إلى مدينة مراکش حاضرة مملكة المغرب . وكانت هذه الموقعة العظيمة آخر المعارك التي انتصر فيها المسلمون على نصارى الأندلس .

وقد طمع علي بن إسحاق صاحب غانية في بلاد إفريقية لتغيب يعقوب المنصور الموحدى عن المغرب ثلاث سنين للجهاد ضد النصراني في الأندلس ، فقصده إفريقية ، وخرّب جنده هذه البلاد وعاثوا فيها فساداً ، وعزم على المسير إلى بجاية ومحاصرتها ، ثم إلى بلاد المغرب نفسها . ولما اتصل هذا النبأ بمسمع يعقوب المنصور ، هادن النصراني في الأندلس حتى يتفرغ للحرب ابن غانية كما فعل من قبل (٤) .

(١) المراكشي : العجب ص ٢٨١ — ٢٨٢ . السلاوى : الاستقصاء ج ٢ ص ١٦٩ — ١٧٣ .
(٢) ذكر ابن الأثير (السكامل ج ١٢ ص ٤٨) أن عدد قتلى النصراني في موقعة الأرك بلغ مائة وستة وأربعين ألفاً ، وأن عدد الأسرى بلغ ثلاثة عشر ألفاً ، وأن المسلمين غنموا مائة وثلاثة وأربعين ألفاً من الخيل ، ومن الخيل ستة وأربعين ألفاً ، ومن البغال مائة ألف ، ومن الجير مائة ألف . وقد قتل من المسلمين عشرون ألفاً .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤٨ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤٨ — ٤٩ .

(ب) بين يعقوب المنصور وصلاح الدين :

استولى الصليبيون على سواحل الشام وملكوا بيت المقدس في أواخر القرن الخامس الهجري ، ولم تستطع الدولة الفاطمية أن تخرج الصليبيين كما لم يستطع ذلك العباسيون لأن هاتين الدولتين قد تآمرتا عليهما الضعف والوهن . فلما آل الأمر إلى صلاح الدين الأيوبي في مصر والشام ، عزم على الجهاد ، وأخذ يستولى على مواقع الصليبيين حتى استولى على بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ، فتأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين وتتابعت أساطيلهم على الإسكندرية . لذلك فكر صلاح الدين في طلب النجدة من يعقوب المنصور الموحدى وأرسل إليه هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلا من العود ، وستائة مثقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوساً عربية بأوتارها ، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج وموشاة^(١)

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً^(٢) جاء فيه : « الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الأرض ، وأغنى من أهلها من سألته القرض ، وأجرى على يده النافلة والقرض ، وزين سماه الملة بدرارى الذرارى التى بعضها من بعض »^(٣) وكان عنوان الكتاب : من صلاح الدين إلى أمير المسلمين ، وفى أوله الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب . ويذكر السلاوى أن يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين ، وأن يعقوب أمرها فى نفسه ، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً . وقد قيل إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة ، وحال دون استيلاء الصليبيين على سواحل الشام ، وقد دلل ابن خلدون^(٤) بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق فى إنشاء الأساطيل الجهادية .

ولا يبعد أن يكون استجداد صلاح الدين بـيعقوب المنصور الموحدى راجعاً إلى حاجة

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) قال السلاوى (الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣) أن هذا الكتاب من لإنشاء عبد الرحيم بن على البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل .

(٣) العبر ج ٦ ص ٤٩٠ .

الأسطول المصرى إلى بعض قطع من الأسطول البحرى الموحدى لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحراً ، إذ عفى المغاربة في عهد الموحدىين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس وليسكنوا دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارى الأندلس الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التى كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس . على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحدى لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح لأنه لم يلقه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين ، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن يعقوب المنصور كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب النصارى فى الأندلس ، وإذا كان صلاح الدين الأيوبي قد استرد بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ، فإن يعقوب المنصور قد جاز جوازه الأول إلى الأندلس سنة ٥٨٥ هـ ، أى بعد استرداد بيت المقدس بسنتين ، ثم جاز الجواز الثانى إلى الأندلس حتى وقعت معركة « الأرك » الكبرى سنة ٥٩١ هـ . ومن هنا ندرك أن عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين الديوبى ، إن صح ما ذكره بعض المؤرخين ، كان راجعاً إلى تربص النصرانية بالإسلام فى الأندلس والمغرب معاً .

(ج) إصلاحات يعقوب المنصور — أخلاقه — وفاته .

اختط أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مدينة الرباط ورسم حدودها وبدأ بنائها قبل وفاته (١) . فلما ولى ابنه يعقوب المنصور شرع فى إتمام بناء هذه المدينة ، وبنى بها مسجداً عظيماً مدسح الفناء له مئذنة شاهقة على هيئة منار الإسكندرية ، يصعد إليها بغير درج ، وتسمى الآن منارة حسان .

وكان عبد المؤمن بن على قد هدم سور مدينة فاس فى أثناء حروبه مع المرابطين ، فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور (٢) . وبما ساعد يعقوب على إقامة هذه المنشآت هذه الأموال الضخمة التى تدفقت على دولته . فقد ذكر المراكشى (٣) تحت عنوان

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٦٦ .

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٧٤ .

(٣) المعجب ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

« اتساع الدولة وزيادة الخراج » أن يعقوب المنصور كان يرتفع إليه خراج إفريقية وجملة في كل سنة مائة وخمسين بغلا ، هذا من إفريقية (بلاد تونس الآن) وحدها ، ماعدا بحاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها ، والمغرب وجزيرة الأندلس قاطبة .

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التي هي أقرب إلى الخيال . فقال بعض إنه بايع ابنه الناصر بعد عودته من موقعة الأرك ، ثم زهد في الدنيا وساح في الأرض حتى وافته منيته . وقال بعض آخر إنه ذهب للحج وعاد منه زاهداً فمات في الطريق ودفن بالشام^(١) . ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه مات بالمغرب سوى عبد الواحد المراكشي ، فقد ذكر أن يعقوب المنصور كان يتوق إلى فتح مصر وأن ذلك لم يزل عزمه حتى مات في مستهل سنة ٥٩٥ هـ ، ودفن بتينمل مع آبائه^(٢) . ويبدو أن ما ذكره المراكشي أقرب هذه الروايات إلى الصواب ، لأن قبر يعقوب المنصور مازال إلى الآن يزار بمدينة تينمل مع قبر أبيه يوسف وجده عبد المؤمن بن علي .

(٤) الناصر لدين الله :

بايع يعقوب المنصور ابنه محمداً بالخلافة من بعده ، ثم جددت له البيعة بعد وفاة أبيه ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ^(٣) . وقد ثار على الموحدين في مستهل عهد الناصر لدين الله رجل يدعى « علودان الغماري » ، ولكن الناصر أحل به الهزيمة ، ثم سار إلى فاس فأتم سورها . وكان عبد المؤمن بن علي قد خربه في حروبه مع المرابطين ، ثم بنى أكثره في عهد يعقوب المنصور على ما تقدم . ثم اتجه الناصر لدين الله إلى حرب ابن غانية بإفريقية ، وكان قد استولى على المهديّة ، ثم نازل تونس سنة ٥٩٩ هـ ، وهزم الحامية الموحدية فيها ، وفرض الضرائب الفادحة على الأهلين ، وكادت إفريقية تقع في يده ، إذ عين العمال على الأقاليم ، وأمر بذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة على ما كانت عليه الحال في عهد المرابطين .

فلما علم الناصر لدين الله بذلك وهو بمدينة مراکش ، استشار الموحدين والفقهاء في أمر ابن غانية ، فأشاروا عليه بمسألمته . ولكن الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي أحد العشرة من صحابة المهدي بن تومرت (وقد أقام أبناؤه الدولة الحفصية بتونس) أشار

(١) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ٤ ص ١٥٤ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٧٤ .

(٣) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٩١ .

على الناصر بقتاله ، فعمل برأيه ، وسار الجيش الموحدى لحرب ابن غانية تؤيده سفن الاسطول بقيادة يحيى بن أبى زكريا المزرعى . فلما علم ابن غانية بقدوم الناصر ، فر من تونس إلى القيروان ، ثم اتجه إلى قفصة ثم إلى قابس ثم عاد إلى المهدية^(١) ، وحاصر ابن غانية وانتصر عليه ، ففر إلى بلاده سنة ٦٠٢ هـ . وفى سنة ٦٠٣ هـ قلد الناصر لدين الله وزيره الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاقى ولاية إفريقية ، فقبل هذا المنصب بعد تردد^(٢) ، وبقي الحسك فى عقبه بعد سقوط الدولة الموحدية بالمغرب .

موقعة العقاب :

ولما أغار الفونس ملك أسبانيا النصرانية على ثغور المسلمين فى الأندلس ونهبها وسبي نساءها وأطفالها ، كتب الناصر لدين الله إلى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاقى صاحب إفريقية يستشيريه فى الغزو ويطلب إليه المساعدة ، لم يلب نداه ، وأخذ الناصر الموحدى يستعد لقتال نصارى الأندلس^(٣) . وكان الناصر مستبداً برأيه ، فكتب إلى رعاياه بإفريقية والمغرب والأندلس يدعوهم إلى جهاد العدو ، فأنته الجيوش من سائر البلاد . ثم خرج من مدينة مراكش فى ٩ شعبان سنة ٦٠٧ هـ ، واجتاز البحر بجيوشه ، واستقر بجزيرة طريف حيث لقيه قواد الأندلس ورؤساؤها وفقهاؤها ، ثم نزل مدينة إشبيلية . وقد قسم الناصر جيشه إلى خمس فرق : لجعل العرب فرقة ، وزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل المغرب فرقة ، وجعل المنطوعة فرقة ، وجند الأندلس فرقة ، والمراحمين فرقة . وأمر كل فرقة بأن تنزل فى ناحية من نواحي الأندلس ، وأوقع بذلك العرب فى قلوب النصارى ، حتى طلب منه ملك ببلونة الأمان واستسلم له ، فأمنه وأكرمه . ثم حاصر الناصر حصن « سلطرة » الذى لا يوصل إليه إلا من طريق واحد شديد الوعورة ، وأمر جنده بإحاطة هذا الحصن الذى امتنع على جيش الموحدين^(٤) . وقد أشار أحد شيوخ الموحدين المحنكين على الناصر بأن يعدل عن حصار هذا الحصن لصعوبة اقتحامه وأن يسير إلى ناحية أخرى ، ولكنه أخذ برأى وزيره أبى سعيد بن جامع الذى أشار عليه بأن يظل على حصار هذا الحصن حتى تستسلم حاميته . وقد ظل الحصار نحو

(١) السلاوى : الاستقصاء ج ٢ ص ١٩٢ .

(٢) المصدر نفسه الجزء والصفحة .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٦ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٧ .

ثمانية أشهر^(١) حتى مل الجند وقلت الاقوات . ولما سمع ألفونس بما آل إليه جند المسلمين من ضعف ، دعا المقاتلين من سائر ممالك النصاي واحتل قلعة رباح من قائدها الموحدى أبى الحجاج يوسف بن قادس الذى فر مع رجاله .

ولما علم الناصر لدين الله الموحدى بذلك أغار على حصن « سلبطرة » واستولى عليه ، ثم التقى الجيشان فى حصن العقاب ، فسار النصارى نحو فرقة المتطوعين الموحدية فقتلوا عليها ، وولى الناصر الأدبار ، ناركا وراة مئآت الآلاف من القتلى . وقد دارت هذه الموقعة المشهومة فى ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ ، وتعتبر هذه الموقعة نذيراً بنهاية قوة المسلمين بالمغرب والأندلس على السواء ، بل إنها تعتبر نذيراً بقرب سقوط الدولة الموحدية التى لم تقم لها بعدها قائمة^(٢) .

وقد توفى الناصر الموحدى فى ١٠ شعبان سنة ٦١٠ هـ ودفن فى اليوم التالى .

(٥) سقوط الدولة الموحدية :

لم يتصرف الناصر لدين الله فى موقعة العقاب تصرف القادة المحنكين كما كان أسلافه من قبل ، كعبد المؤمن ويعقوب المنصور . وليس من عجب فى ذلك فقد تولى الحكم ولم يكن قد ناهز السابعة عشرة من عمره . ولذلك كان يصدر عن رأى وزرائه الذين كانوا يوجهونه كيف شاءوا وشاءت أهوائهم ، حتى لقد انهم المؤرخون وزيره أباسعيد بن جامع بأنه كان غير أمين فى نصحه^(٣) .

وكانت هزيمة « العقاب » ضربة شديدة بعيدة الأثر فى تقريب نهاية الحكم الموحدى فى المغرب والأندلس . « فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والأندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية »^(٤) .

ثم مات الناصر لدين الله كدأ على ما لحق به من هزيمة منكبة فى موقعة العقاب ، وولى بعده ابنه أبو يعقوب يوسف الثانى ، وكان فى السادسة عشرة من عمره ، فطمع بعضهم فى الملك^(٥) وصار الوزراء يولون صفار الامراء لتحقيق أغراضهم وإشباع أهوائهم ،

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٣٢٢ .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٧ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٣٢٧ .

ولم يخلص العرش الموحدى لأحد من بنى عبد المؤمن دون قيام الفن والاضطرابات
وانقصار القوضى . وظلت الحال على ذلك حتى زالت الدولة الموحدية سنة ٦٦٧ هـ
(١٢٦٩ م) .

وبعد يوسف بن الناصر ولى أبو محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (أخو
يعقوب المنصور) ، وكان شيخاً كبيراً لم يستطع أن ينهض بأعباء الحكم ، فنزل عن العرش
للعادل (بن يعقوب المنصور) ، وقد مات مخنوقاً بعد أن نزل عن العرش بثلاثة عشر
يوماً ، وقد أبى كثير من الموحدين أن يبايعوا العادل ، واشتعلت نار الفتنة في المغرب
والاندلس ، فدعا أخوه المأمون حاكم إشبيلية نفسه ، وقامت الثورات في المغرب
والاندلس .

وهنا كفر المأمون بالموحدين ومبادئهم وأخذ يلعن المهدي بن تومرت ويحط من
شأن مبادئه وينادى بوجوب الرجوع إلى مذهب أهل السنة . وكان عهده عهد محن
وخطوب ومنازعات تفرقت فيها كلمة الموحدين . فصارت جماعة معه وجماعة مع يحيى
ابن الناصر الذى زالت دولة الموحدين في عهده (١) .

ثم مات المأمون سنة ٥٣٠ هـ وولى بعده ابنه الرشيد ، فاستمال الموحدين بإعادة الدعوة
الموحدية إلى ما كانت عليه . وفي عهده حدثت أحداث تنذر بسقوط الموحدين ، كظهور
قبيلة بنى مرين (بفتح الميم وكسر الراء) التى حاربها الرشيد ، فأحلت به الهزيمة غير
مرة . ثم مات الرشيد غريقاً في صحاريج بستانه بمراكش سنة ٦٤٠ هـ ، وولى بعده
أبو الحسن السعيد على (بن المأمون بن المنصور) الذى عقد الهدنة مع بنى مرين . ولم
يلبث أن قتله بنو ريان حكام تلمسان ، فتولى بعده أبو حفص عمر الذى تلقب بالمعتضد .
ولكنه لم يكده يستقر على عرشه حتى خرج عليه أمير موحدى يدعى أبا العلاء لإدريس
(ويلقب بأبى ديوس) الذى تحالف مع المرينيين ، ولكنهم غدروا به وقتلوه غيلة
سنة ٦٦٧ هـ ، وكان ذلك نهاية الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى ، وحلت محلها الدولة
المرينية (٢) .

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢١٥ .

(٢) المراكشى : المنجب ص ٣٢٦ .

الباب السادس

العلاقات الخارجية

(١) عرفة العباسيين والفاطميين بالبزنطيين

ذكر ابن الأثير (١) أن الهدنة أبرمت بين السلطان طغرل بك السلجوقي وإمبراطور الروم وأن الهدايا تبودلت بينهما ، وأن مسجد القسطنطينية قد عمر وأقيمت فيه الصلاة وذكر اسم طغرل بك في الخطبة .

وفي سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) غزت جيوش أحد ملوك الروم البلاد الإسلامية وأسر هذا الملك ، فقدا نفسه بأربعمائة ألف دينار . فلم يقبل إبراهيم ينال منه هذا العرض وحمله إلى السلطان طغرل بك . وقد طلب الملك البيزنطي من نصر الدولة بن مروان أن ينقل رغبته في اقتداء نفسه إلى السلطان ؛ فتم له ما أراد وأرسل طغرل بك الملك بغير فداء ، فعبّر عن سروره بهدية أنفذها إلى السلطان لم يحمل مثلها على حد تعبير ابن الأثير (٢) .

وكان من أثر ذلك الانتصار الذي أحرزه للسلاجقة على جيش الروم في « أخلاط » غربي آسيا الصغرى سنة ٤٦٣ هـ وأسر « ديوجينيس رومانوس » وتعرضه للقتل على يد أحد غلمان السلاجقة أن أحضر الإمبراطور إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقي . وعلى الرغم مما توقعه هذا الإمبراطور من القتل أو التشهير في بلاد الإسلام أو العفو ، قبل ألب أرسلان العفو وقبول الفداء ، واستقر الرأي بينهما على قبول الفداء وقدره مليون وخمسمائة ألف دينار ، وأن يكون جند الروم على أهبة الاستعداد إذا ما طلبها السلطان السلجوقي ، وأن يطلق أسرى المسلمين في بلاد الروم .

وقد أطلق سراح الإمبراطور مع جماعة من أمرائه وقواده ، كما منحه السلطان خمسة عشر ألف دينار يستعين بها على السفر إلى بلاده ، وعقد معه هدنة أمدها خمسون سنة ،

(١) السكامل ج ٩ ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٠ .

وخلع عليه وردة إلى مأمته وشيعه فرسخا . ولما بلغ الروم نبأ هذه الواقعة خلعوا هذا الإمبراطور . فلما وصل إلى إحدى قلاعه وعلم بهذا النبأ لبس الصوف وتزهد ، وأوفد إلى الإمبراطور الجديد رسولا ينقل إليه ما استقر عليه الرأي مع السلطان السلجوقي ، فآثر قبول المعاهدة ، ولكنه لم يستطع أن يرسل إلى السلطان ثير مائتي ألف دينار وطبقا من ذهب عليه جواهر تقدر بتسعين ألف دينار ، وأكد الإمبراطور الجديد لأب أرسلان أنه يرسل المبلغ المتفق عليه لعجز الدولة عن ذلك . وقد أشاد الشعراء بهذا النصر المؤزر^(١) .

وكانت العلاقة بين الدولة الفاطمية والبيزنطيين في أوائل عهد المستنصر على شيء من الصفاء . ففي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) تم الاتفاق بين الخليفة الفاطمي والإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ — ١٠٤١ م) على أن يطلق الروم خمسة آلاف من أسرى المسلمين مقابل عمارة كنيسة القيامة التي خربها الحاكم ، كما تم الاتفاق بين المستنصر والإمبراطور قسطنطين التاسع (١٠٤٢ — ١٠٥٤ م) في سنة (٤٤٦ / ١٠٥٤) الذي تعهد بأن يمد مصر بالفلال والأقوات لمقاومة المجاعة التي حلت بها في هذه السنة . غير أن هذا الإمبراطور توفي قبل تنفيذ هذا الاتفاق ، واشترطت الإمبراطورة تيودورا (١٠٥٤ — ١٠٥٦ م) على الخليفة الفاطمي أن يتعهد بمساعدتها إذا اعتدى على بلادها ، واشتدك الفريقان في معارك برية كتب النصر فيها للفاطميين . ولكن أسطول البيزنطيين انتصر على الفاطميين في مياه الشام وأسر كثير من قوادهم فطلب الخليفة المستنصر المهادنة ، وأوفد في سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٧ م) القاضي أبا عبد الله القضاعي لتسوية الخلاف بين البلدين^(٢) .

(٢) عداوة العباسيين بالفاطميين

كان للعوامل السياسية أثر كبير في عداوة البويهيين للفاطميين ، لأنهم كانوا يخشون خطر الفاطميين على بلادهم . وقد ذكر المؤرخون أن عضد الدولة بن ركن الدولة البويهي استعد لغزو مصر ، ثم جمع العلويين ببغداد وسألهم عن نسب الفاطميين إلى علي فأفروه وشهدوا بذلك .

(١) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٣٧ — ٤٢ . ابن الأثير : الكامل ج ١٠

ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) أبو الفدا ج ٢ ص ٦٢ . انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٥٩ .

ويعتبر هذا العمل بدءاً لتدوين محاضر المجالس العباسية التي عقدت ببغداد في القرن الخامس الهجري ، وأتكر فيها نسب الفاطميين إلى آل البيت ، وذلك لأن العباسيين لما أدركوا عجزهم عن مناهضة الفاطميين والقضاء عليهم بالحرب ، وهالهم إقامة الخطبة للحاكم الفاطمي في بلاد الموصل ، فكروا في القضاء على مذهبهم بالطعن في نسبهم إلى علي وفاطمة ، أو بإثارة الشك على الأقل في هذا النسب في نفوس المسلمين .

وقد ذكر أبو المحاسن في تاريخه أنه في شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ ، أمر الخليفة القادر العباسي بتدوين محضر في نسب الخلفاء الفاطميين أشهد فيه القضاة والأئمة أن الحاكم الفاطمي وأسلافه لا ينتسبون إلى علي بن أبي طالب (١) .

ومن وقع على هذا المحضر الشريف الرضي وأخوه المرتضى ، وابن الأزرقي الموسوي ، ومحمد بن عمر بن يعلى العلويون ، والقاضي أبو محمد عبد الله بن الأكفاني ، والقاضي الجزري ، والإمام أبو حامد الإسفرايني (٢) والفقهاء أبو محمد الكشغلي (٣) والفقهاء أبو الحسين القدوري (٤) الحنفي ، والفقهاء أبو علي بن حنكان ، وأبو القاسم التنوخي (٥) ، والقاضي أبو عبد الله الصيمري (٦) .

على أن الفاطميين أخذوا يصاعفون جهودهم في نشر دعوتهم وصادفوا كثيراً من النجاح في هذه السبيل ، على الرغم مما تركه هذا المحضر من أثر في نفوس بعض المسلمين . لذلك نرى الخلفاء العباسيين يكتبون في سنة ٤٤٤ هـ محضراً آخر يطعنون فيه في نسب الفاطميين (٧) ،

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) كان من أئمة زمانه في الفقه ، حتى كان يحضر مجلسه أكثر من ثلثمائة فقيه ، كما قام بالتدريس في مسجد عبد الله بن المبارك في قطيعة الربيع بن يونس ، وكان يحضر درسه سبعائة متفقه : الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٦٨ — ٣٧٠) ، ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩ — ٢٠) .

(٣) بفتح الكاف وضم الفاء ، نسبة إلى كشفل إحدى قرى خراسان .

(٤) بضم القاف والذال ، انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بالعراق ، وكان من أشهر القضاة ، وله كتاب في الفقه يسمى مختصر القدوري .

(٥) هو علي بن الحسن بن علي بن محمد . اشتهر بالأدب ، وصحب أبا العلاء المعري ، وأخذ عنه ، وتقلد قضاء كثير من النواحي كالمداين وقرميسين . وألف كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (القاهرة سنة ١٩١٨ — ١٩٢١) الذي ترجم إلى الإنجليزية د . س . مرجليوث (لندن سنة ١٩٢٢) ، وتوفي سنة ٤٤٧ هـ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١١٥ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٧) المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٣ .

ثم يكتبون في سنة ٤٨٨ هـ محضراً آخر لتنفير قلوب المسلمين من الفاطميين (١). وكان هؤلاء الذين طعنوا في نسب الفاطميين مدفوعين في هذا الأمر بعوامل الخوف أو منساقين بميولهم وعدائهم للمذهب الفاطمي.

وكذلك كان الخليفة المستنصر الفاطمي لا يفتقر عن الانتقام من الخلفاء العباسيين. ولذلك نراه يؤيد البساسيري في خروجه على الخليفة العباسي القائم ويتعهد بإمداده بالمال والرجال. ومن ثم يبعث داعيته الجريء المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي سفيرا من قبله لإثارة حساسة جند البساسيري وحشهم على إذكاء نار الثورة في وجه الخليفة العباسي. ولم يدخر الخليفة الفاطمي وسعا في إمداد البساسيري بالأموال الضخمة والجند الذين بعث بهم إليه من بلاد الشام، كما أرسل إليه كتابا يعبر فيه عن تقديره لموقفه (٢).

(٣) عرق الفاطميين بالحجاز :

وقد أخذ الفاطميون منذ عهد المعز لدين الله يهتمون ببسط نفوذهم في بلاد الحجاز، لأنهم كانوا يعلمون أن من يسيطر على الحرمين الشريفين يتمتع بالزعامة الروحية في العالم الإسلامي كله، ويكسب خلافته قوة أمام العالم الإسلامي من ناحية، وأمام الشعوب التي يحكمونها وأمام العالم كله من ناحية أخرى. هذا إلى أن هذا الأمر يقلل من شأن الخلافة العباسية، لأن أمير المؤمنين حقا هو الذي يستطيع أن يبسط نفوذه على الحرمين في مكة والمدينة (٣).

وقد أقام الحسن بن جعفر أمير مكة الخطبة للمعز الفاطمي على منابر بلاده في سنة ٣٥٨ هـ (٤)، كما أقيمت الخطبة لهذا الخليفة الفاطمي في المدينة المنورة (٥). وبذلك انتشر النفوذ الفاطمي في بلاد الحجاز. وفي عهد العزيز انقطعت الخطبة للفاطميين (٦)، وظلت

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٧ .

انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

(٢) المؤيد في الدين : السيرة المؤيدية ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ١٨٤ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب (القاهرة سنة ١٩٥٠) ص ١٤ .

(٤) المقرئ : انعاظ الحنفيا ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٥) المقرئ : انعاظ الحنفيا ص ١٧٢ .

(٦) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٠١ .

السيادة الفاطمية مزعومة حتى سنة ٣٨٠ هـ حين أرسل العزيز الفاطمي حملة حاصرت مكة والمدينة وأعدت الخطبة للفاطميين ، وقطعت الدعوة للعباسيين^(١) . وظلت الحال على ذلك حتى سنة ٤٠٠ هـ ، حين خلع أمير مكة طاعة الفاطميين ، ولكنه لم يلبث أن اعتذر^(٢) إلى الخليفة الفاطمي ودخل في طاعته ؛ فعفا عنه وأعادته إلى إمارة الحرمين وأقام له الخطبة ونقش اسمه على السكة^(٣) . وظلت بلاد الحجاز تدين بالطاعة للفاطميين في عهد الظاهر والمستنصر ، وأقام شكر بن أبي الفتوح الدعوة للخليفة المستنصر في الحرمين حتى توفي سنة ٥٠٣ هـ^(٤) .

ولما ولي محمد بن أبي هاشم إمارة مكة ، خلع طاعة الفاطميين ودعا للخليفة القائم العباسي ؛ فسير المستنصر علي بن محمد الصليحي إلى مكة في سنة ٤٥٥ هـ فأعاد النفوذ الفاطمي إلى الحرمين . على أن الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها مصر في أواخر عهد المستنصر حالت دون استمرار سيادتها على بلاد الحجاز ، بعد أن انقطع ما كان يرد إليها من أموال . فأعاد أمير مكة الخطبة للخليفة القائم العباسي ، وراسل السلطان ألب أرسلان السلجوقي سنة ٤٦٢ هـ .

(٤) عرفت الفاطميين بالمغرب وصقلية :

استمرت تبعية بلاد المغرب للفاطميين حتى وليها المعز بن باديس الذي خرج على الفاطميين وعلى المذهب الإسماعيلي ، وشد أزر أهل السنة ودخل في طاعة الخليفة العباسي ودعا له على منابر بلاده ونقش اسمه على السكة . ويؤيد هذه التبعية ذلك الدينار الذي ورد بمجموعة متحف برلين وقد نقش عليه : في الوجه الأول : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، محمد رسول الله . الوجه الثاني : باسم الله ضرب بمدينة عز الإسلام القيروان سنة إحدى وأربعين وأربعمائة . يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله »^(٥) .

(١) نفس المرجع والصفحة .

(٢) المقرئ : خطط ج ٢ ص ١٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٤) ابن خلدون المغرب : ج ٤ ص ١٢٢ .

أنظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٧ — ٢٣٩ .

(٥) حسن أحمد محمود ، بنو زيري وسياساتهم الداخلية ص ١٧٤ .

كما خطب المعز بن باديس للخليفة العباسي القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) على منبر جامع القيروان^(١) ، وأمر باتخاذ السواد شعار العباسيين .

وإن من يتتبع العوامل التي أدت إلى زوال السيادة الفاطمية ببلاد المغرب ، يرى أن ذلك يرجع إلى انتصار مذهب مالك وسيطرة فقهاء المالكية في القيروان على الدولة الزيرية ، في الوقت الذي شغل فيه الخليفة المستنصر الفاطمي بالفتن والثورات والمجاعات .

ولم يقف المستنصر الفاطمي من هذه الأحداث الخطيرة التي تمحضت عن خروج إفريقية عن طاعة الفاطميين موقف المتفرج ، فقد عمل على الانتقام من بني زيري الذين خرجوا عليه برغم ما أسداه آبأؤه لهم من مآثر فاطلق نحوهم قبائل الرياحية والزغبية^(٢) من بني هلال .

وقد خرجت قبائل هلال وسليم وزغبية ورياح وعدى والاثبيج من مضاربهم بصعيد مصر سنة ٤٤٠ هـ وانقضوا على إفريقية ، وأوقعوا بالمعز بن باديس في موقعة حيدران^(٣) (٤٤٣ هـ) ، ودخلوا القيروان وخربوها ، وأنوا على ترأثها الزاهر ، وضعف ملك بني زيري بعد ذلك حتى لم يعد يجاوز أسوار مدينة المهديّة^(٤) . وقد طرب المستنصر الفاطمي لهزيمة الزيريين ، واستطاع أن يفتقم لنفسه منهم ، وعبر عن سروره في الرسالة التي بعث بها إلى علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن^(٥) .

وقد ظلت الخطبة تقام للعباسيين في المغرب حتى قامت دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت . ولما تولى ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٨ م) خلفه عبد المؤمن بن علي ، الذي قطع الخطبة للخليفة العباسي المقتنى ، وتلقب بلقب أمير المؤمنين^(٦) . والآن ننتقل إلى الكلام على علاقة الفاطميين بصقلية :

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) من بطون بني هلال الذين استقروا بصعيد مصر في عهد الفاطميين .

(٣) قطعت الخطبة للفاطميين في إفريقية سنة ٤٣٥ هـ وخرج العرب من مصر في طريقهم إلى بلاد المغرب في سنة ٤٤٠ هـ . ووقعت موقعة حيدران في سنة ٤٤٣ هـ ، أي أن زحف العرب استغرق ثلاث سنوات (٤٤٠ - ٤٤٣ هـ) .

(٤) حسن أحمد محمود : بنو زيري وسياساتهم الداخلية ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٥) سجلات وتوقيعات الإمام المستنصر بالله ، رسالة رقم ٥ ص ٤٥ .

(٦) أبو المحاسن ج ٥ ص ٥٠ - ٥١ .

ظل ولاية صقلية من قبل الفاطميين منذ أوائل القرن الخامس الهجري في نزاع متصل مع الروم . وكان لهذا أثره في إضعاف نفوذ الفاطميين في هذه الجزيرة . فلما ولي الأكلح أمور هذه الجزيرة ، جمع أهلها وقال لهم : « أحب أن أفرغكم من الإفريقيين الذين شاركوكم في بلادكم ، والرأى لإخراجهم ، فقالوا : قد صاهرناهم وصرنا شيئاً واحداً (١) . ، ، على أن الأكلح لم يعبأ بذلك ، وأرسل إلى الإفريقيين من أهل صقلية ، فلبوا طلبه ، وظل يحمي أملاكهم ويأخذ الخراج من أهل الجزيرة . غير أن هذه السياسة التي اتبعها هذا الوالى أساءت إلى أهالى صقلية : فسار فريق منهم إلى المعز بن باديس الصنهاجى أمير إفريقية وشكوا إليه ما حل بهم ، وهددوا بتسليم بلادهم إلى الروم . فسير معهم ابنه عبد الله (٢) الذى حاصر الأكلح وقتله . وثار فريق من الأهالى وولوا عليهم « حسن الصمصام » أخا الأكلح . ولكن هذا الوالى لم يكن حسن السياسة ، فثار عليه أهل الجزيرة ، واستعان بعضهم بالفرنجة ومنوهم الاستيلاء على البلاد ، فرحبوا بهذه الدعوة واستولوا على كثير من مدنها .

ولما رأى المسلمون ما حل بهم من الهزيمة ، سار فريق منهم إلى المعز بن باديس وطلبوا إليه العون على طرد الروم . فأرسل إليهم أسطولا غرق أكثر رجاله . ولم يلبث ابن باديس أن توفى ، وخلفه ابنه تميم ، فأبطل ذكر اسم الخليفة المستنصر الفاطمى في الخطبة (٤٤٣ هـ) ونشر الدعوة للقائم العباسى . وبذلك تقلص نفوذ الفاطميين في بلاد المغرب وصقلية ، وظلت الدعوة تقام لبني العباس في هذه البلاد حتى قامت دولة الموحدين كما تقدم . أرسل تميم بن المعز بن باديس أمير إفريقية أسطولا لمساعدة المسلمين في صقلية على طرد الروم منها . ولم يكد هذا الأسطول يصل إلى الجزيرة حتى قامت الفتنة بين أهلها وبين تميم ابن المعز ، وانتهاز الزرمنديون هذه الفرصة ، وأخذوا يعملون على الاستيلاء على جميع بلاد الجزيرة ونغورها ، وضيقوا الخناق على المسلمين واشتعلت الحرب بينهم وبين الزرمنديين زمنا طويلا حتى اضطر المسلمون إلى التسليم ، وتم لروجر الزرمندى الاستيلاء على الجزيرة سنة ٤٨٣ هـ (٣) .

(١) أمارى : المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٣ وما يليها .

(٢) المصدر نفسه الجزء والصفحة .

(٣) أمارى : المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٢ .

هكذا فقدت الدولة الفاطمية نفوذها في صقلية بعد أن قام ولاتها بكثير من الإصلاحات فيها ، ونشروا في بلادها ألوية العدل ، وعزوا بحجر الترع وترقية الزراعة ، فزادت ثروة سكانها ، وعمت الخيرات فيها ، وافتن أهلها في ضروب الترف والنعيم . وظل المسلمون لا يمتازون عن النصارى في شيء ، يتمتع كل منهم بحقوقه وأسلوب معيشته : وقد تشبه نساء النصارى بنساء المسلمين فانتقبن النقاب الملونة ، وانتعلن الأخفاف المذهبة ، ولبسن الحرير الموشى بالذهب ، وتزين بكل ما يتزين به المسلمات : ولم يرهق الفاطميون النصارى بالضرائب ، بل اكتفوا بأخذ الجزية منهم : دينارين من أغنيائهم ، ودينار واحد من أرباب الحرف والصناعات .

وقد شهد عصر الخليفة المستنصر زوال النفوذ الفاطمي من بلاد المغرب وصقلية . ويرجع ذلك إلى انشغاله باخاد الفتن الداخلية التي صحبها الغلاء والوباء مما أدى إلى ضعف مصر . كما قطعت الدعوة للمستنصر بعد وفاة الصليحي في اليمن سنة ٤٧٣ هـ .

ولم يكن الفرنجة باستيلائهم على جزيرة صقلية ، بل تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ساحل أفريقيا الشمالى ، فاستولوا على المهدية حاضرة الدولة الفاطمية الأولى .

(٥) عمرة الفاطميين والعباسيين باليمن :

وقد راجت الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن على يد على بن محمد الصليحي (ت ٤٥٩ هـ) . وكان أبوه من القضاة السنيين في هذه البلاد . وقد استمال عامر بن عبد الله الزواحى داعى دعوة الإسماعيلية في اليمن ، على بن محمد الصليحي ، فتحول إلى المذهب الإسماعيلى وهو في حد ذاته سنة ، وتفقه فيه ، ثم حل محل عامر بن عبد الله بعد وفاته ، وأحيا الدعوة الإسماعيلية القديمة ، وكانت قد فترت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم . كما استطاع على بن محمد الصليحي أن يحتل بعض قلاع اليمن ويقضى على منافيه (سنة ٤٣٩ هـ) . ولما استقرت قدمه في هذه البلاد ، « كتب إلى صاحب مصر ، وهو معد المستنصر من بنى عبيد ، ووجه إليه بهدايا ، فوجه معد المستنصر إليه برايات وألقاب ، وعقد له الولاية ^(١) » (سنة ٤٥٣ هـ) . ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كان على بن محمد الصليحي قد ملك معظم بلاد اليمن .

(١) الحمادى البنانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار المقرمطة ص ٤٣ .

وقد استعان الخليفة المستنصر بعلي بن محمد الصليحي في إزالة نفوذ العباسيين من بلاد الحجاز وإعادة سلطان الفاطميين عليها . ولما تم له ما أراد قضى على الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها فيها ، ولسكنه لم يلبث أن قتل في سنة ٤٥٩ هـ (١) وهو في طريقه إلى مكة ، وقام بالأمر من بعده ابنه الملك المسكرم بن علي الصليحي (ت ٤٧٨ هـ) ، ثم قامت من بعده السيدة أروى الحرة الصليحية زوجة المسكرم (٥٣٢ هـ) بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن ، تلك الدعوة التي لا تزال منتشرة على أيدي البهرة في الهند .

وقد استطاع علي الصليحي أن يوطد نفوذ الفاطميين في الحجاز وأن يعيد الخطبة للخليفة الفاطمي على منابرها ، فأشاد المستنصر بفضله وخلع عليه لقب « عمدة الخلافة » (٢) . وكان الخليفة المستنصر يبعث إلى علي الصليحي بأبناء الأحداث الهامة التي تقع في مصر ليذيعها على الناس ويعلمها من فوق منابر بلاده .

ولم تتبدل العلاقات بين الفاطميين والصليحيين بوفاته على الصليحي سنة ٤٥٩ هـ ، بل توثقت في عهد ابنه أحمد المسكرم الذي أقره الخليفة الفاطمي على بلاد اليمن وعهد إليه بالاضطلاع بشؤون الدعوة الفاطمية في اليمن (٣) . وظلت كتب المستنصر إلى المسكرم توافيه لانه ظل على ولائه للفاطميين . وقد عرف له الخليفة الفاطمي هذا الولاء ، فوله عمان سنة ٤٦٩ هـ ، وأمره أن يعمل على تثبيت السيادة الفاطمية في الحجاز وأن يؤيد الأمير عبد الله بن علي العلوي أمير الأحساء (٤) . وقد ظلت السيدة الحرة على ولائها للخليفة المستنصر الفاطمي ، فعهد إليها بأن تنظم الدعوة الإسماعيلية في الهند وفي عمان ، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة في هذه البلاد (٥) .

(١) ابن خلدون : ج ٤ ص ٢١٥ .

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فقال بعضهم لأنها كانت سنة ٤٦٣ هـ ، وقال بعض آخر لأنها سنة ٤٧٣ هـ . ولكن الرسائل التي تبودلت بين المستنصر الفاطمي وبين الصليحيين تؤيد موته سنة ٤٥٩ هـ . راجع سجلات المستنصر في مجلة ، دراسة الدراسات الشرقية بلندن *The Letters of Al-Mustansir* B. S. O. S. p. 323.

(٢) جاء في رسالة رقم ٢ (ص ٣٢) . وقد خوطب رسلك بما يذكر لك مما يقوى فكرك وبشرح صدرك وبشد أزرك . وزاد أمير المؤمنين في نمونك « عمدة الخلافة » لاعتاده عليك .

(٣) حسين الهمداني وحسن سليمان محمود : الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٢١٦ .

راجع سجلات وتوقيعات المستنصر ، رسالة رقم ٢ ص ٣٣ .

(٤) راجع Hamdani, *Letters of Al-Mustansir* (Bsos), 1934, Vol, III, Part II, pp. 316 — 317.

Ibid., p. 321. (٥)

(٦) عهدة المسلمين بالصليبيين :

(١) أسباب الحروب الصليبية

تطلق الحروب الصليبية على الحملات التي وجهها المسيحيون في أوروبا إلى الشرق من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري (الحادي عشر إلى الثالث عشر الميلادي) للاستيلاء على بيت المقدس من أيدي المسلمين . وتتنازع هذه الحروب في بدايتها على الأقل بصفتها الدينية وانعدام كل المميزات الجنسية والقومية ، إذ أصبح المتحاربون شعباً واحداً هو الشعب المسيحي . ومن ثم أطلق على هذه الحروب الحروب الصليبية .

ومن أهم الأسباب التي دفعت المسيحيين إلى خوض غمار هذه الحروب :

(١) ظهور السلاجقة في بلاد الأناضول وآسيا الصغرى التي انتزعوها من الدولة البيزنطية في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وهددوا القسطنطينية واقتزعو بيت المقدس (٤٧١/١٠٧٨) من الفاطميين . وكان المسيحيون يزورون بيت المقدس في أمن وطمأنينة . فلما جاء السلاجقة وقفوا للصليبيين بالمرصاد وأثاروا بذلك الحجاج المسيحيين الذين كانوا لشدة تعلقهم بالدين في العصور الوسطى يعتقدون أن الحج إلى بيت المقدس يؤدي إلى غفران الذنوب والسعادة الأبدية .

وليس هذا عجيباً لأن الناس في هذه الحروب ، وعلى الأخص في عهد الإقطاع ، كانوا يفترون بسبب جهلهم الآثام ، وكانوا يخشون قوة الكنيسة ويعتقدون أن لا منجاة لهم من هذه الآثام إلا بالأعمال الصالحة ، كالصوم والتعشف في الملابس والحج إلى الأماكن المقدسة التي وطئها أقدام المسيح وصلب على أرضها من أجل خلاص العالم . فإذا كان ثواب الحج إلى هذه الأماكن عظيماً ، فإن ثواب قتال المسلمين ، أو الكفار (على ما كان يعتقد المسيحيون في ذلك الوقت) لتخليص هذه الأماكن المقدسة أعظم . ومع ذلك فإنه يبدو أن الأخبار التي ذاعت قبل الحروب الصليبية عن تعصب السلاجقة وسوء معاملتهم الحجاج مبالغ فيها .

(٢) ظهور الروح الحربية في الكنيسة ، تلك الروح التي قامت أول الأمر على المودة والمحبة والإخاء وحب السلام ولكنها لم تلبث أن أصبحت مصدراً لحروب دموية استمرت عدة قرون . وذلك يرجع إلى دخول العناصر المتبربرة في الدين المسيحي واحتفاظها بنزعتها

الحربية التي درجت عليها قبل اعتناقها هذا الدين ، وإلى رغبة الكنيسة في بسط نفوذها على الشرق كما فعل الإسلام من قبل وتأسيس مستعمرات لاتينية فيه ، ورغبة الكنيسة الغربية في السيطرة على جميع العالم المسيحي ليكون تحت سلطة حكومة دينية واحدة رئيسها البابا . أضف الى ذلك الروح التي كانت سائدة بين الفرسان والأشراف وميلهم إلى الحروب والمخاطر في سبيل الدفاع عن الكنيسة ورغبتهم في تكوين إمارات في الشرق ، ورغبة الرقيق في التخلص من نظام الإقطاع الذي كان يربطهم بالأراضي ، وكذا التخلص من أداء ديونهم أو من زوجاتهم أو من المحاكمة على اقترافه من الجرائم .

(٣) انتصار البابوية على الإمبراطورية وتفوق نفوذ البابا على غربي أوروبا مما جعل دعوته مسموعة وكلامه مطاعا .

(٤) رغبة المدن التجارية مثل البندقية وجنوة وبيزا في نشر تجارتها في الشرق .

ومن العوامل التي مهدت السبيل لقيام الحروب الصليبية :

(١) انقسام دولة السلاجقة عقب موت السلطان ملكشاه وتفكك الوحدة الإسلامية وعدم وجود زعيم قوى يجمع شتات القوات الإسلامية . أضف إلى ذلك ضعف الدولة الفاطمية وعدم قدرتها على درء خطر المسيحيين عن سواحل الشام ومصر .

(٢) قيام المدن الإيطالية ، وخاصة جمهوريات جنوة والبندقية وبيزا ، وتغلب قواتها البحرية على قرصان البحر الأبيض المتوسط من العرب وأهل بلاد المغرب ، واحتلال النورمانيين جنوبي إيطاليا وصقلية مما سهل على الصليبيين عبور هذا البحر إلى فلسطين .

(٣) تحول المجريين إلى المسيحية الأمر الذي فتح الطريق بين غربي أوروبا والشرق .

(ب) الدعوة إلى الحروب الصليبية

استولى أحفاد طغرل بك على آسيا الصغرى وهددوا القسطنطينية . وقد قيل إن إمبراطور الروم أرسل إلى البابا أربان الثاني يطلب مساعدته ، كما قيل أيضا إن بطرس الناسك هو الذي أثار الحرب الصليبية الأولى بسبب ما كان يذيعه من اضطهاد السلاجقة حججاج المسيحيين . على أنه يظهر من أقوال المؤرخين أن بطرس الناسك لم يذهب قط إلى فلسطين ولم ير البابا أربان إلا بعد أن أعلنت الحرب الصليبية الأولى ، وأنه بعد إعلان الجهاد جمع شريحة من الفوغاء رجالا ونساء وسار بهم إلى فلسطين . ومهما يكن من شيء فإنه مما لا ريب فيه أن

البابا أربان الثاني رحل في سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) إلى فرنسا وعقد في مدينة «كليرمونت» مجمعا حضره كثير من رجال الدين والفرسان ، وشرح لهم حال المسيحيين في بيت المقدس وما يلاقيه الحجاج المسيحيون من المشاق والآلام . ودعا النصارى إلى حمل السلاح والذود عن الهيكل المقدس .

ولم يكذب البابا يتم خطابه حتى أحاط به الآلاف من الناس ، وأقسموا بالإيمان على أن يأخذوا بناصر دينهم . فعلق البابا لسكل من المتطوعين صليبا من الخشب على ذراعه الأيمن ، فأصبح هذا الصليب شعار الحرب . ومن ذلك الوقت أطلق على هذه الحروب اسم الحروب الصليبية . ثم أعلن البابا حماية الكنيسة لأملاك المحاربين وأسرايتهم ومضاعفة جزاء من يشترك فيها ، وغفران ذنوب الحاططين ودخول من يموت منهم في جنات النعيم . وقد بث البابا الأساقفة في طول فرنسا وعرضها لنشر دعوة الجهاد . ومن هؤلاء بطرس الناسك ، وكان خطيبا مقوها ، وسرعان ما سرت روح الحرب الدينية إلى نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم وتسربت إلى أعماق نفوسهم ، فهرعوا من كل صوب وحذب واتحدت أوروبا المتنازعة المنقسمة إلى دوقيات بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية لأول مرة ، على حين كان المسلمون إذ ذاك منقسمين على أنفسهم متنازعين .

وعلى أثر إعلان الدعوة إلى الحروب الصليبية اجتمعت طبقات من الغوغاء وساروا في غير نظام ولا استعداد تحت قيادة بطرس الناسك ، يريدون تخليص بيت المقدس . فجعلوا ينهبون البلاد التي مروا بها ، مقترفين في طريقهم الجرائم الشنيعة ، حتى أدى الأمر إلى قيام الحبريين والبيزنطيين في وجههم . ولما وصلوا إلى القسطنطينية رأى الإمبراطور أن يتق شرهم ، فساعدهم على السير إلى آسيا الصغرى والتقدم إلى «نيقيا» ، حيث قابلهم السلاجقة وأفنؤهم على بكرة أبيهم (٤٨٩ / ١٠٩٦) .

(ج) الحرب الصليبية الأولى

في هذه الاثناء كان الاستعداد للحملة الصليبية الأولى قائما على قدم وساق في أكثر ممالك أوروبا . وقد قام البابا بتنظيم هذه الحملة ، فقرر أن تبدأ سيرها في ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) وأن يكون اجتماعها خارج أسوار القسطنطينية . غير أنه لم يكن لهذه الجيوش قائد يجمع شملهم ويوحد كلمتهم . أما الزعامة فقد همدت إلى عدد من خيرة الاشراف والقواد وأغلبهم من فرنسا وهم :

- (١) جودفري ذوق اللورين الاسفل مع إخوته .
- (٢) بولدوين .
- (٣) يوستيس .
- (٤) روبرت ذوق نورمنديا وابن وليم الفاتح .
- (٥) روبرت كونت فلاندر .
- (٦) ستيقن كونت شارتر .
- (٧) ريمون كونت تولوز .
- (٨) هيو أوف فيرماندوا .
- (٩) بوهيمند ذوق تورنم وابن أخيه تانكرد .

ولم يكن هؤلاء الزعماء خطة مشتركة بل عمل كل منهم مستقلا عن الآخرين . أما ملوك أوربا فإنهم لم يشتركوا في هذه الحملة ، إذ كان فيليب الأول ملك فرنسا وهنري الرابع إمبراطور ألمانيا مطرودين من رحمة الكنيسة ، وكان ملوك أسبانيا في حرب مع المسلمين ، على حين كان ملك إنجلترا شابا صغيرا لا يهجمه من أمور الدين شيء . لذلك سارت هذه الحملة تحت لواء البابا يقودها ففر من الإشراف . وكان سيرها على مثال البرابرة أثناء غزواتهم لرومة لا جيشا منظما بالمعنى المعروف مما جعلها تنوء بمطالب الحياة القومية .

وقد اتخذ كل زعيم طريقا خاصا مع جنده . وقد قيل إنهم بلغوا مليونا من الرجال والنساء والأطفال والخدم ، بينهم عدد من المحاربين يختلف بين ٢٠٠ ألف و ٣٠٠ ألف مقاتل . فلما وصلوا إلى أبواب القسطنطينية خشي الإمبراطور « أليكسيوس » عاقبة أمرهم ، لكنه استطاع أن يتفق مع بعض قوادهم على أن يردوا إليه ما عسى أن يستولوا عليه من أملاكه على أن يمدحهم بما يحتاجون إليه من المؤن والدخائر .

ثم عبر الصليبيون البوسفور وحاصروا مدينة نيقية ، فنقل فليج أرسلان صاحب سلطنة الروم ملكه إلى قونية ، فانفق الروم مع السلاجقة على أن يدخلوها وحدهم . فغضب الصليبيون لذلك ، لأن الإمبراطور لم يسمح لهم بسلب المدينة . ثم تقدم الصليبيون إلى دوريلم حيث هزموا جيوش أرسلان ، بينما تفرغ الإمبراطور البيزنطي لاسترداد آسيا الصغرى ويثس من الاتفاق مع الصليبيين ، فكف عن مساعدتهم وأخذ يناهضهم لاسترداد ما دخل تحت حوزتهم .

وقد اختلف بولدين وتانكرد كل يريد أن تكون الاولوية لوائه ؛ فانسلخ بولدين إلى الزها تلبية لدعوة أميرها ، فاستقل بها وأسس فيها إمارة لانيئية . أما سائر الصليبيين فقد زحفوا على أنطاكية وحاصروها (أكتوبر ١٠٩٧) تسعة أشهر قاسوا فيها أشد آلام المرض والجوع حتى دب اليأس في نفوسهم ، ثم دخلوها عنوة (١٠٩٨ م) ومثلوا بأهلها أشنع تمثيل وقتلوا منهم عشرة آلاف وأمروا عليها بوهيمند .

وباستيلاء الصليبيين على أنطاكية خلا لهم الطريق ، فاستأنفوا الزحف على أورشليم ، واقتصر الإمبراطور البيزنطى على إمدادهم بالمرشدين ، فدخلوها عنوة في يونية سنة ١٠٩٩ م . وكان عدد جيش الصليبيين لاذك أربعين ألفاً ، مما يدل على معظم الخسارة التى لحقت بهم منذ رحلوا إلى أرض المشرق . وقد حدثت على أثر دخول الصليبيين مذبحة شنيعة قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً ، حتى خاضت خيولهم في بحر من الدماء كما ذكر جودفرى في رسالته إلى البابا يهنئه فيها بالظفر .

وعلى أثر هذا الفتح انتخب جودفرى ملكاً على بيت المقدس لما امتاز به من البسالة والإقدام ، فاكتفى بلقب حامى قبر المسيح .

ثم أخذ الصليبيون يفتحون المدن الباقية في فلسطين ، وسهل عليهم هذه المهمة تلك المساعدات التى كانت تقدمها أساطيل المدن الإيطالية ، فاستولوا على صكا ثم على صور ، وأنشئوا إمارة طرابلس وولوا عليها ريموند . وعلى أثر استيلاء الصليبيين على بيت المقدس عاد عامة جندهم إلى أوطانهم ، وبذلك انتهت الحرب الصليبية الأولى .

كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس أهم نتائج هذه الحرب . فلم يحفل الغربيون بالخسائر الفادحة التى حلت برجالهم . ولما عاد المحاربون إلى أوطانهم قوبلوا بكل مظاهر الحفاوة والفرح ، وقد أثمرت الحسكيات التى نشرها المحاربون بين مواطنهم كثيراً من ضروب الحمية والحماس التى مهدت لهم السبيل لتنظيم حملة صليبية أخرى إلى المشرق . كما تكونت أربع إمارات لانيئية في الشام هى :

(١) بيت المقدس ويحكمه جودفرى ثم أخوه بولدين من بعده .

(٢) أنطاكية وأميرها بوهيمند ثم ابن أخيه تانكرد من بعده .

(٣) طرابلس وأميرها ريموند .

(٤) الزها وأميرها بولدين .

كما استطاعت الدولة البيزنطية أن تسترد جزءاً كبيراً من آسيا الصغرى ، وبدأت جمهوريات جنوة والبندقية وبيزا تؤسس علاقاتها التجارية مع الشرق بفضل مساعدة الصليبيين ، ورحل إلى فلسطين كثير من الغربيين واتخذوها دار إقامة واندمجوا مع الأهالي وتصارفوا معهم ، وأصبحت هذه البلاد النائية وطناً لهم . كذلك قامت العلاقات بين أمراء الصليبيين وأشرافهم وفق نظام الإقطاع الذى كان سائداً في أوروبا . فكانت كل إمارة مستقلة عن الأخرى على الرغم من أنهم اعتبروا ملك بيت المقدس سيداً لهم . وأصبحت اللغة الفرنسية هى اللغة السائدة بسبب تغلب العنصر الفرنسى : ولذلك أطلق العرب اسم الفرنجة على الصليبيين جميعاً .

ولتحقيق تضامن الصليبيين فى الدفاع عن الاراضى المقدسة والعناية بالمرضى والجرحى والحجاج ، قامت عدة جمعيات دينية لتحقيق هذه الأغراض ، وأهم هذه الجمعيات : طائفة فرسان المعبد ، وفرسان القديس يوحنا ، ويسمى أعضاء هذا المعهد Templars وكان يتحتم على هؤلاء الأعضاء الطاعة والطهارة والعفاف . ولذلك انضم إليهم كثير من فرسان الغرب وأغدق عليهم الاغنياء الخيرات ، فأثروا وكونوا قلاعاً وضياعاً في أوروبا وآسيا .

(د) الحرب الصليبية الثانية (١١٠٠ - ١١٠٤ م):

لم يحسن الصليبيون فى الشرق سياستهم مع أنفسهم ولا مع إمبراطور الروم لما كان بينهم من المنافسة والحقد والضعف والمساكنة . وطالما تحالف المسيحيون مع المسلمين ضد غيرهم من المسيحيين . وتمتاز فترة هذه الحروب بوجود زعيم قوى جمع شتات المسلمين هو عماد الدين زنكى الذى وجه همهته نحو إخراج الصليبيين من الشرق . وكان عماد الدين عاملاً من قبل العباسيين على الموصل والعراق ذات العلاقات التجارية بأكثر بلاد الشام ، وفى سنة ٥٣٩ هـ (١٤٤٤ م) تقدم عماد الدين حتى استولى على الرها وهدد كلا من أنطاكية وبيت المقدس ، ففرغ الفرنجة من خطر هذا الهجوم ، وطلب الصليبيون فى الشرق معونة دول أوروبا . غير أن الحال فى أوروبا قد تبدلت ب وفاة البابا أربان الثانى ، فلم يلب أهل أوروبا نداء الصليبيين بنفس الروح القديمة ، وذلك لقيام النزاع بين رجال الكنيسة على البابوية وضعف البابوات أنفسهم ، وازدياد ثروة أهل أوروبا لرواج تجارتهم مما أدى إلى تغيير يذكر فى حالة الشعوب .

ويشغل المصالح السياسية أذهان الناس لم يعودوا يهتمون بتأييد الكنيسة ، وبدموا يعتقدون أن سلطة البابا يجب ألا يتعدى سلطته الروحية . أضف إلى ذلك إزدياد قوة الملكية في عهد لويس السادس ملك فرنسا ، وتأسيس رودجر الثورموندى مملكة تضم صقلية وجنوى إيطاليا ، وإزدياد الثروة وإزدياد النزعة الاستقلالية في مدن سهل لومباردى ، وإيقاظ الحركة الفكرية ، إذ بدأ الناس يفكرون تفكيراً حراً غير متأثر بالتعصب الدينى . كما كان لدراسة القانون الرومانى أثر بعيد فى حرية الفكر ، وأخذ الشعراء ينظمون قصائدهم فى الغزل والخمر . وهكذا أضفى الناس لا يفكرون إلا فى التمتع بظاهر هذه الحياة الجديدة .

لذلك كله أصبح من الصعب أن تنشب حرب صليبية أخرى . ومع ذلك فقد استطاع برنارد أوف « كليرفو » (Bernard of Clairvaux) أن يجمع بحسن بيانه وقوة حججه عدداً كبيراً من المسيحيين للدفاع عن البلاد التى كلفتهم ثمناً غالياً من المال والرجال .

على أن هذه الحرب تمتاز عن الحرب الصليبية السابقة بانضمام لويس السابع ملك فرنسا وكنراد الثالث إمبراطور ألمانيا بعد بضعة شهور . ولكن الفرنسيين والألمان اختلفوا بادئ ذي بدء فى خطة العمل حتى اضطروا إلى مواصلة سيرهم إلى الشام بطريق البحر ، فوصل الفرنسيون إلى أنطاكية . أما جيش الألمان الذى كاد أن يستأصل بدسيسة إمبراطور الروم فقد سار إلى عكا ، واتفق الفريقان على الاستيلاء على دمشق ليسيطروا على الطريق الداخلى الموصل إلى الشام ، وارتكبوا بذلك خطأ حريباً ، لأن أمير دمشق كان موالياً للصليبيين ، غير أن قوات عماد الدين زنكى (الذى نوفي سنة ١١٤٦/٥٤١) أحاطت بهم من كل جانب تحت قيادة ابنه شيف الدين الذى خلفه فى ولاية الموصل ، ونور الدين محمود الذى خلفه فيما بعد فى ولاية حلب ، واضطر الصليبيون إلى التقهقر ، وأرغم كنراد الثالث إمبراطور ألمانيا على العودة إلى بلاده بسبب مرضه ، وتبعه ملك فرنسا بعد قليل .

ويعتبر ذلك إخفاقاً تاماً للصليبيين ومشجعاً للمسلمين . وقد هب هذا الإخفاق الظروف لاستيلاء نور الدين على دمشق سنة ١١٥٤/٥٤٩ ثم على حلب سنة ١١٥٩/٥٥٤ ، فعمل نور الدين على الاستيلاء على الولايات اللاتينية فى الشام ، لولا انتقال ميدان القتال إلى مصر .

وقد أخفقت الحرب الصليبية الثانية إخفاقاً تاماً وساعدت على تقوية الوحدة بين المسلمين . كما ظهر ضعف الصليبيين فى الشام ، فقل عدد الحجاج ، وضجر أهل أوروبا لهذا

الإخفاق ، فلم يفسكروا في قيام حرب صليبية أخرى قبل وقت طويل .

(٥) الحرب الصليبية الثالثة

اشتهر في هذه الحرب زعماء كثيرون من المسلمين ، منهم نور الدين وصلاح الدين . أما نور الدين فقد قوى مركزه في الشام باستيلائه على دمشق وحلب كما تقدم ، وأصبحت مملكة الصليبيين معرضة لهجمات المسلمين ، غير أن مسرح القتال انتقل فجأة إلى مصر بسبب ضعف الخلافة الفاطمية عقب موت الوزير الصالح طلائع بن رزيك (١١٦١/٥٥٧) واستيلاء أسد الدين شيركوه (ومعه ابن أخيه صلاح الدين) على بلبيس ثم على القسطنطين . ولكنه اضطر إلى العودة إلى الشام بعد أن وقف على ضعف مصر ، وأخذ يعمل على الاستيلاء عليها ، وفكر في إعداد حملة ثانية على مصر . ولكن سرعان ما فكر الصليبيون في إرسال حملة لغزو مصر ، وأغاروا على بلبيس ، فاستنجد الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين الذي أنفذ إلى مصر أسد الدين شيركوه على رأس جيش كثيف من التركان ، فوصلوا إلى القاهرة وانضم إليهم المصريون ، وأرغم عموري على العودة إلى فلسطين ، فدخل شيركوه القاهرة ورحب به المصريون وخلع عليه الخليفة الفاطمي .

ثم بدأ الوزير شاور يكيّد المسكند لأسد الدين شيركوه الذي قتله في يناير سنة ١١٦٩ (٥٦٥ هـ) واستقر في مكانه في الوزارة . غير أن المنية عاجلت شيركوه في مارس من هذه السنة ، خلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي في الوزارة ، فلم يلبث أن أزال الخلافة الفاطمية ، وامتد سلطانه إلى حلب والموصل بعد وفاة نور الدين ، ثم إلى غربي آسيا ، وأصبح الصليبيون محصورين بين قوات صلاح الدين من كل جانب .

اشترك صلاح الدين في الحرب الصليبية الثالثة اشتراكاً أكسبه تلك الشهرة التي يعرفها له التاريخ ، حيث استولى على كثير من القلاع والحصون التي كانت في أيدي الصليبيون ، وسقط في يده بيت المقدس . وقد هال انتصار صلاح الدين أهل أوروبا وحرك همم بعض ملوكها ، فأعدوا العدة لحرب صليبية جديدة ، وأخذ هؤلاء الزعماء يكونون جيوشاً منظمة ، ودعوا حكامهم إلى تنظيم حملة جديدة لاسترداد هذه الأقاليم المفقودة .

وقد انتهت هذه الحرب الصليبية الثالثة بعقد صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد سنة ٥٨٨ (١١٩٢) وأصبحت فلسطين أرضاً إسلامية ، ما عدا الجزء الضيق الذي يقع بحذاء الساحل ويمتد من صور إلى عكا .

(و) الحرب الصليبية الرابعة (١٢٠٢ — ١٢٠٤ م)

كان الضعف قد أخذ من دول الغرب كل مأخذ بعد ما فقدوه من العدد والعدة في حروبهم مع الشرق ؛ فخارت عزائمهم وضعفت نفوسهم . إلا أنه كان لا يزال هناك عدد غير قليل من الناس على استعداد لتلبية نداء البابا إنوسنت الثالث الذى استطاع أن يجمع حوله آلاف الفرسان ويتفق مع الدوق داندولو رئيس جمهورية البندقية أن يذهب بالسفن وللمؤن مقابل مبلغ من المال ، على أن يقتسموا معه ما عسى أن يستولوا عليه من الغنائم والأراضي .

ولما كان من المتعذر على الصليبيين أن يدفعوا ثمن نقل هؤلاء الفرسان ، عرض عليهم الدوج ، وكان رجلا مسنا ذا مكر ودهاء ، أن يشتركوا معه في إخضاع مدينة « زارا » (الواقعة على بحر الأدرياتيك) تنفيذاً لأغراضه التجارية ، مقابل إعفائهم من هذا الدين . فهاجم الفريقان المدينة وخربوا ما فيها (٥٩٩ / ١٢٠٢) ، ثم طلبوا من البنادقة أن ينقلوهم على سفنهم إلى مصر أهم مراكز القوى الإسلامية في ذلك الحين .

ولما كانت مصر ذات علاقات تجارية مع البندقية ، رأى الدوج أن يحول الصليبيين عن غرضهم الأصلي ، وعرض عليهم مهاجمة القسطنطينية الضعيفة كانت في نفسه ، ولأن هذه المدينة كان لها الزعامة بين مدن البحر الأبيض المتوسط . وقد عزز أغراض الدوج استجداد أليكسيس (Alexius) ابن الإمبراطور المخلوع من عرش القسطنطينية بالصليبيين لاسترداد عرش أبيه مقابل مبلغ كبير من المال ، على أن تشترك معهم فيما بعد قوى إمبراطوريته في إخضاع المسلمين .

وعلى الرغم من أن هذا العمل لا يتفق والغرض الأساسى للحملة ، رحب به الصليبيون ، غير مباليين بتهديد البابا بجرمان زعمائهم من رومة الكنييسة ، لأن أغراضهم كانت أغراضا دنيوية مصدرها حب المال من أى طريق . فتحول الصليبيون إلى القسطنطينية واستولوا عليها ، ثم اختلفوا مع الإمبراطور لأنه لم يدفع لهم الأموال التى وعد بدفعها ، فاشتطوا في جمع الأموال وأدى ذلك إلى قيام الثورة وفرار الإمبراطور عن حاضرة ملكه . فهدم الصليبيون المدينة ونهبوا ما فيها ، وحطموا التماثيل والتحف ، ثم اقتسموا البلاد فيما بينهم ، وانشؤا فيها ما عرف باسم الإمبراطورية اللاتينية ، واختاروا بولدوين دوق فلاندر إمبراطورا على القسطنطينية .

وفي هذه الاثناء اشتبك اللاتينيون في حرب مع البلغار قتل فيها الإمبراطور بولدوين ، وتزعزعت الإمبراطورية حتى هاجمها الإغريق الذين أقاموا حاضرتهم في نيقية ، فقصوا عليها سنة ٦٦٠ — ٦٦١ / ١٢٦١ واستردوا ملكهم .

ولم يكن للحملة الصليبية الرابعة نتيجة سوى إضعاف وسائل الدفاع عن القسطنطينية . أما الحملات التي تلت هذه الحروب فلم تكن ذات أهمية من حيث نتائجها ، لأن العاطفة الدينية التي اتقدت في الحرب الأولى قد خمدت جذوتها وحلت محلها الروح المادية . وليس أدل على ذلك من أن الحملات التي وجهت إلى مصر كانت ابتغاء الربح التجاري بدلا من أن توجه إلى بيت المقدس .

(٧) لماذا انتهت الحروب الصليبية ؟ نتائجها :

إذا كانت الحروب الصليبية قد وقفت عند هذا الحد فإن الفكرة ظلت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، حين دعا البابوات أهل أوروبا إلى خوض غمارها ضد المسلمين . ومع ذلك فقد لبى بعض ملوك فرنسا هذا النداء ، لا لغرض سوى اتخاذ هذه الفكرة ذريعة لجمع الضرائب .

على أن أسباب انتهاء الحروب الصليبية ترجع إلى أن الصليبيين كانوا بصفة عامة في مبدأ أمرهم جماعات غير منظمة أو غير موحدة تحت لواء زعيم واحد يجمع شملهم ويلم شعهم . وقد ظهرت بين صفوفهم المنافسة والمطامع الشخصية ، ثم اتجهوا أخيراً نحو الغنم المادي ، وانحرفوا عن الروح الديني الذي قامت الحروب الصليبية من أجل تحقيقه .

وقد ظهرت النزعات القومية وحلت محل النزعات الدينية ، فأصبحت كل مملكة في حاجة إلى الاحتفاظ بقوتها لصالح وطنها ، كما أثرت المدن التجارية المصلحة الاقتصادية على بذل الجهود في سبيل ما يسمى الحروب الدينية .

وهكذا انتهت الحروب الصليبية بطرد الصليبيين من المشرق وانتصار المسلمين بفضل اتحاد كلمتهم وتوحيد جمودهم وبعدهم عن الحزازات الشخصية ، مما جعلهم قوة يخشى بأسها وشوكة في جانب الأوروبيين الذين كانوا يهدفون إلى استعمار هذه الجهات .

ومن هنا نرى أن الحروب الصليبية لم تحقق الأهداف التي قامت من أجلها ؛ إذا كانت الدولة اللاتينية التي قامت ببيت المقدس قصيرة الأجل . ومع هذا فقد كان للحروب الصليبية نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة ولا سيما في البلاد التي قامت على أرضها هذه

الحروب ، وكذلك البلاد التي أقامت هذه الحروب . فقد صانت هذه الحروب الدولة البيزنطية وحالات دون إغارة السلاجقة على أوروبا وامتلاكهم جزءاً كبيراً منها . كما قوت مركز البابوية وعلى الأخص في العهد الأول من هذه الحروب . وجعلت الحروب الصليبية من الفروسية نظاماً ثابتاً وساعدت على ظهور جماعات الرهبان الحربية ، وأضعفت نظام الإقطاع ، إذ باع كثير من الأشراف أراضيهم ونزلوا عن ممتلكاتهم الإقطاعية للحصول على المال والاندماج في سلك الحروب الصليبية . وكان من أثر ذلك أن قامت طائفة أشراف جديدة ، وزالت بعض الفوارق التي تميز الطبقات بعضها عن بعض . كما ظهرت الطبقات الوسطى من العمال الأحرار .

وكذلك بثت الحروب الصليبية في شعوب أوروبا وملوكها روح الاتحاد من أجل هدف واحد ، ودعمت مراكز الملوك ، وقضت على نظام الإقطاع الذي حل محله نظام القومية بين الشعوب ، كما ساعدت على نشاط حركة الملاحة لزيادة السفن التجارية التي قامت بنقل الجيوش المحاربة إلى المشرق ، وساعدت على استيلاء المسيحيين على موانئ الشام وفتح أبواب التجارة بين الشرق والغرب ، وأتاحت الفرصة للغربيين على الوقوف على معالم الحضارة الإسلامية العريقة . فجمعوا ينقلون إلى بلادهم الأقنعة المزركشة والحرير والسجاجيد والمرايات وأنواع النباتات والحيوانات ، مما ساعد على نماء ثروة أوروبا وتقدمها الصناعي .

وبهذا أيقظت الحروب الصليبية النشاط الأدبي في أوروبا ، فأخذ الكتاب يكتبون القصص ويدونون حياة أبطالهم . ومن نتائج هذه النهضة الأوروبية ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية وإنشاء مدرسة لتعليم اللغات السامية بباريس ، كما اقتبس الأوروبيون نظم الزراعة من الشرق ، وزاد اهتمامهم بالرحلات والكشف على أثر ما نقله الصليبيون إلى بلادهم من أخبار بلاد المشرق ، وظهر من بينهم رجالون عظماء ، مثل ماركو پولو في القرن الثالث عشر ، وخرستوف كولمب الذي كشف القارة الأمريكية سنة ١٤٩٢ ، وماجلان الذي كشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ م .

وبعد فقد أثرت الحروب الصليبية على أوروبا من نواح أهمها : تأثير هذه الحروب في الكنيسة وفي كرسى البابوية ، كما أثرت في الحياة الداخلية والاقتصادية عند ملوك أوروبا بصفة عامة ، ثم لأنها أثرت أيضاً في العلاقات الخارجية بين الدول المختلفة ، وفي العلاقات التي تربط القارة الآسيوية بأوروبا وما تبع ذلك من اكتشاف الأراضي الجديدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر .

الباب السابع

الحركات السياسية والدينية

(١) الفرامط:

كان أهل حران وثنيين ينتمون في الغالب إلى أصل إغريقي . وقد رحلوا من بلادهم الأصلية فراراً من بطش المسيحيين بهم بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة الرومانية الشرقية في عهد الإمبراطور جستنيان . ومع ذلك فقد تمسك هؤلاء المهاجرون بالثقافة اليونانية ولا سيما بالثقافة الأفلاطونية الحديثة . Neo-Platonic Philosophy . وفي العصر العباسي نقل وثنيو حران فلسفة اليونان وعلومهم إلى بغداد .

وكانت الكوفة التي ظهر فيها الدعاة العباسيون في مستهل القرن الثاني للهجرة مهداً لنشيع متطرف غير إسلامي ، وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطاً من مذاهب ونحل شتى على أثر اتصاله بالديانات والعقائد التي كانت سائدة في بلاد العراق قبل ظهور الإسلام : كالصابئة التي يعبد أتباعها النجوم والكواكب ، والمناوية ، والزرادشتية . (١) ومن الفرق الشيعية الغالية السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ الذي وضع مذهب تناسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر . ومذهب الوصاية (٢) الذي أخذه عن اليهودية دينه القديم . كما أخذ عن الفرس نظرية الحق الإلهي (٣) . بل إن السبئية أتباع ابن سبأ ألخوا علياً . كذلك نرى السكيسانية الذين ظهروا في عهد عبد الملك ابن مروان الأموي يبنون معتقداتهم على أساس معتقدات المجوس المزدكية التي ظهرت في بلاد الفرس في القرن الخامس الميلادي ، والبراهمة في الهند ، والفلاسفة القدماء ،

(١) وهي ديانة تقول بأن في العالم قوتين هما الخير والشر ، ويرمز لإله الخير بالنور وإله الشر بالظلمة ، وكانت هذه الديانة سائدة في فارس وشرق بلاد العرب ولا سيما جهة البحرين .

(٢) وقد قال إن علياً وصي محمد وإله خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين .

(٢) وقد قال إن علياً هو الخليفة بعد النبي وإله يستمد الحكم من الله .

والصابئة ، ويعتقدون بنبوة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية أولاد علي بن أبي طالب (١) وفي العصر العباسي الأول ظهرت طائفة الراوندية (٢) الذين عبدوا أبا جعفر المنصور وصعدوا إلى الخضراء (وهي القبة التي بناها المنصور ببغداد) فألقوا أنفسهم كأنهم يطيطرون . ولا يزال يعزى إلى طائفة النصيرية من الفرس حتى اليوم القدرة على الطيران في الهواء كما يعزى ذلك إلى بعض البوذيين . (٣) وقد نظر المنصور إلى الراوندية كأعداء سياسيين لدولته لأنهم من أتباع عدوه أبي مسلم الخراساني الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسرى ، كما نظر إليهم باعتبارهم زنادقة يريدون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها ، فقتلهم شرقتة ، ولكنه لم يستطع أن يقضى عليهم ، فظهروا في صور مختلفة نراها في ثورة المقتنع الخراساني (٤) الذي ادعى الألوهية وزعم أن الله خالق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح ثم في صورة إبراهيم وغيره من الأنبياء ، ثم في صورة محمد ثم في صورة أبي مسلم الخراساني ، ثم زعم أنه انتقل منه إليه (٥) .

ومن هذه الطوائف طائفة الخرمية (٦) . أصحاب بابك (بفتح الباء الثانية) الخرمي من سلالة أبي مسلم الخراساني . وتعد حركته استمراراً لحركة المقتنع والراوندية وغيرهم . ثم ظهر من طوائف الشيعة الغالية : القرامطة والدروز والنصيرية . ذكرنا من قبل أن الخليفة العزيز القاطمي عمل على استرداد بلاد الشام وفلسطين من أفتكين

(١) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٣٩٥ ، ٤٠٤ وما يليها .

(٢) نسبة إلى روان (بفتح الواو) القريبة من أصبهان وكانت مهد دعوتهم .

(٣) الطبري ج ٩ ص ٣٠٩ .

(٤) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٥) ذكر النوبختي (كتاب فرق الشيعة ص ٤٢ — ٤٣) أن المقتنع كان في مبدأ أمره ينتحل

مذهب الزمامية (أتباع رزام وكانوا كيسانية الأصل) . وقالوا بتناسخ الأرواح ، واعتقدت طائفة منهم أن أبا مسلم صار لها مجلول روح الله فيه وأنه حتى لم يموت .

(٦) قيل لأنهم سموا خرمية نسبة إلى خرما (بضم الخاء وفتح الراء مع التشديد) لمرأة مزدك التي اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها (وكان ذلك أيام قباز أبي كسرى الأول المعروف بأنو شروان) . وقد نشأت من طائفة الخرمية المزدكية طائفة الخرمية البابكية التي تنسب إلى بابك الذي ادعى الألوهية في عهد المأمون العباسي وتفاقم شره في عهد المعتصم .

والقرامطة ، (١) وأنه أرسل جوهر الصقلي على رأس جيش كبير تمكن من الاستيلاء على الرملة ، وكان القرامطة قد هربوا منها وعادوا إلى البحرين . ثم سار جوهر إلى دمشق فحاصرها ستة أشهر ، واضطر إلى التقهقر حين علم بوصول الحسن الأعصم القرمطي الذي استنجد بأفتكين ، وبما شطر عسقلان ، وحاصرها بها جوهر ، فاضطر هذا إلى طلب الصلح كما تقدم . ومهد بعمله إلى الموقعة الحاسمة التي دارت على نهر الطواحين بالقرب من الرملة بين الفاطميين بقيادة العزيز وبين القرامطة بزعامة الحسن الأعصم ، والأتراك بزعامة أفتكين ، وحلت الهزيمة بالقرامطة وأفتكين الذي سبق إلى القاهرة مع بعض أنصاره من الأتراك والديلم (٢) ، وعادت دمشق إلى أيدي الفاطميين الذين أقيمت الدعوة لهم على منابرها .

وقد أضعفت هذه الحروب القرامطة وفككت وحدتهم ، حتى إن جماعة منهم ثاروا على آل الحسن الأعصم ، واضطروهم إلى الهجرة إلى أوال (٣) ، حيث انتقم منهم أبناء أبي طاهر (٤) . واتخذ الخليفة العزيز ، الذي كان اليد المحركة التي أوقعت الاضطراب في صفوف القرامطة ، من ذلك فرصة لجذب هؤلاء القرامطة وإعادةهم إلى حظيرة الفاطميين . ويقول ابن خلدون (٥) : « ورجعوا إلى دعوة العلويين ومحاربة بني العباس » . واستمر القرامطة على ولائهم للفاطميين إلى أن زالت دولتهم من جزيرة أوال سنة ٤٥٨ هـ ، ومن البحرين بعد أن قضى عليهم السنيون في سنة ٤٧٠ هـ ، وذلك في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي . ولكنهم لم يقوموا بأعمال حربية منذ سنة ٣٧٥ هـ .

وقد استطاع الخليفة العزيز الفاطمي بحسن سياسته أن يستميل القرامطة من جديد إلى حظيرة الفاطميين وأن يثير حفيظتهم على العباسيين . يؤيد هذه الحقيقة ما ذكره ابن خلدون (٦) من أن القرامطة « رجعوا إلى دعوة العلويين (أي الفاطميين) ومحاربة بني

(١) يقصد بذلك قرامطة البحرين .

(٢) يقول المقرئ (خطط ج ٢ ص ٨ — ٩) إن حارة الديلم سميت بهذا الاسم بعد أن نزل بها أفتكين ومن معه من أولاد معز الدولة بن بويه .

(٣) بضم الألف مع الهمة .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩١ .

(٥) المصدر نفسه . انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٠ — ٤٠١ .

(٦) العبر ج ٤ ص ٩١ .

العباس « (١) . وكان من أثر هذه السياسة التي انتهجها الخليفة العزيز الفاطمي أن هاجم القرامطة الكوفة في سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢-٩٨٣ م) ، ولم يرتحلوا عنها إلا بعد أن أخذوا من أهلها مبلغا كبيرا في مقابل رفع الحصار عن مدينتهم (٢) .

على أن مصمص الدولة (٣٧٢ - ٣٧٦ هـ) بن عضد الدولة البويهى استطاع أن يصمد أمام القرامطة الذين حاولوا الاستيلاء على الكوفة غير مرة ، وأن يردم عنها وينزل بهم الخسائر الفادحة مما أوهن من قوتهم وأذن بقرب نهايتهم ، « و زال من حينئذ ناموسهم (٣) » كما يقول ابن الأثير (٤) .

وكان من أثر هزيمة القرامطة أمام جيوش مصمص الدولة البويهى أن تشجع أحد البدو الأفوياء فهاجم القرامطة في الأحساء مركز قوتهم ونفوذهم وأحل بهم الهزيمة ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على أكبر معاقلمه ؛ فعرج على القطيف واستولى على ما فيها من أموال القرامطة ، ثم سار إلى البصرة وأعلن ولاءه للخليفة العباسى الطائع (٣٨١ هـ) (٥) . وعلى الرغم مما لحق بالقرامطة من هزائم ظلوا مصدر خوف للعباسيين . يدل على ذلك أنهم أغاروا في السنة التالية على البصرة وحالوا دون وصول الحجيج إلى الأراضى المقدسة مما أقلق بال العباسيين والبويهيين على السواء (٦) . وفي سنة ٤٠٣ هـ نرى القرامطة يحاولون الوقوف في وجه الحجاج من جديد ، كما يحاولون الاستيلاء على الكوفة (٧) .

وقد استمرت العلاقات الطيبة سائدة بين القرامطة والفاطميين في عهد الحاكم ، ولاسيما بين القرامطة وطائفة الدروز التي ظهرت في عهد هذا الخليفة الفاطمي . فقد حاول حمزة

(١) الواقع أن الفاطميين استطاعوا أن يمزقوا وحدة القرامطة وأن يبتزعو السلطة من بيت الحسن الأعصم الذى دارت بينه وبين الفاطميين حروب طويلة في عهد المزمز والعزيز . وقد آلت زعامة القرامطة إلى ستة منهم أطلق عليهم « السادة » . وقد اشتهر منهم جعفر وإسحاق من أبناء عمومة الحسن الأعصم . وكان لهذين الزعيمين أثر كبير في الثورة التي قام بها أفتكين ضد الفاطميين ، ثم في ثورة القرامطة على العباسيين بعد ذلك . المصدر نفسه والجزء والصفحة .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) يعنى بذلك أنه لم يعد لمبادئهم قوة الانتشار والشيوع بعد ذلك .

(٤) السكامل ج ٩ ص ١٥ - ١٦ .

(٥) النويرى : نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٣ ورقة ١٠٠ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٩ .

(٧) De Goeje, Les Carmathes du Bahrain, p. 195. (٧)

(م ١٧ - تاريخ الإسلام - ج ٤)

ابن على مؤسس المذهب الدرزي أن يتصل بقرامطة البحرين ليجذبهم إلى مذهبه ، واستطاعت قوة من القرامطة الاستيلاء على مدينة الملتان الهندية ^(١) ، فهاجمهم السلطان محمود الغزنوي وردهم على أعقابهم (٣٩٦ هـ) ، فارتد زعيمهم إلى جزيرة سرنديب (سيلان) حاملا معه أهله وماله ^(٢) .

نهاية عهد القرامطة :

وكانت نهاية القرامطة في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي . وقد مرت هذه النهاية في طورين ، انتهى الطور الأول منهما بطردهم من جزيرة أوال وانتهى الثاني باستئصال شأفتهم من بلاد البحرين . ففي سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) خرجت جزيرة أوال عن طاعة القرامطة في البحرين وخضعت للعباسيين بعد سلسلة من الثورات التي قام بها السنيون في هذه الجزيرة . فقد بنى هؤلاء السنيون مسجدا لجذب التجار إلى جزيرتهم . ولما فرغوا من بناء هذا المسجد خطبوا فيه للخليفة العباسي دون الخليفة الفاطمي . كذلك ثار أهل أوال على حكم القرامطة لأنهم عزلوا واليهم وفرضوا عليهم ضريبة جديدة أثارت حنقهم ، فأشعلوا نار الثورة وقضوا على قوات القرامطة البرية والبحرية وآل الحكم في هذه الجزيرة إلى السنيين ^(٣) .

وكانت هزيمة القرامطة في جزيرة أوال بعيدة الأثر عليهم في بلاد البحرين نفسها . فقد اتصل السنيون في بلاد البحرين بالسلاجقة والعباسيين في العراق ، فبعثوا إليهم في سنة ٤٦٣ هـ بجيوش جرارة أحلت بهم هزائم متتالية ، واضطر القرامطة إلى الارتداد إلى بلاد الأحساء . وقد شجعت هذه الهزائم العباسيين والسلاجقة ، فأرسلوا إلى الأحساء جيوشا جرارة بقيادة طائفة من أمهر قوادهم ، وأذاعوا المنشورات يستحثون فيها الناس على الانضواء تحت لواء هؤلاء القواد « في جهاد المبطلين والقرامطة الملعدين . . . وفي استئصال ذكرهم وتطهير تلك البقعة من دنس كفرهم » ^(٤) . وقد التف السنيون في البحرين حول الثوار وأنصار العباسيين ، وأحاطوا بالقرامطة في شمالي الأحساء ، وانتصروا عليهم في موقعة « الخندق »

(١) وتقع على سبت غزنة .

(٢) Defremery, Essai sur l'Histoire des Ismaéliens, pp. 30—31.

(٣) ابن الجوزي : مرآة الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ ، القسم الأول ،

ورقة ١٠٧ .

(٤) La Fin de l'Empire des Carmathes du Bahrain (J.A., 1895), (٤) pp. 16—17.

سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ - ١٠٧٨ م). وتعد هذه الموقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ ، لأنها قضت على دولة القرامطة الذين ظلموا زهاء قرنين مصدر رعب وفزع للدولة العباسية بوجه خاص . وعلى الرغم من ذلك ظل أثر القرامطة باقياً في البحرين وعمان بعد موقعة الخندق بكثير ، حتى لقد تأثر بتماليمهم الخوارج من أتباع « أغاخان » ، ولا سيما العمانيين منهم^(١).

(٢) الدرزي

١ — دعاة الدرزي :

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) تأثر المذهب الشيعي بما طرأ عليه من تغيرات عظيمة : وذلك راجع إلى تأثر بعض الشيعة بالفلسفة الإغريقية وأخذهم ببعض العقائد المبنية على الرجعة والتناسخ . ومن ثم أصبح المذهب الشيعي في عهد الفاطميين خليطاً من الدين والفلسفة ، ونشأت بسبب ذلك مذاهب أخرى كذاهب القرامطة والدرزي والزارية في فارس وخراسان والشام والطيبية في اليمن وغيرها .

وفي أوائل القرن الخامس الهجري قامت طائفة الدرزية أو الدرزي وهم من غلاة الإسماعيلية الذين ألخوا الحاكم ، وخرجوا بذلك على الإسماعيلية ثم المعتدلين الذين يمثلون المدرسة الإسماعيلية القديمة . وقد قامت هذه الحركة الشيعية على أيدي الفرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم ويؤمنون بنظرية الحق الملوكي المقدس . ومن أعظم هؤلاء الدعاة تأثيراً في هذه الحركة حمزة بن علي الزوزني ، والحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالآخرم ، ومحمد بن إسماعيل أنوشكين البخاري الدرزي ، الذين جهروا في مصر بتأليه الحاكم .

رحل حمزة بن علي إلى مصر سنة ٤٠٥ هـ ، وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون إلى دار الحكمة التي أسسها الحاكم سنة ٣٩٥ هـ وأخذ يذشر في الخلفاء الدعوة إلى

(١) انظر Badger, G. P., The History of the Imams and Sayyids of Oman (London, 1871).

(٢) الدرزي (بالفتح) : واحد دروز الثوب ونحوه ، وهو فارسي معرب . ويقال درز بالذال والذال ، وأولاد درزة : السفلة والسقاط والغوغاء من الناس والخياطون والحماكة ، وهم من أسافل الناس . والدرزي (بالفتح) الخياط . والعامة تضم الدال فتقول درزي ، وفي الجمع درزي ، والصواب درزي في المفرد ودرزية في الجمع ، والشائع اليوم دروز وهو خطأ .

تأليه الحاكم ، ثم جهر بدعوة ألوهية الحاكم (٤٠٨ هـ) ، وصنف كتاباً ذكر فيه أن روح الله سبحانه وتعالى حلت في آدم عليه السلام ثم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ، وأن روح علي انتقلت إلى العزيز ، ثم إلى ابنه الحاكم ، بمعنى أن الحاكم قد أصبح في نظرهم إلهاً عن طريق الحلول (Incarnation) .

ويظهر أن هذه الدعوة قد أوهنت صرح الدعوة الإسماعيلية المعتدلة في مصر . وقد شجع الحاكم حمزة وأنصاره ، حتى إنه كان كثيراً ما كان يلتقي بهم في القرافة ويظهر عطفه عليهم ، ويسأل حمزة عن عدد أنصاره ومدى ما وصل إليه في هذه الحركة من نجاح ^(١) . وكان من أثر هذا التشجيع أن غلا حمزة في تلقيب نفسه بألقاب كثيرة مثل الإمام ، والدليل على عبادة الله ، والداعى إلى توحيد الله ، والناطق بحق الله ، والبرهان على الله ، والرسول الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . . . وأنه السبيل إلى معرفة مولانا جل ذكره (أى الحاكم) والطريق إلى توحيده ، والحجة إلى عبادته ^(٢) » . ويعتبر حمزة بن علي المؤسس الحقيقي لمذهب الدرزية ؛ فقد استغل الحسن ابن حيدرة الفرغانى الأخرم ، ومحمد بن إسماعيل البخارى الدرزى فى نشر عقائد هذا المذهب ، وشجع الأخرم فى سنة ٤٠٩ هـ على الجهر بتأليه الحاكم .

وقد ذكر أبو المحاسن أن الأخرم ذهب إلى جامع عمرو على رأس خمسين رجلاً بمطين دوايم ، وسلموا إلى القاضى السنى فتوى صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم . وقد أثار الأخرم بذلك حق السنين فأنقضوا عليه وعلى رجاله وفتسكوا بهم ، وتمكن هو من الحرب ، ولكنه قتل بعد قليل ^(٣) .

ولكن قتل الأخرم لم يضعف من هزيمة غلاة الإسماعيلية فقد ظهر على أثر مقتله فى سنة ٤٠٩ هـ الداعى محمد بن إسماعيل الدرزى ^(٤) ، وكان قد وصل إلى مصر فى سنة ٤٠٨ هـ ، فرحب به الحاكم وأجزل له العطاء . وقد سلك الدرزى فى سبيل تأييد ألوهية الحاكم مسالك

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ المجبوع على التحقيق والتصديق ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٢) كتاب النقط والدوائر ، وهو من كتب الدرزية ، وقد ذيل ببعض رسائلهم ، وهى (١) الرسالة الموسومة بيد الخلق ، (٢) نبذة من شرح البيان وعجى الزمان (٣) الرسالة الموسومة بكشف الحقائق ، نشره سييولد الألمانى (١٣١٩/١٩٠٢) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٣ .

(٤) وإليه تنسب طائفة الدرزية ، على الرغم من أن حمزة بن علي يعتبر المؤسس الحقيقي للمذهب الدرزى .

شقي ، فألف السكتب في ذلك ، واستعان بنفوذ الخليفة الحاكم في نشر هذه الدعوة بين رجال البلاط والموظفين .

ولم يكن هذا كل ما قام به الدرزي في سبيل نشر دعوته ، فقد تسمى بسند الهادي (حمزة بن علي) ، وحذا حذو أستاذه في نقل رياسة هذه الدعوة إليه ، فكتب إلى ختكين داعي دعاة الإسماعيلية يطلب إليه الانضواء تحت لوائه ، كما كتب إلى ولي عهد المسلمين عبد الرحيم بن إلياس الذي كان يمثل عقيدة الحاكم التوحيدية وإلى غيرهم يدعوهم إلى دعوته ، مما يدلنا على مدى تغافل نفوذ أنصار المذهب الدرزي . على أن ختكين قاوم هذه الحركة واشترك مع السفين في القضاء عليها ، وشكا إلى الحاكم جرأة الدرزي وأنصاره وغلوهم . ووجدت هذه العقيدة أنصاراً من بين المصريين طمعاً في التقرب إلى الخليفة الذي ناصر هذه الحركة وعطف عليها . كما أخذ الدرزي في قراءة كتابه الذي صنفه في عقائد المذهب الدرزي في الجامع الأزهر ، وأثار بذلك سخط المصريين السفين والمعتدلين من الشيعة ، حتى كادوا يقتلون لولا أنه هرب إلى بلاد الشام ، وأقام بوادي تيم الله بن ثعلبة غربي دمشق ، وأخذ ينشر الدعوة في تأليه الحاكم ويقرأ على كل أهالي هذه الجهات كتبه التي لم تلق قبولا لدى كثير من المصريين الذين اضطهدوه ، وأظهر الحاكم استيائه من دعوته خوفاً من رعاياه . وقد استطاع الدرزي أن يستميل إلى دعوته كثيراً من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية . ولا يزال هذا المذهب منتشرأ في جبال لبنان وحوارن .

وليس من شك في أن الحاكم كان ينصر هذه الدعوة ويشجع الدرزية في مصر أولاً وفي الشام ثانياً ، لأن ذلك كان يتفق مع ميوله ، بدليل أنه اتخذ جواسيس من النساء يندسسن في دور بعض الناس . وكان من واجبهن اكتشاف ما يحدث فيها ، ثم تقديم تقاريرهن إليه في اليوم التالي . فإذا أصبح الخليفة استدعى أهل هذه الدور للثول بحضرته وأخبرهم بما حدث في دورهم ، كما اتخذ الحاكم جواسيس عهد إليهم بأن يقدموا إليه تقارير مستوفاة عن كل ما يحدث في الطرقات ، حتى أصبح بعض الناس يعتقد أنه يعلم الغيب .

٢ — أهم مميزات الدرزية :

قامت طائفة الدرزية في أوائل القرن الخامس الهجري كما تقدم ، ولا تزال إلى الآن تحتفظ بشيء من مميزاتها وخصائصها كطائفة من طوائف المذهب الإسماعيلي . ولا يزال كثير من الأسس التي وضعها حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأوائل قائماً إلى اليوم .

ومن أهم هذه الخصائص اتخاذ الدرزية تقويماً يؤرخون به حوادثهم ، ويبدأ من سنة ٤٠٨ هـ ، وهى السنة التى ظهرت فيها دعوى تأليه الحاكم على يد حمزة بن على وأنصاره . ويعبرون عن ذلك بكشف المكنون ، أى ظهور التوحيد .

ومن هذه الخصائص إغلاق باب الاستجابة الخارجية ، بمعنى أن هذه الاستجابة تغلق أبوابها فى وجه كل من لا ينتمى إليها ، أى من لا يكون درزياً أو موحداً على حد تعبيرهم . ويررون ذلك بقولهم إن الدعوة قد أبطلت وأغلقت الأبواب ، فمن لم يؤمن بقى كذلك إلى الأبد ، ومن آمن فقد آمن بلا ردة^(١) . ومن نرى الدرزية ينقسمون إلى طائفتين :

الاولى : طائفة الروحانيين ، وتكون الطبقة المستنيرة التى تلم بأصول المذهب الدرزى ، وتنقسم هذه الطائفة إلى رؤساء وعقلاء (أو عقال) وأجاويد ، فأرؤساءهم الذين بيدهم مفاتيح جميع أسرار الدرزية ، والعقلاء بيدهم الأسرار الداخلية التى تتعلق بالتنظيم الداخلى للمذهب ، والأجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية التى تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب .

والطائفة الثانية هى طائفة الجسائيين ، وتنقسم قسمين : الأمراء الجسائيون ، والعامّة أو الجهال . فالأمراء الجسائيون بيدهم شئون الحرب والزعماء الوطنية ، والعامّة أو الجهال هم الذين لا يعرفون من أصول المذهب إلا اسمه ، ولا يحق لطبقة الجسائيين الدخول ، بحال من الأحوال ، فى مجالس طائفة الروحانيين ، ويعتبرون جهالاً معها علا كمهم فى التعليم والثقافة^(٢) .

ولا يسمح لأحد من أعضاء طائفة الجسائيين بالانضمام فى طائفة الروحانيين إلا بعد اجتياز اختبار طويل صعب يظهر فيه استعدادة لتلقى أصول المذهب الدرزى والاطمئنان إلى أنه سوف يصبح عضواً نافعاً متفهماً فى عقائده ، بل بعد أن يؤخذ عليه عهد يترا فيه من جميع الأديان والمذاهب ، ويتعهد بالدفاع عن هذه الطائفة ويحافظ على أسرارها . وقد وضع حمزة بن على صيغة هذا العهد الذى أسماه « ميثاق ولى الزمان »^(٣) .

(١) حمزة بن على الدرزى : التاليد فى مذهب أهل التوحيد (نشره ميخائيل شارويم) ص ٢٣ :

(٢) راجع Hitti, The Origins of the Druze People and Religion, p- 43.

(٣) Chrestomathie Arabe, Vol- II, p- 52

وقد خلف حمزة بن علي وغيره من دعاة الدرزية الأقدمين كثيراً من المؤلفات التي كشفت عن كثير من غرامض هذا المذهب ، ومنها نقيبين أنهم من غلاة الإسماعيلية ، وأن مذهبهم لم يخرج عن المذهب الإسماعيلي في جوهره^(١) .

ولذلك نرى أن الدروز يرمون المعتدلين من طائفة الإسماعيلية بالجمود ، كما يكفرون في الوقت نفسه المسلمين عامة ويسمونهم الكفار أو المشركين في الوقت الذي يظنون على أنفسهم الموحدين ، على حين نرى سائر المسلمين يكفرون الدروز ولا يعدونهم من الفرق الإسلامية : فقوم يكون البشر إلههم ومعبودهم ، وحمزة بن علي نبيهم وناطقهم^(٢) . كذلك نرى كثيرين من علماء المسلمين يرمون طائفتي الدروز والنصيرية بالزندقة ويبيحون دماءهم ويحرمون مصاهرتهم والتقرب منهم^(٣) .

ولسكي يقوى حمزة بن علي مؤسس المذهب الدرزي الرابطة بين أنصار مذهبه جعل العهد الذي يؤخذ على المستجيبين وثيقة مقدسة تلزم هؤلاء المستجيبين بالتفاني في سبيل المذهب والتماسك بين أفراد هذه الطائفة وإليك نصها :

« توكلت على مولانا الحاكم الفرد الصمد المنزه عن الأزواج والعدد ، أقر فلان بن فلان إقراراً أوجب على نفسه وأشهد به على روحه في صحة من عقله وبدنه وجواز أمره ، طائعاً غير مكره ولا مجبر ، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها ، وأنه لا يعرف غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره ، والطاعة في العبادة ، وأنه لا يشرك في عبادته أحداً مضى أو حضر أو يُنتظر ، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما ملكه لمولانا الحاكم جل ذكره ، ورضى بجميع أحكامه له وعليه ، غير معترض ولا منكر لشيء من أفعاله ، سابه ذلك أم سره . ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذي كتبه على نفسه وأشهد به على روحه وأشار به على غيره أو خالف شيئاً من أوامره ، كان بريئاً من الباري المعبود وحرماً الإفاضة من جميع الحدود ، واستحسن العقوبة من الباري العلي جل ذكره . . . ومن أقر أنه ليس في السماء إله معبود ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره ، كان من المرشحين الفائزين .

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٥٤ — ٣٦٠ .

(٢) طه أحمد شرف : الإسماعيلية وتاريخهم السياسي حتى سقوط بغداد ، مخطوطة ج ١ ص ٣٣٥ .

(٣) المحبي : تاريخ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (القاهرة ١٨٦٧) ج ٣ ص ٢٦٩ .

وكتب في شهر كذا وكذا ومن سنة عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين المنتقم من المشركين والمرندين بسيف مولانا الحاكم جل ذكره وشدة سلطانه وحده» (١).

وعلى الرغم من أن الدرزية قد انطوا على أنفسهم حتى أصبحوا جماعة مغلقة لا يعرف الناس من أمرهم شيئاً ، نراهم يعاونون المسلمين في صراعهم مع الصليبيين معاونة صادقة في سبيل الاحتفاظ بالسهل الساحلي في لبنان . وكانت لهم في الوقت نفسه مواقف حربية رائعة في حصار قلعة الشقيف (٢) . كما نرى أن الدروز يعاونون هولاكو التتاري بإبان لغارته على بلاد الشام ، بدليل إقطاعه إياهم بعض البلاد . وكذلك قام الدروز بدور ملحوظ في أثناء فتح الأتراك العثمانيين بلاد الشام ومصر (١٥١٦ — ١٥١٧ م) في عهد السلطان سليم الأول . فكان لمساعدة نحر الدين معن الأول أحد رؤساء الدروز أثر بعيد فيما أحرزه العثمانيون من نصر . ولا غرو فقد أظهر الدروز كثيراً من ضروب الشجاعة والبسالة في تلك الحروب ، مما جعل السلطان العثماني يعترف بهذه المساعدة ويمنحهم الجوائز (٣) .

وقد وقع في أيدي الجيوش المصرية بقيادة إبراهيم باشا كثير من مخطوطات الدروز التي عثر عليها في خلواتهم ، وذلك عند قيام الثورة السورية في وجه حكم محمد علي سنة ١٨٣٨ . كما نرى الدروز يحملون السلاح في وجه المارونيين جيرانهم المسيحيين في الشمال ، مما أدى إلى تدخل فرنسا وإرسالها حملة حربية لوضع حد لذلك النزاع ، وانتهى هذا التدخل الفرنسي بوضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي عقب الحرب العالمية الأولى . كذلك لانفسى ثورة الدروز بزعامة آل الأطرش ضد الانتداب الفرنسي الذي انتهى باستقلال كل من سوريا ولبنان سنة ١٩٤٦ (٤) .

(١) دى ساسي : الأئیس المفید ج ٢ ص ٨٢ — ٨٤ . ويقصد بسنة عبد مولانا السنة التي دعى فيها بتأييه الحاكم بأمر الله أي سنة ٤٠٨ هـ .

(٢) ولعلها شقيف نيرون وهو حصن على مقربة من صور . وتطلق كلمة شقيف على عدة أماكن ببلاد الشام ، وتشير إلى الأماكن الحصينة : فهناك شقيف أرنون في جبل قريب من بانياس من أعمال دمشق يقع بينها وبين الساحل ، وشقيف دركوش وهي قلعة بنواحي حلب جنوبي حارم ، وشقيف دين وهي قلعة قرب أنطاكية . انظر لفظ شقيف في معجم البلدان لياقوت .

(٣) كريم خليل : الدروز والثورة السورية ص ٢٥ .

(٤) Hitti, Op. cit., pp. 2, 48.

انظر طه أحمد شرف : الإسماعيلية وتاريخهم السياسي ج ١ ص ٣٣١ وما يليها .

(٣) النصيرية :

كانت طائفة النصيرية^(١) تقيم في شمالي الشام قبل طائفة الدروز في لبنان . وهم من الشيعة الغالية ، وموطنهم جبل النصيرية (أو الأنصارية) ، وهو جزء من جبل لبنان . وتمتد بلادهم شرقا إلى سهل حماء وحمص وحلب ، وشمالا إلى ماوراء أنطاكية على حدود بلاد الأناضول .

وبينما نرى اسم « علوى » قد أطلق حديثا على أتباع هذه الطائفة ، فإن اسمهم الأصلي (النصيرية) يذكّرنا باسم مؤسس هذه الطائفة . وقد يذكّرنا باسم الشخص الذي كان يدعو إلى عقائدهم ، وهو الفقيه الشيعي محمد بن نصير المتوفى سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) . وكان من أتباع الحسن العسكري الإمام الحادي عشر عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية^(٢) . ويقدم لنا أتباع ابن نصير — كما يقول ريني دوسو^(٣) — مثلا واضحا للجماعة التي انتقلت مباشرة من الوثنية إلى طائفة الإمامية الاثنا عشرية . وهذا يفسر لنا نقط الخلاف الشديد بينهم وبين الإسماعيلية . وثمة تفسير آخر لا يزال مألوفا عند السفين الذين يجاورونهم ، ولكنه يدخل بلاريب — في نطاق الاشتقاق المتداول لهذا الاسم فيجعل له ذا صلة بلفظ نصرائي أو نصاري ، مما يقرب إلى الذهن أن النصيرية لا يزالون يحتفظون ببعض تقاليد (طقوس) دينية خاصة ، فيحتفلون ببعض الأعياد المسيحية ، كعيد الميلاد وعيد الفصح (القيامة) ويعتبرونها من الأعياد الكبرى . كما أن بعضهم يحمل أسماء مسيحية الأصل مثل متى ويوحنا (جون) وهيلانة .

وبالإضافة إلى المبادئ التي اقتبسها النصيرية من المسيحية فإن ديانتهم تحتفظ بقسط وافر من الأسرار الشبهية بأسرار الدروز ، وما تزال تحتفظ بمعالم واضحة تنبئ عن معتقداتهم وعقيدتهم التي هي مزيج من عناصر غير متجانسة تماما ، تقوم على أساس نظام ديني يتصل

(١) ذكر أبو الحسن الأشعري (مقالات الإسلاميين ، طبعة محمد محي الدين عبد الحميد ، جزءان ، القاهرة ١٣٦٩ / ١٩٥٠) ص ٦٦ — ١٠٢) ، فرق الشيعة الغالية ، كالخطابية ، والتميرية أصحاب محمد بن نصير التميمي ، والسبئية والكيسانية ، والراوندية ، والرزامية ، والأبومسلمية والقرامطة ، والباركية وغيرها .

(٢) ذكر النوبختي (كتاب فرق الشيعة ص ٧٨) أن محمد بن نصير التميمي أله الحسن العسكري وادعى أنه نبي قد بعثه الحسن العسكري . وكان ابن نصير يقول بالتناسخ والحلول وتأليه الأئمة .

(٣) Dussaud, p. 51.

بعبادة النجوم والكواكب . وقد اقتبست هذه التعاليم في القرون الأولى للعصر المسيحي بعض المبادئ الروحية عند المسيحيين . ومع ذلك فإن هذه المبادئ قد اتخذت بعد ذلك مظهراً معيناً في الأطوار التي مر بها الإسلام . فقد أخذ على يد دعاة الإسماعيلية فيما بعد بعض أشكال غامضة مبنيّة على الإلحاد .

ويظهر أن حسين بن أحمد الحشبي الذي عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) هو الذي وضع عقائد مذهب النصيرية الذي يفد أتباعه لزيارة ضريح حسين القريب من حلب ويولون هذا الضريح ما يليق به من الإحترام والإكبار . ويعرف هذا الضريح باسم ضريح الشيخ برقي (بفتح الباء والقاف الأولى وسكون الراء) .

ويقوم نظام النصيرية على التجسد^(١) ، ويدور حول هذه الأسماء الثلاثة التي تكون التثليث الشبيهة بتثليث النصارى . ويتمتع هؤلاء بالوحدانية والخلود . وهذه الأسماء الثلاثة التي يرمزون إليها في قائمة مذهبهم هي التي تكون تثليثاً شبيهاً بالتثليث السكائفي النصرانية . ويرمز إلى هذا التثليث عند النصيرية بحروف ع م س ، ويقولون إن الله حل في ثلاثة هم : علي بن أبي طالب ورمزون إليه بالمعنى ، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) ورمزون إليه بالاسم ، وسلمان الفارسي ورمزون إليه بالباب^(٢) .

وتعتبر النصيرية علياً الإله^(٣) . ولذلك أطلق عليهم اسم « العلوية » (أي الذين يعبدون

(١) الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٥ . البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٥٤ — ٢٥٥ . الشهرستاني : الملل والنحل ص ١٤٣ — ١٤٥ .

(٢) انظر اعترافات أحد المرتدين عن المذهب النصيري التي نشرت تحت عنوان « الباكورة السليمانية » وقد ترجمها أ . سالبوري إلى الإنجليزية في مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية (سنة ١٨٦٦ مجلد ٨ ص ٢٢٧ — ٣٠٨) ، والمجلة الآسيوية الفرنسية سنة ١٨٧٩ ص ١٩٢ وما يليها .

Browne, Lit, Hist, of Persia, vol. I, p. 203, n. 2.

(٣) وقد قالت الشيعة بإمامة علي ، ومنهم المقداد بن الأسود ، وسلمان الفارسي ، وأبوذر الغفاري ، وعمار بن ياسر . وقال بعضهم إن علياً إمام يجب طاعته بعد الرسول الذي استودعه هو وأولاده من العلم ما يحتاج إليه الناس من الدين وجميع العلوم . ولذلك استحق الإمامة بعد النبي لعصمته وقرابته وسابقته وعلمه وسخافته وزهده وعدالته في رعيته ، واستشهدوا على ذلك بقول الرسول : « علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » (النسخة : كتاب فرق الشيعة ص ١٥ — ١٦) . أما سلمان الفارسي فقد كان أكبر الصحابة الذين يحملهم الرسول ، حتى إن طائفة من النصيرية أدخلته في نظامهم القائم على التثليث . وقد علت منزلة سلمان عند الرسول وحسنت صحبته حتى عدّه من آل البيت فقال : « سلمان منا أهل البيت » . كما أثر عن الرسول أنه قال : « سلمان ابن الإسلام » . وكان أول من أسلم من الفرس ، فعده الرسول أول ثمار الفرس . وهو الذي أشار على الرسول بحفر الخندق حول المدينة وأدى ذلك إلى ازدياد قوة الإسلام وسرعة انتشاره وإلى ضعف روح المقاومة عند أعداء الإسلام . الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٧٩ — ٨٠ . انظر كتابي زعماء الإسلام ص ٩٣ — ١٠٠ .

عليها) منذ الانتداب الفرنسي في ديارهم بعد الحرب العالمية الأولى. وعلى هو الكائن الاسمي والنور المشع الذي ينبعث عن فيضه محمد (صلى الله عليه وسلم) وسلمان الفارسي. وتتكون جماعة النصرانية من قبائل يقوم بينها تحالف، كالكلبية والحياطين والحدادين وبعض قبائل العرب البتانيين الذين ارتحلوا شمالا في العصر الجاهلي ثم اختلطوا مع الشماليين كالآراميين وغيرهم واحتفظوا بلغتهم الجنوبية التي اختلطت قليلا أو كثيرا باللغة الآرامية التي لانزال آثارها بادية في بعض اللهجات العربية وفي أسماء الأشخاص والقرى والأنهار والجبال. وتاريخ النصرانية عبارة عن سجل للحروب التي نشبت بينهم وبين جيرانهم للاضطهادات التي تعرضوا لها باعتبارهم ملحدون أو وثنيين، الأمر الذي أثار شعور جمهور المسلمين (ومنهم الشيعة المعتدلون) ضد هؤلاء النصرانية الذين ظهروا في نظر المسلمين زنادة مغالين^(١).

ويقيم الآن نحو ثمانمائة ألف من أتباع هذا المذهب، معظمهم من الفلاحين في شمالي ووسط بلاد الشام. وهم يعيشون في قرى الجبلية حتى كيليكيا التركية. وقد احتفظوا بمعظم أساليب معيشتهم وتقاليدهم التي نشؤوا عليها منذ العصور الوسطى. وهم يتمتعون عن أكل لحم الجمل والأرنب وثمان الماء والسماك الذي لا قشر له^(٢).

ويعتبر النصرانية والقرامطة والدروز والنزارية وغيرهم من فرق الإسماعيلية حتى في نظر الشيعة الاثنا عشرية الذين يؤلفون السواد الأعظم من الشيعة، من الغلاة، لأنهم يمارون في ألوهية الله ولا يؤمنون بأن النبوة قد انتهت بمحمد. ومن هؤلاء الغلاة فرقة ذهبية إلى أن جبريل أخطأ فدفع الرسالة إلى محمد بدلا من علي. وفرقة أخرى تسمى التخنجية (بفتح التاءين والياء مع التشديد وسكون الخاء وكسر الجيم) (قطاع الخشب) في غربي الأناضول، والعلوية (المؤلفة عليا) في فارس وتركستان (ومنهم جماعة في شمالي العراق)، ويمت إليهم الغزل (بضم القاف والزاي) باشيه (بكسر الشين وفتح الياء مع التشديد) (الرهوس الحمر) في شرقي الأناضول، والبسكتاشية في تركيا وألبانيا^(٣).

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٥٤ — ٢٥٥.

(٢) Samné, La Syrie, pp. 337 — 342.

(٣) History of the Arabs Hitti, op. cit., pp. 448—449.

(٤) الدعوة الزارية في فارس والسام :

شرع الخليفة المستنصر الفاطمي قبل وفاته سنة ٤٨٧ هـ في أخذ البيعة لابنه الأكبر نزار . غير أن الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي أخذ يماطله حتى توفي الخليفة قبل أن تتم البيعة لنزار ، وبادر إلى تولية ابنه الأصغر أبي القاسم أحمد ولقبه المستعلي بالله . وكان من أثر ذلك أن قام النزاع بين أنصار الفاطميين في مصر .

وقد ظهر أمر الباطنية أو الإسماعيلية في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي . فقد اجتمع منهم ثمانية عشر صلوا صلاة العيد جهارا في مدينة سارة ، ولكنهم حبسوا ثم أطلق سراحهم . ويذكر ابن الأثير أن هؤلاء الباطنية دعوا مؤذنا من أهل أصبهان إلى إعتناق مذهبهم فلم يجبههم إلى دعوتهم ، فخافوا أن ينم عليهم فقتلوه . فكان ذلك أول دم أراقته الباطنية . ولما نعى خبر هذا الحادث إلى نظام الملك وزير السلطان ملكشاه ، أمر بالبحث عن المتهم ، وانحصرت التهمة في نجار يسمى « طاهر » ، فقتل ومثل به في الأسواق ، فكان أول قتل من أنصار هذه الطائفة . وسرعان ما انتقم الباطنية من الوزير نظام الملك وقتلوه وقالوا : قتل نجارا فقتلناه به^(١) ، ولم يلبث أن استولى الباطنية على موضع عند قايين كان صاحبه يدين بعقائد هذا المذهب . وقد حدث أن اجتازت قافلة من كرمان في طريقها إلى قايين ، فخرج الباطنية عليهم وقتلوه عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا رجل استأنف سيره إلى قايين وأخبر أهلها بهذا الحادث ، فخرجوا إلى جهادهم ، ولكنهم لم يتمكنوا من هزيمتهم .

ولما قتل الوزير نظام الملك ومات السلطان ملكشاه ، تفاقم خطر الباطنية وقويت أطاعتهم والتأمت جموعهم في أصبهان حيث نشروا دعوتهم وأخذوا يلحقون الأذى بمخالفهم ، وأمضوا في سرقة أموالهم وتفتيلهم وادخلوا الفزع في قلوب الأهليين ، حتى كان الأمراء يضعون الدروع تحت ثيابهم^(٢) . وكان الباطنية إذا مر بهم شخص أخذوه إلى إحدى دورهم وقتلوه وألقوا بجثته في بئر قد حفر لهذا الغرض . وسرعان ما استولى الباطنية على كثير من القلاع ، نذكر من بينها قلعة أصبهان التي بناها السلطان ملكشاه السلجوقي ثم اتصل أحمد بن عبد الملك بن عطاش الطيب^(٣) بتولى هذه القلعة . وقد نال المسلمين

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١١٦ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ .

(٣) وكان داعيا لإسماعيليا نابها في فارس .

منه ضرر عظيم من أخذ الأموال وقتل النفوس وقطع الطريق وإلقاء الرعب والفرع في القلوب ، حتى كانوا يقولون : إن قلعة يدل عليها كلب ويشير بها كافر لا بد وأن يكون خاتمة أمرها الشر ، ومنها الموت . وقلعة الموت بنواحي قزوین ، قيل إن ملكاً من ملوك الديلم كان يكثر من الصيد ، فأرسل يوماً عُقاباً وتبعه فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة ، فوجده موضعاً حصيناً ، فأمر ببناء قلعة عليه فسموها الموت (بفتح الالف مع الهمزة وفتح اللام) ، ومعناها في لغة الديلم : تعليم العقاب^(١) .

وكان من تلاميذ ابن عطاءش ، الحسن بن علي (بن محمد بن جعفر بن الحسين) بن الصباح الحميري^(٢) . وكان الحسن ، كما وصفه ابن الأثير^(٣) ، « رجلاً شهماً كافياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر وغير ذلك » . وكان الحسن كأبيه يدين بعقائد الإمامية الاثنا عشرية ، ثم وقع تحت تأثير أحد دعاة الفاطميين . وقد انهم عامل الري (وكان زوجاً لابنة الوزير نظام الملك) الحسن الصباح بتلقى تعاليم الدعاة المصريين ، أو بعارة أخرى دعاة الفاطميين الذين جاءوا من مصر . وقد هرب الحسن الصباح ولم يدركه عامل المدينة ، وتنقل في البلاد وانتهى به المطاف إلى مصر ، فأكرمه داعي الدعاة وغيره من كبار رجال الدولة ، وأكرمه الخليفة المستنصر وأمدّه بالمال . ولما مثل بين يدي الخليفة أمره أن يقيم الدعوة باسمه في بلاده ، فقال له الحسن : فمن الإمام بعدك ؟ فأشار إلى ابنه الأكبر نزار ثم غادر الحسن الصباح مصر ومبر بالشام والجزيرة وديار بكر وعاد إلى خراسان ، ودخل كاشغر وبلاد ما وراء النهر ، واطمأن إلى أهالي الموت ، وأظهر الزهد ولبس المسوح ودعاهم إلى الدخول في دعوته ، فتبعه أكثرهم ، واستمال صاحب القلعة (وكان علويّاً) الذي أحسن الظن به وقربه إليه وتبرك به .

ولما أحكم الحسن الصباح الأمر واطمأن إلى قوته ، دخل يوماً على صاحب القلعة ، وأمر أصحابه فأخرجوه منها إلى دامنغان ، وأعطاه ماله وملك القلعة . ولما بلغ هذا النبأ الوزير

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١١٧ .

(٢) قيل إن الحسن لم يسمح لأنصاره بأن يذكروا هذا النسب قائلاً إنه يؤثر أن يكون عبد الإمام المختار من أن يكون له ابناً لا ينتظر إليه الناس بعين الاعتبار .

Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. II, p. 202.

(٣) ج ١٠ ص ١١٨ .

نظام الملك بعث بعسكر كثيف حاصروا الحسن حتى ضاق ذرعاً ، فأرسل شخصاً قتل الوزير السلجوقي ، ثم جهز محمد بن ملكشاه جيشاً آخر حاصر القلعة تمهيداً لاستردادها ، ولكن على غير جدوى^(١) . وبعد استيلاء الباطنية على قلعة الموت ، وقعت في أيديهم قلاع أخرى حصينة^(٢) .

وبدل استيلاء الباطنية على هذه القلاع على قوة أتباع الحسن الصباح الذين انفصلت دعوتهم بعد وفاة المستنصر عن الدعوة الفاطمية ، لأنهم تبنا دعوة نزار دون أخيه المستعلي الذي خاف أباه في القاهرة . ومن ثم انقسمت الإسماعيلية الفاطمية إلى فريقين : فريق نادى بإمامة المستعلي ، فسموا المستعلية أو الإسماعيلية في مصر ، وفريق نادى بإمامة نزار الابن الأكبر للمستنصر ، فسموا النزارية أو الحشاشين (أو الحشيشية) ، وهو الاسم الذي اشتهروا به ، كما يعرفون أيضاً بالباطنية . وقد قام هؤلاء بدور هام في محاربة المستعلية والسلاجقة والصليبيين الذين انتشروا أيضاً في بلاد الشام . وكان اعتناق الحسن الصباح العقيدة النزارية مؤذناً بتطور جديد في تاريخ هذه الدعوة . فقد ابتدع نظرية جديدة هي نظرية الإمام المستور والدعوة إليه ، بعد أن كانت الدعوة الإمامية تعتمد منذ سنة ٢٩٦ هـ على الإمامة الظاهرة (exoteric) لا على المستورة (esoteric) . كما استطاع الحسن الصباح أن يستغل الدعوة النزارية خير استغلال ، فأصاب نجاحاً بعيد المدى ، وأفلح في تكوين نظام جديد ، وأنشأ دولة إسماعيلية خالصة في وسط دولة العباسيين الساميين .

وقد تركزت جهود الحسن الصباح بعد موت المستنصر في نشر الدعوة لنزار ، واحتفظ بأنصاره القدامى من الإسماعيلية في فارس وخراسان ، فالتفوا حوله ؛ كما عمل على ضم

(١) ابن الأثير : ج ١ ص ١١٦ — ١١٨ .

(٢) ذكر ابن الأثير (ج ١ ص ١١٨ — ١١٩) أسماء هذه القلاع وهي : شاه دز (بكسر الدال وزاي مشددة) وخالنجان (بفتح اللام وسكون النون) قرب أصفهان ، وطلس (بفتح الطاء والباء) وتون ، وقاين (بكسر الياء) وزوزن (بفتح الزاي الأولى والثانية وسكون الواو) وخور ، وخوسف (ضم الخاء وفتح السين) في قوهستان ، ووشمكوه (بفتح الواو وسكون الشين وضم الكاف) بقرب الأنبار ، وأستوناوند (بضم الألف مع الهزة والتاء وفتح الواو وسكون النون) في مازندران (بفتح الزاي وسكون النون وفتح الدال) وأرداهات (بفتح الألف مع الهزة وسكون الراء وفتح الدال) وجرذكوه (بكسر الجيم وسكون الراء والدال) ، وقلعة الناظر في خوزستان ، وقلعة التنبور على مقربة من أرجان (بفتح الراء مع التشديد) ، وقلعة خلادخان في فارس (بسكون الدال) .

عناصر جديدة إلى دعوته . ومن أهم ما يمتاز به دعوة الحسن الصباح إلى نزار ، العمل على تكوين مجتمعات إسماعيلية بحتة تستقر في أماكن حصينة ، يجتمع فيها كل دعاة النزارية لمحاربة أهل السنة والنيل منهم . فأصبح للحسن مئات من القلاع والحصون القوية في أقاليم رودبار وقوهستان والطالقان وغيرها . كما وجه الحسن الصباح دعائه نحو بلاد الشام لنشر الدعوة النزارية ومحاربة السلاجقة والمستعيلة والصليبيين . ومن ثم أصبح في كل إقليم أتباع وفي كل مدينة أنصار .

وقد امتازت دعوة الحسن الصباح في ذلك الحين بأنه استغل مبدأ التعليم من الإمام المعصوم . فادعى أنه لا يمكن لإنسان أن يعرف شيئاً عن طريق غير طريق الإمام أو نائبه . وما دام هو نائب الإمام فقد أصبح مصدر العرفان . وكان هذا المبدأ من العوامل التي شجعت الحسن الصباح على حمل السيف في وجه الدولة العباسية السفلية . كما لجأ إلى التأويل ، فأول القرآن للنزارية تأويلاً يتفق ونزعاته السياسية ، فاعتقد الدعاة أنه أحق بتعيينهم ، وقدرته المستجيون . كما استغل عقيدة الإمام ونائبه وحجته كشرط أساسي للدين الحق . ولذلك سمى أشياع هذه الدعوة الباطنية وسميت دعوتهم الدعوة الجديدة .

وقد راع الدولة العباسية خطر دعوة الحسن الصباح ، فحملت كثيراً من العلماء على الرد عليه . فألف أبو حامد الغزالي كتابه « المستظهرى » أو فضائح الباطنية ، ليرد به على النزارية بصدد نظريتهم في الإمام المعصوم .

وقد عمل الحسن الصباح على تنظيم جماعته تنظيمًا دقيقاً يضمن لها البقاء . ولذلك قسم جماعته إلى مراتب ودرجات ، وجعل المحبة والأخوة والمرحمة ، الرباط الذى يربط الأفراد الذين ينتمون إلى رتب دعوته على اختلافها ، وجعل الأعضاء شروطاً ، وحدد لهم حدوداً خاصة بهم . ولم يشأ أن يجند أتباعه جميعاً ليشرروا السلاح في وجه أعدائه ، بل جعل حمل السلاح مقصوراً على فئة امتازت بقوة أبدانها ، يهددون الأعداء بخناجرهم المسمومة ، فسموا الفداوية ، لأنهم يبذلون نفوسهم رخيصة في سبيل إمامهم ونائبه . أما أهم مراتب الدعوة النزارية فهي :

المرتبة الأولى أو مرتبة شيخ الجبل^(١) ، وعدد أفرادها سبعة ، منهم نائب الإمام ورئيس الدعوة الجديدة . فكان الحسن يلقب نفسه بلقب رئيس الدعوة ، ولا سيما بعد أن احتل

(١) وقد أطلق الصليبيون هذا التسمية ، أى شيخ الجبل فسموه الشيخ أو شيخ الجبل .

قلعة الموت في سنة ٤٨٣ هـ . كما اتخذ لقب مولانا وسيدنا وشيخ الجبل . وكان هو وحده الذي يعين الدعاة ويعزهم ، فأطلق عليه بعض الناس لقب داعي الدعاة . وكان سلطانه لا يحد : يصدر أوامره من الموت فيطيعها النزارية في كل مكان . وقد جعل وظيفة رئيس الدعوة مقصورة على المتفانين في الإخلاص للمذهب الإسماعيلي . ولم يجعل لمبدأ الوراثة أى اعتبار . كما تظاهر جماعته بالتقشف والورع والمحافظة على الشريعة ، حتى إنه قتل أحد أبنائه لانتهاكه بشرب الخمر .

المرتبة الثانية أو مرتبة كبار الدعاة ولا يجاوز عدد أفرادها ثلاثة ممن يثق الحسن الصباح بهم ثقة تامة ، لأنه قسم العالم أقساماً ثلاثة : جعل على رأس كل قطر أو « بحر » واحداً من هؤلاء الدعاة الثلاثة ، وهم أشبه بنظام أئمة المذاهب . على أنه لم يترك لهم شيئاً من الحرية ، بل ظل الرأس المدبر والعقل المفسر . ومن أشهر هؤلاء الدعاة الكبار كيا بزرگ أميد والحسين القمي ، وأبو طاهر .

المرتبة الثالثة وهو مرتبة الدعاة وهم أكثر عدداً من أفراد المرتبة الثانية ويتلقون أوامره من رؤساء الدعوة في الموت أو من كبار الدعاة في الأقاليم الثلاثة . وكانوا يتلقون العلم في مدارس القاهرة أول الأمر ، ثم ينتقلون إلى الموت ليتعلموا أسرار الدعوة . وقد اشترط الحسن الصباح في الداعي أن يكون بارعاً في التشكيك ، ماهراً في التلبيس ، ليخدعوا العامة ويدخلوهم في عقيدتهم . وقد كون هؤلاء الدرجات العليا ، وكانوا على علم بمقائد وأغراض وسياسة هذا النظام ، وكانوا على شيء من الإلمام بأسرار هذا النظام .

المرتبة الرابعة أو مرتبة الرفاق ، وكانوا على شيء من الإلمام بأسرار هذا النظام ، يتولون تنقيف الدعاة وإعدادهم لمهمتهم ، ويتفانون في المحافظة على المذهب ، متساهلين بأسلحة العلم من فقه ومنطق وفلسفة . وبلى هؤلاء اللصحاء أو الاتباع الذين أقسموا بيمين الطاعة والولاء دون أن يفهموا كثيراً عما ينطوى عليه هذا المذهب .

المرتبة الخامسة : الفداوية أو الفدائيون ، الذين كانوا يستخدمون في قتل الأعداء غدرًا ، ويضجون بأنفسهم فداءً لرئيسهم . ولا يشترط في الفداوى أن يتعمق في دراسة أسرار المذهب ، إنما يشترط فيه التفاني في طاعة الرئيس والتضحية إلى أبعد الحدود . فأصبحوا آلات انتقام فتاك ، وخلفوا عصراً مليئاً بالخوف والفرع . وكانوا يتصرفون بالشجاعة النادرة وحس المخاطر والعزيمة التي لا تقهر ، والصبر الذي لا ينفد ؛ يظل الواحد منهم يترقب الفرصة شهوراً بل سنين للفتك بعدوه . ويشترط في الفداوى أيضاً أن يكون من الشباب الأقوياء الذين يجيدون عدة لغات .

المرتبة السادسة : اللاصقون ، وهم ينتسبون إلى الدعوة ، ولكنهم ليسوا من الدعاة ولا من القداوية ، إنما يأخذون العهد على الناس دون أن يكون لهم حق نشر الدعوة .
ويأخذون العهد على المستجيبين دون أن يتعمقوا في فهم أصول المذهب .

المرتبة السابعة : المستجيبون ، وهم عامة الناس أو المؤمنون المبتدئون ، لا يعرفون الكثير عن المذهب الإسماعيلي . إنما عملهم الرئيسي زعزعة عقائد الناس ، وبث الذعر في نفوسهم .

وكانت الدعوة الزارية تسلح بأسلحة مختلفة لتنتشر بين الناس . فكان الدعاة يتوسلون بالوسائل الآتية :

١ — التفرس ، ويقصد به إدراك مكنونات النفس ، ويطلق على ذلك الاستيطان (من الباطنية) ليتبينوا قوة إرادة الفرد ومبلغ سهولة انقياده .

٢ — التأنيس وهو من الأنس وهو بعث الأمن والطمأنينة في نفوس المدعوين وإشباع ميولهم وإعطائهم كل ما يميلون إليه ، كل حسب ميوله .

٣ — التشكيك وهو زعزعة عقيدة المدعوين ، ويعتبر خطوة جريئة من أخطر الخطوات ، يستطيع بها الداعي أن يصل إلى قلب المرید فيزعزع عقيدته ويزلزل إيمانه .

٤ — التعليق وهو ترك المرید بعد تشكيكه متأرجحاً في عقيدته مشوقاً إلى معرفة المذهب الإسماعيلي ، حتى تستبين نفسيته وتعرف شخصيته .

٥ — التدليس ، وهو أن يلجأ الداعي إلى التويه ، ويدعى إدعاءات كاذبة تزيد في إغراء المرید وتشويقهم وإلهاب رغبتهم في الدخول في الدعوة .

٦ — التأسيس ، وهو تثبيت المعلومات والحقائق التي أدلى بها الداعي والمستجيب حتى تستقر في ذهنه ويقبل عليها ويؤمن بها .

٧ — الخلع يقصد به إقصاء المریدين عن المذاهب السنية نهائياً بإسقاط الفرائض الشرعية في الإسلام ، وذلك بالاستعانة بالنأويل غير المشروع .

توفي الحسن الصباح سنة ٥١٨ هـ بعد أن استقامت له الأمور ، وأقام دولة فريدة في نوعها ، تتكون من قلاع متناثرة في أقاليم مختلفة ، تقوم على نشر مذهب الزارية وتحارب أهل السنة وتناهض المستعالية بوجه خاص .

وهنا ينبغي أن نشير إلى العبارة التي وصف بها « ماركو بولو » هؤلاء الفدائيين في القرن الثالث عشر الميلادي ، في وقت كانت قوة الحشاشين في فارس قد قضى عليها مغول

هولاكو خان ، فاندثرت أو كادت (لأن الحشاشين في سورية استمروا حتى هذا الوقت) ويقول ماركو بولو إن الشيخ كان يسمى في لغتهم « علاء الدين »^(١) . وقد اتخذ له وادياً بين جبلين وجعله مقفلاً ، وحوله إلى حديقة غناء ، لها من جمال التنسيق والروعة والبهاء وفسحة الأرجاء ما لم تشهده عين من قبل . فيها من كل الثمرات ، وبها قصور شاهقات تكسوها نقوش زاهيات ، تجري من تحتها أنهار جاربات من خمر ولبن وعسل مصفى وماء فرات . وجاء فيها بغانيات فائتات ، اختارهن من أجمل ما في العالم من بنات ، عازفات على مختلف أنواع الآلات ، مطربات بأعذب الأصوات راقصات ساحرات بطريقة تخلب الالباب وتذهل العقول . لأن الشيخ أراد أن يجعل أنصاره يؤمنون حقاً بأن هذه هي جنة الفردوس . من أجل ذلك أنشأها وحاكها على ما وصف به محمد صلى الله عليه وسلم جنته ، إذ الفردوس يجب أن يكون حديقة فيحاء تجري من تحتها أنهار من الخمر واللبن والعسل والماء ، ملأى بحور النساء ، حتى لقد آمن أهل هذه الجهات بأنها الجنة التي لا يدخلها إلا من كان من أتباعه الحشاشين (أو الفدائيين) . وقام على مدخلها الوحيد الذي لا طريق للوصول إليه غير حصن منيع كفيلاً بأن يرد كل قوات العالم . وجعل الشيخ في حاشيته جماعة من شباب البلاد تراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين كما لو كانوا يختارون للتجنيد . وإلى هؤلاء الشبان يقص الشيخ القصص عن الجنة كما اعتاد النبي محمد من قبل ، وقد آمن هؤلاء الشبان بهذا الشيخ كما يؤمن المسلمون بنبوة محمد . وكان الشيخ يدخلهم في جنته زمرة زمرة تتألف من أربعة أو ستة أو عشرة في كل مرة ، فيسقيهم من منقوع الحشيش^(٢) ، فينامون نوماً عميقاً ، ثم يحملون إلى داخل الجنة . حتى إذا ما استيقظوا من سباتهم ووجدوا أنفسهم في هذه الحديقة وفي هذا المنظر الساحر ، آمنوا بأنها الجنة . وهناك تداعبهم الفتيات الحسان وتغازلهن كواكب البنات حتى يرضوا رغائب شباهم كما يعمل كل شاب على شاكلتهم . ولو أنهم خيروا لما برحوا هذا المكان .

(١) وهو بلا ريب يقصد داعي الدعوة أو الرئيس الأكبر في الموت ، وهو علاء الدين محمد بن الحسن الذي خلف أباه جلال الدين سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) .

(٢) ومن ثم أطلق على الشيخ « صاحب الحشيش » . ويستبعد براون (تاريخ الفرس الأدبي ج ٢ ص ٢٠٥ - ٢٠٦) أن شيخ الجبل قد شجع استعمال الحشيش (أو الأفيون أو أي مخدر آخر) لأنه يسبب الكسل والإهمال والضعف الذهني الذي لا يتناسب مع الواجبات الشاقة الدقيقة التي كان يعهد بها للمريدين . ولعل استعمال هذا المخدر اقتصر على إحدى الدرجات التي انقسم إليها نظام الاسماعيلية في فارس .

ولقد حرص هذا الأمير أو الشيخ كما نسميه على أن يجعل بلاطه بحيث تنجلي فيه مظاهر العظمة والجلال . كما جعل بسطاء الشعب الملتفين حوله يؤمنون بأنه نبي عظيم . حتى إذا أراد أن يبعث أحد مريديه من الحشاشين ، سقا أحد شبابه من مخدره ، ثم حمل إلى الحديقة . حتى إذا ما أفاق من غشيته وجد نفسه في القصر ثم في الجنة ولما يكن قد استكمل نشوته ، ثم يقتاد بعد ذلك إلى حضرة الشيخ ، فيخر أمامه راكعاً في كثير من التجلة ، معتقداً أنه في حضرة نبي مرسل . عند ذلك يسأله الشيخ من أين أتى ، فيجيبه أنه أتى من الفردوس ، وأنها الجنة التي وصفها محمد في القرآن . وكان طبعياً أن يفرى هذا السلام أولئك الذين لم يدخلوا الجنة ، فتتولد لديهم رغبة ملحة في دخولها . وهكذا إذا أراد الشيخ قتل أحد الأمراء ، قال لمثل هذا الشاب : إذهب فاقتل فلاناً ، وإذا ما عدت حملتك ملائكتي إلى الجنة ، وإن أنت مت فلا أقل من أن أرسل إليك ملائكتي لتعود بك إلى هذه الجنة . وبذلك أوجد الشيخ في نفوس مريديه رغبة جامحة في دخول جنته إذا ما حققوا له رغبته . وعلى هذا النحو ساق الشيخ رجاله إلى إعدام وقتل كل من أراد التخلص منه . وكان من أثر هذا الرعب الذي ألقاه في القلوب أن أصبح كل الأمراء من أتباعه ، ليسكبوا محبته ونقوم علاقته به على أساس المحبة والسلام وليتقوا شر الاغتيال .

وهذه الطاعة العمياء التي يتصف بها الفدائيون جعلت اختيارهم مقيداً بصفات خاصة تنحصر في الشجاعة والطاعة وعدم معرفة دقائق وأسرار هذا النظام بدرجاته الفلسفية العليا . ويظهر هذا في جلاء ووضوح فيما ذكره المؤرخون عن زيارة الكونت هنري دي شامباني Henry de Champagne ملك أورشليم لشيخ سوريا . ولما ذهبا يسيران يوماً رأيا بعض الصبيان في جلاليب بيضاء جالسين فوق ذروة برج عال ، فالتفت الشيخ إلى ضيفه الكونت يسأله عما إذا كان قد رأى رعية أطوع لسيدها من رعاياه . ودون أن ينتظر الكونت منه جواباً ، أو ما الشيخ بيده إلى صبيين ، فقفزا مسرعين من فوق البرج ليلقيا حتفهما في البقعة التي سقطا فيها .

ومع أن الفدائيين لم يتعلموا أسرار مذهبهم وخفاياه كانوا مدربين بعناية فائقة على حمل السلاح واستعماله . وقد تمودوا على تحمل المشاق وأساليب التنكر ، بل إنهم كانوا ملين أحياناً ببعض اللغات الأجنبية ، حتى اللغات الأوروبية ، لأن هؤلاء الذين ندبوا لاغتيال المركز كنزاد أمير مونت فيرات ، كانوا يتحدثون باللغة الفرنسية بدرجة كافية ، وكانوا يحملون جوازات مرور باعتبارهم رهباناً مسيحيين خلال ستة أشهر يقضونها في معسكر

الصليبيين ، منتهزين الفرصة لتحقيق أغراضهم . ويندر طبعاً أن يعيش هؤلاء الفدائيون بعد فرائسهم . وكانوا يقتلون الأمير المسلم في يوم الجمعة وفي المسجد أو بيت الله ، ويقتلون الأمير المسيحي أو الدوق في يوم الأحد وفي أقدم الأماكن لديه وهي الكنيسة على مشهد من جماعة المصلين . وفي عقيدة أتباع الحسن الصباح أن الموت في سبيل تحقيق أغراض « الشيخ » على هذه الصورة المروعة أشرف ميتة ، وفيها تأكيد لضمان السعادة ، حتى إن أمهات الفدائيين كن يبكين إذا عاد إليهم أبناؤهم أحياء يرزقون .

وكان تهديد الفدائيين لغيرهم في بعض الأحيان كافياً لقضاء مآربهم والوصول إلى غاياتهم . فإذا ماسار زعيم إلى معقل من معاقلم لمهاجمته ، فقد يستيقظ من نومه فيجد بجواره خنجرأ قد أغمد في الأرض ، وقد ألصقت به ورقة قد تكون كافية لطرده على أعقابهِ وتثنيه عن عزمه ، كما حدث ، على ما قيل — لملكشاه السلجوقي ، ولصلاح الدين الأيوبي ، ولو أن هذا القول بحاجة إلى ما يؤيده .

ولما اندثرت معاقل الفدائيين نهائياً ووقع شيخهم الثامن والآخر « ركن الدين خُرّشاه » أسيراً في أيدي المغول وأعدموه في الوقت الذي زالت فيه الخلافة العباسية في بغداد ، كان نشاط الحشاشين لا يزال على قوته .

وقد ذكر ابن الأثير^(١) أن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه استولى على قلعة الموت سنة ٥٢٤ هـ .

أما عن فرقة الحشاشين في سورية فقد جعلت لهذا النظام شهرة في أوروبا وأضاف إلى لغاتها كلمة جديدة . ويبدأ تاريخ هذه الفترة السياسية بالاستيلاء على قلعة بانياس حول سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م)^(٢) .

وهذه القصة الحقيقية عن الشيخ « راشد الدين سنان » المشهور الذي جعل الفرع السوري من هذا النظام مستقل عن النظام الفارسي قد أمدتنا بمعلومات تعد من أقوى القصص تأثيراً في النفوس وبتفاصيل وافية تتصل بتاريخ هذا المذهب وما قام به دعاة من أعمال وما أدخلوه على أنظمتهم من أساليب .

(١) راجع (J. A. 1877) S. Guyard, Un grand Maître des Assassins

أي « أحد عظماء شيوخ الحشاشين » (المجلة الآسيوية الفرنسية ١٨٧٧) .

(٢) السكامل ج ١٠ ص ٢٥٤ .

وحتى هذا اليوم لا يزال أعقاب هذه الفرقة القوية برغم تشتتها منتشرة فى الشرق : فى سوريا وفارس وخراسان وفى شرق أفريقيا وفى أواسط آسيا والهند ، حيث نجد « أغاخان » الذى يرجع نسبه إلى ركن الدين خورشاه آخر شيوخ ألموت الذى ينتمى إلى نزار بن المستنصر الفاطمى من سلالة إسماعيل ، الإمام السابع من طائفة الإمامية السبعية أو الإسماعيلية والذى يرجع نسبه إلى على وفاطمة .

من كل ما تقدم نرى أن طائفة النزارية انتشرت فى بلاد فارس وخراسان والشام . ولم يقتصر نشاطهم على هذه البلاد ، بل امتد نفوذهم الروحى منذ أيام الحسن الصباح إلى بلاد الهند نفسها . فقد كونوا لأنفسهم دولة ذات طابع خاص ، وقاموا بدور كبير فى حياة سلاطين السلاجقة وفى حياة الخلفاء الفاطميين والعباسيين . كما كان لهم أثر بعيد فى الحروب الصليبية ، ووقفوا فى وجه المغول فى فارس . ولما انتهى أمرهم بقتل زعيمهم وإمامهم ركن الدين خورشاه سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) لم تستسلم جميع قلاع « الدعوة النزارية » ، بل بقى منها قلاع حمل دعائها السلاح فى وجه المغول ، واشتركوا مع المماليك فى موقعة عين جالوت وغيرها من المواقع .

وقد مر تاريخ النزارية فى العصر الذى أفردناه لهذا الجزء من كتابنا (٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) بدورين ، يعرف أولهما بدور الستر الأول كما يعرف بدور الدعاة ؛ ويعرف الدور الثانى بدور الظهور الأول أو دور الأئمة .

أما دور الستر الأول أو دور الدعاة (٤٨٨ — ٥٥٩ هـ) ، فيبدأ بمقتل نزار بن المستنصر ، ويمتاز بأن رياسة الدعوة كانت فى أبهى جماعة من كبار دعاة النزارية ، هم الحسن الصباح (ت ٥١٨ هـ) وخليفته ألكيازر (بسكون اللام وكسر الكاف وضم الباء وفتح الزاى حميد) بضم الجيم وفتح الميم وسكون الياء (٥١٨ — ٥٣٢ هـ) ، وابنه محمد الأول (٥٣٢ — ٥٥٧ هـ) . وفى هذا الدور كان هؤلاء الدعاة يدعون للأئمة المستورين من أبناء نزار ، معارضين فى ذلك الخلافة والإمامة الفاطمية .

وأما الدور الثانى أو دور الظهور الأول أو دور الأئمة فيبدأ بإعلان الحسن الثانى رئيس الدعوة النزارية (٥٥٧ — ٥٦١ هـ) الإمامة ، وادعائه بأنه من سلالة نزار بن المستنصر ، فسمى نفسه القاهر بن الهادى بن نزار . ومن ذلك الحين أصبح رؤساء الدعوة

الزارية يعرفون بالائمة بعد أن كانوا يلقبون بالرؤساء أو الدعاة ، وقد جاء بعد القاهر أربعة من الأئمة هم : محمد الثاني (٥٦١ — ٦٠٧ هـ) ، وجلال الدين حسن (٦٠٧ — ٦١٧ هـ) ، وعلاء الدين محمد (٦١٧ — ٦٥٣ هـ) ، وركن الدين خورشاه (٦٥٣ — ٦٥٥ هـ) .

وفي هذا الدور نرى هؤلاء الأئمة يعملون على أن يرثوا الفاطميين في الأمور السياسية والدينية ، وأن يقفوا في وجه العباسيين باعتبارهم الوارثين الحقيقيين لعلی وفاطمة وأبنائهما من بعدهما ، واستطاعوا بذلك أن يقوموا بالدور الذي تقدمت الإشارة إليه .

على أن تاريخ الزارية لم ينته بمقتل ركن الدين خورشاه وانقضاء دور السرة الأولى أو دور الأئمة سنة ٦٥٥ هـ ، فقد دخل هؤلاء الزارية أنفسهم في دور جديد يعرف بدور السرة الثانية ، وبدأ من سنة ١٢٥٧ م وينتهي في سنة ١٨١٧ م وذلك بظهور الإمام الزاري الجديد محمد حسين (١٨١٧ — ١٨٨١) الذي تلقب بلقب آغاخان . وقد انتشرت الزارية في عهد السرة الثانية في فارس وخراسان وفي الهند .

وعلى الرغم من الغموض الذي يكشف تاريخ هؤلاء الزارية بدأ تاريخهم في الظهور منذ مستهل القرن التاسع عشر ، بدليل أن بعضهم تقلد الحكم في بعض الولايات الفارسية . فقد تقلد الشاه خليل الله مثلاً ولاية كرمان . ويتولى الشاه (١) محمد حسين إمامة الزارية في سنة ١٨١٧ تزوج من ابنة فتاح علي شاه فارس . وقد قيل إنه طمع في الوصول إلى العرش عن طريق زوجته . واضطر محمد حسين إلى الهجرة إلى أفغانستان بعد أن أخفق في الثورة التي أشعلها في جنوبي فارس ، لأن وزير هذه البلاد كان قد طلب الزواج من ابنة هذا الإمام ، فرفض طلبه لأنه عده غير كفء لابنته .

وقد قام محمد حسين بمساعدة الإنجليز في فتح أفغانستان ، فنهجوه معاشاً ضخماً ولقبوه بصاحب السمو آغاخان . ولم يكتف الإنجليز بذلك ، بل إنهم عملوا على تقوية الرابطة بينه وبين أتباعه في بلاد الهند وغيرها .

وبعد وفاة علي شاه بن محمد حسين (١٨٨١ — ١٨٨٥) تولى رئاسة الزارية آغاخان محمد شاه جد صدر الدين بن علي الآغاخان الحالي . ويشتهر كل من هؤلاء بكثرة زيارتهم

(١) يلاحظ أن هذا اللقب كان نوعاً من التستر لإحاطة الأئمة الزارية بنوع من الغموض بخلاف لقب شاه الذي يطلق على ملوك فارس .

لأتباعهم الذين يعرفون باسم « الخوارج ». وينتشر هؤلاء الاتباع في الهند ، وعلى الأخص في ولايات بمباي وكلكتا والبنجاب وكشمير وأحد آباد وسورات وغيرها ، كما ينتشر بعضهم في فارس وأفغانستان وعمان وسائر بلاد الخليج العربي ، وفي شرق القارة الإفريقية ولا سيما في زنبار .

من ذلك نرى أن الخوارج اليوم وعلى رأسهم أغاخان يمثلون طائفة النزارية أتباع نزار بن المستنصر ، كما يمثل البهرة طائفة الطيبة أتباع الإمام الطيب بن الأمر بن المستعلي . والخوارج أو الأغاخانية يمثلون الدعوة الجديدة ، على حين يمثل البهرة الدعوة القديمة .

(٥) الدعوة الطيبة في اليمن

نهج أنصار الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن نهج أنصار الدعوة الفاطمية في فارس وخراسان والشام . فقد نادى أهل اليمن من أنصار الخليفة المستعلي بابنه أبي القاسم ، وكان صغيراً ، ونقلوه إلى بلادهم في سنة ٥٢٦ هـ ، وأقاموا الدعوة له ولقبوه الإمام الطيب ، ولم يعترفوا بإمامة الخليفة الحافظ . وبذلك أسسوا الدعوة الطيبة في اليمن ، وساروا في ذلك الأمر على منوال أنصار نزار بن المستنصر في فارس الذين لم يعترفوا بإمامة أخيه المستعلي ونقلوا إليها أحد أبناء نزار وأسسوا الدعوة النزارية في فارس وخراسان والشام . ولم يقتصر نفوذ الطيبة على بلاد اليمن . فقد قامت الدعوة للطيب بمصر في بادئ الأمر ، ونقشت الدنانير باسمه في الإسكندرية سنة ٥٢٥ هـ . وقد جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار في الإسكندرية سنة خمس وعشرين وخمسمائة .

أبو القاسم المنتظر بأمر الله أمير المؤمنين

الإمام

محمد (١)

وهذا يدل على أن أنصار الطيب اتخذوا مدينة الإسكندرية أولاً مركزاً لحركتهم مستقراً لدعوتهم .

وبذلك خرجت بلاد اليمن عن طاعة الخليفة الحافظ الفاطمي ولم تعترف بشرعية حكمه أو أحقيته بالخلافة والإمامة ، لأن المملوك الحرة أروى الصليحية كانت قد تلقت من الأمر

Lavoix, Catalogue des Monnaies musulmanes, p. 163, pièce (١)
no. 489.

كتاباً يبشرها فيه بمولد ولي عهده ، فعرفت أن الحافظ اغتصب الخلافة وأنه لاحق له في إقامة الدعوة الإسماعيلية التي انقسمت بسبب ذلك إلى مستعلية نسبة إلى المستعلي ، وطيبية نسبة إلى الإمام الطيب بن الأمر وحفيد المستعلي .

وقد عمل الخليفة الحافظ على مناوأة الدعوة الطيبية في اليمن ، فاستعان ببني زريع^(١) الذين ظلوا على ولائهم للحافظ وخلفائه ، كما ظلوا يقامون الدعوة الطيبية حتى أبطل نواب صلاح الدين الأيوبي هذه الدعوة كما ذكرنا .

ومن أهم ما يمتاز به الدعوة الطيبية في ذلك العصر ، أنها كانت تدعو إلى إمام مستور . هو الطيب وأبنائه من بعده على حين دعا بنو زريع إلى إمام ظاهر ، هو الحافظ وخلفاؤه من بعده .

ومن أهم ما يمتاز به الدعوة الطيبية أيضاً انفصال الدعوة عن الدولة . فقد أصبح الصليحيون ، ولا سيما في عهد الملكة السيدة أروى (بفتح الالف مع الهضمة والواو وسكون الراء) الصليحية ، يمثلون الدولة ، على حين أصبح الداعي المطلق يمثل الدعوة نفسها ، الأمر الذي أدى إلى اتساع نفوذ هذا الداعي بين أنصار الدعوة الطيبية . ولا عجب في ذلك ، فقد أصبح هذا الداعي يمثل الإمام المستور ، يعنون بذلك الطيب وأبنائه .

وإذا وازنا بين مركز الداعي الكبير لاماك بن مالك ومركز ذؤيب بن موسى الوادعي الداعي المطلق من حيث أثر كل منهما في الدعوة الإسماعيلية في اليمن ، وجدنا أن مركز الأول لا يتعدى الدعوة والدعاة هناك ، بحيث إنه كان يستمد تعاليمه ، وأصول الدعوة من داعي الدعاة في مصر . أما الثاني فقد كان بالإضافة إلى ذلك يعتبر المنبع الأوحد لعلم الإمام المستور ومعارفة . فلا تجد داعب يكتب في التأويل إلا بعد الرجوع إليه ، بعد أن كان ذلك مباحاً للجميع قبل عصر الدعوة الطيبية . ومن ثم أصبحت الطريقة الوحيدة لبقاء أصول المذهب الإسماعيلي مقصورة على دراسة آداب الدعوة . فلم تعد حاجة إلى مؤلفات يتجه فيها مؤلفوها نحو التجديد ، بل لقد أصبح من الواجب أن يقتصرُوا على ما ورد في كتب الدعوة القديمة والمحافظة عليه واختصاره ونشره في مؤلفات سهلة المنال^(٢) . (Compendiums)

(١) يضم الزاى وفتح الراء وسكون الياء .

(٢) Hamdani, Some Un Known Ismaili Author (JRAS, 1933), p. 36c.

لذلك رأى القائمون بالدعوة البينية من واجهم أن يعملوا ما استطاعوا للحصول على المؤلفات الإسماعيلية القديمة والمحافظة عليها بإخراج هذه المختصرات . ولهذا نستطيع أن نجد المعلومات التي تضمنتها فلسفة إخوان الصفا ، وهم إسماعيلية في ميولهم ، وفي أبحاث الداعي أبي حاتم الرازي ، وأبي يعقوب السجستاني الداعي ، وأحمد حميد الدين الكرماني وغيرهم من قدامى الدعاة وأعلامهم ، بل في الأبحاث التأويلية للقاضي جعفر بن منصور البين والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، يرى الباحث كل ذلك في مؤلفات الدعاة في عصر الدعوة الطيبية . ولم يكن هذا كله إلا لأن بقايا الإسماعيلية المستعيلة من أنصار الخليفة المستعلى بن المستنصر وإنه الأمر يرون أن الإمامة الفاطمية لم يعد لها وجود منذ استنار الإمام الطيب ، وأن تراث الدعوة القديمة يجب المحافظة عليه على هذا النحو الذي أنثرنا إليه^(١) .

ومن أهم الكتب التي تمثل هذا الأسلوب الجديد كتاب « عيون الأخبار » للداعي عماد الدين إدريس بن الحسن بن الوليد (٧٩٤ — ١٣٩٢/٨٧٢ — ١٤٦٨) فقد بحث فيه تاريخ الدعوة الإسماعيلية وتطوره . وبعد هذا الكتاب أحسن كتاب وضع في هذه الناحية . ولعماد الدين كتب أخرى ألفها على غرار مؤلفات الدعوة القديمة .

كما تمتاز الدعوة البينية في هذا الدور بأنها كانت قوية في البداية ، إذ كانت تعضدها وتشدها من أزرها قوة الصليحيين السياسية . إلا أنها لم تنل مثل هذا التأييد في أخريات هذا الدور بسبب ما تعرضت له جماعة الإسماعيلية من ضعف ووهن نتيجة لزوال نفوذ الصليحيين وبني زريع في اليمن على يد عبد النبي بن مهدي^(٢) . ثم على يد تورانشاه بن أيوب . فأخذ أنباع الدعوة البينية في هذه البلاد يتحولون تدريجياً إلى جمعية سرية دبنية كل همها أن تعيش عيشة هادئة وأن تحتفظ بتراث هذه الدعوة .

وكذلك نستطيع أن نتميز عنصراً آخر جديداً في هذه المرحلة . هو أن اليمن لم تقطع صلتها تماماً بمصر ، إذ بقي بنو زريع على ولائهم لخلفاء مصر (نواب الأئمة) حتى قضى ابن مهدي على سلطانهم على ماسبق . وبعبارة أخرى نرى أنه على الرغم من أن أنصار الدعوة البينية في اليمن كانوا يعتبرون المحافظ ومن جاء بعده من الخلفاء خارجيين على الدعوة البينية

(١) Hamdani Ismaili Esoteric (Islamic Culture, 1927), p. 211.

(٢) كان أبوه مهدي يدعى أنه إسماعيلي وأنه أحد دعاةهم (ابن الجوزي : مرآة الزمان) . وفي الحق أن المهدي وإنه كانا خارجين على المذهب الإسماعيلي ولم يكون ولم يكونا إسماعيليين .

أو الإمامة الحق التي تتمثل في الطيب المستور - على الرغم من ذلك ظل آل زريع يخطبون على منابرهم باسم هؤلاء النواب . لهذا نستطيع أن نقول إن آل زريع كانوا يمثلون الجانب الظاهري من الدعوة المستعلية ، على حين يمثل أنصار الدعوة البينية الجانب السري منها . يتضح ذلك من هذه العبارة التي نقلها عمارة النبي عن الملكة الحرة الصليحية إذ يقول : « ثم نقلت السيدة دعوة الحافظ إلى آل زريع » وقالت : « حسب بني الصليحي ما علوه من أمر مولانا الطيب » . ثم صارت الدعوة البينية في أبناء حاتم بن إبراهيم إلى هذا الوقت (١) ، أي إلى نهاية القرن السادس الهجري .

وقد ظلت الدعوة الطيبية تعمل في الخفاء في بلاد اليمن ، كما انتقلت هذه الدعوة إلى بلاد اليمن حيث يمثلها هنا وهناك البهرة الذين ينتظرون الإمام من أبناء الطيب . ويشتهر البهرة بالتجارة ويختلفون مع الخوارج أتباع أخاخان (٢) . ولا غرو فإن البهرة يدعون للإمام الطيب حفيد المستعلي ، ويدعو الخوارج لإمامهم أغاخان الذي يرجع نسبه إلى نزار بن المستنصر .

(٦) الدعوة المرابطية :

كان يحيى بن إبراهيم الجدالي رجلاً صالحاً متحمساً للإسلام عاملاً على نشره توافاً إلى النزود بأحكامه وقد رحل عن بلاده لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول سنة ٤٤٠ هـ . وفي طريق عودته إلى بلاده مر بمدينة القيروان بإفريقية (وهي بلاد تونس الآن) ، مركز إفريقية العلي إذ ذلك ، والتقى فيها بالشيخ الصالح أبي عمران الفارسي ، وكان من فقهاء المالكية ، وانضم إلى حلقة دروسه . ولما رأى أبو عمران ميل يحيى للعلم ، سأله عن اسمه وقبيلته ووطنه ، فأجاب أنه يحيى بن إبراهيم من جدالة إحدى قبائل صنهاجة الجنوب (٣) . وقد ارتاع أبو عمران حين اختبر يحيى بن إبراهيم في بديهيات الإسلام وعرف أنه لا يفقه منها شيئاً ولا يحفظ من الكتاب والسنة حرفاً على الرغم من أنه أمير قومه . غير أنه « صحيح النية والعقيدة واليقين ، جاهل بما يصلح دينه » فقال له أبو عمران : وما يمنعك

(١) تاريخ عمارة النبي ص ١٠٢ .

(٢) وهم النزارية المحدثون .

(٣) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (مؤلف مجهول الاسم) ص ٩ .

من التعلم ؟ قال يحيى : « ياسيدى ! إن أهل بلادى قوم عنهم الجهل ، وليس فيهم من يقرأ القرآن . وهم مع ذلك يحبون الخير ويرغبون فيه ويسارعون إليه ، لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم ويدعوهم إلى العمل بالكتاب والسنة ويعلمهم شرائع الإسلام ويدين لهم سنن النبي صلى الله عليه وسلم . فلو ابتغيت الثواب من الله تعالى بتعليمهم الخير ، لبعثت معى إلى بلادنا بعض طلبتك ، يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين . فيكون لك في ذلك الأجر العظيم والثواب الجسيم إذ تكون سبباً لهدايتهم » (١) .

وقد تأثر الفقيه أبو عمران العاسى بكلام يحيى بن إبراهيم وهم بتلبية طلبه ، لأنه رأى في ذلك تقرباً إلى الله بنشر دينه وإشاعة الخير بين أهل هذه البلاد الذين تفتشت فيهم الجهالة . ولما عرض الفقيه أبو عمران هذا الأمر على تلاميذه الناهين لم يوافقوه أحد منهم لبعد الشقة وإشغافهم من دخول الصحراء ، فدلّه الفقيه على رجل من فقهاء المغرب يدعى « واجاج بن زللو » اللمطى ، وكان يقيم بمدينة نفيس (٢) ، (يفتح النون وكسر الفاء) وهو فقيه من أهل السوس الأقصى ، أخذ العلم عليه وانقطع للعبادة والعلم ، وأسس مدرسة للمالكية في بلده وكثر عدد تلاميذه . وقد بعث أبو عمران القاسى مع يحيى بن إبراهيم برسالة إلى واجاج فرحب به وأكرمه ودله على أحد تلاميذه وهو الشيخ عبد الله بن ياسين الجزولى ، فقبل الذهاب مع يحيى بن إبراهيم التتوفى إلى الصحراء حيث مواطن جدالة والمتونة .

عرف عبد الله بن ياسين الجزولى فهدى المرابطين بالتبحر في العلم . والتفقه في الدين . وكان فوق ذلك زعيماً شجاعاً وقائداً مقداماً ومجاهداً مخلصاً (٣) . وقد أهلته هذه الصفات الممتازة لإرساء أساس الدولة المرابطية التي خدمت الإسلام ونشرت أحكامه الصحيحة في الجنوب المغربى وفي السودان ثم ولت وجهها شطر الشمال ، تجددت عزة الإسلام في الاندلس وأعادت شوكلته ولاسيما في عهد يوسف بن تاشفين .

ولما رأى عبد الله بن ياسين ما كانت عليه لمتونة من القوة والرغبة في الدين قال لهم : « إنكم إن صرتم ونفذتم دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد فتحتم ما كان أمامكم

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ٩ .

(٢) الحلل الموشية ص ٩ — ١٠ .

(٣) الكامل ج ٩ ص ٢٣١ .

ستفتحون إن شاء الله ماوراءكم » وأمرهم بالخروج من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة، وكان أهلها تحت طاعة أمراء مغراوة (بكسر الميم وسكون الغين) الزناتية . وكان بين لمتونة بقيادة عبد الله بن ياسين وبين مغراوة حروب كثيرة^(١) .

تدرع عبد الله بن ياسين بالصبر في نشر دعوته . ولم يكد يستقر به المقام في بلاد لمتونة وجدالة حتى أخذ يعلمهم الدين ويبين لهم شرائعه . ولما رأى أن البربر في ذلك الوقت كانوا يهملون شعائرهم الدينية ، أخذ يحثهم على إصلاح سلوكهم ، فأعرضوا عنه ، ففكر في الرحيل عن ديارهم^(٢) . ولكن يحيى بن إبراهيم الجدالي تشبث ببقائه وقال له : « إني لا أتركك تنصرف وإنما أتيت بك لانتفع بعلمك في خاصة نفسي وديني ، وما على فيمن ضل من قومي . ثم أشار على عبد الله بن ياسين بأن يقرأ بدينهما ويعتصما بجزيرة نهر السنغال^(٣) بنواها رباطاً اتخذوه مركزاً لعبادتهم ، وأخذوا يعلمون الناس التفقه في دينهم والمحافظة على شعائرهم والإقلاع عن عاداتهم المخالفة للدين .

وسرعان ما تجمعت حول عبد الله بن ياسين طائفة من تلاميذه ، وخاصة من جدالة ومسوفة وملتونة أخذت في الزيادة حتى بلغت نحو ألف شخص قاموا على نشر مبادئ الإسلام . ومن كلمات عبد الله بن ياسين المأثورة قوله لتلاميذه .

« اخرجوا على بركة الله ، وأنذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته . فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلموا عما هم عليه ، نخلوا سيديهم ، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم ، استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا »^(٤) . وتعتبر هذه العبارة منهاجاً أساسياً وضعه عبد الله بن ياسين لدعاة المراتب من بعده .

(١) الحلل الموشية ص ١١ .

(٢) ذكر ابن الأثير (الكامل ج ٩ ص ٢٣١) أن اللمتونيين رحبوا يحيى بن إبراهيم وبعبد الله بن ياسين الذي أخذ يعلمهم عقائد الإسلام وفرائضه فقالوا : « ما ذكرت من الصلاة والزكاة فصحيح فهو قريب ، وأما قولك من قتل يقتل ومن سرق يقطع ومن زنى يجلد أو يرجم فأمر لا نلتزمه ، إذ هب إلى غيرنا » .

(٣) ويذكر ابن خلدون (العبر ج ٦ ص ١٨٣) عند كلامه على هذه الجزيرة : « وأخذهم أبوبكر ، فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط ببحر النيل من جهاتها ضحاحاً في المصيف وغمرأ في الشتاء » . ولعل ابن خلدون قد وقع في هذا الخطأ الذي وقع فيه الشريف الإدريسي (كتاب المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٨) إذ كان يطلق اسم النيل على نهر النيجر .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٤ — ١٦ . أنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة المؤلف ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

وأخيراً قاد عبد الله بن ياسين أتباعه وسماهم المرابطين لزومهم رابطة ، وأخذ يعلمهم القرآن والسنة وأحكام الدين : وهذا الاسم مأخوذ من الرباط ، أى الخلوة التى اتخذها عبد الله بن ياسين فى جزيرته بنهر السنغال . هذا ما ذكره صاحب القرطاس . أما ابن عذارى (بكسر العين) فإنه يرى رأياً آخر فى هذه التسمية ، حيث يذكر أن تسمية المرابطين بهذا الاسم ترجع إلى موقعة حربية استبسلت فيها قبيلة لمتونة الصنهاجية ، فأطلق عليهم عبد الله ابن ياسين اسم المرابطين لصبرهم وحسن بلائهم ورباطة جأشهم^(١) .

وذكر ابن الأثير^(٢) أن عبد الله بن ياسين عقد لأبى بكر بن عمر شيخ لمتونة اللواء وسماه أمير المسلمين ، وحث من حسن إسلامه قومه على الجهاد فى سبيل الله وسماهم المرابطين . ويرجع استعمال لفظ رباط إلى زمن أبعد من هذا . ومعنى المرابطين : الاتقياء المجاهدون فى سبيل الله . وهذا اللفظ مأخوذ من الرباط ، وهو حراسة الحدود ، حيث كان يذهب المخاضون للدين لمساعدة حامياتها . وقد ورد لفظ رباط فى القرآن الكريم حين أذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالجهاد ، أى القتال فى سبيل الله ، وذلك لتأمين الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ضد من يقف فى سبيلها ، فقال جل شأنه فى سورة الأنفال (٢٢ : ٣٩ - ٤٩) (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوفِّ إليكم وأنتم لا تظلمون) .

كان الأثر الدينى فى قيام دولة المرابطين أقوى من الأثر السياسى ، إذ كانت الروح الدينية تقوم على الجهاد . ولم يكن « أمير المسلمين » الذى تلقب به أمراء المرابطين غير ملك مجاهد . وكان المجلس الاستشارى يتألف من رجال الدولة ، وكان الفقهاء من أبرز أعضاء هذا المجلس . وقد ظهرت هذه الحياة الدينية فى رباط السنغال ، وهو المكان الذى يربط فيه المسلمون للجهاد ويدافعون عن الدين وعن البلاد . وكانت هذه الرابطة تقام فى الأماكن التى يخشى فيها من هجمات الأعداء . ثم تحول هذا اللفظ إلى « ثغر » أى مدينة حصينة . على أن الرباط قد أصبح له معنى آخر فى شمالى إفريقيا . فقد كان فقهاء المالكية يلقون دروسهم بمساجد القيروان من أجل الدفاع عن مذهب مالك ودعوة الناس إلى

(١) أحمد مختار العبادى : مجلة تطوان ، العدد الخامس ١٩٦٠ س ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) الكامل ج ٩ س ٢٣٢ . انظر ما ذكرناه عن هذه التسمية بصدد كلامنا على الدولة

المرابطية (الباب الثالث من هذا الكتاب) .

الزهد والتعبد، وضربوا المثل بأنفسهم وبالإمام مالك . وقد فضل كثير منهم أن يعتزل حياة المدن التي سادتها الاضطرابات السياسية والفوضى وفساد العقيدة ويرحلون إلى رباطات ينقطعون فيها إلى العبادة وتلقي العلوم الدينية . ولعل هذه الرباطات كانت في بداية أمرها على هذه الصفة بمثابة رد فعلي سلبي ضد المذاهب الجديدة التي تختلف مع المذهب السني كالمذهب الشيعي والمذهب الخارجي البرغواطي . وإذا كانت الرباط قد ظلت كذلك في إفريقية والمغرب الأوسط حيناً من الدهر ، فإنها في المغرب الأقصى قد تحولت من ربط للزهد وتدريس العلم إلى مراكز حربية لكفاح المذاهب الأخرى . وقد امتاز رباط السنغال بأنه لعب دوراً هاماً في ثلاث من النواحي ، إذ كان المؤمنون يتلقون فيه العلم ، ويتعبدون فيه ويتطلعون إلى جهاد المشركين والقضاء على عناصر الفتنة في شمالي المغرب . وبذلك كان رباط السنغال مدرسة ومعبدًا ونواة لدولة لعبت فيها بعد دوراً بعيد الأثر في تاريخ المغرب والأندلس معا . وفي رباط السنغال تشكل الجهاز السياسي الأول الذي جمع عدداً من الشيوخ والفقهاء ، على رأسهم يحيى بن إبراهيم الجدالي وعبد الله بن ياسين . وإذا كان عبد الله بن ياسين رجلاً فقه من حيث تكوينه الديني ، فقد كان من الناحية العملية القوة الدافعة للحركة المرابطية من الناحية السياسية أيضاً ، لأنه هو الذي وحد بين قبائلهم ووضع لهم الخطط الحربية في الوقت الذي كان يحيى بن إبراهيم الموجه السياسي من الناحية النظرية لحسب .

ولم يلبث عبد الله بن ياسين أن أخضع جميع الصحراء ، وكون جيشاً كبيراً وجمع أموالاً ضخمة من الغنائم وتوَدَدَ إلى قبيلة مصمودة ، وبعث بأموال عظيمة من الزكاة والأعشار والاختاس إلى طلبة المصامدة وقضاتها .

ولم يكن الأمير أبو بكر بن عمر المتوفى أقل حماساً في نشر الإسلام من سلفيه عبد الله ابن يتفاوت ويحيى بن إبراهيم . فلم يكذب على منصبه الجديد في رئاسة المرابطين حتى أمره عبد الله ابن ياسين بالجهاد في سبيل الله . « وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين ، كثير الطاعة له فيما يأمره به وينهاه عنه : فمن حسن طاعته له أنه قال له يوماً : وجب عليك الأدب قال له : فم ياسيدي ؟ قال له : لا أعرفك به حتى آخذه منك . فكشف له (يحيى بن عمر) عن بشرته ، فضربه عشرين سوطاً ثم قال : إنما ضربتك لأنك باشرت القتال وأصليت

الحرب بنفسك ، وذلك خطأ منك . فإن الأمير لا يقاتل ، وإنما يقف ويحرض الناس ويقوى نفوسهم ، فإن حياة الأمير حياة عسكر وموته فناء جيوشه (١) .

وهذه العبارة إن دلت على شيء فإنما تدل على تفاني يحيى بن عمر في الإخلاص لدعوة عبد الله بن ياسين وشدة طاعته له ، كما تدل على إلمام عبد الله بن ياسين بأساليب القتال وإدارة دفة المعارك الحربية .

وقد ظل يحيى بن عمر منقاداً لرعيمة الروحي عبد الله بن ياسين ، واستولى المرابطون على جميع بلاد الصحراء ، وغزوا بلاد السودان ، واتجهوا صوب الشمال ، ففتحوا درعة وبجلماسة وقضوا على أهل البدع وأحلوا محلها أحكام الإسلام . ولم يذهب عبد الله بن ياسين إلى بجلماسة ودرعة حتى استنجد به الفقهاء وكتبوا له وليحيى بن عمر وشيوخ المرابطين كتاباً يطلبون إليهم أن يقوموا بفتح بلادهم وتطهيرها من الآثام وتخليصها من عسف أمراء زنانه . فلما وصل هذا الكتاب إلى عبد الله بن ياسين جمع شيوخ المرابطين وقرأ عليهم وشاورهم في الأمر فقالوا : « أيها الفقيه ! هذا مما يلزمنا ويلزمك ، فمر بنا على بركة الله ، فدعاهم بخير وحضهم على الجهاد » . وقد كتب الله النصر للمرابطين على أمراء مغراوة الذين كانوا يحكمون درعة وبجلماسة ، واستولوا على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم ، وقام عبد الله بن ياسين بتوزيع الغنائم على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، إذ أخرج الخنس وقسمه على فقهاء درعة وبجلماسة وأهل التقوى والصلاح . ثم وزع الأربعة الأقسام الباقية على المحاربين (٢) .

وبما هو جدير بالملاحظة أن هذا الغزو لم يكن غزواً سياسياً يرمى إلى التوسع الإقليمي وبسط سلطان المرابطين السياسي ، وإنما كان جهاداً في سبيل الله ونصرة دينه .

وفد استشهد الأمير يحيى بن عمر في إحدى غزواته سنة ٤٤٧ هـ ، فقلد عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر اللبتوني قيادة الجيش المرابطي (المحرم سنة ٤٤٨ هـ) ، وأمره بغزو بلاد السوس والمصامدة . وفي شهر ربيع الثاني من سنة ٤٤٨ هـ عين أبو بكر بن عمر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي لمع نجمه وعلا شأنه في الدولة المرابطية . واستطاع أبو بكر بن عمر في زمن قصير أن يستولى على معاقل بلاد السوس ويخضع قبائلها :

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٢ .

ففتح جزولة وماسة وتارودانت قاعدة السوس وخلصها من أيدي الشيعة البجالية . ثم اتجه أبو بكر لحرب قبائل المصامدة ، ففتح جبل دَرَن ومدينة نفيس وسائر بلاد جَدْمِيَّة . ووفدت عليه القبائل فبايعته ، ثم سار إلى مدينة أغمات ، وبها يومئذ أميرها لَقُوط بن يوسف بن علي المغراوي الذي لم يستطع مقاومة المرابطين ، ففر إلى أبناء عمومته بني يفرن ملوك سلا وتادلا (بسكون الدال) . واستطاع المرابطون أن يدخلوا مدينة أغمات سنة ٤٤٩ هـ ، واتخذوها حاضرة لهم حتى تأسست مدينة مراکش .

ثم اتجه عبد الله بن ياسين إلى تامسنا^(١) حيث كانت قبائل برغواطة تقيم بساحلها وتستعد للقائه . وقد أوغلت هذه القبائل في الكفر والضلالة ، وكان بعضها يدين بالمجوسية فقاتلها عبد الله بن ياسين لانضوائها تحت لواء الإسلام . وكان البرغواطيون بقيادة أبي جعفر عبد الله من سلالة اليسع بن صالح بن طريف المتنبئ الكذاب^(٢) . وكانت بيته وبين عبد الله بن ياسين حروب طاحنة أصيب فيها عبد الله بن ياسين بضربة أودت بحياته . ولما حضرته الوفاة قال للمرابطين :

(١) يطلق هذا الاسم على الناحية الممتدة بين سلا وآسفي في سهول المحيط الأطلسي ولا سيما في سهول الشاوية الحالية جنوبي الدار البيضاء .

(٢) ذكر ابن أبي زرع (روض القرطاس ج ٢ ص ٢٥ : ٢٦) أن صالح بن طريف ينتمي إلى أصل يهودي ، وأن موطنه الأصلي بلاد الأندلس . وقد أسلم في عهد هشام بن عبد الملك بن مروان ، ورحل إلى المشرق ودرس العلوم الإسلامية ، ثم قدم بلاد المغرب ونزل بلاد تامسنا فوجد بها قبائل من البربر قد فشا فيهم الجهل ، فادعى النبوة وتسمى « صالح المؤمنين » وقال لهم : أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز الذي أنزله على محمد عليه السلام . ثم أخذ يشرح لهم ديانته (١٢٥ هـ) . وجعل الصيام في شهر رجب لا في شهر رمضان ، وفرض عليهم عشر صلوات خمس بالليل وخمس بالنهار ، وقرر أن الأضحية واجبة على كل من اتبعه في الحادي والعشرين من شهر المحرم . وشرع لهم في الوضوء غسل الصرة والخامرتين ، وجعل في صلاتهم الإيماء ، لا سجود فيها إلا في الركعة الأخيرة حيث يكون السجود خمس مرات . وأمرهم بأن يخرجوا العشر من جميع الثمار . وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء ، وحرم الزواج من بنات العم . كما أمرهم أن يطلقوا ويرجعوا كما يشاءون . وأمر بقتل السارق حيث وجد ، وحرم رأس الحيوان ولحم الدجاج ، واعتمد في الصلاة على أذان الديكة التي حرم ذبحها . ومن ذبح ديكاً ألزم بعق رقبة . ووضع صالح بن طريف المتنبئ قرآناً يقرءونه في صلاتهم ويتلوونه في مساجدهم ، وزعم أنه نزل عليه وأنه أوحى به من الله تعالى . ومن شك في شيء من ذلك فهو كافر . واشتمل قرآنه المزعوم على ثمانين سورة سماها بأسماء النبيين وغيرهم ، منها : سورة آدم وسورة نوح وسورة يونس وسورة موسى وسورة هارون وسورة فرعون وسورة بني إسرائيل وسورة الديك وسورة الجزاء وسورة إبليس وسورة الجمل الخ .

« يا معشر المرابطين ! إلى ميت من يومى هذا لا محالة ، وإنسكم فى بلاد عدوكم . فإياكم أن تجبنوا أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم^(١) . وكونوا أعوانا على الحق وإخوانا فى ذات الله . وإياكم والتحاسد على الرياسة ، فإن الله يؤتى ملكه من يشاء من خلفه ، ويستخلف فى أرضه من أراد من عباده » .

وتوفى عبد الله بن ياسين عشية هذا اليوم (الأحد ٢٤ من شهر جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ) ، ودفن بموضع عال يعرف بكريفة على مقربة من مدينة الرباط بين الرمانى وابن سليمان وبنى على قبره مسجد لا يزال حتى الآن .

وقد استمر الأمير أبو بكر بن عمر فى حرب البرغواطيين حتى قضى على دعوتهم ، ثم تفرغ لحرب الصحراء ، تاركاً أمر المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين ، ثم نزل له عن الحكم بعد عودته كما تقدم .

إن العوامل التى أحاطت بالدعوة المرابطية ، ومدى تأثير عبد الله بن ياسين بالبيئة التى عاش فيها ، وتكوينه الدينى ، وروح الحماسة التى اتصف بها فى نشر الإسلام لجديرة بالبحث ، لما لها من الصلة الوثيقة بالدعوة المرابطية وقيام الدولة المرابطية ، وإبراز شخصية هذا المصلح الاجتماعى .

اتفق جمهور المؤرخين على ثلاث نقاط أساسية لاشك فى صحتها وهى :

(١) أن عبد الله بن ياسين ينسب إلى قبيلة جزولة .

(٢) أنه تلقى العلم على واجاج بن زللو بمدينة تافيس .

(٣) أنه ينتمى إلى مدرسة واجاج بن زللو تلميذ أبى عمران الفاسى أحد أئمة المذهب المالكي .

أما عن قبيلة جزولة فقد أشار إليها ابن خلدون^(٢) عند كلامه على تفرع الشعوب البربرية حيث يقول : « وأما شعوب البرانس ، فعند النسابين أنهم يجمعون سبعة أجناس

(١) وهذا مقتبس من قوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وينذهب ريحكم) .

(٢) العبرج ٦ ص ٨٩ — ٩٠ .

وهي : أزداجة ، وأوربة ، ونجيسة ، وكيتامة ، وصنهاجة ، وأوربغة ، وزاد سابق بن سليم وأصحابه لمطة وهسكورة وجزولة^(١) .

على أنه بما لا شك فيه أن صنهاجة المرابطين قد هاجرت إلى الصحراء قبل الفتح الإسلامي بزمان طويل . وسواء أكانت جزولة قبيلة برنسية قائمة بذاتها أم كانت نخشا أو بطنا من صنهاجة أو من مصمودة ، فإن موطنها هو جنوبي السوس على ساحل المحيط الأطلسي الذي عرف نوعا من النشاط الحضاري وعلى ذلك فإن عبد الله بن ياسين ينتمي إلى عنصر بربري ينتمي إلى أرومة عربية على أساس أن صنهاجة وكيتامة قبيلتان عربيتان كما أثبت ذلك ابن خلدون .

وأما عن مدينة نفيس ، فقد قامت فيها مدرسة واجاج بن زلو شيخ عبد الله بن ياسين ، وشهدت منذ الفتح الإسلامي التطورات الفكرية والسياسية والدينية التي تلقى كثيرا من الضوء على شخصية ابن ياسين . وإذا رجعنا إلى الورا رأينا أن عقبة بن نافع الفهري استولى على هذه المدينة وأخضع الروم المسيحيين والبربر . ولا يبعد أن يكون قد بنى فيها مسجدا بعد أن جمع منها كثيرا من الغنائم . ثم بسط عبد الله بن ياسين نفوذه على الجنوب المغربي بعد أن ضم مدينة نفيس وجبال المصامدة . ويقول السلاوي^(٢) إن لإدريس الثاني لما فرغ من بناء مدينة فاس . ، أقام بها إلى سنة سبع وتسعين ومائة ثم غزا بلاد المصامدة ودخل مدينة نفيس .

من ذلك نرى أن مدينة نفيس التي تلقى عبد الله بن ياسين العلم في مدرستها كانت مركزا حضاريا أكثر من قرنين قبل قيام الدولة المرابطية . وسواء أولد عبد الله بن ياسين في هذه

(١) خالف تيراس Terrasse, Histoire du Maroc, tome I, p. 196 ابن خلدون بقوله : إذا كان من السهل معرفة المغرب المصمودي برغم ما يحيط الجزء الخاص بالمصامدة من شك ، فإننا على العكس من ذلك نرى صعوبة ما في تحديد مواطن صنهاجة في المغرب . ويبدو أن ساحل المحيط الأطلسي الصغير كان قد انتشرت فيه صنهاجة وجزولة ولمطة . وقال المؤلف نفسه في موضع آخر (ج ٢ ص ٢١٣) لأنه كانت هناك فيدراليات مهمة تحتل الصحراء الغربية فسكان لمطة وتاركة وسرته وجزولة على اتصال بالجنوب الغربي . وقد اختلف المؤرخون في نسب جزولة ، فجعلها بعضهم نخشا ويطنا من صنهاجة ، وعدها بعض آخر قبيلة برنسية قائمة بذاتها كصنهاجة ومصمودة وغيرهما من القبائل المشهورة .

(٢) الاستقصا ج ١ ص ١٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٦ .

المدينة ، أم قضى فيها شطراً من حياته ، أم وفد إليها من مكان آخر لتلقى العلم على واجاج ابن زللو ، فإنه مما لا ريب فيه أنه كان لهذه المدينة أثر بعيد في تكوين شخصية عبد الله بن ياسين من جهة ، وفي أنه وقف عن طريقها على المشاكل السياسية والحركات الفكرية التي عرفها المغرب في أيامه من جهة أخرى .

وأما عن المذهب المالكي الذي كان عبد الله بن ياسين يدين بتعالجه ، فإن الإسلام لم يكذب يستقر في المغرب حتى تعرضت للاختلافات المذهبية التي انتشرت في الشرق الإسلامي زهاء ثلاثة قرون حتى قدر للمذهب المالكي أن تكون له السيادة بعد أن ظل في صراع مستمر مع غيره من المذاهب . وكانت سيادة هذا المذهب من أبرز نتائج الدعوة المرابطية .

ويظهر أن فقهاء المذهب المالكي ظلوا منذ سقوط دولة الأدارسة سنة ٣٧٥ هـ إلى قيام الدولة المرابطية في صراع مع المذاهب الأخرى من شيعة وخوارج وبرغواطية ، عاملين على توطيد مذهبهم ، فأقاموا شبكة من المراكز تمتد من إفريقية (تونس الحالية) إلى السوس الأقصى . وقد اشتهر من هذه المراكز : القيروان ، وفاس ، ونفيس . وإذا كانت الخصومة قد اشتدت بين المالكية السنيين وبين الدويلات التي قامت في المغرب من شيعيين وخوارج وبرغواطيين ، فإن المالكية قد ظلوا خلال هذا الصراع يعقدون الآمال على ظهور زعامة إسلامية توحد العالم الإسلامي وتعيده إلى السنية والسلامية . لذلك لم يكن عمل هؤلاء المالكية ذا صبغة فقهية لحسب ، بل كان كذلك مظهراً دينياً وسياسياً يهدف إلى بعث حركة إصلاحية تنطلق من أحد هذه المراكز لتقيم الدولة المغربية السنية في المغرب أولاً ثم في سائر العالم الإسلامي ثانياً .

وإذا كان الفقيه المالكي واجاج بن زللو الدطلي قد تحمل مشاق الرحلة من الجنوب المغربي ليأخذ العلم على الفقيه أبي عمران الفاسي المالكي في القيروان ، ثم يعود إلى هذا الجنوب المغربي ليؤسس مدرسة للفقه المالكي تضم طائفة من أبناء الجنوب رغبة وإعداد جليل يقوم بنصرة هذا المذهب ، فقد كان عبد الله بن ياسين أحد أولئك التلاميذ الذين كانوا يهتفون للقيام بهذا الدور الذي يتفق وأهداف المالكية . وليس من شك في أن غرض واجاج بن زللو في مدرسته بنفيس قد تحقق و شخص عبد الله بن ياسين الذي لم يغادر نفيس يوم نذبه شيخه للتوجه إلى الصحراء مع الأمير المقيم يحيى بن عمر إلا وهو مؤمن بأن المغرب في حاجة ملحة إلى الإصلاح ، وأرأسأته لم يندبه للرحيل إلى بلاد صنهاجة إلا لثقلته فيه لأن يبنى قوة حربية وجهازاً سياسياً يتفق وأهداف فقهاء المذهب

المالكي ونشر تعاليمه بين أولئك الصحراويين الذين لم يفسدهم تناحر الفرق وتنازع الأهواء .
ومما يؤيد هذا الرأي أن عبد الله بن ياسين كان يبعث في بعض الأحيان بخمسة الغنائم من
الصحراء إلى أستاذه واجاج بن نفيس ، وأنه توجه في بعض غزواته إلى بلاد المصامدة
بدعوة من أستاذه .

وصفوة القول أن شخصية عبد الله بن ياسين قد توافر لها من المؤثرات الفكرية
والسياسية ما جعل من صاحبها مصلحا وداعية دينية ، إذ سار في توجيه الدعوة وفق خطة
مرسومة تهدف إلى إقامة دولة وتوحيد أمة وتوطيد دعائم مذهب . أما تأثير عبد الله
ابن ياسين في توجيه الدعوة المرابطية فيقيين في جلاء . ووضوح في اعتناق هؤلاء البدو الرحل
الذين أصبحوا بفضل تعاليمه مسلمين حقا متمسكين بتعاليم الإسلام على هدى من تعاليم
مذهب مالك ، ثم يتفانون في نصرته هذا المذهب الذي أصبح المذهب الرسمي للدولة
المرابطية ، ويحاربون هؤلاء الذين انحرفوا عن جادة الإسلام .

(٧) الدعوة الموحدة :

(١) مولد ابن تومرت ونشأته

ولد محمد بن تومرت بقرية إيجلي^(١) بجبال الأطلس ببلاد السوس بالمغرب الأقصى ،
وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري . وينسب ابن تومرت إلى قبيلة هرغة
إحدى بطون قبيلة مصمودة التي تعتبر أكثر قبائل القرن عددا وأشدّها بأسا وأوفرها
ثراء ، وهي تنتشر في أغلب أراضي المغرب الأقصى^(٢) .

(١) المراكشي : المعجب ص ١٨٧ . ويذكر الزركشي (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص
٢ — ٣) أنها تسمى إيجلين .

(٢) ويذكر الشريف الإدريسي (وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ، نشره هنري بيرس
Henri Perès ، الجزائر ١٩٥٧ ص ٣٥) أن مصمودة هي القبيلة الأولى نزلت المغرب فعمرت ،
وقد ذكر البكري (المسالك والممالك ص ١٥٣ — ١٥٤) أن كتامة بطن من مصمودة . وعلى ذلك
يكون الشعب المصمودي قد انتشر في المغرب الأوسط والأقصى ، وفي مصر في العصر الفاطمي حيث كان
أكثر جيشها من قبيلة كتامة . وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن صنهاجة فرع من المصامدة (المصدر
نفسه) . وعلى ذلك يكون هذا الشعب المصمودي قد انتشر في صحراء المغرب حتى السودان (عبد الله
علام : الدعوة الموحدة بالمغرب ص ٣٨) . ويذكر ابن خلدون بعض قبائل مصمودة فيقول : « وقبائل
هؤلاء المصامدة كثيرة ، فمنهم هرغة (بفتح الهاء والغين وسكون الراء) قبيلة ابن تومرت ، وهنثانة =

ومن هنا يدرك أن ابن تومرت صاحب الدعوة الموحدية ينتمى إلى أكبر قبائل المغرب ، وأن هذا الأمر قد هيا له النجاح في دعوته التي انتهت بقيام الدعوة الموحدية ، لأن العصبية ، كما يقول ابن خلدون^(١) ، تعد أهم عناصر نجاح المبادئ والدعوات .

وقد ذكر ابن تومرت أنه ينتسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ويشير المراكشي (المعجب ص ١٧٨) إلى أن ابن تومرت ينتسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق الإدارة الذين أسسوا دولتهم بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ . وقد انقسم المؤرخون في مسألة نسب ابن تومرت إلى بيت الرسول إلى طوائف ثلاث :

(١) طائفة أيدت صحة هذا النسب ، لأن الانتساب إلى النبي صلى الله عليه وسلم شرط أساسي في المهدي المنتظر . ومن هؤلاء المؤرخين أبو بكر بن علي الصنهاجي الشهير بالبيديق وتلميذ ابن تومرت ، وكان لا ينفك عنه كظله حتى توفي ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ .

(٢) وطائفة أنكرت نسب ابن تومرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ومن هؤلاء ابن أبي زرع وابن عذارى .

(٣) وطائفة أخرى أثرت جانب الاعتدال والتزمت الحياد . ومن هؤلاء عبد الواحد المراكشي .

ويبدو أن ابن خلدون^(٢) يميل إلى صحة نسب ابن تومرت إلى الرسول الكريم وانتماؤه إلى قبيلة مضمودة البربرية فيقول : « وعلى الأمرين فإن نسبه الطالبي وقع في مرغة من قبائل المصامدة وشجعت عروقه فيهم والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم وانتسب بنسبتهم وصار في عدادهم » . ويرى ابن خلدون أن ذرية سليمان بن عبد الله أخا لإدريس الأول مؤسس دولة الإدارة بالمغرب الأقصى قد انتشرت في قبيلة مضمودة عن طريق المصاهرة ، وكان محمد بن تومرت يدعى بالنسب إلى سليمان بن عبد الله .

== (بكسر الهاء وسكون النون وفتح التاء) وتينمل (بفتح التاء وسكون الياء والنون وكسر الميم) وجدمبوه (بفتح الجيم الأولى وسكون الدال وكسر الميم الثانية وفتح الواو) ، وجنفيسة (بفتح الجيم والسين وسكون النون) ، ووريكة (بفتح الواو والكاف) ورجراجة (بفتح الراء وسكون الجيم الأولى وفتح الجيم الثانية) وهزميرة (بفتح الهاء والراء وسكون الزاي) ، ودكالة (بضم الدال ، وحache ، وأمارن ، وبنو وزكيت (بفتح الواو وسكون الزاي) ، وبنو ماكر ، وإيلانه (ابن خلدون) : العبر ج ٦ ص ٤٦٢ .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨٧ .

(٢) العبر ج ٦ ص ٤٦٢ .

وقد نشأ ابن تومرت في بلاد السوس التي اشتهرت منذ ظهور الإسلام في المغرب بحب الدين الخفيف والسعي لتحصيل علوم القرآن الكريم . وكان أهل بيته ، كما يقول ابن خلدون ، أهل نسك ورباط ، وقد شب محمد (بن تومرت) هذا قارئاً ، محباً للعلم ، وكان يسمى « أسافر » ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج من القناديل لملازمته . من ذلك نرى أن ابن تومرت نشأ في بيئة دينية ، وأنه انكب على طلب العلم ولازم بيوت الله للعبادة .

وبعد أن أخذ ابن تومرت بحظ من علوم الدين واللغة رحل إلى المشرق لطلب العلم ، فرحل إلى الأندلس ، ثم إلى مصر والشام ، ثم ألقى عصا التسيار بالعراق حيث جد في طلب العلم . وكانت بغداد في ذلك الحين من أعظم الحواضر الإسلامية في العلم والأدب والحضارة . وقد تلقى ابن تومرت العلم على أعلام العلماء كآبي بكر الشاشي ، والمبارك بن عبد الجبار من علماء الكلام والأصول والحديث . وقيل إنه أخذ العلم على الإمام أبي حامد الغزالي . وقد تأثر بالثقافة الإسلامية في بغداد وغيرها من الحواضر الإسلامية . وكان لهذه الثقافة أثر بعيد في حياة ابن تومرت الذي أخذ على عاتقه أن ينقل إلى المغرب التوحيد الكلامي القائم على التأويل^(١) وأن يصرف الناس عن المذهب التقليدي الذي ورثه فقهاء المالكية عن السلف الصالح ، والذي يأبى التأويل إباء تاماً عملاً بقوله تعالى :

(هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم . يقولون آمنا به كل من عنده ربنا وما ينكره إلا أولوا الألباب) (سورة آل عمران ٢ : ٧) .

(ب) دعوة ابن تومرت

وهنا نسأل : على أي أساس قامت الدولة الموحدية ؟ وهل قامت على أساس ديني إصلاحى أم على أساس ديني وسياسي معاً ؟ ولماذا سميت بهذا الاسم ؟

(١) يقصد علم الكلام الذي يؤول الآيات القرآنية تأويلاً يبعد الذات الإلهية عن مشابة الحوادث وعن التجسيم . مثال ذلك : (يد الله فوق أيديهم) (سورة الفتح ٤٨ : ١٠) فعلماء الكلام يفسرون اليد بالقدرة أي قدرة الله تؤيدهم بينما تقف السلفية موقفاً محايداً فلا يسمحون لأنفسهم بالتأويل .

ظل ابن تومرت سنوات يطلب العلم بالمشرق ثم عاد إلى بلاده حاملاً أفكاراً جديدة وآمالاً بعيدة . فحج بيت الله وأخذ ينشر الدعوة الموحدية في مكة ، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر . وكانت مكة إذ ذاك خاضعة للحكم الفاطمي . فلم يكن بد إذن من أن يندد بسوء حال المسلمين في عهد الفاطميين . لذلك نرى ابن تومرت يغادر مكة ثم يتجه إلى الشام ثم إلى مصر مركز الدولة الفاطمية إذ ذاك . وقد قيل إنه اتصل بالفقيه أبي بكر الطرطوشي في الإسكندرية . وهنا أخذت الدولة الفاطمية تطارد ابن تومرت خشية انتشار مبادئه الثورية بين الناس ، فركب البحر واتجه إلى المغرب ، وقد اختلف المؤرخون في اسم المدينة التي نزلها ابن تومرت بعد خروجه من مصر . فيرى ابن خلدون أنه حل بمدينة طرابلس حيث أخذ ينشر مذهبه الجديد في التوحيد الذي يقوم على تأويل المتشابه من القرآن الكريم والحديث الشريف ، مشدداً التنكير على علماء المغرب في عدولهم عن التأويل . ثم قام ابن تومرت بتدريس علم التوحيد لتوضيح مذهبه الجديد وأخذ الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

على أن علماء المغرب المالكية السلفيين لم يتقبلوا مذهب ابن تومرت بل قاوموه في عنف حتى « لقي بسبب ذلك أذيات في نفسه احتسبها من صالح عمله » على حد تعبير ابن خلدون^(١) . وقد ذكر البيدق أن ابن تومرت نزل بمدينة تونس ثم بمدينة قسنطينة ثم بمدينة بجاية ، ثم اتجه إلى تونس ، وكان طلبتها يأخذون العلم عليه . وقد أضاف البيدق قائلاً : « وظل (ابن تومرت) على هذا أياماً . فلما كان بعض الأيام قال : نتوجه لإنشاء الله نحو الغرب ، فخرجنا من تونس ونحن أربعة نفر كننا أول القدوم : سيدنا المعصوم ، ويوسف الدكالي ، والحاج عبد الرحمن ، وعبدكم الفقير المؤلف لهذا أبو بكر بن علي الصنهاجي المسكن بالبيدق . فلم نزل نجد السير حتى وصلنا قسنطينة . » ثم يذكر البيدق أن ابن تومرت أقام بمدينة قسنطينة بأمر بالمعروف ونهي عن المنكر . ثم خرج منها إلى مدينة بجاية^(٢) :

ذكر ابن خلدون أن ابن تومرت التقى بتلميذه عبد المؤمن بن علي بعد خروجه من مدينة بجاية بقرية تبعد عنها بفرسخ واحد^(٣) ويالغ مؤرخو الموحدين في وصف لقاء

(١) العبر ج ٦ ص ٤٦٧ .

(٢) البيدق : أخبار المهدي بن تومرت ص ٥١ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٤٦٧ .

ابن تومرت بعبد المؤمن ، فيذكرون أن المهدي عرفه قبل أن يلتقى به بعلامات كان قد عرفها بطريق التنجيم^(١) والجفور^(٢) ، وأن ابن تومرت قربه إليه وآثره على جميع أتباعه وهياً له السبيل لأن يخلفه في زعامة الموحدين .

خرج ابن تومرت من هذه القرية ومعه عبد المؤمن بن علي ، ومحمد البشير الوشرشي ، فر بوجدة ومكناسة وسلا ، وانتهى به المطاف أخيراً بمدينة مراکش حاضرة المرابطين في ذلك الحين . وكان ابن تومرت في جميع هذه المدن يدعو إلى مذهبه ، آمرأ الناس بالمعروف ناهياً عن المنكر مشدداً التكبير على من يخالف الشرع . وكان في الوقت نفسه يبشر بمبادئ التوحيد الكلامي سراً كلما أتت له الفرصة .

أطلق ابن تومرت على أتباعه اسم « الموحدين » إشارة إلى أنهم هم الذين يوحدون الله حقاً ، وتعرضاً بالدولة المرابطية التي رماها ابن تومرت بالكفر والتجسيم ، وأحل قتالها باعتبار المرابطين (في رأيه) غير مؤمنين عملاً بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) (سورة التوبة : ٩ : ١٣) .

(ج) ابن تومرت وعلي بن يوسف المرابطي

كان ابن تومرت يمشي في الأسواق آمرأ بالمعروف ناهياً عن المنكر ، فيتلف المزامير وآلات اللهم ويربى الخمر ويكسر أوانها . ولم يكن في ذلك مأذوناً من السلطان ولا من القضاة ولا من المحتسبين التابعين للدولة المرابطية ، إذ كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقاومة اللهم المنافي للشرع من اختصاص المحتسب وحده . وكانت الحسبة عملاً حكومياً هاماً . من أجل هذا اعتبرت الدولة المرابطية عمل ابن تومرت مخالفاً لقوانين الدولة . وقد نبه ابن تومرت بأعماله الجريئة أذهان الناس . فلم يكن بدم أن يأمر السلطان علي بن يوسف بإحضاره . « فلما مثل بين يديه نظر إلى تقشفه ورثائه حاله ،

(١) كان التنجيم من العلوم التي عني بها المسلمون في ذلك الحين . حتى إن الخلفاء والسلاطين كانوا لا يحاربون إلا بمشورة المنجمين . وقد ندد أبو تمام بالمنجمين مادحا المعتصم العباسي بعد انتصاره على الروم في موقعة عمورية بقوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحسد بين الجند واللعب

(٢) الجفر جلد المسعر الذي قيل إن به علوم الأولين ومعرفة الغيب قد دونها الإمام جعفر الصادق ثم ورثها عنه أئمة الشيعة .

فاستحضره وهان عليه أمره وقال له : ما هذا الذي بلغنا عنك ؟ قال : وما بلغك أيها الأمير ؟ إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة ولست بطالب دنيا ولا حاجة لي بها ، غير أني أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، وأنت أولى من يفعل ذلك فيك المسئول عنه . وقد عاب الله تعالى قوما تركوا النهي عن المنكر فقال تعالى : (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) (سورة المائدة ٥ : ٧٩) « (١) » .

فلما سمع السلطان كلام ابن تومرت أكبره وعظمه وأشار إلى وزرائه بإحضار الفقهاء لمناظرته وتحقيق مقالته . ولما حضر الفقهاء قال لهم السلطان : « إنما بعثت إليكم لنتخبروا أمره ، فإن كان عالما اتبعناه وإن كان جاهلا أدبناه » « (٢) » .

من ذلك نرى أن السلطان الورع علي بن يوسف بن تاشفين قد تأثر بكلام ابن تومرت ، وأنه بعث إلى العلماء ليستمعوا بدورهم إلى آرائه ويختبروا عليه . فإن كان على حق قضت الضرورة باتباعه ، وإن كان على باطل فينبغي أن يؤدب . وإذا كان السلطان يريد أن ينزل العقاب بابن تومرت لما رأى ضرورة لطلب العلماء لمناظرته واختباره .

على أن علماء المرابطين برياسة مالك بن وهيب حققوا على ابن تومرت لأنهم عجزوا عن مناظرته . وقد اشتهر ابن تومرت بقوة الجدل والمناظرة فقال لهم . « قدموا من تقوم به حججتكم ، ونأدبوا بأدب أهل العلم وسلموا عند شروط المناظرة وتركوا اللجاج ، وقدموا أحدكم ممن تثقون بعرفته ونأدبه . وكان جل من حضر ذلك المجلس أصحاب حديث وفروع (فقه) وليس فيهم من له معرفة بالأصول والجدل » « (٣) » .

ولما سمع مالك بن وهيب كلام ابن تومرت استشعر حدة ذكائه وقوة عبارته وأيقن بعجزه وعجز علماء المرابطين عن دفع حججه ، فأشار مالك على السلطان بقتل ابن تومرت وقال مشيرا إليه : هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه ، وإن فر إلى بلاد المصامدة وقع لنا منه شر كثير . ولكن علي بن يوسف الذي عرف بورعه وزهده استشعر حقد العلماء على ابن تومرت ، فلم يستمع إلى نصيحة مالك ولم يفكر في قتل

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٠٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١١٠ .

ابن تومرت . ولما يئس مالك من حمل السلطان على قتل ابن تومرت أشار عليه بحبسه حتى يموت في سجنه فقال على بن يوسف : علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق ؟ وهل السجن إلا أخو القتل ؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء ، فخرج ابن تومرت مع أصحابه متوجهاً إلى بلاد السوس .

(د) هرب ابن تومرت

ثم فر ابن تومرت خشيّة أن يكيد له الفقيه مالك بن وهيب بمراكش ، وظل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فاجتمع حوله كثير من الناس . وقيل إنه نزل بأغاث على الفقيه المصمودي عبد الحق بن إبراهيم ، وأنه أخبره بمقصده وما جرى له مع السلطان وعلما المرابطين فقال له عبد الحق : هذا الموضع (يعني أغاث) لا يحميكم ، وإن أحصن المراضع المجاورة لهذا البلد بلدة « تينمل » ، وبيننا وبينها مسافة يوم في هذا الجبل ، فانقطعوا فيه برهة ريثما يتنامى ذكركم . فلما سمع ابن تومرت كلمة تينمل دار بخاطره أنه رأى هذا في كتاب الحفر وتقال بأنه سوف ينتصر في هذا الموضع ، فاتجه إليه (١) .

ويذكر ابن خلدون أن ابن تومرت لما ذهب إلى أغاث غير بها المنكر على عادته ، فضايق كثير من الناس به ذرعا وأغروا به السلطان على بن يوسف . فلما علم ابن تومرت بذلك ، خرج هو وأصحابه من أغاث خائفين يتدرون الطريق ، فلحق بقبيلة مسفيوة المصمودية ثم بقبيلة هنتانة ، حيث لقيه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية ، ثم تركهم ابن تومرت ميمما شطر قبيلة هرغة ، فزل على قومه سنة ٥١٠ هـ (٢) .

ولا ريب أن فرار ابن تومرت هائماً على وجهه وتوديعه مدينة مراكش حاملاً بين جنبيه عداء علماء المرابطين الذين عملوا على الإيقاع به وحملوا السلطان على طرده ، ثم مالمسه من ضعف هذا السلطان المرابطي الذي أمر بإبعاده وأبى الانتفاع بعلمه والاستماع إلى مبادئه — كل ذلك قد حدا بابن تومرت إلى القيام بعمل حاسم لإزاء الدولة المرابطية التي سيطر عليها العلماء والنساء في عهد على بن يوسف ، فبنى بهرغة رابطة للعبادة ، فاجتمع عليه

(١) السلاوي : الاستقصاء ج ٢ ص ٧٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٤٧٠ .

الطلبة من القبائل المختلفة . وأخذ يلقي عليهم درسا من كتابه « المرشدة » الذى ضمنه مذهبه السكلامى الجديد . وألف لاتباعه كتابا فى عقيدة التوحيد التى قام بشرحها بنفسه باللغة البربرية^(١) . فذاع ذكره وعظم أمره ، واشتدت شوكته . وأخذ يفكر فى المهديونية التى تعتبر أول خطوة فى قيام الدولة الموحدة .

(٥) بيعة ابن تومرت

ومما يدل على عناية ابن تومرت بإحلال التوحيد السكلامى القائم على التأويل محل توحيد السلف القائم على التسليم بظاهر الآيات ، أنه بعد أن حل بقومه بهرغة وبني رابطة للعبادة والتدريس ، أخذ يدرس التوحيد السكلامى جهراً بعد أن كان يذيعه بين تلاميذه سراً^(٢) . ولما اجتمع حول ابن تومرت كثير من الطلاب ، طلب إليهم مبايعته على التوحيد ، ثم مهد للخطوة التالية ، وهى المهديونية : فأخذ يروى لطلابه الأحاديث التى جاءت فى المهدي المنتظر ، وبصور فساد المجتمع الإسلامى عامة والمرابطى خاصة ، وحاجة الناس إلى ظهور المهدي المنتظر ، وذكر لهم أن ظهوره قد آن وأوانه لوجود هذه العلامات التى وردت فى الأحاديث التى أوردها الشيعة عن المهدي المنتظر . وقد ذكر ابن تومرت أن هذه العلامات تنطبق عليه من حيث اسمه ولقبه ونسبه النبوى . لذلك ادعى هذا الأمر لنفسه وقال : أما محمد عبد الله ، ورفع نسبه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه ونادى بأنه المهدي المعصوم ، وروى فى ذلك كثيراً من الأحاديث حتى استقر فى الأذهان أن ابن تومرت هو المهدي ، وبسط يده فبايعوه وقال : أبابكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رسول الله^(٣) .

ويصف ابن القطان بيعة الموحدين لابن تومرت بالمهديونية فيذكر أنه حين وثق من منعته فى قومه عقد اجتماعا عاما وخطب فى قومه قائلا :

« الحمد لله الفعال لما يريد القاضى بما يشاء ، لاراد لأمره ولا معقب لحكمه . وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً .

(١) انظر كتابى انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧١ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ١٨٨ .

يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور . مكانه المغرب الأقصى وزمنه آخر الزمن ، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى . وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم . وقد ظهر جور الامراء وامتلات الارض بالفساد . وهذا آخر الزمان ، والاسم الاسم والنسب والنسب والفعل الفعل (١) .

وهناك رواية ينقلها ابن القطان عن اليسع أنه قال : « وسمعت أمير المؤمنين أبا محمد عبد المؤمن بن علي (رضي الله عنه) يقول . لما فرغ الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه من كلامه بادر إليه عشرة رجال منهم : أنا ، فقلت له : هذه الصفة لا توجد إلا فيك ، فأنت المهدي ، فبايعناه على ذلك (٢) » والعشرة المذكورون هم . عبد المؤمن بن علي ، وأبو محمد البشير النشري ، وأبو إبراهيم الهزرجي ، وأبو حفص عمر بن علي الصنهاجي ، وأبو الربيع سليمان بن الحضري ، وأبو عمران موسى بن عمار ، وأبو يحيى ، وأبو بكر بن يحيى ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان ، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني (مؤسس الدولة الحفصية في تونس) ، وعبد الله بن ملوية .

وهؤلاء العشرة هم المسلمون أهل الجماعة ، كانوا بمثابة مجلس وزراء لابن تومرت كما كانوا نواة للدولة الموحدية .

(و) الحكومة الموحدية

نظم ابن تومرت دولته تنظيمًا عسكريًا على النحو الآتي .

(١) العشرة أو أهل الجماعة : وكانوا بمثابة الوزراء .

(٢) أهل الخمسين : وكانوا بمثابة أعضاء مجلس الشيوخ .

(٣) أهل السبعين : وكانوا بمثابة أعضاء مجلس الأمة .

(٤) الطلبة : وهم العلماء .

(٥) الحفاظ : وهم صغار الطلبة .

(٦) أهل الدار .

(١) أنظر ابن القطان : نظم الجمان ، مخطوط المعهد الإسلامي بـبغداد ، نشره الدكتور محمود مكي

ورقة رقم ١٥ .

(٢) المصدر نفسه ورقة ٢٠ .

(٧) قبيلة هرغة : وهي قبيلة المهدي بن تومرت .
(٨) أهلى تينمئل : وهم جماعة منتخبة من عدة قبائل ، وهم الذين ألفوا الجيش الموحدى الذى استطاع أن يفسر الدعوة الموحدية ويؤسس الدولة الموحدية . وقد ظلت تينمئل مركز الدعوة الموحدية حتى سقطت مراکش فى أيديهم سنة ٥٤١ هـ .

(٩) قبيلة جَدْمِيوة .

(١٠) قبيلة جَنْفَيْسَة .

(١١) قبيلة هَنْتَاتَة .

(١٢) القبائل الموحدية .

(١٣) الجند .

(١٤) الغِرَات وهم عوام الناس^(١) .

وكان المهدي بن تومرت يأخذ أتباعه بالشدّة فى احترام القوانين والمواعيد والتمسك بالصفات الحميدة . وكان لكل طبقة من هذه الطبقات مكانها فى الحكم . كما رسم ابن تومرت لهذه الطبقات ما لها من حقوق وما عليها من واجبات . وكانت الطبقات فى مجموعها متساندة كجموعة لها كيائها ، وكان على الموحدين كافة أن يقوموا بأداء حقوق الله قبل كل شئ . وأن يواظبوا على الصلاة فى أوقاتها وقرائة تلك الأحزاب التى وضعها المهدي^(٢) والكتب التى ألّفها فى العقيدة الموحدية على أن تتلى بصفة مستمرة^(٣) .

(ز) غزوات ابن تومرت

كانت غزوات المهدي بن تومرت التى سبقت موقعة البحيرة عبارة عن إخضاع القبائل التى أبت أن تدخل فى الدعوة الموحدية عن طواعية واختيار . فقد أرسل ابن تومرت إلى القبائل المختلفة كتباً يدعوها إلى الدخول فى سلك هذه الدعوة التى تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور (فى رأيه) وتقدّم من التردى فى هاوية العقيدة المرابطية التى تؤدى إلى التجسيم والإشراك بالله . وقد حارب ابن تومرت قبائل رجراجة وقبائل جبل

(١) أنظر ابن القطان : نظم الجمان ، مخطوطة المعهد الإسلامى بمدريد .

(٢) وهى أشبه بالأوراد التى يتلوها المصلون عقب الصلاة .

(٣) عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ١٧٢ — ١٧٧ .

درن (الاطلس) : يقتل من عصا ويؤمن من اتبعه وانقاد له . وبذلك استطاع ابن تومرت أن يفتح جميع قلاع جبل درن وحصونه وأوديته ، فأطاعته قبائل هنتانه وجنفيسة وهرغة وغيرها (١) .

على أن البيدق يعتبر أن حرب المهدي ابن تومرت ضد قبائل الاطلس عبارة عن سلسلة من حروب ووقائع منفصلة . فيمقد البيدق لأخبار المهدي فصلاً يتناول فيه سبع غزوات يشترك فيها ابن تومرت بنفسه ويشجع ويحمل من المعركة جريماً على نحو ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد (٢) .

وتعتبر موقعة « البحيرة » التي نشبت بين المهدي بن تومرت وبين الجيش المرابطي أهم المواقع . وكان الجيش الموحدى بقيادة أبي محمد البشير الونشريثي ، وقاد الجيش المرابطي أبو بكر علي بن ناشفين ، وانتهت هذه الموقعة بقتل قائد الموحدين وهزيمة جيوشهم (٣) . وكانت هزيمة الموحدين صدمة عنيفة للمهدي بن تومرت الذي انتابه المرض ومات سنة ٥٢٤ هـ ، على ما ذكرنا في الباب الثالث من هذا الكتاب .

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١١٨ .

(٢) البيدق : أخبار المهدي بن تومرت ص ٥٧ .

(٣) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ٨٤ .

الباب الثامن

نظم الحكم

١ - النظام السياسي

(١) الخليفة عند الفقهاء والفلاسفة والأغريقين :

بدأ الفقهاء يبحثون مسألة الخلافة نظرياً في عصر انحلال الدولة العباسية ، حين لم يعد للخليفة من الأمر شيء . وقد تناول موضوع الخلافة من الوجهتين النظرية والعملية كثير من فقهاء المسلمين ومؤرخيهم .

فأبو الريحان البيروني^(١) (ت ١٠٤٨/٤٤٠) أعلن في وضوح ما آل إليه أمر الخلافة العباسية فقال : إنه لم يبق للخليفة من الأمر شيء ، اللهم إلا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته .

كذلك تعرض لمسألة الخلافة فقيه آخر هو أبو الحسن علي الماوردي^(٢)

(ت ١٠٥٨/٤٥٠) الذي ولد في عهد الخليفة العباسي الطائع (٣٦٣ - ٣٨١/٩٧٤ - ٩٩١)

وتوفي في عهد القائم (٤٢٢ - ٤٦٧ / ١٠٣١ - ١٠٧٥) : ويعتبر الماوردي في طليعة

الذين بحثوا هذا الموضوع . فقد بحث الخلافة بحثاً نظرياً لا يتفق والحوادث التي وقعت في

عصره وقبل عصره ؛ فهو يقول : إن مركز الخليفة انتخابي ، ويذكر الشروط التي يجب

أن تتوافر فيمن يرشح لهذا المنصب الخطير . ثم يسرد تاريخ البيعة منذ أيام أبي بكر ، ويدلي

بالحجة على أن بيعة كل من الخلفاء الراشدين صحيحة شرعاً ، كما يسرد شروط أهل الإمامة

وواجبات الخليفة الدينية والإدارية والقضائية والحربية^(٣) . على أن الماوردي قد تجاهل

في هذا البحث النظرى حقيقة ما وصلت إليه الخلافة في عهده .

كما تناول موضوع الخلافة كاتب متأخر عن البيروني والماوردي ، هو نظامي عروضي السمرقندي ، الذي يرى ضرورة قيام من يخلف النبي صلى الله عليه وسلم بالمحافظة على

(١) كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية (لندن ١٧٨٩) .

(٢) الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٧ هـ) (س ٨ - ١٢) .

(٣) المصدر نفسه س ٤ - ٦ ، ٨ - ١٢ ، ١٣ - ٢٠ .

الشريعة ، كما يقول : إن هذا القائم بالامر يجب أن يكون خير المجتمع ، ويقول أيضا : إن الخليفة لا يستطيع أن ينشر نفوذه ولا أن يدير دولته إدارة حازمة لاتساع رقعتها ، ولا بد إذاً أن يكون له نواب يمثلونه في الولايات النائية .

ومن الفقهاء الذين تكلموا عن الخلافة ابن حزم^(١) (٤٥٦ / ١٠٦٤) في كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، والشهرستاني^(٢) (٥٤٨ / ١١٥٣) الذي تكلم في كتابه « الملل والنحل » (ج ٤ ص ١٦٣ - ١٧١) عن آراء أصحاب الفرق في الخلافة وفي إمامة الخلفاء الأول .

كما تناول موضوع الخلافة فريق من الفلاسفة والأخلاقين الذين تأثروا بعلوم اليونان وفلسفتهم ، وبخاصة فلسفة أرسطو وأفلاطون . ومن فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بما كتبه أفلاطون في جمهوريته : أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ / ٩٥٠ ، والذي عاصر سيف الدولة الحمداني وانصل به اتصالاً وثيقاً وتأثر بفلسفة أفلاطون في جمهوريته ، فتكلم على دولة تعتبر مثلاً أعلى عند الفلاسفة . وقد أفرد الفارابي في كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » باباً بعنوان له يباب « القول في العضو الرئيس »^(٣) ، (وهو الخليفة والإمام في العرف الإسلامي) تعتبر مثلاً أعلى على رأسها الفلاسفة .

وقد شبه الفارابي الدولة بالسكون الذي ينتظم عوالم متناسقة بدرجاتها المختلفة ، تخضع لسلطان الله سبحانه وتعالى ، كما شبه السكون بالروح الإنسانية من حيث مقاييس الذكاء ، وبجسم الإنسان من حيث تركيب أعضائه في شكل منظم يسيطر عليه القلب . وهذه الطريقة نفسها شبه الفارابي الدولة بنظام متعدد الدرجات . والدولة المثالية في نظر الفارابي يشرف عليها زعيم يعرف ما هي السعادة الحق ، لأن الإنسان لا يستطيع الوصول إلى هدفه بدون هداية مثل ذلك الزعيم (الإمام أو الخليفة) . ولعل الفارابي لم يمن العناية المطلوبة في بحث الحالة السياسية التي كان عليها العالم الإسلامي الذي كان يعيش فيه ، وأن هذه الحالة لا يمكن أن تنطبق على الخلافة إلا من الناحية النظرية ، ومن جهة النظرة الدينية فحسب^(٤) .

(١) القاهرة ١٣١٧ هـ .

(٢) على هامش كتاب ابن حزم .

(٣) ص ٧٠ - ٨٠ .

(٤) Arnold, The Caliphate, pp, 121 - 122.

كذلك تعرض إخوان الصفا لمسألة الخلافة من وجهة نظرهم التي تتفق ونظرية الشيعة كما يرى أكثر الباحثين ، فقالوا : إن الملوك خلفاء الله في الأرض ، وإن الملك حارس الدين وحارس الرعية ، فهو يحمل رعيته على الإذعان لأحكام الدين ونواهييه . وهذا يتفق مع النظرية الإسلامية العامة . ومن هؤلاء نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي^(١) . وقد تناول موضوع الحكومة في كتابه سياسة نامه الذي وضعه سنة ٤٨٥ (١٠٩٢ م) ، فبحث مسألة إعداد الحكام وإدارة الدولة .

ومن أولئك الفلاسفة والأخلاقين شهاب الدين سهرارودي (٥٨٧ / ١١٩١) الذي تأثر في كتابه « حكمة الإشراق » بما كتبه أفلاطون في جمهوريته ، ونصير الدين الطوسي الشيعي الذي دخل في خدمة هولاكو التتاري وحثه على إزالة الخلافة العباسية ، وصحبه في حصار مدينة بغداد سنة ٥٦٦ / ١٢٥٨ . فقد وصف في كتابه « أخلاق ناصري » الإمام (أي الخليفة) كحاكم مثالي كما فعل أفلاطون وأرسطو من قبله . وكان نصير الدين الطوسي من أبرز الكتاب الذين خلفوا لنا مؤلفات في الدين والفلسفة .

وقد عني ببحث موضوع الخلافة في العصر الأخير بعض المستشرقين من أمثال متر وجولد تسيير وسير توماس أرنولد ، وغيرهم مثل عبد العزيز الدوري ، وحسن إبراهيم حسن ، وعلى إبراهيم حسن في كتاب (النظم الإسلامية) ، وقد نقل إلى الأردية والفارسية .

ويرى ابن خلدون (ت ٨٠٨ / ١٤٠٥) أن الخلافة تطورت وتحولت عما كانت عليه في صدر الإسلام ، وأنه لم يكن بأس من أن يختار المسلمون الخليفة من أصحاب العصية أياً كانت جذبيتهم . ويقرر ابن خلدون نظريته التي تقوم على العصية المطلقة لا العصية القرشية التي بدأت عقب وفاة الرسول واختلاف الصحابة فيمن يخلفه ، ويرى أن الإسلام في جوهره لا يفرض هذه العصية القرشية على المسلمين . ونلاحظ أن ابن خلدون قد طبق روح عصره تماماً ، إذ رأى الخليفة في القاهرة في عصر المماليك لا يملك من أمر المسلمين شيئاً ، وأن الخلافة قد أصبحت صورية . وبذلك قرر نظريته وهي أن الخليفة يجب أن يكون من أهل العصية المطلقة^(٢) ،

(١) Siasset Naméh, 3 vols. (Paris, 1891, 1897).

(٢) ابن خلدون : مقدمة ص ١٩٣ — ١٩٦ .

(م ٢٠ — تاريخ الإسلام — ج ٤)

بذلك نرى ابن خلدون يختلف مع جمهور السنة الذين يرون حصر الخلافة في قرشي ، ومع الشيعة الذين يريدون قصر الخلافة أو الإمامة على أسرة الرسول وفي بيت علي وأبنائه من بعده . كما يختلف مع الخوارج الذين يرون أن الخلافة حق لكل عربي حر ، ثم اشترطوا الإسلام والعدل ، ومع المعتزلة الذين يقولون إن الإمامة اختيار من الأمة سواء أكان المرشح قرشياً أم غير قرشي .

بل لقد خالف ابن خلدون بن حزم (ت ٤٥٦ / ١٠٦٤) برغم تقديره له واتخاذ إياه قدوة ونبراساً له في تاريخ المغرب والدين بصفة خاصة ، إذ جعل ابن حزم أمر القرشية الشرط الأساسي الأول في الإمامة ، كما لم يجوز خلع الإمام إذا ظلم ، بل أشار بمنع المسلمين إياه من الظلم . فإذا لم يمتنع كان لهم أن يعزلوه ^(١) .

٢ — الخليفة العباسي في عهد سلاطين السلاجقة :

لم تختلف حالة الخلفاء العباسيين أيام السلاجقة اختلافاً كبيراً عما كانت عليه في أيام بني بويه . وكان هؤلاء الخلفاء في أيام السلاجقة يعيشون من إقطاعات مقررة كما كانت الحال في أيام بني بويه ، ولم يكن لهم من الأمر شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة . وكانوا يقضون أوقاتهم في بناء القصور وترميمها .

على أن معاملة السلاجقة السنيين للخلفاء العباسيين كانت أحسن بكثير من معاملة البويهيين الشيعة لهم . يدل على ذلك ما حدث عند اجتماع الخليفة الطائع بعصد الدولة ابن بويه الذي لم يكن همه إلا إظهار ما كان يتمتع به من نفوذ وسلطان أمام رسول الخليفة الفاطمي العزيز .

كما تتجلى هذه العلاقات الطيبة التي سادت بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة في هذه الخلع التي كانوا يتبادلونها . فقد كان الخليفة إذا ما ارتقى العرش يبعث في طلب السلطان السلجوقي لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانية والهدايا ، كما كان السلطان السلجوقي يلتبس بعد توليته السلطنة التفويض من الخليفة العباسي ^(٢) . ويعزو المؤرخون هذه العلاقات الحسنة إلى هذه الحقيقة ، وهي أن السلاجقة كانوا يعتقدون

(١) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١١١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٠ ، ٦٤ .

المذهب السني مذهب الخلفاء العباسيين . وذكر سير توماس أرنولد في كتابه الخلافة « أن السلاجقة كانوا يحترموا الخليفة العباسي ، لا لمركزه السياسي بل لأنه خليفة رسول الله » (١) كما تظهر تلك العلاقات واضحة جلية في ارتباط البيهقي والسلجوقي والعباسي برباط المصاهرة . فقد تزوج طغرل بك من ابنة الخليفة القائم ، الذي زوج ابنه المقتدى من ابنة السلطان ألب أرسلان (٤٦٤ هـ) . كذلك تزوج الخليفة المستظهر (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) من ابنة السلطان ملكشاه في سنة ٥٠٢ هـ ، وتزوج الخليفة المقتفي (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) من خاتمة بنت محمد بن ملكشاه وأخت السلطان محمود (٢) ،

على أن هذه الروابط الوثيقة لم تحل دون قيام النزاع بين الخلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة الذين تعدوا على حرمة الخلافة إذا ما تدخل الخليفة في شؤون الحكم . وقد ذكر سير توماس أرنولد (٣) : أن السلاجقة اتخذوا لأنفسهم لقب « ظل الله » الذي كان يحتفظ به الخلفاء العباسيون لأنفسهم ، وأنهم أخذوا من الخليفة المسترشد (٥١٢ — ٥٢٩ هـ) بركة الرسول التي كان يلبسها الخلفاء عند توليتهم الخلافة أو عند حضورهم الحفلات الدينية . كذلك لقب ملكشاه نفسه بلقب « أمير المؤمنين » ، ذلك اللقب الذي لم يطلق إلا على الخلفاء أنفسهم (٤) .

٣ — عود النفوذ إلى الخلفاء العباسيين — المقتدى والمسترشد :

وإن حسن معاملة سلاطين السلاجقة للخلفاء العباسيين بوجه عام قد أحييت في نفوسهم الأمل في إعادة ما كان للخلافة العباسية من نفوذ وسلطان ، حتى أنهم استطاعوا في أواخر عهد السلاجقة أن يظفروا بشيء من السلطة ، وبخاصة عندما قام النزاع بين أفراد البيت السلجوقي .

(١) The Caliphate p. 80.

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٨ ، ٢٩ ، ١٩٩ .

(٣) Ibid., p. 80.

(٤) ذكر البنداري (تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٤٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢) أن سنجر تلقب بلقب ملك عشرين سنة وأقيمت له الخطبة على أكثر منابر الدولة السلجوقية ، كما تلقب بالسلطان الأعظم معز الدنيا والدين . وذكر ابن الأثير (السكامل ج ١١ — ٧١ — ٧٤) أنه تلقب بلقب غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين . وذكر ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٣ و ٢٨٤) أن الخليفة المقتفي (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) خلع على عماد الدين زنكي كثيراً من الألقاب مثل أمير الكبير العادل المؤيد المظفر المنصور الأوحده عماد الدين ، عمدة السلاطين قاهر الكفرة والمتردين . أمير العراقيين والشام نصير أمير المؤمنين .

ولما آلت الخلافة إلى المقتنى (٥٣٠ — ٥٥٥ / ١١٣٦ — ١١٦٠) عول على ترسيم خطا آبائه ، ونجح كثيراً في هذه السبيل . وقد دخل النزاع بين الخليفة المقتنى والسلطان مسعود في طور جديد . وكان هذا الخليفة — كما يقول السيوطي (١) — « قد حدد معالم الإمامة ومهد رسوم الخلافة ، ولم تزل جيوشه منصوره حيثما يمت » . وقد حاصر السلطان مسعود مدينة بغداد ، ولكنه عاد مخذولاً .

٤ — احتفاظ الخلفاء العباسيين بسلطانهم الربنية :

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسي قد أصبح طوال عصر انحلال الدولة العباسية العويبة في أيدي أمراء الأتراك أولاً ، ثم في أيدي بني بويه والسلاجقة ثانياً ، ظل محتفظاً بسلطته الدينية في عهد السلاجقة ، كما كان محتفظاً بها عند غيرهم من الأمراء المستقلين ، لأنه قد ثبت في أذهان الناس أن الخلافة نظام لا بد منه لصالح العالم واستقامة أموره ، وأن الخليفة هو مصدر السلطات . لذلك نرى كثيراً من أمراء المسلمين الذين كونوا إماراتهم بقوة السيف يعترفون بسلطة الخليفة الدينية ويلجئون إليه للحصول على تفويض بالحكم باعتباره خليفة النبي صلى الله عليه وسلم ومصدر قوة المسلمين .

ولمّا لجأ هؤلاء الأمراء الذين وصلوا إلى الحكم بالقوة إلى هذه السياسة ليكسبوا حكمهم صبغة شرعية في نظر الشعوب المحكومة . نعم ! لقد اعترف بالخليفة العباسي السلطان محمود الغزنوي (٣٨٨ — ٤٢١ / ٩٩٨ — ١٠٣٠) ، كما اعترف يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بخلافة المقتدى العباسي (٥٣٠ — ٥٥٥) ، وطلب إليه أن يعطيه تفويضاً شرعياً بتثبيتته في حكم بلاده .

من ذلك نرى أن الخلفاء العباسيين مازالوا يتمتعون في ذلك الوقت بسلطة أدبية كبيرة في داخل بغداد وفي خارجها . ويقول سير توماس أرنولد : إن الخليفة لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يعارض في شيء ، بل يحتمل أنه كان يقابل مثل هذه المطالب بالارتياح والقبول ، لأنها اعتراف بسلطته النظرية في وقت امتدت فيه رقعة الدولة الفاطمية على حساب الدولة العباسية المنحلة المتداعية (٢) . على أن الدولة الفاطمية ما لبثت أن تفرقت إليها الوهن والانحلال ، فسقطت في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وظهر على مسرح السياسة

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢ .

(٢) Arnold p. 83 .

صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي خطب للخليفة المستضيء العباسي (٥٦٦ — ٥٧٥ / ١١٧٠ — ١١٨٠) على منابر مصر واليمن وسورية ؛ ففتح هذا الخليفة تفويضاً بحكم هذه البلاد ، كما منح الخليفة المستنصر (٦٢٣ — ٦٤٠ / ١٢٢٦ — ١٢٤٢) نور الدين عمر (١٢٢٩ — ١٢٤٩ م) تفويضاً بحكم بلاد اليمن ، وأعطى مثل هذا التفويض إيلتمش (Iltutmish) أحد الملوك العبيد الذي اتخذ مدينة دلهي حاضرة لمملكته ، ومنحه لقب سلطان ، ففُتِح اسم الخليفة على السكة .

٥ — زوال الخوفاة العباسية في بغداد :

موت مسعود سنة ٥٤٧ هـ أقل نجم البيت السلجوقي وتقامت ملك السلاجقة دول شتى عرفت باسم دول الأتابكة .

وفي مستهل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) كانت هناك دويلات إسلامية منفصلة متعادية في غربي آسيا وشمال إفريقيا . فكانت مصر وفلسطين ومعظم بلاد الشام تحت سلطان خلفاء صلاح الدين الأيوبي . وبسط السلاجقة سلطانهم على آسيا الصغرى ، في الوقت الذي كانت فيه الخلافة العباسية لا تزال قائمة في بغداد . كما قامت في الشرق إمبراطورية خوارزم على أنقاض الدولة السلجوقية ، ونشر أمراءها بين نهري الكنج (بالهند) ودجلة (بالعراق) ، وإن كان هذا السلطان لم يتوطد تماماً بين سكان فارس والهند .

وكان من أثر تفاقم العداوة بين الخليفة العباسي وخوارزم شاه ، أن اعتقد بعض المؤرخين أن الخليفة الناصر استدعى التتار ليشغل بهم خوارزم شاه ، حتى يأمن شره ويحول بذلك دون ما يحدق ببلادهم من خطر هجوم جيوش خوارزم شاه . وفي شهر نوفمبر سنة ١٢٥٧ م (٦٥٥ هـ) سار هولاكو التتار إلى بغداد ، واستولى عليها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)^(١) .

وقد ذبح المغول السواد الأعظم من الأهلين ، وأضرمو النيران في المدينة ، وقتل الخليفة المعتمد وأولاده وزالت الخلافة العباسية من العراق كما تقدم في الباب الرابع .

(١) الفخرى ص ٢٩٤ — ٢٩٧ .

٦ — تعدد الخلفاء في المغرب والأندلس وغيرهما :

كان الشائع على ألسنة العلماء أن الخلافة لا يمكن أن تكون متحدة في شخص خليفة واحد ، وإن وجد أكثر من خليفة ، فإن سلطانه يكون غير شرعى ، بل تجب محاربته والقضاء عليه . ولكن بعد أن ضعفت الخلافة العباسية ولم يعد للخليفة شئ من السلطان تعدد الخلفاء :

١ — فقامت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب أولا (٢٩٧ هـ) ثم في مصر ثانياً (٣٦٢ هـ) :

٢ — وقامت الخلافة الأموية ببلاد الأندلس في عهد عبدالرحمن الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) الذى تلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر بعد أن قنع أسلافه بلقب « بنى الخلفاء » ، وبذلك أصبح هناك ثلاث خلافت : الخلافة العباسية في المشرق ، والخلافة الفاطمية ببلاد المغرب ثم مصر ، والخلافة الأموية بالأندلس ، كما تلقب حكام الموحدين في المغرب الأقصى فيما بعد بلقب أمير المؤمنين .

وبما هو جدير بالملاحظة أن الخلافة العباسية قامت على الحق الإلهي في الحكم ، وأن الخلافة الفاطمية قامت على نظام التوريث الذى كان سائداً عند الفرس أيام آل ساسان ، وأن الخلافة الأموية بالأندلس لم تستمد من الله سبحانه ولا من الشعب ، وإنما هي نتيجة قوة عبد الرحمن الثالث ، كما كان نظام الخلافة الموحدية في المغرب وراثياً .

٣ — وفي سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) اتخذ حاكم سجلماسة (جنوبي جبال أطلس لقب أمير المؤمنين .

٧ — المرابطون والخمرون العباسية :

(١) موقف المغرب من الخلافة العباسية قبل المرابطين

كانت الثورات في المغرب الأقصى أشد منها في سائر شمالي إفريقيا وقد ساعد على ذلك بعد هذه البلاد عن القيروان ثم المهدي فالمنصورية حاضرة الفاطميين ، ومناعة جبال المغرب ، ووعورة الطرق ، الشئ الذى لم يكن مألوفاً لدى العرب الفاتحين .

وعلى الرغم من أن المرابطين في المغرب كانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين لم يلقب أحد منهم نفسه بلقب خليفة أو أمير المؤمنين لأن الظروف السياسية لم تساعدهم

على منافسة الخلافة العباسية أو التغلب عليها في عهد السلاجقة . فقد خطب إدريس الأول في البربر يوم أخذت له البيعة فقال : « أيها الناس ! لا تمدن الاعناق إلى غيرنا ، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا لا يجدونه عند غيرنا » . ولهذا اكتفى الإدارة بلقب « إمام » الذي شاع في مخاطبتهم وكتاباتهم . وهذا اللقب هو اللقب الذي أطلقه الشيعة على الأئمة العلويين مما يقدم دليلا على أن الإدارة كانوا متأثرين بمبادئ الشيعة وإن لم يتمصبوا أو يقولوا في ذلك إذ أنهم نصرروا مذهب السنة ونشروه بالمغرب . وقد ذكر ابن خلدون أن إدريس الأول بنى بمدينة تلمسان مسجداً صنع به منبر كتب عليه : بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم ، وذلك في شهر صفر سنة ١٧٤ هـ .

على أن الفاطميين لما استولوا على إفريقية (وهي بلاد تونس الحالية) وأقاموا خلافتهم في القيروان سنة ٢٩٧ هـ ، امتنع الإدارة عن الاعتراف بخلافتهم في بادئ الأمر ، وعزلهم موسى بن أبي العافية في رقعة ضيقة من ناحية الريف والغرب . أصبح النفوذ في المغرب يتداول بين الفاطميين والامويين ، حتى أعلن الحسن بن جنون آخر أمراء الإدارة ولاءه للفاطميين واغتيل بسبب تقربه إليهم . أما الزناتيون الذين حكموا المغرب نحو قرن ونصف قرن قبل قيام الدولة المرابطية ، فإنهم لم يدعوا للفاطميين إلا في سنة ٣٠٧ هـ ، وظلوا على ذلك حتى زالت الخلافة الأموية في الأندلس في أوائل القرن الخامس الهجري . وكان الزناتيون أكثر ميلا إلى الأمويين .

يمتاز النظام السياسي في الدولة المرابطية في جملته بالبساطة . ولم يدر بخلد عبد الله ابن ياسين منذ بث تعاليمه في الصحراء أنه سيقم دولة ، بل كان كل همه منصرفا إلى نشر التعاليم الإسلامية على وفق مذهب مالك كما ذكرنا .

أما اتخاذ المرابطين لقب أمير المسلمين فإنه يرجع إلى عوامل داخلية وخارجية انتهت بقيام دولتهم . وتنحصر العوامل الداخلية فيما يلي :

أولا : العامل السياسي ، وذلك أن مملكة غانة قد ظهرت في مستهل القرن الخامس الهجري بظهور القوة والعظمة ، وفي مستهل هذا القرن سيطر المثلثون على تجارة السودان وعزموا سنة ٤٣٣ هـ على الاستيلاء على أهم مراكز الغانيين التجارية ، وهي مدينة أودغشت الغربية من نهر النيجر شمال شرق مدينة تمبكتو . على أن المثلثين انهزموا أمام الغانيين ،

ثم جمعوا صفوفهم وبعثوا شطر الشمال ، وقاتلوا الزناتيين المتنازعين المتنافرين في سجلماسة ونواحيها ومهدوا بذلك السيل لقيام الدولة المرابطية .

ثانياً : العامل الاقتصادي . فقد كانت الحرب التي نشبت بين الملمثين والغانيين في الواقع نزاعاً على الطريق التجاري الذي يمر بسجلماسة شمالاً وأودغشت جنوباً ، إذ كان أهل السودان يبادلون السلع التجارية مع أهل الجنوب ، فيرسلون إليهم التبر والصوف والإبل ، على حين يرسل أهل الشمال القمح والقطن ويسيطرون على تجارة الملح ويستولون من القوافل على مورد هام من المسكوس . فلما أقصى الغانيون الملمثين من أودغشت ، فقد هؤلاء هذه الموارد وفكروا في الزحف شمالاً ، وكونوا الدولة المرابطية التي كان لها أثر بعيد في حياة المغرب الاقتصادي .

ثالثاً : العامل الديني ، وذلك أن الأشراف في قبائل الملمثين كانوا يؤلفون الطبقة الارستقراطية . وقد فرض الزناتيون المسكوس في سجلماسة ، وعمل المرابطون على إقامة حدود الدين ونشر الإسلام في كافة أرجاء المغرب ، وأسسوا دولة أخضعت المغرب وامتدت نفوذها من طنجة شمالاً إلى نهر النيجر جنوباً ومن وادي شلف شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وإلى بلاد الأندلس شمالاً .

أما العوامل الخارجية التي ساعدت على قيام دولة تعيد إلى المغرب الإسلامي وحدته وتصد عنه هجمات أعدائه وتحافظ في ظل الخلافة العباسية على مبدأ الوحدة الإسلامية في وقت تفككت فيه عرى العالم الإسلامي ونشط النصارى إلى استعادة أملاكهم بالأندلس . فقد أخذ نفوذ الفاطميين في الضعف ، واستولى السلاجقة على بغداد ، وأخذ المسلمون يدخلون في ذلك الصراع العنيف مع الصليبيين ، واحتل النورمانيون المهدية وزويلة من يد الصنهاجين سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) ، ثم عادوا فاحتلوا في سفي ٥١٧ ، ٥٤٤ هـ ، واحتل الصليبيون بيت المقدس سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) ، ودخل المرابطون في حروب مع قشتالة وأراغون في الأندلس . ولم يكن يحيى بن إبراهيم الجدالي شيخ لمتونه ولا عبد الله بن ياسين يفكران في إقامة دولة وراثية . ومع ذلك فقد كانت إقامة هذه الدولة هي السيل الوحيد إلى إنشاء نظام حكومي يضمن له الاستقرار ويتلاءم مع الأوضاع التي كانت سائدة بهذه البلاد في ذلك العصر .

ولم يفكر المرابطون في الاعتراف بالخليفة الفاطمي في القاهرة ، لسوء اعتقادهم فيهم وعدائهم لهم بسبب تدخلهم في شئونهم ، وتضامناً مع خلفائهم صنهاجة الذين قطعوا الخطبة

للفاطميين سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) . لذلك عدل المرابطون عن طريق مصر حين رحلوا لاداء فريضة الحج ، برغم ما قام به أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر الفاطمي من جهود في سبيل استئمانهم ^(١) . وكان المرابطون ينظرون إلى الخليفة العباسي نظرة أسمى من نظرهم إلى الخليفة الفاطمي ، رغبة في المحافظة على الوحدة الإسلامية كما ذكرنا ، ولأنهم كانوا لا يخشون الخلافة العباسية التي تطرق إليها الضعف والانحلال .

(ب) المرابطون والخلافة العباسية

وقد نقش المرابطون اسمهم على السكة سنة ٤٥٠ هـ ؛ وكانت تحمل اسم عبد الله أمير المؤمنين ^(٢) . وهكذا اتخذت الدولة المرابطية مقومات الدولة بعد أن استولى أمراؤها على جزء كبير من بلاد المغرب ولاسيما على سواحل المحيط الاطلسي وجزء كبير من الصحراء ويرجع أن اسم عبد الله الذي نقش على السكة حتى نهاية الدولة المرابطية يقصد به الخليفة العباسي ، حتى لا تتغير السكة بتغير الخلفاء العباسيين . يدل على ذلك اسم عبد الله الذي ورد في الرسالة التي بعث بها الخليفة العباسي المستظهر (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) إلى علي بن يوسف ابن تاشفين ^(٣) . على أن اسم هذا الخليفة هو أحمد . ولما أتم يوسف بن تاشفين إخضاع المغرب (عدا طنجة وسبتة) ^(٤) وناحية تازا واستقرت الدولة المرابطية في مراکش التي بنيت سنة ٤٥٤ هـ ، كان طبعيا أن يتخذ أمير المرابطين لنفسه لقباً يتمشى مع اتساع نفوذه . وقد رأى رؤساء المرابطين أن يتخذ يوسف بن تاشفين لنفسه لقب « أمير المؤمنين » ، ولكنه أبى ذلك وقال : « حاشا لله أن تسمى بهذا الاسم ، وإنما يسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وأنا راحلهم (رحلهم على الأصح) والقائم بدعوتهم » ^(٥) . وإنما تسمى يوسف بن تاشفين — كما يقول السلاوي — بهذا الاسم ، لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة ^(٦) . ومنذ ذلك

(١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٤ .

(٣) الحلل الموشية ص ١٧ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٣٨٠ .

(٥) الحلل الموشية ص ١٧ ، ١٨ .

(٦) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ٥٣ .

الحين اتخذ يوسف بن تاشفين لقب « أمير المسلمين وناصر الدين » ، وسار على ذلك أمراء المرابطين من بعده . وقد اتخذوا السواد شعار العباسيين شعارهم في ملابسهم وأعمالهم . لجأ المرابطون إلى هذه السياسة لكي يكسبوا حكمهم صبغة شرعية . وقد كتب يوسف بن تاشفين بذلك إلى عمال دولته وأعيانها . وقد جاء في هذا الكتاب .

« بسم الله الرحمن الرحيم ! وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً . من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة من أهل « فلانه » أدام الله كرامتهم ووفقهم لما يرضاه — سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر ، وميسر اليسر وواهب النصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر . ولما كتبناه إليكم من حضرتنا العلية براكش حرسها الله في منتصف محرم سنة ست وستين وأربعمائة . ولما من الله علينا بالفتح الجسيم ، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة بروض النعيم ، وهدانا وهذا كم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنتناز به على سائر أمراء القبائل ، وهو أمير المسلمين وناصر الدين . فن خطب الخطبة العلية السامية ، فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى ، والله ولي العدل بمنه وكرمه والسلام (١) .

ولم يتعد المؤرخون لذكر السنة التي اعترف فيها الخليفة العباسي بإمرة يوسف بن تاشفين الذي بعث إلى الخليفة المقتدى ، على ما ذكر ابن خلدون (٢) ، سفراء يطلبون منه الاعتراف بإمرته . فأجابته الخليفة إلى ما طلب .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن يوسف بن تاشفين اتخذ لقب أمير المسلمين وناصر الدين بعد انتصاره في موقعة الزلاقة المشهورة على ألفونس السادس وحلفائه من المسيحيين بالاندلس في سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٧ م) ، وأن أول من دعاه بهذا اللقب هو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، وأقره على ذلك الخليفة العباسي . على بن يوسف بن تاشفين اتخذ هذا اللقب ، على ما ذهب إليه بعض المؤرخين ، في سنة ٤٦٦ هـ ، أي قبل موقعة الزلاقة بثلاث عشرة سنة .

(١) الحلال الموشية ص ١٨ .

(٢) العبر ج ٦ ص ٣٨٦ .

وقد ذكر صاحب كتاب الحلل الموشية (ص ١٧) أن زعيم المرابطين كان يلقب أول الأمر بلقب أمير المرابطين . وكان الأمير أبو بكر بن عمر أول من تلقب به بعد وفاة عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ . ولما سار أبو بكر بن عمر إلى الصحراء لحرب أعداء قبيلة لمتونة أصحاب اللثام في الجنوب ، وخلف مكانه يوسف ابن تاشفين : أطلق عليه أمير المغرب (أى المغرب الأقصى) : وكان هذا هو أول لقب تلقب به يوسف بن تاشفين الذى ظل من الناحية الرسمية عاملاً على المغرب من قبل أبي بكر بن عمر . وظل ابن تاشفين أميناً على عهده لأبي بكر ابن عمر حتى توفى أبو بكر سنة ٤٨٠ هـ . يدل على ذلك أن السكة المغربية ظلت تحمل اسم أبي بكر بن عمر إلى سنة ٤٨٤ هـ . ولما استنجد المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بيوسف بن تاشفين مستنصراً إياه على ألفونس السادس زعيم المسيحيين في الأندلس ولبي نداءه ، تلقب يوسف بن تاشفين بلقب أمير جند المسلمين ، وذلك مقابل تسمية ألفونس السادس أمير المسيحيين .

فلما انتصر يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة المشهورة ، لقبه المسلمون بهذا اللقب تقديرأ لجهاده وانتصاره على المسيحيين (١) . وقد ذكر ابن الأثير (٢) أن يوسف بن تاشفين لما عاد من بلاد الأندلس ودخل مدينة مراکش حاضرة ملكه خاطبه علماء الأندلس بأن طاعته ليست واجبة حتى يذكر اسم الخليفة العباسى المقتدى في الخطبة ويأتيه عنه تقليد بإقراره ، فأرسل رسله إلى الخليفة المقتدى ببغداد فأثاء التقليد مع الخلع والأعلام ولقب بلقب أمير المسلمين وناصر الدين (٣) .

وقد قامت حول هذا اللقب مشكلة شرعية وهى : هل يجوز لخطباء المساجد أن يدعوا ليوسف بن تاشفين باعتباره أميراً للمسلمين ؟ على أن يوسف لم يصرح للخطباء بإقامة الدعوة له إلا بعد أن أرسل بعثة من رجال الدين إلى الخليفة العباسى المستظهر يستفتيه

(١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٧ .

(٢) السكامل ج ١٠ ص ٥٧ .

(٣) وقد ذكر ابن الأثير (ج ١٠ ص ١٥٦) أن يوسف بن تاشفين لما استولى على بلاد الأندلس جمع الفقهاء وأحسن إليهم فقالوا له : ينبغى أن تكون ولايتك من الخليفة لتجيب طاعتك على الكفاية ، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) رسولا يحمل هداياه ومعه كتاب يذكر فيه مافتح الله عليه من بلاد الفرنجة في الأندلس وما قام به في سبيل نصرة الإسلام ، ويطلب إليه تقليدا بولاية البلاد التى دانت له ، فبعث إليه الخليفة تقليدا بالحكم ولقبه أمير المسلمين وأرسل إليه الخلع .

في جواز حل هذا اللقب ، فلم ير الخليفة بدأ من عرض هذا الامر على الفقهاء الذين اجتمعوا برئاسة الإمام الغزالي سنة ٤٨٤ هـ ، وأفتوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب بعد أن أحرز هذا النصر الإسلامي المؤزر على المسيحيين في موقعة الزلاقة . وهذا يدل دلالة واضحة على أن يوسف كان يصدر في أعماله عن وازع ديني لا جرياً وراء الشهرة ، لأن حياته كلها كانت تنسم بالزهد والتقشف .

على أن هناك شروطاً أخرى يجب أن تتوافر فيمن يرشح لأمرة المسلمين في الدولة المرابطية ، وهي أن يكون من قبيلة لمتونة ومن بيت وتنطق (بفتح الواو والتاء والطاء وسكون الراء والنون) بالذات ، وأن يكون ذا كفاية حربية عالية ، وأن يسير في سياسته على وفق تعاليم مذهب مالك ، وأن يرجع في إدارة دولته إلى رؤساء القبائل ، ويعمل برأى الفقهاء في الأمور السياسية والدينية (١) .

وقد تأثر شعب النيجر بصفة عامة وشعب الفلاني (بضم الفاء) في إفريقيا بصفة خاصة بأمراء المرابطين ، فأطلقوا على حكامهم لقب أمير المسلمين . وكان مذهبهم هو مذهب مالك ، مما يحمل على الظن أو شعب النيجر قد تأثر بالمرابطين الذين قاموا بنشر الدعوة الإسلامية في حوض النيجر (٢) وأنهم أخذوا بتلك الشروط التي وضعها المرابطون لمن يرشح لحكم الدولة المرابطية .

٨ — الخليفة الموحدي :

كان للوحدون يرون أنهم أحق بالخلافة من غيرهم ، لأنهم أكثر المسلمين إيماناً وأصحهم مذهباً . ولا غرو فقد استولى الموحدون على الأندلس ، وامتد نفوذهم إلى طرابلس شرقاً وإلى المحيط الأطلسى غرباً ، وحاولوا في عهد يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) الاستيلاء على مصر وما يليها من بلاد المشرق الإسلامي ، وكان عصرهم في المغرب والأندلس من أزهى العصور .

وقد أقر المهدي محمد بن تومرت : عبد المؤمن بن علي ، على الجيش ، وقال لاتباعه . « أنتم المؤمنون وهذا أميركم (٣) » . وبهذا لم يجد أتباع المهدي بن تومرت حرجاً في أن

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١١٤ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ١٢٣ .

(٣) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٨٨ .

بلقبوا عبد المؤمن بلقب أمير المؤمنين بعد أن خلف المهدي في زعامة الموحدين . وبذلك اتخذ عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين في المغرب لقب خليفة ، وتسمى أمير المؤمنين^(١) ، ولا سيما أنه كان ينتسب أيضاً إلى بيت النبوة . وبذلك تحددت رسوم الخلافة ببلاد المغرب في الوقت الذي أشرفت فيه الخلافة الفاطمية على الزوال (١١٧١ / ٥٦٧) :

٩ - الحفصيون والمربطون :

وبعد سقوط دولة الموحدين في المغرب والأندلس (١٢٦٨ / ٦٦٧) ظلت الدعوة الموحدية في إفريقيا (وهي بلاد تونس الحالية) حيث أقيمت على أيدي الحفصيين (٦٢٥ - ٩٤١ / ١٢٣٨ - ١٥٣٤) ، وهم فرع من الموحدين ، ينتسبون إلى الشيخ أبي حفص يحيى ابن عمر الهنتائي (من هنتانة إحدى بطون مسمودة) . وقد قام الشيخ أبو حفص يحيى بدور هام في نشر دعوة المهدي محمد بن تومرت وفي إسناد الخلافة الموحدية إلى عبد المؤمن بن علي ودعم نفوذ الموحدين في المغرب والأندلس ، بفضل زعامته لقبائل مسمودة التي تعتبر أكبر قبائل المغرب كافة^(٢) . ويرى أكثر المؤرخين أن الحفصيين ينتسبون إلى جدهم أبي حفص عمر ، وقيل إنهم ينتسبون إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وبفضل انتساب الحفصيين إلى قريش وانتسابهم إلى الرسول وقرباتهم من الموحدين ، استطاعوا أن يكسبوا حكمهم صبغة شرعية وأن يؤسسوا دولة مستقلة امتد نفوذها الأدبي في عهد السلطان أبي زكريا الحفصى سنة ٦٢٦ هـ من طرابلس شرقاً إلى سبتة غرباً وإلى سجلماسة جنوباً . وأعلن ابنه أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصى نفسه خليفة وتلقب بلقب أمير المؤمنين المستنصر في سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) ، أي بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي التتار وقتل الخليفة المستنصر العباسي بسنة واحدة .

وعلى أثر ذلك بايع شريف مكة وأهل الحجاز الخليفة الحفصى باعتباره وارثاً للخلافة العباسية ودعا له على منابر بلاده ولقبه أمير المؤمنين^(٣) . وبذلك أكسبت هذه البيعة

(١) وفي السنة الرابعة من ولاية عبد المؤمن أمر بسك نقود جديدة مربعة الجوانب تميزاً لها عن نقود المرابطين ونقش على أحد وجهيها : « لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله » ، وعلى الوجه الآخر (الله مولانا ومحمد رسولنا والمهدي إمامنا) .

(٢) المراكشي : المعجب ص ٣٣٩ - ٣٤١ .

(٣) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٦ - ٢٠٠ .

الخلافة الحفصية صبغة شرعية ، وأقيمت الخطبة للخليفة الحفصي على منابر المغرب واعترف بنو مرين عند تأسيس دولتهم بالخليفة الحفصي . كما أقيمت الخطبة للحفصيين على منابر الأندلس بعد أن حلت الهزيمة بالموحدين في موقعة العقاب (Das Navas de Tolosa)

في ١٥ صفر سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) ، وزال سلطان الموحدين ، وسقطت هذه البلاد في أيدي الأسبان ولم يبق في أيدي المسلمين سوى منطقة جبلية في جنوب شرقي أسبانيا ، حيث قامت بمسكة غرناطة الإسلامية على أيدي بني نصر أو بني الأحمر الذين تابعوا الخليفة الحفصي أقوى حكام المغرب في ذلك الحين ، وأقاموا له الخطبة على منابرهم ، وذلك لحماية دولتهم الناشئة من إغارات الأسبان .

وقد اقتدى بنو مرين في المغرب الأقصى (٥٩١ — ٨٧٥ / ١١٩٥ — ١٤٧٠) ، وبنو زيان ^(١) في المغرب الأوسط (٦٣٣ — ٧٩٦ / ١٢٣٥ — ١٣٩٣) ، الذين كون كل منهم دولته على أنقاض الدولة الموحدية ، بلوك بني نصر الأحمر ، في غرناطة ، فأقاموا الدعوة للخليفة الحفصي لكي يكسبوا حكمهم صبغة شرعية في نظر شعوبهم . وقد ظلت الحال على ذلك إلى أن أقام يعقوب المنصور الذهبي المريني (٦٥٦ — ٦٨٥ / ١٢٥٨ — ١٢٦٨) الدعوة لنفسه . وبذلك ظهرت في المغرب الكبير خلافة قوية هي الخلافة الحفصية التي امتد سلطانها الروحي على بلاد الحجاز شرقاً ، وإلى المغرب والأندلس غرباً ، وغدت حاضرتها تونس مركزاً سياسياً وثقافياً هاماً جذب إليها السفراء والعلماء من كافة أرجاء العالم .

ويذكر السلاوي الناصري أنه برغم تأصل الدعوة الموحدية في نفوس أهل المغرب ، رأى بنو مرين أنهم بحاجة لتأييد الحفصيين ، فأقاموا الدعوة لهم « تأليفاً لأهل المغرب واستجلاباً لمرضايتهم وإثباتاً لهم من ناحية أهوائهم ، إذ كانت صبغة الدولة الموحدية قد رسخت في قلوبهم ^(٢) » .

ولعل بني مرين الذين يفتخرون إلى قبيلة زناتة خطبوا ود الحفصيين المصامدة الذين هم أشد قبائل المغرب وأكثرهم عدداً ولم ينسوا مالحق بهم من هزائمهم على أيدي المصامدة الذين أقاموا الدولة الموحدية ، فكانت مسألة المرينيين للحفصيين سياسة تدل على بعد النظر .

(١) أو بنو محو أو بنو عبد الواحد أو بنو يغمراسن .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٣ ص ٢٨ .

وقد شعرت مصر بخطر الخلافة الحفصية التي كانت تهدف إلى مد نفوذها إلى سورية والحجاز ، تلك السياسة التي كانت تتعارض مع السياسة التقليدية التي كانت مصر تنهجها منذ عهد الطولونيين (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) ، فحرصت مصر على مد سلطانها إلى الحجاز والسيطرة على تجارة البحر الأحمر ، وعمل السلطان بيبرس أحد سلاطين المماليك الذي يرجع إليه الفضل في صد غارات المغول وإلحاق الهزيمة بزعيمهم هولاكو في موقعة عين جالوت^(١) المشهورة ، وبالصلبيين في الشام — حرصت على إحياء الخلافة في مصر بعد أن زالت من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . وكان بيبرس يرمى من وراء ذلك إلى تقوية عرشه وجعل حكمه شرعيا في البلاد ، كما كان يرمى إلى مد سلطانه على الحجاز والبحر الأحمر ، وإلى إضعاف نفوذ الحفصيين الأدنى في المشرق .

ولما دب الضعف إلى الخلافة الحفصية أبطل يعقوب المنصور المريني الدعوة للحفصيين بالأندلس والمغرب ، واتخذ ملوك بني الأحمر في غرناطة لقب خليفة . وأخذ بنو مرين يتدخلون في شؤون الدولة الحفصية واستولوا على حاضرتهم تونس غير مرة ، وتلقب سلاطينهم بلقب أمير المسلمين^(٢) .

وفي سنة ٦٥٦ هـ سقطت الدولة العباسية ، فانتهت الخلافة بنظامها القديم ، واختل نظامها حتى أصبح في استطاعة كل أمير قوى تغلب على بلد من البلاد الإسلامية أن يلقب نفسه بلقب خليفة ، ولم ير ما يدعو إلى الإلتجاء إلى الخلفاء العباسيين في القاهرة للحصول على تفويض شرعي بالحكم . ولذلك نرى المغول بعد أن اعتنقوا الإسلام لا يحفلون بالخلفاء العباسيين في القاهرة : ففي فارس اعتنق غازان (١٢٥٩ - ١٣٠٤ م) الإسلام ، ودعى له على المنابر بهذه الألقاب وهي « السلطان الأعظم و السلطان الإسلام والمسلمين » ، وتلقب الشاه رخ (بضم الراء وسكون الزون مع التشديد) بلقب ، خليفة ، كما تلقب أبو عبد الله محمد الحفصي في تونس (١٢٤٩ - ١٢٧٧ م) بلقب خليفة ، وتلقب أبو عنان فارس (١٣٤٨ - ١٣٥٨ م) أحد أمراء الأسرة المرينية في المغرب بألقاب خليفة وأمير المؤمنين وإمام ، واتخذ علاء الدين خلجي وأوزون حسن التركاني (١٤٥٣ - ١٤٨٧ م) لقب خليفة . وكذلك كان شأن محمد شيباني (١٥٠٠ - ١٥١٠ م) مؤسس دولة أوزبك Uzbek في بلاد ماوراء النهر . بل لقد أطلق سلاطين المماليك في مصر — مثل قايتباي وقانصوه الغوري — على أنفسهم لقب إمام .

(١) هي بليدة بين ييسان ونابلس من أعمال فلسطين .

(٢) السلاوي الاستقصا ج ٣ ص ٢٨ .

وبهذا التعدد في نظام الخلافة أصبحت كلمة « خليفة » لاتدل على الحاكم الروحي المتسلط على العالم الإسلامي ، وإنما أصبحت تدل كما يقول سيرنوماس أرنولد^(١) على مجرد حاكم ، أى أن سقوط بغداد كان معناه انقراض الخلافة بمعناها التقليدى^(٢) .

١٠ — الخلافة الفاطمية

(٢٩٧ — ٥٦٧ / ٩٠٩ — ١١٧١)

كان قيام الخلافة الفاطمية في المغرب في أواخر القرن الثالث الهجرى نتيجة لهذا الصراع العنيف بين السنيين والشيعة . فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين لأنهم أولاد على كرم الله وجهه ، وهو ابن عم الرسول الكريم وزوج ابنته فاطمة الزهراء وظل العلويون يناضلون في سبيل هذه الزعامة ، بالسيف نارة وبالدهاء نارة أخرى ، حتى توجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية في المغرب التي أصبحت تنافس الخلافة العباسية في المشرق .

وقد قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الإمام وعصمته ، ولقيت نظرية الحق الملكى المقدس التي كانت سائدة في بلاد الفرس في عهد آل ساسان ، والتي أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد ، قبولاً عند الخلفاء الفاطميين ، وأصبح الإمام في نظر الناس ظل الله في الأرض ، كما أصبح شخصاً مقدساً .

وكان الخلفاء الفاطميون يلقبون بألقاب كثيرة منها ، الخليفة الفاطمى أو العلوى ، وأمير المؤمنين . ومن الألقاب المحبة إلى الإسماعيلية ، لقب إمام ، وصاحب الزمان ، وسلطان ، والشرىف القاضى ، كما يظهر من مخاطبة قاضى القضاة الخليفة في صلاة الجمعة « الشرىف القاضى الخطيب » . وكان السنيون يطلقون عليهم « العبيديين » ، نسبة إلى عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ؛ كما كان يطلق عليهم « العلويون » نسبة إلى على ابن أبى طالب ، و « الفاطميون » ، نسبة إلى فاطمة الزهراء ، كما كان يطلق عليهم « السلاطين » . وكان الفاطميون يقرنون اسم الله سبحانه بأسمائهم : فوجد مثلاً : المعز لدين الله ، والعزىز بالله ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر لدين الله ، والمستنصر بالله .

(١) The Caliphate, p. 88.

(٢) راجع كتاب النظم الإسلامية المؤلف (الطبعة الثالثة ١٩٦٤) ص ٨١ — ٨٦ .

وقد اتخذ أمراء الأيوبيين لقب « ملك ». أما المهاليك فقد تلقبوا بلقب « سلطان » وأصبح لقب ملك يطلق على بعض الأمراء وخاصة على بقايا الأيوبيين في بلاد الشام .

وقد حذا الفاطميون حذو الأيوبيين والعباسيين في تولية أبنائهم العهد . فكان الخليفة إذا شعر بدنو أجله ، عهد بالخلافة إلى أحد أبنائه ، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته . وكثيراً ما كان الخليفة الجديد يستر موت أبيه إذا وجد ما يهدد ملكه ، ثم أصبح اختيار الخليفة بيد القواد وغيرهم من كبار رجال الدولة ، فلم يراعوا في اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه . كما فعل بدر الجمالي وابنه الأفضل من تفضيل المستعلي على أخيه نزار الذي كان أبوه المستنصر قد عهد إليه بالخلافة من بعده لأنه أكبر أبنائه .

والواقع أن الفاطميين كانوا ينظرون إلى الخليفة الفاطمي باعتباره إماماً يرث أباه عن طريق التعيين بالنص ، وأنه لا بد أن يعين الخليفة أو الإمام ولي عهده قبل وفاته ، حتى لا يخلو العالم من إمام . وكان لهذه الطريقة ميزاتها وعيوبها . فقد كان صغر سن الخليفة وقلة تجاربه ونقص كفايته من عوامل ضعف الخلافة الفاطمية وسقوطها في النهاية (١) .

وبعد وفاة الخليفة المستنصر نصب الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ابن أخته أبا القاسم أحمد بن المستنصر ولقبه « المستعلي بالله » . وقد أدى ذلك إلى انقسام أشياع الفاطميين إلى فريقين : فريق نادى بإمامة المستعلي فسموا المستعليين ، وفريق آخر نادى بإمامة نزار الابن الأكبر للخليفة المستنصر ، فسموا النزاريين .

وقد استبدت بالسلطة في عهد الأمر الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي . وقد اعتنق مذهب الإمامية الاثنا عشرية ؛ فأبطل الموالد الأربعة التي كان يحتفل بها الفاطميون في كل سنة ، وهي مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد علي كرم الله وجهه ، ومولده فاطمة الزهراء ، ومولد الإمام الحاضر (الأمر) . ولكن هذه الموالد قد أعيد الاحتفال بها بعد أن قتل الوزير الأفضل بتدبير هذا الخليفة ، وذلك سنة ٥١٥ هـ .

ولي الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) الخلافة بعد مقتل ابن عمه الأمر بن المستعلي على يد فريق من النزاريين . على أن الأمر ترك طفلاً أقام أنصار الفاطميين الدعوة لعفي اليمن ، ولقبوه الإمام الطيب . وبذلك خرجت بلاد اليمن عن طاعة الخليفة الحافظ ، وانقسمت الدعوة

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٢ — ٢٦٧ .

(٢١ م — تاريخ الإسلام — ج ٤)

الإسماعيلية بسبب ذلك إلى مستعلية نسبة إلى المستعلي بن المستنصر ، وطبيبه نسبة إلى الطيب بن الأمر وحفيد المستعلي (١) .

وقد انتهر صلاح الدين الأيوبي فرصة مرض الخليفة العاضد الفاطمي ودعا للخليفة المستنضي العباسي (المحرم ٥٦٧ / ١١٧١) ، كما أمر بالدعاء له أيضاً على منابر بلاد اليمن والشام وفلسطين التي كانت تابعة للخلافة الفاطمية ، فوجه الخليفة العباسي تفويضاً بحكم هذه البلاد ، وتم هذا التغيير دون أن يبق أبية مقاومة . وفي ذلك يقول ابن الأثير (٢) : « فلم ينتطح فيها عزان » . ولم يلبث الخليفة الفاطمي أن توفي في العاشر من المحرم سنة ٥٦٧ هـ . وكان من أثر هذا التحول أن أصبحت مصر منذ ذلك الحين تابعة للخلافة العباسية تبعية إسمية ، وأصبح يدعى للخليفة العباسي على المنابر (٣) .

١١ — اعتراف الأيوبيين بالخلافة العباسية :

ذكرنا من قبل أن صلاح الدين الأيوبي أمر بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستنضي على منابر القاهرة بدل الخليفة الفاطمي العاضد الذي مات في شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) دون أن يعلم بهذا التغيير .

وقد أرسل صلاح الدين إلى نور الدين محمود صاحب حلب (٤) يخبره بذلك ، فأشاد أحد الشعراء بهذا الحادث وأنشده .

قد خطبنا للمستنضوي بمصر نائب المصطفى لإمام العصر
واستنارت غزائم الملك العادل نور الدين الهمام الأغر
ولما علم الخليفة العباسي بإقامة الخطبة له بمصر أرسل إلى نور الدين وصلاح الدين الخلع إعراباً عن رضاه عليهما . وبذلك اعترف الأيوبيون بالخليفة العباسي في بغداد وأقاموا له الخطبة على منابر بلادهم ، ونقشوا السكة باسمه .

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧٦ — ١٧٧ ، ٢٦٦ — ٢٦٧ .

انظر ما ذكرناه في الباب السابع .

(٢) السكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٤٧ — ١٤٩ .

(٣) انظر كتابي : النظم الإسلامية ص ٩٠ وما يليها .

(٤) ذكر المؤرخون أن نور الدين محمود هو الذي أمر صلاح الدين بإقامة الخطبة للخليفة العباسي

المستنضي .

ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب (نوفمبر ١٢٤٩) أخفت زوجته شجر الدر خبر موته حتى لا يتطرق الضعف إلى نفوس المسلمين أمام الصليبيين الذين تقدموا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا إلى المنصورة وكادوا يدخلون قصر السلطان . ولكن المصريين بقيادة بيبرس أحلوا الهزيمة بالفرنسيين وطاردوهم وقضوا على جيشهم في موقعة فارسكور سنة ١٢٥٠ م وحلّوهم على إخلاء دمياط .

وبذلك اشتد نفوذ المماليك الذين كانوا يكونون الجزء الأعظم من جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقتلوا ابنه توران شاه لسوء معاملته لهم ، وولوا شجر الدر زوجة أبيه السلطنة . فقتربت إليها المماليك ومنحتهم الإقطاعات وخففت الضرائب عن الناس . ولكن المصريين كرهوا حكمها ، إذ لم تخرج عادة للمسلمين أن يتقلد حكمهم امرأة .

ولما أرسل أمراء المماليك إلى الخليفة العباسي المستعصم ببغداد يطلبون منه إقرار تولية شجر الدر حكم مصر ، أرسل إليهم كتاباً يقول فيه : « إن كانت الرجال قد عذمت عنكم فأخبرونا حتى نسير إليكم رجلاً »^(١) . ولما علمت شجر الدر بذلك آثرت المحافظة على كيان الدولة ، وأعربت عن رغبتها في خلع نفسها من الحكم حفظاً لكرامتها من أن تتمن بالعزل ، فأشار عليها القضاة والأمراء بأن تزوج من عز الدين أيبك^(٢) أتابك^(٣) المعسكر ، وتقوض إليه أمور المملكة ، فزات عن حكم مصر بعد ثمانين يوماً^(٤) أظهرت فيها حكمة نادرة في تصرف الأمور .

ولما نخلت شجر الدر عن العرش نصب المماليك عز الدين أيبك سلطاناً عليهم ولقبوه المعز . على أن أيبك أثار غضب زوجته شجر الدر بسبب خطبته لإحدى أميرات الموصل فتآمرت على إغتياله ، فقتل سنة ١٢٥٧ م ، فانتقم له ابنه نور الدين الذي تقلد السلطنة من بعده ، فأوعز إلى بعض الجوارى فقتلها . ثم اجتمع العلماء والقواد ، وخلعوا نور الدين ، وقلدوا قطز (بضم القاف والطاء) سلطنة مصر .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦٨ .

(٢) بفتح الألف والباء وسكون الياء .

(٣) ومعناه مربى الأمير . وأول من لقب بهذا اللقب نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلاجوقى ، الذى فوض إليه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ . وقد تحول هذا اللقب لقباً عسكرياً فى عصر المماليك فأصبح يطلق على القائد العام للجيش .

(٤) ابن لياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٩٠ .

وإلى بيبرس أحد قواد الممالك يرجع الفضل في إلحاق الهزيمة بالمنول في موقعة عين جالوت^(١). ولم يلبث أن اشتد نفوذه وتولى حكم مصر. وفي عهده انتقلت الخلافة إلى القاهرة بعد أن زالت من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)^(٢).

(ب) الوزارة

١ — الوزارة في عهد السلاجقة

٤٤٧ — ٦٥٦ / ١٠٥٥ — ١٢٥٨

يلاحظ على عصر السلاجقة الذي يربو على قرنين من الزمان :

(١) كثرة الوزراء الذين اشتهر بعضهم بتشجيع العلوم والآداب ومهروا في الإدارة والسياسة والحرب.

(٢) تفاقم خطر الباطنية في فارس الذين ذهب ضحيتهم كثير من الوزراء وكبار رجال الدولة العباسية الذين عملوا على قمع هذه الحركة.

(٣) مصادرة أموال بعض الوزراء وحبسهم عند عزلهم من مناصبهم لابتزازهم أموال الناس وقضاء حاجاتهم عن طريق الرشوة.

(٤) ظهور المنافسة والفساد والرشوة ابتغاء الوصول إلى دست الوزراء.

ومع ذلك فقد أسندت مقاليد الوزارة إلى كثير من مشهورى الوزراء ، نذكر منهم على سبيل المثال : الوزير السكندرى ، ونغر الدولة بن جهمر ، وابنه عميد الدولة ، وأبا شجاع ، ونظام الملك وأبنائه ، وابن صدقة ، والشريف أبا القاسم الزينى ، وأنوشروان خالده ، وابن هبيرة ومؤيد الدين بن العلقمى الذى زالت الدولة العباسية في عهد وزارته .

بعد أن عاد الخليفة العباسى القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) إلى بغداد بمساعدة السلطان طغرل بك السلجوقى اتخذ أبا الفتح بن دارست وزيراً له^(٣) ، فظل في الوزارة حتى خلفه نغر الدولة بن جهمر سنة ٤٥٤ هـ ، ثم عزل في سنة ٤٦٠ هـ ، ثم أعيد إلى الوزارة .

وقد اشتهر من أولاد نغر الدولة بن جهمر زعيم الرؤساء ، وكان يتولى ديوان الزمام ، كما اشتهر منهم عميد الدولة . وقد ذكر المؤرخون أنه حمل رسالة الخليفة القائم إلى السلطان

(١) بليلة بين بيسان وناپلس بفسطين .

(٢) أنظر حسن إبراهيم حسن : المجلد في التاريخ المصرى (القاهرة ١٩٤٢) ص ١٩١ — ١٩٢ .

(٣) أنظر البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق .

ابن الأثير : السكامل حوادث سنة ٤٥٤ / ٤٦٧ .

طغرل بك السلجوقي في الري وأنه نجح في مهمته بفضل زواجه من ابنة الوزير نظام الملك (٤٦٢ هـ) ، فقد رله الخليفة كفايته ومهارته السياسية فاستوزره . وفي سنة ٤٦٣ هـ رحل عميد الدولة بن جهمير إلى نيسابور يحمل هدايا القائم إلى السلطان ألب أرسلان يطلب زواج ابنة السلطان من حفيد الخليفة .

وعلى الرغم مما اشتهر به عميد الدولة بن جهمير من المهارة السياسية كان - كما وصفه ابن الأثير^(١) وابن خلـكان^(٢) « عظيم الكبر يكاد يعد كلامه عدا ، وكان إذا كلم إنساناً كلمات يسيرة حتى ذلك الرجل بكلامه » .

وقد ظل عميد الدولة في الوزارة حتى عزل في سنة ٤٦٧ هـ ، خلفه ظهير الدين أبو شجاع^(٣) وكان أديباً فذا ومؤرخاً لامعاً طالما أفاد المؤرخون من تاريخه الذي يتناول الكلام على الدولة العباسية من سنة ٣٦٩ هـ إلى سنة ٣٨٩ هـ ، وهو الجزء الذي عثر عليه المؤرخون من تاريخه ، ويعتبر ذيلاً لكتاب تجارب الأمم لمسكويه . وكان أبو شجاع يقضي بين الناس بالعدل ويجلس للمظالم بعد صلاة الظهر ، فينادى الحجاب في الناس : من كانت له حاجة فليعرضها .

وكان أبو شجاع ليناً حليماً متسامحاً . فلما وقعت الفتن بين أهل السنة والشيعة في الكرخ وباب البصرة ببغداد حرص هذا الوزير العالم على تهدئة الخواطر وحال دون إراقة الدماء . ولم يؤثر عن وزير حج بيت الله أيام وزارته غير أبي شجاع والبرامكة من قبله ، ثم اعتزل أبو شجاع الوزارة بعد أن أحس بكيد حساده له وتديبرهم الدسائس من حوله ، وتزهد ولبس ثياب القطن وأقام بمدينة الرسول يكنس المسجد النبوي ويفرش الحصر ويشعل المصابيح وعليه ثوب من غليظ الخام^(٤) .

وبما يؤثر عن أبي شجاع أنه برغم زهده وعليه أقصى عن الوزارة سنة ٤٨٤ هـ فأشدد عند عزله هذا البيت :

تولاها وليس له عدو وفارقها وليس له صديق^(٥)

(١) الكامل ج ١٠ ص ٢٠٣ (حوادث سنة ٤٦٣ هـ) .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٨٤ . ابن خلـكان ج ٢ ص ٢٨٦ . البنداري . تاريخ

دولة آل سلجوق ص ٧٨ .

(٤) الفخرى ص ٢٦٤ .

(٥) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٨ — ٧٩ .

ثم أعيد عميد الدولة بن جهمير إلى الوزارة في هذه السنة^(١). فظل فيها في السنوات الأولى من خلافة المستظهر (٤٨٧ — ٥١٢ هـ). وكان عميد الدولة يعمل تحت نفوذ مؤيد الملك ابن نظام الملك، وانتهى أمره بالعزل والسجن سنة ٤٩٢ هـ.

ومن وزراء العصر السلجوقي الأول أبو علي الحسن بن علي بن صدقة. وقد استوزره الخليفة المسترشد (٥١٢ — ٥٢٩ هـ) سنة ٥١٣ هـ وألقبه بهذه الألقاب وهي: «جلال الدين سيد الوزراء صدر الشرق والغرب ظهير أمير المؤمنين^(٢)».

وكان ابن صدقة عالما بقوانين الملك واشتهر بحب الخير للناس. ولكن ظهير أمير المؤمنين لم يلبث أن عزل عن الوزارة، لأن وزير السلطان السلجوقي حقد عليه، ثم زال سوء التفاهم بين الوزيرين وأعيد ابن صدقة إلى الوزارة وخلع عليه الخليفة المسترشد وأمر أرباب الدولة أن يشوا بين يديه إذا سار إلى ديوان الوزارة، فكان «أول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه^(٣)».

ومن وزراء العصر السلجوقي الأول أو عصر السلاجقة العظام نقيب النقباء الشريف أبو القاسم علي بن طراد الزينبي. وكان ملما بقوانين الوزارة وقواعد الملك. استوزره الخليفة المسترشد سنة ٥٢٣ هـ، فظل في الوزارة حتى سنة ٥٢٦ هـ. ثم أعيد إليه سنة ٥٣٠ هـ. وقد عبر له الخليفة المقتفي (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) عن تقديره لمواهبه وكفاءته بهذه العبارة وهي: كل من ردت إليه الوزارة شرفها إلا أفت فإن الوزارة شرفت بك، وأمر أرباب المناصب العالية في الدولة بأن يسيروا بين يديه إلى ديوان الوزارة^(٤).

وقد استوزر سلاطين السلاجقة طائفة من مشهورى الوزراء من أمثال السكندرى (بضم الكاف والداد وسكون الذال) ونظام الملك وأنان وأونور واور خالد. فقد استوزر السلطان طغرل بك (٤٢٩ — ٤٥٥ هـ) عميد الملك السكندرى ولمسات هذا السلطان أجلس السكندرى سليمان بن داود، وكان عمه طغرل بك قد أوصى بأن يحلفه في السلطنة. على أن ألب أرسلان ثار على أخيه وجلس على عرش السلطنة مر بعده بمساعدة وزيره

(١) المصدر نفسه ص ٧٩.

(٢) الفخرى ص ٢٦٥.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٩ — ٢٧٠.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٧١.

نظام الملك . وسرعان ما قبض على الوزير الكندري وأرسل إلى مرو حاضرة خراسان حيث اعتقل أكثر من سنة ، ثم قتل بأيدى غلامين أرسلهما إليه السلطان الجديد بعد أن وزير الطغرل بك ثمان سنين وأشهرًا كما تقدم (١) .

ولما ولي ألب أرسلان السلطنة بعد عمه طغرل بك سنة ٤٥٥ هـ أسند مقاليد الوزارة إلى نظام الملك وعهد إليه بتثيئة ابنه ملكشاه وقال له : « هذا حسن الطوسي (يعني نظام الملك) فتسله واتخذ والدًا لانتقاله » . وقد اتخذ ألب أرسلان نظام الملك وزيرًا له قبل أن يجلس على عرش السلطنة .

وكان نظام الملك ساعد السلطان ملكشاه الأمين ومدير مملكته ومستشاره الأمين . وقد قبض هو وأولاده الاثنا عشر على زمام الأمور في الدولة السلجوقية ، « فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد » على حد تعبير ابن خلكان (٢) .

وكان من أثر الاضطرابات التي عمت أطراف الدولة السلجوقية ، وما أداه نظام الملك من خدمات جليلة وما ظهر من شجاعته وكفايته في الازمات الخطيرة أن منحه السلطان ملكشاه لقب « أنالك » .

وكان نظام الملك عالمًا دينيًا جوادًا عادلًا حليما كثير العفو طويل الصمت . وكان مجلسه حافلا بالفقهاء . واشتهر ببناء المدارس النظامية المشهورة ، وأسقط المكوس والضرائب . وكان يحل أهل العلم ولا يشجع الشعراء لأنه لم يكن يجيد نظم الشعر .

وقد ذهب نظام الملك وأبناؤه كما ذهب البرامكة وبنو سهل من قبل ضخمة الدسائس التي دبرها لهم حسادهم ومنافسهم . ومات نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ بعد أن تقلد الوزارة لألب أرسلان وملكشاه نحوًا من ثلاثين سنة ، كما تقلد الوزارة لألب أرسلان صاحب خراسان من قبل عمه طغرل بك قبل أن يتولى السلطنة .

وقد ذكر المؤرخون أن عز الملك بن نظام الملك أخرج بركياروق أكبر أبناء ملكشاه بعد أن قبض عليه وأرسل إلى أصبهان حيث سجن . وذلك لإفساح الطريق لجلوس أخيه الصغير محمود على عرش السلطنة بعد موت أبيه . ولما ولي بركياروق السلطنة سنة ٤٨٧ هـ قلد عز الملك الوزارة وفوض إليه أمور دولته (٣) .

(١) انظر ص ٢٠ — ٢١ من هذا الجزء .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩٦ .

(٣) البنداري ص ٨٠ — ٨١ .

وقد ساعد مؤيد الدولة بن نظام الملك محمد بن ملكشاه على أخيه السلطان بركياروق لانه أقصاه عن الوزارة وأسندهما إلى أخيه عز الملك بن نظام الملك . وقد قام الخلاف بين هذين الآخرين على ثروة أبيهما كما قام على التنافس على الوزارة (١) .

ومن وزراء هذا العصر من أبناء نظام الملك : أبو نصر أحمد . وقد حكم بين الناس بالعدل ورفع عنهم الظلم . روى ابن طباطبا (٢) أن الخليفة المسترشد (٥١٢ — ٥٢٩ هـ) لما عزم على عمارة سور بغداد فرض على الناس خمسة عشر ألف دينار ، فأدى الوزير أبو نصر هذا المال عن الناس من ماله الخاص . وقد نقل أنوشروان خالد بن محمد القاشاني وزير الخليفة المسترشد الوزارة للخلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة . وكان يعتذر عن قبول الوزارة . وهو الذي صنف له الحريري « المقامات الحريرية » . وقد اشتهر هذا الوزير بالتواضع حتى إنه كان يقوم لسكل من دخل عليه كبيراً كان أو صغيراً .

ومن وزراء العصر السلجوقي الأول : محمد بن محمد بن جهمير (٣) ومؤتمن الدولة بن صدقة ويحيى بن هبيرة . وقد جمع ابن هبيرة بين السياسة والعلم وبين الطيبة والدهاء وبين القلم والسيف . وإليه يرجع الفضل في إزالة آخر نفوذ للسلطان السلجوقي في العراق وإعادة هيبة الخلافة (٤) في عهد المقتدي العباسي (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) . « ورزق من الشعر والشعراء ما لم يرزقه أحد حتى زاد مامدح به من القصائد على مائتي ألف بيت (٥) .

ولما استوزر الخليفة الناصر (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ) مؤيد الدين القمي خلع عليه الوزارة ، فجلس في كرسي الوزارة والناس بين يديه ، فبرز من حضرة الخليفة مكتوب لطيف في قدر الخنصر بخط يد الخليفة ، فقرأ على الناس وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ! محمد بن برز القمي نائبنا في البلاد والعباد . فن أطاعه فقد أطاعنا ، ومن أطاعنا فقد أطاع الله ، ومن أطاع الله أدخله الجنة ؛ ومن عصاه فقد عصانا ، ومن عصانا فقد عصى الله ، ومن عصى الله أدخله النار » ، فسما القمي بهذا التوقيع في أعين الناس وعلت منزلته (٦) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٢) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٧٢ .

(٣) الفخرى ص ٣٦٦ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٥٩ — ٣٦٣ .

(٥) انظر ما كتبه الدكتور جواد علي في مجلة الأستاذ (بغداد ١٩٦٠) ص ١٢٨ .

(٦) الفخرى ص ٣٣٦ .

وكان مؤيد الدين محمد بن العلقمى آخر وزراء الخلفاء العباسيين وكان ، كما وصفه صاحب الفخرى ، من أعيان الناس وعقلاء الرجال . وقد عرف بشغفه بالسكتب وتقريب أهل العلم ورجال الآداب . وكان عقيقاً عن أموال الناس مترفعاً عن أموال الدولة . وقد رماه خصومه بأنه زين للخليفة المعتصم تسليم بغداد لهولاءكو وأنه اتفق مع نصير الدين الطوسي وزير هولاءكو على ذلك . وكان كل من هذين الوزين يدين بمقائد المذهب الشيعى .

وقد عزا بعض المؤرخين ما قام به الوزير ابن العلقمى إلى ما حل بالشيعيين من الاضطهادات على يد أكبر أبناء الخليفة المستعصم . على أن موت هذا الوزير العالم النزيه بعد موت الخليفة بثلاثة أشهر لينهض دليلاً على عدم صحة ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون الذين رموه بخيانة بلاده .

٢ — الوزارة فى مصر :

على الرغم من العظمة التى كان يتمتع بها الوزير فى العصر الفاطمى الأول كانت سلطته محدودة ؛ إذ كان بقاءه فى مركزه يتوقف على رضا الخليفة . غير أن تلك العظمة لم تلبث أن تبدلت ، ولا سيما فى العصر الفاطمى الأخير (٤٦٥ — ١٠٩٣/٥٦٧ — ١١٧١) ، بمعنى أن الوزارة أصبحت وزارة تفويض بعد أن كانت وزارة تنفيذ .

وفى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) قامت وزارة التفويض ، كوزارة يحيى البرمكى وابنه جعفر فى عهد هارون الرشيد . فقد استدعى المستنصر بدر الجمالى والى عكا لإصلاح أمور مصر على أثر « الشدة العظمى » التى استمرت بها سبع سنوات (٤٥٧ — ٤٦٥ هـ) ، بعد أن أخفق الوزير اليازورى فى تخفيف المجاعة التى اشتدت وطأتها . ويتبين لنا مبلغ تزعر مركز الدولة الفاطمية^(١) من تعاقب أربعين وزارة مختلفة فى تسع سنوات . وكان المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين من الضعف بحيث لم يبق لهم من الأمر شىء حتى أطلق على هذا العصر « عصر الوزراء العظام » .

وقد قبض بدر الجمالى على زمام السلطة سنة ٤٦٥ هـ . وظل فى مصر إلى أن مات فى خلافة المستنصر ؛ فتولى الوزارة بعده ابنه الأفضل الذى استبد بالسلطة حتى أصبح المستنصر فى عهده كالحجور عليه حتى مات .

(١) ابن منجب : الإشارة إلى من نال الوزارة من ٤٠ — ٤١ .

فولى الأفضل المستعلى بن المستنصر الخلافة دون أخيه نزار الذى كان أبوه قد ولاه العهد قبل وفاته .

وكان المستعلى مسلوب السلطة مع خاله الأفضل ، وظلت الحال على ذلك إلى عهد الأمر (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) الذى فكر فى قتله ، وتم ذلك ، فبالت الوزارة إلى أبى عبد الله المأمون بن البطائى .

وكان النزاع الذى قام بين الخلفاء والوزراء من سمات العصر الفاطمى الأخيرة وربما كان ذلك نتيجة تولى الاطفال عرش هذه الدولة . وقد بلغ من ازدياد سلطة الوزير فى هذا العصر أن أضيف إلى ألقابه ألقاب تدل على هذا المعنى . ومن هذه الألقاب التى تلقب بها أبو على الأكمل حفيد الوزير بدر الجمالى : « ناصر إمام الحق وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ، مولى النعم ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتى السيف والقلم » . وتلقب رضوان بن الوحشى وزير الحافظ « السيد الملك الأفضل ^(١) » ، وظل الوزراء يتمتعون بهذا اللقب منذ ذلك الحين .

وفى أواخر عهد الخليفة العاضد الفاطمى (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ) تقلد الوزارة أسد الدين شيركوه بعد أن قتل شاور بأمر نور الدين محمود بن زنكى . ولكن شيركوه مات بعد أن حكم شهرين ، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذى تلقب بالملك الناصر بعد أن قضى على الدولة الفاطمية وأسس الدولة الأيوبية كما تقدم .

٣ — الوزارة فى المغرب :

لم يعن المؤرخون ببحث نظام الوزارة فى عهد المرابطين ، بل لقد اتخذوا من الكتابة والوزارة نظاماً ثابتاً . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن عمال الدولة كانوا يتمتعون بنفوذ طغى على نفوذ هؤلاء الذين كانوا يلونهم من كبار الموظفين . على أنه مما لا ريب فيه أنه كان للمرابطين موظفون يرجعون إلى مشورتهم ، وأنه كان لهم كتاب يشرفون على الدواوين المختلفة ، كدواوين الرسائل أو دواوين الإنشاء ، مما جعل المؤرخين يخلطون بين هؤلاء وأولئك ، فيسمون هؤلاء المستشارين وزراء ، والآخرين كتاباً ^(٢) .

(١) كتاب الاعتبار أو حياة أسامة (بن منقذ) (باريس ١٨٨٩) ص ٢٢ .

(٢) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٨ .

وكان للمرابطين وزراء إقليميون^(١) لم يكونوا في الواقع غير أصحاب ديوان الإنشاء^(٢) كما كان لهم وزراء مركزيون يقيمون بمدينة مراکش .

ومهما يكن من شيء فإنه لم يكن عند المرابطين مجلس وزراء ، وإنما كانت هناك هيئة استشارية يشترك فيها طائفة من الفقهاء والأعيان والكتاب . وكان أهم هذه الدواوين : ديوان الرسائل أو الإنشاء ، ويرأسه موظف كبير يعرف بالكتاب . ولا يبعد أن تكون هناك دواوين متعددة يشرف على كل منها كاتب يقوم بعمل الوزير . ولم يتمتع الوزير في عهد المرابطين بما كان يتمتع به وزراء التفويض مثلاً في عهد العباسيين والفاطميين ، ولا الحجاب في عهد الأمويين في الأندلس ، لتمتع نواب أمير المسلمين بالسلطة المطلقة في نياباتهم . ولم يكن في الدولة المرابطية ما يطلق عليه اسم الوزير أو رئيس الوزراء ، لأن النفوذ كان ينحصر في يد أمير المسلمين نفسه ، ولأن الدولة المرابطية كانت تقوم على مشورة للفقهاء على مذهب الإمام مالك أكثر مما تقوم على السياسة .

٤ — الوزارة في الأندلس :

لم يكن إطلاق لفظ الوزارة في الدولة الأموية شائعاً كما كان في الدولة العباسية في الشرق وفي الدولة الفاطمية في مصر ، بل كان يطلق على من يتقلد الوزارة في الأندلس اسم الحاجب تارة واسم الوزير تارة أخرى . ولهذا نرى أن الحاجب في الدولة الأموية في الأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذي يحجب السلطان عن الخاصة والعامة كما كانت الحال عند الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين ، وإنما قصد به هنا من يتولى الوزارة بمعناها المعروف ، فكان الحاجب ، كما ذكر ابن خلدون^(٣) ، يقوم بعمل رئيس الوزارة اليوم ، ويتولى رئاسة مجلس الوزراء الذي يشرف على شئون الدولة .

وقد وزعت أعباء الوزير أو رئيس الوزراء كما يسمى اليوم بين جماعة من كبار موظفي الدولة الاستعانة بهم ومشاورتهم ، ويختار منهم الأمير أو الخليفة شخصاً يسميه الحاجب ، وجعل للبالية وزيراً ، وللرسائل وزيراً وللظالم وزيراً ، ولانظر في أحوال أهل الثغور أو الولايات وزيراً وهكذا . وقد جعل لهم مكان خاص يجتمعون فيه وينفذون أوامر

(١) المراكشي : المعجب من ١٦٤ . صلة الصلاة من ٨٢ .

(٢) صلة الصلاة من ٨٢ .

(٣) مقدمة من ٢٠٨ .

السلطان ، كل في دائرة اختصاصه . واختير أحدهم للتردد على الأمير أو الخليفة والنيابة عنه في كل وقت ، وقد عرف باسم الحاجب . وظلت الحال على ذلك حتى عهد ملوك الطوائف ، فأصبح اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم ، وغدا الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذى الوزارتين^(١) .

ولم يكن مجلس الحاجب ، أو بعبارة أخرى مجلس الوزراء ، هو وحده الذى يدير شئون الدولة ، بل كان إلى جانبه مجلس آخر يسمى « مجلس الشورى » يرأسه الأمير أو الخليفة ، ويضم كبار رجال الدولة وبعض الأمراء من أفراد البيت الأموى .

وكاز عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) أول من لقب وزيره بذى الوزارتين ، مقتدياً فى ذلك بالعباسيين ، لجمعه بين خطى السيف والقلم . فى سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م) لقب الخليفة الأموى فى الأندلس أحمد بن عبد الملك بن شهيد ذا الوزارتين ، وضاعف له راتبه . وكان هذا الموظف يقوم ببعض أعمال الحاجب إذا اشتد ضغط العمل عليه . وقد أسند الأمويين الوزارة أحياناً إلى غير المسلمين من أهل الذمة ، كما فعل عبد الرحمن الناصر مع حسداى بن شبروط الذى بعث به سفيراً إلى « أوتو » إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولما ضعفت الدولة الأموية فى الأندلس ازداد نفوذ الحاجب ، حتى إن الخليفة لم يعد له من الأمر شيء . وأحسن مثل لذلك المنصور بن أبى عامر الذى تخلص من جعفر المصعفى الحاجب فى عهد هشام المؤيد (٣٦٦ — ٣٩٩ هـ) ليصفو له الجو فى بلاد الأندلس ، وخلفه فى كرسي الحجابة ، وأصبح الحاكم المطلق للدولة الأموية فى هذه البلاد ، حتى دعى له على المنابر ، وضربت السكة باسمه بعد الخليفة ، ونقش اسمه على الملابس المنسوجة بالذهب كما كان ينسج اسم الخلفاء^(٢) .

(د) السكتات :

وقد زخر العصر العباسى الأول بطائفة من السكتات لم يسمح الدهر بمثلم . فقد اشتهر يحيى بن خالد البرمكى والفضل بن الربيع فى عهد هارون الرشيد ، والفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يوسف فى عهد المأمون ، واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات والحسن ابن وهب وأحمد بن المدبر فى عهد المعتصم والواثق .

(١) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) أنظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ (الطبعة السابعة القاهرة ١٩٦٥)

وكان ملوك فارس يسمون كتاب الرسائل ترجمة الملوك ، وكانوا يقولون لهم :
لا تخمّلنكم الرغبة في تخفيف الكلام على حذف معانيه ، وترك ترتيبه والإبلاغ فيه ،
وتوهين حججه .

وكانت الكتابة في عهد الفاطميين تلى الوزارة في الرتبة ، فقد كانت إحدى المناصب
العالية التي كان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن أنسوا فهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور ،
كما كانت الخطوة الأولى إلى الوزارة إذا ما حاز صاحبها رضا الخليفة .

وقد اتخذ المعز لدين الله الفاطمي جوهر الصقلي كاتباً له سنة ٣٤١ هـ ، لأنه كان كاتباً
بليغاً ، كما كان عفاً جم الأدب في كتابته . وكان الكاتب في عهد الفاطميين في مصر يقوم
بعمل الوزير إذا رضى عنه الخليفة ، ويسمى أحياناً صاحب الوساطة . ومن ثم لم يكن
هناك اختلاف في الوظيفة بين الوزير والكاتب وصاحب الوساطة .

وكان صاحب الإنشاء والمسكّنات في عهد الفاطميين يتقاضى راتباً شهرياً قدره مائة
وخمسون ديناراً ، ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت إدارته ثلاثين
ديناراً . وبلى صاحب الإنشاء في الرتبة صاحب القلم الدقيق ، الذي كان يوقع على الظالم ،
ويجالس الخليفة في خلوته ، فيدارسه كتاب الله ويتلو عليه سير الأنبياء والخلفاء وعظماء
الرجال ويحدثه عن مكارم الأخلاق ، ويعمله تجويد الخط ، وكان راتبه مائة دينار في كل
شهر ، وإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة ، فإذا انتهى المجلس ألقى في
هذه الدواة عشرة دنائير مكافأة له ، وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ند^(١) ممزوج بالمسك ،
ليتبخر به عند دخوله على الخليفة في المرة التالية .

ولما أصبح الوزير في آخر أيام الدولة الفاطمية صاحب السيف والقلم أخذ يجلس
للمظالم ، وإلى جانبه صاحب القلم الدقيق بدل كاتب السر . وكانت له سلطة التوقيع تحت
توقيع الوزير ، بل النظر في الشكاوى قبل انعقاد مجلس النظر في المظالم . وبلى صاحب القلم
الدقيق في الرتبة صاحب القلم الجليل ، ويقوم بتسلم رفاع المظالم من صاحب القلم الدقيق
ووضعها في الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها . وكان الكتاب
يختارون عادة ممن اشتهروا بسعة الإطلاع في الأدب وامتازوا بالقدرة في فن الإنشاء^(٢) .

(١) الند (بالفتح) : عود يتبخر به وقيل : العنبر .

(٢) الفلشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠ — ٤٩٢ .

وقد نبغ القضاة المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) في الكتابة في أيام الفاطميين حتى صار من كتاب البلاط ، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرجرائي يعهد إليه في أن يكتب العلامة أو الإشارة ، التي تذيل بها الأوراق الرسمية لإعطائها الصيغة الرسمية ، وتتكون من هذه العبارة : « الحمد لله شكرياً لنعمته ^(١) » . كذلك تقلد ديوان الرسائل في عهد الخليفة الأمر الفاطمي ابن منجب الصيرفي ، وكان من البارزين في طبقة البلاط والمؤرخين .

ومن نبغ في الكتابة في عهد الأيوبيين القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) . وقد تقلد منصب الوزارة في عهد صلاح الدين الأيوبي وولديه من بعده ، وخلف لنا كثيراً من الرسائل التي تمتاز بغزارة المسادة التاريخية ، كما تمتاز بسلامة الأسلوب ووضوحه .

وكان بعض كبار الموظفين في عهد المرابطين في المغرب يجمع بين الكتابة والاستشارة . وكان أكثر الكتاب من رجال الأدب في الأندلس الذين عملوا في بلاط ملوك الطوائف أو في قصور العمال المرابطين ثم دخلوا في خدمة أمير المسلمين . ونذكر من بين هؤلاء الكتاب : عبد المجيد بن عبدون ، وعبد العزيز الأنصاري ، وأبا جعفر بن عطية ، وابن أبي الحصال ، وابن عبدون اليابري ^(٢) . ويظهر أن هذا الاختيار كان راجعاً إلى درايتهم بأحوال نصارى الأندلس أكثر من الكتاب المغاربة ، كما سيأتي الكلام على ذلك في باب الثقافة .

وكانت الكتابة في الأندلس تلي الحجابة (وهي الوزارة) في الرتبة وتنقسم قسمين :

- (١) كتابة الرسائل ويسمى صاحبها الكاتب .
- (٢) كتابة الزمام ويعرف صاحبها بكاتب الجهيدة ، ويشترط فيه أن يكون من أهل الذمة ، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير ^(٣) .

(١) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٨٧ — ٤٨٨ .

(٢) نسبة إلى يابري (يسكون الباء) إحدى مدن البرتغال .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ . أنظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٦٦ .

(د) الحجابة :

وقد اقتدى الخلفاء العباسيون ببني أمية ، فاتخذوا الحجاب ، وزادوا في منع الناس من لقاء الخليفة إلا في الأمور الهامة . وهذا ما يسميه ابن خلدون ^(١) الحجاب الثاني . فصار بين الناس وبين الخليفة دار الخاصة ودار العامة ، يقابل كل طائفة في مكان معين على ما يراه الحجاب . ثم تطرقوا عند انحطاط الدولة إلى حجاب ثالث أشد من الأولين ^(٢) .

وقد علت مرتبة الحجاب بارتقاء الحضارة الإسلامية في أيام العباسيين ، فأصبح يستشار في كثير من أمور الدولة . ومن أبرز الحجاب في العصر العباسي الأول « الفضل بن الربيع » الذي أوقع بالبرامكة عند الرشيد ، وأوقع الخلاف بين الأمين وأخيه المأمون .

وكثيراً ما كان الحجاب يتدخل في أمور الدولة العباسية ويستبد بالنفوذ دون الوزير ، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه في كل أمور الدولة ، ويحتم عليهم ألا يفصلوا في الأعمال إلا بعد موافقته .

ولم يكن الحجاب في عهد الفاطميين يتمتع بذلك النفوذ الذي كان يتمتع به في البلاد الإسلامية الأخرى . ولم تقتصر الحجابة على الخلفاء الفاطميين وحدهم ، بل لقد اتخذ قاضي القضاة أو الوزير حاجباً أو أكثر يقفون بين يديه إذا جلس للحكم . ولكن الحجاب كان بلا ريب ، من رجال البلاط الفاطمي ، بدليل ما ذكره الفلقشندي ^(٣) عند كلامه على مجلس الملك في عصر الفاطميين . وكان صاحب الباب من كبار الموظفين في ذلك العصر .

وكانت الحجابة في الدولة الأموية بالاندلس ، كما قال ابن خلدون ، لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة ، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فن دونهم . فكانت في دولتهم رفيعة للغاية ، كما نراه في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم ، ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستقبل باسم الحجابة لشرفها ، فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك . ولما بدوا في مظاهر الملك وأطواره ، جاء من بعدهم ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها ، وكانوا يعدونه شرفاً لهم . وكان أعظمهم ملكاً بعد انتقال ألقاب الملك

(١) مقدمة ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٢) كتاب المعاسن والمساوي ج ١ ص ١٢٤ .

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ — ٤٨٨ .

وأسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذى الوزارتين ، يعنون به السيف والقلم ، ويُدْلون^(١) بالحجاجة على حجاجة السلطان عن العامة والخاصة ، وبذى الوزارتين على جمعه لخطى السيف والقلم .

وأما عن الحجاجة في المغرب فقد ذكر ابن خلدون^(٢) أنها لم تكن موجودة في عهد الأمويين في بلاد الشام ثم في الأندلس ، وفي العراق في عهد العباسيين ، لأن الدولة المارابطية تميزت بالبساطة . بل إنه كان من اليسير أن يتصل أى شخص بأقرب المسلمين عن طريق الأعوان . وقد ساعد على ذلك ما امتاز به المارابطون من الزهد في مظاهر الحياة ، حتى لقد كان لباسهم الصوف وطعامهم الشعير . وكان يوسف بن تاشفين يتفقد أحوال الرعية ويباشر شؤنه بنفسه^(٣) كما كان عمر بن عبد الخطاب وعمر بن عبد العزيز من قبله ، بل إن عليا ابن يوسف بن تاشفين كثيراً ما كان ينصرف عن مباشرة شئون الدولة إلى التعبد والتبتل .

٢ — النظام الإدارى

(١) الإمارة على البلدان

١ — عرفة المسجيد بإدارة شؤنه المرونة :

كان الخلفاء الراشدون يستعينون في إدارة شئون الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف من كبار الصحابة وأعيان المدينة ورؤساء القبائل ، وكانوا يجتمعون في مسجد المدينة ، ولا يقطع الخليفة أمراً دون استشارتهم ، وكان نظام الحكومة في الثلاثين السنة الأولى للإسلام أقرب ما يكون إلى النظام الجمهورى .

وقد بحث سير توماس أرنولد^(٤) علاقة المسجد باعتباره مكان العبادة (أى المسكن الذى يؤم فيه الخليفة أو والى الناس فى الصلاة) بإدارة شئون الدولة السياسية والاجتماعية ، وكيف يجمع الخليفة أو والى بين إمامة المسلمين وبين شئون الدولة أو الولاية فقال :

« لم يكن المسجد مكاناً للعبادة خصب ، بل كان أيضاً مركز الحياة السياسية والاجتماعية . فكان النبي يستقبل في المسجد السفراء ، ويدير شئون الدولة ، ويخطب جماعة المسلمين على المنبر فى الأمور السياسية والدينية . . . فن فوق منبر المدينة أعلن عمر تهمته جريوش

(١) بضم الباء وكسر الدال وضم اللام مع التشديد من الإدلال وهو التيه والكبر .

(٢) مقدمة ص ٢٠٩ .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٥٥ .

(٤) The Caliphate pp. 36 — 38 .

المسلمين في العراق ، واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد . ومن فوق المنبر أيضاً ، وقف عثمان يدافع عن نفسه . كما كان الخليفة عند استخلافه يلقي من فوق المنبر على الجمهور خطبته الأولى التي بمثابة بيان عن سياسته في الحكم .

فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش يلقي منه الحاكم بيان سياسة الدولة كما هو الحال في النظم الدستورية اليوم .

ونستطيع أن نضيف إلى ما تقدم ، أن المساجد كانت تستخدم منذ ظهور الإسلام لاجتماع العلماء فيها ، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقراً لهم . ثم استخدمت المساجد معاهد للتعليم ، يلتقى فيها الأتفال اللغة العربية وأصول الدين ، كما اتخذها القضاة مكاناً لعقد جلساتهم . وصفوة القول أنه لما لم يمكن الفصل بين السياسة والدين ، كان المسجد المسكن الذي نذاع فيه الأخبار الهامة التي تتعلق بالصالح العام .

وقد ذكر سير توماس أرنولد أن المساجد سرعان ما فقدت أهميتها السياسية والاجتماعية ، فلم تعد تمثل عرش الخليفة وكرسی الوالي ولا منصة القاضي . وغداً عمل المساجد مقصوراً على إقامة الصلوات ، يمجّد فيها الله ، ويصلى على النبي ، ويترحم على الصحابة ، ويدعى الخليفة باعتباره نائباً عن رسول الله في المحافظة على الدين . ولم يبق فيها من مظاهر السياسة إلا ذكر اسم الخليفة في الخطبة ، ليسكون ذلك اعترافاً من الولايات الإسلامية بسلطة الخليفة الاسمية .

وغير خاف أن المساجد كانت كمعاهد العلم اليوم تدرس فيها العلوم الدينية والعربية والعقلية .

٢ — نظرية الإمارة على البلمين :

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب أن الفقهاء قسموا الإمارة على البلدان إلى إمارة عامة وإمارة خاصة . فالعامة على نوعين : إمارة استكفاء بعقد عن اختيار ، وإمارة استيلاء بعقد عن اضطرار^(١) .

وكان الخليفة مصدر كل قوة كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة . وكان الوزير ساعد الخليفة الأمين ، يقضى باسمه في جميع شئون الدولة ، فكان له الحق في تنصيب العمال وصرفهم والإشراف على جمع الضرائب .

(١) راجع كتاب الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٨ وما يليها .

وقد ظهر بتوالى الايام أن هذه الاعباء كانت مرهقة لا يستطيع القيام بها رجل واحد . ومن ثم أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير في الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها .

وكان الخليفة يختار عمال الأقاليم بنفسه للقيام على شئونها ، بيد أن سلطاتهم المدنية والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد ؛ فلم يترك العامل في ولايته زمناً طويلاً ، فإذا ما عزل من منصبه ، طلب إليه أن يقدم بياناً مفصلاً عن شئون ولايته . ومع ذلك اكتسب بعض الولاة امتيازات خاصة ، حيث كانوا يقطعون هذه الولايات نظير اعترافهم بالسيادة للخليفة وتقديم بعض المساعدات المادية للدولة .

وكانت مصر في عهد الدولة الفاطمية مقسمة إلى أربع ولايات هي :

(أولاً) ولاية قوص ، وكانت أعظم ولايات مصر ، لأن عاملها يحكم جميع بلاد الصعيد ، ويتولى إقليم الأشمونين بالإضافة إلى عمله الأصلي .

(ثانياً) ولاية الشرقية ، وتلى ولاية قوص في الأهمية . وكان عاملها يحكم منطقة بلبيس وقلوب وأشموم .

(ثالثاً) ولاية الغربية ، وتلى ولاية الشرقية في المنزلة ، وبلى عاملها المحلة ومنوف وأبيار . (رابعاً) ولاية الإسكندرية ، وتلى ولاية الغربية في الرتبة وبلى عاملها لإقليم البحيرة كله . وكان يخلع على هؤلاء الولاة الأربعة من خزانة السكوة بالبدة ، وهو الثوب الذي يلبسه الخليفة يوم الاحتفال بفتح الخليج (١) .

وكانت هذه الولايات الأربع تضم كوراً أخرى صغرى فصلها ابن عماني في الباب الذي عقده للتقسيم الإداري في أواخر عصر الفاطميين وأوائل عصر الأيوبيين ، وهي الشرقية والمراحمية ، والدقهلية ، وجزيرة قويسنا ، والغربية ، والسمنودية ، والدنجاوية (بكسر الدال مع التشديد وسكون النون) ، والمنوفية ، وجزيرة بني نصر ، والتستراوية (ضم التاء مع التشديد وسكون السين) ، والبحيرة ، وحوف رمسيس ، والسكفور الشاسعة ، وفوة ، والمزاحمتين (بفتح الحاء والميم والتاء وسكون الياء) والجيزية ، والإطفاحية والبوصيرية .

والقيومية ، والبهنساوية^(١) ، والاشمونين ، والاسيوطية ، والإخيمية ، والقوصية^(٢) .

وكان لامراء المرابطين نواب ينوبون عنهم ويمثلونهم في حكم المغرب والاندلس . وكانت وظيفة نائب أمير المسلمين سياسية وحرية معاً ، ويراعى في اختياره أن يكون من أقرب الناس إليه متصفاً بالمهارة الحربية منفذاً لسياسة الدولة التي تقوم على التعاليم الإسلامية وفق مذهب الإمام مالك . وكان هؤلاء النواب يختارون عادة من ولاية المهود . فقد كان علي بن يوسف نائباً لآبيه يوسف بن تاشفين . وكان تاشفين نائباً لآبيه علي ، وإبراهيم نائباً لآبيه تاشفين . وقد تولى هؤلاء النيابة في بلاد الأندلس . وكذلك كان يوسف ابن تاشفين من قبل نائباً لآبي بكر بن عمر قبل أن يصبح أميراً للمسلمين ، ثم أصبح أبو بكر بن عمر نائباً ليوسف بن تاشفين في الصحراء بعد أن نزل عن سلطته .

وكانت سلطة النائب سياسية وحرية معاً كما ذكرنا . فقد كان يراقب أعمال العمال ويضع الخطط الحربية ويصدر بتعيينه منشور خاص يذاع على العمال . وكان نائب أمير المسلمين يستعين في إدارة نيابته بطائفة من الكتائب أطلق عليهم الوزراء تجاوزاً .

(ب) الدواوين :

كان الوالي يعين من قبل الخليفة وينوب عنه في حكم البلاد ، وهو الرئيس الأعلى للقضاء والصلاة والخراج والجند والشرطة وما إليها من أعمال الدولة .

وكانت الصلاة أهم أعمال الوالي لارتباطها بالإمامة الدينية ، وهي منشأ الحكم في الإسلام . لذلك كان الوالي يقيم الصلاة في الجمع والأعياد ، ويؤم الناس في الصلاة أو يستخاف عليها . وقد قصت الضرورة بذلك حين تعددت المساجد الجامعة بعد أن أخذ الإسلام ينتشر في مصر على أثر إقبال المسلمين على الزواج من القبطيات .

ولم يدخل على النظام الإداري في مصر الإسلامية تغيير يستحق الذكر حتى جاءت الدولة الفاطمية فأدخلت عليه كثيراً من التعديل .

(١) وهي محافظة المنيا الآن .

(٢) ابن ماتي : قوانين الدواوين ص ٨٥ — ١٠٨ .

انظر الحسن إبراهيم حسن : كتاب تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤)

وفي عهد الفاطميين كانت هناك عدة دواوين على رأس كل منها موظف كبير . ومن هذه الدواوين : ديوان الجيش ، وكانت تعرض على صاحبه شئون الأجناد وخبولهم ، وديوان خزائن السكوة والطرز ، ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأفلام ، وديوان الأحباس ، ويشبه وزارة الأوقاف اليوم ، وديوان الرواتب ، ويعد صاحبه استثمارات الرواتب ويعرضها على الخليفة في كل سنة^(١).

ومن هذه الدواوين أيضاً ديوان الشام وديوان الحجاز .

وكان عدد الموظفين في عهد الفاطميين كبيراً : منهم صاحب الباب ، وحامل مظلة الخليفة ، وصاحب الرسالة (وكان يحمل كتب الخليفة إلى الوزير وغيره من كبار الموظفين) ، وصاحب بيت المال ، وهو بمثابة وزير المالية في العصر الحاضر ، وحامل دواة الخليفة . وهناك كثير من المناصب الدينية ، من أهمها منصب قاضي القضاة ، وله النظر في الأحكام الشرعية والإشراف على دور السكة وضبط عيارها .

وبلى قاضي القضاة في الرتبة داعي الدعاة ، ويقوم بذكر الدعوة الفاطمية في دار العلم والمساجد . ومن كبار الموظفين في عهد الفاطميين ، المحاسب ، وكان له النظر في الأسواق والمحافظ على الآداب والفضيلة والأمانة ، والإشراف على الموازين والمسكايل ، وعلى استيفاء الديون . وكان ينتخب من وجوه المسلمين ، لأن وظيفته كانت دينية إلى حد كبير ، وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً .

ومن كبار موظفي الدولة في العهد الفاطمي وكيل بيت المال ، ونائب صاحب الباب ، وكان يستقبل سفراء الدول وينزل كلا منهم في المسكن اللائق به . وهناك عدد كبير من القراء يقرءون القرآن في حضور الخليفة في مجالسه ومواكبه ، ويقال لهم قراء الحضرة^(٢).

ومن كبار الموظفين أيضاً تسعة يعرفون بالامتازين المحنكين (بضم الميم وفتح الحاء والنون مع التشديد)^(٣) منهم : صاحب بيت المال ، وصاحب الرسالة ، وزمام القصر .

(١) الفلشندي : ج ٣ ص ٤٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٥ — ٥٣٢ .

(٣) جمع أستاذ محنك ، أي رجل مدرب ، وكان يتلم بطرف من عمامته ، ومعناه يجعل عمامته تحت ذقنه وفكيه (انظر Lane's Arabic-English Lexicon) . ومن الأساندة المحنكين من يتولى شد التاج ، وصاحب المجلس ، ويشبه الآن كبير الأمراء ، وصاحب الرسالة ، وصاحب بيت المال ، وحامل الدواة ، وزمام الأقارب ، وزمام القصور ، ويمهد إليه بإدارة شئون القصر (الفلشندي ج ٣ ص ٤٨٤ و ٤٨٥) .

وكان راتب كل من هؤلاء مائة دينار في الشهر ، وراتب كل من قاضي القضاة وداعي الدعاة مائة دينار ، وراتب كل من طبيبى الخليفة الخاصين خمسين ديناراً^(١) .
ومن المناصب الدينية الهامة في العصر الفاطمى وظيفة باب الأبواب وهو لقب شيعى لقب به جعفر بن منصور البين الذى تمتع بمركز رفيع في الدولة الفاطمية في المغرب ثم في مصر حتى اتخذته الخليفة المعز « باب أبوابه » أى رئيس الدعاة . كما لقب حميد الدين الكرماني المتوفى سنة ٤٠٨ هـ بلقب « حجة العراقيين »^(٢) .

دور الضرب :

وتبين لنا كتب السكة نواحى أخرى من التقسيم الإدارى ، ونعنى بها دور الضرب ، وهى البلاد التى كانت الحكومة تتخذها مراكز لسك النقود وضرب العملة . وليس من شك في أن هذه البلاد كانت تمثل حواضر الأقاليم التى تقم بها أمراء الولايات ، حيث تكون الدواوين ومقر الحكومة الإقليمية . وهناك ناحية أخرى تبينها كتب السكة ، وهى السنة التى ضربت فيها النقود لأول مرة : فهى تبين التاريخ الذى أصبحت فيه هذه المدينة حاضرة للإقليم ، كما تبين السنة التى انقطع فيها ضرب النقود بمدينة من المدن ، وهى تدل أيضاً على التاريخ الذى انتهت فيه أهمية المدينة كحاضرة لهذا الإقليم . وإليك ثبناً بأسماء دور الضرب في مصر والولايات التابعة للدولة الفاطمية ، مثل صقلية وإفريقية وبلاد الشام .

(١) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ . المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن : كتاب الدولة الفاطمية ص ٢٩٣ وما يليها .

ملاحظات	نهاية السكة	السنة التي بدأت فيها السكة	الإقليم	دار الضرب Place of Unit
	٥٥٥	٤٦٩	مصر	الإسكندرية
	—	٥١٤	فلسطين	أيلة
	—	٥١٤	فلسطين	تيما
٤٤٤	٤٢٩		الشام	حلب
٤٤٦	٣٦٨		الشام	دمشق
—	٤١٤		إفريقية	زويلة
٤٥٦	٣٤٣		صقلية	صقلية
٤٨٤	٤٣٠		الشام	صور
٤٦٠	٣٩٥		الشام	طبرية
٤٧٥	٣٦٧		الشام	طرابلس
—	٥٠٧		الشام	عسقلان
٤٩٥	٤٦٢		فلسطين	عكا
٣٦٤	٣٥٩		فلسطين	فلسطين
٣٣٥	٣٠٣		إفريقية	القيروان
٥٦٤	٣٦١		مصر	مصر (الفسطاط)
٤٥٤	٣٤١		إفريقية	المنصورية
٤٢٠ (١)	٣١٥		إفريقية	المهدية

(ج) البربر :

يرجع نظام البريد إلى أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم . على أن مقاديره أو مسافاته كانت متفاوتة . وقد ذكر القلقشندي (٢) أن معاوية بن أبي سفيان كان أول من أدخل نظام البريد في الدولة الإسلامية ، وقد أخذه عن الروم أثناء حكمهم في الشام . ثم أدخل عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) عدة تحسينات على نظام البريد ، وأصبح بذلك أداة هامة في إدارة شؤون الدولة .

(١) Lavoix, pp. 517-531

(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

وكان للبريد ديوان كبير في بغداد (أشبه بمصلحة البريد الآن) ، وكان مزودا بمحاط على طول الطريق ، وذلك نظراً لاتساع رقعة الدولة الإسلامية في ذلك العصر . وقد ظل حمام الزاجل مستخدماً في نقل الرسائل حتى خلافة المعتصم العباسي ، وساعدت معالم الطرق التي أقامتها الدولة التجار في أسفارهم ، كما كانت نواة للبحوث الجغرافية . على أن البريد كان خاصاً بأعمال الدولة وليس لنقل مراسلات الجمهور . وكان صاحب البريد يراقب العمال ويستطلع أخبار الأعداء . ويشبه هذا النظام قلم المخابرات في أيامنا . وكانت مهمة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله في الأقاليم وبالعكس ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة ، ينقل أخباره إلى ولاته كما ينقل أخبار ولاته إليه :

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذا النظام واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شؤون دولتهم .

وقد ذكر أبو المحاسن^(١) أن شفيعاً اللؤلؤي كان صاحب البريد في مصر سنة ٢٩٢ هـ . ومع أننا لانعرف الكثير عن إدارة البريد في عهد الإخشيديين والفاطميين ، فقد ذكر المؤرخون أنهم اهتموا بحمام الزاجل كوسيلة من وسائل نقل الرسائل . واستخدم الفاطميون الحمام ، وأفردوا له ديواناً وجرائد بأنسابها^(٢) .

وقد بلغ نظام البريد في عهد بني بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة ، حتى كانت الدولة تنقل البريد في أثناء الحرب بالجزازات^(٣) ، وهي أشبه بالعربات التي تجرها الخيل السريعة التي يركبها عمال البريد ورجال الحرب وأمثالهم ممن يتطلب عملهم السرعة . فإن الفاطميين لما عزموا على غزو مصر سنة ٣٠١ هـ ، استعمل على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر العباسي الجزازات من بغداد إلى مصر ليوقف على حقيقة الحال في كل يوم .

وكان لبني بويه أثر كبير في ترقية البريد . فقد أدخل عضد الدولة السعدي (وكان يقال لهم الفبوج) ، وهم طائفة من موظفي البريد تخصصوا في نقل البريد من مكان إلى آخر .

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٤٨ .

(٢) الفلشندي : ج ١٤ ص ٣٩٠ .

(٣) انظر تاج العروس .

وقد استعملت النار كوسيلة من وسائل المراسلة في القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) على الساحل الإفريقي الشمالي ، حتى كانت الرسائل تصل من طنجة إلى سبتة في ساعة واحدة ، ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات . ولم يبطل هذا النظام إلا في سنة ٤٤٠ هـ ، حين أثار المعز بن باديس الفتن في المغرب في وجه الفاطميين الذين لم يعودوا يستطيعون حماية الحصون من البدو^(١) .

كذلك اعتمد العباسيون على حمام الزاجل في نقل الرسائل . وقد راج هذا النوع من البريد عند فرق الباطنية ، وخاصة الاسماعيلية ؛ فقد استعان عبد الله بن ميمون القداح بالطيور في نقل الأخبار إلى أنصاره^(٢) ، واهتم الفاطميون بالحمام كوسيلة من وسائل نقل الرسائل . فقد ذكر القلفشندي^(٣) أن الفاطميون بالغوا في العناية بالحمام حتى أفردوا له ديواناً وجرائد (قوائم) بأنساب الحمام ، كما كان يفعل العرب في معرفة أنساب الخيل . وللبريد محطات تسمى السكك ، كانت تزود بالخيول وراكبيها في كل سكة من سكك البريد على بعد ثلاثة أميال أو ستة . وكانت طرق البريد منتشرة في المشرق والمغرب ، ومن أهمها :

١ — من بغداد إلى القيروان بخذاء نهر دجلة ، ويمر بالموصل وسنجار ونصيبين والرقّة ومنبج وحلب وحماه وحمص وبعبك ودمشق وطبرية والرملة والقاهرة والإسكندرية والقيروان .

٢ — من بغداد إلى الشام بخذاء الضفة الغربية لنهر الفرات ، ماراً بالأنبار وهيت ودمشق .

٣ — من بغداد إلى الشرق ، ماراً بجلوان وهمدان والرى ونيسابور ومرو وبخارى وممرقند حتى يصل إلى الصين . ومن مرو يبدأ طريق آخر يمر في أواسط خراسان حتى يصل إلى الطاقان ثم يخترق نهر جيحون حتى يصل إلى فرغانة^(٤) .

وقد ارتقى نظام البريد في مصر في عهد الأيوبيين والمماليك ، فوضع له نظام يكفل ارتباط جميع أنحاء الدولة بشبكة خطوط من البريد البري والجوى . وكان مركز هذه

(١) الأمير شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٢) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٢٣٤ .

(٣) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩٠ .

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٧٥ . تاريخ الدولة الفاطمية

ص ٢١١ — ٢١٥ .

الشبكة قلعة الجبل التي بناها صلاح الدين الأيوبي في القاهرة سنة ٥٧٢ هـ ، حيث كان يتفرع منها أربعة طرق برية ، يمتد أحدها إلى قوص ، والآخر إلى عيذاب ، وثالث إلى الإسكندرية ، ورابع إلى دمياط ومنها إلى غزة . ومن قلعة الجبل تتفرع سائر خطوط البريد ، وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء الدولة ، وترد إليها الرسائل من الولاة . وأصبح البريد في عهد الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك البحرية يرد على مصر مرتين في الأسبوع .

(٥) الشرطة :

الشرطة هي الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو والى في استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين ، وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التي تسكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم . وقد عرفت الشرطة بذلك لأنهم أشرطوا أنفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها . وكان عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام العسس في الليل . وفي عهد بن أبي طالب نظمت الشرطة ، وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة . وكان يختار من عليه القوم ومن أهل العصبة والقوة ، وهو أشبه بالمحافظ في هذا العصر لأنه يتولى رئاسة الجند الذين يساعدون والى على استتباب الأمن .

وكانت الشرطة تابعة للقضاء أول الأمر ، تقوم على الأحكام القضائية ويتولى صاحبها إقامة الحدود ؛ ولكنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء ، واستقل صاحبها بالنظر في الجرائم . وقد أدخل هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) نظام « الأحداث » ، وكان صاحبه يضطلع بالأعمال العسكرية التي تعتبر وسطاً بين أعمال صاحب الشرطة والقائد (١) .

وكثيراً ما كانت الشرطة والحسبة تسندان لشخص واحد مما يدل على خطورة مركز صاحب الشرطة في عصر الدولة الفاطمية . وكان ينوب عن صاحب الشرطة موظفون يعملون على حفظ النظام واستتباب الأمن في الأقاليم ، ويساعد صاحب الشرطة القضاء والعمال ويقوم بتنفيذ أحكامهم .

ومن ذلك نرى أن الشرطة كانت تابعة للقضاء في أول الأمر ، يقوم صاحبها بتنفيذ الأحكام القضائية ويتولى إقامة الحدود . ولم تلبث أن انفردت عن القضاء ، واستقل صاحبها بالنظر في الجرائم . وكانت الشرطة تؤهل صاحبها للحجابة أو الوزارة .

وكانت الشرطة في بلاد الأندلس على نوعين : شرطة كبرى وشرطة صغرى . وقد اختص صاحب الشرطة الكبرى ، كما يقول ابن خلدون^(١) ، بالحكم على الخاصة من ذوى النفوذ والجاه ، واختص صاحب الشرطة الصغرى بالحكم على العامة .

وكان صاحب الشرطة في إفريقية (بلاد تونس الحالية) يسمى في أيام ابن خلدون « الحاكم » وفي بلاد الأندلس « صاحب المدينة » ، وفي مصر في عهد المماليك « الوالى » .

٣ - النظام المالى

(١) موارد بيت المال

١ - الخراج :

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها . وقد سارت الدولة الإسلامية منذ ظهورها على هذه السياسة ، فأنشأت بيتاً للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة . وهو بهذا يشبه وزارة المالية في العصر الحاضر ، وصاحبه يقوم بمهمة وزير المالية ، وكان يطلق عليه صاحب بيت المال .

والمال الوارد لبيت مال المسلمين ، إما أن يكون ضريبة أو عن أشياء أخرى غير الأرض . وأهم موارد بيت المال : الخراج ، والجزية ، والزكاة ، والفيء ، والغنيمة ، والعشور .

كان الخراج إما شيئاً مقدراً من مال أو غلة . كما صنع عمر بن الخطاب في أرض السواد^(٢) بعد فتحها ، وإما حصّة معينة مما يخرج من الأرض ، وهذا ما يسمى بالمعاملة أو المزارعة كما عامل النبي صلى الله عليه وسلم أهل خيبر على نصف ما يخرج من الأرض ، قليلاً كان أو كثيراً .

وقد اختلف المؤرخون في تقدير الخراج ، فقصره بعضهم على جزية الروم التى فرضت على أهل الذمة ، وقصره غيرهم على ضريبة الأرض .

ولم يكن الخراج ثابتاً . فقد كانت ضريبة الأرض تقل وتكثر حسب الاهتمام

(١) انظر ص ٢٩ من مقدمة ابن خلدون المحفوظة بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ١٠١٦ وعليها خط المؤلف .

(٢) سمي كذلك للخضرة والشجر والزرع ، أى الأرض المحصبة التى تزرع فيبدو وجهها مخضراً قائماً كلون السواد .

التعمير وتحسين وسائل الري ، كما أن جزيرة الروس كانت تتنافس بالتوالى لدخول أهل البلاد في الإسلام .

وكان خراج أقاليم الشرق الإسلامى يقدر بالدرهم وخراج أقاليم المغرب يقدر بالدنانير (عدا برقة وإفريقية) . ويرجع السبب في ذلك - على ما ظهر لى أن مناجم الفضة كانت أكثر في أقاليم الشرق منها في أقاليم المغرب ، وبعبكس ذلك مناجم الذهب . كما يلاحظ أيضاً أن ما يصل لى بيت المال ببغداد كان صافى ما يتحصل من الجباية في الأقاليم بعد دفع أرزاق الجند والموظفين وشراء المعدات الحربية وما تتطلبه مرافق الدولة من كرى الأنهار والترع وإصلاح الجسور ، وما يتفق على الدواوين وعلى الخليفة ورجال البلاط .

وهناك ضرائب أخرى تجبى من أرباب الحرف والصناعات ومن التجار الوافدين على الدولة الإسلامية وغير ذلك من الضرائب .

٢ - نظام الالتزام :

يرجع نظام الإقطاع^(١) أو الالتزام في الإسلام لى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقول المقرئى^(٢) : « وقد كان خلفاء بنى أمية وخلفاء بنى العباس يقطعون الأراضى من أرض مصر النفر من خواصهم ، لا كما هو الحال اليوم (أى في زمن المقرئى) ، بل يكون خراج أرض مصر يصرف منه أعطية الجند وسائر الكلف ، ويحمل ما يفضل لى بيت المال ، وما أقطع من الأراضى فإنه بيد من أقطعه » . وفي عهد صلاح الدين الأيوبي حتى زمن المقرئى ، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ كانت أراضى مصر تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده . وكانت أرض مصر على سبعة أقسام : قسم يلحق بدبوان السلطان ، وهو على ثلاثة أقسام : ما يجرى في دبوان الخاص ، وما يجرى في الديوان المفرد ، وما يقطع للأمرء والأجناد ، وقسم ثالث يحبس إيراده على المساجد والمدارس والخوانق^(٣) ، وعلى جهات البرو على ذرية

(١) يقال : أقطع طائفة من الشيء أخذها ، أقطعتى لإياها أذن لى فى اقتطاعها واستقطعه لإياها سأله أن يقطعه لإياها . والإقطاعية جزء من أرض الخراج يقطعها الجند فتدبر لهم غلتها فتصير لهم رزقاً وأجراً (ران) .

(٢) خطط ج ١ ص ٩٧ .

(٣) جمع خانقاه وهى كلمة فارسية معناها « بيت » . وقيل : أصلها خونتقاه ، أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . والخوانق جدت في الإسلام حول سنة أربع مائة من الهجرة ، وجعلت الخلوة الصوفية فيها للعبادة .

واقفي تلك الاراضى وعقائهم ، وقسم رابع يقال له الاحباس ، ينفق لإيرادها على الذين يقومون بخدمة المساجد وإقامة الشعائر الدينية ، وقسم خامس يبيع ويشترى ويورث ويوهب لأنه اشترى من بيت المال ، وقسم سادس لا يزرع للعجز عن زراعته ، فترعاه المواشى أو يثبت السكلا ونحوه ، وقسم سابع لا يرويه ماء النيل فهو قفر كما هو الشأن فى الصحارى .

وقد أورد الماوردى^(١) نوعى الإقطاع فقال : « وهو ضربان : إقطاع استغلال وإقطاع تملك ؛ والثانى ينقسم إلى موات وعامر . والثانى وهو ضربان : أحدهما ما يتعين ماله ، ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الارض فى حق لبيت المال إذا كانت فى دار الإسلام ، فإن كانت دار الحرب حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد ، فأراد الإمام أن يقطعها لملكها المقطع إليه عند الظفر بها فإنه يجوز » .

ولم يكن الالتزام مقصوراً على إقطاع أجزاء من الارض فى الولاية الواحدة ، بل قد يشمل ولاية برمتها . وقد ساد هذا النظام فى العصر العباسى حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية . فسكانوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال عدا الهدايا والطرف ، كما كان متبعاً فى نظام الإقطاع الذى كان سائداً فى أوروبا فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، وسار عليه الخلفاء العباسيون قبل المعتصم^(٢) .

ذكرنا من قبل أن السلطان ملكشاه السلاجوق منح الوزير نظام الملك لقب « أنابك » وأقطعه إقطاعات من جبلتها طوس مدينة نظام الملك . وقد سار سلاطين السلاجقة على هذه السنة ، فسكانوا يستندون إلى بعض مماليكهم الذين يظهرون كفاءة خاصة أو صفة حربية ممتازة حكم لإقليم من أقاليم الدولة السلجوقية ويعهدون إليه بتسئمة أحد أبنائهم^(٣) . ولما ضعف البيت السلجوقى تقاسم هؤلاء الأمراء ملك السلاجقة وأورثوه أبنائهم . وكان هؤلاء الأمراء يقطعون الأمراء المقربين إليهم بعض الأقاليم والمدن بشرط أن يظلوا خاضعين لهم . فإذا ما حاول أحدهم بالاستقلال بإقطاعه قام السلطان أو الأمير بعزله وإقطاع الإقليم

(١) الأحكام السلطانية س ١٧١ — ١٨٢ .

(٢) الكندى : كتاب الولاة والقضاة س ١٦٣ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٩٥ — ١٩٧ ،

١٩٨ — ٢٠٢ .

(٣) انظر س ٢٦ .

أو المدينة أميراً آخر على أن هؤلاء المقطعين كانوا في عصر السلاجقة العظام مرتبطين بالسلطان السلجوقي مباشرة ، وكانوا يقيمون الخطبة له وينفذون أوامره ويشتركون في قتال أعدائه .

وكان بعض هؤلاء الأمراء المقطعين يتمتعون بنفوذ واسع واستقلال يكاد يكون تاماً . فعناد الدين زنكي مثلاً أصبحت الالتزامات الإقطاعية التي كانت تربطه بالسلطان السلجوقي محدودة بل إنها تحولت إلى موقف عدائي في بعض الأحيان . وقد أدرك زنكي ضرورة إقطاع قواده بعض الإمارات المحلية في الجزيرة والشام وشرقي الموصل وفي الإمارات الصليبية . وكان كلما استولى على بلد « رتب أموره وأقطع أعماله الأجناد والأمراء » ، كما فعل بعد استيلائه على مدينة حلب سنة ٥٢٢هـ^(١) . وكانت سياسة عماد الدين زنكي ترمي إلى قيام المقطع بإدارة شئون الولاية باعتباره والياً من قبله ، أو لإبعاده الشخص الذي يرى في وجوده بإحدى الولايات خطراً على نفوذه^(٢) ، أو مكافأة لأحد المقربين إليه اعترافاً بولائه له وما أداه من خدمات ممتازة لدولته ، أو لتشجيع بعض الأمراء المناوئين له على تسليم حصونهم مقابل إقطاعهم بعض المناطق^(٣) .

٣ — الجزيرة :

والجزيرة مبلغ معين من المال توضع على الروس ، وتسقط بالإسلام ، وثبتت بنص القرآن لقوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين آتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)^(٤) . والفرق بين الجزية والخراج أن الخراج على الأرض (وليس على الروس) ، ولا يسقط بالإسلام ، وقد ثبت بالاجتهاد (لا بنص القرآن) .

(١) ابن الأثير : السكامل ج ١٠ ص ٢٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٤٦ .

(٣) ابن القلانسي ص ٢٧٠ .

(٤) سورة التوبة ٩ : ٢٩ .

وقد فرضت الجزية على الذميين في مقابل فرض الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان ، لأن الذميين والمسلمين رعية لدولة واحدة ، ويتمتعون بحقوق واحدة ، ويتمتعون بمرافق الدولة العامة بنفسية واحدة . ولذلك أوجب الله تعالى الجزية للمسلمين نظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم في الأقاليم الإسلامية التي يقيمون فيها (١) . ولذلك فرض الشرع الجزية على الأشخاص الذين يجب عليهم الجهاد لو كانوا مسلمين لأن كلتا الطبقتين متكافأتا في الحقوق وتساويتا في الواجبات . وكانت الجزية تجمع على النحو الآتي :

- ١ — أغنياء ويؤخذ منهم ٤٨ درهما .
- ٢ — متوسطو الحال ويؤخذ منهم ٢٤ درهما .
- ٣ — فقراء يكسبون ويؤخذ منهم ١٢ درهما .
- ٤ — ولا تؤخذ الجزية من مسكين يتصدق عليه ، ولا من لا قدرة له على العمل ، ولا من الاعمى أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوى العاهات ، ولا من الرهبان إلا إذا كانوا من الأغنياء . ولا يجوز أن تفرض إلا على الرجال الأحرار والعقلاء ، كما أنها لا تفرض على امرأة أو صبي .

٤ — الزكاة :

والزكاة معناها الطهارة ، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين ، طبقاً لقوله تعالى مخاطباً الأغنياء : (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . فكما أن الخارج شيء من المال يطهره ، فكذلك يبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء ، ويذهب عن نفس صاحبه الشح والاثرة ، قال الله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها) (٢) .

وقد منح الله سبحانه وتعالى بعض الناس بالأموال دون بعض نعمه منه وفضلاً ، وجعل علامة الشكر لذلك منهم على هذه النعمة التي منحها الله إياهم أن يخرجوا بعض هذه الأموال لتنفق على الفقراء والمساكين وذوى الحاجة بوجه عام .

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ٦٩ — ٧٢ .

(٢) سورة البقرة ٢ : ٢٦١

والزكاة شرعاً : تمليك جزء من المال عينه الشارع يخرج به الغنى للفقير في الحدود التي عينها الشارع وهناك خمسة أشياء يجب إخراج الزكاة منها وهي :

١ — زكاة النقد (الذهب والفضة) ، ونجب الزكاة فيهما إذا بلغ النصاب ؛ فنصاب الذهب عشرون مثقالاً ، والمثقال يساوى بالعملة المصرية ٥١ قرشاً تقريباً ، ونصاب الفضة مائتا درهم (والدراهم يساوى نحو أربعة قروش مصرية) . فإذا بلغ كل منهما النصاب المقرر وجب على المالك إخراج ربع العشر .

٢ — زكاة السوائم^(١) ؛ وهي : الإبل والغنم . فأول نصاب الإبل خمس وفيها شاة ، وهكذا في كل خمس شاة ، فإذا بلغت خمسا وعشرين ففيها بنت مخاض^(٢) وفي ست وثلاثين بنت لبون^(٣) ، وفي ست وأربعين حقة^(٤) ، وفي إحدى وستين جذعة^(٥) ، وفي ست وسبعين بنتا لبون . فإذا بلغت إحدى وتسعين ففيها حقتان إلى مائة وعشرين . ثم تستأنف الفريضة فيؤخذ في كل خمس شاة مع الحقتين .

أما زكاة البقر والجاموس ، ففي كل ثلاثين تبيع أو تبيعة^(٦) وفي أربعين مسن^(٧) إلى ستين ففيها ضعف ما في الثلاثين ، ثم في كل ثلاثين تبيع وفي كل أربعين مسنة .

أما نصاب الغنم (ضأناً ومعزاً) ففي كل أربعين شاة ، وفي كل مائة وإحدى وعشرين شاتان ، وفي المائتين وواحدة إلى أقل من أربع مائة ثلاث شياة ، وفي أربع مائة أربع شياة ، وما زاد ففي كل مائة شاة .

ولا زكاة في غير ما ذكر من الحيوان ؛ فلا زكاة في الخيل والبغال والحمير إلا إذا كانت للتجارة ففيها زكاة التجارة .

(١) السائمة هي التي يرسلها صاحبها لترعى في البراري في أكثر السنة بقصد الدر أو النسل أو السمن الذي يراد به تقويتها لأذبحها ، فلو اتخذت للذبح أو الحمل أو الركوب أو الحرب فلا زكاة فيها .

(٢) هي ما بلغت من الإبل سنة ودخلت في الثانية .

(٣) هي ما أتمت سنتين ودخلت في الثالثة .

(٤) بكسر الحاء ما أتمت ثلاث سنين ودخلت في الرابعة .

(٥) بفتح الجيم والذال ما أتمت أربع سنين ودخلت في الخامسة .

(٦) التبيع : الذي يتبع أمه ، وهو ما أوفى سنة .

(٧) المسن : ما أوفى سنتين .

٣ — زكاة عُروض^(١) التجارة ، ومنها ربع العشر ، بشرط أن تبلغ قيمتها نصاباً من الذهب والفضة . وأن يحول عليها الحول .

٤ — المعدن والركاز ، وهما بمعنى واحد ، وهو شرعاً : مال عثر عليه تحت الأرض ، سواءً كان خَلْقياً خلقه الله تعالى ، أو كان كنزاً مدفوناً . قال الحسن البصري : ما كان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس وما كان في أرض السلم ففيه الزكاة (وهو ربع العشر) .
٥ — زكاة الزرع والثمار : وحكم زكاتها ، أنه يجب فيها العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالمطر أو السبيح^(٢) وهو نصف العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالدلاء ونحوها ، ويقصد بزراعته استغلال الأرض ونماؤها^(٣) .

والزكاة تصرف على الأشخاص المذكورة في قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم^(٤)) ، وفي قوله الرسول الكريم : « أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم » .

وقد اختلف علماء اللغة وأهل الفقه في الفرق بين الفقير والمساكين ، وفي حد الفقر الذي يجوز معه الأخذ من الصدقة . والعاملون عليها هم الجباة الذين يندبهم الإمام لتحصيل الزكاة ، والمؤلفة قلوبهم هم الذين كانوا يظهرون الإسلام ليتألف المسلمون بذلك قلوبهم . وقد انقطع هذا الفريق بعد ظهور الإسلام وانتشاره . ويقصد « بالرقاب » أن يعق الرقيق لضمان ولائهم للمسلمين . والغارمون هم الذين ركبهم الدين . وقوله تعالى : (وفي سبيل الله) يراد بهم الغزاة ، وأهل الرباط الذين يعطون ما ينفقون في غزوهم سواء أكانوا فقراء أم أغنياء . و (ابن السبيل) الذي انقطعت به الأسباب عن ماله لبعده عن بلده ومستقره وأهله . فإنه يعطى من الصدقة وإن كان غنياً في بلده .

وكان للزكاة ديوان خاص بها في حاضرة الخلافة ، وله فروع في سائر الولايات والبلدان .

(١) جمع عرض (يسكون الراء) وهو ما ليس بذهب ولا فضة .

(٢) وهو ماء يسقى الأرض دون أن يخرجها الإنسان من النهر ، ويطلق عليه عند فلاحي مصر رى الراحة .

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٠٨ — ١١٧ .

(٤) سورة التوبة : ٩ : ٦٠ .

٥ - الفبي والغنيمة :

والفبي كل مال وصل من المشركين للمسلمين عفواً من غير قتال ولا إيجاف ^(١) خيل ولا ركاب ^(٢) .

وخمس الفبي يقسم خمسة أسهم متساوية : سهم للرسول ينفق منه على نفسه وأزواجه وبصرفه في مصالحه ومصالح المسلمين ، وقد سقط بموته صلى الله عليه وسلم .

أما أربعة أخماس الخمس فسهام لذوى القربى ، ويراد بهم آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد اختلف فيهم : فقيل لهنهم قريش كلها ، وقيل بنو هاشم وبنو عبد المطلب . وقيل بنو هاشم خاصة ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لابن السبيل ، وذلك عملاً بقوله تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة ^(٣) بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ^(٤)) ، وبقوله صلى الله عليه وسلم : « مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخصم مردود عليكم » .

وكانت أربعة أخماس الفبي الباقية تقسم في صدر الإسلام بين الجند في الأعمال الحربية وما تتطلبه من شراء الأسلحة وغيرها من معدات الحرب . وقد ظلت الحال على ذلك حتى دون عمر الدواوين وقدر أرزاق الجند .

والغنيمة في اللغة : ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي ، وهى كل ما أصابه المسلمون من عساكر الكفار عن طريق الحرب .

وقد جرت العادة أنه إذا جمعت الغنائم لم تقسم حتى تنتهى الحرب لئلا يتشاكل الجند بها فتحل بهم الهزيمة كما حدث في غزوة أحد فإذا انتهت الحرب عجل أمير الجيش بقسمتها في دار الحرب . ومع ذلك فإنه يجوز تأخيرها إلى دار الإسلام بحسب ما يراه أمير الجيش . ويبدأ الإمام بإخراج الخمس من الغنيمة ، فيقسمه بين أهل الخمس على خمسة أسهم ، وهم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول

(١) الإيجاف : سرعة السير . والركاب الإبل التى يسافر عليها ، لا واحد لها من لفظها ، أى لم يستعمل في تحصيله خيلاً ولا إبلًا ، بل حصل بلا قتال .

(٢) جمع ركب ويقصد بذلك الإبل وغيرها المستعملة في الحرب .

(٣) مداولة من الأغنياء إلى الأغنياء دون الفقراء .

(٤) سورة الحشر ٥٩ : ٧ الدولة (بضم الدال) فى المال فقط . يقال صار الفبي دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا والجمع دولات ودول .

ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) سورة الأنفال ٨ — (٤١). وقد تقدم ذكرهم في باب الفيء والأربعة الأخماس الباقية ملك للغنائم؛ غير أن الإمام إذا رأى أن يمن على الأسرى باطلاقهم فعل، وبطلت حقوق الغنائم فيهم.

٦ — العشر :

ويرجع نظام العشر إلى عهد عمر بن الخطاب. وكان تجار المسلمين الذين يقدون إلى دار الحرب (أى بلاد الكفار الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد) يدفعون العشر عن سلمهم، فأمر عمر بأن يأخذ المسلمون العشر من تجار غير المسلمين الذين يقدون بضائعهم إلى دار الإسلام، وأمر بأن يؤخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين ربع العشر إذا بلغ ثمن السلعة مائتي درهم فأكثر. وللإمام أن يزيد عن العشر أو أن ينقص عنه إلى نصف العشر، أو أن يرفع ذلك عنهم إذا رأى في ذلك مصلحة. ولا يزيد ما يؤخذ عن مرة واحدة من كل قادم بالتجارة في كل سنة ولو تكرّر قدومه. وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلاد أخرى، وهذا ما نسميه في الوقت الحاضر الضرائب الجمركية.

وهناك مورد آخر من موارد بيت المال، هو الأموال التي لا يعلم لها مستحق كاللحقة ومال من يموت وليس له وارث، والأموال التي صالح عليها المسلمون أعدام.

٧ — الضرائب في العصر العباسي الثاني :

وكان الخلفاء العباسيون يعنون بشؤون الزراعة والتخفيف عنها. وقد ألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التي كانت تفرض على الخنطة والشوفان، وأحل محلها نظام المقاسمة، وهو دفع الضرائب النوعية (المتنوعة) بنسبة خاصة من المحصول. على أن النظام النقدي القديم ظل على النخيل والفواكه وأشباهاها. ولما أدى ذلك النظام الجديد إلى اشتطاط الجباة في جمع الضرائب توسع الخليفة المهدي (١٥٨ — ١٦٩ هـ) في تطبيق النظام الذي أدخله أبوه المنصور فعممه، وجعل الضرائب تنجي دائماً بالنسبة إلى المحصول. وإذا كانت الأرض بمتازة الخصوبة ولا تحتاج إلى عمل كثير، كان على الزارع أن يقدم للحكومة نصف غلة أرضه. وإذا صعب عليه ربحا دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعاً لحالة الأرض.

أما الكروم والبساتين والنخيل، فكانت غلتها تقوم بالمال ويدفع عنها النصف أو الثلث. ويسمى هذا النظام المقاسمة، تمييزاً له عن النظام القديم الذي كان يعرف

بالمحاسبة ويقضى هذا النظام بأن تجبى الضريبة بالنسبة إلى الأرض ، وهناك ثلاث طرق في جباية الأرض .

١ — المحاسبة — وهى إما أن تكون نقداً أو نوعاً أوهما معاً .

٢ — المقاسمة — وهى ضريبة تؤخذ من المحصول .

٣ — المقاطعة — وهى ضريبة تجبى وفق اتفاقات معينة بين الحكومة والامة ، ويدخل فى هذا النظام معظم أراضى الدولة . وكثيراً ما كان يعفى البعض من دفع الضرائب ، حتى فى اليهود التى ساد فيها العسر والجذب .

وقد بلغت مساحة الجزء المنزوع فى عهد المعز لدين الله الفاطمى ٧١٤ ر ٢٨٥ فداناً ، وفى أيام بدر الجمالي الذى تقلد الوزارة فى سنة ٤٦٥ هـ نحو هذا القدر ، وانعدمت أو كادت فى أواخر عهد المستنصر . ولم يكن السبب فى ذلك راجعاً إلى انخفاض النيل أو حدوث الوباء ، وإنما كان راجعاً إلى سوء سياسة الحكام وعدم اهتمامهم بتنمية الزراعة وما تتطلبه من شق الترع وحفر الخللجان وإقامة الجسور ونحوها .

ويمكننا الوقوف على اطراد النقص فى مساحة الجزء المنزوع فى مصر وزيادة مقدار الخراج الموضوع على الفدان من الثبوت (١) الآتى :

الضريبة على الفدان	الخراج	المساحة المزروعة	السنة الهجرية	الوالى
٢ دينار	٤٠٠٠ ر ٤٠٠٠ دينار	٦ مليون فدان	٢٠	عمرو بن العاص
» ٢	» ٤٠٠٠ ر ٤٠٠٠	» »	٢ ١٢٥	هشام بن عبد الملك
» ٢	» ٤٢٥٧ ر ٤٠٠٠	» ٢١٢٨ ر ٢٠٠٠	٢١٨	المأمون
»	» ٤٨٠٠ ر ٤٠٠٠	»	؟ ٢٧٠	أحمد بن طولون
» ٤	» ٢٠٠٠ ر ٢٠٠٠	» ٥٠٠ ر ٥٠٠ فدان	٣٣٤	محمد الإخشيد
» ٧	» ٢٠٠٠ ر ٢٠٠٠	» ٢٨٥ ر ٧١٤	٣٥٨	المعز لدين الله
» ؟	» ٣٠٦١ ر ٣٠٠٠	» ٧٦٥ ر ٢٥٠	٤٨٧	المستنصر فى أواخر حكمه

وكانت محاصيل مصر في العصر الفاطمي — ولا تزال — تنقسم إلى محاصيل شتوية ومحاصيل صيفية . وهنا أهم المحاصيل الشتوية نقلاً عن ابن ممتي (١) .

نوع المحصول	الغلة بالفدان	ضريبة الفدان
القمح والشعير	٢ — ٤٠ أردب	٣ أرادب
القول	٢٠ — ٢٠٠ أردب	٢ ١/٢ — ٣ أردب
العدس	٥ — ٢٠ أردب	٢ ١/٢ أرادب
السكرتان	٣٠ حبلاً	٣ — ٦ دينار
القرط (البرسيم)	٢ — ٤ أردب	١ دينار
البصل	١٠ — ٢٠ دينار	٢ دينار
السمسم	١ — ٦ أردب	١ دينار
القطن	٢ — ٨ قنطار	١ قنطار
قصب السكر	٤٠ — ٨٠ إبلوجه (٢)	٥ دينار
القلقاس	٥ — ٤٠ دينار	٤ دينار
الباذنجان	٣٠ دينار	٣ دينار
النيلة	٢٦ دينار	٣ دينار
العنب والفاكهة	٣ دينار	٣ دينار

وكانت الضرائب فادحة على المواد الضرورية ، كالقمح والشعير والقول والقصب والقلقاس والباذنجان والفواكه ، حتى إن متوسط الضريبة على الفدان الواحد بلغ أربعة دنانير .

وإذا كان الخراج قد بلغ ٣٠٦١٠٠٠ ديناراً في عهد وزارة بدر الجمالي ، فإننا نستطيع أن نقدر مساحة الجزء الصالح للزراعة في أيام المستنصر على الوجه الآتي :

$$\frac{٣٠٦١٠٠٠}{٤} = ٧٦٥٢٥٠ \text{ فداناً وهو مقدار قليل جداً كما نرى .}$$

(١) كتاب قوانين الدواوين ص ٢٥٨ — ٢٧٠ .

(٢) الأيلوجة هي الحزمة الكبيرة .

ولو كان لدينا خريطة مفصلة لمصر ونواحيها في أيام الفاطميين ، لاستطعنا أن نستعين بالإحصاء القيم الذى أورده أبو صالح الأرمى في كتابه (كئناس وأديرة مصر) ، حتى نقدر مساحة كل كورة بالتقريب ، فنحصل على مساحة معقولة للجزء المزروع . وما دام أبو صالح الأرمى قد أهمل مساحة كل كورة فلنكتف بأن نذكر أنه كان بمصر ١٢٢٨ فاحية و ٨٣٤ قرية ، وأن خراجها قد بلغ ٣٠٦١٠٠٠ ديناراً^(١) .

على أن أغلب مؤرخى مصر الإسلامية قد اتفقوا على أن سياسة الفاطميين كانت ترمى إلى العناية بالفلاحين وعدم إرهاقهم ومعاملتهم معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، ولا سيما في عهد المعز والعزير . على أنه لما بدأ أمر الخلفاء يضعف وبدأ نجم الوزراء يعلو وسلطانهم يمتد ، خرج أمر الرعية من يد الخلفاء فتصرف الوزراء حسب أهوائهم .

ولعل اليازورى هو الوحيد الذى استطاع أن يصلح ما أفسده من سبقه من الوزراء . فقد رأى أن يبيع قمح الحكومة بسعر معتدل دون أن ينتظر ارتفاع الأسعار كما كان يفعل الوزراء من قبل . وكان من أثر هذه السياسة أن خسرت الحكومة مبالغ كبيرة من المال ، وغلت مخازنها من القمح الاحتياطى الذى كان ضرورياً في عهود الشدة التى جاءت بعد ذلك . ثم انتهز اليازورى فرصة زيادة المحصول فى إحدى السنين ، لخال دون إرهاق المزارعين والتجار والفلاحين ، فمنهم من شراء المحاصيل بأسعار منخفضة فى الوقت الذى كان الفلاح يعلن عن حاجته إلى المال . ثم أقام مخازن كبيرة للقمح فى مدينة القسطنطين ليحول دون انتشار خطر المجاعة .

وقد أمدنا المقرئى^(٢) ببيان واف يشتمل على ما كان يجبى بالدنانير من عوائد الأرض ، وكل صنف من أصناف الصناعات ، وما تحصله الدولة من الرسوم الجركية ومستخرجات المعادن ، ومن الزكاة وجزية الرموس ، وما يتحصل من دار الضرب ، وما يدخل بيت المال من التركات التى لا وارث لها .

ومما ذكره المقرئى وغيره من المؤرخين يتبين لنا مقدار خراج مصر فى العصور المختلفة .

(١) انظر كتابى النظم الإسلامية (الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢) ص ٢٦٥ .

(٢) خطط ج ١ ص ١٠٣ — ١١١ .

الحاكم	الخليفة	مقدار الخراج بالدقار
عمرو بن العاص	عمر بن الخطاب	١٢ر٠٠٠ر٠٠٠
عبد الله بن سعد بن أبي سرح	عثمان بن عفان	١٤ر٠٠٠ر٠٠٠
أسامة بن زيد	سليمان بن عبد الملك	١٢ر٠٠٠ر٠٠٠
عبيد الله بن الحبحاب	هشام » »	٢ر٧٢٣ر٨٣٩
موسى بن عيسى الهاشمي		٤ر٢٥٧ر٠٠٠
أحمد بن محمد بن المدبر		٨٠٠ر٠٠٠
أحمد بن طولون		٤ر٨٠٠ر٠٠٠
خارويه بن أحمد بن طولون		٤ر١٠٠ر٠٠٠
محمد بن طغج الإخشيد		٢ر٠٠٠ر٠٠٠
كافور الإخشيد		٣ر٢٧٠ر٠٠٠
جوهر الصقلي	المعمر	٣ر٤٠٠ر٠٠٠
وزارة يعقوب بن كلس	العزير	٣ر٠٠٠ر٠٠٠
—	الحاكم	٣ر٤٠٠ر٠٠٠
وزارة اليازوري	المستنصر	٢ر٠٠٠ر٠٠٠ } منها مليون من الشام
بدر الجمالي في سنة ٤٨٧ هـ		٣ر١٠٠ر٠٠٠
الأفضل بن بدر الجمالي	المستعلي	٥ر٠٠٠ر٠٠٠
صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٨٥ هـ	—	٤ر٦٥٣ر٠٢٩
الظاهر بيبرس	—	١٢ر٠٠٠ر٠٠٠ (١)

(١) انفرد ابن لياس (ج ٣ ص ٢٦٦) بإيراد هذا الرقم .

٨ - النظام المالى فى الأندلس :

وضع الامويون أساس النظام المالى فى الأندلس . وكان يتألف من الخزانة العامة ، وإدارة بيت المال ، وإدارة خاصة للأمير أو الخليفة :

وكان يشرف على الخزانة العامة أحد كبار الموظفين ، ويسمى « خازن المال » . ومقر هذه الخزانة القصر . وتودع فيها الأموال التى تجبى من المدن والقرى . ومن أهم هذه الأموال التركات التى يموت أصحابها دون أن يتركوا وارثاً ، والضرائب المفروضة على الأسواق ، والرسوم الجمركية التى تفرض على السفن ، والخراج ، والجزية ، والأعشار .

أما موارد بيت المال ، كما كان يسمى فى الأندلس ، فقد اقتصر على ما يرد عليه من الإحباس (الأوقاف) . وكان مقر هذا الديوان المسجد الكبير بقرطبة ، ويقوم هذا الديوان على صيانة المنشآت الدينية ودفع رواتب موظفى المساجد ، وتوزيع الصدقات ، ويشرف عليها قاضى القضاة ونوابه فى الأقاليم برعاية الخليفة . ويشبه هذا الديوان من بعض الوجوه وزارة الإحباس ووزارة الشؤون الاجتماعية الآن .

وأما موارد الأمير أو الخليفة الخاصة ، فكان يشرف عليها موظف يعرف « بصاحب الدية » ، ويشرف هذا الموظف على أرض الأمير أو الخليفة ، ويقوم بزراعتها جماعة من المزارعين ، على أن يستولوا على جزء قليل من غلاتها^(١) .

وقد استمر هذا النظام فى الأندلس حتى استولى عليها المرابطون واتبعوا نظاماً يقوم على قواعد الإسلام الأساسية وهى الزكاة . فلما أراد عمال المرابطين أن يتبعوا النظام السابق رغبة فى جمع أكبر قدر من المال ثار أهالى الأندلس عليهم ، واضطر أبو الطاهر (أخو السلطان على بن يوسف) أن يقمع هذه الثورة التى اشتدت حتى جاء على بن يوسف فقمضى عليها . كما كانت هذه الثورات من العوامل الهامة التى جعلت الأندلسيين يرحبون بالحكم الموحدى ليمتصاصوا من وطأة الضرائب التى اشتطت العمال فى جمعها على أيدي اليهود الذين اشتهروا إذ ذاك فى الشؤون المالية .

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى (الطبعة السابعة ١٩٦٥) ج ٣

٤ — النظام الحربي

(١) الجيش في العصر السلجوقي :

استمد العباسيون قوتهم من الجيش الذي نما نموا عظيما على أثر دخول كثير من الناس في الإسلام وانضوائهم تحت لوائه . وقد بلغ عدد الجند في عهد العباسيين مئات الألوف . وكان هؤلاء الجند يكونون الجيش النظامي للدولة ، تدفع لهم رواتبهم بانتظام ، ومن ثم قلت أرزاقهم تبعا لزيادة عددهم . ولما بلغت قوة العباسيين أشدها في بغداد ، أصبح الجندي يتقاضى راتباً شهرياً قدره عشرون درهماً^(١) . وكان إلى جانب الجند النظاميين طائفة أخرى من الجند المتطوعة من البدو وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا في الحروب .

وكان تقسيم الجند تابعا للجدسية أفراده . ففهم الحربية وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرمح ، وهؤلاء من جند العرب ، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين . وفي العصر العباسي الثاني دخل في الجيش عنصر جديد أصبح أشد خطراً من الفرس والخراسانيين ، هو عنصر الأتراك ويكونون القسم الرابع من الجيش .

وكان الجيش العباسي يتألف من عدة فرق تضم النظامية والمتطوعة . وتتألف هذه الفرق من المشاة أو الحربية ويتسلحون بالرمح والحراب والتروس ، ومن الرماة ويتسلحون بالسيوف والاقواس والتروس والنشاب ويلبسون الخوذ لتقي رؤوسهم والتروس لتقي صدورهم ، ولها أجزاء للساعدين والساقين . ولكل فرقة من فرق الجيش فصيلة لقذف النفط يعرف رجالها بالنفاطين ، ويرتدون الملابس التي لا تؤثر فيها النيران لاحتحام الحصون المشتعلة .

وكان الجيش العباسي بوجه عام يتألف من الفرسان والمشاة أو الرجال ، والمنجنيقين والنشابين (وهم الذين يرمون النشاب) ، والنفاطين ، والزرايين (وهم الذين يقذفون بالنار الإغريقية التي اقتبسها اليونان من الشرق) ، والدبابين والعيارين ، وهم رماة الحجارة من المقالع ، وقد اشتهروا في الفتنة التي قامت بين الأميين والمأمون ، كما كان الجيش يتألف من المهندسين والأطباء والبياطرة والمرتقة .

(١) الدرهم يساوي أربعة قروش تقريبا .

وكانت صلاحية الجند للخدمة العسكرية ، وهو ما يعبر عنه اليوم بالقرعة العسكرية أو التجنيد ، تقرر بعد اختبار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد . وقد وصف هلال الصابي (١) طريقة هذا الاختبار وتقدير مراتب النجاح أو الرسوب (٢) .

وقد ارتقى نظام الجاسوسية عند العباسيين ، إذ كانوا يستخدمون الرجال والنساء ، الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة متنكرين في أزياء التجار والأطباء وغيرهم لجمع الأخبار ونقلها إلى دولتهم .

ولسكى يحكى العرب أنفسهم من غارات الإغريق أقاموا الحصون على تخوم دولهم وهى الثغور . ومن هذه الثغور طرسوس ، وأذنة ، والمصيصة ، ومرعش ، وملاطية ، وكانت تقع طوراً في أيدي العرب وطوراً في أيدي الروم .

وقد بلغ الجيش في عهد الدولة الزنكية درجة عالية من الرقى ودقة التنظيم حتى أصبح مثالا يحتذى في البلاد الإسلامية الأخرى . وقد عنى عماد الدين زنكى عناية خاصة بتنظيم الجيش للقضاء على الإمارات المحلية المتنافسة في الموصل والجزيرة والشام وتوحيدها في جبهة إسلامية تستطيع الوقوف في وجه الصليبيين .

لذلك وضع عماد الدين زنكى على رأس ديوان الجيش موظفاً كبيراً عرف باسم « أمير حاجب » كان يلى نائب السلطنة في الرتبة . وكان هذا القائد « ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه ، وتارة بمشاورة السلطان ، وتارة بمراجعة النائب . وكان عليه تقديم من يعرض (على السلطان) ومن يرد (٣) ، وعرض الجند (٤) كما كان ينظر في مخاصمات الجند وما يتعلق بأمور الإقطاعات الخاصة وغير ذلك (٥) . وكان « أمير حاجب » يعتبر أكبر قواد عماد الدين زنكى .

وكان جيش الأيوبيين والمماليك من بعدهم يقوم على التقسيم العشرى ، بحيث ينظم أمراء الجند بشكل متدرج ، فيلقب أكبرهم بمقدم ألف ، ويليه أمير أربعين ، ثم أمراء العشرات

(١) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٣ — ١٤ .

(٢) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي (الطبعة السابعة) ج ٣ ص ٢٨٥ .

(٣) يعنى ومن ترفض مقابلته .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩ .

(٥) المقرئى : خطوط ج ٢ ص ٢١٩ .

فالتخمسات . وكان هذا التقسيم متبعاً عند السلاجقة قبل استيلائهم على بغداد سنة ٤٤٧ هـ . ويظهر أن عماد الدين زنكى اتبع نفس هذا التنظيم الذى يعد استمراراً للنظم السلجوقية من جهة وأساساً للنظم المملوكية من جهة أخرى .

وكان جيش عماد الدين زنكى يتألف من الحراسانيين والتركمان^(١) الذين استعان بهم فى قتال الصليبيين ، ومن الشاميين وخاصة أهل حلب الذين اشتركوا فى كثير من المعارك ضد الصليبيين فى شمالى الشام وقاموا بدور هام فى الدفاع عن حلب وأعمالها . كما استعان عماد الدين زنكى بأهل حماه الذين اتخذهم حرساً خاصاً له . وهناك فرق أخرى من البدو والأكراد التى تألف منها جيش زنكى بقسميه النظامى (أو المرتزقة) والمتطوعة .

كذلك أدخل عماد الدين زنكى نظام التجنيد الإجبارى فى المناطق المعرضة لخطر الصليبيين باعتباره نوعاً من الجهاد . كما اهتم بفرض حصار اقتصادى عند حصار المدن ليحول دون وصول المؤن إليها ، واشترك مع جنده فى الهجوم لإثارة الحماس فى نفوسهم ورفع روحهم المعنوية . وتجلت براعة زنكى وقواده فى استخدام أساليب القتال كنصب السكائن^(٢) وشن الغارات على معسكرات العدو والانسحاب بسرعة لإثارة الخوف فى نفوس الجند ونشر الفوضى فى صفوفهم^(٣) .

وقد اهتم عماد الدين زنكى بترقية فن حصار المدن الحصينة المنتشرة فى الجزيرة والشام ، واعتمد على الجواسيس الذين كانوا يمدونه بأخبار العدو وتحركات جيوشه حتى يستطيع وضع خطة حربية سليمة^(٤) . وفى مدينة الرها طلب زنكى من أهل الحصن تسليمه فرفضوا ، فأمر بضربه بالمنجنيات وأخذ جنده يوالون هجماتهم بلا انقطاع لقتال الحامية فى الوقت الذى أخذ النقا بون ينقبون بعض الأماكن التى تحت الأبراج حيث وضعوا الأخشاب وأشعلوا فيها النيران ، فسقطت الأبراج واحترق السور وفتح زنكى الطريق أمام الجيش لدخول الحصن والاستيلاء عليه^(٥) .

(١) ابن القلانسي ص ٢٧٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٤ .

(٤) ابن الأثير : السكامل ج ١١ ص ٤٠ .

(٥) ابن القلانسي ص ٢٧٩ .

(ب) أسلحة الجبهه :

وقد كشف البحث الحديث خطأ النظرية التي ذهب اصحابها إلى أن المواد المفرقة من اختراع اليونان والرومان الذين عرفوا المواد الملتبئة التي استخدمت قديماً في الحروب . ومن بينها النار الاغريقية التي لأعلاقة لها بالمواد المفرقة المتصلة بالنقط ، والتي ساعدت على تطوّر مجرى الحرب وعاونت على القيام بكثير من الاعمال والمشاريع العمرانية ، كشق الطرق بين الجبال وما إليها .

ونقرأ كثيراً من أعمال النفط و فرق النفاطين التي اشتهرت في الفتوح الاسلامية . ولا سيما في العصر العباسي وما كان لها من أثر بعيد في حصار المدن وتمهيد السبل لفتحها بعد إحراق بيوتها الخشبية ، كما حدث في حصار حصن هرقلة (بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف) في عهد الرشيد . وكان لكل فرقة من فرق الجيش فصيلة من النفاطين (بفتح النون والفاء مع التشديد) لذف النفط ، يرتدى رجالها الملابس التي لا تؤثر فيها النيران عند اقتحامهم الحصون المشتعلة .

وفي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أخذ الاوربيون عن المسلمين المواد المفرقة المشتعلة على ملح البارود والكبريت والفحم . وقد دحض المستشرق الالماني جرجي يعقوب الرأي القائل أن القديسة « بربرة » اخترعت هذا المسحوق حين أغار الوندال على إفريقيا واستخدمته للمرة الاولى ، حتى أصبحت هذه القديسة شعاراً لفرق المدفعية عند كثير من الامم حتى اليوم .

وقد عرف تلج الصين (نترات البوتاسيوم أو ملح البارود) في بلاد الصين في النصف الاول من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) حيث نجد استخدام الصينيين المواد المفرقة للمرة الاولى عند هجوم أجتاي التتاري على إحدى المدن الصينية سنة ٧٨٢ هـ (١٣٣٢ م) . وهذه المواد المفرقة عبارة عن أسهم نارية ومواد مدمرة كانوا يلقونها على العدو إذا حاصروه في زاوية لا يمكنه الإفلات منها . وقد أخذ المسلمون نترات البوتاسيوم عن الصين وأطلقوا عليها اسم تلج الصين الذي استعمل كعنصر أساسي في صناعة الأسلحة النارية التي تعرف باسم « طوربيد » . فوصفها حسن الرماح (بفتح الراء والميم مع التشديد) في كتابه عن الرماية بأنها « بيضة تخرج وتحرق » . وقد عرف المسلمون النار الاغريقية كما عرفوا غيرها من أسلحة الحرب التي أخذها عنهم الاوربيون .

(ج) إمرة الجيش :

وقد حدد ابن طباطبا^(١) الصفات التي يجب أن تتوفر في قائد الجيش فقال : « قال بعض حكماء الترك : ينبغي أن يكون في قائد الجيش عشر خصال من أخلاق الحيوان : جرأة الأسد ، وحيلة (أى قوة تحمله) الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر السكب على الجراح ، وغارة الذئب ، وحراسة السكركى ، وسخاء الديك ، وشفقة الدجاجة على الفراريج ، وحذر الغراب ، وسمن تغزو ، وهى دابة تكون بخراسان تسمن على السفر والسكد » .

وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة نفسه ، لأنه يعتبر نائبه في القيادة وفي إمامة الصلاة . وإذا اجتمع أكثر من قائد في مكان واحد ، عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس ، فيصبح هذا القائد بمثابة « قائد القواد » . وإذا انتهى الفتح ووقف القتال أصبحت مهمة هؤلاء القواد مقصورة على النظر في أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم كما هو الحال في عصرنا .

ويرجع إلى قواد العرب تنظيم طريقة القتال ؛ فقد كانوا في الجاهلية يتبعون طريقة السكر والفرو في القتال ، فيسكرون على العدو ، وإذا ما آسوا في أنفسهم ضعفاً فروا ، ثم عادوا فسكروا ، وهكذا يسرون على غير ضابط أو نظام .

غير أن قواد المسلمين لم يرتاحوا لهذه الطريقة ، ووجدوا أنها لا تكفل لهم النجاح ولا تصلح لقتال الجنود المظلمة ، وزلت الآية الكريمة (إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُومٌ)^(٢) . وأخذ المسلمون في أيام النبي يقفون للقتال صفوفًا كما يفعلون في الصلاة ، ثم يسرون للملاقاة العدو متضامين ، وليس لأحد منهم أن يتقدم عن الصف أو يتأخر عنه .

وفي عهد الأمويين والعباسيين اختلط العرب بالفرس وأخذوا عنهم نظام التعبئة . أى تقسيم الجيش إلى كتائب ، تكون إحداها في الوسط تحت إمرة القائد العام وتسمى « قلب الجيش » ، وتوضع واحدة إلى يمينها وتسمى « الميمنة » ، وأخرى إلى يسارها وتسمى « الميسرة » ، ثم تكون أمامها كتيبة (من الفرسان في الغالب) وتسمى « المقدمة » ،

(١) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٥٧ .

(٢) سورة الصف ٦١ : ٤ .

وخلفها كتيبة تسمى « ساقه الجيش » ولذلك تركوا نظام الصفوف . وبعد تقدمهم في المدينة تفننوا في طرق تعبئة الجيوش .

وقد عدل العرب عن اصطحاب نسائهم معهم إلى ميادين القتال ، بعد أن كن يصبحن الجيش ويخصص لهن أماكن في المدن الحصينة . وكان القواد يحافظون على حسن سلوك الجند ويشددون العقاب على كل من يعيب بالنظام أو يتعرض لأهالي البلاد المفتوحة بسوء . وما ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر ، كما كان الجندي لا يملك بيعاً عن أسرته أكثر من أربعة أشهر وكان الجند يكبرون ويتلون الآيات القرآنية في أثناء سيرهم للغزو والجهاد وفي أثناء المعارك الحربية ، كما كانوا يدقون الطبول ويقرعون الصنوج لبث الحماس في نفوسهم . وقد انصف الجندي المسلم بالتفاني في القتال لاعتقاده بأن من يموت في سبيل الله دخل الجنة .

وما ذكره ابن الأثير^(١) عن سير الخليفة المسترشد العباسي (٥١٢ — ٥٢٩ هـ) لحرب ديبس بن صدقة بن مزيد صاحب الحلة الذي هدد الخليفة بتخريب بغداد بعد أن كحل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أخاه ، نستطيع أن نقين بعض الخطط التي كانت تتبع في ندب الخليفة الأمير آقسنقر لحرب ديبس ، واستعد الخليفة لحربه واستنفر الشعب للقتال ووزع عليهم الأموال والسلاح . وفي شهر ذي الحجة سنة ٥١٦ هـ نادى « أهل بغداد . النفير النفير الغزاة الغزاة ، وكثير الضجيج من الناس وخرج منهم عالم كثير لا يحصون كثرة ، وبرز الخليفة . . . وعبر دجلة ، وعليه قباء أسود وعمامة سوداء وطرحه ، وعلى كتفه البردة وفي يده القضيب وفي وسطه منطقة حديد صيني (أى من حديد صيني) ، ونزل الخيام ، ومعه وزيره نظام الدين أحمد بن نظام الملك ونقيب الطالبين ونقيب النقباء على بن طواد وشيخ الشيوخ صدر الدين بن إسماعيل وغيرهم من الأعيان . وكان البرسقي قد نزل بقرية جهار طاق ومعه عسكره . فلما بلغهم خروج الخليفة من بغداد عاد إلى خدمته فلما رأوا الشمس (أى الشمسية) ، ترجلوا جميعهم وقبلوا الأرض بالبعد منه (أى على بعد منه) . ودخلت هذه السنة ، فدخل الخليفة في مستهل المحرم بالحديثة بهر الملك ، واستدعى (آقسنقر) البرسقي والأمراء واستحلهم على المناجحة في الحرب ، ثم ساروا إلى النيل^(٢)

(١) ج ١٠ ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٢) يقصد نهر دجلة الذي كان يطلق عليه النيل أحياناً كما كان يسمى نهر النيجر النيل أيضاً وهذه الإطلاقات نشأت من عظم نهر النيل وشهرته حتى أصبح علماً على كثير من الأنهار .

ونزلوا بالمباركة ، وعبي (عبأ) البرسقى أصحابه ، ووقف الخليفة مز وراه الجميع في خاصته ، وجعل ديس أصحابه صفاً واحداً ميمنة وميسرة وقلباً ، وجعل الرجال بين يدي الخيالة بالسلاح . وكان قد وعد أصحابه بنهب بغداد وسبي النساء . فلما تراءت الفئتان بادر أصحاب ديس وبين أيديهم الإمام يضربن بالدقوف والعبيد بالملاهي . ولم ير في عسكر الخليفة غير قاريء ومسبح . فقامت الحرب على ساق . . . فجعل عنتر بن أبي العسكر في طائفة من عسكر ديس على ميمنة البرسقى ، فتراجعت على أعقابها . . . وعاد عنتر وحمل حملة ثانية على هذه الميمنة ، فكان حالها في الرجوع على أعقابها كحالها الأول . فلما رأى عسكر واسط ذلك ومقدمهم آقسنقر حمل وهم معه على عنتر ومن معه وأتوهم فبقى عنتر في الوسط وعماد الدين من ورائه والأمراء البكجية بين يديه ، فأسر عنتر وأسر معه بريك بن زائدة وجمع من معهما ولم يفلت أحد . وكان (آقسنقر) البرسقى واقفاً على نشر (مرتفع عال) من الأرض ، وكان الأمير آق بوري في السكين في خمسمائة فارس . فلما اختلط الناس خرج السكين على عسكر ديس ، فانهزموا جميعهم وألقوا نفوسهم في الماء ، ففرق كثير منهم وقتل كثير . ولما رأى الخليفة اشتداد الحرب ، جرد سيفه وكبر وتقدم إلى الحرب . فلما انهزم عسكر ديس وحملت الأسرى بين يديه ، أمر الخليفة أن تضرب أعناقهم صبراً . وكان عسكر ديس عشرة آلاف فارس واثني عشر ألف راجل ، وعسكر البرسقى ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل . ولم يقتل من أصحاب الخليفة غير عشرين فارساً . وجعل نساء ديس وسراريه تحت الأسرى سوى بنت إيلعازى وبنت عميد الدولة ابن جهير ، فإنه كان تركهما في المشهد . وعاد الخليفة إلى بغداد فدخلها يوم عاشوراء من هذه السنة . . . وأما ديس بن صدقة فإنه لما انهزم نجحاً بفرسه وسلاحه وأدركته الخيل فقاتها وعبر الفرات . . . واختفى خبره بعد ذلك وأرجف عليه بالقتل ثم ظهر أمره . . . » .

(٥) الجيش في مصر :

وقد وجه الفاطميون عنايتهم إلى إعداد جيش قوى يكون عدتهم وقت الحروب . ويتكون هذا الجيش من الأمراء وطوائف الجند . ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها ، فالأمراء كانوا يطوقون بأطواق الذهب ، والبعض الآخر يركب في المواكب بالقضب الفضية . أما طوائف الجند فتتكون من عدة عناصر ، كالمغاربة والآتراك والأكراد والغز والديلم والسودان . ولكل طائفة من هؤلاء قائد يشرف عليهم ويقوم

بترتيبهم في مراقبتهم . وينسب بعض هذه الطوائف إلى الخلفاء كالحافضية نسبة إلى الخليفة الحافظ الفاطمي والأميرية نسبة إلى الخليفة الأمر الفاطمي ، والبعض الآخر ينسب إلى الوزراء كالجيوشية نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالي ، والافضلية نسبة إلى الأفضل ابن بدر الجمالي (١) .

وفي عهد الأيوبيين اتخذ السلطان صلاح الدين الأيوبي جيشاً من الأكراد ظل عدة الدولة الأيوبية ، حتى جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فاقتنى عدداً كبيراً من المماليك كان معظمهم من الأتراك . ويرجع السبب في ذلك إلى المنافسة التي قامت بينه وبين أخيه العادل الذي كان يرى أنه أحق منه بالملك ، فقبض عليه العادل وحبسه بقلعة الكرك ، فتفرق عنه جيشه من الأكراد ، ولم يبق معه غير مماليكه وطائفة من خواصة ، وأقاموا بالكرك حتى أطلق سراحه . فلما تولى نجم الدين أيوب سلطنة مصر بعد أخيه العادل ، حفظ للمماليك شجاعتهم وولاهم حين تفرق عنه الأكراد ، فاستكثر من شرائهم ، وبني لهم بجزيرة الروضة قلعة جهزها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية والاقوات ، وأنشأ بها جامعاً وستين برجاً « ولما تم بناء هذه القلعة انتقل إليها الملك الصالح بأسرته واتخذها داراً للملكة وأسكن فيها مماليكه البحرية .

وقد ظلت قلعة الروضة عامرة بالمماليك حتى زالت الدولة الأيوبية وولى المعز أيبك سلطنة مصر ، فأمر بهدمها ونقل جميع من بها إلى قلعة الجبل . ولما ولى الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك البحرية عرش مصر أعاد قلعة الروضة ، إلى ما كانت عليه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وأسكن الأمراء في أبراجها .

ويعد بيبرس أول من نظم جيوش المماليك تنظيمياً تاماً ، ولا عجب فقد كان قائداً ممتازاً ، ظهرت كفاءته في موقعة المنصورة التي دارت بينه وبين الصليبيين وكان سلفه عز الدين أيبك الذي تزوج من شجر الدر رئيساً لقواد المماليك . وكان جيش المماليك يتألف من ثلاث طوائف : جنود نظامية تنفق عليهم الدولة ، وممالك السلطان وتنفق عليهم الخاصة السلطانية ويؤلفون حرس السلطان ، وكانوا ذوي ثروة كبيرة ونفوذ عظيم بحيث كانوا يهددون السلطان بالخلع إذا شاموا . أما الطائفة الثالثة فهم ممالك الأمراء وكانوا يحرسونهم . وقد حافظ المماليك على صيغتهم الحربية حتى بعد ضعف نفوذهم باستيلاء السلطان سليم الأول

على مصر سنة ١٥١٧ م . وكانوا ينظمون جيوشهم على هيئة مربعات ، يقف فرسانهم في وسطها ثم يدور القتال بغير نظام ، لذلك لم يكن من الصعب إلحاق الهزيمة بهم على الرغم مما امتازوا به من الشجاعة والبسالة .

(هـ) الجيش في المغرب :

عرفت قبيلة لمتونة المرابطة بشدة البأس وبراعة الرمي وقد أدخل يوسف بن تاشفين على الجيش المرابطى تعديلات جوهرية حتى أصبح من أعظم جيوش العالم عدداً وسلاحاً . وكان باعتباره أمير المسلمين هو القائد الأعلى للجيش . وعمل المرابطون على الاحتفاظ بمخططهم الموروثة في تنظيم المعارك (١) .

وقد اشتهر اللتونيون بقوة البأس في الحروب ، لا يقرون أمام العدو مهما تفوق عليهم في العدد ، كما اشتهروا بركوب الخيل . لذلك كان معظم جيشهم من الفرسان . وكان أشجع جندهم من المشاة يقفون في الصف الأول متقلدين الحراب الطويلة التي كانوا يفرسونها في الأرض . وكانت قوة الفرسان لا تقل عن مائة ألف مقاتل من المدربين على الحروب والمزودين بأحسن السلاح ، ويتألف الجيش المرابطى من فرق يحمل كل منها علماً خاصاً عليه نقوش تميزها عن سائر فرق الجيش ، وعلى كل من هذه الفرق قائد خاص . ويسير الجند إلى حومة الوغى بين قرع الطبول وأصوات الأبواق ، وقد رتبت صفوفه حسب القبائل المغربية على اختلافها .

وكان ترتيب الجند المرابطى يقوم على نظام خماسى ، هو المقدمة ، والمؤخرة ، والميسرة ، والميمينه (ويؤلفان جناحى الجيش) ، والقلب : فالمقدمة تتألف من الجند المشاة ، والجناحان من وحدات الفرسان الخفيفة وحملة القسى وحملة النبال . ويتألف القلب من وحدات الفرسان الثقيلة ، وإلها يرجع الفضل غالباً في إحراز النصر في المعارك الحاسمة . أما القوى الخفيفة أو الاحتياطية فكان يقودها يوسف بن تاشفين باعتباره القائد الأعلى للجيش المرابطى . وتتألف من صفوف الجند وقوى الحرس على اختلافها (٢) .

وتنتمى كل فرقة من الجيش المرابطى إلى إقليم أو مدينة : فالاندلسيون مثلاً يؤلفون قسماً خاصاً من الجيش ويحملون أعلام لإشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة وغيرها .

(١) أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (القاهرة ١٩٥٨) ص ٤٧٨ .

(٢) أشباح ص ٤٧٩ .

وتتألف قوة الحرس الخاص من أكثر الجند شجاعة وتمتاز بحسن القوام وقوة البدن والشجاعة والبراعة . وقد استعان يوسف بن ناشفين بتجار الرقيق في إفليم غانة ، واختار أمهرهم ودرهمهم على جميع الفنون الحربية ، وزودهم بالسلاح والخيول ، وأنشأ منهم حرسه الخاص ، وكان يتألف من ألفي جندي .

وكان جند المرابطين يحاربون بنفس الروح الإسلامية التي تحلّى بها الجند في صدر الإسلام ، يحاربون للجهاد في سبيل الله وليظفروا بإحدى الحسينيين ، النصر أو الاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة الدين . وكان حب المرابطين للقتال في سبيل الله يظهر ظهوراً واضحاً في حروبهم ضد النصارى من الأسبان . ومن تقاليدهم الصلاة قبل بدء القتال وإذاعة أنباء النصر من أعلى المساذن وتلاوة البيانات الخاصة بالحروب من فوق المنابر في كافة أرجاء الدولة المرابطية .

وكانت أسلحة الجيش المرابطي في عهد يوسف بن ناشفين خفيفة تمثل البداة ، وتتألف من درق اللمط وسيوف الهند ومزارق الزاف والقنا^(١) الطوال . ولما طال مقام المرابطين في الأندلس ، اقتبسوا كثيراً من أسلحة ملوك الطوائف والأسبان ، فاعتمدوا على الخيل مع اعتمادهم على الجمال التي يطلق عليها سفن الصحراء ، وتسليحوا بالزرد والدروع والسيوف . ويبدو أن أسلحة المسلمين في الأندلس والمعارك التي خاضوها كانت في مستهل الحكم المرابطي في هذه البلاد على ما ذكره أبو بكر الطرطوشي^(٢) حيث يقول :

« فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا (الأندلس) ، وهو تدبير تفعله في لقاء عدونا ، أن تقدم الرجال بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة ، فيصفون صفوفهم ويركزون مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض ، وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون في الأرض . وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه ، وخلفهم الرماة المختارون التي تمرق سهامهم من الدروع ، والخيول خلف الرماة . فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجال عن هياتهم ، ولا يقوم رجل منهم على قدميه . فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالثياب^(٣) .

(١) القنا جمع قناتة وهي نوع من الرماح .

(٢) سراج الملوك ص ١٧٩ .

(٣) بفتح النون والشين مع التشديد .

والرجالة بالمزاريق ، وصدور الرماح تلقاهم ، فأخذوا يئنه ويسرة ، فنخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله .

ولنتقل الآن إلى السكلام على الجيش في عهد الموحدين :

كان النظام الذى وضعه المهدي محمد بن تومرت نظاماً عسكرياً بحتاً ، وكان ذلك أمراً ضرورياً في الجهاد ؛ فوضع لاتباعه نظاماً يسمى « الطبقات » تتميز بمقتضاه كل طبقة عن الأخرى في وقت السلم والحرب . وفي مقدمة هذه الطبقات أهل العشرة وهم صحابة ابن تومرت ووزراؤه الذين منهم عبد المؤمن بن علي الذي ولى الأمر بعد ابن تومرت . وكانت الطبقات كلها تشترك في الحرب عند الضرورة . يدل على هذا موقعة البحيرة المشهورة التي هزم فيها المرابطون الموحدون هزيمة منكرة وفقد فيها ابن تومرت جل صحابته وتوفى بعدها بقليل . ولم يتخذ الجيش الموحدى طابعه الكامل إلا في عهد عبد المؤمن ابن علي الذي يعد من أعظم قواد العصور الوسطى (١) .

ولما آلت الخلافة إلى عبد المؤمن ألغى نظام الطبقات الذى لم يبق منه سوى مجلس الحسين والسبعين . أما النظام الحربى فقد بقى على ما كان عليه في عهد ابن تومرت .

وكان المرابطون — كما ذكرنا — يعتمدون على الفرسان . أما الموحدون فقد كانوا أهل جبال . لذلك كانوا يعتمدون في حركاتهم الحربية على أنفسهم لا على دوابهم . وقد اقتبس عبد المؤمن تنظيم الصفوف من الطريقة الجرمانية ، ولعله أخذها عن جند الأسبان أو الزنمايين في صقلية في حرب تونس والمهديّة . فقد جعل كل صف يتألف من عشرة من الجند ، ولكل وحدة قائدها الخاص . وكان عبد المؤمن يعنى عناية خاصة بتدريب الجند والقواد الذين كانوا يتميزون بخفة الحركة والبراعة الحربية . ويختار المشاة في الجيش الموحدى من أبناء رجال القبائل الجبلية ولا سيما قبائل مصعودة ، الذين كانوا يحملون حراباً يبلغ طول كل منها اثني عشر قدماً ، وتسمى « الأمراس » ، يقذفون بها في وجوه الأعداء في قوة وسرعة (٢) .

وكان الجيش الموحدى ينقسم بوجه عام قسمين : الأول هو الجيش النظامى ويختار من أبناء القبائل المغربية ، والثاني ويختار من رجال الحرس وكانوا من أهل الجنوب ،

(١) أشباح : تاريخ المرابطين والموحدين ص ٣٠٥ .

(٢) الحل المشوية ص ١١٥ — ١١٦ .

ويقوم أمير المؤمنين بنفسه باختيارهم من أشد الشبان قوة وأعظمهم إخلاصاً . ولا يشترط فيهم أن يكونوا من المغاربة ، بدليل وجود كثيرين من مسلمي الأندلس والصقالبة والسودانيين . وكان الجندي يتدرب تدريباً كافياً ويحصل على أكبر نصيب من المراتب الذي يعده للقتال ويكفل له البراعة في وضع الخطط الحربية .

وكانت الدولة الموحدية تزود الجند النظاميين بالسلاح والغذاء والملابس ، وتقدم القبائل كل ما يطلبه أمير المؤمنين من شبان القبائل للاشتراك في المعارك أو الجهاد ضد نصارى الأندلس . وكان كثير من المتطوعين يقدمون أنفسهم للجهاد في سبيل الله ، بخلاف الجند الذين كانت القبائل المغربية تقدمهم للخدمة العسكرية الإلزامية . وكذلك كانت القبائل تسهم في تقديم الذخائر والمؤن عند نشوب الحروب .

وإذا عزم أمير المؤمنين على خوض غمار الحرب ضد أعدائه ، عقد مجلساً حربياً يعرض أمام أعضائه العوامل التي دعت إلى القتال ، ويبحث مع قواد جيشه خطة المعركة وما يتصل بها من الهجوم أو الارتداد والخدع . وكانت الخدع البارعة من أهم فنون الحرب عند الموحدين ، كأن يتصنعوا الفرار أو يتظاهروا بالانهزام أو نحو ذلك . وكان للمحدين عيون يثبونها للوقوف على مواطن القوة أو الضعف عند العدو ، ثم يضعون خططهم على ضوء ما يتوافر لديهم من المعلومات الصحيحة . وإذا ما استقر الرأي على خوض غمار المعركة عرض أمير المؤمنين الجيش واشترك في ترتيبه ، ثم صرب قبته الحمراء ، يخفق عليها عليه الأبيض ، وارندى ملابس القتال ، وامتطى فرسه المظهمة وقبض على سيفه المسلول بإحدى يديه ، وحمل المصحف الشريف في يده الأخرى . وكان ذلك إيذاناً بنشوب المعركة التي تقوم عند الموحدين على فكرة التربع (١) ، وتوضع كل فرقة من الجيش تحت إمرة قائد خاص تواف فرقة لإحدى الزوايا الأربع التي يتألف منها المربع . وتتألف قوة الجيش الرئيسية من المشاة النظاميين الذين يقفون في مقدمة الجيش ، ويتسلح جنودها بحراب طويلة . وبلى هؤلاء صفوف من الجند تسلحوا بالسيوف وعليهم الدروع ، ثم يليهم حملة النبال والقيس .

وقد تفوق الموحدون على المرابطين في فن الحصار ، حتى إن أكثر المدن منعة كانت تحطم أمام سلاح الحصار الموحدى . وكان الموحدون يستعملون أسلحة متنوعة في الحصار :

(١) الحلل للوشية ص ٩٨ .

فأحيانا يستعملون الحراقات ، أو يقومون بقذف كيات ضخمة من الأحجار ، أو يطلقون المياه الغزيرة في قوة وعنف . وكان عبد المؤمن نفسه أستاذاً في فن الحصار ففي حصار فاس التي قاومت أسوارها المنيعة مدة طويلة ، نرى عبد المؤمن يستعين بمياه النهر التي أمر بحفظها في خزانات ضخمة ، ثم يطلقها دفعة واحدة على الأسوار . وكذلك نراه يحرق أبراج مدينة وهران بالنيران المحرقة المصحوبة بقذف الآلات ، ويفتح مدينة المهدية بحيلة مماثلة ، وذلك بتحطيم جدرانها القوية التي يسير عليها فارسان متحاذيان وبمثل هذه المهارة استولى عبد المؤمن على مدينة مراكش التي لم تقف أسوارها المنيعة عقبة في سبيل فتحها . وعلى هذا النحو سقط في أيدي الموحدين كثير من القلاع في أضيق المفاوز الجبلية في المغرب والأندلس ، وذلك بفضل آلات الحصار الضخمة التي كانت تقذف كتلا هائلة من الحجارة والكرات الملتهبة من الحديد .

(و) إمرة الأسطول :

كانت السفن الإسلامية تبنى في معظم المرافئ البحرية السورية والمصرية ، كما كانت هذه السفن أضخم من السفن البيزنطية ، كما كثر عدد سفن البحرية التجارية ولقيت التجارة البحرية كل تشجيع . وكان بكل مرفأ منارة تدعى « الخشب » . وبظهر أن الأسطول لم يكن مؤلفاً من السفن التي اقتتها الحكومة للهام الحربية خشب ، بل كان لازماً على كل مقاطعة أو ثغر أن تقوم بتقديم عدد معين من السفن إذا طلب منها . وذلك في أيام الفاطميين في مصر . وعلى هذا النحو سار صلاح الدين الأيوبي . ولكل سفينة حربية قائد (أو مقدم) يتولى القيادة في سفينته ، ويقوم بتدريب الجند وتجهيز الحملات ، في الوقت الذي نرى موظف أخرى يدعى « الرئيس » يتولى الإشراف على الملاحة ، ويدعى قائد الأسطول أمير الماء أو أمير البحر ومنه اشتق لفظ Amiral Admiral

ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية . ولكن العرب الذين تعلموا هذه الفنون من البيزنطيين أصبحوا أساندة أوربا ، لما فطروا عليه من الشجاعة وحب المغامرة . يدلنا على ذلك أن بعض الإصطلاحات البحرية المستعملة في أوربالا تزال تحتفظ بعربيته إلى اليوم . وكان أثر العرب في شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص ، أبعد مدى من أثر غيرهم من شعوب أوربا . ويقول فون كيرمر : وما يوضع لنا أن الأسطول العربي القديم كان نموذجاً لأساطيل الافطار المسيحية ، أن كثيراً من الاصطلاحات العربية البحرية لا تزال شائعة على ألسنة البحارة في جنوبي أوربا . نذكر

من تلك الإصطلاحات كلمة Cable المأخوذة عن لفظ « حبل » العربى ، وكلمة Arsenal (وبالإيطالية Darsonal) المأخوذة عن لفظ « دار الصناعة » بالعربية ، وكذا كلمة Corvette المأخوذة عن لفظ « غراب » العربية .

(ز) البحرية فى مصر

اشتهرت مصر بصناعة المراكب النيلية التى كانت تسير فى النيل تحمل حاصلات البلاد بين الوجهين البحرى والقبلى ، كما اشتهرت أيضا بصناعة السفن التى تألف منها الاسطول المصرى . وكانت هذه السفن تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة الرومانية الشرقية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتينيس^(١) والفرما^(٢) .

وقد اشتهر أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) بإنشاء المراكب الحربية ، وجعل لها حول جزيرة الروضة أحواضاً كانت تعرف باسم « صناعة الجزيرة » . وظلت صناعة السفن بجزيرة الروضة حتى نقلها محمد بن طنج الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) إلى فسطاط مصر فى المصنع المعروف باسم « صناعة السفن » ، فغدت المراكب الحربية والنيلية تصنع فى « صناعة مصر » تارة وفى « صناعة الجزيرة » تارة أخرى .

وقد اهتم الفاطميون بعد قيام دولتهم فى إفريقيا بسيادة البحر الأبيض المتوسط ، لأنهم كانوا يقدرون أثر العامل البحرى فى قصة النضال بين الإسلام والمسيحية ، لذلك عنوا بإنشاء الموانى البحرية المحصنة ، فأسسوا مدينة المهدية واتخذوها قاعدة لأسطولهم فى البحر الأبيض المتوسط ، كما حرصوا على الاستيلاء على بعض القواعد البحرية الهامة لتثبيت سيادتهم على البحار ، فاستولوا على صقلية واتخذوا من موانئها قواعد يغيرون منها على موانئ حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد أغار الفاطميون على بلاد الروم سنة ٣١٦ هـ ، وكانت هذه الحملة خاتمة لسلسلة من الحملات البحرية على هذه البلاد حيث أغارت على لمبارديا وقولورية (Calabria) واستولت على مدينة تارانت ، وحاصرت نابلى

(١) تينيس (بكسرتين وتشدهد النون) : اسم مدينة قديمة كانت قائمة فى جزيرة صغيرة فى الجهة الشمالية الشرقية من بحيرة المنزلة .
(٢) الفرما (بالتحريك) من حصون مصر القديمة فى الجهة الشرقية من بحيرة المنزلة بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط .

ويمت شطر جنوة سنة ٣٣٣ هـ وأغارت على جزيرة سرديانية ودمرت أساطيل الفرنجة ، ثم استولت على جزيرة قرسقة ، وغنم الفاطميون بذلك بلاداً ذات قيمة استراتيجية عظيمة . وبذلك رجعت كفتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط وعلا شأنهم في العالم الإسلامي (١) .

ولم تقف عناية الفاطميين عند حد تكوين الجيش ، بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين بلاد الشام (وكانت تابعة لمصر) واستيلائهم على أمهات مدنها مثل أنطاكية وحلب ، أنهم في حاجة ماسة إلى أسطول قوى ؛ فأنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين المراكب الحربية في مدينة مصر وفي الإسكندرية ودمياط . وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة في الموانئ الشامية مثل عكا وصور وعسقلان .

وقد أنشأ المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بني فيها ستانة مركب ، وصفها المسبحي المؤرخ المصري المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله . « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبيراً وثاقفة وحسناً » . ويحدثنا المقرئ (٢) أنه كان على رأس الأسطول المصري في ذلك العصر عشرة قواد ، عليهم رئيس هو « قائد القواد » ، ويسمى في عهد الفاطميين « أمير الجيش » وفي عهد المماليك « ناظر الجيش » .

وكان هؤلاء القواد يتناولون مرتبات تبلغ عشرين ديناراً في الشهر ، كما كان للأسطول ميزانية ضخمة من خراج الإقطاعات المحبوسة عليهم . ولم يزل الأسطول المصري محل عناية الفاطميين حتى قام النزاع بين الصليبيين ومصر ؛ فأمر شاور (٣) وزير الخليفة العاضد الفاطمي بإحراق الفسطاط ليعول دون وصول العدو ، كما أحرق مراكب الأسطول .

ولما زالت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ، وانتقلت السلطة إلى صلاح الدين الأيوبي ، اهتم بأمر الأسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وصدهم عن الموانئ الإسلامية ، فخصص له ديواناً كبيراً عرف باسم « ديوان الأسطول » وأقر له ميزانية خاصة ، وعهد بهذا الديوان إلى أخيه العادل .

(١) ابن عذاري : المغرب ج ١ ص ١٩٨ .

Fournel : les Berbères. pp. 150 — 151

(٢) انماط الحنفا بأخبار الخلفاء ص ١٣٣ .

(٣) بفتح الواو هو أبو شجاع شاور بن مجبر بن نزار .

وكان معظم أفراد الشعب في عهد الدولة الأيوبية يكرهون الحروب البحرية ، حتى كان السلاطين يضطرون لإرغام الناس على الاشتغال في الأسطول إذا دعت الضرورة إلى تجهيزه . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أصبحت خدمة الأسطول في عهد الدولة الأيوبية عاراً يسب به الرجل ، فإذا قيل لرجل : « يا أسطولى » غضب غضباً شديداً . ويظهر أن تلك الكراهية إنما جاءت على أثر تحول الحروب الصليبية إلى مصر ، فإذا قيل للرجل : يا أسطولى ، فكأنهم يعنون بذلك أنه مثل الصليبيين الذين حملتهم الأساطيل ، ويرمز بهذا إلى الشر ، وقد تغيرت نظرة الناس إلى رجال الأسطول واحترامهم لهم حتى أطلقوا عليهم « المجاهدين في سبيل الله » و « الغزاة في أعداء الله » .

(ح) البحرية في المغرب :

كان المرابطون في عهد يوسف بن تاشفين أسطول صغير يتألف من السفن التي تنقل الجند من المغرب إلى الأندلس . وكان عدد هذه السفن كبيراً بالنسبة إلى السفن الحربية . وقد ارتقى الأسطول المرابطي في عهد علي بن يوسف ، وأظهرت وحداته نشاطاً ملحوظاً في البحر الأبيض المتوسط . يؤيد هذا ما ذكره الإدريسي ^(١) « من أن أحمد بن عمر كان والياً لأمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين على جملة من أسطوله » . ومن ثم نرى أن الأسطول المرابطي في عهد علي بن يوسف كان ضخماً ، وأنه كان ينقسم إلى أقسام أو وحدات . وقد انتصر الأسطول المغربي على أسطول الفرنجة في فتح بلنسية وجزر البليار ^(٢) . واشتهر من أمراء البحر في عهد علي بن يوسف : علي ابن ميمون الذي كانت له جولات بحرية رائعة على سواحل الأندلس وإيطاليا وفرنسا .

ولما انتقل الحكم إلى الموحدين تفوقت قوتهم البحرية . وكانت سفنهم على نوعين : أحدهما يستعمل لنقل الجند والمؤن إلى السواحل الأندلسية كما كانت الحال في عهد المرابطين ، وثانيهما يتألف من السفن الحربية . وقد ذكر المؤرخون أن أسطول الموحدين بلغ أربعمئة سفينة ألقت مراسيها على جميع سواحل بلاده ^(٣) .

(١) المغرب وأرض السودان ص ٥٤ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٥٧ .

(٣) السلاوي : الاستقصا ج ٢ ص ١٢٨ . ومن هذه السفن ١٢٠ سفينة بالمهدية (وكانت تسمى حلق العمورة) ومائة سفينة بجوانى سبتة وطنجة والريف ، ومائة سفينة بسواحل إفريقية (تونس الآن) ووهران ومرسى هنين ، و ٨٠ سفينة بعدوة الأندلس .

وقد تجلت عظمة الأسطول الموحدى منذ عهد عبد المؤمن بن على . ثم نهض نهضة مباركة فى عهد ابنه يوسف بن عبد المؤمن ، وظهرت قوته فى المعارك البحرية التى قامت بين الموحدىين والقطلونىين على مقربة من طرطوشة فى بلاد الأندلس ، وفى موقعة المهديّة التى كان يحتلها النورمانديون أصحاب صقلية ، وتغلب الموحدون بقيادة أمير البحر عبد الله ابن ميمون على أسطول النورمانديين الذين كان يتألف من مائتى سفينة على الرغم مما أظهره من براعة فى القتال ، وأغرق وأحرق أكثر سفنهم .

وقد عنى عبد المؤمن بن على عناية خاصة بالجيش والأسطول ، وأشأ المدارس الحربية لتخريج القواد الأكفاء والجند البواسل . ولكى يحافظ على الروح العسكرية جمع عبد المؤمن الشبان من القبائل المغربية ولا سيما من قبيلة مصمودة . وكانت المدارس الحربية تقوم إلى جانب الفنون الحربية بتدريس كتب المهدي محمد بن تومرت ونشر أعماله . ويحفظ الطلبة وصايا المهدي عن ظهر قلب .

ومن أهم مناهج الدراسة التدريب على استعمال الأسلحة على اختلافها ، وركوب الخيل والسباحة وأساليب الحصار برأ وبحراً . وعلى مقربة من مدينة مراکش أنشأ الموحدون بركة « وضعت فيها القوارب والسفن الحربية الصغيرة المسماة سفن التدريب » حيث كان الطلاب يتدربون على التجديف وقيادة السفن وكل ما يتصل بالفنون الحربية . وكان التعليم فى هذه المدارس على نفقة الدولة الموحدية ، عدا ما كان يمنحه الطلاب من الخيل والأسلحة . وفى هذه المدارس تخرج كثير من القواد وكبار الضباط وحكام القلاع (١) .

ولاشك أن هذه المدارس العسكرية والأساطيل البحرية والجيوش الجرارة كانت تعتمد على دعامة اقتصادية متينة ، بدليل ما ذكره عبد الواحد المراكشى (٢) أن خراج المغرب فى عهد الموحدىين بلغ ما يقرب من مائة وخمسين بغلا من إفريقية وحدها عدا بجاية وأعمالها وتلسان وأعمالها .

(١) أشباح : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ص ٤٨٩ — ٤٩١ .

(٢) المعجب ص ١٥٥ .

٥ — النظام القضائي

(١) القضاء في العصر العباسي الثاني :

تطور النظام القضائي في العصر العباسي تطوراً كبيراً ؛ فقد ضعفت روح الاجتهاد في الأحكام لظهور المذاهب الأربعة وأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب . فكان القاضي في العراق يحكم وفق أحكام مذهب أبي حنيفة ، وفي الشام والمغرب وفق مذهب مالك ، وفي مصر وفق المذهب الشافعي . وإذا تقدم متخصصان على غير المذهب الشائع في بلد من البلاد أناب القاضي عنه قاضياً يأخذ بمبادئ مذهب المتخصصين . كذلك تأثر القضاء في هذا العصر بالسياسة ، لأن الخلفاء العباسيين عملوا على أن يكسبوا أعمالهم صبغة شرعية ، وحلوا القضاء على السير وفق رغباتهم في الحكم ، حتى لقد امتنع كثير من الفقهاء عن تولى القضاء ، خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية ولا يتفق مع ذمهم وضمايرهم . وخير مثل لذلك الإمام أبو حنيفة النعمان الذي اعتذر عن تولى منصب القضاء في عهد أبي جعفر المنصور .

وقد اتخذ العباسيون نظام « قاضي القضاة » ، وهو بمثابة وزير العدل اليوم . وكان يقيم في حاضرة الدولة ، ويولى من قبله قضاة ينوبون عنه في الأقاليم الإسلامية . وأول من لقب بهذا اللقب القاضي أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم) صاحب كتاب (الخراج) في عهد هارون الرشيد . وكان قاضي القضاة في الأندلس يسمى « قاضي الجماعة » ويقوم بتولية القضاة على الأقاليم .

وفي هذا العصر اتسعت سلطة القاضي ، فبعد أن كان ينظر في القضايا المدنية والجنائية ، أصبح يفصل في الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأوصياء . وقد تضاف إليه الشرطة والمظالم والقصاص والحسبة ودار الضرب وبيت المال والإشراف على موارد الأحباس وسجلات الفتاوى الفقهية ^(١) وعلى الصلاة في أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة أو بمسجد الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء ، والدعاء في صلاة الاستسقاء ^(٢) .

(١) أنشئ هذا السجل في سنة ٢٩١ هـ : وكان قاضي القضاة يستفتي الفقهاء في بعض القضايا المعروضة عليه . وجعل من هذه القضايا سجلاً عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس .
(٢) كان قاضي القضاة يشرف على الصلاة أيضاً . ولذلك كان يسمى « صاحب الصلاة » . واستمرت الحال على ذلك حتى أفرد عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس للصلاة شخصاً معيناً ولقضاء القضاء شخصاً آخر .

وقد أصبح في كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب المختلفة وينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدينون بمعتقد مذهبه .

وقد عرف بعض قضاة هذا العصر بالعدل والنزاهة والزهد وتحري الدقة في الحكم ، ومن أحسن الأمثلة التي تؤيد هذا الرأي : أبو بكر محمد بن المظفر الشامي . فقد أثر عنه أنه لم يأخذ أجراً في أثناء تقلده منصب القضاء ، كما عرف بالعدل ولم يحاب أحداً من المتقاضين فقد ذكر ابن الأثير^(١) عند كلامه على حوادث سنة ٤٨٨ هـ (التي مات فيها هذا القاضي) أن أحد الأتراك شكاً إليه رجلاً فقال له القاضي : ألك بيعة ؟ قال : نعم ! فلان والمشطب الفقيه الفراغي ، فقال : لا أقبل شهادة المشطب لأنه يلبس الحرير ، فقال التركي : فالسلطان ونظام الملك يلبسان الحرير ، فقال : لو شهدوا عندي على باقة بقل لا أقبل شهادتهما .

وكان لقاضي القضاة بيفداد ديوان يعرف بديوان قاضي القضاة ، ومن أشهر موظفي هذا الديوان : السكاكيب والحاجب وعارض الأحكام وخازن ديوان الحكم وأعوانه . وقد اقتضى تطور نظام القضاء في هذا العصر التحري عن الشهود . وكان القاضي يرتدى السواد شعار العباسيين ويغطي رأسه بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة^(٢) .

(ب) القضاء في عهد الفاطميين والأيوبيين :

وقد ضعف نفوذ القاضي السني بعد الفتح الفاطمي وألزم بأن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الشيعي ، بل أشرك معه قاض مغربي للنظر في المظالم الخاصة بالمغاربة . وما لبثت سلطنته أن قويت حتى أصبح ينظر أيضاً في القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين . ثم زاد نفوذه حتى آل إليه النظر في قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضي مصر والإسكندرية ، ثم استقل الشيعيون بالقضاء .

وكان منصب القضاء يعده به في العصر الفاطمي لبعض السنيين أحياناً ؛ إذ أن الفاطميين في أواخر عهدهم لم يسيروا دائماً على قاعدة إسناد القضاء إلى المتشيعين خاصة . وكان سجل القاضي الذي كان يقرأ في القصر وعلى منبر جامع عمرو يتضمن فقرة شرط فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقاً لقانون الشيعة ، وأن يكون معه في مجلس القضاء أربعة من الفقهاء المتشيعين ، حتى لا يصدر الحكم مخالفاً للمذهب الشيعي .

(١) الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٩٤ .

(٢) الكندي : كتاب القضاة ص ٣٧٨ .

على أن أبا علي بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة الحافظ (٥٢٤هـ - ٥٤٤هـ) الذي كان يدين بمذهب الإمامية الإثنا عشرية خرج على هذه القاعدة ، فعين في سنة ٥٢٥هـ أربعة من القضاة : اثنين من الشيعة ، واثنين من السنيين . وكان القاضيان الشيعيان أحدهما إمامياً والآخر إسماعيلياً . أما القاضيان السنيان فكان أحدهما شافعيّاً والآخر مالكيّاً . وقد أعطى هذا الوزير لكل من هؤلاء القضاة الأربعة السلطة المطلقة في إصدار أحكامه وفق مذهبه . ولما قتل هذا الوزير عادت السلطة إلى الإسماعيلية من جديد وظلت على ذلك إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي ، فعمل في سنة ٥٦٤هـ على القضاء على الخلافة الفاطمية ، وأسس مدرستين لتعليم الفقه ، إحداهما على مذهب الإمام الشافعي والأخرى على مذهب الإمام مالك ، ثم صرف جميع القضاة الشيعيين وعين بدلهم قضاة من السنيين الشافعية إذ كان صلاح الدين شافعي المذهب .

وبذلك أخذ المصريون يرجعون شيئاً فشيئاً إلى المذهب السني الذي كانت له السيادة قبل الفاطميين ، وأخذ المذهب الشيعي بنوعية الإسماعيلي والإمامي في الضعف إلى أن قضى عليه نهائياً^(١) .

قانونه الوراثية في عهد الفاطميين :

ويجوز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما يترك أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت . وهذا يخالف أحكام مذهب السنة التي تقتضي ألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة . ولقد تمسك القاضي الشيعي بتطبيق قانون الشيعة على أحكامه ، وغدا في استطاعته أن ينقض ما يصدره أبو الطاهر من أحكام .

وقد عدلت القاعدة التي تجيز للبنت بمقتضى قانون الشيعة أن تستولي على جميع الثروة التي يخلفها أبواها إذا انفردت بالميراث إذا لم يكن هناك وارث سواها . والسرفى أن الشيعة يورثون البنت كل المال ويجعلونها حاجية للأعمام أمران :

الأول أن أبا بكر أخذ فدك (قرية بخير) من يد فاطمة ، وكان رسول الله قد أعطاهما تلك الضيعة للاتفاق بها ، فادعت أنها ترث ذلك ؛ فاحتج أبو بكر بأن الانبياء لا يورثون ، واستدل بحديث سمعه من رسول الله في ذلك .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (طبعة القاهرة) ج ١ ص ١٩١ .

والثاني أن بنى العباس يدعون أبلوله ميراث رسول الله من إمامة المسلمين لهم ، لأنه عم رسول الله والوارث له يوم وفاته ، لأن أبنته لا تحرز كل المال ، وعلى أنزل من العباس فقالوا هم إنها تحرز كل الميراث لينعوا بنى العباس من دعواهم . وإلى ذلك يشير شاعر بنى العباس بقوله :

أنى ^(١) يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام ؟
وكان الداعي لحضور (أبى بكر) الطرطوشى أمر المواريث ما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام ، وهو ربع العشر ، وتوريث البنات نصف المال ، وكانوا يورثونها جميع المال مع وجود ذوى العصبة ، كما هو مذهب آل البيت . فاعتذر المأمون (البطائحي) بأن هذه قضية لم يقل بها (أى لم يؤخذ بها من قبل) ، وأن أمير الجيوش بدرأ هو الذى ابتكرها . . . واستمرت المناقشة إلى أن قال المأمون للفقهاء : أنا لا أرى مخالفتك . . . ، وكتب توقيع شملته العلامة الأمرية والمأمونية ، وهذا نصه بعد البسملة :

١ — يخلص لحرم ذوى الشيع الوارثات جميع موارثهم ، وهو المنهاج القويم لقوله :
تعالى (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ^(٢)

٢ — إن كل دارج من الناس (أى كل إنسان) على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم ، يحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه فى حياته ، والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته . . . ويحمل من سواهم على مذهب خلفهم ، ويشترك معهم بيت مال المسلمين فى موجودهم ، ويحمل إليه جزء من أموالهم التى أحلها الله لمن بعدهم ^(٣) .

٣ — إن أخذ ربع العشر من أموال الأيتام يعود إلى ما كانت عليه الحال .

٤ — أن يعوض أمناء الحكم عن ربع العشر من مال الموارث الحشرية ^(٤) .

٥ — من لا وارث له ، حاضراً أو غائباً ، فوجوده لبيت المال ، إلا ما يستحقه زوج أو دين عليه .

(١) أنى بمعنى كيف الاستفهامية .

(٢) سورة الأنفال : ٨ : ٧٦ .

(٣) يعنى بذلك أن البنات التى تعيش مع أبيها بمفردها تتمتع بجميع ماله على ذلك جميع المذهب ، وليس للدولة أن تتدخل فى ذلك طالما يحمل إليها الضريبة التى ينص عليها الشرع .

(٤) يعنى الذين ليسوا من ورتة الصلب كالابن وابن الابن .

٦ — وإن كان للتوفى وارث غائب ، فليحتفظ بالحكام والمستخدمون بتركته . وإذا حضر وأثبت استحقاقه في مجلس الحكم بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتياب ، فليخرج الأمر بتسليمه إليه .

٧ — يعتمد القاضى ذلك بالباب (يعنى مجلس القاضى) ، ويصدر الإعلام به إلى سائر النواب . وبعد تلاوة هذا التوقيع بالمسجدين الجامعين^(١) ، بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رموس الأشهاد ، ترسل نسخ منه إلى جميع النواب عنه في البلاد ؛ وليخلد (يسجل) في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديوان المجلس والخالص الآمرى .

لليتين بقيتا من ذى القعدة سنة ٥١٦ هـ^(٢) .

وبما هو جدير بالذكر أن تغيير قانون الوراثة أوائل القرن الرابع قد حدث في عهد العباسيين قبل هذا التغيير الذى حدث في عهد الفاطميين ، وذلك أنه في سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) مات بيغداد رجل من أصحاب اليسار يدعى أبا عيسى أحمد ، ولم يخلف ولداً ، فألت ثروته إلى بيت المال بمقتضى قانون الوراثة المعمول به في ذلك الحين^(٣) .

حدث ذلك في خلافة المعتمد العباسى ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ (٨٦٩ — ٨٩٢ م) ، فأمر خلفه المعتضد ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ (٨٩٢ — ٩٠٢ م) بإرجاع القانون إلى ما كان عليه من قبل . وظلت الحال على ذلك إلى عهد المستنق ٢٨٩ — ٢٩٥ هـ (٩٠٢ — ٩٠٨ م)^(٤) ، فصدرت الأحكام في الميراث على حسب التعديل الذى أدخل على هذا القانون من قبل^(٥) . وقد أنكر الوزير على بن محمد بن الفرات هذا التعديل ، وعده مخالفاً لما جرت به أحكام قانون مذهب السنة ، فاستطاع أن يحصل على موافقة الخليفة بتعديل قانون الوراثة ، وصدر مرسوم مزيل بإمضاء الخليفة المقتدر يقضى^(٦) :

١ — بأن يصرف القائمون بأعمال المواريث في سائر النواحي ويبطل أمرهم ، ويرد النظر في أعمال المواريث إلى الحكام على ما كان يجرى عليه قبل أيام المعتمد على الله .

(١) جامع عمرو والجامع الأزهر .

(٢) المقنى الكبير للمقرئى ، ليدن ، مخطوط ١٦٤٧ ، المجلد الثالث ، ورقة ١١٩٥ — ١١٩٧ ب .

(٣) هلال الصابىء ، تاريخ الوزراء من ٢٤٦ .

(٤) هلال الصابىء من ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٥) المصدر نفسه من ٢٤٨ .

(٦) المصدر نفسه من ٢٤٨ .

٢ — وبأن يرد على ذوى الأرحام ما أوجب الله عز وجل ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، ومن اتبعهم من أئمة الهدى .

٣ — وبأن ترد تركه من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته .

٤ — وأن يعمل على إذاعة ما أمر ، وإظهاره وقرامته على الناس فى المسجدين الجامعين بمدينة السلام (بغداد) ، ليسكون مشهوراً متعارفاً ، والخير به إلى الأبدان والآفاقى واصلاً^(١) .

(ح) القضاء فى الأندلس :

كان للقضاء مركز ممتاز فى الأندلس كما كان فى غيرها من البلاد الإسلامية . وكان الأمير أو الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء ، وذلك لتعلق هذه الوظيفة بالدين . وكان قاضى القضاء يسمى « قاضى الجماعة » أيضاً لأنه يقيم فى حاضرة الدولة . ويشترط فى القاضى أن يكون متبحراً فى الفقه مشهوداً له بالنزاهة والاستقامة ، وأن يكون عربياً خالصاً . وطالما تقلد القضاء الموالى والمولدون والبربر . وأحسن مثل لذلك يحيى بن يحيى اللبني قاضى قضاء الأندلس ، وكان من أصل بربرى . ومن قبيلة مصمودة ، وكان قاضى الجماعة يختار غالباً من قضاة الأقاليم الأندلسية الذين تقلدوا بعض مناصب الدولة الهامة^(٢) .

وكان قاضى الجماعة يقيم بقرطبة حاضرة الدولة الأموية فى الأندلس ، ويعين من قبل الأمير أو الخليفة ، وينوب عنه فى الأقاليم قضاء يسمى كل منهم مسدد خاص . وكان القرآن والسنة مصدر التشريع فى الأندلس ، ويسير القضاء فى الأندلس والمغرب حتى اليوم ، على وفق مذهب الإمام مالك بن أنس ، ويقوم بتنفيذ هذه الأحكام الحكام والولاة .

ومن اختصاصات القاضى أيضاً الإشراف على موارد الأحباس ، وسجلات الفتاوى الفقهية^(٣) ، والإشراف على الصلاة فى أيام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة ، أو بمسجد الزهراء الذى بناه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء ، والدعاء فى صلاة

(١) المصدر نفسه ٢٤٨ من — ٢٥٣ ، انظر كتابى تاريخ الدولة الفاطمية من ٣١٦ — ٣١٨

(٢) المقري : فتح الطيب ج ١ من ١٠٣ .

(٣) أنشئ هذا السجل فى سنة ٢٩١ هـ . وكان قاضى القضاء يستفتى الفقهاء فى بعض القضايا المعروضة عليه ، واتخذ من هذه القضايا سجلاً عاماً أصبح مرجعاً هاماً لقضاة الأندلس .

الاستسقاء . وكان قاضي القضاة يسمى « صاحب الصلاة » ، حتى أفرد عبد الرحمن الناصر شخصاً معيناً للصلاة ولقضاة القضاة شخصاً آخر .

وكان القضاة في الأندلس يعرفون الأسبانية القديمة (Romance) ، وبنقاشون المتقاضين بها في مجالس الحكم . وكان المسلمون يطلقون على هذه اللغة : اللغة الأجمعية أو المعجمية أو اللاطينية (١) .

(٥) المظالم :

وكانت محكمة المظالم بمثابة محكمة الاستئناف العليا في عصرنا ، تعرض عليها القضايا إذا عجز القاضي عن تنفيذ حكمه في قضية رجل من علية القوم ، أو إذا لجأ إليها المتقاضى إذا اعتقد أن القاضي لم يحكم بالعدل . وكان الغرض الأساسي من إنشاء محكمة المظالم وقف تعدى ذوى الجاه والحسب . ولهذا كانت المظالم تسند إلى رجل جليل القدر كثير الورع يعرف بأسم قاضي المظالم .

وكان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم . ويسمى رئيس هذا الديوان « صاحب المظالم » ، وسلطته أعلى بكثير من سلطة القاضي .

وكانت محكمة المظالم تنعقد تحت رئاسة الخليفة أحياناً أو والى أو من ينوب عن أحدهما ، ويعين صاحب المظالم يوماً يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى . أما إذا انفرد بالمظالم نظر فيها طول أيام الأسبوع .

وكانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد ، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم وهم : الخاء والاعوان ، والحكام ويحيطون بالأحكام ويردون الحقوق إلى أصحابها ، والفقهاء الذين يرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الكتاب يقومون بتدوين أقوال الخصوم ، والشهود ويثبتون ما يعرفونه عن الخصوم ويشهدون على أن ما أصدره القاضي لا ينافى العدل ، ومن اختصاصات قاضي المظالم :
١ — النظر في القضايا التي يقيمها الأفراد والجماعات على الولاية إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف ، وعمال الخراج إذا اشتطوا في جمع الضرائب ، وكتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

(١) راجع ما ذكره أبو عبد الله محمد بن حارث الحنفي القروي في كتاب القضاة بقرطبة الذي نشره ريبيرا Julian Ribera (مدريد ١٩٤٤) ص ٩٦ ، ١٣٨ .

- ٢ — النظر في نظم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها إليهم .
 ٣ — تنفيذ ما يعجز القاضى والمحاسب عن تنفيذه من الأحكام .
 ٤ — مراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد^(١) .
 ومن هنا نقف على مبلغ أهمية هذه الوظيفة وما كان لصاحبها من القوة ونفاذ الكلمة ، كما نقف أيضاً على ما وصل إليه النظام القضائى من الدقة والإتقان .
 ويظهر أن نظام النظر في المظالم قد ارتقى في العصر العباسى الثانى . فقد ذكر ابن الأثير^(٢) أن بعض سلاطين السلاجقة اشتهروا بالعدل واستمعوا إلى ظلمات الناس وعملوا على رفع الظلم عنهم . فقد قيل إن السلطان محمد بن ملكشاه اشترى بماله من بعض التجار وأحالم على عامل خوزستان ليتسلموا منه الثمن ؛ فأعطاهم بعضه وماتل في تسليمهم البعض الآخر . وقد حضر هؤلاء التجار مجلس الحكم ، وكان ينعقد عادة برئاسة السلطان . فلما رآهم أمر حاجبه بأن يسألهم عن سبب حضورهم مجلس الحكم فقالوا : لنا خصم يحضر معنا مجلس الحكم ، فقال الحاجب : من هو ؟ قالوا : السلطان ، وشرحوا له قضيتهم . فبعث السلطان فى طلب العامل وأمره بتسليم المال المستحق لهم وتشدد فى عقوبته ليكون ذلك مثلاً لغيره . وكان هذا السلطان بعد ذلك يقول : لقد ندمت ندما عظيماً حيث لم أحضر معهم مجلس الحكم فيقتدى بى غيرى ولا يتمتع أحد عن الحضور فيه وأداء الحق لصاحبه . وكان من اثر ذلك أن كف العمال عن الظلم وأخذ أموال الناس بغير حق .

(٥) الحسبة :

وكانت سلطة القاضى — على ما هو معروف عن القضاء اليوم — موزعة بينه وبين المحاسب وقاضى المظالم . فوظيفة القاضى فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام ، ووظيفة المحاسب النظر فيما يتعاق بالنظام العام والجنايات أحياناً مما يستدعى الفصل فيها إلى السرعة ، ووظيفة قاضى المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحاسب .
 وكان القضاء والحسبة يسندان فى بعض الأحيان إلى رجل واحد ، مع ما بين العاملين من التباين : فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، أما عمل المحاسب فبنى على الشدة والسرعة فى الفصل^(٣) .

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧٣ — ٨١ .

(٢) الكامل ج ١٠ ص ١٩٨ .

(٣) الماوردى ص ٦١ — ٧٢ .

وكان المحتسب ينظر في مراعاة أحكام الشرع ، ويشرف على نظام الأسواق وبحول دون بروز الخوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور ؛ كما كان يستوفى الديون ، ويكشف على الموازين والمساكيل تجنبا للتطفيف . وكان للدوازين والمساكيل دار خاصة بها ؛ فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وسنجهم ومكاييلهم فيعايرها . فإن وجد فيها خللا صادرها ، وألزم صاحبها بشراء غيرها أو أمره بإصلاحها . وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والابوية^(١).

وكان المحتسب يعاقب كل من يعيث بالشرعية أو يرفع الأسعار ، ويمنع التعدي على حدود الجيران ، وارتفاع مبانى أهل الذمة على مبانى المسلمين .

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين ، فكان للمحتسب نواب يطوفون في الأسواق ، فيفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهارة ، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حملة من السلع ، ويشرفون على السقاين لضمان تغطيتهم القرب ويرقبون لبسهم السراويل حتى لا يخرجوا على الآداب العامة .

كما كان المحتسب يجلس للفصل بين الناس في جامعي عمرو والأزهر . واتسعت سلطته حتى أصبح من واجب رجال الشرطة أن يقوموا بتلبية أوامره وينفذوا أحكامه . وكان يخلع عليه ويقرأ سجله بمدينة مصر والقاهرة على المنبر .

وقد عرض الشَّيْزُرَى^(٢) للشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يتولى الحسبة ، وأضاف إلى ما ذكرناه أن المحتسب كان يشرف على السلع المعروضة في الأسواق ، فيشرف على بائعي الفراء وصانعي الحلوى ، وعلى شوائ اللحم ، وعلى الرواسين أى بائعي الروس والآكارع ، وعلى قلائى السمك والمهرائسين أى صانعي الهريسة ، وهى طعام من خليط القمح واللحم . كما كان يشرف على الشرايين أى صناع الاشربة ، وهى الادوية السائلة ، وعلى البزازين أى بائعي الثياب ، وعلى الحاككة وهم الذين يذسجون الغزل قماشاً ، وعلى الخياطين لمراعاة جودة التفصيل ، وعلى الصباغين والدالين والمندانين ، وعلى الصاغة ، والصاريف ، وعلى الحمامات وقومتها^(٣).

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

(٢) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشره الدكتور السيد الباز العرينى (القاهرة ١٩٤٦) .

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٢٢ — ٣٢٥ .

وقد تسكلم الماوردي في كتاب الاحكام السلطانية والمقريري في كتاب إغاثة الأمة
بكشف الغمة ، على ولاية الحسبة في المشرق . وهي لا تختلف عنها في المغرب والاندلس ،
إلا أن ولاية الحسبة فيهما كانت أكثر تحديدا منها في المشرق .

كما كانت الحسبة تقوم على ما تقتضي به الضرورة في المعاملات هناك ، بحيث يمكن
أن يقال إن نظام الحسبة في المغرب والاندلس قد استمر طوال العصور الوسطى .
وأحسن دليل على أهمية الحسبة أن ملوك الأسبان المسيحيين كانوا كلما استردوا من المسلمين
إقليما ، أقرروا المحتسب في عمله ، وأصبحوا يطلقون عليه Almotacen ، وهو الوالي الذي
يعهد إليه بالإشراف على الموازين والمساكيل . أما في المغرب فليس أدل على أهمية الحسبة
من استمرارها في المدن الغربية حتى اليوم (١) .

(١) راجع ما ذكره ليفي بروفنسال في

Histoire de l'Espagne Musulmane, Tome iii (L' Espagne du califat
de Cordou, pp. 148—150. L' Espagne Musulmane au Xe Siècle, pp.
181—185.

الباب التاسع

الحالة الاقتصادية

١ - الزراعة

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٢٣٠) أن العباسيين عنوا بالزراعة وفلاحة البساتين التي قامت على دراسة عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية ، وأنهم توسعوا في البحث النظري ، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحيات التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات ، كما عملوا على تنظيم الري في مصر والعراق واليمن وشمال شرق فارس وبلاد ماوراء النهر ، وعنوا يشق الترع وصيانة السدود^(١) ، وجعلوا لماء الري ديوانا أطلقوا عليه «ديوان الماء»^(٢) . كما عنوا بحراثة الأرض وتسميدها واستخدموا لذلك الأبقار واهتموا بتربية الحيوانات ، وخاصة البقر وتربية الجاموس الذي جلبوه من الهند وتفرخ الدجاج وتربيته وحفظ الحمام في أبراج لوقايتهم من الأفاعي^(٣) . وكانت الخنطة تزرع بكثرة في كافة أرجاء الدولة الإسلامية حيث يتوافر الماء كالعراق وخوزستان ومصر والمغرب والأندلس . وكانت زراعة الذرة تسكن في جنوبي البلاد الإسلامية كجنوبي بلاد العرب وكرمان والنوبة .

ومن الحاصلات الزراعية النارج والآنرج الذي نقل من الهند منذ القرن الرابع الهجري ، فزرع في عمان والبصرة والعراق والشام وطرسوس^(٤) ، وكثرت زراعة قصب السكر في كثير من البلاد الإسلامية ، وخاصة في بعض بلاد الأفغان وفي بلاد الشام ومصر وخوزستان والعراق والمغرب والأندلس .

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٢) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٤٥ .

(٣) متر : الحضارة الإسلامية ترجمة ج ٢ ص ٢٨١ - ٢٩٤ .

(٤) مسكويه ج ٢ ص ١٩٣ .

واشتهرت مصر بزراعة الليمون ، ومنه نوع يقال له النفاحى يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذته طعمه (١) . وقد ذكر الحسن الوزان (٢) أن سوق الزياتين بمدينة فاس كان يزخر بالزبد المملح والعسل والجبن الطازج والزيتون والليمون والجزر والكرنب ، وأن حوانيت هذا السوق كانت تزدهر بزهريانه الزاهية التي كانت أثمانها تبلغ أضعاف أثمان السلع التي تباع فيها ، وفي هذه السوق تباع خواقي (مفردتها خاوية وهي الجرة الكبيرة) الزيت والعسل والزيت بالمزاد العلني ، وينادي عليها أشخاص مكفون بوزن الزيت عند بيعه بالجملة ، ويسع كل من هذه الخواقي نحو ستين كيلوا جراماً . أما سوق الزهور فإن الإنسان إذا شاهد هذه الزهور وتنوعها يعتقد أنه يشاهد أحسن البساتين وأجمل زهور الدنيا ، إذ يشاهد لوحة تضم أحسن وأزهى الألوان المتنوعة . ومن محاصيل المغرب القمح والذرة والشعير والجزر واللفت والفول الطازج .

وقد اشتهرت المغرب والأندلس بزراعة قصب السكر وصناعته . وكثرت زراعة القصب في عهد السعديين كثرة عظيمة حتى إن السلطان أحمد المنصور الذهبي جلب الأعمدة الرخامية التي استعملها في بناء قصره البديع بمدينة مراکش من البلدان الأخرى مقابل كميات كبيرة من السكر التي اشتهرت المغرب بصناعته . وكذلك اشتهرت المغرب والأندلس بزراعة الزيتون واستخراج الزيت منه ، كما اشتهرت باستخراج العقاقير (الأدوية) من النباتات المختلفة ، كما اشتهرت الأندلس بزراعة القمح والشعير والذرة والكتان والقطن والتوت لتربية دود القز ، وانتفع الأمويون بمياه الأنهار الكبيرة كنهج تاجنة والوادي الكبير والوادي النائع ولبرو (بسكون الباء) ، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول ، ووضعوا تقويماً للزراعة عرف بالتقويم القرطبي ، الذي أصبح دليلاً ودستوراً لزراعة النباتات في مواعيدها وأخذ عنه غيرهم من الأمم .

وقد أسس محمد بن علي بمدينة غرناطة حديقة للنباتات أبيع دخولها للأطباء لدراسة النباتات النادرة . وقام ابن البيطار النباتي المشهور الذي عاش في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بفرس نباتات الشام وآسيا الصغرى وفارس ومصر ، ثم ضمه الملك الكامل الأيوبي إلى حاشيته ، وأصبح رئيس النباتيين ، وألف كتابه المشهور في النباتات ومات سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) .

(١) المثيري : خطط ج ١ ص ١٧٣ .

(٢) Leon I' African, tome I. p. 195.

وقد حاول مسلموا المغرب وصقلية زراعة بعض النباتات التي لا تنمو إلا في البلاد الحارة ، كالنوايل والقطن وقصب السكر والتوت . على أن زراعة أشجار النوايل لم يقدر لها النجاح^(١) . وقد وجد المسلمون في صقلية أرضاً مثمرة تدمم بالتفاح والبنديق والجوز والقسطل ، ويكثر بها الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها .

وكانت محاصيل مصر في العصر الفاطمي — ولا تزال — تنقسم إلى محاصيل شتوية ومحاصيل صيفية ، وقد أورد ابن عثاق^(٢) أسماء المحاصيل الشتوية وهي : للقمح والشعير والفول والحبس والجلبان والعدس والسكران والقرط (بضم القاف وسكون الراء هو البرسيم) والبصل والثوم والرمس والسكران والكرابوا والسلجم (نوع من اللفت) والبطيخ الأصفر والأخضر واللوبياء والسمن والقرط وقصب السكر والقلقاس والبادنجان والسمن النبلي والثيلة والفجل واللفت والخس والسكرمب .

كما اهتم الفاطميون بزراعة الفاكهة على اختلاف أنواعها ، حتى كانت بساتين مصر تزخر بأشجار الكرم والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ والمشمش والموز والنخيل . كما عنى الفاطميون بزراعة الورود والياسمين والمرسين (بفتح الميم وسكون الراء) والريحان والخيار شمبر (بضم الشين والباء وسكون الميم^(٣)) .

ولما كان الإنتاج الزراعي يتوقف على وفرة ماء الري والعناية بخصب الأرض وجودتها ، كان طبعياً أن يعنى الفاطميون عناية كبيرة بنظم الري ، من صيانة الترع والمحافظة على الجسور . وهذه الجسور على نوعين : « جسور سلطانية » تقيمها الدولة ، و « جسور بلدية » يقيمها الفلاحون^(٤) .

أما الجسور السلطانية فقد كانت الدولة تقوم بإنشائها لتنظيم الانتفاع بماء النيل . وتفرض الدولة الفاطمية الضرائب على الأراضي الزراعية لصيانة الجسور والمحافظة عليها . أما الجسور البلدية فتقام في القرية أو في الناحية أو في الكورة . ويتولى إقامتها أصحاب الإقطاع والفلاحون من أهل القرى المنتفعين بهذه الجسور . وتوزع نفقات إقامة هذه

• Heyd, tome I, p. 50. (١)

(٢) كتاب قوانين الدواوين ص ٢٥٨ — ٢٧٠

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧١ — ٢٧٢

(٤) المقرئى : خطوط ج ١ ص ١٠١

الجسور على الأفراد توزيعاً عادلاً ، ويلتزم صاحب كل دار برعاية قسم معين من الجسر (١) .

وكانت الأراضي المصرية تشقها شبكة من الخللجان والأبجر (٢) والزرع . وقد بلغ عدد خللجان مصر في ذلك العصر ثمانية ، وعدد الأبجر خمسة وعشرين؛ أما عدد الزرع فقد بلغ في الوجهين البحري والقبلي مائة وسبع عشرة (٣) .

وقد استتبع اهتمام الفاطميين بالزرع والجسور اهتمامهم بمقاييس النيل ، فهي ضرورية لمعرفة الرخاء أو الكساد . إذ أنه كلما ارتفع مستوى النيل استبشر المصريون بوفرة المحصول وضمنت الدولة زيادة الخراج بنوعيه . فإذا بلغ مستوى الماء ستة عشر ذراعاً كان في ذلك تمام الخراج وخصب البلاد . أما إذا بلغ ثمانية عشر ذراعاً كان ذلك نذيراً بحلول الفيضان ؛ وإذا نقص الماء عن أربعة عشر ذراعاً ، كان ذلك نذيراً بحلول القحط وما يصحبه من أزمات اقتصادية ، كما حدث في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (٤) .

ولما فتح العرب مصر بنى عمرو بن العاص مقياساً للنيل بأسوان وآخر بدندرة ، وظلت الحال على ذلك حتى دخلت مصر في طاعة الأمويين ، فبنى عامل مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان مقياساً بأنصنا ، وبنى عبد العزيز بن مروان مقياساً بحلوان . أما مقياس الروضة فيرجع إلى سنة ٩٧ هـ ، وذلك في عهد ولاية أسامة بن زيد . وقد جدد الخليفة المتوكل العباسي هذا المقياس في سنة ٢٤٧ هـ .

وقد أصلح أحمد بن طولون مقياس الروضة وهو عبارة عن عمود رخام أبيض مثنى الاضلاع ، في موضع يصل إليه الماء عند انسيابه . وينقسم إلى اثنين وعشرين ذراعاً . والذراع مقسم إلى ٢٤ إصباعاً . أما الإثنا عشر ذراعاً الأولى ، فإن كل ذراع منها ينقسم إلى ٢٨ إصباعاً . وتبدأ زيادة النيل في آخر بؤونة وأيبب ومسرى ، وتستمر في شهر توت كله . وبالمقياس ذراعان يسميان منكرًا ونكيرًا ، وهما الذراعان الثالث عشر والرابع عشر . فإذا زاد الماء عنهما نصف ذراع استسقى الناس ، وإذا جاوز خمسة عشر ذراعاً

(١) المصدر نفسه .

(٢) جمع بحر وهي التزعة الكبيرة أو الرياح في المصطلح الحديث .

(٣) ابن مثنى : قوانين الدواوين ص ٢٠٥ — ٢١٦ .

(٤) القرزى : خطط ج ١ ص ٥٩ .

انظر كتابي « تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة » (القاهرة ١٩٦٤) ص ٥٧١ — ٥٧٢ .

ودخل في السادس كان فيه صلاح لبعض الناس ، وإذا بلغ تسعة أذرع ، انساب في خليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا وخليج المنهى . وقد جرت العادة أن تذاغ نتائج المقياس على الناس ، فيخرج المنادى إلى طرقات القاهرة وسائر مدن مصر . ولكن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أمر بكتان أمر المقياس ، لأن الناس إذا أحسوا انخفاض النيل ، تسرب القلق إلى نفوسهم ، فأخفوا الغلال ، وامتنعوا عن بيعها حتى يرتفع السعر ، ويعمل الأغنياء على اختزان الغلال ، فيحدث الغلاء . وإذا أحس الناس بزيادة النيل هبطت الأسعار هبوطاً فاحشاً وأصيب كبار التجار بأفدح الأضرار . لذلك كان في كتان الزيادة عن العامة فائدة تامة .

وإذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعاً ثم ستة عشر ذراعاً وإصبعاً واحداً ، احتفل الخليفة بفتح خليج أمير المؤمنين . فإذا فتح الخليج فتحت الترع الأخرى ، وفاض الماء ، « وعمرت القيعان والبطاح فتعود أرض مصر أرضاً عامراً » (١) .

٢ — الصناعة

(١) الفسج :

كان للصناعة في العصر العباسي الثاني حظ كبير من عناية الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين اهتموا باستخدام موارد الثروة المعدنية على اختلافها ، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان ، كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمالي فارس ، والنفط من بلاد الكرج .

وقد اشتهر بعض المدن الإسلامية بصناعة الفسج . ومن هذه المدن كازرون التي سميت دمياط الأعاجم . واشتهرت كابل بفسج القطن الذي كانت تصدره إلى الصين . واشتهرت بلاد ما وراء النهر بزراعة القطن وصناعته ، كما انتشرت هذه الصناعة في المغرب والاندلس ومن أهم مراكز صناعة القطن مرو ونيسابور . كذلك تفوق المسلمون في صناعة الحرير والاطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة والسجاجيد : فامتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها ، واشتهرت خوزستان بمنسوجاتها وامتازت دمشق بصناعة الأقمشة الحريرية التي لا تزال تسمى « الدمشق » ، واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور والمنسوجات

(١) القرطبي : خطوط ج ١ ص ٥٨ .

الصوفية على اختلاف أنواعها . كما اشتهرت مرو بأقليم طبرستان بصناعة الإبريم . وتقوم أهل أرمينية بصناعة النكك الإبريسمية التي كان يتراوح ثمن الواحدة منها بين دينار وعشرة دنانير . واشتهرت فارس وأرمينية وبلاد ما وراء النهر بصناعة الملابس والفرش الصوفية .

وقد ازدهرت صناعة النسيج بمصر في العصر الفاطمي ، واشتهرت بصناعة الكتان الذي كثرت زراعته بكورة الفيوم . ومن أهم مراكز هذه الصناعة لإقليم الفيوم ، ونواحي بحيرة تيس (بكسر التاء والنون مع التشديد) ، وخاصة في دمياط وشطا (بفتح الشين) وديق (بفتح الدال وكسر الباء) التي تنسب إليها الثياب الدبيقية ، وتيس التي كانت تصدر إلى العراق وحدها ما يتراوح قيمته بين عشرين ألف وثلاثين ألف دينار سنوياً (١) .

وقد بلغ نظام الطراز في مصر درجة كبيرة من الرقي في العصر الفاطمي حيث ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية . والطراز فارسي الأصل معناه التطريز ، ثم أصبح يطلق على الثوب الموشى . ولا يرتدى هذا النوع من الثياب إلا الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء وأصحاب المناصب العالية . وبعد أن كان هذا اللفظ يطلق على الكتابة الموشاة أصبح يطلق على كل قطعة من النسيج عليها كلمات منقوشة أو مكتوبة على النسيج المنقوش أو الموشى بالخيط ، كما تطلق على النقوش التي توضع على الأشرطة المستعرضة من أى نوع ، سواء أكان من الحجارة أم من الفسيفساء أم الزجاج أم الفخار ، أم كان محفوراً بالخشب (٢) . ويتبين مقدار مهارة المصريين وحذقهم في تلك الصناعات من وصف الكسوة التي أمر الخليفة الفاطمي المعز بعملها للكعبة (٣) .

وهناك أنواع خاصة من الثياب اشتهرت في هذا العصر ، نذكر منها : الثياب العنابية (٤) المصنوعة من الحرير ، والخسرواني (أو الخسرواني بضم الخاء وفتح الراء) ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى خسرو شاه أحد ملوك الفرس (٥) ، والقلدوني (بفتح القاف واللام) ،

(١) المقرئى . خطط ج ١ ص ٢٢٦ .

(٢) انظر الجوزدى : سيرة جوذر توقيع رقم ٢١ ص ١٠٠ .

(٣) انظر هذا الوصف في ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ وفي حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٨٣ .

(٤) ينسب إلى عتاب أحد أحياء بغداد اشتهر بصناعة هذا النوع من الثياب .

Lane, Arabic-English Lexicon

(٥)

وهو نوع من القماش ذو ألوان براقه تتلألأ إذا انعكست عليها أشعة الشمس . وقد نقلت صناعته من بلاد اليونان إلى مصر حيث أصبح يصنع في دمياط وتيفس خاصة ^(١) ، والتستري (بضم التاء مع التشديد وسكون السين وفتح التاء الثانية) ، وهو نوع من الحرير ينسب إلى تستر أشهر مدن خوزستان ، والفرقي (بضم القافين وسكون الراء) ^(٢) ، وهو نوع من القماش كان يصنع في بلاد اليونان ، ثم أدخلت صناعته إلى مصر ، وأصبح يصنع في دمياط وتيفس . وقد اشتهر هذا القماش بألوانه اللامعة التي تتغير دائماً ولا سيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس ، والنصفية (بكسر النون مع التشديد وسكون الصاد ، وهي ثياب مصنوعة من الحرير والقطن .

وكان مضرب الخليفة الظاهر الفاطمي (٤١١ — ٤٢٧ هـ) مذهباً من خيوط الذهب ومقاماً على أعمدة من الفضة ؛ وقد بلغت قيمته أربعة عشر ألف دينار . وكان مضرب الوزير اليازوري مجموعة رسوم فنية بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار ، واشتغل في صنعه مائة وخمسون فناً مدة تسع سنوات . وكان ارتفاع أعمدته مائة وعشرين قدماً واتساع محيطه ألف قدم تقريباً . وقد نقش على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم ^(٣) .

الزخرفة في العصر الفاطمي :

ولا بأس من أن نعرض هنا لذكر فن المنسوجات الزخرفية في العصر الفاطمي . فقد كانت المنسوجات الفاطمية من حيث الزخرفة أربعة أنواع تمثل العصور الأربعة الرئيسية في تاريخ الفاطميين وهي :

النوع الأول وينسب إلى عصر الخلفاء المعز والعزیز والحاكم ، وقوام زخارفه أشرطة من الكتابة توازيها أشرطة أخرى ، بها جامات بيضاوية الشكل يتداخل بعضها في بعض ، وعليها رسم حيوان أو طائر أو ورود .

والنوع الثاني وينسب إلى عصر الظاهر والمستنصر . وقد تنوعت فيه الأشرطة الزخرفية ، وقوامها جامات عليها رسوم طيور وحيوانات محرفة عن الطبيعة ، وتحيط بها سطور من الكتابة الكوفية التي أصبحت عنصراً زخرفياً .

(١) ياقوت : انظر هذا اللفظ في معجم البلدان Dozy, Supplément

(٢) القرب طائري في القدر والمستنقعات . انظر معجم البلدان لياقوت .

(٣) المقرئ : خطط ج ١ ص ٤١٩ .

والنوع الثالث وينسب إلى عصر المستعلى والأمير ، وقد تطورت فيه الزخرفة وظهرت عناصر جديدة مثل الأشرطة والجداول التي تتموج وتتداخل ويتخللها جامعات تضم رسوم طيور وحيوانات وكؤوساً بها فاكهة ، وتتلخها سطور من الكتابة السكوفية تتضمن اسم الخليفة ووزيره .

والنوع الرابع ويرجع إلى أواخر العصر الفاطمي ، وتتألف زخارفه من جداول تقاطع وتتشابك وتتألف جامعات عليها رسوم حيوانات أو رسوم نباتية مكتوبة بخط النسخ^(١).

(ب) بناء السفن :

ولما فتح الفاطميون مصر شعروا بحاجتهم إلى أسطول قوى يصد البيزنطيين خاصة والصليبيين عامة عن بلاد الشام . فقد أنشأ الخليفة المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بني فيها ستمائة مركب وصفها المسجعي المؤرخ المصري فقال : «لأنه لم ير مثلاً فيما تقدم كبراً ووثاقاً وحسناً . واشتهرت جزيرة الروضة بصناعة السفن الحربية ، وبنيت في مصر دار صناعة لصناعة المراكب النيلية والشوانى^(٢) .

كما أنشأ الفاطميون داراً لصناعة السفن في الإسكندرية ودمياط^(٣) . وعنوا بحلب الأخشاب اللازمة لهذه الصناعة من مناطق الغابات في كثير من جهات الصعيد . ولم يكن إنتاج البلاد من الخشب ملائماً لصناعة السفن الكبيرة لأنه لم يكن يتميز بالصلابة المطلوبة . لهذا كان الفاطميون يستوردون الخشب من أوروبا عن طريق البنادقة^(٤) .

(ح) صناعة المعادن :

وقد برع الصناع المصريون في صنع المعادن والعاج والفسيفساء ، فعرفت مدينة القسطنطينية^(٥) بصناعة الحديد المستورد من أوروبا وصقلية وشمال إفريقيا ، كما عرفت مدينة تنيس بصناعة المقصات والسكاكين^(٦) . وراجت صناعة الذهب والفضة

(١) Migeon, Art musulman, tome II, pp. 300—309.

(٢) عن المقرئ : خطط ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٣ .

(٤) البراوي : حالة مصر للاقتصادية في عهد الفاطميين ص ١٥٣ .

(٥) المقرئ : خطط ج ١ ص ٣٦٧ .

(٦) Sefar Nameh, p. 114.

الذين استخدمهما الصناع في صنع الحلى والسروج والسيوف وتذهيب المصاحف ووشى الملابس الفاخرة . وليس من شك في أن هذه التحف التي أنتجها الفاطميون والتي تدل عليها آثارهم تلقى ضوءاً على تقدم هذه الصناعة ورقياً^(١) . هذا إلى ما عرف به صناع مصر من مهارة ودقة في صناعة النحاس والبرونز . وكان سوق المكفتين يشتمل على عدة حوانيت لعمل البكفت ، وهو ما نطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة . وقد راجت صناعة النحاس المكفت رواجاً عظيماً ، حتى لا تكاد تخلو دار في القاهرة ومصر من عدة قطع من نحاس مكفت (مطلى)^(٢) .

(٥) فصب السكر والزيت :

وكان قصب السكر من أهم المحاصيل الزراعية ولا سيما في عصر الفاطميين في مصر ، لأنه عماد صناعة السكر والعسل التي راجت رواجاً عظيماً . وانتشرت مطابخ السكر في جميع أرجاء البلاد : في القسطاط والمنيا والفيوم ودبروط وأسيوط وقفت وسمهود ، حتى لقد ذكر ابن دقاق^(٣) أن مطابخ السكر في القسطاط وحدها بلغت ثمانية وخمسين مطبخاً . كما انتشرت مصانع العسل في أرجاء البلاد^(٤) ، وكان الفاطميون يهتمون بهذه الصناعة اهتماماً عظيماً . فأنشئوا المعاصر السلطانية وحلوا الفلاحين على نقل قصبهم إليها . ويخيل إلينا أن ذلك راجع إلى أن هذه الدولة كانت تجني مقادير طائلة من خراج الأرض المزروعة قصباً^(٥) .

وكذلك راجت في مصر صناعة الزيت الذي كانت له أهمية كبيرة في حياة أهل هذه البلاد لأن منه طعامهم ورقودهم . لذلك عنى المصريون عناية كبيرة بصناعة النباتات الزيتية ، فزرعوا الزيتون في منطقة الفيوم والإسكندرية^(٦) . كما كان السمس بزرع في جميع أرجاء البلاد^(٧) . وكانوا يستخرجون زيت الزيتون من الزيتون وزيت الشرج

(١) خطط ج ١ ص ٤١٨ — ٤١٩ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٣) الانتصار ص ٤١ — ٤٢ .

(٤) المقرئى : خطط ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧٣ .

(٥) ابن بمانى : قوانين الدواوين ص ٣٦٧ .

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .

(٧) انظر ما ذكرناه عن الزراعة في هذا الباب .

من السمس (١) ، كما استخدموا العجل والحس في هذه الصناعة ، حتى إن هذه النباتات احتلت مكانة مرموقة في الصناعة المصرية . وكانت أهم معاصر الزيت في مدن صندفا بكورة البنس مركز بنى مزار بمحافظة المنيا ، وفي الفيوم والفسطاط (٢) . وكذلك اشتهرت المغرب والاندلس باستخراج الزيت من الزيتون الذى تكثر زراعته في هذه البلاد (٣) .

(هـ) صناعة الصابون والشمع :

وقد اشتهرت البصرة بصناعة الصابون التى تقوم على الزيت . وانتشرت مطابخ الصابون بمدينة الفسطاط (٤) ، وقد ذكر الحسن الوزان (٥) أن الصابون كان يصنع في الجبال المجاورة لمدينة فاس ، وأن أهل الجبال وأصحاب البغال (المسكارون) كانوا يحملونه ويبيعونه لأصحاب الحوانيت في مدينة فاس وغيرها ، كما كانوا يبيعونه سائلا . أولم تكن هناك إلا ركاكين قليلة مجتمعة ، لأنه لا يخلو حتى من حياة المدن من حوانيت يباع فيها الصابون .

وقد انتشرت صناعة الشمع بالإسكندرية . وكان بمدينة القاهرة في عهد المماليك كثير من الأسواق نخص بالذكر منها سوق الشماعين ، وكان يمتد من الجامع الاقصر الذى بناه الخليفة الأمر الفاطمى إلى سوق الدجاجين . وتباع فيه الشموع على اختلافها من موكيه وفانوسية وطوافات ، وبلغت زنة بعض الشموع قنطارا . حتى إنها كانت تحمل على العجل لثقل وزنها (٦) وكان بمدينة فاس سوق أطلق عليه اسم « سوق الشماعين » . ويذكر الحسن الوزان أن صناعة النع في المغرب بلغت درجة كبيرة من الدقة والجمال لم ير مثله في حياته .

(و) صناعة الزجاج والبلور والخزف :

وقد اشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج والخزف ، واتخذ طرازا خاصا في زخرفة الزجاج . وبلغت هذه البلاد في نقش الزجاج بالذهب والالوان الأخرى درجة كبيرة من

Nasir Khusrau, Safar Namèh.

(١)

(٢) المقرئى : خطط ج ١ ص ٤٦٢ .

(٣) المقرئى : نفخ الطيب ج ١ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٤) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٨ .

Description, de l'Afrique, tome I, p. 191.

(٥)

(٦) حسن إبراهيم حسن : المجلد في التاريخ المصرى ص ٢٠٦ .

(٧) كتاب وصف إفريقيا (بالفرنسية) ج ١ ص ١٨٧ .

الإتقان . وكان الزجاج الملون المطلق بالمينا يصدر إلى كثير من جهات العالم^(١) . وقد قيل إنه كان ببغداد أربعة آلاف معمل لصنع الزجاج وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف^(٢) . كما اشتهرت بغداد بالصباغة المقتبسة من الفرس والتي بلغت درجة كبيرة من الدقة والجمال ، حتى إنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر ويكتبون عليه بالذهب المجسم ويصنعون الملوك أقداحاً تنهر الأنظار . وكانوا يتخذون على الجامات (السكؤوس) صوراً يحكون صناعتها بالرسم لتمثل الحقائق وصوراً عليها صوراً تطير ، ومن فوقها العقبان تنقض عليها وهي تحاول الإفلات من مخالبها^(٣) .

وقد ازدهرت صناعة الزجاج والبلور الصخري في العصر الفاطمي ، وبلغت هذه الصناعة درجة عظيمة من الرقي . يشهد بذلك هذه التحف التي تزخر بها متاحف القاهرة وأوربا . ويعزى ذلك إلى كثرة بناء المساجد والقصور والمدارس وتزويدها بالقناديل وألواح الزجاج والشمسيات وغيرها^(٤) . كما أن حياة الترف عند الفاطميين واتخاذهم القصور والمناظر ، وتفننهم في زخرفتها وتزيينها ووفرة ثرائهم كان من أهم الأسباب التي أدت إلى رواج هذه الصناعة الدقيقة .

وقد اشتهرت الفسطاط والفيوم والأشمونين والشيخ عباد (بكورة الهنسا ، المنيا الآن) ، والإسكندرية بصناعة الزجاج^(٥) الذي كان يصدر إلى البلاد الشرقية والغربية^(٦) . وزخرت خزائن الفاطميين بتحف الزجاج والبلور التي بلغت حد الإعجاز في جمال الصناعة وإشراق الزخرفة^(٧) :

وقد تفوقت صناعة الخزف ذي البريق المعدني والزجاج والبلور ، فصنعت منه الأزيار الكبيرة والأواني المستعملة في حفظ العطور والبخور^(٨) . ويدل على تفوق هذه

(١) أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة من ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(٢) أمين زكي : كتاب عمران بغداد من ٥٠ .

(٣) نخلة الدور : حضارة الإسلام في دار السلام من ٢٥ . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام

البياني ج ٢ من ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٤) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين من ١٨١ .

(٥) المقرئ : خطط ج ١ من ٣٤٢ .

(٦) Safar Naméh, p. 154 .

(٧) المقرئ : خطط ج ١ من ٤٣٤ .

(٨) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين من ١٤٩ .

الصناعة مذكوره الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي رأى التجار يصنعون ما يبيعونه في أوان من الخزف بدلا من الورق . كما رأى في أسواق الفسطاط الأقداح والصحاف التي بلغ من جودتها أنه رأى يده بوضوح بظهر الإناء . كما شاهد الرحالة المقدسي^(١) توقيع صناع مصريين على بعض الفسيفساء في السكبة وأن جدران الأروقة من الظاهر ألصقت بالفسيفساء التي حملها إليها صناع مصر والشام .

وقد كشف عباس بن فرناس (بكسر القاف وسكون الراء) الفيلسوف المسلم بالأندلس في معمله طريقة لصنع البلور ، وهو الذي قدف بنفسه في تجربة رائعة مدهشة على متن طائفة شراعية سبح بها عاليا في الفضاء ، ثم وقع ونهض سالما ، وكان بذلك مبشرا بفكرة الطيران منذ العصور الوسطى . وقد اقتدى أهل الأنندلس بزياب المغني والموسيقي المشهور في عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) في تفضيل الاكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة^(٢) .

وقد اشتهرت سابور والكوفة وجور (جنوبي فارس) بصناعة الروائح العطرية المستخرجة من البنفسج والنيلوفر والرجس والسوسن والزنبق والنانج : واختصت مدينة جور باستخراج ماء الورد الذي كان يحمل إلى الصين والهند واليمن ومصر والمغرب والاندلس^(٣) .

(ح) صناعة الجلود :

كذلك اشتهر المسلمون بصناعة الجلود . وكان يصنع بمصر ولاسيما بمدينة الفسطاط الانطاع التي كانت تصدر إلى بلاد الشام . كما كان يصنع بالفسطاط الكمرانات^(٤) وحقائب الجلد والسيور والقسى (بكسر القاف) التي فاقت قسى دمشق في دقة الصناعة^(٥) . وبرع المصريون في صناعة السروج المحلاة بالذهب والفضة حتى كانت قيمة السرج

(١) أحسن التقاسيم ص ٧٣ .

(٢) المقرئ : نقح الطيب ج ٢ ص ٧٥١ — ٧٥٢ . بروفنسال : الشرق الإسلامي والحضارة العربية — الأندلسية ص ٣٠ — ٣٤ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٢٤ — ٣٢٥ .

(٤) جم كمران وهو حزام مجوف من الجلد توضع فيه النقود الذهبية والنفائس ويربط حول وسط الإنسان .

(٥) المقرئى خطط ج ١ ص ٣٦٧ .

الواحد تتراوح بين ألف دينار وسبعة آلاف دينار . وقد تبعت صناعة السروج صناعة اللجم من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة ، وفلائد وأطواق لأعناق الخيل . وقد بلغ من اهتمام الفاطميين بهذه الصناعة أن اتخذوا خزانة خاصة بالسروج أطلقوا عليها خزانة السروج (١) .

كذلك اشتهرت الأندلس بصناعة آلات الحرب من التراس والرماح والسروج واللجم والدرع (٢) .

وكذلك اشتهرت بلاد المغرب بصناعة المناطق الجلدية والاحزمة . وكان بمدينة فاس سوق خاصة للمحافظ والحقائب التي تصنع من الجلد والتي بلغت حد الإتقان والروعة (٣) ، وسوق آخر تصنع فيه الدلاء الجلدية . ثم يلي سوق الإسكافيين الذين يصنعون الأحذية على اختلاف أنواعها ، وكان به مائة وخمسون متجرأ وحواليت أخرى تباع فيها الأحذية ، وقد بلغ عددها نحو مائة وخمسين حانوتا . وهناك نوع آخر من الأحذية أرقى لا يلبسها الصناع ولا الجنود ولا خدم القصور .

كما اشتهر أهل المغرب بصنع الدرق (بفتح الدال مع التشديد وفتح الراء) والتروس من الجلد على الطريقة الإفريقية ، كما اشتهروا أيضاً بصناعة ركاب وسروج الخيل ، وكانوا يصنعون لكل سرج ثلاث طبقات من الجلد كل طبقة تعلو الأخرى ، والطبقة الوسطى أرقها . وتصنع هذه الطبقات بطريقة بدیعة . كما اشتهر أهل المغرب الأقصى بصناعة الزرابي الجلدية الصغيرة والوسائد (٤) . واشتهرت لمطة (بفتح اللام والطاء وسكون الميم) بالمغرب الأقصى بصناعة الدرق (٥) .

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٠ — ٥٩١ .

(٢) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ٩٥ .

(٣) الحسن الوزان ج ١ ص ١٩٣ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩٨ .

(٥) جمع درقة (بفتح الدال والراء والقاف) . وهي معربة عن لفظ فارسي هو « دريجه » . وهي درع يضامى الشكل غالباً ، يتراوح طوله بين قدم ونصف وقدمين . وتصنع الدرقة غالباً من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السمكية ، وأحياناً من جلد التمساح .

انظر Lane's Arabic- English Lexicon

راجع ما ذكره ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك حيث ذكر أن معدن الدرق اللطيفة لا يوجد له مثيل في الدنيا .

٣ — التجارة

اهتم المسلمون بتسهيل سبل التجارة ، فأقاموا الآبار والمحاط في طرق القوافل ، وأنشئوا المناثر في الثغر ، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من غارات القراصنة وأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد وسفهم تنخر عباب البحار . وغدت بغداد حاضرة الدولة العباسية سوقاً نافقة للتجارة ، وأصبحت دمشق مركزاً هاماً للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو من أقاليم نهر الفرات إلى بلاد العرب ومصر ، وأصبح نهر الفرات ودجلة وجداولها شرايين تجارية هامة في بلاد الدولة العباسية (١) .

وكان لعناية الخلفاء العباسيين بتيسير الطرق البرية والبحرية أثر بعيد في ترقية التجارة التي تقوم على تبادل السلع وفي تمهيد السبيل أمام السكاشفين والرحالة الذين وصفوا البلاد المختلفة وصفاً دقيقاً مبنيّاً على المشاهدة .

وفي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وضع أبو القاسم بن خرداذبة الفارسي في كتابه المسالك والممالك (٢) دليلاً للمسافرين وصف فيه الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبله (يضم الألف الثانية والباء) ويصل إلى بلاد الهند والصين . ويذكر ابن خرداذبة أن سفن المسلمين كانت تسير بمحاذاة ساحل الخليج العربي وساحل الهند حتى ملبار . وقد نشطت الحركة التجارية ونمت في الملتان (يضم الميم وسكون اللام) . والدليل (بفتح الدال مع التشديد وسكون الياء وضم الباء) في السند (إحدى ولايات باكستان الآن) . حيث تذهب إلى الهند والصين وتعود حاملة منتجات هذه البلاد (٣) . وكانت قوافل البنجاب (شمالي باكستان الآن) تنقل السلع عبر هضاب أفغانستان ، وكان الناجر المسلم يستطيع الذهاب إلى الصين ويعرهمضة التبت (يضم التاء مع التشديد وفتح الباء مع التشديد) وقبائل الترك اشراء الحرير (٤) . واستطاع المسلمون أن يستقروا في جنوبي مدينة شنغهاي . وكان للمسلمين في هذه المدينة قاض مسلم يسير في أحكامه بين المسلمين وفق أحكام الشريعة الإسلامية ويؤمهم في الصلاة .

(١) Heyd, vol 1, p. 26.

(٢) طبعة دى غوية (ليدن ١٣٠٦ هـ) .

(٣) Heyd, tome I, p. 36. سيرتوماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة ص ٣٦٢ .

(٤) Heyd, p. 36.

كما كان المسلمون يتبادلون التجارة مع الهند الصينية (تايلاند الحالية) والصين وشبه جزيرة الملايو^(١). كما فتحت أمام تجار المسلمين جزائر الهند الشرقية المعروفة الآن باسم إندونيسيا ، ولاسيا مع جزيرة جاوه وهى أكبر جزائرها .

وقد بدأ المحيط الهندى يزدهم بالتجار الآسيويين ، وبخاصة تجار العرب الذين اعتادوا الرحلة إلى جنوبى بلاد الهند وجزيرة سيلان ، بل إنهم وصلوا إلى الصين نفسها . لكن ظهور الإسلام فى جزيرة للعرب قد هبأ لهم الفرصة ليظهروا على مسرح التاريخ . وقد ظلوا من القرن السابع إلى القرن السادس عشر الميلادى سادة المحيط الهندى بلا منازع .

وكانت العلاقات التجارية بين أوروبا وآسيا تعتمد على السلع التى يحملها هؤلاء العرب إلى سواحل الخليج العربى والبحر الأحمر . وقد أنشأ العرب محاط تجارية قبل المحاط التى أنشأها أوروبا ، فقد أنشئوا محاط فى فاليقووط وساحل ملبار وملقا ، وأقاموا علاقات تجارية مع جزر الهند الشرقية والفلبين وسيام ، ثم استقر العرب فى هذه البلاد . ويقال إنه أنشئت مستعمرة عربية كبيرة فى مدينة كانتون . ولم تكن هذه التجارة مقصورة على العرب والفرس ، فإن أهل هذه البلاد الشرقية كانوا يردون الزيارات . وبدأت السفن الهندية تصل إلى شرقى القارة الإفريقية وإلى ساحل بلاد العرب ، كما وصلت سفن الملايو وجاوة إلى مدغشقر . وكذلك وصلت سفن الصين ، بدليل أن كثيراً من العملة الصينية التى ترجع إلى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) والتى لا يبعد أن يكون العرب أو الهنود قد جلبوها معهم قد عثر عليها فى ساحل إفريقيا . ولا يبعد أن يكون الصينيون أنفسهم قد تعاملوا مع أهالى هذه البلاد ، لأن الكتب الصينية القديمة تتضمن إشارات إلى شرقى هذه القارة ، كما تتحدث بعض الكتب الصينية التى ترجع إلى القرنين الثانى عشر والثالث عشر عن زنجبار وعن أهلها من العرب الذين يردون عبادات زرقاء مصنوعة من القطن وبتعلون بنعال حمر .

ومن ذلك يتضح أنه كان لشرقى إفريقيا نصيب من هذه العلاقات التجارية فى المحيط الهندى فى العصور الوسطى . فقد وجدت سلع الهند طريقها إلى أوروبا عبر آسيا . وأهم هذه السلع : العاج الذى يكثر فى هذه البلاد حيث تكثر الفيلة التى تستخدم فى الحروب أو فى أغراض أخرى . كذلك وجد الذهب فى مناجم روديسيا ، وكان الحشيش يحمل

(١) وهى إحدى ولايات ماليزيا التى تضم سنغافوره والملايو وشمالى برنيو وسرواك (بفتح السين والراء) .

من زنجبار إلى بلاد العرب . ولا ننسى تجارة الرقيق التي كانت تعد السلعة الأولى في هذه التجارة .

غير أن هذه العلاقات التجارية التي قامت بين بلاد العرب وشرق إفريقيا لم تنوطد إلا بنزوح العرب إلى هذه البلاد واستقرارهم فيها . وقد شامت الصدق أن يكون هؤلاء المهاجرون من جنوبي الجزيرة العربية ، وأن يؤسس هؤلاء العرب إمبراطورية عربية تنشر نفوذها على الساحل الشرقي لهذه القارة (١) .

وقد حاول دعاة المسلمين أن يشقوا طريقهم إلى بلاد الحبشة وأن ينتشروا على حدودها الشرقية ، بالإضافة إلى من كان ينفذ إلى هذه البلاد من تجار المسلمين . وكان هؤلاء الدعاة والتجار ينفذون إلى شرق القارة الإفريقية عن طريق بلاد اليمن وحضرموت والبحرين ومصوع وزبلع وبربرة وزنبار ومدغشقر . وقد أخذ الإسلام يشق طريقه معهم إلى بلاد الحبشة والصومال ، ليس عن طريق الفتوح والغزو فحسب ، بل عن طريق التجارة كذلك ، حيث أخذ التجار المسلمون ينفذون على هذه البلاد ويدخلون الكثيرين من أهلها في الإسلام . ومن الساحل الشرقي نفذ الإسلام إلى نياسالاند ، بل لقد نفذ إلى كينيا وأوغندا وتنجانيقا ، وإلى أقصى جنوبي القارة الإفريقية (٢) .

ويمكن أن نلخص المسالك التي سلكها الإسلام وانتشرت منها التجارة إلى القارة الإفريقية فيما يلي :

١ — طريق شمالي إفريقيا : مصر ، برقة ، طرابلس ، إفريقيا (بلاد تونس) ، المغرب الأوسط (الجزائر وجزء من مراکش) ، بلاد السوس الأقصى إلى مصب السنغال . ويتبع هذا الطريق طريق بحري بعد نمو البحرية الإسلامية : من ثغور الشام ومصر إلى ثغور المغرب الأقصى (مراكش) .

٢ — طريق صحراوي : من واحات مصر العربية ماراً بجنوبي بلاد المغرب حتى غربي القارة الإفريقية .

(١) Coolpand, East Africa and Its Invaders, pp. 15 — 21

أنظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية (الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٦٥) ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ترجمة ص ٣٨١ — ٣٨٧ .

٣ — طريق القوافل : من بلاد المغرب الأقصى إلى شمالي السودان ، ولاسيما من جنوبي تونس إلى بلاد برنو غربي بحيرة شاد ، ومن جنوبي الجزائر إلى بلاد « الحوصا » شمال « نيجيريا » ، ومن جنوبي مراكش إلى مصب السنغال ومنحني النيجر .

٤ — والطريق الرابع يسير عبر الصحراء الشرقية ووادي النيل إلى بلاد النوبة وشمالي السودان .

٥ — والطريق الخامس من جنوبي بلاد العرب إلى ساحل أفريقيا الشرقية ^(١) .
وكان لاختراع البوصلة التي تهتدي بها السفن التي تبحر عباب المحيطات والبحار أثر كبير في اتساع نطاق تبادل السلع وتمهيد السبيل أمام الرحالة والمكتشفين . وإلى الصين يرجع الفضل في اختراع هذه الآلة التي لم تعرفها أوربا قبل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، أي قبل عصر كريستوفر كولمبس مكتشف القاره الأمريكية سنة ١٤٩٢ م . وقد ذهب ابن عذاري ^(٢) المراكشي المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) إلى أن اختراع البوصلة كان في القرن الحادي عشر الميلادي ، وقيل في القرن الثاني عشر .

وإلى الشرق يرجع الفضل أيضاً في اختراع أهم وسائل المواصلات التي كان لها أثر كبير في تقدم الحضارة الإسلامية : كالعربة ذات العجلات ، وحمام الزاجل ، والجل . وكان استخدام الجل في شمالي القارة الإفريقية من الأحداث الهامة التي أدت إلى ربط أجزاء الدولة الإسلامية ونمو العلاقات الإقتصادية والثقافية بين أفريقيا وآسيا من ناحية ، وبين الشرق والغرب من ناحية أخرى ، وبين المغرب الأقصى والممالك والإمارات الإسلامية بحوض السنغال والنيجر . كما أثبت التاريخ أن يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية قد استعمل الجل في حربه ضد النصارى في موقعة الزلاقة الشهيرة ٤٧٩ هـ . وقد علل أكثر مؤرخي الغرب بأن ذلك كان من عوامل انتصاره في هذه الموقعة ، إذ ذعرت خيول النصارى من الجمال التي لم ترها من قبل ، كما أن أهل الأندلس لم يكونوا قد رأوا قط جملاً من قبل ولا كانت خيلهم قد رأت صورها أو سمعت أصواتها .

(١) حسن إبراهيم حسن انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٣٦ .

(٢) كتاب المغرب و أخبار المغرب طبعة دوزي (ليدن ١٨٤٨ — ١٨٥١ ، وباريس

وقد اشتهرت بلاد العرب بكثرة الجمال ذات السنام الواحد ، واشتهرت بلخ ببلاد ماوراء النهر (أى نهر جيحون) بالجمال ذات السنامين (وتسمى البخاتي بفتح الباء والحاء) . وكانت الخيل التي كثر استعمالها في أوروبا فيما بعد ، تجلب إلى بغداد حاضرة الدولة العباسية ، من بلاد العرب ، ولاسيما من بلاد الحسا (أو الأحساء) على الخليج العربي ، كما جلب العرب الجاموس من موطنه الأصلي وهو بلاد الهند ، حيث نقل إلى العراق في عهد الدولة الاموية (١) .

(١) طرق التجارة :

أما وقد ذكرنا شيئاً عن عناية خلفاء المسلمين بالتجارة التي احتلت في العصر العباسي الثاني المسكنة الاولى في التجارة العالمية ، يحسن أن نذكر أشهر طرق التجارة بين الشرق والغرب . والطريق الأول من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر . ويبدأ من مقاطعة بروفانس بفرنسا ، ويقوم به اليهود ، ويسمى المسلمون في ذلك الحين تجار البحر أو اليهود الراذانية نسبة إلى نهر الرون ، ويتكلمون العربية والفارسية واليونانية والفرنسية والصقلية . ويجلب هؤلاء اليهود من الغرب الجوارى والغلمان والديباج وجلود الخنزير (٢) . ثم أطلق هذا الاسم على الثوب المأخوذ من وبر الخنزير . وترسو سفنهم عند الفرما (وكانت من أهم الموانئ التجارية في ذلك الحين) ، ثم يحملون هذه السلع على دواب الحمل إلى القلزم وهي مدينة السويس الحالية (٣) . أو إلى الاسكندرية ، وكانت ملتقى التجارة العالمية ، ومنها تنقل إلى القسطنطينية أكبر مدن مصر التجارية في ذلك الحين ، أو إلى القاهرة حاضرة الفاطميين والايوبيين ومن جاء بعدهم من الحكام عن طريق النيل .

يقول « هيد » في كتابه تاريخ التجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى (٤) نقلاً عن ابن خرداذبة إن السلع كانت تنقل من القسطنطينية إلى القلزم ، ومنها تنقل عبر البحر الأحمر مارة بموانئ الهامة مثل جدة (وهي ميناء مكة المكرمة) حتى تصل إلى الهند والصين . ويحمل التجار في عودتهم سلع المشرق كالمسك والعود

(١) متر . الحضارة الإسلامية ترجمة أبي ريده ، ج ٢ ص ٢٨١ — ٢٩٤ .

(٢) الخزاسم دابة وقيل هو الذكر من الأرانب ويطلق فيعرف به الحرير في العرف .

(٣) ابن خرداذبة . المسالك ص ١٥٤ .

(٤) ج ١ ص ٤١ .

والكافور والدارصيني . فإذا وصلوا إلى القلزم اتجهوا إلى الفرما أو إلى الإسكندرية ، ومنها إلى بروفانس ، وأحياناً يقصد بعضهم الإسكندرية .

ثانياً — والطريق الثاني يبدأ ببحراً من بروفانس على أيدي تجار اليهود الراذانية إلى المشرق صوب أنطاكية حيث تنقل السلع على الدواب إلى بغداد عن طريق نهر الفرات وجداوله ، ثم إلى الأيلة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الفارسي ، ثم إلى عمان والهند والصين .

ثالثاً — والطريق الثالث يبدأ من شمالى روسيا إلى المشرق عن طريق بحر قزوين ، ثم إلى مرو وحاضرة خراسان ، فبلخ وبخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين ، ويحمل هؤلاء التجار معهم جلود الخنزير وجلود الثعالب والسيوف والشمع والعسل ، وكان المسلمون يأخذون الجزية من هؤلاء التجار باعتبارهم المسيحيين .

ومما جعل لهذا الطريق أهمية تجارية اعتناق أهل الفلجاء الإسلام في أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . وينبغي ألا ننسى فتوح محمود الغزنوى في بلاد الهند التى قيل إنه غزاها ثلاث عشرة غزوة ونشر الإسلام فى ربوعها ، وما كان لهذه الفتوح من أثر فى رواج التجارة ، ويرجع وجود النقود الإسلامية التى كشفت فى شمالى أوروبا إلى هذا العصر ، وقد أصبحت بلاد الروس منذ ذلك الحين طريقاً هاماً بين شمالى أوروبا وبلاد الشرق الإسلامى .

والطريق الرابع هو الطريق البرى ، ويبدأ من بلاد الأندلس إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق مجتازاً المغرب الأقصى عن طريق سبتة والمغرب الأدنى عن طريق تلمسان ووهران والقيروان والمهديّة والمغرب الأدنى عن طريق طرابلس وبرقة حتى يصل إلى مصر ، ثم يتجه إلى بلاد الشام ماراً بالرملة ودمشق ، ثم إلى العراق ماراً بالكوفة وبغداد والبصرة ، ثم إلى فارس ماراً بالآهواز ، ثم إلى كرمان والهند والصين ^(١) .

وكانت طرق التجارة تسلك طرق البريد . وقد عنى الفاطميون بطرق المواصلات البرية التى تسلكها القوافل التى تسير بالتجارة من بلد إلى آخر . فكان هناك طريق للقوافل يصل مصر ببلاد المغرب غرباً وبلاد الشام والعراق شرقاً .

(١) ابن خرداذبه . المسالك والممالك ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(ب) مراكز التجارة :

ومن أشهر مراكز التجارة أنطاكية على ساحل البحر الأبيض المتوسط الغربي ، وقد حصنها الخليفة العباسي المعتصم . وكانت من أهم مرافق بلاد الشام التجارية^(١) . كما أصبحت أداة الاتصال بين الشرق والغرب . وغدت الفرما (وكانت مفتاح الديار المصرية)^(٢) ، والإسكندرية من المراكز التجارية الهامة بين الشرق والغرب ، تنقل منها التجارة الآتية من أوروبا إلى البحر الأحمر ، والتجارة الآتية من الشرق إلى أوروبا . . وكانت الإسكندرية - ولا تزال - أهم موانئ البحر الأبيض المتوسط ؛ فقد إليها السفن حاملة منتجات الشرق والغرب . واشتهرت بمعدن الرخام والحرنوب والزيتون واللوز . وكانت من أهم مراكز صناعة الزيت والصابون^(٣) . وكانت السفن بعد إقلاعها من الإسكندرية ترسو أول الأمر في ميناء برقة حيث تكثر السلع الشرقية والغربية . ومن برقة ترى سلسلة من الموانئ التجارية الهامة مثل طرابلس والمهديّة ووهران ومليّة وسبته وطنجة . وكانت القسطنطينية عاصمة مصر التجارية في عهد الفاطميين وهي ، كما يقول المقدسي^(٤) « ناسخ بغداد ومفخر الإسلام ومتجر الأنعام وأجل من مدينة السلام (يعني بغداد) ، خزائن المغرب ومطرح المشرق ، أهل من نيسابور وأجل من البصرة ، وأكثروا من دمشق . معدن الصلحاء ، طيب الشتاء ، أهل سلامة وعافية » . وكانت أسواق القسطنطينية في غاية النظافة والنظام ، تصطف فيها القياسير والدكاكين العامرة بمختلف أنواع السلع . وإليها ترد تجارة الشام والموصل والعراق وغيرها من بلاد المشرق الإسلامي .

ومن مراكز التجارة في مصر في العصر الفاطمي . مدينة أسوان ، وكانت قصبة إقليم الصعيد ، وكانت — ولا تزال — سوقاً لتجارة النوبة والسودان .

وتلي مدينة القسطنطينية في الأهمية مدينة دمياط ثالثة الثغور التي تقع على ساحل مصر الشرق ، وهي تنيس والفرما ودمياط ، وقد برزت دمياط في ميدان التجارة والصناعة وأضحت في العصر الفاطمي مركزاً هاماً لصناعة الفسيج ، كما كانت تبنى فيها السفن التجارية والحربية . ولعبت دمياط دوراً بارزاً في قصة الصراع بين المسلمين والصليبيين .

Heyd, tome I, pp. 43—44

(١)

(٢) اشتهرت بمصايد الأسماك ، المقدسي (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ص ١٩٥ .

(٣) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ص

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٩٩ — ١٩٦ .

ومن مراكز التجارة في العصور الوسطى عيذاب (بفتح العين وتسكين الياء) على ساحل البحر الأحمر. وقد نافست ميناء القصر، ولعبت دوراً هاماً في تجارة البحر الأحمر. وازدهرت عيذاب في القرنين الخامس والسادس للهجرة لتحول طريق التجارة الفاطمية إلى الجنوب بسبب اشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة الذين كانوا أصحاب النفوذ في بغداد حاضرة الدولة العباسية في ذلك العصر، ثم لاستيلاء الصليبيين على أيلة (بفتح الالف وسكون الباء وفتح اللام) الواقعة على زاوية خليج العقبة سنة (٥١٠هـ) ١١١٦م. وقد ذكر ابن جبير^(١) أن أهل عيذاب جمعوا ثروة طائلة من السفن التي كانوا يمتلكونها، وكانوا يحترفون التجارة وينقلون الحجاج ويقومون بصيد اللؤلؤ في شهرى يونية ويولية من كل سنة.

وكان التجار والحجاج يقدون إلى ثغر عيذاب عن أحد طريقين: أحدهما طريق قوص ويتفرع إلى فرعين؛ أحدهما يعرف بطريق «العبدن»، ويعرف الثاني بطريق «دون» وهي قرية على شاطئ النيل. أما الطريق الثاني فهو طريق مدينة أسوان.

وعلى الرغم من شدة الحرارة وقلة الماء في هذا الطريق في الصيف، يمتاز عن الطريق الأول بقصره، فكانت القوافل تقطعه في خمسة عشر يوماً. كما يمتاز هذا الطريق بخلوه من الجبال المتشابكة التي تكثرت في الطريق الأول. أضف إلى ذلك أن أسوان كانت ثغراً هاماً للتجارة مع بلاد النوبة. لذلك كان المسافرون يفضلون طريق أسوان على طريق مدينة قوص. وكانت المراكب تسير بالحجاج شرقاً إلى جدة ميناء الحجاز، أو بالسلع جنوباً إلى بلاد اليمن وعدن حيث تستأنف سيرها إلى سواحل بلاد الهند والصين، ثم تعود محملة بالبضائع إلى عيذاب، ومنها إلى الساحل المصرى. لذلك كانت عيذاب من أعظم مراسى الدنيا، لأن مراكب الهند واليمن كانت تفرع فيها البضائع، ويقلع منها الحجاج في ذهابهم وإيابهم.

وبما لا شك فيه أن تحول طريق التجارة إلى الجنوب قد أدى إلى انتعاش كبير في حالة عيذاب الاقتصادية، لما تبع هذا التحول من جباية المكوس على السلع التي تمر بها، أو الاستيلاء على جزء منها للاستهلاك المحلى، كما استفاد الأهالى من اشتغال عدد كبير منهم في شحن السلع وتفريغها، مما أدى إلى رخاء أهل عيذاب ونشر الأمن بينهم.

(١) رحلة ابن جبير ص ٣٥ - ٤٢ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٠٢ - ٦٠٣

وقد ظل حجاج مصر والمغرب يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج عبر صحراء عذابات التي لم نزل طريقاً للحاج في ذهابهم وإيابهم أكثر من مائتي سنة (٤٦٠ هـ — ٦٦٠ هـ). ففي الشدة المظلمة في عهد المستنصر الفاطمي انقطع الحج برأ، وظلت الحال على ذلك حتى كسا السلطان بيبرس السكبة وعمل لها مفتاحاً، ثم أرسل قوافل الحج برأ في سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ — ١٢٦٨ م) ^(١).

وكانت مصر في عهد الفاطميين (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) ترتبط بعلاقات تجارية مع كثير من بلدان أوروبا وبلدان الشرق، فكان تجار مدينة «أمانى» الإيطالية يجلبون المنسوجات الحريرية من مصر والشام، ويجلبون من مصر مهرة الصناعات لثمين قصورهم بالفسيفساء. وكان لاهل «أمانى» حتى خاص بهم في مدينة أنطاكية كما كان لهم كثير من الفنادق بمدينة الإسكندرية ^(٢). وأخذت مراكب جنوة تشق طريقها إلى موانئ مصر والشام وتحمل حجاج المسيحيين إلى يافا حيث يذهبون إلى بيت المقدس، ويذهب تجار جنوة إلى أسواق مصر ليحبوا الفلفل وجوز الطيب والقرنفل والشب والنظرون التي كان الفاطميون يحتكرون تجارتها. كما كان لاهل جنوة جالية بالإسكندرية، وقد أقامت حكومة البندقية علاقات تجارية واسعة مع الفاطميين في مصر ونقلت سفنها منتوجات آسيا إلى أوروبا ^(٣).

وكانت الدولة البيزنطية، برغم سوء علاقاتها مع مصر، بحاجة إلى المصنوعات المصرية الممتازة التي تفتجها مصانع تنيس ودمياط، ويقبل عليها الإباطرة لتزيين قصورهم. واحتلت المنسوجات المصرية مكانة مرموقة في أسواق القسطنطينية حيث كان المصريون يجلبون الفراء الوارد من بلاد الروس، وكان الفسطاط حتى يقيم فيه تجار الروم ^(٤).

وكانت العلاقات التجارية بين مصر وصقلية وثيقة في العصر الفاطمي؛ فكانت أكثر السفن تفلح من مصر إلى إيطاليا وجنوب فرنسا مارة بموانئ صقلية لتبيع ما تحمله من منتوجات مصر وتحصل في مقابلها على قمح صقلية وفواكهها ومعادنها ^(٥).

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٦ — ٥٩٧.

(٢) Hedy, tome 1, pp. 104—106.

(٣) Ibid, tome 1, pp. 107—129.

(٤) Ibid, tome 1, p. 58.

(٥) المقرئى: خطط ج ١ ص ٩٦.

ولم تقطع علاقة القاطمين ببلاد المغرب بعد انتقال حاضرة خلافتهم إلى مصر . فقد كانت سفن المغاربة تقطع إلى مصر تحمل حجاج المغاربة كما تقدم أو تبتاع غلات بلاد العرب والحبشة والهند . وقد ذكر أبو عبيد البكري أن سفن مصر كانت تحمل غلات بلاد المغرب مثل زيت الزيتون والفاكهة ، وتسير السفن إلى المهديّة التي بناها عبيد الله المهدي في إفريقية (بلاد تونس الحالية) وتستمر في سيرها إلى المغرب الأقصى وتعود محملة بالسلع إلى الإسكندرية^(١) .

وكان من أثر تقدم المسلمين في فن الملاحة أن أخذ الشرق الإسلامي يتصل ببلاد الأندلس ، وأدى ذلك إلى قيام علاقات تجارية بينها وبين سائر البلاد الإسلامية ، حاملة منتجات هذه البلاد ، وكانت الأساطيل التجارية التي ترسو في موانئ إشبيلية ومالقة (بفتح اللام والقاف) ودانية والمرية (بفتح الميم وكسر الراء وفتح الياء مع التشديد) تنقل إلى جميع موانئ البحر الأبيض المتوسط محاصيل الأندلس ومنتجات مصانع المدن الأندلسية والمغربية . ونذكر على سبيل المثال أغذية جنجالة وسجاجيد بسطه (بفتح الباء وسكون السين) وفراء سرقطة (بفتح السين والراء وضم القاف وسكون السين) وأواني مالقة الفخارية المذهبة ، وحلى قرطبة المنقوشة وجلودها ، وأسلحة طليطلة ، وورق مالقة السميك . وقد شاهد ناصر خسرو^(٢) في أسواق الفسطاط قطعة من البللور الصخري واردة من بلاد المغرب^(٣) .

وكانت هذه العلاقات التجارية مستمرة مع مصر التي أصبح تأثيرها على الأندلس قوياً ، كما تدل على ذلك النقوش التي أثبتت وجود هذه العلاقات التجارية . فقد وجد اسم تاجر من الإسكندرية مات في ميناء المرية سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) منقوشاً على أحد قبور المدينة ، يدل على أنه مات في أثناء سفره في العهد الذي كانت المرية تصنع أقنشة فاخرة ذات شهرة عالمية . وفي هذه الحقبة كان الأندلس مغريباً في عهد المرابطين . ويذكر البكري^(٤) أن برقة كانت تصدر إلى مصر الذبائح كما تفعل اليوم ، والصوف والعسل والقطران ، وأن القوافل كانت تحمل منتوجات السودان وغانة وحوض السنغال والنيجر إلى واحات مصر ، فتحمل التبر وبعض السلع التي ينتجها إقليم الواحات .

(١) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٥ ، ٣٠ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٨٢ .

(٢) Sefar Namèh, p. 149.

(٣) المغرب ص ٥ .

وكان للمغرب علاقات تجارية واسعة مع أهالي البلاد الواقعة جنوبي الصحراء بين المغرب وبلاد السودان . فقد قال الشريف الإدريسي ^(١) عند كلامه على مملكة غانة : ومدينة ملال إلى مدينة غانة الكبرى نحو من اثنتي عشرة مرحلة في رمال ودماس (قفار) لا ماء بها . وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو (يقصد نهر النيجر) . وهي أكبر بلاد السودان قطراً وأكثرها خلقاً وأوسعها متجراً . وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى . وأهلها مسلمون ، وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . وهو يحظ لنفسه ، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي . وله قصر على ضفة النيل (يقصد به نهر النيجر أيضاً) قد أوثق بنيانه وأحكم إنشائه ، وزينت مساكنه بضروب من النقوش والأدهان وشمسيات الزجاج . وكان بذيان هذا القصر في عام عشر وخمسمائة من سني الهجرة .

وقد ذكر الشريف الإدريسي ^(٢) أنه كان بنهر النيجر جزيرة تقع شرقي مدينة غانة ، طولها ثلثمائة ميل وعرضها مائة ميل . ويحيط بها النهر في سائر السنة . ويطلق الإدريسي على هذا النهر اسم النيل ، ولعله يظن أن نهر النيجر هو امتداد لنهر النيل . وبعد انتهاء موسم الفيضان في شهر أغسطس وانخفاض مياه هذا النهر ، يقصد أهالي هذه الجهات الجزيرة بحثاً عن التبر ، « فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيراً أو قليلاً من التبر . وما يخبئ منهم أحد . فإذا عاد النيل (أي النيجر) إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضاً ، واشترى أكثره أرقلان (بفتح الالف مع الهمزة وسكون الراء وفتح القاف) وأهل المغرب الأقصى ، وأخرجوه إلى دور السكك (أي دور صك النقود) في بلادهم فيضربونه دنائير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع ، هكذا في كل سنة .

وقد ذكر السلاوي ^(٣) نقلاً عن أبي العباس أحمد الشريشي صاحب كتاب شرح المقامات الحربية أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في سبيلاسة حاضرة بني مدرار ، ثم يسرون في قوافلهم إلى غانة ، فيقطعون المسافة في ثلاثة أشهر ذهاباً وشهر ونصف إياباً ،

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (نصوص من هذا الكتاب بعنوان « الغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨ .

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٥ ص ٩٩ — ١٠٠ .

فيبيعون ما معهم من الأمتعة والأثقال بالتبر . ويحدثنا الشريشي أن التاجر المغربي كان إذا سافر إلى غانة بثلاثين حملاً ، رجع منها بثلاثة أحمال أو حقلين : واحد لركوبه وثان للداء وذلك بسبب اختراقه المفارة . وكان التجار يقطعون هذه المفازة في ستة عشر يوماً لا يرون فيها ماء إلا ما حملوه على ظهور إبلهم . وقد أضاف الشريشي إلى ما تقدم أن أثمان أحمال الثلاثين حملاً يوضع فيها من التبر ما يملأ مزوداً^(١) واحداً وهذا يؤيد رأى الشريف الإدريسي في استخراج التبر واستعماله في هذا العصر^(٢) .

وقد جاءت عظمة غانة عن طريق اشتغالها بالتجارة وموقعها عند أطراف الصحراء الكبرى . وكان التجار البيض المستقرون يستطيعون التحكم في التجارة السودانية من الذهب والرقيق ، وأن يبادلوها بالسلع التي تحملها القوافل من المغرب الأقصى ، وهي ملح الطعام والنحاس والفواكه المجففة . ويوجد الذهب في بلاد تسمى ونقاره (بفتح الواو والراء وسكون النون) (Wangara) ، وكانت تقع خارج حدود مملكة غانة . وكانت شعوب الماندينجو يستخرجون الذهب من هذه الجهات ويبادلونه بالملح والسلع الأخرى المجلوبة من غانة . ويتم التبادل بطريقة تسمى التبادل الصامت (Dumb Barter) . ذلك أن تجار غانة يضعون متاجرهم على شاطئ أحد الأنهار ثم يختفون عن الأنظار ، فيتقدم أصحاب التبر إلى هذا المكان ويضعون بحوار هذه السلع قيمتها تبرا ، ثم ينسحبون . فيظهر أهل غانة من مخابثهم ، فإذا رضوا بكمية الذهب أخذوها ، وإن لم يرضوا اختفوا مرة أخرى حتى تزداد الكمية . وكانت هذه الطريقة في المبادلة شائعة في القارة الإفريقية في العصور الوسطى .

وكانت تجارة الذهب تلعب دوراً هاماً في اقتصاديات العصور الوسطى ؛ فكانت تصدر إلى بلاد المغرب وإلى غربي أوروبا^(٣) .

وحول منتصف القرن السابع الميلادي أحرز بعض قبائل لمطة (بفتح اللام وسكون الميم وفتح الطاء) البربرية في المغرب الأقصى نفوذاً سياسياً على زراع مملكة صنها (بضم الصاد

(١) المزود مخلاة بوضع فيها العلف للبعير ، والمزود كذلك هو موضع وضع علف الحيوانات في الحظائر .

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية س ٧٤ — ٧٥ .

(٣) انظر حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية س ٩٨ .

وسكون النون) الذين استقروا على الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة (Dendi)^(١) ، واستطاع هؤلاء البربر أن يؤسسوا أسرة حاكمة تسمى ديا (Dia) حكمت هذه البلاد حتى سنة ١٣٢٥ م واتخذت كوكيا حاضرة لهم^(٢).

وقد تمت علاقات هذه البلاد التجارية مع غانة وتونس وبرقة ومصر عن طريق تاد* مكة (أى مكة الجديدة) الذى يعد مركزاً هاماً لطرق القوافل . وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد فى تحول ملوك هذه البلاد إلى الإسلام فى القرن الحادى عشر الميلادى عن طريق شمالى إفريقيا ، وإن كان كثير من رعاياهم قد ظل على الوثنية .

وفى ذلك الوقت نقلت حاضرة هذه البلاد على مقربة من طرق القوافل الرئيسى : إلى مدينة جوا (بضم الجيم) عند منحى نهر النيجر . وقد أصبحت هذه المدينة من أهم مراكز التجارة فى السودان الغربى ، وهى تشبه مدينة غانة بالنسبة إلى البلاد الواقعة فى أعلى النيجر^(٣).

(ح) الأسواق :

وقد اعتاد المسلمون أن يقيموا الأسواق فى أوقات معينة فى المدن التجارية الهامة التى تعتمد على الأسواق . وتقيم كل طائفة من التجار فى قسم من أقسام هذه الأسواق ، ولا يعودون إلى دورهم إلا فى المساء .

أما أسواق المدن فكانت تقام فى أيام معينة من الأسبوع ، وكانت الحوانيت فى مصر والشام وفلسطين والمغرب تمتد على طول الشوارع من الجانبين وحقت للتجار الغرباء فنادق أشبه بالأسواق الكبيرة . ويضع التجار - كما يذكر ابن الفقيه^(٤) بضائعهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها ويغلقون غرفهم بأقفال رومىة . ويطلق على هذه الأسواق أو المخازن (depots): الفنادق أو القياسر مفردة قيسارية .

(١) للوقوف على نشأة هذه المملكة راجع السعدى : تاريخ السودان (طبعة باريس ١٩٨٨) ص ٣٣ وما يليها . راجع كتاب الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢٦٩ .

(٢) لا يعرف موقعها بالضبط ، ويمكن أن يقال إنها تقع على حدود نيجيريا فى المنطقة الشمالية الغربية .

(٣) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فى القارة الإفريقية ص ٦٦ — ٦٧ .

(٤) كتاب البلدان ص ٥١ .

وهناك خانات أو مخازن كبرق ، كدار البطيخ بالبصرة ، ترد إليها جميع أصناف الفاكهة^(١) . أما في بلاد المشرق الاسلامي ، فكانت الحوانيت تكون صفوفاً في مكان واحد .

كان الرومان يحكمون شمال أفريقيا ، وقد أطلق على إمبراطورهم اسم « قيصر » . وكان بكل مدينة سوق كبيرة أطلق عليها اسم قيسارية (تحريف قيسرية) نسبة إلى قيصر . ويعمل المؤرخون الأفاقة ذلك بأن الموظفين الرومانيين كان لهم في داخل المدن فنادق وحوانيت يبيعون فيها ما يتقاضونه من هذه المدن عيناً (أى سلعاً) كضرائب وإتاوات ، ثم يبيعون هذه السلع في تلك الحوانيت والفنادق في داخل المدن . وكثيراً ما كان الأهالي ينهبون هذه المخازن . لذلك رأى أباطرة الرومان أن يذهبوا في كل مدينة حياً صغيراً يجتمع فيه التجار ويحفظون فيه سلعهم ، ويختزن الموظفون المكلفون بالجبايات كل ما يحصلون عليه من السلع ، وإذا أراد رجال المدينة أن يدافعوا عن أموالهم الخاصة اضطروا إلى أن يدافعوا ويحافظوا على أموال الإمبراطورية ويحولوا بذلك دون نهبتها^(٢) .

وكانت الدولة الفاطمية تجبي مبالغ كبيرة من الجمارك أو المكوس المفروضة على الصادرات والواردات . فكانت السفينة إذا رست في الميناء صعد إليها موظفون معينون سماهم ابن جبير « الأمناء » ، ومهنتهم « تقييد جميع ما جلب فيها من بضائع ، ثم يساق التجار بعد ذلك إلى مكان التفتيش^(٣) » . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى مقاومة التهريب حتى لا تفلت البضائع من الرسوم المقررة عليها . أما القوافل فإنها لم تسكد تصل إلى حدود البلاد حتى يهرع إليها الأمناء لتحصيل الرسوم المستحقة عليها^(٤) .

وكانت الدولة تتقاضى من تجار الروم الواردين على الثغور خمس ثمن السلع ، ومن الروم ١٠٪^(٥) . وكانت نسبة الرسوم تبلغ أحياناً ٣٥٪ من قيمة السلع ، وقد تنخفض

(١) متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) الحسن الوزان (ليون الإفريقي) . Description de l'Afrique, p. 199 .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٧ .

(٤) ابن مائى : قوانين الدواوين ص ٣٤٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٢٦ .

إلى ٢٠٪^(١)، ويرجع ذلك إلى اختلاف أنواع السلع وقيمتها وجنسيات التجار . فسكان تجار المسلمين الوافدون من الشرق أو الغرب يؤدون رسوماً أقل مما يؤديه تجار المسيحيين . ولم يكن التجار الآوربيون يعاملون معاملة واحدة ؛ فكانت الرسوم الجمركية تنخفض على واردات دور الصناعة ، من الخشب والحديد بسبب حاجة الدولة إلى هذه المواد . هذا عدا رسوم إضافية يدفعها التاجر مقابل استخدام المترجمين والمحالين وعمليات الوزن^(٢) .

وإذا وصلت السلع إلى الميناء نقلت إلى الفندق أو الوكالة حيث يجري تسميتها بواسطة سماسرة تعينهم الدولة التي تستولى على ما تحتاج إليه من بعض المواد كالحديد والخشب والقطران^(٣) ، وتسمح للتجار الآوربيين بإقامة الفنادق في الموانئ الهامة ، ولكل جالية أوربية فندقها الخاص ، تقيم فيه وتحفظ فيه بضائعها . ويضم الفندق كنيسة صغيرة يقيمون فيها شعائرتهم الدينية ، وفرن يصنعون فيه الخبز ، وحمام ، ودار لصنع النبيذ . وتختار الجالية واحداً من أفرادها يطلق عليه اسم الفندقى للإشراف على الفندق ، وهو مسئول أمام الحكومة^(٤) .

ويبدو أن الفنادق لم تكن منتشرة في الموانئ لحشب ، بل كانت منتشرة أيضاً في داخل البلاد : فقد ذكر ابن حوقل أنه كانت هنالك فنادق بحله صرد والبجوم والسكريون^(٥) . ولا يبعد أن يكون عدد هذه الفنادق قد تضاعف في العصر الفاطمى بسبب رواج التجارة ووفرة رموس الأموال وشدة إقبال التجار الأجانب على ارتياد أسواق مصر^(٦) .

وكان التجار المسلمون يقيمون وكالات خاصة بهم بمثابة مخازن لبضائعهم ومنازل يقيمون بها عند ما يقيمون بمصر . وتصبح هذه الوكالات صلة بينهم وبين التجار المصريين

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣ .

(٢) Heyd, tome, I. pp. 391 — 392 .

(٣) ابن مماتي ص ٣٢٧ .

(٤) المقرئى (خطط ج ٢ ص ٩٢ — ٩٤) ومنها فندق بلال المغني حيث تباع مناديق الذهب والفضة ، وفندق الصالح ، وفندق ابن قريش ، وفندق دار التفاح حيث ترد إليه الفواكه التي تنبت في بساتين ضواحي القاهرة من التفاح والكمثرى والسفرجل . وتنقل من هذا الفندق إلى سائر أسواق القاهرة ، وفندق طرناطى وينزل به تجار الزيت الوافدون من الشام .

(٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

(٦) البراوى ص ٢٧١ .

الذين كانوا بدورهم ينشئون وكالات من هذا النوع في بلاد الشام والعراق والحجاز (١). أما القياسر فهي « كالخان العظيم تغلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض (٢) ». والقيسارية مجموعة من المباني العامة على هيئة رواق من أروقة الدير ، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ، وأحياناً مساكن (٣) . وقد كثرت القياسر في العصر الفاطمي وعمرت بالتجار الوافدين عليها من كل فج (٤) . كما كثرت الخانات بمصر في ذلك العهد (٥) وارتفعت إيجاراتها ، حتى بلغ لإيجار الخان بمدينة القسطةاط إثني ألف دينار في السنة (٦) .

وقد وصف المقدسي (٧) أسواق القسطةاط في عهد الفاطميين فقال : « به أطعمة لطيفة وأدامات (بضم الالف مع الهمة) نظيفة ، وحلاوات رخيصة ، كثير الموز والرطب ، غزير البقول والخطب ، خفيف الماء صحيح الهواء » ، وكانت أسواقها في غاية النظافة والنظام ، وتصفى فيها القياسر والدكاكين العامة بمخفاف أنواع السلع ، وقد بلغ من ازدحام أسواقها بالناس أن شبت بالجوامع . ومن أشهر أسواقها : سوق القناديل ، وقد بلغ من روعة هذه الأسواق ما ذكره المقدسي (٨) الذي شاهد المدن العظام . فقال :

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٦٤ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٤١ .

(٣) انظر مادة قيسارية في دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) أمدا المقيري (خطط ج ٢ ص ٨٦ - ٩١) بكلام مستفيض عن القياسر في مصر . ومن هذه القياسر : قيسارية ابن قريش ، وقيسارية الشرب ، وقيسارية ابن أبي أسامة ، وقيسارية بيبس ، وقيسارية سنقر الأشقر ، وقيسارية جهازركس ، وقيسارية العصف حيث يدق العصف ، وقيسارية الغنبر ، وقيسارية الجامع الطولوني ، وقيسارية ابن ميسر الكبرى حيث يباع السكتان الأبيض والأزرق والطرح ، وقيسارية عبد الباسط وبها مارستان ووكالة .

(٥) ومن أهمها خان مسرور حيث كانت تباع مهمات الأساطيل والرقيق وخان السبيل لإيواء أبناء السبيل والمسافرين بدون أجر ، وخان منكورش ، وخان الحليلي (المقيري : خطط ج ٤ ص ٩٣ - ٩٤) .

وبلاحظ أن بعض هذه الفنادق والقياسر والخانات يرجع إلى العهد المملوكي ، فان بعضها لا يزال باقياً حتى الآن .

(٦) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٨ - ٦٢٠ .

(٧) أحسن التقاسيم ص ١٩٧ .

(٨) المصدر نفسه ص ١٩٩ .

« يطول الوصف بنعت أسواقها وجلالاته ؛ غير أنه أجل أمصار المسلمين وأكبر مفاخرهم وأهل بلدانهم » .

وبرغم ازدحام الفسطاط بالسكان ، رخصت أسعارها ، فكان الثلاثون رطلا من الخبز تباع بدرهم ، والبيض تباع الثمانية بدنانق (وهو سدس درهم) . وكان الموز والرطب في غاية الرخص ^(١) . ويرد إليها من الصعيد : الأرز والصوف والتور والحل والزبيب ؛ ومن تنيس الثياب الملونة ، ومن دمياط القصب ، ومن الفيوم الأرز والكتان ، ومن القرما السمك ، كما كان يرد إليها الجلبان ودهن الفجل والزئبق ^(٢) .

وقد وصف ناصر خسرو ^(٣) مدينة الفسطاط بعد المقدسى بنحو نصف قرن ، فقال حين زارها بين سنتي ٤٣٩ و ٤٤١ هـ إن سوق القناديل كان يزخر بالنحف النادرة التي ترد إليها من جميع أنحاء العالم . وأن بها من الخانات ما لا يقل عن ألفي دكان يتراوح إيجار الواحد من دينارين إلى عشرة دنانير ، وبها من السفن أكثر مما كان يبعداد والبصرة ، كما رأى بها عمارات شاهقة بلغ عدد طبقاتها أربعة عشر طباقاً .

ومن مظاهر الحضارة بمدينة الفسطاط في عهد الفاطميين الأسواق التجارية التي كانت عامرة بخوانيت البزازين (أي بائعي الثياب) والمأكولات على اختلاف أنواعها . ومن هذه الأسواق : سوق الدجاجين حيث يباع الدجاج والأوز (بكسر الألف مع الهمزة) ، وبه حانوت العصافير وآلاف الأقفاص التي بها هذه العصافير وأنواع الطير كالفهاري والهازرات والشحارير والبيغاء والسماني .

وكان سوق « الحلاويين » من أبهج الأسواق ، يشاهد فيه الألوان وآلات النحاس الثقيلة الوزن البديعة الصنعة . ومن الحلالات المصففة ، وتسمى المجموعة عدة ألوان . وفي هذا السوق معامل يصنع فيها من أمثال الخيول والسباع والقطط وغيرها ، وتسمى « العلاليق » ، وترفع بخيوط على الخوانيت ، منها ما يزن عشرة أرتال إلى ربع رطل ، وتشتري للأطفال ، ويقبل على شرائها الناس على اختلافهم . وتتملى أسواق الفسطاط والقاهرة وريف مصر بهذا النوع من الحلوى .

(١) المصدر نفسه ١٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ٢٠٣ .

(٣) Sefar Namêh, pp 127, 145, 149, 153.

وقد وصف الحسن الوزان أسواق مدينة فاس وصفاً شائقاً فقال : إنه كان لكل حرفة سوقها الخاص ، وإن أهم هذه الأسواق كان يحيط بجامع القرويين . نذكر من هذه الأسواق على سبيل المثال سوق العدول وكان لهم ثمانون دكاناً ، وسوق الإسكافية حيث تصنع أحذية الأطفال ، وسوق النحاسين ، وسوق الفاكهة ويضم خمسين حانوتاً ، وسوق الزهور . وقد ذكر الوزان أنه إذا شاهد الإنسان كثرة الزهور وتنوعها اعتقد أنه إنما يشاهد أحسن البساتين وأجمل زهور الدنيا ، وبعبارة أخرى خيل إليه أنه يشاهد لوحة تضم أجمل وأزهى الألوان .

ومن أهم أسواق مدينة فاس سوق الحفائب والمحافظ التي تصنع من الجلد الفاخر ، وقد بلغ عدد حوانيته الثلاثئة .

ومن أسواق فاس سوق الجزارين وسوق الثياب المصنوعة من صوف المغرب ، وسوق الأسلحة ، وسوق السماكين ، وسوق الدجاج ، وسوق الدقيق ، وسوق الخيوط التي يصنع منها نسيج القنب والسكتان والقطن ، وسوق صانعي سروج الخيل ، وسوق الحدادين ، وسوق صانعي الرماح . وهناك أحياء تباع فيها الأغذية الصوفية والثياب الحريرية كالقلانس والمراتب والزراقي الجلدية الصغيرة ، ويشغل الخياطون ثلاثة أحياء . وهناك حتى خاص بطي وخياطة العمام ، وحيان لبائعي المنسوجات والقمصان والثياب النسوية ، وهؤلاء هم أغنى تجار فاس ، ويجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة . ثم يأتي حتى تباع فيه الملابس المصنوعة من النسيج المجلوبة من أوروبا ، وأخيراً يأتي حتى تباع فيه القوط والحصير والقمصان البالية .

وقد ذكر الحسن الوزان عند كلامه على سوق العطارين بمدينة فاس أنه كان يشغل شارعاً مستقيماً به نحو مائة وخمسين حانوتاً . وكان هذا الشارع يغلق من طرفيه بيايين جميلين يمتازان بمتانتهم . وكان العطارون يدفعون أرزاق الحرس الذين يجوبون الشارع خلال الليل ومعهم كلاب وفوانيس (١) .

وذكر المراكشي (٢) أن الخراج بلغ في عهد الموحدين وقر مائة وخمسين بغلام إفريقية وحدها ، عدأ بجاية وأعمالها ، وتلمسان وأعمالها ، وأن عبد المؤمن بن علي وجه

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٥٥ .

همه لتشجيع الزراعة وإصلاح الحالة الاقتصادية ببلاد الأندلس، وإن الازدهار الاقتصادي الذي عرفه المغرب في عهد الموحدين يرجع إلى اتساع رقعة الدولة الموحدية واستتباب الأمن واستقرار الحياة ، وتشجيع التجارة والصناعة التي تتمثل في إنتاج الأسلحة وفي البناء والتشييد ونشر الثقافة وغيرها من مظاهر العمران (١) .

وقد روى عباس بن إبراهيم (٢) عن الإدريسي (٣) الذي وصف مراكش في عهد المرابطين بقوله : « وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة » .

العملة :

وإلى الصين يرجع الفضل في إدخال العملة المعدنية والعملة الورقية التي أطلق عليها المسلمون اسم الورق (بفتح الواو وكسر الراء) وأخذها عنهم الأوروبيون . ومن المرجح أن الصين قد عرفت هذه النقود قبل الميلاد بنحو تسعة قرون . ويشك بعض في هذا الرأي ، فيزعم أن العملة المعدنية اخترعت في بلاد اليونان أولاً ، ويذكر بعض آخر أن انتقال هذا النوع كان نتيجة غزوات المغول في القرن الثالث عشر الميلادي .

وكانت العملة المستعملة في الأسواق : العملة الذهبية وهي الدينار ، وهي مشتقة من ديناريوس Denarius اليونانية ، والفضية وهي الدرهم وهو فارسي الأصل . وكان الدينار شائعاً في البلاد الغربية للدولة الإسلامية ، وخاصة في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية قبل الإسلام . أما الدرهم فكان استعماله شائعاً في العراق وفارس . إلا أن استعمال الدينار لم يلبث أن أصبح في القرن الرابع الهجري شائعاً في بلاد العراق وغيرها من البلاد الإسلامية .

وكان الدينار يختلف من حين إلى حين ومن بلد إلى بلد . فتارة يساوي ١٠ دراهم ، وتارة يساوي ١٣ درهما ، وتارة أخرى يساوي ١٥ درهما .

ومن وسائل التعامل الصك . وهو أشبه بالشيك الآن . وقد ذكر الخوارزمي (بضم الخاء وفتح وكسر الراء وسكون الزاي) في كتابه مفاتيح العلوم أن الصك كان يجمع فيه أسماء المستحقين وعددهم وما يستحقونه من المال . ثم يوقع الخليفة أو السلطان أو الأمير

(١) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ ص ٤ .

(٢) الإعلام فيمن حل مراكش وأغيات من الأعلام ج ١ ص ٦٣ ومايليها .

(٣) نزهة المشتاق (نصوص بعنوان المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس) ص ٦٧ .

بتوقيعه في آخر الصك باعتياد دفع هذه الأرزاق أو الرواتب . وكثيراً ما ذكر الفردوسي لفظ « شيك » .

ومع هذا الاختراع انتقلت الألفاظ والاصطلاحات الخاصة به ؛ وهي ترجع إلى أصل فارسي أو عربي . وما زالت هذه الصكوك متداولة في اللغات الأوروبية حتى اليوم . ففي اللغة الهندية مثلاً (ويطلق عليها الأردية بضم الالف مع الهمزة وفتح الياء مع التشديد) تجد أقال (بفتح الالف الأولى مع الهمزة) وهي حوالة (بفتح الحاء) العربية .

وقد ذكرنا في الباب الأول أن الملاحين الذين نقلوا السلطان ملكشاه السلجوقي هو وجيوشه عبر نهر جيحون تسلموا من وزيره نظام الملك حوالات تسلموا قيمتها من العامل السلجوقي بانطاكية ليدركوا مدى اتساع أملاك هذا السلطان .

وقد حرم الإسلام التعامل بالربا ، ولكن اليهود والنصارى أباحوه لأنفسهم في بعض الأحيان . ومن المعلوم أن التجارة في العصور الإسلامية الأولى ، بل إلى عهد قريب ، كانت تقوم على الثقة المتبادلة .

الباب العاشر

الثقافة

١ - مراكز الثقافة الإسلامية

كان من أثر كثير من الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية أن نشطت الحركة الفكرية وراجت الثقافة وزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم . ومن ثم نرى صدق هذه النهضة في بلاط كل من الغزنويين في الشرق والفاطميين والأيوبيين في مصر والأمويين في الأندلس ، والمرابطين والموحدين في المغرب .

أضف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية . وخير مثل لذلك هذه الآثار التي خلفها العلماء من السنين والشيعة ، وما كان لها من أثر في النهضة العلمية التي يتميز بها هذا العصر على الرغم مما انتاب العالم الإسلامي بوجه عام من تفكك وانحلال ، وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف ووهن ، ولو أن قيام هذه الدول قد ساعد على زيادة الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار العلم تبعاً لذلك .

كانت هناك في العصر العباسي الثاني مراكز عدة للثقافة جذبت إليها رجال الأدب منها :
١ - أصبهان والري حيث أقام بوجه عام صاحب إسماعيل بن عباد الذي تقلد الوزارة لمؤيد الدولة ابن ركن الدولة البويهى . وكان بلاط بنى بويه هنالك كعبة يؤمها العلماء ورجال الأدب .

٢ - البلاط الساماني في بخارى حيث زخرت مكتبة نوح بن نصر الساماني بكثير من الكتب النادرة .

٣ - بلاط شمس للمعالى قابوس بن وشمكير في طبرستان القريبة من بحر قزوين .

٤ - بلاط خوارزم شاه مأمون الثاني بن مأمون في خيوة . وقد آلت بلاده إلى حكم محمود الغزنوى .

٥ - بلاط السلطان محمود الغزنوى في غزنة . وكان من أحسن السلاطين ميلاً للأدب وتشجيعاً للعلماء .

٦ — بلاط السلاجقة في مرو حاضرة خراسان حيث أقام أمراء السلاجقة ولا سيما في عهد السلطان سنجر ثم في عهد أمراء الخوارزميين . وقد أقام ياقوت الحموي طويلاً في هذه المدينة وأخذ العلم على علمائها وأفاد من خزائن كتبها . وقال إن مرو « أخرجت من الأعيان وعلما الدين والأركان ما لم تخرج مدينة مثلهم » . كما أطنب ياقوت في وصف خزائن الكتب في مرو حين فارقها أمام غارات التتار سنة ٦١٦ هـ التي قال عنها : « وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة ^(١) » .

٧ — بلاط الحمدانيين في الموصل وفي حلب ولا سيما في عهد سيف الدولة الحمداني .

٨ — بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين في مصر . وقد عاد للفسطاط رونقها وبهاؤها بعد تخريب مدينة القطائع على أثر زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ، فنبغ في عهد الإخشيديين كثير من الفقهاء والعلماء والمؤرخين والشعراء . وبذت القاهرة الفسطاط والقطائع في عهد الفاطميين ، وأصبحت مساجد عمرو وابن طولون والأزهر والحاكم مراكز هامة للثقافة ، ولا سيما بعد أن حول يعقوب بن كلس الأزهر في سنة ٣٧٨ هـ إلى جامعة تدرس فيها العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية . وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة ، وألحقوا بها مكاتب تحتوى على مئات الألوف من المصنفات .

٩ — وقد نافست قرطبة : بغداد والقاهرة وبخارى وغزنة وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية ، وأصبحت حاضرة الأمويين في الأندلس سوقاً نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب ، وجذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا إليها للتزود من الثقافة الإسلامية .

٢ — معاهد الثقافة

(١) المسجد :

كان المسجد أعظم معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة وغيرها من العلوم ، وأصبح كثير من المساجد مراكز هامة للحركة العلمية ، وانصرف بعض فقهاء المسلمين لطلب العلم في المسجد النبوي الشريف حيث بنى الرسول العترة ، وهى مكان مظلل فى شمالى المسجد يأوى إليه فقهاء المسلمين الذين حبسوا أنفسهم لطلب العلم .

(١) أظهر لفظ مرو في معجم البلدان لياقوت .

وكان المسجد فوق اعتباره مكان العبادة والمسكان الذى يؤم فيه الخليفة الناس في الصلاة ، مركزاً لإدارة شئون الدولة أو الولاية . وكان المنبر أشبه بالعرش ، يلقي منه بيان الخليفة لسياسة الدولة ، ويلقى فيه خطبته الأولى ويبين فيها سياسته في الحكم . وفي المسجد تذاع القرارات الهامة التى تتعلق بالصالح العام ، ويستقبل الخليفة السفراء ويدبر شئون الدولة . والمسجد هو المسكان الذى يتخذة علماء التفسير والحديث مقرأ لهم ، وهو المعهد الذى يلتقى فيه الأطفال اللغة العربية وأصول الدين ، وهو المسكان الذى اتخذة القضاة لعقد جلساتهم ، بل لقد اتخذ بعض المساجد أما كن يلجأ إليها المسلمون ويصدون منها الأعداء . وسرعان ما فقدت المساجد أهميتها واقتصرت على إقامة الصلوات الخمس وذكر اسم الخليفة في الخطبة ، وذلك بعد انتشار المعاهد والجامعات . على أن بعض المساجد ما يزال حتى الآن معاهد دراسية تدرس فيها العلوم الدينية ، ويقوم بذلك أئمة المساجد . وكان مسجدا عمرو وابن طولون من أهم مراكز الثقافة في عهد الطولونيين والإخشيديين ، ثم أصبح الأزهر في عهد الفاطميين مركزاً هاماً للثقافة ومثابة للعلماء وخاصة فقهاء المذهب الشيعي . وأهم خصائص الأزهر أنه وإن كان قد بدأ كغيره من المساجد ، لم يلبث أن أصبح جامعة يلتقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحذب الكثير من مختلف العلوم والفنون . وكان يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله الفاطمي أول من فكر في تحويل الأزهر إلى جامعة . وكان العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء والسلاطين والأمراء يشجعون الطلاب من وطنيين وأجانب ، فيقدمون إليهم المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل الراحة من غير أجر ، وأصبح يدرس في الأزهر التوحيد والفقه واللغة والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم (١) .

ومن هذه المعاهد الثقافية مسجد القرويين بفاس . وقد أنشئ حول منتصف القرن الثالث الهجري ، ثم أصبح مركزاً هاماً للثقافة الإسلامية . كما أصبحت هذه الجامعة شاهداً على ديمقراطية التعليم وعلى طرق التدريس ومراحل التعليم وتخصيص كرامى الاستاذية وشروط التعيين في وظائف التدريس ومراميم تعيينهم ودرجاتهم العلمية والإجازات الفخرية ومجالس أوصياء الكليات ، والمسكن الجامعية للأستاذة والطلاب والمكتبات الجامعية . وفي هذه الجامعة الإسلامية وضع أساس التقاليد الجامعية التى تسير عليها الجامعات في الأمم الراقية ، كحفلة افتتاح الدراسة ، وحفلة التخرج ، وسلطان الطلبة

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٣٦٣ .

وغير ذلك من الشواهد التي تدل دلالة واضحة على أن المسلمين سبقوا الأوروبيين في ديمقراطية التعليم . ومن ثم ظهرت بجامعة القرويين بفاس طائفة من العلماء الذين تفوقوا في مختلف العلوم والفنون .

وقد جذبت مساجد قرطبة الأوروبيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية . ومن ثم ظهرت فيها طائفة من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين وغيرهم .

(ب) الزاوية :

ومن معاهد العلم « الزاوية » ، وهي مأخوذة من الفعل انزوى ينزوى ، وبمعنى اتخذ ركناً من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد . وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى هذا الانزواء ، فأنشئوا لهم مساكن ملحقة بالمسجد ، كما نشاهد ذلك ماثلاً حتى الآن ببعض مساجد فاس والقاهرة . ثم تطورت الزوايا فيما بعد إلى أبنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة من المدينة في شكل دور أو مساجد صغيرة يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس ، ويتعبدون فيها ويعقدون بها حلقات دراسية في علوم الدين وما يتصل بالدين من العلوم النقلية والعقلية . كما يعقد فيها مشايخ الطرق الصوفية حلقات الذكر . وتطلق الزاوية أيضاً على المعهد والرباط الذي تنشئه إحدى الفرق الصوفية كالقادرية والتجانية والسوسية والشاذلية والخلوتية . وتنتشر الزوايا في كثير من أرجاء المدن والقرى .

وتطلق كلمة زاوية في المغرب على مسجد خاص بطائفة من الصوفية أو ضريح لأحد الأولياء ، تتصل بها غالباً مقبرة يدفن فيها بعض من لهم علاقة بالطريقة أو قرابة بالولي . وكثيراً ما تلحق بالزاوية حجرات ينزل فيها الضيوف والمنقطعون للعلم أو العبادة . وكانت الزاوية المغربية « مدرسة دينية وداراً لضيافة الأعراب » .

وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) انتشرت الزوايا في المغرب ، وأنشئت بها كتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم الدين ومبادئ العلوم ، الأمر الذي حدا بملوك بني مرين أن يطوروا هذه الكتاتيب إلى مدارس وكليات ، ليسهموا في الحركة العلمية بجانب جامعة القرويين بفاس وغيرها من مدارس الزوايا في داخل المدن وفي خارجها وقد خصص ابن مرزوق التلمساني المتوفى سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م) الفصل الثاني

والأربعين من رسالته عن أبي الحسن المريني المسماه « المسند الصحيح الحسن » للسلام على الزوايا التي شيدها هذا الملك للمغرب^(١).

وقد تطورت الزوايا بالمغرب في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) حين اشتدت وطأة النصارى على المسلمين في الأندلس ، وامتدت أطباعهم إلى احتلال السواحل المغربية . ولما ضعفت الدولة عن الدفاع عن البلاد ، أخذت الزوايا تدعو إلى الجهاد ومقاومة الأجنبي ، وبلغت أوج ازدهارها في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، واستطاعت أن تجلس على العرش المغربي أسرة الشرفاء السعديين ، وأن تقف معهم جنباً إلى جنب في الجهاد ضد المسيحيين المحتلين . وقد وقعت هذه الزوايا إلى طردهم من بعض الثغور المغربية .

كذلك تطورت الزوايا في المغرب في خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة (السادس عشر والسابع عشر للميلاد) ، حتى أصبح عددها يقرب من عدد المساجد أو يفوقها ، واختلط فيها أمر الصالحين بمدعى الإصلاح من ذوى الأغراض الفاسدة والمشعوذين . على أن هنالك بعض الزوايا التي لم يحد أهلها عن سبيل الدين وأجمع الناس على صلاحهم واستقامة سلوكهم ، وظهرت نتائج أعمالهم ، كالدلانيين والفاسيين والناصريين . ولم تكن هذه الزوايا الثلاث بمعزل بعضها عن البعض الآخر ، على الرغم من اختلاف مواقعها ، وإنما كان يجمع بينها التزاور في حل المشاكل الاجتماعية . ومن المقرر عند الأسيان أن العلم إنما أحياه بالمغرب ثلاثة من الشيوخ هم : سيدى محمد بن أبى بكر الدلائي ، وسيدى محمد بن ناصر في درعة ، وسيدى عبد القادر الفاسي^(٢) . وإلى جانب هذه المراكز الدينية الهامة كانت زاوية العياشية ، وهى ربيعة الدلائيين ، تقوم بدور مماثل في منحدرات الأطلس المطلقة على أراضي تافيلالت ووحدات الصحراء ، ولا تزال محتفظة بمكتبتها التي تزخر بكثير من الكتب إلى اليوم .

(ح) الكتاب والمدرسة :

والكتاب مشتق من كتب ، والمكتب (بضم الميم وسكون الكاف وكسر التاء) أو المكتب (بضم الميم وفتح الكاف وكسر التاء مع التشديد) هو الذى يعلم التلاميذ الكتابة .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، العدد التاسع ، المجلد العاشر من ٣٣٢ .

(٢) محمد بن أحمد الفاسي : المورد الهني ، مخطوط ، الخزنة العامة بالرباط ورقة ٢ ب .

ولم تكن هناك مكاتب خاصة يتلقى فيها التلاميذ العلوم الدينية بانتظام ، بل كانوا يحتفلون إلى المسجد . ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . وكانت المدرسة الأولى بهذا المعنى هى المدرسة البيهقية فى نيسابور^(١) .

وقد ذكر ابن الأثير أن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) أسس المدرستين المشهورتين اللتين تعرفان باسمه فى بغداد ونيسابور ، وتعرف كل منهما باسم المدرسة النظامية . كما أسس نظام الملك المدرسة الحنفية ببغداد . وكان الإمام الغزالى يقوم بالتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد ثم فى نيسابور فى أواخر القرن الخامس الهجرى . ولما زار السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك بغداد سنة ٤٧٩/١٠٨٦ ، زار الوزير المدرسة النظامية وجلس فى خزانة كتبها وطالع بعض الكتب وألقى على الطلاب درساً فى الحديث وأملى عليهم جزءاً آخر^(٢) ، كما أجرى هذا الوزير الجرايات والمخصصات المالية على مدارسه وأملى الحديث ببغداد وخراسان وغيرهما^(٣) ، وإن دل هذا على شئ فإنا بدل على أن نظام الملك كان من رجال العلم المشهورين فى ذلك العصر ومن أكبر المشجعين على نشر الثقافة عامة والثقافة الإسلامية خاصة .

كما بنى نظام الملك الرصد وعين له جماعة من أعيان المنجمين على رأسهم عمر الخيام . وكان نظام الملك يجمع بداره الفقهاء والعلماء الذين كانوا يلقون منه كل مظاهر التكريم والتشجيع . وقد طلب إليه السلطان نظام الملك أن يكتب له كتاباً فى السياسة ، فألف كتابه المشهور « سياسة نامه » الذى يشير إليه الفردوسى باسم « سيرة الملوك » . وقد ذكر ابن خلكان^(٤) أن مجلس نظام الملك كان عامراً بالفقهاء والصوفية ، وأنه كان يصدق الأموال على الصوفية .

وقد أخذ نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى هذا النظام عن الفرس فى القرن السادس الهجرى ، ثم نقله صلاح الدين الأيوبي إلى مصر حيث أبطل المذهب الشيعى

(١) القرطبي : خطط ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٢) ابن الأثير : السكامل ج ١٠ ص ٥٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٧٧ .

(٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٩٦ .

مذهب الفاطميين وأقام المذهب الشافعى مقتدياً فى ذلك بنور الدين محمود الذى بنى عدة مدارس للشافعية والحنفية فى دمشق وحلب وغيرهما^(١).

وقد عنى صلاح الدين الأيوبنى عناية خاصة ببناء المدارس ومن مدارس الأيوبيين فى مصر مدارس الناصرية والقمحية والسيفية ، والمدرسة الفاضلية التى أسسها فى سنة ٥٨٠ هـ القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى الذى تقلد ديوان الإنشاء فى عهد الخليفة الحافظ الفاطمى (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) واتخذ صلاح الدين وزيراً له . وكان بهذه المدرسة مكتبة تشتمل على مائة ألف مجلد . ومن المدارس التى أنشئت فى عهد الأيوبيين « دار الحديث » التى بناها الملك الكامل « بين القصرين »^(٢) ، وتعرف باسم المدرسة الكاملية .

(٤) المارستانه :

وقد اهتم العباسيون بنشر العلوم الطبية ، فأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية التى يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد فى موسم الحج ، حيث يعرضون نتائج أبحاثهم كما يعرضون نباتات البلاد الإسلامية ويصفون خواصها الطبية . وقد أصبحت بغداد فى الشرق وقرطبة فى الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية . وقد اقتبس المسلمون فكرة البيمارستان عن السريان الذين تفوقوا فى مهنة الطب فى العصر العباسى الأول ، وقد وضع بعض الخلفاء والولاة فى المساجد خزائن للأدوية والأشربة وعينوا لها الأطباء لإسعاف المصلين ، وبنوا المارستان للبرضى وأباحوها للناس من غير تمييز فى الأديان والمذاهب ، وقدموا لهم العلاج والطعام بدون مقابل .

ومن أحسن الأمثلة لذلك المارستان الذى أسسه أحمد بن طولون فى أرض العسكر سنة ٢٥٩ هـ وأدخل عليه ضروباً من النظام جعلته فى مستوى أرقى المستشفيات فى الوقت الحاضر . وفى سنة ٣١١ هـ أسندت إمارة مارستان الرى إلى محمد بن زكريا الرازى أشهر أطباء عصره ، ثم أسندت إليه إمارة مارستان بغداد فى عهد الخليفة المستنصر (٣١١ هـ) ،

(١) المقرئى خطط ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٧ — ٣٥٩ المقرئى : خطط ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) يعنى القصر الشرقى الكبير الذى بناه جوهر للخليفة المعز الفاطمى والقصر الغربى الصغير

الذى بناه المعز الفاطمى .

ووقد بنى عضد الدولة البويهى (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) كثيراً من المارستانات ، نذكر منها المارستان العنبدى ببغداد^(١) ، وأسس الأيوبيون فى مصر كثيراً من المارستانات^(٢) ، وأنشأ يعقوب المنصور الموحدى بالمغرب المارستان فى مدينة مراکش ، وكان يتفقده بعد صلاة الجمعة فيعود المرضى بنفسه^(٣) .

(هـ) بيت الحكمة :

ذكرنا من قبل أن كسرى أنوشروان أسس فى جنديسابور من أعمال خوزستان داراً للعلم بقى أثرها حتى قامت الدولة العباسية . وكان بيت الحكمة الذى يرجع أن يكون هارون الرشيد هو الذى وضع أسسه قد ألحق به ابنه المأمون مرصداً ، وخزانة أمداه بالكتب والمصنفات حتى أصبحت من أكبر خزائن الكتب فى العصر العباسى .

وقد نهض المذهب الإسماعيلى على أيدى الفاطميين نهضة بعيدة الأثر من حيث استخدام الدعوة الإسماعيلية لمصلحة الدولة الفاطمية وبسط نفوذها ، فاعتمد عبيد الله الفاطمى أول الخلفاء الفاطميين على المدارس التى أطلق عليها اسم مدارس الدعوة لنشر عقائد المذهب الإسماعيلى بين أشياعه سرّاً . وقد راجت مدارس الدعوة فى المهديّة حاضرة الدولة الفاطمية الناشئة فى عهد عبيد الله المهدي ، ثم راجت فى المنصورية حاضرة هذه الدولة فى عهد حفيده المنصور ، ثم فى القاهرة فى عهد المعز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين . وقد عرفت هذه المدارس فى مصر باسم «مدارس الحكمة» التى كان لها شأن كبير فى نشر الثقافة الإسماعيلية . ومن هذه المدارس «دار الحكمة» التى أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله . ولم يكن هذا النوع من المدارس مقصوراً على القاهرة وحدها ، وإنما جاوزها إلى أقاليم الدعوة الرئيسية أو بحارها وجزرها كما كان يطلق عليها فى ذلك الحين^(٤) .

(و) قاضى القضاة وراعى الدعاة :

وقد عمل دعاة الفاطميين فى مصر على ترويج المذهب العلنى^(٥) بين السنيين والشيعة ،

(١) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج ١ ص ٤١٨ .

(٢) انظر لينبول : سيرة القاهرة (ترجمة المؤلف) ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٣) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٤) Browne, Lit. Hist. of Persia, vol. 1, pp. 305—306

نقلاً عن بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ٢٠١ وما يليها .

(٥) للفاطميين دعوة علنية يذيعونها بين الناس ولهم تعاليم سرية يلقونها للخاصة من الدعاة .

بحيث يرضى هؤلاء ولا يثير سخط السفين . لذلك نرى جوهرأ والمعز يدخلان عبارات مذهبية كعبارة « حتى على خير العمل » في الآذان والقنوت (١) في صلاة الجمعة ، والدعاء من فوق المنابر لآل بيت الرسول وللخليفة الفاطمي القائم بالآمر ، كما جهروا بالبسملة في خطبهم وصلاتهم ، إلى غير ذلك . وبما بلغت النظر أن المؤرخين قد تصدوا لهذه التغييرات المذهبية . أما الدعوة السرية فلم يتناولها أحد بالبحث ، بل إن المؤرخين يكادون يجمعون على أن دراسة عقائد المذهب الإسماعيلي وأصوله لم تبدأ إلا في أواخر عهد الخليفة العزيز بالله ، وكان الدعاة الفاطميون يتناولونها بالبحث والدراسة .

وقد بلغ من عناية الفاطميين بنشر عقائد مذهبهم أنهم فتحوا أبواب قصورهم لانصارهم من الإسماعيلية ، وأصبح داعي الدعاة يشرف على مجالس الدعوة .

وقد أسندت رئاسة الدعوة الإسماعيلية في عهد الفاطميين إلى موظف كبير أطلق عليه « داعي الدعاة » . وكان يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه . وكثيراً ما كانت وظيفة قاضي القضاة وداعي الدعاة تسند إلى رجل واحد . ويساعد داعي الدعاة في نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيباً ، وله نواب ينوبون عنه في البلاد . وبذلك يعتبر الصلة بين الخليفة وأتباعه من الإسماعيلية .

ومن أهم أعمال داعي الدعاة رئاسة الدعوة الإسماعيلية ، وأخذ العهد على المريدين ، إما مباشرة أو بواسطة نوابه في مصر وفي غيرها من البلاد التي ساد فيها المذهب الإسماعيلي ، والإشراف على المحاضرات التي تلقى بمجالس الدعوة . بل لقد بلغ من عناية الفاطميين بهذه المجالس أن المحاضرات التي يلقيها داعي الدعاة ونوابه كانت تعرض على الخليفة لإقرارها قبل أن تلقى على الناس (٢) . وهذا يدل على أن الخلفاء الفاطميين كانوا بصفة عامة من أئمة الناس بعقائد المذهب الفاطمي وتعاليمه .

(١) يقرأ القنوت بعد الركوع في الركعة الثانية في صلاة الصبح عند الشافعية ، ويقرأ قبل الركوع في الركعة الثالثة في صلاة الوتر عند الأحناف ويبدأ القنوت بالعبارة الآتية : اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك وتوب إلينا ونؤمن بك وتتوكل عليك ونثني عليك الخير كله . أما عند الشيعة فإن القنوت يبدأ بعد الركعة الأولى أو قبل الركوع مباشرة أو عند الوقوف بعد الركعة الثالثة من الوتر (بعد صلاة العشاء) . ويكون القنوت في أبسط صورته بعبارة « إنا لك فانتون » .

(٢) المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، السيرة المؤيدية ، مخطوط بجامعة القاهرة ص ١٢١ .

ومن خصائص داعى الدعاة جمع النجوى من « المؤمنين والمؤمنات » يعنى الإسماعيلية (وكانت ثلاثة دراهم وثلاثا) ، وتدوين اسم من يؤدى أكثر من المال المقرر للنجوى . ومن سراة الإسماعيلية من دفع النجوى ثلاثة وثلاثين ديناراً . وفي هذه الحالة يعطى شارة فاطمية هى عبارة عن رقعة مزينة بتوقيع الخليفة تحمل العبارة الآتية : « بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك » (١) .

وقد خصص لداعى الدعاة مكان بقصر الخليفة يشرف منه على نشر الدعوة ، فيتصل بالدعاة ويوزعهم بتعليماته ، ويقدمون له فى يومى الإثنين والخميس ما أعدوه من المحاضرات التى تلقى فى أصول المذهب الإسماعيلى .

وكان داعى الدعاة يعقد المجالس ويقرأ على الناس مصنفاته فيحاضر الرجال ، كما يعقد فى الأزهر مجلساً خاصاً للنساء يسمى مجلس الدعوة يلقتن فيه أصول هذا المذهب . وكانت هذه المجالس تفرد للناس كل حسب طبقته ؛ فكان لأهل البيت مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، ولخدم القصور مجلس ، ولللحوم وخوادم نساء القصور مجلس خاص بهن .

وإذا فرغ داعى الدعاة من إلقاء محاضراته على أنصار المذهب الإسماعيلى ، أقبلوا عليه يقبلون يده ، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذى يحمل توقيع الخليفة من محاضراته .

ومن تقلد منصب داعى الدعاة : أسرة أبى حنيفة النعمان المغربى ، وابنه على بن النعمان ، والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى .

وكان قاضى القضاة يلى الوزير فى الرتبة ، وتعلو رتبته رتبة داعى الدعاة . وكان بعض فقهاء الإسماعيلية يجمعون بين المنصبين . ومما يدل على صحة هذا القول أنه إذا انعقد مجلس الملك فى قاعة المذهب بقصر الخليفة ، وأخذ زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب أمكنتهم عند الأبواب ، وأخذ غيرهم أمكنتهم المخصصة لهم ، أخذ الامناء فى تقديم من ينبغى تقديمه للخليفة . فكان الوزير أول من يقدم إلى الخليفة ، فيحيى أمير المؤمنين بلثم يديه وطرف رداً ، فيأذن له الخليفة بوسادة يجلس عليها إلى جانب الخليفة الأيمن . ثم يتلو قاضى القضاة ، فيقترّب من الخليفة ويحييه برفع يده اليمنى ويشير بسبحته قائلاً : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » . وبهذا يتميز على سائر أعضاء

المجلس اعترافاً بمركزه الدينى الرفيع . ثم يسمح لزعماء الطوائف المختلفة بتحيةة الخليفة باسم جماعاتهم (١) .

كما يتضح ما كان يتمتع به قاضى القضاة من مركز رفيع فى عهد الفاطميين من احتفال الخليفة بصلاة الجمعة . فقد كان قاضى القضاة قبل وصول الخليفة إلى الجامع يحمل المبخرة ، فيبخر المنبر والقبة التى يقف تحتها الخليفة عند إلقاء الخطبة . وقاضى القضاة هو الذى يدخل على الخليفة وهو فى قاعة الخطابة فيشير بيده الصلاة ، وقاضى القضاة هو ذلك الموظف الكبير الذى يقف مع الوزير على باب هذه القاعة ، وهو الذى يلى الوزير فى التبليغ عن الخليفة عند إقامة الصلاة . وإذا خرج الخليفة من الجامع بعد الصلاة سار الوزير عن يمينه ، وسار قاضى القضاة عن يساره يتبعه داعى الدعاة (٢) .

(ز) المكتبات :

لما نشطت حركة الترجمة والتأليف فى العصر العباسى وتقدمت صناعة الورق ، تبع ذلك ظهور كثير من الوراقين الذين يقومون بنسخ الكتب ، واتخذ العلماء والأدباء أماكن يجتمعون فيها للتزود من العلم ، فكثرت المكتبات التى تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية وغيرها ، وأصبحت هذه المكتبات فيما بعد من أهم مراكز الثقافة الإسلامية . وقد عمل الخلفاء العباسيون على إمداد بيت الحكمة الذى قيل إن هارون الرشيد هو الذى وضع أساسه كما ذكرنا ، بمختلف الكتب ، وظلت هذه الخزنة قائمة حتى استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٨ — ٥٠٠ .

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٨١ .

وذكر الفلقشندي أن الخلفاء الفاطميين كانوا يركبون فى مناسبات متعددة ، لكنهم عنوا عناية خاصة ببعض المواكب التى كانت تسمى بالمواكب العظام ، وهى : موكب أول العام الهجرى ، وأول رمضان ، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيذى القطر والأضحى ، وجبر الخليج (الفلقشندي ج ٣ ص ٥٠٣ — ٥٢٠) . أما المواكب الأخرى فكانت تسمى بالمواكب المختصرة ، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات فى السنة عند الركوب لمناظرهم ويكون ذلك عادة فى أيام السبت والثلاثاء (شرحه ج ٣ ص ٥٢١) .

حسن إبراهيم حسن : الأزهر : تاريخه وتطوره (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٢ — ٢٧ .

ومن أشهر المكتبات في العصر العباسي الثاني مكتبة نوح بن نصر الساماني (١)، ومكتبة صاحب إسماعيل بن عباد (٢). كذلك نقل السلطان محمود الغزنوي كثيراً من المؤلفات إلى غزنة، واحتوت مكتبة مؤيد الدين بن العلقمي وزير المستعصم آخر خلفاء العباسيين ببغداد على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب (٣).

وقد أشاد ياقوت الرومي بمكتبات مدينة مرو حاضرة خراسان التي استوطنها مدة طويلة، وقال إنها كانت عامرة بالكتب ولا سيما في عهد السلطان سنجر السلجوقي، وإنه كان بها عشر خزائن لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجوده، منها خزانتان في الجامع نذكر منها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر الزنجاني، وكان فقاعياً للسلطان سنجر (٤). وكانت تحتوي على اثني عشر ألف مجلد، وخزانة نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي. وقد نوه ياقوت بالفوائد الجليلة التي ساعدته على جمع مادة كتابه معجم البلدان وغيره فقال: «فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبها كل بلد وأهاني عن الأهل والولد. وأكثرت فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعت فهو من تلك الخزائن». وقد بلغ من ولع ياقوت وإفادته من الكتب التي زخرت بها المكتبة «ما شغله عن الأهل والوطن، وأذهله عن كل صنى وسكن، فظفر منها بضالته المذشودة وبغية نفسه المفقودة» (٥).

وكذلك اتخذ الفاطميون في مصر من مساجدهم وقصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة، وألحقوا بها مكتبات تحتوي على مئات الألوف من المصنفات. وقد أمدت الدولة الفاطمية مكتبة «دار العلم» التي كانت متصلة بدار الحكمة بكثير من المؤلفات للاطلاع والنسخ والبحث والدراسة، وأبيع للناس الانتفاع بما يحتاجون إليه من المواد والأقلام والأوراق والمساند دون مقابل.

كما استفادت مكتبة القصر الشرقي في القاهرة من غيرة يعقوب بن كاس وزير العزيز بالله

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٣.

(٢) الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٣٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ذكر ياقوت (انظر لفظ مرو في كتابه معجم البلدان) الزنجاني كان في مبدأ أمره يبيع الفاكهة والريحان ثم سار شرايياً لسنجر.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٨٤ في ترجمته لياقوت.

الفاطمي الذي عرف بولعه بجمع الكتب التي نقل عدد عظيم منها من داره الخاصة إلى مكتبة القصر الخلافي بعد وفاته . وكان بمكتبة القصر عدد من الرفوف مقسم إلى أقسام ، لكل قسم منها باب . وقد روى المقرئزي^(١) أنه كان بالقصر الشرقي أربعون خزانة منها خزانة تحتوى على ١٨٠٠٠ مجلد . وكانت هذه المكتبة — كما يقول أبو شامة^(٢) — « من عجائب الدنيا » ، حتى لقد قيل إنه كان فيها ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبري . وقد اختلف المؤرخون في عدد الكتب التي كانت بمكتبة القصر ؛ فذكر ابن واصل أنها اشتملت على ١٢٠,٠٠٠ مجلد ، وذكر ابن أبي طي وابن الطوير وعماد الدين الأصفهاني^(٣) أن هذا العدد بلغ ٢٠٠,٠٠٠ ، ٦٠٠,٠٠٠ ، ٢,٠٠٠,٠٠٠ على التوالي . وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في عدد الكتب التي كانت بمكتبة القصر الشرقي ، فهناك مسألتان جديرتان بالملاحظة تحملان على الظن بأن عدد هذه الكتب بلغ ٦٠٠,٠٠٠ على الأقل على ما ذكره ابن الطوير .

والملاحظة الأولى أنه لما مات الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) نقل الخليفة الأمر من قصره ٥٠٠,٠٠٠ مجلد إلى مكتبة القصر^(٤) .

والملاحظة الثانية أنه بعد سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) حل من مكتبة القصر ١٠٠,٠٠٠ مجلد إلى المدرسة الفاضلية التي أسسها القاضي الفاضل عبد الرحيم ابن علي اليسانى سنة ٥٨٠ هـ^(٥) .

ومع ذلك فقد عانت المكتبة الكبرى في القصر ما عاناه غيرها من المكتبات من المصائب التي حلت بالخلافة الفاطمية في عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٧٨ هـ) وعند سقوط الدولة الفاطمية (٥٦٧ هـ) وفي غضون المجاعة التي أصابت البلاد في عهد دولة المماليك البحرية سنة ٦٩٤ هـ (١١٩٤ — ١١٩٥ م)^(٦) .

(١) خطط ج ١ ص ٤٠٩ .

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) ج ١ ص ٢٠٠ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٦٨ .

(٤) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٥٧ .

(٥) المقرئزي : خطط ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٦) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٢٨ — ٤٣٥ .

وقد انتقل كثير من التراث اليوناني والفارسي الذي استحوذ عليه العباسيون إلى قرطبة بفضل جهود عبد الرحمن الأوسط . وبذل عبد الرحمن الناصر جهوداً متصلة في توجيه الدراسة الاندلسية في ميدان العلوم والطب ، وضمت مكتبة الحكم الثاني في قصره بقرطبة بين خزائنها أربعمائة ألف مجلد . وكانت هناك طائفة من الباحثين والسياسة والناسخين تعمل لحساب هذا الخليفة وتبحث عن المؤلفات التي يستطيعون العثور عليها في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، ويعمل عدد كبير من الناسخين والمجلدين والمزخرفين في إتمام هذه المكتبة الفخمة وتجميلها .^(١) وكذلك فقد أشرف قرطبة ووجهاتها الخليفة الأموي في الأندلس وأخذوا في تكوين مكتبات خاصة . ومن هذه المكتبات مكتبة المنصور بن أبي عامر الحاجب التي زخرت بكثير من الكتب النفيسة . ولكن كثيراً من مجلدات هذه المكتبة قد تعرض للحريق على يد المنصور بن أبي عامر نفسه . فقد أراد بعمله هذا أن يحول دون تعاقب سخط رجال الدين الذين عرفوا بكرهيتهم للفلسفة ، فأمر بإحراق كتبها في ميادين قرطبة ، وأحرق بعضها بيده ، فسمى حامى الإسلام .

كما أمر المنصور الحاجب بإحراق جميع الكتب الخاصة بالمكتب القديمة . وليس من شك في أنه كان يقصد بهذا العمل إرضاء فقهاء المالكية السلفيين الذين كانوا يكرهون الفلسفة ويعتبرونها خطراً يهدد مذهبهم السلفي .

وقد ظل نفوذ المالكية قوياً وبعضهم للفلسفة شديداً حتى عهد المرابطين بالمغرب . فقد حملوا السلطان على بن يوسف بن تاشفين على إحراق كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام أبي حامد الغزالي زعماً منهم أنه من صميم الفلسفة وأنه خطر على الدين . وبذلك أمر السلطان هلي بن يوسف بإحراق هذا الكتاب بالأندلس والمغرب . وكان هذا العمل السيئ من العوامل الأساسية التي تدرع بها المهدي بن تومرت صاحب دولة الموحدين في حرب الدولة المرابطية ورميها بالجمود ثم بالنجس في التوحيد لسيرها على مذهب السلف الصالح الذي لا يؤول الآيات القرآنية . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على قوة نفوذ علماء المالكية وتحكمهم في المجال السياسي في ذلك العصر الذي كان للدين فيه شأن كبير ، ليس في العالم الإسلامي تحسب ، بل في العالم أجمع ، ولا سيما في أوروبا التي كان علماء المسيحية فيها يبيعون صكوك الغفران .

(١) بروفسال : الشرق الاسلامي والحضارة العربية - منشورات الجنرال فرانكو للإباحت
العربية الاسبانية (تطوان ١٩٥١) ص ١٨ - ١٩ .

(ح) ديوانه انشاء

لما كثرت أعمال الوزراء في العصر العباسي الأول أصبح من الضروري تعيين طائفة من كبار الموظفين يعاونون الوزير (أو رئيس الوزراء كما يسمى الآن) في الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها. ويسمى كل من هؤلاء «الكاتب». ومن هؤلاء كاتب الرسائل ومهنته إذاعة المراسيم والبرامات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، وكذلك مراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمها.

كذلك كان كاتب الرسائل يجلس مع الخليفة أو أمير الأمراء أو السلطان أو عامل الإقليم في مجلس القضاء للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة. (١) ويتولى كاتب الرسائل مكانة الملوك والأمراء عن الخليفة. وكثيراً ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه.

وقد ذكر ابن خلدون (٢) الصفات التي يجب أن تتوافر في الكاتب عامة وفي كاتب الرسائل خاصة فقال إنه يجب أن يختار من عليّة القوم، وأن يكون متصفاً بالمرومة والحشمة والعلم والبلاغة.

وكانت الكتابة سيلاً إلى الوزارة في كثير من الأحيان، فوجد المتوكل يتخذ أبا الوزير كاتباً بعد وزيره عبد الملك بن الزيات دون أن يلقبه بلقب الوزير.

وقد ذكر ابن خلّكان (وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٩٩ — ٢٠٠) أن أبا الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوي (ت ٥٤٦٩) كان إمام عصره في النحو وأنه كان يراجع الرسائل التي تحرر بديوان الإنشاء ويصلح ما فيها من نحو أولغة. وكذلك ذكر ابن خلّكان (ج ٢ ص ٢٩٢ — ٢٩٣) أن أبا محمد عبد الله بن برى (بفتح الباء وكسر الراء مع التشديد) المقدسي الأصل اشتهر بالنحو واللغة والرواية، وأنه كان كاتباً بابشاذ يراجع كل ما يحرر من الرسائل في ديوان الإنشاء ويصلح ما فيها من لغة أو نحو قبل أن ترسل إلى الملوك والأمراء.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٥ — ٢٠٦.

(٢) مقدمة ص ٢١٥.

وكافت الكتابة في عهد الفاطميين تلى الوزارة في الرتبة ويتولاها الذين عرفوا بالسكفاية والقدرة على معالجة الأمور . فإذا نال صاحبها رضا الخليفة رشحه للوزارة ، وكان يطلق على صاحب الإنشاء في عهد الفاطميين « صاحب الرسائل » و « صاحب الدست الشريف » ، ويتسلم المسكندات الواردة ويعرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها ، ويستشير الخليفة في أكثر أموره . وكذلك كان يطلق على صاحب الرسائل « كاتب السر » . وكان أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي أول من تلقب بهذا اللقب في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي في سنة ٤٥٤ هـ (١١٥٩ م)^(١) .

وبل صاحب الإنشاء في الرتبة في عهد الفاطميين « صاحب القلم الدقيق » . ويوقع على المظالم ويجلس مع الخليفة في خلوته ، فيذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله أو سير الأنبياء والخلفاء وعظماء الرجال ، ويحدثه عن مكارم الأخلاق . وقد يعمله تجويد الخط . ويتقاضى مائة دينار في الشهر . فإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة ، فإذا انتهى المجلس ألقى في هذه الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير وقرطاس .

ولما غدا الوزير صاحب السيف والقلم في الشطر الأخير من أيام الفاطميين وأصبح يجلس المظالم ، كان صاحب القلم الدقيق يجلس إلى جانبه ويقوم مقام كاتب السر ، ويوقع تحت توقيع الوزير ، بل ينظر في الشكاوى قبل انعقاد المجلس^(٢) .

وبل « صاحب القلم الدقيق » في الرتبة « صاحب القلم الجليل » ، ويقوم بتسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووطعها في الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها^(٣) ، وكانت مرتبته أدنى من مرتبة صاحب القلم الدقيق ، وتسمى وظيفته الخدمة الصغرى .

وقد اشتهر من كتاب البلاط الفاطمي أبو عبد الله القضاعي المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) . وقد عهد إليه الوزير أبو القاسم الجرجاني في أن يكتب العلامة أو الإشارة التي تذييل بها الأوراق لإعطائها الصيغة الرسمية . وتتكون هذه العلامة من العبارة الآتية : « الحمد لله شكراً لنعمته » . كما اشتهر بالكتابة في هذا العهد ابن منجب الصيرفي الذي تقلد

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٢٨١ . حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٨٠ - ٢٨١

(٢) الفلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

ديوان الرسائل في سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) في عهد الخليفة الأمر ، وقد ظل في منصبه إلى سنة ٥٣٦ هـ . وكان من البارزين في طبقة البلاط والمؤرخين . وقد خلف لنا كتابه « الإشارة إلى من نال الوزارة » (في عهد الدولة الفاطمية)^(١) .

وكانت الكتابة في الأندلس تلى « الحجابة » (الوزارة) في الرتبة وتنقسم قسمين : كتابة الرسائل ويسمى صاحبها « الكاتب » ، ويشترط فيه أن يكون بليغاً حسن الأسلوب جزل العبارة ، « وكاتب الزمام » ويعرف بكاتب الجهنزة (ويشترط فيه ألا يكون ذمياً) ، وتعلو مرتبته مرتبة الوزير^(٢) .

وقد نهضت الكتابة في عهد المرابطين ونفق سوقها بمدينة مراكش ، إذ سيطر المرابطون على الأندلس وعلى المغربين الأقصى والأوسط . وكان بدهياً أن تتطلب هذه الدولة المترامية الأطراف طائفة من رجال الأدب لتحرير الرسائل المتنوعة عن لسان أمير المؤمنين إلى عمال دولته وقوادها وكبار موظفيها . وقد وجد المرابطون في أدباء الأندلس ما يسد هذه الثغرة بعد استيلائهم على هذه البلاد وهى في أوج عزها الأدبي ومجدها العلى في عهد ملوك الطوائف ، حتى إنه اجتمع ليوسف بن تاشفين ولابنه على ما يقول المراكشى^(٣) : « من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار » .

وكان على رأس هؤلاء الأدباء ابن قصيرة ، وابن عبدون ، ومروان بن أبى الحصال ، وأخوه عبد الله بن أبى الحصال ، وأبو جعفر بن عطية المراكشى . ولم يكن هؤلاء الكتاب أشهر كتاب الأندلس ، بل لقد اشتهر غيرهم ، ولا سيما الكتاب الإقليميون الذين لم تتح لهم الفرصة للعمل في بلاط أمراء المرابطين .

الرباط :

والرباط لا يقل أهمية عن المسجد من حيث كونه مكاناً تشع منه الدعوة إلى الإسلام . فقد كان حد سوربة المقابل لآسيا الصغرى معرضاً للخطر من ناحية البيزنطيين ، ولكي يحمى المسلمون أنفسهم من إغاراتهم المتعددة ، أقاموا الحصون في بعض المدن

(١) ياقوت : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج ٥ ص ٤٢٢ — ٤٢٣ .

(٢) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٦٤ .

الواقعة على تخوم دولتهم ، مثل طرسوس وأذنة والمصيصة ومرعش وملطية . وكانت هذه الحصون — أو الثغور كما كانت تسمى — تقع طوراً في أيدي العرب ، وطوراً في أيدي الروم . وإلى عمر بن الخطاب يرجع الفضل في إقامة الحصون والمسكرات الدائمة لراحة الجنود في أثناء الطريق ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل ، ولا يستريحون إلا في أكواخ صغيرة مصنوعة من سعف النخل . ولذلك بنيت « العواصم » وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة . وفي عهد عمر بن عبد العزيز رأت الدولة الأموية أن تجد أعمالاً جديدة غير الفتح والغزو للبرابطين من جند العرب في الولايات الإسلامية حتى لا يسكنوا عيالا على بيت المال .

ولما استولى أبو جعفر المنصور العباسي على المدن الواقعة على حد سورية المقابل لآسيا الصغرى ، حصن هذه المدن وأحكم بناءها من جديد ، وأطلق عليها اسم الثغور . ولما ولي هارون الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ أنشأ ولاية جديدة سماها « الثغور » ، وجعل لها نظاماً عسكرياً خاصاً ، وأقام فيها المعقل ، وأمدّها بحاميات دائمة ، ومنح الجند بالإضافة إلى أرزاقهم أراضي قاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسرانهم . فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتصلة التي قامت بين المسلمين والبيزنطيين . وقد سار أبناء الرشيد على نهجه في جهاد الروم . وكان من أبرز الحروب التي قامت بين ابنه المعتصم وبين الروم ، موقعة عمورية الشهيرة التي انتصر فيها المعتصم على الروم انتصاراً حاسماً يتمثل في قصيدة أبي تمام الشهيرة التي سخر فيها بالمنجمين ومجد إقدام الخليفة المعتصم فقال في مطلع قصيدته المشهورة :

السيفُ أصدقُ أنباء من الكتب في حِذِّه الحِذُّ بين الحِذِّ واللَّعِبِ

وكان العلماء والشعراء الذين يؤثرون حياة الراحة يلجئون إلى هذه الثغور لتفرغ للدرس والبحث . كما كان يتوافد غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية ويرابطون فيها وتكثر لديهم الصلوات وترد عليهم الأموال العظيمة ويحتفلون فيها بالأعياد ، حتى أصبح عيداً الفطر والأضحى في هذه الثغور من محاسن الإسلام .

وكان المسلمون — كما نعلم — يغزون بلاد الدولة البيزنطية صيفاً وشتاء . ولذلك سميت هذه الغزوات الصوائف والشواتي . وكان الخلفاء يعهدون إلى ولاية عهدهم أو إلى قضاة قضائهم قيادة الصوائف والشواتي ، لأنهم كانوا يعدونها نوعاً من الجهاد في سبيل الله . فقد قاد يحيى بن أكرم جند المسلمين لحرب البيزنطيين في عهد الخليفة العباسي المأمون ،

وقادم أحمد بن أبي دؤاد في عهد الواثق . وسار الأمويون في الأندلس على نهج الأمويين والعباسيين في الشرق في تولية قضائهم قيادة الصوافق لحرب الروم نيابة عنهم . ومن هؤلاء القضاة منذر بن سعيد قاضي قضاة الأندلس الذي تولى قيادة الصوافق في عهد عبد الرحمن الناصر^(١) .

وقد أنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، السفن الحربية في مصر (وهي الفسطاط والعسكر وأطلال القطائع) ، وفي الإسكندرية ودمياط . وكان بعض وحداتها تسير للرباطة في الموانئ الشامية مثل عكا وصور وعسقلان^(٢) .

ولقد عرف المغرب الرباط قبل أن يعرف الزاوية ، ولعل عهده به يرجع إلى زمن الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري . فرباط شاذلي المعروف عند الفرنجة بسيدى شكير (بضم الشين) على ضفة وادي نفيس جنوبي مراكش ، هو مدفن شاذلي أحد أتباع الفاتح العظيم عقبة بن نافع الفهري ، بناء على (بفتح الياء) بن مصلين (بفتح الميم وسكون الصاد) أحد رجال رجرجة (بفتح الراء) السبعة الذين يقال إنهم وفدوا على الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة ، فأسلموا وعادوا إلى المغرب دعاة للدين الحنيف . وكان شاذلي يقاتل فيه كفار بورغواطة^(٣) . وقد جدد المولى محمد بن عبد الله هذا الرباط سنة ١١٧٨ هـ . (١٧٦٤ م)^(٤) .

ويمتاز الرباط بطابعه الحربي بالإضافة إلى وظائفه الدينية من العبادة وتلاوة القرآن والتفقه في الدين . وهو بذلك لا يختلف عن الرباطة إلا من حيث كونها تبتدىء حيث ينتهى ، فتجعل هدفها الأول العبادة وتحصيل العلم ، ونهى المراتبين فيها بعد ذلك للجهاد ، على ما نجد في رباطة عبد الله بن ياسين الجزولي^(٥) . وقد اجتمع

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ١٩٣ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٠٣ .

(٣) يوسف بن الزيات النادلي : التشوف إلى رجال التصوف (نشره مسيو فور) ، (الرباط سنة ١٩٥٨) ص ٢٦ .

(٤) انظر مجلة المغرب التي كان يصدرها محمد الصالح ميسة بالرباط ، المقال الافتتاحي عدد شهرى ربيع — جمادى سنة ١٣٥٥ هـ (يونية — يولية ١٩٣٦) .

(٥) انظر الأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع (الرباط ١٣٥٥ / ١٩٣٦) ج ٢ ص ١١ وما يليها حيث تجد ترجمة مطولة لعبد الله بن ياسين .

في هذه الرابطة نحو ألف من رجال صنهجة كما تقدم ، فكان عبد الله يعلمهم أمور الدين أولاً ، ثم أمور الجهاد في سبيل نشر الدين الخفيف . وكان للجهاد في عهد عبد الله ابن ياسين غرضان :

الأول : فتح بلاد السودان ، وتحويل أهلها إلى الإسلام .

الثاني : نشر مذهب الإمام مالك بين شعوب أفريقيا الشمالية^(١) .

وقد تطور أمر عبد الله وتلاميذه إلى أن أسسوا دولة المرابطين . وكان عبد الله منقطعاً للعلم والجهاد في رباط شاكر ، ثم انتقل إلى أقصى الصحراء ليرشد قبائل صنهجة ويفقههم في أمور الدين . ومات وهو يقاتل كفار بورغواطة سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) ، وقبره معروف بكريفة على الطريق الداهية من الرباط إلى الرماني^(٢) .

(١) العلوم الثقيلة

تقسيم العلوم :

ظهرت في الدولة الإسلامية عوامل متعددة كان لها أثر بعيد في تكوين مجتمع إسلامي جديد ، وأهم هذه العوامل :

(١) التوسع في الفتوح الإسلامية إلى أقصى السند شرقاً وإلى أقصى المغرب والأندلس غرباً .

(٢) اختلاط العرب بغيرهم من الأمم كالفرس والروم والهنود والصينيين وغيرهم . وبفضل هذين العاملين دخلت في الإسلام علوم جديدة إلى جانب العلوم الدينية . وقد أخذ المسلمون يحفظ وافر من العلوم على اختلافها ، ويميز كتابهم بين العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم والعلوم التي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . ويطلق على الأولى العلوم الثقيلة أو الشرعية وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحسكية ، ويطلق عليها أحياناً علوم العجم أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة أو الدخيلة .

وتشمل العلوم الثقيلة : علم القراءات ، وعلم التفسير ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة والأدب ، وتشمل العلوم العقلية الطب والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفلك والنجوم والموسيقى والسحر والتاريخ والجغرافيا .

(١) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ٦٥ .

وقد قسم ابن خلدون العلوم إلى علوم آتية كالنحو واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والجغرافية ، وإلى علوم مقصودة بالذات كالتفسير والحديث والفقه . وهناك تقسيم آخر للعلوم وهو العلوم العقلية والعلوم العقلية . ففي الأولى اعتمد العرب على دينهم ولغتهم ، وفي الثانية اعتمدوا على ما نقلوه من الأمم الأخرى . والآن نتحدث عن العلوم العقلية والعلوم العقلية التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي الثاني (٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) .

١ — علم القراءات

ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن العباسيين عتروا بعلم القراءات الذي يعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن الكريم ، وأن الأساس الذي قام عليه هذا العلم هو في القرآن نفسه وفي نصوصه نفسها ، وبعبارة أخرى في قراءاته . ويعتبر علم القراءات أول محاولة لتفسير القرآن الكريم . ويرجع أكثر الاختلافات في القراءات إلى رجال عاشوا في القرن الأول ، كابن عباس وعائشة عثمان بن عفان وابنه أبان ، وإلى قراء معترف بهم كمجد الله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهم من أمثليهم التابعون وغيرهم (١) .

كانت الآية أو الآيات أو السورة ينزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم ، فيقوم النبي بقليلها لأصحابه فور نزولها . وكان أكثر الصحابة يحفظ ولا يقرأ وأقلهم يحفظ ويقرأ . وأكثر هؤلاء القراء سبعة هم : عثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يكتفي بحفظ الحفاظ ، بل كان يطلب إلى كتاب الوحي أن يكتبوا كلام الله المنزل . ومن أشهر هؤلاء الكتاب عثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب . وكان هؤلاء يدونون القرآن في العصب واللحاف والعظام والرقاع . ومن هنا يعلم أن القرآن الكريم كان مكتوباً في عهد النبي كما كان محفوظاً في الصدور مرتب الآيات (٢) .

(١) تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٢) كثرت القراءات في نهاية القرن الثاني للهجرة ، ولكن الناس أجمعوا على صحة قراءة سبعة قراء هم : عبد الله بن عامر المتوفى بالشام سنة ١١٨ هـ . وأبو معبد عبد الله بن كثير المتوفى بمكة سنة ١٢٠ هـ ، وأبو بكر عامر المتوفى بالكوفة سنة ١٢٧ هـ ، وأبو عمرو بن العلاء المتوفى بالبصرة سنة ١٥٤ هـ ، ونافع بن نعيم المتوفى بالمدينة سنة ١٦٩ هـ ، وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي المتوفى بالبصرة سنة ١٨٩ هـ ، وأبو عمارة حمزة بن حبيب المتوفى سنة ٢١٦ هـ . ومن أشهر رواة ابن هشام . =

ومن أشهر القراء في العصر العباسي الثاني عبد الله بن أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب البغدادي . وقد اشتهر في الأدب والنحو والتفسير والحديث والقراءات والنسب والقرائن والحساب . وقد حفظ القرآن الكريم وقرأه بالقراءات المختلفة . وقد ذكره العباد الأصفهاني في الخريدة وعدد فضائله وذكر أنه كان بجانب إمامه بالعلوم الدينية ولا سيما القراءات شاعراً ، وإن لم يؤثر عنه أنه كان من خول الشعراء . ومن شعره بصف الشمعة :

صفراء من غير سقايم بها كيف وكانت أمها الشافية
عارية باطنها مكنت فاعجب لها عارية كاسية

وقد توفي ابن الخشاب ببغداد سنة ٥٦٧ هـ (١) .

وقد اشتهر كثير من القراء في المغرب والأندلس حيث غنى أهل هذه البلاد بالعلوم الدينية ومنها علم القراءات . ومن أشهر هؤلاء القراء أبو الطاهر إسماعيل بن خلف الأنصاري . وكان من أهل سرقسطة شرقي بلاد الأندلس . وكان ابن خلف إماماً في علم القراءات كما كان من مشهورى أدباء عصره . وقد خلف لنا كثيراً من المؤلفات التي تشهد بتفوفه العلمي . ومن هذه المؤلفات : « كتاب العنوان » . وكان الفقهاء في الأندلس يرجعون إليه في حياته وبعد وفاته . وقد أتى عليه ابن بشكوال في كتاب الصلة . ولم يزل ابن خلف منصرفاً إلى علم القراءات حتى توفي سنة ٤٥٥ هـ (٢) .

ومن أشهر القراء أحمد بن محمد ، ويعرف بابن العريف . وكان من أهل المرية ببلاد الأندلس . وكان فوق اشتغاله بكثير من العلوم الدينية يعنى عناية خاصة بالقراءات ويهتم بطرائقها المختلفة ، كما اشتهر بالورع والتقوى . ومن مؤلفاته كتاب « المجالس في التصوف » . وقد بلغ من تبحره في العلم والتفاف الناس حوله ، ولا سيما أهل الزهد والتقوى ، أن أثار حسد منافسيه ، فوشوا به عند السلطان علي بن يوسف أمير المرابطين الذي استدعاه إلى مدينة

== ثم جاء القراء الثلاثة فصارت بهم القراءات عشراً وهم : أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي المتوفى بالبصرة سنة ٢٢٥ هـ ، وأبو محمد خلف بن هشام المتوفى بالمدينة سنة ٢٣٠ هـ ، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع الخزومي المتوفى بالمدينة سنة ٢٣٠ هـ . ثم جاءت قراءات أربع نسبت لمحمد بن يحيى المكي ، والأعمش السكوني والحسن البصري ويحيى اليزيدي ، فأصبحت القراءات أربع عشرة ، والمشهور والتواتر منها القراءات السبع .

(١) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ٢ من ٢٨٨ - ٢٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢١١ .

مراكش . ولكن ابن العريف لم يكد يصل إلى هذه المدينة حتى أدركته منيته ودفن بها (٢٣ صفر سنة ٥٣٦ هـ) . وقد أثر عن هذا السلطان أنه أسف على استدعائه لما عرفه عن صلاحه وتقواه (١) .

ومن أشهر قراء المغرب في ذلك العصر أبو العباس أحمد (ابن عبدالله بن أحمد بن هشام ابن الخطيئة اللخمي الفاسي) . وقد ولد بمدينة فاس سنة ٤٧٨ هـ وتلقى العلم بها ، ثم هاجر مع أهله إلى مصر واستقر بها . وقد عرف بالصلاح والزهد وعفة النفس ، كما كان ملأ بالادب . وقد عده المؤرخون والفقهاء إماما في القراءات السبع . وقد أقام بجامع راشدة في القاهرة . فقد ذكر ابن خلكان (٢) أنه وقعت بمصر في أيامه مجاعة ، فسار إليه أعيان البلاد وسألوه قبول مساعدتهم ، فامتنع . فانفقوا على أن يخطب أحدهم ابنته الوحيدة . فتزوجها شخص من الأترياء يعرف بالفضل بن يحيى الطويل الذي طلب من هذا الفقيه أن يعيish زوجته مع لبنتها ، فوافق على ذلك وقضى أيامه ينسخ الكتب ويعيش من أجره القليل حتى توفي في شهر المحرم سنة ٥٦٠ هـ .

٢ — التفسير :

لاريب أن العرب الذين عاصروا نزول الوحي قد أدركوا معانيه ووقفوا على الأسباب التي أدت إلى نزول الآيات القرآنية . غير أن الأمم الإسلامية الأخرى وخاصة الفرس ، كان يصعب عليها إدراك معاني الآيات والظروف التي أحاطت بنزولها ، ولهذا نشأ علم التفسير . وقد اتجه المسلمون كما ذكرنا في الأجزاء السابقة في تفسير القرآن اتجاهين ، يعرف أولهما : باسم التفسير بالمأثور ، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة . ومن أشهر مفسري هذا النوع محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣٢٠ هـ ، وابن عطية الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦ هـ ، والقرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ . وقد اتسع التفسير بالمأثور على مر الأزمان بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام . .

أما النوع الثاني من التفسير فيعرف باسم التفسير بالرأى ، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتياده على النقل . ومن أشهر مفسري هذا النوع المعتزلة والباطنية . أما المعتزلة فإنهم لم يتيقروا بالتفسير بالمأثور ، وإنما كانوا يعتمدون في دعم آرائهم

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥١ - ١٥٢

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٣

على العقل . وقد فسروا بعض الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع مبادئهم العقلية ، وأسسوا تعاليمهم على أسس دينية من القرآن الكريم واستخدموا التفسير في رد حجج خصومهم . ولما كان المعتزلة يؤمنون بمبدأ التنزيه أو بالأحرى بمبدأ نفى الصفات عن الله سبحانه وتعالى ، فقد أخذوا يفسرون القرآن على وفق آرائهم التي تقوم على العقل مخالفين في ذلك تعاليم مدرسة التفسير بالمأثور . ولذلك نرى مفسري المعتزلة يلجئون إلى التأويل فيما يتعارض مع مبادئهم في نفى صفات الله ، وخالفوا المفسرين بالمأثور في رؤية الله يوم القيامة . من ذلك تفسيرهم قوله تعالى في سورة القيامة (٧٥ : ٢٢ - ٢٣) : (وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ إلى ربها ناظرة) أن رؤية الله إنما تكون على المجاز لا على الحقيقة ، على حين يقول المفسرون بالمأثور إن عباد الله الصالحين يرون ربهم عياناً . وقد استدلل المعتزلة بقوله تعالى في سورة الأنعام (٦ : ١٠١) . (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير) قائلين إن الأبصار لا تدركه في الدنيا بدليل قوله تعالى على لسان موسى في سورة الأعراف (٧ : ١٤٣) . (رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) قال لن تراني ، ولكنْ أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) : « وإذا كانت رؤية الله في الدنيا مستحيلة فهي في الآخرة أخرى » .^(١) وبذلك حذ جولدتسيهر طريقة المعتزلة في تفسير القرآن وجعلهم العقل مقياساً للحقائق الدينية ، لأنهم كاثروا الخرافات والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء التي وجدت طريقها إلى الدين^(٢) .

ومن أشهر مفسري العصر العباسي الثاني (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ) الشريف العلوي المعروف بعلم الهدى المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ . وكانت له أمالى في الشعر والأدب شرحها شرحاً لغوياً دقيقاً ، كما فسر الآيات القرآنية التي وردت في هذه الأمالى تفسيراً يتمشى مع تفسير المعتزلة ، واقتبس كثيراً من تفاسير أئمة المعتزلة كالجُبَّائي وغيره .

ومن أشهر مفسري المعتزلة في هذا العصر العباسي أبو يونس عبد السلام القزويني (ت ٤٨٣ هـ) . وقد فسر القرآن تفسيراً مطولاً ، حتى إن تفسير الفاتحة وحدها شغل سبع

(١) جولدتسيهر : المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ترجمة ص ١١٠ - ١١١ .

أنظر كتاب تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٤٢ .

(٢) جولدتسيهر : المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ص ١١٣ - ١١٥ .

حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٤٢ .

مجلدات . ويرجع السبب في عدم ذبوعها بين الناس إلى ضخامتها وما تحويه من عقائد السنيين أحياناً .

ويضع بعض الكتاب أبا القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) اللغوي المشهور وصاحب الكشف في مرتبة الطبرى في تفسيره . ولكن كان الطبرى قد أخذ ببعض القصص الإسرائيلية ، فإن الزمخشري قد بالغ في ذلك وأدلى برأيه في كل ما يتعلق بالتفسير ، حتى إنه نال إعجاب المستشرقين . وقد أشاد به جولدتسيهر وعقد له فصلاً خاصاً في كتابه مناهج التفسير الإسلامى .

والزمخشري من أئمة علماء المعتزلة ، وربما كان هذا سر إعجاب جولدتسيهر^(١) به ، وقد أثر عن الزمخشري أنه قال إذا قصد صديقاً وطلب أن يؤذن له في الدخول قال : قل لفلان أبو القاسم المعتزلى بالباب . وهذا يدل على اعتزازه باتمائه للمعتزلة .

وكان الزمخشري إمام عصره في التفسير والحديث واللغة ، « تشد إليه الرحال في فنونه^(٢) » . ومن مؤلفاته كتاب الكشف في تفسير القرآن الكريم الذى يقول فيه ابن خلكان^(٣) إنه « لم يصنف قبله مثله » . ومن كتبه المحاجاة بالمسائل النحوية ، وكتاب المفرد والمركب في اللغة العربية ، وكتاب الفائق في تفسير الحديث ، وكتاب أساس البلاغة في اللغة ، وكتاب ربيع الإبرار ونصوص الأخبار ، وكتاب متشابه أسامى الرواة ، وكتاب النصائح الكبار والنصائح الصغار . ومن كتبه أيضاً كتاب ضالة الناشد والرائض في علم الفرائض ، وكتاب المفضل في النحو ، وكتاب الانموذج في النحو ، وكتاب المفرد والمؤلف في النحو . وللزمخشري كذلك كتاب رموس المسائل في الفقه ، وكتاب شرح أبيات سيبويه ، وكتاب المستقصى في أمثال العرب ، وكتاب صميم العربية ، وكتاب سوائر الامثال ، وكتاب شقائق النعمان في حقائق النعمان ، وكتاب شافى العى من كلام الشافعى ، وكتاب القسطاس في علم العروض ، وكتاب المنهاج في علم الأصول . وله أيضاً ديوان الرسائل وديوان الشعر ، وكتاب الأمانى في كل فن إلى آخر

(١) المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ص ١٣٧ . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى

ج ٢ ص ٢٩٠ :

(٢) رحل الزمخشري إلى مكة وأقام بها مدة ، ولذلك أطلق عليه « جار الله » . وكان هذا الاسم علماً عليه ، ثم طلب العلم في مدينة بخارى ، وهناك سقط عن دابته فانكسرت رجله . وقد توفي بخوارزم سنة ٥٣٨ هـ ، وذلك بعد رحلته من مكة .

(٣) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٥٧ .

ما خلف لنا من تراث إسلامي يشهد بعلو كعبه في شتى الثقافات الإسلامية^(١).

ومن أشهر مفسري هذا العصر أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي (بن مثنوية) (ت ٤٦٨ هـ). وكان أشهر علماء عصره في النحو والتفسير الذي أخذه عن أبي إسحاق الثعلبي المفسر المشهور الذي وصفه ابن خلكان (ج ١ ص ٦١) فقال إنه «كان أوحد زمانه في علم التفسير». ومن مؤلفاته: «التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفسير». كما وضع ابن مثنوية في التفسير عدة كتب نذكر منها البسيط، والوسيط، والوجيز. وقد ذكر ابن خلكان^(٢) أن أبا حامد الغزالي اعتمد على مؤلفات ابن مثنوية وأفاد من من علمه وأعجب به حتى إنه اقتبس أسماء كتيبه الثلاثة في التفسير.

ولابن مثنوية كتب أخرى في التفسير نذكر منها كتاب «أسباب نزول القرآن» و«التجوير في شرح أسماء الله الحسنى»، كما شرح ديوان المتنبي شرحاً وافياً اعتمد عليه الأدباء الذين جاءوا بعده. وقد أخذ ابن مثنوية العلم على الثعلبي المفسر المشهور وتوفي ابن مثنوية في نيسابور سنة ٤٦٨ هـ.

أما الباطنية فقد اتخذوا التفسير وسيلة لنشر مبادئهم ولجئوا إلى التأويل. فزاهم يفسرون قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً)^(٣) بأن قوله تعالى (فقلت استغفروا ربكم) أى اسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني، ومن قوله (يرسل السماء عليكم مدراراً) بأن السماء هي الإمام، والماء المدرار العلم ينصب من الإمام إليهم؛ ومعنى (يمددكم بأموال وبنين) أن الأموال هي العلم والبنين هم المستجيبون، ومعنى (يجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) أن الجنات هي الدعوة السرية أو الباطنية والأنهار هي العلم الباطني^(٤). وكذلك فسر الباطنية قوله تعالى^(٥) (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين)، أن الشيطان هو عمر بن الخطاب، والإنسان هو أبو بكر الصديق. ومعنى اكفر لا تؤمن بإمامة علي بن أبي طالب. وتفسيرهم

(١) انظر ابن خلكان: وفیات الأعيان ج ٤ من ٢٥٤ — ٢٦٠.

(٢) وفیات الأعيان ج ٤ من ٤٦٤ — ٤٦٦.

(٣) سورة نوح ١٨ : ١٢.

(٤) Guyard, p. 209.

(٥) سورة الم نشر ٥٩ : ١٦.

قوله تعالى (الشمس والقمر بحسبان)^(١) أن الشمس والقمر هما الحسن والحسين ، وإن إبليس وآدم المشهورين في القرآن هما أبو بكر وعلي ، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر^(٢) .

والشيعة يقدسون الإمام ويؤولون كثيرًا من الآيات القرآنية للتدليل على علو مقام الإمام والولاية له ، فيقولون في قوله تعالى في سورة الانعام (٦ : ١٢٢) (وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس) : النور هو الإمام الذي يأتي به المسلم ، وفي قوله تعالى في سورة النمل (٢٧ : ٩٠) (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكُبِتْ وجوههم في النار) : الحسنة معرفة الولاية وحب أهل البيت للإمام ، والسيئة إنكار الولاية وبغض أهل البيت ، والائمة هم الهداة الذين قال الله فيهم في سورة الرعد (١٣ : ٧) (ولكل قوم هاد)^(٣) .

هذان هما نوعا التفسير كما عرفنا في العصور السابقة . ولئن كان التفسير بالرأى يبدو لأول وهلة أعم وأشمل من التفسير بالمأثور ، فإنه مما لا ريب فيه أن الذين أخذوا به قد بالغوا في استعماله حتى خرجوا به عن المقصود من تفسير القرآن الذي يراد به أن يكون واضحًا جليًا لا غموض فيه ولا إبهام ، على نحو ما ترى في تفسير الاستاذ الإمام محمد عبده الذي نراه يعتمد على الرأي المستمد من أقوال السلف ، والذي يرجع إلى جوهر القرآن وروح الدين . وهو يعمل رأيه في هذا بالتوسع في شرح الآيات القرآنية دون أن يتقيد بتفسير من سبقه ، بحيث أصبح تفسيره مزيجًا من التفسير بالمأثور مادام صحيحًا ، ومن التفسير بالرأى الذي لا يفسر القرآن في نطاق إطارات ضيقة محدودة ، إذ أن القرآن إنما جاء لهداية البشر ، بحيث إذا سئلنا عن يوم القيامة ، على ما يقوله الاستاذ الإمام محمد عبده : هل بلغتم الرسالة ؟ وهل تدبرتم ما بلغتم ؟ استطعنا الإجابة على ذلك معتمدين على استخدام الرأي والعقل ، ولكن في نطاق الجوهر الاساسي للقرآن الكريم .

(٣) الحديث .

إذا عرفنا أن الحديث الشريف هو أحد أصليين قام عليهما التشريع الاسلامي باتفاق

(١) سورة الرحمن ٥٥ : ٥٥ .

(٢) الغزالي : فضائح الباطنية (نشره جولدسيهر — لندن سنة ١٩١٦) ص ١٣ .

(٣) عبد الله علام : الدعوة الموحدة بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٥٢ .

جميع المذاهب الإسلامية ، أدركنا أهمية هذا العلم في الثقافة الدينية الإسلامية خاصة وفي الثقافة الفكرية عامة . فالسلفيون ، وفي مقدمتهم الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل ومن اتبع طريقهم كالظاهرية والحزمية ، قد جعلوا التشريع الإسلامي قائماً على القرآن الكريم والحديث الشريف . وزاد الأحناف ثم الشافعية الرأي والقياس كما هو معروف في علم أصول الفقه . ومن هنا نرى الحديث الشريف يلي القرآن في الأهمية ، وكان له رجال عرفوا باسم المحدثين .

وقد نال الحديث حظاً وافراً من جهود الفقهاء . ولكن المصادر التي اعتمد عليها المسلمون لدراسة الحديث قليلة نذكر منها « الصحيحين » (البخاري ومسلم) وأبا داود السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ صاحب السنن ، وأبا عيسى محمد بن عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٧٨ هـ صاحب الجامع ، وأبا عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، وأبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ صاحب السنن . ومن أشهر المحدثين الذين ظهروا في المشرق في طليعة القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن مندة (بفتح الميم والدال وسكون التون) المتوفى سنة ٥١١ هـ . وهو من أهل أصبهان . وقد وصفه ابن خلكان في هذه العبارة فقال : « هو محدث بن محدث بن محدث بن محدث بن محدث . وكان جليل القدر وافر الفضل واسع الرواية ، ثقة حافظاً فاضلاً مكثراً صدوقاً ، كثير التصانيف ، حسن السيرة بعيد التكلف . أوجد أهل بيته في عصره . خرج التخاريج لنفسه ولجماعة من الشيوخ الأصهبانيين » . وعلى الرغم من شهرة ابن مندة الواسعة في علم الحديث فإنه يُعدُّ من المؤرخين المعدودين ، وقد صنف كتاب « تاريخ أصبهان » وغيره .

ومن مشهورى علم الحديث بالمشرق في القرن السادس الهجري ، المحدث الفقيه أبو محمد (الحسين بن مسعود بن محمد) المعروف بالفراء البغوي ، وكان متبحراً في العلم ، وقد صنف كثيراً من الكتب في الحديث والتفسير والفقه . ومن مؤلفاته كتاب « شرح السنة في الحديث » . وكتاب « التهذيب في الفقه » ، وكتاب « معالم التنزيل في تفسير القرآن الكريم » ، وكتاب « المصاييح » ، وكتاب « الجمع بين الصحيحين » ، وما يلفت النظر لإسهام النساء في الاشتغال بالعلوم الدينية ولا سيما في علم الحديث .

(١) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ٥ ص ٢١٧ .

(٢) بفتح الباء الموحدة والعين المعجمة بعدها واو نسبة إلى باغ بخراسان .

ومن هؤلاء النساء : كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية التي اشتهرت برواية صحيح البخاري .
وتوفيت بمكة سنة ٤٦٤ هـ (١) .

ومن أشهر المحدثين في العصر الفاطمي أبو طاهر أحمد بن محمد الحافظ السلفي . وكان من
أهل أصبهان ، وكان حافظاً غزير العلم شافعي المذهب . وقد اختلف إلى كثير من البلاد
يطلب الحديث على بعض أعلام الفقهاء ، وقد رحل من بغداد إلى صور حيث ركب البحر
إلى الإسكندرية فوصل إليها في شهر ذي القعدة سنة ٥١١ هـ (١١١٨ م) . ولما استقر به المقام
استمع إلى دروسه كثير من أهالي البلاد . وفي سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) أنشأ الوزير الفاطمي
العادل بن السلار في الإسكندرية كلية عين السلفي عميداً لها ، فظل يتقلد هذا المنصب حتى
توفي سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) (٢) .

وقد جعل أهل المغرب موطأ الإمام مالك من أصول كتب الحديث . ولا عجب فقد
كان مالك إمام محدث المدينة في عصره ، كما كان أول فقيه وجه أنظار المسلمين إلى ضرورة
الاهتمام على الحديث الشريف باعتباره أحد أصليين قام عليهما الفقه الإسلامي .

وقد اهتم الموحدون في المغرب بموطأ المهدي محمد بن تومرت باعتباره صورة مصغرة
لموطأ الإمام مالك ، وذلك بعد حذف الأسانيد ، واهتم الخليفة الموحدي الثالث يعقوب
المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) بعلم الحديث اهتماماً خاصاً ، حتى إنه قام بإصلاح فقهي أساسه
لاعتبار الحديث الشريف بالإضافة إلى القرآن الكريم مصدراً للتشريع في العبادات والمعاملات ،
وأمر بإحراق أهم الكتب التي تناولت الكلام على مذهب مالك ، مثل مدونة سحتون ،
وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعي ، وواضحه
ابن حبيب (٣) . كما أمر بوجوب أخذ الفقه من كتب عشرة عدها أمهات كتب الحديث وهي
الصحيحان (البخاري ومسلم) ، والترمذي ، وموطأ مالك ، وأحاديث المهدي محمد بن تومرت
في الطهارة ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وسنن البزار ، ومسند ابن أبي شيبة ، وسنن
الدارقطني ، وسنن البيهقي .

وكذلك ندرك مدى اهتمام المغرب الأندلسي بعلم الحديث في جميع العصور ولا سيما
في القرن الخامس الهجري ، حيث ظهر الفقيه المحدث الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة
٤٥٦ هـ ، والشيخ عبد الله بن ياسين زعيم دولة المرابطين المتوفى سنة ٤٥٣ هـ . وفي القرن

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٦ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧ - ٣٨ .

(٣) المراكشي : المعجب ص ٢٧٩ .

السادس الهجري ظهر المهدي محمد بن تومرت المتوفى سنة ٥٢٤ هـ ، كما ظهر الخليفة الموحدى المحدث يعقوب المنصور المتوفى سنة ٥٩٥ هـ (١) .

ومن أشهر المحدثين فى الأندلس الحافظ القرطبى أبو عمر يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٢ هـ) الذى يقول أبو الوليد الباجى إنه لم يكن بالأندلس مثله فى الحديث . ومن أشهر كتبه : كتاب « الاستدراك لمذاهب الأعصار فيما تضمنه الموطأ من معانى الرأى والآثار » . وقد جمع ابن عبد البر الصحابة فى كتاب سماه « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » . ومن كتبه كتاب « الدرر فى المغازى والسير » ، وكتاب « بهجة المجالس وأنس المجالس »

كما نبغ فى علم الحديث فى المغرب والأندلس : أبو الوليد الباجى ، وأبو الوليد بن رشد جد ابن رشد الفيلسوف المشهور ، وابن عاصم مؤلف « التحفة » . وتعتبر النسخة التى نقلها المحدث المشهور ابن سعادة من صحيح البخارى فى سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) المرجع الأساسى فى رواية صحيح البخارى فى كافة بلاد المغرب والأندلس . ومن هؤلاء المحدثين أيضاً أبو على الحسين بن أحمد الغسانى الجياني (ت ٤٩٨ هـ) صاحب كتاب « تقييد المهمل » الذى ضبط فيه كل لفظ يقع فيه اللبس من كتاب الصحيحين ، ويقع هذا الكتاب فى جزأين ، وبعد الجياني من أعظم المحدثين الذين ظهوروا ببلاد الأندلس .

٤ — الفقه

ذكرنا فى الجزء الثالث من هذا الكتاب (ص ٣٤٨ — ٣٤٩) أنه قد ظهر فى العصر العباسى الثانى بعض أعلام الفقهاء الذين كونوا لهم مذاهب فى الفقه وأن هذه المذاهب لم يقدر لها الاستقرار والذبول أمام المذاهب الأربعة . ومن فقهاء هذا العصر داود الظاهرى (٢) الذى كانت له طريقة خاصة تتلخص فى الأخذ بظاهر نص القرآن والسنة وعدم قبول الرأى والقياس . ولذلك سمي داود الظاهرى ، ويعرف أتباعه بالداودية أو الظاهرية (٣) . والظاهرية — كما يقول ابن خلدون (٤) — قد جعلوا المدارك كلها منحصرة فى التصوف والإجماع ورددوا القياس الجلى والعلّة المنصوصة إلى النص . وبذلك خرج داود على علم الأصول والقواعد الفقهية التى وضعها أئمة المذاهب الأربعة ولا سيما

(١) عبد الله علام : الدعوة الموحدة بالمغرب ص ٣٠٧ .

(٢) وينسب إلى قاشان القريبة من أصبهان ، وكان شافعى المذهب .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٣٠٣ .

(٤) مقدمة ص ٣٩٠ .

الإمام الشافعي^(١) . وكان ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ من أتباع المذهب الظاهري^(٢) . ثم انفصل ابن حزم عن الظاهرية واشتغل بمذهب خاص عرف به سمي المذهب الحزمي وعرف أتباعه بالحزمية .

وهناك مذاهب أخرى في الفقه انقضت كذهب سفيان الثوري^(٣) المتوفى سنة ١٦١ هـ . وقد أخذ عنه الأوزاعي (ت ١٨٠ هـ) لإمام أهل الشام^(٤) ، ومذهب إسحاق ابن راهويه (بفتح الهاء والواو وسكون الياء) (ت ٢٤٠ هـ) . وفي القرن الثالث الهجري نرى من المذاهب : المذهب الشافعي ، والمذهب المالكي ، والمذهب الحنفي ، ومذهب الثورية ، ومذهب الداودية أو الظاهرية . وقد ساد من هذه المذاهب في القرن الرابع الهجري : المذهب الحنفي ، والمذهب المالكي ، ومذهب الداودية . كما نرى مذاهب أخرى أقل انتشاراً كالمذهب الحنبلي ومذهب الراوية ومذهب الأوزاعي . على أن السيادة قد أصبحت على مر الزمن للمذاهب الأربعة المشهورة وظلت على ذلك إلى وقتنا هذا . وقد وقف الاجتهاد عند هذه المذاهب . وفي ذلك يقول ابن خلدون^(٥) :

« ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون لمن سواهم^(٦) ، وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر من تشعب الاصطلاحات في العلوم ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد . »

وقد ظهر في وقتنا الحاضر الاتجاه إلى توحيد المذاهب الفقهية والرجوع إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة في استخلاص الفروع الفقهية مع الاستئناس بأراء الأئمة حتى يسير المسلمون في اتجاه واحد في أمور دينهم مما عساه أن يضع حداً للخلافات المذهبية التي جرت على المسلمين كثيراً من ألوان الشقاق والفرقة .

(١) فقه السبعة :

وقد نهض المذهب الإسماعيلي نهضة بعيدة الأثر على أيدي الفاطميين الذين اعتمدوا على المدارس التي أطلقوا عليها في المغرب « مدارس الدعوة » لبث عقائد المذهب

(١) ولداود مؤلفات كثيرة ذكرها ابن النديم (الفهرست ص ٣٠٣ — ٣٠٥) .

(٢) انظر كتاب تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٤٧ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٠ .

(٤) المقرئ : نفع الطيب ج ٤ ص ٢١٤ .

(٥) مقدمة ص ٣٩١ — ٣٩٢ .

(٦) أى لم يبق منهم أحد .

الإسماعيلي على أساس تعاليم الفقه الشيعي . وقد عرفت هذه المدارس باسم مدارس الحكمة ، ومنها دار الحكمة التي أنشأها الخليفة الحاكم الفاطمي . وقد امتدت هذه المدارس إلى أقاليم الدعوة الفاطمية أو بحارها وجزرها كما كان يطلق عليها في ذلك الحين .

وكان الخلفاء الفاطميون بصفة عامة من أفقه الناس بعقائد المذهب الفاطمي وتعاليمه ، كما كان لداعي الدعوة ونوابه أثر كبير في نشر الفقه الشيعي على المبادئ التي كانت تلقى في المساجد والقصور وفي دور العلم كمدارس الدعوة ومدارس الحكمة . وكان هؤلاء الدعاة يصنفون الكتب ويعدون المحاضرات التي تتناول المسائل الفقهية التي يستمدونها من أئمة أهل البيت . وقد أنجبت الدعوة الإسماعيلية دعاة كان لهم شأن كبير في عالم الدعوة وفي عالم الأدب والفلسفة والتأليف . ومن بين هؤلاء الدعاة أو الفقهاء : أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢ هـ) في بلاد الديلم ، وأبو يعقوب السجزي (ت ٣٣١ هـ) وأبو حنيفة النعمان المغربي (ت ٣٦٣ هـ) الذي عاصر الفاطميين في المغرب وترك مؤلفات ذات غناء في الفقه الإسماعيلي .

وقد بلغت الدعوة الإسماعيلية ذروتها على يد الخليفة المعز لدين الله وقاضي قضائه أبي حنيفة النعمان المغربي ، وباب أبوابه جعفر بن منصور النين (٤٠٨ هـ) . وكان لهذه المدرسة أثرها البعيد فيما خلفه من جاء بعده من الدعاة ، مثل حميد الدين الكرماني الذي يعد من فلاسفة الإسماعيلية ودعاتهم في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله والذي كان يلقب بحجة العراقين . وقد ألّف الكرماني في الرد على بدعة الدرزية في تأليه الحاكم رسالة سميت « الرسالة الواعظة في نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله » ، ثبت فيها عقيدة الإسماعيلية في وحدانية الله سبحانه . ومن أشهر كتبه كتاب « راحة العقل » ، وله رسائل في أدب الإسماعيلية ، وكتاب « المجالس البغدادية » وكتاب « المجالس البصرية » جمع فيها محاضراته في تأويل الآيات المتشابهة (١) .

ومن أشهر فلاسفة الإسماعيلية وفقهائهم المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، ويعرف بالمؤيد فقط . وقد غلب عليه لقب المؤيد في الدين ، ويسمى « هبة الله » و « السلطاني » نسبة إلى سلطان الفارسي . وقد انحدر المؤيد في الدين من أسرة اتخذت التشيع لها ديناً والفاطمية مذهباً . وأخذ المؤيد يرقى مدارك الدعوة الإسماعيلية حتى تقلد رئاسة الدعوة

(١) أنظر كتاب أسرار النطقاء (من المنتخب) ص ٨٥ — ٩٣ و ٩٩ وحسن إبراهيم حسن وطه

أحمد شرف : المعز لدين الله ص ٢٥٨ وما يليها .

في شيراز وأصبح حجة بلاد فارس حول سنة ٤٣٩ هـ (١٠٣٨ م) ، واتصل بالسلطان أبي كاليبجار البويهى وكسب عطفه وتوثقت صلته به ، واستطاع بقوة حجته وبلاغته أن يستميله إلى الدعوة الإسماعيلية ، ثم سار إلى الأهواز ودعا الناس إلى إقامة الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمى . ثم رحل المؤيد في الدين إلى الموصل ولجأ إلى قرواش بن المقلد العقيلي ، ولكنه لم يستجب لدعوته ، فرحل إلى مصر سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) ومثل بين يدى الخليفة المستنصر الذى قلده ديوان الإنشاء . واستمال أبا الحارث البساسيرى العركى الذى انتصر جنده على جند طغرل بك السلجوقى أول الامر ونشر الدعوة الفاطمية في العراق وخطب للخليفة الفاطمى في بغداد نحواً من سنة (١) .

وقد تقلد المؤيد في الدين رئاسة الدعوة الفاطمية وأصبح داعى الدعاة في سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٨ م) (٢) ، كما برع المؤيد في العربية والفارسية وخلف كثيراً من الكتب التى تعد بحق من أهمها كتب الإسماعيلية إلى اليوم (٣) . ومن مؤلفاته كتاب « المجالس المؤيدية » و « ديوان المؤيد » و « سيرة المؤيد في الدين » و « شرح المعاد » وكتاب « الإيضاح والتبصير في فضل يوم القدير » وكتاب « الابتداء والانتهاء » و « قصيدة الاسكندرية » وتسمى أيضاً « ذات الدوحة » ، وكتاب « تأويل الأرواح » وكتاب « المسألة والجواب » وكتاب « أساس التأويل » (٤) .

ومن أهم آثار المؤيد في الدين كتاب « المجالس المؤيدية » ، وهو مجموعة محاضرات ألغهاها إلى مجالس الدعوة يشرح فيها عقائد المذهب الفاطمى ، ويصور « ديوان المؤيد » عقائد الإفاطميين تصويراً كاملاً . كما عرض المؤيد لمبدأ التأويل وإعجاز القرآن والرأى والقياس .

ومن أهم مؤلفات المؤيد في الدين التى تعرض لفلسفة الإسماعيلية كتاب « المجالس المستنصرية » . فقد تناول الكلام على أصول عقائد الإسماعيلية وتعرض للعبادات ولقواعد الإسلام العملية من الفرائض والسنن ، ورفع من شأن إمام العصر وهو المستنصر بالله . ويشتمل هذا الكتاب على خمسة وثلاثين مجلساً تتناول هذه المسائل وهى :

(١) المؤيد في الدين : ديوان المؤيد في الدين : نشره محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩) مقدمة من ١٧ و ١٩ و ٢٢ و ٢٨ و ٣٠ . السيرة المؤيدية : مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة . رقم ٢٦٠٥٦ من ١٦ .

(٢) ديوان المؤيد في الدين مقدمة من ٤٩ .

Ivanow, A Guide to Ismaili Literature (٣)

ibid., p. 413. (٤)

- ١ — توحيد الله وتنزيهه ونفي الإشراف والقرناء له .
 - ٢ — الاعتراف بالأنبياء والرسل وعصمتهم من كل خطأ وأن محمداً خاتم النبيين .
 - ٣ — القول بوصاية علي وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم .
 - ٤ — التصديق بما جاء في القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطناً .
 - ٥ — إبطال الرأي والقياس في كل أمور الدين ووجوب الأخذ عن الأئمة (١) .
 - ٦ — القول بالظاهر والباطن معا .
- ويحسن بنا في هذا المقام أن نذكر عالماً أندلسياً رحل إلى مصر واتخذها وطناً له ، ذلك هو الفقيه المالكي المشهور أبو بكر الطرطوشي (٢) الذي ينتسب إلى مدينة طرطوشة شرق مدينة بلنسية بالأندلس ، حيث ولد سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) . وقد تنقل في الحجاز والشام والعراق ، وتلقى العلم على أئمة العلماء والفقهاء في أمهات المدن الإسلامية كـ مكة وبيت المقدس وبغداد والبصرة ، ونزل الإسكندرية واستوطنها وقام بالتعليم فيها ، وبقي بها إلى أن مات سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) .
- ولم يلبث الطرطوشي أن تقرب إلى الوزير الفاطمي المأمون البطاحي وأهدى إليه « سراج الملوك » (٣) . وكان من مظاهر سرور الوزير بهذا الكتاب أن رتب للطرطوشي خمسة دنانير في كل يوم ، فلم يقبل منها غير دينارين كان الوزير الأفاضل بن (أمير الجيوش) بدر الجالي قد أجراها عليه .
- وقد أسهم الفقيه الطرطوشي في تعديل قانون الوراثة في عهد الفاطميين ، ذلك القانون الذي يقضى بأن ترث البنت كل ما يتركه أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت . وهذا يخالف قانون مذهب السنة الذي يقضى بالآثر البنت أكثر من نصف الثروة . ثم عدلت هذه القاعدة التي تجيز بمقتضى قانون الشيعة بأن تستولي البنت على جميع الثروة التي يخلفها أبواها إذا انفردت بالميراث . وقد قضى هذا التعديل بأن يرث كل من الشيعة والسنيين على وفق مذهبه والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته . وقد تم هذا التعديل سنة ٥١٦ هـ .
- وتوريث البنت جميع الثروة يخالف ما ورد في القرآن الكريم ، إذ فصل الميراث في سورة النساء (٤ : ١١ — ١٢) تفصيلاً واضحاً .

(١) ديوان المؤيد في الدين ص ٣ - ١ .

انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الجامع الأزهر (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٣ — ٣٥ .

(٢) بتشديد الطاء الأولى مع ضمها وسكون الراء . انظر لفظ طرطوشة في معجم البلدان إياقوت .

(٣) ويقال إن كتابه يسمى سراج الهدى .

(ب) الفقه في اليمن :

انتشر مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة في اليمن ، وفي القرنين الثالث والرابع للهجرة وقع في هذه البلاد حدثان عظيمان :

الأول — فتنة القرامطة التي عمت بلاد العراق .

والثاني — قيام الإمام الهادي يحيى بن الحسين العلوي الذي دعا إلى اعتناق عقائد الشيعة في اليمن :

ولد يحيى سنة ٢٤٥ هـ واشتغل بالعلم منذ حداثة سنه في الحجاز والعراق وانتشر نفوذه في اليمن سنة ٢٨٠ هـ . ويذكر المؤرخون أن يحيى دخل اليمن بدعوة من أهلها . وقد انتشر فيها مذهب القرامطة وجاهدهم جهاداً كبيراً ، وألف كثيراً من الكتب قيل إنها جاوزت الأربعين . ووضع أساس الفقه الهدوي التي كانت تسير عليه الدولة اليمنية الزيدية حتى قيام الجمهورية العربية اليمنية .

وقد شق المذهب الشافعي طريقه إلى اليمن إلى جانب الزيدية ، حتى أصبح للمذهب الشافعي في هذه البلاد أنصار يعملون على نشره ولا سيما بجهة زبيد وبيت الفقيه . وقد ظهر هذا المذهب على يد القاسم بن محمد الجمحي إمام الشافعية في صنعاء وعدن ، وامتد في أواخر القرن الرابع الهجري إلى المعافر ولحج وأبين وأهل الجند والسحول وغيرها . ومن أخذ الفقه عن القاسم الجمحي : جعفر بن عبد الرحيم المخائى الذي قام بالتدريس والفتيا ومات سنة ٤٦٠ هـ .

ومن علماء اليمن القاضي محمد الصليحي وابنه علي بن محمد . وقد تفقه في عقائد المذهب الشيعي وأسس الدولة الصليحية في هذه البلاد في القرن الخامس الهجري .

ومن أشهر علماء اليمن : زيد بن عبد الله اليفاعي . وقد أخذ الفقه وعلم الكلام على مشاهير علماء اليمن ومكة ، ثم عاد إلى اليمن وسكن الجند حيث التف حوله كثير من الطلاب . ثم هاجر إلى مكة حيث قضى فيها اثنتي عشرة سنة . واشتهر بالزهد والورع وعاش من غلة أرضه واستغل ثروته في التجارة . وقد نبه ذكر زيد بن عبد الله في مكة وبرز على فقهاء ، ثم عاد إلى اليمن سنة ٥١٢ هـ وبقي بها حتى مات سنة ٥١٤ هـ .

ومن أشهر فقهاء اليمن : عبد الله بن يحيى الصعبي . وقد أخذ عليه الفقه كثير من الطلاب ؛ وكان إماماً في العربية . ومن فقهاء اليمن أيضاً : أبو بكر بن محمد اليفاعي الذي تقلد قضاء

الين (من إِب إلى عدن) من قبل الداعي محمد بن سبأ . وقد أخذ الفقه على أخواله ونبغ في اللغة العربية والشعر وعلم الكلام ومات سنة ٥٥٢ هـ .

ومن أشهر فقهاء الين أيضاً : عمر بن علي بن سمره الجندى اليني . وقد خلف لنا كتابه «طبقات فقهاء الين» . ويعد من أقدم المصنفات الينية في هذا الموضوع . وكان هذا الكتاب المرجع الذي يعتمد عليه الفقهاء الذين ألفوا في الطبقات والتراجم . وقد استمد الجندى مادته من كتب الفقه والحديث والتاريخ .

وكان الجندى شافعي المذهب . وقد ترجم لنفسه في ثانيا كتابه ، فذكر أنه أخذ العلم عن أشهر علماء الين ، وأنه تقلد القضاء في «أبين» سنة ٥٨٠ هـ ، وحج بيت الله من عدن عن طريق البحر وزار جزيرة كمران في ذهابه وإيابه . وتعد أسرة ابن سمره من الأسر العريقة ذات الجاه والثراء . وقد ذكر مؤلفو التراجم والسير أن ابن سمره انتهى من وضع كتابه سنة ٥٨٦ هـ ولم يحزموا برأى في سنة وفاته . ويظهر أنه توفي في السنة التي أتم فيها كتابه . وبلا حظ أنه يستطرد أحيانا فيذكر شيئاً من تاريخ الأسرات والدول التي تداولت الحكم في الين .

ولما كان الجندى يدين بعقائد المذهب الشافعي وجب أن نأتي بكلمة عن انتشار هذا المذهب في بلاد الين مستعينين في ذلك بما أورده هذا المؤلف نفسه في كتابه .

كان مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة قبل قدوم الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين إليها سنة ٥٨٠ هـ وانتشار الدعوة الشيعية على يده وظهور دعوة علي بن فضل وابن حوشب . ولما ظهر مذهب الإمام الشافعي لقي فقهاء الين بعض أئمة الشافعية في مكة والمدينة وبغداد والقسطنطين وغيرها ، وأخذوا عنهم وكتبهم وعادوا بها إلى الين حيث انتشر هذا المذهب من صنعاء إلى عدن في القرن الرابع الهجري ، ثم عم انتشاره بعد ذلك إلى القرن السادس الهجري^(١) .

(ح) الفقه في المغرب والأندلس :

جاء إقرار مذهب مالك في الأندلس رداً على إقرار العباسيين مذهب أبي حنيفة بالمغرب . ففي القرن الرابع الهجري تدخل الأمويون في سياسة المغرب ونشروا المذهب المالكي بين أتباعهم . على أن الاضطرابات السياسية التي سادت هذه البلاد في عهد الزناتيين لم تمنح الفرصة لظهور علماء من المغرب متفهمين في المذهب المالكي بسبب عدم ضمان حياة

(١) الجندى : طبقات فقهاء الين ص ١٢ - ١٣

الاستقرار التي تساعدهم على الإنتاج العلمي . وقد نقل مذهب مالك إلى إفريقية في القرن الثالث الهجري على أيدي علماء تلقوا العلم عن تلاميذ مالك ، نخص بالذكر منهم أبا القاسم . ومن تلاميذه أسد بن الفرات وسحنون (١) .

ثم جاء المرابطون في عصر ظهور كبار الفقهاء كأبي عمران الفاسي ، وعبد الله بن ياسين ، والقاضي عياض - وكلهم من المغاربة الذين تلقوا العلم ببلاد الأندلس . وقد تلقى عبد الله بن ياسين العلم بقرطبة (٢) نحواً من سبع سنين ، ثم أتمَّ دراسته على وساج بن زلو الذي تلقى العلم بدوره عن أبي عمران الفاسي بالقيروان ، ثم أسس أول مدرسة لفقهاء المالكية في نفيس على مقربة من أغمت . وكان مذهب مالك يتناسب وبساطة المرابطين الصحراويّة الذين كانوا ينظرون إلى علماء أهل المدينة باعتبارهم رمز الإسلام ورسول المحبة والصفاء .

وقد قويت سلطة فقهاء المذهب المالكي في عهد المرابطين ولا سيما في بلاد الأندلس . وكان كتاب « إحياء علوم الدين » لأبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ قد وصل إلى الأندلس والمغرب ، وشقت الصوفية التي تقوم على محاسبة النفس طريقها إلى هذين البلدين (٣) ، وأصبحت الهوة تتسع في الأندلس بين الصوفية وبين الفقهاء الذين خشوا على نفوسهم من دخول كتاب « إحياء علوم الدين » للغزالي الذي جمع بين أحكام الفقه وآداب المتصوفة ، فأفتوا على ابن يوسف بن تاشفين « بمصادرته وإحراقه . وبما هو جدير بالملاحظة أن فقهاء المالكية قد قاوموا كتاب إحياء علوم الدين لسببين :

الأول — أن الانحياز الفقهي في هذا الكتاب يسير على مذهب الإمام الشافعي .

الثاني — أن كتاب الإحياء كتاب صوفي في روحه يسير على الفلسفة الكلامية التي

كان يحرمها المالكية ويخشون منها على مذهبهم . ولذلك أفتوا بإحراق الكتاب .

وكان زعيم فقهاء المالكية بالأندلس ابن حدين وزعيمهم بالمغرب مالك بن وهيب (٤) .

وقد تم إحراق هذا الكتاب بين سنتي ٥٠٠ و ٥٠٥ هـ .

وبما يدل على قوة نفوذ الفقهاء في الدولة المرابطية ما كان يتمتع به عبد الله بن ياسين من نفوذ ، حتى إن أمراء المرابطين كانوا بعد موته لا يرمون أمراً من أمور دولتهم دون استشارة الفقهاء . ومن أكبر الأدلة على قوة نفوذ الفقهاء أن أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين حين هم بمساعدة مسلمي الأندلس ضد النصارى لم يبدأ من الرجوع إلى رأى

(١) القرى : فتح الطيب ج ٢ ص ٢١٨ .

(٢) الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ١٠ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٥ .

(٤) الحلل الموشية ص ٨٥ .

الفقهاء الذين أفتوا بوجوب حرب النصارى ، ثم أملاوا على الأمير الكتاب الذى يجب أن يوجهه إلى ألفونس السادس ملك المسيحيين فى الأندلس . وكانت هذه الرسالة على نمط الرسائل التى كان يرسلها النبي والخلفاء الراشدون إلى الملوك . وبما يدل على صحة هذا رأى ما ذكره المراكشي^(١) أن على بن يوسف بن تاشفين « كان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشورة الفقهاء » . ويذكر لنا التاريخ أن الفقهاء فى الأندلس طلبوا إلى يوسف بن تاشفين القدوم إلى بلدهم وأفتوا بخلع ملوك الطوائف . بل إن على بن يوسف ابن تاشفين حين فكر فى تسوير مدينة مراكش سنة ٥١٩ هـ استفتى الفقهاء فى المغرب والأندلس ، وقد اشترك ابن رشد الأندلسى فى مجلس على بن يوسف وأفتى بصحة هذه الفتوى . كذلك أفتى ابن رشد على بن يوسف بإبعاد النصارى المعاهدين بغرناطة إلى المغرب لمساعدتهم « ابن روذمير » وغدرهم بالمسلمين ، فتم ترحيلهم إلى المغرب ولا سيما إلى مكناسة وسلا^(٢) .

(٥) — علم الكلام

علم الكلام هو البحث فى أمور العقيدة الإسلامية مثل توحيد الله ، والكلام فى ذاته سبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله ، ثم الكلام فى الأنبياء والرسل . ويتناول كثير من كتب علم الكلام مسائل عصمة الرسل والإمامة . وقد يعرض هذا العلم لمسائل غيبية كالبعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك ، ثم يعرض هذه المسائل على مقاييس العقل والمنطق فى معرض جدلى كلامى منطقي . ويعد علم الكلام أساس الفلسفة الإسلامية ، بل لقد تميزت به هذه الفلسفة الكلامية عند المسلمين عن الفلسفة اليونانية .

ويعتبر علم الكلام وليد النهضة الثقافية الإسلامية التى تأثرت بثقافات اليونان والفرس والسريان فى العصر العباسى الأول . وقد حملت المعتزلة لواء علم الكلام الذى سيطر على الفكر الإسلامى حيناً من الدهر ، وكان له أثر بعيد فى دفع العقلية العربية خاصة والإسلامية عامة فى ميدان التفكير الإسلامى العام .

ومن أشهر متكلمي المعتزلة : أبو الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥ هـ . ويعتبر أبو إسحاق إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام المتوفى سنة ٢٣١ هـ من تلاميذ أبي الهذيل

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٧١ .

(٢) الحلل الموشية ص ٧٦ .

العلاف . وكان للنظام منزلة لا تدانى فى عصره . وقد تتلذذ له أبو عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ الذى تذسب إليه فرق « الجاحظية » من المعتزلة (١) .

وكان علم الكلام بدعة من أكبر البدع فى الإسلام . وقد شدد التنكير على هذا العلم أهل الحديث (السنة السلفية) الذين كانوا يرون أن ما جاوز البحث فى الأحكام الفقهية ابتداع (٢) . وكان رجال مذهب السلف الصالح يرمون علماء الكلام بالكفر والزندقه . وقد روى السبكي أن أحد تلاميذ الشافعى جعل يسأله فى علم الكلام ، فكان الشافعى يجيبه بأخصر جواب ، ثم التفت إليه قائلاً : « يابنى ! هذا علم (يقصد علم الكلام) إن أصبت فيه لم توجر ، وإن أنت أخطأت فيه كفرت ، فهل لك فى علم إن أصبت فيه أجرت وإن أخطأت لم تأثم ؟ قال (التلميذ) : وما هو ؟ قال (الشافعى) : الفقه ، فلزمته وتعلت عليه الفقه (٣) » .

ويعد تأويل الآيات المتشابهات فى القرآن الكريم أهم الفوارق التى تفصل أهل السنة السلفية عن المعتزلة .

(١) التوحيد فى الإسلام :

ذكر الله سبحانه وتعالى التوحيد فى أغلب آيات القرآن الكريم إما مباشرة وإما ضمناً بطريق التذكير بقصص الأنبياء السابقين الذين أرسلوا لتوحيد الله قبل كل شئ (٤) ، وليست أحكام الفروع إلا وسيلة لعبادة ذلك الواحد الأحد . ومن تحصيل الحاصل الاستشهاد بآيات قرآنية تثبت التوحيد لأنها أكثر من أن تذكر . وقد عقدت بعض السور القرآنية جميعها للتوحيد كسورة « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد (٥) » .

وإن هذه السور التى كانت مطلع الوحى ونزلت على النبي الكريم بمكة المكرمة كلها تدور على محور الوحدانية ومحاربة الشرك (٦) . ثم كان التوحيد أول أركان الإسلام فى

(١) أنظر كتابى تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٤٩ — ٣٥٠ .

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة أبى ريدة ص ٥١ .

(٣) السبكي : طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٤١ .

(٤) وفى ذلك يقول الله تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى

هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (سورة يوسف ١١ : ١٢٠) .

(٥) سورة الاخلاص ١١٢ .

(٦) انظر على سبيل المثال سور : العلق ٩٦ ، المزمل ٧٣ ، المدثر ٧٤ .

الحديث النبوي الشريف . « بنى الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً » .

ولقد وضع علماء المسلمين أمر التوحيد في المنزلة الأولى في كل العصور . ومن هذا قول الإمام الغزالي : « لا إله إلا الله كلمة نتيجتها معرفة الوحدانية وثمرتها الإقرار بالفردانية . وذلك هو المقصود من وجود الموجودات ، وكون الكائنات . ولولا معرفة الوحدانية والاقرار بالفردانية ، لما سجد ذيل الوجود على وجود ، ولما أخرج من كتم العدم مفقود ، وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (١) ، كما يتضح ذلك من الحديث القدسي المأثور عن الرسول الكريم وهو : « عبدي خلقتك من أجل التوحيد وخلقت الأشياء كلها من أجلك » .

وفي القرآن الكريم آيات محكمات تنزه الله تنزيهاً تاماً وتباعد بين مشابهة الذات الإلهية بالخلوقات كقوله تعالى : « ليس كمثل شيء . وهو السميع البصير » (٢) ، وقوله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الذي لا إله إلا هو ، الملك القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سجدان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » (٣) ، وقوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ... » (٤) .

وثمة آيات أخرى يفهم ظاهرها مشابهة الله لخلوقاته ، وتسمى الآيات المتشابهات وذلك كقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (٥) وقوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » (٦) ، وقوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده » (٧) وقوله تعالى : « وإنا فوقهم قاهرون » (٨) .

(١) الغزالي : التجريد في علم التوحيد ، مخطوط مكتبة الأسكوريال (Escorial) ورقة رقم ١٧

قسم ٧٦٢ .

(٢) سورة الشورى (٤٢ : ١١) .

(٣) سورة الحشر (٥٩ : ٢٢ — ٢٤) .

(٤) سورة البقرة (٢ : ٢٥٥) .

(٥) سورة طه (٢٠ : ٥) .

(٦) سورة الفتح (٤٨ : ١٠) .

(٧) سورة الأنعام (٦ : ١٨) .

(٨) سورة الأعراف (٧ : ١٢٧) .

وهذه الآيات المتشابهات كانت مثار جدل عنيف بين علماء المسلمين ، ولا سيما بين السلفيين وعلماء الكلام .

وقد وقف السلفيون ومن سار على نهجهم موقف الحياد التام إزاء الآيات المتشابهات ، فلم يسمح لهم ورعهم بأن يعمدوا إلى تأويلها ، بل سلكوا سبيل الحذر ، وحملهم على ذلك أمران : أحدهما ظاهره المنع الوارد في القرآن الكريم ، إذ يقول الله جل شأنه مخاطباً نبيه الكريم :

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ، هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ . رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » (١) .

فالسلفيون قد تركوا أمر تأويل هذه الآيات إلى الله إذ لا يعلم تأويلها إلا هو حسب النص القرآني ، وآمنوا بهذه المتشابهات من غير بحث . قائلين ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا .

والأمر الثاني : — أن التأويل أمر مظنون فيه بالاتفاق ، والقول في ذات الله سبحانه وتعالى بالظن غير جائز . والكلاميون لا يعتبرون التأويل ظناً ، بل يؤمنون بما يرونه من تأويل . هذا إلى أن التأويل المظنون ليس من شرائط الإيمان وأركانه (٢) . ومن أبرز رجال المدرسة الفلسفية الإمام مالك ، والإمام الشافعي والإمام أحمد ابن حنبل رضى الله عنهم .

يقول الشهرستاني في الإمام مالك : « أما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ، ولا تهدفوا للتشبيه ، فمنهم مالك بن أنس رضى الله عنه إذ قال في تفسير قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) : « الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » . كما ذكر الشهرستاني من رجال هذه المدرسة السلفية أحمد بن حنبل وداود الظاهري

(١) سورة آل عمران (٣ : ٧ — ٨) .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل (ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨) .

الأصفهاني^(١) وتلميذه ابن حزم . وكان شعار السلفيين : فر من الكلام في أى صورة تكون كما تفر من الأسد .

ويبر عن شعور السلفيين نحو علم الكلام قول حائق ينسبونه إلى الشافعى وهو : حكى على رجال علم الكلام أنه يجب أن يضربوا بالسياط والنعال وأن يطاف بهم مشهرين في الجامع والقبائل وينادى عليهم : هذا جزء من ينذ القرآن والسنة في ناحية وينكب على علم الكلام الذى إن أصاب المرء فيه لم يؤجر وإن أخطأ فيه كفر^(٢) .

ومن أشهر السنيين السلفيين في العصر السلجوقي شيخ الإسلام عبد الله الأنصارى (٣٩٦ — ٤٨١ / ١٠٠٦ — ١٠٨٨) . وبعد من أئمة العلماء والمحدثين وكبار الصوفية . وكان حنبلي المذهب ، شديد التعصب لرأيه ، ولقى بسبب ذلك كثيراً من العنت والاضطهاد من الفلاسفة وعلماء الكلام ، حتى دبروا له المكاييد للتخلص منه غير مرة ورموه بالكفر عند الوزير نظام الملك في عهد السلطان ألب أرسلان السلجوقي . إذاً تفق هؤلاء العلماء على إغارة صدر السلطان على الأنصارى واجتمعوا عنده لشكواه ، وكانوا قد وضعوا صنماً صغيراً من النحاس في محرابه ، وقالوا إن الشيخ يقول بالتجسيم وإن في محرابه صنماً يقول إن الله على صورته . ثم طلب هؤلاء العلماء إلى السلطان أن يبعث في طلب الأنصارى ، فأرسل السلطان (وقد تملكه الغضب) من يحضر الصنم من قبلة الشيخ فأحضر ، ثم أمر بالشيخ فحضر ، وحضر العلماء ووجوه المدينة إلى مجلس السلطان فوجدوا أمامهم صنماً ، فأتجه السلطان إلى الأنصارى قائلاً : ما هذا ؟ (مشيراً إلى الصنم) ؟ فقال الشيخ : هذا تمثال عمل لعبة للأطفال . فقال السلطان غاضباً : لست أسأل عن هذا ، فقال الشيخ : عم تسألون يا مولاي ؟ فأجابه (السلطان) : إن هذه الجماعة تقول إنك تعبد كما تقول عنك إنك تقول إن الله على صورته ، فقال الشيخ : (سبحانه هذه بهتان عظيم) ، قالها بهيبة وقوة ، فأدرك السلطان أن الجماعة قد افترت عليه كذباً ، فاعتذر السلطان للشيخ وأعادته إلى بيته معزراً مكرماً ، كما اعترفت هذه الجماعة بأنهم دبروا هذه المكيدة للشيخ للخلاص منه ، ولما يلاقونه من تعصبه ، فأمر السلطان بأن يشتروا أرواحهم بثمن غال فرضه عليهم عقاباً لهم .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١١٨ — ١١٩ .

(٢) ابن تيمية : المعقيدة والشريعة لجولداسير (القاهرة ١٩٤٦) ص ١١٤ .

انظر عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤) ص ١٣٣ — ١٣٧ .

وللشيخ عبد الله الأنصاري هذا مؤلفات تشهد له ببراعته في الأدب والزهد . ومن مؤلفاته كتاب ذم الكلام^(١) .

كان اهتمام المسلمين عظيمًا في مجال علم التوحيد كما تقدم ، فقد كتب فيه السلفيون والمعتزلة ، كما عني الشيعة كثيرًا بالبحث في هذا العلم . ومن أهم ما كتبه الشيعة في علم الكلام : كتاب المجالس المستنصرية للمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وداعي دعاء الفاطميين في فارس . ويعد من أهم آثارهم في علم الكلام ، وهو مجموعة مذهب محاضرات ألقاها هذا الداعي في مجالس الدعوة يشرح فيها عقائد المذهب الإسماعيلي الفاطميين^(٢) .

ويعد ديوان المؤيد في الدين من أهم مؤلفاته ، لأن شعره في هذا الديوان يصور عقائد الفاطميين تصويراً تاماً . فقد تحدث عن الولاية والتوحيد ، ولا تسكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذكر الولاية والإشارة إلى وجوب طاعة الأئمة . ومن ذلك قوله في منظومته :

وهم أولو الأمر أئمة الهدى عَصَمَةٌ مَنْ لاذَ بهم من الردى
مفروضة طاعتهم على الأمم قاطبةً مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمٍ
اقرأ : أطيعوا الله والرسولا ثُمَّ أُولَى الْأَمْرِ بِهِمْ مَوْصُولَا
ثَلَاثُ طَاعَاتٍ غَدَّتْ مَعْلُومَةٌ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ مَنظُومَةٌ^(٣)

وكما عرض المؤيد لمبدأ التأويل وإعجاز القرآن والرأى والقياس ، كذلك عرض لنظرية المثل والمثول . فالإسماعيلية يذهبون إلى القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم بتأويل ما أتى به ، وأنه أول الراسخين في العلم وأفضلهم ، وعنه أخذ كثير من الراسخين في العلم . وكما أن النبي كان يعلم تأويل القرآن ، فإن من قام مقامه في كل عصر يعلم هذا التأويل . كما يذهب الإسماعيلية إلى القول بأن القرآن الكريم بحاجة إلى أن يخرج كنوز

(١) وهو بالمتحف البريطاني (Add-٢٧/٥٢٠) .

نظامي عروضي : جهار مقاله (ترجمة) س ١٧٧ — ١٧٨ .

(٢) وقد بلغ عدد هذه المحاضرات ثمانمائة محاضرة . ويرجع الدكتور محمد كامل حسين (ديوان المؤيد في الدين ، مقدمة س ٦٠) أن المؤيد ألقى بعض هذه المحاضرات بعد أن ارتقى إلى رتبة داعي الدعوة في سنة ٤٥١ هـ .

(٣) ديوان المؤيد س ٦١ .

معانيه ويؤولها ، لأن له معان غير المعاني التي تتداولها السنة العامة . وهذه المعاني هي سر إعجاز القرآن ، وإعجازه ليس في لفظه بل في معناه ، وفي ذلك يقول المؤيد :

إِنْ كَانَ إِعْجَازُ الْقُرْآنِ لَفُظًا وَلَمْ يَنْلُ مَعْنَاهُ مِنْهُ حُظًّا
صَادَقْتُمْ مَعْقُودَهُ مَحْلُولًا مِنْ أَجْلِ أَنْ أَنْكَرْتُمْ التَّأْوِيلَ^(١)

والإمامة في نظر الإسماعيلية هي قيادة العالم وحمل معرفة الحقيقة إليه . ولا بد من وجود هذا المرشد في كل عصر حتى لا يبقى العالم جاهلاً ، وأن علياً والأئمة من ذريته هم الذين اختصوا بتأويل القرآن دون غيرهم من الناس . ويقول المؤيد :

وَتَأْوِيلُهُ مُسْتَوْدَعٌ عِنْدَ وَاحِدٍ وَإِنْ لَمْ تَسْأَلْهُ فَزَوْرًا تَأَوَّلَتْ
وَأَخَذُ بَيْتَ النُّورِ لَا شَكَّ بَابُهُ أَبُو حَسَنِ وَالْبَيْتُ مِنْ بَابِهِ يُؤْتَى
لِلْعِلْمِ قَوْمٌ بِهِ خُصُّوا ، أَقَامَهُم رَّبُّ الْوَرَى لِلْوَرَى فِي أَرْضِهِ عَالِمًا^(٢)

ولم يأخذ الفاطميون بالقياس في التفسير والفقه وطعنوا في فتاوى الصحابة ، وذهبوا إلى أن الفقهاء من أهل المذاهب الأولى قد حرفوا القرآن الكريم لأنهم لم يفهموا معناه وإن فهموا لفظه ، كما يتضح ذلك من قول المؤيد :

وَهُوَ الَّذِي قَدْ حَرَّفَ الْكِتَابَ عَنْ وَجْهِهِ وَجَانِبِ الصَّوَابِ
يُثَبِّتُ شَيْئًا لَيْسَ فِيهِ فِيهِ وَحُكْمٌ آيَ أُخْكِمَتْ يَنْفِيهِ^(٣)
كَأَيُّهَا الْعِلْمُ الْإِسْمَاعِيلِيُّ أَنَّ الدِّينَ وَعِلْمَهُ وَقَفَ عَلَى الْأَئِمَّةِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْعُلُومُ
هِيَ عُلُومُ الْبَاطِنِ ، وَلِذَلِكَ سَمَّوُا الْبَاطِنِيَّةَ ، لِأَنَّ اعْتِقَادَهُمْ بِهَذَا الْعِلْمِ هُوَ قَوَامُ عَقِيدَتِهِمْ .
قَالَ الْمُؤَيَّدُ :

وَرُبُّهُ مَعْنَى ضَمِّهِ كَلَامٌ كَمَنْ لِنُورٍ ضَمِّهِ ظِلَامٌ
بَاقٍ بَقَاءَ الْحَبِّ فِي السَّاقِلِ فِي مَعْقِلٍ مِنْ أَحْرَزِ الْمَاعِلِ^(٤)

(١) ديوان المؤيد ص ١١٠ .

ونلاحظ في هذا الكتاب التوحيدى الشيعى أنه اهتم اهتماماً خاصاً بأمور الأئمة العلويين وما يتمتعون به من حقوق يجب على المسلمين القيام بها نحوهم كجزء من العقيدة الإسلامية ، إذ جعلوا الإمامة ركناً سادساً لأحكام الإسلام الخمسة التي وردت في الحديث المشهور بـ"الإسلام على خمس" .

(٢) ديوان المؤيد ص ١٠٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٤ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٦ .

وإن استخلاص الباطن من الظاهر هو ما يطلق عليه نظرية المثل والممثل^(١) وهو تفسير الباطن من الظاهر ، أى تفسير الأمور العقلية غير المحسوسة بما يقابلها ويمثلها من الأمور الجسمية المحسوسة . وهذا الاسم مستمد من أقوال الفاطميين : « إن الله جعل لهم مثلاً دالاً على مثوله فعرفوا الممثل بمثله ، إذ يقول الله سبحانه وتعالى : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثلٍ لعلمهم يتذكرون)^(٢) . فأخفى الله سبحانه الممثل^(٣) وستره وجعل مثله طريقاً إلى معرفته اختباراً لعباده وامتحاناً لهم ، قال المؤيد :

والذى قال فى الكتاب تعالى مَثَلٌ ذاك تحقته ممثل
أقصد : سحاً تمثوله دون المثل ذا إبرُ النحل وهذا كالعسل^(٤)

كما رد المؤيد على الفرق المختلفة فى تفسير رؤية الرحمن ، ورد على الفرق التى أثبتت رؤية الرحمن أو أنكرتها ، فأثبت أن الرؤية تنقسم قسمين : أحدهما محسوس والآخر معقول وهو رؤية العقل . فالبصر لا يتعدى المبصرات الجسمية والعقل لا يدرك إلا المدركات العقلية ، والرؤية إما رؤية حس أو رؤية عقل . قال المؤيد :

فالعقل للمرء أداة كالبصر ذا : باطن فيه وهذا قد ظهر
كلاهما يُدرك بالجانسه مَقالة صَحَّت بلا مُمارسه
وليس من جنس العقول الله يا قوم : كي تُدركه حاشاه^(٥)
كما تعالى أن يكون كالصور مجسماً كيما يلاقيه البصر

فكان المؤيد قد رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالأبصار ، كما رفض أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى بالعقول ، وخالف بذلك أهل السنة الذين أثبتوا الصفات وخالقوا المعترلة الذين رفضوا الصفات . يدل على ذلك قوله .

فالفرقتان اجتمعا مُشَبَّهَةٌ خَبَّاطَةٌ عَشَوَاءُ جَهْلٌ وَعَمَةٌ^(٦)

(١) الظاهر والباطن يقابلهما المثل والممثل . فالمثل : الظاهر ، والممثل : الباطن . ولكل مثل ممثل كما أن لكل ظاهر باطناً . والله يضرب الأمثال للناس ، أما بواطن هذه الأمثال أو يمثلوها فلا يعلمه إلا الأنبياء وحدهم ، لأنهم أصحاب علم الباطن .

(٢) سورة الزمر . ٣٩ : ٢٧

(٣) يقصدون به الله سبحانه وتعالى ، والمثل يقصدون به الشبه والنظير .

(٤) ديوان المؤيد ص ١٠٧ .

(٥) يعنى أن الله يرتفع عن أن تدركه العقول البشرية .

(٦) ديوان المؤيد ص ١١١ .

أما نظر المؤيد إلى ما ورد في آيات الكتاب العزيز من ذكر اليد والقدم والعين وغير ذلك من الصفات الجسمية ، فإن للمؤيد في ذلك رأياً يتفق مع التأويل الذي ذهب إليه الإسماعيلية والمعتزلة . فهو يرى أن اليد هي النعمة ، وهي القوة ، كما يتبين ذلك من قوله :

وقالَ اللهُ وَجْهَهُ وَيَدُ وَقوله : هذا لديه رشْدُ
وقالَ اللهُ : ذلك حُكْمُكُمْ باطلٌ إنَّ صَحَّ ذا ، فاللهُ شَخْصٌ ماثلٌ^(١)

أما رأى المؤيد في الأحرف التي وردت بأوائل السور كقاف ونون وألم وكهيمص ، فإنه يتفق مع رأى الإسماعيلية القائلين بالتأويل . وهو يرى أن لهذه الحروف معاني مستورة خفية لا يعلمها إلا خزنة علم الله . كما عرض المؤيد لقصص الأنبياء وسار فيها على نهج الفاطميين الذين خالفوا جمهرة المفسرين فيما ذهبوا إليه عن الأنبياء . ذلك أن الفاطميين يقولون بعصمة الأنبياء ، على حين يشير بعض هذا القصص إلى أن الأنبياء غير معصومين . وقد قال الفاطميون : إن لهذه الآيات تفسيراً ظاهرياً ، وظاهرها ما قال به جمهرة المفسرين ، أما باطنها فإنه يبعد الأنبياء عن المعاصي . كما سعى الفاطميون الأنبياء النطقاء ، لأن النطق — كما قالوا — قسمان : أحدهما ما يتميز به الإنسان عن البهائم ، وهو النطق عما في الدنيا ، والآخر النطق عما في الدار الآخرة الذي يتميز به أهل التأويل الذين يتكلمون من وراء حجاب أي الذين يدركون الغيب . وعلى هدى هذه الآراء عرض المؤيد لقصة آدم ، وقصة إبراهيم ، والفلك ، وطوفان نوح ، وقصة لوط ، وقصة داود ، وقصة يوسف ، كما عرض لزواج النبي بزَيْنَب بنت جَعْش^(٢) .

ومن أهم الكتب التي تعرض لفلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب المجالس المستنصرية^(٣) . فقد عرض مؤلفه لعقائد المذهب الإسماعيلي في إيجاز ، وقد أشار إلى هذه العقائد ، ولكنه

(١) المصدر نفسه ص ١١٤ .

(٢) انظر مقدمة ديوان المؤيد ص ١٣٤ - ١٥٢ .

(٣) ذكر ليفانوف في كتابه «المرشد إلى أدب الإسماعيلية» A Guide to Ismaili Literature أن هذا الكتاب ينسب إلى المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ، وأنه غير كتابه المعروف باسم المجالس المؤيدية . ويشك الدكتور محمد كامل حسين الذي قام بنشر كتاب المجالس المستنصرية في نسبة هذا الكتاب إلى المؤيد في الدين ، ويستند في قوله هذا إلى أن التأويل على ما ورد في كتاب المجالس المستنصرية يختلف عن التأويل الذي ورد في كتاب المجالس المؤيدية إذ أن المؤلف الواحد لا يرى رأيين مختلفين في مسألة واحدة كما أن صاحب كتاب المجالس المستنصرية كان يميل إلى الاعتقاد على الفقه في آرائه أكثر من اعتياده على = (م ٣٠ - تاريخ الإسلام - ج ٤)

منها مسأ رقيقاً في الوقت الذي عرض فيه المؤيد في الدين لأصول هذه العقائد التي لا بد من أن يلم بها المستجيب . لذلك لم يسرف في التأويل لإسرافاً يثقل على السامع الذي لا عهد له بعلم الباطن من قبل . ولهذا نراه يعرض للعبادات ولقواعد الإسلام العملية من الفرائض والسُنن . وانفرد هذا الكتاب بأنه رفع من شأن إمام العصر المستنصر بالله الفاطمي وأعلى ذكره وغالى في تمجيده . ولما كان المستنصر هو الإمام التاسع عشر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد عمد الداعي إلى أن يتخذ من هذا العدد التاسع عشر أصلاً من أصول الدين ، فجعل لكل دعامة سبع فرائض واثنى عشرة سنة . فيكون مجموعها تسع عشرة إشارة إلى الإمام المستنصر^(١) . ولم ينفرد فلاسفة الدعوة الإسماعيلية باتخاذ الأعداد أصولاً لآراء دينية . فقد اتخذ الفيشاغوريون من كل عدد أصلاً لدراساتهم ، كما اتخذ العبرانيون العدد سبعة أصلاً لبعض عقائدهم ، وكما فعل الحرازيون حين اتخذوا العدد خمسة أصلاً لعقيدتهم . وكذلك كان قدماء المصريين مُثلثة^(٢) ، والزرادشتيون مَحْمَسة . وهاك أهم ما يمكن أن يستخلص من هذا الكتاب :

- ١ — توحيد الله وتزجيه ونفي الإشرار والقرناء له .
- ٢ — الاعتراف بالأنبياء والرسول وأنهم معصومون من كل خطأ ، وأن محمداً خاتم النبيين .
- ٣ — القول بوصاية علي بن أبي طالب وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم جميعاً .
- ٤ — التصديق بما جاء به القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطناً .
- ٥ — إبطال الرأي والقياس في كل أمور الدين ووجوب الأخذ عن الأئمة .
- ٦ — القول بالظاهر والباطن معاً بمعنى أنه لا يقبل الظاهر دون الباطن ولا الباطن دون الظاهر^(٣) .

وقد انفرد هذا الكتاب بأنه أفرد مجلساً تحدث فيه الداعي إلى معشر المؤمنين بما يوحى بأن الدعوة كانت توجه إلى الرجال والفساء .

== التأويل أى أنه كان سائراً على مذهب السلف الصالح ، بخلاف المؤيد في الدين ، فانه كان يؤثر التأويل . وقد خلص ناشر كتاب المجالس المستنصرية إلى القول بأن هذا الكتاب ينسب إلى الداعي علم الإسلام ثقة الإمام لا إلى المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي .

راجع كتاب المجالس المستنصرية للداعي علم الإسلام (القاهرة ١٩٤٧) .

(١) كتاب المجالس المستنصرية ، مقدمة ص ١٧

(٢) المصدر نفسه ، مقدمة ص ١٨ .

(٣) المصدر نفسه ، مقدمة ص ١٨ .

ويشتمل هذا الكتاب على خمسة وثلاثين مجلساً : عرض في المجلس الأول منها لوجوب التأويل ، وعرض في المجلس الثاني الى المجلس السادس للفرائض والسنن ، وعرض في المجالس من السابع عشر الى الرابع والعشرين الى حسن المعاملة ، كالبر بالوالدين وصلة القرابة وحفظ الجار ، ومعاملة الزوجين ، ومعاملة العبيد ، وتعرض في المجلس الخامس والعشرين الى المجلس الثلاثين لصيام رمضان (١) .

٢ — علم الكلام في المغرب والأندلس :

كان المغرب يسير على وفق العقيدة السلفية ، وظل أهل هذه البلاد على هذه العقيدة حتى ظهر المهدي محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية ، إذ كانت دعوته توحيدية محض . فقد تحدى علماء المرابطين ورمهم بالشرك والتجسم لأنهم يتمسكون بظاهر الآيات المتشابهات ، وظل يقاومهم حتى سقطت الدولة المرابطية وقامت الدولة الموحدية تحمل مذهباً كلامياً جديداً دعا إليه ابن تومرت . وفي ذلك يقول المراكشي : « وكان جل ما يدعوا إليه (ابن تومرت) علم الاعتقاد على طريق الأشعرية . وكان أهل المغرب . . . ينافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه شديداً أمرهم في ذلك » (٢) .

وليس من شك في أن ابن تومرت كوّن عقيدة من المذاهب الإسلامية التي سبقته ، ولكنه خرج آخر الأمر بعقيدة توحيدية متميزة خاصة به . فالعقيدة التومرتية تعتبر مزيجاً من المذاهب الكلامية ؛ فهي ليست أشعرية بحتة كما ذكر المراكشي وابن خلدون ، ولا خارجية كما أدركها علماء المرابطين ، كما أنها ليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها ، ولا سلفية تنأى عن الرأي والتأويل ، وليست غزالية كما نوهمها « أندريه جوليان » ، بل هي مزيج من أغلب المذاهب المذكورة وغيرها . وقد أغفل المؤرخون جانباً هاماً في وضع هذه العقيدة وهو المذهب الحزمي .

فقد تأثر ابن تومرت إلى حد ما بمذهب العلامة الأندلسي « ابن حزم » ، مما يرجع الرأي القائل بأن ابن تومرت قضى شطراً من حياته الدراسية بالأندلس قبل أن يقصد إلى معاهد الشرق ، وأنه نهل إلى حد ما من معين الثقافة الحزمية التي كانت تتألق حينئذ بقرطبة .

(١) المصدر نفسه ص ٥ — ١٤٧ :

أظن كتابي : تاريخ الدولة القاطمية ص ٤٦٥ — ٥٠٠ .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٨٤ .

ولكن نبين مدى تأثير ابن تومرت بآراء ابن حزم في العقيدة ، كان من الضروري أن نعقد مقارنة بينهما في هذا الصدد ، ولكنه من العسير أن نعقد مقارنة كاملة بين الإمام ابن حزم ، وبين المهدي بن تومرت في ميدان التوحيد لسبب أساسي وهو أن ابن حزم له مذهب كلامي مفصل واضح المعالم يحدد المنهج ، إذ قد ناضل المعتزلة والأشعرية والخوارج والشيعية والمرجئة وغيرهم ، وانتهى من هذا النضال إلى نتائج تميز مذهبه ، وتعين مدرسته ، وتبرز شخصيته . وبهذا الجهد المتواصل انفصلت شخصية المذهب الحزمي عن شخصية المذهب الظاهري الذي فضله ابن حزم على جميع المذاهب ، وأعجب به .

أما المهدي بن تومرت فلم يناضل المذاهب الكلامية نضالا علنيا ، ولم يقدم لنا نظريات وآراء نستطيع بها أن نبنى له مذهباً خاصاً .

وكل ما يمكن أن نعمله من مقارنة ، هو مقارنة عقيدته المدونة بكتابه أعز ما يطلب بآراء غيره في ميدان هذه العقيدة ، لنرى مدى التشابه أو المخالفة بينه وبين أهل المذاهب الكلامية المفصلة مثل ابن حزم .

وربما كان السبب في تخلف ابن تومرت عن أن يترك للناس مذهباً دراسياً على نمط المعتزلة والأشعرية والحزمية وغيرهم ، أنه أفرغ نشاطه في مقاومة المرابطين ، والتفنن في كيفية قهرهم ، وصرف الناس عن اتباع مذهب السلف الذي قد يجبر معتقيه إلى التشبيه والتجسيم . وابن تومرت في هذا الميدان العلمي يعتبر من الشخصيات العلمية البارزة في التاريخ الإسلامي ، فقد انتهت دعوته بإسقاط دولة عتيدة وإقامة دولة مكانها ، بينما أخفق ابن حزم في نشر مذهبه في حياته ، إذ قهرته السلطات الحاكمة بالاندلس ، ونجح علماء المالكية في الكيد له حتى أحرق المعتمد بن عباد كتبه ، ومات مهيبض الجناح . وقد ضاق الغزالي بفساد أهل زمانه ، ولكنه لم يجترأ على مساجلة الدولة السلجوقية ، بل كان لها أداة طيعة . والمعتزلة من قبل قد نجحوا في جذب المأمون إلى صفوفهم . كما جذبوا المعتصم والواثق ، ولم يهادنهم الزمن بعد ذلك ، فهزموا على يد السنيين هزيمة لم تقم لهم بعدها قائمة .

وابن تومرت مصلح ديني عملي ، وإن لم يترك مذهباً كلامياً كاملاً . وسوف نقدم نصاً من عقيدته كما دونها في كتابه « أعز ما يطلب » . قال المهدي بن تومرت تحت عنوان : « توحيد الباري سبحانه » لا إله إلا الذي دلت عليه الموجودات ، وشهدت عليه المخلوقات ، بأنه جل وعلا ، وجب له الوجود على الإطلاق ، من غير تقييد ولا تخصيص بزمان

ولا مكان ، ولا جهة ولا حد ولا جنس ولا صورة ولا شكل ولا مقدار ولا هيئة ولا حال .

أول ، لا يتقيد بالقلبية ، آخر ، لا يتقيد بالبعدية ، أحد ، لا يتقيد بالآينية (١) محمد . لا يتقيد بالكيفية ، عزيز ، لا يتقيد بالثلثية ، لا تحده الأذهان ، ولا تصوره الأوهام ، ولا تلحقه الأفكار ، ولا تكيفه العقول ، لا يتصف بالتحيز والانتقال ، ولا يتصف بالتغير والزوال ، ولا يتصف بالجهل والاضطرار ، ولا يتصف بالعجز والافتقار ، له العظمة والجلال ، وله العزة والكمال ، وله العلم والاختيار ، وله الملك والافتدال ، وله الحياة والبقاء ، وله الاسماء الحسنی .

واحد في أزليته ، ليس معه شيء غيره ، ولا موجود سواه ، لا أرض ولا سماء ولا ماء ولا هواء ولا خلأ ، ولا ملاء (٢) ولا نور ولا ظلام ، ولا ليل ولا نهار ولا أنيس ولا حسيس .

ولا رز (٣) ، ولا همس ، إلا الواحد القهار . انفراد في الأزل بالوحدانية والملك والآلوهية ، ليس معه مدبر في الخلق ولا شريك في الملك ، له الحكم والقضاء وله الحد والثناء ، لا دافع لما قضى ولا مانع لما أعطى ، يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه ما يشاء ، لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، ليس فوقه أمر قاهر ولا مانع ، زاجر ليس عليه حق ولا عليه حكم ، فكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون (٤) .

تأثر ابن حزم بمذهب داود الظاهري في الفقه والعقيدة على السواء ، بل لقد زاد عليه في تمسكه الشديد بظاهر القرآن الكريم والحديث الشريف في العقيدة . فكان ابن حزم لا يقول بصفات الله ولا يقول بالتأويل . ولذلك حمل على المعتزلة وعلى الأشعرية في غير هوادة . يقول ابن حزم (٥) :

« وأما إطلاق لفظ الصفات لله تعالى عز وجل فمحال لا يجوز ، لأن الله تعالى لم ينص

(١) أي لا يتقيد بالمكان ، فالآينية نسبة إلى أين التي يسأل بها عن المكان .

(٢) يقصد بالخلاء الفضاء الأرضي وبالملاء الفضاء الجوى ، من قولهم : الملاء الأعلى ولكن اللفظة المنوية تعطى معنى آخر . فالملاء والملاءة شدة الثقة . انظر مختار الصحاح مادة « ملاء » .

(٣) الرز (بفتح الراء مع التشديد) ، أن يسكت اللسان فجأة .

(٤) أعز ما يطلب من ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٢ من ١٢٠ .

قط في كلامه المنزل على لفظة الصفات ولا على لفظة الصفة ، ولا حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى صفة أو صفات . نعم ! ولا جاء قط ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولا عن أحد من خيار التابعين ، ولا عن أحد من خيار تابعي التابعين .
ويذكر ابن حزم أن لفظ الصفات قد ابتدعه المعتزلة ورؤساء الرافضة ، ثم سلك سبيلهم قوم من أصحاب الكلام الذين لم يتبعوا سبيل السلف الصالح . ويبين ابن حزم منهجه الكلامي في هذه العبارة : « إنما الحق في الدين ما جاء عن الله تعالى نصاً أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك ، أو صرح لإجماع الأمة كلها عليه ، وما عدا هذا فضلال » (١) .

ويفسر ابن حزم ما يسميه الأشعرية « صفات » الله تفسيراً بارعاً ، إذ يقول في قوله تعالى (والله بكل شيء عليم) « إن الله له معلومات بالأمور كلها ، وهو لا يخفى عليه شيء ، ولا يفهم منه البتة أن له علماً هو غيره » (٢) .

من ذلك نرى أن ابن حزم قد زاد على السنة السلفية في التمسك بنص الكتاب والسنة ، إذ أن السلفيين رفضوا الدخول في مناقشات في العقيدة ، واعتبروا أهل الكلام كفاراً أو زنادقة . ولكن ابن حزم لم يقف من علماء الكلام موقفاً سليماً كما وقف أهل السنة السلفية ، بل نازلهم وناقشهم بالحجة والبرهان ، واستكمل في مناقشته آيات قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة ، فحمل على المعتزلة وعلى تلاميذهم الأشعرية . وكان لمذهبه أتباع كثيرون في كثير من أرجاء العالم الإسلامي ، بل إنه ترك وراءه فرقة تحمل اسمه وتعرف بالحزمية . وقد انضم إلى هذه الحزمية كثير من الظاهرية . ومال يعقوب المنصور الموحدى إلى مذهب ابن حزم في التوحيد ، واعتنق مذهباً في التوحيد رجوعاً إلى الكتاب والسنة .

(و) النحو :

حفل العصر السلجوقي بطائفة من مشهورى النحاة ، نخص بالذكر منهم أبا البركات عبد الرحمن الأنبارى (٣) (ت ٥٧٧ هـ) . وقد رحل إلى بغداد في صباه وقضى بقية حياته فيها ، وتلقى العلم بالمدرسة النظامية ، ودرس اللغة على أبى منصور الجوالقى ونىغ فى الأدب .

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢١ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٩ .

انظر عبد الله علام : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ١٥٢ — ١٥٤ ، ١٥٥ — ١٥٦ .

(٣) نسبة إلى الأنبار وهى بلدة قديمة على الفرات ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ . وقد قيل لأنها سميت بهذا الاسم لأن كسرى كان يتخذ فيها أنابيب للطعام . والأنابيب جمع أنبار ونبر كصرد : القم الضخم . راجع القاموس المحيط مادة نبر .

وقد عهد إليه بتدريس النحو بالمدرسة النظامية ، وصنف فيه كتاب « أسرار العربية » وكتاب « الميزان » .

ومن مشهورى النحاة أبو نزار البغدادي . وكان من المبرزين في النحو حتى صار « أنحى طبقته » . وكان يعجب بنفسه حتى لقد لقب نفسه ملك النحاة . وكان يستخط على من يخاطبه بغير هذا اللقب . وقد تلقى أبو نزار الحديث وأصول الدين والفقه وعلم الكلام على أئمة زمانه ، وأخذ النحو على القصبجي الذي أخذه على عبد القادر الجرجاني . ثم رحل أبو نزار إلى جرجان وكرمان وغزنة ثم إلى الشام ، واتخذ مدينة دمشق موطنه وتوفي بها سنة ٥٦٨ هـ (١) .

ومن مشهورى النحاة أيضاً ابن الدهان ، وكان يسمى « سيويو » عصره . وقد وضع كثيراً من المصنفات القيمة في النحو ، منها « شرح الإيضاح والتكملة » ويقع في ثلاثة وأربعين مجلداً ، و « الفصول الكبرى » و « الفصول الصغرى » . كما شرح كتاب « اللمع » لابن جنى (بكسر الجيم والنون مع التشديد) في مجلدين وسماه « الغرة » . وألف في النحو كتاب « العروض » وكتاب « الدروس » وكتاب « الرسالة السعيدية في المآخذ السكندرية » (ويشتمل على سرقات المتنبي كما ذكر ابن خلسكان) . كما ألف ابن الدهان كتاب « زهر الرياض » في سبع مجلدات ، وكتاب « الغنية في الطاء والظاء » ، وكتاب « العقود في المقصود والممدود والراء » ، وكتاب « الغنية في الأضداد » .

وقد عاصر ابن الدهان كثيراً من أئمة النحاة كالجواليقي ، وابن الحشاش ، واشتهر في النحو وبرز فيه حتى كان العلماء يفضلونه على هؤلاء النحاة مع ذبوع شهرتهم في هذا المضمار . ترك ابن الدهان بغداد إلى الموصل ، فتلقاء الوزير جمال الدين بالقبول وأحسن إليه . ولكن كتبه التي خلفها ببغداد قد تلفت بسبب فيضان دجلة ووصول مائه إلى داره . ولما حملت هذه الكتب إلى ابن الدهان على هذه الصورة ، أشير عليه بإصلاح ما أمكن لإصلاحه منها ، فقام بتبخيرها بنفسه بثلاثين رطلاً من اللاذن ، فصعد البخار إلى رأسه وعينه حتى قيل إن ذلك أفقده بصره ، ولم يحل ذلك دون انتفاع الطلاب بتصانيفه . وكان ابن الدهان فوق تفوقه في النحو ينظم الشعر ، كما كان ابنه أبو زكريا يحيى ابن سعيد أديبا شاعراً .

وقد توفي ابن الدهان بالموصل سنة ٥٦٩ هـ (٢) .

(١) ابن خلسكان : وفیات الأعيان ج ١ ص ٣٧١ .

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٦ .

ومن أئمة النحو في هذا العصر ابن الخشاب البغدادي ، وكان متبحراً في النحو والأدب والتفسير والحديث والنسب والفرائض والحساب والقراءات ، كما اشتهر بجودة الخط . وقد شرح كتاب « الجمل » لعبد القادر الجرجاني وسماه « المرتجل في شرح الجمل » ، كما شرح كتاب « اللمع » لابن جني (ولم يكملها) وتوفي سنة ٥٦٧ هـ (١) .

وقد أخذ النحو على ابن الخشاب : أبو البقاء (الضرير) العكبري (٢) الأصل البغدادي المولد والدار . وقد اشتهر بالفقه على المذهب الحنبلي ، كما اشتهر بالحساب والفرائض ، وأخذ النحو على ابن الخشاب وغيره من أئمة النحو في عصره . ووضع أبو البقاء كتاباً قيمة في النحو وشرح كتاب « الإيضاح » لأبي علي الفاسي . كما شرح ديوان المتنبي . وألف من الكتب النافعة كتاب إعراب القرآن الكريم (في مجلدين) ، « وإعراب الحديث » و « شرح اللمع » لابن جني و « الباب في علل النحو » و « إعراب شعر الحاسة » لأبي تمام ، و « شرح المفضل » للزمخشري : والخطب « النبائية » و « المقامات الحريرية » ، وكذلك ألف في النحو والحساب وانتفع به الطلاب وذاع اسمه في البلاد .

وتوفي أبو البقاء سنة ٦١٦ هـ .

ومن أئمة النحو أبو البقاء ويعرف بابن الصائغ . وكان موصل الأصل . ولد بحلب ونشأ بها وأخذ العلم فيها وفي دمشق والموصل وبغداد وغيرها . واتصل به عدد من جلة علماء عصره مثل بهاء الدين بن شداد قاضي حلب وصاحب كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » (ت ٦٣٢ / ١٢٣٤) وابن الأثير (ت ٦٣٠ / ١٢٣٢) صاحب كتابي « الكامل في التاريخ » و « أسد الغابة في تمييز الصحابة » . وقد شرح أبو البقاء كتاب « المفصل » للزمخشري وكتاب تصريف الملوكي لابن جني ، وتوفي بحلب سنة ٦٤٣ هـ (٣) .

وفي عهد بني نجاش في اليمن ظهر كثير من العلماء والشعراء والفقهاء . وكان الحسن ابن أبي عباد إمام النعاعة في عصره . وقد صنف في النحو مختصراً ذاع صيته في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . كما كان الحسن من أئمة اللغة ، وكذلك كان ابن أخيه إبراهيم من بعده .

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٨ — ٢٩٠ .

(٢) نسبة إلى عكبراء (بضم العين وسكون الكاف وفتح الباء) : بلدة على نهر دجلة تبعد عن بغداد بعشرة فراسخ .

(٣) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ٦ ص ٤٥ — ٥١ .

ومن العلماء الذين ذاع صيتهم في هذا العصر أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني (وكان لغويًا نحويًا)، وأبو طاهر النحوي في عهد الخليفة الحاكم، وأبو يعقوب النجيري^(١) في عهد الخليفة الظاهر، وابن البركات (ت ٤٢٠ هـ)، وأبو الحسن علي بن إبراهيم بن الأغلب. وقد صنف في النحو كتابًا كبيراً، كما صنف في إعراب القرآن كتاباً يقع في عشر مجلدات. وكان فوق ذلك عالماً بالتفسير واللغة، وتوفي في أوائل عهد الخليفة المستنصر^(٢). ومن نخبة العصر الفاطمي أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ (ت ٤٦٩ هـ). وقيل إنه دليلى الأصل. وكان إمام عصره في علم النحو. وقد صنف كثيراً من الكتب القيمة، نذكر من بينها: المقدمة، وشرح الجمل للزجاجي، وشرح كتاب الأصول لابن السراج. كما جمع وهو في عزله طائفة كبيرة من المسائل النحوية قيل إنها لو نسخت لقاربت خمس عشرة مجلدة. وقد سماها النخبة الذين جاءوا بعده «تعليق الغرفة»، وقد انتقلت هذه التعاليف إلى تلميذه أبي عبد الله محمد بن بركات النحوي، ثم إلى صاحبه ابن برى (بفتح الباء وكسر الراء مع التشديد)، ثم إلى صاحبه أبي الحسين النحوي. وكان كل من هؤلاء النخبة المشهورين يهجم إلى تلميذه ويعهد إليه بحفظها^(٣).

ومن نخبة هذا العصر أيضاً: إسماعيل بن خلف المتوفى سنة ٤٥٠ هـ. وقد ألفت القراءات ونفع في الأدب. وكان من أهل سرقسطة في شرق الأندلس. ومن نخبة الأندلس أيضاً: عبد الله البطليوسي. ومن مؤلفاته كتاب «الحلل في شرح أبيات الجمل» و«الحلل في أغاليط الجمل» و«شرح كتاب سقط الزند» لأبي العلاء المعري، وكتاب «شرح الموطأ» للإمام مالك، وقد أقام البطليوسي بمدينة بلنسية شرق الأندلس، وأخذ عنه كثير من الطلاب، وكان يجيد نظم الشعر. فمن قوله في نظم العالم.

أخو العلم حيٌّ خالدٌ بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم

وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى يُظنُّ من الأحياء وهو عديم^(٤)

ومن نفع في النحو في الأندلس أبو الحجاج يوسف المتوفى سنة ٤٧٦ هـ. وكان من

(١) بفتح النون مع التشديد وكسر الجيم وفتح الراء، نسبة إلى نجير (ويقال نجارم) وهي محلة

أو قرية بالبصرة.

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٦١ — ٤٦٢.

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٩٩ — ٢٠٠.

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٨٢ — ٢٨٣.

أهل شتيمرية^(١) . وقد رحل إلى قرطبة وأخذ العلم بها . وكان عالماً باللغة حافظاً للشعار ملأ بمعانيها حريصاً على ضبطها وإتقانها . وقد قصد الطلاب من البلاد لأخذ العلم عنه . وقد كف بصره في آخر أيامه .

وقد شرح أبو الحجاج كتاب « الجمل » في النحو لأبي القاسم الزجاجي ، وشرح أبيات الجمل في كتاب مفرد^(٢) .

ومن أئمة نحاة الأندلس أيضاً أبو علي عمر (بن محمد بن عبيد الله الأزدي) الشلوبيني^(٣) ، وكان إماماً في علم النحو حتى كان أهل الأندلس يعتزون بعلمه ويقولون : « ما يتقاصر الشيخ أبو علي الشلوبيني عن الشيخ أبي علي القاسمي » ، وقد شرح الشلوبيني المقدمة الجزولية (في القراءات والنحو) شرحاً وافياً وشرحاً موجزاً . ومن مؤلفاته في النحو كتابه الكبير « التوطئة » . وقد أقام الشلوبيني بإشبيلية مسقط رأسه . وذكر ابن خلكان^(٤) أن الشلوبيني كان خاتمة أئمة النحو في الأندلس .

(ز) علم اللغة :

ذكرنا في الجزء الثالث من هذا الكتاب^(٥) أن علم اللغة قد تطور في العصر العباسي الثاني تطوراً ملحوظاً بارتقاء النحو وتنظيم المعاجم . فقد رأينا كيف وضع أبو الأسود الدؤلي أساس علم النحو في البصرة ، وكيف نبغ في مدرستي البصرة والكوفة كثير من العلماء المبرزين كأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد الذي وضع علم العروض ووضع كتاب العين الذي يعتبر أول موسوعة في اللغة العربية كما يعتبر أول معجم عربي مرتب على حسب الحروف الأبجدية . كذلك نذكر سيبويه الفارسي تلميذ الخليل بن أحمد . وقد أخذ الفراء عن أستاذه الكسائي النحو واللغة وفنون الأدب . ومن أشهر كتب الفراء كتاب معاني القرآن وهو تفسير لغوي شرح فيه دقائق النحو واللغة .

(١) بفتح الشين المعجمة وسكون النون وفتح الفاء المثناة من فوقها والميم وكسر الراء وبمدها ياء مشددة مثناة من تحتها وبمدها هاء ساكنة : وهي مدينة في غربي الأندلس ببلاد البرتغال الآن . وقد قيل له الأعم لأنه كان مشقوق الشفة العليا .

(٢) ابن خلكان ج ٦ ص ٧٩ — ٨١ .

(٣) وهذه الكلمة باغة الأندلس معناها الأبيض الأشقر :

(٤) وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٢٤ .

(٥) ج ٣ ص ٣٥٢ — ٣٥٦ .

وقد نهض لغويو القرن الثالث نهضة مشكورة لاستكمال ما فات كتاب العين من نقص واستدركوا ما فيه من تصحيف وتحريف ربما وقع فيه الناسخون ، فوضعوا المعاجم المنظمة على طريقة الخليل من حيث ترتيب حروف المعجم على المخارج الصوتية والابتداء بحروف الحلق ، وأولها حرف العين . فأنشأ ابن دريد (بضم الدال وفتح الراء وسكون الياء) (٢٢٣ — ٣٢١ هـ) جمهرة اللغة ، وإن كان لا يخلو من بعض المأخذ لما يلاقه الباحث الذي يؤثر السرعة من صعوبة في الوصول إلى غايته من كتب اللغة . ولعل ابن دريد أول من اخترع فن المقامات في اللغة العربية . وعنه روى تلميذه أبو علي القالي (٢٢٨ — ٣٥٦ هـ) « كتابه الأمل » من أحاديث مضبوطة شبيهة بالمقامات والقصص القصيرة .

ومن علماء اللغة أيضاً صاحب إسماعيل بن عباد (٣٢٦ — ٣٨٥) صاحب كتاب « المحيط » ، ويقع في سبع مجلدات ، وابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ صاحب كتاب « المعجم » ، وأبو منصور الأزهرى (٢٨٢ — ٣٧٠ هـ) صاحب كتاب التهذيب ، وقد رتب المادة اللغوية على الحروف مع ملاحظة أن يكون الحرف الأخير في الكلمة هو الباب والحرف الأول منها هو الفصل . وقد ذاعت هذه الطريقة بعد الجوهري في تأليف المعاجم في المشرق والمغرب .

ومن علماء اللغة في شرح الدواوين الأدبية ابن بسطام (بكسر الباء) الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي (٤٢١ — ٥٠٢ هـ) . وقد تلمذ لأبي العلاء المعري ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد . وكان أحد أئمة اللغة والبلاغة في عصره ، وصنف كتباً كثيرة في الأدب مثل تهذيب غريب الحديث ، وتهذيب لإصلاح المنطق ، وكتاب السكافي في علم العروض والقوافي ، وكتاب الملخص في إعراب القرآن^(١) . ومن كتبه أيضاً شرح ديوان الحماسة وشرح ديوان المتنبي وشرح سقط الزند وهو ديوان أبي العلاء المعري ، وشرح المعلقات السبع وشرح المفضليات .

وقد ألف الجوهري من علماء المشرق كتاب الصحاح على الترتيب المعروف بحروف المعجم ، فجعل البداية منها بالهمزة ، وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم ، وحصر اللغة اقتداءً بحصر الخليل ابن أحمد .

(١) وقد أطلع عليه ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٣٣) ويقع في أربع مجلدات .

ومن أئمة اللغة في العصر الفاطمي بمصر أبو القاسم السعدي . ولد بجزيرة صقلية سنة ٤٣٣ هـ ، ثم وفد إلى مصر حول سنة ٥٠٠ هـ ، واتخذها مقراً له ، واشتهر بالبحر في اللغة . وكان من أئمة الأدب في عصره ، وقد صنف كتاب الأفعال وكتاب أبيات الاسماء ، وكتاب الدررة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة (يعني جزيرة صقلية) ، وكتاب لمح الملح الذي جمع فيه كثيراً من أشعار الأندلس ، وتوفي بمصر سنة ٥١٥ هـ (١) .

وقد اشتهر أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بن برى المقدسي الأصل في اللغة والنحو والرواية . وكان كما وصفه ابن خلكان (٢) « علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره » . وقد أخذ علم اللغة عن أبي بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني (بفتح الشين مع التشديد والتمام) النحوي وأبي طالب المعافري القرطبي ؛ كما سمع الحديث وحفظ كلام العرب ، وذيل كتاب الصحاح بحواشي قيمة ، واستدرك عليه في مواضع كثيرة تدل على سعة علمه وإطلاعه وغزارة مادته . وأخذ عنه فريق من العلماء كأبي موسى الجزولي صاحب المقدمة في النحو . وكان لا يصدر بديوان الإنشاء كتاب إلى ملك من الملوك إلا بعد أن يتصفحه ابن برى ويصلح ما قد يحده فيه من خطأ ، وتوفي ابن برى بمصر في سنة ٥٨٢ هـ .

ومن أئمة اللغة والأدب أبو طالب عبد الجبار المعافري (٣) المغربي . وقد جاب البلاد وانتهى به المطاف إلى بغداد حيث تلقى العلم بها ، وأخذ عنه كثير من الطلاب . وفي سنة ٥٥١ هـ وصل إلى مصر واشتغل بالتدريس فيها . وما يؤثر عنه أنه كان يجيد الخط المغربي ويعني بضبط ما يكتب . وقد غادر مصر سنة ٥٦٨ هـ ، ولكنه مات وهو في طريقه إلى بلاده (٤) .

ومن علماء اللغة في الأندلس أبو علي القالي المتوفى سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٦ — ٩٦٧ م) . وقد استقدمه عبد الرحمن الناصر من العراق لتأديب ابنه الحكم المستنصر ، وألف كتابه « السكامل في اللغة » ، وأصبح كتابه « الأمالى » مرجعاً أساسياً يعتمد عليه في اللغة والأدب . وأبو علي القالي أول من أسس علوم اللغة وآدابها في الأندلس ، وعليه تخرجت الطبقة الأولى من اللغويين وأكابر الأدباء في هذه البلاد .

(١) ابن خلكان ج ٣ ص ١١ — ١٢ .

انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٣٧ — ٤٣٩ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٩٢ .

(٣) نسبة إلى المعافري (بضم الميم) بن يعفر (بفتح الياء وسكون العين وضم الفاء) وهى قبيلة كبيرة يقيم أكثرها في مصر .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٨٤ .

ويحتل ابن سيدة (بكسر السين وفتح الدال) الأعمى الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ - ١٠٦٦ م) مكاناً بارزاً بين علماء اللغة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). وكان ينعم بتعصيد الموفق صاحب دانية. وهو الذي ألف كتاب «المحكم». وتعرض فيه لاشتغاقات الكلم ونصاريها، ثم لخصه محمد بن أبي الحسين. وكان معاصراً للدولة الحفصية بتونس، ورتبه على نمط كتاب الصحاح للجوهري على أساس اعتبار أواخر الكلمات. فكان هذان المعجمان — كما يقول ابن خلدون — «توأمي» و«سليبي أبوة». ويعتبر كتاب «المختص» لابن سيدة الذي يقع في عشرين جزءاً (ببلاقي سنة ١٣٢١ هـ) دائرة معارف جليلة.

وقد ذكر المقرئ^(١) في ترجمة ابن سيدة أنه إمام اللغة في عصره وأنه رحل بعد موت الموفق صاحب دانية لأنه لم يأمن جانب ابنه، ففر إلى بعض البلاد المجاورة وكتب إليه مستعطفاً.

ومن نبغ في اللغة أيضاً: ابن مالك الأندلسي مؤلف الألفية المنسوبة إليه. وقد ولد في جيان ورحل في صباه إلى الشام وبقي بها حتى مات بدمشق سنة ٦٧٢ هـ (١٣٧٢ م).

(ح) الأدب

(١) الشعر

(١) تمهيد: ذكرنا من قبل^(٢) أن نزعة الأمويين في الشعر كانت جاهلية لا تميل إلى الفلسفة، وأنه لما انتقل الحكم إلى العباسيين ظهر كثير من الشعراء انتهجوا مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب في الشعر خاصة وفي الأدب عامة. وذلك يرجع إلى اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء في الدولة العباسية عما كانت عليه في الجاهلية. كما يرجع ذلك إلى انتشار الشعوبية وأثر الثقافة الأجنبية والفارسية خاصة. ومع ذلك فما زلنا نرى في اللغة العربية بقايا من قيود الشعر القديم كالفواقي والأوزان والنظام اتخاذ أواخر الأبيات في جميع أبيات القصيدة الواحدة. وتعرف هذه الطريقة بمذهب المحافظين في أيامنا هذه.

على أن شعراء الفرس لم يدخلوا على الشعر العباسي تغييرات من الناحية الشكلية. غير

(١) فتح الطيب ج ٥ ص ١٧١.

(٢) انظر كتابي تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٥٦ — ٣٥٧.

أنهم أمدوه بكثير من ألوان الخيال الخصب والتعبير الدقيق والإحساس العميق . كما أمدوه بطائفة كبيرة من الآراء والأفكار التي أكتسبوها من الحياة الإسلامية الجديدة ، إذ كان الإسلام ذا تأثير عميق في الحياة العامة . ونرى أن الشعر في هذا العصر يتميز بصفة عامة بالرفقة والعمق والتفنن في المعاني ، كما يتميز بالنقد الدقيق .

وربما ترجع نهضة الشعر والآداب إلى تشجيع الخلفاء والسلاطين والوزراء ، رجال الآداب بالعطايا الجزيلة تارة وتقليدهم المناصب الرفيعة تارة أخرى . ولذلك نلاحظ انتشار المدح في هذا العصر واشتداد روح التنافس بين الشعراء والكتاب الذين كان من أهم أغراضهم أن يحظوا بالتقرب إلى رجال الحكم رغبة في استئثار عطفهم وكرمهم . على أن المدح وكثرته يدل من ناحية أخرى على مدى اشتداد هؤلاء الحكام ، وأنه لم يكن من سبيل للوصول إليهم أو اكتفاء شرهم إلا بالتقرب إليهم بكثرة المدائح .

وكان السلاجقة بوجه عام يميلون إلى الشعر . فقد ذكر نظامي عروضي أن طغانشاه ابن ألب أرسلان (وكان حاكماً لخراسان أيام أبيه) كان من أكثر السلاجقة ولماً بالشعر ، وأن أكثر ندمائه كانوا من الشعراء (١) .

وقد أثر عن نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي أنه كان لا يميل إلى الشعر لأنه لم يكن يجيد نظمه ، وأنه عنى بالآئمة والمتصوفة أكثر من عنايته بغيرهم من رجال العلم والآداب .

ويقول نظامي عروضي في المقال الثاني من كتابه « جهار مقاله » (أو المقالات الأربع) الذي عنوان له : « في ماهية الشعر وصلاحيه الشاعر » .

« الشعر صناعة بها الشاعر يؤلف المقدمات الموهمة والقياسات المُنتجة على وجه يجعل المعنى الصغير كبيراً والكبير صغيراً ، ويرد الحسن في زى القبيح في صورة الحسن ، ويشير بالإيهام القوى العصبية والشهوانية ، فيحدث بهذا الإيهام للطباع انقباض وانبساط ، وتنشأ في العالم الأمور العظام » (٢) .

ويقول نظامي عروضي في موضع آخر عن أثر الشعر في تخليد أسماء الملوك وبقاء ذكركم عن طريق قصائد الشعراء في الدواوين والكتب :

(١) نظامي عروضي : جهار مقاله الترجمة العربية من ١٣٢٠ ، ١٣٥ هامش رقم (١٩) .

(٢) المصدر نفسه من ٣٥ .

« وأسامي ملوك العصر وسادات الزمان خُلِّدَتْ بذكر جماعة لهم نظم رائع وذكر شائع . كما بقيت أسماء آل ساسان بالاستناد أبي عبد الله جعفر بن محمد الرُّودكي ، وأبي العباس الرِّبَيعي ، وأبي المثل البخاري ، وأبي إسحاق الجوبباري ، وأبي الحسن الأعمشي ، والطحاوي ، والخبازي النيسابوري ، وأبي الحسن السكاساني ^(١) . وأما أسامي آل سلجوق فبقيت بفرّخي الحرجاني ، ولامعي الدهستاني ، وجعفر الهمداني . . . وبرهاني . . . وأسامي ملوك الغور آل شَنْسَب خلد الله ملكهم بقيت بأبي القاسم الرِّيعي وعلى الصوفي ^(٢) . أما عن الشروط التي يجب أن تتوافر في الشاعر فهي أن يكون « سليم الفطرة صحيح الطبع جيد الروية رقيق النظر ، متنوعاً في أنواع العلوم آخذاً بأطراف الرسوم ، لأن كل علم يتصل بالشعر كما يتصل الشعر بكل علم » .

وينبغي أن يكون الشاعر منطقياً في مجلس المحاورة طَلَقَ الوجه في مجلس المعاشرة . وينبغي أن يكون شعره من الجودة بحيث يكون في صحائف الزمان مسطوراً وعلى ألسنة الأحرار مذكوراً ، يكتب في السفائن ويقرأ في المدائن ، وخير ما في الشعر تخليد الاسم . ولا يبلغ هذا المقصد ما لم يكن مسطوراً مقروءاً . وإذا لم يبلغ الشعر هذه الدرجة لم يبق أثره ومات قبل قائله . وكيف يُخَلَّدُ غيره (يعني الشعر) إن لم يتخلد نفسه ^(٣) .

وكان الخليفة المسترشد (٥١٢ — ٥٢٩ هـ) أديباً بليغاً وخطيباً مفوهاً ، وكان ينظم الشعر . فمن شعره حين أسر .

ولا عجباً للأُسْدِ إنْ ظفرتْ بها كلابُ الأعادي من فصيح وأعجم
خربة وحشي سقت حمزة الردي وموتُ عليٍّ من حسام ابن مُلجم
قال الذهبي يصف بلاغة المسترشد وفصاحته : « وفد بالناس يوم عيد أضحي فقال :
« الله أكبر ما سبحت الانواء وأشرق الضياء وطلعت ذكاه وعلت على الأرض السماء .
الله أكبر ما همى سحاب وأنجب طلاب وسرَّ قادماً لإياب ... اللهم أصلحني في ذريتي
وأعني على ما وليتني ، وأوزعني شكر نعمتك ووفقني وانصرني » .

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٧ .

فلما انتهى المسترشد من خطبته أنشده أحد شعراء هذا العصر وهو أبو المظفر الهاشمي قصيدة طويلة نذكر منها هذه الايات .

عليك سلامُ الله يا خيرَ مَنْ علا على منبرٍ قد حَفَّ أعلامُه النصر
وأقفلَ أهل الأرض شرقاً ومغرباً وَمَنْ جَدُّه من أجله نزل القطر
لقد شَنَّفَتْ أسماعنا منك خُطْبَةٌ وموعظةٌ فصل يابن لها الصخر
ملأتَ بها كل القلوب مهابةً فقد رجفت من خَوْفِ تخويفها مصر
فله عصرٌ أنت فيه إمامنا والله دينٌ أنت فيه لنا الصدر^(١)
وقد ذكر السيوطي^(٢) أن الخليفة الراشد (٥٢٩ — ٥٣٠ هـ) كان أديباً شاعراً .
(ب) الطُّغْرَائِي (ت ٥١٣ هـ)

ومن أئمة الأدب في العصر السلجوقي أبو إسماعيل الحسين بن علي بن عبد الصمد (ويلقب مؤيد الدين الأصفهاني) المعروف بالطغرائي^(٣) . ولد بأصبهان وأخذ العلم على أئمة علمائها وأدبائها . وكان الطغرائي يسمى الأستاذ لغزارة عليه . وقد وزر للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي بالموصل . فلما قامت الحرب بين مسعود وأخيه محمود وانتصر محمود على أخيه ضم الطغرائي إليه ، ولكن السكّال نظام الدين وزير محمود نفس على الطغرائي ورماه بالإلحاد فقتل ظلماً في سنة ٥١٣ هـ^(٤) .

وللطغرائي ديوان شعر معروف . ومن شعره قصيدته اللامية المشهورة بلامية المعجم التي نظمها ببغداد في سنة ٥٠٥ هـ يصف فيها حاله ويشكو زمانه ، ومنها :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل^(٥)

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٧ — ٢٨٨

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٩ .

(٣) الطغرائي (بضم الطاء وسكون الفين وفتح الراء بعدها ألف مكسورة) نسبة إلى من يكتب الطغرى (بضم الطاء المشددة وسكون الفين وفتح الراء) وهى الطرة التى تكتب فى أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ ، ووضوئها نموت الملك الذى صدر الكتاب فى عهده ، وهى كلمة أعجبية .

(٤) وقيل سنة ٥١٤ هـ كما قيل سنة ٥١٨ هـ .

(٥) الخطل العيب والعطل التعطل .

مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع

والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفلي^(١)

فيم الإقامة بالزوراء^(٢) لا سكنى بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

ناه عن الأهل صفر الكف منفرد كالسيف عرّي مقفاه عن الخلل^(٣)

فلا صديق إليه مشتكى حزني ولا أنيس إليه ينتهي جدلي

طال اغترابي حتى حزن راحلي ورخلها وقرى العسالة الذليل^(٤)

حب السلامة يثني هم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل

فإن جنت إليه فاتخذ نفقا في الأرض أو سلما في الجو واعتزل

ودع غمار العلى للمقدمين على ركوبها واقتنع منهم بالبلل

رضا الدليل بخفض مسكنة والعز تحت رسم الأبنق الذليل^(٥)

إن العلاء حدثني وهي صادقة فيما تحدث أن العز في النقل

لو أن في شرف المأوى بلوغ مني لم تبحر الشمس يوماً دارة الحمل^(٦)

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

(ح) شعراء اليمن :

وقد فطن الملك على الصليحي إلى أهمية الشعر باعتباره وسيلة من أهم وسائل الدعاية للمذهب الإسماعيلي مذهب الفاطميين الذي كان يدين به الصليحيون . وقد استغل على الصليحي الشعر في الرد على خصومه واستخدمه في الدفاع عن دولته والإشادة بذكراها ، فأجزل

(١) يفترض بأن مجده الأخير الذي هو خلاصة حياته هو امتداد لمجده الأول الموروث عن آبائه ، كالشمس في مطلعها شبيهة بها وقت غروبها .

(٢) يقصد مدينة بغداد التي يطلق عليها الزوراء لازورار نهر دجلة عندها .

(٣) يشبه حاله بالسيف المتلوم متناه من الخلل .

(٤) يقصد حتى تافت راحتي إلى الانتقال ، والرحل : الرحيل . والقرى : كرم النوق الجميلة التي لا تسكرم عادة إلا بانتقالها ومسيرها في المراعى النضرة .

(٥) يعني أن الدليل يرضى بالسكن والإقامة في عيش حقير . ومن يريد العيش الكريم والعز الأتيل فعليه أن يركب النوق التي ذلت على السفر واعتادت على الرحيل .

(٦) لو كان في عدم الحركة شرف وعزة وعلا لما تحركت الشمس من مكانها .

(م ٣١ - تاريخ الإسلام - ج ٤)

العتاء للشعراء في اليمن كما فعل الفاطميون في مصر وسورية . وكان على الصليحي نفسه عالماً فقيها متضلعا في علم التأويل كما كان خطيباً مفوها .

وكان الداعي ابن نجيب الدولة الذي آل إليه الأمر في اليمن في أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) غزير العلم متفهما في الدين . ولعل لإشرافه على خزانة المدرسة الانضلية قد ساعده على الانصراف للعلم والتزود من موره . ولا عجب فقد كانت مدارس صنعاء والقيروان والقاهرة ودمشق تتبادل الدعاة والعلماء والطلاب وتتلاقى في وحدة فكرية عميقة الجذور بعيدة الأثر ، وانتهت هذه الكتلة العربية إلى اتحاد شامل تحت راية الجهاد لطرد الصليبيين من بلاد الشام وتخليص البلاد العربية من هذا العدوان .

وفي عهد بني نجاح (٤١٢ — ٥٥٤ / ١٠٢١ — ١١٥٩) اشتهر جياش بن نجاح الحبشي صاحب تهامة الذي هرب إلى الهند بعد مقتل أخيه علي بن المكرم بن أحمد الصليحي ، ثم عاد بعد موته إلى اليمن وحارب الصليحيين واستعاد تهامة منهم . وكان جياش شاعراً فصيحاً ، له ديوان شعر ^(١) ، وله أيضاً كتاب المفيد في أخبار زبيد الذي اختصره عمارة اليمني ^(٢) .

وفي عهد بني نجاح امتاز الوزير مفلح بن منصور الفانكي بالأدب . وقد أنشد عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الشاعر المصري صاحب ديوان الإنشاء في اليمن قصيدة في مدح هذا الوزير أجازه عليها بخمسةائة دينار ، كما أجازه ابنه منصور بن مفلح بثلاثة دنانير بعد أن أنشده قصيدة أخرى في مدحه . ومن الشعراء الذين مدحوا بني زريع (٤٧٦ — ٥٦٩ / ١٠٨٣ — ١١٧٣) شاعر مصري من أهل الإسكندرية يدعى ابن قلافس فقال :

سافر إذا حاولت قدراً سار الهلال فصار بدرأ

وبعد عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني من مشهوري شعراء اليمن . وقد خلف لنا في ديوانه قصائد رائعة في مدح الفائز والعاقد آخر الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وكبار رجال دولتهم ، كما سترى ذلك واضحاً عند كلامنا على الشعراء في الشطر الأخير من أيام الفاطميين .

(١) وقد وردت نماذج من شعره في مختصر المفيد لعمارة اليمني — لوحة ١٤٨ نسخة دار الكتب

المصرية بالقاهرة رقم ٨٠٤٨ ح .

(٢) الجندي : طبقات فقهاء اليمن ص ١٠٤ .

(د) الشعر في العصر الفاطمي الأخير

٤٦٦ — ٥٦٧ / ١٠٧٣ — ١١٧١

حفل العصر الفاطمي الأول بطائفة من الشعراء الذين نظموا قصائدهم في مدح الخلفاء الفاطميين الذين أغدقوا عليهم الخلع والجوائز والأرزاق. ومن هؤلاء الشعراء: ابن هاني، الأندلسي في عهد المعز، ومحمد بن أبي الجرجع وأبو حامد الأنطاكي في عهد العزيز، وعبد الوهاب بن نصر المالكي الذي وفد على مصر من بغداد في عهد الخليفة الظاهر الفاطمي. وقد أمدنا أحد الكتاب المعاصرين، وهو عماد الدين الأصفهاني^(١)، بمادة غزيرة عن الدور الذي قام به الشعراء في العصر الأخير من أيام الفاطميين.

ولد أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصفهاني الملقب عماد الدين بأصفهان سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م). وكان شافعي المذهب درس الفقه بالمدرسة النظامية ببغداد وتخرج فيها، وأتقن المجادلة وفنون الأدب، واتصل بخدمة الوزير عون الدولة بن هبيرة، فأحسن إليه وقربه وشمله بعطفه. فلما توفي هذا الوزير رحل عماد الدين إلى دمشق حيث تقلد إدارة البريد (٥٥٢ / ١١٦٥). وفي سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) تولى التدريس بدمشق. ولما توفي نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ذهب عماد الدين إلى الموصل حيث مرض مرضاً شديداً وظل بها حتى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م)، ثم رحل إلى حلب واتصل بخدمة صلاح الدين الأيوبي حتى وفاته، فعاد إلى دمشق وعكف على الأدب حتى مات سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م).

وهناك كثير من الكتاب المعاصرين، من أمثال عمارة النيني وأسامة بن منقذ، وابن مكيستر. والعصر الذي تناوله عماد الدين الأصفهاني في كتابه خريدة القصر وجريدة العصر^(٢) يمكن تقسيمه قسمين.

الأول — يبحث في الشعراء الذين عاشوا بين سنتي ٤٨٦ — ٥٤٩ هـ (١٠٩٣ — ١١٥٤ م). وذلك في عهد الخلفاء الفاطميين المستعلي والحاظ والظافر.

الثاني — ويتناول الكلام على الشعراء الذين عاشوا في عهد الفائق والعاقد وآخر الخلفاء الفاطميين.

(١) انظر ياقوت: ارشاد الأريب ج ٨ ص ٨١ — ٩٠، وابن خلكان ج ٢ ص ٩٧ — ١٠٠.

(٢) مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس.

ومن هؤلاء الشعراء أبو الفتيان مُفَضَّل العسقلاني . وقد جاء إلى مصر فتمتع بصلات
الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي . . وقد مدحه بقصيدة طويلة جاء فيها .

أقول والنَّجْمُ مرقومٌ بفرته سطرًا نظرتُ وضوء الصبح مبسّمٌ
أما خديته أضحى في زجاحته بديرٌ أم ماؤها في وجنتيه دمٌ ؟
صيع الصباحُ ضياءً من مياسمه فاستنبطت حلقاً في شعره العتم^(١)

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر وأقادوا من تشجيع الخلفاء الفاطميين
وزرائهم : أبو الحسن علي بن جعفر بن البُوبن ، ^(٢) وهو من أهل معرة النعمان منبت
أبى العلاء المعرى . وقد حاز ثقة الوزير الأفضل بدر بن الجمالي الذي قربه إليه وأدر عليه صلاته
واقبه بأمين الملك . ومن قصيدته يمدح الوزير الأفضل .

يامنُ تنافس فيه السمعُ والبصرُ كما تغاير فيه الشمس والقمر
ومن تحكّم في الأرواح فاحتكمتُ ألا يحكّم فيها بعده بشر^(٣)
كذلك أمدنا عماد الدين بمعلومات ذات غناء عن الشاعر أبى الحسن علي بن محمد الأخفش
وهو من أشراف المغاربة . وقد مدح الخليفين الأمر والحافظ . من ذلك قوله في
إحدى قصائده .

إلى ذروة النور العسقلاني إنه إلى ذروة النور الإلهي يُنسب
ومن هؤلاء الشعراء أيضاً جعفر بن أبى زيد . وقد عبر عما خالجه ضميره من أسى بعد
مغادرته مصر إلى بغداد في قصيدة نذكر منها هذين البيتين :

وما قصدنا بغدادَ شوقاً لأهلها ولا خفيتُ مذقاً أبصارنا عنها
ولا أنذا اخترنا على مصر بلدةً سواها، ولكنَّ المقادير ساقتنا^(٤)

(١) المصدر نفسه : ورقة ١٨١ ب .

(٢) المصدر نفسه ورقة ١٤٣ (١)

(٣) المصدر نفسه ورقة ١١٨ (١) .

(٤) المصدر نفسه ورقة ١١٠ (١)

ومن الشعراء الفاطميين الذين كان لهم أثر عظيم في نشر العقائد الفاطمية : أبو الحسن ابن الرُّبْد . وقد وصفه عماد الدين الأصفهاني ، نقلاً عن القاضي الفاضل ، فقال : « ولأنه في فنه لم يسمع الدهر بمثله » . وبما قال يبنى الخليفة الحافظ بانتصاره على الصليبيين : « الحمد لله الذي فضل دولة أمير المؤمنين على سائر الدول . . وجعل أيامه واضحة الحجول والفرر مخصوصة بالفتوح والظفر ، يخفق النصر على بنوده ، وتسير السعادة أمام جنوده . نسأل الله أن يجعل الأرض قبضة يده والأفلاك الجارية من أعوانه وعدده » (١) .

الشعراء بين سنتي ٥٤٩ هـ و ٥٦٧ هـ (١١٥٤ — ١١٧١ م) .

ومن الشعراء الذين عاشوا في العصر الفاطمي الأخير : المهذَّب الحسن بن علي بن الزبير . وقد ذكر عمارة البني أن الحسن كان من أشهر شعراء عصره ، (٢) وقال أيضاً « ولم يكن في زمانه أشعر منه » (٣) وهو من الشعراء الذين جذبهم تعاضد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال دولتهم . وبما قاله المهذب في قصيدة طويلة يخاطب فيها الوزير الصالح طلائع بن رُزَيْك يصف بطولته في الجهاد :

أفارسَ المسلمين اسمعُ ، فلا سمعتُ عداك غير صليل البيض في القل
مقال ناء غريب الدار قد عدم آل أنصار ، لولاك لم يسمع ولم يقل
يشكو مصائبَ أيامٍ قد اتَّسَقَتْ فضاك منها عليه أوسعُ السبل
وكيف ألقى من الأيامِ مُرْزِيَةً حلتَ ولي من بني رُزَيْك كُلُّ ولي ؟

وقد أشاد بعض الشعراء بمدح الفاطميين وأنصارهم وهم في بلادهم لم يفدوا إلى مصر ، ومن هؤلاء الشعراء المهذب بن أسعد ، وكان من أهل الموصل ، ثم قام بالتدريس في مدرسة حصص . وكان من أعلام الفقهاء والشعراء النابيين . استمع عماد الدين الأصفهاني لشعره سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ — ١١٦٨ م) حين لقيه بجمص . من ذلك ما أنشده ابن سعد في مدح الوزير الصالح طلائع بن رزَيْك هذه القصيدة التي بعث بها إليه ، نقتطف منها هذه الأبيات :

(١) المصدر نفسه ورقة ١١٠ (ب)

(٢) عمارة البني : النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ص ٣٥ .

(٣) انظر عماد الدين الأصفهاني ورقة ٣٧ (ب)

(٤) المصدر نفسه ورقة ٣٩ (أ)

هادى الدعابة أبو الغارات خيرُ فتى أدنى عطياته أدنى أمانيكَا
 يشكو إليك بنو الآمال فقرهم فينثنون وبيت المال يشكوكَا
 مَنْ أَرْضَى يَا كَرِيمَ الدَّهْرِ تُعَشِّئِي جدواه إن خاب شعبي في رجائيكَا؟
 أُمْدَحُ التُّرْكُ أَبْنَى الْخَيْرِ عِنْدَهُم والشعر ما زال عند التُّرْكِ مَتْرُوكَا^(١)
 وكان الوزير ابن رزبك نفسه شاعراً ، ينصر الشعر ويقرب إليه الشعراء ، ويذكر
 عماد الدين الأصفهاني أنه لقي الفقيه والشاعر النابى نصر بن عبد الرحمن (وكان من أهل
 الإسكندرية) في بغداد سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ — ١١٦٥ م) ونقل عنه قصيدة نظمها
 الوزير طلائع بن رزبك يرد بها على قصيدة يمدحه فيها هذا الشاعر ، وفيها يقول الوزير :

أهدى لى القاضى الفقيه عرائسا فيها بديع الوشى من تميمه
 فأجلت طرفى فى بديع رياضه من ورده وبهاره وشقيقه
 فكأنما اجتمع الأحبة فانبرت يد عاشق تهوى إلى معشوقه
 نزّهت فى بستان نظمك ناظرى فخطيت من رهر الرّبا بأنيقه

(هـ) عمارة اليمنى

خلف لنا أبو محمد نجم الدين عمارة بن أبى الحسن الحسكى سيرته . وكان من أهل
 تهامة باليمن^(٢) . وفى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ — ١١٥٥ م) حج عمارة بيت الله فى مكة ،
 وأوفده أميرها القاسم بن فليته^(٣) رسولا إلى مصر ، فوصل إليها فى غرة ربيع الأول سنة
 ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) ، فتلقاء الخليفة الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزبك بالعطف
 والقبول على أثر إنشاده أولى مدائحه فى قاعة الذهب بالقصر . وقد أقام عمارة فى مصر
 إلى شهر شوال سنة ٥٥٠ هـ ، ثم عاد إلى مكة ، حيث أنفذه أميرها بمهمة أخرى (صفر
 ٥٥١ / أبريل ١١٥٦)^(٤) إلى مصر ، حيث أقام فى القاهرة وأصبح من مشاهير شعراء
 البلاط الفاطمى فى عهد الفائز والعاقد . وبلغ من تشجيع الفاطميين له وإغداقهم المنح
 عليه أن أصبح من أنصارهم على الرغم من أنه كان سنياً شافعى المذهب . وقد ظهرت

(١) عماد الدين الأصفهاني ورقة ٧٧ (١) — ١٧٨ (ب)

(٢) عمارة اليمنى : النكت المصرية فى أخبار الوزراء المصرية ص ٧ — ٨ .

(٣) بضم الفاء وفتح اللام والتاء الأولى وسكون الياء .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٢ — ٣٤ ، ٤١ ، ٤٢ .

ميول عمارة للفاطميين ظهوراً واضحاً حتى إنه اتهم بالاشتراك في الحركة التي قامت لإزالة سلطان الأيوبيين وشنق في شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) . وبحسن أن ننقل بعض أبيات من أولى قصائده ، وقد أنشدها في قاعة الذهب في القصر :

- | | |
|----------------------------------|---|
| ١ الحمدُ للعِيس بعد العزم والمهم | خجداً يقوم بما أولت من النعم |
| ٣ قرّبن بُعد مزار العز من نظرى | حتى رأيتُ إمام العصر من أم |
| ٤ ورُحن من كعبة البطحاء والحرم | وفداً إلى كعبة المعروف والكرم |
| ٦ حيث الخلافة مضر وبُسرادقها | بين النقيضين من عفو ومن نق |
| ٧ وللإمامة أنوار مقدسة | تجلو النقيضين من ظلم ومن ظلم |
| ٨ وللنبوة آيات تنص لنا | على الحقيقين من حكم ومن حكم |
| ١٢ أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا | فوز النجاة وأجر البر في القسم |
| ١٣ لقد حى الدين والدنيا وأهلها | وزير الصالح الفراج للنعم |
| ١٧ أرى مقاماً عظيم الشأن أوهنى | في بقعتي أنها من جملة الحلم |
| ١٩ ليت السكواكب تدنو فانظّمها | عقود مدح فما أرضى لسكم كلي |
| ٢٠ ترى الوزارة فيه وهى باذلة | عند الخلافة نصحاء غير متهم |
| ٢٢ خليفة ووزير مدد عدلها | ظلاً على مفرق الإسلام والأمم |
| ٢٣ زيادة النيل نقص عند فيضهما | فما عسى يتعاطى منة الديم ^(١) |

وقد نالت هذه القصيدة إعجاب الخليفة الفاضل ووزيره ، كما يحدثنا عمارة نفسه ، حيث يقول إنه بعد أن أنشد قصيدته خلعت عليه الخلع الموشحة بالذهب ، ودفع إليه الوزير خمسمائة دينار ، وأنته مثلها من السيدة أخت الخليفة ، وأطلقت له الرسوم من دار الضيافة في مناسبات كثيرة ، وأقام له أمراء الدولة الولائم في بيوتهم تكريماً له ، وانتظم عمارة في سلك جلساء الوزير^(٢) .

بقي عمارة في مصر ينعم بكرم الدولة الفاطمية ، وقبل عودته إلى اليمن أنشد قصيدة يودع فيها الخليفة ووزيره ابن رزيك ، فمنحه الخليفة وأخته ألف دينار ، ومنحه الوزير

(١) النكت المصرية من ٣٢ — ٣٤ .

(٢) عمارة اليمني : النكت المصرية في الوزراء المصرية من ٣٧ .

ما تقي دينار لقصيدة أخرى أشدها له في داره. وكان لتدخل هذا الوزير أثر في إعفاء عمارة من دفع ثلاثة آلاف دينار كانت عنده لداعي الدين السابق وقد مات ، فأشير على ولده وورثه أن يعدل عن المطالبة بها .

ولما مات ابن رزيك وآلت الوزارة إلى شاور^(١) ، قَرَّبَ عمارة إليه وأولاه رعايته وضمه إلى جماعته ، فصار يتردد على داره ويجلس إلى مائدته ، ونال الكثير من صلاته^(٢) . ولقد أحصى لنا عمارة هبات الوزير ابن رُزَيْك^(٣) وذوى قريبه وغيرهم من الأمراء ، وختم كلامه بهذه الكلمات : « ذكر الله أيامهم بحمد لا يكلُّ نشاطه ولا يُطوى بساطه ، فقد وجدت قدّمهم وهُنتُ بَعْدَهم »^(٤) .

ولما عاد عمارة إلى مصر في شوال سنة ٥٥٠ (ديسمبر سنة ١١٥٦) ، أحسن إليه الوزير ابن رزيك وبنوه وأهله كل الإحسان ، وصحبوه لما امتاز به من حسن الصحبة وسمو اللواهب ، على الرغم من اختلافه وإياهم في المذهب الديني^(٥) .

وقد أبى عمارة اعتناق عقائد الفاطميين ، وأشار إلى ذلك في ديوانه ببضعة أبيات خاطب بها الوزير الذي ألح عليه في التحول إلى المذهب الشيعي ، ومنحه ثلاثة آلاف دينار ووعد أن يزيد في إغداقه عليه إن هو أجاب إلى ما طلبه منه . ولكن عمارة اعتذر بلباقة^(٦) . وهو يشير إلى هذا الاختلاف في العقيدة في هذا البيت :

مذاهبهم في الجود مذهبُ سُنَّةٍ وإنْ خالفوني في اعتقاد التشيع^(٧)
ولما مات ابن رزيك (١٩ رمضان ٥٥٦ / سبتمبر سنة ١١٦١) ، أصبح حزن عمارة على وفاته مشاراً لنظم قصائده ، وظل على ولائه للفاطميين حتى بعد أن زال سلطانهم وسقطت دولتهم . وقد نظم في هذا الحادث قصيدة طويلة تناقلها عنه الكتاب ، من أمثال ابن واصل والقلقشندي والمقرئزي . كما نظم شعراً كثيراً في الإشادة بذكر صلاح الدين وغيره من أهل بيته . ولكن إخلاصه للفاطميين أقصاه عن عطف الدولة الأيوبية . ونستطيع أن نقف على

(١) المصدر نفسه ص ٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٩٣ — ١٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

(٥) ابن خلكان : ج ١ ص ٤٧٦ .

(٦) النكت العصرية ص ٤٥ .

(٧) ديوان عمارة ص ٢٨٨ و ٢٩٣ .

مبلغ ما لحقه من بؤس وشقاء من هذه القصيدة التي وجه بها إلى صلاح الدين ، وعنوانها : « شكاية المتظلم ونكاية المتألم » ^(١) .

ولا غرو فإن تحيز عمارة للفاطميين قد جلب عليه كراهة الأيوبيين ، وانتهت حياته الحافلة بشنقه لأنه أنهم بالاشتراك في التأمر بإعادة سلطان الفاطميين ^(٢) .

(و) البهاء زهير (ت ٦٥٦ / ١٢٥٨)

« البهاء زهير مثال من مثل الخلق العظيم ، يجمع إلى حب الخير وفضيلة العفو ، قوة الشخصية وشرف النفس وعزة الإباء . وتلك صفات لا تجتمع إلا لأهل الفطر الفاتقة خصوصاً في عصر كمصر البهاء زهير ولمن كان في مثل منصبه » .

هكذا استهل الأستاذ مصطفى عبد الرازق مقدمة بحثه عن البهاء زهير ^(٣) .

ينتسب أبو الفضل زهير بن محمد بن علي إلى المهلب بن أبي صفرة . ويطلق عليه بعض المؤرخين البهاء زهير الحجازي ، ويصفه بعضهم بالمصري ، ويطلق عليه آخرون الوصفين معاً . ولد البهاء زهير بمكة (أو بوادي نخلة على مقربة من مكة) على ما ذكره ابن خلكان ^(٤) الذي عرفه واجتمع به وشاد بسمو أخلاقه . والبهاء زهير مصري النشأة والروح والعاطفة وفي ذلك يقول :

فرعى الله عهد مصرٍ وحياً ما مضى لي بمصر من أوقاتِ
حبذا النيل والمراكب فيه مُصْعِدَاتٍ بنا ومُنْحَدِرَاتِ
هاتِ زِدْتِي من الحديث عن النيلِ ودعني من دجلة والفراتِ

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٧ — ٢٩١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٨ — ٢٨٨ .

ابن دقماق (ج ٥ ص ٩٣ — ٩٤) ، نقلاً عن ابن المتوج (ت ٧٣٠ / ١٣٣٠) في كتابه خطط مصر المسمى بإيقاظ المتغفل وانعاط المتأمل . انظر الحاشية التي كتبها مسيو ديرنبور (سيرة عمارة ج ٢ ص ٥٥٢) .

راجع حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٦٢) ص ٤٤٨ — ٤٦٣ .

(٣) مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٤٨ / ١٩٣٠ ص ١ .

(٤) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٢ ، ٨٥ .

ولد البهاء زهير في ٥ ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ (فبراير ١١٨٦ م) وتوفي في ٤ ذى القعدة سنة ٦٥٦ هـ (نوفمبر ١٢٥٨ م). ونشأ بمدينة قوص من أعمال صعيد مصر كما ذكر السيوطي^(١)، وكانت قوص من أهم مراكز العلم في مصر في ذلك العصر، حتى قيل إنه كان بها ستة عشر معهداً للعلم^(٢).

وقد سمع البهاء زهير بقوص بعد أن سمع فيها الحديث ودرس الآداب، ثم انتقل إلى القاهرة واتصل بخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل الأيوبي^(٣)، وبقى في خدمته حتى قبض عليه ابن عمه الملك الناصر داود صاحب الكرك واعتقله بقلعتها. فأقام بهاء الدين بنابلس وحافظ على عهده لنجم الدين حتى عاد إلى مله، فعاد بهاء الدين إلى خدمته (٦٣٧ هـ)، فكان لذلك «كبير القدر عنده لا يطلع على سره الخفي غيره»^(٤). ويمتاز شعر البهاء زهير بالرفقة والعذوبة وشرف المعنى. وله ديوان شعر معروف. ومن شعره يحن إلى صعيد مصر الذي نشأ به وترعرع.

أحنُّ إليكم كلَّ يومٍ وإيالة وأهذى بكم في بَقْطَتي ومغامي
فلا تفكروا طيب النسيم إذا سرى إليكم فذاك الطيبُ فيهِ سلامي
فهل عائدٌ منكم رسولٌ بفرحةٍ كفرحة حُبِّي بُشِّرْتُ بغلامي؟
ويرتاح قلبي للصعيد وأهله وعيشٍ مضى لي عندهم ومقامي
وأهوى ورودَ النيل من أجل أنه يمرُّ على قومٍ لدى كرام^(٥)

ومن ملبح شعر البهاء زهير يتفكه بحال عجوز يتصابى .
كم ذا التصاغُرُ والتصابى غالطتِ نَفْسُكَ في الحسابِ؟

(١) حسن المحاضرة (طبعة القاهرة ١٣٢٧ هـ) ج ١ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٢) الأدنوي (ت ٧٤٨ هـ) صاحب كتاب الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد (القاهرة ١٣٣٣ / ١٩١٤) .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨١ .

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٢ .

(٥) أنظر ديوان البهاء زهير . مصطفى عبد الرازق . البهاء زهير ص ٢٦ .

(٦) مصطفى عبد الرازق : البهاء زهير ص ٢٩ .

لَمْ يَبْقَ فِيكَ بَقِيَّةٌ إِلَّا التَّعَلُّ بِالْخَضَابِ
لَا أَقْتَضِيكَ مَوَدَّةً رُفِعَ الْخَرَجُ عَنْ الْخَرَجِ
مَا الْعِيشَ إِلَّا فِي الشَّبَابِ بِي فِي مَعَاشِرَةِ الشَّبَابِ
وَلَقَدْ رَأَيْتُكَ فِي النِّقَابِ وَذَلِكَ عَنَوَانُ الْكِتَابِ
وَسَأَلْتُ عَمَّا تَحْتَهُ قَالُوا عَظَامٌ فِي جِرَابِ
يَاهُ هَذَا ذَهَبُ الصَّبَا فإِلى مَتَى هَذَا التَّصَابِي ؟

(ز) الشعر في الأندلس

١ — ابن زبرود :

امتازت الأندلس بجمال الطبيعة واعتدال المناخ والثروة الطبيعية التي تتمثل في المياه المتدفقة والرياح المزهرة والسماء الصافية ، والخيرات الوفيرة . وقد تنافس الأندلس مع الشرق عند قيام الدولة الأموية في هذه البلاد . وكان لهذا التنافس أثره البالغ في ازدهار الحضارة والعمارة بصفة عامة والآداب بصفة خاصة ، حيث كان للأدباء والعلماء منزلة رفيعة ومكانة مرموقة . فكان منهم الوزراء وحكام الأقاليم والقواد وغير هؤلاء من ذوي الجاه وأصحاب السلطان . وامتاز عصر ملوك الطوائف بازدهار العلوم والآداب وتشجيع رجال العلم والآداب ، فزخر هذا العصر بطائفة من الشعراء والأدباء الذين لا تزال آثارهم إلى اليوم شاهدة بما بلغه الأدب من منزلة رفيعة في هذه البلاد .

ومن أبرز شعراء الأندلس في عهد ملوك الطوائف : الوزير أبو الوليد (أحمد بن عبد الله بن أحمد) بن زيدون ، وينتمي إلى بيت اشتهر بفقهااته وأدبائه . وقد نبغ في الأدب وهو في حداثة سنه ، واشتغل بالسياسة ، فانضم إلى بني جهور الذين تولوا الحكم في قرطبة بعد سقوط الدولة الأموية ، فولوه الوزارة ، فحسد أعداؤه وأفسدوا ما بينه وبين بني جهور . وقد احتال ابن زيدون كثيراً في طلب الصفح فلم يظفر بطائل ، ففر من سجنه إلى إشبيلية واتصل بصاحبها المعتمد بن عباد الذي قربته إليه لعلو كعبه في الأدب ^(١) .

(١) المراكشي : المعجب في أخبار المغرب ص ١٠٥ .

وكان لعلاقة ابن زيدون مع ولاده بنت المستكفي التي اشتهرت بالادب أثر بعيد في حياته ، حتى لقد زخرت بها كتب الادب ، وأضحت قصيدته الشهيرة التي نظمها متشوقا إلى ولادة من القصائد الخالدة في الادب العربي بصفة عامة . وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة (١) .

أضحى التَّنَائِي بدَيْلاً من تَدَانِيَا وناب عن طيب لُقيَانَا تَجَافِيَا
يَنْتُمُ وَبِنَا فَمَا أَتَيْتُ جَوَانِحُنَا شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَتْ مَآقِيْنَا
نَكَادُ حِينَ تَفَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَمْسَى لَوْلَا تَأْسِيْنَا
حَالَتِ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَفَدَتْ سَوْدَاً وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضَا لِيَالِيْنَا
إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَّقَ مِنْ تَأَلُّفُنَا وَمُورِدُ اللَّاهِـوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِيْنَا
إِنْ الزَّمَانُ الَّذِي مَازَالَ يُضْحِكُنَا أَنَا بِقَرَبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِفُنَا
غِيْضَ الْعِدَى مِنْ تَسَاقِيْنَا الْهُوَى فَدَعَوْا بَأَنْ نَغْضَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِيْنَا
فَأَمَحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُوداً بِأَنْفُسِنَا وَانْبَتَّ مَا كَانَ مُوصُولاً بِأَيْدِيْنَا
وَقَدْ نَسْكَوْنُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِيْنَا
إِنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فِي الدُّنْيَا الْإِقْدَامُ مَوَاقِفَ الْحَشْرِ نَاقِمَا وَبِكْفِيْنَا
عَلَيْكَ مِنِّي سَلَامُ اللَّهِ مَا بَقِيَتْ صِبَابَةٌ مِنْكَ تُخَفِّفُهَا فَتُخَفِّفُنَا

وقد توفي ابن زيدون بإشبيلية سنة ٤٦٣ هـ ، وكان له ولد يكنى أبا بكر تقلد الوزارة للمعتمد بن عباد بعد أبيه : وقتل في اليوم الذي سقطت فيه قرطبة في يد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين .

(٢) ابن عمار

ومن أشهر الشعراء في عصر ملوك الطوائف أيضاً : الوزير أبو بكر محمد بن عمار (ت ٤٧٩ هـ) ، وقد سار على نهج ابن هاني الأندلسي الذي أطلق عليه لقب مقنبي

المغرب ، وإن كان عبد الواحد المرأ كشى بفضل ابن عمار أحياناً على ابن هاني . فيقول :
« ربما كان أحلى مَنزَعاً منه في كثير من شعره » .

وينسب ابن عمار إلى مدينة شَلَب (بكسر الشين وسكون اللام) التي نشأ فيها وأخذ
الآدب على علمائها . ثم رحل إلى قرطبة فأتى دراسته ، ونبغ في نظم الشعر وتكسب به
وجال في الأندلس مادحاً الملوك ابتغاء منحهم وعطاياهم ^(١) ، ولم يقتصر مدح ابن عمار
على الملوك والأمراء بل مدح السوقة طلباً للرزق ، وظل على هذه الحال إلى أن اتصل
بالمعتضد بالله أبي المعتمد بن عباد ، فدحه بقصيدة استلها بقوله :

أَدِرِ الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجمُ قد صرف العنان عن الشرى ^(٢)
والصُبحُ قد أهدى لنا كافورة لما استردَّ الليلُ منه العنبراً
ثم يخلص ابن عمار إلى مدح المعتضد فيقول :

عَبَادُ الْمُخَضَّرِ نَائِلُ كَفِّهِ والجود قد لبس الرداء الأغبر
قداحُ رَنْدِ المجد لا ينفك من نار الوغى إلا إلى نار القري ^(٣)
وقد وقعت هذه القصيدة من نفس المعتضد موقعاً حسناً ، فأمر لابن عمار بمال
وثياب وموَكِّب وألحقه بديوان الشعراء ، ثم اتصل بالمعتضد بن عباد اتصالاً وثيقاً حتى
لأنه كان لا يفارقه ليلاً أو نهاراً ، فاتخذته وزيراً حين ولاه أبوه ولاية شَلَب .

وقد قام ابن عمار بدور سياسي هام في المفاوضات التي دارت بين المعتمد بن عباد
والفونس السادس زعيم نصارى الأندلس ^(٤) . على أن المعتمد بن عباد قد ساورته الشكوك
في إخلاص وزيره ابن عمار ، إذ كان يطمع في انتزاع أحد الأقاليم الشمالية التابعة لابن
عباد ليكون ملكاً مستقلاً . ولكن ابن عباد اكتشف هذه المؤامرة وأمر بتقييده وحمله
إلى مدينة قرطبة (وكان المعتمد قد انتزعها من بني جهور) ^(٥) ، فسجن ، فكتب ابن عمار
أشهر قصائده متوسلاً طالباً العفو . ومن هذه القصيدة :

(١) المصدر نفسه ص ١١١ .

(٢) بضم السين المشددة وفتح الراء السفر ليلاً .

(٣) المصدر نفسه ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ١١٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

سجايك إن عاقبت أُندي وأُسجج^(١) وعذرك إن عاقبت أجلي وأوضح
 وإن كان بين الخطتين مزية فأنت إلى الأذنى إلى الله تنجح
 حنانيك في أخذى برأبك لا تطع عدائى ولو أننوا عليك وأفصحوا
 فإن رجائى أن عندك غير ما يخصوص عدوى اليوم فيه ويمرح
 ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة يكران فى ليل الخطايا فيُصْبِح
 وهبى وقد أعقبت أعمال مُفسد أما تفسد الأعمال نمت تصلح
 إقلى بمسا بينى وبينك من رضى له نحو روح الله باب مُفتح
 وعف على آثار جُرم سلكتها بهبّة رُحى منك تمحو وتُصِح^(٢)
 ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم فكل إناء بالذى فيه برشح
 وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا سوى أن ذنبى واضح مُتَصَحَّحُ
 ولم يزل ابن عمار بسجن المعتمد إلى أن قتله صبراً فى سنة ٤٧٩ هـ^(٣).

(٣) الشعر الفنى : الزجل والموشحات

ذكر المقرئ أنه لما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته
 وتنميق كلامه وعذوبة ألفاظه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منوال التوشيح ،
 ونظموا فى طريقتهم بلغتهم العامية الحضرية ، من غير أن يلتزموا فيه إعراباً ، واستحدثوا
 فناً سموه بالزجل ، والنزموه النظم فيه على طريقتهم ، شجّموه فيه بالغرائب واتسع فيه
 للبلاغة بجال بحسب لغتهم المستعجمة . وأول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية أبو بكر
 ابن قزّمان ، وإن كان هذا النوع من الشعر قد استعمل من قبل بالأندلس . لكن لم
 تظهر حُلّالها ولا انسبكت معانيها إلا فى زمانه . ويعد ابن قزّمان إمام الزجالين على
 الإطلاق . وليس أدل على ذلك من قول ابن سعيد المقرئ (ت ٦٧٣/١٢٨٥) :
 « رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتهما بحواضر المغرب » . وهذا يدل على أن

(١) السجاعة : غزارة الماء ويقصد بها الكرم .

(٢) تصح : أى تزيل .

(٣) المعجب ص ١٢٥ — ١٢٦ ، ١٢٧ .

أهل المشرق قد اقتبسوا الأزجال عن المغرب كما عرفوا فن التوشيح عن الأندلس أيضاً .
كما يقول ابن سعيد : سمعت أبا الحسن بن جَعْفَر الإشبيلي إمام الزجالين في عصرنا يقول :
ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة .
وقد خرج ابن قزمان إلى متنزّه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم
تمثال أسد من رخام يصب الماء على صفائح من الحجر فقال :

وعريش قد قام على ركانٍ بحال الرواق
وأسد قد ابتلع ثعبان من غِلَظ ساق
وفتح فَمُو بحال إنسان به الفُواق
وانطلق مِنْ ثَمَّ على الصفاح وألقى الصباح

ونرى أن هذا الشعر لا يلتزم وزناً ولا قافية ولا انتظاماً بين شطرى البيت الواحد ، كما
تلاحظ أن هذا الشعر كلاماً ملحوناً وكلاماً عامياً . فن الخطأ النحوي قول ابن قزمان
« ابتلع ثعبان » ، ومن الخطأ اللغوي قوله « فتح فَمُو » . وهذا يدل على أن هذا الشعر ،
قد قيل بالعامية ولم ترع فيه مقاييس أو اللغة أو العرف الشعرى بخلاف التوشيح ، فإنه ،
وإن كان لم يسر على نظام القصيدة العربية ، قد روعى فيه التزام قواعد النحو واللغة ،
وهذا هو الفرق الاصيل بين التوشيح والزجل .

ومع أن ابن قزمان كان قرطبي الدار كان يتردد على إشبيلية ويقول فيها كثيراً من
أزجاله لحضارتها وجمال طبيعتها وشدة إقبال الناس على سماع أزجاله فيها ^(١) . ولا ريب
أن ابن قزمان قد نهض بفن الزجل نهضة لم يسبق إليها ، وأنه كان رائداً للزجالين الذين
جاءوا بعد عصره .

ويحسن أن نعرض في إيجاز للشعر الفنى في هذا العصر الذى خصصناه في هذا الجزء الرابع ،
حيث نلّس تطوراً في الشعر العربى بالأندلس : فى أوزانه وقوافيه وفى نظامه بصفة عامة .
وكان ذلك التطور راجعاً إلى طبيعة الأندلس الجميلة التى تتميز بالأنهار الجارية والجنان
المزهرة والأشجار المشرقة والطيور المغردة والجبال المنيفة والروابي السحيقة والطبيعة

(١) المرقى : فتح الطيب ج ٩ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

التي لا تستقر على حال . كل هذا قد تحكّم في الخيال الشعري وفي الشعر العربي . فتغنى الأندلسيون بطبيعتهم وجمال بلادهم ، ولم يستطيعوا أن يحصروا شعورهم في تلك القيود الشعرية التقليدية التي نقلوها عن المشرق ، بل انطلقوا يعبرون عن إحساسهم ومشاعرهم بلغة حرة . فتخلصوا من هذه القيود في قصائد لم تلزم وزنا ولا قافية ولم تلزم نظاما معيّنًا في القصيدة . وقد أطلق على هذا النوع من الشعر اسم « الموشحات » .

وكان أول من برع في هذا النوع « مقدم » بضم الميم وفتح القاف والدادل مع التشديد (القَبْرِي) من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني . وقد عاش مقدم هذا في صدر الدولة الأموية بالأندلس ، ثم أخذ عنه ذلك ابن عبدربه صاحب كتاب العقد الفريد . وكان أول من ظهر في هذا الميدان بعدهما عبادة القزّار شاعر المعتصم بن ضحاح صاحب المربية . وقد ذكر الأعلام البطليّون أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول : كل الوشاحين عيال على عبادة القزّار فيما وجد له من قوله :

بَذَرْتُ^(١) تَمَّ شَمْسُ ضَحَى غَضْنُ نَقَى مَشْكُ شَمَّ
مَا أُنَمَّ^(٢) مَا أَوْضَحَا مَا أَوْرَقَا^(٣) مَا أُنَمَّ^(٤)
لَا جَرَمَ^(٥) مِنْ لَحَا^(٦) قَدْ عَشَقَا قَدْ حُرْم

ثم جاء فريق الموشحين في عصر المرابطين ، فهضوا بالمرشحات نهضة مباركة . وعلى رأس هؤلاء الموشحين الأعمى التُّطَيْلِي ، ثم يحيى بن بَقِيّ . ومن موشحات التُّطَيْلِي قوله -

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى صَبْرِي وَفِي الْمَعَالِمِ أَشْجَانُ

(١) يقصد البذر قد بلغ التهام في ليلة الرابع عشر من الشهر الهجري .

(٢) يعنى أن محبوبته قد بلغت الكمال .

(٣) يشبه محبوبته هنا في الرونق بالشجرة المورقة .

(٤) من النبوة .

(٥) لا شك .

(٦) يلاحظ أن الألف للاطلاق لوزن الشعر ومنثلهما عشقا .

والركب^(١) وسط الفلا بالخرد^(٢) النواعم قد باتوا^(٣)
ومن قول التطيلي أيضاً .

ضاحكٌ عن حُحات^(٤) سافرٌ عن بدْرٍ
ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

ومن اشتهر بالموشحات في صدر الدولة الموحدية : محمد بن أبي الفضل بن شرف ،
وابن هردوس (بكسر الهاء وسكون الراء وفتح الدال ولعله اسم محرف عن الإسبانية) ،
الذى يقول :

باليلة الوصل والسمود بالله عودى
ومن موشحى الموحدين : ابن مؤهل الذى يقول :

ما العيد في حُلّةٍ وطاقٍ وشَمٌ طيب
وإنما العيد في التلاقى مع الحبيب

ومن هؤلاء الموشحين في عهد الموحدين أبو إسحاق الدؤبى الذى قال عنه ابن سعيد
المغربى ، سمعت أبا الحسن بن سهل بن مالك يقول : إنه (أى الدؤبى) دخل على ابن زهر
وقد أسنّ وعليه زى البادية إذ كان يسكن بحصن سبتة ، فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به
المجلس وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها (أى جاء فيها) .

كحلّ الدجى يجزى من مُقَلّة الفجر على الصباح
ومعهم النهار فى حُلّل خُضر من البطاخ

فتحرك ابن زهر وقال : أنت تقول هذا ؟ قال : اختبره ، فقال : ارتفع فوالله
ما عرفتك . (٥)

ومن اشتهر بالموشحات في عصره أبو بكر بن زهر الطبيب الفيلسوف الذى « شَرَقَتْ »
موشحاته و غرّبت « على حد تعبير ابن سعيد الأندلسى . وقد نسب إلى ابن زهر قوله :

(١) الركاب عامة ويعنى هنا ركاب الإبل .

(٢) جمع خريدة وأصلها اللؤلؤة قبل النقب أطلقت على الفتاة العنراء .

(٣) باتوا فارقوا الحى .

(٤) الجملات اللؤلؤة يشبه بها أسنان محبوبته .

(٥) فتح الطيب ج ٩ ص ٢١٩ - ٢٢٣ .

ما المـوالة^(١) من سُكره لا يَفِيق يا له سكران
 من غير خمر ما للكثيب^(٢) المشوق يندُب الأوطان
 هل تُستعاد أيا مـنا بالخليج وليالينا ؟
 إذ يستفاد من النسيم الأريج مسك دارينا
 وإذا يسكاد حُسن المكان البهيج أن يُحيينا
 نهر أظله دوح^(٣) عليه أنيق مؤثّق فيمنان^(٤)
 والماء يجري وعائم وغريق من جنى الرمان^(٥)
 وما هو جدبر بالذكر أن فن الموشحات الذى هو من ابتكار مسلمى الأندلس قد
 نهض نهضة ملحوسة في عهد ملوك الطوائف وفى عهد المرابطين والموحدين كما ذكرنا .

الشعر فى المغرب

الحصرى

ويعتبر الشاعر القيروانى المشهور أبو الحسن على بن عبد الغنى السكيف المعروف
 بالحصرى زعيم صناعة الشعر فى عصره . وقد ولد بالقيروان ونشأ بها واشتهر أمره وذاع
 ذكره فيها . ولما غزا الهلاليون تونس ودمروا مدينة القيروان وحطموا مسجدها الجامع ،
 فر الحصرى محزوناً إلى مدينة سبتة بالمغرب الأقصى ، ومنها إلى بلاد الأندلس ، وذلك
 فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، فتنافس عليه ملوك الطوائف لذيوع شهرته وعلو
 مكانته الادبية .

وكان أبو الحسن الحصرى معاصراً لأبي العلاء المعرى^(٦) ، وهما يجتمعان فى الادب

(١) من الوله (بفتح الواو واللام) الحيران الحزين .

(٢) الكثيب : التل من الرمل

(٣) ذو الرائحة الزكية .

(٤) الدوح : الشجر المثقف .

(٥) من الفتن (بفتح الفاء والنون) الغصن

(٦) يقصد أن التهر قد نثرت عليه الرياحين ، فنها العائم ومنها الفريق ، وقد أوجدت جواً
 عطرياً ، فالرائى ينظر ماء كالفضة وبشم رائحة عطرية ويعجب بهذه الطبيعة التى تتفنن و الجمال .

(٧) أنظر ما ذكرناه عن أبي العلاء المعرى فى الجزء الثالث من هذا الكتاب (الطبعة السابعة) ،
 القاهرة (١٣٦٥) س ٣٦٥ — ٣٦٨ .

وفقد البصر ، ولكنهما يختلفان في كثير من الأمور . فقد عاش أبو العلاء في عزوبة وعزلة ، وكان عفيف اللسان كريم الخلق لا يميل إلى الهجاء ، يغلب على شعره الحكمة والموعظة ، على حين ترى الحصرى قد تزوج بمن هي دونه في السن بالشئ الكثير حتى فارقه ، كما كان يتكسب بشعره ، مولعاً بهجاء الناس . وقد وصفه ابن بسام^(١) بقوله : « كان فيما بلغني ضيق العطن^(٢) مشهور اللسان يتلفت تَلَفَّت الظمان إلى الماء . . . اشتملت عليه مدينة طنجة (بعد أن خلع ملوك الطوائف) . وقد ضاق ذرعه وتراجع طبعه^(٣) ، وله على ذلك سجع يَمِجُّ أ كثره السمع ، لم يسمح نقدي أن أكتبه ولا راقني أن أرويه ، وما أراه يسلك إلا سبيل المعرى فيما اتجه ، وكان هو وإياه كما وصف العباس بن الأحنف :

هي الشمس مسكنها في السماء فَعَزَّ الفؤاد عزاء جميلاً
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليها النزولاً
وإن قصيدته الشهيرة التي خلفها لنا في كتابه « زهر الآداب وثمر الألباب » والتي استلها بقوله :

يا ليل الصَّبِّ منى غَدُهُ أقيامُ الساعةِ مَوْعِدُهُ
قد عارضها كثير من الشعراء والشواعر في كثير من العصور والبلدان ، ونذكر منهم على سبيل المثال ابن الأَبَّار البلنسى وإسماعيل الزبيدي البغدادى ، وشمس الدين الحصرى الدمشقى^(٤) ، وناصر الدين الأرسجاني ، ومن المحدثين أحمد شوقي ، وإسماعيل صبرى ، وولى الدين يكن ، وعائشة الخزرجي العراقية .

ولا بأس أن نذكر بعض أبيات في معارضة الشاعر ولى الدين يكن لذبوع شهرته :

أَلْحَسَنُ مَكَائِكَ مَعْبِدُهُ وَاللَّحْظُ^(٥) فَوَادَى مَعْبِدُهُ^(٦)

(١) النخبة في محاسن أهل الجزيرة ج ١ القسم الرابع ص ١٩٢ .

(٢) يعني أنه كان عصي المزاج يضيق بالناس .

(٣) يقصد بذلك أنه قد ضاق بالناس وبالحياة بعد زوال حكم ملوك الطوائف الذين يفتقدون عليه الأرزاق فرجع إلى هجاء الناس والضيق بالحياة .

(٤) المصدر نفسه ج ١ القسم الرابع ص ١٩٣ .

(٥) وكثيراً ما وقع اللبس عند الأدباء في الحصرى القيروانى والحصرى الدمشقى .

(٦) اللحظ : العين أو نظرتها .

(٧) المعبد (بفتح الميم الأولى وكسر الميم الثانية) غمد السيف ويريد أن يقول :

أنت معبد الحسن في هذه الدنيا ومعج عاشقه وقلبي غمد لسهم لحظك الفناك

يا سيدتى هذا حُرٌّ لم يعرف قبلك سيده
 الليل وطيفك يعرفه إن كان فؤادك يجحدُه
 كم يوحى طرفك لى غزلاً وأنا فى شعري أنشده
 ونساجلى الأطيّار هوى فى الدّوح^(١) أبيت أرذده
 للصبح سناؤك^(٢) أبيضُه لليلِ غرايِ أسودُه^(٣)
 أحبتُ قلاك^(٤) فطلّقه عندى عذبٌ ومُقيّده
 إن ضلّ حناؤك عن قلبى فأنا بولوى أرشده
 شوقى إن بنتٍ يضاعفه صبرى إن جرتِ بؤكده
 خِلانَهما شمساً فلّك طرفى مع طرفك برصدُه^(٥)

ومن آثار الحصرى ديوان زهر الآداب وثمر الألباب الذى تقدمت الإشارة إليه ،
 وكتاب المصون فى سر الهوى المكنون . وله ديوان « المَعشّرات » . وهو فى شعره فى هذا
 الديوان وفى ديوان « ذيل الاقتراح » متأثر بأبى العلاء المعرى فى لزومياته فى التقيد فيما ليس
 بضرورى من قيود فيما نظم . فقصائد « المَعشّرات » مرتبة على حروف الهجاء . وكل
 قصيدة منها عشرة أبيات تبدأ جميعها بحروف الهجاء فى القافية . فإذا كانت القصيدة من
 قافية الهمزة أو التاء أو الظاء ، جاءت أبياتها العشرة مبدوءة بالحرف نفسه . وقصائد ديوان
 « ذيل الاقتراح » عددها تسع وعشرون بعدد حروف الهجاء . وكل قصيدة منها خمسة
 عشر بيتاً يلتزم الحرف الواحد فى أوائل الأبيات وأواخرها .

ولأبى الحسن الحصرى ديوان فريد فى نوعه سماه « اقتراح القريح واجترح الجريح »
 فى رثاء ولده عبد الغنى الذى أنجبته من زوجته التى هجرته ومات وهو فى التاسعة من عمره ،

(١) الدوح : الشجر الملتف .

(٢) السى الضوء .

(٣) يقصد أن يباين الصبح مصدره نورها وغراي يثير آلامى فكأن سواد الليل مأخوذ

من غراي .

(٤) القلى الصدود .

(٥) فى كلمة شوقى تورية ، يقصد شوقى الشاعر وشوقه بمعنى الحب وهو المنصود . فحينما تبعد

يضاعف كلفه بها . وفى لفظة صبرى تورية كذلك ، فأحد المعنيين صبرى الشاعر والمعنى الثانى الصبر
 على بعدها .

إذ تركته أمه فأثره أبوه على إخوته ومنحه كل عواطف الأبوة وحنانها . فلما مات هذا الابن أفرغ الشاعر المحزون أحزانه وأشجانه في ديوان كامل من الرثاء وبما كان الديوان الوحيد في العربية في رثاء ولد .

وبما يثير الأسف أن الباحثين في ميدان الأدب لم يوفوا هذا الشاعر حقه من البحث ودواوينه من الدراسة الواجبة . ولكنه ظهر في تونس أخيراً كتاب « أبو الحسن الحصرى القيروانى » للأستاذين الجيلاني بن الحاج يحيى ومحمد المرزوقى . وقد تناول هذان المؤلفان حياة أبي الحسن الحصرى كما تناولوا الكلام عن ثرائه الأدبى (١) .

(٢) النثر

(١) الحريرى :

ظهر بين كتاب العرب كتاب ألفوا كتابة النثر المسجوع متأثرين فى ذلك بالقرآن الكريم وخطب الجاهلية ، كخطب أكم بن صيفى الذى يقول : « أيها الناس ! من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت . . الخ . وهذا السجع له نغم عذب يحرك النفس ويثير الشوق إلى سماعه .

وقد ظهر هذا النوع فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فى خطب الخلفاء وعمال الأقاليم ، ثم تطور هذا الفن على أيدى الكتاب المحترفين من أمثال ابن نباتة (ت ٢٧٤ / ٩٨٤) ، كما تطور على أيدى كتاب البلاط من أمثال إبراهيم بن هلال الصابى (ت ٣٨٤ / ٩٩٤) . ومن ثم أصبح السجع من مميزات الأدب الذى التزمه الأدباء . ومن هنا ظهرت طائفة من بين كتاب العربية من العرب والفرس ابتدعوا فنا خاصا من بين فنون الأدب يدعى فن المقامات . وإلى بديع الزمان الهمذانى (ت ٣٩٨ / ١٠٠٧) يرجع الفضل فى ابتكار هذا النوع الجديد المميز من السجع المعروف باسم المقامات .

والمقامة حكاية يقال فى مقام معين على نحو ما صنع أبو محمد القاسم الحريرى (ت ٥١٥ / ١١٢١) (٢) صاحب المقامات المشهورة التى تشتمل على الكثير من درر اللغة وفرائد الأدب

(١) انظر مقال الدكتور عائشة عبد الرحمن فى جريدة الأهرام (صفحة الأدب) فى ١٣ يناير

١٩٦٤ .

(٢) ولد الحريرى فى البصرة سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) ومات بها .

والحكم والأمثال والأشعار النادرة التي تدل على سعة إطلاعه ووزارة مادته وطول باعه وعلو مقامه في عالم الأدب . ويرى نيكلسون ^(١) أن الحريري دون بديع الزمان من حيث الابتكار والابتداع ، على حين أن الحريري أغزر مادة وأكثر وأشد تعمقا في اللغة مما جعل لمقاماته منزلة خاصة جعلتها في المنزلة الثانية بعد القرآن الذي يعتبر كنز اللغة العربية الذي لا ينقده والحديث الشريف ، كما يرى نيكلسون أن مقامات الحريري تحفة أدبية رائعة .

ويعزى السبب الذي من أجله وضع الحريري مقاماته ، إلى أنه كان جالسا في المسجد بني حرام ، فدخل شيخ رقيق الحال رث الثياب تبدو عليه أهبة السفر . وكان هذا الرجل فصيح العبارة ، فسأله الحاضرون من أين الشيخ ؟ فقال من سروج ^(٢) ، فسألوه عن كنيته فقال : أبو زيد : فوضع الحريري مقامته الأولى المعروفة بالحرامية أو السروجية وعزاها إلى أبي زيد السروجي . فلما بلغ خبر هذه المقامة الوزير الفارسي والسياسي المشهور أنا نصر شيروان بن خالد وزير الخليفة المسترشد ^(٣) ، أعجب بها وأشار على الحريري بأن يضم إليها غيرها ، فأتمها خمسين مقامة .

وقد أشار الحريري إلى هذا الوزير بقوله : « فأشار من إشارته حُكم وطاعته غُثم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع ^(٤) وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع ^(٥) . وللحريري أيضاً « ملحمة الإعراب » وهي منظومة في النحو ، ودرة الفواص في أوهام الخواص » ، و « ملحمة الإعراب » . وله أيضاً ديوان رسائل وشعر غير شعره الذي أنتجه في ثنابا المقامات .

وقد حقد على الحريري طائفة من أدباء عصره وطعنوا في نسبة هذه المقامات إليه ، فاستقدمه الوزير أبو شروان وطلب منه أن ينشئ رسالة في موضوع عينه هذا الوزير ،

(١) Lit. Hist. of the Arabs, p. 329.

(٢) هي مدينة في سواد العراق قريبة من الرها .

(٣) توفي هذا الوزير سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) ، وهو صاحب تاريخ السلاجقة الذي طبعه

« هوتسا » (ليدن ١٨٨٩) ضمن مؤلف البنداري .

(٤) يقصد أن يسير فيها على نهج بديع الزمان الهمداني في رسائله أو مقاماته . ويعتبر بديع الزمان أول من وضع المقامات بالمشرق .

(٥) وهو يشبه نفسه بالظالم أى المائل عن الطريق المستقيم ، ويشبه بديع الزمان بالضليع أى القوى وهو يقصد تأديبا منه أن مقاماته لا ترقى إلى منزلة مقامات بديع الزمان لأن الفضل للسابق . أنظر مقامات الحريري (طبعة القاهرة ص ٥)

فلم يوفق في هذا المقام فخرج . وبعد حين قدم إلى الوزير عشر مقامات .
وكان الحريري ضئيل الجسم زرى المنظر عصبي المزاج ، يقتلع شعرات لحيته إذا
اشتغل بالتفكير أو الكتابة . ولكنه مع هذا كان موضع تقدير الناس ولا كبارهم . ويحكى
أن شخصاً زاره ، وأراد أن يتلقى عليه شيئاً من العلم لذیوع شهرته ، فلما وقع بصره عليه
استزرى منظره فأدرك الحريري ما دار في نفسه . ولما طلب هذا الشخص إلى الحريري
أن يمل عليه شيئاً من الأدب قال له : اكتب وأملأه هذين البيتين .

ما أنت أول سارٍ غَرَّه قَرَّ ورائدٍ أعجبته خُضْرَةُ الدَّمَنِ^(١)

فاختر لنفسك غيري إننى رجلٌ مثل المَعْيَدِي^(٢) تسمعُ بى ولا تَرِنِي^(٣)

اشتملت مقامات الحريري على فوائد جمة عددها في قوله : « وأنشأت على
ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خالدة وروية ناضبة ومهوم ناصبة ، خمسين مقامة
تحتوى على جد القول وهزله ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر^(٤) البيان ودرره وملح الأدب
ونوادره إلى ما وشَّحَتْهَا^(٥) به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورحمته فيها من الأمثال
العربية واللفائف الأدبية والاحاجي^(٦) النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبسكرة
والخطب المعبَّرة^(٧) والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية ، مما أملت جميعه على لسان
أبي زيد السروجي وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري^(٨) . وما قصدت
بالإحماض^(٩) فيه إلا تنشيط قارئيه وتكثير سواد طالبيه . ولم أودِّعه من الأشعار

(١) يشير إلى الحديث النبوى وهو قوله صلى الله عليه وسلم إياكم وخضراء الدمن . قالوا :
وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء . ويشير الرسول إلى أن النبات
يخرج رائحة شديدة الخضرة فوق السواد المتخلف من فضلات الحيوان .

(٢) بضم الميم وفتح العين وسكون الباء وفتح الياء الثانية مع التشديد .

(٣) يشير إلى المثل العربى « لأن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . والمعيدى شخص قبيء النظر
خوشهرة . انظر ابن خلكان ج ٣ ص ٢٢٧ — ٢٣١ .

(٤) جمع غرة وهى خيار الشيء .

(٥) من الوشاح وهو القلادة .

(٦) جمع أحجية وهى الأغلوطة يختبر بها العقل .

(٧) من التحبير وهو التزيين .

(٨) يقصد نفسه ، وهذا مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام : كلكم حارث وكلكم هام .

(٩) الإحماض : الانتقال من أسلوب إلى آخر ، مأخوذ من إحماض الإبل وهو انتقالها من مرعى

حلو إلى مالح .

الاجنبية إلا بيتين فذَين^(١) أسست عليهما بنية المقامة الحُلوانية وآخرين نوأمين^(٢) ضمنتهما خواتم المقامة السكَرَجِيَّة . ما عدا ذلك فخطارى^(٣) أبو عُدْرَة^(٤) ، ومقتضب^(٥) حُلوه ومُره^(٦) (أى جيده ورديته) .

ولنبداً بتقديم المقامة الأولى التى أنشأها الحريرى ، والتى لفتت نظر الوزير « أنوشروان » لاذيقول الحريرى فى هذه المقامة التى سماها « الحرامية » : روى الحارث بن همام عن أبى زيد السَّروجى قال : مازلتُ مذر حلتُ عَنْسَى^(٧) وارتحلتُ عن عِرْسَى^(٨) وَعَزْسَى^(٩) أحن إلى عِيان^(١٠) البصرة حنين المظلوم إلى النصرة ، لما أجمع لى إليه أرباب الدراية وأصحاب الرواية وعلماؤها من خصائص معالمها ومآثر مشاهدتها وشهادتها ، وأسأل الله أن يُوْطِنِي تراها لا فوز بمرآها^(١١) ، وأن يُمِطِنِي قَرَاها^(١٢) لأفترى^(١٣) قَرَاها ، فلما أحلنيتها الحظ وسرح لى فيها اللحظ .

رأيتُ بها ما يملأ العين قُرَّةً^(١٤) ويسلى عن الأوطان كلَّ غريب

(١) الفذ الفرد وأحد البيتین للوأواء الدمشقى والثانى للبحترى .

(٢) التوأم المولود مع آخر فى بطن واحد ، سُمى البيتَان بذلك لكونهما القاتل واحد وهو ابن سكرة .

(٣) يريد قلبه .

(٤) يقال هو أبو عذرها إذا كان هو الذى اقتضها والأصل فيه أبو عذرتها ، فخذت الثاء منه ، والمراد أنه أول قاتل لهذا الكلام .

(٥) يعنى الحريرى نفسه . والمقتضب المرتجل خطبة أو شعراً من اقتضب الغصن أى اقتطعه على البديهة .

(٦) مقامات الحريرى ص ٦ — ٧

(٧) العنسى الناقة القوية .

(٨) العرس : الزوجة .

(٩) الغرس الأولاد .

(١٠) العيان المشاهدة .

(١١) يقصد مرآها .

(١٢) أى يركبني ظهرها .

(١٣) أفترى أنتبغ

(١٤) قرة أى سرورا .

فغاست^(١) في بعض الأيام حين نصل خضاب الظلام وهتف أبو المنذر^(٢) بالنوَّام ، لأخطوْ في خططها وأقضى الوتر من توشطها ، فأداني الاختراق في مسالكها والإنصلات^(٣) في سككها إلى محلة^(٤) موسومة^(٥) بالاحترام ، منسوبة إلى بني حرام^(٦) ، ذات مساجد مشهودة وحياض مورودة ، ومبان وثيقة ومغان أنيقة وخصائص أثرية^(٧) ومزايا كثيرة .

بها ماشئتُ من دين ودنيا وجيرانٍ تفاقوا^(٨) في المعاني
فمشغوف بآيات المثنائي^(٩) ومفتون برنات المثنائي^(١٠)
ومضطلع بتأخيص المعاني ومطلع إلى تخليص عاني^(١١)
وكم من قارئ فيها وقارٍ أضراً بالجفون وبالجفان^(١٢)
وكم من معلِّم^(١٣) للعالم فيها ونادٍ للندا^(١٤) حلو الجاني^(١٥)
ومعنى^(١٦) لا تزال تُعنى فيه أغاريدُ الغواني^(١٧) والأغاني

(١) أي خرجت في الغلس وهو ظلمة آخر الليل عند بزوغ الفجر .

(٢) كنية الديك .

(٣) الانصلات الخروج بسرعة والسير السريع .

(٤) أي منزلة .

(٥) موسومة أي معروفة .

(٦) بنو حرام قبيلة معروفة .

(٧) الخصائص الفضائل والأثر ذو الفضل يعني أنه يتمتع بمزايا مأثورة ممتازة .

(٨) تنافوا اختلفوا .

(٩) أي مفتون بقراءة القرآن .

(١٠) أي مفتون بنغم أوتار العود .

(١١) أي فك أسير .

(١٢) الأول من القراءة والثاني من القرى للضيف .

(١٣) أي مدرسة .

(١٤) يقصد مجلس السكرم .

(١٥) اغاني الثمار .

(١٦) المعنى المنزل .

(١٧) جمع غانية وهي التي استغنت بمجالها عن الزينة .

فَصِلْ إِنْ شئتَ فِيهَا مَنْ يُصَلِّيَ وَإِنَّمَا شئتَ فَادْنُ مِنَ الدَّانِ (١)

ودونك نُجْبَةٌ الْأَكْيَاسِ فِيهَا أَوْ السَّكَاسَاتِ مُنْطَلِقَ الْعِفَانِ (٢)

من ذلك نرى أن الحريري غنى بمادته اللغوية ، إذ استعمل كثيراً من الألفاظ اللغوية التي تحتاج إلى تفسير . كما نرى أنه يقول الشعر عن طبع وموهبة متصرفاً في شعره تصرف الواثق من نفسه ، لغزارة أدبه وسعة اطلاعه وعلو بابه . ونراه أيضاً قد التزم السجع التزاماً ، وأكثر من المحسنات البديعية الأخرى ، ولا سيما الجناس الذي كان يقوله تاماً وناقصاً فمن التام قوله بآيات المثاني ورنات المثاني في البيت الثاني ، إذ يقصد بالمثاني الأولى آيات القرآن الكريم وبالمثاني الثانية رنات أوتار العود . واللفظتان متفقتان في الشكل وعدد الحروف وترتيبها ، فهو من الجناس التام ، ومن الجناس الناقص قوله في البيت الثالث تلخيص المعاني وتلخيص عاني . فبين كلتي تلخيص وتلخيص جناس ناقص وبين كلمة المعاني وعاني جناس ناقص أيضاً .

وقد أنشأ الحريري مقامته الصنعانية في صنعاء حاضرة اليمن التي يعتقد أنها أول بلدة صنعت بعد طوفان نوح عليه السلام . وجعل هذه المقامة الأولى ، وكان بطلها أيضاً أبا زيد السروجي الذي سماه سراج الغرباء وتاج الأدباء . ولم يستطع الحارث بن همام (وهو الحريري) أن يكلم السروجي لإجلاله واحتراماً ، فسأل عنه تلميذه قاتلاً : « عزمت عليك بمن تستدفع به الأذى لِمُخْذِرِنِي مَنْ ذَا ، فقال هذا أبو زيد السروجي » .

قال الحريري في هذه المقامة : حدث الحارث بن همام قال : لما افتعدت غارب (٣) الاغتراب وأنأتني المتربة (٤) عن الأتراب (٥) ، فوَحَّتْ بي طوائح الزمن إلى صنعاء اليمن . فدخلتها خاوي الوفاض (٦) بادي الإنفاض (٧) ، لا أملك بلغة (٨) ولا أجد في جرابي

(١) يعني أنك مخير بين أن تجلس مع العباد المصلين أو مع أهل السكر الفاوين .

(٢) مقامات الحريري ص ٥٥٧ — ٥٥٩ .

(٣) غارب كل شيء أعلاه ويريد أنه تغرب عن الوطن .

(٤) المتربة الفقر .

(٥) جمع ترب وهو أمثال الشخص .

(٦) أي فارغ الوفاض والوافاض هو الشيء الذي يضع فيه الإنسان زاده .

(٧) الإنفاض هو فناء المال والزاد يريد ظاهر الفقر .

(٨) الباقة ما يتبلغ به من العيش وهو اليسير من الزاد .

مُضَفَّة^(١)، فطفقت أجوب طرقاتها مثل الهائم وأجول في حوماتها جَوَّالان الهائم^(٢)،
وأرود في مسارح لمحاتي ومسابع غدواتي ورؤوحاتي، كريماً أخلق له ديباجتي^(٣)
وأبوح إليه بحاجتي، أو أديباً تفرج رؤيته غمّي^(٤) وتروى روايته غلتي^(٥) حتى أدتني
خاتمة المطاف وهدتني فاتحة الالطاف إلى ناد رحيب . . . فرأيت في بهرة^(٦) الحلقة
شخصاً شخّبت^(٧) الحلقة . . . بطبع الأسجاع بجواهر لفظه وبقرع الأسماع بزواجر وعظه .
وقد أحاطت به أخلاط الزمّر إحاطة الهالة بالقمر والأكام بالثمر^(٨)، فدلقت إليه لافتبس
من فرائده وألتقط بعض فرائده، فسمعت يقول حين خَبَّ في مجاله وهدرت شقائق
ارتجاله، أيها السادر في غلواته السادل ثوب خيلائه^(٩) . . . (١٠) » .

من ذلك نرى أن الحريري التزم السجع والمحسنات البديعية الأخرى ولا سيما الجناس،
وأنه يتصرف في اللغة تصرف الفنى بثروته اللغوية المدرك لبراعة الكلام . والمقامة تدور
حول الاتعاض بشخصية أنى زيد السروجى الذى انشع بالفقر وتزين بالادب . فكان أدبه
أبهى جمالا من ثروة أغنياء المال . ثم إن الحارث بن همام (وهو الحريري) أعجب بهذا
الشخص الذى يفيض أدبا وبلاغة وجلس يستمع إلى نصائحه الغالية وحكمه البارعة . وإن
دل هذا على شئ . فإنما يدل على سعة اطلاع الحريري وامتلاكه ناصية الكلام والثقافة
في عصره .

وهناك مقامات أخرى^(١١) يطول بنا المقام إذا تصدينا لدراستها، وهى حرية بالدراسة
الأدبية المتخصصة .

(١) المضفة هى ما يعض .

(٢) الهائم هو الطائر الذى يحوم ليرى ماء يشربه .

(٣) أى أبذل وجهى .

(٤) الفمة ما على القلب من الأسى والغم .

(٥) الغلة شدة العطش .

(٦) البهرة وسط الحلقة .

(٧) الشخت هو الدقيق النجيل .

(٨) الأكام جمع كن وهو وعاء التمر .

(٩) سدل الثوب أرخاه والخيلاء الكبير .

(١٠) مقامات الحريري ص ١٠ — ١٦ .

(١١) من هذه المقامات المقامة الحادية عشرة (مقامات الحريري ص ٩٧ — ١٠٦) والمقامة
الثانية عشرة (الدمشقية ص ١٠٦ — ١١٩) والمقامة الثالثة عشرة (البغدادية ص ١٢٠ — ١٢٨) =

ويذكر براون^(١) أن الحريري بأسلوبه في مقاماته هو الملك المتوج على رأس الكتاب الذين تخصصوا في المقامات ، إذا ما قورنت مقاماته بما كتب بالعربية كقوامات بديع الزمان الهمذاني ، أو ما كتب بالفارسية كقوامات حميد الدين البلخي ، على الرغم من أن بديع الزمان أسبق إلى ابتكار فن المقامات وتروجه . وقد قدره الأدباء من المشاركة والاوربيين . وحسبنا أن نذكر أن الزمخشري قدر الحريري بقوله إن مقاماته حرية بأن تكتب بماء الذهب ، وإن مؤلفاته ومقاماته قد درست وشرحت وترجمت أكثر من مرة في بلاد المشرق وأوروبا^(٢) . كما نالت مقامات الحريري شهرة عظيمة في بلاد الأندلس في حياته ، ثم جاء الشريشي الأندلسي بعده بنحو قرن ، فشرحها شرحاً قيمياً .

(ب) القاضي الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) .

ويعتبر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي اليبساني زعيم النثر في عهد الأيوبيين . وله مدرسة عرفت به تدعى مدرسة المحسنات البديعية التي اقتبسها من ابن العميد ، ولكن طريقة القاضي الفاضل قد تدهورت على أيدي تلاميذه الذين غالوا فيها مغالاة شديدة وانحرفوا بها عن الغاية المنشورة منها ، فأضحت نوعاً من الحلية اللفظية التي ضعف المعنى بجانبها ، واستمرت في هذا التدهور حتى أصبحت مظهراً سيئاً للأدب في عهد المماليك والأتراك العثمانيين .

ولد القاضي الفاضل بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ هـ وتولى أبوه القضاء بمدينة بيسان (بين بيت المقدس ويافا) . ولذلك نسب القاضي الفاضل إلى هذه البلدة فسمى اليبساني . وقد أخذ العلم على علماء عصره ومنهم أبوه ، ثم قدم القاهرة وخدم في ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الحافظ الفاطمي (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) . ثم أخذ يتدرج حتى أصبح صاحب هذا الديوان . ولما قدم أسد الدين شيركوه مصر وآلت إليه الوزارة اتخذ القاضي الفاضل

= والمقامة الرابعة عشرة المكية (١٢٨ — ١٣٦) والمقامة السادسة عشرة المغربية (س ١٥٠ — ١٦٠) والمقامة الثانية والعشرون الفرائية (س ٢٠٩ — ٢٢٠) والمقامة الخامسة والثلاثون الشيرازية (س ٣٨٣ — ٣٩٠) وهكذا .

(١) تاريخ الأدب في إيران ، ترجمة ج ٢ س ٤٥٦ — ٤٥٧ .

(٢) Chenery, Assemblies or maqamat (London, 1867)

يحمد القارئ عبارة وافية عن حياته في مقدمة

Houtsma, Recueil de textes relatifs à l' Histoire des Seldjouciies (Leyden, 1889), p. 11 et seq.

كاتباً له . ثم آلت الوزارة إلى صلاح الدين الأيوبي ففرب القاضي الفاضل إليه واستعان به في إزالة الدولة الفاطمية ، ثم اتخذ وزيراً له يرجع إليه في أمور الدولة . وظل في الوزارة إلى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) حيث خرج لقتال الملك العادل بن أيوب وهو في طريقه للاستيلاء على مصر (١) .

ومن آثار القاضي الفاضل المدرسة الفاضلية التي أسسها في القاهرة سنة ٥٨٠ هـ . ويحدثنا المقرئ أن هذه المدرسة كانت تضم مكتبة نفيسة حوت نحو مائة ألف مجلد (٢) .

ومن الرسائل التي وجهها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين الأيوبي رسالة يتشفع فيها لخطيب عيذاب رجاء توليته خطابة الكرك (بفتح الكاف والراء) لعدم احتماله المقام في هجير عيذاب ، ولأن خطابة الكرك تدر عليه رزقا أكثر لكثرة عياله . وإليك هذه الرسالة . « أدام الله السلطان الملك الناصر وثبته وتقبل عمله بقبول صالح وأثبته ، وأخذ عدوه قائلاً أو بيته (٣) ، وأرغم أنفه بسيفه أو كبته . خدمة الملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب . ولما نبا (بعد) به المنزل عنها وقل عليه المرفق فيها ، وسمع هذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها ، ووجب على أهلها شكرها ، هاجر من هجير عيذاب وملحها ، ساريا في ليلة أمل كلها نهار فلا يسأل عن صبحها . وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب ، وتوصل بالمملوك في هذا الملتص وهو قريب ، ونزع من مصر إلى الشام ومن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب ، والفقر سائق عنيف والمذكور عائل ضعيف ، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف والسلام » (٤) .

وللقاضي الفاضل شعر أيضاً ، ولكنه لم يبلغ منزلة النثر عنده . ومن هذا الشعر قوله عند بلوغه الفرات في خدمة صلاح الدين متشوقاً إلى نيل مصر .

بالله قل للنيل عنى أنى لم أشف من ماء الفرات عليلا
وسل الفؤاد فإنه شاهد إن كان جفنى بالدموع بخيلا

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ — ٣٣٧ .

(٢) المقرئ : خطط ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) يقصد أن الله سبحانه وتعالى يأخذ عدو صلاح الدين وقت القيلولة (ويكنى بها عن النهار) أو بيته بمعنى يأخذه في الليل .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ .

ياقلب كم اختلفت ثم بثينة وأعيد صبرك أن يكون جميلاً^(١)

(ح) النثر في المغرب والأندلس :

وفد اتخذ المرابطون عدة كتاب على رأسهم صاحب ديوان الرسائل ، وكان بهذا الديوان طائفة من النساخين يقومون بنسخ عدة نسخ من الكتاب الأصلي توجه إلى عمال الأقاليم وغيرهم من الحكام . يذكر المراكشي بأنه اجتمع ليوسف بن تاشفين ولابنه علي من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من عصور المغرب .

وكان أكثر هؤلاء الكتاب من رجال الأدب في الأندلس الذين عملوا في بلاط ملوك الطوائف أو في قصور العمال المرابطين . ومن هؤلاء الكتاب عبد المجيد بن عبدون وعبد العزيز الأنصاري . ويبدو أن هذا الاختيار كان راجعاً إلى درايتهم بفن الكتابة الذي توارثوه عن الدولة الأموية بالأندلس التي عرفت بالتفوق الأدبي الذي اقتبسوه من الشرق . لذلك نرى المرابطين يمينون الكتاب والقضاة والمحاسبين وغيرهم من أهل الأندلس . ومن أشهر أدباء المرابطين :

(١) أبو جعفر بن عطية

ومن هؤلاء الكتاب أبو جعفر بن عطية ، وقد نشأت أسرته بمدينة طرطوش التي ينتمي إليها الفقيه أبو بكر الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك . وقد كتب ابن عطية لعل ابن يوسف ثم لابنيه تاشفين وإسحاق حتى أواخر عهد المرابطين ، ثم انخرط متتكرراً في جيش عبد المؤمن بن علي . وكان يحسن الرماية . ثم صحب أبا حفص عمر لحرب الثائر محمد ابن هود الماسي السلاوي الذي انضم إلى عبد المؤمن أولاً ثم خرج عليه ثانياً ، وأخذ يدعو إلى نفسه باسم الهادي ، وكاد يطيح بعرش المؤحدين ، ولكنه قتل على يد أبي حفص قائد المؤحدين .

وقد كتب أبو جعفر بن عطية إلى عبد المؤمن رسالة طويلة يشيد فيها بانتصار المؤحدين على ابن هود ، فأعجب بها عبد المؤمن واستدعاه إلى بلاطه وقلده الكتابة ثم الوزارة فيما بعد . وما جاء في هذه الرسالة : « كتبنا هذا في وادي ماسة بعد ما ترحل من أمر الله

الكريم ونصره العلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . فتح فاق الانوار إشراقاً وأحرق بنفوس المؤمنين إحداها ^(١) .

على أن ابن عطية على الرغم مما بلغه من جاه ونفوذ في عهد الموحيين كان يعطف على المرابطين الذين تقلب في نعمتهم من قبل ، حتى إنه تزوج بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين . وقد نصح أخاها يحيى بالهجرة إلى جزيرة ميورقة ، فنعى الخبر إلى ابن عبد المؤمن ، فأمر بالقبض عليهما وعلى أخيه ، وحاول ابن عطية أن يستدر عطف عبد المؤمن بما نظم من شعر وبعث برسائل يعتذر فيها عما فرط منه . ومن شعره قوله :

عطفاً عايها أمير المؤمنين فقد بان العزاء لفرط البت والحزن
هَنَ عِنْدَ كُمْ يَسْعَى عَلَى ثِقَةٍ بنصره لم يخف بطشاً من الزمن
أنتم بذلتهم حياة الخلق كلهم من دون من عليهم ولا ثمن
قد أوجدتهم حياةً منك سابقة والكل لولاكم يوجد ولم يكن
على أن عبد المؤمن أجابه بقوله متمثلاً بالآية الكريمة : (الآن وقد عصيت قبلُ
وَكَنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) ^(٢) ، وأمر به قتل . وقد ذكر المقرئ ^(٣) أن بيت ابن عطية
كان غنياً بأدبائه .

(٢) ابن أبي الخصال

ومن كتاب النثر في المغرب مسعود بن أبي الخصال . وقد تقلد منصب الكتابة في عهد المرابطين ، وقد ولد بالأندلس ونشأ بقرطبة وطلب العلم فيها ومرت على الكتابة ، كأخيه أبي مروان الذي تقلد الكتابة لابن الحاج الذي خرج على أمير المسلمين على بن تاشفين ودعا لنفسه بقرطبة ثم قبض عليه . ولكن علياً عفا عنه وولاه « فاس » ونواحيها ، ثم قلده ولاية سرقسطة حيث قتل في حربه مع النصاري في سنة ٥٠٨ هـ . وقد وصف عبد الواحد المراكشي ^(٤) ابن أبي الخصال بقوله : « إنه كان من أنبهم وأكبرهم مكانةً لديه (يعني علياً بن يوسف) إذ هو آخر الكتاب ^(٥) وأحد من انتهى إليه علم الآداب » .

(١) المراكشي : المعجب ص ٢٩٨ . المقرئ : فتح الطيب ج ٧ ص ١١٠ .

(٢) سورة يونس : ١٠ : ٩١ .

(٣) انظر فتح الطيب ج ٧ ص ١١٠ — ١١٥ .

(٤) المعجب ص ١٧٣ .

(٥) يقصد بذلك أنه آخر الذين اشتهروا بالكتابة في عهد المرابطين .

ولابن أبي الخصال ديوان رسائل تداوله الكتاب والأدباء واتخذوه نموذجاً لرسائلهم^(١). وقد قيل إن علياً بن يوسف أمر ابن أبي الخصال وأخاه أبا مروان أن يكتبوا إلى جند بلنسية كتاباً يؤنباهما فيه على تخاذلهم عن نصرة إخوانهم بسرقة. إلا أن كلا من الأخوين كتب رسالة تتم عن احتقارهما للرباطين ووصفهما لإيام بأنهم بدو عراة صحراويون لا إلام لهم بأساليب السياسة وأمور الحضارة والمدنية، مما أغضب أمير المسلمين علي بن يوسف عليهما فعملهما عن الكتابة. وبما جاء في هذه الرسالة :

« أي بني اللثيمة وأعيار الهزيمة ، إلام يزيهكم الناقذ ويردكم الفارس الواحد ؟ فليث لكم بارتباط الخيول ضائناً لها حالب قاعد . لقد آن أن نوسعكم عقاباً وألا تلوثوا على وجه نقابا^(٢) ، وأن نعيدكم إلا صحرائكم ونظهر الجزيرة من رخصائكم^(٣) » .

وقد أثار هذا الكلام غضب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، فأمر بتنحية أبي مروان وقال لأخيه أبي عبد الله : كتنا في شك من بغض أبي مروان المرابطين ، والآن قد صح عندنا . فلما رأى ذلك أبو عبد الله ، استعفاه فأعفاه ، فعاد إلى قرطبة بعد موت أخيه أبي مروان بمدينة مرا كش . وظل أبو عبد الله بن أبي الخصال بقرطبة حتى مات . ومن كتاب النثر في المغرب أبو بكر بن القصير ، وقد تقلد الكتابة لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين . وكان قد تقلد الكتابة للبعتمد بن عباد صاحب إشبيلية . وقد وصفه المراكشي^(٤) بقوله : « أحد رجال الفصاحة والحائز قصب السبق في البلاغة ، كان على طريقة قداماء الكتاب من إشار جزل الالفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الاسجاع التي أحدثها متأخرو الكتاب ، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء » .

ومن كتاب النثر الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، تقلد للكتابة البظفر صاحب بطليوس ، ثم لسير بن أبي بكر ، ثم لعلي بن يوسف بن تاشفين ، وبلغ عنده مكانة عالية .

(١) المعجب ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٢) يعني أنكم غير جديرين بوضع اللثام على وجوهكم . وكان ذلك اللثام عند المرابطين علامة على الشجاعة والفروسية والقسوة .
(٣) ارتحض : انتفضح والرحضاء أيضاً يطلق على العرق ، يعني بذلك أنهم صحراويون لا يعضون بالنظافة .

(٤) المعجب ص ١٦٤ .

وهو كما يقول المراكشي من أهل يابرة^(١) . وكان شاعراً مجيداً^(٢) ، كما كان كاتباً مجيداً . فمن رسائله قوله : « أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبي الحسن على ابن يوسف بن تاشفين ، خافقاً بنصرة الدين أعلامه ، نافذةً في السبعة الأقاليم أعلامه ، من داخل مدينة شنترين ، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك وبمن نقيبتك على المسلمين »^(٣) ...

الفتح بن خاقان (١٠٣٤/٥٢٩ — ١٠٣٥)

ومن أشهر كتاب الأندلس أبو نصر الفتح بن خاقان ، وكان أدبياً كاتباً شاعراً ، غير أن شعره كان وسطاً وكتابه فائقة كما يقول المقرئ^(٤) . وقد أخذ العلم عن طائفة من أدباء عصره كأبي بكر بن القصيرة ، وابن الأمانة ، وأبي جعفر بن سعدون ، وأبي محمد بن عبدون . ولما شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال أصبح من كتاب الأندلس الذين يشار إليهم بالبنان ، كما أحرز قصب الكتابة فألف « بداية المحاسن وغاية المحاسن » ، ومجموعة تتضمن ما أنتجه من نثر أدبي ، كما ألف من الكتب « فلانند العميان ومطعم الانفس »^(٥) ، ومن رسائله قوله :

« سيدى : لا عَدِمْتَ ارتفاقاً^(٦) ولا حُرِمْتَ تسكّيفاً من السعد وانتفاعاً ، أنا الآن مشغول البال لا أفرّق بين الإعراض والإقبال . وعند توجّهي أفرغ لك ما حضر^(٧) ، ومثلك أرجأ الأمر وانتظر^(٨) ، وفي علم الله تعالى لو أمكنتي لملكتك على كاهل وأوردتك منه أعذب المناهل ، وأبجّحتُ لك السعد نغراً ترتشفه ، وخلعت برّداً عليك لتلتحفه ، لكن الزمان لا يجحد^(٩) وصروفه لا تنجد .

وعلى أى حال فلا بد أن تجد قراك ومحمد سيراك (سفرك) إن شاء الله تعالى .

(١) نسبة إلى يابرة إحدى مدن البرتغال .

(٢) المعجب ص ٧٥ — ٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ١٦٥ — ١٦٦ .

(٤) فتح الطيب ج ٩ ص ٢٤٢ .

(٥) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٤٨ .

(٦) يقصد الرفض .

(٧) يقصد أنه يعبر له عما يجيش في صدره من هموم عند أول لقاء .

(٨) معنى أن لك من السلطات ما يستطيع لرجاء الأمور أو النظر فيها سريعاً .

(٩) معنى أن الزمان لا ينيل الإنسان كل رغبته .

ومن كتب الفتح بن خاقان البليغة هذه الرسالة التي بعث بها إلى أبي بكر بن علي (ابن تاشفين) عند ولايته لإشبيلية :

« أطل الله تعالى بقاء الأمير الأجل أبي بكر للأرض يتملكها ويستدير بسعده فلكها . استبشر الملك وحق له الاستبشار وأوماً إليه السعد في ذلك وأشار ، بما اتفق له من توليتك وخفق عليه من ألويتك . فلفقد حُبِّي منك بملك أمضى من السهم المسدد ، طويل نجاد السيف رُحْب المَقْلَد^(١) يقدم حيث يتأخر الدابل^(٢) ويُكرم إذا بَخِل الوابل (المطر) ، ويَحْمِي الحما كربيعة بن مُكَدَّم (بضم الميم وفتح الكاف مع الدال المشددة هو أحد فرسان الجاهلية) ويسقي الظبا^(٣) جميعاً^(٤) كلون العندم^(٥) . فنهيتنا للأندلس لقد استردت عهد خلعائها واستمدت نلك الإمامة بعد إغفائها ، حتى كأن لم تمر لعصارها ولم يمت حكمها ولا ناصرها اللذان عمرا الرصافة والزهرا (يقصد مدينة الزاهر التي بناها عبد الرحمن الناصر) ونكحها (بزوج) عقائل الروم وما بذلا إلا المشرفية (سيف اليمن) مهراً . والله تعالى أسأله انتصار أيامك ، وبه أرجو انتشار أعلامك حتى يكون عصرك أعجب من عصرهم ونصرك أعز من نصرهم والسلام »^(٦) .

وللفتح بن خاقان شعر كثير ، ولكنه لا يرتقى إلى منزله نثره البليغ ، ومن أحسن ما نظم قوله يستعطف الحكيم المستعصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) ويحس إلى مثواه بإشبيلية :

وَيَحْكُ يَا سَلَمَ لَا تُرَاعَى^(٧) لَا بَدَ لِلْبَيْنِ مِنْ مَسَاعِ
لَا تَحْسِبْنِي صَبْرَتْ إِلَّا كَصَبْرِ مَيْتٍ عَلَى النَّزَاعِ^(٨)
مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ عَذَابٍ أَشَدَّ مِنْ وَفْقَةِ الْوَدَاعِ

(١) إشارة إلى سعة الصدر الدال على الشجاعة ، وكان يعاق به السيف ، ويرمز به إلى فراهة الجسم .

(٢) يريد به الرمح أو حامله .

(٣) جمع ظبية (بضم الظاء) حد السيف .

(٤) التجميع دم القلب .

(٥) هو زهر لونه كلون الدم .

(٦) المقرئ : نفح الطيب ج ٩ من ٢٤٨ - ٢٤٩

(٧) يقصد لا تخاف .

(٨) النزاع نزعة الموت .

ما بينها والحمام فرق إلا للنحات في النواحي
إن يفتق شملنا وشيكاً من بعد ما كان في اجتماع
فكل شمل إلى افتراق وكل شعب إلى انصداع
وكل قرب إلى بماد وكل وصل إلى انقطاع^(١)

العلوم العقلية

(١) الطب في العصر العباسي الثاني

أشاد نظامي عروضي السمرقندي^(٢) بأهمية صناعة الطب وعرض للشروط التي يجب أن تتوافر في الطبيب فقال :

« الطب صناعة تحفظ الصحة في بدن الإنسان وهي كائنة وتسترد ما هي مفقودة ،
وبواسطتها يزدان البدن بطول الشعر وصفاء البشرة وطيب الرائحة والنشاط .
وأما الطبيب فينبغي أن يكون رقيق الخلق حكيم النفس صائب الفكر قوي الاستنتاج ،
ولا يكون الطبيب رقيق الخلق ما لم يعرف شرف النفس الإنسانية ، ولا يكون حكيم النفس
ما لم يعرف للنطق . كما أنه لا يكون جيد الخدس ما لم يكن مستعداً العون من الله سبحانه .
والطبيب الذي لا يكون جيد الخدس لا يصل إلى معرفة العلة : ذلك أنه يستدل على حالة
المريض بالنَّبض ، والنَّبض حركة الانقباض والانقباض وما بينهما من سكون » .

وقد أوصى نظامي عروضي أن يتزود من يريد مواصلة الطب بدراسة مصادره الأصلية
مثل أصول أبقراط ومسائل حنين بن إسحاق^(٣) ، « ومرشد محمد بن زكريا الرازي^(٤) ،
و « شرح النبل^(٥) » الذي أجمل هذه المؤلفات ، « وذخيرة ثابت بن قره^(٦) (يضم الفاف

(١) الشعب التعام المنكسر والانصداع الكسر . المقرئ : فجع الطبيب ج ٩ ص ٢٥١ .

(٢) جهار مقاله ، ترجمه إلى الإنجليزية أدوارد براون ، وإلى العربية عزام والحشاب الترجمة
العربية ص ٧٤ — ٧٥ .

(٣) اسم هذا الكتاب « المسائل في الطب للعالمين » ، انظر ابن النديم : كتاب الفهرست
ص ٢٩٤ . القفطي : تاريخ الحكماء ص ١٧٣ .

(٤) اسم هذا الكتاب الفصول في الطب ويعرف باسم المرشد ، انظر ابن النديم : الفهرست
ص ٣٠١ . والقفطي : تاريخ الحكماء ص ٢٧٥ .

(٥) هو أبو سهل سعيد بن عبد العزيز ، وله كتاب « اختصار كتاب المسائل لحنين بن إسحاق »
وتلخيص شرح جالينوس لكتاب الفصول لأبقراط ، وكان من أهل نيسابور .

(٦) يشك القفطي (ص ١٢٠) في نسبة هذا الكتاب لثابت .

وفتح الرأ مع التشديد) ، و « المنصوري » و « الحاوي » لمحمد بن زكريا الرازي^(١) ، أو « الهداية » لأبي بكر الأجويني ، أو « الكفاية » لأحمد بن فرج أو « الأعراض »^(٢) لسيد بن إسماعيل الجرجاني ، ثم يدرس أحد الكتب المفصلة مثل « الست عشرة رسالة » لجالينوس أو « الحاوي »^(٣) لمحمد بن زكريا أو « كامل الصناعة »^(٤) أو « صد باب »^(٥) (مائة باب) لأبي سهل المسيحي ، أو « القانون » لأبي علي بن سينا ، أو « الذخيرة »^(٦) للخوارزمي ، وأن يقرأ هذا الكتاب المفصل في وقت الفراغ ، فإذا أراد الاستغناء عن هذه الكتب كلها فقد يكتفي بالقانون ، فإن سيد الكونين وإمام التفكّين^(٧) يقول : كل الصيد في جوف الفرا ، فكل ما ذكرت موجود في « القانون » مع زيادات كثيرة . وكل من

(١) كتاب المنصوري أو كتاب الطب المنصوري ، ويحتوي على عشر مقالات ، وقد ألفه الرازي باسم منصور بن محمد بن إسحاق بن أسد ، وكان والياً على الري من قبل عمه أحمد بن إسماعيل بن أحمد ابن أسد الساماني ، وقد خرج منصور على نصر بن أحمد ثالث أمراء السامانيين . انظر تعليق ميرزا محمد علي كتاب جهار مقاله ، ترجمة ص ١٦٣ — ١٦٤ .

(٢) وهو في علم الطب بالفارسية ، وقد ترجمه عن كتابه « ذخيرة خوارزمشاهي » بأمر مجد الدين أبي محمد صاحب بن محمد البخاري وزير آتسز خوارزمشاه (٥٢١ — ٥٥١ هـ) . ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٣٢ .

(٣) ويعرف باسم « الجامع الحاضر لصناعة الطب » وهو أعظم وأهم مؤلفات محمد بن زكريا الرازي . القفطي ص ٢٧٤ .

(٤) كامل الصناعة الطبية ، ويعرف بالملكي لعل بن العباس الجوسي الأهوازي (ت ٣٨٤/٩٩٤) . وهو أشهر أطباء عصره ، وكان طبيب عضد الدولة البويهية ، ويعرف مؤلفه في أوروبا باسم Haly Abbas ، وقد طبع في القاهرة في جزأين (١٣٩٤/١٨٧٧) ويحتوي الجزء الأول على الجانب النظري ويبحث الثاني عن الناحية العملية .

(٥) ويعرف باسم « كتاب المائة في الطب » . وقد ولد المسيحي في جرجان وأتم دراسته في بغداد ، وهو أحد أساتذة ابن سينا ، وكان صديقاً لأبي الريحان البيروني : ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ ، ج ٢ ص ١٩ .

(٦) أو « ذخيرة خوارزمشاهي » وهو كتاب مفصل باللغة الفارسية في جميع فروع علم الطب ، ألفه زين الدين (شرف الدين) إسماعيل بن حسن الحسيني الجرجاني المتوفى بمرسنة سنة ٥٣١ / ١١٣٦ . وقد وضعه كما يقول في مقدمة كتابه باسم قطب الدين محمد خوارزمشاه مؤسس الدولة الخوارزمية سنة ٥٠٤ / ١١١٠ . وقد ذكره ريو Rieu في فهرست الكتب الفارسية (س ٤٦٦ — ٤٦٨) ترجمة المؤلف وترتيب فصول وأبواب كتابه . ويلاحظ براون أنه قد يكون أول مسلم يستعمل اللغة الفارسية في المسائل العلمية أو على الأقل هو أول من عرفنا كتبهم . ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٣١ — ٣٢ . نظامي عروضي : جهار مقاله ، التعليق في الترجمة العربية ص ١٦٦ .

(٧) يقصد علي بن أبي طالب ، والثقلان يقصد بهما الجن والإنس .

يحيط علماً بما في المجلد الأول من القانون لا يخفى عليه شيء من علم الطب وكتليانه ، ولو بعث بقراط وجالينوس إلى الحياة لحق لهما أن يسجدا لهذا الكتاب^(١) .

ويرى نظامي عروضي أن الطبيب إذا علم ما في المجلد الأول من « القانون » وهو في الأربعين من عمره ، أصبح أهلاً للاعتماد عليه . وإذا ما بلغ الطبيب هذه المرتبة وجب عليه أن يحرص على اقتناء أحد هذه الكتب الصغيرة التي ألفها أصحاب التجارب الطويلة من الأساتذة الأطباء مثل « تحفة الملوك » لمحمد بن زكريا الرازي ، أو « الكفاية » لابن مندويه الأصفهاني ، أو « تداركه أنواع الخطأ في التدبير الطبي »^(٢) لأبي علي بن سينا ، أو « خفي علائي »^(٣) لإسماعيل بن حسن الجرجاني ، أو « التذكرة » لسيد بن إسماعيل الجرجاني . « وقد نوه نظامي عروضي بهذه الشروط التي يجب أن تتوافر في الطبيب والكتب التي لا غنى عنها لمزاولة مهنته على أتم وجه فقال : « ذلك أنه لا يجوز الاعتماد على الحافظة التي هي في نهاية مؤخر الدماغ ، وأحد هذه الكتب يعينها إذا أبطأت في العمل . وإذا ينبغي لكل ملك أن يحرص على هذه الشروط التي عددناها في الطبيب الذي يختار ، فإنه ليس من اليسير أن يضع روحه وعمره في يد كل جاهل وأن يجعل تدبير حياته في حجر كل عاقل^(٤) » .

وكان الأطباء في هذا العصر ملينين بأكثر فروع المعرفة . فكان الطبيب فوق تفوقه في الطب فيلسوفاً وفقهاً وأديباً . فقد حكى نظامي العروضي السمرقندي ، وكان ينتمى إلى الغور ، أنه وقعت في سنة ٥٤٧ هـ موقعة بين جيوش « سلطان العالم » سنجر السلجوقي وجيوش علاء الدين الحسين الغوري ، وأن الدائرة قد دارت على الغور الذين تعرضوا لحقد السلاجقة وحنقهم واضطهادهم . وقد اختفى نظامي العروضي عن أنظار السلاجقة

(١) وقد نوه نظامي عروضي إلى أهمية كتاب القانون لابن سينا وذكر أنه واجب القراءة لدرجة أنه من الممكن الاستغناء به عن الكتب الأخرى . جهاز مقالة ص ٧٦ .

(٢) هو كتاب وضعه ابن سينا باسم الحسين أحمد بن محمد السهلي وزير علي بن مامون خوارزمشاه الذي ولي الملك سنة ٣٨٧ / ٩٩٧ . وقد طبع هذا الكتاب في سنة ١٣٠٥ / ١٨٨٧ باسم « دفع المضار الكلية عن الإنسانية بتدارك أنواع خطأ التدبير » على حاشية كتاب « منافع الأغذية ودفع مضارها » لمحمد بن زكريا الرازي (بولاق ، القاهرة) .

(٣) هو كتاب مختصر في الطب باللغة الفارسية وهو مختصر لكتابه « خوارزمشاهي » بأمر علاء الدين آتسز . وقد اختصره على جلدتين من القطع الطويل حتى يمكن الاحتفاظ بهما دائماً في الحقيبة . وعلائي نسبة إلى علاء الدولة وهو لقب من ألقاب آتسز . ميرزا محمد تعليقاته على كتاب جهاز مقالة ، ترجمة ص ٧٧ ، ١٦٧ .

(٤) جهاز مقالة الترجمة العربية ص ٧٧ .

في مدينة هراة حيث دعاه أحد الأهل لتناول طعام العشاء في داره ، ثم عبر له عن حزنه لمرض ابنته الوحيدة التي كانت مصدر بهجته وسروره ، وقال إنها في أيام الحيض تنزف عشرة أو خمسة عشر منا (١) من الدم حتى تخور قواها . ثم أضاف أنه استشار كثيراً من الأطباء الذين تولوا علاجها ، ولكن على غير جدوى ، وقال إن الأطباء إذا وفقوا الدم انتفخ بطنها وزاد ألمها ، وإذا تركوه نزف وظهر عليها الهزال وتعرضت للهلاك . وطلب نظامي عروضي إلى الرجل أن يخبره حين يعود الحيض إلى ابنته .

ويقول نظامي عروضي : « فلما انقضت عشرة أيام جاء تني أم المريضة ، فسرت معها وأحضرت البنت أمامي » ، فرأيتها رائعة الجمال حائرة يائسة من الحياة . فلما رأني ارتمت على قدمي وقالت : أي أبى ! أغشى لوجه الله فإني شابة ولم أر الدنيا . فانهمر الدمع من عيني وقلت لها : طيبي نفساً فهذا أمر يسير . ثم وضعت يدي على نبضها فوجدته قويا ، وكذلك كان لون وجهها عاديا ، وقد توفرت فيها أكثر الأمور العشرة كالامتلاء والقوة والمزاج والسمنة والسن (يقصد سن الشباب) والفصل وهواء البلد والعادة والأعراض الملائمة (٢) فدعوت فصاداً وأمرته بفصد عرق الباسليق في يديها . ثم أخرجت النساء من حولها ، وقد خرج الدم الفاسد ، وأخذت منها بالإمساك والتمريح ألف درهم من الدم (٣) ، فسقطت المريضة لا تنمى . فأمرت بإحضار النار وشويت بجانبها اللحم والطير حتى عبق البيت برائحة السكباب وصعد بخاره إلى دماغها ، فثابت إلى رشدها وتحركت وتأنوهت . ثم أعددت لها شراباً مقويا لذيق الطعم ، وعالجتها أسبوعاً حتى استعادت الدم الذي فقده وزالت عنها العلة وانتظم الحيض عندها . وكنت أناديها بابنتي وكانت تناديني بأبى ، وهي اليوم منى كأبنائي (٤) .

من ذلك نرى أن المسلمين الأوائل كانوا على دراية بالتشريح ودراسة أعضاء الجسم دراية عميقة تمكنهم من إجراء العمليات الناجحة .

(١) كيل أو ميزان وهو يساوي رطلين .

(٢) لعل نظامي عروضي يقصد أن حالتها الاجتماعية تجعلها في رخاء وسعة من العيش مما يضمن سلامة جسمها وعدم تعرضها للمرض لنقص الغذاء .

(٣) يقصد أنه تحسّم في دورتها الدموية باستنزاف الدم الفاسد وحفظ الدم النقي وظل على هذا النمط حتى بلغ ما استفده من الدم الفاسد وما استطاع حفظه في الجسم من الدم النقي نحو ما يساوي ألف درهم . وكان ذلك في مدة من الزمن تجري لإجراء العملية بهذا المقدار .

(٤) نظامي عروضي : جهار مقاله ، الترجمة العربية ص ٨٩ — ٩٠ .

ومن أطباء العصر السلجوقي الأول : أبو علي يحيى بن جَزْأَة الطيب (ت ٤٩٣ هـ) .
وكان نصرانياً فأسلم ، وقد صنف كتاب « المنهاج » في الطب^(١) .

ومن مشهورى الأطباء : أبو الحسن المختار بن بَطْلان (بضم الباء وسكون الطاء) .
ولد ببغداد فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، وسافر فى رحلات علمية
إلى مصر والقسطنطينية وسورية ، وألف كثيراً من الكتب فى الطب ، نخص بالذكر منها
كتاب « دعوة الأطباء » .

وقد ذكر ابن بطلان فى هذا الكتاب أنه دعا طبيباً لتناول الغداء معه وسماع درسه
عن الطب . وحينما جلسا إلى المائدة أخذ ابن بطلان يشرح خواص ما قدم لضيفه من
ألوان الطعام . وقد اشتملت هذه الألوان على اللحوم والسمك والشكوريا والأرز
والفطير والفاكهة . وبعد أن فرغ كل منهما من تناول الحلوى جاء الخادم بطبق مغلى
بقهش ظن المدعو أنه طبق آخر من الحلوى . وقد تملكه الدهش حين رأى الآلات
الطبية التى كان يستعملها ابن بطلان ، نذكر منها كليتى الأضراس ، ومكاوى الطحال ،
وزرقان الكولنج^(٢) ، وقناطير التبويل^(٣) ، وملزم البواسير^(٤) ، ومجرقة الأذن^(٥) ،
ومخرط المناخير ، ومخالب التشمير ، ومحك الجرب ، ومنشار المقطع ، وخشبة الكف ،
ومفتاح الرحم^(٦) ، ودرج المسكاتل وموهمدان المرام .

ومن مشهورى الأطباء : محمد بن على السمرقندى . وقد عاش فى القرن السادس الهجرى
(الثانى عشر الميلادى) وألف كثيراً من الكتب فى الطب ، نذكر منها كتاب
« أغذية المرضى » . وقد تناول فيه الكلام على الأمراض والأغذية التى توافق كل مرض ،
وكتاب أبقرات وجالينوس وابن سينا والمجوسى (ت ٣٨٤ / ٩٩٤) . وهذا الكتاب من كتب
الطب المشهورة .

ومن مشهورى أطباء هذا العصر أيضاً : هبة الله بن أبى الغنائم (ت ٥٦٠ هـ) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١١٢ .

(٢) هى آلة من آلات الجراحة التى تستعمل بنوع خاص للقولون (المصران الغليظ) .

(٣) هى آلة تستعمل لقياس أمراض المثانة .

(٤) هى آلة أشبه بالمبضع تستعمل للكشف عن البواسير ..

(٥) هى آلة تستعمل لجرب الأوساخ التى تتولد بالأذن .

(٦) هى آلة تستعمل لكشط الزائد بالرحم والتى تمنع الحمل إذا لم تكشط .

روى ابن خلكان^(١) عن كتاب خريدة القصر وجريدة العصر لعلماء الدين الأصفهاني أن هبة الله «سلطان الحكماء» ، كما قال : « وهو مقصد العالم في علم الطب ، بقراط عصره وجالينوس زمانه ، ختم به هذا العلم ، ولم يكن في الماضيين من بلغ مداه في الطب » .

(ب) الطب في العصر الفاطمي

وكما زحرت بلاد المشرق بطائفة من الأطباء الذين ضربوا بسهم وأفر في الطب ، كذلك حفل المغرب الإسلامي بطائفة من أشهر الأطباء . وقد اهتم الفاطميون بالطب وأغدقوا على الأطباء الأموال وأجزلوا لهم المنح وقلدوهم المناصب العالية وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط . وقد ساعد ذلك على تقدم الطب الذي أصبح يدرس نظرياً وعملياً في المارستانات التي كانت أشبه بكليات للطب تخرج فيها جماعة من أطباء الأمراض الباطنية والجراحين والكحاليين .

وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية ، وخاصة السريانية واليونانية ، بجانب إلمامه بالطب . وقد أورد القفطي وابن أبي أصيبعة تراجم كثير من الأطباء الذين نبغوا في العصر الفاطمي ، مثل موسى بن العازار الذي نبغ في عهد المعز ، وعلى بن رضوان الذي اشتهر في عهد العزيز وخلف كثيراً من الكتب في الطب والفلسفة والمنطق وغيرها .

ومن الأطباء الذين نبغوا في عصر الأيوبيين (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ) ضياء الدين عبد الله ابن أحمد ، وقد ولد بمالقة ببلاد الأندلس ، ثم انتقل إلى مصر والتحق بخدمة الملك الكامل وابنه الملك الصالح نجم الدين . وكان كما يقول السيوطي^(٢) « أوحده زمانه . . . انتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته وأماكنه ومنافعه ، ومات بدمشق سنة ٦٤٦ هـ .

ومن أشهر أطباء هذا العصر علاء الدين علي بن النفيس القرشي ، وكان يعد إمام الطب في زمانه ، واشتهر بؤلفاته الطبية . وهو كما وصفه السيوطي^(٣) « أحد من انتهت إليه معرفة الطب » فوق إلمامه بالفقه وعلم الأصول والحديث واللغة والمنطق . وقد توفي سنة ٥٨٧ هـ .

(١) وفيات الأعيان ج ٥ ص ١١٩ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣٣ .

الطب في المغرب والأندلس

وكان أبو القاسم الزهراوى المتوفى بقرطبة سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) أشهر جراحى عصره . وقد ترك كتباً كثيرة فى الطب نذكر منها بحثه الصغير فى الجراحة ، يشرح فيه العمليات الجراحية والآلات الطبية التى تستعمل فى هذه العمليات . وقد وصف عملية شق المثانة وتفتيت الحصاة ، وذكر أنواع الحصى وطريقة تفتيتها وإخراجها والآلات التى تستعمل فى هذه العملية ، كما وصف الأربطة وغيرها من الأشياء التى يستعملها الجراح لتضميد جراح المريض .

والى ابن زهر (بضم الزاى وسكون الهاء) يرجع الفضل فى اكتشاف علاج للأمراض الجلدية قدمه إلى الخليفة يعقوب المنصور الموحدى .

وقد قصد الأطباء من كافة أرجاء العالم الإسلامى هؤلاء الأطباء المشهورين لتلقى العلم عليهم ، كما قصدهم المرضى لالتماس الشفاء على أيديهم . وكان المسيحيون يقصدون قرطبة كلما دعتهم الحاجة إلى جراح أو مهندس معمارى أو مطرب كبير . مثال ذلك ما حدث من أن « تونا » ملكة إنافار وندت بولدها سانكو البدن لمعالجته من السمعة فى قرطبة . وكان لنجاح علاجه أثر بعيد فى عقد معاهدة مع المسلمين .

وكما عرف الغرب كثيراً من أطباء الإسلام كمحمد بن زكريا الرازى الذى يعرفه الأوربيون باسم Rhazee الذى أفادوا من مؤلفاته الطبية مثل كتاب « الحاوى ^(١) » . ذاعت شهرة الرئيس ابن سينا الذى يعرفه الأوربيون باسم Avicenna ، كما اشتهر ابن رشد الذى ولد بقرطبة وأنتم دراسته الطبية فيها . ونبيغ فى علوم الطب النظرية ، وتوفى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، وخلف كتابه المشهور المعروف باسم « السكليات » أى كتاب الطب العام ، وشرح كتاب « القانون » لابن سينا .

وقد عرف المسلمون نظام التخصص فى الطب ، وظهر بين أطباء المسلمين وأهل الذمة أطباء تخصصوا فى أعضاء الجسم والجراحة واستعملوا الآلات الطبية فى علاج الأمراض . وقد أطلق على من يشتغل بالطب فى العصور الوسطى لقب « حكيم » . والفلسفة كلمة يونانية معناها الحكمة ، ويطلق على من يزاوها « حكيم » ، لأن الطب كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفلسفة . وكان الأطباء بحسب تخصصهم أنواعاً مختلفة : كالطبائعية .

(١) وينقسم اثني عشر قسماً ويقع فى ثلاثين مجلداً .

والكحاليين ، والجراثيمية والمجبرين وغيرهم . وقد ذكر ابن القيم الجوزية^(١) أنواع الأطباء والآلات الطبية في هذه العبارة حيث قال :

« والطبيب في هذا الحديث يتناول من طبِّ بوصفه وقوله ، وهو الذى يختص باسم الطبائى ، وبمروده وهو الكحال ، وبمبضعه ومراهمه وهو الجراح (الجراثيمى فى الأصل) ، وبمسواه وهو الخائن ، وبريشته وهو القاصد ، وبمحاوجه ومشطره وهو الحجام ، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبّر وبمكواته وهو الكواء ، وبقرينه وهو الحاقن . وسواء كان طبه لحيوان أو لإنسان فاسم الطبيب يطلق على هؤلاء كلهم » .

وكان لهذه المبادئ الإنسانية السامية التى قررها الإسلام أثر بعيد فى شفاء الأمراض وتخفيف الآلام . وقد خصّص بعض خلفاء المسلمين أعطيات ثابتة للجدّوين حتى يمتنعوا عن سؤال الناس ويحولوا دون انتشار الأمراض ، وجعل بعضهم فى المساجد خزائن وضعت فيها الأدوية والأشربة وعينوا لها الأطباء لإسعاف المصلين ، وبنوا المارستانات للمرضى وأباحوها للناس من غير تمييز فى الأديان والمذاهب وقدموا لهم العلاج والطعام بدون مقابل . بل لقد اشتهر كثير من أطباء المسلمين بالكرم والعطف على الفقراء والمرضى ، حتى كانوا يعالجونهم ويقدمون إليهم الأدوية والعقاقير ويقومون بالإنفاق عليهم حتى يتم شفاؤهم .

(٤) الممارس الطبية

وقد اهتم العباسيون بذكر الثقافة الطبية وتقديمها بترجمة ما خلفه اليونان ، وتأسيس البمارستانات أو الكليات والمدارس الطبية والمستشفيات لتخرج الأطباء وعلاج المرضى . ولم تلبث المدارس الطبية أن انتشرت فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية . وحذق المسلمون صناعة الطب ومارنوا عليها ، وبرعوا فى تشخيص الأمراض ، ووصفوا الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفتها كل منها . واعتمدوا فى علاج المرضى على ما كسبوه من تجارب ، وما يستتبع ذلك من وضع المؤلفات الطبية فى الأدوية والعقاقير وفى أعضاء الجسم ووظائفه .

كما دعا المسلمون إلى عقد المؤتمرات الطبية التى كان يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد الإسلامية فى موسم الحج ، حيث يقدمون نتائج أبحاثهم ويعرضون نباتات بلادهم ويصفون

(١) زاد المعاد ص ١١٠ .

خواصها الطبية ، وأصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية .

وقد اعتمدت معاهد الطب العملية أو المارستانات على نظام معاهد الطب الأجنبية ، فقد اقتبس المسلمون فكرة المارستان عن السريان في العصر العباسي الأول لتفوقهم في مهنة الطب . وكان يطلق على مدير المارستان إذا كان سرياني الأصل اسم « الساعور » ومعناها بالسريانية متفقد المرضى . أما إذا كان مسلماً أطلق عليه اسم رئيس الأطباء ، وهو الذي يشرف عليهم ويأمر بممارسة مهنة الطب^(١) .

وكان أبو منصور عبد الملك بن يوسف من علماء عصره ، وقد تسلم المارستان العسدي الذي بناه عضد الدولة البويهى بعد أن تطرق إليه الخراب ، فجدد عمارته وعين له ثمانية وعشرين طبيباً ، وثلاثة من الخزان ، واشترى له الأملاك التي يصرف ريعها على إدارة هذا المارستان الذي لم يكن له قبل ذلك طبيب ولا خزانة دواء . وقد اشتهر أبو منصور بأعمال البر وفعل الخير وإغداق الصلوات على الناس . وكان يلقب بالشيخ الأجل ، ذلك اللقب الذي لم يلقب به أحد سواه في زمانه ، ومات سنة ٤٦٠ هـ^(٢) .

وقد عني صلاح الدين الأيوبي ببناء المارستانات في مصر . وفي مدينة مراکش بنى الخليفة المنصور الموحدى المارستان الذي وصفه عبد الواحد المراكشي^(٣) فقال إنه يمتاز بالقوش البديعة والزخارف المحسكة ، وأقيمت فيه الصيدليات وأجريت المياه المتفجرة وغرست الأشجار المزهرة والأشجار المثمرة ، وزود بقباب للمرضى من الصوف والكتان والحرير . ولم يقصر يعقوب المنصور هذا المارستان على الفقراء دون الأغنياء ، بل كان كل من مرض بمدينة مراکش نقل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت . وكان يعقوب المنصور يركب بعد صلاة الجمعة فيعود المرضى ويسأل عن أهل كل غرفة فيقول : كيف حالكم ؟ وكيف القومة عليكم ؟^(٤) إلى غير ذلك من الاسئلة ليوقف بنفسه على أحوالهم^(٥) .

(١) أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص ١٩ ، ٢٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢١ — ٢٢ .

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٤) يقصد أطباء المارستان أو المستشفى والمرضى والمخدم .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

٢ — الفلك والنجوم

(١) الفلك والنجوم في العصر العباسي الثاني .

كان لعلم النجوم كما كان لغيره من العلوم العقلية في العصور الوسطى أهمية في المشرق وفي المغرب الإسلامي على السواء ، حتى إن علماء الدين كانوا يولونه اهتماما خاصا ، بل لأنهم كانوا ينصرفون إلى دراسته والتبحر فيه ، لأن الخلفاء والأمراء والسلاطين كانوا لا يرمون أمورهم ولا يقدمون على خوض غمار الحروب دون الرجوع إلى آراء المنجمين . وكانت الجيوش لا تسير إلى ميادين القتال إلا في الوقت الذي يقع عليه اختيار المنجمين .

وقد ذكر أبو الريحان البيروني (ت ٤٤٠ / ١٠٤٨) في كتاب « التفهيم في صناعة التنجيم » ^(١) أن المنجم يجب أن يلم بأربعة علوم هي الهندسة والحساب والهيئة والاحكام . ففي الهندسة يجب على المنجم أن يدرس كتاب أوقليدس الذي نقحه ثابت بن قرة ، وفي الحساب يدرس كتاب « أرثماطيق » ليلم بأصول الحساب ، وأن يدرس فروع هذا العلم في « تسكملة أبي منصور البغدادى » المتوفى سنة ٤٢٩ / ١٠٣٧ . أو « صد باب » (مائة باب) للسجزي ^(٢) . والهيئة علم يعرف به أحوال العالمين العلوى والسفلى ، وأحوال حركات الكواكب والأفلاك ويجب على المنجم أن يدرس كتاب « المحسطنى » وأحسن تفاسيره وشروحه . مثل « تفسير النيريزى » ^(٣) « ومحسطنى الشفا » . وفروع هذا العلم هي علم الزيجات وعلم التقاويم . ويقصد بالاحكام الاستدلال على أشكال الكواكب بقياس بعضها إلى بعض وأحوال أدوار العالم والممالك والبلدان والمواليد والتحاويل وغيرها . ويجب على المنجم أن يدرس تصانيف أبى معشر البلخى ^(٤) ، وأحمد بن عبد الجليل السجزي ، وأبى الريحان البيروني وكوشيار الجليلي ^(٥) .

(١) هو كتاب في مقدمات علوم الهيئة والهندسة والعلوم ألفه البيروني سنة ٤٢٠ / ١٠٢٩ (وقيل سنة ٤٢٥ / ١٠٣٣) بالعربية والفارسية .

(٢) من مشاهير الرياضيين والمنجمين في القرن الرابع الهجرى . وقد عاش معظم حياته تحت رعاية عضد الدولة البويهى في شيراز (٣٣٨ — ٣٧٢ هـ) . ومن مؤلفاته كتاب « الجامع الشاهى » في النجوم والطالع وغيرها .

(٣) كان إمام عصره في العلوم الرياضية ، وكان معاصراً للمعتزى العباسى (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) . ومن كتبه تفسير محسطنى بطليموس . وينسب إلى نيريز وهى بلد بفارس .

(٤) من مشاهير منجمى القرن الثالث الهجرى ، وكان معاصراً ليعقوب بن إسحاق السكندى . وقد توفى أبو معشر في شهر رمضان سنة ٢٧٢ / ٨٨٦ وقد جاوز المائة .

(٥) ينسب إلى بلاد جيلان وهو من مشاهير المنجمين والفلكيين في عصره . وقد عاش في =

« وينبغي أن يكون المنجم طيب النفس زكى الخلق رضى الخلق . . . وينبغي أن يكون طالع النجم الذى يريد أن ينفى . بالأحكام فى سهم الغيب أو فى مكان ملائم منه ^(١) . ومن توفر له برج سهم الغيب كان مسعوداً ، وكان مكانه محموداً ووقع ما يقول قريبا من الصواب . ويجب على المنجم أن يعلم « مجمل أصول كوشيار » ^(٢) وأن يداوم قراءة « كار مهتر » ^(٣) ، وأن ينظر فى « قانون المسعودى » ^(٤) و « جامع شامى » . وقد ذكر ابن الاثير ^(٥) أن قتلش جد أمراء السلاجقة أصحاب قونية وقيصرية ومطية فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ثار على السلطان ألب أرسلان وهدد الرى فجمع السلطان جيشاً عظيماً أحل به الهزيمة فى سنة ٤٦٥ هـ . وكان قتلش يتقن علم النجوم ، فنظر أن طالعه فى ذلك اليوم قد قارنه النجم ، فحملت به الهزيمة ومات من يومه . وقد أضاف ابن الاثير إلى ما تقدم أن أولاد قتلش قد حذوا حذو أبيهم فى دراسة علم النجوم » .

وقد روى نظامى عروضى السمرقندى ^(٦) قصة الحكيم الموصلى المنجم . وكان الوزير نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى يرجع إلى رأيه . ولما تقدمت به السن طلب من الوزير أن يعفيه من عمله ليذهب إلى نيسابور فيقيم بها على أن يبعث إليه تقويماً وتحويلاً فى كل عام . وقد طلب منه الوزير أن ينظر فى تقويمه فينبئه بالوقت الذى يموت فيه . فقال الحكيم الموصلى : « بعد وفاتى بستة أشهر » .

وكان نظام الملك يسأل كل من يأتى من نيسابور عن حال الموصلى المنجم ، فإذا علم أنه سليم معافى « اعتدل طبعه وطاب قلبه إلى أن كانت سنة خمس وثمانين وأربعمائة

= النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . ومن مؤلفاته كتاب « مجمل الأصول » (مكتبة المتحف البريطانى Add ٤٩٠ ورقة ٢٢ ب .

(١) يعنى بذلك أن يكون المنجم قد ولد فى أحد الأبراج التى تشير إلى السعادة أو ترمز إلى الغيب .
(٢) هو مجمل الأصول لكوشيار . وتوجد منه نسخة ممتازة فى المتحف البريطانى Add. ٧٤٩٠ .
(٣) كارمهتر اسم كتاب فى النجوم ألفه حسن بن الحصيب من حذاق المنجمين وكان معاصراً ليجي بن خالد البرمكى .

(٤) هو من أنفس كتب البيرونى فى علمى الهيئة والنجوم ، وقد ألفه بين سنتي ٤٢٢ و ٤٢٧ هـ (١٠٣٠ — ١٠٣٦ م) باسم السلطان مسعود الفرنوى . ويشتمل هذا الكتاب على إحدى عشرة مقالة ، كل مقالة مقسمة إلى أبواب . وفى المتحف البريطانى نسخة ممتازة تشتمل على ٢٦٢ ورقة .

انظر تعليقات الأستاذ ميرزا محمد على كتاب جهار مقاله ، الترجمة العربية من ١٤٦ — ١٥٢ .

(٥) السكامل ج ١٠ ص ١٣ — ١٤ .

(٦) جهار مقاله ص ٦٨ — ٦٩ .

(١٠٩٢ — ١٠٩٣ م)، فقدم قادم من نيسابور فسأله الوزير عن الموصلى، فتقدم الرجل بالتحية ثم قال: لبيق صدر الإسلام وارثاً للأعمار، لقد مات الموصلى. فقال الوزير: متى؟ قال الرجل: ذهب فداء لصدر الإسلام في نصف ربيع الأول. فتفطر قلب الوزير الكبير، وأفاق فأعاد النظر في أعماله وفي سجل الأوقاف، ووقع الأمر بصرف الخيرات، وكتب الوصية وحرر من رضى عنه من عبيدة وفي دفينه، وأسعد كل من استظل بسلطانه، وطلب العفو من خصومه، وبقي ينتظر الموت حتى كان رمضان، فاستشهد على يد تلك الجماعة^(١) في بغداد^(٢) أبار الله برهانه وأسبغ عليه رضوانه.

وكان الوزير نظام الملك مولعاً بعلم النجوم مشجعاً للنجمين. فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٦٧ هـ أن نظام الملك والسلطان ملكشاه السلجوقي جمعا جماعة من أعيان المجسمين فجعلوا النوروز أول نقطة من «الحمل» وكان قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت، وأصبح هذا العمل مبدأ التقويم.

وفي هذه السنة عهد السلطان ملكشاه إلى مظفر الاسفزاری بعمل الرصد، فقام جماعة من عظماء النجمين ومن بينهم عمر الخيام وميمون بن النجيب الواسطي وغيرهم بعمل التقويم الجلالى المعروف بالرصد الملكشاهى^(٣). وقد بقي هذا الرصد حتى مات السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ.

وبعتبر عمر الخيام بالإضافة إلى شهرته من مشاهير الفلاسفة والرياضيين في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس. وكان متبحراً في الفقه عالماً باللغة والتاريخ. وكان أحد واضعى الإيج الملكشاهى. وقد ذاع صيته في الشرق والغرب بفضل رباعياته. وكان ملكشاه السلجوقي يزلّه منزلة الندماء، ويعظمه الخاقان شمس الملوك في بخارى غاية التعظيم ويحمله على سريره. وكان صديقاً لنظام الملك وحسن الصباح^(٤).

ويروى نظامى عروضى^(٥) أن عمر الخيام ومظفر الاسفزاری نزلا دار الأمير أبى سعيد في مدينة بلخ سنة ٥٠٦ هـ. وكان نظامى عروضى متصلاً بهذا الأمير، فسمع عمر الخيام

(١) يعنى الباطنية أو النزارية أتباع الحسن بن الصباح.

(٢) اتفق المؤرخون على أن نظام الملك قتل في نهاوند.

(٣) انظر نظامى عروضى: جهاز مقاله تعليقات ميرزا محمد — الترجمة العربية من ١٦٠ هامش رقم ١٨.

(٤) المصدر نفسه ص ١٥٦ — ١٥٧.

(٥) المصدر نفسه ص ٦٩ — ٧٠.

يقول أثناء مجلس السمر : « سيكون قبرى فى موضع تؤرجه ربح الشمال بشذى الورد كل ربيع » . وقد أضاف نظامى عروضى أنه لما زار نيسابور سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ - ١١٣٦ م) وقد مرت أربع سنين على وفاة الخيام ، ذهب لزيارة قبر أستاذه يوم الجمعة ، فرأى قبره أسفل جدار بستان قد أطلت منه أشجار الكثرى والمشمش ، وقد تناثر على القبر كثير من الزهر حتى غطاه ^(١) .

وفى شتاء سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ - ١١١٥ م) أرسل سنجر وهو بمرور رسولاً إلى وزيره صدر الدين محمد ^(٢) يقول له : « قل للإمام عمر (الخيام) يختار بضعة أيام لا يكون فيها ثلج ولا مطر حتى نخرج للصيد . . . فذهب الخيام وأعمل جهده يومين واختار وقتاً حسناً ، ثم ذهب بنفسه وسار بصحبة السلطان . فلما ركب السلطان وسار فى طريقه قليلاً تجمعت السحب وهبت الريح وهطل الثلج وانتشر الضباب ، وضحك الركاب وهم السلطان بأن يعود . فقال عمر الخيام : « ليظمن قلب السلطان فإن المطر سينقطع لساعته وإن تنزل هذه الأيام الخمسة قطرة منه . فسار السلطان وانتشعت السحب . ولم ينزل طلّ فى هذه الأيام الخمسة ، ولا رأى أحد سحاباً » .

وعلى الرغم مما بلغه عمر الخيام من شأن فى علم النجوم لم يعتقد فى أحكامها قط ، وربما كان ذلك لسيطرة العقيدة الدينية عليه ، إذ ورد فى الأثر الشريف « كذب المنجمون ولو صدقوا » . وقد علق نظامى عروضى على أحكام النجوم بقوله : إنه برغم انتشارها لا يجوز الاعتماد عليها ولا ينبغي للنجم أن يمين فيها ، بل عليه أن يحيل كل حكم يراه على القضاء ^(٣) . وقد دلّل نظامى عروضى على رأيه الذى يتفق مع رأى أستاذه الخيام بقصة تتعلق بفرزوى كان قليل المعرفة بعلم النجوم ، وكانت النساء يجتمعن حوله ليكتب لهن تعاويذ فى الحب . وقد طلب السلطان من المنجمين أن يختاروا له طالماً إذ عزم على

(١) اختلف المؤرخون فى سنة وفاة عمر الخيام ، فقول سنة ٥١٧ هـ وقيل سنة ٥٢٦ هـ . ويظهر أن التاريخ الثانى أقرب إلى الصواب لأنه يتفق مع ما ذكره نظامى عروضى عن أستاذه الخيام حيث يقول : (س ٦٩ — ٧٠) هـ « فلما بلغت نيسابور سنة ثلاثين وخمسةائة وقد خلت أربع سنوات على إبداع هذا الرجل العظيم الترى » .

(٢) ابن فخر الملك أبى الفتح المظفر بن نظام الملك ، وقد قتل سنجر أباه فخر الملك ، وكان وزيره سنة ٥٠٠ / ١١٠٦ ، ثم أسند الوزارة إلى صدر الدين وقتله سنة ٥١١ / ١١١٧ بيد أحد المماليك . راجع ابن الأثير : الكامل فى حوادث سنة ٥١٣ هـ .

(٣) نظامى عروضى س ٧٠ .

حرب صدقة بن مزبد أمير الحلة حين ثار الخلاف بينهما . ولما يئس السلطان من عجز المنجمين على اختيار الطالع ، تقدم هذا الغزنوي عن طريق أحد خدم السلطان ومثل بين يديه وأعد له الاختيار وشجعه على المسير على حرب صدقة .

ولما انتصر السلطان على صدقة عاب على عطاء المنجمين إخفاقهم في إعداد الاختيار ، ولكنهم عابوا اختيار هذا المنجم الغزنوي ودبروا طريقة لكشف أمره . فأمر السلطان أحد ندمائه بأن يدع المنجم الغزنوي ويشرب معه الخمر حتى تلعب بلبه ثم يسأله . فقام النديم بتنفيذ الأمر وسأل هذا المنجم فأجاب : « إني علمت أن هذا الأمر لا يعدو واحداً من اثنين : إما أن يهزم هذا الجيش أو ذاك ، فإن هزم ذلك الجيش لقيت التشريف ، وإن حلت بهذا الهزيمة فمن ذا يبالي بي ؟ »^(١) . وهذا يدل على أن البعض يحترف التنجيم وهو غير عالم بأصوله ، كما يدل كذلك على أن أخبار المنجمين غير صادقة في بعض الأحيان . ومن أشهر علماء النجوم في العصر السلجوقي أبو القاسم هبة الله المشهور بالديع الأسطرلابي^(٢) . وكان كما يقول ابن خلدون^(٣) « وحيد زمانه في علم الآلات الفلكية متقناً لهذه الصناعة » . وقد اشتهر في عهد الخليفة المسترشد العباسي ، ومات في سنة ٥٣٤ هـ .

(ب) الفلك والنجوم في مصر والمغرب .

كان لعلم النجوم أثر كبير في توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتمدون على التنجيم في تنفيذ سياساتهم . فقد رأينا كيف اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم في تأسيس مدينة بغداد ، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الاساسي للبناء إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم الذي أخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها .

وقد اختار الإسماعيلية ابن حوشب لرياسة دعوتهم في بلاد اليمن ، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون له شأن في نشر هذه الدعوة في هذه البلاد^(٤) ، كما استعان جوهر

(١) نظامي عروضي : جہار مقالہ ص ٧١ — ٧٢ .

(٢) نسبة إلى الاسطرلاب (بضم الهمزة وسكون السين وضم الطاء) . وهي كلمة يونانية معناها ميزان الشمس ، إذ كان الاسطرلاب آلة توزن بها أشعة الشمس في مواقيت مختلفة ويستعان بها في معرفة كثير من نتائج علم التنجيم القائم على أبراج الشمس وهي الحمل (بفتح الحاء والميم) . والمربخ والسرطان وغيرها . وقيل إن أول من وضع الاسطرلاب هو بطليموس الجبسطي .

(٣) وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٤) عمارة اليمن : تاريخ اليمن (طبعة هنري كاسيل ، لندن ١٨٩٢) ص ١٤٠ .

الصقلي بالمنجمين ليختاروا له طالعا سعيداً لوضع أساس مدينة القاهرة (١)، واهتم الحاكم بعلم النجوم حتى إنه أنشأ بسفح المقطم في القاهرة رصداً أطلق عليه «الرصد الحاكمي». وكان حكام المغرب يهتمون بعلم النجوم في عهد المرابطين السنيين. وفي عهد المرحدين الذين كان مذهبهم يميل نحو الاعتزال والتشيع. ففي عهد المرابطين نرى مالك بن وهيب (بضم الواو وفتح الهاء وسكون الياء) رئيس العلماء قد أخذ يحظ وافر من علم النجوم: إذ كان حزاماً (٢) ينظر في النجوم. وكان الكهان (٣) يتحدثون بأن ملكاً من الملوك كائن بالمغرب لامة من البربر. فقال مالك بن وهيب للسلطان علي بن يوسف بن ناشغين المرابطين (٥٠٠ — ٥٣٧ هـ) عذراً لإياه من ابن تومرت بأنه الرجل الذي يقصده الكهان: «احتفظ بالدولة من الرجل» (٤).

على أن مذهب الموحدين يرتكز على القرآن والسنة كما يقول الخليفة يعقوب المنصور (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) في إحدى جلساته: «وليس لنا إلا هذا»، مشيراً إلى المصحف الشريف «أو هذا»، مشيراً إلى كتاب آخر من أمهات كتب الحديث.

ومع هذا فقد كان لعلم النجوم أهمية خاصة في نظر الموحدين، إذ كانوا يعتمدون في أعمالهم على الجفر (٥) (بفتح الجيم وسكون الفاء)، وفي طليعتهم المهدي محمد بن تومرت

(١) ابن الجيعان: الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٦ ص ٣٥. رموز وطلاسم مقلقة لا يدركها إلا للعالمون بطرائقها. وظاهر القرآن الكريم يبطل زعم المؤمنين بهذه الجفور وما جاء بها من الغيبات. إذ يقرر القرآن الكريم أن علم الغيب يختص بالله سبحانه وتعالى، كما ذكر ذلك في آيات كثيرة. من ذلك قوله تعالى في سورة النمل (٢٧: ٦٥): (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أياً يبعثون)، وقوله تعالى في سورة هود (١١: ١٢٣). (وقه غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون).

انظر عبد الله علام: الدعوة الموحدية بالمغرب ص ٨٩ — ٩١.

(٢) أي متطلعا ومتابعاً لرصد النجوم.

(٣) جمع كاهن وهو عالم من علماء الدين عند غير المسلمين، والمقصود به هنا علماء النجوم.

(٤) ابن خلدون: العبر (طبعة بيروت) ج ٦ قسم ٢ ص ٤٦٩.

(٥) الجفور جمع جفر. والجفر من أولاد الماغز ما بلغ أربعة أشهر. وكان القدماء يكتبون على جلود أولاد الماغز ويسمون هذه الجلود جفور على سبيل التجوز. وقد زعمت الخطابية (وتنسب إلى أبي الخطاب محمد بن زينب الأسدي) أن جعفر الصادق الإمام السادس عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية أودعهم جفراً فيه علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، كما زعموا أنه لا يقرأ فيه إلا من كان منهم. ولما أعلن أبو الخطاب أن الأئمة أنبياء ثم آله (الشهرستاني: الملل والنحل ج ٢ ص ١١، ١٥)، وقال أتباعه بألوهيته (البغدادي: الفرق بين الفرق ص ١٣٨) تبرأ منه الإمام جعفر الصادق (الشهرستاني: تاريخ الإسلام - ج ٤).

صاحب الدعوة الموحدية ، حتى لقد قيل إنه أقر عبد المؤمن على الجيش بعد أن رأى ذلك في الجفر . ويظهر هذا الاعتقاد واضحاً في المذهب الموحدى ، لأن صاحب الدعوة الموحدية ادعى المهديونية التي تعد أصلاً وهدفاً عند الشيعة الذين اعتمدوا في أخبارهم الغيبية على الجفور كما يتضح ذلك من خطبة المأمون الموحدى . وإن كان قد أنكر المبادئ الموحدية لم ينكر الأخذ بالتدريج القائم على الجفور في أغلب الأحيان . لذلك نراه يقول في إحدى خطبه : « لا تظنوا أنى أنا إدريس الذى تدرس دولتكم على يده . كلا إنه سيأتى بعدى إن شاء الله » ، مشيراً بذلك إلى الإخبار بالغيب .

٣ — الرياضيات

ومن العناصر الأساسية في قيام الثقافة الكتابة والعدد لتيسير طرق التفاهم ووسائل التعاون بين الناس . وهما يعتبران عنصرين هامين كان لهما أثر كبير في الثقافة الأوربية . وكان العرب وسطاء في تيسير الكتابة ونشرها في الغرب . فالحروف الأبجدية الحالية مأخوذة رسماً واسماً عن السامية ، إما مباشرة أو عن طريق الفينيقيين . وقد عجز الخط اليونانى عن مجازاة الخط السامى وما طرأ عليه من تطور فنى عظيم .

والغرب مدين للشرق بنظام العدد العربى . ونحن ندرك قيمة الأعداد العربية إذا ذكرنا العلوم الرياضية والميكانيكية والفلسفية الحديثة في عمليات جمع أو طرح أو ضرب أو قسمة بحروف رومانية مثل CLXXXV . وإننا لندرك صعوبة وضع هذا العدد على غلاف كتاب ، كما كانت الحال قبل سنة ١٨٨٨ . كما نرى أن استخدام الأعداد الرومانية مصدر أخطاء مطبعية جسيمة . والأعداد العربية المستعملة في الشرق العربى الآن هندية الأصل . أما الأعداد العربية الأصل فهى المستعملة بالمغرب العربى الآن . وقد اقتبسها الأوربيون عن طريق الأندلس والمغرب . وكان العرب وسطاء في نقل هذه الأعداد إلى الأوربيين بدليل كتابتها من اليسار إلى اليمين ، بخلاف ما نراه في كتابة الحروف الأبجدية في معظم اللغات السامية ، أى من اليمين إلى اليسار .

== ستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ١٦) وانتهى الأمر بقتل أبى الخطاب على يد عيسى بن موسى في عهد أبى جعفر المنصور .

انظر عبدة علام : الدعوة الموحدية ص ٨٩ ، ٩٠ — ٩١ .

أما ترتيب كتابة الأعداد والصفر فهو من اختراع الهنود الذين أخذ الناس عنهم علم النجوم . ولم يعرف الأوروبيون الصفر الذي هو من اختراع الهنود أيضاً . فإن أوروبا لم تعرف شيئاً عنه قبل منتصف القرن الثاني عشر الميلادي ، على حين تحدثنا المصادر العربية أن المسلمين كانوا يعرفونه منذ زمن طويل . وكانوا يسمونه حلقه ومعناها لا شيء . أو عدم وجود القيمة التي يعبر عنها المسلمون بالصفر الذي يضعه المشتغلون بعلم الحساب على العدد المعلوم . وأما لفظ Zero فهو العربي صفر بمعنى « خلا » . وقد استخدم مارتن لوتر مؤسس المذهب البروتستانتي المعروف « صفر » للتعبير عن ضعف الأساقفة أمام البابا ، فقال ما معناه إنهم يجلسون أمامه كالأصفار . واستخدام لفظ Zero للدلالة على لا شيء . ويعبر عن الصفر أحياناً بواسطة دائرة صغيرة ، وأحياناً بواسطة نقطة . وقد استخدم الصفر للمرة الأولى كوحدة حسابية ، واستخدم لفظ صفر في الشعر الجاهلي للتعبير عن معنى « خلا » كما يتضح ذلك من هذا البيت :

تري أن ما أهلكك لم يك ضرني وأن يدي مما بخلت به صفر
(أى خالية)

٤ — الفلسفة

(١) أبو حامد الغزالي (ت ١١١١/٥٠٥)

تأثر مسيحيو الأندلس بدراسة القرآن والحديث ، وكانوا يكتبون العربية ويتكلمون بها ، كما أعجبوا بالدراسات الإسلامية وتأثروا بأراء الفلاسفة الإسلاميين . وقد أخذ الأوروبيون عن المسلمين حكم الفلاسفة بعد أن درسوا مؤلفات الكندي المتوفى سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ م) فيلسوف العرب ، وأبي نصر الفارابي (ت ٣٣٩/٩٥٠) الذي لقب المعلم الثاني تمييزاً له عن أرسطو الذي لقب المعلم الأول . وكذلك أدخل مسيحيو الأندلس مؤلفات الرئيس أبي علي بن سينا (ت ٤٢٩/١٠٣٧) الذي نبغ في الفلسفة والطب وأحياناً أثار أرسطو وأفلاطون في الفلسفة وأبقراط وجالينوس في الطب ، وقصده المرضى من كل فجح كما جذبه الأمراء إليهم .

كما درس الأوروبيون مؤلفات أبي بكر الرازي الذي يعرفونه باسم Phrazes ، ومؤلفات حجة الإسلام الغزالي (ت ١١١١/٥٠٥) في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة . وعن التصوف الإسلامي أخذ الأوروبيون نظام التصوف ونظام الدراويش . وتتفق الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى مع الفلسفة الإسلامية تماماً . والتصوف الأوروبي ،

والألماني بوجه خاص ، أقرب إلى التصوف الإسلامي والفارسي بصفة عامة ، منه إلى تصوف العالم القديم . والراهب الغربي والدرويش في الشرق يتبعان في حياتهما نظاماً خاصاً وضعه مؤسس الطريقة التي يتبعها الراهب أو الدرويش ، ولو أن هناك بعض التباين بين الخلوة والدير . وتعتبر مقدمة ابن خلدون (ت ٨٠٨ / ١٤٠٥ — ١٤٠٦) أساس علم الاجتماع الذي أخذهُ الأوروبيون عن المسلمين في عصر النهضة الحديثة . وقد عالج في هذه المقدمة نواحي الاجتماع وال عمران ونظم الحكم والمذاهب الدينية وغيرها . وابن خلدون أول من كتب في فلسفة التاريخ .

ويعد أبو حامد محمد الغزالي إمام عصره ووحيد زمانه في علوم الدين الإسلامي الخفيف ولا سيما في علم أصول الفقه وعلم الكلام ، كما عرف بحجة الإسلام . وكان الغزالي مصلحاً دينياً واجتماعياً ، فقد ثار على المجتمع وندد بما وصل إليه حال المسلمين في عصره من الانحراف عن أصول الدين القويم المستمد من كتاب الله وسنة رسوله . فعمل على إيقاظ الفضيلة بين المسلمين ودعا إلى إصلاح المجتمع الإسلامي إصلاحاً شاملاً لأنه لم يطمئن إلى ما وصل إليه العالم الإسلامي حينئذ من تفكك وانحلال ، في الوقت الذي كان الصليبيون في أوروبا يتأهبون لاكتساح العالم الإسلامي .

ولد أبو حامد بطوس من أعمال فارس سنة ٤٥٠ هـ ، ثم قدم نيسابور ، واختلف إلى دروس إمام الحرمين الجويني (بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء) ، وظهرت موهبته العلمية أثناء طلب العلم حتى نال إعجاب أستاذه الذي كان يفخر به ويثني عليه في مجالسه العلمية . وكان أبو حامد مقرباً إلى أستاذه حتى توفي ، فخرج من نيسابور والتقى بنظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي الذي أعجب بمواهبه وأكرمه وقربه إليه . وقد ملع اسم الغزالي فعهد إليه الوزير بالتدريس بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ هـ . وكانت هذه المدرسة تعد أعظم المعاهد العلمية العالية . وقد ظهر نبوغ الغزالي وعم به الفقه عند تلاميذه وعلماء عصره .

ويبدو أن سعة اطلاع أبي حامد الغزالي وتبحره في العلم قد سماه بنحو طالم الروح ، حيث مال إلى حياة الزهد والتقشف والعزلة ، فترك التدريس بالمدرسة النظامية وجمع بيتاً له ولما أدى مناسك الحج قصد دمشق حيث أخذ يدرس علوم الدين في زاوية المسجد . ثم انتقل إلى بيت المقدس وانصرف إلى العبادة وعاش عيشة المتصوفة ، وأخذ يتردد على المشاهد والأماكن المقدسة . ثم قصد الغزالي مصر وأقام بالإسكندرية حيث التقى بالفقيه

المشهور أبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك . وكان الطرطوشي يقوم بالتدريس في هذه المدينة التي أقام بها حتى وفاته .

وقد ذكر ابن خلكان^(١) أن أبا حامد الغزالي عزم على الرحيل إلى المغرب الأقصى لزيارة أمير المسلمين يوسف بن ناشفين المراتبي بعد انتصاره في موقعة الزلاقة المشهورة على نصارى الأندلس ، وكسب بهذا الانتصار مكانة أدبية في العالم الإسلامي ، حتى إنه لما طلب إلى الخليفة العباسي إقراره على ملك المغرب والاعتراف له بلقب أمير المسلمين ، جمع الخليفة مجلساً ضم العلماء برياسة حجة الإسلام أبي حامد الغزالي الذي أفتى باستحقاق يوسف بن ناشفين لهذا اللقب لما أحرزه من نصر مؤزر على مسيحي الأندلس .

وقد عزم أبو حامد الغزالي على ركوب البحر إلى المغرب ، ولكنه عدل عن ذلك بعد أن بلغه نبأ وفاة يوسف بن ناشفين (٥٠٠ هـ) ، فعاد إلى طوس وانصرف إلى الاشتغال بالعلم ، ثم طلب إليه الوزير غفر الملك بن نظام الملك بمهمة التدريس بالمدرسة النظامية بنيسابور ، فلبى الإمام الغزالي طلب الوزير بعد تردد ، وظل يعمل بهذه المدرسة حتى عاد إلى مسقط رأسه طوس حيث وافته منيته (٥٠٥ هـ)^(٢) .

وقد خلف لنا الغزالي آثاراً علمية خالدة . وقد قيل إنه وضع نحواً من مائتين وثمان وعشرين مؤلفاً أكثرها في الدين والفلسفة والتصوف والتاريخ . ومن أهم آثار الغزالي العلمية :

(١) إحياء علوم الدين ويعد من أهم كتب الغزالي . وقد دعم به النفع في البلاد الإسلامية وغيرها . وقد نعى الغزالي في مقدمته ما صار إليه الإسلام من افتقار علمائه الذين وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « العلماء ورثة الأنبياء » ، وهم الذين يقول فيهم الغزالي : « قد شغلهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون (المقلدون) . وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بما جل حظه مشغولاً به ؛ فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، حتى ظل علم الدين مندرساً ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً . . . فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح بماسماه الله

(١) وفیات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

(٣) أودعت من هذا الكتاب نسخ خطية بمكتبات فيينا وبرلين وليدن وباريس ولندن وأكسفورد ، وهناك نسخة خطية بدار الكتب المصرية في القاهرة .

سبحانه في كتابه فقهاً وحكمةً وعلماً وضياءً ونوراً وهدايةً ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً وصار نسياً منسياً . ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً ، وقد رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما ، إحياء لعلوم الدين وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحاً لمنهاج العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين » (١) .

من هذا نرى أن الغزالي وضع كتابه ليلفت أنظار المسلمين إلى أصول دينهم القويم ، ومشيراً إلى ما حل بالإسلام من انصراف أهله إلى شؤون الدنيا وإهمالهم شأنيهم الدينية ، وما نص عليه القرآن الكريم من مثل عليا وآداب اجتماعية عالية ، وما انطوى عليه الحديث الشريف من قواعد دينية قوية وحكم عالية رفيعة .

وقد نهج الغزالي في تقسيم كتابه نهجاً واضحاً ، إذ قسمه إلى أربعة أرباع سماها ربع العبادات ، وربع الماديات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات . وقد صُدِّرت جميع هذه الأرباع بكتاب العلم الذي يقول فيه الغزالي إنه غاية المهم . لا كشف أولاً عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيان إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة » على كل مسلم (٢) وأميز في العلم النافع من الضار . إذ قال صلى الله عليه وسلم : « تعوذ بالله من علم لا ينفع وأحقق ميل أهل العصر عن مشاكلة الصواب واتخاذهم بلامع السراب واقتناعهم من العلم بالقشر عن اللباب » .

ويشتمل ربع العبادات على عشرة أبواب هي :

- (١) كتاب العلم (٢) كتاب قواعد العقائد (٣) كتاب أسرار الطهارة (٤) كتاب أسرار الصلاة (٥) كتاب أسرار الزكاة (٦) كتاب أسرار الصيام (٧) كتاب أسرار الحج (٨) كتاب آداب تلاوة القرآن (٩) كتاب الاذكار والدعوات (١٠) كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وكذلك يشتمل ربع العبادات على عشرة أبواب هي :

- (١) كتاب آداب الأكل (٢) كتاب آداب النكاح (٣) كتاب أحكام المكسب (٤) كتاب الحلال والحرام (٥) كتاب أدب الصعبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

(١) الغزالي : إحياء علوم الدين (طبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٤٨ هـ) ج ١ ص ٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٥ — ٦٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٩ — ٨٤ .

(٦) كتاب العزلة (٧) كتاب آداب السفر (٨) كتاب السماع والوجد (٩) كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٠) كتاب المعيشة وأخلاق النبوة . كما يشتمل ربع المهلكات على عشرة أبواب هي :

(١) كتاب شرح عجائب الخلق (٢) كتاب رياضة النفس (٣) كتاب آفات الشهوتين (شهوة البطن وشهوة الفرج) (٤) كتاب آفات اللسان (٥) كتاب آفات الغضب والحقد والحسد (٦) كتاب ذم الدنيا (٧) كتاب ذم المال والبخل (٨) كتاب ذم الجاه والرياء (٩) كتاب ذم السكر والعجب (١٠) كتاب ذم الغرور . وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب كذلك وهي :

(١) كتاب التوبة (٢) كتاب الصبر والشكر (٣) كتاب الخوف والرجاء (٤) كتاب الفقر والزهد (٥) كتاب التوحيد والتوكل (٦) كتاب المحبة والشوق والانس والرضا (٧) كتاب النية والصدق والإخلاص (٨) كتاب المراقبة والمحاسبة (٩) كتاب التفكير (١٠) كتاب ذكر الموت (١).

(٢) كتاب المنقذ من الضلال

ويعد هذا الكتاب من أهم آثار الغزالي العلمية ، ويعرض لمسائل علمية هي في مجملها من المسائل المتعلقة بالفلسفة ، إذ يتناول موضوعات : الشك — انتقاد الفرق — النبوة والإصلاح الديني — مداخل السفسطة وجُحْد العلوم — علم الكلام ومقصوده وحاصله — الفلسفة وأصناف الفلاسفة ووصمة الكفر — الدهريون ، الطبيعيون — الإلهيون — أقسام علوم الفلسفة (الرياضيات — المنطقيات — الطبيعيات) — الإلهيات — السياسيات — الأخلاقيات — آفنا الفلسفة (آفة الرد — آفة القبول) — مذهب التعليم وغائلته — طريق الصوفية — حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها — سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه (٢) .

ويطول الكلام إذا حاولنا التعليق على جميع مؤلفات الغزالي ، ونكتفي بطائفة من أسمائها مثل :

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٣ — ٤ .

(٢) الغزالي : كتاب المنقذ من الضلال (مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٤)

- (١) آداب الصوفية^(١) ، وقد طبع بمصر .
 - (٢) أيها الولد ، وقد كتبه لبعض تلاميذه ويتضمن نصائح ووصايا في الزهد والترغيب والترهيب .
 - (٣) بداية الهداية^(٢) .
 - (٤) تهذيب النفوس بالآداب الشرعية .
 - (٥) جواهر القرآن ودرره^(٣) .
 - (٦) خلاصة التصانيف . وقد ألفه الغزالي بالفارسية ، وترجمه إلى العربية محمد أمين الكردي (ت ١٣٣٢ هـ) .
 - (٧) الرسائل القدسية في قواعد العقائد (الإسكندرية دون تاريخ) .
 - (٨) فضائح الباطنية وفضائل المستظهيرية ، ويسمى المستظهري^(٤) .
 - (٩) أسرار الحج في الفقه الشافعي (القاهرة دون تاريخ) .
 - (١٠) تهافت الفلاسفة^(٥) .
 - (١١) معيار العلم في المنطق (طبع في مصر سنة ١٣٢٩ هـ)^(٦) .
- وفي أواخر حياة الغزالي عاد إلى موطنه بطوس واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للشغلتين بالعلم في جواره ، ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ومجالسة الصوفية والتدريس حتى توفي سنة ٥٠٥ هـ كما تقدم^(٧) .
- وقد أحدثت مؤلفات الغزالي في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة أثرها البعيد في الشرق والغرب ، وقام بترجمتها مسيحيو طليطلة في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

-
- (١) وقد طبع مع ترجمة ألمانية (فيينا ١٨٣٨ ، ١٨٤٢) كما طبع في مصر ، ومنه نسخ خطية في مكتبات أوروبا ودار الكتب المصرية .
 - (٢) القاهرة ، ومنه نسخ خطية بمكتبات باريس وبرلين ولندن والجزائر ولينتجراد .
 - (٣) طبع بمكة وبمبای والقاهرة ، ومنه نسخ خطية بمكتبة ليدن ومكتبة المتحف البريطاني ودار الكتب المصرية .
 - (٤) وقد نشر جولدتسيهر قسماً كبيراً منه وقدم له بحثاً باللغة الألمانية (ليدن ١٩١٦) .
 - (٥) وقد طبع في القاهرة غير مرة ، كما طبع في بمبای (١٣٠٤ هـ) وترجم إلى العبرية .
 - (٦) الغزالي : المنقذ من الضلال ص ٤ — ١٦ .
 - (٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٤ .

(ب) ابن باجة (ت ٥٣٣/١١٣٨).

كانت الأندلس في نهاية القرن الخامس الهجري قد انقسمت عدة ممالك صغيرة عرف حكمها بملوك الطوائف ، وكان نصارى الشمال يهددون هذه الممالك حتى جاء المرابطون وقضوا على هؤلاء الملوك الذين انغمسوا في الترف ، « ولاح إذ ذاك أن زمن النقافة الرفيعة والبحث الحر قد انقضى » كما يقول دي بور^(١) ، ولم يجرؤ على الظهور إلا رجال الدين ولا سيما رجال الحديث ، أما الفلاسفة فقد كانوا عرضة للاضطهاد أو القتل . وبؤيد هذه الحقيقة لإحراق كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام أبي حامد الغزالي بأمر أمير المسلمين المرابطي علي بن يوسف بن ناشفين .

على أنه برغم هذا نرى الأمير المرابطي أبا بكر بن إبراهيم (صهر السلطان علي بن يوسف المرابطي) ، وكان بلي ولاية سرقسطة ، يتخذ أبا بكر بن باجة السرّسّطي جليلاً له ثم يقلده الوزارة . ولكن هذا قد أثار غضب الجند والفقهاء ، وكان بين ابن باجة وبين الفتح بن خاقان عداوة راسخة ، مما حمل ابن خاقان على هجاء ابن باجة في كتابه « قلائد العقيان »^(٢) فقد جعل ابن خاقان ترجمة ابن باجة آخر تراجم كتابه وقال فيه ما نصه :

« الأديب أبو بكر بن الصائغ هو رمدُ عين الدين وكبد نفوس المهتدين ، اشهر سُخفا وجنوناً وهجر مفروضا ومسنونا »^(٣) . فما يتشرّع^(٤) ولا يأخذ في غير الاضاليل . ولا يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ولا أظهر خيلاً لإنبابة^(٥) ولا استنجى من حدث ، ولا أشجى فواده بتوار في جدث^(٦) ، ولا أقرّ بياربه ومصوره ، ولا قرّ ببقاربه^(٧) في ميدان تهوره^(٨) . والإساءة إليه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان . نظر في تلك التعاليم (يقصد الفلسفة) وفكر في أجرام

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة أبي ريذة (الطبعة الثانية) ص ٣٦٦ .

(٢) طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ . انظر ص ٣٠٠ — ٣٠٦ .

(٣) أي أنه هجر الشريعة الإسلامية وما تشتمل عليه من فروض وسنن .

(٤) أي لا يأخذ بالشريعة الفراء .

(٥) أي أنه ما أظهر ميلاً للأنابة أو التوبة إلى الله .

(٦) أشجى أي حزن والتوار الاختفاء والجدث القبر .

(٧) أي بقسايقه .

(٨) يعني أنه كان متهوراً في الدين ولم يعترف بتهوره .

الأفلاك وحدود الأقاليم ورفض كتاب الله الحكيم العليم ، ونبذ وراء ظهره ، ثاني عطفه ^(١) وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ^(٢) . واقتصر على الهيئة ^(٣) ، وأنكر أن تكون منه إلى الله تعالى فيئة ^(٤) ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترم على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهى والإبعاد ^(٥) ، واستهزأ بقوله تعالى (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ^(٦) .

وهذا يدل على مدى كراهية الفقهاء للفلاسفة وتشنيعهم بهم وتقبيحهم لأرائهم كما يدل أيضاً على مدى كراهية هذا العصر للفلاسفة واضطهادهم .

لا يعرف الكثير عن حياة ابن باجة الأولى . قيل ولد سنة ٥١٣ هـ (١١١٨ م) حيث عاش بسرقسطة وألف فيها كثيراً من كتبه . ثم رحل إلى غرناطة وقدم على بلاط المرابطين في فاس حيث مات مسموماً بتدبير أحد حساده . ويذكر المقرئ ^(٧) عن الأمير ركن الدين بيرس في كتابه « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » أن ابن باجة « كان عالماً فاضلاً له تصانيف في الرياضيات والمنطق ، وأنه وزير لأبي بكر الصنهاوي (يعني المرابطي) صاحب سرقسطة ، ووزير أيضاً ليعحي بن يوسف بن تاشفين عشرين سنة بالمغرب ، وأن سيرته كانت حسنة ، فصلحت به الأحوال ونجحت على يديه الآمال ، تحسده الأطباء والكتاب وغيرهم وكادوه فقتلوه مسموماً » ^(٨) .

ويكاد ابن باجة يقتفى أثر فيلسوف المشرق الفارابي ، فأحب العزلة مثله وضاق ذرعاً بالحياة ، ولم يحاول كالفارابي أن يضع له مذهباً . ورسائله المبكرة قليلة ، ومعظمها شروح قصيرة لكتب أرسطو وغيرهما من مصنفات الفلاسفة ^(٩) . وبعضهم يرى أن ابن باجة من هواة الفلسفة لا من الفلاسفة . ويكاد ابن باجة يتفق مع الفارابي في الطبيعة وفيما وراء الطبيعة . وكلاهما متأثر بأراء أرسطو (المعلم الأول) . ومن أمثلة آراء ابن باجة الفلسفية « أن

(١) يعني الملتوى سخريه من الناس وضيقاً بهم .

(٢) أى أنه يريد إبطال كتاب الله .

(٣) أى أنه يؤمن بالطبيعة .

(٤) أى أنه رجع إلى الله .

(٥) يعني يوم الحساب .

(٦) المقرئ : فتح الطيب ج ٩ ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٧) فتح الطيب ج ٩ ص ٢٤٠ .

(٨) القفطي : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٣ — ٦٤ . دي بور ص ٣٦٧ .

(٩) المصدر نفسه .

الموجودات قسماً « متحرك وغير متحرك . والمتحرك جسمي متناه . وهو متحرك حركة
أزلية . وهذه الحركة لا يمكن القول بأنها من ذاته لأنه متناه . فلا بد في تحليل هذه الحركة
التي لا تنهاى من أن تردّها إلى قوة أو إلى موجود أزكى (أعنى إلى العقل) (١) .

كذلك أبدى ابن باجه رأيه في النفس والعقل فقال إن الهيولى لا يمكن أن توجد مجردة
عن صورة ما . أما الصورة فقد توجد مجردة عن الهيولى ، وإلا لما استطعنا أن نتصور
إمكان أى تغير ، لأن التغير إنما يكون ممكناً بتعاقب الصور الجوهرية والإنسان
بعروجه في درجات متتالية وترقيه من الجزئى والمحسوس وتصورهما ، يكون مجموعة العقل ،
ويصل إلى ما هو فوق طور الإنسان وإلى ما هو إلهى والذي يرشد الإنسان في هذا المروج
هو الفلسفة » (٢) .

وكذلك تعرض ابن باجه للإنسان المتوحد فقال إن الفرد لا يستطيع أن يعيش كما
ينبغي . ولكي يستطيع أن يعصى في أعماله على أساس عقلى فإنه يجب عليه أن يعتزل المجتمع
في بعض الأحيان . ويسمى ابن باجه كتابه في الأخلاق « تدبير المتوحد » . وهو يطالب
الإنسان بأن يتولى تعليم نفسه بنفسه . على أن الإنسان يستطيع بوجه عام أن ينتفع بمحاسن
الحياة الاجتماعية دون أن يتأثر بمساوئها (٣) .

وقد اشتغل ابن باجه بالأدب ونفع في الشعر . ومن شعره قوله يمدح الأمير أبا بكر بن إبراهيم .
همامٌ جوده يصف السوارى وسطوته يغيرها البحر
وقلنا نحن كيف وراحته بجورٍ يلتقى (٤) فيها سرور (٥)

(ح) ابن طفيل (ت ٥٧١ / ١١٧٥) .

كانت الدولة المرابطية تسير على هدى الفقهاء الذين كان لهم رأى في إدارة شئون البلاد
والإشراف على الحياة الفكرية . وقد ارتاب المرابطون في آراء الفلاسفة تمسكاً بمذهب

(١) دى بور ص ٣٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٧٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٧٣ — ٣٧٤ .

(٤) من قولهم لعل الرجل بالأرض أى لزق .

(٥) المقرئ ج ٩ ص ٢٣٢ .

السلف الصالح الذى لا يقبل أن يحيد عما جاء به القرآن والسنة ، وظل الأمر على ذلك حتى قام المهدي محمد بن تومرت بدعوته التى قامت على مذهب التوحيد السكلامى المستمد من آراء علماء السكلام وفلاسفة المسلمين . ومن هنا كانت الدولة الموحدية أول دولة بالمغرب ناصرت الفلسفة الإسلامية ، وظهر فيها حرية الرأى لأول مرة فى تاريخ المغرب . وكان من حسنات هذه الدولة ظهور طائفة من كبار الفلاسفة مثل ابن طفيل وابن رشد .

ولد أبو بكر محمد بن طفيل فى مدينة قادس ببلاد الأندلس . وقد عاش بخلاف ابن باجة حياة هادئة وأقبل على دراسة الكتب وانقطع إلى العلم وأثر ذلك على الاختلاط بالناس ، وشغف بالفلسفة وكلف بها ، ولكنه لم يتخصص فيها . فقد كان يلم بأراء دون أن يتأثر بها ويؤثر فيها . لذلك كان ابن طفيل يعيل إلى الاستمتاع بالتأمل أكثر من ميله إلى التأليف . كما كان يشغف بالأدب ويميل إلى الشعر ، حتى نظم كثيراً من القصائد .

على أن أكبر هم ابن طفيل أن يمزج الحكمة اليونانية بحكمة أهل المشرق ليخرج للناس رأياً جديداً فى الكون . كما أثار اهتمام ابن طفيل أمر العلاقة بين الفرد والمجتمع وذهب فى ذلك إلى أبعد مذهب إليه ابن باجة ، فبينما يرى ابن باجة يجعل المفكر المتوحد أو طائفة صغيرة من المفكرين المتوحدون يكونون دولة داخل الدولة كأنهم نموذج لحياة سعيدة ، يرى ابن طفيل يرجع منشأ الجماعة إلى الفرد (١) .

قصة حى بن يقظان

يتكون مسرح قصة حى بن يقظان من جزيرتين ، يضع ابن طفيل فى إحدى هاتين الجزيرتين المجتمع الإسلامى بما فيه من عُرْف وتقاليد وعادات وأديان ، ويضع فى الثانية إنساناً ينشأ وينمو على الفطرة ، وتسود ذلك المجتمع المشتغل على هاتين الجزيرتين نزعات دنيوية . وفى هذا العالم ملة أو دين يُحاكى الفطرة ويدين أصحابها بها تديناً سطحياً ، ثم يظهر فى هذا العالم (أى فى الجزيرتين) فتیان من أهل الفضل يسمى أحدهما سلامان (أو سلمان) والآخر آسال (أو أفسال) يسموان بعقلهما إلى المعرفة والتغلب على الشهوات . وأول هذين الفتيين ينزع بعقله نزعة عملية ، فهو يسير دين العامة حتى يسوده . وثانيهما ينزع إلى النظر العقلى الفلسفى الصوفى ، إذ يرتحل إلى الجزيرة المقابلة لجزيرته ، ظناً منه أنها غير مسكونة . وفى هذه الجزيرة ينقطع هذا الفتى إلى الدرس والزهد .

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .

وحى بن يقظان الذى نحن بصده قد ترعرع فى هذه الجزيرة حتى أصبح فيلسوفا كاملا؛ وربما قد جرى به إلى أرضها وهو طفل أو نشأ فيها بالتولد الطبيعى من العناصر الأرضية وأرضته طبيعته، ثم توصل إلى تحصيل حاجاته المادية بوسائله الخاصة، واستطاع بالملاحظة والتفكير أن يتوصل إلى معرفة الطبيعة والسماء ومعرفة الله ومعرفة نفسه. وقد وصل حى ابن يقظان وهو فى التاسعة والأربعين من عمره إلى الله، أى أنه بلغ ما يبلغه الصوفية من الشهود لله والقناء فيه.

عند ذلك لقي حى بن يقظان : آسال (الذى سما إلى النظر العقلى والتصوف). ولم يكن حى يعرف اللغة، ولكنه استطاع أن يتفاهم مع آسال بعد جهد، حيث ظهر أن فلسفة حى وشريعة آسال صورتان لحقيقة واحدة، ولكنها عند الأول أكثر وضوحاً منها عند الثانى. ولما عرف حى أن فى الجزيرة المقابلة لجزيرته أمة بأسرها مازال تختبط فى دياجير الخطأ صحت عزيمته على أن يذهب إلى أولئك القوم ويكشف لهم عن الحقيقة. فعلته التجربة عند هؤلاء القوم أن العامة لا قدرة لهم على إدراك الحقيقة مجردة، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام كان على صواب؛ إذ بين للناس الحقيقة بضرب الأمثال الحسية، ولم يكشفهم بالنور الكامل (وهو نور الله سبحانه وتعالى).

وبعد أن أنهى حى بن يقظان إلى هذه النتيجة عاد مع صديقه آسال إلى جزيرتها الأولى الخالية ليعبدا ربها عبادة روحية خالصة مابقي من حياتهما (١).

وفى هذه القصة يصور ابن طفيل حياة الإنسان والأطوار التى يجب أن يتطور فيها من يصل إلى الكمال، غير أن ابن طفيل لا يرى أن الفرد يستطيع وحده (معتزلاً عن المجتمع) أن يبلغ الكمال وأن يسمو إلى الحقيقة. وإذا استطاع فرد بطريق التصوف والعزلة أن يسمو إلى معرفة الله، فإن ذلك لا يتأتى لسلك البشر. ومن هنا بعث الله سبحانه وتعالى الرسل إلى الناس، وكانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم التى بعث بها إلى الناس كافة.

وتتمثل فى قصة حى بن يقظان الأطوار التى مر بها الدين، كما يتمثل تطور الحكمة الهندية والفارسية واليونانية.

وقد صور ابن سينا قبل ابن طفيل بقرنين الإنسان وتطوره، واعترف ابن طفيل بذلك. ولكن ابن طفيل صور العقل الإنسانى الطبيعى الذى يشرق عليه نور من العالم العلوى،

(١) دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام الترجمة العربية من ٣٧٧ — ٣٧٩.

على أن هذا العقل يجب — بحسب منطق ابن طفيل — أن يتفق مع رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وكان ابن طفيل في هذا سائرا في نفس الطريق الفلسفي الذي سار فيه مفكرو المشرق من أن الدين يجب أن يقصر على العامة ، إذ لا قدرة لهم على المضى فيما وراه . أما الفلاسفة فهم القادرون على ما وراء ظواهر الدين . وعلى هذا فكللام النبي صلى الله عليه وسلم ينطوى على تأويلات لا يسمو إليها إلا المفكرون . ومن المؤكد أن التفكير لا يتسنى لأحد إلا بعد بلوغ سن معينة . ويعتبر الاشتغال بالأمور المادية كالمصناعات والعلوم خطوة طبيعية للوصول إلى السكال الروحي .

ويعنى ابن طفيل بفشاط حتى بن يقظان الصوفي الذي يحل محل العبادات التي فرضتها الشريعة الإسلامية على الدهماء . فالرجل الصوفي أسمى من المتعبد العادي . ولعل في ذلك مسحة من الأفلاطونية الحديثة والفيثاغورية . وقد تبيننت حتى الغاية التي يرمى إليها من التماس الواحد في كل شيء والاتصال به ، وهو يرى أن الطبيعة جميعها تتجذب نحو الواحد وهو الله سبحانه وتعالى . والإنسان هو أسمى المخلوقات لأنه القادر على الفكر . وهو يأكل النباتات والفواكه الناضجة ولا يأكل من الحيوان إلا الضروري . وهذا ما التزمه حتى بن يقظان لمطالب جسده المادية . أما روحه فهي مرتبطة بالعالم العلوى ، وهو يتشبه بالعالم الذي يعيش فيه ، فهو بذلك يفيد ويستفيد . كما يرى أنه يجب أن يحيى حياة بريئة من شوائب المادة وأن يتعبد النبات ويحمى الحيوان ملتزما بالنظافة والعناية بلبسه ، مُنَسَّق الحركات ليمائل الأجرام السماوية المعتدلة . وهكذا يصبح حتى بالتدرج قادرا على أن يسمو بنفسه فوق الأرض والسماء ، حتى يصير عقلا صرفا . وهذه هي حالة الفناء التي يريدها المتصوفة (١) .

(د) ابن رشد (ت ٥٩٥ / ١١٩٨ م)

ولد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس في سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ونشأ في بيت عريق في العلم والأدب ، وذلك في أعقاب ملوك الطوائف الذين عرف عصرهم بالعصر الذهبي في الأندلس ، ذلك العصر الذي بلغت فيه هذه البلاد أوج عزها الفكري والحضاري ، كما بدأت حرية الفكر ببلاد المغرب بظهور المهدي محمد بن تومرت .

(١) انظر دى بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام الترجمة من ٣٢٩ — ٣٣٨ .

وقد ظهر ابن رشد في ميدان الفكر والفلسفة بعد أن زالت الدولة المرابطية التي كانت تنهض الفلسفة والفلاسفة . وقد قيل إن ابن طفيل هو الذي أخذ بيد ابن رشد ودفعه إلى الحياة العامة فقدمه إلى الأمير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي في سنة ٥٤٨ هـ . ولم يكن هذا الأمير الموحد قد تولى الحكم قبل سنة ٥٥٨ هـ . ولكن هذا الأمير كان مشغولاً بمجالسة العلماء والفلاسفة .

ويقال إن هذا الأمير سأل ابن رشد عن اسمه واسم أبيه ونسبه ، ثم بادره بقوله : ما رأى الفلاسفة في السماء ؟ أقديعة هي أم حادثة ؟ فاستولى الحياء وأخذ الخوف يستولى على ابن رشد وخشى أن يبطش به الأمير ، وأخذ يتعلل وينكر اشتغاله بالفلسفة . ولكن الأمير ظل يتكلم في هذه المسألة مع ابن طفيل ، فأعجب ابن رشد بغزارة علم الأمير ومعرفته بفلسفة أرسطو وأفلاطون والمتكلمين وفلاسفة المسلمين . عند ذلك ذهب الخوف عن ابن رشد وأخذ يتكلم دون خوف أو وجل من بطش الأمير ، الذي أعجب به ، فقربه منه ، وكلفه بشرح مذهب أرسطو^(١) .

وقد قام ابن رشد بهذا العمل على أكمل وجه ، « فأورث الإنسانية علم أرسطو كاملاً بريثاً من الشوائب » .

وكان ابن رشد إلى جانب هذا فقيهاً وطبيباً ، إذ تولى قضاء إشبيلية سنة ٥٦٥ هـ . وكان في سنة ٥٧٨ هـ طبيباً للسلطان يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) ، ثم تقلد ابن رشد القضاء ثانية في قرطبة مسقط رأسه ، وشغل المنصب الذي شغله أبوه وجده من قبله .

غير أن الأيام تنكرت لابن رشد حين حل السخط بالفلاسفة فصارت كتبهم يلقى بها في النار . فرى أبا يوسف يعقوب المنصور (٥٥٨ — ٥٩٥ / ١١٨٤ — ١١٩٩) يأمر بإبعاد ابن رشد ، وقد بلغ من الشيخوخة ، في بلدة قريبة من قرطبة تدعى أليساقة ، ثم يستدعيه إلى مدينة مراکش حاضرة الموحدين ، فتحين منيته في هذه المدينة سنة ٥٧٥ (١١٩٨ م) وقد بلغ الخامسة والسبعين من عمره^(٢) .

ابن رشد وأرسطو

وقف ابن رشد حياته على دراسة أرسطو ، فتناول كل ما استطاع أن يحصل عليه من مؤلفات هذا الفيلسوف أو من شروحها بالدراسة العميقة والمقارنة الدقيقة ، وقد

(١) راجع مادة ابن رشد في دائرة المعارف الإسلامية .

Ernest Revan, Averroès et l'Averroïsme

(٢) المراكشي ص ١٧٤ — ١٧٥ .

اطلع على ما ترجم به من كتب اليونان التي ضاع أغلبها فيما بعد ، أو وصل إلينا بعضها ناقصاً . وقد اتبع ابن رشد في شروحه الطريقة المبنية على التحليل الدقيق والنقد السليم ، وهو في شرحه لفلسفة أرسطو يوجز حيناً ويطنب حيناً آخر ، فرى هذه الشروح ملخصة أو مبسطة ، وقد أطلق عليه « دانتى » في كتابه « الكوميديا الإلهية » لقب الشارح ، فكان ذلك اصطلاحاً جرى عليه الفلاسفة بعد دانتى .

وقد بلغ فلاسفة المسلمين شأواً بعيداً في فهم فلسفة أرسطو وتقريبها إلى الأذهان بفضل ابن رشد .

كان ابن رشد يرى أن أرسطو هو الإنسان الأكمل والمفكر الأعظم الذي استطاع أن يكشف عن الحقيقة وأر الزمن أن يستطيع أن يفتر من آراء فيلسوف اليونان العظيم . وكان ابن رشد شديد الوطأ في نقد المعلم الثاني أبي نصر الفارابي (ت ٣٢٩ هـ) والرئيس أبي علي بن سينا (ت ٤٢٩ هـ) . ورى ابن رشد في نقده لأسلافه أفسى من أرسطو في نقده لأفلاطون ، على حين نراه يببالغ في مدح أرسطو إذ يرى مذهب أرسطو — إذا فهم على حقيقته — لا يتعارض مع أسنى معرفة يستطيع أن يبلغها إنسان . « بل كان يرى أن الإنسانية في مجرى تطورها الأزل بلغت في شخص أرسطو درجة عالية يستحيل أن يسمو عليها أحد ، وأن الذين جاءوا بعده تجشموا كثيراً من المشقة وإعمال الفكر لاستنباط آراء انكشفت بسهولة للعالم الأول . وستلاشى بالتدرج كل الشكوك والاعتراضات على مذهب أرسطو ، لأن أرسطو إنسان فوق طور الإنسان ، وكان العناية الإلهية أرادت أن تبين فيه مدى قدرة الإنسان على الإفتراب من العقل الكلى . وابن رشد يعتبر أرسطو أسنى صورة تمثّل فيها العقل الإنساني ، حتى إنه ليميل إلى تسميته بالفيلسوف الإلهي » (١) .

وابن رشد من المتعصبين لمنطق أرسطو ، فهو يرى أنه لا سعادة لأحد دونه ، ويأسف لأن سقراط وأفلاطون لم يكونا على علم بمنطق أرسطو ، وسعادة الإنسان تكون على قدر معرفته بهذا المنطق .

وكان ابن رشد يهتم في علم اللغة بما هو مشترك بين جميع اللغات متأسياً في ذلك بأرسطو

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٢٨٦ .

ويتضح لمعجب ابن رشد بأرسطو في كتابه تهافت التهافت وفي مقدمة كتابه الطبيعة .

الذي راعى هذا في كتاب « العبارة » وفي كتاب « الخطابة » إذ كان يضع نصب عينيه هذا العنصر المشترك بين لغات الخلق جميعاً .

يرى ابن رشد أن الحقيقة قد تضمنتها آراء أرسطو . ومن هنا نظر إلى علم الكلام عند المسلمين نظرة عابرة . نعم إن ابن رشد يؤمن بالإسلام على أنه حقيقة من نوع خاص^(١) . ومع إيمان ابن رشد بالإسلام فإنه لا يؤمن بعلم الكلام ، لأن هذا العلم يهدف إلى إثبات أشياء يتعذر إثباتها بمنهج أرسطو التي تقوم على المنطق . « وبذهب ابن رشد إلى ما ذهب إليه إسپيوزا من أن الوحي الذي جاء به القرآن لا يرمى إلى إعطاء الناس علماً ، وإنما يرمى إلى إصلاحهم ، وليس غرض الشارع في رأيه تلقين العلم ، بل غرضه أخذ الناس بالطاعة ، وبالأعمال الصالحة ، لأن الشارع يعلم أن السعادة الإنسانية لا تتحقق إلا في مجتمع »^(٢) .

وأظهر ما يميز ابن رشد عن فلاسفة الإسلام ولا سيما ابن سينا ، هو كيفية تصوره للعالم على أنه عملية تغير وحدث منذ الأزل . والعالم في جملته وحدة أزلية ضرورية لا يجوز عليها العدم ، ولا يمكن أن يقوم على ما هو عليه . وإذا كان التغير داخل نظام الكون أزلياً فإنه يستلزم حركة أزلية ، وهذه تحتاج إلى محرك أزلي . ولو كان العالم حادثاً لتحتّم علينا القول بوجود عالم آخر حادث نشأ منه ، وهكذا إلى غير نهاية . ولذلك يذهب ابن رشد إلى أن القول بأن العالم كله متحرك منذ الأزل ضرورة ، هو وحدة الذي يضمن لنا إمكان الوصول إلى إثبات موجود مفارق للعالم محرك له منذ الأزل . وهذا الموجود ، بإيجاده تلك الحركة الدائمة وبإيجاده لنظام العالم البديع خالق بأن يسمى موجود العالم .

وكذلك يرى ابن رشد أن ماهية المحرك الأول أي الآلة وماهية عقول الأفلاك هي أنها فسكر تتجلى فيه الوحدة العقلية الوجودية .

والموجودات العقلية (أي الأفكار) تتجلى فيها الوحدة أو كمال الوجود . وكل العقول تعقل ذاتها ولكن في معرفتها بذاتها صلها بالعلة الأولى . وابن رشد يجزم بأن تعلق النفس الإنسانية بجسدها كتعلق الصورة بالهيولى . فهو يقول بهذا جادا غاية الجد ، وهو يرفض

(١) يقصد أن الدين قائم على الغيب وليس على المنطق في أغلب الأحيان . وهو يؤمن بغيبيات

الدين . وهذا هو معنى قوله إن الدين حقيقة من نوع خاص .

(٢) دي بورج : تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٨٩ .

المذهب القائل بعدم فناء النفوس الجزئية المتكثرة^(١) رفضاً باناً ، مخالفاً في ذلك مذهب ابن سينا . ولا بقاء للنفس عنده إلا باعتبارها كلاً لجسدها .

ويشتمل مذهب ابن رشد على ثلاثة آراء : إلحادية تجعله مخالفاً للديانات السماوية الثلاث وهي : اليهودية والمسيحية والإسلام . وأولها قوله بقدم العالم المادى والعقول المحركة له^(٢) ، وثانيها قوله بارتباط حوادث الكون جميعها ارتباطاً علة بعملول على وجه ضرورى لا يترك مجالاً للعناية الإلهية أو للخوارق أو لنحوها ، وثالثها قوله بفناء جميع الجزئيات^(٣) ، وهو قول يجعل الخلود الفردى غير ممكن .

وعلى كل فابن رشد مفكر جرى منطق لا اضطراب في فكره ، وإن لم يكن مفكراً مبتدئاً . وعلى الرغم من توليه مناصب قضائية إسلامية فكثيراً ما هاجم المتكلمين وغيرهم من فقهاء المسلمين . فقد كان ابن رشد قاسياً على الذين يقولون إن "الخير خير" لأن الله أمر به ، والشر شر لأن الله نهى عنه . ويقول إن العمل يكون خيراً أو شراً لذاته أو بحكم العقل ، والعمل الخلقى هو الذى يصدر فيه الإنسان عن معرفه عقلية . وينبغى بالطبع ألا يكون مرجعنا الأخير إلى عقل الفرد بل إلى ما تمليه مصلحة الدولة .

وابن رشد ينظر إلى الدين أيضاً بعين النظر السياسى ، فهو يعظم الدين لما يرمى إليه من غايات خلقية ، ويقول إن الواجب يحتم على الناس أن يؤمنوا بما جاء به الكتاب كما هو ، وما فى الكتاب حق ، وهو يروى فى صورة قصص لأنه موجه إلى أطفال كبار . ومجازاة العامة ذلك شرٌّ لهم .

على أن ابن رشد يرى أنه يجوز للفلاسفة أن يؤولوا آيات القرآن وهم إذ يفهمون مراميه على نور يكون فى ذلك الحقيقة العليا^(٤) .

وقد أثرت مؤلفات ابن رشد فى الأندلس وفى الفكر الأوروبى ولا سيما فى إيطاليا حتى القرن السادس عشر الميلادى . « وكان لمذهبه أتباع من المسلمين والأوربيين . وعلى الرغم

(١) أى المتوالدة تناسلياً .

(٢) بمعنى أنه لم يجعل الله سبحانه هو القديم وحده كما قالت بذلك الكتب السماوية بل إن العالم قديم كذلك .

(٣) وبهذا لا يمكن أن يكون هناك بعث .

(٤) انظر دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٣٩٤ — ٣٩٨ .

من أن جامعة باريس عملت على اضطهاد أتباعه ، فقد عادت فطلبت من خريجيها ألا يعلموا تلاميذهم إلا المعلومات التي تتفق مع تعاليم أرسطو كما قررها ابن رشد .

(هـ) محيي الدين بن عربي^(١) (ت ٦٣٨ / ١٢٤٠) .

ويعتبر محيي الدين بن عربي من أشهر فلاسفة ومتصوفة الأندلس . ولد ابن عربي بمُرُسية في شهر رمضان سنة ٥٦٠ هـ ونشأ بها وتلقى العلم فيها حتى انتقل إلى إشبيلية سنة ٥٦٨ هـ وأقام حتى سنة ٥٩٨ هـ . ثم اختلف إلى كثير من بلاد المشرق كمصر والحجاز وبغداد والموصل وأخذ العلم على كبار علمائه من أمثال الحافظ السلفي وابن عساكر ، وأبي الفرج ابن الجوزي . ثم رحل إلى بلاد الروم وأقام بها مدة طويلة ، ثم ذهب إلى دمشق وظل بها حتى مات .

وقد اشتهر ابن عربي بالتصوف وأخذ نفسه بالزهد والتقشف وحرمان النفس من ملذات الحياة ليخلص إلى الله سبحانه وتعالى . وكان ابن عربي يدين بعقائد المذهب الظاهري الذي أخذه عن ابن حزم الأندلسي ، كما كان ينجح في تصوفه نحو مذاهب الشيعة . وكان ابن عربي « محصلاً بفنون العلم أخصّ تحصيل ، وله في الأدب الشأو الذي لا يلحق به والتقدم الذي لا يسبق^(٢) » . ولابن عربي مؤلفات قيمة في الفلسفة والتصوف نخص بالذكر منها : (١) كتاب ضمنه مقامات رأى فيها النبي صلى الله عليه وسلم ومناجات حدث بها عن النبي .

(٢) كتاب خيار مشايخ العرب وزهادهم .

(٣) كتاب الفتوحات المسكية (ويقع في عدة أجزاء) ويشهد بطول باعه في التصوف والتأثر بالمذهب الشيعي ، حتى إنه كتب كثيراً عن المهدي المنتظر ، وأشرط الساعة بظهور المسيح الدجال ثم المسيح عليه السلام ، والأئمة العلويين ولاسيما الأئمة الاثنا عشرية ، حتى لقد وصفه المقرئ^(٣) بقوله إنه كان ظاهري المذهب في العبادات باطني النظر في

(١) كان يعرف بالمغرب بابن العربي ، واصطلاح أهل الشرق على تسميته بابن عربي بدون

الألف واللام .

(٢) المقرئ ج ٢ ص ٣٦١ — ٣٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٣ .

الاعتقادات^(١). ويغلب على الظن أن البابية والبهائية في إيران قد تأثروا إلى حد بعيد بأراء محي الدين بن عربي، ولكنهم غلوا في تشيعهم ومبادئهم. كما تأثر به كثير من متصوفي مصر، نخص بالذكر منهم الشيخ الشعراوى^(٢) والشيخ على الخواص، والشيخ عبد الوهاب العفيفي وغيرهم من المتصوفة. ومن هذا نرى كيف سعى المؤرخون ابن عربي لإمام المتصوفة في العالم العربي.

ولما صنف ابن عربي كتابه «الفتوحات المسكية» كان يكتب كل يوم ثلاث كراسات^(٣).

(٤) تلقين المهتدى.

(٥) الاحكام الكبرى والوسطى والصغرى.

(٦) كتاب النهج.

(٧) كتاب العافية.

(٨) كتاب المعارف الإلهية.

(٩) كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم.

(١٠) رسالة مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية.

(١١) كتاب فصوص الحكم^(٤).

ومما قاله ابن عربي في كتابه هذا: «اعلم أن القلب (أعنى قلب العارف بالله) هو من رحمة الله، وهو أوسع منها، فإنه وسع الحق جل جلاله ورحمته لاتسعه^(٥). هذا لسان العموم من باب الإشارة، فإن الحق راحم ليس بمرحوم، فلا حكم للرحمة فيه^(٦). وأما الإشارة من لسان الخصوص فإن الله وصف نفسه بالنفس وهو من التنفيس، وإن الأسماء الإلهية عين المسمى وليس إلا هو».

(١) أى أنه أخذ عن الشيعة مذهب التأويل.

(٢) المقرئ ج ٢ ص ٣٧٨.

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٥.

(٤) نشره الدكتور أبو العلا عفيفي (القاهرة ١٩٤٦) ص ١١٩.

(٥) يعنى أن قلب العارف بالله، أى قلوب المتصوفة، أكبر وأعظم من رحمة الله، لأن هذه القلوب وسعت الله جل شأنه، على حين أن رحمة الله لاتسعه، لأن الرحمة جزء صغير من فضل الله وصفاته جل شأنه، على حين أن القلب الله ذاتا وصفاتا.

(٦) يعنى أن الرحمة فضل من الله وليس الله فضلا منها لأنه سبحانه صانع الرحمة.

وقد قال ابن عربي في الفصل الثالث والعشرين ^(١) الذي عقده تحت عنوان « الحكمة الإحسانية »: موضوع هذا الفصل الإحسان ، وهو في اللغة فعل ما ينبغي أن يفعل من الخير بالمال أو بالقول أو بالعمل . وفي الشرع أن تتوجه إلى الله في عبادتك بكنيتك وتمثله في محرابك ، كما ورد في الحديث المشهور عندما سئل النبي عن الإحسان ماهو ؟ فقال أن تعبد الله كأنك تراه ، وهو (أى الإحسان) في عرف أصحاب وحدة الوجود شهود الحق ^(٢) في جميع المراتب الوجودية والتحقق من أنه متجل في كل شيء . وهذا الأخير ^(٣) هو المعنى الذي يدور عليه هذا الفصل (أى الباب) . والذي يستخلصه المؤلف (يعنى نفسه) من الآيات الواردة في حق لقمان في قوله تعالى (وإذا قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) ^(٤) (يا بني إنما إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) ^(٥) . فلقمان في هذا الفصل لسان من ألسنة وحدة الوجود .

وقد زاد في شهرة ابن عربي تفوقه في الأدب ولاسيما الشعر . ومن شعره الصوفي قوله في الله جل شأنه :

يا مَنْ يرانى ولا أراه كم ذا أراه ولا يرانى

وقد سئل ابن عربي في قوله إنه يرى الله ولا يراه الله فقال مرتجلا :

يا مَنْ يرانى مجرماً ولا أراه آخذاً

كم ذا أراه منعماً ولا يرانى لانذا

وهذا يؤكد أن ابن عربي كان يأخذ بمبدأ التأويل الذي سار عليه الشيعة وجمهرة المتصوفين ، على حين أنه كان ظاهرياً في العبادات كالصوم والصلاة والزكاة والحج . من ذلك قوله في ضبط ليلة القدر التي اختلف الفقهاء في تحديدها .

وإنا جميعاً إن نَصُمُ يومَ جُمعةٍ ففي تاسع العشرين خذ ليلة القدر

(١) المصدر نفسه : تعليقات الدكتور أبو العلا عفيفي ص ٢٧٦ .

(٢) يعرفه باصطلاح أهل الباطن .

(٣) يعنى اصطلاح أهل الباطن .

(٤) سورة لقمان ٣١ : ١٣ .

(٥) سورة لقمان ٣١ : ١٦ .

وإن كان يوم السبت أول صومنا
وإن تَصُمُ الشهر في أحدي نَحْدُ
وإن هل بالإثنين فاعلم بأنه
وفي يوم الثلاثاء إن بدا الشهر فاعتمد
وفي الأربعاء إن هل يامن يرومها
ويوم خيس إن بدا الشهر فاجتهد
وضابطها بالقول ليلةُ جُمعةٍ
توافيك بعد النصف في ليلة الوتر^(١)

ويروي المقرئ عن الإمام الصفي بن ظافر الأزوي قوله في ابن عربي^(٢): «وكان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم السكسية وما قر له من العلوم الوهية، ومنزله شهيرة، وتصانيفه كثيرة، كأن غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا، لا يكثرث بالوجود مقبلا كان أو معرضا. وله علماء أتباع، أبواب مواحيد وتصانيف».

«ولو قيس ابن عربي بغيره من كبار مؤلفي الإسلام المتفلسفين أمثال ابن سينا والغزالي، لبداه جميعا في ميدان التأليف من ناحية الحكم والكيف على السواء. أما من ناحية الحكم فقد ألف نحواً من مائتين وتسعة وثمانين كتاباً ورسالة على حد قوله في مذكرة كتبها عن نفسه سنة ٦٣٢ هـ، أو خمسمائة كتاب ورسالة على حد قول عبد الرحمن جامي صاحب كتاب «نفحات الأنس»، أو أربعمائه كتاب كما يقول الشعرائي في اليواقيت والجواهر. وقد وصفه بروكلمان بأنه مؤلف من أخصب المؤلفين عقلاً وأوسعهم خيالاً»^(٣).

(٥) التاريخ

(١) مؤرخو المشرق الإسلامى :

وقد زخر أواخر العصر البويهي والعصر السلجوقي في الشرق ومصر والمغرب والأندلس بطائفة كبيرة من المؤرخين الذين أمدونا بمادة غزيرة تصور لنا ما وصلت إليه الدراسات التاريخية من نهضة مباركة في ميدان الثقافة الإسلامية.

(١) المقرئ ج ٢ ص ٣٦٨.

(٢) المقرئ : فتح الطيب ج ٢ ص ٣٨١.

(٣) فصوص الحكم (نشره أبو العلا عفيفي) (القاهرة ١٩٤٦) ص ٥ .

وقد وضع أبو نصر العُتبي (بضم العين وسكون التاء) (ت ٤٢٨ هـ) كتابه عن حياة السلطان محمود الغزنوى وسماه « تاريخ اليمى » نسبة إلى يمين الدولة محمود الغزنوى (القاهرة ١٢٨٦ هـ) ويقع فى جزأين .

وهناك ثلاثة من المؤرخين هم أبو الحسن مسكويه (ت ٤٢١ هـ) وهلال الصابى (ت ٤٤٨ هـ) وأبو شعاع (ت ٤٨٨ هـ) .

ويعتبر تاريخ مسكويه المسمى « تجارب الأمم » من أهم الكتب التاريخية ، ويتناول جزء منه الكلام على الحوادث المتممة لتاريخ الطبرى ، وينتهى فى سنة ٣٦٩ هـ . ولا يقتفى مسكويه بذكر الحوادث التاريخية بل يعنى بالشئون الاجتماعية وخاصة الأحوال الاقتصادية عناية كبيرة . وبذلك خطأ خطوة جديدة نقل بها دراسة التاريخ من سرد الحوادث الجافة إلى معالجة الشئون الاجتماعية والعمرانية . وقد تناول مسكويه بإسهاب تاريخ الصدر الأول من عصر بنى بويه .

وقد نشر المستشرقان دى غويه ودى بونج جزءا من كتاب تجارب الأمم ، ويتناول الكلام على الحوادث التاريخية التى وقعت من خلافة المأمون سنة ١٩٨ هـ إلى أواخر خلافة المستعين (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) سنة ٢٥١ هـ . وقد نشر المستشرقان دى غويه ودى بونج أيضا الجزء الثالث من كتاب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق لمؤلف مجهول ، ويتناول الحوادث التاريخية من خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٦ هـ إلى نهاية خلافة المعتصم العباسى سنة ٢٢٧ هـ . (ص ١ — ٤١٠) وذيله بهذا الجزء من كتاب تجارب الأمم لمسكويه (ص ٤١١ — ٥٨٣) (ليدن ١٨٦٩ — ١٨٧١) .

وقد ذيل ظهير الدين محمد بن الحسين الدودراورى وزير الخليفة العباسى المقتدى (٤٧٦ — ٤٨٧ هـ) المعروف بأبى شعاع تاريخ مسكويه بتاريخه الذى تناول فيه الكلام على الحوادث التى وقعت بين سنتى ٣٦٩ و ٣٨٩ هـ . ثم تلاه هلال الصابى فى تاريخه الذى ذيل به « أمدروز » كتاب الوزراء إلى سنة ٣٩٣ هـ ، ونقله عنه « مرجليوث » .

كما تناول هلال الصابى الكلام على الحوادث التى وقعت بين سنتى ٣٨٩ و ٣٩٣ هـ . وترجمها مرجليوث إلى الإنجليزية .

وقد طبعت هذه الكتب الثلاثة فى القاهرة فى سنتى ١٩٣٣ — ١٩٣٤ م .

ويعد كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ) بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصافي . ويظهر أن ابن القلانسي اعتمد كثيرا على كتاب أبي شجاع وكتاب هلال . وكذلك يعد كتاب ابن القلانسي من كتب التاريخ العامة ، لأنه يتناول فترة طويلة تتعلق بجزء كبير من أنحاء العالم الإسلامي تمتد بين سنتي ٣٦٠ و ٥٥٥ هـ . كما يعد هذا الكتاب ذا صفة محلية ، لأنه يتناول الحوادث التي جرت في الشام والجزيرة ولاسيما ما يتعلق منها ببيت عماد الدين زنكي الذي كان معاصرا له ، وكان شاهد عيان لما وقع بين زنكي وحكام دمشق من حروب وما أبرم من معاهدات وجرى من مفاوضات . ويمكن الاعتماد على المعلومات التي أوردها ابن القلانسي عن أسرة زنكي وعلاقتها بالصليبيين . على أنه يلاحظ على أسلوب ابن القلانسي كثرة السجع والتكرار اللذين يثيران الملل في نفس القارئ .

وتعتبر مؤلفات أبي الريحان البيروني الخوارزمي (ت ٤٤٠ هـ) من أهم مصادر التاريخ والاجتماع . وقد قضى البيروني حياته تحت كنف مأمون بن مأمون أمير خوارزم ، ثم زار حول سنة ٣٩٠ هـ بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير الذي اشتهر في طبرستان بتشجيع العلماء ، وأهدى إليه البيروني تاريخه المشهور « الآثار الباقية عن القرون الخالية » الذي نشره إدوارد سخاو E. Sachau مع ترجمته الإنجليزية (لندن ١٨٧٩ و ليزج ١٨٧٨ - ١٨٧٩) . ويتناول هذا الكتاب القيم نظم الطوائف والجماعات المختلفة والإحتفال بالأعياد القومية والدينية بوجه خاص .

ثم عاد البيروني إلى موطنه خوارزم حيث قضى بقية حياته في بلاط محمود الغزنوي صاحب الفتوح المشهورة في بلاد الهند التي غزاها اثنتي عشرة مرة ونشر الإسلام في كثير من ربوعها . وقد صاحب البيروني السلطان محمود الغزنوي في أغلب غزواته لبلاد الهند حيث لزم البيروني العلماء والفلاسفة وتعلم اللغة السنسكريتية ، وأسهمت ثقافته بما أفاد من العلماء الهنود في التاريخ والرياضة والجغرافيا والعلوم الطبيعية .

وفي هذه الرحلات جمع البيروني علوم الهنود ومذاهبهم وعاداتهم ، وهي للمعلومات التي ألف منها كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة » ، ويعرف باسم « تاريخ الهند » ^(١) . ومن هذا الكتاب يتضح أن البيروني كان ملما باللغة السنسكريتية .

(١) نشره إدوارد سخاو وطبعت نسخة هذا الكتاب العربية مع ترجمتها الإنجليزية على نفقة حكومة الهند (لندن ١٨٨٧) .

وبقليل من العبرية والسريانية ، وأنه لم يكن يعرف اليونانية ، بل استقى كثيراً من معلوماته عنها من التراجم العربية أو السريانية. وقد قيل إن مؤلفات البيروني أربت على المائة مؤلف.

وللبيروني أيضاً كتاب « تاريخ خوارزم » . ويقال إنه جمع فيه جميع الأخبار والآثار والقصص المتعلقة بوطنه وخاصة الوقائع التاريخية التي شاهدها بنفسه . وقد أورد أبو الفضل البهيقي عدة فصول من هذا الكتاب في كتابه « تاريخ المسعودي » .

ومن مؤلفات البيروني كتاب « التفهيم في صناعة التنجيم » وهو في مقدمات علم الهيئة والهندسة والنجوم بطريق السؤال والجواب . وقد ألفه حول سنة ٤٢٠ / ١٠٢٩ (وقيل سنة ٤٢٥ / ١٠٣٣) ، وقدمه لريحانة بنت الحسن الخوارزمية ، وكتبه باللغتين العربية والفارسية ، غير أنه جعل لإحدهما ترجمة للآخر (١) .

ومن مصادر العصر السلجوقي كتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) . ولو لم يكن للخطيب البغدادي كما يقول ابن خلسكان (٢) « سوى التاريخ لكفاه » . وقد خلف الخطيب البغدادي نحو مائة كتاب . وكان فقيها يغلب عليه الحديث والتاريخ . وكان الخطيب البغدادي حافظ المشرق كما كان ابن عبد البر صاحب كتاب « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » حافظ المغرب . وقد ماتا في سنة واحدة .

وكتاب تاريخ بغداد أو مدينة السلام من أمهات الكتب التي يعتمد عليها في دراسة تاريخ الدولة العباسية من تأسيس مدينة بغداد في عهد أبي جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ إلى سنة وفاة هذا المؤلف . ويشتمل هذا الكتاب على وصف مدينة بغداد وأخبار من عاش فيها من الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء وغيرهم . ويقع هذا الكتاب في أربعة عشر مجلداً ، ويتناول تاريخ الدولة العباسية في أزهى عصورها وفي أيام انحلالها .

ومن أشهر المؤرخين علي بن أحمد بن أبي الكرم بن الأثير (ت ٦٣٠ / ١٢٣٢) الجزري ، وينسب إلى موطنه الأصلي جزيرة ابن عمر القريبة من الموصل ، ونشأ بها ، ثم

(١) ويوجد من هذا الكتاب نسخ عديدة في مكتبات أوروبا . انظر كتاب جهار مقالة ، تعليقات ميرزا محمد ، الترجمة العربية ص ١٤٦ — ١٤٨ .
(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٦ .

سار إلى الموصل وأخذ العلم على بعض علمائها، ثم قدم بغداد مرارا بعد أن أدى فريضة الحج وسمع من شيوخها . ثم رحل إلى الشام وبيت المقدس وسمع بها، ثم عاد إلى الموصل مسقط رأسه وانصرف إلى العلم والتأليف ، واشتهر ببحره في علم الحديث والتاريخ وعلم الأنساب . وقد اختصر كتاب الأنساب للسمعاني واستدرك عليه في مواضع كثيرة وسماه كتاب « اللباب في معرفة الأنساب » ، ويقع في ثلاث مجلدات .

وقد لقي ابن الأثير شمس الدين بن خلكان (ت ٦٨١ هـ) في مدينة حلب سنة ٦٢٧/١٢٢٩ هـ وتردد عليه كثيرا وانتفع بعلمه وأثنى على فضله وتواضعه وكرم أخلاقه . وفي السنة التالية رحل ابن الأثير إلى دمشق ثم عاد إلى حلب حيث انتفع ابن خلكان بعلمه ، ثم عاد إلى الموصل .

ويعتبر كتاب « الكامل في التاريخ » من المصادر الأصلية التي يعتمد عليها في دراسة التاريخ الإسلامي ، وعلى الأخص ما يتعلق منه بالحوادث التي وقعت بعد سنة ٣٠٢ هـ ، وهي السنة التي انتهى إليها الطبري في تاريخه . والجزء الذي تناول فيه ابن الأثير الكلام على بني بويه من أهم ما كتب عن هذه الدولة . ولعل ابن الأثير استمد أكثر معلوماته عن بني بويه مما كتبه المسعودي عن صدر هذه الدولة في شيء من الإسهاب .

وكذلك يمكن الاعتماد على ما كتبه ابن الأثير عن السيرة النبوية حيث نجد معلومات هامة مركزه ، وكذلك ما كتبه عن الفتوح الإسلامية في جزائر البحر الأبيض المتوسط ، وعن غزوات المغول على يد چنكيزخان إلى سنة ٦٢٨ هـ ، أي إلى ما قبل وفاته بسنتين . على أنه يلاحظ على كتاب الكامل لابن الأثير كثير من الجود والعموض اللذين يدعوان إلى الملل والسأم ويبعدان عن التشويق في كثير من الأحيان .

وقد خلف لنا ابن الأثير كتابه عن تاريخ الدولة الأتابكية في الموصل ، ويسمى التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل) . وقد تناول فيه الكلام على بيت زنكي منذ ولاية آق سُنقر والد عماد الدين زنكي إلى عهد السلطان مسعود (٤٧٧ — ٦٠٧ هـ) . وأسرة زنكي هذه هي الأسرة التي نشأت في كنفها أسرة ابن الأثير . وفي هذا الكتاب اعتراف بفضل أسرة زنكي عليه^(١) . وقد عبر ابن الأثير عن وفاته لهذه الأسرة شخص أحد أحفاد زنكي وهو الملك القاهر (٦٠٧ — ٦١٥ هـ) بكتابه « الباهر » الذي أهدها إليه .

(١) وقد نشر هذا الكتاب في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية أي في الجزء الثاني من المجموعة الشرقية .

وبعد كتاب « الباهر » مصدراً رئيساً لتاريخ أسرة زنكى ، ويشتمل على معلومات قيمة عن سيرة عماد الدين زنكى . وقد نقل ابن الاثير هذه المعلومات المفصلة عن أبيه الذى عاش تحت كفهم . كما يمدنا ابن الاثير بمعلومات هامة عن نظام الجيش وفرقه وأساليب القتال ونظام الاقطاع فى عهد هذه الأسرة ، وعن سياسة زنكى فى الموصل وإربل وجزيرة ابن عمر ومناطق الأكراد .

أما المناطق الأخرى كبغداد والجزيرة ودمشق وحلب فقد اعتمد ابن الاثير فى كتابه « الباهر » على ما دونه أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ / ١١٨٨) فى كتابه « الاعتبار » أو « حياة أسامة » . وبعد هذا الكتاب من المصادر الهامة لأن مؤلفه عاصر عماد الدين زنكى سنين عدة واتصل به اتصالاً وثيقاً ووقف على حياته السياسية والخاصة ، وكان شاهد عيان لما جرى فى عهده من أحداث وأمور .

كذلك اعتمد ابن الاثير فى كتابه « الباهر » على يحيى بن أبى طلى (١) (١٣٠٢ / ١٢٣٣ — ١٢٣٣) والقاضى بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢ / ١٢٣٤) فى كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » (يعنى صلاح الدين يوسف بن أيوب) .

ويتبع ابن الاثير فى كتابه « الباهر » التسلسل الزمنى للأحداث التاريخية اللهم إلا إذا استثنينا ما كتبه عن سيرة عماد الدين زنكى . ويتسم ابن الاثير فى كتابه « الباهر » بالتحيز لعماد الدين زنكى والمغالاة فى مدحه ويغفل أخطائه ولعل مرد ذلك أنه قدم هذا الكتاب هدية لأحد أحفاد عماد الدين زنكى ونرى ابن الاثير أقل تحيزاً لزنكى فى كتابه « السكامل فى التاريخ » .

ومن مؤلفات ابن الاثير كتاب « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » ويقع فى ستة أجزاء

(١) وأصله من حلب . وقد اعتنق (كأبيه من قبله) العقائد الشيعية . ومن مؤلفاته كتاب « معجم شعراء الشيعة » و « رسالة فى فضائل الأئمة الاثنا عشرية » . كما وضع ترجمة حياة صلاح الدين الأيوبي فى متناول أيدينا عن طريق أبى شامة (ت ٦٦٥ / ١٢٦٧ — ١٢٦٨) وتقى الدين المقرئى (ت ٨٤٥ / ١٤٤١) ، وله « شرح لامية العرب » للشنفرى (بكسر الشين وسكون النون وفتح الفاء والراء) الذى وضعه سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) .

انظر مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الشرقيون) ج ١ ص ٤٠٧ حاشية رقم ٣ مقدمة ب . ل . حسن لإبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥١٧ — ٥١٨ .

وهناك كتاب « الاصابة في تمييز الصحابة » لشهاب الدين ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٣ / ١٤٤٩) (١).

ومما يؤخذ على ابن الاثير ركازة عباراته وغموضها في كثير من الاحيان ، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية مؤلفاته التي تتميز بغزارة المادة التاريخية وعمق الفكرة ودقة البحث .

ومن أشهر العلماء في هذا العصر الحافظ أبو سعد (ويقال أبو سعيد) عبد الكريم التميمي السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ . وقد ولد السمعاني بمدينة مرو حاضرة خراسان سنة ٥٠٦ هـ ، وتبحر في الفقه والحديث والأنساب ، واختلف في سبيل طلب العلم إلى كثير من البلدان ، إذ رحل إلى بلاد ماوراء النهر وخراسان وإلى قومس والري وأصبهان ومهذبان وبلاد الجبل والعراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وغيرها من البلاد . ولقى في رحلاته كثيراً من العلماء الذين أخذ عنهم وروى عنهم حتى قيل إن عدد شيوخه قد نيف على الأربعة آلاف ، ولو أن هذا الكلام يتسم بكثير من المبالغة .

وقد خلف لنا السمعاني كثيراً من الكتب نخص بالذكر منها : كتاب « تذييل تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ويقع في نحو خمسة عشر مجلداً . كما خلف « تاريخ مرو » الذي يزيد على عشرين مجلداً . ولعل أشهر كتب السمعاني كتاب « الأنساب » ويقع في ثمان مجلدات . وقد نشر في سلسلة ذكرى جيب التذكارية رقم ٢٠ (١٩١٢) . وقد لخص ابن الاثير كتاب الأنساب للسمعاني ويعرف باسم « الباب في معرفة الأنساب » .

وكان أبو سعد السمعاني من بيت علم ودين . فقد ظهر من هذا البيت كثير من العلماء والرؤساء . وكان أبوه محدثاً وفقهياً (٢) .

ومن أشهر مؤرخي هذا العصر نجم الدين عمارة البني الذي نبغ في الشعر والفقه والتاريخ الذي تقدمت الإشارة إليه عند كلامنا على الشعر ونظم الحكم . وقد أقصاه إخلاصه للفاطميين عن عطف الأيوبيين وانتهت حياته الحافلة بشغفه في شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) لانتهاه بالاشتراك في التآمر لإعادة سلطان الفاطميين . وقد خلف لنا عمارة البني هذه المؤلفات التي تعد ذخيرة علمية وهي :

(١) ويقع في ستة أجزاء (القاهرة ١٢٨٠ هـ) وقد قام سبرنجر على طبعه (كلكتا ١٨٥٦ —

١٨٧٣) ، (القاهرة ١٢٨٠ هـ ، ١٣٢٣ هـ) .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٧٨ — ٣٨٠ .

- (١) كتاب النسكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية (باريس ١٨٩٧) .
- (٢) كما خلف لنا عمارة تاريخ حياته .
- (٣) كتاب تاريخ اليمن ، وعليه المختصر المنقول من كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون ، ثم أخبار القرامطة باليمن تأليف القاضي البهاء الجندی (لندن ١٣٠٩ هـ) .
- ومن أشهر علماء هذا العصر ومؤرخيه الحافظ جمال الدين عبد الرحمن بن جعفر بن الجوزي^(١) الذي يندسب إلى أبي بكر الصديق . وقد عاش ببغداد ، وكان ، كما وصفه ابن خلكان ، علامة عصره وإمام وقته في الحديث والوعظ . وقد ألف في كثير من أنواع العلوم ، ومن مؤلفاته .
- (١) زاد المسير في علم التفسير ويقع في أربعة مجلدات .
- (٢) الموضوعات ويتناول الأحاديث الموضوعة ويقع في أربعة مجلدات .
- (٣) تلخيص فهوم الأثر وهو تعليق على كتاب المعارف لابن قتيبة .
- (٤) لقط المنافع في الطب .
- (٥) وربما كان أهم كتب أبي الفرج بن الجوزي جميعا كتاب « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم »^(٢) .
- وقد قيل إن الكراريس التي كتب أبو الفرج بن الجوزي كثيرا منها بخطه لو جمعت وقسمت على أيام حياته لكان له كل يوم تسع كراريس . وهذه المبالغة إن دلت على شيء فأنما تدل على غزارة علمه وكثرة مؤلفاته . وقد توفي ابن الجوزي ببغداد سنة ٥٩٧ هـ^(٣) .
- ويعد كتاب « تاريخ جهان » كشأ أو « تاريخ فاتح العالم » (أي چنكيزخان) الذي ألفه عطا ملك الجويني (بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء) من أهم المصادر التي يعتمد عليها في تاريخ المغول . ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء ، يتناول الجزء الأول منها الكلام على أصل المغول وغزوات چنكيزخان ، والثاني يبحث في تاريخ ملوك خوارزم المعروفين باسم « خوارزمشاه » ، والثالث يتحدث عن الحشاشين أو إسماعيلية حصن الموت وقهستان وحروب هولاءكو معهم .

(١) الجوزي نسبة إلى موضع يقال له فرضة الجوز .

(٢) يقع في خمسة أجزاء مطبوعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن بالهند (١٣٥٩ هـ) .

(٣) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ٢ ص ٣٢٠ — ٣٢٢ .

وقد نشر هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ضمن سلسلة جب التذكارية وحققه الأستاذ محمد عبد الوهاب القزويني (١).

ويعتبر كتاب « تاريخ دولة آل سلجوق » من أهم المصادر التي يعتمد عليها في دراسة تاريخ السلاجقة . وقد ألف هذا الكتاب أنوشروان خالد بن محمد القاشاني وزير الخليفة المسترشد العباسي (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) ، ثم ترجمه إلى العربية عماد الدين الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ) الكاتب المشهور وصاحب كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » ، ثم اختصر هذه الترجمة الفتح بن علي بن محمد البنداري (بضم الباء وسكون النون وكسر الراء) الأصفهاني في سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) .

ويتناول مختصر البنداري في تاريخ آل سلجوق تراجم سلاطين السلاجقة وعلاقاتهم بالخلفاء العباسيين في عهدهم ، كما يبحث نشأة دول الأتابكة ، ويتناول الكلام على الوزراء وما قام به الإسماعيلية من الأعمال العدوانية ضد السفينين (٢) . وقد لخص البنداري كتاب الشاهنامه للفردوسي بأسلوب نثرى . على أنه يؤخذ على كتاب تاريخ دولة آل سلجوق للبنداري ركاكة الأسلوب وغموضه وتعقيد المعاني في كثير من الأحيان .

ومن المصادر التاريخية باللغة الفارسية كتاب « منهاج السراج » للجوزجاني (٣) . وله أيضا كتاب « طبقاتي ناصري » . وقد ولد حول سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) والتحق ، كأبيه وجده ، بخدمة ملوك الغور . وفي سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) خرج الجوزجاني إلى الهند والتحق بخدمة السلطان ناصر الدين قباچه (بضم القاف) ، وظل الجوزجاني وخدمته حتى انهزم بعد سنة ، فالتحق بخدمة شمس الدين إيلتمش الذي تغلب على قباچه ، وأهدى كتابه منهاج السراج إلى ابنه ناصر الدين محمود .

ويشتمل كتاب « طبقاتي ناصري » على عشرين فصلا تبدأ بالأنبياء والأولياء وتنتهى بغارة المغول التي تناول المؤلف الكلام عليها في شيء من التفصيل الذي لا نجده في المراجع الأخرى . وقد طبع الكتاب « نساو لين » جزءا من هذا الكتاب ترجمه رافير في سلسلة

(١) وقد اعتمد دوسون على هذا الكتاب كثيراً في تأليف كتابه تاريخ المغول .

Histoire des Mongols

انظر براون : تاريخ الأدب في إيران : الترجمة العربية للدكتور الشواربي . ج ٢ ص ٥٩٩ - ٦٠٠ .

(٢) نشر المستشرق هوتسما الفصلين الثالث والأخير من هذا الكتاب .

راجع براون : تاريخ الأدب في إيران : الترجمة العربية ص ٥٩٨ - ٥٩٩ .

(٣) نسبة إلى جوزجان (بفتح الجيم والزاى وسكون الواو) بالقرب من بلخ

مكتبة الهند . ويتناول هذا الجزء المطبوع الدول المتصلة بالهند ، ويفعل كل ما له صلة بأمرام الطاهريين والصفاربيين والسامانيين والديلم والسلاجقة والحوارزميين وغيرهم من الحكام الذين كانت لدولهم أهمية خاصة لدى المعنيين بدراسة تاريخ إيران (١) .

ومن أشهر مؤرخي العصر السلجوقي الأخير جرجيس المسكين (٢) (ت ٦٨٠ / ١٢٧٣) . وكتابه « المجموع المبارك » (٣) من أوائل الكتب الأصلية التي طبعت في أوروبا . وقد نشر المستشرق الهولندي إيرينيوس (Erpenius) كتاب المسكين مع ترجمته اللاتينية بمدينة لندن سنة ١٦٢٥ . ثم ترجم برجاس (Purchas) هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية في السنة التالية . ثم ترجمه فاتير Vattier إلى الفرنسية سنة ١٦٥٧ (٤) .

ومن أشهر مؤرخي هذا العصر غريغورس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري (أى اليهودي) لأن أباه أهرون ترك دياناته اليهودية واعتنق المسيحية . ويعرف ابن العبري أيضا باسم « جريجوريوس » أو غريغوريوس ، وهو الاسم الذي أطلقه على نفسه سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) عند ما تولى أسقفية جوباس .

ولد ابن العبري سنة ١٢٢٦ م في مدينة ملطية بأرمينية الصغرى ، وتعلم في صفرة اليونانية والسرانية والعربية ، ثم اشتغل بالفلسفة واللاهوت . فلما عم الفزع الناس من غارات المغول فرَّ به أبوه - وكان طبيبا - إلى مدينة أنطاكية في سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) .

وقد عاش ابن العبري عيشة الزهد والفسك وانفرد في مغارة بالبرية ، ثم سار إلى مدينة طرابلس الشام حيث أتم دراسة البيان والطب ورقى وهو في العشرين من عمره إلى أسقفية جوباس من أعمال ملطية . وفي سنة ١٢٦٤ م انتخب مقربا . ويعد هذا المنصب من أكبر المناصب بعد منصب البطريرقية (وهو أشبه بكبير رؤساء الأساقفة) (٥) على جهات ما بين النهرين والعراق المعجمي . وكان يقيم أحيانا في الموصل وأحيانا أخرى في إقليم أذربيجان أى

(١) براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٥ — ٥٩٦ .

(٢) أو عبد الله بن أبي الياسر بن أبي المكارم بن العميد ، وهو مسيحي مصري .

(٣) أصبح كتاب « التاريخ المبارك » وكتاب « المختصر في أخبار البشر » لأبي الفدا صاحب جواهر المصادر العربية التي ظلت في متناول المستشرقين الأوروبيين المشتغلين بالتاريخ الإسلامي فترة طويلة .

(٤) انظر براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٦ — ٥٩٧ .

(٥) وهي كلمة فارسية معناها الثمر .

في تبريز والمراغة في الشمال الغربي من إيران ، ومات في مدينة المراغة سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م)^(١) .

وقد ألف ابن العبري أكثر من ثلاثين كتاباً بالعربية والسريانية في الفلسفة وعلم الهيئة والطب والتاريخ والنحو والشعر وغيرها ، نخص بالذكر منها كتابه المعروف « مختصر تاريخ الدول » . وقد كتبه في الأصل باللغة السريانية ، ولكن جماعة من كبار المسلمين طلبوا إليه أن ينقله إلى العربية ، ففعل ذلك في السنوات الأخيرة من حياته ، وطبع هذا الكتاب أكثر من مرة ، وترجم إلى اللاتينية والألمانية ، وطبع في بيروت سنة ١٨٩٠ م في ٦٣٠ صفحة .

وقد تناول ابن العبري في كتابه عشر دول هي :

- (١) دولة الأولياء من آدم إلى « البرنساء » أى الناس .
- (٢) دولة قضاة بنى إسرائيل .
- (٣) دولة ملوك بنى إسرائيل .
- (٤) دولة ملوك السكديين .
- (٥) دولة ملوك المجوس ، أى ملوك إيران منذ الملك الأسطوري « كيومرث » إلى « دارا » ومقتله على أيدي الإسكندر الأكبر .
- (٦) دولة ملوك اليونانيين الوثنيين .
- (٧) دولة ملوك الفرج ويقصد بهم ملوك الرومانيين .
- (٨) دولة ملوك اليونانيين المنتصرين أى البيزنطيين .
- (٩) دولة ملوك العرب المسلمين .
- (١٠) دولة ملوك المغول (إلى سنة ٦٨٣ / ١٢٨٤) ، وهى السنة التى تولى فيها « أرغون » الحكم^(٢) .

(١) ابن العبري : مختصر تاريخ الدول (طبعة بيروت ج ١ : ح . د . هـ . و .

(٢) وقد كتب « نولدكه » مقالا عن ابن العبري والعصر الذى عاش فيه نشره في كتابه « صور من التاريخ الشرقى » ، وقد ترجم جون بلاك هذا الكتاب إلى الإنجليزية .

انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص (القاهرة ١٩٢٦) ص ١٠٧ هامش رقم (١) .
براون : تاريخ الأدب في إيران : الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٣ — ٥٩٥ .

وقد كتب شهاب الدين أحمد النسوى سيرة جلال الدين منكبرتي^(١) آخر سلاطين الدولة الخوارزمية ، وقد تولى النسوى ديوان الإنشاء فى بلاط هذا السلطان ودون مذكراته عنه فى كتاب أسماه « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ».

وقد دون هذا المؤلف مذكراته فى سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) ، أى بعد وفاة هذا السلطان بنحو عشر سنوات . وكان النسوى شديد الصلة بهذا السلطان كما كان شاهد عيان للأحداث والمغامرات التى جرت فى حياته . قال هوداس Houdas فى مقدمته لسيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (باريس ١٨٩١ — ١٨٩٥) :

« وفى المدة الطويلة التى حكم فيها السلطان جلال الدين ، لم يترك النسوى إلا فى فترات قليلة نادرة كان يؤدى له فيها بعض المهام الخاصة . وكان النسوى إلى جواره ليلة هربه حين هم أحد الأكراد بقتله بخنجره . لذلك يمكن القول بأن كتاب « سيرة جلال الدين منكبرتي » من أصدق ما كتب عنه ، إذ كان المؤلف ملازماً لهذه الأحداث ، وكان يكشف عن أسبابها وعللها ، كما أستطاع أن يتحدث عن سيرته وما جرى فى عهده من أحداث فى صراحة تامة ، إذ أنه كتب هذه السيرة بعد وفاة صاحبها بنحو عشر سنوات على الرغم من أنه كان متحفظاً بعض الشيء ، لأنه كان بطبيعة الحال يحرص على ألا يسب بعض أصدقائه الذين عاصروا هذه الأحداث بسوء^(٢) .

على أن التزام النسوى للسجع والمحسنات البدعية قد فوت عليه كتابة كثير من الأحداث التاريخية فى دقة ووضوح . ومع ذلك فقد كان النسوى يجيد اللغتين التركية والفارسية ، ولكنه كان ضعيف الكتابة باللغة العربية . لذلك لجأ إلى المحسنات البدعية ليستر بها هذا الضعف . وقد اعترف النسوى بأنه ليس من مؤرخى العصر البارزين أو من كتابة النابهين . ولم يقتصر النسوى على سرد تاريخ السلطان جلال الدين منكبرتي . فقد استهل كتابه بسرد حوادث المغول الأول وتبع أحداثهم حتى حطوا راحلهم على حدود الشرق الإسلامى . ثم تكلم على تاريخ الدولة الخوارزمية فى عهد علاء الدين محمد خوارزمشاه الذى يعد بحق أشهر سلاطين هذه الدولة ، وعن صراعه مع المغول ، ثم اهتم بتاريخ الدولة الخوارزمية فى عهد آخر سلاطينها وهو جلال الدين منكبرتي^(٣) .

(١) يفتح الميم وسكون النون وضم الكاف وكسر الباء .

(٢) انظر براون : تاريخ الأدب فى إيران : الترجمة العربية ج ٢ ص ٦٠١ — ٦٠٢ .

(٣) سيرة جلال الدين منكبرتي (نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدى (القاهرة ١٩٥٣) ص

كتاب التراجم :

وقد حفل العصر السلجوقي بعدد من كتاب التراجم نذكر منهم القفطى (ت ٦٤٦ // ١٢٤٨) وابن أبى أصيبعة ومحمد عوفى وابن خلكان .

ولد جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى وزير حلب (ويعرف بالقاضى الأكرم) بمدينة قفط من أعمال صعيد مصر سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) حيث رحل إليها آباؤه من مدينة الكوفة ، ورجع نسب أمه إلى قبيلة قضاة .

وقد أخذ القفطى العلم بمدينة قوص والقاهرة حتى بلغ الخامسة عشرة من عمره . ثم قلده صلاح الدين الأيوبي أباه يوسف القضاء بمدينة القدس حيث التحق على بأسرته وأقام فيها حتى ذهب أبوه سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ م) إلى حران ، وكانت من أهم مراكز الدراسات الفلسفية اليونانية في آسيا حتى إنها سميت « هالينوبوليس » . وقد تقلد يوسف أبو على الوزارة للملك الأشرف الأيوبي وأدى فريضة الحج بمسكه حيث مات سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) .

انتقل على بن يوسف المشهور بالقفطى إلى حلب حيث تقلد الخراج ولقب القاضى الأكرم ، واشتهر بالكفاية والأمانة وولع بالاستزادة من العلم وتشجيع رجاله . ومن هؤلاء ياقوت الحموى (أو الرومى) الذى فر من خراسان إلى هذه المدينة أمام غارات المغول ، فشملة القفطى بعطفه وأحاطه برعايته . ثم تولى القفطى الوزارة للملك العزيز الأيوبي ، فظل فيها إلى أن مات سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) .

وقد ألف القفطى كثيراً من الكتب ذكر منها ياقوت الذى توفى قبله بنحو عشرين سنة ، كتاب « تاريخ الحكماء » الذى يشتمل على معلومات ذات غناء استمد كثيراً منها من كتاب معجم الأدباء لياقوت . ويشتمل كتاب تاريخ الحكماء على ٤١٤ سيرة من سير الفلاسفة والأطباء والرياضيين والمنجمين الذين ظهروا في مختلف العصور حتى أيامه (١) . وهذا الكتاب الذى رتب مؤلفه على الحروف الهجائية وليس وفقاً للترتيب الزمنى هو مختصر من الكتاب الأصيل الذى وضعه القفطى . وقد أفاد منه كثير من أهل عصره ومن الكتاب المتأخرين ، نخص بالذكر منهم ابن أبى أصيبعة وابن العبري وأبا الفدا ، وقد نشر مرجليوث كتاب تاريخ الحكماء (٢) كما طبع هذا الكتاب في القاهرة .

(١) وقد طبع هذا الكتاب في لايبسك سنة ١٣٤٠ / ١٩٠٢ .

(٢) راجع براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٥٩٣ .

أما ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٩ / ١٢٧٠) مؤلف كتاب «طبقات الحكماء» فقد ولد في مدينة دمشق سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) حيث درس الطب فيها وفي مدينة القاهرة وزاروا كآبيه هذه المهنة واختص بطب العيون ، واشتغل فترة من حياته بأحد المستشفيات التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي في مدينة القاهرة .

وقد نشر مولر هذا الكتاب في مدينة كونيغزبرج سنة ١٨٨٤ م ، كما نشر في القاهرة سنة ١٨٨٢ . واعتمد وستنفلد اعتماداً كلياً على كتاب ابن أبي أصيبعة في كتابه لذي ألفه بالألمانية وعنوانه : « تاريخ الطب والنبات عند العرب » (جوتنجن ١٨٤٠) (١) .

ومن كتب التراجم كتاب « لباب الالباب » وكتاب « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » لمحمد عوف . ويرجع نسبه إلى عبد الرحمن بن عوف الصعابي المشهور . وقد قضى عوف معظم طفولته في خراسان وبلاد ماوراء النهر ولا سيما في مدينة بخارى . ثم رحل إلى الهند والتحق بخدمة السلطان « ناصر الدين قباجه » (بضم القاف) ، وأهدى إلى وزيره عين الملك حسين الأشعري معجمه الذي صنّفه عن شعراء الفرس باسم « لباب الالباب » . فلما اغتيل هذا السلطان سنة ٦٢٦ / ١٢٢٨ بقي عوف في خدمة السلطان الذي قهره وهو شمس الدين إيلتمش وأهدى إليه كتابه « جوامع الحكايات » . وهو عبارة عن مجموعة واسعة من الحكايات تنقسم أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على خمسة وعشرين باباً ويشتمل كل باب على مجموعة من الحكايات في أسلوب سهل بسيط .

أما كتاب « لباب الالباب » فهو مجموعة مقالات كتبها عوف عن شعراء الفرس الأوائل . ويعتبر من أهم الكتب في الأدب الفارسي ، ويشتمل على تراجم بعض الشعراء الذين كادت أخبارهم أن تندرس تماماً . ولم يرد ذكرهم قبل ذلك على الرغم من خلو هذا الكتاب من التواريخ الدقيقة أو التفاصيل الممتعة فضلاً عن مختاراته الرديئة عن أقوال الشعراء . ويلاحظ أن المؤلف أهل جماعة من الشعراء المشهورين كناصر خسرو وعمر الخيام . وعلى الرغم من ذلك كله يعتبر هذا الكتاب ، كما يقول براون ، من الكتب القيمة ، إذ أنه يشتمل على نحو ثلثائة من تراجم شعراء الفرس الذين ظهروا قبل السعدي . وقد تم طبع الجزأين ، وهما من أهم المراجع التي يعتمد عليها الباحثون في دراسة شعراء الفرس .

(١) انظر براون ، المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٠٥ .

وكتاب « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلصكان^(١) (ت ١٢٨٢/٦٨١) من أهم المراجع التي لاغنى عنها لطلاب الدراسات الإسلامية . ولا ريب أنه يحتل المكانة الأولى بين كتب التراجم . وقد بدأ ابن خلصكان في تصنيفه في القاهرة سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ، وانتهى منه في سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م)^(٢) . وينسب ابن خلصكان إلى البرامكة ، وولد في إربل سنة ٦٠٨ / ١٢١١ . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره انتقل إلى حلب ، ثم إلى دمشق ، ثم إلى القاهرة ، ثم إلى الإسكندرية حيث شغل كثيراً من المناصب في التعليم والقضاء . وقد عني الكتاب بعد ابن خلصكان بتذييل معجمه الكبير « وفيات الأعيان » ، فوصل فضل الله الصّقاعي كتاب وفيات الأعيان إلى سنة ٧٣٦ هـ (١٣٢٥ م) . ثم صنف ابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤/١٣٦٢) كتابه « فوات الوفيات » وهو تمة أيضاً لكتاب وفيات الأعيان .

التواريخ المحلية

وهناك تواريخ محلية خاصة بالمدن والأقاليم ، ومن هذه التواريخ ما يتعلق بتاريخ مكة أو المدينة أو الحجاز .

وعن ألف في تاريخ مكة الأزرقى (ت ٨٥٨/٢٤٤) والفاكهى (ت ٨٨٥/٢٧٢) . ويعتبر كتاب « أخبار المدينة » لعمر بن شبة (بفتح الشين والباء مع التشديد) (ت ٢٦٢ هـ) من أهم مصادر المدينة المنورة . فقد عني بوصفها من الناحية التخطيطية (أو الطبوغرافية) معتمداً على مشاهداته الشخصية وما نقله عن كثير من الرواة ، وتكلم عن آبارها ووديانها وأسواقها ومساجدها ، وتناول الكلام عليها من الناحية الاجتماعية ولا سيما خطط المهاجرين وعشائهم ودورهم وأخبارهم . ولابن شبة كتب أخرى عن البصرة والكوفة ومكة . ويروى الطبرى أخبار ابن شبة التي رواها عن المدائني وزاد عليها زيادات شاملة حتى أصبحت مرجعاً أساسياً لمن أتى بعده من المؤرخين .

(١) بفتح الحاء وكسر اللام مع التشديد .

(٢) وقد نشره وستنفلد (١٨٣٥ — ١٨٤٣) وطبع أكثر من مرة ، كما ترجمه دى سلان

إلى الإنجليزية في أربعة مجلدات (١٨٤٢ — ١٨٤٨) ، وطبع أخيراً في القاهرة (١٩٤٨/١٣٦٧) بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

ومن كتب عن المدينة الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) . ويعد كتابه « أخبار المدينة » من الكتب التي لعبت بها يد الدهر . وقد اعتمد البكري وياقوت الحموي على ما كتبه الزبير عن المدينة^(١) .

وهناك تواريخ محلية أخرى تتعلق بتاريخ فارس وخراسان وطبرستان والعراق ومصر والمغرب وغيرها .

ومن هذه التواريخ « تاريخ طبرستان » تأليف محمد بن الحسن بن إسفنديار . وقد اعتمد في وضع كتابه الفارسي على النسخة العربية من كتاب « تاريخ طبرستان » التي عثر عليها في مكتبة الملك « رستم بن شهریار » وقام بتأليفها اليزدادي في أيام قابوس بن وشمكير (٣٦٦ - ٤٠٣ / ٩٧٦ - ١٠١٢) . وبعد ذلك عاد ابن إسفنديار إلى آمل ثم انتقل منها إلى مدينة خوارزم وقال عنها إنها مدينة عامرة برجال العلم والأدب ، ووجد فيها كثيرا من المادة التي ساعدته على استكمال كتابه . ومن المرجح أن ابن إسفنديار مات على أيدي المغول في أثناء غارتهم على خوارزم في سنة ٦١٧ / ١٢٢٠ .

وتشتمل الأجزاء الأولى من هذا الكتاب على كثير من الأمور المتصلة بالأساطير ، فإذا وصل ابن إسفنديار إلى العصر الإسلامي أفاض في ذكر الحقائق التاريخية والجغرافية والإخبارية وخاصة التفاصيل التي تتعلق بسير المشهورين من الرجال المحليين سواء في طبرستان أم في خارجها ولا سيما سير الشعراء الذين نظموا أشعارهم باللهجة الطبرية المستعملة استعمالا واسعا في طبرستان .

وقد انتهى ابن إسفنديار من تاريخه حتى سنة وفاة رستم بن أردشير سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ، ثم جاء مؤرخ آخر فاستكمل هذه الأحداث التاريخية إلى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) .

وقد ألف أبو سعد السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) « تاريخ مرو » ، ويقع في أكثر من عشرين مجلداً كما تقدم .

وهناك تواريخ محلية أخرى كثيرة في الأدب الفارسي شبيهة بتاريخ ابن إسفنديار تتعلق بتاريخ بعض المدن الإيرانية مثل أصفهان ، وشيراز ، وقم ، وهراة ، وسجستان ، وشستر ، ومؤلفات أخرى وضعت عن طبرستان وحدها ، ولا زال أغلب هذه المؤلفات

(١) صالح أحمد العلي : « المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز » بحث مُستقل من المجلد الحادي

عشر لمجلة المجمع العلمي العراقي (بغداد ١٣٨٣ / ١٩٦٤) ص ١٥ - ٢٠ .

مخطوطاً^(١) ومن هذه التواريخ المحلية كتاب « تاريخ خوارزم » لأبي الريحان البيروني ، وقد أورد البيهقي عدة فصول من هذا الكتاب في كتابه « تاريخ السعدي »^(٢) ويعتبر هذا الكتاب مفقوداً .

ومن كتب التاريخ التي ألفت عن دولة معينة تاريخ العُتبي « تاريخ اليميني » نسبة إلى السلطان يمين الدولة محمود الغزنوي ، وقد كتب العتبي هذا الكتاب باللغة العربية ، ثم ترجمه إلى الفارسية ناصح الجزبادقاني^(٣) ، وقد طبعت هذه الترجمة على الحجر في طهران سنة ١٣٧٢ هـ (١٨٢٥ م) . ثم نقلت إلى التركية والإنجليزية .

ومن كتب التاريخ الخاصة التي نقلت عن دولة معينة كتاب « تاريخ جهان كُشا » أو « تاريخ فاتح العالم »^(٤) لمؤلفه عطا مَلِك الجويني (بضم الجيم وفتح الواو وسكون الياء) .

ومن الكتب المحلية التي ألفت بالعربية كتاب « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ، وكتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » لعبد الواحد المراكشي ، وكتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » لتقي الدين المقرئ ، وكتاب « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب » للمقرئ .

(ب) مصادر العصر المغولي الأول

إن المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في استقصاء غزوات المغول ، وحصار بغداد على يد هولاكو وزوال الخلافة العباسية وما كان لذلك من أثر تسكاد تكون فارسية في مجملها . فإن ابن الأثير (ت ٦٣٠ / ١٢٣٢) قد تناول غزوات المغول الأولى إلى سنة ٦٢٨ هـ وهي آخر السنين التي تناول فيها الحوادث التاريخية في كتابه « الكامل في التاريخ » .

وقد أمدنا بعض المؤرخين بمعلومات ذات غناء عن غزوات المغول من أمثال

(١) براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٦٠٨ — ٦١٠ .

(٢) انظر ما ذكرناه عن البيروني قفلاً عن كتاب جهار مقالته لنظامي عروضي السمرقندي ، الترجمة العربية ، الحواشي ص ١٤٦ .

(٣) نسبة إلى جزبادقان ، وهو مكان بين استراباذ وجرجان من نواحي طبرستان .

(٤) ويقصد بعبارة فاتح العالم « جنكيزخان » .

ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ / ١٢٢٩) في كتابه «معجم البلدان» وقد اختصره عبد المؤمن ابن عبد الحق (ت ٧٣٩ / ١٣٣٨)^(١).

وعن كتب عن المغول أبو الفرج الملقب المعروف بابن العبري (ت ٦٨٥ / ١٢٦٦) . وقد طبع كتابه «تاريخ مختصر الدول» أكثر من مرة وترجم إلى اللاتينية والألمانية كما تقدم ، وقد تناول في كتابه عشر دول ، وتناول في الباب العاشر (دولة المغول إلى سنة ٦٨٣ / ١٢٨٤) وهي السنة التي تولى فيها أرغون إيلخان المغول في فارس الحكم .

ومن هؤلاء أيضاً ابن طباطبا (ت ٧٠٩ / ١٣٠٥) ؛ فقد وصف في كتابه «الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» الذي انتهى من تأليفه في سنة ٧٠١ هـ المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد وبين كيف استولى عليه أصحابه من الجهاد وما عرف عنه من سوء التدبير والانصراف إلى اللهو واستهتاره بقوة التشار وعدم أخذه الحيطة لمواجهة خطرهم .

وعن تناول غزوات المغول الأولى : ابن خلسكان (ت ٦٨١ / ١٢٨١) في كتابه وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، وابن شاكر السكيتي (ت ٧٦٤ / ١٣٦٢) الذي يعتبر كتابه «فيات الوفيات» متما لكتاب ابن خلسكان ، وتاج الدين السبكي (٧٧١ / ١٣٧٠) في كتابه «طبقات الشافعية الكبرى» ، وعماد الدين (إسماعيل بن عمر) بن كثير (٧٧٤ / ١٣٧٢ - ١٣٧٣) في كتابه «البداية والنهاية» ، وابن بطوطة (٧٧٩ / ١٣٩٤) ، وابن خلدون (ت ٨٠٨ / ١٤٠٥) في كتابه المسمى «العبر وديوان المبتدأ والخبر» ، والقافقشندي (ت ٨٢١ / ١٤١٨) في كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» والمقرئزي (٨٤٥ / ١٤٤١) في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» و «السلوك في معرفة دول الملوك» .

أما عن المصادر الفارسية فأشهرها ثلاثة :

(١) تاريخ «جهان كُشا»^(٢) Taïrikhi - Djihan - Kushai

أو «تاريخ فاتح العالم» (يقصد جنكيزخان) تأليف علاء الدين عطا ملك الجويني وزير

(١) ويقع في أربعة أجزاء (طبعة جوينيل ، لندن ١٨٥٣)

(٢) وقد نشر «شيفر» جزءاً من هذا الكتاب في الجزء الثاني من كتابه «مختارات فارسية» ج ٢ ص ١٠٦ - ١٦٩ . ويبدأ بفارة القول على خوارزم وينتهي بفارتهم على نيسابور . ونشر «كترمير» جزءاً آخر مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٣٦ ويتناول أحوال هولاكو ، ونشر «بريزين» (Berésine) جزءاً آخر من هذا الكتاب ، وقد تم طبع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء .

هولاكو . وبعد من أحسن الكتب المعاصرة ومن أقدم المراجع التي كتبت عن تاريخ المغول وانتصاراتهم . وقد تنقل «عطا ملك» بين ربوع منغوليا ، فوصف ما شاهده وصفاً دقيقاً ، وإليه وإلى «وليام روبروك» يرجع الفضل في وصف مباني المغول وكثير من وقائع چنكيزخان .

(٢) طبقاتي ناصري أو منهاجي سراج الجوزجاني (كلكتا ١٨٦٤) للجوزجاني الذي ألفه بعد سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) بسفتين . وكان الجوزجاني أحد المؤرخين المعاصرين لهولاكو .

(٣) تاريخ المغول ، ويعرف بجماع التواريخ (لندن ١٩١٠) ^(١) . وقد انتهى رشيد الدين فضل الله الهمداني (ت ٧١٨) من تأليفه سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) . وقد أفاض رشيد الدين في تاريخ إيلخانات المغول في فارس ، وخصص الجزء الأول من هذا الكتاب لحياة هولاكو (ص ٨٥ — ٤٢٥) . وقام كترمير بترجمة هذا الكتاب

إلى الفرنسية بعنوان *Histoire des Mongols de la Perse: Rachid El Din*

وعمدنا هذا الكتاب بشيء كثير عن حصار بغداد على أيدي المغول . وبعد أوفي هذه المصادر وأهمها ، وقد قامت وزارة الثقافة والإرشاد القومي (ج . ع . م) على ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية .

(٤) وهناك مصدر آخر لا يقل أهمية عن المصادر السابقة هو كتاب تجرئة الأمصار أو «تاريخي وصاب» الذي كتبه بالفارسية عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف الحضرة ومؤرخ حياة غازان (٦٩٤ — ٧٠٣ / ١٢٩٥ — ١٣٠٤) ، أشهر إيلخانات المغول في فارس . وقد ولد ابن فضل الله سنة ٦٦٣ هـ ، أي بعد حصار بغداد بسبع سنين ، ولا يبعد أن يكون قد أخذ من المؤرخين الذين شهدوا حصار مدينة بغداد على يد هولاكو (٢) .

وهناك مصادر أوربية حديثة تمدنا بتفاصيل وافية عن تاريخ المغول نذكر منها ثلاثة تعتبر أحسنها وأدقها وهي :

(١) وقد طبع هذا الكتاب في سلسلة «جيب» التذكارية .

(٢) راجع مقال الأستاذ براون عن هذا الكتاب في المجلة الآسيوية الملكية بإنجلترا .
J. R. A. S., vol. XL, pp. 17—37.

(١) كتاب *Histoire des Mongols (Tamerlan)* تأليف البارون «دوسون». ويتناول هذا الكتاب تاريخ المغول من عهد چنكيزخان إلى عهد تيمورلنك. وقد طبع في أربعة أجزاء استقصى فيها المؤلف تاريخ المغول معتمداً على أحسن المصادر العربية والفارسية كما حدثنا في مقدمة الجزء الأول من كتابه^(١).

ويقول «دوسون» إنه كان لغارات المغول آثار بعيدة، وإن حكومتهم كانت انتصاراً للفساد وانحطاط الخلق، وتاريخهم يتميز بطابع الوحشية والقوة والبشاعة واضطهاد الشعوب وابتزاز الأموال^(٢).

(٢) كتاب *History of the Mongols* (تاريخ المغول)، تأليف سير هنري هوورث Sir Henry Howorth، وهو في ثلاثة أجزاء، يتألف الجزء الثاني منها على المجلدين الثاني والثالث، ويتناول الجزء الثالث (الذي يكون المجلد الرابع من الكتاب) الكلام على دولة المغول في فارس (لندن ١٨٧٦ — ١٨٨٨)^(٣).

ويختلف رأى «هوورث» عن رأى «دوسون» في المغول، ويرى أنه لم يكن بد من القضاء على الترف والفساد اللذين سادا في ذلك العصر حتى يتكون جيل جديد يقوم على الفضيلة. ويشبه هوورث المغول بالمعاول التي قوضت هذا الفساد، ويقول إن الفتوحات المغولية قد أدت إلى اتصال أمم الشرق والغرب، وإن الطباعة والبوصلة البحرية والأسلحة النارية وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية قد انتقلت إلى أوروبا بتأثير هذه الغارات.

(٣) والمصدر الثالث الذى يسترعى الانتباه وعلى الأخص من حيث تأثيره فى تركيا ونشوء الحركة الطورانية (Pan Turanian Movement) فهو كتاب «مقدمة لتاريخ آسيا والأناضول والمغول إلى سنة ١٤٠٥ م» لمؤلفه «كاهون»^(٤).

ويذهب هذا المؤلف إلى أبعد مما ذهب إليه «هوورث» فى إعجابه بالمغول وتمجيده لسلوك الشعوب التركية وإطرائه صفاتهم الحربية، وما أدوه من خدمات للإنسانية، وتضامنهم السياسى ووقوفهم فى وجه آل ساسان من الفرس وفى وجه النفوذ الإسلامى

(١) دوسون ج ٢ ص ١٠ — ٦٨.

(٢) نفس المصدر ص ٧ — ٨.

(٣) Howorth, *History of the Mongols*, vol. II, pp. 10—11.

(٤) Cahun, pp. 9, 79.

(٤)

في فارس . ويقول « كاهون » عن المغول أنهم قوم شجعان أفوياء كرماء ، ويعجب بنظامهم الإداري الدقيق وانعدام روح التعصب الديني فيهم .

كذلك يقول « كاهون » إن الحركة الطورانية من الناحية الأدبية ترمى إلى تفضيل الكلمات والتعبيرات والاصطلاحات التركية على العربية والفارسية ، على حين أنها تهدف من الناحية السياسية إلى مزج جميع الشعوب التركية التي تقطن شرقي بحر قزوين وغربيه (ويدخل في ذلك المغول والتتار) وانضواء هؤلاء جميعاً تحت لواء دولة واحدة ، ثم إلى إقامة إمبراطورية تركية أو طورانية تشبه الإمبراطورية التي قامت على يد چنكيزخان . ولهذا نجد الأتراك في القرن العشرين يستمدون آراءهم من هذا الكتاب لدعم حركتهم الطورانية .^(١)

(٤) أضف إلى ذلك ما ورد عن المغول في المصادر الأخرى ، نخص بالذكر منها ما كتبه سير توماس أرنولد Thomas W. Arnold في كتابه « الدعوة إلى الإسلام »^(٢) (لندن ١٩٣٥) عن انتشار الإسلام بين التتار والمغول في فارس والهند وأوربا ، وما كتبه إدوارد براون Edward E. Browne في كتابه تاريخ الأدب في إيران A Literary History of Persia, Vols. II and III. وهناك طائفة أخرى من المؤرخين كتبوا عن المغول في فارس وبخاصة في عصر تيمور من أمثال :

(١) شرف الدين علي يزدى الذي ألف كتابه « ظفر نامه »^(٣) (طبع في كلكتا في جزأين في مجموعة المكتبة الهندية) Bibliotheca Indica. (١٨٨٧ — ١٨٨٨) ويقع في نحو ١٥٦٠ صفحة .

وقد ألف شرف الدين علي يزدى كتابه بأسلوب منمق الالفاظ يمتاز بشيء كثير من الملق والرياء ، ولا غرو فقد أسرف في مدح تيمور الذي وضع كتابه تحت رعايته . وقد ترجم Mercier de la Petit Croix هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية .

(٢) على أننا نرى من ناحية أخرى مؤرخاً آخر وضع كتاباً في أخبار تيمور هو كتاب « عجائب المقدور في أخبار تيمور » لآحمد بن عربشاه الذي كتب كتابه في لهجة

(١) المصدر نفسه ص ١١١ — ١١٨ .

(٢) الترجمة العربية : الحسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل محمود النجراوى (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧) .

(٣) وليدن ١٨٣٦ م ، والقاهرة ١٢٨٥ هـ .

شديدة ، ووصف هذا الفاتح العظيم بعبارات مثل « هذا الخائن » و « هذا المجرم » و « هذا الكلب المجنون » . ويقول الأستاذ براون (ج ٣ ص ١٨١) : « ولكن لهجة التملق التي انتهجها شرف الدين على يزيدى أقل مغالاة من قذف ابن عربشاه ، لأنه لم يستطع إنكار مذابح تيمور وأهرامه من الجماجم » .

(٣) وهناك كتاب تاريخ فارس تأليف سيرجون مالكولم^(١) الذى يقول إن قائداً كتيهور أصبح معبود جنده .

ومن كتب فى تاريخ المغول ستانلى لينبول فى كتابه « الدول الإسلامية » ، وفى كتابه « تاريخ أباطرة المغول فى الهند » ، وما كتبه عن أورانبج فى كتابه « حكام الهند » ، وما كتبه أيضاً لى سترينج فى كتابه « بغداد فى عصر الخلافة العباسية » وبارتولد فى كتابه « هولاءكو — بغداد » فى دائرة المعارف الإسلامية .

وكتاب « مختصر تاريخ الهند » هو موجز « كتاب كيمبريدج فى تاريخ الهند » ، ويقع فى ستة أجزاء ، وهذه الكتب كلها بالإنجليزية كما سيتضح عند ذكرها فى مصادر الكتاب . ويتناول الجزء الثالث من هذا الكتاب الكلام على تاريخ الهند الإسلامية ، ويتناول الجزء الرابع منه الكلام على إمبراطورية المغول فى الهند .

وهناك كتاب ظهر حديثاً عن تاريخ المغول فى الهند هو كتاب « الإمبراطورية المغولية فى الهند » ، وما كتبه السيدة « بيشريدج » عن حياة أكبر خان أعظم أباطرة المغول فى الهند .

(ح) مصادر تاريخ الفاطميين والدُّبُوبِيِّين

ومن الكتب التى ألفها ابن زولاق فى تاريخ مصر سيركافور وجوهر والمعرز والعزير . بيد أن معظم تصانيف ابن زولاق قد تلاشت لسوء الحظ ، ولا يعرف عنها شئ الآن إلا ما أخذه منها غيره من الكتاب الذين جاءوا بعده ، وتصانيف ابن زولاق التى بقيت إلى اليوم هى :

١ — تاريخ مصر .

٢ — سيرة الإخشيد المسماة « العيون الدعج فى حلى دولة بنى طنج » التى نقلها ابن سعيد فى كتاب « المغرب فى حلى المغرب » .

٣ — كتاب فضائل مصر (وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس) ، وهو مختصر لهذا السفر الكبير الذى ألفه صاحبه عن تاريخ مصر .

ومن مؤلفات العصر الفاطمى كتاب « الديارات » لآبى الحسن على الشاشى (ت ٣٨٨ هـ) (برلين مخطوط فيمار رقم ١١٠٠) . وهناك كتاب آخر هو كتاب « كنائس وأديرة مصر » لآبى صالح الارمنى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ . وقد ألفه عقب غزو الأكراد والغز هذه البلاد بقيادة شيركوه . وقد كتب أبو صالح جزءاً لا يستهان به من مؤلفه ، اعتمد فيه على ما سمعه ورآه بنفسه فى زيارته للكنائس والأديرة فى القاهرة وضواحيها . والكتاب حافل بأمثلة كثيرة عن الخيرات التى أغدقها الخلفاء الفاطميون وكبار الموظفين من المسلمين على القبط وهم مسيحيو مصر (طبعة وترجمة أ . ت . ايفتس ، اكسفورد ١٨٩٥) .

وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسبحى (ت ٤٢٠ هـ) الذى كتب عن مصر كتاباً مسهباً هو « تاريخ مصر » يقع فى ستة وعشرين ألف صفحة ، ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعون بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا ، وهو واحد من جملة تصانيفه التى بلغت الثلاثين ولم يعد لها الآن وجود اللهم إلا فى هذه المقتبسات التى نجدها فى المصادر الأخرى . وكان المسبحى رجلاً فضلاً وعلم ، وكان على زى الاجناد : اتصل بخدمة الخليفة الفاطمى الحاكم (٣٨٦ — ٤١١ هـ) ، وتقلد فى عهده القيس والبهنسا من أعمال الصعيد . ثم تقلد ديوان الترتيب ، وهو المكان الذى تنظم فيه الروائب وتدفع لمستحقها . وقد ذكر تصانيف المسبحى من جاء بعده من المؤرخين ، كابن منجب ، وابن ميسر ، وابن خلكان ، والمقرئى ، وأبى المحاسن ، والسيوطى .

وبما نأسف له أشد الأسف ضياع مؤلفات القضاعى (ت ٤٥٤ / ١٠٦٢ هـ) ، ومن بينها كتاب « عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف » ، وهو مختصر كتاب « الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطمين » . وهذا الكتاب مخطوط فى المكتبة الأهلية بباريس ، وهو عبارة عن خلاصة الكتاب الاصل الذى لعبت به يد الضياع . أما مؤلفات القضاعى فقد عددها ابن خلكان (وفیات الاعيان ج ١ ص ٥٨٥) ، فذكر منها كتاب « مناقب الإمام الشافعى » وكتاب « تواريخ

الخلفاء» وكتاب «خطط مصر». ويظهر أن المقرئ نقل هذا الكتاب برمته، وأودعه كتابه الذي يعرف باسم كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار». والقضاعي حجة في تاريخ المصدر الأول من أيام الفاطميين، وكان من كتاب البلاط، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرجاني يعهد إليه في أن يكتب العلامة أو الإشارة التي يذيل بها الأوراق الرسمية لإعطائها الصفة الرسمية، وتشمل هذه الكلمات: «الحمد لله شكرًا لنعمته».

ومن مؤرخي العصر الفاطمي ابن أبي طي (ت ٦٣٠/١٢٣٢ - ١٢٣٣). واسمه يحيى بن حميدة (أو حافظ)، ويرجع أصله إلى حلب، وقد طرده نور الدين محمود لخروجه في آرائه على الدين، وربما كان ذلك لاعتناقه العقائد الشيعية، وقد اعتنق ابنه يحيى هذه العقائد. يؤيد ذلك كتاباه «معجم شعراء الشيعة» و«رسالة في فضل الأئمة الاثنا عشرية»^(١). وقد وضع حاجي خليفة ووستنفلد ترجمة ابن أبي طي لحياة صلاح الدين في تناول أيدينا. ومن مؤلفات ابن أبي طي «شرح لامية العرب» للشنفرى (بكسر الشين مع التشديد وسكون النون وفتح الفاء والراء).

ومن مؤرخي هذا العصر أيضاً: «أبو عبد الله القرطبي»^(٢). ويرجع نسبه إلى عمار ابن ياسر الصحابي، وكان مولعاً بالتاريخ. وقد رحل إلى بلاد اليمن والهند، وصنف كتاب «تاريخ مصر» في عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. وقد وقف عليه ابن سعيد واستعاره من رجل كان هذا الكتاب في حوزته، وقيد منه بعض ما أودع كتابه «المغرب في حلى المغرب». والقرطبي المؤرخ من أحفاد محمد بن جعفر القرطبي. وكان معاصراً للإخشيديين في مصر، وقد قلده مؤنس الحسبة في مصر، ثم قلده الخراج (ابن سعيد: المعجب ص ٨ - ٩)، ثم تقلد خراج مصر والشام في عهد ولاية تكيين الثانية الذي ولى مصر ثلاث مرات (٢٩٧ - ٣٠٣، ٣٠٧ - ٣٠٩، ٣١١ هـ). انظر كتاب تاريخ الدولة الفاطمية للمؤلف ص ٥١٧ - ٥١٨). وكتاب «ذيل تاريخ دمشق» لأبي يعلى حمزة بن القلانسي (ت ٥٥٥ - ١١٦٠) (بيروت ١٩٠٨) مصحوب

(١) راجع حاجي خليفة رقم ١٠٩٤ ووستنفلد رقم ٣١٥.

(٢) راجع القاموس المحيط وكتاب الأنساب للسماعاني. وهذا اللفظ منسوب إلى القرطبي الذي يعلق في الأذن، أو إلى قروط ويطلق هذا الاسم على أنفاز بني كلاب لإخوة قرط وقريط وقريط. والقرطبي المؤرخ مشتق اسمه من القرط الذي تأكله الدواب.

بشذرات من تواريخ ابن الفارقي وسبط بن الجوزي والذهبي . وبعد بثابة ذيل لتاريخ هلال الصابي ، وهو ذو أهمية خاصة لاستقصاء بحث تاريخ الفاطميين . ويظهر أن ابن القلانسي نقل كتاب أبي شجاع وكتاب هلال .

ويجب أن نشير في هذا المقام إلى ما كتبه عمارة البني (ت ٥٦٩ / ١١٧٤) وأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ / ١١٨٨) . فقد شاهد كل منهما بنفسه ما وقع في مصر من الحوادث في أواخر أيام الفاطميين ، والدور الذي قام به الشعراء في نشر الدعوة الفاطمية . ذلك أن عمارة كان شاعراً نابه الذكر بين شعراء البلاط في عهد الخليفة الفائز والخليفة العاضد ، وهما آخر من تولى عرش مصر من الفاطميين ، وقد أمدنا عمارة في ديوانه المسمى « النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية » (باريس ١٨٩٧ م) ، بمعلومات ذات غناء عن هذين الخليفين وعن الوزراء وغيرهم من عليّة القوم الذين رتع عمارة في بحبوحة كرمهم وفسيح عطفهم . ولا غرو فقد أنحفنا عمارة بمعلومات صحيحة عن الدور الذي لعبه الشعراء في نشر تعاليم الفاطميين ومعتقداتهم ، وكذلك عن سقوط الدولة الفاطمية (نشر هذا الكتاب ديرانبور ، باريس ١٩٠٩) .

أما أسامة بن منقذ فقد كان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلماهم وشجعانهم . وله تصانيف عدة في فنون الأدب . رحل عن بغداد كمعظم شعراء عصره يريد مصر ، فأقام فيها مؤمراً إلى أيام الوزير الصالح بن رزّيك سنة ٥٤٩ هـ ، ثم عاد إلى الشام . وأخبار أسامة جليلة الخطر ، لأنه شاهد بنفسه حال مصر في زمنه وما وقع فيها من الحوادث التي تتعلق بسقوط الخلافة الفاطمية — وقد ألف كتابه الاعتبار أو حياة أسامة (باريس ١٨٨٩) .

ومن مؤرخي مصر الإسلامية ابن ميسر^(١) (ت ٦٧٧ / ١٢٧٨) الذي ألف كتابه « أخبار مصر » ، ولم يصل إلينا من هذا الكتاب إلا الجزء الثاني الذي تناول فيه السلام على تاريخ مصر من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٥٣ هـ .

ومن المصادر الحديثة كتاب « تاريخ الدولة الفاطمية » لحسن إبراهيم حسن (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤) وكتاب كنوز الفاطميين لركي محمد حسن (القاهرة ١٩٣٧) وكتاب « موجز تاريخ الخلافة الفاطمية » تأليف « دي ليسى أوليري » وكتاب « De Sacy, Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols. (Paris, 1838)

(١) طبعة هنري ماسيه (القاهرة ١٩١٩) .

ومن فلاسفة الإسماعيلية أولاد إسماعيل بن جعفر الذين ينسب إليهم الفاطميون أبو حاتم الرازي (ت ٣٢٢ هـ) ، ويسميه الإسماعيلية سيدنا أبا حاتم . وكان داعي الإسماعيلية في بلاد الري ، ويمثل نشاط الدعوة الفاطمية في عهد إمامة عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين وخلافته . وقد لعب أبو حاتم دوراً عظيماً في الشؤون السياسية في طبرستان والديلم ، ولا سيما في أصفهان والري ، حتى استجاب له جماعة من كبار رجال الدولة . وكان لجهود أبي حاتم أثر كبير في اتصال مرداويج بن زيار الديلمي بعبيد الله المهدي الفاطمي في المغرب . ومن مؤلفات أبي حاتم الرازي كتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، نشره سامي النشار (القاهرة ١٩٣٩) .

ومن فلاسفة الإسماعيلية أيضاً أبو عبد الله النسفي (ت ٣٣١ هـ) الذي تقرب إلى كبار القواد في حكومة نصر بن أحمد الساماني واستطاع أن يجذب إلى الإسماعيلية كثيرين من أهالي خراسان ، وعبر نهر جيحون واتجه إلى بخارى حيث نجح نجاحاً عظيماً في تحويل كثير من كبار رجالها إلى المذهب الإسماعيلي ، وقد رحب الأمير نصر بن أحمد الساماني بمبادئ الإسماعيلية في عهد عبيد الله المهدي . ولكن قواد الأمير نصر من السفين دبروا مؤامرة للتخلص منه لانضمامه إلى المذهب الإسماعيلي ، فخلع نصر نفسه وتولى بعده ابنه نوح الذي عمل على مطاردة الإسماعيلية في بلاده بعد أن قتل النسفي .

وقد ذاعت شهرة النسفي في عالم الأدب وفي فلسفة المذهب الإسماعيلي . ومن أشهر مؤلفاته « كتاب المحصول » وكتاب « عنوان الدين » وكتاب « أصول الشرع » وكتاب « الدعوة المنجية » .

ومن أشهر علماء المذهب الإسماعيلي ودعاته : أبو يعقوب السجزي (ت ٣٣١ هـ) ، وكان اليد اليمنى للداعي النسفي ، وقام بقسط كبير من النهوض بفلسفة المذهب الإسماعيلي . ولأبي يعقوب السجزي مؤلفات كثيرة كان لها أثر كبير في نهضة الفكر الإسلامي بوجه عام وفي فلسفة المذهب الإسماعيلي بوجه خاص . ومن أهم مؤلفاته كتاب « إثبات النبوة » ، وينقسم إلى سبع مقالات أو أبواب ، وتنقسم كل مقالة إلى اثني عشر فصلاً ، وكتاب « الينابيع » وهو في حوزة البهرة من الإسماعيلية في بمباي في الهند .

هؤلاء هم أشهر دعاة الإسماعيلية في بلاد المشرق . أما دعاة في المغرب فنذكر منهم أبا حنيفة النعمان المغربي (ت ٣٦٣ هـ) ، ويسميه الإسماعيلية « سيدنا القاضي النعمان » ليميزوا بينه وبين أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي المشهور . وقد عاصر

أبو حنيفة الفاطميين في المغرب وطاصر عبيد الله المهدي والقائم والمنصور والمعز ، واتخذ المنصور والمعز قاضياً لها . وبعد أبو حنيفة من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية . وقد أفادت هذه الدعوة من كثرة مؤلفات أبي حنيفة في الفقه الإسماعيلي ، وقد ألف بضعة وأربعين كتاباً .

وأهم هذه الكتب كتاب « دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام » ، ويتناول الكلام على فقه الإسماعيلية ، ويقع في مجلدين ضخمين ، يشتمل كل منهما على سبعمائة صفحة ، ويعتز به البهرة في اليمن والهند . وقد أطب الدعاة المتأخرون في وصف هذا الكتاب ، فذكره حميد الدين الكرمانى داعى دعاة الخليفة الفاطمى الحاكم في فارس في كتابه « راحة العقل » وأشاد به حتى جعله في المرتبة التى تكلى القرآن والحديث .

وقد ترك أبو حنيفة النعمان المغربى في مؤلفاته الرائعة الكثيرة ثروة ثمينة . وعلى الرغم من ضياع كثير من مؤلفاته لا يزال أكثر ما بقى منها في حوزة البهرة في الهند . وقد أفاد الإسماعيلية كثيراً من هذه المؤلفات . ولنلق الآن نظرة على كتابى النعمان القيمين وهما :

١ — كتاب « المجالس والمساربات » ، وبعد أهم ما كتب في وصف حياة الخلفاء الفاطميين في الدور المغربى ، فقد تناول أبو حنيفة في مؤلفه حياة الخلفاء الفاطميين الأربعة وهم : المهدي والقائم والمنصور والمعز خاصة . ومن هذا الكتاب نستطيع أن نقف على حياة الخلفاء الخاصة وعلى وصف قصورهم وأوقات فراغهم . وقد أمدنا هذا الكتاب بوثائق ذات قيمة تاريخية كبيرة عن نظام الحكم في عهد المعز : فن نصائح يسديها المعز للولاة والحكام والقضاة ، إلى استقصاء أحكام الأئمة من أهل البيت مثل جعفر الصادق وأبيه محمد الباقر وجدهما على بن أبى طالب إلى غير ذلك . كما يتناول هذا الكتاب الكلام على علاقة المعز بالأمويين في الأندلس ، وعلى الحملات البحرية التى شنّها المعز على عبد الرحمن الثالث الناصر الأموى فى الأندلس وخلفائه . وتعتبر الرسائل التى تبودلت بين الفريقين من أحسن ما كتب فى الأدب والمنطق ، وتصور الصراع الذى قام بين الفاطميين والبيزنطيين تصويراً رائعاً . وصفوة القول أن هذا الكتاب مرآة صادقة للأدب الإسماعيلي والعقائد الإسماعيلية ، ولا يستغنى عنه الباحثون فى تاريخ الفاطميين فى الدور المغربى بوجه عام وفى عهد المعز بوجه خاص .

٢ — أما كتاب ، الهمة وفضل الأئمة ، فيشكلون من جزأين يشغل كل منهما ستاً وأربعين صفحة ، وقد قسم المؤلف القسم الأول إلى ثمانية فصول والقسم الثاني إلى أحد عشر فصلاً . وترجع أهمية هذا الكتاب الذي عثر عليه سنة ١٩٣٤ إلى أنه من أقدم المراجع التي تمثل الأدب الإسماعيلي في عصوره الأولى أصدق تمثيل ، كما يعد من أقدم كتب الإسماعيلية التي وضعت بقصد تربية أفراد هذه الطائفة وتدريبهم على التفاني في الإخلاص لمبادئها .

ويتناول هذا الكتاب بقسميه الحدود الدينية ، وبيتم مؤلفه اهتماماً خاصاً بشرح واجبات الأنبا نحو رؤسائهم المباشرين وهم الدعاة ونحو الأئمة ، كما يعني بشرح واجبات المستجيبين بعضهم نحو بعض ، ويرسم لهم الخطط التي يجب عليهم أن يسلكوها في حياتهم . ويعد كتاب الهمة من أهم وأقدم كتب الاشتراع المالي عند الإسماعيلية . وقد اهتم أبو حنيفة النعمان اهتماماً بالغاً بتحديد العلاقة بين الدعاة ومستجيبهم من جهة وبينهم وبين الأئمة من جهة أخرى ، فوضع الخطوط الرئيسية التي يجب على الدعاة أن يسلكوها في جذب الأشبايع ، وحثهم على التجميل بالصفات الطيبة ، كالورع والتقوى والصلاح والعفاف لكي يكون تأثيرهم في النفوس كبيراً ، وبذلك يجعل الداعي من نفسه للبريدين أباً وأخاً ومعلماً ، وقاضياً نزيها يحكم بين المستجيبين بالقسطاس المستقيم .

ومن دعاة الإسماعيلية جعفر بن منصور البين الذي اشتهر منذ نعومة أظفاره بحب الفاطميين . وقد قصد بلاد العرب سنة ٣٢٢ هـ وتمتع بمركز رفيع في الدولة الفاطمية . وكان موضع تقدير القائم والمنصور ، كما نال تقدير المعز ، حتى اتخذ « باب أبوابه » في مصر ، وهي أعلى من رتبة قاضي القضاة . ولا غرو فقد ضرب جعفر بأوفر سهم في التأويل الإسماعيلي وترك كثيراً من الآثار العلمية التي لا تزال عند البهرة إلى اليوم . ومن أهم كتبه كتاب « تأويل الزكاة » وهو بمكتبة الجامعة بليدن . ولجعفر بن منصور البين أيضاً كتاب « سرائر النطقاء » وكتاب « أسرار النطقاء » وكتاب « الشواهد والبيان » المحفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

ويعد كتاب « أسرار النطقاء » من أقدم مصادر الإسماعيلية ومن أهم الكتب التي ألقت للدفاع عن المذهب الإسماعيلي وأنصاره ، كما يعد من أحسن الكتب التي تمثل الأدب الإسماعيلي القديم أصدق تمثيل . وقد بحث هذا المؤلف تاريخ الأئمة العلويين الذين سبقوا إسماعيل بن جعفر الصادق بحثاً دقيقاً . ولهذا يعد كتابه « أسرار النطقاء » من أحسن

المراجع في تاريخ الأئمة من علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق . كما يتناول هذا الكتاب بعض المبادئ الشيعية . من ذلك نظرية « الغيبة » أى إختفاء الإمام ونظرية « الإمام الصامت » . ويقصد بذلك أن لكل نبي عند الإسماعيلية إماما يعاصره ويأخذ عنه ويشرح شريعته ، ويسمونه الأساس ، أى أساس النطق . ويتبع هذا الأساس ستة أئمة بالتوالى ، يسمى كل منهم « الصامت » . وعندما أن علي بن أبي طالب أساس ، ومن جاء بعده من الأئمة حتى جعفر الصادق أئمة صامتون . فعلى زين العابدين وجعفر الصادق أئمة صامتون .

ومن فلاسفة الإسماعيلية حميد الدين الكرمانى (ت ٤٠٨ هـ) ، وكان من دعاة الفاطميين . في عهد الخليفة الحاكم ، ويلقب بحجة العراقيين ، وكبير دعاة الإسماعيلية في العراق . وقد ألف الكرمانى في الرد على الدرزية رسالة سميت « الرسالة الواعظة » يرى فيها الحاكم من ادعائه الألوهية . وقد ألف طائفة من المؤلفات عرض فيها لكثير من المشكلات الفلسفية ، ومزج تعاليم الإسماعيلية بعلوم الشرع والمعارف الفلسفية الأخرى مما يشهد برسوخ قدمه وعلو كعبه في العلم وتضلعه في فقه الدعوة .

ومن أشهر كتب الكرمانى كتاب « راحة العقل » (نشره الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلى) ، و « الرسالة الواعظة في نفي دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله » (فصلة من مجلة كلية الآداب ، المجلد الرابع عشر مايو ١٩٥٢ ، نشره الدكتور محمد كامل حسين) .

ومن أشهر فلاسفة المذهب الإسماعيلي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازى (ت ٤٧٠ هـ) . وقد انحدر من أسرة اتخذت التشيع لها مذهباً . فكان أبوه داعياً للمذهب الفاطمى بشيراز . وقد راسل الخليفة الحاكم الفاطمى ، واتصل بالسلطان أبى كاليبجار البويهى وكسب عطفه واستطاع أن ينشر المذهب الإسماعيلي في شيراز . ودخل أبى كاليبجار في الدعوة الفاطمية وأخذ يجتمع بالمؤيد مساء كل خميس للاستزادة من فهم المذهب الإسماعيلي . ثم رحل المؤيد إلى مصر سنة ٤٣٩ هـ في عهد الخليفة المستنصر الفاطمى وتقلد ديوان الإنشاء ، وحث البساسيرى على دخول بغداد وإقامة الدعوة الإسماعيلية للخليفة المستنصر الفاطمى . ولكن البساسيرى لم يلبث أن تفرقت جموعه وطرده طغرل بك السلجوقى من بغداد سنة ٤٥٩ هـ . بيد أن الخليفة الفاطمى قدر جهود المؤيد في الدين وأسند إليه رئاسة الدعوة الفاطمية وأصبح داعى الدعوة سنة ٤٥١ هـ .

وكان المؤيد بارعاً في الكتابة بالعربية والفارسية وخلف عدداً كبيراً من الكتب

لا زالت تعد من أمهات كتب الإسماعيلية إلى اليوم . ومن المؤلفات التي تنسب إلى المؤيد كتاب « المجالس المؤيدية » ، و « ديوان المؤيد » (نشره الدكتور محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩) ويصور عقائد الفاطميين تصويراً تاماً ، و « السيرة المؤيدية » (مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٥٦) . ومن أهم آثار المؤيد التي تكشف عن تعمقه في فلسفة الدعوة الإسماعيلية كتاب « المجالس المؤيدية » ، وهو مجموعة محاضرات ألقاها في مجالس الدعوة شرح فيها عقائد المذهب الفاطمي .

وينبغي أن نشير في هذا المقام إلى كتاب « تاريخ الدولة الفاطمية » للدكتور حسن إبراهيم حسن ، ويقع في نحو سبعمائة وخمسين صفحة ، ويتناول بحث تاريخ هذه الدولة في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب (الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤) .

من المصادر التي يعتمد عليها في دراسة عصر الأيوبيين كتاب « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » لعبد اللطيف البغدادي (ت ١٢٣١/٦٢٩) ، وكتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » لابن شداد (ت ١٢٣٤/٦٣٢)^(١) ، وهو من أنفس ما كتب عن حياة صلاح الدين ، وكتاب « الروضتين في أخبار الدولتين » لأبي شامة (ت ١٢٦٧/٦٦٥ هـ)^(٢) ، ويتضمن أخبار مصر والشام في عهد نور الدين محمود صاحب دمشق وصلاح الدين الأيوبي سلطان مصر . وقد استقى أبو شامة أخباره من الوثائق الرسمية في الكتب التي ألفها القاضي الفاضل (ت ١١٩٩/٥٩٦ هـ) وعماد الدين الأصفهاني (ت ١٢٠١/٥٩٧ هـ) وابن شداد (ت ١٢٣٤/٦٣٢ هـ) (القاهرة ١٢٨٧ هـ) .

ومن الكتب التي تناولت الكلام على هذا العصر كتاب « مفرج الكروب في أخبار بني أبوب » (في جزئين ، القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٧) لجمال الدين بن واصل (ت ٦٩٧ هـ) . وهذا الكتاب يعدنا بحقائق تاريخية عن الأعمال الدينية والسياسية التي قام بها الفاطميون في مصر ، كما يعتمد عليه في دراسة تاريخ الدولة الأيوبية وعصر المماليك إلى سنة ٦٨١ هـ .

(١) مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ، المؤرخون المشرقون ، المجلد الثالث .

(٢) المصدر نفسه المجلد الثالث .

(د) مصادر المغرب والأندلس :

١ — البكري (ت ٤٨٧ / ١٠٩٧) : أبو عبيد

« كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » (طبعة دى سنان باريس ١٩١١)

٢ — المراكشي (ت ٦٦٩ / ١٢٧٠) : عبد الواحد بن علي

يعتبر عبد الواحد بن علي المراكشي من أشهر المؤرخين الذين تناولوا تاريخ المغرب والأندلس من فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ إلى ما قبل نهاية عصر الموحدين (٦٦٩ هـ) بسنتين . ويمتاز كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » (القاهرة ١٩٤٩) بأنه جمع أخبار الشعراء وأعيان الكتاب والعلماء والفلاسفة الذين ظهروا في هذه البلاد في العصور التي تناولها المؤلف . كما يمتاز كتاب المعجب بأسلوبه الرائق ؛ فهو مؤرخ وأديب في آن واحد .

ولد عبد الواحد المراكشي بمدينة مراکش التي بناها يوسف بن تاشفين أعظم أمراء المرابطين في شهر ربيع الثاني سنة ٥٨١ هـ ، وذلك في مستهل حكم أبي يوسف يعقوب (المنصور) بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الموحدي^(١) . ولما بلغ عبد الواحد التاسعة من عمره رحل مع أبيه إلى مدينة فاس حيث قرأ القرآن وجوده . ولما أنهى دراسته عاد إلى مدينة مراکش ، وأخذ يتردد بينها وبين مدينة فاس .

وفي سنة ٥٩٥ هـ التقى عبد الواحد المراكشي بالعالم المشهور أبي بكر بن زهر (بضم الزاي وسكون الواو) وبالفيلسوف ابن طفيل (بضم الطاء وكسر الفاء) . ثم رحل إلى الأندلس وأخذ العلم على كبار علمائه . ولما حل بمدينة إشبيلية قدمه صديق له يسمى محمد ابن الفضل إلى صاحب المدينة الأمير ابراهيم بن أبي يعقوب المنصور أخى الخليفة الموحدي الناصر بن يعقوب المنصور ، وأصبح عبد الواحد من خواصه المقربين ، كما اتصل بكبار رجال الدولة في المغرب والأندلس^(٢) .

(١) المراكشي : المعجب (القاهرة ١٩٤٩) ص ٣٦٠

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٨

عاد عبد الواحد إلى مدينة مراکش سنة ٦١٠ هـ ، ولكنه لم يطمح له المقام بالمغرب ، فغادر البحر ثانية إلى الأندلس حيث أقام في كنف الأمير إبراهيم صاحب إشبيلية . وفي سنة ٦١٤ هـ ترك عبد الواحد المغرب والأندلس ميمما شطر المشرق ، وكان إذ ذاك في الثانية والثلاثين من عمره . ولسنا ندرى العوامل التي دفعته إلى ترك بلاده والمسير إلى مصر في غضون سنة ٦١٩ هـ^(١) . وكانت حياته قلقة مضطربة كلها حنين وشكوى وضيق ، إذ يقول في مقدمة كتابه المعجب^(٢) : « . . . والوجه الثالث أن محفوظاتي في هذا الوقت^(٣) على غاية الاختلال والتشتت أوجب ذلك هموم تزدهم على الخاطر وغموض تستغرق الفكر » .

وقضى عبد الواحد بمصر سنين ، ثم غادرها إلى الحجاز ، ثم إلى الشام ، ثم إلى بغداد . ثم بسم له الدهر غطى بعطف وزير الخليفة الناصر العباسي . وقد عبر عبد الواحد عن سروره مخاطبا الوزير العباسي بقوله : « أيها السيد الذي توالى عليّ نعمته وأخذ بضميّ^(٤) من حفيضي الفقر والخول اعتناؤه وكرمه ، وقضى إحسانه إليّ ومحبه التي جبلت عليها بأن ألزم من بره وطاعته ما أنا ملتزمه »^(٥) .

وقد عهد ذلك الوزير إلى عبد الواحد المراكشي أن يؤلف كتابا في أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره وشيء من سير ملوكه ولاسيما ملوك المصامدة (يعني الموحدين) بنى عبد المؤمن من لدن ابتداء دولتهم . وقد لبى عبد الواحد نداء الوزير ، فألف كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ، وانتهى من تأليفه في شهر جمادى الآخرة سنة ٦٢١ هـ^(٦) .

وبما هو جدير بالملاحظة أن عبد الواحد المراكشي انتهى من وضع كتابه « المعجب » حيث لم تنته دولة الموحدين إلا في سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) . وكتاب « المعجب » من المصادر الأصلية في تاريخ المغرب . وترجع أهميته إلى أن

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٣

(٢) المصدر نفسه ص (٤)

(٣) يقصد الوقت الذي كان يؤلف فيه كتابه المعجب .

(٤) يسكون ثانياه العضد ويضمه الحيوان المعروف .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٣

(٦) المصدر نفسه ص ٣٣٦

مؤلفه ، فوق سعة إطلاعه وعلو مكانته في الأدب قد عاصر الأحداث التي كتب عنها .
أما ما كتبه عن أخبار المغرب والاندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدعوة الموحدية فقد
اعتمد على ما نقله من مؤلفات كثيرة نوه فيها بكتاب الحيرى الذى لا يراه بين أيدينا الآن^(١) .

٣ — ابن سعيد (ت ٦٧٣ / ١٢٧٥) : على بن موسى الغرناطى

* كتاب « المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق » (ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩)
(القاهرة ١٩٥٣) نشره زكى محمد حسن ، وشوقى ضيف ، وسيدة إسماعيل كاشف .

٤ — ابن القاضى : أحمد بن محمد المسكنسى

« جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس »

مخطوط رقم ج ١٢٤٢ (الرباط)

٥ — المالكى : أبو بكر عبد الله

« رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساکهم
وسير من أخبارهم » (القاهرة ١٩٥١) .

٦ — ابن عذارى (ت فى أواخر القرن السابع الهجرى) : أبو عبد الله محمد المراكشى

« البيان المغرب فى أخبار المغرب » ٣ أجزاء ، نشره « دوزى » (ليدن ١٨٤٨ —

١٨٥١) (باريس ١٩٣٠) .

٧ — ابن سيده (٤٥٨ / ١٠٦٥) : أبو الحسن على الاندلسى

« كتاب الخصاص » ٢٠ جزءا (بولاق ١٣٢١ هـ)

٨ — ابن بسلام (ت ٥٤٢ / ١١٤٧) : أبو الحسن على الششتينى

« الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » . نشرت الأجزاء الأربعة منه (القاهرة ١٣٥٨ —

١٣٦٤ / ١٩٣٩ — ١٩٤٥) .

٩ — الطرطوشى (ت ٥٢٠ / ١١٢٦) : أبو بكر

« سراج الملوك » (القاهرة ١٢٨٩ هـ)

(١) وقد نشره « دوزى » سنة ١٨٤٧ م ، ثم أعاد طبعه سنة ١٨٨١ م ، وترجمه فانيان Fagnan
إلى الفرنسية ونشرت ترجمته فى الجزائر سنة ١٨٩٣ ، كما طبعه الأستاذ محمد سعيد العريان سنة ١٩٤٩ .

١٠ — الخشنى : أبو عبد الله محمد بن الحارث

كتاب القضاة بقرطبة « نشره ريبيرا » Ribera (مدريد ١٩١٤)

١١ — ابن بشكوال (ت ٥٧٨ / ١١٨٢) : أبو القاسم خلف بن عبد الملك الأندلسي

« كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلماهم ومحدثهم وفقهائهم وأدبائهم » نشره عزت

القطار (القاهرة ١٣٧٤ / ١٩٥٥)

١٢ — ابن الأبار (ت ٦٥٩ / ١٢٦١) أبو عبد الله القضاى

« كتاب التكملة لكتاب الصلة » جزآن (مدريد ١٨٨٦) (القاهرة ١٣٧٥ / ١٩٥٦)

(٦) الجغرافيا :

ظهر في العصر السلجوقي كثير من الجغرافيين والرحالين . ومن أشهرهم :

١ — شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشارى المقدسى (ت ٣٨٧ / ٩٩٧) .

وكتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » الذى نشره دى غويه في مجموعة المكتبة

الجغرافية العربية (ليدن ١٨٧٧) ذو قيمة عظيمة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية .

٢ — أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (ت ٤٤٠ / ١٠٤٨) . وقد خلف لنا كتابه

« الآثار الباقية عن القرون الخالية » . ويتناول الكلام على نظم الطوائف والجماعات

في البلاد التى زارها وبخاصة طبرستان وخوارزم والهند . وقد ساعده اتصاله بعلماء البلاد التى

اختلف إليها وإمامه ببعض اللغات الأجنبية كالفارسية والعربية والسفسكرية على التبعثر

في كثير من العلوم كعلم الهيئة والنجوم والرياضة والجغرافية والتاريخ والعلوم الطبيعية .

وقد أفاد من رحلاته في الهند لجمع علومها ومذاهبها وعادات سكانها التى أودعها كتابه

« تاريخ الهند » .

٣ — ناصر خسرو (ت ٤٨١ / ١٠٠٨) . وقد خلف لنا كتابه « سفر نامه »

(أو زاد المسافر) . ويتضمن كثيرا من مشاهداته في فارس والعراق والحجاز والشام

وفي مصر التى زارها في عهد الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) وظل فيها

نحو سنتين (٧ صفر ٤٣٩ — ١٤ ذى الحجة ٤٤١ هـ) ووصف ثروة البلاد

الفاطمى وأهله .

وكان ناصر خسرو وزيراً في بلاط خراسان ثم اعتزل السياسة فخرج بيت الله وأصبح داعياً للإسماعيلية ، فاعتبر القاهرة حاضرة الفاطميين المركز الرئيسي للذهب الإسماعيلي الذي يدين بعقائده ، واعتقد أن الفاطميين هم الأئمة حقاً . وقد ألف ناصر خسرو كتابه بالفارسية وترجمه شارل شيفر إلى الفرنسية سنة ١٨٨١ م .

٤ — أبو عبيد محمد بن عبد العزيز البكري (ت ٤٨٧ / ١٠٩٧) . ويرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق . وقد ألف كتابه « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » (١) . وهو جزء من أجزاء الكتاب المعروف باسم كتاب المسالك والممالك . ولا غنى للطالب عن هذا الكتاب في دراسة تاريخ المغرب .

٥ — أبو الحسن محمد بن جبير (ت ٦١٤ / ١٢١٧) . ولد في بلنسية (٢) بالأندلس سنة ٥٣٩ هـ ثم استوطن غرناطة . وينتمي إلى معد بن عدنان . وقد تلقى ابن جبير العلم على أبيه وعلى ابن أبي العيش وكثير من علماء عصره ، وأفاد من علمه كثير من علماء المغرب ومصر . وكان ابن جبير على درجة كبيرة من الورع والدين . وقد عاصر الدولة الموحدية التي كانت تحكم بلاد المغرب والأندلس ، ثم سافر إلى المشرق ثلاث مرات ، حج في كل منها بيت الله بمكة . وقد بدأ رحلته الأولى في شهر شوال سنة ٥٧٨ هـ ، ثم عاد إلى غرناطة بعد سنتين . وقد صنف فيها ما شاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع المصانع . وهو كتاب تمتع بحجب المرء في زيارة هذه المعالم . ولما علم ابن جبير بفتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي قوى عزمه على القيام برحلته الثانية إلى المشرق (٥٨٥ هـ) . ثم عاد إلى غرناطة سنة ٥٨٧ هـ ثم رحل إلى سبته بالمغرب الأقصى وانصرف إلى الحديث والتصوف .

ولما ماتت زوجة ابن جبير (وهي عاتكة بنت الوزير أبي جعفر) عظم وجدده عليها فسكر في القيام برحلته الثالثة ، فخرج من مدينة سبته إلى مكة ، فبقى فيها فترة طلب فيها العلم ، ثم غادرها إلى بيت المقدس فإلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية حيث قام بتدريس الحديث حتى وافاه أجله سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ، ولم يترك لنا إلا حديثه عن الرحلة الأولى من هذه الرحلات الثلاث .

(١) طبعة دي سلان ، باريس ١٩١١ .

(٢) وقيل لأنه ولد بشاطبة .

وكان ابن جبير أديبا شاعرا ، مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصائد طويلة تشهد بطول بابه في الشعر والنثر ولاسيما الصوفي منها . وقد أشار الوزير^(١) لسان الدين بن الخطيب بعلم ابن جبير وفضله وعلو بابه في الفقه والحديث^(٢) .

٦ — شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ / ١٢٢٩) . وكان لأغريقى المولد ، ومن أجل ذلك سمي الرومى . أسر صغيرا وبيع لأحد تجار مدينة حماة ، ومن أجل ذلك نسب إليها فسمى الحموى . وقام مولاه بتعليمه وأوفده في تجارته إلى الخليج العربى وغيره . فحرت بينه وبين مولاه نبوة أدت إلى عتقه ، فعاش من نسخ الكتب وبيعها ؛ أى أنه احترف الوراقة كما كانت تسمى ، وأفاد من وراء هذه الصناعة بما تركه لنا من مؤلفاته النفيسة .

وقد نال ياقوت حظا وافرا من التعليم وجاب كثيرا من البلاد وأقام بمدينة مرو حاضرة خراسان وأفاد من مكتباتها الزاهرة حتى بدأت غزوات المغول فاضطر إلى الهرب إلى الموصل (٦٦٤ / ١٢٢٤) حيث أمم مؤلفه « معجم البلدان » . ومن مؤلفات ياقوت : ١ — كتاب « معجم البلدان »^(٣) . ويعتبر من أهم المراجع التى يعتمد عليها الباحثون فى كل ما يتعلق بجغرافية وتاريخ بلاد غربى آسيا .

٢ — كتاب « مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع » . وقد اختصره عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩ / ١٣٣٨)^(٤) . ٣ — إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب^(٥) .

٧ — عبد اللطيف موفق الدين أبو محمد الطيب البغدادى (ت ٦٢٩ / ١٢٣١) : كان كما يقول السيوطى^(٦) عالما بأصول الدين والنحو واللغة والطب والفلسفة والتاريخ . ولد ببغداد سنة ٥٥٧ هـ . وقد خلف لنا كتابيه :

-
- (١) انظر ما كتبه عنه الوزير لسان الدين بن الخطيب فى كتابه تاريخ غرناطة .
 (٢) وقد نشر وليام رايت أسفار ابن جبير (ليدن ١٨٨٢) وتعرف هذه الأسفار باسم رحلة ابن جبير . وقد ترجمه بروود هيرست إلى الإنجليزية (لندن ١٨٥٢) .
 (٣) نشره وستنفلد فى ستة أجزاء (١٨٦٦ — ١٨٧١) وطبع فى القاهرة فى ثمانية أجزاء (١٣٢٣ هـ)
 (٤) طبعة جوينبول فى أربعة أجزاء (لندن ١٨٥٣) .
 (٥) طبعة سلسلة ذكرى جب ، ٧ أجزاء (القاهرة ١٩٠٧ — ١٩١١)
 (٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٢ — ٢٣٣

١ — « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » .
وقد ترجمه دى ساسى إلى الفرنسية .

٢ — مختصر تاريخ مصر ، طبعة ج . هوايت (أكسفورد ١٨٠٠) .

٣ — شرح مقامات الحريرى .

٤ — الجامع الكبير في المنطق والطبيعى والإلهى ، ويقع في عشر مجلدات . وقد أقام
بمصر وتوفى ببغداد في ١٢ المحرم سنة ٦٢٩ هـ .

٨ — زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (ت ٦٨٢ / ١٢٨٣) ، ولد بمدينة قزوين
في إيران سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) وأقام فترة من حياته بمدينة دمشق وتولى القضاء في عهد
الخليفة المستعصم في واسط والحلة ، وقد خلف لنا القزوينى كتابيه « عجائب المخلوقات »
و « آثار البلاد » اللذين قام وستفولد على نشرهما في سنتي ١٨٤٨ و ١٨٤٩ .

١ — ويشتمل كتاب « عجائب المخلوقات » على بيان التقويم الشمسى والنجوم
والأجرام السماوية والحيوانات والنباتات والمعادن وكل ما يتعلق بالروحوش والحيوانات
الخرافية المختلفة .

٢ — ويشتمل كتاب « آثار البلاد » على كثير من المعلومات الجغرافية الهامة ، كما
يشتمل على كثير من الأخبار المتصلة بتراجم شعراء الفرس الذين انفصل بهم القزوينى ،
كالفردوسى وناصر خسرو وعمر الخيام وعنصرى ورشيد الدين الطواط .
على أن المعلومات الجغرافية التى وردت في كتاب « آثار البلاد » لا ترقى إلى المستوى
الذى بلغته المعلومات التى أوردها ياقوت الحموى وغيره من الجغرافيين المبكرين ، ولو أنها
تزخر بكثير من الأخبار الممتعة المسلية .

ومن الغريب أن هذا الكتاب لا يتعرض لذكر إنجلترا فيما دونه القزوينى عن الإقليم
السادس ، ولو أنه تعرض لإيرلندة ووصف في إيجاز صيد الحيتان ، كما وصف مدينة رومة
في شيء من الإسهاب . ولما تناول القزوينى الإقليم السابع ، تحدث عن الطقوس التى يتبعها
الفرنجية في الماء والنار والمعارك ، كما تحدث عن السحر والسحرة وعن الخليج الفارنجى
Varangian Fiord في أقصى الشمال . يقول براون : « وفى رأى أننى لم أصادف بين
الكتب العربية كتاباً يتمتعاً جيداً بالقراءة مثل هذا الكتاب ^(١) .

(١) انظر براون : تاريخ الأدب في إيران ، الترجمة العربية ج ٢ ص ٦١٢ — ٦١٤ .

٩ — محمد بن عبد العزيز الشريف الإدريسي (ت ٦٤٩ / ١٢٥١) . وكان من أهل سبّنة بالمغرب الأقصى . وقد بدأ رحلاته وهو في السادسة عشرة من عمره ؛ فزار بلاد الأندلس وفرنسا وإنجلترا . ثم زار معظم أرجاء شمال إفريقيا ، ثم رحل لحج بيت الله ، فزار مصر والحجاز وآسيا الصغرى وبلاد اليونان التي وصل إليها سنة ٥١١ هـ .

ولم يكن الإدريسي رحالة فحسب ، بل كان عالما موقفا عميقا في بحثه . ولما لم يجد في الشرق ما كان يؤمله عاد إلى بلده وفي نفسه شيء من المرارة . وعاصر الدعوة الموحدية التي قام بنشرها المهدي محمد بن تومرت .

وقد اتصل بمساع الملك رودجر الثاني النورمندی ما يمتاز به الإدريسي من سعة الاطلاع ، فدعاه إلى بلاطه بصقلية سنة ٥٣٣ هـ ، فرحب الإدريسي بهذه الدعوة ، وعهد إليه هذا الملك بوضع كتاب في جغرافية العالم . ووضع تحت إشرافه لجنة قامت بزيارة البلدان النائية . كما وضع تحت تصرفه ٤٥٠ / ٠٠٠ رطل من الفضة الخالصة ليضع له كرة يرسم عليها المصورون مواقع البلدان وأسماءها . وقد شرح الإدريسي ما في هذه الخريطة والكرة في كتابه « نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان » واستغرق هذا العمل خمس عشرة سنة .

وقد ألف الإدريسي كتابه نزهة المشتاق ، وهو مختصر لكتابه نزهة المشتاق الذي طبع في روما سنة ١٥٩٢ م . ورسم الإدريسي خريطة العالم . وبين لنا هذا العمل الدقيق مدى معرفة العرب ببلاد العالم المختلفة ، ومنه نعلم أن العرب لم يحلوا ألمانيا والسويد والنرويج وغيرها من البلاد الواقعة شمال القارة الأوروبية .

ولا يبعد أن تكون معلومات الإدريسي نتيجة اتصال المسلمين بأوربا عن طريق الأندلس والحروب الصليبية . وقد طبع كتراد ميلر خريطة الإدريسي طبعة أنيقة مزينة بالألوان سنة ١٩٢٦ . وقام المجمع العلمي العراقي حديثا بطبع هذه الخريطة التي حددت أجزاء العالم الإسلامي قبل غزوات المغول في القرن الثالث عشر الميلادي ، كما عيّن منابع النيل بدقة ، وصورت بحر قزوين وصحراء فارس . ولولا خريطة الإدريسي لظلت هذه الناحية مجهولة لدينا .

وتمتاز خريطة الإدريسي بعدم المبالغة . وقد أشار في كتابه « نزهة المشتاق » إلى مقياس خريطته ، فذكر أن كل درجة ٢٥ فرسخا ، والفرسخ ثلاثة أميال ، فيكون طول

الدرجة ٧٥ ميلا . وجاءت خريطة الإدريسي مطابقة لمواقع البلدان . وكانت في الأصل ثلاثة أمتار ونصف طولا ومتر ونصف عرضا . ثم نقلها « ميللر » في مترين طولا ومتر عرضا . ولم يخطئ الإدريسي إلا في مواقع قليلة . مثال ذلك أنه وضع « كليجار » في السويد في درجة $٥٦\frac{1}{4}$ بدل $٥٦\frac{1}{2}$ ؛ وأخطأ في تعيين موقع إنجلترا والدانيمرك بنصف درجة . ولم يضع خطوط الطول لعدم استطاعته تحقيق مواضعها ، وإنما أثبت خطوط العرض التي تبدأ أفقية من خط الاستواء إلى الشمال ، ووضع ست درجات بين كل خط وخط . وقد قيل إن الإدريسي أسرع في إنجاز خريطته بسبب مرض رودجر ملك صقلية .

وكان الإدريسي محدثا لامعا ، ألف كتاب « المفيد في أخبار الصعيد » ، ومات بالقاهرة في شهر صفر سنة ٦٤٩ هـ (١) .

(١) السبوتلى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٨

الباب الحادي عشر

الفن

تخطيط المدن

(١) تقسيم المدن :

يمكن تقسيم المدن إلى مدن تبنى بطريقة تلقائية أو اختيارية ، ومدن تبنى بطريقة ابتكارية أو مبتدعة ، وهذا النوع الثاني قد أولع به الفرنسيون سكان المدن . ويمكن أن ينطبق هذا النوع الأخير على المدن الإسلامية :

١ — فالمدن التي تبنى بطريقة تلقائية أو اختيارية هي التي بنيت لاستيطان الجاليات أول الأمر ، ويكتفى سكانها بالاحتفاظ بمقومات هذه الأبنية التي تؤدي إلى تحقيق الأغراض التي بنيت من أجلها .

ذلك أن العرب لم يرغبوا في الإقامة بالمدن القديمة كأقلية معرضة لمقاومة أهالي البلاد الأصليين الذين ينظرون إليهم باعتبارهم أجنبي عنهم . لذلك نرى المدن الأولى التي بناها العرب أشبه بمعسكرات حصينة (مثال ذلك الفسطاط أو مصر القديمة) ، وأحياناً تكون المدن منعزلة لإنعزالاً نسبياً عن المراكز الأخرى المنافسة لها (مثل السكوفة والقيروان) . وقد يدفع الموقف السياسي للدولة الجديدة الحسكام على تأسيس مدينة جديدة لإخضاع مدينة أخرى قصد القضاء على مقاومتها (مثال ذلك مدينة المنصورية التي بناها بنو مرين في القرن الثامن الهجري) الرابع عشر الميلادي لنحل محل تلمسان التي احتلها بنو زيان ، وتبعد عنها بنحو ميل ونصف وقد اتخذها المرينيون حاضرة لهم) . كذلك اقترن قيام دولة الإدارة في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (القرن التاسع الميلادي) بتأسيس مدينة فاس سنة ١٩٢ هـ . واقترن قيام الدولة المرابطية ببناء مدينة مراکش على يد يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) . وقد ينقل الحاكم مقر دولته من الحاضرة التقليدية كما فعل المعتصم العباسي الذي بنى مدينة سامرا (على بعد سبعين ميلاً شمالى بغداد) سنة ٢٢١ هـ ، وظلت حاضرة الخلفاء العباسيين نحو ستين سنة حتى نقل المعتضد حاضرة الخلافة العباسية إلى بغداد سنة ٢٧٩ هـ . وينطبق هذا المثل أيضاً على رقادة (بفتح القاف

مع التشديد) التي اتخذها الأغالبة حاضرة لدولتهم (وتبعد عن القيروان بستة أميال لتحل محل العباسية (وتبعد عنها بميلين ونصف ميل) سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) . كذلك نذكر مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر الأموي على بعد أربعة أميال ونصف من قرطبة .

٢ — وقد تستخدم المدن التي تبني بطريقة ابتكارية في تحصين الدولة عند الحد الذي يفصل بينها وبين الدولة المجاورة لها أو تبني في قلب الدولة نفسها . وقد تنمو هذه الحصون وتصبح على مر الزمن مدنا حصينة . فمدينة الرباط ، الحاضرة الإدارية الحالية للمملكة المغربية تحتفظ بطابعها الأصلي وهو رباط الحرب^(١) .

وسرى الآن كيف تنطبق هذه القواعد على المدن الإسلامية ، إذ أن الموحدين كانوا يرابطون فيها بجندهم وخيلهم وأسلحتهم في الكفاح الحربي مع المرابطين ، ثم مع نصارى الأندلس ، ثم في فتحهم مدينة المهديّة وطردهم الروم من إفريقية .

وقد أوعى السلطان ألب أرسلان السلجوقي بالبناء . وكان إذا أراد أن يبني بناء حرمص على أن يكون شامخا يقوى على تحمل الأحداث دالا على عظمة الدولة . كما كان يحرص على اختيار المكان الذي يبني فيه بحيث يكون بهيجا مشرقا . وكان يقول : « آثارنا هذه تدل على علو هممتنا ووفور نعمتنا »^(٢) .

وكان السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) مغرما بالعمائر ، فحفر كثيرا من الأنهار وأحاط كثيرا من المدن بالأسوار ، وأنشأ الربط والقناطر في المفاوز ، وعمر جامع السلطان ببغداد (٤٨٥ هـ) وزاد في دار السلطنة بها ، وحفر الآبار في طريق مكة . وقد خرج من الكوفة لتوديع الحاج سنة ٤٨٠ هـ ، فصادف طريقه وحشا كبيرا ، فبنى بالسبيعي منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها في هذا الطريق . وكانت هذه المنارة تعرف بمنارة القرون . كما بنى منارة أخرى ببلاد ما وراء النهر^(٣) .

ولندكر الآن بعض المدن الشهيرة في العصر الذي خصصنا له هذا الجزء الرابع من كتابنا (٤٤٧ — ٦٥٦ هـ) :

Grunebaum, Islam, pp. 144-145 ; E. Pautey, Villes Spontanées, etc^(١)

(٢) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوقي ص ٤٥

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٩ .

(ب) مدينة قرطبة :

كانت قرطبة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أكثر المدن الإسلامية حضارة في الأندلس بصفة خاصة والمدن الأوروبية بصفة عامة . وكان العجب يأخذ من قلوب الرحالة الذين زاروا هذه المدينة كل مأخذ حين يشاهدون بها سبعين داراً للكتب وتسعمائة حمام للجمهور . وقد اعترف ابن حوقل الجغرافي ، برغم تحامله على أمويي الأندلس ، بعظمة قرطبة التي سماها بغداد الثانية ، كما أعجب بحمال مدينة الزهراء المتاخمة لقرطبة وبثراء حي الرصافة ونخامته .

وقد تأثر الفن الأوربي بالفن الإسلامي الذي أخذ عن الفن المصري القديم وعن فن الشرق الأدنى . فالأساطين الأيوبية في البناء الكلاسيكي شرقية الأصل . كما أخذ اليونان عن طريق الشرق الأدنى أهم عناصر الفن الهليني الشرقي . وليست هذه الخطوط المنقوشة إلا باقات وسيقان البردي التي نشاهدها على الأعمدة المصرية القديمة ، إذ أن بلاد بابل تعد موطن النقش على الأحجار الكريمة . كما أن الأعمدة التي استخدمت كعنصر زخرفي في البناء المصرية الأصل ، انتقلت إلى سورية وسائر بلاد الشرق الأدنى حول الألف الثاني قبل الميلاد ، ثم إلى بلاد اليونان في القرن السابع الميلادي .

كذلك انتقل فن البناء العربي ، ولاسيما القباب ، إلى أوروبا محاكاة لمسجد عمر في بيت المقدس . وقد أثبت مؤرخو الفنون أن أهم عناصر الفن الروماني كانت متداولة في الشرق قبل أن تعرفها أوروبا بقرون ، وأن العوامل التي أدت إلى وجود الفن القوطي شرقية الأصل .

ولما لى التأثير العربي في أوروبا واضحاً في الفنون والصناعات المنزلية . فقد كانت دور الأغنياء في مملكة بيت المقدس على الطراز العربي . كذلك كانت الزخرفة والأثاث الداخلي والمصوغات الذهبية والحلي ولاسيما في إيطاليا وفي البندقية بوجه خاص . أضف إلى ذلك صناعة العاج والمينا والسجاجيد والأبسطة . وإن خزف مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر بقيت ، كما يقول بروفنسال^(١) ، بفنه وألوان تصويره ومناظره ، أنه من أصل عراقي .

(١) الشرق الإسلامي والحضارة العربية ص ٣٣ — ٣٤ .

أما الصناديق الصغيرة المصنوعة من العاج التي هي نثر مصانع الخليفة ، فقد اتخذت موضوعاتها وصورها ومناظر الصيد والموسيقى عن الفن الآسيوي .

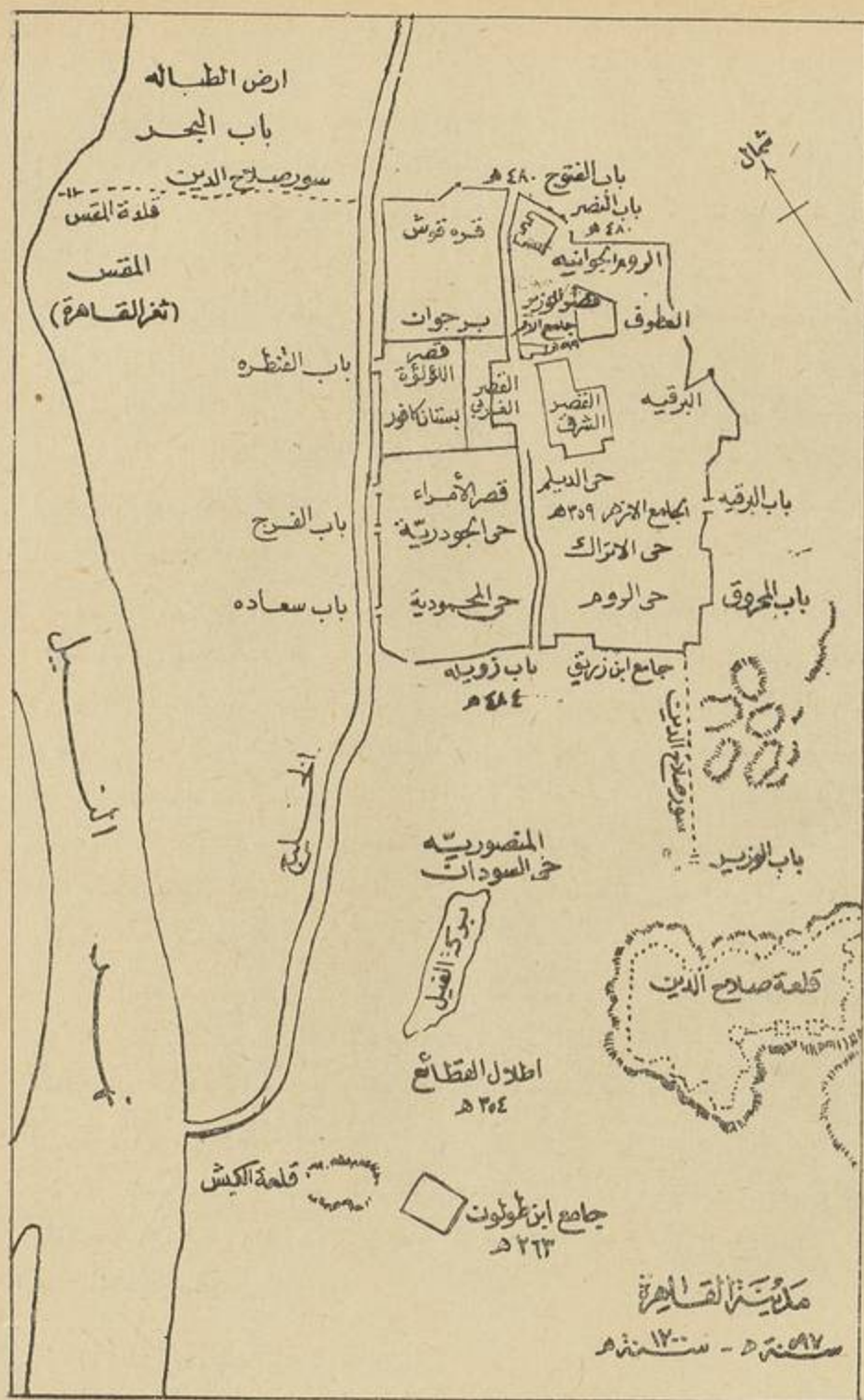
وعن الفن الإسلامي أخذ الأوروبيون كثيرا من فن النقش والزخرفة وصناعة السجاجيد . وعن عرب صقلية وأسبانيا تأثرت الحضارة الأوربية بالحضارة الإسلامية في الثقافة والفن ، وفي نظم الحكم ، وفي الحياة الاجتماعية وغيرها . وبذلك يظهر أثر التراث الإسلامي في الحضارة الأوربية ، وينمحي الرأي القديم الذي ذهب أصحابه إلى القول بأن الغرب أسبق من الشرق في تطور الفكر البشري وورق الحضارة الإنسانية .

(ح) مدينة القاهرة :

ذكرنا من قبل أنه كان من أهم ما يرمى إليه الولاة في البلاد الإسلامية أن يؤسسوا قاعدة تسع جندهم وتأوى أنصارهم وتضم بين جوانبها دواوين حكومتهم ، ثم يبنون مسجدا يقيمون فيه شعائرهم الدينية . وقد سنّ هذه السنة ولاة مصر منذ فتحها عمرو بن العاص ، فأسس مدينة الفسطاط ، وجاء بعده صالح بن علي فأسس هو وأبو عوف مدينة العسكر ، وأسس أحمد بن طولون مدينة القطائع . ثم جاء جوهر الصقلي فوضع أساس مدينة القاهرة حاضرة الفاطميين الجديدة في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ بعد أن استولى على مدينة مصر (يعني الفسطاط وأطلال العسكر والقطائع) ، كما وضع جوهر أساس قصر مولاه المعز لدين الله . وكانت القاهرة وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة . وكانت حدودها الشرقية هي بنفسها حدود القاهرة الحالية ، وأما من الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليفة .

وقد ذكر على مبارك باشا أن طول كل جانب من جوانب مدينة القاهرة كما أسسها جوهر كان يبلغ ألفا ومائتي متر ، ومساحة هذا المكان ٣٤٠ فداناً كان القصر الخلفي يشغل منها مساحة مقدارها سبعون فداناً . وكانت حديقة كافور تشغل خمسة وثلاثين فداناً ، وخمسة وثلاثين فداناً للسكان المخصص لاستعراض الجند ، والباقي وقدره مائتان فداناً لسكنى الجند . وقد زاد السور الذي أقامه أمير الجيوش بدر الجمالي في مساحة المدينة ستين فداناً . وقد بنى هذا السور من الحجر الكبير الحجم ، وبه ثلاثة أبواب لا تزال باقية إلى اليوم ^(١) .

(١) راجع كتاب علي مبارك باشا : الخطط التوفيقية . ج ١ ص ٤ — ٢٢ .



وقد وصف ناصر خسرو الرحالة الفارسي تخطيط مدينة القاهرة التي زارها سنة ٤٤١ هـ (سنة ١٠٤٩ م) فقال إن قصر الخليفة يقع في وسط القاهرة ، وأنها طاق الهواء من جميع الجهات ، إذ لا يتصل به أى بناء وكل ما حوله فضاء . . . ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة .

وإذا كان جوهر قد فانه ما أشار به المعز لدين الله من اختيار منطقة الرصد واختار موقع القاهرة بنظرته العسكرية ، فإن الخلفاء الفاطميين لم تفتحهم مواطن الجبال في أطراف القاهرة والفسطاط والجزيرة ، فانتفعوا بها وبشاطم النيل وحافى الخليج وشبرا ، حيث الخضرة والماء ، فأنشأوا المناظر والحدائق التي كانوا يقضون فيها أوقات فراغهم . وكان لاتنفعهم بتلك المناطق أثر كبير في تعميرها بخاصتهم من الناس ، فامتد العمران إلى خارج أسوار القاهرة .

وفي سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) وسع الوزير بدر الجسالى رقعة مدينة القاهرة شمالا وجنوبا وسمح بالسكنى فيها ، فامتد عمراتها إلى أطرافها ثم إلى خارج أسوارها ، وسميت الأبنية التي بداخل الأسوار باسم « داخل السور » كما سميت الأبنية التي في خارج الأسوار باسم « ظاهر القاهرة » ، وأنشئ في هذا الفضاء الذى هو خارج السور خطط جديدة بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين . هذا عدا الناحية الشرقية التي تقع بين السور والجبل ، بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين هذا عدا الناحية الشرقية التي تقع بين السور والجبل ، فإن الخليفة الفاطمى الحاكم أمر بأن تبنى أربعة القاهرة خلف السور لمنع السيول من دخول المدينة ، فتكونت تلك الأكوام التي تعرف بأكوام البرقية في نهاية شارع الدراسة .

وقد أحاط صلاح الدين الأيوبي القاهرة والفسطاط بسور واحد وبني قلعة الجبل . وفي عصر المماليك امتد العمران وخاصة في عهد الناصر محمد بن قلاوون حتى زادت رقعة القاهرة نحو النصف ، وغدت هي والفسطاط مدينة واحدة تمتد من العباسية إلى بركة الحبش (أثر النبي) ومر النيل إلى المقطم^(١) .

وكان لتحول النيل في القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أثر كبير في توسيع رقعة مصر والقاهرة . وقد وصفها ابن فضل الله العمري^(٢) المؤرخ الجغرافى في القرن الرابع عشر الميلادى بقوله :

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٦٥ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٠ .

« ولم تزل القاهرة في كل وقت تتزايد عمارتها ، وتتجدد معالمها ، بعد حريق الفسطاط (في عهد وزارة شاور) سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) وانتقال أهلها حتى صارت على ما هي عليه في زماننا من القصور العالية والدور الضخمة ، والمنازل الرحبية والأسواق الممتدة والمناظر النزهة والجوامع البهجة والمدارس الرائعة والخوانق الفاخرة ، مما لم يسمع بمثله في قطر من الأقطار ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار » .

(٥) مدينة مراکش :

إن بناء مدينة مراکش باعتبارها حاضرة للدولة المرابطية مع وجود مدينة « أغمات » الكبيرة ، التي كانت مزدهرة قبل مراکش ، والتي لا تبعد عنها بأكثر من ثلاثين كيلو مترا لم يكن مجرد صدفة أو ارتياد مكان لغرض غير معين .

ذلك أن أغمات المدينة البربرية الأصلية التي يرجع تاريخ بنائها إلى العصور القديمة كانت تحفّ بها أشجار الزيتون في سفح جبال الأطلس^(١) وتكثر بها البساتين والأنهار . ولم تسكن هذه المدينة تلائم البيئة الصحراوية التي تعودها المرابطون فضلا عن أنها ضاقت بسكانها الجدد من المرابطين .

وقد وصف اليعقوبي^(٢) أغمات بأنها « بلد خصب فيه مرعى ومزارع في سهل وجبل ، وأهله قوم من البربر » . وقد ذكر الإدريسي^(٣) الذي عاصر المرابطين والموحدين أن أهل أغمات يتوفرون على ثروات ضخمة من تجارة النحاس والثياب الصوفية والعبائم والآلات الحديدية ، وما مهم رجل يسافر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملا موقرة^(٤) . ولم يكن في دولة المشرقيين أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا .

عاد أبو بكر بن عمر إلى مدينة أغمات وكانت مدينة مشهورة بعلمها وحضارتها . وكانت عبارة عن مدينتين تسمى كل منهما أغمات ، وتنسب إحداهما إلى قبيلة وريكة فيقال لها أغمات وريكة ، والأخرى تنسب إلى قبيلة هيلانة فيقال لها أغمات هيلانة

(١) Terasse, tome I. p. 222

(٢) كتاب البلدان ص ٢١ — ٢٢

(٣) كتاب الأندلس وأرس السودان ص ٦٧ .

(٤) أي منقولة بالأعمال .

أو إيلان أو إيلانة هيلانة). وما زال أهل مراکش حتى اليوم يسمون أحد أبواب مدينتهم «باب إيلان». وقد قامت منافسة شديدة بين هاتين المدينتين، حتى إن كل فريق منهما كان يصل في الجامع منفرداً. وفي ذلك الوقت استقر أبو بكر بن عمر في هذه المدينة وتوافدت عليه الوفود والجيوش من الصحراء حتى ازدحمت بالسكان فضج أهلها بالشكوى لما كانوا يجدونه من عناء بسبب مضايقة المرابطين لهم. فقال لهم أبو بكر: عينوا لنا موضعاً نبني فيه مدينة إن شاء الله. فأشاروا عليه في بادية الأمر بمكان يقع على نهر تانسفت^(١) (يسكون النون والفاء وكسر السين) شمالي مراکش. ولكن أبا بكر خاف من فيضان هذا النهر وقال لهم: إننا قوم صحراويون ولا نستطيع العيش بجوار الأنهار. وأخيراً أشاروا عليه بفحص^(٢) مراکش وقالوا له: أيها الأمير قد نظرنا لك موضعاً صحراء رحب الساحة واسع الفناء يليق بمقصدك، يكون وادي نفيس (بفتح النون) جناتها، وبلاد دُكالة^(٣) (بضم الدال وفتح الكاف مع التشديد) فدأنها، وزمام جبال درن (بفتح الدال والراء) (بالاطلس الكبير) بيد أميرها. أضف إلى ذلك وقوع مدينة مراکش في مكان متوسط من بلاد المغرب الأقصى.

عند ذلك ركب الأمير أبو بكر بن عمر في صحبة نفر من قومه من لمتونة وشيوخ المصامدة ووجوه الناس إلى حصن مراکش. وكان خاويًا موحشاً، لا أنيس به إلا الغزلان والنعام ولا ينبت به إلا السدر والحنظل؛ فوجدوا بجواره مكاناً خصيباً فسيحاً ورأوا في هذا السهل من العشب لجملهم ودوابهم ما سرهم^(٤).

٢ — تسمية مراکش:

وقد ذكر عبد الواحد المراكشي^(٥) أن مراکش كانت في مبدأ أمرها غيضة لا عمران فيها، وكانت مأوى للصوف، وربما سميت مراکش باسم عبد أسود يدعى «مراكش»، استقر بها أو لأنها كانت بمكان موحش مخيف. فكان المارة يقولون لرفقائهم:

(١) ويصب جنوبي مدينة آسني.

(٢) بفتح الفاء وسكون الحاء كل موضع يسكن.

(٣) لا تتصل وكالة اليوم بمراكش، وكان اسمها قديماً يطلق حتى على القبائل التي تدعى عبدة

اليوم بجوار مدينة مراکش.

(٤) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (لمؤلف مجهول). نشره علوش، ص ٥ — ٦.

(٥) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٩٥ وما يليها.

« مراکش » ، ومعناها مرّ مسرعاً بلغة المصامدة ، فعرف المكان بهذا الاسم ، وهو مراکش (بفتح الميم والراء مع التشديد وضم الكاف)^(١) ، وبعضهم ينطقها بفتح الكاف وضبطها بعضهم بضم الميم وكسر الكاف . ويطلق لفظ مراکش على المملكة المغربية كلها فيقال سلطنة مراکش ومملكة مراکش (Maroe بالفرنسية و Morocco بالإنجليزية) و Marrakesh على المدينة .

٣ — تخطيط مراکش

وقد بدأ الأمير أبو بكر بن عمر عملية التعمير والبناء ببناء قصره ، وتبعه الناس في بناء الدور بغير أسوار^(٢) . ثم بنى معسكراً ومخازن للسلاح والأموال إلى جانب مسجد لإقامة الصلاة . وليس من شك في أن المدينة بدأت في غاية البساطة ، حيث سكن الناس أولاً في خيام من الوبر ، ومنهم رجال الدولة . واستمر هذا العمل نحواً من سنة ، وقيل ثمانية أشهر .

ولما نزل الأمير أبو بكر بن عمر بموضع مراکش وبدأ عملية التعمير والبناء ، وفد عليه رسول من قبيلة لمتونة بالصحراء يعلمه أن جدالة قد أغارت عليهم ، فأقام أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين على حكم المغرب وسار نحو الصحراء لنجدة قومه^(٣) .

وينسب بعض المؤرخين بناء مدينة مراکش إلى يوسف بن تاشفين ويحدد تاريخ بنائها بسنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٣ م) ، على أنه بما لا شك فيه أن يوسف بن تاشفين كان يشرف على البناء حين كان أبو بكر بن عمر مشغولاً بالتحاد الفتنة التي قامت بين قبائل المرابطين قبل أن يعود إلى الصحراء ويقضى بقية حياته فيها . على أننا نرى أن المؤسس الحقيقي لمدينة مراکش هو أبو بكر بن عمر ، وأن يوسف بن تاشفين قد أتم ما بدأه أبو بكر بن عمر . ومراكش تشبه كثيراً من حيث جوها والحركة الدائبة فيها مدينة بغداد ، كما تشبه مدينة

(١) أنظر لفظ مراکش في معجم البلدان لياقوت .

(٢) كان المرابطون يكرهون أن تكون المدن مسورة ، وذلك لطبيعة نشاطهم الصحراوية الطائفة ، حتى إن يوسف بن تاشفين لما فتح مدينة فاس ، خرب السور الذي يفصل بين عدوتيهما (أى عدوة الأندلسيين وعدوة القرويين) وقال : إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا . ولما فكر على بن يوسف بن تاشفين في تسوير مدينة مراکش سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) استفتى الفقهاء في المغرب والأندلس في هذا العمل . (٣) عباس بن إبراهيم : الإعلام بمن حل بمراكش وأغاث من الأعلام (فاس ١٣٥٥ / ١٩٣٦)

فأس من حيث كثرة غياضها وأشجارها وطقسها مدينة دمشق ، وتزخر مدينة مراکش بالآثار والمعالم الحضارية .

ويذكر ابن خلدون ^(١) أن يوسف (بن تاشفين) جعل مدينة مراکش لنزوله ونزول عسكره ولمراقبة قبائل المصامدة التي كانت تقيم بجبال درن (بفتح الدال والراء) المتاخمة لمراكش . وهكذا يرجع تأسيس مدينة مراکش إلى عوامل أهمها :

(١) إيجاد مقر للحكومة ومعسكر يتسع لجند المرابطين .

(٢) اتخاذ حاضرة الدولة بقرب مواطن المصامدة الأصلية لدفع إغاراتهم .

(٣) ارتياد مكان فسيح من حيث موقعه الملائم لطبيعة حياة المرابطين الصحراوية . وقد اختط أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين من بعده مدينة مراکش في بسطة من الأرض حولها جبل إيجليز (ويسمى الآن جيليز) القريب من مراکش واقتطع منه الحجر وبني منه دارا لحرمه ، وقصرا يعرف بدار الحجر . ولا يعرف موقع هذا القصر على وجه التحقيق ، أما المباني الأخرى فكانت من الطين والحجر .

وبعث يوسف بن تاشفين في طلب عبيد الله بن يونس الذي برع في الهندسة ، فاستخرج الماء الذي جرى إلى المباني والبساتين والمنتزهات التي يسمونها البعائر ^(٢) ، حتى كثرت قصور الأمراء والقواد وغيرهم . وقد أمد يوسف بن تاشفين مدينة مراکش بالماء ، فحفر آبارا أطلق عليها « الخطاطير » وجلب إليها الماء من أغمت ^(٣) .

وقد اتفق المؤرخون على أن المرابطين لم يتخذوا فاس حاضرة لدولتهم ، لبعدها عن مواطنهم وعن مواطن المصامدة الذين كانت تعمر بهم جبال الأطلس .

وقد اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي بنيت فيها مدينة مراکش ، فيذكر ابن خلدون ^(٤) وابن أبي زرع ^(٥) أنها بنيت سنة ٤٥٤ هـ .

(١) العبر ج ٦ ص ٣٧٨ .

(٢) جمع بحيرة (بفتح الباء) والمراد بها الفدان الذي يحرق (أي حقل) ، وهي ما يسمى اليوم أجبال (بفتح الألف مع الهمزة وسكون الدال) .

(٣) عباس بن إبراهيم : الأعلام ج ١ ص ٦٣ .

(٤) العبر ج ٦ ص ١٨٤ .

(٥) روض القرطاس ج ٢ ص ٣٩ — ٤١ .

٤ — اتساع مدينة مراکش .

وقد أجمع المؤرخون على أن بناء مدينة مراکش تم في ثمانية أشهر ، وأن عليا بن يوسف هو الذى سورها وأنفق على بنائها سبعين ألف دينار مرابطية ، وبنى بها مسجدا قام بترميمه المولى سليمان العلوى . كما بنى قنطرة تانسيفت واستعان بصناع الاندلس وغيرهم من مهرة المهاريين . ولكن سيول هذا الهر لم تلبث أن هدمت هذه القنطرة وأطاحت بها فى النهر ، ولم يبق منها إلا عقدها ، فقام الموحدون بترميمها .

وقد ذكر المؤرخون أنه كان بمدينة مراکش سبعة عشر بابا ، واشتهرت مراکش بآتساع أزقتها ورحابة دورها وارتفاع مبانيها وزخرت أسواقها بالسلع .

ولما انتقل الحكم إلى الموحدين سنة ٥٢٤ هـ فتح عبد المؤمن بن على (٥٢٤ — ٥٥٨ هـ) أول خلفاء الموحدين مدينة مراکش (١) . وقد عنى هو ومن جاء بعده من الخلفاء بتشييد المباني ، فبدأ ببناء جامع الكتبية الذى اشتهر بمنارته العظيمة التى تحاكي منارة « الخالدة » بإشبيلية . ثم آتمه ابنه أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) ، وجلب عبد المؤمن ابن على المياه من أودية جبال درن وغرس فى غربى المدينة بحيرة (بفتح الباء) عظيمة بلغت دائرتها ستة أميال وبنى فيها وفى خارجها صهريجين عظيمين ، كما غرس ابنه أبو يعقوب يوسف بحائر أخرى جلب إليها الماء وبنى فيها صهريجا ضخما ، كما بنى فى جنوبى المدينة حصنا آتمه ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) وبنى بجوار مراکش مدينة أخرى تزخر بالبساتين والقصور والأسواق والفنادق ، كما بنى بها جامعا وقيسارية ذكر المؤرخون أنه لم يُبْنِ فى المدن الإسلامية قيسارية أعظم منها (٢) .

وقد بلغت مدينة مراکش أوج ازدهارها فى عهد الموحدين ثم فى عهد بنى مرين (٥٩١ — ٨٧٥ / ١١٩٥ — ١٤٧٠) ولا سيما فى عهد المنصور الذهبى (٦٥٦ — ٦٨٥ / ١٢٥٨ — ١٢٨٦) حتى بلغت مساحتها أربعة فراسخ (٣) طولا ومثلها عرضا . وبلغت قصورها درجة عظيمة من الروعة والجمال (٤) . فاشتهرت ببساتينها وأغابها وفواكهها

(١) هدم الموحدون مسجد يوسف بن تاشفين بمدينة مراکش ولم يبق من معالمها سوى سورها وخطاطيرها ودمرت المباني الأخرى وأقيم مكانها أبنية أخرى .

(٢) عباس بن إبراهيم : الأعلام . ج ١ ص ٦٣ .

(٣) والفرسخ أربعة أميال .

(٤) عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٣٦٠ .

وثمارها وغرست فيها أشجار الزيتون ومعاصر الزيت ودهن المهرجان (١). وقد شيد يعقوب المنصور الموحدى ساقية تشق وسط المدينة ساق منها الماء إلى قصره ، وجعل حولها سقايات يشرب منها الناس وتسقى منها الحنظل والدواب ، كما بنى فى شرقى المدينة دار الفرج وهو مارستان المرضى الذى وصفه عبد الواحد المراكشى (٢) فقال . « ما أظن أن فى الدنيا مثله » .

وقد ظلت مدينة مراكش حاضرة للدولة المرابطية نحواً من ست وسبعين سنة حتى زالت هذه الدولة سنة ٥٤٠ هـ .

ولمدينة مراكش أهمية كبيرة من حيث موقعها الجغرافى : فهى تقع فى وسط المغرب الأقصى بين الصحراء والسهول ، وهى ملتقى الجبل والسهل ومجتمع العرب والبربر حتى أطلق عليها بعض أهلها خراسان المغرب ، لأنه يسكنها أقوام من أجناس مختلفة يتكلمون لهجات متعددة . وهى سوق نافقة للتجارة بين العرب سكان الأراضى السهلية غرباً وشمالاً ، كالرحامنة وحمير والسراغنة ودكالة والشاوية ، وبين البربر سكان الجبال شرقاً وجنوباً . فالخارج من مراكش من باب أغمات لا يسمع إلا اللغة البربرية من قبيلة مسفيوة شرقاً إلى ما وراء الأطلس الكبير ومنها جنوباً إلى بلاد السوس . وإذا خرج من باب الخيس لا يسمع إلا اللغة العربية من قبيلة الرحامنة غرباً إلى سواحل المحيط الأطلسى ، ومنها شمالاً إلى أقصى قبيلة الشاوية . وكان يعبر عن هذا الإقليم بالحور وحاضرتة مراكش ، ويقابله الغرب وحاضرتة فاس .

ومن الجهات الجبلية البربرية تجلب إلى السهل الزيوت والفواكه والأخشاب والجلود المدبوغة وسائر منتجات الأراضى الجبلية ، ويجلب من أراضى السهول إلى الأراضى الجبلية الماشية والسمن والصوف وغيرها من منتجات السهول . وبما ساعد على رواج التجارة لإصلاح الطرق التى تخترق الجبال وبناء القناطر التى تخترقها قوافل السيارات ليلاً ونهاراً (٣) .

(هـ) مدينة الرباط :

لماولى يعقوب المنصور الخلافة رأى أنه من الصعب أن يرسل النجيدات من مدينة

(١) ويعرف بالأرجان اليوم ، وهو شجر يستخرج الزيت من حبه .

(٢) المعجب ص ٣٦٠

(٣) أحمد بوستة : مجلة الغرب (ربيع الثانى — جمادى الأولى ١٣٥٥ / يونية — يولية

١٩٣٦) ص ٢٣ .

مراكش إلى الأندلس ، لبعث الشقة بينهما . لذلك فكر يعقوب المنصور وأبوه يوسف بن عبد المؤمن من قبله في بناء مدينة على ساحل البحر يستطيع أن يقضى فيها فصل الصيف مع جيوشه . وقد أشار عليه بعض رجال بلاطه بأن يتخذ مدينة سبتة معسكرا لجنده . ولكن يعقوب المنصور رأى أن إقليم سبتة يقصر عن تزويد جنده ورجال بلاطه وخدمه بما يحتاج إليه من أقوات مدة ثلاثة أو أربعة أشهر في السنة ، لعدم خصوبة أرض هذا الإقليم ، ولأنه لا يتسع لسكنى هؤلاء الجند والخدم ورجال البلاط . لذلك استقر الرأي على اختيار موقع الرباط . وقد بدأ يوسف البناء وأتمه ابنه يعقوب المنصور في بضعة أشهر ، وذلك سنة ٥٩٣هـ (١١٩٦ — ١١٩٧ م) على أثر انتصاره في موقعة الأرك المشهورة . وقد بنيت في هذه المدينة المساجد والمدارس والقصور والدور والخوانيت .

وفي خارج سور المدينة من ناحية الجنوب أقام يعقوب المنصور منارة تشبه منارة جامع الكتبية بمدينة مراكش ، ولكنها أعظم منها ، وجعل حياً خاصاً لكل جماعة من السكان ، كالصناع والتجار والأدباء وغيرهم . وسرعان ما ازدهرت مدينة الرباط وأصبحت من أغنى مدن القارة الإفريقية ، وساعد على ذلك حسن موقعها ورواج تجارتها بسبب سكنى الجند والخدم ورجال البلاط . وكان يعقوب المنصور يقيم فيها بين شهرى إبريل وسبتمبر .

على أنه يلاحظ أن ماء وادى (نهر) أبى الرقاق (بفتح الراء مع التشديد وسكون القاف) الذى يصب فى البحر عند مدينة الرباط يتصف بملوحة مائه . لذلك فكر يعقوب المنصور فى جلب الماء من مكان يبعد عن المدينة بأثنى عشر ميلاً بواسطة قنطرة حسنة البناء مقامة على أعمدة ، تشبه القناطر التى كانت مستعملة فى بلاد الدولة البزنطية . ويخرج من هذه القنطرة فروع كثيرة تجلب الماء إلى جميع أحياء المدينة^(١) .

ويقول المراكشى^(٢) إن طول سور مدينة الرباط (الذى يشبه سور مدينة مراكش) بلغ فى مبدأ أمره نحواً من فرسخ وعرضه أقل من ذلك بكثير . وقد اتسعت رقعة المدينة ، وألحقت بها أحياء كثيرة ، مثل حى يعقوب المنصور وحى أجندال وغيرهما . وأصبحت الرباط حاضرة رسمية لبلاد المغرب الأقصى منذ سنة ١٩١٢ .

(١) الحسن الوزان (أبو الإفريقى) « وصف إفريقيا » بالفرنسية (ج ١ ص ١٦٤ - ١٦٦ .

(٢) المعجب ص ٢٦٦ .

(٢) المنشآت المعمارية

(١) القصور

بعد أن تم لجوهر فتح مصر ودخل مدينة الفسطاط سنة ٣٥٨ هـ ، عسكر في السهل الرملي الذي يقع إلى شمالها ، ويحده من الشرق تلال المقطم ومن الغرب خليج أمير المؤمنين . وقد بنى في هذا المكان القصر الشرقى الذى أعده جوهر لاستقبال مولاه الممزر ، واتخذ حول هذا القصر دوراً للجند والموظفين والاتباع . وموضع هذا القصر هو المكان الذى يقع فيه مسجد الحسين وخان الخليل الآن . وقد بنى العزيز كثيراً من المنشآت التى تدل على وفرة ثروة مصر فى عهده ؛ فبنى « القصر الغربى » الذى يقع غربى القصر الشرقى . وكان القصر الغربى الذى بناه العزيز أصغر من قصر المعز ، لذلك أطلق عليه « القصر الغربى الصغير » تمييزاً له عن « القصر الشرقى الكبير » . وكان يقع مكان سوق النحاسين وجامع قلاوون تقريباً . وبين القصرين ميدان فسيح لعرض الجند أطلق عليه « بين القصرين » .

وقد ذكر ابن دقاق أسماء أبواب القصر الشرقى الكبير : وهى باب الذهب ، وتعلوه منظره يشرف منها الخليفة فى الأعياد ، وباب البحر ، وباب الريح ، وباب الزمرد ، وباب العيد ، وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجند فى يومى العيدين وتعرف برحبة العيد . وبجواره دار الضيافة ، وتسمى بدار سعيد السعداء ، وباب قصر الشوك ، وباب الديلم ، وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويقابله الجامع الأزهر إلى الجنوب الشرقى من القصر ، وباب تربة الزعفران ، وباب الزهومة ؛ أعنى الباب الذى يشم منه رائحة اللحم ، وبين هذا الباب والجامع الأزهر تقع خزائن القصر (١) .

وقد وصف ناصف خسرو حين زار مصر فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٣٩ — ٤٤١ هـ) القصر الخلاقى ، فذكر أنه كان به ثلاثون ألف جارية واثنا عشر بهواً وعشرة أبواب . وكان موضعه وسط القاهرة التى كان بها عشر حارات ، وبلغ عدد حراسه ألعاً ، منهم خمسمائة فارس وخمسمائة راجل . وإذا ما انتهت صلاة العشاء ضربت الطبول والأهواق ، وعزفت الصنوج وكون الحرس من أنفسهم دائرة ، وظلوا كذلك حتى مطلع الشمس (٢) . كما وصف المقرئى هذا القصر ، فذكر أنه كان به عشرة آلاف

(١) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ٥٦ — ٥٧ .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٢٨ .

من الاشراف وثمانية آلاف من الخدم ، كما ذكر أنه كان بهذا القصر حين استولى عليه صلاح الدين الايوبي اثنا عشر ألفاً كلهم من الإباث عدا الخليفة وأولاده ، وأن هذا القصر قد جددته الخليفة الأمر في سنة ٥٢٢ هـ . وكان يجلس في أعلاه ويشاهد ذكر الصوفيين من نافذة خاصة ، وأوليتهم بين أيديهم ، والشموع تضيء لهم : وكانت تقام لهم الموائد وعليها مالد وطاب من سائر أنواع الاطعمة^(١) .

وكان الخلفاء الفاطميون يبنون المناظر ، فبنوا بالمقس ثلاثاً منها ، إحداها تقع بين باب الذهب وباب البحر ، والثانية على قوس باب الذهب ، والثالثة يقال لها الزاهرة والناصرة والفاخرة . وكان الخليفة يجلس في إحدى هذه المناظر يعرض العساكر يوم غدیر خم ، ويقف الوزير في قوس باب الذهب^(٢) .

وقد أنشأ الفاطميون كثيراً من المنشآت العامة كالفنادق والحمامات ، وكانت كلها ملكاً خاصاً للخليفة . كما كانت الدكاكين في القاهرة كذلك ملكاً خاصاً له ، يتراوح إيجار كل منها بين دينارين وعشرة دنانير في الشهر . وكانت الدور محكمة البناء مبنية بالحجر لا بالطين ، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة^(٣) .

(ب) الحمامات

ومن أهم مظاهر الحياة في المدينة الإسلامية الحمام . ففي القرآن والسنة نرى النظافة الشخصية والصحة العامة أمراً أساسياً لتنظيف الجسم ونظافته ، حتى لقد ورد في الآثار الشريف قول الرسول الكريم : « النظافة من الإيمان » . لذلك نرى الإسلام يهتم بالوضوء والاستحمام واستعمال السواك ، فالسنة الشريفة تقرر على المسلم أن يستحم مرة على الأقل في الاسبوع ، وعلى الاخص في يوم الجمعة . وقد اعتاد الرسول الكريم نفسه أن يستحم في عیدی الفطر والاضحی ، كما أثر عنه أنه أوصى المسلمين بالاستحمام في مناسبات معينة : بعد الجنابة والجماع وفي يوم الجمعة وعند الحجامة وبعد غسل الميت . كما شجع العرب في السباحة برغم عدم وجود خزانات لمياه الشرب ببلادهم واعتمادهم على مياه السيول .

(١) المقرئی : خطط ج ١ ص ٣٨٤ وما يليها .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٠٤ .

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٣٢ .

وكان الاستحمام بالماء الحار^(١) شائعاً عند العرب في صدر الإسلام ، وربما أخذوه عن أهالي البلاد التي فتحوها ولا سيما في سورية ومصر . وقد رحب المسلمون بهذه العادة لأنها جزء من الطهارة التي هي باب الصلاة وشرط لكثير من العبادات . على أن بعض المسلمين قد امتنعوا أول الأمر عن دخول الحمامات التي قامت في مداخلها التماثيل وزينت جدرانها بالصور التي تنم عن الكبرياء والجبروت . ومع ذلك فقد بقيت هذه التماثيل عدة قرون . ويشبه تصميم بناء الحمام عند العرب حمامات رومة إلى حد كبير ، فنجد في داخل الحمام غرفة رطبة الجو بها مساطب حجرية مغطاة بحشيات أو سجاجيد للجلوس صاحب الحمام (المعلم) خلف عارضة تعلوها أقذاح القهوة ، ثم تأتي غرفة ثانية مدفأة لخلع الثياب والاستراحة في الشتاء ، وتتوسط الغرفة الباردة وغرفة « الحرارة » التي يتصبب فيها الإنسان عرقاً ، وتحاط بغرف فرعية صغيرة يجد فيها المستحم الماء الحار والبارد ، وتجدها فيها موظفاً يقوم بتدليك وغسل المستحم بالصابون في « الحرارة » أى في إحدى الغرف الصغيرة ، وعند ما يمر المستحم بالغرفة المتوسطة يظل فيها للاستراحة في الشتاء . وإذا كان الفصل صيفاً ذهب المستحم رأساً إلى الغرفة الباردة (المسلخ) . وقد أولع بعض السيدات باستئجار حمام خاص بعد الظهر حيث يقمن مع قريباتهن وصديقاتهن حفلات في مناسبات الزواج أو الأعياد . وقد يستأجر الرجال حمامات خاصة في مناسبات الزواج . أما الأغنياء فيبنون حمامات خاصة بدورهم^(٢) .

ويستفاد مما كتبه يحيى بن سعيد الأنطاكي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) أنه كانت هناك في العصر الفاطمي حمامات خاصة بالمسلمين وأخرى باليهود وثالثة بالنصارى ، وأن الخليفة الحاكم الفاطمي حرم أن يدخل أحد الحمام بدون إزار ، ثم عاد لحرّم على النساء دخول الحمامات العامة^(٣) . وكان تجمار مصر في عهد الفاطميين يجلبون العطور التي توزع على الحمامات في كل يوم جمعة ، كما يوزع الطيب على قصور الأمراء والوزراء وغيرهم من

(١) الحمام والحميم والحمية جميعاً : الماء الحار (والحمية أيضاً الخش إذا سخن) والحمية هو الماء الحار لفة ، وجمعها حمامات ، والحميم العرق ، واستحم الرجل : عرق : وقولهم لمن دخل الحمام : طاب حميمك يمتنون بذلك العرق أى طاب عرقك ، وإذا دعوا له بطيب العرق فقد دعوا له بالصحة لأن الصحيح يطيب عرقه .

(٢) ديموبين : النظم الإسلامية ، ترجمة ص ٢٢٧ .

(٣) يحيى بن سعيد : صلة تاريخ أوتيسا ص ١٨٧ و ٢٠٨ .

كبار رجال الدولة ^(١) . كما كانوا يستوردون العطر والند والمسك والعود والعنبر من جزر الهند الشرقية وبلاد الملايو والكافور من ساحل زنجبار ^(٢) .

وقد ذكر المقرئى أنه كان بمدينة الفسطاط ١١٧٠ حماما ، وقد روى هذا المؤلف عن ابن عبد الظاهر أن حمامات مصر (يعنى الفسطاط والمعسكر وأطلال القطائع) بلغت فى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) نحو ثمانين حماما ^(٣) . وكان الخليفة الفاطمى يخرج فى العيد من باب الساباط بالقصر الغربى الصغير إلى الميدان (وموضعه الآن الخرشنف ، وينطقه العامة الخرفش) إلى المنحدر لينحدر فيه الضحايا . ويعرف حمام الساباط إلى زمن المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) بحمام المارستان المنصورى . وقد خصص للنساء ، ويعرف أيضا بحمام الصنمية . وقد بيعت فى عهد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبى للأمر عز الدين أيبك مع بعض الأراضى المجاورة سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) بمبلغ ١٢٠٠ دينار ، ثم بيعت بعد ذلك بمبلغ ١٦٠٠ دينار ^(٤) . وبلغ من شهرة حمامات دمياط أن وصفها المقدسى ^(٥) بقوله إن حماماتها كانت أجود حمامات مصر .

وذكر اليعقوبى ^(٦) أن حمامات بغداد بلغت ١٠٠٠٠ وأن القسم الشرقى (الرصافة) كان به ٥٠٠٠ حمام . وهذا القول لا يخلو من المبالغة . وقد وصف ابن جبير ^(٧) الذى عاش فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) حمامات بغداد فى هذه العبارة فقال : « وأما حماماتها فلا تحصى عدة . ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفى حمام ، وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به ، فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل . وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم لأن شأنه عجيب . يجلب من عين بين البصرة والكوفة . وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار . فهو يصير فى جوانبها كالصلصال فيجرف ويحلب ، وقد انمقد . فسبحان خالق ما يشاء لا إله إلا سواه » . ونقرأ فى المقرئى ^(٨) شيخ مؤرخى الأندلس الإسلامية أنه كان بمدينة قرطبة

(١) المقرئى : خطوط ج ١ ص ٤٢٠ — ٤٢١ .

(٢) ابن لياس : تاريخ مصر ج ١ ص ٦٣ .

(٣) المقرئى : خطوط ج ٢ ص ٨٠ .

(٤) أنظر ما ذكره المقرئى فى الخطوط ج ٢ ص ٧٩ — ٨٦ .

(٥) أحسن التماسيم ص ٢٠٢ .

(٦) كتاب البلدان ص ٢٤٠ — ٢٤٩ .

(٧) رحله ابن جبير ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٨) نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٦ — ٢٥٩ .

ثلثائة حمام . وبالمغرب الآن كثير من هذه الحمامات التي يعنى بها الأهالي ويؤمنونها بصفة دائمة ، إذ أن كثيراً من الناس لا يستحمون في منازلهم على ما هو شائع في مصر . وهذه العادة ترجع إلى العصور القديمة .

(ح) المدارس :

ولم تكن هناك مدارس خاصة يتلقى فيها التلاميذ العلوم الدينية بانتظام ، بل كانوا يختلفون إلى المسجد . ولم تنشأ المدرسة قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . وكانت المدرسة الأولى بهذا المعنى هي المدرسة البيهقيّة في نيسابور (١) . ثم أنشأ نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي وصديق عمر الخيام المدارس النظامية المشهورة في بغداد سنة ٤٥٧ هـ ، ثم في نيسابور وغيرها . ثم اقتدى الناس بنظام الملك فأسسوا المدارس في العراق وخراسان وما وراء النهر وفي الجزيرة وديار بكر . وقد حذا السلطان نور الدين محمود بن زنكي حذو السلطان ملكشاه حيث قام في القرن السادس للهجرة ببناء عدة مدارس للشافعية والحنفية لنشر المذهب الحنفي في دمشق وحلب وغيرها (٢) ، ثم نقل صلاح الدين الأيوبي هذا النظام إلى مصر .

وكانت عمارة المدارس التي أنشأها صلاح الدين في القاهرة فتحة جديدة في عالم البناء . فكانت المساجد إلى هذا الوقت ذات شكل واحد هو شكل الجامع الذي تقام فيه صلاة الجمعة .

وكان صلاح الدين يعمل على مقاومة الشيعة . لذلك عنى عناية خاصة ببناء المدارس أو المساجد المدرسية بعبارة أدق لتعليم عقائد المذهب السني ، ولهذا انفق صلاح الدين على هذه المعاهد من بيت المال . وإن الأبنية التي يعرفها الناس باسم مساجد هي في الحقيقة مدارس أو معاهد علمية . وهي أنظم ما كان في القاهرة من عمار ، مثل : مساجد السلطان حسن ، وبرقوق ، وقلاوون والناصر محمد بن قلاوون ، وهي تختلف تماماً عن المساجد في شكلها وفي الغرض الذي شيدت من أجله . ذلك أنها لم تشيد لأداء صلاة الجمعة ، بل كانت تبنى بناء مدرسيا لكي يتلقى فيها الطلاب العلوم الدينية والعربية . وكان لهذا أثر بعيد في تشييد المسجد وفي شكل بنائه .

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٠٩ .

وكانت المدرسة في عصر الايوبيين عبارة عن بناء متجه إلى القبلة وفي وسطه صحن كبير مربع ، وفي كل جانب من جوانبه الاربعة إيوان تعلوه قبة تحتمل محراب ، ومن ثم لم تختلف هيئة المدارس في الجملة عن هذه المساجد ، لأن المدرسة كان يقصد بها أول الامر دراسة الدين في كل شيء ، مما يدل على أن تصميم بناء المساجد قد أدخل عليه تطوير خاص بحيث أضحت عمارة مدرسية وليس عمارة خاصة بالمساجد كما كانت الحال من قبل^(١) . ويحيط بالصحن من جوانبه الاربعة أروقة طويلة مقنطرة السقف كأنها أجنحة المسجد . وأما الجناح الشرقي وهو أطولها فيخصص لإيوانه للصلاة ، وفيه المحراب والمنبر والميضأة وغيرها مما يحتاج إليه المصلون . وكانت الأروقة الاربعة تستقبل طلابها حسب المذاهب : فأحدها للحنفية ، والثاني للشافعية ، والثالث للمالكية ، والرابع للحنابلة . وكان الطلبة والعلماء يبيتون في أروقتهم الخاصة حسب توزيع مذاهب السنة ، كما كانت هذه الأروقة تستعمل للدراسة والمكتبات وما إليها من شؤون الدراسة^(٢) .

وكانت السلطة في مصر أثناء غياب صلاح الدين نوضع في يد ابنه أو أخيه ، وكلاهما كان يرجع إلى رأى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيهقي^(٣) . وبفضل تأثيره بدأ الطلاب يقدون إلى مدارس مصر من أقصى بلاد فارس وتركستان وغيرها ، واتصلوا بالعلماء الذين جاءوا من قرطبة وإشبيلية . ومن هؤلاء « ابن فرو » الذى استهوته حركة إحياء العلوم والثقافة في المشرق فجاء إلى مصر من أقصى بلاد الأندلس . ولما جلس هذا الفقيه في حلقة الدرس انزعج حوله جمهور من المستمعين ، فقربه إليه القاضى الفاضل ، وأنزله في داره وواراه التراب بعد موته في مقبرته الخاصة^(٤) .

وقد بنى صلاح الدين مدرسة بالقرب من قبر الإمام الشافعى بالقرافة ، كما بنى مدرسة الناصرية سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) بجوار جامع عمرو لتدريس المذهب الشافعى الذى

(١) ماكس هيرتز بك : لعة في تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية المصرية ، تعريب على بهجت بك ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢) لينبول : سيرة القاهرة ، ترجمة المؤلف ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٣) وقد تقلد ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الحافظ الفاطمى (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) ، وقلده صلاح الدين قضاء القضاة ثم اتخذه وزيراً له . وله طريقة كتابية معروفة في الأدب تعرف بطريقة القاضى الفاضل وهى مقتبسة من طريقة ابن العميد التى تقوم على السجع والمحسنات البديعية .

(٤) المصدر نفسه ص ١٧١ — ١٧٣ .

كان يدين بعقائده ، كما أنشأ على مقربة من هذه المدرسة مدرسة أخرى لتدريس الفقه المالكي عرفت باسم المدرسة القمحية^(١). وكذلك أنشأ صلاح المدرسة السيفية التي ما تزال أطلالها باقية حتى اليوم في المكان المعروف بالسيوفية بجى الخليفة في القاهرة . وأسس القاضي الفاضل المدرسة الفاضلية سنة ٥٨٠ هـ ، وكان بها مكتبة تشتمل على مائة ألف مجلد^(٢) .

وقد حذا خلفاء صلاح الدين حذوه في الاهتمام ببناء المدارس ، حتى بلغ عدد المدارس التي شيدت في العصر الايوبي ستا وعشرين مدرسة ، نذكر من بينها « دار الحديث » التي بناها السلطان الملك الكامل محمد بن القصرين ، وتعرف بالمدرسة السكلمية . وبعد بضع سنين بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب المدرسة الصالحية . وقد أثر تأسيس هذه المدارس على الجامع الأزهر من ناحيتين :

الاولى : أنه كان من المتعذر أن يسير الأزهر النظم الجديدة ، حتى لقد أصبح في المرتبة الثانية من الاهمية في عهد صلاح الدين وخلفائه ، وذلك لأن الأزهر كان أكبر معهد شيعي يعتمد عليه الفاطميون في نشر العقائد الشيعية أولاً وفي مقاومة أهل الشيعة ثانياً ، فكان طبعياً أن تتخلف شهرته في عهد الايوبيين السنيين ، وكان طبعياً كذلك أن تكون الصدارة للدارس الايوبية السنية .

الثانية : كانت المناهج الدراسية في الأزهر حين استعاد مكانته في عهد المماليك تشبه نظام المدارس الجديدة أكثر مما تشبه نظام الدراسة في العصر الفاطمي . على أن الأزهر نفسه لم يلبث أن سائر الحياة الجديدة حتى أضحت فيما بعد كعبة للذاهب السنية الأربعة ، كما تطور الآن وأضحى به جامعة حديثة إلى جانب طابعه التقليدي القديم .

وكانت هذه المدارس في العهد الايوبي تعنى بتدريس العلوم النقلية والآداب كالتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام واللغة والنحو والصرف والبلاغة والآداب ، كما كانت تعنى أيضاً بتدريس العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق وعلم النجوم والفلك والرياضيات . وكان بعض العلوم كعلم النجوم والتاريخ الطبيعي والرياضيات العالية تدرس لبعض الطلاب على أيدي أساتذة إخصائيين في منازلهم الخاصة . أما الطب فقد كان يدرس في المستشفيات^(٣) .

(١) ذكر المقرئ (خطوط ج ٢ ص ٣٦٤) أن صلاح الدين وقف على هذه المدرسة قيسارية الوراقين وما يتبعها وضعية في القيوم . وعين بهذه المدرسة أربعة من المدرسين وزع عليهم وعلى الطلاب غلة هذه الضعية من القمح ، فعرفت هذه المدرسة بالمدرسة القمحية .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٧ — ٣٥٩ . المقرئ : خطوط ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٣) Dodge, Al-Azhar (Washington D. C. 1961), pp. 40 — 41.

(٣) المنشآت الحربية

(١) أسوار القاهرة :

أحيطت القاهرة عند إنشائها بسور كبير من اللبن يضم الخطط التي تكونت منها هذه المدينة . وكان هذا السور بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة ، وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، على حين كان الجزء الواقع بخارجها يعرف بظاهر القاهرة . وهو عبارة عن خطط وأحياء جديدة تمتد بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل (التي بناها فيما بعد صلاح الدين الأيوبي) وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وتعرف الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق والحسينية^(١) . وكان سور هذه المدينة الغربي يبعد عن خليج أمير المؤمنين بنحو ثلاثين مترا . وفي سنة ٤٨٦ هـ هدم هذا السور وبُنيت الأبواب من الحجر ، وكان ذلك في عهد وزارة بدر الجمالي وزير المستنصر الفاطمي .

وفي سنة ٤٦٥ هـ بنى بدر الجمالي باب زويلة الكبير . ونقل باب النصر الذي بناه جوهر إلى المسكان الذي به الآن ، كما بنى باب الفتوح في مكان آخر غير المسكان الذي بنى فيه جوهر بابه . وهذه الأبواب الثلاثة من عمل ثلاثة إخوة أصلهم من الرُّها^(٢) .

وكانت المناظر التي استخدمت أماكن للبرزة تستخدم في الواقع في الأغراض العسكرية ، بدليل أنها كانت تبنى على مشارف الحاضرة الفاطمية أو على تلال المقطم المشرفة على ما وراء الجبل وعلى الحاضرة معاً ، بدليل خروج الخلفاء إليها في حالة توديع الجيوش قبل سيرها للقتال أو استقبالها عند عودتها من ميادين القتال ، ويدعونا هذا الزعم إلى القول بأن فكرة إنشاء المناظر كانت فكرة حربية ، بدليل أن أمير الجيوش

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) وقد ذكرنا في كتابنا تاريخ الدولة الفاطمية (ص ٥٣٤) أن جوهرأ لما اختط مدينة القاهرة جعل لها أربعة أبواب هي بابا زويلة وباب النصر وباب الفتوح — ويتكون بابا زويلة من بابين متجاورين ، أحدهما القوس الذي كان بجوار المسجد المعروف باسم بن نوح عليه السلام ، ولهذا سمي باب القوس ، وقد مر منه الخليفة الفاطمي المعز عند قدومه من بلاد المغرب ، فكان الناس يمرون منه تبركاً ، أما الباب الثاني فقد تشاءم منه الناس وهجروه (الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٢ . المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٨١ .

(م ٣٩ — تاريخ الإسلام ج ٤)

بدر الجمالى أحس بالحاجة إليها حين فكر فى إعادة تحصين مدينة القاهرة وتجديد أسوارها^(١).

وليس لأحد من الحكام الذين سبقوا صلاح الدين ماله من الآثار الخالدة ، فإنه يرجع الفضل فى اتساع مدينة القاهرة وتنسيق هندستها التى كانت تفخر بها إلى عهد قريب : فالقلعة وهى أبرز معالمها من إنشائه ، والمدرسة التى بناها هى أكثر عمارتها ذيوها وشهرة ، وكل هذه التطورات قد تمت بفضل توجهاته ، وكان بعض هذه الآثار من أجل الدفاع عن البلاد وبعضها من أجل الدين . فأما الأعمال الدفاعية فقد تجلت فى إنشاء القلعة والسور وجسر النيل ، وكلها من الأعمال الدفاعية التى لم يسبق إليها ، إذ أن الحكام الذين جاءوا قبله جعلوا هدفهم بناء مبان حكومية أو ضواح ملكية ، كل يبعد عن سابقه نحو نصف ميل إلى الجهة الشمالية الشرقية من المدينة ، حتى إن القاهرة الفاطمية نفسها لم تكن تشمل سوى قصور الخلفاء والموظفين .

أما صلاح الدين فكان أول من وضع تصميما شاملا لحاضرة عظيمة ، إذ أنه بدلا من أن يحذو حذو من سبقوه من الحكام ويقيم ضاحية جديدة لدولته كما فعل أسلافه ، أخذ يوحد جميع الأحياء الآهلة بالسكان ويحيطها بسور عظيم وقلعة منيعة . لذلك نرى صلاح الدين يجمع شتات المباني المبعثرة فى الأطراف ويضم ميناء المقس إلى مدينة القاهرة . وقد أراد صلاح الدين أن يكون السور من الحجارة وأن يكون امتداد سور بدر الجمالى وزير المستنصر الفاطمى حتى ميناء المقس غربا وجبل المقطم جنوبا ، ومن هناك يمتد إلى النيل . ليضم بقايا مدينة الفسطاط . غير أن هذا المشروع العظيم لم يتم قط ، لأن صلاح الدين كان مشغولا بحروبه مع الصليبيين . وقد جمع أعوانه فى القاهرة الأموال والرجال الذين يحتاج إليهم فى حروبه والذين يقومون ببناء ما تقضى به الضرورة من المباني . وكل ما تم هو مد سور بدر الجمالى فى الشمال من الخليج إلى النيل حيث أقيمت أبراج المقس المحصنة . أما من الجهة الشرقية فقد مد السور الفاطمى جنوبا إلى باب الوزير بالقرب من سور القلعة الجديدة . غير أن موت صلاح الدين حال دون إتمام هذا العمل الهندسى قبل أن يتم ضم الأسوار . أما الأسوار الجنوبية فلم يكن قد بدى بعد فى بنائها . ولا يزال بعض أسوار صلاح الدين قائمة إلى الآن . ومن الممكن أن يقارن رجال الفن المعمارى بين الأبراج

(١) انظر كتابى تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٣ — ٥٣٤ .

الفاطمية القديمة والأبراج المستديرة في سور صلاح الدين بما تشتمل عليه من أبراج ومنافذ للمراقبة .

ونلاحظ هذه المميزات المعمارية في السور الشرقي الذي يفصل مدينة القاهرة عن قرافة قايتباي . ثم يظهر مرة أخرى طراز جديد عند باب الوزير ^(١) ، إذ أن جانبا من السور عند الزاوية الشمالية الشرقية — بما في ذلك برج الظافر — يتوغل في الصحراء ، مما يدل على أن المدينة قد انكشفت في هذا المكان إلى حدودها التي كانت عليها في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) . وفي الحق أن أسوار صلاح الدين لم تكن إلا امتدادا لأسوار بدر الجمالي ^(٢) .

(ب) قلعة الجبل :

وقد عمل صلاح الدين الأيوبي على ضم القسطنطينية والعسكر وأطلال القطائع والقاهرة بعضها إلى بعض ، وبنى قلعة الجبل ، وشرع في بناء سور حول مدينتي القاهرة والقسطنطينية يبلغ طوله خمسة وعشرين كيلو مترا ومتوسط عرضه نحو ثلاثة أمتار ، ويتراوح ارتفاعه بين تسعة أو عشرة أمتار . وقد بنى وجه هذا السور من الحجر المنحوت ، تتخلله الأبراج في جهات مختلفة . وقد استدعى هذا العمل الإنشائي هدم الأماكن الواقعة بين مصر القديمة ومشهد السيدة نفيسة حيث غرست البساتين وأنشئت المتنزعات عليها .

وربما كان بناء القلعة فكرة جديدة استوحاها صلاح الدين من كراهيته للسكنى في القصور الفاطمية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالشيعة .

وقد بنى صلاح الدين هذه القلعة الحصينة على سفح جبل المقطم على ارتفاع مائتين وخمسين قدما عن سفح البحر في المكان الذي كان يعرف في بقية الهواة التي بناها حاتم ابن هرثة في القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) . وقد عرفت هذه القلعة باسم قلعة صلاح الدين ، وعرفت فيما بعد باسم قلعة الجبل تمييزا لها عن قلعة الروضة . وفي سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٦ م) عهد صلاح الدين ببناء قلعة الجبل إلى بهاء الدين قراقوش ^(٣) ، لتكون

(١) انظر مذكرات « فان برشم » (١٩١١) ص ٥٥ ، ٦٨ — ٧٠ .

(٢) لينبول : سيرة القاهرة ، ترجمة المؤلف ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٣) معنى قراقوش بالتركية « طائر أسود » . وقد قام بإنشاء عدة أبنية عبرت معالم القاهرة ،

مثل قلعة الجبل وقناطر الجيزة وسور القاهرة ، ولما فتح صلاح الدين عكا سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) =

مركزا للحكومة وثكنات للجند ، وتم بناؤها سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) في عهد الملك الكامل بن الملك العادل الأيوبي .

ويحيط بهذه القلعة سور من الحجر له أبراج ، ولها بابان : أحدهما مواجه لمدينة القاهرة ويسمى الباب المدرج ، ويطلق على الباب الثاني باب القرافة . وبين هذين البابين مكان متسع يوصل إلى دهايز ، على يسرة الداخل منها باب يصل إلى جامع فسيح الأرجاء مرتفع البناء مبلط بالرخام ، وسقفه مبطن بصفايح الذهب ، وفي وسطه قبة تليها مقصورة يصلي فيها السلطان الجمعة والعيد . وتحف الأروقة بصحن الجامع من جميع جهاته . وبصدر هذه الدهايز مصطبة على جانبيها يمر يدخل منه إلى ساحة يواجه الداخل إليها باب الإيوان الكبير . وهو مرتفع البناء ، به أفنية متسعة وعمد ضخمة . وبصدر هذا الباب سرير الملك ، وهو عبارة عن منبر مرتفع من الرخام ، يجلس عليه السلطان في الأيام التي يستقبل فيها سفراء الملوك . وإلى يمين هذا الإيوان ساحة كبيرة بها القصر الأبلق الذي بناه الناصر محمد بن قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية . وقد بني بالحجر الأبيض والأسود ، ولهذا سمي القصر الأبلق لأن لونه خليط من البياض والسواد . وفي هذا القصر إيوان يطل على الإسطبلات السلطانية .

وقد عني سلاطين المماليك بتربية ممالئهم وتثقيفهم فنون الحرب في طباق قلعة الجبل التي شاهدها تقي الدين المقرئ المؤرخ المصري المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) ، وهي عبارة عن ثكنات الجيش المملوكي . وقد بلغ عدد هذه الطباق اثني عشرة طبقة تشبه كل طبقة منها الحارة اليوم . وتشتمل على عدة مساكن ، ويسع كل طبقة نحو ألف مملوك .

== عين بهاء الدين واليا عليها في السنة التالية . وقد أسرى بهاء الدين حين استولى الفرنجة عليها سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ، لكنه افتدى نفسه بمبلغ كبير ، ثم عاش في القاهرة حتى توفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) . انظر عبد اللطيف البغدادي (طبعة دي ساسي ص ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٣) وابن الأثير (طبعة القاهرة) ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، وابن شداد : مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية الشرقين ج ٣ ص ١٢٠ ، ١٣٥ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٣٠٤ ، ٣١٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، وابن خلكان ج ١ ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ج ٢ ص ٥٢٦ ، ٥٢٧ .

وينبغي ألا تخلط بين اسم بهاء الدين قراقوش وشرف الدين قراقوش الأرمي الذي خدم الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب . وكانت حياته عبارة عن سلسلة مغامرات وقلقل ومؤامرات ومذابح ونهب وسلب . وبذلك ألفت أعماله في قلوب الناس الهلع الذي لا تزال ذكره باقية إلى اليوم .

وقد أصبحت قلعة الجبل منذ بنائها مقراً لدور الحكومة . وهي حصينة ، تشتمل على كثير من « الطباق » والقصور والميادين والمساجد والمدارس والأسواق والحمامات والإسطبلات . وبها دار الوزارة وديوان الإنشاء وديوان الجيش ودار النيابة وبيت المال وخزانة السلطان الخاصة ، والدور السلطانية والجب والأبراج التي كان يحبس فيها الأمراء والمماليك الخارجون على السلطان .

وكان لقلعة الجبل حاكم يطلق عليه « نائب القلعة » أو « والى القلعة » ، ويشرف على فتح وإغلاق باب القلعة الكبير الذي خصص لخروج الجند ودخولهم . ويتفقد نائب القلعة أسوارها ومنافذها ويعمل على إصلاح مبانيها . وكان يصدر بتعيينه مرسوم سلطاني أسوة بنواب قلاع دمشق وحلب وصفد (بفتح الصاد والفاء) والسكر (بفتح الكاف والراء) وغيرها من قلاع بلاد الشام وفلسطين التي كانت تابعة لمصر في ذلك العصر .

وقد أورد ابن فضل الله العمري المؤرخ المصري المشهور نص^(١) البين التي كانت تؤخذ على نائب القلعة عند تقليده أعباء منصبه . ولإليك طرفاً من هذه الوثيقة التاريخية الهامة : « ولأني أجمع رجال القلعة على طاعة مولانا السلطان وخدمته في حفظ هذه القلعة وحمايتها وتحصينها والذب عنها والمدافعة عنها بكل أنواع ما فيها من الآفوات والأسلحة ، ولأني لا أخرج شيئاً منها إلا في أوقات الحاجة والضرورة الداعية المتسمين فيها تفريق الآفوات والسلاح على قدر ما تدعو الحاجة إليها » .

وكذلك اتخذ سلاطين المماليك قلعة الجبل مركزاً للبريد ، وخاصة حمام الزاجل الذي يقوم مقام البريد الجوي اليوم . وكان لهذا النوع من البريد محطات في مصر والبلاد التابعة لها تتصل بالمركز الرئيسي في القلعة .

وعلى الرغم من ارتفاع قلعة الجبل حُفر بها بئر مملوء بالماء العذب منقوبة في الحجر . وقد حفرها بهاء الدين قراقوش . وهي من أعجب الآبار . وفي أسفلها سواق تنقل الماء إلى وسطها ثم إلى أعلاها^(٢) .

وقد نقش على باب القلعة هذه العبارة التاريخية :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة ، المجاورة لمحروسة القاهرة بالعرمة^(٣) »

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٠ - ٣٧٢. المقرئزي : خطط ج ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٤ .

(٢) العرمة (بضم العين وسكون الراء) سواد مختلط ببياض . العرمة (بفتح العين والراء والميم)

مجمع الرمل وأرض صلبة .

التي جمعت نفعا وتحصينا واسعا ، على من التجأ إلى ظل ملكه ، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين ، على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش عبد الله المكي الناصري ، في سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

وقد زار الرحالة الأندلسي ابن جبير مصر في سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) ، وشاهد العمل في بناء قلعة الجبل يجرى على قدم وساق ، فقال : « وشاهدنا أيضا بذيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة ، يريد السلطان أن يتخذ من مضع سكناء ويمد سورته حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة . والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع أمتهانته (١) ومثوته العظيمة كنشر الرخام وتحت الصخور العظام وحفر الخندق المحقق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول نقر في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار ، لعروج الأسارى (٢) من الروم ، وعددهم لا يحصى كثرة . ولا سيول أن يمتن في ذلك البنيان أحد سواهم . وللسلطان أيضاً بمواضع أخر بذيان ، والأعلاج يخدمون فيه ، ومن يمكن استخدامه من المسلمين في مثل هذه المنفعة العامة مرفقة (٣) عن ذلك كله ولا وظيفة في شيء من ذلك على أحد (٤) .

وقد أجريت بالقلعة تعديلات كثيرة ، وعمل على توسيعها كثير من سلاطين المماليك ، وقام محمد على ببعض هذه التعديلات ، حتى إنه يبق حينذاك من المساجد أو القصور التي بنيت في عصر صلاح الدين شيء ، وبئر يوسف التي يعتقد بعض الناس أنها من بناء صلاح الدين لم تكن سوى جانب من أحد قصور المماليك . كذلك الأبراج الداخلية لم تكن من البناء الأصلي ، وقد بنى الباب الذي يؤدي إلى الرميطة في أواسط القرن الثامن عشر . وعلى الرغم من ذلك كله ، لم تزل هناك أجزاء البناء الأصلي بخلاف البئر المشهورة باسم بئر السبع سقايات التي حضرها قراقوش ، يبلغ عمقها مائتين وعشرين قدماً . وهناك أيضاً أجزاء من السور الذي بناه صلاح الدين . ويرجع تاريخ بناء بعض الممرات الداخلية إلى وقت بناء القلعة . وما هو جدير بالذكر أن شيوع استعمال الأبراج المستديرة البارزة التي تحمي جانباً

(١) يقصد الأعمال التي يقوم بها العمال والصناع .

(٢) في الأصل العروج الأسارى ويقصد الآثار التي قام بها الأسارى من الروم .

(٣) في الأصل موفه بالواو وهو يقصد مرفه بالراء ، أي أن المسلمين أعلى من أن يعملوا في هذه الأعمال المثنة .

(٤) رحلة ابن جبير (طبعة عبد الحميد أحمد صني) من ٤١ — ٤٢ .

عن السور ، وانعدام الممرات الداخلية ، والحجرات والفتحات في الجزء الأسفل من الأسوار ، وكثير من النقط الصغيرة الأخرى - يكشف لنا عن أن هندسة البناء الأصلي أقرب إلى الطراز السورى العربى منه إلى الطراز البيزنطى^(١) .

(٣) جسر الجيزة :

وآخر الأعمال الإنشائية التى ترجع إلى عهد صلاح الدين جسر الجيزة الذى شيد على الضفة الغربية للنيل . وقد وصفه ابن جبير فى هذه العبارة فقال : « من مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين ، القناطر التى شرع فى بنائها بغربى مصر ، وعلى مقدار سبعة أميال منها ، بعد رصيف ابتدئ به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير به مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة ، وهى نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسى القناطر . والقنطرة متصلة بالصحراء التى تقضى منها إلى الإسكندرية . له فى ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة — إعداداً لحادثة نظراً من عدو يدم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل وانقمار الأرض به وامتناع ملوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكاً فى كل وقت إن احتيج إلى ذلك . والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحدور عنه . ولاهل مصر فى شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحدثانية ، يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات الشرقية . والله أعلم بغيبه ولا إله سواه^(٢) » .

وقد تناول المقرئى^(٣) الكلام على قناطر الجيزة فقال : « إن القناطر الموجودة اليوم فى الجيزة من الأبنية العجيبة ومن أعمال الجبارين . وهى ونيف وأربعون قنطرة ، عمرها الأمير قراقوش الأسدى ، وكان على العمائر فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بما هدمه من الأهرام التى كانت بالجيزة وأخذ حجرها ، فبنى منه هذه القناطر وبنى سور القاهرة ومصر وما بينهما ، وبنى قلعة الجبل . وكان خصباً رومياً سامى الهمة ، وهو صاحب الأحكام المشهورة والحكايات المذكورة ، وفيه صنف الكتاب المشهور المسمى بالفاشوش فى أحكام قراقوش . وفى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، تولى أمر هذه القناطر من لا بصيرة

(١) لينبول : سيره القاهرة (ترجمة) . س ١٦٣ .

(٢) رحلة ابن جبير س ٤٣ .

(٣) خطط ج ٢ س ١٥١ .

عنده ، فسدها رجاء أن يحبس الماء ، فقويت عليها جرية الماء ، فزلزلت منها ثلاث قناطر ،
وانشقت ، ومع ذلك فما روى مارجا (أى ما يحب) أن يروى . وفي سنة ثمان وسبعمائة ،
رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير برمها ، فعمر ما خرب منها وأصلح ما فسد فيها ،
فحصل النفع بها . وكان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفاً من حجارة ابتدأ به
من حيز النيل بإزاء مدينة مصر كأنه جبل تمتد على الأرض مسيرة ستة أميال حتى
يتصل بالقناطر^(١) .

وليس هناك شك في أن الغرض من بناء هذا الجسر ، هو الدفاع عن البلاد . فلم ينس
صلاح الدين قصة غزوات الفاطميين العديدة من ليبيا ، حيث أنه لم يكن هناك ما يصددهم
عن الوصول إلى النيل ، ولهذا اتخذ الحيلة لدرء مثل هذا العدوان . ويذكر ابن جبير
أنه كانت هناك مخاوف من هجوم الموحدون .

ولما تقلد محمد على ولاية مصر سنة ١٨٠٥ م أصلح قلعة الجبل وبنى بها مسجده الذي
يعرف باسم مسجد محمد على ، ويعد آية من آيات الفن . كما بنى بقلعة الجبل قصر الجوهرة
وقصر العدل وثكنات الجند ، ودبوان النظار ودار سك النقود ، واتخذها مقراً لولايته^(٢) .

(٤) المنشآت الدينية : المساجد

(١) الجامع الأزهر :

لما تم لجوهر فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ لم ير أن يفاجئ السنيين في مساجدهم بإقامة شعائر
المذهب الفاطمي حتى لا يثير كراهة المصريين . لذلك وضع جوهر أساس الجامع الأزهر
في ١٤ رمضان سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) ، وتم بناؤه في سنتين تقريباً ، وأقيمت الصلاة
فيه في ٧ رمضان سنة ٣٦١ هـ^(٣) .

ويشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف
يسمى صحناً ، عدا الملحقات التي تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها .
أما المقصورة التي بناها جوهر ففيها ستة وسبعون عموداً من الرخام الأبيض في صفوف

(١) لينبول : سيرة القاهرة ، ترجمة المؤلف ص ١٦١ — ١٦٤ .

(٢) Lane-Poole, Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 201, 309, 354.

(٣) الفلقشندى ، صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٤ . المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٧٣ .

متوازية . وفي سنة ١١٦٧ هـ بنى الأمير عبد الرحمن كمتخدا أحد ولاية الأتراك العثمانيين مقصورة ثانية بها خمسون عموداً من الرخام . وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان بلغ عدد أعمدهما مائة وستة وعشرون عموداً . وإذا أضيف إلى هذا العدد الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع ، بلغ مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترتفع المقصورة الجديدة نحو ذراع عن المقصورة التي بناها جوهر القائد . وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء .

وأما صحن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف ، مرصوف بالحجر ، تقام فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين . ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائك مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو ، وزينت حيطانه بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفي الجميل .

وقد أنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محراباً يسمى الآن « القبلة القديمة » ؛ ثم أقيمت فيه تسعة محاريب أخرى ، لم يبق منها سوى ستة محاريب أشهرها اثنتان : أحدهما بالمقصورة القديمة والآخر بالمقصورة الجديدة ، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الفقهي .

وللجامع الأزهر منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع . وقد نقل المنبر الأصلي الذي أنشأه جوهر إلى جامع الحاكم .

وأنشئ بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ثم أصبح به فيما بعد خمس منارات ، يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس وفي ليالي رمضان والمواسم .

وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي ، ومهنته التنبيه على أوقات الصلاة . وكانت تعرف عن طريق المزولة التي لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر ، وكانت مساجد القاهرة تتبع مؤذني الأزهر .

وأهم خصائص الأزهر أنه وإن بدأ كفره من المساجد لإقامة الشعائر ، لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحذب مختلف العلوم والفنون . ففي سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية . وسرعان ما أصبح الأزهر مثابة لطلاب العلم . وقد عمل العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين على جذب طلاب العلم

إليه من كافة أرجاء البلاد الإسلامية ، بما كانوا يقدمونه إليهم من المأكل والمسكن ، مما يسهل عليهم طلب العلم . وقد بنى الخليفة العزيز بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر ، وقد أجرى على هؤلاء الأرزاق وأغدق عليهم وزيره ابن كلثوم الصلوات .

ثم زاد في بناء هذا الجامع كثير من الخلفاء والأمراء والسلاطين ، وأنشئوا فيه مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع ، كما حبسوا عليه كثيراً من الأوقاف وأهدوا إليه الهبات الجليلة .

وكان الخليفة العزيز الفاطمي أول من بنى بجوار الأزهر داراً لجماعة من الفقهاء ، قيل إن عددهم بلغ خمسة وثلاثين كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى صلاة العصر .

وقد نقل إلى جامعي راشدة والأزهر ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلاً ، خص الأزهر منها ثوران وسبعة وعشرون قنديلاً . وكان في محراب الأزهر منطقة من الفضة على مثال المنطقة الموجودة بمحراب جامع عمرو ، فاقتلعهما صلاح الدين كما اقتلع غيرهما من المناطق في كافة المساجد (٥٦٩ / ١١٧٣) ، بعد سقوط الدولة الفاطمية بسنتين^(١) .

وقد تعاقبت الزيادات على بناء الأزهر ، وزيد في العين الموقوفة عليه عاماً بعد عام ؛ فتحول هذا الجامع من مسجد تقام فيه الصلوات إلى جامعة علمية تدرس فيها العلوم بصفة عامة والعلوم الدينية بصفة خاصة .

وقد زاد في بناء هذا الجامع كثير من الأمراء الذين ولوا مصر بعد المعز ، فاستغنى بما أغدقوه عليه من هبات وأوقاف . وفي سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) بنى الخليفة الأمر في الجامع الأزهر مقصورة عليها كتابة منقوشة حفرأ^(٢) .

وكان للأزهر في العصر الفاطمي موارد أخرى غير الإحباس تشمل الأعطيات ومال النجوى^(٣) الذي يؤديه المستمعون للحاضرات التي تلقى بمجالس الدعوة . وكان بعض هذا المال يتفق على الدعاء وبعضه الآخر يخصص للجامع الأزهر ليوزع على من يحتاجون إليه من الطلاب الذين كان لهم أيضاً نصيب من الصدقات النوعية والمالية التي يمنحها بعض

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٥ .

(٢) المقرئى : خطط ج ١ ص ٣٩١ .

الأمراء والكبراء لهم . ولم تنقطع هذه الموارد عن الأزهر طوال العصر الفاطمي ، بل لقد توالى الأرزاق والاعطيات الثابتة لأسانذته وطلابه (١) .

ظل الأزهر يتمتع برعاية الخلفاء الفاطميين ، حتى تقلد صلاح الدين الأيوبي الوزارة في عهد الخليفة العاضد ، فوجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعي مذهب الفاطميين ، فأنشأ المدرسة الناصرية لتدريس المذهب الشافعي الذي كان صلاح الدين يدين بعقائده ، كما أنشأ على مقربة من هذه المدرسة المدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكي .

وقد عزل صلاح الدين قضاء الشيعة ، وأسند قضاء مصر إلى قاضي القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي المذهب ، فأبواب قضاء من الشافعية في كل أنحاء البلاد ، واستعاد المذهب السني بهذا قوته ، وأخذ المذهب الإسماعيلي في الضعف حتى زال ولم يبق له في مصر أنصار (٢) .

(ب) مساجد العصر الفاطمي الأخير :

ومن المساجد التي بنيت في العصر الفاطمي الأخير « الجامع الأقمر » الذي بناه الخليفة الأمر الفاطمي سنة ٥١٩ هـ ووقف عليه الأوقاف ورتب له المؤذنين والخطباء . وقد جده الأمير « بَلْبُغا » سنة ٥٧٩ هـ (١٣٦٦ - ١٣٦٧ م) . ولعل أبداع ما في هذا المسجد واجهته الغنية بأنواع الزخرفة ، كما أن بها حنايا تنتهي بطاقيبات وعقود ومقرنصات ، وقد بنيت العقود على الطراز الفارسي ، وتقوم على عمد من الرخام ، وسقف الجامع مغطى بقنوات صغيرة (٣) .

ومن مساجد الفاطميين في هذا العصر جامع الصالح الذي بناه الصالح طلائع بن رزّيك (بضم الراء وكسر الزاي مع التشديد) . وقد أراد أن يتخذ مدفناً له ، وبنى فيه صهرينجاً كبيراً تملؤه ساقية . وقد أقيم على خليج القاهرة الذي يطلق عليه خليج أمير المؤمنين . وقد تهدم في الزلزال الذي حدث بمصر سنة ٧٠٢ هـ ، فعمره الأمير سيف الدين الجوكندار وأصلح ما تهدم منه . ولهذا الجامع أربع جهات مشيدة بالحجر . وكانت أرضيته عند تأسيسه ترتفع عن مستوى الطريق الذي بجانبه . ويقع باب المسجد الرئيسي بواجهته

(١) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٥ - ٥٣٧ .

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن في كتاب سجل الأزهر (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣٧ .

(٣) المقرئزي خطوط ج ٢ ص ٢٩٠ : ذكر محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٤ .

الغربية ، وأمام هذا الباب رواق قائم على أربعة أعمدة من الرخام ويحمل عقوداً حليت حافاتها بالزخارف الجميلة . ولهذا الجامع صحن كبير حوله أربعة إيوانات ، وعقوده محمولة على عمد من الرخام محلاة بكتابات كوفية على شكل أزهار^(١) .

ومن منشآت الفاطميين في إقليم أسوان مأذنة بدر الجمالى فى إسنا ، وترجع إلى سنة ١٠٨١/٤٧٤ — ١٠٨٢ ، وذلك فى عهد الخليفة المستنصر . كما نجد مأذنة جامع الحجاج فى الأقصر . وقد بنى هذا الجامع على أرض تمثل ثلاث ديارات : الوثنية والمسيحية والإسلام . فى أسفل هذه الأرض نجد معبداً وثنياً يرجع إلى العهد الفرعونى فى الدولة الحديثة التى تنظم الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . وقد تحول جزء من هذا المعبد بعد ظهور المسيحية إلى كنيسة . ويعلو جزء من البناء الفرعونى مسجد بنى فى أواخر العصر الفاطمى ، هو مسجد الحجاج الذى تزوج من سيدة مسيحية غنية أسلمت ووقفت جميع أملاكها على أعمال الخير .

كما نجد على مقربة من شلال أسوان منارة المسجد القبلى والمسجد البحرى وعليهما نقوش كوفية . وهما مبنيان بالآجر . وتنسب هذه الأبنية إلى بدر الجمالى وزير المستنصر . وقد أمر بدر ببناء هذه الأبنية على أثر انتصاره على النوبيين . ونجد فى ثكنات خفر السواحل بأسوان مأذنة قديمة ضاعت قبلتها ، ويحيط بأعلى هذه المأذنة نقوش كوفية^(٢) .

(ح) جامع القرويين بفاس :

وصف الحسن الوزان مدينة فاس وصفا شائقا فقال إنها كانت فى أيامه تشتمل على سبعمائة مسجد ، منها خمسون مسجدا نعمة البناء عظميمة الزخرفة تحمل سقوفها على أعمدة من الرخام . وهذه المساجد مفروشة بحصر جميلة تغطى الأرض كلها ، كما غطيت حيطانها بحصر بقدر ارتفاع قامة الرجل . وبكل مسجد منارة يصعد إليها المؤذن فى أوقات الصلاة . ولكل مسجد من مساجد فاس صهريج من الرخام .

ومن هذه المساجد جامع القرويين ، ومساحته نحو ميل ونصف باعتبار إضافة أبنية

(١) المقرئى : مخطوط ج ٢ ص ٢٩٣ . زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٥ .

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٩ — ٥٤٠ .

الطلاب الملحقة به وله ثلاثة عشر بابا (١) ضخمة البناء . ويبلغ طول الجزء المسقوف من المسجد مائة وخمسين ذراعا ، ولا يقل عرضه عن ثمانين ذراعا . ومنارة الجامع شاهقة وسقفه يحمل طولاً على ثمانية وثلاثين قوساً . وعرضه على عشرين قوساً . وتحيط بالجامع من الشرق والغرب والشمال أروقة ذات أقواس ، عرض كل منها ثلاثون ذراعا وطوله أربعون ذراعا ، وفي أسفلها خزائن يودع فيها الزيت والمصابيح والحصر وغيرها . وتوقد في الجامع في كل ليلة تسعمائة مصباح ، على كل قوس منها مصباح .

وفوق الأقواس التي تشق وسط الجامع قبالة المحراب مائة وخمسون مصباحاً . وهناك ثريات من النحاس تسع ألفاً وخمسمائة مصباح اتخذت من نواقيس نقلها بعض ملوك فاس من كنائس النصارى . وحول حيطان الجامع كرامى منصوبة مختلفة الأشكال يجلس عليها العلماء المدرسون الذين يعلمون الناس أمور دينهم ودنياهم ، ويبدؤون دروسهم قبل طلوع الشمس بساعة وينتهون في الساعة الواحدة بعد الزوال . وفي الصيف يبدؤون في الساعة الثامنة مساءً وينتهون في الساعة الواحدة والنصف صباحاً ، ويقومون بتدريس العلوم الدينية والعقلية والاجتماعية ، ويتقاضون رواتب عالية فوق ما يصرف لهم من السكك والشمع للقراءة ليلاً .

(٥) مسجد الكتبية بمراكش :

امتاز الفن الموحدى على الفن المرابطى . وكان المهدي محمد بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية يعتبر الفن نوعاً من اللهو . ومن هنا قاوم الموسيقى والغناء والنقش والزخرفة . وكان المغاربة يدركون مذهب الدولة الجديدة وميولها الدينية ، حتى إن أهل مدينة فاس طمسوا معالم الأبنية الجميلة المزخرفة ليخفوها عن نظر عبد المؤمن وهو بمدينة فاس . على أن عبد المؤمن لم يلبث أن تجاوز عن زخرفة المنشآت في عهده . ولعل ذلك بعد مشاهدته معالم الحضارة والفن الاندلسي قال إلى اقتباس هذه الحضارة الرفيعة بالمغرب . وقد زاد هذا الفن ازدهاراً في عهد ابنه أبي يعقوب يوسف الذي اشتهر بالادب . وكان يتطلع

(١) ذكر الحسن الوزان (الترجمة الفرنسية) ٣١ باباً . وفي الواقع أنه لا يوجد اليوم غير ١٤ باباً ، مما يرجح أن رقم ٣١ هو مقلوب رقم ١٣ . ويظهر أن عدد الأبواب قد زاد باباً واحداً بعد العصر الذي عاش فيه الوزان .

إلى بلاد الأندلس ويعطف عليها ، لأنه قضى فيها شطرا من حياته نائبا لآبيه قبل أن يلى الخلافة (١) .

على أن الفن الموحدى قد بلغ غايته في عهد يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن . وإن ما نشاهده من آثار الموحدين ليبدل دلالة واضحة على ما بلغه الموحدون من رقى فنى وحضارى رفيع ولا سيما في عهد يعقوب المنصور . والطابع الفنى العام الذى يتسم به فن الهندسة المعمارية في عهد الموحدين لا يرتكز في أساسه على الفسيفساء والزخرفة الدقيقة والخطوط الهندسية الجميلة التى امتاز بها الفن في عهد المرينيين ، ذلك الفن الذى يمثل أجمل وأرق ما بلغه الذوق المغربى الذى اقتبس من الفن الأندلسى . على أن سمة الموحدين لم تكن في فهم بقدر ما كانت في رقى أدبهم وقوة جيشهم وضخامة أسطولهم وشموخ أبنيتهم . وكانت الأبنية الموحدية تعتمد كثيراً على الجير الذى يكون ثلث مواد البناء والذى هو نتيجة لميلهم إلى اللون الأبيض . وبما يمتاز به الفن الموحدى ببناء الحصون والأبراج . يدل على ذلك أهم بنوا في مدينة الرباط وحدها أربعة وسبعين برجاً . ويمتاز الفن المعمارى الموحدى بإدخال عناصر « الميكانيكا » أو علم الحيل كما يسميه المغاربة . ولعل ذلك هو السبب الذى جعل هذه الآثار تحتفظ بمناعتها وثبتت على صروف الحداث أكثر من ثمانية قرون .

وقد ظهرت في هذا العصر في جميع أنحاء المغرب حضارة مزدهرة مؤلفة القسمات أثرت في الدولة المرينية التى أعقبت الموحدين بالمغرب الأقصى . واستعمل الموحدون أساليب قائمة على علم الحيل أو الهندسة المعمارية التى تعتمد على الدراسة (٢) .

وبما هو جدير بالملاحظة أن الموحدين اقتبسوا فنه من الأندلس ومن القيروان ، ذلك الفن الذى يمثل الفن المشرقى الذى تأثر في العصور السابقة بحضارة العباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة .

ويتميز جامع الكتبية (٣) بمراكش بأساطينه وصحونه وأقواسه المقرنصة وبجمال قبابه

(١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ٢ ص ١٧٦ .

(٢) عبد العزيز بن عبد الله : مجلة البينة (الرباط) العدد التاسع ص ٧٤ .

(٣) وقد قيل إنه سمي الكتبية لأن باعة الكتب كانوا يحيطون به عند تأسيسه أو لأن الموحدين أنشؤا به مكتبة حوت كثيراً من الكتب في مختلف العلوم والفنون .

وارتفاع سقفه وامتداد أروقته^(١). وقد اقتبست هندسة بناء جامع الكتبية من الفن الأندلسي ، كما يلاحظ هذا في أساطينه وفي الأعمدة الأربعة التي يحملها قوس المحراب .

أما منبر الجامع فقد بلغ حداً كبيراً من الإبداع . ويرجع بناء هذا الجامع إلى عهد عبد المؤمن^(٢) ويرى تيراس (Terrasse) أن هذا المنبر أجمل منبر في الغرب بل إنه أروع منبر في العالم الإسلامي كافة . وما برح هذا المنبر التاريخي ماثلاً للعيان . بيد أن بعض أطرافه قد بدا عليها القدم . ويعتبر جامع الكتبية الثاني من نوعه في عهد الموحدين . أما الكتبية الأولى فقد أسست في إشبيلية في عهد يوسف بن عبد المؤمن ، ثم أتم بناءها ابنه يعقوب المنصور ، وما زال هذا الجامع إلى الآن من أهم آثار المسلمين في الأندلس .

وتعتبر منارة جامع الكتبية التي بناها يعقوب المنصور من أجمل الآثار التي خلفها الموحدون . وتتألف هذه المنارة من طبقات من الغرف المقوسة السقوف أو الحنايا ، يصل بينهما درج (بفتح الدال والراء) لا مرقاة بها . ويلاحظ هذا الأسلوب في البناء في مرصد « الخالدة » في إشبيلية وفي منارة حسان بالرباط . وجدران هذه المنارة مطلي بالجنس الأصفر . وهذا النوع منتشر في أبنية مدينة مراكش إلى اليوم ، ويوصل هذا الدرج إلى الجزء الأعلى من منارة جامع الكتبية . وهذه النقوش الدقيقة قد صممت على شكل الأزهار وسعف النخل . وتعلو القاعة السادسة قبة مئمنة الشكل ذات أضلاع ومقرنصات تكون مجموعة هندسية بديعة .

وقد أكد « تيراس » وباسي Bassé أن الكتبية أروع مسجد بناه الموحدون في المغرب وأنه يعادل في جودة أسلوبه روائع الجامع الكبير بقرطبة .

(٥) مسجد ومنارة حسان :

يقع مسجد حسان في الشمال الشرقي من مدينة الرباط على أرض منحدرية يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثين متراً عن سطح البحر . وقد يكون اسم هذا المسجد مستمداً من قبيلة تسمى بهذا الاسم تقيم بإقليم الرباط (وهم بنو حسان) . ويرى ابن أبي زرع أن يعقوب المنصور الموحدى فرغ من بناء مسجد حسان سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٧ م) . وقد قيل إن سبعمائة من أسرى الحرب المسيحيين عملوا في بناء منارة المسجد .

(١) La Pensée (Rabat), No. 5 (Mars, 1963), p. 31.

(٢) الخلل الموشية .

وتعد هذه المنارة من أروع كبريات المنارات الموحدية . وقد بنيت بعد منارة السكتية بمراكش ومنارة « الخالدة » بإشبيلية . وقد تناول الحسن الوزان (ليو الإفريقي)^(١) الكلام على هذه المنارة فقال : إنها جديدة عريضة بحيث يستطيع ثلاثة من الفرسان الصعود إليها جنباً إلى جنب . ومن فوق هذه المنارة يستطيع المرء أن يشاهد السفن على بعد عشرين فرسخاً^(٢) (أى ثمانين ميلاً) . ولم يكن الغرض الذى بنيت هذه المنارة من أجله دينياً فحسب بل إن ذلك كان راجعاً إلى أغراض حربية ، بحيث يستطيع مراقبة السفن التى قد تهاجم مدينة الرباط أو سلا (بفتح السين) بوساطة هذه المنارة التى يبلغ ارتفاعها أربعة وستين متراً ، والتى يتجلى فيها الفن المغربى بصورة عامة والفن الموحدى بصفة خاصة .

وفى السنة التى انتصر فيها يعقوب المنصور على نصارى الأندلس فى موقعة « الأرك » المشهورة ، أكل بناء الجامع الأعظم بمدينة إشبيلية ، وشيد به منارة عظيمة قيل إنه ليس فى بلاد الإسلام منارة أعظم منها . ولما أتم يعقوب المنصور جامع إشبيلية ومنارته أمر ببناء حصن البرج على وادى إشبيلية .

ويذكر ابن صاحب الصلاة^(٣) أن جامع إشبيلية بنى فى عهد يوسف بن عبد المؤمن ، وأن ابنه يعقوب المنصور أتم بناءه وأقام فيه الصلاة ، ثم أتم بناء منارة جامع حسان التى تعرف الآن باسم صومعة حسان . « فلما بويغ أمير المؤمنين أبو يوسف (يعقوب المنصور) ... أمر العامل الذى ولى بإشبيلية . . . محمد بن أبي مروان الفرناطى ببناء الصومعة المذكورة ، وإمضاء أمر أبيه فى بنائها والجد فى عملها . فابتدأ فى بنائها (حيث) بناها « العريف » بالحجر المسمى بالطجون^(٤) العادى المنقول من سور قصر ابن عباد . »

Description de L'Afrique, tome I, pp. 164 — 165 (١)

La Pensée, No. 4, pp. 71, 93. (٢)

(٣) كتاب المن بالإمامة ، مخطوط بخزانة الرباط رقم ٣٣٧ ورقة ١ .

(٤) الطجن (بفتح الطاء مع التشديد وإسكان الجيم) القلو . والإناء الذى يقلى فيه يسمى الطاجن . ومن هنا كانت حجارة الطجن هى الطوب المحروق المعروف بالآجر . ويسمى طجنا فى لغة الأندلسيين والمغاربة القدماء .

الباب الثاني عشر

الحالة الاجتماعية

١ - طبقات الشعب :

(١) في عهد العباسيين :

يتألف المجتمع الإسلامي عادة من الخاصة ، وهم أصحاب الخليفة من ذوى قرياه ، ومن رجال الدولة البارزين كالأشراف والوزراء والقواد والكتاب والفضلاء والعلماء والأدباء ، وكان هؤلاء باب خاص يدخلون منه لمقابلة الخليفة أطلق عليه « باب الخاصة » . كما جعل لهم مطابخ خاصة واسطبلات خاصة .

ويقابل الخاصة : العامة ، وهم السواد الأعظم من الناس ولهم مرافق خاصة بهم كباب العامة ومطابخ العامة . وتنظم هذه الطبقة أهل الحرف والصنائع والتجار والفلاحين والجند والرقيق . ويقال لهم العامة والدعماء والغرغاء . وهم في العادة أقل ثقافة ودراية بأمور دينهم حتى ولو كانوا من ذوى اليسار كطبقة التجار .

وقد ذكر ابن الجوزي (١) أن عامة بغداد كانوا يؤلفون خليطاً من العرب والفرس والترك والنبط والآرامن والجرکس والآكراد والكرج والبربر ، ولو أن تسمية هؤلاء جميعاً بالعرب قد غلبت عليهم لانصهارهم في بوتقة الشعب العربى وسيادة اللغة العربية التي هي اللغة الأصلية للوطن العباسى .

وقد ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن المجتمع الإسلامى في العصر العباسى الأول كان يتألف من العرب ، ومن الفرس ، وخاصة الخراسانيين الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية ، وقد قويت شوكتهم في عهد المأمون لأن أمه كانت منهم . كما كان هذا المجتمع يتألف من الأتراك ، وخاصة في عهد المعتصم الذى كانت أمه تركية . وقد اتخذ الترك حرساً له وأسند إليهم مناصب الدولة العالية وأهمل العرب والفرس ، وأصبح هؤلاء الأتراك فيما بعد خطراً على حياة الخلفاء الذين استعانوا بالمغاربة (ويقصد بهم المصربون) والفراغنة وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد والقرامطة الذين استعانوا

(١) المنتظم ج ٩ ص ٢٢٨ .

هم الدولة في عهد الخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) . ولما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين ينتسب إليهم بنو بويه .

وقد أصبح الحنابلة السنيون قوة يخشى بأسها ، ولم تنقطع المنازعات بين السنيين والشيعة . ويذكر لنا المؤرخون أن الخلفاء والسلاطين وكبار رجال الدولة عملوا على إحلال الوئام بين أبناء الطائفتين . وقد ذكر ابن الأثير^(١) أن السلطان محمد بن ملكشاه الثانى السلجوقى (٤٩٨ — ٥١١ هـ) لما قتل صدقة بن مزيد أمير الحلة ، وكان يدين بعقائد المذهب الشيعى ، ساءرت الشيعة المخاوف من ناحية السنيين وكادت تقع الفتن بينهم . وقد اتفق أن احتفل السنيون في شهر رمضان سنة ٥٠٢ هـ بزيارة قبر مصعب ابن الزبير ، فلم يعترضهم الشيعة الذين خرجوا ليلة النصف من شعبان لزيارة مشهد الإمام موسى الكاظم ، فلم يعترضهم السنيون ، وهكذا أدخل الله سبحانه وتعالى السكينة إلى قلوب هؤلاء وأولئك .

ومن طبقات المجتمع الرقيق الذين كانوا يكونون طبقة كبيرة من أسرى الحروب ، ومنهم الرقيق الصقلى والرومى والزنجى والتركى ، ولهم ببغداد شارع خاص أطلق عليه شارع دار الرقيق^(٢) ، وموضع آخر سمي باب النخاسين . وكان الخدم والرقيق رجالا ونساء يقومون بخدمة الخليفة وحاشيته في دار الخلافة ويقومون بخدمة الناس . ولم يترك لنا للمؤرخون شيئاً ذا غناء عن الخدم الأحرار . وكان الرقيق يؤلفون الأغلبية الساحقة من طبقة الخدم ، وهم الجوارى ، والرقيق والخصيان .

وقد جلب أغلب الرقيق في العصر السلجوقى من بلاد ما وراء النهر على أيدي النخاسين الذين اتخذوا من تجارة الرقيق صناعة لهم^(٣) . وكانت مصر وشمال أفريقيا وشمال بلاد العرب من أهم أسواق الرقيق . كما جلب إلى العراق كثير من الزنجيات ومن الزنج لفلاحة الأرض وحراسة الدور .

ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتنان ، بدليل أن أغلبهم من أمهات أولاد^(٤) . وكان بعض الخلفاء من أم رومية أو أرمنية أو تركية ، وكان بعضهم يشتري

(١) الكامل ج ١٠ ص ١٧٧ .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ٤ .

(٣) متر : الحضارة الإسلامية ، ترجمة أبي ريدة ج ١ ص ٢٦٨ .

(٤) وكان بعض الخلفاء من أبناء العربيات الحرائر كالفلاح والأمين .

الجارية لجمال منظرها أو لعذوبة صوتها أو علو ذكائها وجودة شعرها . ومن أصناف الجوارى ، الهنديات والسنديات والمكيات والمدنيات والطائفيات والنوبيات والزنجيات والحبشيات والتركيات والدليديات والآرمنيات والعراقيات . وقد شاع استخدام الخصيان في المجتمع العراقي لحماية الحرم ، ولذلك راجت تجارتهم وارتفعت أثمانهم^(١) .

ومن طبقات المجتمع أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود ، وكانوا يتمتعون بكثير من من سياسة التسامح الديني وقيمون شعائرهم في أمن وطمأنينة . وكان كثير من الخلفاء يحضرون مواكبهم ويشتركون في الاحتفال بأعيادهم ويوزرون أديرتهم في مناسبات معينة ويغدقون عليهم الهبات والعطايا . وكان لليهود رئيس خاص يلقب أحياناً بلقب « ملك » ، ويطلق على رئيس اليهود ببغداد « رأس الجالوت » .

كما كان المجتمع الإسلامي في العصر العباسي الثاني يتألف من المغاربة (ويقصد بهم المصريون كما تقدم) والفراغنة والاكراذ . وتمثل هذه العناصر في أجناس الجند حيث نرى بينهم العربى والكردى والحراسانى والتركى أو السلجوقى (ويؤلفون أغلبية الجند) والدليلى والرومى والآرمنى والعراقى .

(ب) فى عهد الفاطميين والأيوبيين :

وكان المجتمع المصرى فى عهد الفاطميين (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) يتألف من السنيين الذين كانوا يؤلفون الاغلبية الساحقة من المصريين ، ومن الشيعيين وخاصة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم فى بلاد المغرب أولاً ، ثم فى مصر والشام والحجاز ، إذ كانوا يؤلفون الجيش الفاطمى . ولم تخمد جذوة العداء بين السنيين والشيعيين طوال العصر الفاطمى .

والطبقة الثالثة هى طبقة أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود . وقد دفعت رغبة كثير منهم فى المناصب والهبات إلى اعتناق الإسلام والدخول فى المذهب الإسماعيلى مذهب الفاطميين . وقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، فشغلوا كثير من المناصب المالية فى الدولة ، بل تقلدوا الوزارة وتمتعوا بقرسط وافر من سياسية التسامح الدينى ، وسمح لهم ببناء عدد من الكنائس أو إعادتها إلى ما كانت عليه .

(١) انظر بدوى محمد فهيد : العامة فى بغداد ، رسالة ماجستير ص ٣ وما يليها .

والطبقة الرابعة هي طبقة الأتراك الذين كثر عددهم منذ أيام الدولة الطولونية وظهر أمرهم في مصر في عهد الخليفة الحاكم الفاطمي .

والطبقة الخامسة هي طبقة السودانيين الذين كثر عددهم في مصر منذ أيام كافور الإخشيدي وظهر أمرهم منذ أيام الخليفة الحاكم الذي استعان بهم على الأتراك ، ثم ظهر أمرهم من جديد في عهد الخليفة الظاهر الذي تزوج بسيدة سودانية . وقد تفاقم خطر الجند السودانيين في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي حتى بلغ عددهم خمسين ألفا . وقد طاردهم الأتراك إلى صعيد مصر ، وأثار الفالة منهم الرعب في قلوب الأهالي وحالوا دون زراعة الأراضي ، واكتسحوا دلتا النيل حتى وصلوا إلى الإسكندرية ، ولكنهم ظلوا يكونون طبقة هامة من طبقات المجتمع الفاطمي . ثم جاء الأيوبيون فأكثرُوا من الممالك . فقد أثر عن السلطان نجم الدين أيوب أن عدد الرقيق بلغ في عهده اثني عشر ألفا كانوا نواة دولة المماليك البحرية ، واشتهر كثير منهم بالفروسية والفقهاء وتقلدوا المناصب العالية (١) . ولنتقل الآن إلى الكلام على المجتمع الإسلامي في المغرب .

(ح) في المغرب :

كان المغاربة في عهد المرابطين (٤٤٨ — ٥٤١ هـ) يدينون بالإسلام في بساطته وسماحته ، وكان مجتمعهم في أيام يوسف بن تاشفين ومن جاء بعده من المرابطين والموحدين والمرينيين والوطاسيين يتألف من عنصرى البربر والعرب . وكان هذا المجتمع في عهد الموحدين (٥٢٤ — ٦٦٧ هـ) يتألف من جماعات مختلفة وأجناس متباينة . فهناك قبائل العرب من زغبة وهلال ورياح تنحدر إلى المغرب ثم تبرز بالمغاربة امتزاجا قويا ، ولا سيما في عهد عبد المؤمن وأبي يعقوب المنصور . ثم انضوت هذه القبائل العربية تحت لواء الجيش الموحدى وقامت إلى جانب المغاربة نصارى الأندلس وغيرهم . وقد ساعد وفود هذه القبائل العربية النازحة ، ولا سيما بني هلال وبني سليم ، على بلاد المغرب عن طريق مصر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على تعريب قبائل البربر (٢) .

(١) انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢١ — ٦٢٦ وكتابي النظم الإسلامية ص ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢) يقال إن هذه القبائل وزعت على الجهات المختلفة بسبب لغاراتهم وتعدياتهم .

وهناك عناصر الأكراد والجراكسة الذين بعث بهم صلاح الدين الأيوبي لقتال يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠-٥٩٥ هـ)، الذي استطاع أن يستميلهم إليه ويستخدمهم في الجيش الموحدي .

وكان لهذا التمازج البربري العربي أثر بعيد في نشر المذهب الموحدي المهدوي وفيما أحرزه المسلمون من انتصارات ، كما كان له أثر بعيد في الحياة المغربية .

وكان بالمغرب طبقة تمثل أهل الحرف والصناعات . وهي تعطينا صورة واضحة عما كان عليه المجتمع المغربي في العصر الوسيط . ويتمثل ذلك في وصف الحسن الوزان عند كلامه على مدينة فاس حيث يقول إنه كان يسوق الحقائق أمين خاص يختار من مهرة هذه الحرفة . وكان صانعو الحقائق يجمعون ما يحصلون عليه من نقود في صندوق له مقابض عدة ، يحتفظ كل رئيس فرقة بالمفتاح الخاص بفرقة . وإذا انتهى الأسبوع اقتسم العمال النقود التي جمعوها ، وقد كونوا بذلك جمعية تعاونية . وإذا مات أحد العمال تعهد رفاقه بالإئتمان على زوجته وولده الصغير ، وزوجوا أرملته إذا شئت ، وتولوا تنشئة الأطفال حتى يبلغوا السن التي تسمح لهم بممارسة المهنة . وإذا تزوج أحد الصناع أو ولد له ولد ، دعا جميع زملائه إلى وليمة وقدم له كل منهم هدية . وقد أعفى الملوك صناع الجلود من أداء أية ضريبة ، كما كانوا لا يؤدون أية نقود لأصحاب الأفران عن صنع خبزهم . وكان لهم لباس قصير في وقت العمل . وإذا فرغوا من أعمالهم ارتدوا ماشاءوا من الملابس ، وكابوا على جانب عظيم من الاستقامة وحسن الخلق (١) .

(٤) في الأندلس :

وفي بلاد الأندلس أصبح المجتمع الإسلامي يتألف من عدة طبقات متفاوتة في الحقوق والاعتبار . وكان هذا المجتمع يتألف من العرب الذين قاموا بدور هام في تاريخ هذه البلاد . ولكن قيام العصية بينهم قد أتاح الفرصة لمسيحيي الشمال لشن لغاراتهم على المسلمين حتى استردوا بلادهم نهائيا في سنة ١٤٩٢ م ، وفر من نجا من المسلمين إلى شمالي القارة الإفريقية .

(١) الحسن الوزان : وصف أفريقيا ج ١ ص ١٩٥ .

ومن العناصر التي تألف منها المجتمع الإسلامي في الأندلس : البربر الذين تحملوا أكثر أعباء الفتح ولكنهم خرجوا على أمرائهم واحتلوا الأماكن الهامة في البلاد . ومن هؤلاء أسرة ذي النون بطليطلة التي أسست لها دولة بالأندلس (١) . وحذا حذوهم ملوك الطوائف كابن عباد في إشبيلية وابن الألفس في بطليوس وابن أبي عامر في بلنسية وابن هود في سرقسطة ومجاهد العامري بدانية الجزائر .

وكان مسيحيو الأندلس فريقين : فريق تمسك بدينه القديم ، وفريق عُرِف باسم المستعربين . وقد تمتعوا بقسط وافر من التسامح الديني . وكان يحكمهم حاكم من بينهم يسمى « السكونت » ، ولهم ممثل في البلاط ، وقاض ومحكمة استئنافية برئاسة السكونت . وكان كثير منهم يعينون في أرقى المناصب المدنية والحربية . وكان المسيحيون يتكلمون العربية ويصنفون بها الكتب وينظمون بها الشعر .

كذلك سمح العرب لليهود الذين رزحوا تحت حكم القوط بمزاولة التجارة وبحرية الملكية ، واشتغل كثير منهم بالعلوم والآداب والطب والفلسفة (٢) . كما تمتعوا بكثير من التسامح الديني ، وأسند إليهم كثير من مناصب الدولة ، وأضحت قرطبة مركزا للدراسات العبرية . وقد ذكر الإدريسي (٣) أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلا جنوبي قرطبة كان أهلها أكثر غنى من بني جلدتهم في سائر البلاد الإسلامية .

وقد نال الرقيق كثيرأ من الحقوق المدنية فزرعوا الأرض لحسابهم على أن يؤدوا الخراج للدولة .

ومن أهم طبقات المجتمع في الأندلس : الصقالبة ، وكانوا يجلبون من أسرى الحروب أو من هؤلاء الذين استولى عليهم القراصنة من السواحل الأوربية أو من سواحل البحر الأبيض المغربية . وقد ذكر المقرئ (٤) أن عدد الصقالبة بقصر الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر بلغ ٣٧٥٠ ، واستخدم المنصور بن أبي عامر الحاجب الصقالبة في جيشه .

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ١٣٣ .

(٢) المقرئ : فتح الطيب ج ١ ص ٢٨٠ — ٢٨١ . سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة ص ٢١٦ .

(٣) صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ليدن ١٨٦٦) ص ٢٠٥ .

(٤) فتح الطيب ج ١ ص ٢٩٦ .

ولا ننسى طبقة الفقهاء الذين اشتد نفوذهم بالأندلس منذ أيام الدولة الأموية ، ولكن نفوذهم قد اشتد في عهد المرابطين الذين يرجع الفضل في تأسيس دولتهم إلى الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين . وما هو أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني^(١) يقول عن الفقهاء في عهده :

أهل الرياء لبستموا ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فلكتموا الدنيا بمذهب مالك وقسمتموا الأموال بابن القاسم

٢ — مجالس الغناء والطرب

كان للغناء قواعد متبعة ومدارس معروفة ، حتى لقد وضعت مؤلفات كثيرة في الغناء والموسيقى . وحسبنا أن ننوّه بكتاب الأغاني الذي وضعه أبو الفرج الأصفهاني في المغنين والمغنيات ، وتبع ذلك التعرض للأدب والآداب^(٢) . وكان العامة يحفلون بهذه المجالس ويطربون لها للترويح عن مشاغل الحياة ومتاعها^(٣) .

ويبدو أن الموسيقى لم تلق إقبال الناس في العصر العباسي الثاني . ويعلم « فارمر »^(٤) ذلك إلى مناهضة فقهاء الحنابلة لأسباب اللهو واللعب عامة ، ومن بينها الموسيقى . وقد تبع ذلك إهمال المؤلفين لتدوين الموسيقى والغناء . فلم نجد مؤلفين للموسيقى كأبي الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني ، حتى تصل إلينا أخبار المغنين والمغنيات في هذا العصر الذي سيطر عليه الفقهاء ولا سيما العلماء الحنابلة .

وما يدل على عدم تقدير هذا الفن في هذا الزمن أن بعض الفقهاء كانوا لا يقبلون شهادة المغني والرقاص . غير أن بعض العلماء أجاز لنفسه حضور مجالس الغناء ، كما كانت العامة تحضر في العادة مجالس الغناء والتسلية بما يجري في مجالسه من رقص وتمثيلات يُقصد بها الفكاهة .

والرقص كالغناء من حيث أصالته في المجتمع العراقي . وقد اخترعت له آلات خاصة

(١) من أدباء مدينة جيان بالأندلس .

(٢) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، ترجمة حسين نصار (القاهرة ١٩٥٦) ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٣) ومن هذه المؤلفات أيضاً كتاب الأدوار في معرفة النغم والأدوار لصفي الدين عبد المؤمن

(ت ١٢٩٤ / ٦٩٣) .

(٤) تاريخ الموسيقى العربية ، ترجمة ص ٢٤٩ - ٢٦٠ .

مثل « السكرج » وهى تماثيل خيل مُسرّجة من الخيش معلقة بأطراف أقبية تلبسها الجوارى ، ويركبن بها الخيل ، فيحدثن أصواتاً عند السكر والفر . وكان الراقصون والراقصات يعرضن فنونهن أمام الجماهير فى الولائم والأعياد وأوقات الفراغ ومجالس اللهو . وقد انتقلت هذه العادات من بغداد إلى غيرها من المدن والقرى^(١) .

وهناك نوع آخر من الفن ظهر فى كنف الغناء والرقص وهو العزف . ولم يكن العازفون من الرجال فقط ، بل اشتركت فيه النساء كذلك . وكان العازف يلقب باسم آله ، فيقال : الطبال والصّناج والعود والزامر والطنبورى^(٢) . وكانت الآلات الموسيقية المعروفة حينئذ هى : الدف والنساي والعود والطبل والطنبور ، ومنه الطنبور الميزانى والبغدادى . وهناك أيضاً المِعْرَفَة والمزمار والشهروز والربّاب والجراقة والجَنَك والقصيب والسرناى .

ويبدو أن الرذيلة قد تفشت فى العراق فى القرن الخامس الهجرى لضعف الحكم ، فانتشر شرب الخمر وكثرت المواقير والحانات وظهرت موجة انحلال خلقى بين المغنيات فى عهد الخليفة القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) ، وقام بعض الصالحين فى وجه محاربة هذا التيار ، وأنكروا تفشى الخمر . ويذكر ابن الأثير^(٣) أن شخصاً أنلف آلة الغناء التى تستعملها إحدى المغنيات كانت تصطحب جندياً من السلاجقة الأتراك ، فاجتمعت العامة برعاية علماء الدين واستغاثوا بالخليفة القائم طالبين إليه أن يأمر بهدم المواقير والحانات وتعطيلها . ويظهر أن الخليفة الذى لم يعد له من الأمر شيء اكتفى بأن وعد بعرض الأمر على السلطان السلجوقى .

وقد ذكر ابن الأثير^(٤) أن الخليفة المقتدى (٤٦٧ — ٤٨٧ هـ) أمر بنفى المغنيات والمفسدات من النساء من بغداد ، وخرب أبراج الحمام ومنع اللعب بها صيانة لحرم الناس ؛ كما منع دخول الناس الحمامات إلا إذا لبسوا مئزراً ، ومنع للملاحين من أن يحملوا

(١) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٦١) ص ٧٦٦ .

(٢) الأزدى : حكاية أبى القاسم البغدادى (هيدلبرج ١٩٠٢) ص ٥٠ . الخوارزمى : مفاتيح

العلوم ص ١٣٦ .

(٣) الكامل ج ١٠ ص ٣٨ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٨٥ — ٨٦ .

الرجال والنساء مجتمعين ، مما جعل الناس يمتدحونه ويطرون خلافته ويعدونه من أحسن الخلفاء العباسيين .

ذكر المقرئ^(١) أن الخليفة الحاكم الفاطمي أصدر بين سنتي ٣٩٨ ، ٤٠١ هـ قوانين تحرم اجتماعات اللهو والطرب على شواطئ خليج القاهرة ، كما حرم فتح الأبواب والنوافذ التي تطل على هذه الشواطئ . وقد تلت هذه القوانين قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها ، ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات . ويقول ابن خلكار^(٢) إن النساء قبعن في بيوتهن سبع سنين حتى ولى الخلافة الظاهر ابن الحاكم سنة ٤١١ هـ . وقد ذكر المؤرخون أن البساسيري لما أقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر على منابر العراق نحواً من سنة ، أشادت إحدى المغنيات بهذا الحادث وغنت في حضرة الخليفة الفاطمي هذين البيتين :

يَا بَنِي الْعَبَّاسِ صُدُّوا مَلَأَ الْأَمْرَ مَعَدُّ

مَلِكُكُمْ كَانَ مُعَارَاً وَالْعَوَارِي تُسْتَرَدُّ

فطرب الخليفة وأقطعها أرضاً بمدينة القاهرة لا تزال إلى اليوم تعرف باسم أرض الطبالة .

وقد ذكرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن تأثير زرياب على المجتمع القرطبي كان عميقاً في الموسيقى والغناء وفي الطعام وآداب المائدة . فقد علم زرياب أهل قرطبة أرقى أنواع الطهي البغدادي ، وأذاع فيهم أنماطاً جديدة في تنظيم المائدة ، فكانوا يبدمون بالحساء ، ثم يقدمون اللحوم والطيور وينتهون بالحلوى . واستبدل زرياب مفارش المائدة من الكتان بأخرى مصنوعة من الجلد الرقيق ، وأظهر لهم أن الكؤوس المصنوعة من الزجاج الثمين أكثر انسجاماً مع منظر المائدة من الأكواب الذهبية أو الفضية .

ومن مآثر زرياب أنه فتح في قرطبة معهد جمال كان يدرس فيه فن التجميل ، واستعمل معجون الأسنان ، وعلم أهل الأندلس أن يفرقوا شعورهم في وسط الرأس بدلا من أن يتركوا خصلات الشعر tendل فوق جبينهم وتغطي أصداعهم . كما كانوا يعقصونه (يلوونه) حول شعورهم ، وأن يظهروا الحاجبين والأذن ، ويلبسوا ملابس

(١) خطط ج ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٧ .

بيضاء من أول يونية إلى نهاية سبتمبر . كما عليهم زرباب أن الربيع هو موسم الملابس الحريرية الخفيفة ، والقمصان ذات الألوان الزاهية ، وأن الشتاء فصل القراء والملابس الثقيلة .

وبتأثير زرباب تغير البلاط الأموي والمجتمع القرطبي بسبب ما نقله إليهم من نظام البلاط العباسي ، حتى في أزيائهم وأثاث منازلهم وطرق طهيهم^(١) .

٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ودور العامة

لم تنل دور العامة في البلاد الإسلامية عناية المؤرخين والرحالة ، بل لأنهم اقتصرُوا على وصف قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة . وقد اقتضت دور العامة على سكنى أصحابها غالباً ، وكانوا يؤجرونها كلها أو بعضها . وكان الزهاد والمتصوفة يتخذون من المساجد مساكن أو يلجئون إلى سكنى الأكواخ^(٢) . وكانت دور العامة تنبئ غالباً من طابق واحد ، وقد تبنى من طابقين^(٣) .

أما مواد البناء فكانت الجص والآجر والكتل والنورة (الجير) . وكانت السقوف تتخذ من جذوع النخل أو أغصان الأشجار^(٤) .

وللدار مرافق صحية كالحمام والبئر وغيرهما . والأغنياء مرافق صحية خاصة لا يستعملها الخدم . ونرى عادة في بيت العامة رحن للطحين وتنوراً للطبخ وشجرة أمام المنزل وكلها للحراسة .

وكان بعض العامة يزبنون دورهم ويؤثثونها بأثاث يتمشى مع حالتهم الاجتماعية ، ويفرشون الأرض بالحصير الشائع الاستعمال بالعراق . ويفرش أهل اليسار الزرابي ويستعملون الوسائد والستائر ، ويضيئون دورهم بالمسارج والقناديل أو الشموع . وهذا يعمل لنا إغلاق الحوانيت بعد مغيب الشمس ، فتقطع الحركة التجارية في الشوارع والطرقات .

وكانت قاعة الذهب التي ينعقد فيها مجلس الملك في عهد الفاطميين مؤثثة أثاثاً فخماً ،

(١) ليفي بروفنسال : الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية عن مخطوط المؤرخ الأندلسي أحمد بن محمد الرازي — منشورات معهد الجرنال فرانكو للأبحاث العربية الأسبانية ص ٣٠ — ٣٤ .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ٢٨٦ .

(٣) ابن الجوزي : الأذكياء ص ٦٠ .

(٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٥٥ .

ومزينة بالسُتور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، وفي صدر هذه القاعة حَشِيَّة عليها عرش الخليفة المحجوب بستور ، حتى إذا ما استوى الخليفة على عرشه والتأم المجلس رُفعت الستور .

ومن قصور الخلفاء الفاطميين ذلك القصر الفخم الذى بناه الخليفة الأمر فى جزيرة الروضة ^(١) لزوجه الطائفة ، وقد بنى لها الخليفة هذا القصر بطريقة لا تجعلها تشعر بالانتقال من حياة البادية ، وكان له حديقة رحيبة تمتد على شاطئ النيل ^(٢) .

وكان الوزراء يعيشون عيشة قوامها الترف والإسراف وحب الظهور كما يعيش الخلفاء . فقد وجد فى قصر الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى الذى أطلق عليه « دار الملك » ٦,٤٠٠,٠٠٠ دينار من الذهب ، وسبعائة طبق من الفضة والذهب ، وكثير من الصحاف والآباريق والأواني المستعملة فى اللبن (الزبادى) . وهناك أيضاً كثير من البرانى ^(٣) الصينى الكبيرة المملوءة بالجواهر ^(٤) .

وقد وصف ابن ميسر ^(٥) مجلس شراب الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى فقال إنه كان فيه ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات ، منهن أربع بيض مصنوعة من الكافور ، وأربع أخرى سود مصنوعة من العنبر . وكن مرتديات أفخر الثياب ومزينات بأئمن الحلى ، ويمسكن بأيديهن أئمن الأحجار الكريمة .

وكان الأفضل إذا دخل من باب المجلس نكس تلك التماثيل رؤسهن لإجلالاً له ، فإذا أخذ مكانه فى صدر المجلس استوين قائمات . ويظهر أن هذه التماثيل كانت تتحرك بوسائل هندسية مرتبطة بمكان دخوله إلى مجلسه ^(٦) .

وقد ذكر ابن الأثير ^(٧) أن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بالمغرب بعد أن استولى على غرناطة من صاحبها عبد الله بن بلسكين (بضم الباء واللام وكسر الكاف مع التشديد)

(١) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٦ .

(٢) المقرئى خطط ج ١ ص ٤٨٥ .

(٣) جمع برنية وتسمى المحلية وهى لثاء مدور من الخرف .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٥) تاريخ مصر ص ٥٧ .

(٦) انظر كتابي : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٥٦ — ٥٥٧ .

(٧) الكامل ج ١٠ ص ٥٧ .

وأخرجه منها رأى في قصوره من الأموال والذخائر ما لم يملكه ملك قبله بالاندلس . وما وجده عنده سبعة فيها أربعمائة جوهرة قومت كل جوهرة منها بمائة دينار ، إلى غير ذلك من النفائس الثمينة والثياب وغيرها .

٤ — الطعام :

اهتم العباسيون بالطعام وتفننوا في طهيه وتصنيفه وترتيب تقديمه على مواعيدهم . وقد عني العباسيون بوضع المؤلفات التي تصف الطعام وطريقة تقديمه . ومن ألف في هذا الباب : محمد بن عبد الكريم السكابي البغدادي الذي ألف كتابه « الطبخ » في سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) . ويصف لنا هذا الكتاب الطعام في عصر المؤلف وفيما سبقه من العصور العباسية .

وقد قسم هذا المؤلف الطعام على أساس طبقات المجتمع في عصره ، فذكر طعام طبقة الأغنياء ، وطبقة الفقراء (١) ، والطعام الشعبي .

ويتألف طعام الأغنياء من الدجاج ، وكانت الدجاجة تسلق وتقطع ثم تُعْرَق بالشيرج (٢) المضاف إليه الكزبرة والمستكة والدار الصيني . ويعتبر الدجاج أساس المساندة . ولذلك كان سعره مرتفعاً . ولحم في طهي الدجاج طرائق مختلفة حسب رغبة الآكلين (٣) .

ومن ألوان الطعام المضيرة (٤) ، فيقطع اللحم السمين مع الإلية ويوضع في قدر ثم يضاف إليه ماء وملح ، ثم يغلى . فإذا قارب النضج أضيف البصل والكرات والكمون والمستكة والدارصيني ، فإذا نضج وجف ماؤه ولم يبق سوى الدهن عُرف في إناء ، وأضيف إليه اللبن والليمون والنعناع ، ثم ترك على النار حتى يغلى قليلاً ، وأضيف إليه التوابل ، ثم مسح جوانب القدر وترك وغطى حتى يهدأ .

ومن ألوان الطعام أيضاً : السكباج (٥) . وطريقة طهيه أن يقطع اللحم السمين ويوضع

(١) ويدخل في هذه الطبقة طبقة المتصوفة والزهاد الذين يكتفون بالقليل من الطعام ولا سيما من الخبز الحامض والملح أو الأدم القليل .

(٢) وهو زيت السمسم .

(٣) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ١٠٠ .

(٤) بفتح الميم وكسر الصاد بعدها ياء . انظر البغدادي : كتاب الطبخ ص ٢٣ .

(٥) بكسر السين المشددة .

في قدر ، ثم يضاف إليه الكزبرة الخضراء والدار صيني والملح ، ويظل على النار حتى يغلي ، ثم يضاف إليه الكزبرة اليابسة وتنحى الكزبرة الخضراء من القدر ، ثم يضاف إليه البصل والكراث والجزر أو الباذنجان .

وهناك ألوان أخرى من أطعمة الاغنياء ، نذكر من بينها المشهيات كالسلطة والحصرمية والسكسية والعنسية والمهلبية .

وتتألف الاطعمة الشعبية من اللحم والخبز والدبس والنخل والسمك ، ومنه المشوى والمقلي والمطبوخ . وكان المحاسب يشرف على باعة السمك بصفة خاصة لئلا يخلطوا السمك الطازج بالسمك العاسد .

وقد اعتاد أهل العراق عدم شرب الماء بعد أكل السمك كما كانوا لا يشربون اللبن بعده ولا يأكلون البيض أو اللحم إذ يعتبرون ذلك ضاراً بالصحة .

ومن الاكلات الشعبية الباقلاء ، والمريسة وهي نوع من الحلوى تباع في الاسواق في الصباح . وهي من الانواع القديمة بالعراق ، فتطبخ في البيوت أو تباع في الاسواق . ومن الاكلات الشعبية أيضاً العصيدة والثريد ، وتعمل العصيدة من التمر ويضاف إليه السكر والعسل^(١) ، ويعمل الثريد من المرق واللحم وقد يضاف إليه الخبز ، ويؤكل في الغداء والعشاء . ومن الاكلات الشعبية أيضاً الارز ، ويؤكل مع اللبن أو السمن ، والسكر ويقدم مع غيره من الاطعمة .

ومن الاكلات الشعبية الكباب وهو اللحم المقطع إلى شرائح ، وتشوى الآن من اللحم المفروم . والكباب من الاكلات المتوفرة والرخيصة إلى اليوم ، وهو من الاكلات المفضلة عند الشعب العراقي . كذلك نذكر من بين الاكلات الشعبية الروس والاكارع ، وتباع في الاسواق مطبوخة ونيفة^(٢) . ويزيد في قيمة الطعام ما يضاف إليه من المسك والعنبر والعود والزعفران والقرنفل والكبابية (الصيني) والفواكه اليابسة كالجوز واللوز والفستق والبندق والعنب والزبيب والتمر والتفاح والمان والموز وغيرها^(٣) . وكان السلطان ألب أرسلان السلجوقي باراً بالناس يطبخ بطبخه كل يوم خمسون

(١) الحطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٩٥ .

(٢) ابن الجوزي : أخبار الحمقى والمغفلين ص ٣٤ .

(٣) بدوى محمد بدر : العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري — رسالة ماجستير مخطوطة ص ٨٣ وما يليها .

رأساً من الغنم للفقراء ، ما عدا المسال الذى خصص لسباط الخاصة والعامة والعسكر والامراء وغيرهم^(١) .

وقد ذكر المؤرخون والرحالة أن الفاطميين والابويين في مصر اهتموا بتربية الحيوانات وخاصة البقر وتربية الجاموس وتربية الدجاج وتربيته . وكانت مصر في رغد من العيش ، فزرعت فيها الحنطة والذرة والارز والقمح والشعير والفول والحبس والعدس والبصل والثوم واللفت والسلجم (وهو نوع من اللفت) والقلناس والبادنجان واللوبيا والكرأويا . كما عمرت الاسواق بالفواكه على اختلافها كالكرام والتين والتفاح والخوخ والمشمش والموز والتوت واللوز . وكانت هذه الاسواق تزخر بالطعمة كالدجاج والاوز والزبيب والسمن والحمام وسائر اللحوم^(٢) . وكانت الاحتفالات الرسمية تقترن بالاحتفالات والمآدب الشعبية ، ويستقبل الشعب المصرى هذه المواسم بمظاهر البهجة إلا يوم عاشوراء الذى كان يعتبر يوم حزن شامل تعطل فيه الاسواق ويخرج المفشدون إلى الجامع الأزهر حيث يرتلون الأناشيد الحزينة في رثاء الإمام الحسين^(٣) .

وقد ابتدع زرياب في بلاد الأندلس ألواناً من الطعام ، فأدخل بقلة الحلوى المسماة عندهم الاسفراج وزاد في الطعمة لوناً أطلقوا عليه « النقايا » ، وبصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب ، ولوناً من التقلية أطلقوا عليه تقلية زرياب ، يطبخ فيه الدجاج أو الأرناب في مرق كثير الأفاويه والتوابل . كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزجاجية الرفيعة على أكواب الذهب والفضة ، وابتكر أسنطة الطعام من الأديم (الجلد) . وقد اتخذ أمراء الأندلس وخلفاؤهم وخوادمهم زرياب قدوة فيما سته لهم من آداب المائدة واستحسنه من الطعمة التي نسبت إليه .

ويتميز المغرب بألوان خاصة من الطعام « كالكفتة » التي تطهى بالزيت ويضاف إليها كمية كبيرة من التوابل وتصنع على شكل كور كبيرة الحجم ، وتصنع من لحم البقر الخالي من الشحم . وقد ذكر الحسن الوزان أنه كان بمدينة فاس سوق يباع فيه الخبز المقل بالزيت ، ويشبه الخبز الصغير ، ويحلى بالعسل ، ويتناول الناس هذا الخبز مع طعام

(١) البندارى . تاريخ دولة آل سلجوق من ٤٥٠ .

(٢) أنظر كتابى تاريخ الدولة الفاطمية من ٣٨٨ — ٣٨٩ ، ٤١٦ .

(٣) نفس المصدر من ٦٤٢ .

الإفطار ولا سيما في أيام الأعياد ، وتؤكل هذه الفطائر مع اللحم المشوى أو مع العسل أو مع الحريرة . ويلاحظ أن أهل فاس لا يزالون حتى اليوم يحتفظون بهذه العادة ويتناولون هذه الفطائر في الصباح ولا سيما مع رموس الغنم المشوية . وللأديب الازمورى الفاسى المولد والنشأة قصيدة طويلة في الأطعمة يذكر فيها رموس الغنم المشوية .

وطريقة طهى الحريرة هي أن يدق اللحم ثم يطبخ ثم يدق من جديد ، ويدخل في صنع الحريرة وتضاف إليها كمية من التوابل والمرق والبقول ، وفي فاس وغيرها من المدن المغربية يشوى اللحم في السفافيد ، ويبنى كانونان أحدهما فوق الآخر ، وتوقد النار في السكاون الأسفل ، وعند ما يحمى السكاون العلوى يوضع فيه الحمل كاملا من فوهة في أعلى السكاون حتى لا تحترق الأيدي . وهكذا يتم شراء اللحم وبأخذ لونا جميلا ونسكة لطيفة ، لأن الدخان لا يصل إلى اللحم وإنما يصل إليه اللهب المشتعل ، ويستمر شوى اللحم على نار ضعيفة طول الليل ، وفي الصباح يبدأ بيع هذا اللحم في الأسواق ، حيث يباع فيها كذلك اللحم المقلى والسّمك المقلّى ، وهناك حوانيت الأكارع .

أما سوق الجزارين فقد كانت المواشى قبل أن تحمل إلى الحوانيت تعرض على أمين الجزارين لفحص اللحم ، والتأكد من سلامته من الأمراض ، ثم تسلم لحاملها ورقة يحدد فيها ثمن البيع بحيث يستطيع كل شخص أن يراها ويقرأ الثمن الذى يباع به اللحم . وهكذا سبق المسلمون بالمغرب غيرهم من الأمم إلى تحديد أسعار السلع ، ثم نقل عنهم الأوروبيون هذا النوع من المعاملات .

وفي سوق الأسماك يبيع الصيادون أنفسهم ما يصطادونه من السمك بأسعار بخسة . وكان من عادتهم أن يصطادوا سمكا ممتازا هو « الشايل » الكبير الجيد الطرى ، ويسمى « لاكّا » بالإيطالية وبالفرنسية « لالوز » ، ويبدأ صيده من الأنهار خلال فصل الربيع . وقد ذكره المقرئ في رسالة المفاخرة بين سلا ومالقة فقال عند كلامه على مدينة سلا : « وكفى بالشايل لحما طريا » .

وكان لأهل المدن المغربية ولا سيما أهل فاس ولع بتربية الدجاج ، وكانوا يعنون بنظافة دورهم ويحفظون الدجاج في أقفاص كبيرة .

ويزخر سوق الزياتين بزيت الزيتون والزبد والعسل والجبن الطازج والليمون

والجزر واللفت والفول الطرى وغيرها ، ويشرف المحاسب وأعوانه على جميع السلع المستهلكة .

٥ — الملابس :

كان للخاصة في العصر العباسى الثانى ملابس رسمية تميزهم . أما ملابس العامة فكانت تختلف باختلاف حياتهم الاجتماعية ؛ فكان أغنيائهم يعنون بملابسهم أكثر من فقرائهم . ويعرف الزهاد والمتصوفة بملابسهم الصوفية الخشنة .

والملابس ثلاثة أنواع : ملابس للرأس ، وملابس للبدن ، وملابس للأرجل والقدمين بالإضافة إلى الخلى .

فلباس الرأس هى العمامة التى تميز الرجل عن المرأة وتقى الرأس من الحر والبرد . ولم يسمح الفقهاء للمرأة بلبس العمامة ليميز بها الرجل . وقد أخذ العرب العمامة عن آبائهم منذ أيام الجاهلية وورثها المجتمع العراقى فى القرن الخامس الهجرى . فكان لا يجوز خلع العمامة وكشف الرأس إلا فى مناسك الحج . وكانت العمامة السوداء تلبس فى الاحتفالات والمواسم وعند مقابلة الخليفة لأن السواد كان شعار العباسيين الرسمى .

أما ملابس البدن فكانت تختلف باختلاف طبقات الناس . فالزهاد يلبسون الملابس الخشنة أو الممزقة ، والفقراء يلبسون المدرعة (بكسر الميم وسكون الدال وفتح الراء) ، وهى نوع من الجباب وتسكون عادة من الصوف . وكان عمال الحمامات يلبسون الثبان (بضم التاء مع التشديد وفتح الباء مع التشديد) وهى سراويل صغيرة تستر العورة . ويلبس الفلاحون الملابس الغليظة المصنوعة من القطن . ويلبس الأغنياء الملابس الحريرية والإبريسمية وهى نوع من الحرير . وكان الناس يلبسون فى أرجلهم الجوارب وفى أقدامهم النعال (١) .

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين من أهم مراكز النسيج . وقد بلغ نظام الطراز الذى يصنع بدار الكسوة مبلغاً عظيماً من الرقى كما تقدم . كما اشتهرت مصر بأنواع خاصة من الثياب الحريرية والقطنية والسكتانية والصوفية . وكان يصنع بدار الكسوة كسى مختلفة يصلح كل منها فى مناسبة معينة ، كالأحتمال بآخر رمضان وبالعيدى ، والجلوس إلى السباط

(١) بدرى محمد فهد : العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجرى (رسالة مخطوطة) ص ١١٧ وما يليها .

في أول أيام العيد . وكانت هذه الملابس موشاة بخيوط الذهب والفضة ، حتى لقد بلغ ثمن بعض السكس خمسة دنانير وثمان المئديل خمسة دنانير . كما كانت الحلل المزركشة بالذهب تقدم إلى الوزراء والأمراء والأشراف وكبار رجال الدولة في أول رمضان وفي الاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه ، وفي عيدي الفطر والاضحى وفي الاحتفال بوفاء النيل وغيرها يمنحون في هذه المناسبات حملا حريرية أو مزركشة بالذهب^(١)

٦ — المرأة :

كانت المرأة في العصر العباسي لا تختلط بالرجال الغرباء . فإذا أقيمت الحفلات لجأت إلى غرفة خاصة بالنساء أو طلعت فوق سطح منزلها لرؤية الحفل وحدها أو مع بعض زميلاتها . وكان المجتمع البغدادي لا يسمح للرجل بأن ينظر إلى جيرانه من نافذة . ومن تعمد كشف عورات الناس كان جزاؤه من السلطات الحاكمة الجزاء الصارم . وكان المحاسب لا يسمح باختلاط الرجل بالمرأة في الطرقات العامة ولو كانا زوجين^(٢) . وعلى ذلك فقد كانت المرأة تحضر مجالس الوعظ في المساجد^(٣) . وهذا يدل على مشاركتها للرجل في إقامة الشعائر الدينية وفي ميدان العلم والثقافة . على أن هذا لم يمنع من اختلاط الرجل بالمرأة في الأسواق وعلى شواطئ الأنهار وفي زيارة القبور وفي قضاء المصالح بالدواوين الحكومية^(٤) .

وقد تمتعت المرأة في العصر السلجوقي بقسط وافر من الحرية . وكان لبعض نساء هذا العصر تأثير عظيم على الخلفاء والسلاطين ، حتى إنهن تدخلن في شئون الدولة . ونذكر على سبيل المثال « ترکان خاتون » زوجة السلطان ملکشاه التي اشتهرت بذكائها ودهائها ، واتسع نفوذها حتى إنها استطاعت تحت تأثير طموحها الشخصية أن تحمل الخليفة العباسي القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) على تقليد ابنها الصغير محمود السلطنة . ولم يكن بد من أن يلبي الخليفة طلبها بمعاودة وزيرها تاج الملك وتأييد جعفر ابن الخليفة وابن « ماه مالك » أخت السلطان ملکشاه وغيره من رجال الدولة . وبذلك تحقق طموح ترکان خاتون وتقلد

(١) المقرئى : خطط ج ١ ص ٤٠٩ — ٤١١ .

(٢) الماوردى ص ٢٥٧ .

(٣) الخطيب البغدادي ج ١٢ ص ٧٦ .

(٤) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ٢٧٨ .

ابننا محمود السلطنة دون أخيه الأكبر بركياروق بن زبيدة^(١) . وقد أدى هذا العمل إلى انقسام البيت السلجوقي على نفسه ، فدبرت المؤامرات واشتعلت الحروب وطعم بعض أعضاء البيت السلجوقي في السلطنة^(٢) .

وكان كثير من الخلفاء من أمهات أولاد . فقد كانت أم المأمون فارسية وأم المعنصم تركية . وكانت شجاع أم المتوكل رومية (أو خوارزمية) ، والسيدة أم المقتدر رومية ، وأم المطيع صقلبية ، وأم الظاهر الفاطمي سودانية .

وكان للمرأة شأن عظيم في عهد الدولة الفاطمية ، فكانت تتدخل في شئون الدولة . واشتهر كثير من النساء بالثراء والبذخ . فقد تمتعت ست الملك أخت الخليفة الحاكم بالحزم ورجاحة العقل واشتهرت بالكرم والحلم وعرفت بالتسامح الديني . ومن نساء العصر الفاطمي الأخير زوجة الظاهر وأم المستنصر . وكانت سودانية ، على ما تقدم . وقد اشتهرت بالعطف على أبناء جلدتها السودانيين الذين كثر عددهم ، وبلغ جندهم خمسين ألفاً . ومن نساء هذا العصر زوجة الخليفة الأمر الطائفة البدوية التي شغف بحماها ومواهاها . ولم يظهر بين طبقة العامة في ذلك العصر نساء كان لهن أثر في الحياة السياسية أو في ترقية المجتمع ، بل كان النشاط في هذه النواحي مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نساء الطبقة الحاكمة .

وقد تمتعت شجر الدر زوجة الملك الصالح أيوب بنفوذ عظيم في الدولة الأيوبية حتى لقد تقلدت سلطنة مصر ردهاً من الزمن . وقد تقربت من أمراء الدولة ونبهتهم الإقطاعات وخفضت الضرائب عن الأهالي واستطاعت بهارتها أن ترد الصليبيين على أعقابهم بعد أن حلت بهم الهزيمة في موقعة المنصورة سنة ١٢٤٩ م .

وقد اشتهر بعض نساء المغرب برجاحة العقل وتدخلن في شئون الدولة . ومن هؤلاء زينب النفزاوية التي اشتهرت بحماها ورجاحة عقلها وظرفها . وقد تزوجها أبو بكر بن عمر اللعتوني الذي عينه عبد المؤمن بن علي أميراً على بلاد المغرب . وقد ذكر ابن الأثير^(٣) في حوادث سنة ٥٠٠ هـ أن ثلاثة أشخاص اجتمعوا ، فتمنى أحدهم ألف دينار يتجسر بها ، وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين ، وتمنى الثالث زوجة يوسف بن تاشفين .

(١) كانت زبيدة لابنة ياقوت بن داود وابنة عم السلطان ملوكشاه .

(٢) انظر الباب الثاني من هذا الكتاب ص ٣٧ .

(٣) الكامل ج ١٠ ص ١٥٦ .

ولما بلغ ابن تاشفين هذا الخبر ، أحضر هؤلاء الثلاثة وأعطى الأول ما تمناه من المال وهو ألف دينار ، وقلد الآخر عملاً من الاعمال ، وقال للشخص الذى تمنى زوجته : « يا جاهل ! ما حملك على هذا الذى لا تصل إليه ؟ » ثم أرسله إلى زوجته ، فتركته فى خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه كل يوم طعاماً واحداً . ثم أحضرته وقالت له : « ماأكلت هذه الأيام ؟ » قال : « طعاماً واحداً ؟ » فقالت : « كل النساء شئ واحد » وأمرت له بمال وكسوة وأطلقتة .

وقد تطور نفوذ المرأة فى عهد على بن يوسف بن على بن تاشفين ، فتدخلت فى شئون الدولة تدخلا أضرب بالملك فى عهده ، « واستولى النساء على الأموال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مُفسد وشريرو قاطع سبيل وصاحب خمر وما خور ، وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزبد تغافلته ^(١) » .

وفى الأندلس كثر زواج المسلمين بالمسيحيات ، وغدا المسلمون يؤثرون اتخاذ أمهات أولادهم من السبايا اللاتي كن يؤتى بهن من شمالى أسبانيا ^(٢) .

ولم يكن شراء الجارية فى الأندلس من الأمور الهينة ، بل كان شراؤها يتم بحضور كاتب العقود ، فتوضح الأسباب التى تطلب الجارية من أجلها بكل دقة . وقد تمتعت المرأة فى عهد الامويين فى الأندلس بنصيب كبير من الحرية وحظ وافر من الاعتبار ، وإن نقص صفاء الجنس العربى كان نتيجة التزاوج من الأسبانيات على الرغم من أن ذريتهم أصبحت تحمل أسماء الآباء .

٧ - الأعياد والمواسم والمواكب والحفلات

(١) الأعياد والمواسم والمواكب

كان العامة فى المشرق الإسلامى يحتفلون بالأعياد الدينية كشهر رمضان ثم يحيون لياليه بتلاوة القرآن الكريم وصلاة التراويح . كما كانوا يحتفلون بعيدى الفطر والأضحى ، فيخرج الناس صبيحة يوم العيد بملابسهم الجديدة إلى المساجد لأداء صلاة العيد وتوزيع الفطرة على الفقراء والمساكين . وكانت الدولة العباسية تحتفل بهذا العيد بحضور الخليفة

(١) المراكشى : المعجب ص ١٧٧ .

(٢) ترنذ : تراث الإسلام ، الترجمة العربية (القاهرة ١٩٣٦) ج ١ ص ١٢ - ١٣ .

مرتديا أنغر الملابس وبصحته كبار رجال دولته . وكان العامة يقفون على جانبي الطريق لنحية الخليفة وهو في طريقه إلى المسجد وهم ينادون : السلام على أمير المؤمنين ونور الإسلام . وكانت بغداد تزين بالأعلام والاقشة الحربية ذات الألوان الزاهية ، وتضرب الطبول وتدق الأبواق . كما كانوا يحتفلون بموسم الحج . فإذا حل اليوم العاشر من شهر ذي الحجة احتفل الناس بعيد الأضحي وذبحت الأضاحي ووزع منها على الفقراء . وكان الصناع ينهزون حلول العيد ليصنعوا تماثيل حيوانية للأطفال ^(١).

ومن الأعياد الدينية عيد الغدير عند الشيعة . وكان معز الدولة بن بويه أول من احتفل بهذا العيد في سنة ٣٥٢ هـ . كما كان العامة يحتفلون بعيد النوروز ، وبأعياد النصارى في الأديرة القريبة من بغداد ، ويحتفلون بالانتصارات الحربية كما حدث في سنة ٤٦٣ هـ حيث احتفل السلطان ألب أرسلان على البيزنطيين في موقعة ملازكرت الشهيرة .

وفي العصر الفاطمي في مصر كانت هناك عدا مواكب الخلفاء المسلمية في أيام السبت والثلاثاء وأيام الجمع والعيد ، أيام دينية أخرى . وكانت الأسمطة تقام ابتهاجا بهذه الأعياد في قصور الخلفاء وتوزع الإنعامات بمقادير وافية . وفيما يلي بيان بأسماء الأعياد التي كان يحتفل بها الفاطميون :

- (١) رأس السنة (٢) أول العام (٣) يوم عاشوراء (وهو يوم مقتل الحسين)
- (٤) مولد النبي صلى الله عليه وسلم (١٢ ربيع الأول) (٥) مولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (٦) مولد الحسن عليه السلام (٧) مولد الحسين عليه السلام (٨) مولد السيدة فاطمة الزهراء (٩) مولد الخليفة الجالس على العرش (١٠) ليلة أول رجب (١١) ليلة نصف رجب (١٢) ليلة أول شعبان (١٣) ليلة نصف شعبان ^(٢) (١٤) موسم ليلة رمضان (١٥) غرة رمضان (١٦) وفاة النيل (١٧) يوم النوروز (١٨) يوم الغطاس (١٩) يوم الميلاد (٢٠) عيد النصر ^(٣) (٢١) خميس العهد ^(٤) .

(١) انظر بدرى محمد فهد : العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (نسخة مخطوطة) ص ١٦٠ وما يليها .

(٢) كانت هذه الليالي الأربع الأخيرة تسمى ليالي الوقود .

(٣) كان للاحتفال بهذا العيد في ١٦ المحرم وهو اليوم الذي أطلق فيه سراح الخليفة الحافظ وجعله في عزلة عن الناس منذ شهر ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) . (ابن ميسر ص ٧٤ و ٧٥) .

(٤) هو الخميس الذي يحتفل فيه النصارى بإنجيلهم ، وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام . وهو أحد الأعياد التي بقيت في عهد الفاطميين مشاركة للنصارى في شعورهم الديني . ولفظ عهد استبدلت خطأ بلفظ =

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون في مناسبات متعددة ، لكنهم عنوا عناية خاصة ببعض المواكب التي كانت تسمى بالمواكب العظام ؛ وهي موكب أول العام ، وأول رمضان ، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدي الفطر والأضحى ، ووفاء النيل^(١) . أما المواكب الأخرى فكانت تسمى بالمواكب المختصرة^(٢) .

(ب) الخطبة في الأزهر :

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤم الناس في الصلاة باعتباره زعيماً للمسلمين . وقد نذب وهو في مرضه الأخير أبا بكر ليصلي بالناس بدلا منه . وكانت إمامة المسلمين في الصلاة من أهم الأدلة التي استند إليها السنيون في أحقية أبي بكر بالخلافة بعد الرسول الكريم . ولفظ إمام تتمثل فيه الصفة الدينية من حيث الإمامة في الصلاة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين ، بل إنها تعتبر ثاني أركان الدين بعد الشهادتين ، ويعدها بعضهم الركن الأول ، لأن الشهادتين تذكران في سائر الأركان . ولذلك نرى الشيعة يستعملون لفظ إمام ، لأنهم يعتقدون أن لأفراد البيت العلوي قوة إلهية مقدسة . كما ورد لفظ إمام في القرآن الكريم بمعنى الزعيم أو الدليل أو الرئيس ، فقال تعالى في سورة الأنبياء (٢١ : ٧٣) : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة »^(٣) . كذلك نرى الخلفاء يحافظون على وظيفة الإمامة في الصلاة لما تدل عليه من صفة الزعامة ، حتى لقد أصبحت الإمامة في الصلاة من أهم أعمال الخلفاء وولاتهم في الأمصار الإسلامية . وقد حرص الخلفاء على إمامة المسلمين في الصلاة بأنفسهم .

وقد عني الفاطميون بتنظيم الإشراف على الأزهر ، فعينوا له فقهاً يتولى الخطابة في صلاة الجمعة والحفلات الدينية بين يدي الخليفة أو نائبه ، كما نظموا شئون المسجد بصفة عامة . وفي أواخر العصر الفاطمي كانت الخطابة تسند إلى رجال الدين ومنهم داعي الدعاة . أما الشئون الخاصة بالدراسة والأسانذة والطلاب فكان يرجع فيها إلى الخلفاء ونوابهم من كبار رجال الدولة الفاطمية .

== عدس ، وسماء أهل الشام خيس الأرز أو خيس البيض ؛ واستمر ذلك إلى اليوم (المقرئى ، خطط ج ١ ص ٤٩٥) .

(١) الفلقشندي ج ٣ ص ٥٠٣ — ٥٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٥٢١ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : كتاب النظم الإسلامية (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٢) ص ٤ — ٥ .

وقد أصبح الأزهر منذ إنشائه مسجد الدولة الفاطمية الرسمي . فكانت تقام فيه صلاة الجمعة وعيدا الفطر والأضحى ، وكان الخليفة يؤم الناس بنفسه . . وقد ركب الخليفة المعز الفاطمي إلى الجامع الأزهر وأم الناس في الصلاة ، وألقى خطبة رائعة كان لها تأثير بالغ في نفوس المصلين . وكانت هذه أول صلاة يقيمها الخليفة الفاطمي في الأزهر . وقد ظل المعز يخطب في هذا الجامع بنفسه في الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان وفي الأعياد حتى تم إنشاء جامع الحاكم بأمر الله ، فأقيمت فيه صلاة الجمعة في شهر رمضان سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) حيث أم الخليفة الحاكم الناس في الصلاة . وأصبحت صلاة الجمعة تقام من حين إلى آخر في بعض المساجد الأخرى ، مثل جامعي راشدة والمقص الذين أنشأهما الحاكم بأمر الله .

وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون على الركوب في الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهر وعمررو على التوالي لصلاة الجمعة ، ويستريح الخليفة في هذا الشهر جمعة ، تسمى « جمعة الراحة » .

وكان صاحب بيت المال يشرف بنفسه في صبيحة كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تأييد المسجد الذي يصلي فيه الخليفة الجمعة ، فيوضع في مقصورة الجامع ثلاث طنافس ديبقية^(١) أو سامانية ، بعضها فوق بعض . وتعلو هذه الطنافس الحصيرة التي يقال إنها كانت لجعفر الصادق الإمام السادس عند الشيعة الاثنا عشرية ، وأحضرت إلى مصر سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) في عهد الخليفة الحاكم^(٢) .

وكان ينصب على جانبي المنبر ستران ، يكتب على الستر الايمن منهما البسملة والفتحة وسورة الجمعة ، وعلى الايسر البسملة والفتحة وسورة المنافقين^(٣) .

وقبل وصول الخليفة بقليل يقف قاضى القضاة يحمل بيده مبخرة ، يبخر بها المنبر والقبعة التي يقف تحتها الخليفة عند إلقاء الخطبة التي كان يقوم بوضعها أحد كتاب البلاط في ديوان الإنشاء . ويبدأ موكب الخليفة من باب الذهب بالقصر الخلفي وعلى رأسه المظلة والطيلسان ، وهو كساء مدور ، ويرتدى الخليفة ثوباً من الحرير الأبيض ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق ، ويحمل قضيب الملك بيده ، ويحف به عدد كبير من القراء

(١) الديبقية نسبة إلى دبيق (قرية بمصر) اشتهرت بالنسيج الفاخر .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة جوينبول) مجلد ٣ ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٣) رقم ٤٣ . الفلشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١١ .

ومن حرس الخليفة الخاص ومن الجنود والاشراف . ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس . وقد ذكر بعض المؤرخين أن الخليفة المعز كان يحيط به في موكب صلاة الجمعة جنده وأولاده الاربعة ، ممتطين الخيل ، وعليهم الخوذات والدروع ، ويتبعهم فيلان . وذكر بعض المؤرخين أن الخليفة الأمر (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) كان يحف به في موكب صلاة الجمعة الفيلة والأسود وهى مزينة بفاخر الكسى ، وعليها الأسلحة اللامعة . وكان يسلم لكل واحد من مقدمى الركاب فى الميمنة والميسرة أكياس الذهب والورق (بكسر الراء ، أى الفضة) ، سوى الرسوم المقررة والهبات والصدقات التى تمنح للناس على طول الطريق . وقد زينت الحوانيت المملوءة بأوانى الذهب والفضة .

وكان الخليفة الفاطمى يركب بين قرع الطبول ورنين النصوص وتلاوة القرآن بنغمات شجية حتى يصل إلى الجامع . ثم يطلق البخور وتغلق أبواب الجامع ويقف عندها الحجاب والبوابون ، فلا يدخل إلا من كان معروفاً من الخواصر والأعيان . ثم يأخذ الخليفة طريقه إلى قاعة الخطابة المخصصة لاستقباله ، ويقوم بحراستها قائد القواد وكبير الامناء ونخبة من حرس الخليفة الذى يظل فى هذه القاعة حتى ينتهى الأذان .

عندئذ يدخل قاضى القضاة ويقول : « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله ! » فيخرج الخليفة يحف به الأستاذون المنسكون ، ويتبعه وزيره الاول ، وجماعة من حرس المدججين بالسلاح ، فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر . ويسنم الخليفة فى مسيره حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر . ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة . فإذا أوماً إليه صعد وقتل يدى الخليفة ، وزر الستين عليه . وبذلك يكون المنبر والقبة أشبه بالهودج . ثم ينزل الوزير ويقتظر على باب المنبر (١) .

ويرجع السبب فى استعمال الستور إلى أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا كسائر الخطباء يرتجلون خطبتهم التى كانت تعد لهذا الغرض فى ديوان الإنشاء . كما يرجع السبب فى كتابة آيات من القرآن بخيوط حريرية حمراء ظاهرة على سترين بوضعان على جانبي الخليفة ، أحدهما عن يمينه ليقراً ما فيه فى الركعة الاولى ، والآخر عن يساره ليقراً ما فيه فى الركعة الثانية ، إلى ما قد يتعرض له الخليفة من الذسيان أو التلغم حال إقامة الصلاة . فقد أثر

(١) ذكر المقرئى أنه إذا لم يكن الوزير صاحب السيف ، بمعنى أنه يجمع فى يده كافة المعاطات المدنية والعسكرية والقضائية ، قام قاضى القضاة بزر الستين .

عن الخليفة الفاطمي الحاكم أنه برغم شغفه بأن تكون مواكبه في غاية الابهة ، رأى أن ينيب وزيره في صلاة الجمعة ، لأنه كان يرتج عليه في الخطبة أحيانا .

وكانت الخطبة التي يلقيها الخليفة الفاطمي قصيرة واشتغل على آية من القرآن . وكان الخليفة يذكر نفسه وأهل بيته بعبارة موجزة ، ويتلو قوله تعالى في سورة النمل (٢٧ : ١٩) « ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » . ثم يدعو الخليفة لآبيه وجده ، ويحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولعلّ كرم الله وجهه ، ولأسلافه الخلفاء ، وأخيرا يدعو لنفسه فيقول : اللهم أنا عبدك وابن عبدك ، لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ، « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (سورة الأعراف ٧ : ١٨٨) .

وكان الخليفة يختم خطبته بالدعاء للوزير وينصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين . فإذا فرغ من خطبته قال : أذكروا الله يذكركم . ثم يصعد الوزير فيجل الستين ، ويظل هو وقاضي القضاة على الباب ، ويقوم الأستاذون المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة .

بعد ذلك يبدأ الخليفة الصلاة ، فيبلغ عنه الوزير ، ثم قاضي القضاة ثم المؤذنون . فإذا انتهت الصلاة خلا الجامع من الناس ، وخرج الخليفة ، والوزير عن يمينه وقاضي القضاة وداعى الدعاة (١) هن يساره ، ويحيط به حرسه الخاص ، ويعود بموكبه على النحو الذي سار عليه في ذهابه إلى الجامع (٢) .

فإذا انتهت الصلاة استراح الخليفة في الجامع بقدر ما توزع الحيات . فكان يعطى للنائب في الخطابة ثلاثة دنانير ، وللنائب في الصلوات الخمس ثلاثة دنانير ، وللمؤذنين أربعة دنانير ، وللمشرف على خزانة الفرش وفراشها ومتوليها لكل ثلاثة دنانير ، ولصبيان بيت المال ديناران . وقد خصصت رسوم للقراء ، ونعم الصدقات الناس من وقت خروج الخليفة من القصر إلى الجامع حتى يعود (٣) .

(١) كان داعى الدعاة يتبع قاضي القضاة .

(٢) القلقشندي : ج ٣ ص ٥٠٩ — ٥١٢ .

(٣) أبو المحاسن : (طبعة القاهرة) ج ٢ ص ١٠٢ — ١٠٤ .

كذلك اهتم الخلفاء الفاطميون بإقامة صلاة العيدين ، فقد ذكر المؤرخون أن الخليفة المعز ركب إلى « مُصَلَّى القاهرة » الذي بناه جوهر خارج باب النصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) . وهنا أقام الصلاة على طريقة الإسماعيلية ، فقرأ في الركعة الأولى : الفاتحة فسورة الغاشية (سورة رقم ٨٨) ، ثم كبر وأطال الركوع والسجود ، فسبح في كل ركعة وسجدة ثلاثين تسبيحة ^(١) . وكان القاضي محمد بن النعمان يبلغ عنه التكبير .

ثم قرأ الخليفة المعز في الركعة الثانية الفاتحة فسورة الضحى (سورة رقم ٩٣) ، ثم كبر وفعل ما فعله في الركعة الأولى ، وجهر بالبسملة ، مقتديا بعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه . ولما فرغ الخليفة من الصلاة ، صعد المنبر وسلم على الناس يمينا وشمالا فقال : « السلام عليكم ورحمة الله ! » . وكان في أعلى المنبر وسادة من ديباج مُثَقَّلٌ أعدت لجلوس الخليفة بين الخطبتين . وكان يصحب الخليفة على المنبر : جوهر الصقلي وابن عمار من رؤساء قبيلة كتامة المغربية ، وشفيق حامل المظلة .

وبعد ذلك نشر العلمان للذان كانا على المنبر : ثم قرأ الخليفة خطبة أخرى بدأها بالبسملة جهرا وأعقبها بالتكبير مرتين . وقد ألقى الخليفة المعز الخطبة في خشوع ، وكانت من الفصاحة والتأثير بحيث استدرت دموع المصلين .

ولما فرغ الخليفة من الخطبة والصلاة انصرف في عساكره ، وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخوذ ، ممتطين الخيل وهم في أحسن زى ، يحف بهم فيلان : فلما وصل الخليفة إلى القصر سمع للناس بالدخول ، فمدت لهم الموائد فأكلوا ما يشتهون ^(٢) .

(ح) الحج

وكان المسلمون يقيمون الاحتفالات ابتهاجا بحلول موسم الحج ، إذ يتوافد الناس من أمهات مدن العراق كواسط والبصرة والكوفة ، بل من المناطق الواقعة شرقي العراق كفارس وخراسان ، فيجتمعون في بغداد ويقيمون هناك في خيام . وكانت الدولة تهتم

(١) التسبيح في الصلاة هو أن يقال في الركوع : « سبحان ربى العظيم » مرة أو أكثر ، كما يقال في السجود : « سبحان ربى الأعلى » مرة أو أكثر كذلك .

(٢) المقرئى : خططه ج ١ ص ٤٥١ ، ٤٨٤ و ج ٢ ص ٤٧ و ٣٦٤ . المقرئى : اتعاط

باستقبال هذه الوفود ، فتمين لهم مواضع لشرب الماء وتقديم لهم الأطعمة وتوفير لهم وسائل الراحة في هذا الموسم . وكان عدد الحجاج يبلغ عدة آلاف . وقد قدر ابن الجوزي هذا العدد بعشرين ألف حاج في سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م)^(١) .

وكانت شوارع بغداد تزخر بالعامّة على اختلاف أعمارهم وأجناسهم لمشاهدة مواكب الحجاج من البلاد المختلفة ، مرتدين الملابس الزاهية .

وكانت الدولة العباسية تعين أمير الحجاج ، ويختار عادة من الأشراف الطالبيين ، وتقيم لذلك احتفالا رسميا يحضره السلطان والأشراف وقاضى القضاة والفقهاء . ويقام هذا الاحتفال في دار الخلافة حيث تخلع الخلع على أمير الحج . ومن هؤلاء الذين تقلدوا إمارة الحج : أبو الحسين بن موسى الموسوى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ، والشريف المرتضى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) . ويرجع الاحتفال بتنصيب أمير الحج إلى عهد الخلفاء الراشدين^(٢) .

وقد أمدنا الخزرجى^(٣) (١٤٠٩ / ٨١٢) بمعلومات قيمة عن التقاليد والحفلات التى كانت تقام ببغداد في موسم الحج . وقد اشتملت هذه المعلومات على بيان بالهدايا التى تقدم والخلع التى تخلع على الناس ، فذكر في حوادث سنة ٦٥٦ هـ أن أم الخليفة المستعصم عزمت على أداء فريضة الحج ، فعين الخليفة أيبك الخاص الدويدار الصغير أميراً للحج ، فحمل معه نفقات الحج ، وهى خمسون ألف دينار ، ومعها الكسوة الشريفة وكسوة حجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وصدقة فقراء الحرمين ، ومقدرات السكبة ، ثم أخرجت باقى السبيل^(٤) ، وهى سبيل الخاص ، ويشتمل على مائتى جمل ، وسبيل المستنصر بالله ويشتمل على مائة وخمسين جملا ، وسبيل الناصر لدين الله ويشتمل على مائة جمل ، وسبيل أم الخليفة الناصر ويشتمل على ثمانين جملا ، وسبيل الخلاطية زوجة الخليفة الناصر .

(١) المنتظم ج ٨ ص ٤٤ .

(٢) انظر واجبات أمير الحج في كتابي تاريخ الإسلام السياسى (الطبعة السابعة ١٩٦٤) ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

(٣) المسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك ، مخطوطة مصورة بمكتبة المجمع العلمى العراق رقم ٥٥ ، ٣ أجزاء ، ورقة ١٦١ .

(٤) جمع سبيل ، ويراد بذلك أن ينيب شخص آخر ليحج عنه نظير اجر معين ، والسبيل أيضا السقاية .

وفي هذه السنة نفسها عازمت أم الخليفة المستعصم على الحج . ففي اليوم الثالث والعشرين من شهر شوال خرجت المحفطان^(١) والشمسة^(٢) ، وقد ألبست إحداهما في باب الحجر ، وبين يديها أستاذ الدار ووكيل الخليفة وجماعة من الخدم ، وحاشية دار الخلافة مشاة . ثم خرجت جمال باب الحجر ، وهي تربو على ألف جمل تحمل مختلف المواد من بغداد إلى مكة . وقد خصص لكل مادة من المواد التي نقلت معهم عدد معين من هذه الجمال نقل عليها صناديق التشریفات والخيم والسراقات والملابس المعدة للصدقة ، والكسوة والاطعمة والأشربة والحلوى والأبلوج^(٣) وجرار الخزف والأواني الزجاجية والخنازير وحوامج المطبخ وآلة الخلاويين والقصابين والخبازين وقرب الماء العذب وعلف الجمال .

وعما ذكره المقریزی نرى أن نفقات قافلة الحج بلغت في عهد وزارة أمير الجيوش بدر الجمالی ١٣٠.٠٠٠ دينار ، منها ثمن طيب وحلواء وشمع ١٠.٠٠٠ دينار ، ونفقة الذين يرافقون الكسوة ٤.٠٠٠ دينار ، وما يدفع لحماية القافلة وأجر الجمال وحفر الآبار في طريق قافلة الحج ٦.٠٠٠ دينار . وقد ذكر المقریزی أن نفقات قافلة الحج بلغت في عهد وزارة البازوری ٣٠٠.٠٠٠ دينار^(٤) .

(٥) المفاصل : الزواج

اقرنت حفلات الزواج بالبذخ والإسراف وحب الظهور . فإن السلطان طغرل بك الذي تقدمت به السن خطب بعد موت زوجته سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦١ - ١٠٦٢ م) ابنة الخليفة العباسي القائم (وقيل أخته) . ومع أن هذا الطلب لم يلق قبولا من الخليفة أول الأمر لم يسمعه إلا القبول ، وعقد الزواج في مدينة تبريز على صدق قدره ثلثمائة ألف دينار ، بالإضافة إلى خراج واسط وأعمالها . ثم غادر طغرل بك بغداد إلى بلاد الجبل (جنوبي بحر الخزر) ، فوصل إلى الري ومعه ابنة أخيه أرسلان خاتون التي تزوج منها

(١) وتشبه اليهودج : سميت بذلك لأن الجند كانوا يحفون بالخليفة وهو راكب في المناسبات المختلفة .
(٢) الشمسة المحفة كالمهوج ، والشمسة هي المظلة ، وهي عبارة عن قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب تحمل على رأس الخليفة أو السلطان في العيدين . راجع صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ . والشمسة هي الستور التي تسمى بها الكعبة . وهي أيضاً نافذة مربعة في أعلى الحيطان ، تترك مفتوحة عادة أو تزين بالزجاج لمرور الهواء أو الضوء فقط . انظر ما ذكرته عن هذا اللفظ في كتابي تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة ص ٥٤١ - ٥٤٢) هامش رقم (٤) .

(٣) بضم الألف المهموزة ، ويسميه الناس سكر الثبات .

(٤) خطط ج ١ ص ٤٥٠ . انظر كتابي تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٦٥ .

الخليفة ، فرض السلطان وهو في الطريق ومات في شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ^(١).

وقد وصف ابن الأثير^(٢) عند كلامه على حوادث سنة ٤٨٠ هـ زواج ابنة السلطان ملكشاه السلجوقي إلى الخليفة العباسي المقتدى (٤٦٧ — ٤٨٧ هـ) والحفلات التي أقيمت بمناسبة هذا الزواج . ففي شهر المحرم من هذه السنة نقل جهاز ابنة السلطان إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي وأربعة وسبعين بغلاً مجللة (مكسوة) بأنواع الديباج ، وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقاً من الفضة لا يقدر ما تحويه من الجواهر والحلى بثمن ، كما اشتمل الجهاز على مهد عظيم مزين بطبقة سميكة من الذهب . وقد أرسل الخليفة الوزير أبا شعجاع إلى ترکان خاتون زوجة السلطان ملكشاه (وكان قد خرج عن بغداد للصيد) ، يحمل التحف والمشاعل ومحفة بلغت غاية الحسن . وقال الوزير لترکان خاتون إن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يذكرنا بقوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)^(٣) ، وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره ، فأجابت بالسمع والطاعة ، وحضر الوزير نظام الملك ومن معه من أعيان الدولة ، ومع كل منهم عدد كبير من الشمع والمشاعل ، وجاء نساء الأمراء ومن دونهم كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وبين أيديهن الشمع والمشاعل يحملها الفرسان . ثم جاءت « الخاتون » ابنة السلطان في محفة مزينة بالذهب والجواهر . وقد أحاط بها مائتا جارية من الأتراك في المراكب الجميلة التي سارت إلى دار الخلافة . وكانت ليلة مشهودة لم يُرَ ببغداد مثلاً . فلما كان الغد دعا الخليفة أمراء السلطان إلى السباط ، وخلع عليهم وعلى كبار القواد ، وأرسل الخلع إلى زوجة السلطان وإلى سائر الأميرات .

وفي سنة ٥٠٢ هـ تزوج الخليفة المستظهر (٤٨٧ — ٥١٢ هـ) أخت السلطان محمد بن ملكشاه بأصبهان على صداق قدره ١٠٠٠٠٠ دينار ، وتولى كتابة العقد القاضي أبو العلاء صاعد النيسابوري . وكان الوزير أحمد بن نظام الملك وكيلًا عن الخليفة . ونثرت الجواهر والدنانير على الحاضرين^(٤).

(١) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨ — ٢١ . ابن الأثير : السكامل ج ١٠ ص ٧ ،

٩ — ١٠ .

(٢) السكامل ج ١٠ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٣) مقتبسة من سورة النحل .

(٤) ابن الأثير : السكامل ج ١٠ ص ١٧٨ و ١٨٣ .

وفي سنة ٥٣١ هـ خطب الخليفة المقتدى (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) فاطمة ابنة محمد بن ملكشاه . وكان الوزير أبو القاسم الزينبي وكيلًا عن الخليفة في عقد الزواج . وحضر العقد أيضاً أخوها السلطان مسعود . وقد زُفّت فاطمة إلى الخليفة في سنة ٥٥٣ هـ . ويذكر ابن خلكان (١) أن فاطمة اشتهرت بحسن التدبير ، ولكنها لم تعمر طويلاً مع الخليفة ، إذ توفيت في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٥٤٢ هـ .

وقد آمدنا الخزر جي (ت ٨١٢) (٢) بمعلومات قيمة عن زواج مجاهد الدين أبيك الدويدار المستنصرى . ففي ليلة زفاف مجاهد الدين ، أرسل إلى داره كثير من أواني الذهب والفضة والثياب والجواهر يزيد ثمنها على ثلثمائة ألف دينار . وقد عُرِضت الهدايا والتحف على الأمير مجاهد الدين . وكانت تتألف من ممالك الترك والخدم والأحباش والثياب والطيب والخيل وغيرها مما قدمه الزعماء وكبار رجال الدولة ، كما أرسل إليه الخليفة المستنصر (٦٢٣ — ٦٤٠ هـ) ثلثمائة ألف دينار عينا .

٨ — أوقات الفراغ :

كان الناس يقضون أوقات فراغهم في الاستماع إلى الغناء أو الموسيقى أو في حضور مجالس الوعظ ومجالس القصص أو مشاهدة حفلات سباق الخيل أو اللعب بالطيور وغير ذلك . .

ومجالس الوعظ كالمدارس الشعبية . وقد ظلت المساجد تؤدي مهمة الوعظ حتى أنشئت المدارس ، كالمدرسة النظامية التي أسست في سنة ١٠٦٤/٤٥٧ هـ ، ومدرسة أبي حنيفة (١٠٦٩/٤٥٩) . وتمتاز مجالس الوعظ عن مجالس التثاقفة بحضور الناس فيها دون شرط أو قيد . وهي تعالج مسائل الدين والدنيا . ولا شك أنه كان لمجالس الوعظ أثر ملحوظ في حفظ بعض التراث الإسلامي ولا سيما ما يتعلق منه بالقيم والمثل الإسلامية العليا .

ومجالس القصص تستهوى العامة عادة . فهي تعقد في الطرقات وفي المنازل وفي المساجد . ويختلف القاص عن الواعظ في أنه يقص حكايات الأقدمين وما تنطوى عليه من شجاعة أو صفات عالية كالنجدة والكرم والوفاء ونحوها . وعمل الواعظ ينطوى على تحذير

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٥ .

(٢) كتاب المسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك ، انظر ناجي معروف كتاب المجالس

الناس من عذاب الله ويحض على التمسك بأحكام الدين . ومجالس القصص هي تراث شعبي أصيل ، ورثه العرب عن آباؤهم الأقدمين . لذلك فإن مادة القصص تقوم على ذكر أيام العرب وأخبار الأمم المجاورة .

وقد ذكر القرآن الكريم كلمة « قَصَصَ » في مواضع كثيرة ^(١) . وهذا دليل واضح على مدى شيوع القصص عند العرب .

وقد تمتع رجال القصص الديني باحترام العامة ورجال الحكم ، على حين وقف الفقهاء من القصاصين العامين موقفا عدائيا ورموهم بالجهل وتضليل العامة .

وقد ذكر نظامى عروضى ^(٢) أن الأمير طغانشاه بن ألب أرسلان حاكم هراة في عهد أبيه كان ذات يوم يلعب النرد ^(٣) مع البديهي الشاعر . وكان اللعب على عشرة آلاف دينار . ولما أوشك اللعب على الانتهاء « كان عند الأمير حجران في بيت ^(٤) » « الشيش » ولأحمد البديهي حجران ^(٥) في بيت « اليك » واللعب للأمر . فاحتاط كثيراً ، ثم رمى ليأتى « بالدش » فجاء الزهر « هَبَيْكَ » . فغضب الأمير غضبا شديداً وخرج عن طبعه ، واشتد به الغضب ، فكان يمسك السيف كل لحظة ، وارتعدت فرائص الندماء . فقد كان أميراً حدثاً ومَقْمُوراً ^(٦) محرّجاً ^(٧) . فنض أبو بكر الأزرق واقترّب من المطربين وأنشد هذا الدوييت ^(٨) .

إذا طلب دوش يأتى الهبيك

حتى لا تظن أن الزهر لا يعدل

فإن هذه « الضربة » التي ضربها هي مقصد الملك

جاءت على الخدمة ساجدة على الأرض ^(٩) .

(١) أنظر سورة القصص ٢٨ : ٢٥ ، وسورة الأعراف ١٠١ : ٧ ، وسورة يوسف ١٢ : ٣ .

(٢) جهار مقاله ، ترجمه من ٥١ — ٥٢ .

(٣) وتسمى هذه اللعبة عند جمهور المصريين « الضمينة » .

(٤) يعنى إحدى خانات لوحة هذه اللعبة .

(٥) هو حجر من أحجار النرد عليه علامتان .

(٦) أى أنه يلعب القمار .

(٧) أناثى يحب أن يخرج زميله .

(٨) نوع من أوزان الشعر يجرى على خلاف بحور الشعر التي أقرها العرب وهي ثمانية عشر بحراً .

(٩) يقصد أن الدش قد جاء كما أراد الأمير ، إلا أنه احتراما للأمير قد وضع وجهه على الأرض فظهر الهبيك . وهذا يدل على مبلغ استهتار الأمراء بالشعوب وأنايتهم وحجهم للسيطرة .

وكان السلطان ملكشاه السلجوقي مولعاً بلعب الجوكان ولعبة البولو . وكان كثيراً ما يخرج للصيد ^(١) . اصطاد ذات مرة طيراً كثيراً ، فأمر بعده ، فسكران ، كما قيل ، عشرة آلاف ، فتصدق بعشرة آلاف دينار ، وقال لئنني أخاف من الله كيف ازهدت أرواح هذه الحيوانات دون سبب يدعو لاستعمالها في الطعام ، وفرق كثيراً من الثياب والأموال بين أصحابه . وكان كلما صاد شيئاً من الطائر أو الحيوان تصدق بعده دنائير ^(٢) . وقد ضرب المثل بمهارة ملكشاه في الصيد ، حتى قيل إنه كان يحتفل ببناء المآذن من جماجم وقرون الحيوانات التي اصطادها . وقد بلغ من ولعه بالصيد أنه أمر بأن يحتفظ بسجل خاص لكل ما كان يصيده في كل مرة ، حتى قيل إن ما صاده بلغ سبعين غزالاً في اليوم . وقد رأى مؤلف كتاب « راحة الصدور » نفسه أحد هذه السجلات بخط الشاعر أبي طاهر الخانوي الذي نظم ديواناً بعد من أقدم دواوين الشعر الفارسي ، عنوانه « مناقب الشعراء » ^(٣) . وليس لهذا الديوان وجود الآن .

وقد سارت مهارة السلطان ملكشاه في الصيد على كل لسان ، حتى إنه بنى في السبعيني بطريق مكة منارة من جماجم الحيوانات التي اصطادها بنفسه ، كما بنى منارة أخرى بمائلة ببلاد ما وراء النهر ^(٤) .

ومن أنواع التسلية اللعب بالطيور ويقصد بها الحمام ، وتربيته هواية محببة إلى كثير من الناس ^(٥) . ولم يكن اللعب بالطيور مقصوراً على العامة ، فقد شاركهم في ذلك الطبقات الأخرى على اختلاف مستوياتها الاجتماعية . واستمر اللعب بالطيور والاهتمام بها طوال العصر العباسي الثاني . ولكن أكثر الناس كلفاً بها هم الخصيان . وقد عني الخلفاء بالطيور فاستخدموها في المراسلة ، فاقتنوا أجودها وحسنوا سلالتها ^(٦) .

وقد عملت بعض الحكومات على محاربة هذه الهواية ، لأن بعض الشباب اتخذوها وسيلة للنظر إلى نساء الجيران وإفلاق راحة الناس وما يستتبع ذلك من الصياح ورعى الأحجار وتساقطها على سطوح المنازل المجاورة ^(٧) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٥٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٧٩ .

(٣) Browne, II, 183—184 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧٩ .

(٥) الدميري : حياة الحيوان الكبرى ج ١ ص ٣٢٧ .

(٦) الغزولي : مطلع البدور في منازل السرور ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٧) الدميري ج ١ ص ٣٢٧ ، ٣٣٣ .

وكان سباق الخيل من أحب ألوان التسلية عند الخلفاء والأمراء والولاة وكبار رجال الدولة . وقد أباح الفقهاء هذه الرياضة على ألا تكون وسيلة للحصول على المال ، لما فيها من إعداد الجند لركوب الخيل عند نشوب الحرب . وقد يبلغ من شغف الناس بالسباق أن كان السباق يستولى في بعض الأحيان على الحصان المسبوق^(١) .

وسباق الخيل هواية قديمة في بلاد العراق ، وكان الخلفاء يحرسون على مشاهدة هذه الرياضة . ومن الخلفاء الذين عنوا بها المقتدر (ت ٣٢٠ هـ) . كما كان العامة يحرسون على مشاهدة سباق الخيل ويبدرون إلى تهنئة الفائز . وكانت الفروسية ، شأنها في كل زمان ، تستهوى نفوس الشباب ، وأصبح من الشائع التدريب على الرمي^(٢) .

وقد وصف الفقيه القضاعي (ت ٤٥٤ هـ) عرض الخيل فقال إنه من عجائب الإسلام الأربعة ، وهي هذا العرض ورمضان بمكة والعيد بطرسوس والجمعة ببغداد . وقد أضاف هذا الفقيه المؤرخ أنه بقي منها في أيامه شهر رمضان بمكة والجمعة ببغداد^(٣) .

وكانت حلبة السباق بمثابة الأعياد لما كان يصحبها من إقامة معالم الزينة وركوب الغلمان والعساكر على كثرتهم بالعدد الكاملة والأسلحة التامة . وفي هذه الحلبات يجلس الناس لمشاهدة السباق ، كما جرت عادتهم بمثل ذلك في الاحتفال بالأعياد .

وقد عنى الخلفاء الفاطميون بعرض الخيل قبل سيرها في الموكب ، فيجلس الخليفة على مرتبة عالية في الشباك^(٤) .

(١) متر : الحضارة الإسلامية : ترجمة ج ٢ ص ٢١٥ .

(٢) ابن الجوزي . المنتظم ج ٩ ص ٤٩ .

(٣) المقرئ : خطط ج ١ ص ٣١٨ — ٣١٩ .

(٤) وهو بناء مغلق من ثلاث جهات ومفتوح من الجهة الرابعة التي قد يوضع فيها حاجز من

الحديد . المقرئ : خطط ج ١ ص ٤٧٧ .

مصادر الكتاب

أولاً — المصادر العربية والفارسية

- ١ — ابن الأثير (ت ٦٣٠ / ١٢٣٢) : على بن أحمد
- ٢ — السكامل في التاريخ ، ١٢ جزءاً (القاهرة ١٢٩٠ هـ)
- ٣ — التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، ج ٢ من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخون الشرقيون .
- ٤ — الإدريسي (ت ٦٤٩ / ١٢٥١) : الشريف محمد بن عبد العزيز
- ٥ — نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان (رومة ١٥٩٢)
- ٦ — المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (لندن ١٨٩٤)
- ٧ — خريطة الإدريسي (طبعها كنراد ميلر ١٩٢٦) والمجمع العلمي العراقي .
- ٨ — الإدقوى (ت ٧٤٨ / ١٣٤٧)
- ٩ — الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد (القاهرة ١٣٣٣ / ١٩١٤)
- ١٠ — ابن اسفنديار (ت ٦١٧ / ١٢٢٠) : محمد بن الحسن
- ١١ — تاريخ طبرستان ، انتهى من تاريخه سنة ٦٠٦ هـ ، ثم أكمله مؤرخ آخر إلى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) . حققه عباس إقبال (القاهرة ١٣٢٠ هـ)
- ١٢ — ابن لياس (ت ٩٣٠ / ١٥٢٣) محمد بن أحمد
- ١٣ — بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ويعرف بتاريخ مصر .
- ١٤ — أجزاء (بولاق ١٣١١ — ١٣١٢ هـ)
- ١٥ — ابن بسم (ت ٥٤٢ / ١١٤٧) : أبو الحسن علي
- ١٦ — الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨ هـ — ١٣٦٣ م)
- ١٧ — ابن بطوطة (ت ٧٧٩ / ١٣٧٨) أبو عبد الله محمد
- ١٨ — تحفة النظار في غرائب الأمصار ، ٤ أجزاء ، طبعه وترجمه إلى الفرنسية ديفرييري وسامجونيبي (باريس ١٨٦٩ — ١٨٧٩) ، والقاهرة ، جزآن ١٣٤٦ / ١٩٢٨ .
- ١٩ — البغدادى (ت ٤٦٣ / ١٠٧٠) : الحافظ أبو بكر الخطيب
- ٢٠ — تاريخ بغداد ، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٣٤٩ / ١٩٣١)
- ٢١ — البكري (ت ٤٨٧ / ١٠٩٧) : عبيد الله الأندلسي
- ٢٢ — كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، طبعه دى سلان والطبعة الثانية (الجزائر ١٩١١) .
- ٢٣ — دى بور : ت . ج .
- ٢٤ — تاريخ الفلسفة في الإسلام (الترجمة بالانجليزية ، لندن ١٩٣٣) ، ترجمة أبي ريده (الطبعة الثانية ، القاهرة)
- ٢٥ — البيروني (ت ٤٤٠ / ١٠٤٨) : أبو الريحان محمد
- ٢٦ — (م ٤٢ — تاريخ الإسلام ج ٤)

١٣ — الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبعة أ . سغاو (لندن ١٨٧٩)

وليزج ١٨٧٨ — ١٨٧٩ .

١٤ — تاريخ الهند ليزج ١٩٢٥) ترجمه إلى الانجليزية أ . سغاو لندن ١٨٨٧ .

التطيلي (ت ٥٦٩ / ١١٧٣) بنيامين التباري الأندلسي

١٥ — رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد (بغداد ١٩٤٥) .

جب : سير هاملتون

١٦ — دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمه عن الانجليزية لإحسان عباس ، ومحمد نجم ، ومحمود

زايد (بيروت ١٩٦٤) .

ابن جبير (ت ٦١٤ / ١٢١٧) : أبو الحسن محمد

١٧ — رحلة ابن جبير ، طبعة و . رايت (ليدن ١٨٥٢) ، ترجمها إلى الانجليزية

برود هيرست (لندن ١٨٥٢) .

جرجيس المكي (ت ٦٨٠ / ١٢٧٣) عبد الله .

١٨ — المجموع المبارك ، نشره المستشرق أربنيوس مع ترجمته اللاتينية (ليدن ١٦٢٦) .

وترجمه فانيير إلى الفرنسية (١٦٥٧) .

الجزنائي : أبو الحسن علي

١٩ — زهرة الآس في بناء مدينة فاس (تلمسان ١٩٢٢) ، (فاس ١٩٢٢)

الجلدي : عمر بن علي (ألفه سنة ٥٨٦ هـ)

٢٠ — طبقات فقهاء اليمن ، حققه فؤاد سيد (القاهرة ١٩٥٧) .

الجوزجاني

٢١ — كتاب طبقاتي ناصري ، طبعه نساو ليز ، وترجمه رافيرتي في سلسلة مكتبة الهند ، ويتناول

الدول المتصلة بالهند . ألفه بعد فتح بغداد (٦٥٦ هـ) بستين

ابن الجوزي (ت ٥٩٧ / ١٢٠٠ — ١٢٠١) : أبو الفرج عبد الرحمن .

٢٢ — المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (الهند ١٣٥٨ هـ) .

الجويني (ت ٦٨١ / ١٢٨٣) : علاء الدين عطا ملك

٢٣ — تاريخ جهان كشا (أو تاريخ فاتح العالم) ٣ أجزاء سلسلة مجموعة جب التذكارية

حققه الأستاذ محمد عبد الوهاب القزويني ، نشر المستشرق هوتسا الفصلين الثالث والأخير

من هذا الكتاب .

شلي : أحمد

٢٤ — التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٦٠ — ١٩٦٤)

٢٥ — المجتمع الإسلامي (القاهرة ١٩٦٣) .

حاجي خليفة (ت ١٠٦٧ / ١٦٥٧) : مصطفى

٢٦ — كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، طبعة فلوجل ، ٧ أجزاء (ليزج ولندون

١٨٥٣ — ١٨٥٨) .

ابن حزم (ت ٤٥٦ / ١٠٦٤) أبو محمد علي

٢٧ — الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ) .

حسين أمين

- ٢٨ — تاريخ العراق في العصر السلجوقي (بغداد ١٣٨٥ / ١٩٦٥) .
 ابن خلدون (ت ٨٠٨ / ١٤٠٥) : عبد الرحمن بن محمد
 ٢٩ — العروديون المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٧٤ هـ ، بيروت ١٨٨٦ م) .
 ٣٠ — مقدمه ابن خلدون (بيروت ١٩٠٠) ، وترجمها إلى الفرنسية دي سنان وإلى الإنجليزية
 رودثال .
 ابن خلكان (ت ٦٨١ / ١٢٨١) : شمس الدين أحمد .
 ٣١ — وفيات الأعيان ، مجلدان (القاهرة ١٣١٠ هـ) . ٦٠ مجلدات (القاهرة ١٩٤٨) .
 ترجمه إلى الإنجليزية البارون دي سنان .
 الدباغ (ت ٦٩٦ / ١٢٩٦) : عبد الرحمن .
 ٣٢ — معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، ٤ أجزاء (تونس ١٣٢٠ هـ) .
 ابن دقاق (ت ٨٠٩ / ١٤٠٦) : إبراهيم بن محمد المصري
 ٣٣ — الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٤ ، ٥ (القاهرة ١٣٠٩ / ١٨٩٣) .
 ابن أبي دينار (ت ١١١٠ / ١٦٩٨) : محمد بن أبي القاسم القيرواني
 ٣٤ — المونس في ذكر بلاد إفريقية وتونس (تونس ١٢٨٦ هـ)
 الدفوري : عبد العزيز
 ٣٥ — النظم الإسلامية (بغداد ١٩٥٠)
 ٣٦ — دراسات في العصور الإسلامية المتأخرة (بغداد ١٩٤٥)
 رشيد الدين (ت ٧١٨ / ١٣١٨) : فضل الله الهمداني
 ٣٧ — جامع التواريخ ويتناول تاريخ المغول ، سلسلة جب التذكارية (لندن ١٩١٠) ترجمه
 إلى الفرنسية « كترمير » .
 الحريري (ت ٥١٥ / ١١٢١) : أبو محمد القاسم البصري
 ٣٨ — مقامات الحريري (المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة)
 ابن حزم (ت ٤٥٦ / ١٠٦٤) : أبو محمد علي
 ٣٩ — الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ)
 ٤٠ — جهرة أنساب العرب ، طبعة عبد السلام هارون ، دار المعارف (القاهرة ١٩٦٢) .
 حسن إبراهيم حسن
 ٤١ — تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي الاجتماعي ط ٧ جزء أول (القاهرة ١٩٦٤) ،
 جزء ثان (القاهرة ١٩٦٤) ، جزء ثالث (القاهرة ١٩٦٥) ، ترجم إلى الفارسية والأردية .
 ٤٢ — تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٤) .
 ٤٣ — النظم الإسلامية بالاشتراك ، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٢) .
 ٤٤ — اليمن البلاد السعيدة (القاهرة ١٩٥٨) .
 ٤٥ — انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ، الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٦٤) .
 الراوندي (ت ٥٩٩ / ١٢٠٢) : محمد بن علي
 ٤٦ — راحة الصدور وآية السرور ، ترجمه إبراهيم أمين ، ونشر النص محمد إقبال ، سلسلة
 جب التذكارية (لندن ١٩٢١) .

زامباور : لدوارد فون

- ٤٧ — معجم الأنساب والأميرات الحاكمة ، أخرجه الدكتور زكى محمد حسن ، وحسن أحمد محمود ، جزآن (القاهرة ١٩٥١)
ابن أبى زرع (ت ١٣٢٦/٧٢٦) : أبو الحسن على
٤٨ — الأنيس المطرب بروى القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس (الرباط ١٩٣٦)

زهير (ت ١٢٥٨/٦٥٦) : أبو الفضل البهاء

- ٤٩ — البهاء زهير (تأليف الشيخ مصطفى عبد الرازق) القاهرة ١٣٤٨/١٩٣٠
زيادة : نيقولا

٥٠ — الحسبة والمحاسب فى الإسلام (بيروت ١٩٦٢) .

زيدان : جرجى

- ٥١ — تاريخ التمدن الإسلامى ، ٥ أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٥) .

زيدان : عبد الرحمن

- ٥٢ — لمحات أعلام الناس بجمال مدينة مكناس ، ٥ أجزاء (الرباط ١٩٢٩) .

- ٥٣ — العز والصولو فى معالم الرتبة (الرباط ١٣٨١/١٩٦١) .

السبكى (ت ١٣٦٩/٧٧١) : عبد الوهاب تاج الدين

- ٥٤ — طبقات الشافعية ، ٦ أجزاء (القاهرة ١٣٢٤ هـ)

سترينج : جى لى

- ٥٥ — بغداد فى عهد الخلافة العباسية ، ترجمه بشير فرانسيس ، مطبعة الرابطة (بغداد ١٣٧٣/١٩٥٤) .

- ٥٦ — بلدان الخلافة الشرقية ، مطبعة الرابطة (بغداد ١٣٧٣/١٩٥٤) .

السخاوى (ت ١٤٩٦/٩٠٢) : أبو الحسن على

- ٥٧ — تحفة الأحباب ونبية الطلاب فى المخطوط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات (القاهرة ١٣٥٦/١٩٣٧) .

ابن سعيد (ت ١٢٧٥/٦٧٣) : على بن موسى الأندلسى

- ٥٨ — كتاب المغرب فى حلى المغرب والشرق فى حلى الشرق (ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩) ،

الساوى : أبو العباس أحمد

- ٥٩ — الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٤ مجلدات (القاهرة ١٩١٠ — ١٩١٢) .

- ١٠ مجلدات (الدار البيضاء ١٩٥٤) .

السمرقندى : أحمد بن عمر نظامى عروضى

- ٦٠ — چهار مقالة (ليدن ١٣٢٧ هـ) ترجمه إلى الإنجليزية لدوارد براون ، وإلى العربية

عزام والحشاب ، مع تعليقات ميرزا محمد .

السمعانى (ت ١١٦٦/٥٦٢ — ١١٦٧) : القاضى أبو سعيد عبد الكريم .

- ٦١ — كتاب الأنساب ، سلسلة جب التذكارية ، ج ٢٠ (لندن ١٩١٢) .

ابن سيدة (ت ١٠٦٥/٤٥٨) : أبو الحسن على الأندلسى

- ٦٢ — كتاب المخصص ، ٢٠ جزءا (القاهرة ١٣٢١ هـ) .
 السيوطي (ت ٩١١ / ١٥٠٥) : جلال الدين عبد الرحمن
 ٦٣ — حسن المعاصرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزآن (القاهرة ١٢٣٧ هـ) ، ترجمه إلى
 الانجليزية . هـ . جريت (كلكتا ١٨٨١) .
 ٦٤ — تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٣٥١ هـ) .
 أبو شامة (ت ٦٦٥ / ١٢٦٧) .
 ٦٥ — الروضتين في أخبار الدولتين ، مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ، المؤرخون الشرقيون ،
 المجلد الثالث ، (القاهرة ١٢٨٧ هـ)
 أبو شجاع (ت ٤٨٨ / ١٠٩٥) : محمد بن الحسين الروذراوردي
 ٦٦ — ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه ، طبعة أمدرود ، ترجمه إلى الانجليزية أمدرود ، (أكسفورد
 ١٩٢١) .
 ابن شداد (ت ٦٣٢ / ١٢٣٤) .
 ٦٧ — النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية ، مجموعة تواريخ الحروب الصليبية ، المؤرخون
 الشرقيون ، المجلد الثالث ، (القاهرة ١٣١٧) .
 الشيزري (ت - حول ٥٨٩ / ١١٩٣) : عبد الرحمن بن نصر
 ٦٨ — نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، طبعة السيد الباز العربي (القاهرة ١٣٦٥ / ١٩٤٦)
 أبو صالح (ت ٦٠٥ / ١٢٠٨) : الأرمي .
 ٦٩ — كتاب كنائس وأديرة مصر ، طبعة ب . ليفتس (أكسفورد ١٨٩٥) .
 الطرطوشي (ت ٥٢٠ / ١١٢٦) : أبو بكر محمد .
 ٧٠ — سراج الملوك (القاهرة ١٢٨٩ هـ) .
 ابن طباطبا (ت ٧٠٩ / ١٣٠٩) : محمد بن علي ويعرف بابن الطاطلي .
 ٧١ — الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (القاهرة ١٣٤٥ / ١٩٢٧) ، ترجمه
 إلى الإنجليزية هويتنج (لندن ١٩٤٧) .
 الطوسي (ت ٤٦٠ / ١٠٦٧) : محمد بن الحسن
 ٧٢ — فهرست الشيعة (كلكتا ١٨٥٥) ، النجف (١٣٨٠ / ١٩٦١) .
 ابن أبي طي (ت ٦٣٠ / ١٢٣٢) : يحيى بن حميدة
 ٧٣ — شرح لامية العرب للشنفرى
 ابن عبد الحق (ت ٧٣٩ / ١٣٣٨) .
 ٧٤ — مرصد الاطلاع ، أربعة أجزاء (لندن ١٨٥٣) .
 العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧ / ١٢٠٠ - ١٢٠١) : أبو عبد الله محمد
 ٧٥ — زبدة النصر ونخبة العصرة ، طبعة هوتسما (لندن ١٨٨٦ م) .
 عبد اللطيف (ت ٦٢٩ / ١٢٣١) : موفق الدين البغدادي
 ٧٦ — الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، نشره وترجمه
 دى ساسي (باريس ١٨١٠)
 ٧٧ — مختصر تاريخ مصر ، ترجمة ج . هوايت (أكسفورد ١٨٠٠)
 عبد النعيم حسنين

- ٧٨ — سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩) .
 العتيبي (ت ٤٢٨ / ١٠٣٧) : أبو نصر
 ٧٩ — حياة السلطان محمود الغزنوي المسمى تاريخ اليميني . جزآن (القاهرة ١٢٨٦ هـ)
 ابن عذارى (ت القرن السابع الهجري) : أبو عبد الله محمد المراكشي .
 ٨٠ — البيان المغرب في أخبار المغرب ، ٣ أجزاء ، طبعة دوزي (ليدن ١٨٤٨ - ١٨٥١) .
 ابن عربي (ت ٦٣٨ / ١٢٤٠) : محي الدين
 ٨١ — كتاب فصوص الحسم (نشره الدكتور أبو العلا عفيفي (القاهرة ١٩٤٦) .
 الغزولي (ت ٨١٥ / ١٤١٢) : علاء الدين الدمشقي
 ٨٢ — مطالع البدور في منازل السرور (القاهرة ١٣٠٠ هـ)
 علام : عبد الله
 ٨٣ — الدعوة الموحدية بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤) .
 العلي : صالح أحمد
 ٨٤ — المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز (بحث مستل من المجلد الحادي عشر لمجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٣٨٣ / ١٩٦٤) .
 عمارة اليميني (ت ٥٦٩ / ١١٧٤) .
 ٨٥ — تاريخ اليمن (طبعة هنري كاسيل ، لندن ١٨٩٢) .
 الغزالي (ت ٥٠٥ / ١١١١) : الإمام أبو حامد
 ٨٦ — إحياء علوم الدين ، ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٤٨ هـ)
 ٨٧ — المنقذ من الضلال (دمشق ١٣٥٣ / ١٩٣٤)
 ٨٨ — بداية النهاية ، ومنه نسخ خطية ، بمكتبات باريس وبرلين والجزائر .
 ٨٩ — فضائح الباطنية ، النص العربي والترجمة الألمانية (طبعة أ . جولدسمير) ليدن ١٩١٦ .
 ٩٠ — التجريد في علم التوحيد ، مخطوط بمكتبة الاسكوريال
 ٩١ — تهافت الفلاسفة ، طبع في القاهرة غير مرة (بجاي ١٣٠٤ هـ)
 أبو الفدا (ت ٧٣٢ / ١٣٣١) : اسماعيل عماد الدين
 ٩٢ — المختصر في أخبار البشر ، ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ) وجزآن (القاهرة ١٣٥١ هـ)
 أبو الفرج (ت ٦٨٥ / ١٢٨٦) : غريغورس أبو الفرج المعروف بابن العبري .
 ٩٣ — مختصر تاريخ الدول ، طبعة أكثر من مرة (بيروت ١٨٩٠)
 ابن الفوطي (ت ٧٢٣ / ١٣٢٣) عبد الرزاق أحمد الصابوني
 ٩٤ — الحوادث الجامعة .
 ابن القاضي : أحمد بن محمد المسكناسي
 ٩٥ — جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، مخطوط رقم ١٢٤٢ (الرباط) .
 القزويني (ت ٦٨٢ / ١٢٨٣) : أبو عبد الله زكريا
 ٩٦ — عجائب المخلوقات (لايسك ١٨٤٨ - ١٨٤٩)
 ابن القلانسي (ت ٥٥٥ / ١١٦٠) : أبو يعلى حمزة

- ٩٧ — ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) .
 الكنتي (ت ٧٦٤ / ١٣٦٢) محمد بن شاكر الحلبي
 ٩٨ — فوات الوفيات ، مجلدان (القاهرة ١٩٥١)
 ابن كثير (ت ٧٧٤ / ١٣٧٢) : عماد الدين اسماعيل الدمشقي
 ٩٩ — البداية والنهاية ، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٣٥١ / ١٩٣٢)
 ماجد : عبد المنعم
 ١٠٠ — نظم الفاطميين ورسومهم جزآن (القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٥) .
 الماوردي (ت ٤٥٠ / ١٠٥٧) : أبو الحسن علي البصري
 ١٠١ — الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨ هـ) وترجمه إلى الانجليزية ك . ا . ج . هويمنج
 (لندن ١٩٤٧) .
 ١٠٢ — أدب الوزير ، ويعرف بقوانين الوزارة وسياسة الملك (القاهرة ١٣٤٨ / ١٩٢٩)
 متر : آدم
 ١٠٣ — الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (ترجمه عن الألمانية والانجليزية محمد
 عبد الهادي أبو ريدة ، جزآن (القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤١)
 المراكشي (ت ٦٦٩ / ١٢٧٠) : عبد الواحد
 ١٠٤ — كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، طبعة دوزي (ليدن ١٨٨١) ، وترجمه إلى
 الفرنسية فانيان (الجزائر ١٨٩٣) ، (القاهرة ١٩٤٩) .
 المقدسي (ت ٣٨٧ / ٩٩٧) شمس الدين أبو عبد الله
 ١٠٥ — أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن ١٨٧٧) .
 المقرئ (ت ١٠٤١ / ١٦٣٣) : أحمد بن محمد التلساني
 ١٠٦ — نفع الطيب من غصن الأندلسي الرطيب ، ٤ أجزاء (القاهرة ١٢٧٩ / ١٨٦٢) ،
 ١٠ أجزاء (القاهرة ١٣٦٩ / ١٩٤٩)
 ١٠٧ — أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨ - ١٣٦٠) .
 المقرئ (ت ٨٤٥ / ١٤٤١) : تقى الدين أحمد .
 ١٠٨ — المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، جزآن (القاهرة ١٢٧٠ هـ) .
 ١٠٩ — اتعاظ الخلفاء بأخبار الأئمة الخلفاء (الفاطميين) [بيت المقدس ١٩٠٨] ، [القاهرة
 ١٣٦٧ / ١٩٤٨] .
 ابن الفلانسى (ت ٥٥٥ / ١١٦٠) أبو يعلى حمزة
 ١١٠ — ذيل كتاب تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)
 أبو المحاسن (ت ٨٧٤ / ١٤٦٩) : جمال الدين بن تغرى بردى .
 ١١١ — النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٢ جزءاً [القاهرة ١٣٢٨ - ١٣٧٥] .
 ابن ممتا (ت ٦٠٦ / ١٢٠٩) : شرف الدين
 ١١٢ — كتاب قوانين الدواوين طبعة عزيز سوريال عطية (القاهرة ١٩٤٣) .
 المؤيد في الدين (ت ٤٧٠ / ١٠٧٧) : الداعي علم الإسلام هبة الله

- ١١٣ — ديوان المؤيد ، نشره محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩)
 ١١٤ — السيرة المؤيدية ، (القاهرة ١٩٤٩)
 ١١٥ — كتاب المجالس المستنصرية ، نشره محمد كامل حسين
 ١١٦ — نبذة تاريخية جامعة في أخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى
 كتاب « مفاخر البربر » ، مؤلف مجهول الاسم ألفه سنة ٧١٢ / ١٣١٢ : نشره بروفنسال
 (الرباط ١٩٣٤)
 النسوى (ت قرن ١٣ م) شهاب الدين محمد .
 ١١٧ — سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (نشره وجفقه حافظ أحمد حمدي (القاهرة
 ١٩٥٣) .
 النوى (ت ١٢٧٧ / ٦٧٦) : أبو زكريا بن شرف
 ١١٨ — تهذيب الأسماء واللغات ، جزآن [القاهرة بدون تاريخ] .
 هلال الصابي (ت ٤٤٨ / ١٠٥٦) : أبو الحسن بن المحسن
 ١١٩ — تاريخ ج ٨ [٣٨٩ - ٣٩٣ هـ] . ذيل لكتاب تجارب الأمم لمسكويه ، وترجمه
 مرجليوث .
 ١٢٠ — تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، طبعة أمدرود
 الهني : محمد بن أحمد
 ١٢١ — المورد الهني ، مخطوط بالخزانة العامة ، الرباط
 ابن واصل — [ت ٦٩٧ / ١٢٩٧] : جمال الدين
 ١٢٢ ت مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . طبعه جمال الشبال ، جزآن [القاهرة ١٩٥٣ -
 ١٩٥٧)
 وصاف الحضرة [ولد ٦٦٣ هـ] : عبد الله بن فضل الله مؤرخ حياة غازان
 ١٢٣ — تجزئة الأمصار أو « تاريخي وصاف »
 ياقوت [ت ٦٢٦ / ١٢٢٩] : شهاب الدين الرومي
 ١٢٤ — معجم البلدان ، ١٠ أجزاء [القاهرة ١٣٢٣ / ١٩٠٦] .
 ١٢٥ — لإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ويعرف باسم معجم الأدباء طبعة سلسلة
 جب التذكارية ، ٧ أجزاء [القاهرة ١٩٠٧ - ١٩١١] .

ثانيا - المصادر الأفرنجية

- Amari, M.
- 1 — Storia dei dusulmani di Sicilia (Firenze, 1854 - 72).
Amedroz, H.F.
 - 2 — The Office of the cadi in the Ahkâm Sultâniyya of Mâwardi (J.R.A.S., July, 1910).
 - 3 — The Mazâlim jurisdiction in the Ahkâm Sultâniyya of Mâwardi (J.R.A.S., July, 1911).
 - 4 — The Hisba jurisdiction (J.R.A.S., 1916).
Arnold, Sir T.W.
 - 5 — The Preaching of Islam, a history of the Propagation of the muslim Faith, 3rd ed. by Reynold Nicholson (London, 1935).
 - 6 — The Caliphate, Oxford at the Clarendon Press (1924).
 - 7 — The Legacy of Islam (edited by T.W. Arnold and A. Guillaume) (Oxford, 1931).
Barker, E.
 - 8 — The Crusades (London, 1925).
Brockelmann, Carl.
 - 9 — Geschichte der Arabischen Litteratur, 2 vols. (Weimar, 1898-1902).
Browne : E.
 - 10 — Literary History of Persia
1. From the Earlies Times until Firdawsi (London, 1909). 2. From Firdawsi to Sa'di (London, 1906). 3. Persian Literature under Tartar Dominion (1265 - 1502 A.D.). 4. Modern Times (1500 - 1924), (Cambridge, 1930).
 - 11 — An Account of a Rare manuscript History of the Seljuks (London, 1906).
Cahun
 - 12 — Pan Turanian Movement.
مقدمة لتاريخ آسيا والأتراك والمغول الى سنة ١٤٠٥ م.
Darmesteter, James
 - 13 — Le Mahdi depuis les origines de l'Islam jusqu' à nous jours (Paris, 1885).
Dozy, R.
 - 14 — Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu' à la conquête de l'Andalusie par les Almoravides (711 - 1110 A.D.), 4 vols. (Leyden, 1861). Translated into English under the title Spanish Islam by F. G. Stokes (London, 1913).
 - 15 — Histoire des Musulmans d'Espagne (Leyden, 1861).

- 16 — Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes (Amsterdam, 1845).
Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 vols. (Leyden, 1881).
Fage, J.D.
- 17 — An Introduction to the History of West Africa (Cambridge at the University Press, 1955).
Fagnan, E.H.
- 18 — Additions aux dictionnaires arabes (Algier, 1923).
- 19 — L'Afrique Septentrionale au XII siècle de notre ère (Constantine, 1900).
Fayzee, Asaf A.A.
- 20 — Outlines of muhammadaw Law (Oxford University Press, 1955).
Finlay, George
- 21 — History of the Byzantine Empire (716 - 1500), (London, 1856).
Fischel, Walter J.
- 22 — The Origin of Banking in Mediaeval Islam : A Contribution to the Economic history of the Jews of Baghdad in the tenth century (J.R.A.S., April, 1933).
- 23 — Jews in the Economic and political life of mediaeval Islam (London, 1937).
Friedlaender, Israël.
- 24 — The Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentaion of Ibn Hazm, Journal of the American Society, vols. 28 and 29 (New Haven, 1907 and 1909).
Gardet.
- 25 — La Cité musulmane (Paris, 1954).
Gobineau, De
- 26 — Religion et Philosophie dans l'Asie Centrale (Paris, 1865).
Goldziher, I.
- 27 — Mohammed anische Studien (Halle, 1888 - 90).
- 28 — Le Aogme et la Loi de l'Islam, trans. by Felix Aren (Paris, 1920).
Grunebaum, G.E. von.
- 29 — Medieval Islam, A Study in the Cultural Orientation, 2nd ed. The University of Chicago Press (Chicago, Illinois, 1953).
- 30 — Islam, Essays in the Nature and Growth of a Cultural Tradition, Rutledge and Kegan Paul Ltd., London (Chicago, 1955).
Guyard, S.
- 31 — Unity and Variety in Muslim Civilization (ed. by), The University of Chicago Press (Chicago, 1955).
Guyard, S.

- 32 — Fragments relatifs à la doctrine des Ismaélis (Paris, 1874).
Haines, Grove.
- 33 — Africa To Day, ed. by (Baltimore, 1955).
Hamdâni, H.
- 34 — Some Unknown Ismâ'ili Authors (J.R.A.S.), 1933.
Heyd. W.
- 35 — Histoire du Commerce du Levant au Moyen - Age, 2 vols.
(Leipsiz, 1923).
Hitti, Philip K.
- 36 — History of the Arabs (5th ed. London, 1953).
- 37 — The Origin of the Islamic State (New York, 1916).
Houtsma
- 38 — Recueil de textes relatifs à l'Histoire des Seldjoucides (Leyden,
1889).
Howorth, Sir Henry
- 39 — History of the Mongols, 3 vols. in 4 parts. (London, 1876 - 1888).
Huart, C. L.
- 40 — Histoire des Arabes, 2 vols. (Paris, 1912).
Hughes, Thomas Patrick
- 41 — A Dictionary of Islam (London, 1885).
Kremer, Von A.
- 42 — Orient Under the Caliphs, translated by Khuda Bukhsh (Calcutta,
1920 - 1927).
Lane, Edward W.
- 43 — Arabian Society in the Middle Ages, ed. by Stanley Lane - Poole,
(London, 1883).
- 44 — Arabic - English Lexicon, 8 parts (London, 1863 - 1893).
Lane - Poole, Stanley
- 45 — The Story of Cairo (London, 1912).
ترجمه حسن ابراهيم حسن وآخرون الى العربية بعنوان سيرة القاهرة.
- 46 — History of Egypt in the Middle Ages (London, 1901).
- 47 — Coins and Medals (London, 1892).
- 48 — Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem (London, 1893).
- 49 — The Muhammadaw Dynasties (Paris, 1925).
- 50 — The Moors in Spain (London, 1887).
- 51 — Catalogue of the Collection of Arabia Coins Preserved in the
Khedivial Library at Cairo (London, 1897).

- 52 — Coinage of Egypt A. H. 358 - 922, Collection of the British Museum, Oriental Coins (1892).
Lavoix, H.
- 53 — Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris, Deccoxi.
Léon l'Africain, Jean.
- 54 — Description de l'Afrique, trans. by A. Epaulard, 2 vols. (Paris, 1955). English translation under the title : The History and Description of Africa by J. Pory, 3 vols. (London, 1846).
Levy, Reuben.
- 55 — A Baghdad Chronicle (Cambridge, 1929).
- 56 — The Social Structure of Islam, 2nd ed. (Cambridge at the University Press (1957)).
Lewis, Bernard.
- 57 — The Origins of Ismâ'ilism (Cambridge, 1940).
Isma'ili Notes Reprinted from the B. S. O. F. S. (University of London), vol. XII, Parts 3 and 4 (1948).
- 58 — The Arabs in History, Hutchison's University Library History (Oxford, 1950).
- 59 — The Fatimids and the Route to India, Extrait de la Revue de la Faculté des Sciences Economiques de l'Université D'Istanbul, 11e année, No. 1 — 4 (Istanbul, 1952).
Mann, J.
- 60 — The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliph 2 vols. (Oxford, 1920, 1922).
Migeon, G.
- 61 — Manuel d'Art Musulman, 2 vols. (Paris, 1927).
Nâsir Khosrau (d. 481/1088).
- 62 — Relation du voyage de Nasiri Khosrau en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse, Persian Text and Translation by Charles Schefer (Paris, 1881).
Nicholson, Reynold A.
- 63 — Literary History of the Arabs (Cambridge, 1930).
Nizâm al - Mulk (d. 485/1092), Hassan al - Tûsi
- 64 — Siasset Namêh, French translation from Persian by C. Schefer, 3 vols. (Paris, 1891 - 97), English translation by Robert Darke (The Book of Government or Rules of Kings) (London, 1960).
O'Leary, De Lacy.

- 65 — A Short History of the Fatimid Khalifate (London, 1923).
Pauty, E.
- 66 — Villes spontanées et Villes créées en Islam, Annales de l' Institut
d'Etudes Orientales, Université d'Alger, IX (1951).
Provençal, Lévi
- 67 — L'Espagne musulmane au Xe siècle, Institutions et vie sociale
(Paris, 1932).
- 68 — La Civilisation arabe en Espagne (Paris, 1948).
- 69 — Histoire de l'Espagne musulmane, Tome III C L'Espagne du
Califat de Cordoue (Paris Editions G. P. Maisonneuve & Co.,
1957).
- الشرق الاسلامي والحضارة العربية الأندلسية (تطوان ١٩٥١)
- De Reinaud, M.
- 70 — De l'Art militaire chez les Arabes au Moyen Age, IX/12 (Journal
Asiatique, 1848).
- 71 — Relations Politiques et commerciales de l'Empire romain avec
l'Asie Orientale (Journal Asiatique, 1863).
Ross, D.
- 72 — The Empire of the Seljuk Turks (The Universal History of the
World, Vol. V.
De Sacy, Silvestre
- 73 — Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols. (Paris, 1838).
Sanaullah, M. F.
- 74 — The Decline of the Seljukid Empire (Calcutta, 1938).
De Slane, M.
- 75 — Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de l'Afrique
Septentrionale, Introduction (Algiers, 1852).
Steingass : F.
- 76 — Persian - English Dictionary (London, 1930).
Stern, G.H.
- 77 — The Succession to the Fatimid imam al - Amir, the claims of the
later Fatimids to the imamate, and the rise of the Tayyibi
Ismailism, in Oriens, vol. 4, No. 2 (December, 1951), pp. 193-255.
- 78 — Marriage in Early Islam (London, 1939).
De Sacy, Silvestre,
- 79 — Crestomathie Arabe, 3 vols., 2nd. ed. (Paris, 1826 - 1827).
Vasiliev, Alexander A.

- 80 — History of the Byzantine Empire (324 - 1453), (Wisconsin, 1952).
Whishaw, Bernard
- 81 — Arabic Spain (London, 1912).
Wiet, Gaston
- 82 — Précis d'Histoire musulmane d'Egypte, 4 vols. (Le Caire - Rome, 1932 - 35), ed. by G. Wiet.
- 83 — Histoire de la Nation Egyptienne, 7 vols. (Paris, 1931 - 40), vol. IV (1939) : L'Egypte Arabe, par G. Wiet (ed. by Hanoutau).
Wüstenfeld, F.
- 84 — Genealogische Tabellen der Arabischen Stämme und familion (Gottingen, 1852 - 3).
- 85 — Geschichte der Fatimiden Chalifen (Gottingen, 1881).
- 86 — Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke (Gottingen, 1882).
Sacy, Silvestre de
- 87 — Exposé de la Religion des Druzes, 2 vols. (Paris, 1838).
-

فهرست

- أبان بن عثمان ٤٤٠
 إبراهيم بن عبد الملك ٢٢٣
 إبراهيم بن يعقوب ٢١٧
 لبرو - نهر ٣٨٨
 أنابك - أنابكة ٦١ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٢٦ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٨ ، ١٥٧ ، ١٨٤ ، ٢٠٩ ، ٣٠٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٤٨ ، ٥٢٥ ، ٥٥٨
 أجتاي - أغطاي ١٥٢ ، ١٥٠ ، ١٤٩ ، ٩٢
 الجويني ٥١٦
 الأقباس ٣٨٢ ، ٣٧٧ ، ٣٥٩
 الأقباش ٦٥٣ ، ٢١١ ، ٢٠٥
 الأحباء - الحسا ٢٥٧ ، ٢٤٢ ، ٢٠ ، ٤٠٤ ، ٢٥٨
 أحمد خان ٣٥
 أحمد بن المقبر ٣٢٢
 أحمد بن يوسف - الكاتب ٣٢٢
 الإخشيدون ٤٢٢ ، ٤٢١ ، ٣٧٣ ، ٣٤٣ ، ٦٢٨ ، ٥٧٣ ، ٥٧١
 إخوان الصفا ٣٠٥
 إدریس الأول ٣١٠ ، ٢٩٣ ، ١٢٥
 إدریس الثاني ٢٩٠
 أذربيجان ٥٢ ، ٤٨ ، ٤٢ ، ٤١ ، ١٠ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٦٧ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٤٥ ، ١٥٩ ، ١٥٥ ، ١٥٠ ، ١٤٦
 أريان الثاني - البابا ٢٤٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٤
 أرتق بن أكسب ١٠٤ ، ٨٢ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٦٢
 الأرجاني ٤٩٩
 إبراهيم بن شاه رخ ٩٤
 إبراهيم النبي ٢٥٥ ، ٤٦٥
 أبق - معز الدين ٦٣
 أئين ٤٥٥
 أتمز ٢٣ ، ٣٥ ، ٥٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧
 ابن الأنیر ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١١٩ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٦٨ ، ٢٥٧ ، ٢٦٩ ، ٣١٥ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٨٤ ، ٤٢٥ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٥٣ - ٥٥٦ ، ٥٦٦ ، ٦٢٦ ، ٦٣٢ ، ٦٥٤ ، ٦٤٢ ، ٦٣٥
 أحمد بن ملكشاه ٢٩
 الآخرم - الحسن بن حيدر ٢٥٩
 الأخفش - أبو الحسن علي ٤٨٤
 أخلاط ٨٥ ، ٨٦ ، ٢٣٤
 الأدارسة ١٢٥ ، ١٧٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٣١١ ، ٥٨٩
 الإدريسي ٣٧٥ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٨ ، ٥٨٧ - ٥٨٨ ، ٥٩٥ ، ٦٣٠
 آران ٨٥ ، ٨٧
 أرانیا ٤٢ ، ٥١
 أربيل ٧١ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٥٠ ، ٥٥٥ ، ٥٦٤
 أرغون ٣١٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦٧
 أرسلان خاتون ١٩ ، ٦٥١
 أرسلان بن أرغون ٢٤ ، ٣٩
 أرسلان بن سلجوق ٢ ، ٤ ، ١٠

السكيس ٢٥١

أيوب بن طفتكين ٢١٤

الأيوبيون ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ،

٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٤ ، ١١٥ ،

١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٥ ،

٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٣٤ ،

٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ ،

٣٨٥ ، ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٨٧ ،

٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥٠٨ ، ٥٠٢ ، ٥٧١ ،

٥٧٩ ، ٥٩١ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٢٧ ،

٦٢٨ ، ٦٣٨ ، ٦٤٢

أورشليم ١١٣ ، ٢٤٧

أونك خان ١٣٦

لمران - فارس ٣٤ ، ٣٥ ، ٧٢ ، ٩٦ ، ١٠١ ،

١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٥٨ ، ٥٦٠ ،

٥٨٦

أينال - إبراهيم ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٩ ،

الأوزاعي ٤٥٠

أيك - عز الدين ٣٢٢ ، ٣٦٧

أيل أرسلان ٩٨

اياغازي ٤١ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٣٦٦

السكيسوس - الامبراطور ٢٤٦

ب

باب الأبواب ٤٢ ، ٣٤١

البابا ١٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٣٠ ،

ابن بابشاذ ٤٧٣

باب كلواذي ١٥٩

البابين - موقعة ١٩١

باتو بن جوجي ١٥١ ، ١٥٢

ابن باجه ٧٤٤ ، ٥٣٧ ، ٥٣٩ - ٥٤٠ ،

باجو ١٥٧ ، ١٥٨

باريس ١٢٢ ، ٥٤٧ ، ٥٧١ ، ٥٨٠ ،

باشير - تل ٦٨ ، ١٨٣

٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ،

٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ،

٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ،

٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ ،

٥٣٧ ، ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ،

٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٦ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ،

٥٨٢ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ،

٦٠١ ، ٦٠٧ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٨ ،

٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦ ،

٦٣٨ ، ٦٤٣

أنوسنت الثالث - البابا ٢٥١

أنوشكين ٢٦ ، ٩٥ ، ٩٧

أنشروان - كسرى ٤٢٧

الأهواز ١٤ ، ٢١٦ ، ٤٥٢

أوتو - الامبراطور ٣٣٢

أورال - جبال ٩٦

الأنبار ٣٢٤

لاندونيسيا ٤٠١

أنطاكية ٢٩ ، ١١٠ ، ١٨١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،

٢٤٩ ، ٢٧٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،

٤٠٨ ، ٤١٩

أنوشروان - خالد ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ،

٥٥٨ ، ٥٥٥

أوال - جزيرة ٢٥٦ ، ٢٥٨

أود غشت ٣١٢

أورية - قبيلة بربرية ١٢٥ ، ٢٢٢ ، ٢٩٠ ،

أوزون حسن ٣١٩

أوغنده ٢

إياز ٢٤ ، ٢٦ ، ٤٣

أيك - قطب الدين ١٧١

إيطاليا ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٣٧٣ ،

٣٧٥ ، ٤٠٨ ، ٥٤٦ ، ٦٣٩ ،

أيسلة ٤٠٧

إيلك خان ٤

برغواطة - البرغواطيين ٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٥

٤٣٩ ، ٤٣٨ ، ٢٩١

البغوى - الفراء ٤٤٧ ، ٣٦

بركياروق بن ملكشاه ٣٥ ، ٣٢ ، ٢٧

٦٨ ، ٦٣ ، ٤٣ - ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٦

٦٤٢ ، ٢٢٨ ، ٣٢٧ ، ٩٥

برفانس - مقاطعة بفرنسا ٤٠٥ ، ٤٠٤

ابن برى النحوى ٤٧٣ - ٤٧٦

البريد ٣٤٣

البساسيرى - أبو الحارث ١١ - ١٧ ، ١٤١

٦٣٣ ، ٥٧٨ ، ٤٥٢ ، ٢٣٧

بست ١٧٦ ، ١٧٣ ، ١٦٩ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٠

ابن بسطام - التبريزى اللقوى ٢٧٥ ، ٣٦

ابن بشكوال ٥٨٣ ، ٤٤١

البصرة ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٩ ، ٧٠

٢١٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٦ ، ٤٠٥

٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٥٣

٤٧٤ ، ٥٠٤ ، ٥٦٤ ، ٦٠٥ ، ٦٤٩

البطائع ٤٢

ابن البطائحي - الوزير المأمون ٣٣٠ ، ٣٨٠

بطرس الناسك ٢٤٤ ، ٢٤٥

ابن بطلان - الطبيب ٥١٩

البطلنوسى النحوى الأندلسى ٤٧٣

ابن بطوطة ٥٦٧

بعقوبا - درب شرقى بغداد ١٥٩

بعليك ١٠٤ ، ١٠٨ ، ٣٤٤

بغداد البساسيرى يهدد بغداد ١١ - ١٩ ، ٢١

فى عهد ملكشاه ٢٧ - ٢٩

المدرسة النظامية فى بغداد ٣١ ، ٣٧ ، ٣٨

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩

٥٠ فى عهد مسعود بن محمد بن ملكشاه

٥٢ - ٥٨ ، علاقة عماد الدين زنكى

بغداد ٦٩ - ٧٣ ، ١١٧ سقوط بغداد

١٥٤ - ١٦٣ ، ٢١٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦

٢٩٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩

الباطنية ١٣ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣

٤٥ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧

٧٣ ، ٧٤ ، ١٨٢ ، فى فارس والشام

٢٦٨ - ٢٧٩ ، ٣٢٤ ، ٣٤٤ ، ٤٤٢

٤٤٥ ، ٤٦٣ ، فى رأى المؤيد ٤٦٤ -

٤٦٦ ، ٥٣٦

باميان ١٠٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦

١٧٧

بانياس ٥٢

بايزيد الثانى العثمانى ١٣٠

بجاية ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٩٥

٤١٧ ، ٣٧٦

البحيرة - موقعة بالمغرب ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٧٠

البحرين ٩٤ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩

بجارى ١ ، ٢ ، ٢٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣

١٤٤ ، ١٤٤ ، ٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

٥٢٦ ، ٥٦٣ ، ٥٧٥

البخارى ٣٦ ، ٤٤٦ - ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٧٩

بدر الجمالى ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ٢٠٦

٢٦٨ ، ٣١٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠

٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠

٤٣٢ ، ٤٥٣ ، ٤٨٤ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤

٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٢٠ ، ٦٣٥

٦٥١

البدعية ١٨٢

براك حاجب ٩٢

البرامكة ٣٠ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢

٣٣٥ ، ٥٦٤

البرانس - جبال ١١٩

البرانس - قبيلة مغربية ٢٨٩ ، ٢٩٠

البربر ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ٢٢١

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣١١

٣٨٢ ، ٤٠٠ ، ٤١٢ ، ٥٢٩ ، ٥٩٥

٦٠٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠

البرتقال ١٢٨

عبلونه ٢٣١

بهاء الدين سام الغوري ١٤٦ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ،
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥

البهاء زهير ٤٨٩ - ٤٩١

البهائية ٥٤٨

بهرام الأرمي ١٨٣ ، ١٨٤

بهرام شاه ٣٥ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦

البهرة ٢٤٢ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧

البهنا ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٥٧٢

البوذية ١٣٤ ، ١٥٢

البوسفور ٢٤٦

بولنده ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٢

الديوبنديون - بنو بويه - في أواخر عهد
١٠ - ١٧ ، ٣١ ، ٤١ ، ٢٣٥ ،

٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٤٣ ، ٤٢٠ ، ٥٥٤ ،

٦٢٦

بيبرس ١١٤ ، ١١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ،

٣٢٤ ، ٤٠٨ ، ٥٣٨

بيت المال ٤٠ ، ٥٠ ، ١٠٥ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ،

٣٤٠ ، ٣٤٦ - ٣٥٩ ، ٣٧٧ ،

٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٤٢٨ ، ٤٣٧ ، ٦٠٦ ،

٦١٣ ، ٦٤٦

بيت المقدس ٢٣ ، ٤٥ ، ٨١ ، ١٠٥ ، ١١٠ ،

١١١ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ،

٢٤٧ ، ٣١٢ ، ٤٠٨ ، ٤٥٣ ، ٥٠٨ ،

٥٣٢ ، ٥٥٤ ، ٥٨٤ ، ٥٩١

بيدار - التتاري ١٥١ ، ١٥٢

البندق - أبو بكر الصنهاجي ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،
٣٠٢

بيروت ٥٦٠ ، ٥٧٣

البيروني ٣٠٣ ، ٥٢٤ ، ٥٥٢ - ٥٥٣ ،

٥٨٣ ، ٥٦٦

بيزنه ٢٤٤

البيزنطيون ٢١ ، ٢٢ ، ٨٥ ، ١٦٤ ، ٢٣٤ ،

٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ،

٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ،

٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٣ ،

٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ،

٣٦٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٩٧ ،

٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ،

٤٢٥ ، ٤٣٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ،

٤٥٣ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ،

٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٩٤ ، ٥١٩ ،

٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣٢ ، ٥٤٧ ، ٥٥٥ ،

٥٥٧ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٧٤ ،

٥٧٨ ، ٥٨١ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٩ ،

٥٩٠ ، ٥٩٧ ، ٦٠٥ ، ٦٢٢ ، ٦٢٥ ،

٦٢٦ ، ٦٣٢ ، ٦٤٤ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ،

٦٥٦ ، ٦٥١

البغدادى - الخطيب ١٥ ، ٢٧ ، ٥٥٣ ،

٥٥٦ ، ٥٦٦

البغدادى - عبد الطيف ١١٢

بغراخان - ملك تركستان ٢ ، ٤

ابن بطوطة ٥٦٧

المبغوى - القراء ٣٦ ، ٤٤٧

بقراط - أبقرات ٥١٧ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٣١ ،

أبو بكر بن عمر ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٦٤٢

أبو بكر - الصديق ٢٠٢ ، ٥٥٧ ، ٥٨٤ ،

البكرى - أبو عبيد ٥٦٥ ، ٥٨٠ ، ٥٨٤ ،

بكين ١٣٤ ، ١٥٤

بلال بن نجاح البني ٢٠٦

بلبيس ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢

بلخ ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٥٨ ، ٩٦ ، ١٤٠ ،

١٤٣ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،

٥٢٦

الباخي - حميد الدين أبو بكر ٣٦ ، ٥٠٨ ،

بلدون - ملك بيت المقدس ٤٥ ، ٨١ ، ٢٤٧ ،

بلنسية ١٢٤ ، ٢٢٥ ، ٤٥٣ ، ٤٧٣ ، ٥١٢ ،

٥٨٤ ، ٦٣٠

البليار - جزائر ٣٧٥

٥٧٠ ، ٥٦٩

نقش — ٢٤ ، ٣٩ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٨٠

التختية — إحدى فرق النصرية ٢٦٧

تركان خاتون — زوجة ملكشاه ٢٩ ، ٣٢ ،

٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٦٤١ ، ٦٥٢

تركستان ٩٨ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،

١٥٤ ، ٢٦٧

التركان ٦٧ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٣١ ،

١٤٥ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،

١٩٥ ، ٣٦٢

تركيا ٢٦٧ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٦٢٦ ،

٦٤٢ ، ٦٢٧

ترمد — الترمذى ٢٦ ، ٩٦ ، ٤٤٧

تستر — أشهر مدن خوزستان ٣٩٣

القسرى — نوع من الحرير ٣٩٣

تعز بالين ٢١٦

التفسير ٣٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ — ٤٤٦ ،

٥٥٧

تغليس ٨٧ ، ١٤٥ ، ١٥٠

تقاق أبو ساجوق ٣٤١

تكرت ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٨٠ ،

١٠٤ ، ١٣٤

تنكش بن ملكشاه ٢٤ ، ٩٧ ، ٦٨

تلمسان — مدينة بالجزائر ١٢٩ ، ٢١٩ ،

٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٣١١ ،

٣٧٦ ، ٤٠٥ ، ٤١٧ ، ٥٨٩

تيمكتو — قرب نهر النيجر ٣١١

تيم بن يوسف بن تاشفين ١٢٧

تفيس — جزيره وبلدة بمصر ٣٧٣ ، ٣٩٢ ،

٣٩٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٦

تهامه ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٤٨٢ ، ٤٨٦ ،

تورانشاه ٨٧ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ٢٠٩ ،

٢١٤ ، ٣٢٣

ابن تومرت — المهدي محمد ١٢٥ ، ٢١٩ ،

٤١٨ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٥٧٦ ، ٦٠١ ،

٦٤٤ ، ٦١٥

بيسان ٥٠٨

البيسانى — القاضى القاضى ٣٣٤ ، ٤٢٦ ،

٤٣٢ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ،

ابن البيطار ٣٨٨

بيغو ٤ ، ١٠ ، ٢

بمارستان ٥٢٢ ، ٥٢٣

بيهق — البيهقية ٥٨ ، ٤٢٥ ، ٦٠٦ ،

(ت)

تاجة — نهر بالاندلس ٣٣٨

تارودانت — مدينة بالمغرب ١١٨ ، ٢٨٨ ،

تازا — مدينة بالمغرب ٢٢٢

ابن تاشفين — يوسف ١١٨ — ١٢٥ ، ١٢٦ ،

٢٨٧ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،

ابن تاشفين — على ١٢٥ — ١٢٩ ، ٣٠٢ ،

٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٣٦ ،

٣٣٩ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٤٠٣ ،

٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،

٤٨٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ،

٥١٤ ، ٥٢٩ ، ٥٣٣ ، ٥٣٨ ، ٥٨٠ ،

٥٨٩ ، ٥٩٧ ، ٦٢٨ ، ٦٣٥ ، ٦٤٢ ،

٦٤٣

تاتكرد — أحد قواد الصليبيين ٢٤٧

تايلاند ٤٠١

تبريز ٥٣ ، ٥٤ ، ٨٧ ، ١٤٥ ، ٣٩١ ،

٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٦٥١

التبت ٥٤ ، ٤٠٠

التار — المفلول ١ ، ١٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٩٤ ،

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٠ — ١٦٣ ،

٢٦٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٧ ، ٣٦٣ ، ٤٢١ ،

٤٣٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ،

٥٦٢ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ،

ابن جزلة الطبيب ٥١٩

جزولة - قبيلة مغربية ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠
الجزيرة - بلاد ال ٤١ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٥٣ ،
٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ،
٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ،
٨٠ ، ٨١ ، ١٠٧ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ،
١٩٣ ، ٢١٤ ، ٢٤٠ ، ٢٦٩ ،
٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٠٢ ، ٥٥٥ ،
٥٥٦ ، ٥٩٤ ، ٦٠٦

الجزيرة المحضراء - بالأندلس ١١٢ ، ١٢٣ ،
٢٢٣ ، ٢٢٥

جزيرة ابن عمر - قرب الموصل ٥٥٣ ، ٥٥٥
الجزية ١٢٤ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١٢ ، ٣٤٦ ،
٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٧ ، ٤٠٥

الجسور ٣٥٥ ، ٣٨٩ ، ٦١٠
جعفر بن منصور اتيق ١٩٨ ، ٣٤١ ، ٤٥١ ،
٥٧٧

جغطاي ١٣٨ ، ١٥٠

جوشكين ٢٦

جنفيسة - قبيلة مغربية ٣٠١ ، ٣٠٢

جنوه ٣٥

جند ٢ ، ٤ ، ٢١ ، ٩٦

جند يسابور ٤٢٧

جنشكيرخان ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ،
١٣٦ - ١٤٧ ، ١٥٠ ، ٥٥٤ ، ٥٥٧ ،
٥٦٧ ، ٥٦٨

جنوه ٢٤٤

الجهينة ٣٣٤ ، ٤٣٦

بنو جهور - أصحاب قرطبة ١٢٠ ، ٤٩١ ،
٤٩٣

ابن جهير - عميد الدولة الوزير ٣٢٤ - ٣٢٥
٣٢٦

ابن جهير - نخر الدولة الوزير ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،
٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٦٦

٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ،

٣٠٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ،

٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٥٢٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤٢ ،

٥٨٦ ، ٦٢١

تيمورلنك ٨١ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٥٦٩ ،

٥٧٠ ، ٥٧١

تينمل - قبيلة بالمغرب ٢٢٠ ، ٢٩٨ ، ٣٠١

تيودور - الإمبراطور ٢٣٥

(ث)

ابن ثعلبة - أيم الله - وادي غربي دمشق ٢٦١

ثغر - ثغور ١٠٦ ، ٢٣٠ ، ٢٨٥ ، ٣٣١ ،

٣٦١ ، ٣٧٢ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٦ ،

٤١٣ ، ٤٢٤ ، ٤٣٧ ، ٦١٥

(ج)

جالينوس ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ،

٥٢١

جاوه ٤٠١

الجليل - الجبال - بلاد ال ١٩ ، ٤٢ ، ٤٧ ،

٥٢ ، ٥٣ ، ٨٧ ، ١٠١ ، ١٣٥ ،

١٤٤ ، ١٤٦ ، ٢١٧

ابن جبير ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ،

٦٠٥ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦

الجدالي - يحيى بن إبراهيم ٣١٢

جدميه - قبيلة مغربية ٢٨٨ ، ٣٠١

جده ٤٠٧

جزولة - قبيلة مغربية ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،

٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤٢٢ ، ٥٠ ، ٩٨ ،

٩٩ ، ١٠٠ ، ٤٧١

الجرجاني - عبد القادر ٤٧١ ، ٤٧٢ ،

الجرجاني - أبو القاسم الوزير الفاطمي ٣٣٤ ،

٤٣٦

الجزائر ١٢٧ ، ٢١٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٦٣٠

٥٧٥ ، ٤٥٥ ، ٤٥٤ ، ٤٣٩
٦٥٣ ، ٥٧٧ ، ٥٧٦
أبو حنيفة النعمان المغربي ٤٥١ ، ٤٢٨ ، ٤٥١ ،
٥٧٧ — ٥٧٥
ابن حوشب — الداعي اليمني ١٩٧ ، ١٩٨ ،
٥٢٨ ، ٤٥٥ ، ٢٤١
ابن حوقل ٥٩١
حيدر — موقعة ٢٠٣ ، ٢٣٩
ابن حيوس ١٢٤

(خ)

خازن ديوان الحكم ٢٧٨
خازن بيت المال ٣٥٩
خاصبك بن بلنكري — أحد أمراء السلاجقة ٥٨
خان — خانات ٦٢
خاتناه — خوانق ٣٤٧
خاتقين — بالعراق ١٥٨
ختكين — داعي دعاة الاسماعيلية ٢٦١
الخسراج ٢ ، ٢٥ ، ١٥٩ ، ١٨٩ ، ٢٣٠ ،
٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٣٤٧ — ٣٤٧ ،
٣٥٧ ، ٣٥٦ ، ٣٥٥ ، ٣٥٠ ، ٣٤٩ ،
٤١٧ ، ٣٩٠ ، ٣٨٣ ، ٣٧٧ ، ٣٧٦ ،
٦٥١ ، ٥٧٣ ، ٥٦٢ ، ٤٨٩
خراسان ٤ ، ١٠ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ،
٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،
٤٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٩٤ ،
٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٥ ، ١٦٨ ،
١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ،
٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٩١ ،
٤٠٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٣٠ ،
٤٧٨ ، ٥٥٦ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ،
٥٦٥ ، ٥٧٥ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ،

الحسين المحتسب ٢٩٦ ، ٣٤٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٤ —
٣٨٦ ، ٥٧٣ ، ٦٤٠ ، ٦٤١
الحسين بن علي ٢٨ ، ٤٤٦
الحسين بن القاسم الرسي ٢١٦
الحشاشين — الباطنية ١٠٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ —
٢٧٥ ، ٥٥٧
الحصري — أبو الحسن علي ٤٩٨ — ٥٠١
حضر موت ٢١٥ ، ٤٠٢
ابن الحضري — أبو الربيع سليمان ٣٠٠
حطين — موقعة ١٠٩ ، ١١١
أبو حفص الصنهاجي ٣٠٠
الحفصيون ٣١٩

حلب ٢٢ ، ٢٨ ، ٤٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ،
٦٨ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٦ — ٧٨ ، ٨١ ،
١٠٤ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٤٦ ،
١٨٨ ، ٢٦٥ ، ٣٢٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٩ ،
٣٧٤ ، ٣٩٤ ، ٤٢١ ، ٤٢٧ ، ٤٧٢ ،
٤٨٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ،
٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٦٠٦ ، ٦١٣ ،
الحلة ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
٧٢ ، ٣٦٥ ، ٥٢٨ ، ٥٨٦ ، ٦٢٦ ،
حلوان ١٦ ، ١٣٤ ، ٣٤٤ ، ٣٩٠ ،
حمام — حمامات ٣٨ ، ٣٨٥ ، ٦٠٣ ، ٦٠٦ ،
٦١٣ ، ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٤٠ ،
حمام الزاجل ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٦١٣ ،
حمام ٦٧ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ٢٦٥ ، ٣٤٤ ،
٥٨٥

ابن حدين ٤٥٦
حمزة بن علي الدرزي ٢٦١ — ٢٦٤
حمص ٢٨ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٤ ، ١٠٨ ،
١١٣ ، ٢٦٥ ، ٣٤٤ ، ٤٨٥ ،
ابن حنبل — الحنابلة ٢٨ ، ٤٤٧ ، ٤٦١ ،
٤٧٢ ، ٦٠٧ ، ٦٢٦ ، ٦٣١ ،
أبو حنيفة الإمام الأعظم — الحنفية ٢٨ ، ١٧٣ ،
١٨٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٩٤ ، ٣٧٧ ،

ديوان - دواوين ٣٢٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٧ ،
٤٧٨ ، ٤٧٥ ، ٤٣٤ ، ٣٨٣

ديوان الأحباس ٣٤٠

ديوان الأسطول ٣٧٤

ديوان الانشاء ٢٠٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ،
٣٣٤ ، ٤٨٢ ، ٤٧٦ ، ٤٥٢ ، ٥٠٨ ،

٥٦١ ، ٥٧٨ ، ٦٠٣ ، ٦٤٧

ديوان الترتيب ٥٧٢

ديوان الجيش ٢٩ ، ٣٤٠ ، ٣٦١ ، ٦١٣

ديوان الحجاز ٣٤٠

ديوان الخاصة ٣٣٥

ديوان خزائن الكسوة ٣٤٠

ديوان الرسائل ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ،
٥١٠

ديوان الرواتب ٣٤٠

ديوان الزمام ٣٢٤

ديوان الشام ٣٤٠

ديوان الضرب ٣٧٧

ديوان العامة ٣٣٥

ديوان قاضي القضاة ٣٧٨

ديوان الماء ٣٨٧

ديوان المال ٢١٥

ديوان المجلس ٣٨٠

ديوان المظالم ٣٨٣

ديوان النظار ٦١٦

ديوان الوزارة ٣٢٦

ديوجينييس ٢٢ ، ٢٣٤

(ذ)

أهل الذمة ٣٨٢ ، ٥٢١ ، ٦٢٧

ذو النون بطليطلة ٦٣٠

(ر)

الرازي - أبو بكر ٥٣١

الرازي - أبو حاتم داعي الاسماعيلية في الري ٥٧٥

الرازي - نضر الدين المفسر ١٧٣

الراشد العباسي ٧٣ ، ٧٤

الرافضة ٣١

درعة ٢٢١ ، ٢٨٧ ، ٤٢٤

الدركزي - وزير طغرل ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤

درن - جبل بالمغرب ٢٨٨ ، ٣٠٢ ، ٥٩٦ ،

٥٩٩ ، ٥٩٨

الدرز ١٠٠ - ١٠١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧

ابن دقاق ٣٩٥ ، ٦٠٢

دقاق بن طفتكين ٦٢ ، ٦٣

الدقهلية ٣٣٨

دهلي ٣٠٩

دمشق ٢٧ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧١ ،

٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١٠٤ -

١٠٨ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ،

١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢١٠ ، ٢٦١ ، ٣٤١ ،

٣٤٤ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ - ٤٠٦ ،

٤٢٦ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٧ ، ٤٨٢ ،

٤٨٣ ، ٥٢٠ ، ٥٣٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ،

٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٧٣ ، ٥٧٩ ، ٥٨٦ ،

٥٩٨ ، ٦٠٦ ، ٦١٣

دمياط ١٠٤ ، ١١٣ - ١١٥ ، ١٩٤ -

١٩٥ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥ ، ٢٧٣ ، ٣٧٤ ،

٣٩١ ، ٣٩٢ - ٣٩٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ،

٤١٦ ، ٤٣٨

دندره ٣٩٠

ابن الدهان النحوي ٤٧١ - ٤٧٢

دهقان ٤

دوسون ١٤٠ ، ١٤١ ، ٥٦٩

الدون - نهر ال ٤٠٧

الدويني - أبو إسحاق ٤٩٧

الديبل ٤٠٠

ديار بكر ١٠ ، ١١ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٩ ، ٦٢ ،

٦٣ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٥٠ ، ٢٦٩ ، ٦٠٦

ديار ربيعة ٥٩

ديروط ٣٩٥

الديلم ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،

٢٦٩ ، ٣٦٦ ، ٤٥١ ، ٤٧٣ ، ٥٧٥ ،

٦٠٦

دينور ١٥٧

رينولد ١٠٩

(ز)

زبيد ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢

٢١٢

الزبير بن بكار ٥٦٩

الزباد شقيه ٢٥٤

ابن أبي زرع ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٩٣ ، ٥٩٨

زرياب المغني ٦٣٣ - ٦٣٤ ، ٦٣٨

بنو زريع باليمن ٢٠٩ ، ٢١٣ - ٢١٤

زغبة - الزغبية ٢٢٩

الزكاه ٣٤٦ ، ٣٥٠ - ٣٥٢ ، ٥٤٩

الزنج ٦٢٦

الزلاقة - موقعة بالأنديلس ١٢١ ، ٥٣٣

ابن زللو ٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١

زليخة خاتون ٢٩

الزمام ٣٣٤

الزمنشري ٣٦ ، ٤٤٤

زناته - الزناتيون ١٢٥ ، ١٢٨ ، ٢١٩ ، ٣١٢ ، ٣١١ ، ٢٣١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٣

الزنادقة ٢٦٧

الزنج ٦٢٦

زنجبان ١٠ ، ٤٧ ، ١٤٥

زنجبار ٦٠٥

زنكي - أبو بكر سعد ١٥٧

زنكي - عماد الدين ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣

٦٤ - ٦٨ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٤

١٨٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٣٤٩ ، ٣٦١

٥٥٢ - ٥٥٥

ابن زهر - أبو بكر ٢٢٤ ، ٥٨٠

الزهراء ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٥٩١ قصر ال ٦٣٠

الزواج - حفلات ال ٦٥١ - ٦٥٣

الزواحي ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢٤١

الزوزني ٣٦ ، ٢٥٩

الراوندية ٢٥٥

الرباط ١٢٩ ، ٢٢٩ ، ٢٨٩ ، ٤٣٦ - ٤٣٩

٥٩٠ ، ٦٠٠ - ٦٠١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣

٦٢٤

الرحامنة - قبيلة بالمغرب ٦٠٠

ابن رزيك - الوزير الفاطمي ١٨٧ ، ١٨٨

١٩٠ ، ٢٥٠ ، ٦٠٩

رستم بن شهریار ٥٦٥

بنو الرسي ٢١٥ - ٢١٧

ابن رشد ٢٢٤ ، ٢٤٠ ، ٥٤٢ - ٥٤٧

رشيد الدين الهمذاني ٥٦٨

رضوان بن الوحشي الوزير الفاطمي ١٨٣ ، ١٨٤

الرضي - الشريف ٢٣٦

الرفاق ٢٧٢

رقادة بالمغرب ٥٨٩

الرقه ٢٩

الريق ٦٢٥ ، ٦٢٦ - ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٤٦

الركاز ٣٥٢

الرماني بالمغرب ٢٨٩

الرملة ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ٣٤٤

روبرت دوق نورمندي ٢٤٦

روبرت كونت شارتر ٢٤٦

رودجر النورمندي ١٧٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩

الروس ٢٢

الروم ٢٢ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩

الرميلة ٦١٤

رومانوس ٢٢

الرها ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨

الري ١٤ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٧

٥٣ ، ٦٨ ، ٨٥ ، ٨٧

الرياحية ٢٣٩

ريازان ١٥١

الرياضيات ٥٣٠ - ٥٣١ ، ٥٣٨ ، ٦٠٨

رئيس الرؤساء ١٤ ، ١٨

ريتشارد قلب الأسد ١١٠ ، ١٩٥ ، ٢٠٠

ريغوند كونت تولوز ٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧

زويلة - قبيلة مغربية ٣١٢

بنو زيان ٣١٨

أبو زيد الباضي ٣٦

الزيدية ٢١٦ ، ٢١٧

بنو زيري - الزيرية ٢٣٩

الزيني - الوزير أبو القاسم ٦٥٣ ، ٣٢٦ ، ٥٧

زين الدين علي بن بكتكين ٨٠

زين الدين يوسف ٨٠

(س)

سابوتاي - المغولي ١٥١

آل ساسان ٢ ، ٤ ، ٣١٠ ، ٣٢٠

الساق ٦٢ ، ٩٥

سامرا ٥٨٩

ساوه ٤٧ ، ٤١ ، ٤٢

سبأ - أبو حير ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٣

ابن سبأ - عبد الله ٢٥٤

ابن سبأ - عمران بن محمد ٢٠٨

ابن سبأ - محمد الداعي ٢٠٨ ، ٢١٣

سبته ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ٣١٣ ، ٣١٧

٣٤٤ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٦٠١

السبعية ١٣

السبعيني - في طريق مكة ٣٠ ، ٦٥٥

السبكي - تاج الدين ٥٦٧

السبكي ١٢٦ ، ٢٥٨

السجزي - داعي دعاة الاسماعيلية ٥٧٥

سجستان ٣٥ ، ١٧٦ ، ٥٦٥

سجلنامه ١١٥ ، ٣١٠ ، ٣١٧

سرخس ٤ ، ٥٨ ، ٩٦ ، ١٦٨

سردانية - جزيرة ٣٧٤

سرسطه - بالأندلس ١٢٦ ، ١٢٨ ، ٥٣٧

٥٣٨ ، ٦٣٠

السريانية - لغة ٥٥٣ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠

سستان ١٠

سعد الدولة آئين ٢٢ ، ٢٤

سعد بن زنسكي ٩٤

ابن سعيد الغرناطي صاحب المغرب ٥٨٢

سعيد الأحوال البني ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥

٢١١

سعيد بن نجاح البني ٢١١

السلاجة ٥ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٦٤

٣٥ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٥٦

٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١

٨٥ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠١

١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥

٣٤٦ ، ٣٥٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣

في عهد ٣٠٦ - ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٢

٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢

٤٠٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢

٦٤١ ، ٦٤٢

سلطيرة - حصن بالأندلس ٢٣١ - ٢٣٢

سلجوق بن تلقاق ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣

سلجوقشاه ٧٢

ابن السلا - الوزير الفاطمي ١٨٤ ، ١٨٥

١٨٦

سلطنة الروم ١٣٥ ، ١٤٦

سلغر - من قواد السلاجة ٦٢ ، ٩٤

السلوى - المؤرخ ٢٩٠ ، ٣١٣ ، ٣١٨

سلم - قبيلة عربية ٢٣٩

سلم الأول العثماني ٢٦٤

سليمان بن داود السلجوقي ١٩ ، ٢٠

ابن سليمان - محمد بن عم ملكشاه ٣٩

السلياني - المتوكل أحمد ٢١٨

السلياني ٢١٧

السمعاني ٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧

سمرقند ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ٩٨ ، ١٠٠

١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٧٢ ، ١٨٠

٣٤٤ ، ٥٦٥

السمرقندي - انظر نفاي عروضي

الشافعي ١٨٢ ، ١٨٦ ، ٢١٥ ، ٣٧٧
 الشام ١ ، ١٦ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٥٢ ،
 ٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ،
 ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٨ ،
 ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ،
 ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
 ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،
 ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ،
 ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٩ ، ٢٩٥ ،
 ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٤٢ ،
 ٣٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٥٥٤ ،
 ٥٥٦ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٩ ، ٥٨١ ،
 ٥٨٣ ، ٥٩١ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦٢٧ ،
 الشامانية ١٣٣ ، ١٣٧
 أبو شامة ٥٧٩
 شاور ١٠٥ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
 ١٩٣ ، ٢٥٠ ، ٣٣٠
 الشاوي - عبد الله ١٩٧ ، ٢١٢
 ابن شبه ٥٦٤
 ابن شبروط - حسداي ٣٣٢
 أبو شجاع - الوزير المؤرخ ٣٥ ، ٤٣ ، ٣٢٥ -
 ٣٢٦ ، ٣٥١ ، ٣٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٧٤ ،
 ٦٥٢
 شحنة بغداد ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢
 شجر الدر ٣٢٣ ، ٦٤٢
 ابن شداد - بهاء الدين ٥٥٥ ، ٥٧٩
 الشراب - صاحب ال ٥١
 الشرطة ٣٤٥ - ٣٤٦
 ششقر ٥٦٥
 الشعراfi ٥٤٨ ، ٥٥٠
 شغري بك داود ٢ ، ١٠
 الشقيف ٢٦٤
 شمس الدين الغوري ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
 ١٧٢
 المشوبك ١٩٤

السنه ١٥ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢٧١ ، ٢٩١
 سنج خان ملك التتار ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
 ١٣٤ ، ١٥٠
 سنجار ١٠ ، ١٢ ، ٤٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٣٤٤
 سنجر بن ملكشاه ٢٧ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ،
 ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٨ ،
 ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ - ٥٨ ، ٥٦ -
 ٥٩ ، ٧٠ - ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٩٥ -
 ٩٦ ، ١٦٤
 السند ١٠٠ ، ١٩٧
 السنكريتيه - لغه ٥٥٢ ، ٥٨٣
 السنغال - نهر ال ١٢٥
 سنقر بن مودود السلجوقي ٩٤
 السواد ٢٠١ ، ٣٣٩ ، ٣٧٨
 السودان - السودانيون ١١٩ ، ١٨٤ ، ١٩٤ ،
 ٢٠٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٦٦ ، ٦٢٨
 سور - أسوار ٦٠٩ - ٦١١
 سوريه - انظر الشام
 السوس - بلاد ال ٢٢١ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٤ ، ٦٠٠
 سوق - اسواق ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ - ٤١٨
 سونغ - اسره صيفيه ١٥١
 السهروردي - شهاب الدين ٣٠٥
 بنو سهل ٣٢٧
 سيريا ١٣١
 سيقيا - سكيثيا ١٣٠
 ابن سيده الاندلسي ٤٧٧ ، ٥٨٢
 سمري بن أبي بكر اللمتوني ١٢٣ ، ١٢٤
 سيف الدين غازي - بن زكي ٧٣ ، ٧٦ - ٧٩
 ابن سينتا ٢٧ ، ٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ - ٥٥٠
 السيوطي - جلال الدين ٥٧٢ ، ٥٨٥
 (ش)
 الشاشني - صاحب كتاب الديارات ٥٧٢
 شاطبه ١٢٤

٥٨٢ ، ٥٣٣ ، ٤٥٣ ، ٣٨٠

طغانشاه - الأمير ٦٥٤

الطغرائى ٤٨٠ - ٤٨١

طغرلبك السلاجوقى ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٩ - ٢٠ ،

٣٥ ، ٣١ ، ٢٥

طغرل بن محمد بن ملكشاه ٥٤

ابن طغريل ٥٣٩ - ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٨٠

طليطلة ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ٥٣٦ ، ٦٣٠ ،

طهران ٦٦

الطوائف - ملوك ال ٦٣٠

طوس ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٦

ابن طولون - مسجد ٦٠٩

الطولونيون ١٢٨ ، ٦٢٨

ابن أبى طى للمؤرخ ٥٧٣

الطبيبة فى اليمن ٢٧٩ - ٢٨٢

الظاهر الفاطمى ٦٢٨

(ع)

العادل الأيوبي ٦٤ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،

١٠٦ ، ١١٣ ، ١٣٥ ، ١٨٨ ، ٢٣٣ ،

العادل بن السلار الفاطمى ٢٤٨

العاقد الفاطمى ١٠٥ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ،

١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٣٢٢ ،

٣٣٠ ، ٣٧٤ ، ٤٨٥ ، ٦٠٩ ،

عبادة القزاز البطليوسى الشاعر ٤٩٦

ابن أبى عامر الحاجب ٣٣٢ ، ٦٣٠ ،

طمر بن عبد الله الزواحى باليمن ١٩٨ ، ٢٤٠ ،

٢٤١ ، ٦٣٠ ،

العامة ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٤٠ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ،

٦٤٤ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ،

عائه ٨١

ابن عباد - المعتمد ١٢٠ - ١٢١ ، ١٢٣ ،

١٤٤ ، ٦٣٠ ،

العباس بن الأحنف ٤٩٩

ابن عباس - عبد الله ٤٢٠

عباس عم علاء الدين الغورى ١٧٦ ، ١٨٦ ،

١٨٧

١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ،

٢٤٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٠ ،

٣١٢

الصيمرى - أبو عبد الله ٢٣٦

الصين - الصينيون ٢٩ ، ١٣٩ ، ١٥٤ ،

١٦٢ ، ٣٢٩ ، ٣٦٣ ،

(ض)

الضرائب ٣٤٦ - ٣٤٧ ضريبة الاقطاع

٣٤٨ ، فى العصر العباسى الثانى ٣٥٤ -

٣٥٥ فى العصر الفاطمى ٣٥٥ - ٣٥٨

فى الأندلس ٣٥٩

(ط)

أبو طاهر النحوى ٤٧٣

الطاهريون ٥٥٩

الطب فى العصر العباسى الثانى ٥١٥ - ٥٢٠

فى العصر الفاطمى ٥٢٠ فى المغرب والأندلس

٥٢١ - ٥٢٢ المدارس الطبيه ٥٢٢ -

٥٢٣

ابن طباطبا صاحب الفخرى ١٥٩ ، ١٦٢ ،

٣٢٩ ، ٥٦٧ ، ٦٧٧ ،

طبرستان ٥ ، ٩٩ ، ٥٥٢ ، ٥٦٥ ، ٥٧٥ ،

٥٨٣

الطبرى ٤٤٢ ، ٥٥١ ، ٥٥٤ ، ٥٦٤ ،

طبقات الحكماء لابن أبى أصيبعة ٥٦٣

طبقاتى ناصرى للجوزجاني ٥٥٨ - ٥٥٩ ،

٥٦٨

طبقات الشعب - فى عهد العباسيين ٦٢٥ -

٦٢٧ فى عهد الفاطميين والايوبيين ٦٢٧ -

٦٢٨ ، فى المغرب ٦٢٨ - ٦٢٩ ، فى

الأندلس ٦٢٩ - ٦٣١

طرابلس الشام ٧٧

طرسوس ٦٥٦

طرطوشه - مدينة بالأندلس ٣٧٦

الطرطوشى - أبو بكر صاحب سراج الملوك

عبيد الله المهدي ١١٨ ، ١٩٧ ، ٣٢٠ ، ٤٠٩ ،
٥٧٦ ، ٥٧٥ ، ٤٢٧

عثمان - جمال الدين والي مرو ٣٢

عثمان بن عفان ٣٥٩ ، ٤٤٠

العثمانيون - الأتراك ٩٠ ، ١٣١

عجائب المقدور في أخبار تيمور لاین عربشاه
٥٧٠ - ٥٧١

ابن عذارى المراكشي المؤرخ ٥٨٢

العراق ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ٤٠ ، ٤٧ -
٤٩ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٩ ،

٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨١ ،

٨٦ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٦٢ ، ١٧٧ ، ٢١٠ ،

٣٠٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧ ،

٣٨٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٥ ، ٥٦٥ ، ٥٨٣ ،

٦٠٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٧ ، ٦٤٠ ، ٦٤٩ ،

٦٥٦

العراقيين ٥٩ ، ١٠٥

عز الدين قيقاوس الثاني ٩

العزیز الفاطمي ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٥٧ ، ٣٠٦ ،

٣٢٠ ، ٥٧١ ، ٦٠٢ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ،

ابن عساكر صاحب الأنساب ٥٤٧

العسكر - مدينة ال ٥٩٢ ، ٦٠٠ ، ٦٠٥

العشور ٣٥٤

عسقلان ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٨١ ، ١٨٥ ،

٢٥٦ ، ٣٤٢ ، ٤٣٨ ، ٥٠٨ ،

عضد الدولة البويهی ٢٣٥ ، ٢٥٧ ، ٣٤٣ ،

٤٢٧ ، ٥٢٣

العطار - الشيخ فريد الدين ٣٦

العقاب - موقعة بالمغرب ٢٣١

عقبة بن نافع ١١٦ ، ٤٣٨

العقد الفريد ٢٧ ، ٤٩٦

العقيليون ٦٧

عكا ١٠٩ ، ٢٠٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٣٢٩ ،

٤٣٨

علاء الدين حسين الغوري ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،

العباسيون ١٢ ، ١٤ ، ١٧ ، ٥٢ ، ٥٥ ،

٦٢ ، ٨٥ ، ١٢٥ ، ١٤١ ، ١٤٥ ،

١٦١ ، ١٧٧ ، ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ،

٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩

ابن عبد البر صاحب الاستيعاب ٥٥٣

عبد الجبار المعافى ٢٧٦

ابن عبد ربه صاحب العقد ٤٩٦

عبد الرحمن بن عوف ٥٦٣

ابن العبري صاحب مختصر تاريخ الدول ٥٥٩ -

٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٧

عبد الرحيم بن إلياس داعي دعاة الدروز ٢٦١

عبد الرحمن الناصر ٣١٠ ، ٣٣٢ ، ٣٧٧ ،

٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٤٣٣ ، ٤٣٨ ، ٤٧٦ ،

٥٨٩ ، ٥٩١ ، ٦٣٠

العتي صاحب تاريخ اليمن ٥٥ ، ٥٦٦

عبد القادر الجرجاني ٤٧١

عبد الله بن أبي الوحش المقدسي اللغوي ٤٧٦

عبد الله الانصاري - شيخ الإسلام في العصر

الساخوي ٤٦١ - ٤٦٢

عبد الله بن بلكين ١٢٣

عبد الله بن محمد المرواني - شاعر اندلسي ٤٩٦

عبد الله بن علي العلوي - أمير الأحساء ٢٤٢

عبد الله بن مسعود الصجاني ٢٤٠

عبد الله بن ميمون القداح ٣٤٤ ، ٣٧٦

عبد الله بن ياسين ٢٨٣ - ٢٩٢ ، ٣١٢ ،

٣١٥ ، ٤٣٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٦

عبد المؤمن الموحي ٢١٩ - ٢٢٢ ، ٢٢٩ -

٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٣٠٠ ،

٣١٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٥١١ ،

٥٩٩ ، ٦٢١ ، ٦٢٣ ، ٦٢٨ ، ٦٤٢ ،

عبد المؤمن بن عبد الحق الجفراقي ١٦١ ، ٥٦٧ ،

عبد النبي بن علي بن مهدي باليمن ٢١٢ - ٢١٤ ،

٢٨١

العبيد بالاندلس ١٢٨ ، ٢٠٤ - ٢٠٥ ،

٢١٢ ، ٢٢٦

عيزاب ٤٠٧، ٤٠٨، ٥٠٩
عيسى - نهر ١٥٨
عيد - أعياد ٢٦٥، ٣٣٩، ٣٧٧، ٣٨٢
٦٤٥، ٦٤٣، ٦٠٨، ٦٠٣، ٣٨٤
عين جالوت - موقعة

(غ)

غازان - محمود ٤١٤، ١٦٣، ١٦٨، ٣٠٨
٣١٩، ٤٠٥، ٤٢٠، ٤٣١، ٥٥١
٥٦٨، ٥٦٦، ٥٥٢
غازي بن جشتكين
غانه ٤١٠، ٤١١، ٤١٢
غانية بافرقية ٢٢٧
ابن غانية - صاحب لإفرقية في عهد الموحدين
٢٣٠ - ٢٣١
غرناطة ٣١، ٣١٩، ٣٦٨، ٣٨٨، ٥٣٨
٦٣٥، ٥٨٤
الغر - الأثر ٢، ١٤، ٢٢، ٥٨، ٨٨
١٦٧، ٣٦٦، ٤٢٥
الغزالي - الإمام أبو حامد ٣٦، ٣٧، ٤٦
٣١٦، ٤٤٥، ٤٥٦، ٤٥٩
٥٣١ - ٥٣٦، ٥٥٠
الغزنويون البيت ال ٤٤١، ٥٤، ١٠
٣٥، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨
٤٢٠، ١٧٣
الغزنوي - مسعود الأول ٤٠٥، ١٠
الغزنوي - مسعود الثاني ٢٩
غزنه - ٦، ٣٥، ١٠٠، ١٠١، ١٦٤
١٦٦، ١٦٧، ١٧٠، ١٧١، ١٧٣
١٧٤، ١٧٥
الفساسنة ٢١٥
الفتنمة ٣٥٣ - ٣٥٤
الغور - بلاد ال ٣٥، ٥٨، ٩٩، ١٠١
١٤١، ١٦٦، ١٥٧، ١٦٨، ١٧٠
١٧١، ٥١٧
الغوريون ١٠٠، ١٦٣، ١٧٧

علاء الدين خوارزمشاه ٨٢
العلاف - أبو الهذيل المعتزلي ٤٥٧
علاء الدين قيقباز الأول ٨٩
علاء الدين قيقباز الثاني ٩٠
ابن العلقمي الوزير ١٥٦، ١٥٩، ١٦١
١٦٢، ٣٢٤، ٣٢٩، ٤٣١
علاء الدين محمود الغوري ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦
علي بن أبي طالب ٢٦٠، ٢٦٦، ٣٢٠
٣٤٥، ٤٢٤، ٤٣١، ٤٤٠، ٤٤٥
علي الداعي في اثنين ١٩٩
علي بن سبأ ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٥٧٨
٦٤٨، ٦٤٩
علي بن محمد الصليحي باليمن ٢٤١
علي بن مهدي صاحب زبيد باليمن ٢١٢
علي بن النعمان داعي دعاة الإسمالية ٤٢٩
علي بن يوسف بن ناشفين ١٢٦، ١٢٧
١٢٨، ١٢٩، ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٣٩
٣٥٩، ٤٤١
عماد الدين الاصفهاني ٤٣٣، ٤٥٧، ٤٨٣
٤٨٥، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢
عمارة اليني ١٨٨، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٤
٢١٠، ٢٨٢، ٢٨٣، ٤٨٥، ٤٨٦
٤٨٩، ٥٥٦، ٥٧٤
عمان ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٤٢
عمر بن الخطاب ٣٣٦، ٣٤٥، ٣٤٦
٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٨٢
عمر بن عبد العزيز ٣٣٦، ٤٣٧
عمرو بن العاص ٣٥٥، ٣٥٨، ٣٩٠، ٥٩٢
مسجد عمرو ٦٠٧، ٦١٧، ٦١٨
عموري - ملك بيت المقدس ١٨٩، ١٩٠
١٩٢، ١٩٣
عمورية ٤٣١
عوفي صاحب لب الباب أو جوامع الحكايات
٥٦٣
عميد الدولة بن نضر الدولة ٦٧، ٥٦٣
عياض - القاضي ٤٥٦

الفتح بن خاقان ٥١٣ — ٥٣٧، ٥١٤

نجر الملك الوزير ٥٣٣

أبو القدا ٥٦٢

القداوية — القداثيون ٢٧١ — ٢٧٦

الفرات — نهر ال ١٢، ٤٥، ٧٥، ٩٦،

٣٤٤، ٤٠٠، ٤٠٥، ٤٨٩، ٥٠٩

ابن الفرات — الوزير ٣٨١

فردريك بربروسا ١١٠، ١١٣

الفردوسي الشاعر ٥٥٨، ٥٨٦، ٦٢٥

فرس — فارسي ١، ١٢، ١٣، ٢١، ٢٥،

٣٦، ٣٥، ٤٠، ٦١، ٦٢، ٩٢،

٩٤، ١٠١، ١٠٢، ١٢٤، ١٤١،

١٥٤، ٢٧٨، ٢٧٠، ٢٥٩، ٣١٠،

٣١١، ٣١٢، ٣١٩، ٣٨٧، ٣٩١،

٣٩٢، ٤٣٩، ٤٦٢، ٤٦٤، ٤٦٥،

٥٣٢، ٥٣٦، ٥٤١، ٥٥٣، ٥٦١،

٥٦٣، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٨، ٥٦٩،

٥٧٠، ٥٧٨، ٥٨٣، ٥٨٦، ٥٨٧،

٥٩٤، ٦٠٧، ٦١٩، ٦٢٥، ٦٤٩،

فرشابور — مهد النور ١٧١، ١٧٢، ٥٧٠

الفرما ٤٠٤ — ٤٠٦

الفرجة ٢٢، ٤٥، ٤٨، ٨١، ١٠٥،

١٠٧، ١١٠، ١١٠، ١٣١، ١٨١، ١٨٨،

٢٤١، ٢٤٨، ٣٧٤، ٤٣٨

فروخ شاه الحفاجي بن ملكشاه ٧٠ — ٧١

الفسطاط ١٩٢، ٢٥٠، ٣٥٧، ٣٧٣،

٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨،

٤٠٤، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٥،

٤١٦، ٤٢١، ٤٣٨، ٤٥٥، ٥٨٩،

٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٥، ٦٠٢، ٦٠٥،

٦١١

ابن فضل الله العمري ٦١٣

فقه، فقهاء — فقه الشيعة ٤٥٠ — ٤٥٣

الفقه في الدين ٤٥٤ — ٤٥٧، ٥٣٢، ٥٣٧،

٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٣، ٥٤٦، ٥٥٣،

٥٥٦، ٥٨٥، ٦٠٧، ٦١٨،

الغوري — علاء الدين حسين ١٦٤، ١٦٥ —

١٦٧، ١٧٥، ٥١٧، ٥٥٨

الغوري — غياث الدين محمد ١٦٧ — ١٦٨

الغوري — غياث الدين محمود ١٧٤، ١٧٥ —

١٧٧

(ف)

فانك الثاني ٢١٢

فانك الثالث ٢١٢

الفانكي — أنيس ٢١١، ٢١٢

القاراني — أبو نصر ٣٠٤، ٥٣١، ٥٣٨،

٥٤٨

فارسكور ١١٥، ٢٢٣

فاس ١٢٧، ٣٨٨، ٣٩٦، ٤١٧، ٤٢٣،

٥٣٨، ٥٨٠، ٥٨٩، ٥٩٨، ٦٠٠،

٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٩، ٦٣٨، ٦٣٩،

الفاضلية — المدرسة ال ٦٠٨

فاطمة الزهراء ٣٢٠، ٣٢١

الفاطميون ١٢، ١٤، ١٥، ١٦،

٢٢، ٢٣، ٨٠، ١٠٥، ١٠٧،

١١٨، ١١٩، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٥،

١٨٧، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠٧،

٢٠٩، ٢٣٥، ٢٣٧، ٣١٠، ٣١٣،

٣٢٠، ٤٠٦، علاقتهم بالبيزنطيين ٢٣٥ —

٢٣٧ علاقتهم بالحجاز ٢٣٧ — ٢٣٨

علاقتهم بالمغرب ٢٣٨ — ٢٣٩ علاقتهم

بصقلية ٢٤٠ — ٢٤١ الخلافة الفاطمية

٣١٧ — ٣٢٠ مصادر الفاطميين

٥٧١ — ٥٧٩، ٥٨٦، ٥٩٤، ٦٠٣،

حمايات الفاطميين ٦٠٤ — ٦٠٥، ٦٠٩،

٦١٠، ٦١١، ٦١٦ مساجد الفاطميين

٦١٦ — ٦٢٠، ٦٢٢، ٦٢٧، ٦٢٨،

٦٣٤، ٦٣٨، ٦٤٠، ٦٤٢، ٦٤٤،

الاعباد والواسب والموالك في عهد الفاطميين

٦٤٤ — ٦٤٩، ٦٥٦

الفائز الفاطمي ١٨٧، ٤٨٦، ٤٨٧

قائمه الغورى ٣١٩

القاهرة ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢١٠ ،
٢٥٠ ، ٣١٢ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ،
٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٣٩٥ ،
٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٦ ، ٤٢١ ، ٤٢٣ ،
٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٨٢ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ،
٥٢٩ ، ٥٥١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ،
٥٧٢ ، ٥٧٧ ، ٥٨٨ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥ ،
٦٠٣ ، ٦٠٢

مدارس القاهرة ٦٠٦ - ٦٠٨ ، المنشآت الحربية
في ال ٦٠٩ - ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٩ ،
٦٢٢ ، ٦٣٣ ، ٦٤٠

قائمتى ٣١٩

قائمتى ٢٤٨

القيامه - كنيسة ال ٢٣٥

القدورى - أبو الحسين الفقيه ٢٣٦

القراءات - علم ال ٤٤٠ - ٤٤٦

قرقوش - بهاء الدين ١٠٨ ، ٢٢٥

قرايوني ٨١

القراطة ٢٥٤ - ٢٥٩ ، ٦٠٩ - ٦٢٥

قرسقة - جزيرة ٣٧٤

قرطبة ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ،

٣٦٨ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٤٠٩ ، ٤٢١ ،

٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٥٦ ،

٤٦٧ ، ٤٧٤ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ،

٥١١ ، ٥١٢ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ،

٥٤٣ ، ٥٩١ - ٥٩٢ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ،

٦٣٠ ، ٦٣٣

القرطبي المؤرخ ٥٧٣

قرونة - بالاندلس ١٢٤

قرواش بن المقلد العقيلي ٤٥٢

قره خطاي - بلاد الخطا السوداء ١٤١

قره قورم ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥٤

القرويين جامع ال ٦٢٠ - ٦٢١

قريش بن بدران ١٨

٦٢٨ ، ٦٣١ ، ٦٤٠ ، ٦٥٠ ، ٦٥٤ ،

٦٥٦

فلسطين ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٣٠٩ ،

٣٤٢ ، ٤١٢ ، ٦١٣

الفيلين ٤٠١

الفلجا - نهر ال ١٣١ ، ١٥١

الفلسفة ٥٣١ - ٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٩ ،

٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٨٠ ، ٥٨٥ ، ٦٠٨ ،

٦٣٠

الفلك - النجوم - في العصر العباسي ٥٢٤ -

٥٢٨ ، ٥٦٢ في مصر والمغرب ٥٢٨ -

٥٣٠

فوات الوفيات لابن شاذكر الكتبي ٥٦٤ ،

٥٦٧

الفوتس السادس ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،

٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٣١٤ ،

٣١٥ ، ٤٥٧ ، ٤٩٤

الفني ٣٥٣ - ٣٥٤

فيروزكوه حاضرة الغور ٥٨ ، ٩٩ ، ١٦٣ ،

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦

فيليب الثاني ١١٠

الفينيقيون ٥٣٠

(ق)

قابوس بن وشمكير ٥٥٢ ، ٥٥٥

قادر ٥٤٠

القاسم الرسي ٢١٦ ، ٢١٧

القاسم بن محمد الجمحي ٤٥٤

القاضي الفاضل ٥٠٨ - ٥١٠

قاضي القضاء ٤٢٧ - ٤٣٠

القائم العباسي ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٨ ،

١٩ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،

٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣٢٤ ، ٥٧٦ ، ٦٣٢ ،

٦٤١ ، ٦٥١

القالي - أبو علي اللقوى ٤٧٥ ، ٤٧٦

القلزم - بحر ال ٤٠٤ - ٤٠٥
الفلقشندی - صاحب صبح الأعشى ٥٦٧ ، ٦١٦
قلورية بايطاليا ٣٧٣
القلم الجليل ٣٣٣
القلم الدقيق ٣٣٣
قليج أرسلان ٨٩ ، ٢٤٦
قم ٥٦٥
القمجية - مدرسة آل ٦٠٨ ، ٦١٩

(ك)

كاشفر ١٣١ ، ١٤١
السكر - الإمام موسى ٢٨ ، ٦٢٦
كانور الإخشيد ٥٧١ ، ٦٢٨
أبو كالاچار ٥ ، ١٢ ، ١٣
السكرامل الأيوبي ١١٣ ، ١١٤ ، ٦٠٨ - ٦١٢
السكراملية - المدرسة ٤٢٦
كاهون - صاحب كتاب مقدمة لتاريخ آسيا
والأترار والمغول ٥٦٩ - ٥٧٠
كبادوكيا ٨٥
السكرابة ٣٣٢ - ٣٣٤
كتامة قبيلة مغربية ٦٤٩
السكرابي - ابن شاكر ٥٦٤ ، ٥٦٧
السكرابية - مسجد بمراكش ٥٩٩ ، ٦٠١ ،
٦٢٠ - ٦٢٣
كنخددا - عبد الرحمن ٦١٧
ابن كثير - صاحب البداية والنهاية ٥٦٧
السكرج ٨٥ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٣٩١ ، ٦٢٥ ،
٦٣٢
السكرخ ١٦٢
كرد - أكراد ٥٠ ، ٨٦ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ،
٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٥٦١ ، ٥٧٢ ، ٦٢٥ ،
٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩
السكر ٧٧ ، ١١٤ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٣٠٩ ،
٣٦٧ ، ٤٩٠ ، ٥٠٩ ، ٦١٣

قزوين - الخزر ١٠٢ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ، ٢١٦ ،
٢٦٩ ، ٤٢٠
القزويني الجفرائي ٥٥٨ ، ٥٨٦
قسطنطين التاسع ٢٣٥
القسطنطينية ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٥١٨
قشتاله ١٢١
قصب السكر - صناعة ٣٩٥
قصة حتى بن يقظان ٥٤٠ - ٥٤٢
قصر - قصور ٦٠٢ - ٦٠٣ ، ٦٠٤ ،
قصر الزهراء ٦٣٠ ، ٦٣٤ - ٦٣٦ ،
٦٤٨
القضاء في العصر العباسي الثاني ٣٧٧ - ٣٧٨
في عهد الفاطميين والأيوبيين ٣٧٨ - ٣٧٩
قانون الوراثة في عهد الفاطميين ٣٧٩ -
٣٨٢ القضاء في الأندلس ٣٨٢ - ٣٨٣ ،
٥٤٣ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٨٦
القضاعي - الفقيه المؤرخ ٣٣٤ ، ٤٣٥ ، ٥٧٢ ،
٥٧٣ ، ٦٥٦
القطائع - مدينة ابن طولون ٥٩٢ ، ٦٠٥
قطب الدين أبيك ١٧١ ، ١٧٢
قطب الدين ملكشاه الثاني من سلاجقة الروم ٨٩
قلعة الجبل بالقاهرة ٦١١ - ٦١٥
قطنغ خانون أرمة قطب الدين محمد ٩١
قطنغ خان - لقب براك حاجب أتابك كرمان ٩٢
القطنغون ٦٢
قطمش عم أرسلان السلجوقي ٢٠
القطيف ٢٥٧
القفجاق ٦٠ ، ٦٢
قفط ٥٦٢
القفطي - مؤلف تاريخ الحكماء ١٤٦ ، ٥٢٠ ،
٥٦٢
قلامش - ابن (الشاعر) ٢١٣ ، ٤٨٢
ابن القلانسي ٥٥٢
قلاوون - السلطان ٢١٥ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ ،
٦٠٦ ، ٦١٢

(ل)

لاهور - بالباكستان ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٧
 لباب الألباب - لحد عوق ٥٦٣
 لقه - عام ال ٤٧٤ - ٤٧٧
 لبارديا - بإيطاليا ٣٧٣
 لتونة - قبيلة بالمغرب ١١٨ ، ١٢٠ ، ٣١٢ ،
 ٥٩٦ ، ٥٩٧
 اللمتوني - يحيى بن إبراهيم ١١٨
 لظه - قبائل مغربية ٤١١
 ملك بن مالك ٢٨٠
 لؤلؤ - وزير بيت زندي ٧٦
 لويس السابع - ملك فرنسا ٢٤٩ ، ٣٢٣
 ليبيا ٦١٦
 لينبول ٥٧١ ، ٦١٦
 ليورقة ١٢٣
 لبيط - حصن بالأندلس ١٢٣
 ليون الأفريقي ٦٠١ ، ٦٢١ ، ٦٢٤

(م)

ماردين ٨١
 مارستان - بيارستان في الشرق ٤٢٦ - ٤٢٧ ،
 ٥٢٢ - ٥٢٣
 مالك بن وهيب ٥٢٩
 مالكولم - سير جون - صاحب تاريخ فارس
 ٥٧١
 مأمون بن مأمون - أمير خوارزم ٥٥٢
 المأمون البطاحي - الوزير الفاطمي ٢٠٨
 المأمون العباسي ٦٤٢
 المأمون بن الناصر الموحد ٢٣٣ ، ٥٣٠
 مانجو خان بن تولوي بن جنكيزخان ٤٨ ، ١٥٣ ،
 ١٥٤ -
 الماوردي - صاحب الأحكام السلطانية ٢٠
 المنوكل العباسي ٦٤٢
 المجالس والمساربات لأبي حنيفة النعمان المغربي
 ٥٧٦

كرمان ٥ ، ١٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٨٧ - ٨٨
 أنابكية كرمات ٩٣ - ٩٤ ، ١٠٠ ،
 ١٠٣ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٦٨ ،
 ٢٧٨
 كرماتشاه - مدينة بفارس ٥٠
 الكرماني - حميد الدين داعي دعاة الفاطميين
 في فارس ٥٧٦ ، ٥٧٧
 الكلام - علم ال ٤٥٧ - التوحيد في الإسلام
 ٤٥٨ - ٤٦٧ علم الكلام في المغرب
 ٤٦٧ - ٤٧٠
 ابن كلس - يعقوب ٦١٧ - ٦١٨
 كليرمنت - مدينة بفرنسا ومهد الدعوة للحروب
 الصليبية ٢٤٥
 الكندري - عميد الملك الوزير ١٩ - ٢١ ،
 ٢٨
 الكندري - محمد بن عميد الملك ١١ ، ١٤ ،
 ٣٢٦ - ٣٢٧
 كتراد الثالث - امبراطور ألمانيا ٢٤٩
 كوبلاي - ابن تولوي بن جنكيزخان ١٤٩
 سقوط بغداد ١٥٤ - ١٦٢
 كوريا ١٥١
 الكوفة ٢٥٤ ، ٣٩١ ، ٣٩٨ ، ٤٠٥ ،
 ٤٧٤ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ،
 ٦٠٥ ، ٦٤٩
 كوكر - السكوكرية ١٧١ - ١٧٣
 السكونت بالأندلس ٦٣٠
 كيشيرو - غياث الدين ٨٩ ، ٩٠
 كيدو ١٥١ - ١٥٢
 الكيسانية ٢٥٤
 كيفا ٨٢ - ٨٤ ، ١١٤ ، ١٤٨
 كلسيا ١٥٠
 كين - امبراطورية بالصين ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٥٠
 كيبوك - ابن أجتاي ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣
 كينيا ٤٠٢
 كييف - بالروسيا ١٥١

مساجد العصر الفاطمي الأخير ٦١٩ -
٦٢٠ مسجد الكتبية بمراكش ٦٢١ -
٦٢٤ مسجد القرويين بفاس ٦٢٠ -
٦٢١ مسجد ومنارة حسان بالرباط ٦٢٣ -
٦٢٤ .

المستعلي الفاطمي ١٨٠ ، ١٨١
المستنصر الفاطمي ١٧٧ - ١٨٠ ، ٦٠٢ ،
٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ ،
٦٣٣

مسعود الأول ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ٧٩
مسعود الثاني ٦٤ ، ٦٥
مسعود بن محمد بن ملكشاه ٥٢ - ٥٨ ، ٦٠ ،
٣٠٨ ، ٤٩٥

المسعودي ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٦٦
مسفيوه - قبيلة مغربية ٦٠٠
مصموده - قبيلة مغربية ٣٧٦ ، ٥٩٥
مصر ١٣ ، ٢٤١ ، ٥٣٢ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ،

٥٨٣ ، ٥٨١ ، ٥٦٥ ، ٥٦٢ ، ٥٥٠
٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ ،
٦٠٤ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦١١ ، ٦١٢ ،
٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ،
٦٢٥ ، ٦٣٨ ، ٦٤٠ ، ٦٤٢ ، ٦٤٤ ،
٦٤٦

المصحفي - جعفر ٣٢٢
مصعب بن الزبير ٦٢٦
المطيع العباسي ٦٤٢
المظالم ٣٨٣ - ٣٨٤
المعتزله ١٢٧

المعتصم العباسي ٥٥١ ، ٦٢٥ ، ٦٤٢
المعتضد العباسي ٥٨٩
المعز الفاطمي ٥٧١ ، ٥٧٦ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ ،
٦١٨ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩

المغرب - بلاد ال ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٣ ، ٥٣٨ ،
٥٤٠ ، ٥٦٥ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٩ ،
٥٨٠ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ،
٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٦ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ،

مجاهد العامري حاكم دانية الجزائر ٦٣٠
أبو المحاسن ٥٧٠

المختب - الحبة ٣٨٤ - ٣٨٦
محمد صلى الله عليه وسلم ٦١٨ ، ٥٤٢
محمد علي ٦١٤ ، ٦١٦
محمد بن ملكشاه ٤٣ - ٤٦ ، ٨١ ، ٦٢٦ ،
٦٥٢ ، ٦٥٣

محمود بن محمد بن ملكشاه ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨
المدائني ٥٦٤

مدرسة - مدارس ٤٢٤ - ٤٢٦ ، ٦٠٦ -
٦٠٨ ، ٦١٠ ، ٦١٣ ، المدارس الطبية
٥٢٢ - ٥٢٣ ، ٦٥٣

المرباطون - بالمغرب ١٢٠ الدولة ال ١١٥ -
١٢٩ الدعوة المرباطية ٢٨٢ - ٢٩٣
المرباطون والخلافة العباسية ٣١٠ - ٣١٦ ،
٦٢٨ ، ٦٣١

المرأة ٦٤٠ - ٦٤١ ، ٦٤٤ ، ٦٥٠ ،
٦٥١

مراكش - مدينة ٥٤٣ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ،
٥٩٥ - ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣
المراكشي - عبد الواحد صاحب العجب في تلخيص
أخبار المغرب ٥٨٢ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ،
٦٠١

المرتضى - الشريف ٦٥٠
مرداويج بن زيار الديلمي ٥٧٥
مرسية - مدينة بالأندلس ١٢٣ ، ٥٤٧
مرو ٥٥٦ ، ٥٦٥ ، ٥٨٥
المرينيون ٣١٨ ، ٣١٩

المسبحي - صاحب كتاب تاريخ مصر ٥٧٢
المسترشد العباسي ٣٠٧ ، ٥٥٨
المستظهر العباسي ٣٠٧ ، ٦٥٢
المستعربين بالأندلس ٦٣٠
المستعصم العباسي ٥٦٧ ، ٥٨٦ ، ٦٢٥ ،
٦٥٠ ، ٦٥١

مسجد - جامع ، وظيفة ال ٣٣٦ - ٣٣٧ ،
٤٢١ - ٤٢٣ الأزهر ٦١٦ - ٦٢٠

المنصور - أبو جعفر ٥٥٣
المنصور - أبو يوسف يعقوب ٢٢٧ ، ٥٤٣ ،
٥٨٠ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٢٢ ،
٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩

منغوليا ٥٦٨

ابن منقذ - اسامه صاحب كتاب الاعتبار ٥٧٤
المنقذ من الضلال للغزالي ١٥٠ ، ٥٣٥ - ٥٣٦
منكرني - جلال الدين آخر سلاطين خوارزم ٥٦١
منهاج السراج للجوزجاني ٥٥٨
المهدية ٣٧٦ ، ٥٩٠

المواعظ والاعتبار للمقرئ ٥٦٧ ، ٥٧٣
الموحدون بالمغرب - الدولة الموحدية ٢١٩ - ٢٣٣
- الدعوة الموحدية ٢٩٢ - ٣٠٢ ، الخلافة
الموحدية ٣١٦ - ٣١٧ ، ٥٩٩ ، ٦٢٨

مودود - قطب الدين ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٧
الموشحات - الزجل ٤٩٤ - ٤٩٨
الموصل ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
٥٤٧ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦
٥٨٥ ، ٥٥٩

المؤيد هبة الله الشيرازي داعي الاسماعيلية ١٢ ،
١٤ - ١٥ ، ٢٣٧ ، ٤٦٢ - ٤٦٧
٥٧٨ - ٥٧٩

مؤيد الدولة بن نظام الملك ٣٢٨
مؤيد الملك بن نظام الملك ٤٠ ، ٤١
مياقارقين ٨١
ابن ميسر المؤرخ صاحب كتاب أخبار مصر
٥٧٢ ، ٥٧٤ ، ٦٣٥

(ن)

ناصر خسرو ٥٦٣ ، ٥٧٣ - ٥٨٤ ، ٥٨٦
٥٩٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣

الناصر العباسي ٥٨١ ، ٩٥٠
الناصر - عبد الرحمن الثالث ٥٩١ ، ٦٣٠
الناصر بن يعقوب بن المنصور الموحدى ٢٣٠ -
٢٣١ موقعة العقاب ٢٣١ - ٢٣٢

٦٢٣ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٥ ،
٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٢
الغول - انظر التتار - التتر ٦٢٥ ، ٦٢٧ ،
٦٢٨ ، ٦٢٩

المقتدر العباسي ٦٤٢ ، ٦٥٦
المقتدى العباسي ٣٠٧ ، ٥٥١ ، ٦٣٢ ، ٦٥٢
المقتنى العباسي ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٦٥٣
المقدسى - صاحب أحسن التقاسيم ٥٨٣ ، ٦٠٥
المقرئ ٥٣٨ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠ ، ٥٦٦ ، ٥٨٣ ،
٦٠٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٩

المقرئى ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ،
٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٥ ، ٦١٢ ، ٦١٥ ،
٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٣٣ ، ٦٥١
القس - ميناء مصر ٦٠٣ ، ٦١٠

القطم - جبل بمصر ٥٢٩ ، ٥٩٤ ، ٦٠٢ ،
٦٠٩ ، ٦١١

مكتبة - مكتبات ٤٣٠ - ٤٣٣ ، ٥٩٤
المكرم بن علي الصليحي ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
٢٤٢

مكة ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٨٤ ، ٦٥١ ، ٦٥٥ ،
٦٥٦

المسكين - جرجيس صاحب المجموع المبارك
٥٥٩

ملاز كرد - موقعة ٢٢ ، ٦٤٤
الملايو ٦٠٥
ملبار ٤٠٠

ماطية - بارمينية الصغرى ٥٥٩
ملكشاه الساجوق ٢٢ ، ٢٥ - ٣٣ ، ٣٥ ،
٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٩٥ ، ٥٣٢ ،
٦٠٦ ، ٦٤١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٥

الماليك ٥٧٩ ، ٥٩٤ ، ٦٠٨ ، ٦١٣ ،
٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦٢٨

النثر ٦٠٧ ، ٦١٢ ، ٦١٧ ، ٦٢٣ ، ٦٤٦ ،
٦٤٧ ، ٦٤٩

ابن منده - مؤرخ أصبهان ٣٦

٥٥٧٦ ، ٥٧١ ، ٥٧٠ ، ٥٦٣ ، ٥٥٩

٥٨٣

بنو هود ملوك سرقسطة بالأندلس ٦٣٠
هولاكو — سقوط بغداد ١٥٤ — ١٦٢

٥٧١ ، ٥٦٨ ، ٥٦٦ ، ٥٥٧

هووزث — هنري صاحب تاريخ المغول ٥٦٩

هيلانة — قبيلة بالمغرب ٥٩٥ ، ٥٩٦

(و)

واسط ٤٩ ، ٦٤٩ ، ٦٥١

ابن واصل — جمال الدين صاحب مفرج السكروب

في أخبار بني أيوب ٥٧٩

الوزان — الحسن — انظر ليون الافريق

وريكة — قبيلة بالمغرب ٩٥٥

وزير — وزارة ، في عهد السلاجقة ٣٢٤ —

٣٢٩ في مصر ٣٢٩ — ٣٣١ في الأندلس

٣٣١ — ٣٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٧ ، ٥٣٧

٥٥١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٨ ، ٥٦٢ ، ٥٧٤ ، ٥٧٤

٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٦٠٤ ، ٦٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦٠٩

٦١٠ ، ٦١٧ ، ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٤ ، ٦٣٤

٦٣٥ ، ٦٤١ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥١ ، ٦٥١

٦٥٢ ، ٦٥٣

الوساطة ٣٣٣

وصاف الحضرة — عبد الله بن فضل الله صاحب

تاريخي وصاف ٥٦٨

وفيات الاعيان ٥٦٤ ، ٥٥٧

الوليد ٥٥١

(ي)

ابن ياسين — عبد الله الفقيه المالكي ٦٣٠

ياقوت الجوى ٥٦٢ ، ٥٦٧ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦

يزدى — شرف الدين صاحب كتاب ظفر نامة

٥٧٠

اليساق ١٣٦ — ١٣٩

اليقونى ٥٩٥ ، ٦٠٥

الناصرية — مدرسة ال ٦٠٧

النبط ٦٥٥

النثر ٥٠١ — ٥١٣

نجم الدين أيوب ١١٤ ، ١١٥ ، ٣٢٣ ، ٦٢٨

نحو ٤٧٠ — ٤٧٤

النزارية في فارس والشام ٢٦٨ — ٢٧٩

النسفي — أبو عبد الله داعي الاسماعية ٥٧٥

النسوى — شهاب الدين صاحب سيرة منكبرتي ٥٦١

النسيج ٣٩١ — ٣٩٤

النصارى ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، نصارى الأندلس

٦٣٠

النصيرية ٢٦٥ — ٢٦٧

نظام الملك الوزير ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٣

٦٠٦ ، ٥٣٢

النظامية — المدرسة ال ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٦٣٣

نظامي مروضي ٣٦ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ١٦٦ ، ٣٠١

النظام المعتزلى ٤٥٧ — ٤٥٨

نقيس — وادى بالمغرب ٥٩٦

نقيسة — مشهد السيدة ٦١١

النميري — عمر بن علي ٤٥٥

نور الدين محمود بن زنكى ٦٣ ، ٢٠٩ ، ٣٣٠

٦٠٦ ، ٣٤٩

ذو النون — أسرة حاكمة بطليطلة ٦٣٠

نيسابور ٥٣٢ ، ٦٠٦ ، ٥٣٣

النيل — نهري ال ٥٩٤ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١٠

٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣٥ ، ٦٤١ ، ٦٤١

٦٤٥

(هـ)

ابن هبيرة — عون الدولة ٤٨٣

هراة ١٧٦ ، ٥٦٥ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥

بنو هلال ٦٢٨

هلال الصابي ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٧٤

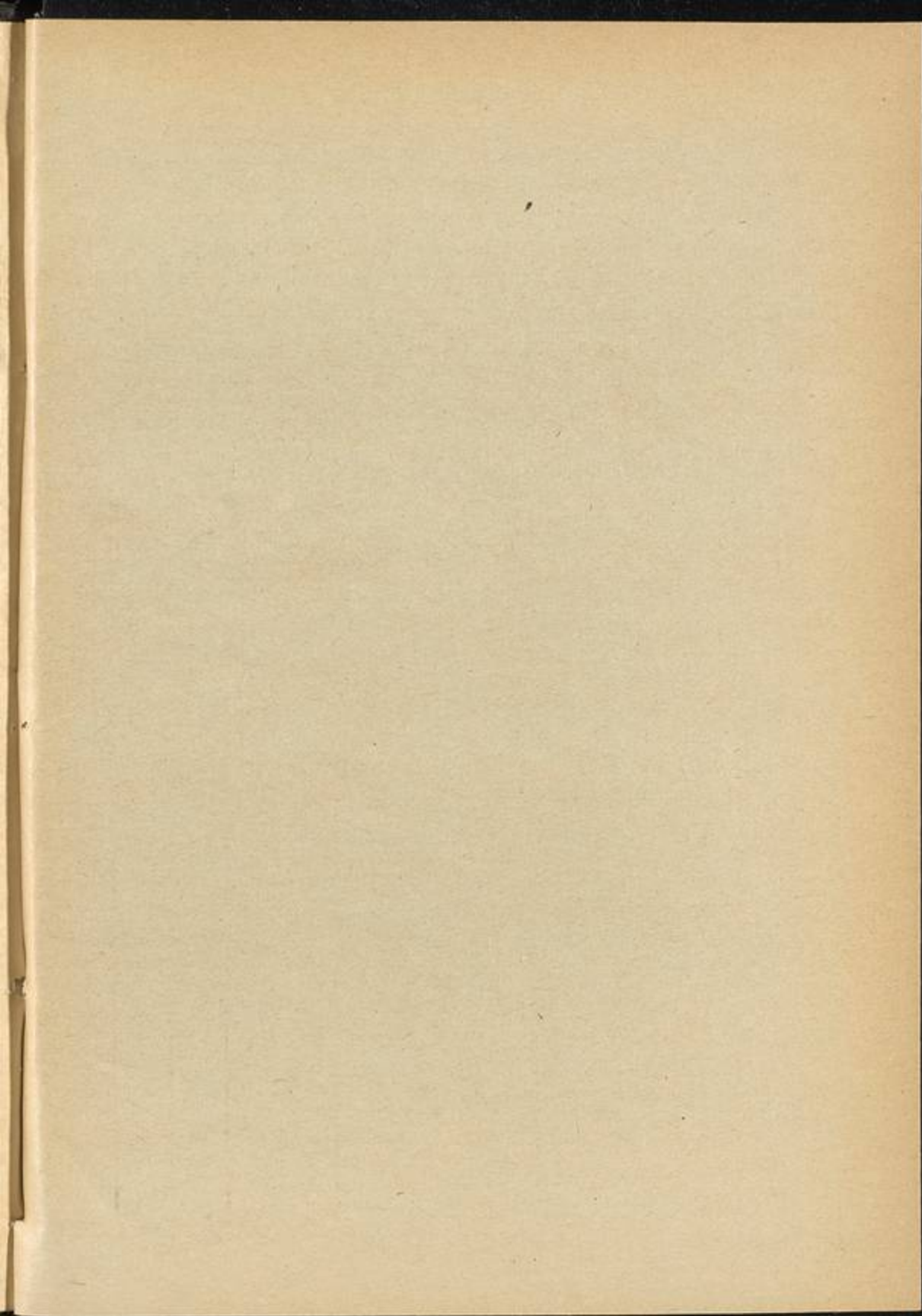
الهمة وفضل الائمة لأبي حنيفة النعمان المغربي ٥٧٧

همذان ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٥٦ ، ٦٠٥

الحند ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٤١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٨

بنو زريع في عدن ٢١٣ ، اليمن في عهد
 الأيوبيين ٢١٤ — ٢١٥ ، بنو رسول
 وبنو الرسى في اليمن ٢١٥ — ٢١٩
 الدعوة الصليبية في اليمن ٢٧٩ — ٢٨٢
 يوسف بن تاشفين ٥٩٧ ، ٦٢٨
 يوسف بن عبد المؤمن أبو يعقوب المنصور ٦٢٣ ،
 ٦٢٤
 اليهود — اليهودية ٥٤٦ ، ٥٥٩ ، ٦٢٦ ،
 ٦٢٧ ، ٦٣٠
 اليونان ٥٣٠ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٥٣
 ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٨٧ ، ٥٩١

أبو يعقوب يوسف المنصور الموحدى ٢٢٤ —
 ٢٢٥ ، موقعة الارك ٢٢٥ — ٢٢٧ ،
 أبو يعقوب وصلاح الدين ٢٢٨ — ٢٢٩
 إصلاحات يعقوب ٢٢٩ ، ٥٤٣ ، ٥٩٩ ،
 ٦٠١ ، ٦٢١ ، ٦٢٣ — ٦٢٤
 يلغا — الأمير ٦١٩ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩
 يليوشقى مستشار جنكيزخان ١٤٧
 اليمن — الدولة الصليبية في اليمن ١٩٧ — ٢٠٧
 الاسماءيلية في اليمن بعد المستنصر ٢٠٨ —
 ٢١٠ بنو نجاح في زبيد ٢١٠ — ٢١٢
 بنو مهدي في زبيد ٢١٢ — ٢١٣ ،



تصويب

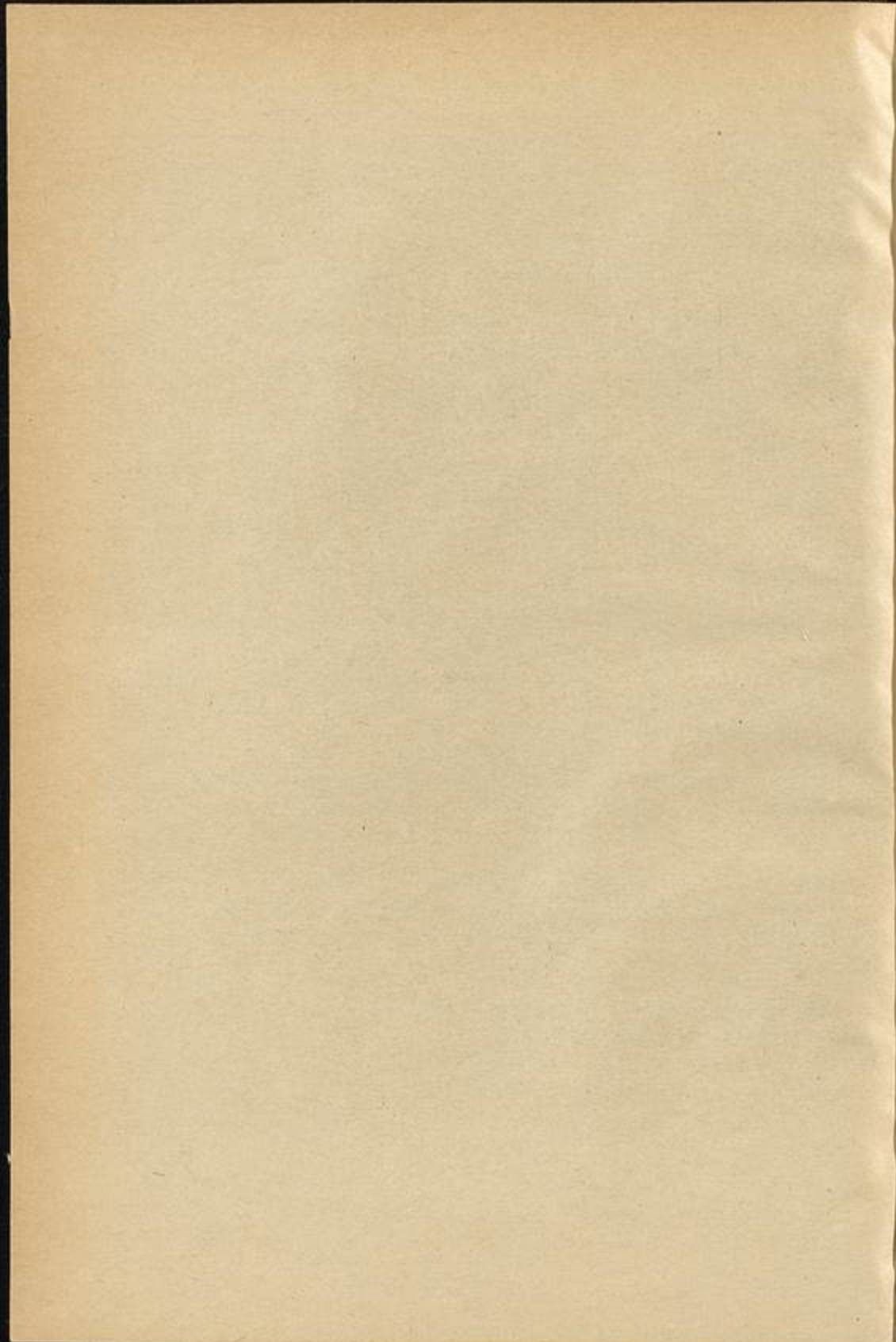
أعتذر للقارىء الكريم عن وقوع أغلاط مطبعية ترجع إلى طبع الكتاب أثناء غيابى عن القاهرة حتى اضطرت إلى إعادة جمع وطبع كثير من الم لازم ، راجيا التفضل بإصلاح هذه الأغلاط قبل قراءة الكتاب . وقد يجد القارىء بعض أغلاط أخرى لم تثبت في هذا الثبت ولكنها لا تخفى على فطنته .

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
ك	٦	الفاطمين	الفاطميين	٧١	٢٤	أربل	أربيل
ن	٢	إمرة الجيش	الجيش في مصر	٨١	٢٣	الصليبين	الصليبيين (١)
١	١١	بسلطين	لسلاطين	٩١	١٤	براك	براك
٣	٥	أرسلان ييغو	موسى أرسلان ييغو	٩٢	٤٠ ٣	بران	براك
٣	٥	موسى	تمحذف	٩٢	٩٠ ٦	براق	براك
٤	٢٥	ج ٥	ج ٩	٩٦	٩	واطووه	واضطروه
١٣	١١	nâmeh	naméh	١٠٠	٢٦	ويتخر بها	ويتخر بها
١٣	٢٥	ص	ورقة	١٠١	٢١	أو نزار	أو نزار
٢٠	١٣	١٦٠٣	١٠٦٣	١٠٢	٩	توكان	تركان
٢٠	١٤	داود	مغرى داود	١٠٢	٢١	بروان	براون
٢١	١٤	٤٦٣	٤٦٥	١٠٢	١٥	ج ١٢	ج ٢
٢٢	١٢	سعد الدين	سعد الدولة	١٠٣	٧	النهر	النهر
٣٢	٢	أين	أن	١٠٣	١٩	المكان	المطاف
٣٤	١٧	راحة الصدور	راحة الصدور (٢)	١٠٣	٢٥	هوادس	هوداس
٤٢	١٣	الممتدة	الممتدة من	١٠٣	٢٠	٦٢٩	٦٢٨
٥٢	١٩	وخلف	وخلفه	١٠٩	٨	الكرك	الكرك
٥٨	٢٢	أمر	أسر	١٠٩	١٦	تبق	تبق
٥٩	١	إرشاد	إرشاء	١٠٩	٢١	صور في	صور و
٦١	٤٥	طفتسكين	طفتسكين	١١٠	٣	المقدس	المقدس (١)

صفحة	سطر	خطاً	صواب	صفحة	سطر	خطاً	صواب
١١١	٢٠	مخالفة	مخالفته	١٧٨	١٥	Ied	Ed.
١١٢	٥	وناشدته	وناشدنه	١٧٩	١٤	الظاهر	الظافر
١١٨	٦٠٥	يحيى بن إبراهيم	يحيى بن عمر	١٩٣	٢٥	Land	Laud.
١١٩	١٤	ولا يقف	ولم يقف	١٩٤	١٥	كثيرة	كثيراً
١٢٢	١٦	التار	الثار	١٩٤	٢٠	بذهاب في فلسطين	تخذف
١٢٣	٨	ليورقة	ليورقة	١٩٦	٥	لأن	وأن
١٢٣	٢٠	مالقة	مالقة	١٩٦	١٠	أمره	أمره (٢)
١٢٤	٩	المؤمنين	المسلمين	١٩٦	٢٣	للطواشي	الطواشي
١٣٣	١٩	في النصف	وفي النصف	١٩٦	١٥٧	١٤٧	
١٣٣	١٥	Pool	Poole	٢٠٥	١٥٧	٧٩	
١٣٥	١٨	١١٢٣	١٢٣١	٢٠٧	١٩	يعز	يعز
١٣٧	١	أوتك	أونك	٢٠٨	١١	ثقة	ثفته
١٣٨	٨	بعث إليه	بعث إليه السلطان	٢٠٨	١٣	البطاني	البطاني
١٣٩	١٧	بلاد	في بلاد	٢٠٨	٢٥	اليمين	اليمين
١٤٠	٦	أربعون	أربعون ألفاً	٢١١	٢	نارلا	تادلا
١٥٩	١	يعقوبا	يعقوبا	٢١٣	١٦	ابن	بن
١٦١	١٥	Strang	Strange	٢١٤	٧	عبد النبي	عبد النبي بن محمد بن علي
١٦٢	٦	الشيوعيون	الشيوعيون	٢٢٠	٤	وحب	وحسن
١٦٤	٩	ويتنقل	ويتنقل	٢٢٧	١٥	٥٥٩	٥٥٧
١٦٤	١٥٩	سوري	سوزي	٢٢٧	١٩	وخليفته	وخليفته
١٦٤	١٨	الكامل	تخذف	٢٢٨	١٢	يكشف	يكشف
١٧٦	٤	أهلها	أهلها (١)	٢٢٨	١٤	ويتولى	ويتولى
١٧٦	١٠	وتلقبه	وأن يلقبه	٢٢٩	٢٦	٤٨٩	٤٣٩
١٧٦	١٧	خوارزم	خوارزم شاه	٢٨٠	٥	يقامون	يقامون
١٧٦	١٨	خربل	خرميل	٢٨٠	١٩	داعب	داعيا
				٢٨٠	٢٦	author	authors

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٨١	٢٤	esoteric	esoterics	٣٨١	٧	والخالص	والخالص
٢٨١	٢٦	ولم يكون	تخذف	٣٨٣	٢٠	والكتاب	والكتاب
٢٨٢	١٧	الفارسي	الفاسي	٣٩١	١	السادس	السادس عشر
٢٨٣	١٦	قهدى	مهدى	٣٩٣	٢٥	الفدر	الفدر
٢٨٣	٢٢	ونفذتم	ونصرتم	٣٩٤	٩	والصليبين	والصليبين
٢٨٤	٩	يقرأ - نهر	يفرا - بنهر	٣٩٦	١٠	أو	إذ
٢٨٥	٨	وحت من حسن	وحس من حسن	٣٩٦	١٠	ركا كين. حياة	دكا كين... أحياء
٣٠٩	١٤	أمرأوها	أمرأوها سلطانهم	٣٩٦	١٧	النخ	الشمع
٣٠٩	٢٣	المعصم	المستعصم	٣٩٦	١٩	وانخذ	وانخذت
٣١١	١٠	يقدم	يقوم	٣٩٩	٦	والدرع	والدرع
٣١١	٢٦	الغربية	القرية	٤٠٥	٥	الأيلة	الأيلة
٣١٢	٢٠	الصنهاجين	الصنهاجين	٤٠٥	٩	المسيحيين	المسيحيين
٣١٣	١٨	رجلهم	رجلهم	٤٠٦	١٤	وأكثر	وأكثر
٣١٤	٣	لجأ	وإنما لجأ	٤٠٧	٢	القصر	القصر
٣١٤	١٦	يتعد	يتصد	٤٠٧	١٣	الحرارة	الحر
٣١٤	٢٢	على بن	على أن	٤٠٧	٢٠	تفرغ	تفرغ
٣١٦	١٣	أو	أن	٤٠٨	١٩	الفسطاط	الفسطاط
٣٢٢	١٧	غرايم	عزائم	٤٠٩	١	تقطع	تقطع
٣٢٣	٢٠	فقتلها	فقتلنها	٤١١	٣	المغاره	المغازه
٣٦٥	١٤	في	في المعارك الحربية فقد	٤١٢	٩	للمدينة	المدينة
٣٦٥	٢٠	طواد	طراد	٤١٢	١٧	حققت	خصصت
٣٦٦	٩	وجمع	وجميع	٤٢٠	٤	أثر كثير	أثر قيام كثير
٣٦٦	١٠	نشر	نشر	٤٢٢	٨	وبمعنى	بمعنى
٣٧١	١٣	لله حدين	للموحدين	٤٨٩	١٥	أوقات	أوقات
٣٧٢	١٩	موظف أخرى	موظفا آخر	٤٩٠	١٣	فذاك	فذاك
٣٧٣	١٩	المسائل	المسائل الشرعية	٤٩٢	٦	بنتم	بنتم
				٤٩٧	٣	حات	حات

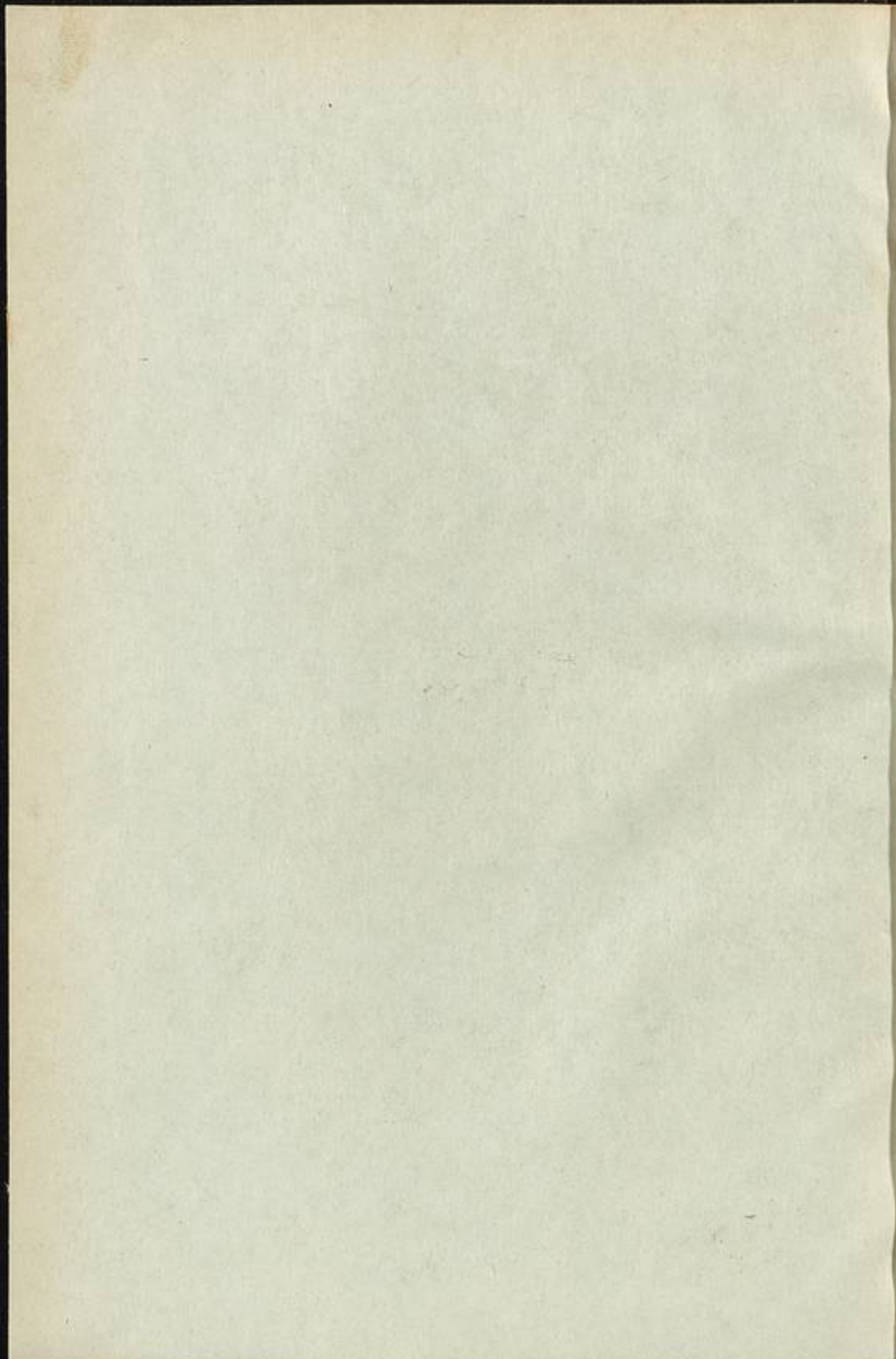
صواب	خطأ	سطر	صفحة	صواب	خطأ	سطر	صفحة
بأن	أن	١٦	٥١٥	ومن	ومن	٢٠	٤٩٧
انقسمت إلى	انقسمت	٢	٥٣٧	الحصرى	الحصر	١٨	٤٩٨
كتابه	كتابه	١٥	٥٨٧	لا ينقد	لا ينقد	٥	٥٠٢
٥٥٤١	٥٥٤٠	٧	٦٠٠	أبا نصر	أنا نصر	١٠	٥٠٢
محمد بن الحسن	محمد بن	٧	٦٣٦	المعاني	المعاني	٦	٥٠٥
بن عبد	عبد الكريم			Seldjoucides	Seldjouc- iies	٢٧	٥٠٨
بينها	بينهما	١١	٦٤٣	المنشودة	المنشورة	١٣	٥٠٨
البولو	اليولو	١	٦٥٥	المقرى	المقرى	٧	٥١٣
Silvestre	Silvester	٢١	٦٦٩				
Caliphs	Caliph	١٤	٦٧٠				



مطبعة السنة الحميدية

١٧ شارع شريف باشا الكبير - عابدين

ت ٩٠٦٠١٧



طبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير - عابدين
ت ٩٠٦٠١٧

